الحلل السندسية

في الأخبار والآثار الأندلسية

وهي مَعْلَمَةٌ أندلسيّة تحيط بكلّ ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي
وفقه الله لما يرضاه

الجزء الأول

١٣٥٥ هـ الطبعة الأولى ١٩٣٦ م

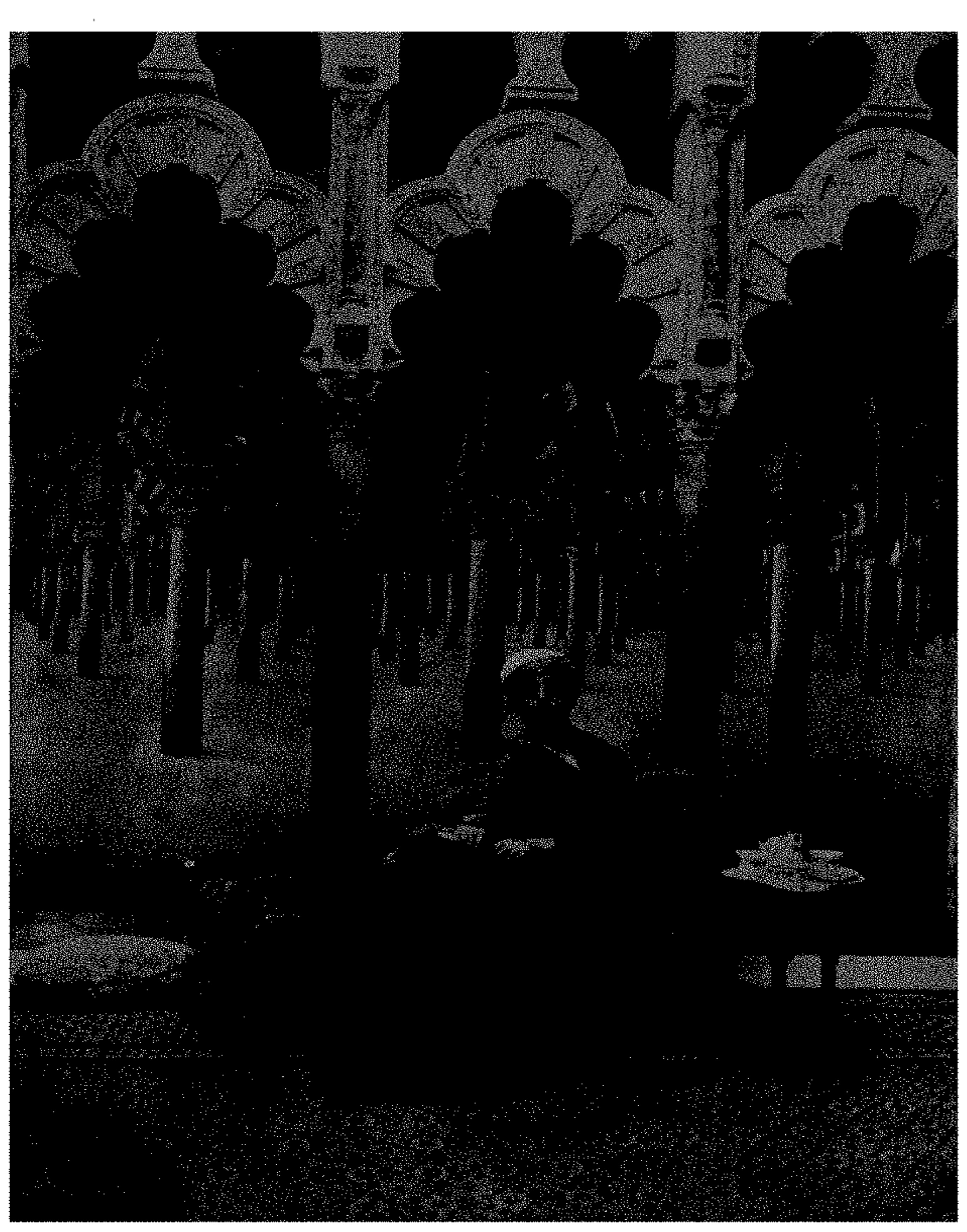
محمد المهدي الحبابي
صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس
وفروعها بالأقطار المغربية

المطبعة الرحمانية بمصر

الإهداء

هدية روحية من المؤلف إلى روح أبي المطرف
الخليفة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر
الأموى الذى يعجب به المؤلف أكثر
من كل خليفة حاشا الخلفاء الراشدين

المؤلف



صورة المؤلف أمام مسجد قرطبة

كلمة الناشر

نحمدك اللهم على ما يسّرت من الخير ، ونصلى ونسلم على عبدك ورسولك محمد الذى بعثته بالهدى ودين الحقّ وعلى آله الهداة ، وصحبه الذين أقاموا عمود الدين وتابعيه المجاهدين منهم والصابرين . وبعد ؛ فقد أدّى بى تقصى أنباء الذخائر من الكتب التى يمكن أن يرفعها ناشرها فى صحيفته ثوابا ، الى العلم بأن حارس لغة القرآن ، وفارس حلبة البيان ، الأمير شكيب أرسلان ، قد توّج دراسته لتاريخ الأندلس أربعين حولا برحلة رحاها إلى ذلك الفردوس المفقود استنفدت منه فترة من الزمن قضاها يسأل مجرّ العوالى فيها عن فاتحيها ، ومجرى السوابق فى أراضيها عن مالكيها ، ويستخبر آثارها عن الغابرين ، ومعاهدها عن الملوك السابقين ، ويسأل بقايا الملك فى رباعها يستنبىء عن كل درة من تاجها مواقع شعاعها ، ويستقصى أخبار ذلك الملك العريض الذى هوى ، والتاريخ الزاهر الذى فى ترابها انطوى ، وأنه — مد الله فى حياته المباركة — متوفر على تدوين رحلته وإتمام تحريرها فى عدة أجزاء لم تغادر من جغرافية ذلك الفردوس المفقود وأحواله وأطواره وأدوار حياته ، وصور ملوكه وأعلامه ، من قادة ووزراء ، صغيرا ولا كبيرا ، وهو أعلم معاصر بدقائق ذلك التاريخ ومكنون أسراره وخفى أخباره ، إلى ما عهد فى قلمه الكريم من دقائق التحقيقات التى لم تزده السنون الأربعون التى قضاها فى استيعابها إلا تضلعاً منها وإحاطة بها . وتفرداً فيها .

فسافرنا إلى جنيف حيث لقينا ذلك الأمير الجليل منذ ستة أشهر ، وأقمنا فى ضيافته بضعة أيام كانت من أكرم أيام العمر علينا ، وأحبها إلينا ، فقد لقينا منه لجيًّا ذاخراً بطريف المعلومات التاريخية وتليدها ، وعلماً واسعا بأخبار الدول السابقة وسير رجالاتها ، وحقائق حالاتها ، واطلاعا وافيا على فلسفة التاريخ وبخاصة التاريخ الاسلامى منه ، وأصبنا منه لطفا أنسانا مشقة السفر وتكاليفه . وقد تقدمنا إلى فضله

بطلب طبع هذه الرحلة فتفضل بأن أذن لنا مشكوراً ، ثم قفلنا من عنده ونحن نلهج بالثناء عليه ، ونوجه وفود الحمد إليه .

وقد جاءت تلك الرحلة أكبر موسوعة مصورة ، لتلك الدنيا المصغرة ، ودارت على مزايا وخصائص لم يعهد مثلها فى مثل هذا الكتاب

فقد أحاط أوفى إحاطة وأتمها وأدقها بتاريخ الدولة الاسلامية فى كل قطر من أقطار الأندلس وفى كل عصر ، وما كان بين بعض ملوكها وبعض من التنافس الذى نفذ الضعف من خلاله ، وأنه فيه أصبح إلماء بالخيرة الاسلامية فى تلك الجنة الأرضية التى هبط منها المسلمون هبوط آدم من الجنة ، وصور الحالة النفسية التى كانت تسيطر على الحكومة فى تلك الفترة من الزمن ، وعرض فيما بين ذلك كله روايات مؤرخى الفرنجة والعرب وجماعة المستشرقين قديماً وحديثاً فعارض بعض تلك الروايات بأسانيده الصحيحة ، وأثبت ونفى ، وخطأ وصوب ، وقد جمل شرحه وزاده بيانا بمجموعات كبيرة من صور ملوك القوط والأندلس . وآثار الحضارة الاسلامية بفنونها ومعاهدها ومشاهدها . وصور قادتها ووزرائها وبعض وقائعها ، ثم علل أسباب الضعف الذى سرى إلى الحكومة والحكام وأسهب فى ذلك حتى تخيل للقارىء أنه عاصر ذلك الزمن وشاهد بنفسه ما أثارته الإحن من الفتن .

فهذه الرحلة فى جملتها وتفصيلها تاريخ حى ماثل للعيان فى أسلوب رائع من البيان وهى أصدق مرجع لمن شاء من المحققين والمؤرخين . وهى قبل ذلك ، بعده المثل الأعلى فى التحقيق العلمى بأحدث الوسائل العصرية .

وان كل سطر منها ليثنى بنفسه جميلا على القلم الذى دبجه . والفكر الذى أخرجه

ويقيننا أننا بطبع هذه الموسوعة التاريخية النادرة المثال قد أضفنا إلى المكتبة العربية ذخراً من أنفس الذخائر . جزى الله الأمير جزاء الخير ، وخير الجزاء .

الناشر

محمد المهدى الحبابى

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا

الحمد لله قبلة الكلام ، والصلاة على رسول الله باب السلام ، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، شهادة تشفى الأوام ، وتقشع الظلام ، وتكون لنا العدة الواقية فى حشرجة الأنفس وسكرات الحمام ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، النبى العربى الأمى الذى كرّم بنى آدم بنعمة الاسلام ، وجنّبهم عبادة الأصنام ، وسنّمهم من التوحيد نعمة دائمة لا تَرِيمُ ، وذروة عالية لا ترام ، والذى نثر بدعوته يافوخ الشرك نثراً ليس له من بعده نظام ، النبى الذى تمخّض لظهوره الكون قبل أن تلج الأيام فى الليالى والليالى فى الأيام ، والرسول الذى بلغت به الرسالة أمدها الأقصى فانطوت من بعده الصحف السماوية وجفّت الأقلام ، إذ ليس وراء توحيد الله تعالى مذهب ولا بغير حبه تعالى هيام ، صلى الله عليه وسلم صلاة لباسها الدوام وشعارها اللزام ، وسلم سلاماً نفحه الرّند ونشره الخزام . ورضى الله عز وجل عن آله وأصحابه نجوم الهدى و بدور التمام ، وأنصاره الذين ألزمهم كلمة التقوى وكانوا بها أحق الأنام ، الذين أقبلوا على الأمم بالعقيدة الحق والأخلاق العظام ، وطلعوا بخيل الله على المشرق والمغرب بسهام غير خِطاء وسيوف غير كهام ، ونشروا علم الفرقان الذى فرقت له قلوب الطواغيت وخفقت من الخوف سائر الأعلام ، ففتحوا عذارى الممالك وأدركوا غرر الأمانى بشدة الحزم لا بشدة الحزام .

و بعد ، فإن من غرائز الجبلّة البشرية التى لا جدال فيها ، تذكُّر الحوادث

الماضية ، والتحدث بالوقائع الخالية ، والوقوف على الرسوم العافية ، والاعتناء بحفظ الغابر إلى الحد الذى جعل الناس ينقشون الأخبار على الأحجار ، و يز برون القصص على الجاد ، فضلا عن أن يكتبوها فى الأوراق و يحفظوها ضمن الأجلاد ، خشية عليها من الضياع بتقادم العهد ، وذهاباً بها عن النسيان بتطاول الدهر ، وذلك بما فطر الله عليه هذا النوع من حب الاشراف والاطلاع ، والغرام بالرواية والسماع ؛ و بأن الإنسان يجتهد أبداً أن يحفظ الماضى ، كما يجتهد أن يستدرك الآتى ، فحياته عبارة عن وصل آخر بأول ، ور بط ماض مع مستقبل ، وتعليل حديث بقديم ، فلهذا لا يبرح بين أثر دارس يقف عنده ، ورسم طامس يتعرّف خطبه ، وكتابة مطلوسة يفك حروفها ، وحكاية مأثورة يتندّس نصوصها ، تارة يعرضها على أصولها ، وطوراً يقيسها بشكولها ؛ وهو لا يزال يجمع بين قرائنها ، حتى يدرك مباديها و يفقه مغازيها ، وكم للانسان من سهر ليل ، و بذل غوال ، وأعمال حلّ وترحال ، وراء قصة مغلقة يستوحي حديثها ، وقضية مرْتَجَة يستوخي تحيثها ؟ وكم من واقعة مبهمة ينشد عند الخبير وغليف سرها ، ولدى القلم المسرى يجيثها ؟ سنة الله الذى أقام الناس عليها بإزاء أى علم وأمام أى سر ، لا يتقيّدون فيها بقريب دون بعيد ، ولا يقصرونه على حاضر دون غابر ، ولايختصون به موضعاً دون موضع : بل استشراف الأسرار ، واستشفاف الأستار ، وهما من لوازم الانسان أيًا كان متعلق العلم ومتساق الفكر . إلاّ أنه إذا تعلق بالآباء والأجداد كانت النفوس به أولع ، وإليه أنزع ؛ و إذا اتصل بالقرابات والكلالات ، أو انتسب إلى الديارات والمباءات ، كان الحنين إليه أعظم ، والتهافت عليه أسرع : فان المرء ليحرص على مآثر آبائه ، ما لا يحرص على مآثر سواهم ، و يعنى بالقصص وراء أصوله مالا يعنى وراء من تعداهم ؛ بل إن قسط همه من هذا الأمر هو على نسبة القرب والبعد ، و بمقدار الفصل والوصل .

وكل أمة من الأمم تدرس تواريخ البشر أجمع ، إلاّ أنها تجعل تاريخ سلفها هو العلم المقدّم ، والدرس المقدّس ، والبغية التى يجب أن تتوجه اليها خواطر ناشئتها ،

والغاية التي يتعين أن تُستحَثّ نحوها ركاب نابهيها ؛ لما في ذلك من وصل حديث بقديم ، وربط آخر بأول ، وإعادة فرع إلى أصل ، ورد عجز على صدر . فان كان الحاضر مماثلا الماضي ، والطريف غير مختلف عن التليد ، فمغزى التاريخ هو حفظ التسلسل ومنع التخلّف ، وحثّ الأخلاف على متابعة الأسلاف ، وبناء المجد سافاً من فوق ساف ، فان الأمم هي في تنازع بقاء لا يفتر ، وتزاحم وِرد لا يسكن ، وكل منها يبغي أن يحفظ كيانه ، ويوطد بنيانه ، ويحمي حقيقته ، ويخلّد سجيته . بل يحاول أن يتقدم عما كان ، وأن يطاول كل درجة إمكان . وإن كان الحالي مقصّراً عن الخالي ، وقد عادت البدور أهلّة ، وذهب المجد إلاّ أقلّه ، وصارت الأوساط أطرافاً ، واستحالت الأثواب أطماراً ، ولم يبق من تلك المعالي السوالف إلاّ أخبار وسِيَر ومَثُلات ، وذِكَر وحكايات ، يعتبر بها من اعتبر ، كان درس تاريخ السلف أحسن وسائل النشاط من المقال ، وأفضل حوافز الاستباق إلى الكمال ، ليقال للناشيء : هكذا كان آباؤك ، فأين إباؤك ؟ وهذا ما فعله أجدادك ، فأين جهادك ؟ وإذا كان هذا فَرِيّ آبائك ، فكيف ترضى أن تقصر عنهم ، وإذا رضيت بأن تقصر عنهم ، فقد يستبعد العقل أن تكون منهم . أيرضى أصحاب النفوس الأبيّة أن يقعدوا مع الخوالف ، وقد كان أوائلهم من السابقين الأُوَل ؟ أو أن يكونوا تابعين ، بعد أن كانوا متبوعين ، وأن يسودهم من كان لهم من جملة الخوَل ؟

فإذا كان علم التاريخ ضرورة من ضرورات البقاء ، فضلاً عن الارتقاء ؛ وشرطاً من شروط اللحاق ، فضلا عن السباق ؛ فأية أمة أجدر بمدارسته من هذه الأمة العربية ذات التاريخ الأمجد ، والسنام الأقعس ، والعرق الأنجب ، واللسان الأذرب ، والجهاد الذي شرّق وغرّب . أيام ملأت من الدهر مسمعَيْه ، وضربت كل جبّار في أخدعيه ، وفرضت الذِلّة على جماجم الأكاسرة ، وأطارت النُعَرة من معاطس القياصرة .

قوم ابتسلوا للموت نفوسهم ، فرفعوا في الحياة رؤوسهم ؛ يركبون من البر والبحر

كل غارب ، و يلتمسون بالجيش دار المحارب ؛ أحمت أنوفهم حياة القفر ، وأعزّت نفوسهم الرمال العُفر ؛ فكانت بلادهم عذارى تُخلف ظن كل فاتح ، وعقائل لا ينتهى إليها الطيف فضلاً عن الطائف .

ثم لما جاءهم الإسلام بعزائم القرآن ، وعزّز مافيهم من خيم كريم ، وطبع سليم ، بصلابة الإيمان ؛ اندفقت سيولهم من منابعها ، وخرجت سنابلهم من قنابعها ؛ وملكوا ما بين الصين وبحر الظلمات فى أقل من مائة عام ، وأتوا من الأعمال ما لو حدثوا أنفسهم به من قبل لقيل إنه من الأحلام . على أنهم لم يلبثوا بعد ذلك العز الأمنع ، والسناء الأسنع ، أن انصاعوا انصياع الكواكب عند انكدارها ، وأسرعوا إلى الهبوط سرعة المياه عند انحدارها . وذلك بتجردهم عما كان قد كساهم الإسلام من فضائل ، وأهبّ فيهم القرآن من عزائم ، و بسقوطهم فى مثل ما كان قد سقط فيه أعداؤهم من الأعاجم ؛ و بانغماسهم فى الشهوات البدنية ، وانصرافهم إلى السّفسافات الزمنية ؛ وولوعهم بالانتقاض على أمرائهم ، واشتغال الأمراء بأغراضهم وأهوائهم ، وتخلّف العلماء عن تقويم مُنآدهم ، وردعهم عن فسادهم . فمشى الفساد فى جَنَبَاتهم ، وطار الطيش بعَذَباتهم ، وتنازعوا ففلشت ريحهم ، وجاءت تبار يحهم ؛ وتنكروا ؛ حتى لو عُرضوا على السلف فى أجدائهم لجهلوهم ، وتغيروا ، حتى لو نُشِر الآباء وتلاقوا بأبنائهم لأهملوهم ؛ لجنوا من انقلاب أخلاقهم فقد خَلاقهم ، ونالوا من اعوجاج مسالكهم ، ضياع ممالكهم ؛ و بعد أن كانت أعنتهم ملء العرانين ، وحميتهم ملء الحيازيم ، صاروا يرضون بكل حطة ، و يسلكون من الهوان كل خطة ، وهووا عن صهوات ذلك المجد العظيم ، وأُخرجوا من جنّات وعيون وكنوز ومقامٍ كريم .

وكان من أنفس ما سدّدهم الله إلى فتحه ، وقيّض لهم بالجهاد الطويل وسائل ربحه ، هذه الجزيرة الأندلسية الخضراء ، الخطة العذراء ، والدرة الدهماء ، والبقعة الجامعة بين الشموس والأفياء ، الرافلة فى حلل موشية من حوك الأرض وطراز السماء ، فأتوها من كل فج ، بين محتسب ومكتسب ، وراغب فى الدنيا وماهد للآخرة ،

وساموا ولايتها بالنفقات الوجيمة ، والبطشات الذريعة ؛ والنفوس السائلة أنهارا ، والجماجم الطائرة أسرابا ، والجيش يتلو الجيش ، والبعث يردف البعث ، وما زالوا يغاورونها بخيلٍ لا تنحط لبُودها ، وفوارس لا تفارقها زرودها ، و يُريغونها من بين أيديها ومن خلفها ، وعن أيمانها وشمائلها ، إلى أن ذللوا أعرافها ، وألانوا أعطافها ؛ فخيّم الإسلام بعُقْرتها تخييم من أجمع الاعتمار ، وسكن إليها سكون من ألقى عصا التسيار ، وأمدتهم جزيرة العرب بأفلاذ أكبادها ، ورمت أعداءهم بأنجاد أجنادها ؛ وكانوا لولا العصبية بين القيسية واليمنية ، والخلاف على الخلافة بين الأموية والعباسية ، وما أُضيف إلى ذلك من ملاحم بين القبائل العربية والبربرية ؛ قد ألحقوا بالأندلس جميع الأرض الكبيرة ، وصارت لهم جوفيّ جبال البرانس أندلسات كثيرة ؛ ولكن اشتغالهم بفتنهم الداخلية ، وانهماكهم بمشاجراتهم العائلية ، و بقاء ما بقى فى طباعهم من حمية الجاهلية ، واستبدالهم ملوك الطوائف ، بجيوش الصوائف ، وحركات الفساد ، بحركات الجهاد ، ورضاهم عن تحمل الهزائم ، بدلا من تجريد العزائم ؛ كل ذلك أعاد تقدمهم تأخراً ، وردّ تجمعهم تبعثراً ، حتى صار عدوهم فى الجزيرة قسيما لهم مشاركا ، وخليطاً معهم مشابكا ؛ وكان هو لم يبقَ له من البلاد إلاّ الجبال والصخور ، ولم يملك إلاّ ما تركه له العرب من مسارح الغزلان وأوكار النسور ؛ وكانوا هم رتعوا فى كل روض نضير ، وملك كبير ، ومالوا إلى طعامٍ أنيق وفراش وثير ، وجرّروا من التيه مطارف سندس وحرير ، وأغرّتهم السعة بالدعة ، وأفضى بهم الرخاء إلى الارتخاء ، وأورثتهم رفاهية العيش قلّة الانتخاء . وشتان بين من ألِف الترف ومال إلى الهوى ، و بين من لزم الشظف وطوى على الطوى . ولله در من قال عن وقعة بطرنة بقرب بلنسية ، وقد مُحّص فيها المسلمون :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ حُللَ الحرير عليكمُ ألوانا
ما كان أقبحَهم وأحسنَكم بها لو لم يكن ببطرْنةٍ ما كانا

وهكذا لم يزل المخشوشن يفتك بالمتنعّم ، حتى دوّخه ؛ والمحروم يوقع بالمترف ، إلى

أن ريحه ؛ والشقاق مع ذلك بين المسلمين لا تنطفىء ناره ، ولا تنقطع أخباره ، والإصلاح بينهم تُخفق مساعيه ، والشر أبداً تجادَعُ أفاعيه ؛ لا ينجع في عقولهم البيغ نصح ، ولا يعوج بأسماعهم نذير خطب ؛ ولا يعوّلون على شاهد نقل ، ولا دليل عقل ، ولا يعتبرون بحلول بَثْق واقع على بثق . تنزل بهم كل هذه القوارع وهم في سكرتهم يعمهون ، ويقرأ عليهم الدهر كل يوم سورة الغاشية فلا يتدبرون ، ولا يسمعون ، و (يفتنون في كلّ عام مرةً أو مرّتين ثم لايتوبون، ولا هم يذّكّرون) وأخيراً تناثروا بِددا ، وتطايروا قِددا ، فكل بلدة دولة وأمير ، ومنبر وسرير ؛ وكل جار لجاره مناظر لا نظير ، يجور عليه ولا يجير ، ولا يغار عليه بل يُغير !

وتفرقوا شيعاً فكلُّ مدينةٍ فيها أمير المؤمنين ومنبرُ

وهم في أثناء هذا يتسابقون في ميدان الاستمانة ، بعضهم على بعض ، بالطاغية الذي يساومهم على المناصرة بتسليم الحصون ، وتعطيل الثغور ، والانهزام بلا سيف ، والرضى بكل حيف ، ويواطئون على حوزة الإسلام علنًا (ويأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا) والعدو كل يوم يتقدم ، وحوض الإسلام كل يوم يتهدم ؛ والخلاصة : ما زال يطغى وهم يخسرون ، ويمد وهم يجزرون ، ويطول وهم يقصرون ، إلى أن عادوا إلى علّ نكس ، وصوت خافت ، وباتوا – كما يقال – طوع كل شامت ؛ وتوقع كل عاقل الفاقرة الكبرى ، وأن من هو باق بسيف البحر ليس بثابت ؛ وما كانت إلا شفافة في إناء الأندلس أراد العدو أن يستصفي سُؤرها ، وبقية فيما وراء البحر صمم أن يقتلع جذرها ، وجاءهم ذلك حين لم يبق مرابطون ولا موحدون ، ولا أبطال يجاهدون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون ، بل حينما كل ملك بالعُدوة مشغول بسد فتوقه ، وحفظ حقوقه ؛ سعيد بأن يثبت في مكانه ، راض بأن يخلص من عادية جيرانه ، بل من عائلة إخوانه . فكيف يستطيع أن يركب البحر لينازل الطواغيت ، ويجمع من الاسلام ذلك الشمل الشتيت ؟ فأراد الله أن يتركهم وشأنهم ، وهو تعالى المحيي المميت . واستأسد بذلك العدوّ ، فلم يزل يواثبهم

و يكافحهم ، و ينازلهم القتال و يراوحهم ، حتى أجهضهم عن أماكنهم ، وجفلهم عن مساكنهم ، وأركبهم طبقاً عن طبق ، واستأصلهم بالقتل والأسر كيفما اتفق ؛ ورُدوا فى الحافرة ، وصاروا رهن هوى الأمة الظافرة . ومن اختار منهم الدجن انتقلوا تدريجاً إلى دين الطاغية ولسانه ، فخسروا الدنيا والآخرة ، وصاروا عبرة فى العالمين (وتلك الأيامُ نُداوِلُها بين الناس ، وليعلمَ الله الذين آمنوا و يتخذَ منكم شهداء ، واللهُ لا يحبُّ الظالمين)

نعم ؛ حواضر كالبحار الزاخرة ، كانت تموج بالبشر ؛ وحصون كالجبال الشامخة ، تحمى بالألوف وتكبو فيها جياد الفِكَر ، وجيوش كانت حصى الدهناء ، ورمال البطحاء ، ومساجد كانت فى الجمع المشهورة تغصُّ بألوف الألوف من المصلين ، ومدارس كانت مكتظة بالألوف من القراء والطالبين ، وما شئت من إسلام و إيمان ، وحديث وفرقان ، وأذان يملأ الآذان ، وما أردت من نحو ولغة وطب ، وحكمة ومعان و بيان ، بلاغة عربية عرباء ، يحرسها علماء كنجوم السماء [1] ؛ وما أردت من عيشٍ خضل

(١) قال العلامة دوزى المستشرق الكبير الهولاندى ، أوثق أوربى كتب عن الأندلس ، وذلك فى كتابه « مباحث عن تاريخ اسبانية وآدابها فى القرون الوسطى » Recherches sur l'histoire et la littérature de l'espagne pendant le moyen âge ما يلى :

« انهم كتبوا (يعنى الاسبانيول) تاريخ وطنهم الذى منه عدة مقاطعات تولاها العرب مدة ثمانية قرون ، وذلك بدون أن يعرفوا لغة العرب . ولما لم يكونوا قادرين على مراجعة الكتب العربية كان لا مناص لهم من الخبط عند كل خطوة كلما أرادوا الكلام عن الدول العربية أو عن الحرب والسلم بين المسيحيين ، ولهذا تجد كثيراً من الحقائق التى هى فى الدرجة القصوى من البال مجهولة عندهم مع أنها متعلقة بأخبار ممالك النصارى ، وذلك لأن هذه المعلومات لا توجد فى الكتب اللاتينية ولا الاسبانيولية بل فى كتب مؤرخى العرب وأدبائهم وشعرائهم ، لأن اسبانية المسلمة هى البلاد الاوربية التى فى القرون الوسطى كتب فيها أكثر من الجميع ، والتى كان فيها المذهب التاريخى أكمل وأدق منه فى أى مكان »

وزمن نضر ، وحَزَرات أنفس ، وضَحِكات قلوب . كل هذا عاد كهشيم المحتظِر ، كأن لم يغْنَ بالأمس ، ولم يبقَ منه إلاَّ آثار صوامت ، وأخبار تتناقلها الكتب ، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر ، ولا سمر فيها سامر . قال تعالى : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) .

وبقيت الأمة العربية تنوح على هذا الفردوس المفقود الذى هبط منه أهله بأعمالهم ، نحواً من أربعمئة عام ، نواح الثاكل لولده لا يريد أن ينسى مصابه ، ولا يفتأ يذكر فصاله : ولما كنت من حملة هذه الأمة الباكية على ذلك الفردوس الضائع ، أولعت من أوائل صباى بقراءة تاريخ الأندلس ، والتنقيب عن كل مايتعلق بالعرب فى تلك الجزيرة ، حتى إنى لما اطلعت على رواية « آخر بنى سراج » للكاتب الافرنسى الكبير « رينه دى شاتو بريان » بدرت بنقلها إلى العربية وذيلتها بتاريخ للأندلس نشرته من أربعين سنة ، ثم نفدت نُسَخُهُ بأجمعها ، فأعدت طبعه منذ إحدى عشرة سنة ، وقد قلت فى خاتمة كتابى ذلك مايناسب أن أعيده هنا ، زَعْياً لكون الغرض الذى حدانى يومئذ إلى نشر ذلك الملخّص ، هو نفس الغرض الذى يحدونى اليوم إلى نشر هذا المطوّل : فالروح التى أملت ذلك هى التى قد أملت هذا ، وكلامى الأول هو كلامى الآخر ، ولو كرّت الأيام وتعددت الأعوام ، قلت :

« ولا أكتم القارىء الذى هو خليق بأن لايخفى عليه ذلك بشفوف بصره ولطف حسّه ، أن الأمر غير حل فى هذا الإملاء ، من نزعة جنسية ، وحنوة عصبية ، وهفوة للفؤاد وراء آثار بنى الجلدة ، مماتستشعر فيه مرضاة هذه النفس ، العظيمة السر ، البعيدة مهوى الغرض ، الغريبة تشكل الضم ، وتوفر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلى ، السائح فى إثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها ، على ترجيح الأقرب فالأقرب ؛ وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه ، والميل للاتصال بأبناء أبيه ، فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التى هى جزء من هذا المجموع ، لما يُحِسُّ من أن أقرب أنواع الدم إلى دمه ، هو الجارى فى عروق قومه ؛ فهو يحنّ إليهم ويحنو

عليهم، و يتألم لألمهم، و يعتزّ بعزهم ؛ وتراه إذا غابت أشخاصهم استأنس بآثارهم بعد الأعيان، وارتاح إلى مواطنهم ورغب فى الدوس على مواطىء أقدامهم ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذى يصاب بعزيز أو بذى قرابة يختلف إلى قبره، و يشفى بالبكاء عنده حرارة صدره ؛ و إذا ظفر بقطعة من ملبوسه، أو مفروشه أو برقعة من خطه، احتفظ بها، وغالى فى قيمتها، وجعلها مدار أنسه، فى خلوات نفسه، ورَوْحَ حياته فى منتبذ مناجاته . و بناء على هذا الشعور أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين، وتطلعوا بغريزةٍ فيهم إلى معرفة سِيَرَ السالفين، ووقفوا على الأطلال الدوارس، و بكوا على الدمن البوالى، كأنما يجدّدون عندها عهودهم مع آبائهم، و يشدّون لديها معهم عروة وفائهم » .

إلى أن أقول : « فياليتنا نتبع الآن سنن من قبلنا، ونقتدى بسلفنا، ونبنى بناء أوائلنا، ونعتبر بحمراء غرناطتنا، وخضراء دمننا، ونتأمل فى سالف عزها، وسابق أمرها، ونتجنَّب الفرقة التى آلت إلى فقدها، ونسأل رسومها عما مضى من نَعيمها ؛ فهى رسوم إن لم تجبك حِواراً أجابتك اعتباراً ؛ فلا يكوننّ دائماً من شأننا أن نتباهى بمجد الأوائل ونفاخر بالعظم الرميم، دون أن نقتص أثر الآباء ونحيي ذكر القديم، ولا يبقى من نصيبنا فى المجد إلاّ حديث سمر، ومجرّد ذِكَر . وما أحسن ما قال شوقى شاعر العصر :

وذاتِ دلالٍ من بنى الروم حولها	إذا ما تبدّت إخوة سبعة مُردُ
عُنيت بهـا حتى التقينا فهزّها	فتىً عربىٌّ ملء بردته مجدُ
فقالت : أطِيبٌ بعد عسر وشدةٍ ؟	فقلت نعم مسكُ الأحاديث والندُّ
عطّلنا من النعمى وطُوّق غيرنا	تداولت الأيام وانتقل العقدُ
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها	ولـكنّ عن أغصانه رحل الوردُ

هذا، وكان الفراغ من كتابة هذا التاريخ، ليلة السبت الواقع فى السادس والعشرين من المحرم سنة خمس عشرة وثلثمائة بعد الألف » اهـ

فأنت ترى أن الكتاب الأول قد مضى عليه أربعون سنة ، وهى مدة تسمى عمراً ، ولقد سمعت من كثير من أعيان الأمة العربية أنهم قرءوا كتابى ذاك فى وقته ، وتتبعوا حوادث سقوط مملكة غرناطة وجلاء المسلمين الأخير عن الأندلس باهتمام عظيم ، ودمع سجيم . وقال لي بعضهم إنهم قرءوه مرتين ، وإن منهم من كان يبكى ، ومنهم من كان يتلهب وجداً ، ومنهم من كانت مهجته تذوب حسرة عند قراءته . وقد تضاعفت الآن هذه الذكرى ، وبعد مضى هذه السنين الأربعين ازداد الولوع بتاريخ الأندلس ، بازدياد الناشئة المقبلة على العلم ، وبنموّ الشعور العربى فى جميع طبقات هذا الشعب ، سواء منهم من فى الشرق ومن فى الغرب ، ولا يزال هذا الشعور فى نموّ ، وما برحت هذه الهمم فى سموّ ؛ ولا عجب فإن قوة الأمة هى على قدر ما مجّت من مشارب العلم ، وارتقت من درجات الثقافة الجم ، والأمة العربية فى هذه المدة قد اجتازت عقبات جياداً ، وقطعت أشواطاً طوالا ، وسارت السير النجاء ، وشمّرت التشمير الباعث على الرجاء : فأخذت تُحْفِى سؤال التاريخ عن ماضى أحوالها ؛ كما صرفت معظم بالها ، فى توطيد استقلالها .

ولهذا رأيت أنه من أمثل ما يمكننى أن أخدم به هذه الأمة ، قبل انصرافى من هذه الدنيا ، هو أن أهدى ناشئتها عن هذه القطعة النفيسة من تاريخها ، كتاباً شافياً للغليل ، جامعاً لأقطار هذا البحث ، ناظراً بين القديم والحادث ، مقابلا بين ما قاله العرب وما قاله الافرنج .

وكنت قدّمتُ بين يدى هذا التأليف رحلة قمت بها من ست سنوات فى أكثر أنحاء أسبانية ، لأقرن الرواية بالرؤية ، وأجعل القَدَم رِدْءا للقلم ، ونويت أن أجعل الرحلة أساس الكلام وواسطة النظام ، وأن أضم التاريخ اليها ، وأفرّع التخطيط عليها .

ومن أجل ذلك كنت نويت أن أسمي هذا الكتاب « بالحلة السندسية فى رحلة الأندلسية » وأشرت إلى هذا الاسم فى كتابى المنشور من سنتين ، الموسوم

« بغزوات العرب فى جنوبى فرنسة وشمالى إيطالية وفى سويسرة وجزائر البحر المتوسط » الذى عددته جزءاً من كتابى الأندلسى . إلا أنى رأيت فيما بعد أنَّ ما نحن بسبيله قد اتسع جدًّا عن الرحلة ، وأن الاسم قد ابتعد عن المسمَّى ، وأن الكتاب قد يقع فى عدة مجلدات كبار ، وقد يكون أوسع كتاب عربى كتب عن الأندلس ؛ هذا إذا فسح الله فى الأجل ، ووفق للعمل ، فعدلت إلى اسم آخر يشعر ما أنا متوخّيه من الإحاطة بقدر الطاقة ، وهو « الحلل السندسية ، فى الأخبار والآثار الأندلسية » وآليت لأبلغنّ فيه جُهَيْداى ، وأعقل به ما شرد عن سواى . ولم أقصد فى ذلك تنبُّلاً على الخلق ، ولا تزيُّداً فيما ليس بحق ، وإنما أردت النصح ما استطعت ، والتمحيص ما قدرت . والعلم أمانة ، من حملها فقد حمل إدًّا وتجشم بُهْراً . والتاريخ من عالجه فقد رقى حَزْناً ، وركب خشناً . فان كنت قرطست أو قاربت ، فقد بلغت من عملى المراد أو بعض المراد ؛ وإن كان سهمى قد طاش ، فكم فتى حامَ وما ورد ، وغنّى وما أطرب ، ولكن شفع له الاجتهاد .

ولقد سهرت فى هذا التأليف ليالي متمطيات بأصلابها ، تحقيقاً عن لفظ ، أو تنقيباً عن اسم ، أو ضبطاً لرواية مختلف فيها ، أو لعدد أقلّ فيه الواحد وأكثر الآخر ، أو تعييناً ليوم واقعة من أىّ شهر أو من أية سنة ، أو مقابلة بين ما قاله عربى وما قاله أوربى عن الحادثة الواحدة ، أو تعريباً لعَلَم اسبانيولى على الوجه الذى كان يقوله العرب ، أو تبييناً لعَلَم عربى كيف كان يتلفظ به الاسبانيول ، وما أشبه ذلك مما أذبت له سواد العيون ، وأحييت كثيرا من الليالى الجون . ولا أزعم مع ذلك أنى بلغت به الأمد الذى ينجيه من تعنت الحساد ، أو يمليه على تصفّح النقّاد ، ولكنى بلغت فيه الجهد ، وأبليت العذر ، ولم أبق فى القوس منزع ظفر .

ومما لا بد لى من الإشارة اليه فى هذه المقدمة أنى اخترت النقل عن المؤلفين ما استطعت ، لتكون هذه الموسوعة فى هذا الموضوع معرضاً للآراء ، ومجمعاً للأفكار التى يطلع منها القارىء على الصور المختلفة التى كانت عن مملكة العرب فى الأندلس ،

فى أذهان الذين عاشوا فى ذلك العصر وكتبوا عنه ، أو فى أذهان من كانوا على مقربة منه . ولم أشأ أن أصنع ما يصنعه الكثيرون من أخذ الشيء عن الآخرين وإبرازه للناس كأنه من ورى زنادهم ، وفيض قرائحهم ؛ فليس هذا مذهبي فى الكتابة ، ولا أراه الطريقة المثلى فى التأليف ؛ وإنما ينقل الانسان ما يستطيع الاتصال به من آراء الناس ورواياتهم ، ثم يشفعها برأيه الخاص ، وبالرواية التي يكون قد جزم هو بها ، أو رجحها على غيرها بحسب اجتهاده ؛ وله أن يستدل على صحة رأيه أو ثبوت روايته بما وجد من قرائن ، وآنس من شواهد ، وللقارىء بعد ذلك أن يذهب فى الترجيح والتجريح كيف شاء بحسب ما يؤديه اليه نظره .

وهكذا نقلت ما قدرت أن أعثر عليه من الفصول المتعلقة بالأندلس ، عن المسعودى ، وابن حوقل ، والمقدسى ، والشريف الادريسى ، وابن الأثير ، وياقوت الحموى ، وابن عذارى ، وابن بشكوال ، وابن عميرة ، وابن الأبّار ، وابن خلدون ، ولسان الدين بن الخطيب ، وصاعد الطيطلى ، والهمدانى ، والقلقشندى ، والمقّرى صاحب نفح الطيب ، وغيرهم من مؤلفى العرب : ونقلت أيضاً عن دوزى المستشرق الهولندي ، وعن رينو المستشرق الأفرنسى ، وعن أيزيدور الباجى ، وغيره من مؤلفى القرون الوسطى ، وعن أصحاب الانسيكلوبيدية الاسلامية ، وعن لاوي بروفنسال من المعاصرين ، وعن المسيوجوسه P. Gousset صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال ، وعن بديكر ، وعن بعض علماء الاسبانيول مثل سيمونه Simonet وكوندي Conde وعن ألبار دوسيركور صاحب تاريخ المدجّنين ، والموريسك Albert de Circourt وعن دو ماريليس de marlès وعن كتب أخرى اسبانيولية استعنت على ترجمتها ببعض أصحابى من الأسبان ، ومن غيرهم . وعزوت الروايات إلى أصحابها ، ونقلت كثيراً من الفصول بنصوصها ، أو تلخيصاً مع التعليق عليها في الحواشي بما يعن لى مخالفاً أو موافقاً .

وهناك اصطلاح آخر ، جرى عليه بعض مؤلفى الافرنجة ، وتابعهم فيه الشرقيون

وهو إرسال الكلام من عندهم فى الموضوع ، ثم الاستشهاد بأقوال الآخرين بادماج بعض الجمل المأخوذة عنهم ، وذلك فى صلب الكلام مع الاشارة فى الحاشية إلى مأخذ تلك الجمل ؛ ولست أرى في ذلك بأساً ، و إنما ألاحظ هنا أن المؤلف قد يكون له رأى خاص فى مسألة من المسائل ، فيهمه تأييد رأيه ، فينقّب فى الكتب على كل مايعزّز وجهة نظره ، وكلما وقع على جملة لمؤلف رأى فيها تقوية لنظريته نقلها دون سواها ، وأدمجها فى كلامه ، فربما جاءت بتراء لا يعرف ما تقدمها ولا ما تأخر عنها ، وربما جاء نقل تلك الجملة من قبيل « ولا تقربوا الصلاة » وحذف « وأنتم سكارى » فمن المعلوم أن الحكم لا يصح باعتبار جملة واحدة لمؤلف ، و إنما يصح باعتبار مجموع كلامه بعد تصفحه بحذافيره . وهذا الذى حدانى إلى نقل فصول بأصبارها ، أخذ المذِق بشماريخه ، ولو كان فى خلالها ما ليس عندى بثبت ، وما اضطررت أحياناً إلى رده .

و إتماماً للفائدة رأينا تزيين هذا الكتاب باطالس جغرافية ، محررة فيها أسماء البقع والمدن ، باللغة العربية ؛ ورصّعناه بتصاوير لم يسبق أن اطلع عليها العرب ، وذلك لأن التصوير بالريشة قد يفعل ما لا يفعله التصوير بالقلم ، ولأن الصورة المحسوسة فى العين هى أوقع من الصورة المجردة فى الذهن ، فما ظنُّك إذا كانت الواحدة رديفاً للأخرى ؟

ولما كان المقصود بهذا الكتاب التوسع فى الموضوع بقدر الطاقة ، قسمناه إلى قسمين : جغرافية وتاريخ . و بدأنا بالجغرافية لأنها سابقة للتاريخ ، ولم نقتصر فى الجغرافية على ما كانت عليه اسبانية فى أيام العرب أو فى القرون الوسطى ، غير ناظرين إلى أحوالها الجغرافية الحاضرة ، بل جمعنا القديم إلى الحديث ونظمنا بين الخالى والحالى وقرنّا ما كتبه العرب بما كتبه الافرنج ، و إن كنا لم نحب أن نملأ الكتاب بالأرقام والاحصائيات ، فى الكليات والجزئيات ، مما قد تمل الأنفس مطالعته .

وقد أدخلنا فى القسم الجغرافى ذكر من نبغ من أهل العلم فى كل بلد من البلدان التى ذكرناها ؛ ولم نحصر ذلك فى العرب ، بل تجاوزناه إلى الاسبان ، ولكننا استقصينا فى أسماء العرب بالبديهة ما لم نستقص فى أسماء أولئك ، واكتفينا من الأسبان بالمشاهير ، لأن قراءنا هم من العرب وغرضنا إنما هو تعريف ناشئة العرب بالأندلس العربية ، ولن يقرأ كتابنا من غير العرب إلاّ من شاء من المتخصصين . وقد كان مرادنا بادئ ذى بدء أن نسرد أسماء العلماء والأدباء المنسوبين إلى كل بلدة سرداً مجرداً من دون ترجمة ، ثم نرد تراجم أحوالهم إلى جزأين فى الآخر ، مخصصين بذلك الموضوع ؛ ولكننا رأينا فى ما بعد أن السرد المجرد لا يفيد شيئاً ولا يبلغ فى صدور القراء حاجة ، وأنه لابد من شدو شىء من ترجمة كل واحد منهم ، ومن تبيين العلم الذى كان متخصصاً به ، وذلك فى الأجزاء الأولى . و إن كنا عوّلنا على هذا الأسلوب فهو لايمنعنا من أن ننتخب من هؤلاء المترجين طبقة عبقرية وفئة ممتازة نكتب لهم فى الآخر سيراً ضافية ، إن شاء الله ، نأتى فيها بمختارات من أقوالهم وأنموذجات من نظمهم ونثرهم .

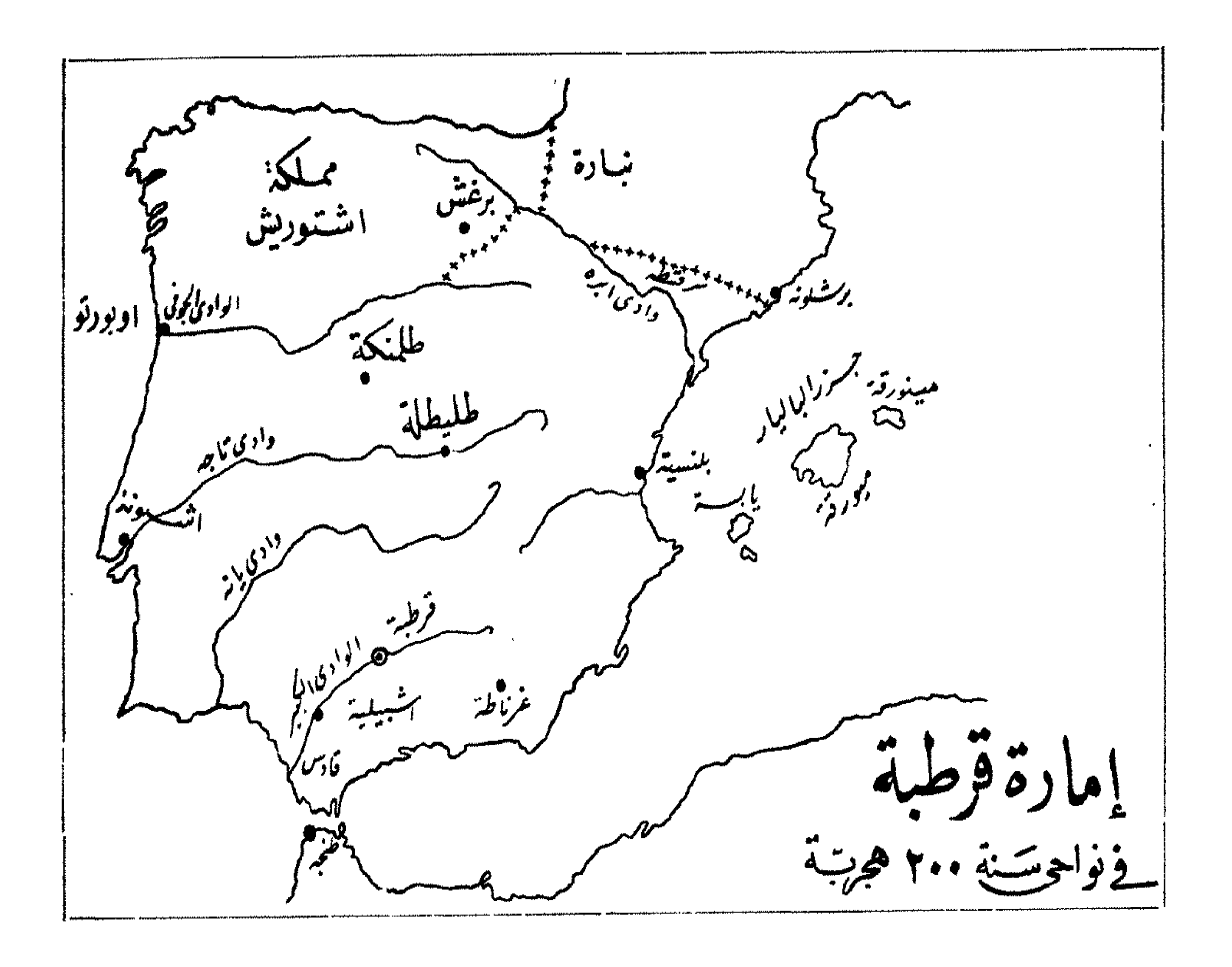
هذا ولقد أحببت أن أتوّج هذا الكتاب الذى تعبت فيه هذا التعب كله ، باسم أحد أمراء الاسلام وأقطاب الشرق ، الدين يتفق فى شأنهم الكلام ممن يملأ العيون والصدور ، ولا يكون الثناء عليه تنميق جمل وتشقيق ألفاظ ، بل يكون نفس فعله هوهو الهاتف بمدحه بدون منةٍ لقائل ، ولا فضلٍ لمنوّه ، وتكون سيرته الشخصية ومآثره المستمرة هى المخلّدة له فى الأعقاب وعلى طول الأحقاب ، و إذا رأى الناس اخترته لتتويج هذا الكتاب باسمه قالوا بأجمعهم : تالله لقد أحسن الاختيار وأتى الأمر من بابه ، وما أطرى ولا بالغ ، ولا تماق ولا داهن ، و إنما هو الحق الذى لا يجهله أحد . ولا يأتى على هذا الشرط عظيم من عظماء الاسلام قبل الأمير الكبير العلامة الخطير صاحب السمو الأمير عمر طوسون حفظ الله مهجته للاسلام والمسلمين وأمتع بطول حياته الشرق والشرقيين فقد أصبح هو فى هذا العصر أمين هذه الأمة

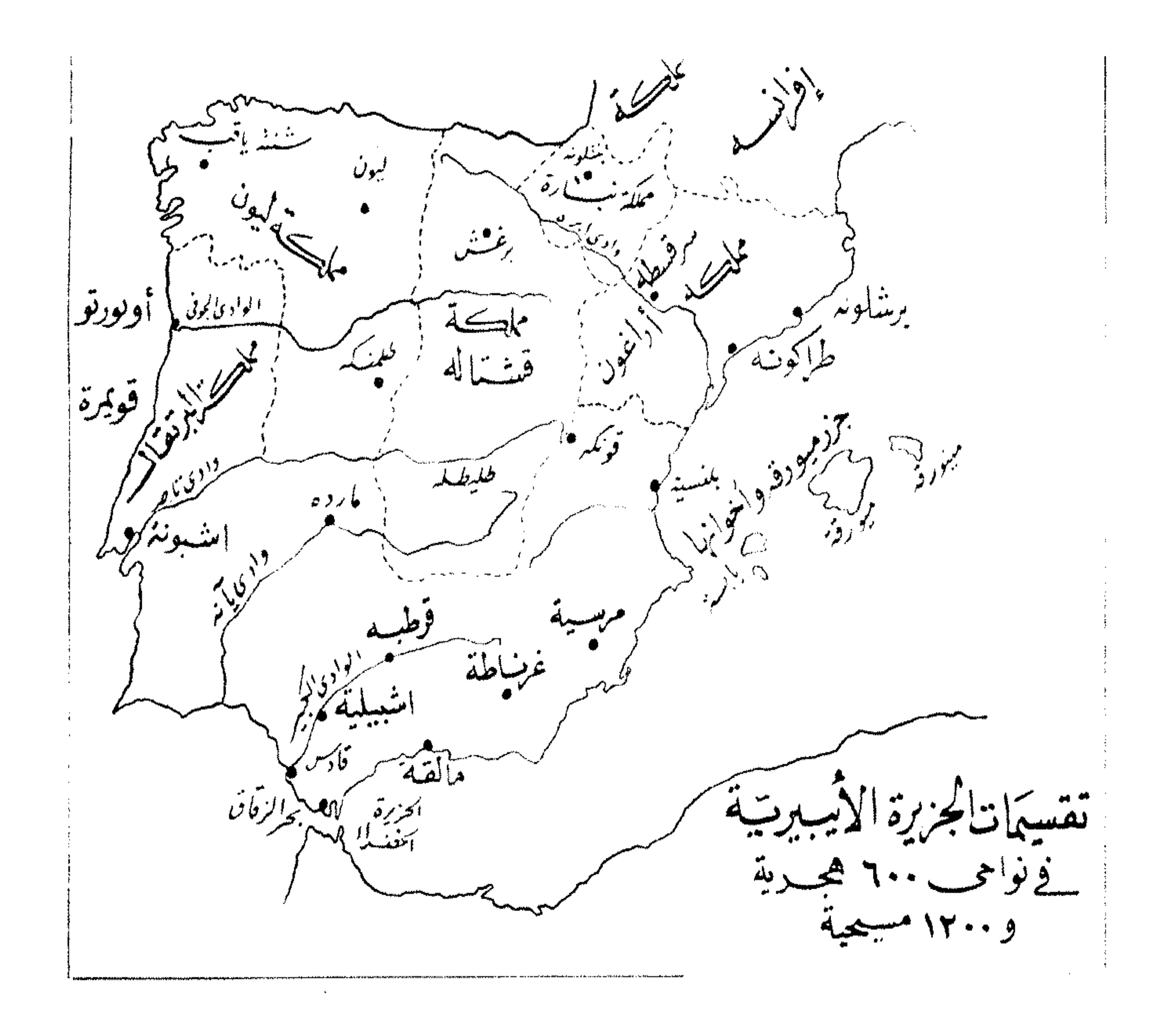
فى كل ملمّة ، ومفزعها فى كل مهمّة . و إليه ارتاحت جميع الضمائر، وعليه حامت جميع الخواطر ، وما من بَزْلاَء إلاّ وقد نهض بها يشار إليه بالبنان فى جميع أنحاء العالم الاسلامى لايعمل شيئاً مما يعمله رئاء ولا سمعة ولا ابتغاء شهرة ولا أمارة ، هو الذى يزينها وليس بالذى يتزين بها ، و إنما يعمل مايعمله ابتغاء وجه الله تعالى ، وخدمة لهذه الأمة التى أبى أن يكون من أعظم أمرائها نسباً وجلاء ، بدون أن يكون من أجل أمرائها علماً وعملا وَجَدَاء ، فكان قدوة لكل أمير لا يعرف العبث ، ولا يريد أن يضيع من عمره لحظة واحدة بدون فائدة للبشر . وما أقول هـذا عن متابعة للناس فى شأن هذا الأمير المنقطع النظير ، ولا عن روايات معنعنة ولا عن شهرة طائرة و إن كان التواتر يفيد اليقين و إن كان الناس أكيس من أن يجمعوا على مدح رجل إن لم يكن لذلك أهلا ، و إنما أقول ما أقوله عما خبرته بنفسى وشاهدته بعينى ، وتبادلت معه فيه الكتب المتصلة والرسائل المتواترة ، مدة تزيد على خمس وعشرين سنة ،من أيام الحرب الطرابلسية إلى الحرب البلقانية ، إلى الحرب الكبرى إلى جميع الخطوب والنوازل التى حلت بالاسلام من بعدها مما قيدت خلاصته فى ترجمة حياتى التى أوصيت بأن تنشر من بعدى ، واستودعتها مكتب المؤتمر الاسلامى فى بيت المقدس ، وكذلك مما سجلته فى تاريخ الدولة العثمانية الذى حررته تعليقاً على تاريخ العلامة ابن خلدون رحمه الله إجابة لطلب المتصدى لتجديد طبعه الحاج محمد المهدى الحبابى الفاسى وفقه الله ، ولست والله يعلم فى شىء مما قيدته من أعمال الأمير الأوحد عمر طوسون مد الله ، فى حياته بالذى وفاه إلا النزر الأقل مما يجب من حقه على هذه الأمة التى تعرف له من فضله عليها بقدر ما ينكر هو من ذاته ، ولست فى جعلى هذا الكتاب باسمه الكريم إلاّ الكاتب الذى عرف أن يسد ما نقصه من العلم و يتلافى ما فاته من براعة الانشاء بما وُفق إليه من معرفة الفضل وأُلهمه من براعة الاهداء .

ولأبدأ الآن بالموضوع مستمداً من الله الصواب والسداد (وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد) .

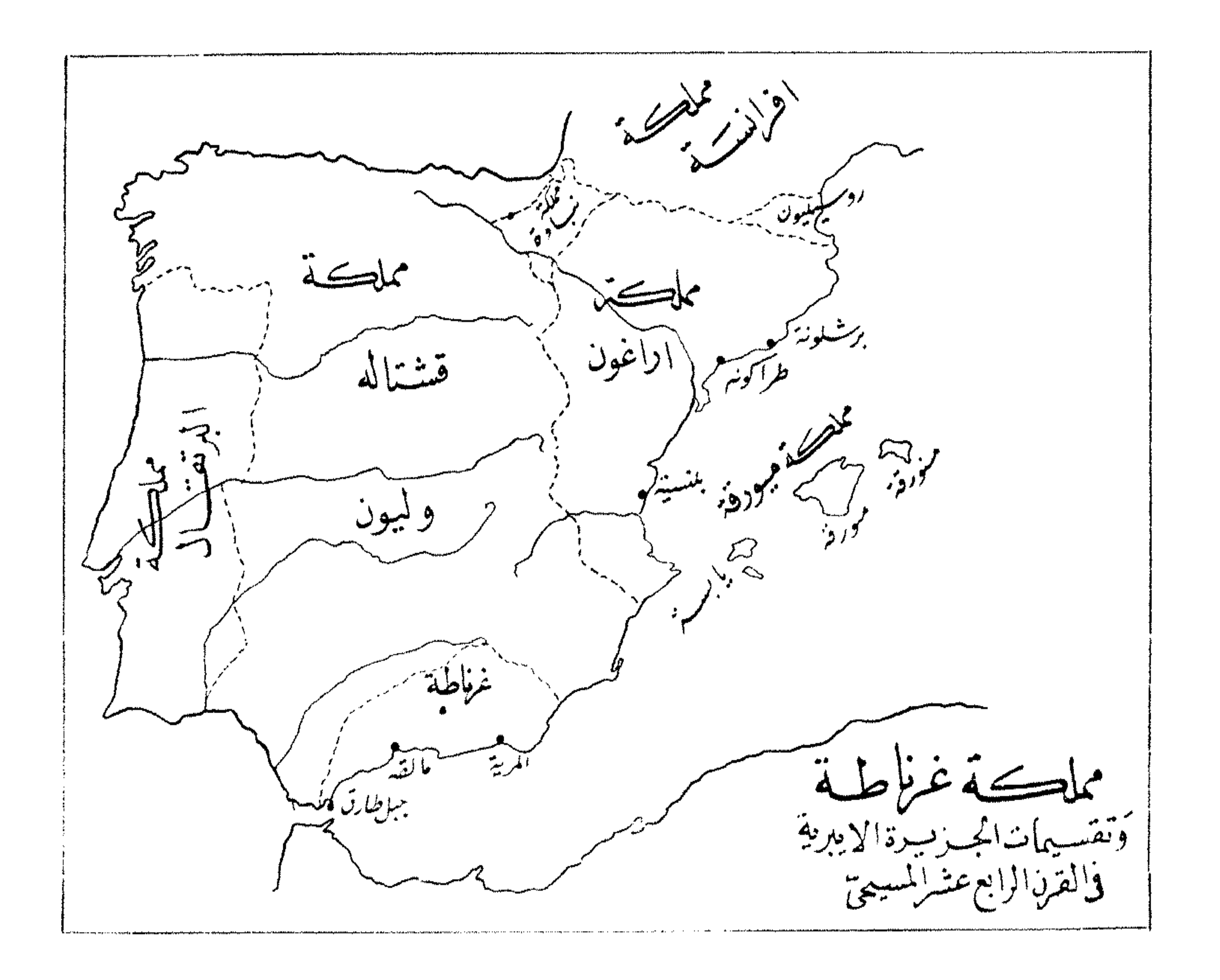
جنيف فى ٧ صفر الخير ١٣٥٥ — شكيب أرسلان




إمارة قرطبة
في نواحي سنة ٢٠٠ هجرية
مملكة اشتوريش
برغش
نبارة
سرقسطة
برشلونة
وادي ابره
الوادي الجوفي
اوبورتو
طلمنكة
طليطلة
وادي تاجه
اشبونة
وادي يانه
بلنسية
جزر البليار
ميورقة
مينورقة
يابسة
قرطبة
الوادي الكبير
اشبيلية
غرناطة
قادس
طنجة



تقسيمات الجزيرة الأيبيرية
في نواحي ٦٠٠ هجرية
و ١٢٠٠ مسيحية
مملكة ليون
ليون
شنت ياقب
برغش
مملكة نبارة
بنبلونة
مملكة
فرنسه
مملكة أرغون
سرقسطة
برشلونه
طركونه
مملكة قشتاله
طلمنكه
أوبورتو
قويمرة
مملكة البرتقال
الوادي الجوفي
وادي تاجه
اشبونه
ماردة
طليطلة
قونكه
بلنسية
جزر ميورقه واخواتها
ميورقه
منورقه
وادي آنه
قرطبه
مرسية
غرناطة
اشبيلية
الوادي الكبير
قادس
مالقة
بحر الزقاق
الجزيرة الخضراء


مملكة غرناطة
وتقسيمات الجزيرة الايبرية
في القرن الرابع عشر المسيحي
مملكة افرانسة
مملكة قشتاله
مملكة اراغون
وليون
البرتغال
غرناطة
روسيليون
برشلونة
طراكونة
بلنسية
مملكة ميورقة
منورقة
ميورقة
يابسة
المرية
مالقة
جبل طارق

لمحة عامة

من الأمثال المضروبة فى أوربة أن جبال البرانس — كما يقول العرب [١] — أو البيرانة Pyrénees كما يقول الأفرنج — هى الحد الفاصل بين أوربة وأفريقية . ويقولون : إذا تجاوزت معابر البيرانة فاعلم أنك قد دخلت فى أفريقية . وربما يستغرب القارىء هذا القول بعد علمه أن فى غرب البرانس (أو البيرانة) بلاداً طويلة عريضة هى من أكبر أقسام أوربة . تتألف منها مملكتان أوربيتان هما اسبانية والبرتغال فكيف يمكن أن تكون هذه البلاد من أفريقية ؟ وماالموجب ، ياليت شعري ! لضرب هذا المثل الذى قد يكون من باب المبالغة فى تشبيه أسبانية والبرتغال الضاربتين فى مناطق الجنوب بجاراتها سواحل أفريقية الشمالية ؟ والحقيقة أنه ليس فى هذا المثل شىء من المبالغة . أما من جهة الشجر والحجر والتراب والماء فان الجزيرة الايبيرية المنفصلة عن أوربة بجبال البرانس أشبه بشمالى أفريقية وبغربى آسية . ولقد جرّبت هذا الشعور بنفسى فور دخولى إلى أسبانية . إذ كان ذهابى إليها من طريق فرنسة أى من الشمال ، فما عبرت الحدود الواقعة بين فرنسة وإسبانية حتى خلت نفسى سائراً في سواحل الشام بلادى . فكيفما نظرت وقع نظرى على التين والزيتون والخرّوب والصنوبر والصبير وجميع الأشجار والنباتات الحرجيّة التى أعرفها فى بلادى ، مع وجوه الشبه الكثيرة فى منظر الأرضين ولون التراب وتحدُّر الغدران يحف بها القصب والخلفاء ، ومع حنين النواعير فى البقاع التى لا يصح لها الشرب من الغدران ، وغير ذلك مما يخيّل لك أنك فعلا فى سواحل سورية . ولا شك فى أن هذا التشابه بين البلادين هو الذى حدا عرب سورية على انتجاع الأندلس أكثر من أى بلاد سواها ، لأن الانسان يحب إذا تغرّب أن يقع فى أرض تشبه مسقط رأسه .

وكان الجغرافيون القدماء يقسمون الكرة الأرضية إلى مناطق سبع ، وبحسب

---

(١) وقد يقول لها العرب جبال البرتات

هذه المناطق تكون اسبانية وجزائر البحر المتوسط مثل سردانية وصقلية وكريت وقبرص ، وكذلك البلاد الشامية والعراقية ، منطقة واحدة . وقد شاهدت شمالى المغرب فرأيته لا يفترق عن جنوبى أسبانية . وكيف يختلف عنه وكل الفاصل بينهما مضيق لايتجاوز فى بعض الأماكن أكثر من مسافة ١٥ كيلو متراً ؛ وهذا الفاصل قد جرى الماء فيه حديثاً بالنسبة إلى الأدوار الجيولوجية . وأنت إذا نظرت إلى شكل الأرض فى الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، من جهة ، وإلى شكلها فى طنجة وجبل موسى وسبتة تجده واحداً ، فهى بقعة خرقها الماء من الأوقيانوس الاطلانطيقى إلى البحر المتوسط فجعلها شطرين ، ولكن لم ينزع من كل من الشطرين وحدته الطبيعية مع الآخر . وقد قيل لى : إنَّ فى برية جبل طارق نوعاً من القِرَدَة قديم الوجود فيها ، وهذا النوع نفسه يسكن فى جبل موسى المقابل لجبل طارق وذلك من جهة افريقية .

هذا من جهة الجغرافية الطبيعية . أما من جهة الجغرافية السياسية التى تتعلق بالسكان والممالك ، أو من الجهة الاتنوغرافية كما يقال ، فلا شك أن الاسبانيين والبرتغاليين وإن كانوا أوربيين فى سلالتهم فانهم لاختلاطهم بالعرب والبربر والأمم السامية مدة قرون متطاولة أصبحوا أمة وسطاً بين الغرب والشرق [1] . وإذا صح

(١) يذهب كثير من المؤرخين إلى أن الايبيريين الذين هم سكان أسبانية الأولون هم والبربر من أصل واحد . ويستدلون على ذلك بالتشابه بين عادات الفريقين . من ذلك ما رواه سترابون من أن المرأة كان لها المقام الأول عندهم إلى زمن الرومانيين وهذه العادة معروفة الآن عند الطوارق فى صحراء إفريقية . ثم إن السليتين جاءوا من أوربة الوسطى فاختلطوا بالايبيريين ، كما أن قرطاجنة أرسلت إلى أسبانية مهاجرين كثيرين من إفريقية ، وقبل قرطجنة كان الفينيقيون قد عمروها . فأنت ترى أن اسبانية ملتقى للعناصر الشرقية والغربية ، فمنها العناصر العربية التى تأتيها من شمالى البرانس ومنها العناصر الشرقية التى تأتيها من جنوبى بحر الزقاق .
ثم إنه طرأ على اسبانية جاليات يونانية نزلت فى أقسامها الشرقية ، وتلاها

الافتراض الذى يذهب إليه بعضهم من أن السلالة البيضاء هى التى انتقلت من على عُنُق الدهر من المغرب إلى أوربة لم يكن العرب هم أول من أجاز من إفريقية إلى الأندلس .

إن شبه الجزيرة الايبيرية لا يتصل بأوربة إلاّ ببرزخ ، هو جبال البرانس ، وهي جبال شهيرة متوسط ارتفاعها سبعمائة متر عن سطح البحر تتكسر على أذيالها

جاليات رومانية غلبت على جميعها . وفى أثناء ذلك دخلها العنصر السامى أيضاً بمجىء عدد كبير من اليهود .

وبعد أن تلاقى فيها الايبيريون والسليتون واللاتينيون واليونانيون من السلائل الأوربية ، والقرطاجنيون والفينيقيون واليهود من السلائل الأسيوية . طرأت على اسبانية أمم جرمانية مثل السويف والالانيين والفندالس والقوط الذين ملكوها وكانوا الطبقة السائدة فيها عند ما فتحها العرب .

ولما جاء العرب دخلها ملايين منهم ومن البربر . فاختلطت آسية وأفريقية بأوربة اختلاطاً شديداً . وصار الغالب على اسبانية هو المدنية الشرقية . ولا عبرة بما جرى من إجلاء العرب والبربر فيما بعد ، فان هؤلاء قد بقى منهم فى الجزيرة عدد كبير اندمجوا فى الأهالى فى جميع المقاطعات ودانوا بالنصرانية ولا يوجد فى اسبانية مكان يخلو منهم حتى أن القشتاليين الذين هم أقل أهل اسانية اختلاطاً بالعناصر الشرقية والذين يمثلون السلالة الايبيرية القديمة لا يخلون من عنصر دخيل من العرب والبربر .

وعلى وجه الاجمال السلالة الآرية هى الغالبة على القسم الشمالى الغربى من اسبانية ولذلك أجسامهم أقوى وعضلاتهم أصلب . ومنهم القشتاليون الذين يعدون أنفسهم محررى البلاد ، ففى أنوفهم نعرة شديدة . ومثل القشتاليين فى حمية الأنوف أهل أراغون وأهل مقاطعة مرسية . أما الكتلونيون فهم أهل صناعة وعمل . ولا يفترقون كثيراً عن أهل اللنفدوق فى جنوبى فرنسة لأنهم جيرانهم . وأما سكان الأندلس أى المقاطعات الجنوبية فيغلب على أهلها الذكاء والجمال والسرور وحب الترف ، وذلك لأنهم من بقايا العرب وممن كان اندمج فى العرب . اه تلخيصاً عن جوسه صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال .

أمواج البحر المتوسط من الشرق والاطلانطيقي من الغرب ، وقد حفرت المياه على منحدريها سواء من جهة الشرق أو من جهة الغرب مُسْلاناً لا تحصى وأنهارا تتدفق وجرّدت صخورها من التراب الذى لا يزال يجحف به السيل من عشرات الآلاف من السنين .

والجيولوجيون يقولون : إنه لو حصل خلل فى توازن قشرة الأرض الصلبة أدّى إلى اضطراب أعماق البحار لما أمكن أن تكون الجزيرة الايبيرية بمنجاة من هجوم البحر من جهة الوادى الكبير فى الجنوب وجون نهر « إبرُه Ebre » فى الشرق حيث أن طرطوشة ليست إلاّ على ارتفاع مترين فقط من مصب نهر « إبره » كما أن إشبيلية لا تعلو إلاّ عشرة أمتار عن الوادى الكبير . ولو قُدّر أن البحر ارتفع مائة متر عما هو الآن لضربت أمواجه حيطان قرطبة . ولو أن البحر انبسط على سهل اشبيلية لغمر أكثر سهول الأندلس ، ولم يقف إلاّ فى سفوح جبال مورينة ، sierra - morena بحيث يعود إلى التشكل ذلك البوغاز القديم الذى يسميه العلماء بالبوغاز البيتىّ D'étroit Bétique الذى كان يصل البحر المتوسط بالاوقيانوس فاصلا بين جبال إسبانية الوسطى وبين جبال شلير الثلج [1] sierra nevada التى يعدها العلماء من جبال أفريقية والتى ذروتها المسماة بقمّة مولاى الحسن تعلو عن البحر ٣٤٨١ مترا . وهذا قبل أن حصلت الهزّات الجيولوجية الكبرى التى نشأ عنها الخرق البحرى المسمى ببوغاز جبل طارق .

كذلك ضفاف نهر « ابره » كضفاف الوادى الكبير الذى كان القدماء يقولون له نهر « بتيس » هى تحت تهديد البحر الدائم ، وذلك بحسب درجة ما يمكن أن يرتفع . فاذا ارتفع بضع مئات من الأمتار فان بنبلونة من نبارة [2] Panpelune

---

(١) Sierra nevada معناها بالاسبانيولى المثلجة فالاسبانيون يعنون بقولهم Sierra nevada سلسلة جبال الثلج وأما العرب فكانوا يسمون سلسلة هذه الجبال شلير الثلج وكانوا يطلقون على مجموعها اسم الشارات أو الشرايا وهى تعريب للفظة Sierra مع الجمع

(٢) navarre

لا تعلو أكثر من أربعمائة متر ، ووشقه Huesca لا تعلو أكثر من ٤٦٦ متراً . وكذلك لاردة هي من هذه الأماكن التي قد تغمرها المياه ، وأهم من الجميع سرقسطة التي لا تعلو أكثر من مائتي متر وتطيلة التي علوها ٢٥٧ متراً

ولقد ثبت وجود مواد مالحة في أعماق هذه الأودية تدل على أن البحر لم يتقاص عنها إلا من عهد قريب بالنسبة للاعمار الجيولوجية . فقلعة الجزيرة الايبيرية في وجه البحار هي في الجنوب جبال مورينه وجبال البشرات وفي الشرق جبال البرانس . وأما في الشمال فهناك جبال قنطبرية[1] Cantabrique التي تعلو نحواً من الفين وخمسمائة متر ثم تنقطع دفعة واحدة فوق سواحل الاطلانطيك ، حيث تصادم البحر سلسلة صخور لاتنتهي إلا عند الوادي الكبير في الجنوب . وإلى الاطلانتيك تنحدر الأنهر الأربع « مينو Minho » و « دورو Duero »[2] و « تاجه Tage » « ووادي يانه Guadiana » ومنها « دورو » و « تاجه » قد حفرا أخاديد ضيقة في الأرض هي من العمق بحيث صارت فواصل طبيعية أبدية . ولاشك أنها لم تخل من تأثير في السياسة وأن لها يداً في فصل البرتغال عن أسبانية ، على حين أنه لا يوجد من جهة السكان فاصل بين الفريقين .

ثم أن القسم الأعلى من جبال اسبانية يقسم البلاد إلى قسمين : قشتالة القديمة ، وقشتالة الجديدة : ويقال لها وللبلاد ليون léon والاسترامادور Estramadure و«الميزيتا» meseta وهي أعالي اسبانية التي لولاها لدخل البحر على الجزيرة الايبيرية من جهات متعددة بارتفاع قليل ، والجبال عليها سافلها .

(١) الغالب على مؤلفي العرب أنهم كانوا يسمون هذه الجبال في شمالي اسبانية بجبال استورياس Asturias أو جبال جليقيه . وأما قنطبرية الأصلية فهي تمتد إلى الشمال الغربي حتى تلتق بالبرانس . والطرف الشمالي الممتد من بلدة الفارو le Ferrol إلى بيونة Bayonne على الساحل يقال له جبال « شيبة » .

(٢) يسميه العرب « بالوادي الجوفي »

ثم إن الفاصل بين القشتالتين les deux Castilles سلسلة أهاضيب يقال لها شارات وادي الرمل ، لـكثرة رملها ، والاسبانيول حرفوا «الرمل» فجعلوها «الرامه» فهم يقولون « وادى الرامه » وهو التوجيه الأرجح Guadarrama وسلسلة أخرى يقال لها هضاب « غريدوس » Sierra de Gredos وهى متصلة بسلسة مثلها من جهة الغرب يقال لها شارات « غاتا » والشارات البرتغالية التي يقال لها « استريلاً » Estrella كما أنها متصلة من جهة الشرق بنشوذ « شوريه » Seoria ومرتفعات « ديمنده » Demanda على نهر « ابره »

ولما كانت هضاب وادى الرمل عارية من الشجر الذى من طبيعته أنه يمسك الأرضين ، فقد تفككت أجزاؤها بحرارة شمس القيظ وبرودة جلد الشتاء ، وتكوّن منها كُتَل كثيرة لاسيما فى الجنوب حيث هى البلاد التى يعبر عنها بقشتالة الجديدة . وأن هذه الشارات التى فى وسط اسبانية هى التى تنحدر منها مياه وادى « الدوره » Duero الذى يجرى فى قشتالة القديمة ومياه النهرين الشقيقين « تاجه » Tage و وادى « يانه » Guadiana [1] اللذين يتحيفان فى جريهما جبال طليطلة Tolède وهضاب « وادى لبّ » Guadalupe و يخترقان البلاد إلى البرتغال ، إلا أن أحدهما « تاجه » ينصب فى خليج « اشبونة » Lisbonne والآخر يلتوى عن مجراه المستقيم قاصداً إلى الجنوب ، بدلا من الغرب ، فينصبّ بحذاء « بطايوس » Badajoz بقرب خليج قادس cadix

وغير بعيد عن مصب وادى يانه ، ينصبُّ الوادى الكبير Guadilquivir الذى ينبع من الجبال الوسطى فى اسبانية . ولـكن انصباب الأنهار من جهة البحر

(١) فى أسبانية نهران بهذا الاسم أحدهما يسير من شلير الثلج nevada ويمر ببلدة وادى آش guadis فى الجنوب والثانى الذى نذكره الآن يمر ببلاد البرتغال ويتصب فى البحر المحيط

المتوسط فى القسم الجنوبى من اسبانية هو قليل ، نظراً لاشراف شلير الثالج على البحر يتدلّى إليه بدون فاصل ، فلا تـكاد تجد الجداول مجالا للجرى . وذلك مثل وادى مالقة Guadalhorce ونهر المرية ونهر شنقورينه المشتق من نهر شقر Seegur والنهر المسمى بوادى الأبيار وادى بلنسية Guadalaviar وغيرها

و يندر فى الدنيا وجود ساحل مضرَّس مشقَّق تشقُّق هـذا الساحل الذى هو شاطىء البحر المتوسط من اسبانية وهو معهد زلازل وموقد حركات بركانية لم تنطفىء وآثار ذلك بارزة فى الشقوق الهائلة التى تتخلّله من جبل طارق جنوباً ، إلى كتلونية شمالا ، وأعظمها الشق الذى ينحدر منه نهر « ابره » إلى البحر . و يرجح العلماء أن الهزاهز البركانية هى التى فصلت جزيرة ميورقة عن راس « ناو » nao وأن ميورقة نفسها . إن هى وأخواتها ميورقة و يابسـة إلاَّ حلقات من سلسلة كان من جملتها قورسيكا وسردانية .

و يظهر أن الزلازل البركانية التى شقَّت بوغاز جبل طارق ، وفصلت هذا الجبل عن أمّه افريقية ، وجعلته من أوربة ، وأقامت وأقعدت أركان شاير الثالج ، وفتحت فى ساحل اسبانية الشرقى فجاجاً ، وأحدثت فوق كثير من أقسام ذلك الساحل لججاً وأمواجاً ، لم تنقطع حركتها بالمرة ولا سكن تموجها ؛ فانه لا يزال هذا الشاطىء فى قلق إلى يومنا هذا . وكل يعلم أنه فى ٢ دسمبر سنة ١٨٨٤ وقعت زلزلة عظيمة كان معظم شدتها فى مالقة وغرناطة ونواحيهما ، وذهبت طائفة من العلماء حينئذ إلى هناك وحققوا منطقة الزلزال فوجدوا أنها لم تتجاوز اسبانية السفلى ، وأنها وقفت فى حذاء شارات مورنيا فكان الحاجز الذى صـدَّ الزلازل عن شمول اسبانية العليا هو شفير « الميزيتا » meseta الايبيرية . وهكذا رجعت من أمام هـذا الحاجز إلى الوراء تصديقاً لقوله تعالى (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم)

ولا تشتد الزلازل فى اشبيلية وقرطبة شدتها فى هذا الساحل من جبل طارق إلى برشلونه ، بل إن شارات الثلج أوالجبال التى يقول لها العرب جبال شلير Solair

بالرغم من غلظ أعناقها وثبوت أركانها ، ليست بمنجاة تماماً من تأثير هذه الهزّات الأرضية ، يظهر لك ذلك من أودية غرناطة و وادى آش ولورقة والوادى المسمّى شانغورينة عند مُرسية . وتستمر آثار عمل الزلازل إلى بلنسية فبرشلونة فجيروندة من كتلونية .

وكثيراً ما تتجاور الشقوة مع السعادة ويسكن الخير مع الشر فى بيت واحد ، فان هذه المنطقة هي مع زلازلها أخصب بقاع اسبانية ، ناهيك بمرج غرناطة و بساتين مالقة وجنان مرسية ولورقة وغيضة نخيل ألش وحقول القنت ، وأخيراً غوطة بلنسية التى تضارع غوطة دمشق . و بالاختصار هذا الخط البديع الذى فوقه الماء وتحته النار والذى هو بين الشمس والأمطار قد بسقت فيه عظام الأشجار وتهدلت فوقها أصناف الثمار ، وهو لجيد الجزيرة الايبيرية كالعقد لجيد الحسناء بلا إنكار .

اسم الجزيرة الايبيرية

توخينا أن نطلق على أسبانية والبرتغال اسم « الجزيرة الايبيرية » لا لأنها فعلا جزيرة ، قد جزر البحر عنها من الجهات الأربع ، بل فراراً من تكرار جملة « شبه الجزيرة الايبيرية » ولقد كان العرب يسمون هذه البلاد بالجزيرة الاندلسية مع معرفتهم أيضاً بأنها شبه جزيرة وأنها متصلة بالأرض الكبيرة من ناحية جبال « البرتات » أو البرانس . وقد قالوا كذلك « جزيرة العرب » مع أنها محاطة بالبحر من جهات ثلاث لا غير مثل جزيرة الاندلس . هذا ولو ارتفع البحر المتوسط قليلا من جهة « أربونة » Narbone لغمر تلك البسائط إلى خليج « برديل » Bordeaux وصارت أسبانية والبرتغال جزيرة حقيقية

أما هذه النسبة وهى الايبيرية فهى نسبة إلى أمة قديمة يقال لها « الايبير » ibère كانت أقدم أمة عمرت تلك البلاد ، ولم يعرف قبلها هناك أمة أخرى . وجميع الذين أوطنوا هذه الجزيرة إنما جاءوا بعد أمة الايبير هذه .

اسم الجزيرة الأندلسية

أما الجزيرة الاندلسية التى كان العرب يسمون بها هذه البلاد فهى منسوبة إلى « الاندلس » وقد كثر الكلام فى أصل هذه اللفظة ، ولكن أرجح الأقوال أنها مشتقة من اسم « الفاندالس » وهم جيل من الناس كانوا يسكنون بين نهر « الاودر » oder ونهر « الفيستول » vistule فى شرقى المانية . ويقال إنهم من أصل جرمانى ، ويقال إن بعضهم من أصل سلافى أو صقلى كما تقول العرب . وهؤلاء الفاندالس زحفوا من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا بوغاز جبل طارق ، وذلك سنة ٤١١ قبل المسيح . ومن هناك أجازوا إلى افريقية . فلما عرفهم أهل افريقية أطلقوا اسمهم على البلاد التى جاءوهم منها، وسموا هذه البلاد بالاندلس . وقالوا إن عبورهم إلى المغرب كان من جهة « طريف » tarifa وقالوا بل من الجزيرة الخضراء .

وجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية فى الجزء الأول صفحة ٣٥٤ بقلم سيبولد Seybold أن الفاندالس لم يقيموا فى جنوبى اسبانية إلا ثمانى عشرة سنة لاغير ، وأن بلاد جنوبى اسبانية كان يقال لها إلى ذلك الوقت «باتيكه » Betique فصار يقال لها « فاندالسيا » ومنها جاءت لفظة الأندلس ، ولما جاء العرب وفتحوا اسبانية أطلقوا عليها هذا الاسم وصاروا يقولون أندلس ، لا للبقعة الجنوبية المقابلة للمغرب فحسب ، بل لجميع الجزيرة الايبيرية ولجميع مافتحوه من البلدان بعد أن عبروا بوغاز جبل طارق . فالأندلس عند العرب هى من بحر الزقاق أو بوغاز جبل طارق . إلى جبال البرانس . وربما أطلقوا لفظة الأندلس على ماوراء البرانس من أرض الأفرنجة فاما الأسبان أنفسهم فكانوا لايعرفون هذا الاسم قبل العرب وكانوا يسمون البقاع الجنوبية من الجزيرة الايبيرية باسبانية القديمة ، كما كانوا يسمون شمالى اسبانية بأسمائها المختلفة مثل استورية التى كان العرب يقولون لها اشتورية أو اشتورياس ومثل ليون وقشتالة وأراغون الخ . ولكن بعد أن غلب العرب على تلك الأقطار

واشتهر اسم الاندلس عند الاسبانيول أنفسهم صاروا يطلقونه على جنوبى اسبانية ، لاسيما بعد أن بدأ العرب يتراجعون إلى الجنوب ، إلى أن انحصر هذا الاسم فى مملكة غرناطة الصغيرة . انتهى كلام الانسيكلوبيدية الاسلامية ملخصاً وقد نقل ذلك عنها المستشرق ليفى أو لاوى بروفنسال E. Levi - Provençal فى كتابه (اسبانية المسلمة فى القرن العاشر [1] المطبوع في باريز سنة ١٩٣٢)

قلنا أن هذا الاسم لا يزال يطلق إلى الآن على ولايات اسبانية الجنوبية ، مثل قرطبة واشبيلية وغرناطة ورُنده ومالقه وما جاورها . ولننظر الآن إلى ماقاله مؤرخو العرب فى أصل اشتقاق لفظة الأندلس :

قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان : الأندلس يقال بضم الدال وفتحها وضم الدال ليس إلا ، وهى كلمة عجمية لم يستعملها العرب فى القديم وإنما عرفتها العرب في الاسلام وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام . وقد استعمل حذفها فى شعر ينسب إلى بعض العرب فقال عند ذلك :

سألت القوم عن أَنَسٍ فقالوا بأندَلس وأندَلسٌ بعيد

ثم أخذ ياقوت يبحث فى بناء لفظة أندلس ومكانها من الأوزان العربية وكيف أنه لايوجد لها وزن فى هذه اللغة ، بحثاً ليس له طائل ، لأن هذه اللفظة هى أعجمية من أصلها كما قال هو فلا حاجة لعرضها على وزن عربي . ولم يقل ياقوت مصدر هذه اللفظة كما ذكر غيره ، ولكن نقل المقرى فى نفح الطيب عن ابن سعيد أنها إنما سمّيت بالأندلس لأن هذا الاسم هو اسم ابن طوبال بن يافث بن نوح الذى نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها وإليه تنسب مدينة سبتة (؟) قال : وقال ابن غالب : إنه أندلس بن يافث والله تعالى أعلم .

وقال القلقشندى في صبح الأعشى الجزء الخامس : وقد اختلف فى سبب تسمية الاندلس بهذا الاسم ، فقيل ملكته أمة بعد الطوفان يقال لها الاندلش بالشين المعجمة

[1] L'espagne musulmane au xéme siécle

فسمي بهم ، ثم عرب بالسين المهملة . وقيل خرج من رومة ثلاثة طوالع فى زمن الروم يقال لأحدهم القندلش بالقاف فى أوله و بالشين المعجمة فى آخره ، فنزل القندلش هذه الأرض فعرفت به ثم عربت بابدال القاف همزة والشين المعجمة سيناً مهملة . و يقال أن اسمها في القديم « آفارية [1] ثم سميت « باطقه » ثم أشبانية [2] ثم الاندلس باسم الأمة المذكورة . قال فى تقويم البلدان : وسميت جزيرة لاحاطة البحر بها من الشرق والغرب والجنوب و إن كان جانبه الشمالى متصلا بالبر

(١) لا نعرف ما دا أراد القلقشندى بهذه اللفظة « آفاريه » وإن لم تكن محرفة أو مصحفة فيكون الأشبه بها أن تكون « آوريه » والحال أن بلاد الآفاريين هى فى شمال القوقاس . ثم إن الشعب الآفارى هو من أصل تركى زحف من الشرق إلى الغرب فى القرون الوسطى لكنه لم يتجاوز بوهيميا غربا ووقع بين السلاف من جهة والفرنج من جهة أخرى ثم اندمج فى الشعوب الأخرى لا سيما فى المجر

(٢) الايبريون السليون هم أقدم أمة فى غربى أوربة سكنت شبه الجزيرة الايبرية أى اسبانية والبرتغال الحاضرتين وقسما من بلاد الغال أى جنوبى فرنسة وبعض شمالى ايطالية . وقيل لاسبانية الخالية « ايبرية » نسبة اليهم ثم تحولت هذه اللفظة إلى « هيسبرية » بقلب الألف هاء Hesperie وهو اسم كان اليونانيون يسمون به شبه جزيرة ايطالية كما كان الرومانيون يسمون به شبه جزيرة إيبرية وبعد ذلك تحولت « هيسبرية » الى « هيسبانية » Hispanie ومنها صارت « اسبانية » Espagne والعرب كانوا يعرفون هذا الاسم إلا أنهم كانوا يجعلون السين شيناً

وهناك توجيه آخر لاسم اسبانية ، وهو أن اشبيليه كانت فى القدم مستعمرة ايبرية ، وكان يقال لها « هيسپاليس » Hispalis ولم تلبث أن صارت عاصمة « باتيكا » أى اسبانية الجنوبية ، فلا عجب أن اشتق اسم اسبانية من هيسباليس لأن اللام والنون كثيراً ما يحصل التبادل بينهما ولا ننس أن أصل البلاد التى يقال لها اسبانية هو الجنوب من اسبانية الحالية وأن اسم اسبانية لم يشمل شمالى الجزيرة الايبرية إلا حديثاً فلا يبعد أن يكون اسم اشبيلية القديم شمل البلاد التابعة لها ، وكثيراً ماتسمت المملكة باسم العاصمة .

وهذا التوجيه هو الذى ظهر لمحرر هذه السطور ولم أجده فى كتاب وقد كاشفت

ما قاله دوزى عن اشتقاق اسم الأندلس

لم يأت دوزى فى هذه المسألة بشىء جديد ، ففى كتابه المسمى « بمباحث عن تاريخ اسبانية وآدابها فى القرون الوسطى » المحرر بالافرنسية ، يقول : ان هذا الاسم كان يطلق على مقاطعة بتيكه وقد جعله العرب عاماً لجميع اسبانية ، فترجح أن لفظة اندلس مشتقة من الفندالس الذين قبل أن أجازوا إلى افريقية احتلوا جنوبى أسبانية . وهذا الرأى فى هذا الاشتقاق هو قديم ، لأنه قد رواه الرازي ورد عليه بأن مقام الفندالس فى جنوب أسبانية كان قصيراً جداً ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن أول من أطلق لفظ اندلس على مقاطعة بتيكة وعلى أسبانية كلها هم المسلمون ، فان مؤرخى شمالى أسبانية لا يعرفون هذا الاسم بل يسمون باسبانية Spania جميع البلاد التى كانت فى حوزة العرب . فاما مؤلفو العرب فيسمون البلاد بالاندلس ويذكرون وجه التسمية . وفى « أخبار مجموعة » يقول إن أندلس كان اسم الجزيرة التى نزل بها طريف ، ويقال لها جزيرة طريف من ذلك الوقت . وقال المؤرخ عريب : أن

به الأستاذ المدقق السيد محمد علال الفاسى من آل الجد وهو من ثقوب الذهن وأصالة الرأى وسعة الاطلاع بالمكان الذى يعرفه له كل من عرفه فأجابنى بما يلى :

إن المحدثين تكلموا عن مصدر اشتقاق هذا الاسم « اسبانية » فذهب بعضهم إلى أنه مأخوذ من لفظة « شافان » السامية ومعناها الأرنب وهو الحيوان المعروف قيل لأن الفينيقيين وجدوه بكثرة هناك . ويظن الآخرون أنها سميت « اسبانية » من لفظة « أزبانيا » وهى لفظة باسكية معناها « شاطىء » ونفسى تطمئن لهذا التعليل لأنه منطبق تماماً على حال الجزيرة وليس فيه تغير كبير . أما كونها سميت اسبانية باسم اشبيلية التى كانت تدعى « هيسباليس » فغير متعين لأنى أظن أن هذه اللفظة كانت من قبل ، أى بعد سقوط مملكة القرطاجنيين ، علماً على شبه الجزيرة كلها وأن اشبيلية كانت معروفة عند الفينيقيين باسم « سيفيلا » والرومان هم الذين أبقوا اسم المملكة على خصوص هذه المدينة اه فرأى السيد علال هو إذا اشتقاقها من ازبانيا بمعنى شاطىء والله أعلم .

طريفاً نزل قبالة طنجة في الاندلس التي يقال لها اليوم جزيرة طريف . إذاً أصل الاسم كان لذلك المحل لا للبلاد كلها ، وقد ذكر غريغوار التوري Grégore de tours ما يدل على أن اسم المكان الذي نزل فيه طريف كان طرادوكته Traducta وهو المكان الذي أجاز منه الفاندالس إلى افريقية فلما جاء البربر ونزلوا في هـذا المكان سموا باندلس كل البلاد وجاء طارق من بعده فكان هذا الاسم أصبح مستعملا

تخطيط الجزيرة الأندلسية

قال سيبولد في الانسيكلوبيدية الاسلامية : إن العرب لم يكونوا ليتخلصوا من المصور الجغرافي المعكوس المنحرف الذي وضعه بطليوس من قديم الزمان : فكانوا يصورون اسبانية بشكل مثلث غير منتظم . أطرافه هي : من الجنوب طريف ورأس مراكش ، ومن الشمال الشرقي رأس كريوس Creus ومرسى فندر fort-Vendres وفي الشمال الغربي بلاد فينستير Finistere وكذلك كانوا يصورون جميع الشواطيء الممتدة من طريف إلى كريوس أو بالأقل إلى طركونة وبرشلونة كأنها ثغور جنوبية كما تعلم ذلك من كتاب المراكشي . أما جبال البرانس فهي في تصورهم ثغور شرقية للاندلس ! ثم إنهم فيما بعد فهموا أن شرق الأندلس إنما هو سواحل بلنسية ومرسية وفهموا أن الحد الغربي هو الاقيانوس الاطلانتيكي الذي كانوا يقولون له بحر الظلمات أو البحر المظلم أو البحر المحيط الأعظم أو الاقيانوس أو القاموس أو البحر الغربي في مقابلة الشرقي الذي كانوا يقولون له البحر الرومي أو البحر الشامي أو المتوسط . وكان الحد الغربي للأندلس عندهم ممتدا من طريف إلى رأس « سان فنسان » Cap Saint - Vincent أو رأس « روكه » Roca عند أشبونة Sisbonne ومن هنالك يصير عندهم الحد الشمالي الذي يمتد وراء غاليسية Galice إلى جبال البرانس في بلاد « فونترابية » Fontarabie . وكانوا يقولون لجبال البرانس جبل البرتات أو الجبل الحاجز أو الفاصل ، ويسمون جبال قشتالة بجبل الشارات وجبال نيفاده

Nevada بجبل الثلج أو جبل شلير chulair (واصل هذه اللفظة هو سولوريوس (Solorius

ولهذا جميع الاطالس الجغرافية المتعلقة باسبانية العربية المنشورة إلى اليوم هي غير صحيحة ، سواء أطالس « سبرونر » و « منكه » Spruner et menka المطبوعة سنة ١٨٨٠ وأطالس دوريزين Draysen المطبوعة سنة ١٨٩٤ فى كتاب اوغست مولر المسمّى « بالإسلام فى الشرق والغرب» أو أطالس ستانلى لانبول Sane-Poole فى كتابه « العرب فى اسبانية » وكلها قد تناقلت الأغلاط الجغرافية من أيام « كازيرى » و « كوندى» و « سوزَة » و « جوبرت » و «غاينغوس» و «هامر» و « ملدن » وغيرهم ، حتى أن دوزى Dozy نفسه برغم مجهوداته الكثيرة لم يترك أثراً يذكر فى تصحيح جغرافية اسبانية ، وهو في ترجمته لكتاب الادريسى عن الاندلس والمغرب وتعليقه عليه لم يأت أيضاً بشىء من تصحيح الأغلاط التى وردت في نفس الأصل (١) نعم أنه فى تضاعيف كتبه عن الأندلس حقق بعض أماكن

(١) علق دوزى بعض ملاحظات على الادريسى ، إلا أن جل همه كان تحقيق الأعلام التى ذكرها الادريسى وذكر ما يقال لها بالاسبانيولية ، وقد رمى فقرطس فى جميع ما قاله إلا فى مواضع معدودة توقف فيها أو كان فى قوله نظر . وعلى كل حال فترجمته لكتاب الادريسى هى أحسن ترجمة ، وكفاها حسناً تصحيحه للاغلاط الفظيعة التى وقعت فى ترجمة « جوبر » Joubert وذهبت بالمعانى إلى أبعد ما يصل إليه التصور ومن أمثلة هذه الأغلاط أن الادريسى ذكر الروس فقال : إنهم يحلقون لحاهم ومنهم من يجمعها ويضفرها كاعراف الدواب . فوقع تصحيف فى « اعراف » جعلها « اعراب » فترجم جوبر ذلك بما يلى :
la réuniment et la tressent à la manière des Arabes de Douab
أى يجمعونها ويضفرونها على نسق اعراب بلاد دواب !

وجاء فى كلام الادريسى عن أحد الظالمين انه « مسخ » وهو فعل مبنى للمجهول فلم يفهم جوبر لفظة « مسخ » وظنها اسم علم وترجمها هكذا on dit que cést masth بدلا من أن يقول il fut métamorphosé ووقع جوبر فى اغلاط كثيرة من هذا

لا سيما فى مبحثه المسمّى « بملاحظات جغرافيـة على بعض مقاطعات الأندلس القديمة » وذلك فى كتابه المسمى « بالتنقيبات عن تاريخ اسبانية وآدابها »
Rechereches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne
ولا تتقدم جغرافية اسبانية العلمية فى كتابات « ساڤيدرا » Soavedra ولا « سيمونه » Simoner ولا « اغيلاز » Egilaz ولا « قديره » Codera ولا « باسه » Basser

وقد كان يجب جمع جميع ما تقدم من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع ، ونخلها نخلا دقيقاً ، مع طرح جميع المجازفات والأخطاء التى تراكمت من أيام كزيرى Caisri وكوندى Conde إلى أيام هامر Hamner وميرن Mehren فكما أن دوزى الكبير عندما كتب التاريخ المسمّى بتاريخ مسلمى اسبانية ترك جميع ما كان تقدم عنها من الكتابات ، وعدّها لغواً ، ورجع إلى المنابع العربية نفسها ؛ كذلك يجب العمل

الخط . أتينا بأمثلة منها استدلالا على خطل بعض المستشرقين . ولكن بعض هؤلاء تعقبوا جوبر هذا فى ترجمته السقيمة هذه . ومن هؤلاء « كاترمار » Quatremère ومنهم دوزى . إلا أن كاترمار وان أصاب فى أكثر ما تعقب به جوبر فقد أخطأ فى بعضه مثل أن أكثر خشب مسجد قرطبة هو من الصنوبر الطرطوشى . فذهب كاترمار إلى أن الطرطوشى هنا لا محل له وأنه قد يكون محرفاً عن لفظة « مرصوص » والحال أنه هو الصنوبر الطرطوشى المنسوب إلى طرطوشة tortose الموصوفة بجودة الصنوبر والتى فيها دار صنعة للسفن بسبب متانة خشب صنوبرها

وقد كانت ترجمة دوزى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عن نسخة مخطوطة فى مكتبة باريز . وأخرى فى مكتبة اكسفورد ، وفى كلتيهما أغلاط نسخ تحير دوزى وغير دوزى فى ردها إلى الأصل . وأما على وجه الاجمال فقد كان اجتهاد دوزى برغم بعض آرائه المتعسفة فيها مما أزاح الستار عن أكثر حقائق العلم بالأندلس سواء من جهة تاريخها أم من جهة جغرافيتها . وذلك فى نظر الأوربيين الذين لم يكونوا يعلمون عنها من قبله الا معلومات ناقصة وأخبارا مشوهة ولم تكن لهم عنها إلا آراء مشوبة بأهواء رجال الكنيسة

نفسه فى جغرافية هـذه البلاد . وهذا العمل يحتاج إلى مراجعة الـكتب اللاتينية والاسبانية والعربية نفسها . وذلك أنه و إن كان التعصب الأعمى ، بعد سقوط مملكة غرناطة ، قد أخنى على كنوز أدبية هى فوق كل تقدير ، ومحا كتباً ذهبت وأصبح لا يمكن إحياؤها ، فانه لابد أن يكون فى الشرق وفى شمالى أفريقية كتب عربية متعلقة بالأندلس يمكن الاستفادة ، جدُّ الاستفادة منهـا ؛ بل يجب جمع التآليف الجغرافية والتاريخية التى كتبها العرب ، من زمن ابن خورداذبه ، إلى اليعقوبى ، إلى المسعودى ، إلى ياقوت ، إلى المقرى الذى أخـذ عن مائة مصنّف ، هذا مع مراجعة كتب التراجم التى فيها نسبة العلماء الأندلسيين إلى بلدانهم مما تؤخذ منه معلومات جغرافية كثيرة أيضاً ، ومما يدل على انتشار العلم فى اسبانية العربية بصورة مدهشة . ومما لاشك فيـه أنه قبل كل شيء تلزم مراجعة المكتبة العربية الاسبانية Beblioteca Arabico - Hispana لقُديرة [١] التى هى عشرة مجلدات وفيها تراجم علماء الأندلس ، و إن كان مع الأسف فيها تحريف أسماء كثيرة من أسماء البلاد التى ينسب اليها أولئك العلماء . انتهى ملخصاً .

وقال لاوى بروفنسال في كتابه « أسبانية الاسلامية فى القرن العاشر » : إن جغرافيات العرب لم ترد فيها تفاصيل كافية شافية عن الانداس ، ونحن مضطرون أن نقتنع بالموجود بين أيدينا منها ، مثل كتاب الهمذانى الذى كتب فى حوالى سنة ٩١٠ مسيحية ، وكتاب الأصطخرى الذى تاريخه ٩٢١ مسيحية ، أى أوائل عهد عبد الرحمن الناصر ، وابن حوقل الذى أكمل جغرافيته سنة ٩٧٦ والمقدسى الذى كتب كتابه فى أحسن التقاسيم . بعد ابن حوقل ، فالاصطخرى ذكر أن أهم مدن

---

(١) Franciscus codera هو مستشرق أسبانى يقال إنه من سلالة عربية واسمه قديرة دليل على ذلك . وقد علمنا من الأستاذ القسيس آسين بالاسيوس Acin palacius المستشرق الاسبانيولى المعاصر الذى أثبت أن دانتى فى المهزله الالهية سرق رسالة الغفران للمعرى أن قديره هو أستاذه

الاندلس في أيامه كانت شنترين ، وجبل طارق . وطليطلة ، و وادى الحجارة ، و رية ، وفحص البلوط ، وقورية ، ومماردة . وقال : إن أهم الثغور لذلك العهد كانت ماردة ونفزة ووادى الحجارة وطليطلة . وأما المقدسي فأحصى ثمانى عشرة كورة للاندلس (سيأتى كلام المقدسى بحروفه نقلا عن الأصل)

أما محمد بن أحمد الرازى الاندلسى فله تاريخ وجغرافية للاندلس ، لا يوجد لها سوى ترجمة باللغة الاسبانية قشتالية ، عن ترجمة برتغالية ، عن الأصل العربى الذى كتب فى أوائل القرن الرابع عشر ، وقد أمر بهذه الترجمة إلى البرتغالية دنيس ملك البرتغال . وكتاب الرازى هـذا كان عمدة ياقوت الحموى عن الأندلس . و بحسب كلام الرازى كانت الأندلس إحدى وأربعين كورة : قرطبة ، وقبرة ، والبيرة ، وجيان ، وتدمير ، و بلنسية ، وطرطوشة ، وطرّاكونة ، ولاردة ، و بر باطانية ، ووشقة ، وتطيلة ، وسرقسطة ، و باروشه ، ومدينة سالم ، وشنتبرية ، وراقو بيل ، وزوريتة ، ووادى الحجارة ، وطليطلة ، واو بيط ، وفحص البلوط ، وقريش ، وماردة و بطليوس ، و بيجه ، واقشنو به ، وشنترين ، وقو يتره ، واكشيتانية ، واشبونة ، واشبيلية ، وقرمونة ، ومورون ، وشذونة ، والجزيرة ، وريّة ، واستجه ، ونا كرونه . وأما الادريسى الذى كتب جغرافيته فى القرن الثانى عشر فالاندلس عنده ستة وعشرون أقليما — وهو تقسيم جغرافى ليس سياسى ولا إدارى — وهذه الأقاليم هى : البحيرة ، وشذونة ، وحرف ، وقنبانية ، واشونه ، وريّة ، والبشرات ، و بجّانه ، والبيرة ، وفرّيرة ، وتدمير ، وقونسه ، وأرجيرة ، ومر بيطر ، والقواطم ، والفَلَجَه ، والبلالطة ، والفخر ، وقصر أبى دنيس ، والبلاط ، و بلاطة ، والشارات ، وأرنيده ، والزيتون ، والبرتات ، ومرمرية . قال : وقد رأينا أن الشاميين نزلوا فى البيرة ، وأن أهل الأردن نزلوا فى مالقة ، وأن أهل فلسطين نزلوا فى شذونة ، وأن أهل حمص نزلوا فى اشبيليه ، وأن أهل قنّسرين سكنوا جيّان ، وأن أهل مصر كانوا فى بيجة ومرسية ؛ فكانت هـذه المدن فى زمن الخلافة الأموية امصاراً . وأما سائر الكور

فتشكلت فيا بعد ، مثل كور الجنوب العربى وهى : موروں ، ولبلة ، وماردة ، وشنترين ، وتاكرونه ، وريّة ، وبجّانه ، أى رُندة ، ومالقة ، واطريّة . وسنة ٣٥٠ عند ما تولى الحكم المستنصر كانت الثغور خطاً منحنياً ماراً بالقسم الشمالى من الأندلس من شرقيه إلى الغرب ، يبتدئ من جنوبى برشلونة و يمتد شمالاً بغرب ، وذلك من عند بربشتر ووشقة ، ثم يتصل بوادى إبرُه شمالى تطيلة ، ثم يصعد من هذا الوادى إلى هارو ، ثم يعود فينحنى صوب الجنوب تابعاً مجرى الوادي الجوفى أى دويرُه ، إلى المحيط الاطلانتيكى بعد أن يمر بالمدن التالية : أشمه ، وسيمنكاس ، وزمُّوره ، ولاميغو ، و بورتُه . وأما المسعودى فيقول فى مروج الذهب الذى تاريخه سنة ٣٢٧ للهجرة : إن الثغر الشمالى يمتد من طرطوشة إلى افراغة إلى لاردة . انتهى وسيأتى كلام المسعودى بحروفه .

عدد سكان أسبانية

لا شك أن العصر الذى بلغت فيه أسبانية ذروة نموها هو العصر الرومانى ، فقد قيل أنه كان فيها أيام الرومان من ثلاثين إلى أربعين مليون نسمة . ولكن لم يوجد وثائق تاريخية تؤيد بلوغ أهالى الجزيرة الايبيرية هذا العدد . ثم أنها كانت فى نمو عظيم أيام العرب ، يستدل على ذلك بكثرة مدنها الحافلة لعهد العرب ، فقد كان فيها نحو من أربعين مدينة عربية ، ومنها قرطبة التى أحزر عدد سكانها بنحو من مليونى نسمة ، كما سيأتى الكلام فى هذا المبحث . إلا أنه مع الأسف لا يوجد عندنا وثائق يعرف منها بالضبط عدد المسلمين الذين كانوا فى أسبانية لعهد الناصر مثلا ولا عدد مجموع السكان من مسلمين ومسيحيين فى ذلك العصر

ومن باب الحزر والتخمين أقول إنه لا يمكن أن يكون عدد مسلمى الاندلس لعهد الناصر والمستنصر أقل من خمسة عشر مليوناً . ولما أجلى الاسبانيول المسلمين واليهود هبط عدد سكان أسبانيا ، لهذا السبب ولسبب آخر هو كشف اميركة التى هاجروا إليها ، هبوطاً عظيما . ففى سنة ١٥٩٤ كان عدد سكان أسبانية نيفاً وثمانية

ملايين ، ومضى على ذلك قرنان ولم يزدد عدد الأهالي أكثر من مليون واحد ، ففي سنة ١٧٦٨ كان في أسبانية تسعة ملايين ومائة وستون الفاً من السكان ، ثم ازداد هذا العدد في زمن آل بربون إلى عشرة ملايين ، وذلك في أوائل القرن الثامن عشر . وسنة ١٨٣٢ كانوا احد عشر مليوناً ، وسنة ١٨٤٩ كانوا ١٤ مليوناً ، وفي أوائل هذا القرن العشرين صاروا ٢١ مليوناً ، والآن هم ٢٢ مليوناً و٣٣٨ الفاً

ومعدل كثافة السكان بالنسبة إلى مساحة الأرض هو ٤٠ نسمة في الكيلو متر الواحد ، هذا بالتعديل المتوسط . وأسباب عدم تزايد السكان كما في الممالك الأخرى ، لا تنحصر في المهاجرة ، بل هناك أسباب أخرى ، مثل عدم التناسب في توزيع الأراضي ، ومثل فدح الضرائب ، ومثل التعامل بالربا . ومن جملة هذه الأسباب ندور الحراج والغابات . فالناس يرحلون إلى اميركة من الفقر ولا سيما من بلاد البشكونس ولاردة ووشقة وحيرونة . وأكثر الذين يرحلون من الجنوب هم أهالي المرية والقنت ، ففي السنة يرحل زهاء مائتي الف . وهم يرحلون إلى المكسيك والارجنتين وسائر أمريكا . ومنهم من يرحل إلى المغرب وإلى الجزائر . وفي عمالة وهران ١٧٥ الف اسبانيولي

أقوال العرب عن جغرافية الأندلس

قول ابن حوقل

قال ابن حوقل الذي خرج راحلا من مدينة السلام سنة ٣٣١ ، ووصف جميع ماشاهده : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر . إلى أسباب التملك الفاشية من أكثرهم ، ولما هم بها من رغد العيش وسعته وكثرته . يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم . ويساوي ملـكهم بقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره

وحال يخافه ، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها فى كل سنة مائتا الف دينار ، يكون ، عن صرف سبعة عشر بدينار ، ثلاثة آلاف الف درهم وأربعمائة الف درهم ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته واعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق . ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يدهم مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم و بعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا[1] عليهم السلام بمحلها فى نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها[2]

(١) فى النسخة التى عندنا من « المسالك والممالك » لابن حوقل وهى المطبوعة فى ليدن سنة ١٨٧٣ يقول : وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها فى نفسها الخ » وأما فى نفح الطيب نقلا عن ابن حوقل فيقول : « مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسها الخ »

(٢) كلام ابن حوقل هنا لا يقره عليه أحد من أهل العلم الذين أجمعوا على وصف أهل الأندلس بخلاف هذه الأوصاف التى ينبزهم ابن حوقل بها ، وأقروا بمكان أهل الأندلس من سعة العقول وعلو الهمم وشدة البأس وسائر المناقب التى بلغوا بها ذرى أحسن مدنية وجدت فى القرون الوسطى ، إلا خصلتين كانتا بدون شك سبب بوارهم احداهما كثرة الانتقاض على ملوكهم وحب الشقاق فيما بينهم ، والثانية شدة الانغماس فى الترف الذى أدى إلى رجحان عدوهم عليهم فى الحروب بما كان عليه من الخشونة والصبر على الشدائد ، والذى يظهر لنا أن ابن حوقل إنما أراد تصغير شأن أهل الأندلس يومئذ أغراء لبنى العباس ، وهو من أتباعهم بشن الغارة عليها وإعادتها إلى إلى حضن الخلافة العباسية ، فقال ما قال على سبيل الدعاية لا غير ، وإلا فان كثيراً مما قاله مخالف للمحسوس ومنقوض بالاجماع ، وقد نقل المقرى فى نفح الطيب عن ابن سعيد مكمل هذا الكتاب ما يلى :

لم أر بدأ من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدى فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ، ولسان الحال فى الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعرى إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة ، فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم

فأما مغرب هـذه الجزيرة ، فمن مدخل هذا الخليج المذكور [1] ومصب مائه

مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ ومن الذين حموها بيسالتهم من الأمم المتصلة بهم فى داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة فى نصرة الصليب؟ وإنى لأعجب منه إذ كان فى زمن قد دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة ، وعاثوا كل العيث فى بلاد الاسلام ، حيث الجمهور والقبة العظمى ، حتى أنهم دخلوا مدينة حلب . وما أدراك ، وفعلوا فيها مافعلوا وبلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك مما هو مسطور فى كتب التواريخ . ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام التى يتمكنون بها من بسائط بلادهم فيسبون ويأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء فى ذلك ، وقد يستعين به بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذى لا يطب ، وقد كانت جزيرة الأندلس فى ذلك الزمان بالضد من البلاد التى ترك وراء ظهره . وذلك موجود فى تاريخ ابن حيان وغيره اهـ

قلت : لم يقصد بن سعيد بما قاله عن تخاذل مسلمى الشام ، الحروب الصليبية المعهودة التى تجلت فيها هذه الحالة بعينها لأن ابن حوقل عاش قبل الحروب الصليبية بمائة وخمسين سنة ، وإنما قصد حروب الروم البيزنطيين التى كانت سجالا بينهم وبين المسلمين . وحادثة حلب هذه كانت سنة ٣٥١ أى فى عصر ابن حوقل ، وسبى الدمشق من حلب بضعة عشر ألف صبى وصبية وفعل الأفاعيل . ولكن المسلمين فى أمر التخاذل سواسية لاشرق منهم يقدر أن يندد بغرب ولا غرب يقدر أن يندد بشرق إلا من رحم ربك

(١) قوله المذكور يشير به إلى ما ورد له من كلام سابق عند ذكره لبلاد المغرب وذلك فى الصفحة ٧٣ من كتابه المسالك والممالك طبعة ليدن ، فان ابن حوقل يقول فى تلك الصفحة ما يلى : فأما ناحية البربر الذين بنواحى طنجة وأزيلة والبصرة وظاهر فاس فأكثرهم فى ضمن ولد ادريس بن عبد الله وهو ادريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام ، وهم فى غاية من طيب العيش ورفاهيته وخصبه ورخص الأسعار وطيب الأهوية والأغذية . وكانت حالهم فيما تقدم أزيد من هذه الحال صلاحاً . وفى وقتنا هذا فقد تدانت أحوالهم وصلحت أمورهم وعمر طريقهم . ولم يزل أهل هذا النسب منظوراً اليهم مرعية حقوقهم عند بنى أمية على سالف الدهر . وأدركت عبد الرحمن أبا المطرف بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان يحافظ عليهم مرة ويسوقهم بالعصا مرة لما كان تظاهر به أبو العيش من

عند البحر المحيط من نواحى « لبلة »(niebla) « وجبل العيون » (Gibraleon) آخذاً على « ألب » (Hielba) و « شلب » (Silves) إلى أن يتصل « بشنترة» (cintre) ذاهباً على « سمُورة » (Zamora) وليون (Léon) واربونة (narbonne) من بلاد جلّيقية [١] إلى أقاصى (بياض بالأصل) ومشرقها . فمن مشرق جلّيقية إلى الخليج الرومى على نواحى « سرقصّة » وضواحى « وسكة » [٢] وطرطوشة وجميع بلاد الافرنجية من جهة البر ، وجنوبها الخليج المذكور من تجاه جزيرة صقيلية إلى بلاد بلنسية ومرسية والمرية ومالقة والجزيرة إلى ركن البحر المحيط وأول أرضها المعمورة على الخليج الرومى ، فمن أشبيلية إلى طرطوشة وهى آخر المدن التى على البحر المتصلة ببلاد الافرنجة ، ومن جهة البر ببلاد (علجسكس) وهى بلاد حرب من النصارى ، ثم تتصل ببلد (بسكونَس) وهى أيضاً نصارى ، ثم ببلاد الجلالقة ، فتنتهى الاندلس إلى حدين : حد إلى دار الكفر ، وحد إلى البحر . وما ذكرته من المدن على البحر وغيره فمدن كبار عامرة ولم تزل الاندلس فى أيدى بنى مروان إلى هذه الغاية . ومن مشاهير مدنها القديمة جيان (Jian) والاسبانيول

قبح السيرة وخبث المعاملة لبنى السبيل وكثرة العيلة ، وذلك أن عبد الرحمن هذا (يعنى به الخليفة عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب بالناصر وكان ابن حوقل من أبناء عصره) وأهله يملكون الأندلس ويحاذون هذه الناحية وبينهم أصل الخليج الخارج إلى بلد الروم عن قرب مسافة ما بين العدوتين ، حتى انهم ليرى بعضهم ماشية بعض وصور أشجارهم وزروعهم ويتبينون الأرض المفلوحة من الأرض البور وعرض الماء فى ذلك يكون ١٢ ميلا

(١) المعهود أن العرب كانوا يقولون جليقية لشمالى الأندلس ، وقد يقولون لها غاليسية كما يقول الاسبانيول ، وإذا كان كذلك فاربونه (Narbonne) ليست من بلاد جليقية المذكورة . والذى يظهر أن ابن حوقل أراد بجليقية هنا البلاد المسماة بلاد الغال من الافرنجة وهى بلاد تقع أربونة فيها

(٢) الغالب أن أهل الأندلس يقولون سرقسطة ووشقة ولكن ابن حوقل كثيراً مايتابع اللفظ الاسبانيولى فتجد بينه وبين جغرافيي العرب بعض الاختلاف فى الاسماء

تلفظونها الآن خيان (بالخاء على عادتهم فى قلب الجيم خاء) وطليطلة (Toledo) و وادى الحجارة (والاسبانيون يكتبونهـا هكذا Guadalajara وكان العرب يسمونها أيضاً مدينة الفرج) وجميعها قديمة ولم يحدثوا بها بالاسلام غير مدينة بجانة (Pechina) وهى المرية (نقل القلقشندى فى صبح الأعشى عن تقويم البلدان أن مدينة مرسية هى إسلامية محدثة بنيت فى أيام الأمويين) وهى على حدود رستاق البيرة وشنترين على ظهر البحر المحيط . و بالاندلس قلاع كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان ، من سبى أفرنجة وجليقية والخدم الصقالبة .

وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جانب [1] الأندلس ،

---

(١) ذكر لافى بروفنسال فى كتابه « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر » ان لفظة صقالبة كان يطلقها العرب على الأرقاء الذين كانوا يشترونهم من أوربة . وأصل ذلك أن الجيوش الجرمانية عند ما كانت تغزو بلاد السلاف كانت تكثر من السبى منهم وإذا رجعت من غزواتها بالأسرى باعتهم من عرب اسبانية . ولما كان هؤلاء الأرقاء من جنس السلاف سماهم العرب صقالبة ، وصارت لفظة الصقالبة تطلق على جميع هؤلاء المماليك . قال . وفى زمان الرحالة ابن حوقل فى أواسط القرن العاشر كانوا يسمون فى اسبانية صقالبة جميع المماليك الذين من أصل أوربى والذين كانوا يخدمون فى الشرطة أو فى الجند أو فى قصر الخلافة . وقد ذكر أنه لما كان يجول فى الأندلس ، لعهد الحكم المستنصر ابن الناصر . لم يكن الصقالبة أى المماليك كلهم من الجنس السلافى بل كان منهم جم غفير من سبى « كلابره » و « لومباردية » و « كلونية » و « غاليسية » وكان أكثر وصولهم إلى الأندلس بواسطة غزاة البحر من المغاربة والأندلسيين ، وأما الذين منهم كانوا يرشحون لخدمة الحرم فى القصور فقد كانوا يخصونهم . وكان تجار اليهود عندهم كما قال دوزى معامل للخصى أهمها معمل فردون Verdune فى فرنسة فكانوا بعد خصيهم يبيعونهم فى الاندلس ، ونظرا لأنهم كانوا يأتون بهم صغاراً فكانوا يتعلمون العربية بسرعة وينشأون فى الاسلام انتهى .

وأقول إن ترجمة لفظة سلاف بصقالبة آتية من كون أحد أصناف الأمة السلافية

لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجّار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسبى إلى خراسان من الصقالبة فباقٍ على حالته ، ومُقَدٌّ على صورته ؛ وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتدًّا على القسطنطينية واطرابزندة يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون ، من جهة جيليقية وافرنجة وانكبردة Lombardia وقلورية Calabra وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله

وريو[١] Rio كورة عظيمة خصيبة ، ومدينتها « ارجدونة » ومنها كان عمر ابن حفصون الخارج على بني أميَّة ، وفحص البلوط متصل بديار ابن حفصون كورة واسعة خصيبة . واسقفة رستاق حسن ومدينته غافق[٢] . وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدّن . وهم على دين النصرانية روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ قوم منهم إلى حصن ، فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد ، وإذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم إلا باستئصالهم ، وذلك شيء يطول . وماردة وطليطلة من أعظم مدن الأندلس وأشدها منعة[٣] وثغور الجلالقة « ماردة » و « نَفْزَةَ »[٤]

ومنهم من يسكن الآن في يوغسلافية ، يقال لها الاسكلافون Esсklavon أو الاسكلابون فعربها العرب اسقلابون ، ثم جمعوها على صقالبة أو صقالب . قال المتنبي :

يجمع الروم والصقالب والبلـــغار فيها وتجمع الآجالا

(١) الغالب على العرب أنهم يقولون « ريه » لا « ريو » فابن حوقل تابع فيها لفظ الاسبانيول .

(٢) سيأتي ذكرها كلها .

(٣) سيأتي إن شاء الله في القسم التاريخي من « الحلل السندسية » أخبار ثورات هاتين البلدتين على بني أمية وهم في عنفوان أمرهم وريعان قوتهم .

(٤) نفزة بفتح فسكون فزاي بلدة بالأندلس جاء في معجم البلدان ما يلي : قال السلفي : نفزة بكسر النون قبيلة كبيرة منها بنو عميرة وبنو ملحان المقيمون بشاطبه . ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن الفقيه النفزي أحد الأئمة على

و « وادى الحجارة » و « طايطلة » . ومدينة الجلالقة مما يلى ثغور الأندلس يقال لها « سمُّور » (Zamora) وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها « ليون » (Léon) فيها سلطانهم وعدتهم بعد سمُّورة ، ومدينة يقال لها « أُوبيت » (Ovido) وهي بعيدة عن بلد الاسلام ، وليس فى أصناف الكفر الذين يلون الأندلس (يريد أن يقول أنهم يجاورون الاندلس) أكثر عددا من الأفرنج ، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم ، قليلة عدتهم ، وفيهم إذا مُلكوا طاعة ، وحسن نصيحة ، ومحاسن كثيرة ، و إليهم يرغب أهل الأندلس عن الجلالقة بأولادهم ، والجلالقة أصدق محاسن ، وأقل طاعة ، وأشد قوة ، وأكثر بأساً و بسالة ، وفيهم غدر . وهم فى عرض طريق الافرنجة .

وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب عندى لها شبيه فى كثرة أهل وسعة رقعة ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق . ويزعم قوم من أهلها أنها كأحد جانبى بغداد : وذلك أن عبد الرحمن بن محمد [(١)] ابتنى فى غربها مدينة تعرف بالزهراء فى سفح جبل يعرف بجبل « بطاش » [(٢)]

مذهب مالك وله تصانيف . وأبو العباس احمد بن على بن عبدالرحمن المعزى الأندلسى سمع مشايخنا ودخل نيسابور واصبهان . وخرج من بغداد سنة ٦١٢ ودخل شيراز . وأبو عبد الله محمد بن سليمان الميالسى النفزى . وهو ابن أخت غانم بن الوليد بن عمرو ابن عبد الرحمن المخزومى أبى محمد من الأندلس . روى عن خالد . مات فى شوال سنة ٥٢٥ ومولده سنة ٤٣٤ قال أبو الحسن المقدسى : وأبو محمد عبد الغفور بن عبد الله ابن محمد بن عبد الله النفزى ، وله تصانيف مات فى ربيع الآخر سنة ٥٣٩ وأبوه من أهل الرواية مات فى سنة ٣٧ . اه

(١) يريد به عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب بالناصر أعظم ملوك ذلك القطر بل أعظم ملوك عصره

(٢) العرب يسمونه جبل العروس والمعروف أن قرطبة هى مبنية فى سفوح شارات مورينا

وخط فيها الأسواق ، وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب إلى ذلك بناء العامة ، وأمر مناديه بالنداء : ألا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله أربعمائة درهم ، فتسارع الناس إلى العمارة ، فتكاثفت وتزايدوا فيها ، فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء ، وانتقلوا ببيت مالهم وديوانهم وخزائنهم . وقد نقل جميع ذلك وأعيد إلى قرطبة تطيراً منهم بها ، وتشاؤماً بموت رجالهم فيها ، ونهب سائر ذخائرهم .

وسمعت من غير ثقة ممن يستنبطن حالهم أن لعبد الرحمن بن محمد ، مما اتجه له جمعه من مال الأندلس وجباياتها ، من حقوقها وغير واجبها إلى سنة ٣٤٠ نحو عشرين ألف ألف دينار ، ولست أشك على ما يوجبه النظر ، وتواطأ به الخبر ، في ما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه ، من خدمه والمصادرين الذين كانوا في جملته ، وإلى وقتنا هذا عن أسباب الأندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها وأعشارها وصدقاتها وجواليها[1] تمام أربعين ألف ألف دينار . وليس لهذا المال في وقتنا هذا بموضع من مواضع الأرض نظير ، غير ما في يد أبي تغلب الغضنفر بن الحسن بن عبد الله بن حمدان ، فانه مما يعلمه الخاص والعام بالعراق وديار ربيعة ، جمع من تركة أبيه ما يضاهيه ويزيد عليه زيادة بيّنة .

وقرطبة وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به إن شاء الله ، وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ، وفيها كان مسكن سلطانهم قديماً ، وداره داخل سورها ، وأكثر أبواب هذه الدار مشرعة في البلد من غير جهة . ولها بابان يشرعان في نفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة ، والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسفلها من ربضها ، مشتبكة أبنيتها ، محيطة بها ، مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها . فأما الجنوبية

(١) الجوالى جمع جلية وهى ما يؤخذ من أهل الذمة المقيمين فى دار الاسلام

منها فهو إلى واديها ، وعليها الطريق المعروف بالرصيف ، والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها [١] ، ومسجد جامعها جليل في نفس المدينة ، والحبس منه قريب ، وقرطبة هذه بائنة بنفسها عن مساكن أرباضها ظاهرة ، ودُرْتُ بها في غير يوم في قدر ساعة ، وقد قطعت الشمس خمسة عشر دقيقة ماشياً .

وللزهراء أيضاً مسجد جامع دون جامع البلد في المحل والقدر والكبر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد . وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال ، وسعة ملك ، وابتذالا لجيد الثياب والكسى ، وفراهة كراع ، وكثرة حلى ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن نارع . وليس لجيوشهم حلاوة في العين ، ولا لهم بأفانين الفروسية وقوانينها ، ولا بالشجاعة وطرقها . وأكثر ظفر جيوشهم في القتال بالكيد ، ومما يدل على ذلك أني لم أر قط بها أحداً أجرى فرسه وهو يردون هجين ، ورجلاه في الركب ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحدهم ، وكل ذلك لخوفهم من السقوط إلى فشل فيهم عند لقائهم وتواصفهم على نزع أرجلهم من ركبهم ، ولم تطق قط جريدة عبد الرحمن ، ولا من سبقه من آله ، خمسة آلاف فارس ، ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه لأنه مكفى المؤونة بأهل الثغور ، مما يليه من كيد العدو الذي يجاوره من الروم ، ولا عدو عليه سواهم . وقلما يكترث لهم ، وربما طرقه في الأحايين مراكب الروس والترك والصقالبة والنجمكية ، وهم جيل من أجيال الترك المجاورين لأرض الخزر والماغار ، ونكوا في أعمال الأندلس وربما انصرفوا خاسرين .

وبالأندلس غير مجاب من التجارة كالزيبق والرقيق والحديد والرصاص ، وضروب من الفرش ، كقطع الأرمنى الحسن . وعندهم تعمل اللبود المشهورة في جميع الأرض بالجودة والصبغ الحسن . ولهم من الألوان والأصباغ والحشائش التي يلوّن بها الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس في بلد من بلدان الأرض له نظير حسناً

(١) سيأتي الكلام مفصلا عن خطط قرطبة ومعه أطلس خاص بها على ما كانت عليه أيام العرب

وكثرة . فأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة في الرخص ، وكثرة فواكههم مع طيبة فيها فكالمباحة التي لا ثمن لها . وملابسهم نظيفة ، إلى طيب عيش يناله عوامهم وقل من يصير إليه أهله من أهلها إلاّ على الفاره من المركوب ، ولا يعرف فيهم المهنة والمشي إلاّ أهل الصنائع والأرذال ، وأكثر ركوبهم البغال وفيها يتفاخرون وبها يتكاثرون . ولهم منها نتاج في جزائرهم[١] لم أر مثله في معادن البغال المذكورة ، ومواضعها المشهورة ، كارمينية والران ، ونتاج برزعة ، وباب[٢] الأبواب ، وشروان شاه ، لأنها توضع عندهم ، وتنجب في بلدهم ، ويجلب إليهم أيضاً منها شيء حسن الشية ، عظيم الحلق ، كثير الثمن والطالب من ميورقة ، وهي جزيرة في بحرهم منقطعة تلي ناحية الفرنجة ، واسعة الخير ، كثيرة الثمار ، رخيصة الماشية ، لكثرة المراعي ، غزيرة النتائج والمواشي . معدومة الجوائح ، قليلة الآفة ، فليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم ، ورأيت منها غير بغل بيع بخمسمائة دينار ، وإليها ترغب ملوكهم وإياها يستوطؤن ، ويؤثرون فيما يركبون . فأما ما تبلغ قيمته منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة في حسن السير وسرعة المشي ، بل لعظم خلقها ، وحسن شياتها ، واختلاف ألوانها ، وجمال مناظرها وعلو ظهورها ، وصحة قوائمها .

ذكر المسافات بها من قرطبة إلى «مراد»[٣] مرحلة ، ومن مراد إلى «غرغيره»[٤] يوم . ثم إلى اشبيلية يوم ، وهي مدينة كثيرة الخير والفواكه والكروم ، والتين خاصة ، وهي على وادي قرطبة (أي الوادي الكبير) . ومن اشبيلية إلى « لبلة »[٥]

---

(١) لا سيما جزيرة ميورقة

(٢) يقال باب الأبوب للبلاد المسماة اليوم بطاغستان

(٣) هو عند الأسبان Moratalla

(٤) الادريسي يقول عن هذا المحل الغيران

(٥) هي التي يقول لها الأسبان Niebla وهي وطن بني الجد الفهريين الذين هم اليوم

يومان . وهي مدينة صالحة القدر ، عليها سور . ومنها إلى «جبل[١] العيون» يومان ، وهي مدينة قديمة أزلية كثيرة الخير ، ومن جبل العيون إلى « أُلب »[٢] ثلاثة أيام ، وهي أيضاً مدينة قديمة ذات سور ، ومن ألب إلى « أُخشُنَبة »[٣] وهي مدينة مشهورة عظيمة كثيرة الخير ، أربعة أيام ، ومن أخشنبه إلى مدينة «شلب»[٤] ستة أيام ، ومن شلب إلى « قصر أبي[٥] دانس » خمسة أيام ، وهي مدينة صالحة خصيبة ، ومنها إلى المعدن ، وهو فم النهر ، إلى مدينة « لشبونة »[٦] يوم ، ومن لشبونة إلى شنترين[٧] يومان ، ومن شنترين إلى « يابُرة »[٨] أربعة أيام ، ومن يابرة إلى « جليانة » يومان ، ومن جليانة إلى « ألبش » يوم ، ومن ألبش إلى « بطليوس»[٩] عدوة النهر ، يوم ، ومن بطليوس إلى « قنطرة[١٠] السيف » أربعة أيام ، ومن قنطرة السيف إلى « ماردة »[١١] يومان ، ومن ماردة إلى « مدلِّين »[١٢] يومان ، ومن

بفاس وما زال يظهر منهم النوابغ سواء في الأندلس أو في المغرب . وكان نزوحهم من لبلة إلى مالقة أولا ثم إلى إشبيلية ثم إلى فاس

(١) Gebraleon عند الاسبانيول

(٢) هي Huelva عند الاسبانيول وأكثر ما يقول لها العرب « أونبه »

(٣) Osconba عند الاسبان

(٤) Selves عندهم

(٥) Abidanis

(٦) Lisboa و Lisbonne

(٧) Santırem

(٨) عند الاسبانيول Evora وهي بلدة سكانها اليوم ١٦ ألفاً ولكنها كانت ذات بال في أيام العرب ولا تزال عليها المسحة العربية إلى اليوم وهي من أعمال البرتغال وسنذكرها فيما بعد .

(٩) Badajoz كانت من حواضر الأندلس وسيأتي خبرها الوافي بقدرها

(١٠) عند الاسبانيول Alcantara.

(١١) ماردة هي merida وهي أيضاً من أمهات الأندلس وسيأتي ذكرها

(١٢) مدلين هي medellin وكان الرومان يقولون لها metellinum

مدِاَّين إلى « ترجيلة »[١] يومان ، ومن ترجيلة إلى « قصراش »[٢] يومان . ومن قصراش إلى « مكناسة » يومان . ومن مكناسة إلى « مخاضة البلاط » يوم ، ومن مخاضة البلاط إلى « طابيرة »[٣] خمسة أيام ، ومن طلبيرة إلى طليطلة ثلاثة أيام . ومن قرطبة إلى بطليوس فى جهة المغرب على الجادة ست مراحل . ومن قرطبة إلى بلنسية اثنتا عشرة مرحلة . ومن قرطبة إلى المرية ، فرضة بجانة ، سبعة أيام ، ومن المرية إلى مرسية خمسة أيام .

وجميع هذه المدن المذكورة مشهورة بالغلات والتجارات والكروم والعمارة والأسواق والعيون والحمامات والخانات والمساجد الحسنة ، وفيها ما يزيد على بعضها فى المحال والجباية والارتفاع والولاة والقضاة والمحاذين على رفع الأخبار ، وتأمّل الأحوال ، وليس بها مدينة غير معمورة ، ذات رستاق فسيح إلى كور ، إلا ولها ضياع كثيرة ، وأكارة واسعة ، وماشية وسائمة ، وعدة وكراع وعبيد . ومن قرطبة إلى كركويه[٤] ، مدينة فيها منبر ولها أسواق وبها حمامات وفنادق ، أربعة أيام ، وفى كل ليلة ينزل بقرية آهلة ، ومن كركويه إلى « قلعة رباح »[٥] يوم ، وهى مدينة كبيرة ذات سور من حجارة ، ولها واد كبير هى عليه ، منه شربهم ، ويزرعون عليه ، وبها أسواق وحمامات ومتاجر ، والطريق على قرى ذات عمارة

ومن قلعة رباح إلى « مَلَقُون » مرحلة ، وهى مدينة على نهر ، لها سور من تراب ، وهى دون قلعة رباح فى الكبر ، ونهرها يعرف باسمها ، ومنه شرب أهلها . ومنها إلى « أبلش » مرحلة ، وهى قرية فيها فندق وعين منها شربهم آهلة ، ومن

---

(١) ترجيله هى Trajillo

(٢) قصارش هى Caseres

(٣) Talavera de la Reina

(٤) Caracuel وقال بيلاج الأويطى Pélage D'oviedo هى - caraqui أى كما يلفظها العرب

(٥) Calatrava

أبلش إلى طايطالة مرحلة ، وطايطالة مدينة كبيرة جليلة مشهورة ، أكبر من بجانة ، ذات سور منيع ، وهي على وادي تجه ، وعليه قنطرة عظيمة ، ويقال إن طولها خمسون باعاً ، ويصير واديها إلى الوادي المنصب إلى شنترة .

ومن طيطلة إلى « مغم »(١) مرحلة ، وهي قرية كبيرة بها معدن الطفل الأندلسي ، ومن مغم إلى « غمر » مرحلة ، وهي مدينة كبيرة ذات سوق ومحال، وتكون نحو وادي آش . ومن غمر إلى وادي حجارة ، وهي مدينة كبيرة ، وثغر مشهور الحال مسوّر بحجارة ، وهي ذات أسواق وفنادق وحمامات وحمام وحمامات وحدائق ومحاف ومها تسكن ولاة الثغور كأحمد بن يعلى وغالب ، وعليها أكثر جهاد جليقية ، ومنها إلى « شعراء قوارير » مرحلة ، وبها منهل تنزله الرفقة ، ومن شعراء قوارير إلى « مدينة سالم » مرحلة ، ومن مدينة سالم إلى مدينة غالب بن عبد الرحمن ، ولها سور عظيم ورساتيق واقليم واحد وماشية ، رفهة في جميع أسبابها ، وهي أكثر الأندلس حرباً وغزواً . انتهى كلام ابن حوقل .

قول ياقوت الحموى

وقال ياقوت الحموى في معجم البلدان :

قال ابن حوقل التاجر الموصلي ، وكان قد طوف البلاد ، وكتب ما شاهده : أما الأندلس فجزيرة كبيرة ، فيها عامر وغامر ، طولها نحو الشهر ، في نيف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال . وعرض فم الخليج الخارج من البحر المحيط قدر اثنى عشر ميلا ، بحيث يرى أهل الجانبين بعضهم بعضاً ويتبينون زروعهم وبيادرهم . قال : وأرض الأندلس من على البحر تواجه من أرض المغرب تونس . وإلى « طبرقة » إلى « جزائر مزغناى » ثم إلى « أنكور » ثم إلى « سبتة » ثم إلى « أريلى » ثم إلى البحر المحيط . وتتصل

(١) مغام magham

الأندلس فى البر الأصغر من جهة جليقية ، وهو جهة الشمال ، ويحيط بها الخليج المذكور من بعض مغربها وجنوبها ، والبحر المحيط من بعض شمالها وشرقها من حد الجلالقة على كورة « شنترين »[1] لى « اشبونة »[2] ثم إلى جبل الغور ، ثم إلى ما لديه من المدن إلى جزيرة جبل طارق ، المحاذى لسبته ، ثم إلى « مالقة » ثم إلى « المرية » فرضة « بجانة »[3] ثم إلى بلاد « مرسية »[4] ثم إلى « طرطوشة »[5] ثم تتصل ببلاد الكفر مما يلى البحر الشرقى فى ناحية أفرنجة ، ومما يلى المغرب ببلاد « عَاْجَسكس »[6] وهم جيل من الانكبرد[7] ثم إلى بلاد « بسكونس »[8] ورومية الكبرى فى وسطها ، ثم بلاد الجلالقة حتى تنتهى إلى البحر المحيط

ووصفها بعض الأندلسيين بأتم من هذا وأحسن . وأنا أذكر كلامه على وجهه قال : هى جزيرة ذات ثلاثة أركان مثل شكل المثلث ، قد أحاط بها البحران

---

(١) Santarem (٢) Lisbonne (٣) Bèchina (٤) Marcie
(٥) Tortose

(٦) نظن أنه يعنى بهذا الاسم الجيل الذى يقال له عندهم Cuskaldonac والاسبان يقولون vascongados

(٧) يريدون بهم اللومبارديين وقد جاء تعريفه الانكبرده فى معجم البلدان قال :
الانكبرده بالفتح ثم السكون وفتح الكاف وضم الباء الموحدة وسكون الراء ودال مهملة وهاء بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذاة جبل القلال وتمر على محاذاة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلوريه انتهى . قلت هذا الوصف لاينطبق إلا على مملكة إيطالية الحاضرة الممتدة من جبل القلال غرباً وهو الجبل المشرف على مدينة نيس إلى بلاد كالبرة شرقاً وهى التى يعنيها بقوله قلورية . عليك لمعرفة جبل القلال بمراجعة كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » .

(٨) هم الباسك فى شمالى أسبانية وجنوبى فرنسة والعرب يقولون لهم الباشكنس أو الباسكنس ولغتهم يقال لها vascuence ومن هذه اللفظة قال لهم العرب ذلك لأن الفاء (v) هى دائماً باء عند العرب .

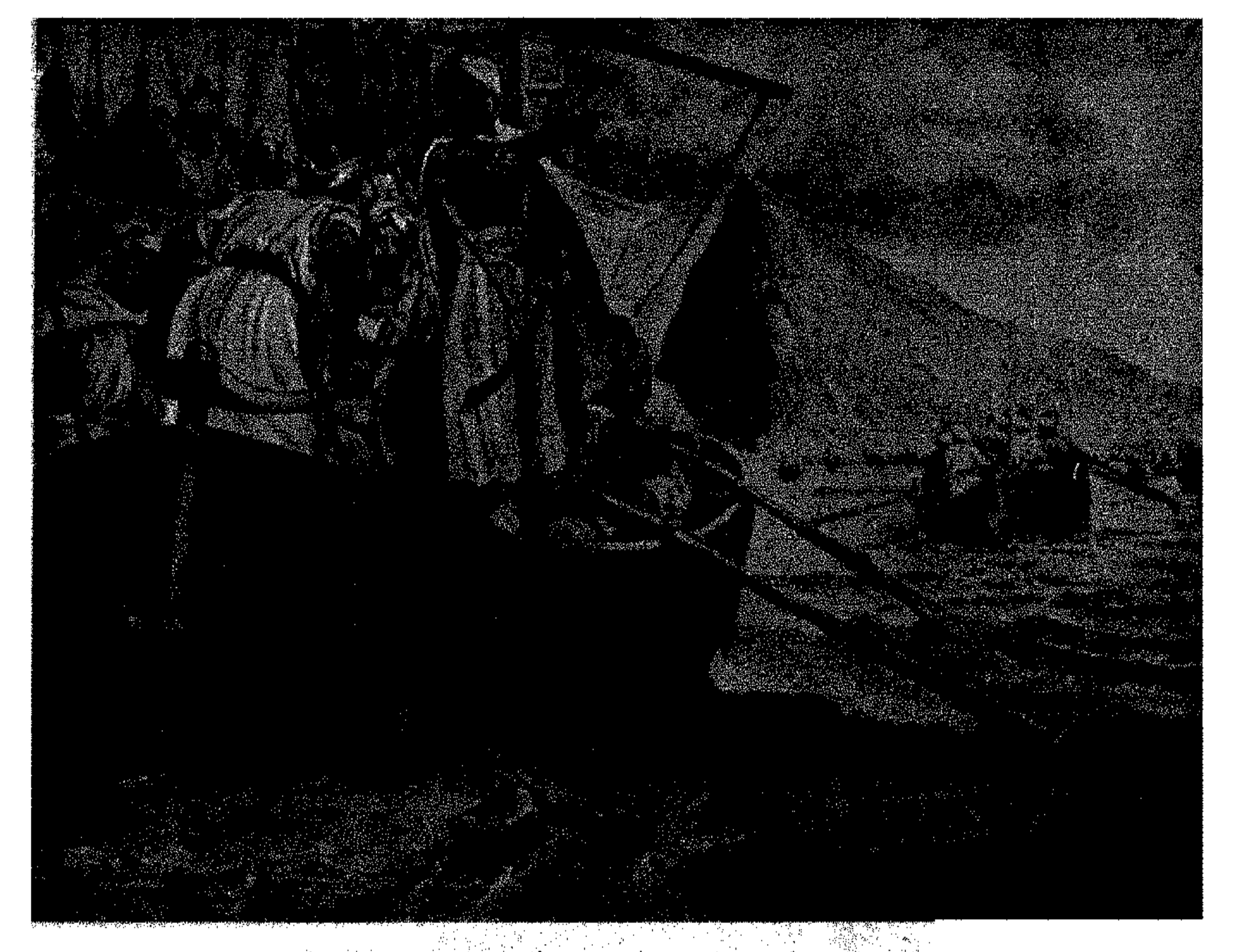
المحيط والمتوسط ، وهو خليج خارج من البحر المحيط ، قرب سلاَ من بر البربر . فالركن الأول هو فى هذا الموضع الذى فيه صنم قادس ، [١] وعنده مخرج البحر المتوسط الذى يمتد إلى الشام ، وذلك من قبلى الأندلس . والركن الثانى شرق الأندلس بين مدينة « أربونة » [٢] ومدينة « بُرديل » [٣] وهى اليوم بيد الافرنج بازاء جزيرتي « ميورقة » و« منورقة » مجاورة من البحرين المحيط والمتوسط ومدينة أربونة تقابل البحر المتوسط ، ومدينة برديل تقابل البحر المحيط . والركن الثالث هو ما بين الجنوب والغربى من حيز جليقية ، حيث الجبل الموفى على البحر ، وفيه الصنم العالى المشبه بصنم قادس ، وهو البلد الطالع على بريطانية [٤] . فالضلع الأول منها أوله حيث مخرج البحر المتوسط الشامى من البحر المحيط ، وهو أول الزقاق فى موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الأندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلاَ فى المغرب الأقصى من البر المتصل بأفريقية وديار مصر ، وعرض الزقاق ههنا اثنا عشر ميلا ، ثم تمر فى القبلة إلى الجزيرة الخضراء من بر الأندلس المقابلة لمدينة سبتة . وعرض الزقاق ههنا ثمانية عشر ميلا . وطوله فى هذه المسافة إلى ما بين جزيرة طريف وقصر مصمودة إلى المسافة التى ما بين الجزيرة الخضراء وسبتة نحو العشرين ميلا . ومن ههنا يتسع البحر الشامى إلى جهة المشرق ، ثم يمر من الجزيرة الخضراء إلى مدينة « مالقة » [٥] إلى حصن « المنكب » [٦] إلى مدينة « المرية » [٧] إلى قرطاجة [٨] الحلفاء ، حتى تنتهى إلى جبل « قاعون » [٩] الموفى على مدينة « دانية » [١٠]

(١) على ربوة من الأرض كان هذا الصنم إلى جنوبى المكان المسمى الآن سان فرناندو وهو من بناء الفينيقيين وكان خبر بنائه محفوراً على أعمدة الفولاذ بأحرف فينيقية . وقد عمر فينيقيو صور قادس من منذ ١١٠٠ قبل المسيح ثم فى سنة ٥٠١ قبل المسيح فتحها فينيقيو قرطاجنة .

(٢) Narbonne فى جنوبى فرنسة (٣) Beaurdeaux (٤) جزيرة انكلترة

(٥) Malaga (٦) Amonacar (٧) Almeria (٨) Cartagéne

(٩) Caoun (١٠) Dénia



مرور العرب لأول مرة من المغرب إلى الأندلس سنة ٧١٠ ب . م

ثم ينعطف من دانية إلى شرق الأندلس ، إلى حصن « قليره » [1] إلى بلنسية . ويمتد كذلك شرقاً إلى « طركونة [2] » إلى « برشلونة » [3] إلى « اربونة » إلى البحر الرومى ، وهو الشامى ، وهو المتوسط .

والضلع الثانى مبدؤه كما تقدم من جزيرة « طريف » [4] آخذاً إلى الغرب فى الحوز المتسع الداخل فى البحر المحيط ، فيمر من جزيره طريف إلى « طرف الأغر » [5] إلى جزيرة « قادس » [6] وههنا أحد أركانها . ثم يمر من قادس إلى بر المائدة [7] ، حيث يقع نهر إشبيلية فى البحر ، ثم إلى جزيرة « شلطيش » [8] إلى وادى « يانة » [9] إلى « طبيرة » [10] ، ثم إلى « شنترية » [11] إلى « شاب » [12] ، وهنا عطف إلى أشبونة وشنترين . وترجع إلى طرف الغرف ، مقابل شلب وقد يقطع البحر من شلب إلى طرف الغرف مسيرة خمسين ميلا . وتكون اشبونة وشنترة وشنترين على يمين من حوز طرف الغرف ، وهو جبل منيف داخل فى البحر نحو أربعين ميلا ، وعليه كنيسة الغراب [13] المشهورة . ثم يدور من طرف الغرف مع البحر المحيط فيمر على حوز « الريحانة » وحوز « المدرة » وسائر تلك البلاد مائلا إلى الجوف [14] . وفى هذا الحيز هو الركن الثانى .

Tarifa (٤) Barcelonne (٣) Tarracone (٢) Culera (١)

Saltes (٨) Almeida (٧) Cadix (٦) Trafalgar (٥)

Silves (١٢) Cintra (١١) Tavira (١٠) Guadiana (٩)

(١٣) يتكرر ذكر كنيسة الغراب فى جغرافيات العرب وتحرير خبرها وجود أسطورة مآلها أن الرومان فى صدر النصرانية قتلوا قديساً مسيحياً اسمه صان فنسان فى بلنسية وطرحوا تجاليده فى البرية لتأكلها الوحوش فجاء غراب وحفظه من أكل الضوارى له ولا نعلم لأى سبب أريد نقل جثة هذا القديس من شرق الأندلس إلى غربها ؟ وإنما نعلم أنه فى أيام عبد الرحمن الداخل صدر الأذن للنصارى بنقلها إلى كنيسة فى طرف مقاطعة الغرب على البحر المحيط .

(١٤) الجوف فى اصطلاح إخواننا المغاربة والاندلسيين هو الشمال وقد فكرت كثيراً فى وجه هذا الاصطلاح فلم يظهر لى شىء يصح التعويل عليه ولا عثرت على نص

والضلع الثالث ينعطف فى هذه الجهات من الجنوب إلى الشرق ، فيمر على بلاد جليقية وغيرها حتى ينتهى إلى مدينة برديل (Bordeaux) على البحر المحيط المقابل

يفيد سبب تسميتهم الشمال بالجوف وقد سألت أهل الذكر ممن أعتقد بعلمهم فأبدى كل واحد ماعنده : فالسيد علال الفاسى يظن أنه لما كان الجوف واقعاً شمالى مكة فقد غلب على أهل الحجاز أن يقولوا لكل شمال جوفاً ثم سرى هذا الاستعمال من الحجاز إلى المغرب والأندلس . وهو وجه وجيه لأن مدينة الجوف هى فى وسط البرية إلى الشمال من الحجاز وإلى الغرب من العراق وإلى الشرق من الشام ، وكما غلب على الناس جميعاً فى الشام أن يقولوا للجنوب قبلة نظراً لكون الكعبة هى إلى الجنوب من الشام يجوز أن يكون الحجازيون سموا الشمال جوفاً لكون الجوف ونواحيها هى فى شماليهم وأنت ترى أنهم يقولون للشمال شاماً بغلبة الاصطلاح المبنى على كون الشام هى إلى الشمال من الحجاز وفى كثير من الصكوك تجدهم يكتبون : يحده من القبلة كذا ومن الشام كذا وقد أجابنى الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى العربى بأنه يستحسن رأى الأستاذ علال الفاسى فى هذه اللفظة ويقول إنهم فى الحجاز يعبرون عن الشمال بالشام وإنه وجدت فى أوراق الطابو التركية القديمة ما ورد فيه لفظة « يمنى » بمعنى الجنوب فانهم فى الحجاز نفسه كما عبروا عن الشمال بالشام فقد عبروا عن الجنوب باليمن وهو شىء طبيعى بالنسبة لهم ثم قال الشيخ المغربى : إلا أنه يوجد فى الأندلس بلدان باسم الجوف كما يظهر من معجم البلدان أحدهما فى غربى الاندلس على البحر المحيط والآخر فى أقليم اكشونية فالى أى جوف انتسب هذا الاصطلاح ؟ هل هو الجوف الذى فى الشرق أم الجوف الذى فى الاندلس ؟ وأما الاستاذ الاب انسطاس الكرملى فقد أجابنى بما يلى : الجوف : الشمال وهو من اصطلاح المغاربة جاء فى كتاب الادريسى وفى اللمحة البدرية : وسبب هذه التسمية هو ان الذين سموا بهذا الاسم ريح الشمال أو الشمال نفسه هم سكان البلاد الواقعة فى جنوبى بحر الروم فاذا هبت الشمال عندهم جاءتهم من « جوف » ذيالك البحر فلذلك عرفوها بهذا الاسم كأنهم أشاروا إلى أصل مهبها فحذفوا واكتفوا باللفظ الظاهر الاشارة إليه انتهى . أما دوزى فى كتابه « متمم المعاجم العربية » ذكر فى صفحة ٥٣٥ مايلى : جوفى : شمالى . هذا المعنى كثير الاستعمال لدى المؤلفين المغاربة ريح جوفى : ريح الشمال انتهى . قلت : أما فى الاندلس فلا يكادون يعبرون عن الشمال إلا بالجوف .

لأربونة على البحر المتوسط ، وهنا هو الركن الثالث ، وبين أربونة و برديل الجبل الذى فيه هيكل ازهرة ، الحاجز بين الأندلس و بين بلاد أفرنجة العظمي ، ومسافته من البحر نحو يومين للقاصد . ولولا هذا الجبل لالتقى البحران ، ولكانت الأندلس جزيرة منقطعة عن البر ، فاعرف ذلك ! فان بعض من لا علم له يعتقد أن الأندلس يحيط بها البحر فى جميع أقطارها لكونها تسمى جزيرة ، وليس الأمر كذلك ، و إنما سميت جزيرة بالغلبة ، كما سميت جزيرة العرب وجزيرة « أقور »[1] وغير ذلك وتكون مسيرة دورها أكثر من ثلاثة أشهر ، ليس فيها مايتصل بالبر إلا مقدار يومين كما ذكرنا وفى هذا الجبل المدخل المعروف بالأبواب[2] الذى يدخل منه من بلاد الأفرنج إلى الأندلس ، وكان لا يرام ولا يمكن أحداً أن يدخل منه لصعوبة مسلكه فذكر بطليموس أن قلَوْبَطْرَة ، وهى امرأة كانت آخر ملوك اليونان ، أول من فتح هذه الطريق وسهّلها بالحديد والخل .

قلت : ولولا خوف الاضجار والاملال لبسطت القول فى هذه الجزيرة ، فوصفها كثير ، وفضائلها جمة ، وفى أهلها أئمة وعلماء وزهّاد ، ولهم خصائص كثيرة ، ومحاسن لاتحصى ، و إتقان لجميع ما يصنعونه ، مع غلبة سوء الخلق على أهلها ، وصعوبة الانقياد[3] . وفيها مدن كثيرة ، وقرى كبار ، يجيء ذكرها فى أماكنها من هذا الكتاب حسب ما يقتضيه الترتيب إن شاء الله تعالى ، و به العون والعصمة انتهى كلام ياقوت فى المعجم .

---

(١) هى إقليم الموصل وآمد وديار بكر وديار ربيعة وما إليها .

(٢) ولذلك عرف حتى عند العرب بلفظة « البرتات » أى الأبواب بلغات الافرنج

(٣) وهذا هو الأمر الذى كان سبب ضياع هذا الفردوس على العرب فما حصله عرب الاندلس بحزمهم وحسن ترتيبهم أضاعوه بشدة إنشقاقهم واستمرار تشغيبهم ولله أمر هو بالغه.

قول الشريف الادريسى

وقال الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق » وهو أشهر جغرافية عربية — الكلام الآتى :

الجزء الأول من الاقليم الرابع مبدأوه من المغرب الأقصى حيث البحر المظلم ، ومنه يخرج خليج البحر الشامى ماراً إلى المشرق ، وفى هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة باليونانية « أشبانية » وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث ، وتضيق من ناحية المشرق حتى يكون بين البحر الشامى والبحر المظلم المحيط بجزيرة الأندلس ٥ أيام . ورأسها العريض نحو من ١٧ يوماً . وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهاية انتهاء المعمور من الأرض ، محصور فى البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم [١] ولا وقف بشر منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره وتعاظم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه ، وبه جزائر كثيرة ، ومنها معمورة ومغمورة . وليس أحد من الربانين يركبه عرضاً ولا ملججاً ، وإنما يمرّ منه بطول الساحل ، ولا يفارقه . وأمواج هذا البحر تندفع منفلقة كالجبال ، لا ينكسر ماؤها ، وإلا فلو تكسّر موجه لما قدر أحد على سلوكه . والبحر الشامى [٢] فيما يحكى كان بركة منحازة مثل ماهو عليه الآن بحر طبرستان [٣] لا تتصل مياهه بشىء من مياه البحر .

وكان أهل المغرب الأقصى من الأمم السالفة يغيرون على أهل الاندلس فيضرون بهم كل الاضرار . وأهل الاندلس أيضاً يكابدونهم ويحاربونهم جهد الطاقة ، إلى أن كان زمان الاسكندر [٤] ووصل إلى أهل الاندلس ، فاعلموه بما هم

---

(١) خلفه بر اسمه أمريكا حاول العرب العبور إليه من قبل وقيل وصلوا إليه

(٢) أى المتوسط

(٣) أى بحر الخزر أو قزوين Caspienne

(٤) من عادة مؤرخينا نقل روايات العامة ومن عادة العامة أنهم كلما رأوا أثراً

عليه من التناكر مع أهل السوس ، فأحضر الفعلة والمهندسين ، وقصد مكان الزقاق ، وكان أرضاً جافة ، فأمر المهندسين بوزن الأرض ، ووزن سطوح ماء البحرين ، ففعلوا ذلك فوجدوا البحر الكبير يشف علوّه على البحر الشامي بشيء يسير ، فرفعوا البلاد التي على الساحل من بحر الشام ، ونقلها من أخفض إلى أرفع . ثم أمر أن تحفر الأرض التي بين طنجة وبلاد الأندلس ، فحفرت حتى وصل الحفر إلى الجبال التي في أسفل الأرض ، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيّار افراغاً ، وكان طول البناء ١٣ ميلا ، وهو الذي كان بين البحرين من المسافة والبعد ، وبنى رصيفاً آخر يقابله مما يلي أرض طنجة . وكان بين الرصيفين سعة ستة أميال فقط . فلما أكمل الرصيفين حفر الماء من جهة البحر الأعظم ، ثم مدّه بسيله وقوته بين الرصيفين ، ودخل البحر الشامي ، ففاض ماؤه ، وهلكت مدن كثيرة كانت على الشطين معاً ، وغرق أهلها ، وطفى الماء على الرصيفين نحو ١١ قامة . فأما الرصيف الذي يلي بلاد الاندلس فانه يظهر في أوقات صفاء البحر في جهة الموضع المسمى بالصفيحة ظهوراً بيّناً ، طوله على خط مستقيم (هنا لم نتبين الكتابة) وقد رأيناه عياناً ، وجرينا على طوله مع هذا البناء . وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة ، ووسط هذا البناء يوافق الموضع الذي فيه حجر الأيل على البحر .

وأما الرصيف الآخر الذي بناه الاسكندر في جهة بلاد طنجة ، فان الماء حمله في صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض [1] ، وما استقر ذلك منه حتى وصل إلى

متوغلا في القدم أو خبراً أحاطت به الظلم نسبوه إلى الاسكندر أو إلى هرقل أو إلى العمالقة أو إلى الجن وهلم جرا .

(١) علماء الجيولوجية يذهبون إلى أن إتصال البحر المحيط بالبحر المتوسط كان نتيجة زلازل ونوازل طبيعية بها الله تعالى مرج البحرين يلتقيان وإن ذلك لم يكن من عهد شديد التوغل في القدم بالنسبة إلى الادوار الجيولوجية وعليه فتكون حكاية الاسكندر وفتحه بحر الزقاق ليمنع الغارات بين أهل السوس وأهل الاندلس هي من جملة الخرافات التي يروى مثلها في كل مكان عن الاسكندر ولو كان منع الغارات

الجبال من كلتى الناحيتين . وطول هذا المجاز المسمى بالزقاق ١٣ ميلا ، وعلى طرفه من جهة المشرق المدينة المسماة بالجزيرة الخضراء ، وعلى طرفه من ناحية المغرب المدينة المسماة بجزيرة طريف . ويقابل جزيرة طريف فى الضفة الثانية من البحر مرسى القصر المنسوب لمصمودة ، ويقابل الجزيرة الخضراء فى تلك العدوة مدينة سبتة . وعرض البحر بين سبتة والجزيرة الخضراء ١٨ ميلا ، وعرض البحر بين جزيرة طريف وقصر مصمودة ١٣ ميلا وهذا البحر فى كل يوم وليلة يجزر مرتين ، ويمتلئ مرتين ، فملا دائماً ، ذلك تقدير العزيز الحكيم .

وأما على ضفة البحر الكبير من المدن الواقعة فى هذا البحر المرسوم فهى « طنجة » و « سبتة » و « نكور » و « بادس » و « المزمة » و « مايلة » و « هُنَين » و « بنو وزّار » و « وهران » و « مستغانم » فأما مدينة سبتة فهى تقابل الجزيرة الخضراء ، وهى سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض معمورة ، طولها من المغرب إلى المشرق نحو ميل ، ويتصل بها من جهة المغرب ، وعلى ميلين منها ، جبل موسى وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير ، وهو الذى كان على لديه افتتاح الأندلس فى صدر الإسلام . وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة ، وقصب سكر ، وأترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد ، لكثرة الفواكه بها . ويسمّى هذا المكان الذى جمع هذا كله (بليونُش) [1] . وبهذا الموضع مياه جارية ، وعيون

والحروب بين الشعوب يقتضى أن يحال بين الفريقين المتغاورين ببحر لامتلأت كرة الارض ترعا وخلجاً وما الناس بعد ذلك ببالغى مرادهم من السلام لانه قد يغير بعضهم على بعض بالسفن وكم من أمة أغارت على أمة أخرى وبينهما أبحر محيطة وأبعاد لايكاد يتصورها العقل فالحادث الذى رووه عن الاسكندر هو غريب ، وأغرب منه ذلك التعليل الذى جعلوا وصل ما بين البحرين من أجله

(١) مما أرويه عن بليونش هذه أنها جنة غناء ولكن طريقها فى غاية الوعورة ولهذا قال أحدهم :

بليونش جنة ولكن طريقها يقطع النياطا
كجنة الخلد لا يراها إلا الذى جاوز الصراطا

مطردة ، وخصب زائد ، ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى « جبل المُنية »[١] وأعلاه بسيط ، وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر عند ما جاز اليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل فمات عند فراغه من بنيان أسوارها ، وعجز أهل سبتة عن الانتقال إلى هذه المدينة المسماة بالمُنية ، فسكنوا فى مدينتهم ، وبقيت المنية خالية ، وأسوارها قائمة ، وقد نبت حطب الشَّمْراء فيها . وفى وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجفّ البتة ، وهذه الأسوار التى تحيط بمدينة المنية تظهر من عدوة الأندلس لشدة بياضها . ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها ، إلا من ناحية المغرب ، فإن البحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولا يبقى بينهما إلا أقل من رمية سهم ، واسم البحر الذى يليها شمالا بحر الزقاق ، والبحر الآخر الذى يليها فى جهة

(١) دوزى يقرأ هذه الجملة « جبل الميا » لا جبل المنية ونحن نقول لا مانع من ذلك ولكن تكثر تسمية المصايف والمرتبعات عند العرب باسم « منية » بالكسر وفى مصر من هذه المنيات ما لا يحصى منها ما هو بالمفرد ومنها ما هو بالتثنية ومنها ماهو بالجمع . وقد عد الزبيدى فى التاج نحواً من مائة وتسعين منية بالمفرد . وزيادة على ثلاثين بالتثنية هكذا : منيتا طاهر وأمامه . منيتا فاتك ومزاح ، منيتا السويد والطبل الخ وعد عدة منيات أو منيات بالجمع هكذا : منى مرزوق . منى جعفر ، منى مغنوج ، منى غصين الخ وكل هذا فى بر مصر . وفى الشام بعض « منيات » أيضا منها « المنى » بقرب طرابلس الشام وهى تلفظ بالامالة على عادة الشام . وفى الاندلس عدة منى ذكر منها الزبيدى منية عجب ، منها خلف بن سعيد المتوفى سنة ٣٠٥ ولم يذكر غيرها . ولكن لافى بروفنسال فى كتابه « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر » قال إن بالاندلس عدة أماكن اسم الواحد منها « منية » وإنما يلفظها الاندلسيون بالضم ويظن أن أصل اللفظة يونانى ثم دخلت فى لغة القبط بمعنى ميناء أو محط أو دير . وكان فى قرطبة « منية الناعورة » للخليفة الناصر وهو متنزه معروف و « منية عبد الله » و « منية المغيرة » و « منية عجب » ولم يذكر ياقوت من منى الاندلس سوى منية عجب ولم يذكر من منى مصر إلا منية أبى الخصيب وبضع عشرة أخرى

الجنوب يقال له بحر بسول ، وهو مرسى حسن يُرْسَى فيه فيُكِنّ من كل ريح .

وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولايعدلها بلد فى إصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ، ويصاد بها السمك المسمى بالتنّين الكبير ، وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها فى أسنتها أجنحة بارزة تنشب فى الحوت ولا تخرج ، وفى أطراف عصيها شرائط القنّب الطوال ، ولهم فى ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين .

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذى لايعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكّه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه ، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد ، وأكثر ما يحمل إلى « غانة » وجميع بلاد السودان ، لأنه فى تلك البلاد يستعمل كثيراً . ومن مدينة سبتة إلى قصر مصمودة فى الغرب ١٣ ميلا وهو حصن كبير على ضفة البحر ، تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس ، وهي على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس ومن قصر مصمودة إلى مدينة طنجة غرباً ٢٠ ميلا . ومدينة طنجة قديمة أزلية ، وأرضها منسوبة اليها . وهى على جبل عال مطل على البحر ، وسكنى أهلها منه فى سند الجبل إلى ضفة[1] البحر ، وهى مدينة حسنة لها أسواق وصناع ، وفعلة وبها انشاء المراكب ، وبها أقلاع وحط ، وهى على أرض متصلة بالبر فيها مزارع وغلات وسكانها برابر ينسبون إلى صنهاجة . ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الأعظم آخذاً فى جهة الجنوب إلى أرض « تشمِّسْ » وتشمّس كانت مدينة كبيرة ذات سور من حجارة يشرف على نهر « سفدر » وبينها وبين البحر نحو ميل ، ولها قرى عامرة باصناف من البربر ، وقد أفنتهم الفِتنة وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم . ومن تشمّس إلى قصر عبد الكريم ، وهو على مقربة من البحر ، وبينه وبين طنجه ،

(١) سند الجبل ما قابلك منه وعلا عن السفح فأما الآن فقد ارتفعت طنجة إلى أعلى الجبل وهى مدينة حسنة كما قال ، عمرها الله بأهلها

يومان ، وقصر عبد الكريم مدينة صغيرة على ضفاف نهر « لكس » وبها أسواق على قدرها يباع بها ويشترى ، والأرزاق بها كثيرة والرخاء بها شامل . ومن مدينة طنجة إلى مدينة « أزيلا » مرحلة خفيفة جداً ، وهى مدينة صغيرة جداً ، وما بقى منها الآن إلا نزر يسير ، وفى أرضها أسواق قريبة . وأزيلا هذه ، ويقال أصيلا ، عليها سور . وهى متعلقة على رأس الخليج المسمى بالزقاق ، وشرب أهلها من مياه الآبار . وعلى مقربة منها في طريق القصر مصب نهر سفدد ، وهو نهر كبير عذب تدخله المراكب ، ومنه يشرب أهل تشمس التى تقدم ذكرها . وهذا الوادى أصله من ماءين يخرج أحدهما من بلد « دنهاجة » من جبل « البصرة » والماء الثانى من بلد كتامة ، ثم يلتقيان ، فيكون منهما نهر كبير . وفى هذا النهر يركب أهل البصرة فى مراكبهم بأمتعتهم حتى يصلوا البحر فيسيروا فيه حيث شاءوا . وبين تشمس والبصرة دون المرحلة على الظهر . والبصرة (١) كانت مدينة مقتصدة عليها سور

(١) بعد أن ذكر ياقوت البصرة المشرقية فى معجم البلدان عاد فذكر البصرة المغربية فقال : بلد فى المغرب فى أقصاه قرب السوس خربت . قال ابن حوقل وهو يذكر مدن المغرب من بلاد البربر : والبصرة مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع ولها عيون خارجها عليها بساتين يسيرة وأهلها ينسبون إلى السلامة والخير والجمال وطول القامة واعتدال الخلق وبينها وبين المدينة المعروفة بالأقلام أقل من مرحلة وبينها وبين مدينة يقال لها تشمس أقل من مرحلة أيضاً . ولما ذكر المدن التى على البحر قال : ثم تعطف على البحر المحيط يساراً وعليه من المدن قريبة منه وبعيدة وجرماية ، و « ساوران » و « الحجى » على نحر البحر ودونها فى البر مشرقا « الأقلام » ثم البصرة وقال البشارى : البصرة مدينة بالمغرب كبيرة كانت عامرة وقد خربت وكانت جليلة . وكان قول البشارى هذا فى سنة ٣٧٨ . وقرأت فى كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى الأندلسى : بين فاس والبصرة أربعة أيام قال : والبصرة مدينة كبيرة وتعرف بصرة الكتان كانوا يتبايعون فى بدء أمرها فى جميع تجاراتهم بالكتان وتعرف أيضاً بالحمراء لأنها حمراء التربة وسورها مبنى بالحجارة والطوب وهى بين شرفين ولها

ليس بالحصين ، ولها قرى وعمارات وغلات ، وأكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب بها كثيرة ، وهى عامرة الجهات ، وهواؤها معتدل ، وأهلها أعفاء ، ولهم جمال وحسن أدب . وعلى نحو ١٨ ميلا مدينة « باب أقلام »[١] وهى من بناء عبد الله بن ادريس ، بين جبال وشعار متصلة ، والمدخل اليها من مكان واحد . وبالجملة فانها خصيبة كثيرة المياه والفواكه ، وعلى مقربة منها مدينة « قرت » وهى على سفح جبل منيع ، لا سور عليها ، ولها مياه كثيرة وعمارات متصلة . وأكثر زراعاتهم القمح والشعير وأصناف الحبوب . وكل هذه البلاد منسوبة إلى بلاد طنجة ومحسوبة منها . وفى جنوب البصرة على نهر « سبو » الآتى من ناحية فاس قرية كبيرة كالمدينة الصغيرة يقال لها « ماسنة » وكانت قبل هذا مدينة لها سور وأسواق وهى الآن خراب . وعلى مقربة منها مدينة « الحجر » وكانت مدينة محدثة لآل ادريس ، وهى على جبل شامخ الذرى ، حصينة منيعة ، لا يصل أحد اليها إلا من طريق واحد ، والطريق صعب المجاز ، يسلكه الرجل بعد الرجل ، وهى خصيبة رفهة كثيرة الخيرات ، وماؤها فيها ، ولها بساتين وعمارات ، ومن مدينة سبتة

عشرة أبواب وماؤها زعاق وشرب أهلها من بئر عدبة على باب المدينة وفى بساتينها آبار عذبة ونساء هذه البصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن . قال أحمد بن فتح المعروف بابن الخراز التيهرتى يمدح أبا العيش عيسى بن ابراهيم بن القاسم .

قبح الاله الدهر إلا قينـــة	بصرية فى حمرة وبيـــاض
الخمر فى لحظاتهـــا والورد فى	وجناتها والكشح غير مفاض
فى شكل مرجى ونسك مهاجر	وعفاف سنى وسمت إباض
تيهرت ، أنت خليـــة وبرقة	عوضت منك ببصرة فاعتاضى
لا عذر للحمراء فى كلفى بهـــا	أو تستفيض بأبحر وحياض

قال : ومدينة البصرة مستحدثة أسست فى الوقت الذى أسست فيه أصيلة أو قريبا منه

(١) ورد ذكرها فى نقلنا عن ياقوت هنا

السابق ذكرها بين جنوب وشرق إلى حصن « تطاون » مرحلة صغيرة ، وهو حصن في بسيط الأرض ، و بينه و بين البحر الشامي خمسة أميال . وتسكنه قبيلة من البربر تسمى مَجَكْسَة [1] . ومنه إلى « أنزلان » وهو مرسى فيه عمارة ، نحو من ١٥ ميلا وأنزلان مرسى عامر ، وهو أول بلاد غمارة . و بلاد غمارة جبال متصلة بعضها ببعض كثيرة الشجر والغياض وطولها نحو من ثلاثة أيام . و يتصل بها من ناحية الجنوب جبال « الكواكب » وهي أيضاً جبال عامرة كثيرة الخصب ، وتمتد في البرية مسيرة ثلاثة أيام حتى تنتهي قرب مدينة فاس . وكان يسكنها غمارة إلى أن طهر الله منهم الأرض ، وأفنى جمعهم ، وخرب ديارهم ، لكثرة ذنوبهم ، وضعف اسلامهم وكثرة جرأتهم ، و إصرارهم على الزنا المباح ، والموار بة الدائمة ، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق ، وذلك من الله جزاء الظالمين . و بين سبتة وفاس على طريق « زجّان » ثمانية أيام . وعلى مقربة من انزلان حصن « تقساس » على البحر ، و بينهما نصف يوم ، وهو حصن معمور في غمرة ، لكن أهله بينهم و بين غمارة حرب دائمة ، ومن تقساس إلى قصر « تاركا » وله مرسى . ومنه إلى حصن » مسيكاسه » نصف يوم ، وهو لغمارة . ومن مسيكاسة إلى حصن « كركال » ١٥ ميلا ، وهو أيضاً لغمارة . ومن حصن كركال إلى مدينة « بادس » مقدار نصف يوم ، و بادس مدينة متحضّرة فيها أسواق وصناعات قلائل ، وغماره يلجأون اليها في حوائجهم ، وهي آخر بلاد غماره . و يتصل بها هناك طرف الجبل ، و ينتهي طرفه الآخر في جهة الجنوب ، إلى أن يكون بينه و بين بلد بني « تاوده » أربعة أميال ، وكان بهذا الجبل قوم من أهل « مزكلدة » أهل جرأة وسفاهة وتجاسر على من جاورهم ، فأبادهم سيف الفتنة ، وأراح الله منهم . ومن مدينة بادس إلى مرسى « بوزكور » ٢٠ ميلا ،

(١) كان هذا في القرن السادس للهجرة وهو القرن الذي عاش فيه الشريف الادريسي ولكن في القرن العاشر للهجرة عمرت تطاون بالأندلسيين بعد جلائهم الأخير وصارت من المدن الكبار المعدودة من القواعد زادها الله من فضله .

وكانت مدينة فيما سلف لكنها خربت ولم يبق لها رسم ، وتسمى فى كتب التواريخ « نكور » وبين بوزكور وبادس جبل متصل يعُرف بالأجراف ، ليس فيه مرسى . ومن بوزكور إلى المزمّة ٢٠ ميلا ، وكانت به قرية عامرة ومرسى توسق المراكب منه . ومن المزمّة إلى واد بقربها ، ومنه إلى طرف « ثغلال » ١٢ ميلا . وهذا الطرف يدخل فى البحر كثيراً ، ومنه إلى مرسى « كرط » ٢٠ ميلا وبشرق كرط واد يأتى من جهة « صاع » ومن كرط إلى طرف جون داخل فى البحر ٢٠ ميلا ، ومن كرط إلى مدينة « مليلة » في البحر ١٢ ميلا ، وفى البر ٢٠ ميلا .

ومدينة مليلة مدينة حسنة متوسطة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر ، وكان لها قبل هذا عمارات متصلة وزراعات كثيرة ، ولها بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء ومنها شربهم ، ويحيط بها من قبائل البربر بطون بطوية .

ومن مليلة إلى مصب الوادى الذى يأتى من « آقرسيف » ٢٠ ميلا ، وأمام مصب هذا النهر جزيرة صغيرة . ويقابل هذا الموضع من البرية مدينة « جراو » ومن مصب وادى آقرسيف إلى مرسى « تافركنيت » على البحر ، وعليه حصن منيع صغير ٤٠ ميلا . ومن تافركنيت إلى حصن تابحريت ثمانية أميال ، وهو حصن حصين ، حسن عامر آهل وله مرسى مقصود . ومن تابحريت إلى « هُنين » على البحر ١١ ميلا ومنها إلى « تلمسان » فى البر ٤٠ ميلا . وفيما بينهما مدينة « ندرومة » وهى مدينة كبيرة عامرة آهلة ، ذات سور وسوق ، موضعها فى سند ، ولها مزارع ولها واد يجري فى شرقيها ، وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقى كثير .

وهنين مدينة حسنة صغيرة فى نحر البحر ، وهى عامرة ، عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء ، وخارجها زراعات كثيرة ، وعمارات متصلة . ومن هنين على الساحل إلى مرسى « الوردانية » ستة أميال ، ومنها إلى جزيرة « القشقار » ثمانية أميال ، ومنها إلى جزيرة « إرشقول » ويروى « ارجكون» وكانت فيما سلف حصناً عامراً له مرسى و بادية وسعة فى الماشية والأموال السائمة ، ومرساها فى جزيرة فيها

مياه ومواجل كثيرة للمراكب ، وهي جزيرة مسكونة ، ويصب بحذائها نهر مَلَوية . ومن مصب الوادى إلى حصن « أسلان » ستة أميال على البحر ، ومنه إلى طرف خارج فى البحر ٢٠ ميلا ، ويقابل الطرف فى البحر جزيرة الغنم ، وبين جزائر الغنم وأسلان ١٢ ميلا . ومن جزائر الغنم إلى بنى وزّار ١٧ ميلا ، وبنو وزّار حصن منيع فى جبل على البحر ، ومنه إلى « الدفالى » وهو طرف خارج فى البحر ١٢ ميلا ، ومن طرف الدفلى إلى طرف « الحرشة » ١٢ ميلا ، ومنه إلى « وهران » ١٢ ميلا . وقد ذكرنا وهران وأحوالها فيما صدر من ذكر الأقليم الثالث ، والله المستعان

فلنرجع الآن إلى ذكر الأندلس ووصف بلادها ، ونذكر طرقاتها ، وموضوع جهاتها ، ومقتضى حالاتها ، ومبادىء أوديتها ، ومواقعها من البحر ، ومشهور جبالها وعجائب بقعها ، ونأتى من ذلك بما يجب بعون الله تعالى فنقول :

أما الأندلس فى ذاتها فشكل مثلث يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث ، فجنوبها يحيط به البحر الشامى ، وغربها يحيط به البحر المظلم ، وشمالها يحيط به بحر الانقليشيين[1] من الروم . والأندلس طولها من كنيسة الغراب التى على البحر المظلم إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل ، وعرضها من كنيسة « شنت ياقوب »[2] التي على أنف بحر الانقليشيين إلى مدينة المرية التى على بحر الشام ستمائة ميل .

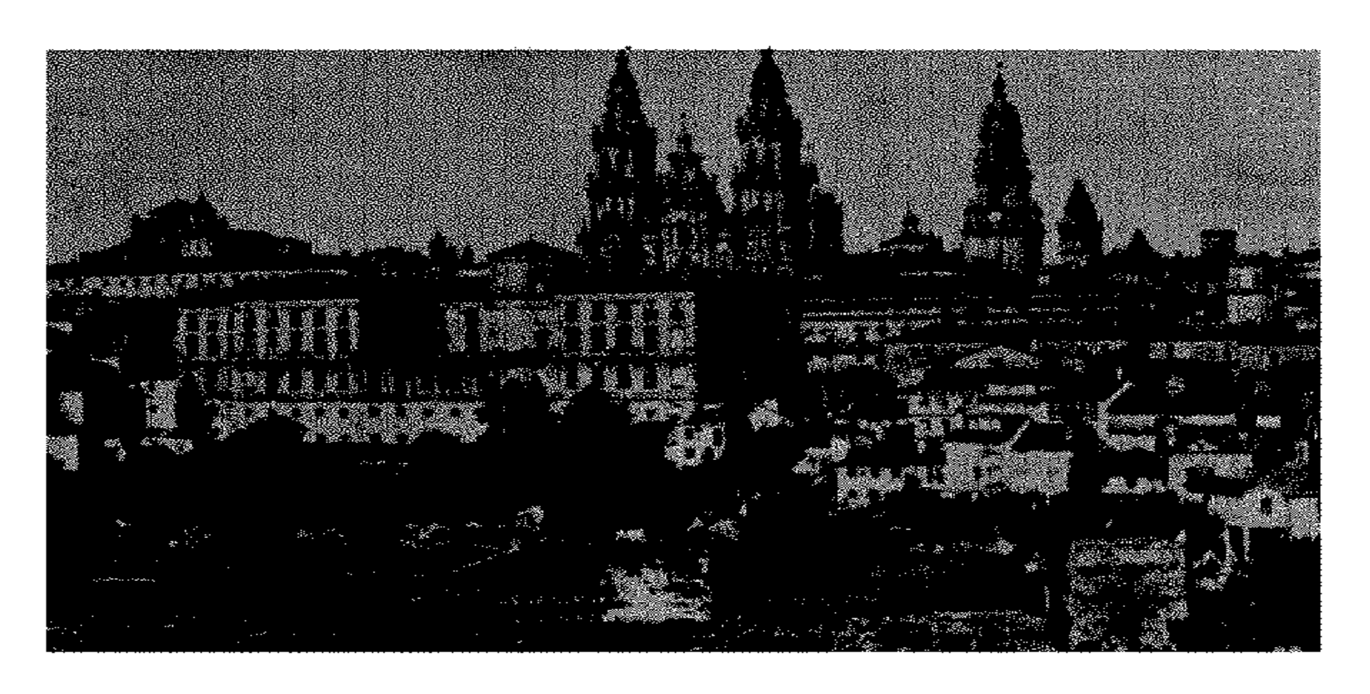
وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات[3] وفى جنوب هذا الجبل تأتى مدينة طليطلة . ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس

(١) يريد بالانقليش أو بالانقليشيين الانكليز وكان من عادة العرب أن يقلبوا السين والزاى شيناً فى أكثر الاحيان .

(٢) العرب يقولون شنت ياقوب أو شنت ياقب والاسبان يقولون « سانتياغو دو كومبستله » Santiago De Compostela وهى أقدس كنيسة عند الاسبانيول وفيها قبر يعقوب أحد الحواريين .

(٣) Sierra وقد صارت الشارات تفيد معنى سلسلة جبال .

وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة ، بين غرب وجنوب ، تسع مراحل ، ومنها إلى لشبونة غرباً تسع مراحل ، ومن طليطلة إلى شنت ياقوب على بحر الانقليشيين تسع

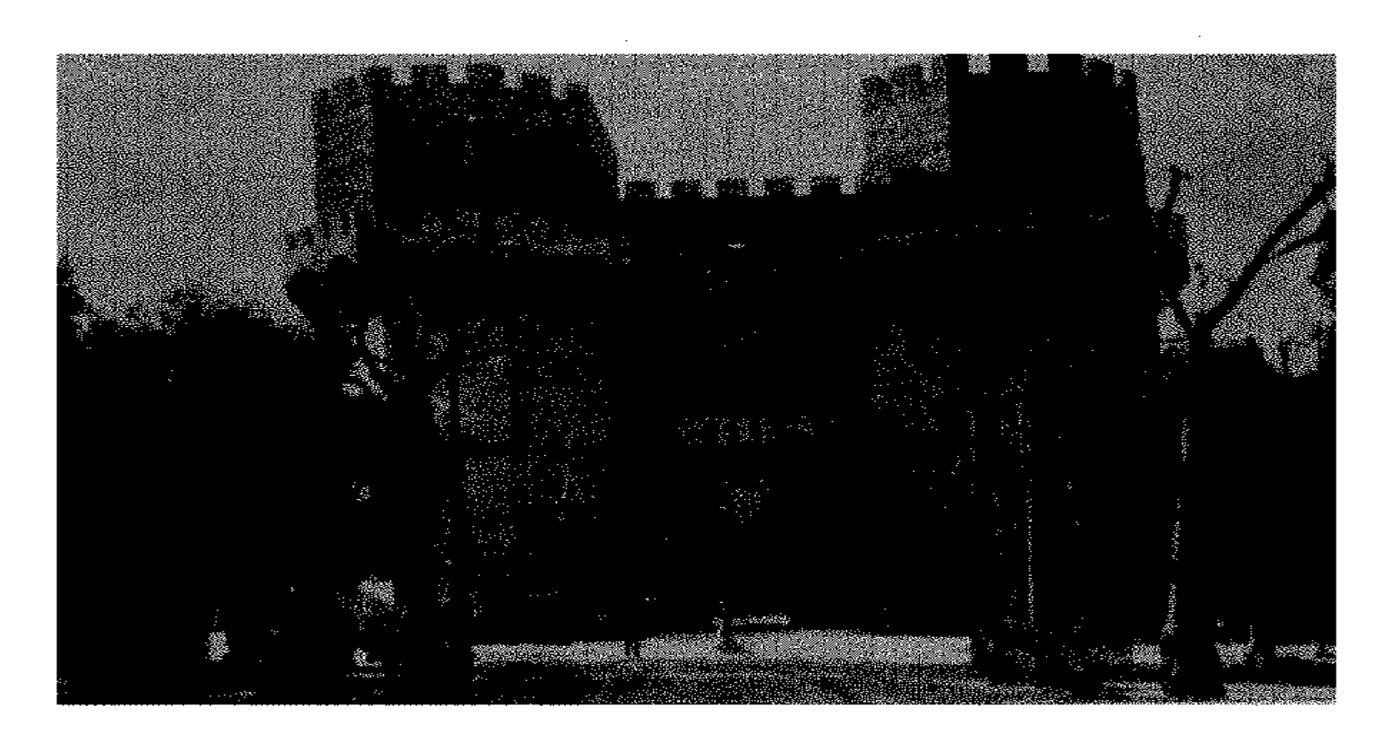


مدينة شانت ياقب أقدس بلدة عند الاسبانيين



متنزه في شانت ياقب

مراحل ، ومنها إلى « جاقة » [١] شرقا تسع مراحل ، ومنها إلى مدينة بلنسية ، بين شرق وجنوب ، تسع مراحل ، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامى تسع مراحل .



برج سرافوس (بلنسية)

ومدينة طليطلة كانت فى أيام الروم مدينة الملك ومداراً لولاتها ، وبها وجدت مائدة سليمان بن داود ، مع جملة ذخائر يطول ذكرها . وما خلف الجبل المسمى بالشارات فى جهة الجنوب يسمى اشبانية ، وما خلف الجبل فى جهة الشمال يسمى قشتالة . ومدينة طليطلة فى وقتنا هذا يسكنها سلطان الروم القشتاليين .

(١) جاقة من بلاد سرقسطة بلدة فيها اليوم ٥٠٠٠ نسمة من السكان وهى مركز ناحية « سوبرارب » ولها سور يرجع تاريخ بنائه إلى القرن العاشر وقد أنشىء خط حديدى بين جاقة Jaca واولورون oloron يختصر بنحو مائة كيلو متر المسافة بين باريز ومجريط .



منتزه النخل (بلنسية)

والأندلس المسماة اشبانية أقاليم عدة ، ورساتيق جملة ، وفى كل إقليم منها عدة مدن نريد أن نأتى بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى . ولنبدأ الآن منها باقليم البحيرة [١] وهو إقليم مبدأه من البحر المظلم ، ويمرّ مع البحر الشامىّ ، وفيه من البلاد جزيرة طريف ، والجزيرة الخضراء ، وجزيرة قادس ، وحصن « اركش » [٢] ، و« بكة » [٣] و « شريش » [٤] ، و « طشّانة » [٥] ، و « مدينة ابن السليم » [٦] ، وحصون كثيرة كالمدن عامرة ، سنأتى بها فى موضعها

ويتلوه اقليم « شذونة » [٧] ، وهو من اقليم البحيرة شمالا ، وفيه من المدن

---

(١) Le Lago de la janda (٢) Arcos (٣) Becca

(٤) Jeres (٥) Tocina (٦) Grazalema وأظن اسمها محرفاً عن « قرية سالم » وهى الآن قرية كبيرة فى برية تبعد عن رندة ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب وقد زرتها بالسيارة لما كنت فى رندة (٧) Sidonia

مدينة « اشبيلية » [١] ، ومدينة « قرمونة » [٢] ، و« غلسانة » [٣] ، وحصون كثيرة . و يتلوه اقليم الشرف ، وهو ما بين اشبيلية و « لبلة » [٤] والبحر المظلم ، وفيه من المعاقل « حصن القصر » [٥] ومدينة لبلة و « ولبة » [٦] وجزيرة « شلطيش » [٧] وجبل العيون . ثم يليه اقليم « الـكنبانية » [٨] وفيه من المدن قرطبة و « الزهراء » [٩] و « استجة » [١٠] و « بيانة » [١١] و « وقبرة » [١٢] و « اليسانة » [١٣] و به جملة حصون كبار سنذكرها بعد هذا . و يلى اقليم الـكنبانية اقليم « اشونة » [١٤] وفيه حصون عامرة كالمدن ، منها لورقة واشونة وهو اقليم صغير . ويليه مع الجنوب اقليم « رية » [١٥] وفيه من المدن مدينة مالقة و « ارشذونة » [١٦] و « مربلّة » [١٧] و « بُبَشطر » [١٨] و «ليـكنصاد» [١٩] وغير

---

(١) Sevilla (٢) Carmona بلدة ذات موقع نادر فى الدنيا مبنية على جبل مشرف على بسائط لا ينتهى البصر إلى مداها وقد زرتها بالسيارة من اشبيلية

(٣) غلسانه هى اليوم عند الاسبانيول médina Sidonia (٤) niebla

(٥) Hisnalcasar (٦) Hulba (٧) Saltes (٨) La campina

(٩) medina Az-zahra (١٠) Ecija (١١) Baena

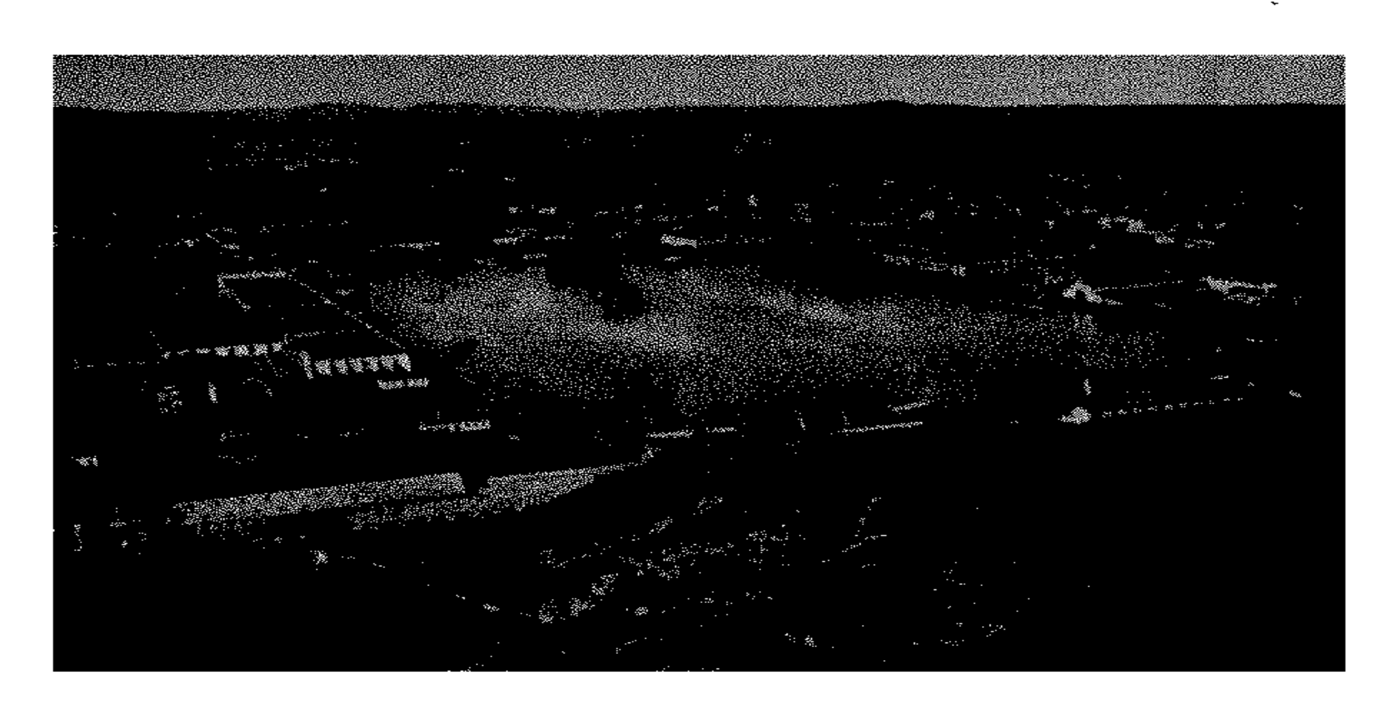
(١٢) cabra (١٣) Lucina (١٤) usona (١٥) Rio

وليعلم القارىء أننا التزمنا ترجمة الأعلام العربية بما يقابلها من الأسماء الاسبانيوليه وترجمة الأعلام الاسبانية بما كان يقوله لها العرب وتحرينا فى ذلك جهد الطاقة ولم نبق فى قوس البحث منزع ظفر حتى حققنا كل هذه الأسماء إلا ما ندر فان معرفتها بلسانى العرب والافرنج شرط فى فهم جغرافية الأندلس وتاريخها وبدون ذلك لا تتحصل للقارىء صورة تامة عنها فى ذهنه ولم نكتف بترجمة الأعلام من العربى إلى الاسبانيولى ومن الاسبانيولى إلى العربى مرة واحدة بل ربما كتبنا اسم المكان الواحد باللغتين مرتين وثلاثاً لا نمل من ذلك حتى يرسخ فى ذهن القارىء بالتكرار وإلا فانه لايحفظ هذه الأعلام المتبادلة من قرأها مرة واحدة .

(١٦) Archidona وقد يكتبها العرب بالجيم (١٧) marbella

(١٨) Bobachtero (١٩) هذه اللفظة لم ندر حقيقتها

هذه من الحصون . و يتلو هذا الاقليم « البشارات » (١) وفيه من المدن «جيّان» (٢) وجملة حصون وقرى كثيرة تشفّ على ستمائة قرية ، يتخذ بها الحرير . ثم اقليم « بجانة » (٣) وفيه من المدن « المرية » (٤) و « برجة » (٥) وحصون كثيرة منها « مرشانة » (٦) و « برشانة » (٧) و « طرجالة » (٨) و « بالش » (٩) و يتلوه



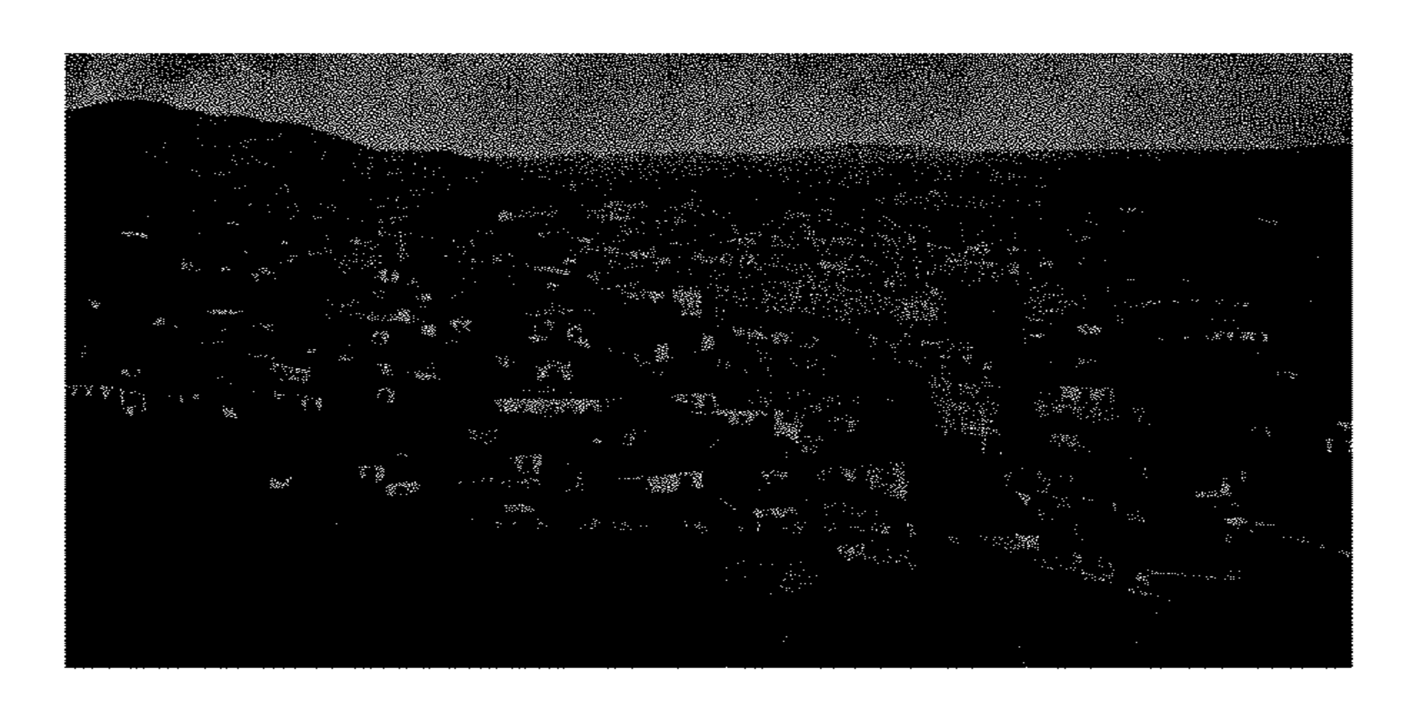
صورة مرسى قرطاجنة

فى جهة الجنوب اقليم « البيرة » (١٠) وفيه من المدن « اغرناطة » (١١) و « وادى آش (١٢) و « المنكّب » (١٣) وحصون وقرى كثيرة . ومنها إقليم « فرّيرة » (١٤)

---

(١) Sierra (٢) jaen واصل اسمها فى زمن الرومان usiense وكان القشتاليون يقولون لها Gien (٣) Béchina (٤) Almeria (٥) Berja
(٦) merchana هى من مقاطعة بجانة وقد درست ولا تزال منها بقايا فى دسكرة يقال لها « ترك » Terque (٧) برشانة Purchina هى أيضا من مقاطعة بجانة
(٨) Targela (٩) velez (١٠) vera (١١) Grenade
(١٢) Guadix (١٣) Almonacar (١٤) Ferreira

وهو يتصل باقليم البشارات ، وفيه مدينة « بسطة » [١] وحصن «تشكر» [٢] الموصوف بالمنعة . وفيه حصون كثيرة وسنأتي بها بعد . ثم كورة « تدمير » [٣] وفيها من المدن « مرسيه » [٤] و « اوريوله » [٥] و « قرطاجنة » [٦] ، و « لورقه » [٧] و « مولة » [٨] و «جنجالة» [٩] ويتصل بكورة« كونـكة » [١٠] وفيها «الش» [١١] و « القنت » [١٢] و « شقورة » [١٣] ويليه اقليم « ارغيرة » (؟) وفيه من البلاد



مدينة قرطاجنة

« شاطبة» [١٤] و « شقر » [١٥] و « دانية » [١٦] وفيه حصون كثيرة . ويليه اقليم مرباطر وفيه من البلاد « بلنسية » [١٧] و « مرباطر » [١٨] و« بُريانة » [١٩] وحصون

Murcie (٤) Todmir (٣) Tixar (٢) Baza (١)
Mola (٨) Lorca (٧) Cartagéne (٦) Orihuela (٥)
Alicante (١٢) Elche (١١) Cuenca (١٠) Chinchilla (٩)
Se gur (١٥) Jatiba أو Chativa (١٤) Segura (١٣)
Brienne (١٩) Murviedro (١٨) Valence (١٧) Denia (١٦)

كثيرة . و يليه مع الجوف إقليم « القواطم » (١) وفيه من البلاد « الفَنْت » (٢) و « شنت (٣) ماريه » المنسوبة لابن رزين . و يتصل به إقليم « الولجة » (٤) وفيه من البلاد « سرتة » (٥) و « قلعة رباح » (٦) و « فتة » (٧) ويلى هذا الاقاليم اقليم « البلاطة » (٨) . وفيه حصون كثيرة منها ومن أكبرها « بطروش » (٩)



الساقية العتيقة (الش)

و « غافق » (١٠) وحصن ابن هارون (؟) وغيرها دونها فى الكبر . و يلى هذا الاقليم غربا اقليم « الفِقر » (؟) وفيه من البلاد « شنت (١١) ماريه » و « مارتلة » (١٢) و « شلب » (١٣)

(١) دوزى يظن أن الاسم محرف بالنسخ وأن أصله « القواسم » ونحن نرجح أنه محرف عن « القواطن » وسيأتى الكلام على ذلك (٢) puente
(٣) Albarracine (٤) لم ندر أهو عربى أم معرب ؟ وهى Walaja
(٥) Zarruta (٦) Calatrava (٧) Puenta (٨) البلاطة أى البلوطين نسبة إلى فحص البلوط (٩) Pedroche (١٠) Gafic
(١١) Santa Maria (١٢) Martela (١٣) Silves

وحصون كثيرة وقرى . ويلي هذا الاقليم اقليم « القصر » (١) وفيه القصر المنسوب « لأبي دانس » وفيه «يابرة» (٢) و « بطليوس » (٣) و « شريشة » (٤) و« ماردة » (٥) و « قنطرة (٦) السيف » و « قورية » (٧). ويليه اقليم البلاط وفيه مدينة« البلاط » (٨)



غيضة من غياض الشر

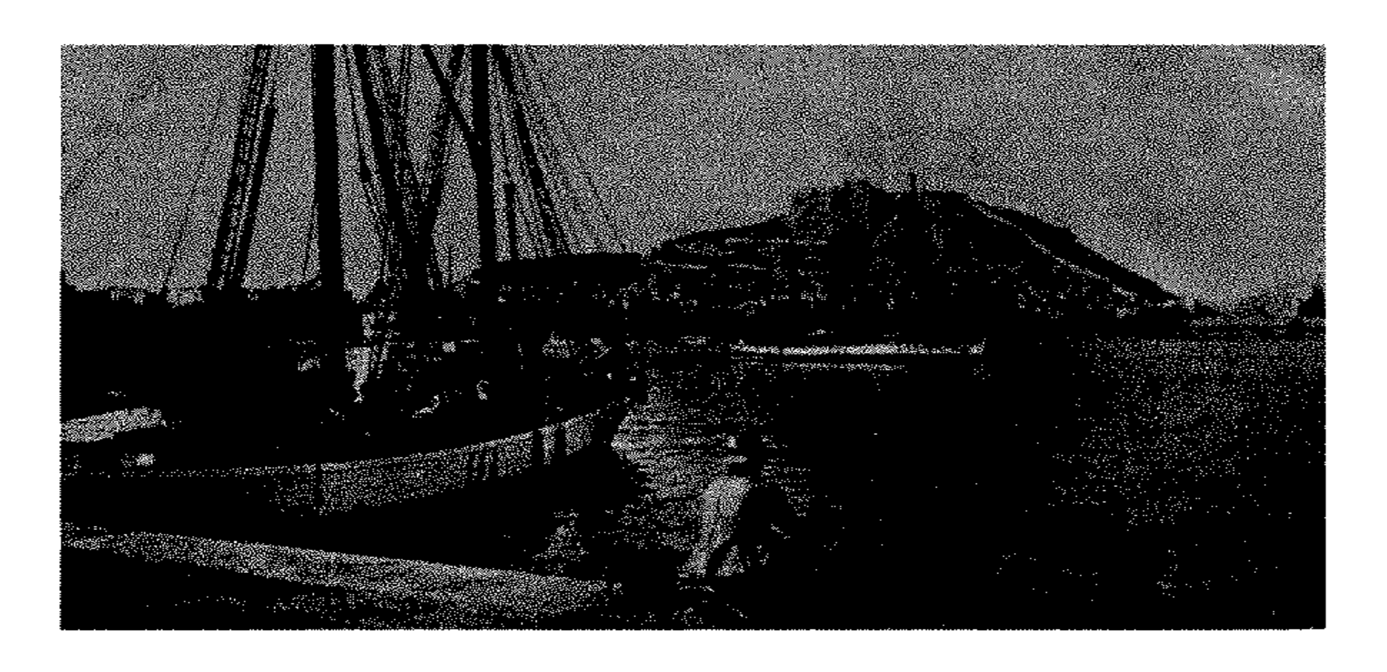
ومداين (٩) . ويلي هذا الاقليم إقليم بلاطه (١٠) وفيه « شنترين » و « لشبونة » و « شنترة » ويليه إقليم الشارات وفيه « طلبيرة » (١١) و « طليطلة » (١٢)

---

(١) Cacer (٢) Evora (٣) Badjoz (٤) Xerex de Estramador وهى عند العرب شريشة إلا أنها غير شريش التى منها أبو العباس الشريشى شارح المقامات الحريرية (٥) Merida (٦) Alcantara (٧) Coria (٨) Albalat

(٩) Medellin (١٠) كورة البلاطة فى أيام العرب كانت تشتمل على شترين Santarem واشبونة Lisbonne أو Lisboa وشنترة Cintra ويقال لها فى هذه الأيام « استرمادوره » البرتغالية (١١) Talavera (١٢) Toledo

و « ومجريط » [١] و « الفهمين » [٢] و « وادى الحجارة » [٣] « اقليش » [٤]
و « وبذة » [٥] و يليه أيضاً إقليم « أرنيط » [٦] وفيه من البلاد « قلعة أيوب » [٧]
وقلعة « دروقة » [٨] ومدينة « سرقسطة » [٩] و « وشقة » [١٠] و « تطيلة » [١١]
ثم يليه إقليم الزيتون وفيه « جاقة » [١٢] و « لاردة » [١٣] و « مكناسة » [١٤]
و « افراغه » [١٥] و يليه إقليم « البرتات » [١٦] وفيه « طرطوشة » [١٧] و « طركونة » [١٨]



مرسى القنت

---

(١) Madrid (٢) بلدة من أعمال طليطله اسمها عربي منسوبة إلى بنى فهم على ما ورد فى معجم البلدان لياقوت وقد ذكرنا ما قال فى موضع آخر
(٣) Guadalajara وقد يقول لها العرب مدينة الفرج محركة (٤) Aclés
(٥) Huete (٦) أظن أن أرنيط هى التى يقال لها Arenedo
(٧) Calatayud (٨) Daroca (٩) Saragosse
(١٠) Huesca (١١) Tudela (١٢) Jaca (١٣) Lerida
(١٤) Méquinensa (١٥) Fraguas (١٦) جبال البرتات هى جبال البرانس أو جبال البيرانه (١٧) Tortosa (١٨) Tarracona



متنزه راميرو (الفنت)

و « برشلونة » (١) ويلي هذا الاقليم غرباً اقليم « مرمرية » (٢) وفيه حصون خالية ، ومما يلي البحر حصن « طشكره » (٣) و « كشتالى » (٤) و « كتندة » (٥) فهذه كلها أقاليم اشبانية المسمى جملتها بالأندلس . فأما جزيرة « طريف » (٦) فهى على البحر الشامى ، فى أول المجاز المسمى ، بالزقاق ، ويتصل غربيها ببحر الظلمة . وهى مدينة صغيرة ، عليها سور تراب ، ويشقها نهر صغير ، وبها أسواق وفنادق وحمامات ، وأمامها جزيرتان صغيرتان تسمى احداهما « القنتير » (٧) وهما على مقربة من البر . ومن جزيرة طريف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلا ، تخرج من الجزيرة إلى « وادى (٨) النساء » وهو نهر جار ، ومنه إلى الجزيرة (٩) الخضراء

(١) Barcelone (٢) Marmaria (٣) Tixar

(٤) Castello (٥) Cutenda (٦) Tarifa

(٧) لم نعرف اسمها بالاسبانى (٨) الاسبانيول يقولون Guadannasi وذلك أنهم حكوا فى لفظها العرب وهؤلاء فى الأندلس كانوا يميلون الألف كثيراً

(٩) الاسبانيول بحسب عادتهم من قلب الجيم خاء والسين والزاى ثاء يقولون

وهى مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرّغ بالجيّار ، ولها ثلاثة أبواب ودار صناعة داخل المدينة ، و يشقها نهر يسمى نهر العسل ، وهو حلو عذب ، ومنه شرب أهل المدينة ، ولهم على هذا النهر بساتين وجنّات بكلتى ضفتيه معاً . و بالجزيرة الخضراء إنشاء و إقلاع وحط ، و بينها و بين مدينة سبتة مجاز البحر ، وعرضه هنالك ثمانية عشر ميلا . وأمام المدينة جزيرة تعرف بجزيرة « أم حكيم » و بها أمر عجيب ، وهو أن فيها بئراً عميقة كثيرة الماء حلوة ، والجزيرة فى ذاتها صغيرة مستوية السطح ، يكاد البحر يركبها [١] والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس فى صدر الاسلام ، وذلك فى سنة ٩٠ من الهجرة ، وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتى ، ومعه قبائل البربر . فكانت هذه الجزيرة أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت ، و بها على باب البحر مسجد يسمى بمسجد الرايات ، و يقال إن هنالك اجتمعت رايات القوم للرأى ، وكان وصولهم اليها من جبل طارق و إنما سمى جبل طارق لأن طارق [٢] بن عبد الله بن ونموا الزناتى لما جاز بمن معه من البرابر

« الخثيرة » ، وقد ذكرت فى إحدى مقالاتى عن رحلتى إلى الأندلس أن للقوم رغبة شديدة فى حرف « الخاء » ثم طالعت بعد ذلك كتاب « السفر إلى المؤتمر » لصديق العلامة أحمد زكى باشا المصرى رحمه الله وفيه فصل عن رحلته إلى الأندلس سنة ١٨٩٣ فوجدته يقول فى صفحة ٣٨٧ ما يلى : « لاحظت دوران حرف الخاء فى غالب كلماتهم التى يكون فيها شين أو جيم أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لأستمنح السياح وقال أن لغة القوم تدور على حرف الخاء » قال : وقد سمعتهم يقولون « الخثيرا » فسألت فاعلمونى بأنها الجزيرة الخضراء » فقد توارد الخاطر مع الخاطر

(١) قد يوجد الماء الحلو أحيانا فى وسط البحر إذا انقشعت عنه موجة الماء الملح شرب منه ركاب السفن .

(٢) لا نعلم لماذا ينسب الشريف الادريسى طارق المنسوب إليه جبل الفتح بخلاف ماهو شائع ، فانه يجعله طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتى والمشهور أن اسم أبيه زياد وأن عبد الله هو جده جاء فى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن

وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس فى نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه ، فأمر باحراق المراكب التى جاز فيها ، فتبرأ بذلك عما اتهم به .

وبين هذا الجبل والجزيرة الخضراء ستة أميال ، وهو جبل منقطع عن الجبال



صورة طراكونة من كتلونية

مستدير ، فى أسفله من جهة البحر كهوف ، وفيها مياه قاطرة جارية ، وبعقربة منه مرسى يعرف بمرسى الشجرة . ومن الجزيرة الخضراء إلى مدينة اشبيلية خمسة أيام . وكذلك من الجزيرة الخضراء إلى مدينة مالقة خمس مراحل خفاف ، وهى مائة ميل ومن الجزيرة الخضراء إلى مدينة اشبيلية طريقان طريق فى الماء ، وطريق فى البر ، فأما طريق الماء فمن الجزيرة الخضراء إلى الرمال فى البحر ، إلى موقع نهر «برباط»[1]

عذارى المراكشى الجزء الأول المطبوع فى « ليدن » بتصحيح المستشرق الشهير الهولاندى دوزى Dozy وذلك سنة ١٨٤٨ أن طارق هو ابن زياد بن عبد الله بن ولفو بن ودغوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن يطومت بن نفزاوة . وأجمع مؤرخو العرب على أنه ابن زياد

(١) يقول دوزى فى ترجمة كلام الادريسى أن نهر برباط يمر بقرب الموضع المسمى اليوم Alola de los Gazules

٢٨ ميلا ، ثم إلى موقع نهر « بكة »[١] ستة أميال ، ثم إلى الحلق المسمى « شنت[٢] بيطر » ١٢ ميلا ، ثم إلى « القناطر »[٣] وهى تقابل جزيرة قادس ١٢ ميلا ، و بينهما مجاز سعته ستة أميال . ومن القناطر تصعد فى النهر إلى رابطة « روطة »[٤]



صورة طراكونة متنزة المحطة

٨ أميال ، ثم إلى « المساجد »[٥] ٦ أميال ثم إلى مرسى « طبرشانة »[٦] إلى « المطوف »[٧] إلى « قبطور »[٨] إلى « قبطال »[٩] . وقبطور وقبطال قريتان فى وسط النهر ، ثم إلى جزيرة ينشتالة[١٠] ثم إلى الحصن الزهر[١١] إلى مدينة اشبيلية

(١) Becca وهى بقرب طرف الأغر (٢) Sancti petri
(٣) هى الجزائر التى يقال لها عند الاسبانيول Iles des lions
(٤) بلدة محصنة على جون قادس والاسبانيول يكتبونها هكذا : Rola
(٥) يقول الاسبان للمساجد San Locar ويقال إن أصلها Solucar وإنها محرفة عن Solis Lucos (٦) Tebugena (٧) لم نعلمه
(٨) Captor (٩) Cabtal (١٠) Jenechtelà
(١١) لم نعرف هل يسميه الأسبان باسمه العربى أم له عندهم اسم آخر ؟

فذلك من اشبيلية إلى البحر ٦٠ ميلا . وأما طريق البر فالطريق من الجزيرة إلى « الرتبة » ثم إلى نهر « برباط » (١) إلى قرية « فيسانة » (٢) وبها المنزل . وهي قرية كبيرة ، ذات سوق عامرة ، وخلق كثير . ومنها إلى مدينة « ابن السليم » (٣) إلى جبل « مُنت » (٤) ثم إلى قرية « عسلوكة » (٥) ، وبها المنزل . ثم منها إلى



صورة سرقسطة أو الثغر الأعلى ، منظر عمومي ،

« المدائن » (٦) إلى « زيرد (٧) الحبالة » وبها المنزل ، ثم إلى اشبيلية مرحلة .

ومدينة اشبيلية مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة ، وأسواق كثيرة ، وبيع وشراء ، وأهلها مياسير ، وجل تجارتها بالزيت ، يتجهز به منها إلى أقصى المشارق

(١) مر ذكره (٢) Faisana

(٣) هذه التي يقال لها عند الأسبان ، غرازاليما ، Grasalema

(٤) mont

(٥) لم نعرف هذه القرية ولا عرفنا هل هذا هو اسمها الحقيق أم هو محرف ؟

(٦) ما اطلعنا على هذه المدائن

(٧) ولا على حقيقة هذا الاسم الآخر

والمغارب ، براً و بحراً ، وهذا الزيت عندهم يجتم من « الشرف [١] » وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلا، وهذه الأربعون ميلا كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين ، أوله بمدينة اشبيلية وآخره بمدينة « لبلة [٢] » وكله شجر الزيتون وسعته ١٢ ميلا وأكثر ، وفيه فيما يذكر ثمانية الآف قرية عامرة آهلة بالحمامات والديار الحسنة . و بين الشرف وأشبيلية ثلاثة أميال . والشرف سمى بذلك لأنه مشرف من ناحية اشبيلية ممتد من الجنوب إلى الشمال . وهو تل تراب أحمر ، وشجر الزيتون مغروسة به من هذا المكان إلى قنطرة لبلة . واشبيلية على النهر الكبير ، وهو نهر قرطبة

ومدينة لبلة مدينة حسنة أزلية ،وهي متوسطة القدر ، ولها سور منيع . و بشرقيها نهر يأتيها من ناحية الجبل ، و يجازعليه فى قنطرة إلى مدينة لبلة . و بها أسواق وتجارات . ومنافع جمة . و شرب أهلها من عيون فى مرج من ناحية غربيها . و بين مدينة لبلة والبحر المحيط ستة أميال .

وهناك على ذراع من البحر تطل مدينة «ولبة» [٣] وهي مدينة صغيرة متحضرة ، عليها سور من حجارة ، و بها أسواق وصناعات ، وهى مطلة على جزيرة «شلطيش [٤] » وجزيرة شلطيش يحيط بها البحر من كل ناحية ، ولها من ناحية الغرب اتصال بأحد طرفيها إلى مقربة من البر ، وذلك يكون مقدار نصف رمية حجر . ومن هناك يجوزون لاستقاء الماء لشربهم ، وهى جزيرة طولها نحو من ميل وزائد ، والمدينة منها فى جهة الجنوب ، وهناك ذراع من البحر يتصل به موقع نهر لبلة ، و يتسع حتى يكون أزيد من ميل ، ثم لا يزال الصعود فيه فى المراكب إلى أن يضيق ذلك الذراع حتى

(١) لا يزال يقال له الشرف إلى اليوم

(٢) Niebla وكان اسمها عند الرومان « ايليبوله » فتلفظ العرب بها أقرب إلى الاسم الرومانى القديم

(٣) Huelva واسمها الرومانى القديم « أونبة » Onba وهكذا كان يقول لها العرب وربما قالوا « ولبة »

(٤) Saltés

يكون سعة النهر وحده مقدار نصف رمية حجر ، ويخرج النهر من أسفل جبل عليه مدينة ولبة ، ومن هنالك تتصل الطريق إلى مدينة لبلة . ومدينة شلطيش ليس لها سور ولا حظيرة ، وإنما هي بنيان يتصل بعضه ببعض ، ولها سوق وبها صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه ، وهي صنعة المراسي التي ترسي بها السفن والمراكب الحمالة الجافية ، وقد تغلب عليها المجوس [1] مرات ، وأهلها إذا سمعوا بخطور [2] المجوس فروا عنها واخلوها . ومن مدينة شلطيش إلى جزيرة قادس ١٠٠ ميل ، ومن جزيرة قادس المتقدم ذكرها إلى جزيرة طريف ٦٣ ميلا . ومن جزيرة شلطيش مع البحر ماراً في جهة الشمال إلى حصن « قسطلة » [3] على البحر ١٨ ميلا وبينهما موقع نهر يانة ، وهو نهر ماردة وبطليوس ، وعليه حصن « مارتلة » [4] المشهور بالمنعة والحصانة . وحصن قسطلة على نحر البحر ، وهو عامر آهل ، وله بساتين وغلات شجر التين كثيرة ، ومنه إلى قرية « طبيرة » [5] على مقربة من البحر ١٤ ميلا ، ومن القرية إلى مدينة « شنت [6] ماريه » الغرب ١٢ ميلا .

ومدينة شنت ماريه على معظم البحر الأعظم ، وسورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان المد ، وهي مدينة متوسطة القدر ، حسنة الترتيب ، لها مسجد جامع ومنبر وجماعة وبها المراكب واردة وصادرة ، وهي كثيرة الأعناب والتين .

ومن مدينة شنت ماريه إلى مدينة شلب ٢٨ ميلا ، ومدينة شلب حسنة ، في بسيط من الأرض ، وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات ، وشرب أهلها من

---

(١) يريد بالمجوس النورمانديين الذين كانوا يطرقون سواحل فرنسة وأسبانية وغيرهما وكانوا في الماضي مجوسا ثم بعد طول ترددهم إلى البلدان الجنوبية استقروا في غربي فرنسة وتركوا العبث ولصوصية البحر ودخلوا في النصرانية .

(٢) استعمل الادريسي « الخطور » بالمعنى الذي تستعمله فيه العامة وهو الحضور أو السفر وأما في الفصيح فهو مصدر خطر الشيء بالبال

(٣) Castella أو Casella (٤) Martola (٥) Tavira

(٦) Santa Maria ويقال لها Santa maria de Algaroe ويقال لها أيضا « فارو » وهي من البرتغال

واديها الجارى بجنوبها ، وعليه ارحاء البلد ، والبحر منها غربا على ثلاثة أميال ، ولها مرسى فى الوادى ، و بها الانشاء ، والعود بجبالها كثير ، يُحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة فى ذاتها حسنة الهيئة ، بديعة المبانى . مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها ، وهم يتكلمون بالكلام العربى الصريح ، و يقولون الشعر وهم فصحاء نبلاء ، خاصتهم وعامتهم . وأهل بوادى هذا البلد فى غاية من الكرم ، لا يجاريهم فيه أحد . ومدينة شلب على اقليم الشنشين[1] ، وهو إقليم به غلات التين الذى يحمل إلى أقطار الغرب كلها ، وهو تين طيب عِلك لذيذ شهى . ومن مدينة شلب إلى بطليوس ثلاث مراحل . وكذلك من شلب إلى حصن « مارتلة » ثلاثة أيام . ومن مارتلة إلى حصن ولبة مرحلتان خفيفتان . ومن مدينة شلب إلى حلق « الراوية »[2] ٢٠ ميلا وهو مرسى وقرية ومنه إلى قرية « شقرش »[3] على مقربة من البحر ١٨ ميلا ومنه إلى طرف الغرب ، وهو طرف خارج في البحر الأعظم ١٢ ميلا ، ومنه إلى « كنيسة الغراب »[4] ٧ أميال .

وهذه الكنيسة من عهد الروم إلى اليوم لم تتغير عن حالها ، ولها أموال يتصدق بها عليها . وكرامات يحملها الروم الواردون عليها ، وهى فى طرف خارج فى البحر وعلى رأس الكنيسة عشرة أغربة لا يعرف أحد فقدها وعهد زوالها ، وقسيسو الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ولا سبيل لأحد من المجتازين بها أن يخرج منها حتى يأكل من ضيافة الكنيسة ، ضريبة لازمة وسيرة دائمة ، لا ينتقلون عنها ولا يتحولون منها ، وورثها الخلف عن السلف ، أمر معتاد متعارف دائم ، والكنيسة فى ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والرهبان ، و بها أموال مدخرة ، وأحوال واسعة وأكثر هذه الأموال محبسة عليها فى أقطار الغرب و بلاده

---

(١) Chinchin

(٢) يقول دوزى أن حلق الزاوية مقاطعة هناك

(٣) Sagres (٤) تقدم ذكرها

وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجميع من يلوذ بها ، معما يكرم به الأضياف الواردون على الكنيسة المذكورة ، قلوا أو كثروا .

ومن كنيسة الغراب إلى القصر مرحلتان . وكذلك من شلب إلى القصر أربع مراحل . و « القصر »[١] مدينة حسنة متوسطة على ضفة النهر المسمى « شطوبر »[٢] وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيراً . وفى ما استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، ولها الانشاء الكثير ، وهى فى ذاتها رطبة العيش خصيبة كثيرة الألبان والسمن والعسل واللحوم . وبين القصر والبحر ٢٠ ميلا . ومن القصر إلى « يبورة »[٣] مرحلتان .

ومدينة يبورة كبيرة عامرة بالناس ، ولها سور وقصبة ومسجد جامع ، وبها الخصب الكثير الذى لا يوجد بغيرها من كثرة الحنطة واللحم وسائر البقول والفواكه ، وهى أحسن البلاد بقعة ، وأكثرها فائدة ، والتجارات إليها داخلة وخارجة ، ومن مدينة يبورة إلى مدينة بطليوس مرحلتان فى شرق . ومدينة بطليوس مدينة جليلة فى بسيط الأرض ، وعليها سور منيع ، وكان لها ربض كبير ، أكبر من المدينة فى شرقيها فخلا بالفتن . وهى على ضفة نهر « يانة »[٤] وهو نهر كبير ويسمى النهر الغوّر ، لأنه يكون فى موضع يحمل السفن ، ثم يغور تحت الأرض حتى لا يوجد

---

(١) وهى الآن بلدة صغيرة ليس فيها أكثر من ٢٥٠٠ نسمة وفيها آثار قديمة ويقول لها الاسبانيول Alcacer do jal

(٢) Chetvubar وهذا الاسم هو اسم بلدة اليوم على هذا النهر

(٣) ويقال لها أيضاً « يابره » بضم الباء وبالاسبانيولى Evora وهى الآن بلدة ليس فيها أكثر من ١٦ الف نسمة وكانت هذه البلدة شهيرة فى زمان الرومانيين واستولى عليها العرب سنة ٧١٥ مسيحية ثم استردها الاسبان سنة ١١٦٦ وكان يجلس فيها ملوك البرتغال أحيانا وإذا دخل إليها الانسان إلى هذه الساعة يظنها مدينة عربية لكثرة مبانى العرب فيها وغلبة طرز الانشاء العربى على مبانيها

(٤) Guadiana

منه قطرة فسمى الغوْر لذلك ، و ينتهى جريه إلى حصن مارتلة ، و يصب فى قريب من جزيرة شلطيش . ومن مدينة بطليوس إلى مدينة اشبيلية ٦ أيام على طريق حجر بن أبى خالد ، إلى جبل العيون [١] ، إلى اشبيلية . ومن مدينة بطليوس إلى مدينة قرطبة على الجادة ٦ مراحل . ومن بطليوس إلى مدينة ماردة على نهر يانة شرقاً ٣٠ ميلاً ، و بينهما حصن على عين المارّ إلى ماردة .

ومدينة ماردة كانت دار مملكة « لماردة » [٢] بنت هرسوس الملك ، و بها من البناء آثار ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة ، وتعرب عن نخوة وعزّة ، وتفصح عن غبطة . فمن هذه البناآت ان فى غربى المدينة قنطرة كبيرة ذات قسىّ ، عالية الذروة ، كثيرة المدد ، عريضة المجاز . وقد بنى على ظهر القسىّ أقباء تتصل من داخل المدينة إلى آخر القنطرة ، ولا يُرى الماشى بها . و فى داخل هذا « الداموس » [٣] قناة ماء تصل المدينة . ومشى الناس والدواب على تلك الدواميس . وهى متقنة البناء ، وثيقة التأليف ، حسنة الصنعة . والمدينة عليها سور حجارة منجورة من أحسن صنعة واوثق بناء . ولها فى قصبتها قصور خربة . وفيها دار يقال لها دار الطبيخ ، وذلك أنها فى ظهر مجلس القصر ، وكان الماء يأتى دار الطبيخ فى ساقية ، هى الآن بها باقية الأثر ، لا ماء بها ، فتوضع صحاف الذهب والفضة بأنواع الطعام فى تلك الساقية على الماء حتى تخرج بين يدى الملكة ، فترفع على الموائد . ثم إذا فرغ من

---

(١) Jibralion

(٢) المعروف أن مدينة ماردة بنيت سنة ٢٣ قبل المسيح بناها بوبليوس كاريزيوس ونمت نمواً عظيما حتى صار يقال لها رومة الاسبانية وفى زمان القوط صارت قاعدة ولاية لوزيطانية وقيل أنه كان لها ٨٤ باباً وخمسة حصون و ٣٧٠٠ برج واستولى عليها العرب بقيادة موسى بن نصير سنة ٧١٣ مسيحية واستردها الاسبانيول سنة ١٢٢٨ مسيحية ومنذ استردها الاسبانيول سقطت أهميتها وسنذكرها فى الكلام على قواعد الأندلس .

(٣) الداموس هو القترة أو ما يستتر الانسان به .

أكل ما فيها وضعت فى الساقية ، فتستدير إلى أن تصل إلى يد الطبّاخ بدار الطبخ ، فيرفعها بعد غسلها . ثم تمر بقية ذلك الماء فى سروب القصر . ومن أغرب الغريب جلب الماء الذى كان يأتى إلى القصر على عمد مبنية تسمّى « الأرجالات[١] » ، وهى أعداد كثيرة باقية إلى الآن قائمة على قوام ، لم تخل بها الأزمان ولا غيرتها الدهور ، ومنها قصار ومنها طوال ، بحسب الأماكن التى وجب فيها البناء ، وأطولها يكون غلوة سهم ، وهى على خط مستقيم . وكان الماء يأتى عليها فى قنىّ مصنوعة ، خربت وفنيت ، وبقيت تلك الأرجالات قائمة يخيّل إلى الناظر إليها أنها من حجر واحد ، لحكمة إتقانها ، وتجويد صنعتها . وفى وسط هذه المدينة احناء قوس ، يدخل عليه الفارس بيده علم قائم ، عدة أحجاره ١١ حجراً فقط ، فى كل عضادة منها ثلاثة أحجار ، وفى القوس أربعة أحجار حنيّات . و واحد قُفْل ، فكانت الجملة ١١ حجراً . وفى الجنوب من سور هذه المدينة قصر آخر صغير ، وفى برج منه كان مكان مرآة ، كانت الملكة ماردة تنظر إلى وجهها فيها . ومحيط دوره ٢٠ شبراً ، وكان يدور على حرفه ، وكان دورانه قائماً . ومكانه إلى الآن باقٍ . ويقال إنما صنعته ماردة لتحاكى به مرآة ذى القرنين التى صنعها فى منار الاسكندرية .

ومن مدينة ماردة إلى قنطرة السيف يومان . وقنطرة السيف[٢] من عجائب

---

(١) هذه اللفظة لم تمر بنا أصلا مع اتساع اللغة والذى يظهر لنا أن عامة الأندلس استعملوها بمعنى « الأرجل » جمع « رجل » بكسر فسكون وقد يأتى جمعه أيضاً على « أرجال » فتكون الأرجالات جمع الجمع وذلك كما جمعوا « الرجل » بفتح فضم على رجال ثم جمعوا رجالا على رجالات . ومعنى تسمية هذه الأعمدة التى يجرى فوقها الماء « أرجالات » هو أن قنى الماء قائمة عليها وهى لهذه الأقنية أشبه بالأرجل

(٢) هذه البلدة هى الآن صغيرة وموقعها على الضفة الجنوبية من نهر تاجه وشهرتها بالجسر الذى فيها وكان العرب لذلك يسمونها القنطرة والاسبان يقولون لها الآن Alcantara وكان ينسب اليها نظام فرسان القنطرة وكان هذا النظام تأسس سنة ١٨٧٦ مسيحية فى قلعة سان يوليان دو بيرال لأجل حماية ثغور المسيحيين فى وجه العرب فلما

الأرض . وهو حصن منيع على نفس القنطرة . وأهلها متحصنون فيه ، ولا يقدر لهم أحد على شيء . والقنطرة لا يأخذها القتال إلاَّ من بابها فقط . ومن مدينة قنطرة السيف إلى مدينة « قورية » [١] مرحلتان خفيفتان ، وقورية الآن مدينة فى ملك الروم ، ولها سور منيع ، وهى فى ذاتها أزليّة البناء واسعة الفناء من أحصن المعاقل ، وأحسن المنازل . ولها بوادٍ شريفة خصيبة ، وضياع طيّبة عجيبة ، وأصناف من الفواكه كثيرة ، وأكثرها الكروم وشجر التين .

ومن قورية إلى « قلمرية » [٢] ٤ أيام . ومدينة قلمرية مدينة على جبل مستدير ،

بدأ العرب يتراجعون بسبب فتنهم وتفرق كلمتهم تقدم هذا النظام إلى القنطرة وجعل مركزه فيها وصار رئيس فرسان القنطره يجب أن يكون من بيت الملك وأما الجسر فهو رومانى واقع إلى الشمال الغربى من البلد كان بناؤه سنة ١٠٥ بعد المسيح وهو من الحجر المحبب طوله ١٨٨ متراً وعرضه ٨ أمتار وهو على ستة أقواس اثنان منها فى الوسط فوهة كل منها ١٥ متراً وعلوه ٥٨ متراً وله برج علوه ١٣ متراً . وفى بلدة القنطرة كنيسة اسمها سانتا مارية المكبر Almocober بنيت فى القرن الثالث عشر فى محل جامع .

(١) Coria قال ياقوت فى معجمه هى من عمل ماردة وهى النصف بينها وبين زموّره مدينة الأفرنج

(٢) Coimbre يقول لها العرب « قلمرية » قاعدة مقاطعة من مقاطعات البرتغال وعدد سكانها اليوم يناهز ٢٠ الفاً وفيها مدرسة جامعة ومرصد فلكى وهى قسمان المدينة العليا والمدينة السفلى وهذه متصلة بنهر « منديق » Mondego وكان اسم قلمرية عند الرومان هو « آمينيوم » Aeminium ثم فى القرن التاسع أطلقوا عليها اسم « كونمبريكا » Conimbrica وهى مدينة قديمة خربت وانتقل أهلها إلى هذه . وقد استولى عليها العرب فيما استولوا عليه من الجزيرة الاندلسية ثم استرجعها النصارى منهم سنة ٨٧٢ أى بعد فتح المسلمين لها بقليل ثم استردها المسلمون سنة ٩٧٨ مسيحية فى زمن الحكم المستنصر الأموى رحمه الله على يد غالب مولاه وجاء فى النفح أن الحكم عمرها واعتنى بها . ثم عاد النصارى فاستولوا عليها سنة ١٠٦٤ بعد سقوط الدولة الأموية فى قرطبة وذلك على يد فرديناند الأول القشتالى الذى بقى يحاصرها ستة أشهر إلى أن ملكها .

وعليهما سور حصين ، ولها ٣ أبواب ، وهي في نهاية من الحصانة ، وهي على نهر « منديق » [١] وجريه على غربيها ، ويتصل جرى هذا النهر إلى البحر ، وعلى مصبه هناك حصن « منت ميور » [٢] ولها على النهر أرحاء . وعليه كروم كثيرة وجنات ولها حروث كثيرة متصلة بالغربي منها إلى ناحية البحر ، ولها أغنام ومواش ، وأهلها أهل شوكة في الروم ، ومن القصر المتقدم ذكره إلى مدينة « لشبونة » [٣] مرحلتان ، ومدينة لشبونة على شمالى النهر المسمي تاجة وهو نهر طليطلة ، وسعته أمامها ستة أميال ويدخله المد والجزر كثيراً ، وهي مدينة حسنة ممتدة مع النهر ، ولها سور ، وقصبة منيعة ، وفي وسط المدينة حمامات حارة في الشتاء والصيف ، ولشبونة على بحر البحر المظلم وعلى ضفة النهر من جنوبه ، قبالة مدينة لشبونة ، حصن المعدن ، وسمى بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فاذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به إلى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الأرض ، وقد رأيناه عياناً . ومن مدينة اشبونة كان خروج المغرّرين [٤] في

ثم آلت إلى البرتغال وصارت عاصمة ملكهم ولذلك العهد زحف اليها أبو يعقوب يوسف سلطان الموحدين ليسترجعها للاسلام فامتنعت عليه . وبقيت عاصمة للبرتغال إلى سنة ١٢٦٠ حينما جعلوا العاصمة في اشبونة ولكن الملك دنيس عوض قلمرية بنقل المدرسة الجامعة من اشبونة اليها . وفي زمن ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦) كان المسلمون قد فقدوها لأنه قال : وهي اليوم بيد الافرنج خذلهم الله

(١) Mondego (٢) Montemayor

(٣) لشبونة أو إشبونة Lisbonne أو Lisboa وسيأتي الكلام عليها مفصلا

(٤) قصة الاخوة المغرورين هذه قصة شهيرة صارت الآن معلومة عند أهل هذا العصر بعد أن بقيت مدة طويلة مدفونة في كتاب الادريسى ، هذا الذى لم تتداوله الأيدى ، وإنما كان يطلع عليه بعض المستشرقين من علماء الافرنج ، وبعض المطلعين من العرب على خزائن الكتب . وقليلا ما هم . وبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٨٩٢ ، وكنت في باريز ، وكان عمرى ٢٢ سنة . فقرأت في جريدة النشرة الأسبوعية التى كان ينشرها الأستاذ العلامة ابراهيم الحورانى باسم جمعية الأميركيين في بيروت ، وذلك

ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه و إلى أين انتهاؤه ، كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة

مقاله مترجمة ، عن مجلة أميركية ، لا أتذكر الآن اسمها ، يقول فيها بمناسبة كشف قارة أميركة : إنه شائع من جملة الأخبار كون العرب وصلوا إلى أميركة قبل كولمبوس وذلك بركوبهم البحر قاصدين الغرب من جهة الأندلس . ويقول : ليس عندنا نحن معلومات عن هذا الشأن تستند إلى وثائق خطية ، وإنما هو كلام متواتر بين الناس ، فكنا نود لو عرفنا ما عند العرب من هذا الموضوع ، وأردف الأستاذ الحوراني ذلك بنداء إلى علماء العرب أن افتونا بما عندكم عن هذه المسألة .

فني الحال فكرت فى هذه المسألة ، وقلت أنا فى باريز وأمامى المكتبة العمومية العظيمة ، فيمكننى أن أبحث فيها ما شئت وذهبت إلى خزانة الكتب الكبرى Bibliothèque National وبمجرد وصولى أمام ذلك البحر الخضم من الكتب فكرت أن حادثا كهذا لا يمكن أن ينشد إلا فى كتب العرب المؤلفة عن الأندلس ورجحت أن أبدأ البحث فى كتب الجغرافية على كتب التاريخ ، وقلت فى نفسى أن أشهر جغرافية عربية فى القرون الوسطى هى جغرافية الشريف الادريسى ، فطلبت فهرس الكتب العربية ، ووجهت نظرى إلى كتب الجغرافية ، فعثرت على كتاب « نزهة المشتاق ، إلى اختراق الآفاق ، »للسيد الادريسى ، وبدأت بتصفحه ، ولم أكن طالعته من قبل ، فما مضى ربع ساعة حتى عثرت على هذه الواقعة ، وهى التى يسردها الادريسى حسبما هو مكتوب فى المتن . فكان ذلك عجباً ، لأن ما كنت أقدر له حتى أصل إليه أياماً طوالا ، من بحث وتنقيب فى مختلف الكتب ، قد وصلت إليه فى ربع ساعة . فنسخت ماورد عن الاخوة المغرورين أو المغررين بتمامه ، وذهبت فكتبت مقالة بعثت بها إلى جريدة ثمرات الفنون فى بيروت أوردت فيها فى عرض الجواب على سؤال النشرة الاسبوعية وسؤال علماء أميركة ماجاء فى كتاب الشريف الادريسى بالحرف . ثم علقت على ذلك توجيها للكلام يساعد على استخلاص المعنى ، وهو أن الاخوة المغرورين خرجوا من أشبونة أولا ، إلى ناحية الغرب ، فى نحر البحر ، وساروا ١٢ يوماً . فلم يجدوا شيئا ، فانعطفوا إلى ناحية الجنوب ، فساروا ١٢ يوماً أخرى ، فوصلوا إلى جزيرة لم يجدوا فيها إلا غنما لحومها مرة لاتؤكل ، فانعطفوا أيضاً إلى الجنوب ، وجروا ١٢ يوماً ، إلى أن وصلوا إلى جزيرة وجدوا فيها بشراً ، وأخذوا إلى أمير الجزيرة ، وجرى معهم ماجرى ، كما هو وارد فى

لشبونة بموضع من قرب الحمّة ، درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغرّرين إلى آخر

الكتاب . وأزيد الآن هذا بيانا فأقول : الذى يلوح لى أنهم وصلوا أولا إلى جزيرة من جزائر الانطيل ، التى هى بين أميركا الشمالية ، وأميركا الجنوبية ، ومجموع هذه الجزائر هو بين ١٠ و ٢٧ درجة من العرض الشمالى ، وبين ٦٢ و ٨٧ درجة من الطول ، فى غربى خط نصف النهار ، المار بباريز . وكان أول وصول كريستوف كولومبوس إلى جزيرة من اميركا كهذه فى ١٢ اكطوبر سنة ١٤٩٢ ، وجزر الانطيل تنقسم إلى الانطيل الكبرى ، وهى إلى الشمال الغربى ، والانطيل الصغرى ، وهى إلى الجنوب الشرقى ، وهذه الجزر صغيرة لا تحصى ، والذى يظهر أن الاخوة المغرورين بعد أن ساروا ١٢ يوماً خطاً مستقيما إلى الغرب ، ولم يجدوا شيئا ، خافوا من التلف ، فرجعوا إلى الجنوب ، وكانوا لو صبروا وتابعوا جريهم خطا مستقيما ، وصلوا إلى ساحل القارة المسماة الآن بأميركا الشمالية ، ولكنهم يئسوا من الوصول إلى البر من جهة السير نحرا إلى الغرب ، فساروا إلى الجنوب ، لعلهم يجدون البر هناك . فوصلوا الجزيرة التى وجدوا فيها الغنم ، ولم يجدوا البشر ، فحينئذ يئسوا ، وعادوا جنوباً إلى الشرق . فوصلوا إلى إحدى جزائر الخالدات أو جزائر أسور Acores وهذه الجزائر كما هو معلوم . مسكونة من قديم الزمان ، وهى واقعة بين ٢٧ و ٣٣ و ٤٠ درجة من الطول الغربى ، و ٣٦ و ٥٠ و ٣٩ و ٤٥ من العرض الشمالى . وهى أقرب قليلا إلى أوربة منها إلى افريقية . وقد جاء فى الانسيكلوبيدية الافرنسية الكبرى أن جزر آسور كان وصل إليها القرطاجنيون ، ثم النورمنديون ، ثم العرب . تجد هذا فى الجزء الأول صفحة ٤٣١ . ثم يقول أنهم لم يكشفوا هذه الجزائر إلا فى القرن الخامس عشر ، حينما وصل إليها البرتغاليون ، وأن هؤلاء بدأوا باستعمارها سنة ١٤٤٤ ، ولم تنكشف جميع هذه الجزائر دفعة واحدة ، بل الواحدة بعد الأخرى .

قال وإنه كان قد قصدها بعد البرتغال قوم من الفلمنك ، ثم قال ولما طرد العرب من اسبانية التجأ منهم أناس إلى هذه الجزر ؛ ونشروا فيها المدنية . أما الخالدات ويقال لها كنارى Canaries فهى أقرب إلى افريقية منها إلى أوربة ، وهى ممتدة من الشمال إلى الجنوب بين ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٢٥ من العرض الشمالى ، وممتدة من الشرق إلى الغرب بين الدرجة ١٥ و ٤٠ و ٢٠ و ٣٠ من العرض الغربى عن باريز ، وليس بين إحدى الخالدات المسماة فورت افنطوره Fortaventura وبين رأس جنوبى من مراكش

الأبد . وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال ، كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمّالا ، وأدخلوا فيه

غير مائة كيلو متر لا غير وربما كان وصولهم إلى إحدى جزائر الخالدات أرجح ، لانهم من هناك ذهبوا بهم إلى مرسى أسفى (قرب) ما بين الخالدات ومراكش . وبالاختصار الاخوة المغرورون كانوا قد وطأوا البر الاميركى بأرجلهم ، ولكنهم بقلة عددهم ، وقلة الوسائل التى كانت فى أيديهم ، لم يتقدموا الى الامام . ويغلب على الظن أن كريستوف كولومبوس لم يكن يجهل قصة المغرورين هذه ، وأنه سمع بنزولهم فى إحدى الجزر بعد مسيرة ٢٤ يوما فى الاوقيانوس الاطلانطيكى ، ناحرين الغرب ثم منعطفين إلى الجنوب ، فاستنتج من ذلك أن وجود البر وراء بحر الظلمات أمر لا بد منه ولكن لابد أيضا من أن يكون الملججون فى هذا البحر العظيم عدداً كبيراً . وتكون معهم جميع الاقوات والأدوات والأسباب اللازمة ، وأن يكونوا سائرين فى عدة سفن ، بعضها فى اثر بعض . ولذلك بقى كولومبوس مدة طويلة ، يراجع الملك فرديناند والملكة ايزابلة حتى أقنعهما بتزويده بكل ماطلبه ، لعلمه أن السفر شاق وطويل ، وأن أمامه أهوالا . ولذلك كلفت رحلته هذه حتى كشف أميركا مبلغاً قدروه بثلاثمائة وستة وثلاثين ألفا وخمسمائة فرنك افرنسى . وهو مبلغ جسيم بالنسبة إلى ذلك الوقت ، وسار بثلاث سفن كبيرة وكان سفره من جزيرة « شاليش » قبالة « أونبة » فى غربى أسبانية ، إلى جزر الخالدات ، ومنها بقى يخوض بحر الظلمات ٣٢ يوما . إلى أن وصل إلى إحدى الجزر وهى التى سماها سان سالفادور . ومن المحقق أن قضية وجود بر وراء بحر الظلمات ، لم تكن تولدت فى مخيلة كولومبس بل هى فكرة قديمة معروفة

وكان كولومبس قد اطلع على كتاب « صورة الأرض » تأليف الكردينال بطرس دالى Pierre D'Ailly مطران كمبراى Combray ، وهو تأليف كتبه هذا المطران سنة ١٤١٠ ، وحشر فيه معلومات كثيرة تتعلق بصورة الأرض ، منها مانقله عن التوراة ، ومنها ما نقله عن اليونان ، ومنها ما أخذه عن العرب ، كما جاء فى الانسيكلوبيدية الكبرى الافرنسية ، فى ترجمة كولومبس . وقد ورد فى هذا الكتاب أن أرسطو وشارحه ابن رشد لم يكونا يعتقدان أنه يوجد بين ساحل إفريقية الغربى وساحل الهند الشرقى مسافة شاسعة البعد ، فمطالعة كولمبوس هذا الكتاب بنوع خاص كانت تحمله على الاعتقاد بالوصول إلى الهند من طريق بحر الظلمات ولا تعبأ برواية الادريسى عن عدة أيام السفر التى رواها عن المغرورين ، فانه إنما روى عن أفواه

من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الريح [(١)] الشرقية فجروا بها نحواً من ١١ يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح كثير الترّوش [(٢)]

الناس ، ولم يجتمع بالاخوة المذكورين . والأرجح أن سفرهم استمر أكثر مما قال ، لأن كولمبوس بقى يلجج فى الجزر الخالدات إلى أول جزيرة وطئها من أميركا مدة ٣٢ يوماً ، وهذا ثابت تاريخا ، وغاية ما يستفاد من العبرة فى قصة المغرورين ، أن العرب حاولوا اختراق بحر المحيط ، والوصول إلى البر الذى يقال له اليوم أميركا .

هذا وجاء فى صبح الأعشى للقلقشندى عند ذكر ملوك مملكة « مالى » فى السودان الغربى ما يلى : انه تولى منهم الملك منسى موسى بن أبى بكر ، قال فى « العبر » : وكان رجلا صالحاً ، وملكا عظيما له أخبار فى العدل تؤثر عنه ، وعظمت المملكة فى أيامه إلى الغاية ، وافتتح الكثير من البلاد ، قال فى « مسالك الأبصار » : حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه أنه فتح بسيفه وحده أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال ، وقرى وضياع . قال فى « مسالك الأبصار » قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك اليه فقال : إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئين من السفن وشحنها بالرجال والازواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته ، أو تنفد ازوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منها سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم فقال . سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتى ، فلم يصدقه . فجهز الفى سفينة . الفاً للاولاد ، وألفاً للأزواد . واستخلفنى ، وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . وكان آخر العهد به وبمن معه قال فى « العبر » وكان حجه فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون . اه ومعناه أن هذا الحادث إن كان وقع فيكون فى أول القرن الثامن من الهجرةوقد ورد هذا الخبر فى الجزء الخامس من صبح الأعشى فليراجع هناك

(١) هذه اللفظة غير عربية ومعناها هبوب الريح .

(٢) هكذا فى الأصل وربما كان المعنى مناسبا لسياق الكلام الذى تقدمه فان فعل ترش فى العربى معناه ساء خلقه

قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب ١٢ يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم مالا يأخذه عدّ ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرّة لايقدر أحد على أ كلها فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب ١٢ يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا مافيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار ، فرأوا رجالا شقراً زعراً شعور رؤوسهم شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفى ما جاءوا ، وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك ، فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروه به للترجمان بالأمس : من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، و يقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان خبّر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً ، إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ، ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم ، إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمّر بهم زورق ، وعُصبت أعينهم . وجُرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدّرنا أنه جُرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جيء بنا إلى البر ، فأُخرجنا وكتفنا إلى خلف وتُركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن فى ضنك وسوء حال ، من شدة الأكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا

فأقبل القوم إلينا ، فوجدونا بتلك الحالة السيئة لخلونا من وثاقنا ، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم و بين بلدكم ؟ فقلنا : لا . فقال : إن بينكم و بين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم وأسفى ! فسمى المكان إلى اليوم «أسفى» ، وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب ، وقد ذكرناه قبل هذا . ومن مدينة لشبونة Lisbonne[1] مع النهر إلى مدينة شنترين Santaren[2] شرقا ثمانون ميلا والطريق بينهما لمن شاء فى النهر أو فى البر ، و بينهما فحص « بلاطة » ، و يخبر أهل لشبونة وأكثر أهل الغرب أن الحنطة تزرع بهذا الفحص ، فتقيم بالأرض أربعين

---

(١) Lisbonne

(٢) Santaren مستعمرة رومانية كان يقال لها فى زمن قيصر سكالابيس Scallabis فأطلق عليها اسم « بريزيديوم يولوم » وقد تحول اسمها بعد النصرانية إلى سنتا ايرين أى القديسة ايرينة وهى قديسة شهيدة عند الاسبانيول . والبلدة تعد مفتاح وادى تاجه وكان لها شأن عظيم فى تاريخ البرتغال وقد استولى عليها العرب فيما استولوا عليه من البلدان ثم استرجعها منهم الاذفونش السادس ملك قشتالة سنة ١٠٩٣ وفى زمن أبى يعقوب يوسف سلطان الموحدين حاول المسلمون استردادها فردهم عنها الدون شانجه Don Sancho وفى هذه البلدة غرق فى النهر البرنس الفونس ابن يوحنا الثانى ملك البرتغال وكان الابن الوحيد لأبيه وكان عروساً وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة فذهب لاستقبال أبيه ممتطيا جواده فرحاً فحملته غرارة الشباب على الخوض فى النهر فأخذه النهر وكانت فاجعة عظيمة لا تزال مراثيها عند البرتغال محفوظة إلى اليوم . وقد وقعت هذه الفاجعة فى ١٣ يوليو سنة ١٤٩١ هذا وقد سقطت مكانة شنترين اليوم فالآن جميع سكانها عشرة آلاف نسمة وفيها بعض آثار من زمن العرب وأسوار وقصر عربى يقولون له «الكازار» Alcaazr كما يقولون لكل قصر عربى وفيها برج يقال له برج « كباساس » Cabaças كان فى أصله منارة مسجد . قال ياقوت الحموى عن شنترين : كلمتان مركبتان من شنت كلمة ورين كلمة وربن بكسر الراء وياء مثناة من تحت ونون مدينة متصله الأعمال بأعمال باجه فى غربى الاندلس ثم غربى قرطبة وعلى نهر تاجه قريب من انصبابه فى البحر المحيط وهى حصينة بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً وبينها و بين باجة أربعة أيام وهى الآن للافرنج ملكت فى سنة ٥٤٣

يوماً فتحصد ، وأن الكيل الواحد منها يعطى مائة كيل ، وربما زاد ونقص .

ومدينة شنترين على جبل عال كثير العلو جداً ، ولها من جهة القبلة حافة عظيمة ولا سور لها ، وبأسفلها ربض على طول النهر ، وشرب أهلها من مياه عيون ، ومن ماء النهر أيضاً ، ولها بساتين كثيرة وفواكه عامة ، ومباقل ، وخير شامل . ومن مدينة شنترين إلى مدينة بطليوس [1] أربع مراحل ، وعلى يمين طريقها مدينة يلبش [2] ، وهى فى سفح جبل ، ولها سور منيع ، ورقعة فرحة ، وبها عمارة وأسواق وديار كثيرة ، ولنسائها جمال فائق ، ومنها إلى بطليوس ١٢ ميلا . ومن ماردة [3] إلى حصن « كركوى [4] ثلاث مراحل ، ومن كركوى إلى مدينة « قلعة رباح » [5] على ضفة نهر يانة . وهذا النهر يأتى من مروج فوقها ، فيمر بقرية يانة [6] إلى قلعة رباح ، ثم يسير منها إلى حصن « أرندة » [7] ومنه إلى ماردة ، ثم يمر بمدينة بطليوس فيصير منها إلى مقربة من « شريشة » [8] ، ثم يصير إلى حصن « مارتلة » [9] فيصب فى البحر المظلم .

ومن قلعة رباح [10] إلى قلعة « ارلية » [11] يومان ، وهو حصن منيع ، ومنه

---

(١) Badajoz عاصمة بنى الأفطس وسيأتى الكلام عليها تفصيلا

(٢) بالأسبانيولى Elvas استرجعها ملك ليون من العرب سنة ١١٦٦

(٣) بالأسبانيولى Merida وهى من قواعد الأندلس مر ذكرها وسيأتى أيضا

(٤) Caraqui أو Karacuel

(٥) Calatrava (٦) Ana (٧) Aranda

(٨) شريشة الوارد ذكرها هنا يقال لها عند الاسبانيول Xeres de Estramadura وهى غير شريش البلدة المشهورة بقرب اشبيلية التى ينسب اليها الشريشى شارح مقامات الحريرى وسيأتى ذكرها .

(٩) يقول الاسبانيول لهذا الحصن Martola

(١٠) حرف الاسبانيول قلعة رباح إلى كالاترابة وسيأتى الكلام عليها .

(١١) عند الاسبانيول Aralia

إلى طليطلة مرحلة . ومن قلعة رباح فى جهة الشمال إلى حصن البلاط [١] مرحلتان ومن حصن البلاط إلى مدينة « طلبيرة » [٢] يومان . وكذلك من مدينة « قنطرة السيف » [٣] إلى المخاضة أربعة أيام ، ومن المخاضة إلى طلبيرة يومان وكذلك من مدينة ماردة إلى حصن مدلّين [٤] مرحلتان خفيفتان ، وهو حصن عامر آهل ، وفيه خيول ورجال لهم سرايا وطرفات فى بلاد الروم . ومن حصن مدلين إلى « ترجالة » [٥] مرحلتان وهما خفيفتان ، ومدينة ترجالة كبيرة كالحصن المنيع ، ولها أسوار منيعة وبها أسواق عامرة وخيل ورجل يقطعون أعمارهم فى الغارات على بلاد الروم ، والأغلب عليهم اللصوصية والخداع . ومنها إلى حصن « قاصرس » [٦] مرحلتان خفيفتان ، وهو حصن منيع ومحرس رفيع ، فيه خيل ورجل يغاورون فى بلاد الروم . ومن مكناسة إلى مخاضة البلاط يومان . ومن البلاط إلى « طالبيرة » [٧] يومان ، ومدينة طلبيرة

(١) Balat

(٢) Talavera وسيأتى الكلام عليها وهى من المدن المذكورة وقد خرج منها رهط من العلماء .

(٣) Alcantra وسيأتى الكلام عليها .

(٤) Medellin

(٥) ترجالة يقول لها الاسبانيول Trugillo قال فى دليل بديكر أنها اليوم قرية فيها ١٢٥٠ نسمة وفيها حصن من أيام العرب رممه الفرنسيس فى زمن بونابرت لما كانوا فى أسبانية

(٦) يقول الأسبانيول لهذه البلدة Cecares جاء فى دليل بديكر أن سكانها ١٦٩٠٠ وأن القسم القديم منها مبنى على رابية تحيط به أسوار وأبراج وأبواب وأن القسم الجديد هو فى الجانب الأدنى منها ثم أن فى القسم الأعلى كنيسة يقال لها « سان ماتيو » مبنية مكان المسجد الجامع وفيه أيضاً مكان القصر الذى كان فى أيام العرب ويوجد فى هذه البلدة فى شارع الدانه Aldana رقم ١٠ بيت عربى لا يزال محفوظا على حاله .

(٧) يوجد فى الأندلس ثلاث بلاد باسم طلبيرة هذه وقرية إلى الجنوب منها

على ضفة نهر تاجة ، وهى مدينة كبيرة ، وقلعتها أرفع القلاع حصناً ، ومدينتها أشرف البلاد حسناً ، وهو بلد واسع المساحة ، شريف المنافع ، و به أسواق جميلة الترتيب ، وديار حسنة التركيب ، ولها على نهر تاجة أرحاء كثيرة ، ولها عمل واسع المجال ، و إقليم شريف الحال ، ومزارعها زاكية ، وجهاتها حسنة مرضية ، أزلية العمارة ، قديمة الآثار ، وهى من مدينة طليطلة على سبعين ميلا .

ومدينة طليطلة من طلبيرة شرقاً وهى مدينة عظيمة القطر ، كثيرة البشر حصينة الذات ، لها أسوار حسنة ، فيها حصانة ومنعة وهى أزلية ، من بناء « العمالقة » (١) وقليلا ما رؤى مثلها اتقاناً ، وشماخة (٢) بنيان ، وهى عالية الذرى ، حسنة البقعة ، زاكية الرقعة ، وهى على ضفة النهر الكبير المسمى « تاجة » لها قنطرة من عجيب البنيان ، وهى قوس واحدة والماء يدخل تحت تلك القوس كله بعنف وشدة جرى ،

يقال لها طلبيرة البقعة Talavera La Vega ويوجد على ضفة وادى يانة بقرب بطليوس قرية يقال لها طلبيرة . وأما المقصود هنا فهى الكبرى ويقال لها طلبيرة رينه De La Reina وهى الآن بلدة صغيرة سكانها عشرة آلاف لكنها واقعة فى بقعة جميلة على نهر تاجه ولها جسر مركب من ٣٥ قوساً وفيها باب رومانى قديم وفيها أبراج يقال لها « البرّاناس » من بناء العرب يعود تاريخها إلى سنة ٩٢٧ مسيحية ولعل اللفظة محرفة عن « البرانية » أى الأبراج البرانية . ومن طلبيرة هذه يذهبون إلى النزهة فى شارات « غريدوس » وإلى وادى اللب Guadalupe . وبالقرب من طلبيرة بلدة قلصادة Colzada وهى بلدة ينسب إليها بعض أهل العلم من العرب

(١) يقول دوزى عند شرح هذه اللفظة أن العرب كانوا يعنون بالعملاق كل عظيم الجثة . فكأنه يريدان يقول أنه لا يجب أن يفهم أن العمالقة الساميين الذين هم من بلاد العرب والذين كانت الحروب بينهم وبين اليهود هم الذين بنوا طليطلة وإنما قصدوا بذلك شعباً عظام الجثث وقد جرت العادة عند الناس أنهم كلما رأوا بناء عظيما شامخاً نسبوه إلى العمالقة أو إلى الجن أو إلى الاسكندر وما أشبه ذلك مما يهولهم من منظره

(٢) المعروف فى اللغة شمخ يشمخ شمخاً وشموخاً ولم نجد شماخة وربما كانت هذه اللفظة من جملة خطأ النسخ

ومع آخر القنطرة ناعورة ارتفاعها فى الجو ٩٠ ذراعاً ، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، والماء يجرى على ظهرها فيدخل المدينة . ومدينة طليطلة كانت فى أيام الروم دار مملكتهم ، وموضع قصدهم ، ووجد أهل الاسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة ، فمنها أنه وجد بها ١٧٠ تاجاً من الذهب مرصعة بالدر ، و بأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد بها ألف سيف مجوهر ، ماسكى ، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق . ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة مالا يحيط به تحصيل ، ووجد بها مائدة سليمان بن داود ، وكانت فى مايذكر من زمردة وهذه المائدة اليوم فى مدينة رومة .

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية مخترقة ، ودواليب دائرة ، وجنات يانعة ، وفواكه عديمة المثال ، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، وقلاع منيعة ، تكنفها . وعلى بعد منها فى جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات ، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتى قرب مدينة قلمرية . فى آخر المغرب . وفى هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذى يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد ، ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولا ، بل هي فى نهاية السمن ، ويضرب بها فى ذلك المثل ، فى جميع أقطار الاندلس . وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى مغام[1] ، وجبالها وترابها

(١) عند الاسبانيول Magham وقد ذكر ياقوت هذه البلدة وقال أنه يقال لها أيضا « مغامه » بالفتح فيهما وقال إنه ينسب إليها أبو عمران يوسف بن يحيى المغامى ومحمد بن عتيق بن فرج بن أبى العباس بن اسحق التجيبى المغامى المقرىء الطليطلى أبو عبد الله لقى أبا عمرو الدانى وعليه اعتمد وروى عن أبى الربيع سليمان بن ابراهيم وأبى محمد بن أبى طالب المقرىء وغيرهم وكان عالما بالقراءة بوجوهها إماماً فيها ذا دين متين وكان مولده لتسع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٤٢٢ ومات باشبيلية فى منتصف ذى القعدة سنة ٤٨٥ وحبس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة وغيرها . قال : وفيها معدن الطين الذى تغسل به الرؤوس ومنها ينقل إلى سائر بلاد المغرب .

الطين المأكول ، الذى ليس على قرارة الارض مثله ، يتجهز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات و بلاد الترك ، وهو نهاية في لذادة الأكل ، وفى تنظيف غسل الشعر [١] . ولطليطلة فى جبالها معادن الحديد والنحاس ، ولها من المنابر فى سفح هذا الجبل مجريط [٢] ، وهى مدينة صغيرة ، وقلعة منيعة معمورة ، وكان لها فى زمن الاسلام مسجد جامع ، وخطبة قائمة ، ولها أيضاً مدينة الفهمين [٣] ، وكانت مدينة متحضرة ، حسنة الأسواق والمبانى ، و بهامسجدجامع ، ومنبر وخطبة ، وهى كلهااليوم مع طليطلة فى أيدى الروم ، وملكها من القشتالين ، و ينتسب إلى الأذفونش الملك

وفى الشرق من مدينة طليطلة إلى مدينة وادى الحجارة ٥٠ ميلا وهى مرحلتان ومدينة وادى الحجارة حصينة حسنة كثيرة الأرزاق والخيرات ، جامعة لاشتات المنافع والغلات ، وهى مدينة ذات أسوار حصينة ، ومياه معينة ، و يجرى منها بجهة غربيها نهر صغير ، لها عليه بساتين وكروم ، وجنات وزراعات ، و بها من غلات الزعفران الشىء الكثير ، يتجهز به منها ، و يحمل إلى سائر العمالات والجهات . وهذا النهر يجرى إلى جهة الجنوب ، فيقع فى نهر تاجه الأكبر فيمده . ونهر تاجه

(١) الغسل بالكسر ما يغسل به الرأس من خطمى وطين واشنان ونحوه . عن لسان العرب .

(٢) هى التى يقول لها الاسبان مدريد وهى اليوم عاصمة اسبانية ومن أهم مدن أورية وقد كانت مجريط فى زمن الادريسى خرجت من يد الاسلام ومثلها طليطلة فلذلك قال أنه كان لمجريط فى زمن الاسلام مسجد جامع وخطبة قائمة وسنذكر طليطلة تفصيلا ونؤيد ما يجب تأييده من كلام الادريسى عنها ونرد ما هو من قبيل الأساطير مثل قوله : أن طليطلة هى من بناء العمالقة

(٣) قال ياقوت فى معجم البلدان : الفهميين كأنه جمع فهمى اسم قبيلة الفهميين بالأندلس من أعمال طليطلة انتهى ولم يذكر زيادة على ذلك ونحن نعلم أنه يقال الفهميون لفهم الجمرات بطن من لخم وأنه يوجد أيضاً فى الازد بطن اسمهم فهم بن غنم ابن دوس بن عدنان منهم جذيمة بن مالك بن فهم الملك الأبرص راجع تاج العروس

المذكور يخرج من ناحية الجبال المتصلة بالقلعة [١] والفنت [٢] فينزل ماراً مع المغرب إلى مدينة طليطلة [٣] ، ثم إلى طلبيرة [٤] ، ثم إلى المخاضة [٥] ، ثم إلى القنطرة [٦] ثم إلى قنيطرة محمود [٧] ثم الى مدينة شنترين [٨] ، ثم إلى لشبونة [٩] ، فيصب هناك فى البحر . ومن مدينة وادى الحجارة إلى مدينة سالم [١٠] شرقا ٥٠ ميلا . ومدينة سالم هذه مدينة جليلة فى وطاء من الأرض ، كبيرة القطر كثيرة العمارات والبساتين والجنات ، ومنها إلى مدينة شنت مارية ابن رزين [١١] أربع مراحل خفاف ، ومنها إلى الفنت أربع مراحل . و بين شنت مارية والفنت مرحلتان ، وشنت مارية والفنت مدينتان عامرتان ، بهما أسواق قائمة ، وعمارات متصلة دائمة ، وفواكه عامة وكانا فى الاسلام منازل القواطم [١٢] . ومن مدينة سالم إلى مدينة قلعة

---

(١) يقول دوزى فى ترجمته لكلام الادريسى هنا إن المقصود بهذه القلعة هى قلعة كبريال وهى إلى الشمال الغربى من « الفنت »

(٢) الفنت هذه هى التى يقول لها الاسبانيول « البونت » Alpuente

(٣) Toledo (٤) Talevera De La Reina

(٥) لا نعلم ماذا يقول الاسبانيول لهذا المكان

(٦) هى قنطرة السيف بلدة معروفة ينسب إليها فى زمن العرب جماعة من أهل العلم والاسبان يقولون Alcantra (٧) لم نعلم ماذا يقول الاسبانيول لهذه البلدة

(٨) Santaren وهى مدينة مشهورة سيأتى ذكرها

(٩) Lisboa عند البرتغال أو Lisbonne وسيأتى ذكرها

(١٠) Medinaceli عند الاسبانيول بحذف الميم

(١١) Albarrazin عند الاسبانيول

(١٢) غريب جداً ذكر الادريسى هؤلاء « القواطم » بدون التعريف عنهم بشىء ولذلك لم يفهم هذه اللفظة أحد من مترجمى كلام الادريسى ومفسريه ونحن أشكل علينا أيضاً فهمها ولم يذهب فكرنا إلى أنها « الفواطم » بالفاء الموحدة لأنه لم يسمع أن قوماً من الفاطميين سكنوا بتلك الأرض واشتهروا بها واشتهرت بهم وكذلك من العادة أن يقال لهم « الفاطميون » أو « الطالبيون » أو « الهاشميون » ولم نسمع

أيوب[1] ٥٠ ميلا شرقاً ، وهى مدينة رائقة البقعة ، حصينة شديدة المنعة ، بهية الأقطار كثيرة الأشجار والأثمار . وعيونها مخترقة ، و ينابيعها مغدودقة ، كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار ، و بها يصنع الغفار المذهب ، و يتجهز به إلى كل الجهات . ومن مدينة قلعة أيوب إلى قلعة دَرْوقه[2] ١٨ ميلا . ودروقة مدينة صغيرة متحضرة ، كثيرة العامر

بقوم اسمهم الفواطم يسكنون فى شمالى الأندلس فبق علينا أن نعلم ما المراد بالقواطم بالقاف المثناة ، فالعلامة دوزى يظن أنها محرفة عن « القواسم » لأنه كان فى الفنت فخذ يقال لهم « بنو قاسم » ولا يزال هذا الاسم Beni Cassim يطلق على مكان بشرق الفنت إلى اليوم . قال دوزى : فيجوز أن يكون قيل لهم فيما بعد القواسم » ثم تحرفت القواسم هذه بطول الزمن إلى قواطم . قلنا : أن وجود أناس فى تلك البقعة كان يقال لهم بنو قاسم لاشك فيه وقد رأيت فى معجم البلدان ذ كر مكان فى تلك الناحية قال ياقوت عنه أنه من عمل بنى قاسم . ثم إن دوزى نفسه يقول إن بنى قاسم هؤلاء من ذرية عبد الملك بن قطن الفهرى أمير الأندلس المشهور الذى كان قبل بنى أمية فأنا أظن أن القواطم غير محرفة عن القواسم بل محرفة عن القواطن وذلك نسبة إلى عبد الملك بن قطن المذ كور فان ذرية هذا الرجل ينبغى أن يقال لهم « القطنيون » فالناس استثقلوا جمع ذرية ابن قطن على القطنيين كما جمعوا بنى فهم على الفهميين لثقل الأولى وخفة الثانية فاختاروا للاولى جمع التكسير وقالوا قواطن يريدون به بنى قطن . ومثل هذا الجمع كثير عند العرب . وأما انقلاب نون قواطن إلى ميم بحيث صارت قواطم فان بين النون والميم تبادلا كثيراً كما لا يخفى فهذا وجه خطر ببالنا عن هذه اللفظة والله أعلم

(١) الاسبانيول يقولون لها « كالاتايود » Calatayud وهى بلدة على وادى شلون جاء فى دليل بديكر أنه يشرف على هذه البلدة حصن اسمه قلعة أيوب بناه العرب فى القرن الثامن للمسيح وأن أذفونش الأول ملك أراغون انتزع قلعة أيوب سنة ١١١٩ من أيدى العرب . والمشهور أن بانى قلعة أيوب هو أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير . وسنأتى على ذ كرها تفصيلا

(٢) هذه البلدة هى على ٣٥ كيلو مترا من قلعة أيوب ، والأسبان يقولون لها « داروكة » Daroca جاء فى دليل بديكر أن هذه البلدة ازدهرت فى زمان العرب

غزيرة البساتين والكروم ، وكل شيء بها كثير رخيص . ومن دروقة إلى مدينة سرقسطة[1] ٥٠ ميلا . وكذلك من مدينة قلعة أيوب إلى مدينة سرقسطة ٥٠ ميلا

ومدينة سرقسطة قاعدة من قواعد مدن الأندلس ، كبيرة القطر ، آهلة ممتدة الأطناب ، واسعة الشوارع والطرقات ، حسنة الديار والمساكن . متصلة الجنات والبساتين ، ولها سور مبنى من الحجارة حصين . وهى على ضفة النهر الكبير المسمى إبره[2] ، وهو نهر كبير ، يأتى بعضه من بلاد الروم ، و بعضه من جهة جبال قلعة أيوب ، و بعضه من نواحى قلهرّة[3] ، فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيله[4] ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة . إلى أن تنتهى إلى حصن جَبْرَه[5] . إلى موقع نهر الزيتون ، ثم إلى طرطوشة فيجتاز غربيها إلى البحر .

ومدينة سرقسطة هى المدينة البيضاء ، وسميت بذلك لكثرة جصها وجيّارها ، ومن خواصها أنها لا تدخلها حية البتة . و إن جلبت اليها وأدخلت المدينة ماتت وحيًّا بلا تأخير . ولمدينة سرقسطة جسر عظيم يجتاز عليه إلى المدينه ، ولها أسوار منيعة ، ومبان رفيعة ، ومنها الى وشقة[6] ٤٠ ميلا . ومن وشقة إلى لاردة[7] ٧٠

وكان لها سور طوله ثلاثة كيلومترات وعليه ١١٤ برجاً وكان لدروقة قلعه مبنية على صخر عظيم من بناء العرب وسيأتى ذكرها أوسع من هذا

(١) Saragosse وهى من قواعد الأندلس الكبار كان العرب يسمونها بالثغر الأعلى وسنذكر عنها كل ما يلزم عند الوصول إلى مكانها من جغرافية الأندلس

(٢) Ebro وسيأتى الكلام على هذا النهر ومنبعه ومجراه .

(٣) Calahorra وهى بلدة قديمة على ضفه نهر سيدا كوس Cidacos اشتهرت بشدة أهلها فى مقاومة الرومانيين ومنها إلى « شورية » ٩٩ كيلومتر .

(٤) Tudela (٥) Chibrana

(٦) الاسبانيول يقولون لها Huesca وهى مدينة قديمة جدا وكان الرومانيون يسمونها أوسكه Osca وعمرت فى زمان العرب وبقيت فى أيديهم إلى سنة ١٠٩٦ ثم صارت قاعدة لمملكة أراغون وهى على مسافة ٢٢ كيلو مترا من سرقطة وسكانها اليوم ١٣٠٠٠ نسمة وسيأتى ذكرها .

(٧) هذه البلدة هى من عمل كتلونية فيها اليوم ٢٣٠٠٠ نسمة والاسبان يقولون

ميلا . ومدينة لاردة مدينة صغيرة متحضرة . ولها أسوار منيعة ، وهى على نهر كبير ومن مكناسة [(١)] إلى طرطوشة [(٢)] مرحلتان وهما ٥٠ ميلا ، ومدينة طرطوشة مدينة على سفح جبل ، ولها سور حصين ، وبها أسواق وعمارات ، وصناع وفعلة ، وإنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها ، وبجبالها يكون خشب الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ ، ومنه تتخذ السوارى والقرى [(٣)] وهذا الخشب الصنوبر الذى بجبال هذه المدينة أحمر صافى البشرة ، دسم لا يتغير سريعاً ، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره ، وهو خشب معروف منسوب . ومن طرطوشة إلى موقع النهر فى البحر ١٢ ميلا ، ومن مدينة طرطوشة إلى مدينة طركونة [(٤)] ٥٠ ميلا .

ومدينة طركونة على البحر ، وهى مدينة اليهود ، ولها سور رخام ، وبها أبنية حصينة وأبراج منيعة ، ويسكنها قوم قلائل من الروم ، وهى حصينة منيعة ، ومنها

لها ليريده Lerida وكان الرومانيون يسمونها ايلرده Ilerda وهى مدينة قديمة جداً أيضاً وجدت فيها مسكوكات من زمان الايبيريين وعليها رأس ذئب . وفى السنة ٤٩ قبل المسيح هزمت فيها جيوش قيصر جيوش أعدائه المنتسبين إلى بومبي . وكان استيلاء العرب عليها سنة ٧١٣ مسيحية واسترجعها الاسبان سنة ١١١٧ وسيأتى ذكرها

(١) الاسبان يلفظونها مكيننسة Mequinenza وهى من شارات ساحل كتلونية

(٢) عند الاسبان تورتوزه Tortosa وكان الرومان يقولون لها درتوزه Dertosa وقال لها العرب طرطوشة وسيأتى ذكرها بما يليق من التفصيل .

(٣) السوارى جمع سارى وهو الخشبة المعترضة فى وسط السفينة ويكون عليه الشراع وهو معروف . وأما القرى فليس فى اللغة بهذا المعنى بل القرى جمع قرية وهى البلدة . ولكن يوجد فى اللغة « القرية » بتشديد الياء وهى عود الشراع الذى يجعل فى عرضه من أعلاه والمعروف أنه يجمع على قرايا . ورد ذلك فى تاج العروس وقال الزبيدى : والعامة تقول القرية بالتخفيف أى أن الادريسى جرى فى جمعه القرية على القرى مجرى العامة لأنه من بعد تخفيفها صار جمعها على قرى هو الأولى وقد لحظنا أن الادريسى يستعمل كثيرا من الألفاظ العامية ولحظ ذلك دوزى من قبل

(٤) Tarragona والاسبانيول يقولون لها طركونه كالعرب وهى مدينة بحرية

إلى برشلونة [١] فى الشرق ٦٠ ميلا ، ومن مدينة طرّكونة غرباً إلى موقع نهر إبرُه ٤٠ ميلا ، وهذا الوادى ههنا يتسع سعة كثيرة ، ومن موقع النهر إلى رابطة « كشطالى » [٢] غرباً على البحر ١٦ ميلا ، وهى رابطة حسنة ، حصينة منيعة ، على نحر البحر الشامى ، يسكنها قوم أخيار ، وبالقرب منها قرية كبيرة وبتصل بها عمارات ومزارع ، ومن رابطة كشطالى غرباً إلى قرية « يانة » Ianna قرب البحر ٦ أميال ، ومنها إلى حصن « بنشكله » [٣] ٦ أميال ، وهو حصن منيع على ضفة البحر ، وهو عامر آهل ، وله قرى وعمارات ومياه كثيرة . ومن حصن بنشكله إلى عقبة « ابيشة » [٤] ٧ أميال ، وهو جبل معترض عال على البحر والطريق عليه لابد من السلوك على رأسه ، وهو صعب جداً . ومنه إلى مدينة « بوريانه » [٥] غرباً ٢٥ ميلا

سكانها ٢٤ ألفا ، مشرفة على البحر تعلوه إلى حد ١٦٠ مترا وهى مدينة قديمة ايبيرية ولا يزال فيها مسكوكات من ذلك العهد . استولى عليها الرومانيون وحصنوها وجعلوها مرسى شهيراً وصارت مركزاً لهم فى اسبانية وأقام بها أغسطس الرومانى سنة ٢٦ قبل المسيح وجعلها قاعدة للمقاطعة المسماة « اسبانية الطركونية » وفيها ابنية رومانية ومشهد للتمثيل وبعد النصرانية صارت مركز اسقفية ولما جاء القوط سنة ٤٧٥ للمسيح جعلوا عاليها سافلها واستولى عليها العرب سنة ٧١٣ واسترجعها الاسبانيول بعد ذلك بأربعمائة سنة وصارت تابعة لبرشلونة

(١) Barcelona وهى قاعدة كتلونيـة وأكبر مدن اسبانيـة وأوسعها تجارة وأكثرها صناعة وسيأتى ذكرها تفصيلا

(٢) دوزى يعتقد أن هذه الرابطة هى التى يقول لها الاسبانيول Castillo De Chiver وهى بقرب قلعة شيفر أو شيبر

(٣) ويقول لها الاسبانيول « بنيسكولا » Penuscola وتسمى جبل طارق بلنسية لأنها فى جزيرة متصلة بالبر بلسان من الرمل وكان هذا الحصن فى يد العرب إلى سنة ١٢٣٣ إذ أخذه منهم جاك الأول ملك أراغون .

(٤) هى بالاسبانيول Abicha.

(٥) الاسبانيول يقولون لبوريانة Burriano أى بوريانة بالتشديد . وتأمل فى ما ورد فى دليل بديكر فى كلامه على البلاد التى بين طرطوشة وبلنسية قال : إن

ومدينة بوريانه مدينة جليلة عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم، وهي في مستو من الأرض، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أميال . ومن بوريانه إلى « مرباطر » [١] وهى قرى عامرة وأشجار ومستغلات، ومياه متدفقة، ٦٠ ميلا، وكل هذه الضياع والأشجار على مقربة من البحر . ومنها إلى « بلنسية » غرباً ١٢ ميلا .

ومدينة بلنسية قاعدة من قواعد الأندلس، وهى فى مستو من الارض، عامرة القطر، كثيرة التجار والعمار، وبها أسواق وتجارات، وحط واقلاع، وبينها وبين البحر ٣ أميال مع النهر، وهى على نهر جار ينتفع به، ويسقى المزارع، ولها عليه بساتين وجنات، وعمارات متصلة . ومن مدينة بلنسية إلى مدينة سرقسطة ٩ مراحل على « كتندة » [٢] وبين بلنسية وكتندة ٣ أيام، ومن كتندة إلى « حصن الرياحين » مرحلتان، وهو حصن كثير الخلق عامر بذاته . ومن حصن الرياحين إلى « القنت » [٣] يومان ، ومن مدينة بلنسية إلى جزيرة « شقر » [٤] ١٨ ميلا، وهى على نهر شقر

قسطلون البلانة Castellon De La Plana هى مدينة زاهرة سكانها ٢٨ الف نسمة وهى مركز تجارة للبرتقال ولها فرضة على البحر اسمها « غراو » والقطار الحديدى يمر منها فى مكان اسمه المجرّ Migares على جسر ثلاثة عشر قوساً راكب فوق قناة قسطلون المشتقة من النهر . وهذه التحفة البديعة من بدائع هندسة العرب تسقى تلك الأراضى منذ ستمائة سنة ثم تفيض من هناك إلى مدينة فيلاريال Villarreal وهى مدينة سكانها ١٦ ألفاً ويوجد فيها بساتين البرتقال وبينها بعض أشجار النخل والنساء تحمل هناك أباريق غريبة ترجع إلى عهد قديم ، ثم إن مياه المجر هذا لا تزال تتوزع على الأراضى إلى بوريانة التى هى أيضاً من الأماكن المشهورة بالبرتقال .

(١) Murbiter أو Merviedero

(٢) الاسبانيول يقولون Ceutenda

(٣) » » Alicante

(٤) » » Rio Jucar أى نهر شقر وعليه بلدة اسمها الصيرة

وجزيرة شقر المذكورة حسنة البقاع ، كثيرة الأشجار والاثمار والانهار ، وبها ناس وجلّة ، وهي على قارعة الطريق الشارع إلى مرسية . ومن جزيرة شقر إلى «شاطبة»[١] ١٢ ميلا . ومدينة شاطبة مدينة حسنة ، ولها قصاب، يضرب بها المثل في الحسن والمنعة ويعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بعمور الارض ، ويعم المشارق والمغارب ومن شاطبة إلى « دانية »[٢] ٢٥ ميلا ، وكذلك من شاطبة إلى بلنسية ٣٢ ميلا ، وكذلك من بلنسية إلى مدينة دانية ، على البحر مع الجون ٦٥ ميلا ومن بلنسية إلى حصن « قليبرة »[٣] ٢٥ ميلا ، وحصن قليبرة قد أحدق البحر به ، وهو حصن منيع ، على موقع نهر شقر ، ومنه إلى مدينة دانية ٤٠ ميلا ومدينه دانية على البحر عامرة حسنة ، لها ربض عامر ، وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر ، قد بنى بهندسة وحكمة ، ولها قصبة منيعة جداً ، وهي على عمارة متصلة وشجرات تين كثيرة وكروم ، وهي مدينة تسافر اليها السفن ، و بها ينشأ أكثرها ، لانها دار انشاء السفن ، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق ، ومنها يخرج الاسطول للغزو ، وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير يظهر من أعلاه جبال « يابسة »[٤] في البحر ، ويسمى هذا الجبل جبل قاعون[٥]

والعرب يسمونها جزيرة شقر والصيرة وهي تحريف الجزيرة

(١) الاسبانيول يقولون لها Jatiba ويقلبون الجيم خاء على عادتهم

(٢) Denia ولا بد من لفظ الألف بالاماله حتى يفهم الاسبانيولي أن المراد هو هذه البلدة . ومن المعلوم أن عرب الأندلس كان أكثر لفظهم بالامالة . ولما كنت في الأندلس أردت الذهاب من القنت إلى دانية فلفظت هذه بغير امالة لأجل قطع تذكرة السفر فلم يفهموا مني في بادىء الأمر .

(٣) دوزي يقول انه « كوليره » Cullera

(٤) يابسة هي جزيرة Ibiza أعلى قمة فيها تعلو ٤٧٥ متراً

(٥) Càoun

ومن مدينة شاطبة إلى بكيران غرباً ٤٠ ميلا ، وحصن « بكيران »[١] حصن منيع عامر كالمدينة ، وله سوق مشهوده ، وحوله عمارات متصلة ، تصنع به ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية ، و يعمر الثوب منها سنين كثيرة ، وهى من أبدع الثياب عتاقة ورقة ، حتى لا يفرق بينها و بين الكاغد فى الرقة والبياض . ومن بكيران إلى دانية ٤٠ ميلا . ومن حصن بكيران الى مدينة « الش » ٤٠ ميلا . ومدينة الش[٢] مدينة فى مستو من الأرض ، و يشقها خليج يأتى اليها من نهرها ، يدخل المدينة من تحت السور ، فيتصرفون فيه ، ويجرى فى حمامها ، و يشق أسواقها وطرقاتها ، وهو نهر مليح سبخى ، وشرب أهل المدينة من الخوابى ، يجلب اليها من خارجها ، ومياهها المشروبة من مياه السماء . ومن مدينة الش إلى مدينة « وريوالة »[٣] ٢٨ ميلا ، ومدينة أوريولة على ضفة النهر الأبيض هو نهرها ونهر مرسية ، وسورها من ناحية الغرب على جريته ، ولها قنطرة على قوارب ، يدخل اليها منها ، ولها قصبة فى نهاية من الامتناع ، على قنة جبل ، ولها بساتين وجنات ، ورياضات دانية ، وبها من الفواكه ما لا تحصيل له ، و بها رخاء شامل ، و بها أسواق وضياع . و بين أوريولة والبحر ٢٠ ميلا . و بين أوريولة ومدينة مرسية ١٢٠ ميلا ، ومن مدينة أوريولة إلى « قرطاجنة » ٤٥ ميلا .

ومن مدينة دانية المتقدم ذكرها على الساحل إلى مدينة « لَقَنت »[٤] غرباً

---

(١) حصن بكيران هو فى جنوبى شاطبة والاسبانيول يكتبونه Bocayrant

(٢) Elche وهى ذات النخل وسيأتى الكلام عنها . وأظن بنى الالشى فى دمشق أصلهم منها

(٣) هى بالأسبانيولى أوريواله Orihuela والعرب يقولون لها اريوله وربما يضعون الواو بعد الألف ولكن وردت فى جغرافية الادريسى وغيره بزيادة ألف بعد الواو أى اريوالة وتكررت على هذا الشكل ويقال لهذه البلدة تدمير باسم الأمير الذى كان فيها يوم أخذها منه العرب صلحا

(٤) الأسبانيول يقولون آليكنت Alicante والعرب يقولون القنت بالألف

على البحر ٧٠ ميلا . ولقنت مدينة صغيرة عامرة ، و بها سوق ومسجد جامع ومنبر و يتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر . و بها فواكه و بقل كثير وتين وأعناب ولها قصبة منيعة عالية جداً فى أعلى جبل [١] ، يصعد اليه بمشقة وتعب ، وهى أيضاً مع صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق . و بالقرب من هذه المدينة ، وبالقرب منها ، جزيرة تسمى « ابلناصة » [٢] وهى على ميل من البر ، وهى مرسى حسن ، وهى مكمن لمراكب العدو ، وهى تقابل « طرف الناظور » [٣] ، ومن طرف الناظور إلى مدينة القنت ١٠ اميال ، ومن مدينة القنت فى البر إلى مدينة الش مرحلة خفيفة ، ومن مدينة القنت إلى « حلوق بالش » [٤] ٥٧ ميلا و بالش مع مراسى افواه أودية تدخلها المراكب ومن بالش إلى جزيرة الفيران [٥] ميل . و بين هذه الجزيرة والبر ميل ونصف ، ومنها إلى طرف « القيطال » [٦] ١٢ ميلا ، ومنه إلى « برتمان [٧] الكبير ، وهو مرسى ، ٣٠ ميلا ، ومنه إلى مدينة « قرطاجنة » [٨] ١٢ ميلا . ومدينة قرطاجنة ، وهى فرضة مدينة مرسية .

واللام وأحيانا لقنت بلام دون ألف وجميع هذه المدن سيأتى الكلام عليها فى مواضعها

(١) الاسبانيول يقولون لهذه القصبة التى بأعلى الجبل حصن « سانتا برباره » Castillo De Santa Barbara

(٢) هنا خطأ فى النسخ ولا يوجد ابلناصه وإنما الجزيرة اسمها بلانة وهى فى جنوبى القنت .

(٣) طرف الناظور هو سانتا بولو Santa Polo

(٤) بالش هى Bélich ومرساها يقول له الاسبانيول Mar Menor

(٥) اسم هذه الجزيرة عند الاسبان Isla Grosa

(٦) القيطال Cap De Palos

(٧) برتمان الكبير هو عند الاسبان Puerto Pormann وكان يقال له أيام الرومان Pertus Magnus

(٨) أحسن مرسى فى أسبانية وسيأتى ذكرها

وهى مدينة قديمة أزلية ، لها مرسى ترسى بها المراكب الكبار والصغار ، وهى كثيرة الخصب والرخاء المتتابع ، ولها إقليم يسمى « الفندون »[١] وقليل مايوجد مثاله فى طيب الأرض ، وجودة نمو الزرع فيه ، ويحكى أن الزرع فيه يثمر بسقى مرة واحدة ، واليه المنتهى فى الجودة .

ومن مدينة قرطاجنة على الساحل إلى «شجانة»[٢] ٢٤ ميلا ، وهو مرسى حسن وعليه بقربه قرية ، ومنه إلى حصن « آقلة »[٣] ١٢ ميلا ، وهو حصن صغير على البحر ، وهو فرضة « لورقة » ، وبينهما فى البر ٢٥ ميلا . ومن حصن آقلة إلى وادى « بيرَة »[٤] فى قعر الجون ٤٢ ميلا . وعلى مصب النهر جبل كبير وعليه حصن بيرة

---

(١) يظن دوزى أنه واقع تحريف لم يظهر معه أصل الكلمة

(٢) Chadjena

(٣) جاء فى دليل بديكر عند ذكر مدينة لورقة قال أن سكانها ٣٠ ألف نسمة وكانت تسمى إلوكرو Ilucro فى زمن الرومانيين فقال العرب لها لورقة وهى مبنية إلى الشمال الغربى من شارات كانو ، ويشقها وادى « الأنطين » والبلدة القديمة لاتزال شوارعها ضيقة وهى تذهب صعدا فوق الصخور إلى أن تتصل بحصن عربى لا يزال ماثلا وفيها كنيسة اسمها سنتامارية مبنية فى المكان الذى خيم فيه الأذفونش الملقب بالحكيم قبل أن أخرج هذه البلدة من أيدى العرب سنة ١٢٣٤ وإلى الشمال شارات كانو والخط الحديدى يمر فى مكان يقال له « نوغلت Nogalte كان ميداناً للوقائع الشداد بين عرب غرناطة والمسيحيين وهناك على البحر مرسى آكيلاس اهـ فهذه هى آقلة التى يشير إليها الادريسى

(٤) Vèra جاء فى كتاب « صفة مملكة غرناطة » المنقول عن « معيار الاختيار » لابن الخطيب مايلى عن بيره هذه وضبطها بفتح فسكون : « بلدة صافية الجو رحيبة الدو يسرح فيها البعير ويجم بها الشعير ويقصدها من مرسية واحوازها العير فما كنها بين تجر وابتغاء أجر ، ووادبها نيلى الفيوض والمدود ، مصرى التخوم والحدود ، إن بلغ إلى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود ، إلا أنها قليلة المطر ، مقيمة

المطلّ على البحر ، ومن الوادى إلى الجزيرة المسماة « قربُنيرة »[١] ١٢ ميلا ، ثم إلى « الرصيف » ستة أميال ، ثم إلى « الشامة البيضاء » ثمانية أيام ، ثم إلى طرف « قابطة[٢] ابن أسود » ستة أميال . ومن طرف القابطة إلى المرية ١٢ ميلا . ومن مدينة قرطاجنة إلى مرسية فى البر ٤٠ ميلا .

ومدينة مرسية قاعدة أرض تدمير . وهى فى مستو من الأرض ، على النهر الأبيض ، ولها ربض عامر آهل ، وعليها وعلى ربضها أسوار حصينة ، وحظائر متقنة والماء يشق ربضها ، وهى على ضفة النهر المعروف ، ويجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب . ولها أرحاء طاحنة في المراكب ، مثل طواحن سرقسطة . التى هى تركب في مراكب تنتقل من موضع إلى موضع ، وبها من البساتين والأشجار والعمارات مالا يوجد بتحصيل ، ولها كروم ، وبها شجر التين كثير ، ولها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال . ومن مدينة مرسية إلى مدينة بلنسية خمس مراحل ، ومن مرسية إلى المرية على الساحل ٥ مراحل ، ومن مرسية إلى قرطبة عشر مراحل ، ومن مرسية إلى حصن شقورة[٣] ، ٤ مراحل ، ومن مرسية إلى « جنجالة »[٤] ٥٠

على الخطر ، مثلومة الأعراض والأسوار ، مهطعة لداعى البوار ، خليفة الحسن المغلوب ، معللة بالماء المجلوب ، آخذة بكظام القلوب ، خاملة الدور ، قليلة الوجوه والصدور ، كثيرة المشاجرة والشرور ، وذهل أهلها فى الصلاة شائع فى الجمهور ، وسوء ملكة الأسرى من الذائع بها والمشهور .

(١) Carbonéra (٢) Cap De Gata

(٣) النهر الذى تشرب منه مرسية كان يقال له فى القديم تادر Tader والاسبانيول يقولون له سيغوره Segura والعرب يقولون له شقورة وسيأتى الكلام على شقورة وغيرها تفصيلا والادريسى يسميه بالنهر الأبيض ودوزى يقول إن Guadalaviar الذى يمر ببلنسية هو النهر الأبيض وكذلك جاء فى دليل بديكر ولكن تعريب Guadalaviar هو وادى الابيار .

(٤) يقول الأسبانيول لهذه البلدة شنشيلة Chinchilla وهى على ٢٩٨ كيلومتراً من مجريط وفيها يتلاقى خطان حديديان خط مرسية وخط قرطاجنة وهى مبنية على

ميلا . ومدينة جنجالة متوسطة القدر ، حصينة القلعة ، منيعة الرقعة ، ولها بساتين وأشجار وعليها حصن حسن ، و يعمل بها من وطاء الصوف مالا يمكن صنعه فى غيرها باتقان الماء والهواء ، ولنسائها جمال فائق وحصافة .

ومن جنجاله « إلى « كونكة » يومان ، وهى مدينة أزلية صغيرة ، على منقع ماء مصنوع قصداً ، ولها سور ، وليس لها ر بض ، و يصنع بها من الأوطية المتخذة من الصوف كل غريبة . ومن قونكة إلى قلصة [١] ثلاثة مراحل شرقا ، وقلصة حصن منيع يتصل به أجبل كثيرة ، بها شجر الصنو بر الكثير و يقطع بها الخشب و يلقى فى الماء ، و يحمل إلى دانية و إلى بلنسية فى البحر ، وذلك أنها تسير في النهر من قاصة إلى جزيرة شقر ، ومن جزيرة شقر إلى حصن « قاليره » وتفرّغ هناك على البحر ، فتملأ منها المراكب ، وتحمل إلى دانية ، فتنشأ منها السفن الكبار ، والمراكب الصغار ، و يحمل إلى بلنسية منه ما كان عريضاً ، فيصرف فى الأبنية والديار . ولا تزال عادة ارسال الخشب فى النهر إلى جزيرة شقر إلى قليرة الخ إلى

رابية عليها حصن وفى جوانبها كهوف يسكن فيها الناس ومنها يمتد الخط الحديدى إلى بلدة يقال لها « ألبره » على نحو ٤٠ كيلو مترا من جنجالة ثم إلى محل يقال له عند الاسبانيول ألمصا Almansa ولا شك أنه محرف عن المصنع جاء فى دليل بديكر أن هناك خزانا بناه العرب طوله ألفا متر وعرضه ألفا متر وعمقه ثمانون متراً وهو مبنى على واد بين جانبيه سد وهناك حصن عربى مبنى على حجر أبيض مشرف على السهل . قلت، ولقد مررت على جنجاله والمصنع فى طريقى إلى مرسية وأنا بالقطار وشاهدت هذا الخزان فى أثناء المسير . وقد ضبط ياقوت الحموى اسم شنشالة بالتاء فقال شنتجاله وبخط الأشتوى شنتجيل بالياء . وسيأتى ذكرها فى موضعه

(١) الخط الحديدى من مرسية يمر على قرية اسمها « غرنجة » ثم على « قلصة » و يقول لها الأسبانيول كاللوزه Callosa وهى بلدة صغيرة منظرها لا يزال عربياً مبنية بحذاء جندل كبير وفيها بيوت كثيرة منحوتة فى الجندل وحولها برتقال ونخل . ولم يعرف دوزى قلصه هذه فوضع عليها علامة وقال إن أحرفها غير بينة وكتبها هكذا : Calaca

يومنا هذا . ومن قلصة إلى شنت مارية ثلاث مراحل ، وكذلك من قلصة إلى « الفنت » أيضاً مثل ذلك ، ومن « قونكة » [(١)] إلى « و بذى » [(٢)] ثلاث مراحل و « و بذى » و « اقليش » [(٣)] مدينتان متوسطتان ، ولها أقاليم ومزارع عامرة ، و بين و بذى واقليش ١٨ ميلا ، ومن اقليش الى شقورة ٣ مراحل وشقورة حصن كالمدينة ، عامر بأهله ، وهو فى رأس جبل عظيم متصل ، منيع الجهة ، حسن البنية ، و يخرج من أسفله نهران ، أحدهما نهر قرطبه ، المسمى بالنهر الكبير ، والثانى هو النهر الأبيض الذى يمر بمرسية ، وذلك أن النهر الذى يمر بقرطبة يخرج من هذا الجبل من مجتمع مياه كالغدير ، ظاهر فى نفس الجبل ، ثم يغوص تحت الجبل ، و يخرج من مكان فى أسفل الجبل ، فيتصل جريه غربا إلى جبل « نجدة » [(٤)] ، إلى « غادرة » [(٥)] ، إلى قرب مدينة « أبذة » [(٦)] ، إلى أسفل مدينة « بيّاسة » [(٧)] ، إلى حصن « اندوجر » [(٨)] ، إلى « القصير » [(٩)] ، إلى « قنطرة اشتشان » [(١٠)] ،

---

(١) يأتى المسافر من مجريط قاصدا إلى ساحل البحر عن طريق جنجالة فيمر ببلدة يقال لها « غيتاف » Getafe على ١٤ كيلو متراً من مجريط و بعد ذلك يمر ببلدة يقال لها « بنتو » Pinto ثم ببلدة يقال لها بلدمورو Valdemoro - ومن المعلوم أن المورو عند الأسبان هو المسلم - ثم إن الخط الحديدى يمر ببقعة مريعة مسقية يقال لها بقعة جرامة Jarama ومن هذه البقعة يصل المسافر إلى نهر تاجه وهناك بلدة يقال لها « أرنجويس » Arenjuez على مسافة ٥٠ كيلو مترا من مجريط ومنها يصل إلى مدينة قونكة وهى بلدة قديمة جداً كانت من مراكز العرب استرجعها من أيديهم الاذفونش الثامن سنة ١١٧٧ بعد حصار طويل وهى الآن قسمان المدينة القديمة والمدينة الجديدة وعدد سكانها ١٢ ألفا والقديمة مبنية على صخور شاهقة

(٢) هى Huete (٣) اقليش هى Ucles

(٤) Nadjda (٥) Gadira (٦) Ubeda (٧) Baeza

(٨) Andojar (٩) Al - Kosair (١٠) Pont D'èchtechàn

إلى قرطبة إلى حصن « المدور »[١] إلى حصن « الجُرف »[٢] إلى حصن « لورة »[٣] إلى حصن « القليعة »[٤] إلى حصن « قطنيانة »[٥] إلى « الزّرّادة »[٦] إلى اشبيلية ، إلى « قبطال »[٧] إلى « قبتور »[٨] ، إلى « طبرشانة »[٩] ، إلى « المساجد »[١٠] ، إلى قادس ، ثم إلى بحر الظلمات .

وأما النهر الأبيض الذى هو نهر مرسية فانه يخرج من أصل الجبل ، ويحكى أن أصلهما واحد ، أعنى نهر قرطبة ونهر مرسية . ثم يمر نهر مرسية فى عين الجنوب إلى حصن « افرد »[١١] ، ثم إلى حصن « موله »[١٢] ، ثم إلى مرسية ، ثم إلى أوريوالة إلى المدوّر ، إلى البحر ، ومن شقورة إلى مدينة « سرتة »[١٣] مرحلتان كبيرتان ، وهي مدينة متوسطة القدر ، حسنة البقعة ، كثيرة الخصب ، وبالمقربة منها حصن . . .[١٤] ، ومن حصن . . . إلى طليطلة مرحلتان . ومن أراد من مرسية إلى المريةسار من مرسية إلى قنطرة « اشكابة »[١٥] إلى حصن « لبرالة »[١٦] إلى حصن « الحمّة »[١٧] إلى مدينة « لورقة »[١٨] ، وهى مدينة غراء حصينة ، على ظهر جبل

---

(١) Almodovar (٢) Aljorf (٣) Lora (٤) Alcoléa
(٥) Cantillana (٦) Az - Zarrada (٧) Cabtal
(٨) Cabtor (٩) Trébugena (١٠) يقول الاسبانيول للمساجد صانلوكار San - Locar ويقال ان أصلها Solus Lucos (١١) Ferez
(١٢) Mula (١٣) يقول لها الأسبانيول Almonacid De Zorita
(١٤) موضوع فى الأصل بعد لفظة حصن ثلاث نقط . ثم موضوع جملة « ومن حصن » وبعدها أيضاً ثلاث نقط . وبعدها جملة « الى طليطلة » وهذا فى النسخة المطبوعة فى ليدن المترجمة الى الافرنسية بقلم دوزى وفى الحاشية مذكور انه « حصن فتة » أو « قنة » أو « قيه » اشارة الى ان اللفظة غير محققة . ثم ان دوزى يقول بعد هذا ان هذا البلد هو الذى يقال له Hita Calatrava
(١٥) قنطرة اشكابة هى Cantarilla
(١٦) Lebrilla
(١٧) الحمة يقول لها الاسبانيول Alhama وفى الاندلس حمات متعددة
(١٨) تقدم ذكرها وسيأتى مرة أخرى

ولها أسواق وربض فى أسفل المدينة ، وعلى الربض سور ، وفى الربض السوق ، والرهادرة [١] ، وسوق العِطر ، وبها معادن تربة صفراء ، ومعادن مغرة ، تحمل إلى كثير من الأقطار . ومن حصن لورقة إلى مرسية ٤٠ ميلا ، ثم من لورقة إلى « آبار الرتبة » [٢] إلى « حصن بَيْرة » [٣] مرحلة ، وهذا الحصن حصن منيع ، على حافة مطلّة على البحر . ومن هذا الحصن إلى « عقبة شَقَر » [٤] ، وهى عقبة صعبة المرقى ، لا يقدر أحد على جوازها راكباً ، وإنما يأخذها الركبان رجالة ، ومن العقبة إلى « الرابطة » [٥] مرحلة ، وليس هناك حصن ولا قرية ، وإنما بها قصر به قوم حراس للطريق ، ومن هذه الرابطة إلى المرية مرحلة خفيفة

ومدينة المرية كانت فى أيام الملثّم [٦] مدينة الاسلام ، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة ، وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز ، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهانى والجرجانى ، والستور المكللة والثياب المعيّنة ، والخُمُر والعتّابى ، والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير ، وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد ، إلى سائر الصناعات ، ما لا يحدّ ولا يُكيّف ، وكان بها من فواكه واديها الشىء الكثير الرخيص ، وهذا الوادى المنسوب إلى بجانة Bichêna بينه وبين المرية ٤ أميال ، وحوله جنات وبساتين وأرحاء ، وجميع نِعَمها وفواكهها تجلب إلى المرية ، وكانت المريه اليها تقصد مراكب البحر من

---

(١) لم يظهر لنا معنى هذه اللفظة واظنها من تحريف النساخ

(٢) Ar - Rataba ومن يقرأ « الرتبه » يظنها لأول وهلة بالضم فالسكون أى المنزلة والحال انها محركة بفتح الأول والثانى والثالث فالرتبة هى الخلل الذى بين الأصابع

(٣) هى التى تقدم ذكرها وتلفظ بفتح أولها وهى غير البيرة المشهورة التى منها مدينة غرناطة

(٤) Mujacar (٥) Arrabita

(٦) أى ايام دولة المرابطين يوسف بن تاشفين ورهطه

الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا . ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً .

والمرية فى ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة . والجبل الثانى منهما فيه رَبَضها ويسمى جبل « لاهم » Lahem والسور يحيط بالمدينة وبالربض . ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربى ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض ، وهو ربض له سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات . والمدينة فى ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات ، والمسافرون اليها كثيرون وكان أهلها مياسير ، ولم يكن فى بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً ، ولا أوسع منهم أحوالا . وعدد فنادقها التى أخذها عد الديوان فى التعيين الف فندق ، إلا ثلاثين فندقا ، وكان بها من الطرز أعداد كثيرة ، قدمنا ذكرها . وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدّسة ، وأحجار صلبة مضرّسة ، لا تراب بها ، كأنما غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر ، والمرية فى هذا الوقت الذى ألّفنا كتابنا فيه ، صارت ملكا بأيدى الروم ، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها . وخرّبوا ديارها ، وهدموا مشيّد بنيانها ، ولم يبقوا على شىء [1] منها . وللمرية منابر

---

(١) ان الشريف ابا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودى الحسنى المعروف بالشريف الادريسى ولد سنة ٤٩٣ للهجرة وفق ١١٠٠ للميلاد وكانت ولادته فى سبتة وقد توفى سنة ٥٦٠ للهجرة وفق ١١٦٦ للميلاد وقد حصل العلم فى قرطبة ولذلك قيل له القرطبى ولما اتصل بخدمة دجار الثانى ملك صقيلية قيل له الصقيلى وقد صنع للملك المذكور قبل وفاته بقليل صورة للارض كانت أكمل ماعرف لذلك العهد وكرة أرضية من فضة وألف كتابه هذا « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وقد اكمل تأليفه قبل سنة ٥٤٨ . وأما استيلاء العدو على مدينة المرية فقد كان يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ أى قبل تأليف كتاب الادريسى هذا بست سنوات واستشهد فى وقعة الاستيلاء عليها الامام الرشاطى المحدث الكبير صاحب كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار فى نسب الصحابة ورواة الآثار » وهو أبو محمد

منها مدينة برجة [١] ودلاية [٢] . و بين المرية و برجة مرحلة كبيرة . و بين برجة ودلاية نحو من ٨ أميال . و برجة أكبر من دلاية ، ولها أسواق وصناعات وحروث ومزارع . ومن المرية لمن أراد مالقة طريقان ، طريق فى البرّ وهو تحليق [٣] وهو ٧ أيام والطريق الآخر فى البحر وهو ١٨٠ ميلا . وذلك أنك تخرج من المرية إلى قرية البجانس [٤] على البحر ستة أميال ، ومن قرية البجانس يمر الطريق فى البر إلى برجة ودلاية . ومن قرية البجانس إلى آخر الجون ، وعليه برج مبنى بالحجارة ،

عبد الله بن على بن عبد الله بن على بن خلف بن احمد بن عمر اللخمى الرشاطى المرى جاء فى نفح الطيب أنه بعد أخذ النصارى مدينة المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين وبقيت فى أيدى الاسلام سنين . وكان أول الولاة عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن على رجلا يقال له يوسف ابن مخلوف فثار عليه أهل المرية وقتلوه وقدموا على أنفسهم الرميمى فأخذها النصارى منه عنوة وأحصى عدد من سبي من أبكارها فكان ١٤ ألفاً . قال فى النفح : ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين عبد المؤمن فحصرا النصارى بها وزحف إليها أبو عبد الله بن مردنيش ملك شرق الأندلس محاربا لهما فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلا وخارجا . ثم رأى ابن مردنيش العار على نفسه فى قتالها مع كونهما يقاتلان النصارى فارتحل فقال النصارى ما ارتحل ابن مردنيش إلا وقد جاءهم مدد فاصطلحوا ودخل الموحدون المدينة وقد خربت وضعفت إلى أن أحيى رمقها الرئيس أبو العباس احمد بن كمال واشتهر من ولاتها فى مدة بنى عبد المؤمن فى المائة السابعة الأمير أبو عمران بن أبى حفص عم ملك افريقية أبى زكريا ثم استبد بأمر المرية أحد بنى الرميمى الذين أخذ النصارى البلدة من جدهم ثم آلت إلى بنى الأحمر أصحاب غرناطه . ثم ذهبت فيما ذهب من ملكهم عند ما انطوى بساط الأندلس والله غالب على أمره انتهى ملخصاً وسنأتى على هذه الوقائع بتفصيل عند ما نصل إلى التاريخ إن شاء الله .

(١) Berja (٢) Dalias عند الاسبانيول . وسيأتى ذكر برجة ودلاية .

(٣) لعله يريد الارتفاع والدوران لأنه طرق فى الجبال .

(٤) لم نهتد إلى معرفة هذه القرية ولا اهتدى دوزى

مصنوع لوقيد النار فيه عند ظهور العدو فى البحر [1] ، ستة أميال ، ومن هذا الطرف إلى مرسى البيرة ٣٢ ميلا ، ومنه إلى قرية « عذرة » [2] على البحر ١٢ ميلا . وقرية عذرة مدينة صغيرة لا سوق لها ، وبها الحمام والفندق ، وبها بشر كثير ، وبغربيها ينزل نهر كبير ، منبعه من جبل شاير ، ويجتمع بمياه برجه وغيرها فيصب عند عذرة فى البحر ، ومن عذرة إلى قرية « بليسانة » [3] ٢٠ ميلا ، وهى قرية آهلة على شاطىء البحر ، ومنها إلى « مرسى الفروج » [4] ، ١٢ ميلا ، وهو مرسى كالحوط صغير . ومنه إلى قرية « بطرنه » [5] ٦ أميال ، وبها معدن التوتية

(١) عند ما ذهبنا من مالقة إلى الجزيرة الخضراء بالسيارة الكهربائية على شاطىء البحر لم نكن نجتاز أكثر من خمسمائة متر حتى نرى برجا مخروطى الشكل على أكمة مشرفة على البحر أشبه بمنارة مسجد . فهذه الأبراج كانت فى القديم توقد فى رؤوسها النيران إذا طرق العدو البلاد وكانت تقابلها أبراج فى الداخل فتى شاهد الناس النيران خفوا إلى محل الواقعة . وأما البرج الذى يذكره الادريسى هنا فيقول له الاسبانيول Puenta elema

(٢) هـذه القرية هى المرسى الذى ركب منه أبو عبد الله محمد بن الأحمر آخر ملوك المسلمين فى الأندلس قاصداً إلى المغرب فرسى به السفين بمرسى مليلة وهذا حسبما جاء فى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى لم يذكر اسم مؤلفه وقد عثرنا على نسخة منه مطبوعة بمدينة منيخ الألمانية سنة ١٨٦٣ مع ترجمة ألمانية وحواش للمستشرق الألمانى « مارك يوس موللر » وطبعناه مضافاً إلى الطبعة الثانية من كتابنا مختصر تاريخ الأندلس تذييلا على ترجمتنا « لآخر بنى سراج » وقد طبع كتابنا هذا أول مرة سنة ١٣١٥ وثانى مرة سنة ١٣٤٣ وسنأثر عنه وعن « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » عند الوصول إلى القسم التاريخى من « الحلل السندسية » لا سيما أن مؤلف هذا الكتاب قد ألفه سنة ٩٤٧ أى قبل تأليف نفح الطيب بنحو من ٩٣ سنة وكان حياً فى أثناء الكائنة الأندلسية على أثر سقوط غرناطة واحتضار حشاشة الاسلام فى الأندلس كما يظهر من تاريخ كتابه . والاسبانيول يقولون لهذه القرية Adra

(٣) هى عند الاسبانيول Torre De Mélicena

(٤) هو المسمى Castillo De Ferro (٥) هى Paterna عند الأسبان

التى فاقت جميع معادن التوتية طيباً ، ومنها إلى قرية « شلبونة »[١] ١٢ ميلا ، ومن شلبونة إلى مدينة المنكّب فى البحر ٨ أميال . « والمنكّب »[٢] مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك ، وبها فواكه جمّة ، وفى وسطها بناء مربّع قائم كالصنم أسفله واسع ، وأعلاه ضيّق ، وبه حفيران من جانبيه متصلان من أسفله إلى أعلاه وبأزائه من الناحية الواحدة فى الأرض حوض كبير يأتى اليه الماء من نهر ميل ، على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد فيصب ماؤه فى ذلك الحوض ، ويذكر أهل المعرفة من أهل المنكّب أن ذلك الماء كان يصعد إلى أعلى المنار ، وينزل من الناحية الأخرى ، فيجرى هنالك إلى رحى صغيرة . كانت ، وبقى موضعه الآن على جبل مطل على البحر ، ولا يعلم أحد ما المراد بذلك ؟

ومن مدينة المنكّب فى البر إلى مدينة أغرناطة ٤٠ ميلا ، ومن المنكّب على البحر إلى قرية « شاط »[٣] ١٢ ميلا ، وبقرية شاط زبيب حسن الصفة ، كبير المقدار أحمر اللون ، يصحب طعمه مرارة ، ويتجهّز به إلى كل البلاد الأندلسية . وهو منسوب إلى هذه القرية . ومن قرية شاط إلى قرية « طرُّش »[٤] على ضفة البحر

(١) هى عند الاسبان Salobrena والعرب تقول لها فى الغالب « شلوبانية » ونظرا للامالة فى لهجة الأندلس فقد يقولون « شلوبينية » وهكذا ضبطها ياقوت فى معجم البلدان . وأما لسان الدين بن الخطيب فكتبها بالألف لا بالياء وسنذكر وصفه لها وقال ياقوت : هى من أعمال كورة البيرة على شاطىء البحر كثيرة الموز وقصب السكر والشاه بلوط . قال : ينسب إليها أبو على عمر بن محمد بن عمر الأزدى النحوى إمام عظيم مقيم باشبيلية وهو حى أو مات عن قريب أخبرنى خبره أبو عبد الله محمد ابن عبد الله المرسى يعرف بأبى الفضل وكان من تلاميذه . اه . قلت هو أبو على الشلوبينى النحوى المشهور وكان يقال له أبو على الشلوبين وقد مات ياقوت الحموى وهو حى بل أبو على الشلوبين عاش بعد ياقوت ١٩ سنة لأن ياقوت مات سنة ٦٢٦ والشلوبين مات سنة ٦٤٥ بين يدى حصار الاسبانيول لاشبيلية قبل أخذهم أياها بقليل

(٢) يقول لها الاسبانيول Almunécar

(٣) شاط يقول لها الاسبانيول Jete (٤) يقول لها الاسبان Turrox

١٢ ميلا. ومنها إلى قصبة «مرّية بِلّيش»[١] ١٢ ميلا، وهو حصن على ضفة البحر صغير المقدار ويصب بقربة منه في جهة المغرب نهر الملاحة، وهو نهر يأتي من ناحية الشمال، فيمرّ بالحمّة، ويتصل باحواز حصن صالحة[٢]، فيقع فيه هناك جميع مياه صالحة، وتنزل إلى قرية « الفشاط »[٣] وتصب هناك في غربي حصن مرّية بلّش في البحر، ومن مرّية باش إلى قرية « الصيرة » ولها طرف يدخل في البحر، ٧ أميال. ومن طرف قرية الصيرة إلى قرية « بزليانة »[٤] ٧ أميال.

وهي قرية كالمدينة في مستو من الأرض، وأرضها رمل، وبها الحمام والفنادق وشباك يصاد بها الحوت الكثير، ويحمل منها إلى تلك الجهات المجاورة لها، ومن برليانه إلى مدينة مالقة[٥] ٨ أميال، ومدينة مالقة مدينة حسنة عامرة آهلة، كثيرة الديار، متسعة الأقطار، بهيّة كاملة سنيّة، أسواقها عامرة، ومتاجرها دائرة، ونعمها كثيرة، ولها فيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إلى ريّة وتينها يحمل إلى بلاد مصر والشام والعراق، وربما وصل إلى الهند، وهو من أحسن التين

(١) ان دوزى يرى في لفظة « مرية » عند عرب الأندلس معنى البرج الذى « يرى » منه أو الذى توقد فيه النار إذا طرق العدو . فقول الادريسى « مرية بلش » معناه البرج الخاص بهذا الأمر من ابراج بلش البحرية ويستشهد على صحة رأيه بقول البكرى « مرية بجانة » . وأما بلش هذه فهى بلش مالقة ويقال لها عند الاسبان Velez ويقال لهذه المرية Torre Del Marre

(٢) الاسبان يسمونه Saliha أو Zalia وقد خرب من بعد جلاء العرب عن غرناطة .

(٣) Al - Fachat

(٤) بزليانة عند الأسبانيول Las Ventas De Mesmiliana

(٥) قال عنها ابن الخطيب في « معيار الاختبار » ما أقول في الدرة الوسيطة وفردوس هذه البسيطة أشهد لو كانت يوماً لكانت عيدا في الأيام تبعث لها بالسلام مدينة السلام وتاتى لها يد الاستسلام محاسن بلاد الاسلام أى دار وقطب مدار وهالة أبدار وكنز تحت جدار الخ ، ويكتبها الأسبان Malaga وسيأتى وصفها مشبعا

طيباً ، وعذوباً ، ولمدينة مالقة ربضان كبيران . ربض « فنتنالة »[١] وربض « التبّانين »[٢] وشرب أهلها من مياه الآبار ، وماؤها قريب الغور ، كثير عذب ، ولها واد يجرى فى أيام الشتاء والربيع ، وليس بدائم الجرى . وسنذكرها بعد هذا بحول الله تعالى وقوته .

ولنرجع الآن إلى ذكر مدينة المرّية فنقول : ان الطريق من مدينة المرية الى اغرناطة البيرة ، فمن أراد ذلك خرج من المرية إلى « بجّانة »[٣] ستة أميال ، ومدينة بجّانة كانت المدينة المشهورة قبل المرية ، فانتقل أهلها إلى المرية ، فعمرت وخربت بجّانة ، فلم يبق منها الآن إلا آثار بنيانها ، ومسجد جامعها قائم بذاته ، وحول بجّانة Pechina جنّات و بساتين ، ومتنزّهات وكروم ، وأموال كثيرة لأهل المرية وعلى يمين بجانة ، وعلى ستة أميال منها « حصن الحمّة »[٤] والحمة فى رأس جبل و يذكر المتجولون فى أقطار الأرض أن مامثل هذه الحمة فى المعمور من الأرض وأتقن منها بناء ولا أسخن منها ماء ، والمرضى والمُعَلّون يقصدون إليها من كل الجهات فيلزمون المقام بها إلى أن تستقلّ عللهم ، و يشفوا من أمراضهم وكان أهل المدينة فى أيام الربيع يدخلون اليها مع نسائهم وأولادهم باحتفال من المطاعم والمشارب والتوسع فى الانفاق وربما بلغ المسكن بها فى الشهر ثلاثة دنانير مرابطية ، وأكثر وأقلّ . وجبال هذه الجهة كلها جِصٌّ يحتفر و يحرق ، و ينقل إلى المرية ، و به جميع عقد بنيانهم وتجصيصهم ، وهو بها وعندهم كثير ، رخيص لكثرته . ومن مدينة بجانة إلى قرية « بني عبدوس »[٥] ٦ أميال ، ومنها إلى حصن « مندوجر »[٦] ٦ أميال ، و به المنزل

---

(١) ربض فنتانة فى مالقة يقول له الاسبانيول Fontanella

(٢) ربض التبانين أى أصحاب التبن

(٣) Bachana أو Bechina

(٤) الحمة التى هى هنا هى Al Hamma

(٥) بنى عبدوس يكتبها الأسبانيول Benabdoux (٦) Monto - jar

لمن خرج من المرية ، وهى مرحلة خفيفة . وحصن مندوجر على جبل تراب أحمر ، والجبل على ضفة نهر ، والمنزل فى القرية منها ، ويباع بها للمسافرين الخبز والسمك ، وجميع الفواكه ، كل شىء منها فى إبّانه . ثم إلى حمّة « غشّر » [١] ثم إلى الحمة المنسوبة إلى « وشتن » [٢] ، ومنها إلى « مرشانة » [٣] ، وهو على مجتمع النهرين ، وهو من أمنع الحصون مكاناً ، وأوثقها بنياناً ، وأكثرها عمارة ، ومنها إلى قرية « بلذوذ » [٤] ، ثم إلى « حصن القصير » [٥] ، وهو حصن منيع جداً ، على فم مضيق فى الوادى ، وليس لأحد جواز إلا بأسفل هذا الحصن ، ومنه إلى خندق « فبير » [٦] ، ثم إلى « الرتبة » [٧] ، ثم إلى قرية « عبلة » [٨] ، وبها المنزل . ومن قرية عبلة إلى حصن « فنيانة » [٩] ، ثم إلى قرية « حنصل » [١٠] ، ثم الى أول فحص عبلة ، وطول هـذا الفحص ١٢ ميلا ، وليس به عوج ولا أمت ، وعن شمال المارّ جبل شلير الثلج ، وفى حضيض هذا الجبل حصون كثيرة ، منها حصن « فرّيرة » [١١] ينسب اليها الجوز ، وذلك أن بها من الجوز شيئا ينفرط فى غير رض ولا يعدله في طعمه شىء من الجوز من غيرها من الأقطار

ومن حصن هذا الجبل حصن « دِلر » [١٢] ، وبه من الـكمثرى كل عجيبة ، وذلك أن الـكمثرى به يكون منها فى وزن الحبّة الواحدة رطل أندلسى ، وأما الأعمّ

---

(١) هذه الحمة عرفها دوزى بأنها حمة أوجيجر Hamma Ujijar

(٢) أما حمة « وشتن » فلم يعرفها ورجح تصحيف الاسم

(٣) Merchena قال فى دليل بديكر : مرشانة مدينة قديمة جداً أهلها اليوم ١٢ ألف نسمة مبنية فى مكان مرتفع حولها أسوار مشعثة فيها قصور أدواق أركوس « اركش » وهى ملتقى خطى الحديد بين غرناطة واشبيلية

(٤) هى بالاسبانى Bolud (٥) Al - Kosaïr

(٦) خندق فبير هو Fabair

(٧) Arrataba (٨) Abla (٩) Finana

(١٠) Conçol (١١) Ferreira (١٢) Dilar

منها فكمثرتان فى رطل واحد ، ولها مذاق عجيب . ومن آخر فحص عبلة إلى خندق آش ، ثم إلى مدينة وادى آش [١] وهى مدينة متوسطة المقدار ، ولها أسوار محدقة ، ومكاسب مؤنقة ، ومياه متدفقة ، ولها نهر صغير دائم الجرى ، ومنها إلى قرية « دشمة » [٢] وبها المنزل . ومنها إلى « الرتبة » ثم الى قرية « أفرافيدة » [٣] ثم إلى قرية «ود» [٤] وهى قرى متصلة ومنها الى مدينة أغرناطة ٨ أميال . ومدينة وادى آش رصيف يجتمع به طرق كثيرة ، فمن أراد منها مدينة بسطة خرج منها الى جبل عاصم [٥] ثم الى قرية . . . [٦] الى مدينة بسطة [٧] وبينهما ٣٠ ميلا . ومدينة بسطة متوسطة المقدار ، حسنة الموضع ، عامرة آهلة .لها أسوار حصينة ، وسوق نظيفة وديار حسنة البناء ، رائقة المغنى ، وبها تجارات وفَعَلَة لضروب من الصناعات ، وعلى

---

(١) Guadix وهى من مشهورات مدن الاندلس قال عنها لسان الدين : هى مدينة الوطن ومناخ من عبر أو قطن للناس ماظهر ولله مابطن وضع سديد وبأس شديد ومعدن حديد ومحل عدة وعديد وبلد لا يعتل فيه إلا النسيم ومرأى يخجل منه الصباح الوسيم كثيرة الجداول والمذانب مخضرة الجوانب إلى الفواكه الكثيرة والكروم الأثيرة والسقى الذى يسد الخلة ويضاعف الغلة وسندها (مكان من جبلها وسند الجبل هو مادنا منه) معدن الحديد والحرير ومعقلها أهل للتاج والسرير وهى دار حساب وارث واكتساب وماؤها مجاج الجليد وهواؤها يذكى طبع البليد إلا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش وناقهها يتعذر عليه الانتعاش وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش فهى ذات برد وعكس وطرد الح وسنفى إن شاء الله بوصفها

(٢) هى دجمة أو دشمة لا فرق كما يقال أرجدونة وارشدونة والاسبان يكتبونها Déchima (٣) Alraferida

(٤) هى بالاسبانيولى Wod

(٥) لم يعرفه دوزى ولا نحن عرفنا عنه إلا أنه جبل عاصم .

(٦) يورا : بروا : فروا : بروه غير محقق هذا الاسم

(٧) الاسبانيول يقولون بازه Baza وهى مدينة قديمة وقد ازدهرت كثيرا فى أيام العرب وسكانها الآن ١٤ ألف نسمة قال لسان الدين عن هذه البلدة : « بسطة بلد

مقربة منها حصن « طشكر »[١] الذى فاق جميع حصون الأندلس منعة ، وعلواً ورفعة ، وطيب تربة وهواء . وليس لأحد موضع يصعد منه الى هذا الحصن إلا موضعان ، و بين الموضع والموضع ١٢ ميلا ، على طرق مثل شراك النعل ، ومدارج النمل ، و بأعلاه الزرع والضرع والحصاد والمياه ، واليه الانتهاء فى الخصب وجودة الحصانه . وكذلك من وادى آش إلى جيّان ثلاث مراحل خفاف

ومدينه جيان[٢] حسنة كثيرة الخصب ، رخيصة الأسعار ، كثيرة اللحوم والعسل ، ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية كلها يربَّى بها دود الحرير ، وهى مدينة كثيرة العيون الجارية تحت سورها ، ولها قصبة من أمنع القصاب وأحصنها يرتقى اليها على طريق مثل مدرج النمل ، و يتصل بها جبل « كور »[٣] . و بمدينة جيّان

خصيب ومدينة لها من اسمها نصيب (أى بسطة) دوحها متدلدل وطيب هوائها غير متبدل و ناهيك من بلد اختص أهله بالمران فى معالجة الزعفران وامتازوا به عن غيرهم من الجيران يتخلل مدينتها الجدول المتدافع الناقع للغال النافع، ثياب أهلها بالعبير تتأرج وحورها تتجلى وتتبرج وولدانها فى شط أنهارها المتعددة تتفرج ولها الفحص الذى يسافر فيه الطرف سعيا ولا تعدم السائمة به ريا ولا رعيا ولله در القائل :

فى بلدة عودت نفسى بها إذ فى اسمها طه وياسين
ألجأنى الدهر إلى عالم يؤخذ منه العلم والدين

إلا أن تربتها تفضح البناء ، وإن صحبه الاعتناء ، فأسوارها تسجد عند الاقامة ، وخندقها لا كسارها تلقامة ، ورياحها عاصفة ، ورعودها قاصفة ، والعدو فيها شديد الفتكات ، معمل الحركات ، وساكنها دائم الشكاة ، وحدها فليل ، وعزيزها لتوقع المكروه ذليل اه قال هذه الجمل الاخيرة لأنها يوم وصفها ابن الخطيب كانت ثغراً من ثغور غرناطه . وفتحها فرديناند وايزابلا سنة ١٤٨٩ قبل فتحهما غرناطة باربع سنوات ولا تزال المدافع التى فتحها بها معروضة وكنيستها صان مكسيمو هى فى مكان المسجد الجامع ولا تزال آثار القصر العربى دار الحكومة ماثلة والخط الحديدى يمر منها إلى وادى آش بين شارات بسطة وجبلكون ويدور حتى لا ينزل إلى الوادى العميق المسمى بالغور Gor

(١) يقول له الاسبانيول Tixcar (٢) سيرد ذكرها والاسبانيول يقولون لجيان خيان على عادتهم فى قلب الجيم خاء (٣) Cour

بساتين وجنات ، ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب ، وعلى ميل منها نهر « بلون » [١] وهو نهر كبير ، وعليه أرحاء كثيرة جداً ، وبها مسجد جامع وجِلّة وعلماء . ومن مدينة جيّان إلى مدينة « بياسة »[٢] ٢٠ ميلا ، وبياسة تظهر من جيان ، وجيّان تظهر من بياسة ، وبياسة على كدية [٣] تراب مطلة على على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة ، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر ، وحولها زراعات ، ومستغلات الزعفران بها كثيرة . ومنها إلى « أُبَّذة » [٤] في جهة الشرق ٧ أميال وهي مدينة صغيرة ، وعلى مقربة من النهر الكبير ، لها مزارع وغلات قمح وشعير كثيرة جداً ، وفيما بين جيان و بسطة ووادى آش حصون كثيرة ، عامرة ممدّنة آهلة ، لها خصب وغلال نافعة كثيرة ، فمن ذلك أن بشرق جيان وقبالة بياسة حصناً عظيما يسمى شوذر (Joder) وإليه ينسب الخلاط الشوذرى [٥] ومنه فى الشرق إلى حصن «طوية» [٦] ١٢ ميلا ، ومنه إلى حصن «قيشاطة» [٧] وهو حصن كالمدينة له أسواق وربض عامر ، وحمام وفنادق ، وعليه جبل يقطع به من الخشب التى تخرط منه القصاع والمخابى والأطباق وغير ذلك ، مما يعم بلاد الاندلس وأكثر بلاد المغرب أيضاً . وهذا الجبل يتصل ببسطة ، وبين جيان وهذا الحصن مرحلتان ، ومنه الى وادى آش مرحلتان ، ومنه الى أغرناطة مرحلتان ومن وادى آش المتقدم ذكرها الى أغرناطه ٤٠ ميلا

---

(١) Guadabellon

(٢) والاسبانيول يكتبونها Baeza وسيأتى ذكر هذه المدن كلها

(٣) العرب يقولون كدية للتراب الغليظ الصلب

(٤) Ubeda بلدة قديمة من زمن الايبيريين لكنها الآن ساقطة

(٥) لم يعرف دوزى ماهو الخلاط الشوذرى ؟ ولا نحن عرفناه إلا أن يكون محرفا عن الخليط وهو شراب من تمر وزبيب ويكون أهل هذا البلد يتقنونه فاشتهربهم

(٦) Toyo (٧) بالاسبانيولى « كيساده » Quesada والخط الحديدى يمتد من بياسة إلى ابدة إلى شوذر إلى قيشاطة

ومدينة اغرناطه محدثة من أيام الثوار بالأندلس ، و إنما كانت المدينة المقصودة البيرة (Vera) ، فخلت وانتقل أهلها إلى اغرناطة ، ومدّنها وحصّن أسوارها و بنى قصبتها حبّوس الصنهاجي [١] ، ثم خلفه ابنه بادس بن حبوس ، فكملت فى أيامه وعمرت إلى الآن . وهى مدينة يشقها نهر يسمّى « حدرّو » [٢] وعلى جنو بها نهر الثلج المسمى « شنيل » [٣] ومبدأه من جبل شلير ، وهو جبل الثلج ، وذلك أن هذا الجبل طوله يومان وعلوه فى غاية الارتفاع ، والثلج به دائماً فى الشتاء والصيف : ووادى آش واغرناطة فى شمالى الجبل ، ووجه الجبل الجنو بى مطل على البحر ، يرى من البحر على مجرى (... بياض بالأصل) ونحوه وفى أسفله من ناحية البحر برجة ودلاّية ، وقد ذكرناهما فى ما سبق . ومن أغرناطة إلى مدينة المنكّب على البحر ٤٠ ميلا ، ومن أغرناطة إلى مدينة « لوشة » [٤] مع جرية النهر ٢٥ ميلا . ومن المنكّب إلى مدينة المرية ١٠٠ ميل فى البحر ، ومن المنكّب إلى مدينة مالقة ٨٠ ميلا .

ومدينة مالقة مدينة حسنة حصينة و يعلوها جبل يسمّى جبل « فأره » [٥] ، ولها قصبة منيعة ور بضان ، لا أسوار لها ، و بها فنادق وحمامات ، و بها من شجر التين ما ليس بأرض [٦] ، وهو التين المنسوب إلى ريّة . ومالقة قاعدة ريّة ، ومن مالقة

---

(١) سيأتى خبره فى باب التاريخ .

(٢) الاسبانيول يقولون له « درّو » Darro (٣) Xenil

(٤) الاسبانيول يقولون : لوجه ويسمونها بسان فرنسيسكو وموقعها جميل فى سفح جبل على الضفة الجنوبية من نهر شنيل وكانت أعمر مما هى الآن فى أيام العرب وكان يقال أن لوشة والحمة هما مفتاحا غرناطة . وقد استولى فرديناند وايزابله على لوشة بمساعدة جيش من الانكليز وذلك سنة ١٤٨٨ ولا تزال فى لوشة بقايا آثار العرب

(٥) الاسبانيول يقولون للاكمة التى عليها حصن مالقة Gibral - Faro وليس بينه وبين البحر إلا مسافة أمتار معدودة وقد صعدت إلى هذا الحصن ورأيته لا يزال على ما كان أيام العرب . (٦) قال الشاعر :

مالقة حييت يا تينها السفن من أجلك يا تينها

إلى قرطبة فى جهة الشمال أربعة أيام ، ومن مالقة أيضاً إلى غرناطة ٨٠ ميلا . ومن مالقة إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل ، ومن مالقة إلى اشبيلية خمسة مراحل ، ومن مالقة إلى « مُرْبَلة » [١] فى طريق الجزيرة الخضراء ٤٠ ميلا ، ومُرْبَلّة مدينة صغيرة متحضّرة ، ولها عمارات وأشجار تين كثيرة ، وفى الشمال منها قلعة « بُبَشْتر » [٢] ، وهى قلعة فى نهاية الامتناع والتحصين ، والصعود إليها على طريق صعب .

وأما مابين مالقة وقرطبة من الحصون المانعة التى هى حواضر فى تلك النواحى فمنها مدينة « ارشذونه » [٣] و « انتقيرة » [٤] ، وبينها وبين مالقه ٣٥ ميلا . وكانت ارشذونة هذه وانتقيرة مدينتين أخلتهما الفتن فى زمان الثوار بالأندلس . بعد دولة ابن أبى عامر القائم لدولة بنى أمية . ومن ارشذونة إلى حصن « اشير » [٥] ٢٠ ميلا وهو حصن حسن حصين ، كثير العمارة آهل ، وله سوق مشهورة ، ومنه إلى باغُة [٦] ١٨ ميلا ، وباغُة مدينة صغيرة القدر ، لكنها فى غاية الحسن . لكثرة مياهها ،

نهى طبيبى عنه فى علتى ما لطبيبى عن حياتى نهى !

(١) هى Marbella على الطريق بين مالقة والجزيرة الخضراء وقد قطعنا هذه الطريق بالسيارة الكهربائية والذى أتذكره أننا بقيناست ساعات من مالقة إلى الجزيرة

(٢) يقول لها الاسبانيول Barbxter أو Bobastro

(٣) وقد يكتبها العرب بالجيم أى أرجدونة وهكذا جاءت فى « معيار الاختبار » لابن الخطيب الذى هجاها هجواً مراً فقال : شر دار ، وطلل لم يبق منه الاجدار ، وقومها ذوو بطر وأشر ، وشيوخها تيوس فى مسالخ البشر ... الخ

(٤) Ontequera بلدة فى سفح شارات توركالس بديعة الموقع وهى بلدة زراعية فيها من السكان ٢٣ ألفا وفى رأسها حصن عربى قديم وفيها برج يسمى اليوم بلوطة وبقرب هذه البلدة كانت الواقعة التى هزم فيها أبو عبد الله الزغل سلطان غرناطة جيشا اسبانيولياً بقيادة سيفوتنس وأغيلار وذلك سنة ١٤٨٣ .

(٥) الاسبانيول يكتبون هذا الاسم هكذا : Isnajar

(٦) اسم هذه البلدة فى القديم اباغنوم Epagnumm والعرب كانوا يقولون لها باغه والاسبانيول اليوم يقولون لها Priego

والماء يشق بلدها ، وعليه الارحاء داخل المدينة ، ولها من الكروم والأشجار ما لا مزيد عليه ، وهي فى نهاية الخصب والرخاء . و يليها فى جهة المشرق الحصن المسمى « بالقبذاق » [١] و بينهما مرحلة خفيفة ، وحصن القبذاق كبير عامر ، وهو فى سفح جبل ينظر إلى جهة الغرب ، و به سوق مشهورة ، ومنه إلى حصن « بيّانة [٢] مرحلة صغيرة ، و بيّانة حصن كبير فى أعلى كدية تراب ، قد حفّت بها أشجار الزيتون الكثيرة ، ولها مزارع الحنطة والشعير . ومن حصن بيانة إلى « قبرة » [٣] مرحلة خفيفة . وحصن قبرة كبير كالمدينة حصين المكان ، وثيق البنيان ، وهو على متصل أرض وطيئة وعمارات ومزارع . ومنه إلى مدينة قرطبة ٤٠ ميلا ، ويتصل به بين جنوب وغرب مدينة « اليسانة » [٤] وهى مدينة اليهود ، ولها ربض يسكنه المسلمون و بعض اليهود ، و به المسجد الجامع ، وليس على الربض سور ، والمدينة مدينة متحصّنة بسور حصين ، و يطوف بها من كل ناحية حفير عميق القعر والسروب ،

---

(١) بالاسبانيولى Alcabdzac ويقولون أيضا Alkaudette

(٢) إذا جاء المسافر من جيان إلى غرناطة بالسيارة مر بوادى « غواردية » الذى هو إلى الجنوب الشرقى ثم أنه يمر بشارات « اليسيانة » ثم بشارات الأنوار حيث هناك منظر جميل من جهة جبل الثلج شلير ثم يمر بشارات البيرة حتى ينتهى إلى مرج غرناطة وأما الخط الحديدى فيمر بغياض الزيتون الخاصة بجيان وينتهى إلى بلدة يقال لها الدون جيمينو ثم يصل إلى « مرتوس » ثم إلى بلدة يقالها « الكوديت » (ويقال لها القبذاق) ثم يمر بالناحية التى يسقيها وادى الحوز Guadajoz ثم يصل إلى « لك » و« بيانة » Luque - Baena فلك هى Luque قرية إلى الشمال وأما بيانة Baena فهى إلى الجنوب وهى بلدة سكانها ١٥ ألفاً . ومن هناك يمر الخط ببلدة « قبرة » Cabra وأصل اسمها فى القديم « ايغابروم » Igabrum وسكانها ١١ ألف نسمة وموقعها جميل وهى على الصبب الشمالى من شارات قبرة . ثم يقطع الخط نهر قبرة وشاراتها فيصل إلى اليسانة Lucena وهى اليوم بلدة سكانها ٢١ ألفا

(٣) تقدم ذكر « قبره » مع بيانه واليسانه .

(٤) تقدم ذكرها فى هذه الصفحة نفسها

وقائض مياهها قد ملأ الحفير ، واليهود يسكنون بجوف المدينة ، ولا يداخلهم فيها مسلم البتة وأهلها أغنياء مياسير ، أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين ،ولليهود بها تحذّر وتحصّن من مضدّتهم . ومن اليسانة إلى مدينة قرطبة ٤٠ ميلا ، و يلي هذه الحصون حصن « بُلاى »[١] Aguilar De La Frontera وحصن « مُنْتُرك »[٢] وهي في ذاتها حصون يسكنها البربر من أيام الأمويين ، ومن حصن بُلاى إلى مدينة قرطبة ٢٠ ميلا ، وبالقرب من بُلاى حصن « شنت[٣] ياله » وهو حصن على مَدَرَة ، والماء منه بعيد . ومنه إلى استجة[٤] في الغرب ١٥ ميلا . ومن حصن شنت ياله

---

(١) وهو Aguilar De La Frontera

(٢) يقول الأسبانيول لهذا الحصن Monturque

(٣) Santa Ella

(٤) الاسبانيول يقولون اسيجه Ecija والخط الحديدى يخرج من قرطبة إلى وادى الجوز Guadajoz ثم إلى « وادى القصر » ثم إلى « كرلوطه » ثم إلى استجة التي هي على ٥٦ كيلو متراً من قرطبة وكان الرومان يقولون لها استيجى Astigi وكان لها عظمة فى زمان الرومانيين وأما الآن فهى بلدة صناعية سكانها ٢٢ ألف نسمة وشوارعها لا تزال ضيقة كشوارع المدن العربية وحرها شديد فى الصيف وهذا هو السبب فى ضيق شوارعها . وأما ضواحيها فعلى خصب عظيم وعلى مقربة منها بلدة يقال لها « لويزيانة » ثم إن الخط الحديدى على مائه كيلو متر من قرطبة يصل إلى مدينة « مرشانة » Marchena وهى بلدة قديمة جداً مبنية على محل عال وحولها أسوار وعلى ١٠٨ كيلومترات بلدة يقال لها « بردى » Paradas وبعدها بلدة يقال لها الرحل Arahal وعلى مسافة ١٢٨ كيلومتراً يصل الخط إلى « موررور » وهى على « وادى ياره » ويوجد بقرب شارات موررور حصن عربى ومقاطع للبرمر . ثم يصل الخط إلى أتريرة Utrera ثم إنه من أشبيلية إلى أتريرة يقطع وادى ياره Guadaira بازاء الوادى الكبير فيمر بمكان يقال له حصن الفرج Aznalfarache ثم ببلدة « كورية » وأما أتريرة فبلدة فيها ١٥ الف نسمة أهلها زراع ورعاة أغنام . ومن أتريرة يذهب الخط فى سهول الوادى الكبير فيمر ببلدة يقال لها « قنطرلة » ثم ببلدة يقال لها عند الاسبانيول « لبريجة » وكان العرب يقولون لها « نبريشة » وأهلها ١١ الف

إلى قرطبة ٢٣ ميلا . ومدينة استجة على نهر أغرناطه المسمى شنيل وهي مدينة حسنة ولهـا قنطرة عجيبة البناء من الصخر المنجور ، و بها أسواق عامرة ، ومتاجر قائمة ، ولها بساتين وجنات ملتفة ، وحدائق زاهية . ومن استجة إلى قرطبة ٣٥ ميلا ومن استجة فى جهة الجنوب إلى حصن اشونة [1] نصف يوم . وحصن أشونة حصن ممدّن كثير الساكن ومنه إلى « بَلشانة Belicena » ومدينة بلشانه Belicena حصن كبير عامر ، له حصانة ووثاقة . يحيط به شجر الزيتون . ومن استجة إلى مدينة قَرْمُونه Carmona ٤٥ ميلا ، وهى مدينة كبيرة يضاهى سورها سور اشبيلية وكانت فيما سلف بأيدي البرابر ، ولم يزل أهلها أبداً أهل نفاق ، وهى حصينة على رأس جبل حصين منيع ، وهى على فحص ممتد ، جيد الزراعات ، كثير الاصابة فى الحنطة والشعير ومنه فى الغرب إلى اشبيليه ١٨ ميلا ، وقد ذكرنا اشبيلية فيما سبق . ومن مدينة قَرْمونة إلى شريش Jerej من كورة شذونه Sidonia ٣ مراحل . وكذلك من مدينة اشبيلية إلى شريش مرحلتان كبيرتان جداً

نسمة ولها كنيسة أصلها جامع . ومنها يمر المسافر بمكان يقال له الكرڤو Elcurvo فيرى أثار حصن عربى قديم يقول له الاسبانيول « ملغاريجو » Melgarejo ومن هناك يصل إلى « شريش » والأسبانيول يسمونها خريس Jerez وذلك لأنهم يقلبون الجيم والشين خاءا وسيأتى الكلام على شريش فى مكانه

(١) عند الأسبانيول أوسينا Ossuna يخرج المسافر من قرطبة بالقطار الحديدى القاصد إلى مالقة فيمر على جسر فوق الوادى الكبير طوله ٢٠٠ متر ويخترق ناحية « كامبينا » Campina التى يسقيها وادى الجوز وبعد مسافة ٥٠ كيلو مترا يمر ببلدة « ممتيلة » Momtilla ثم ببلدة « منت ميور » Montemayor ثم يتقدم إلى مدينة « اغيلار » Agiler وفيها حصن عربى هو حصن بلاى ثم يمر على بحيرتين اسم إحداهما « زونار » والأخرى « رينكون » وبالقرب منهما حصن عربى قديم وعلى مسافة ٧٦ كيلو متراً بلدة « بنت شنيل » وعلى مسافة ١٠٠ كيلو متر بلدة الروضة Roda وفيها ملتقى الخطين الحديديين خط غرناطة ـ مالقة وخط اشبيلية ـ قادس . وكل هذه النواحى ملآى بشجر الزيتون ومن الروضة يذهب الخط الحديدى إلى مرشانة ثم إلى أشونة وهى بلدة رومانية قديمة أعطاها قيصر حقوق المدن الرومانية

ومدينة شريش متوسطة حصينة مسوَّرة الجنات ، حسنة الجهات ، وقد أطافت بها الكروم الكثيرة ، وشجر الزيتون والتين ، والحنطة بها ممكنة ، وأسعارها موافقة ومن شريش إلى جزيرة قادس Cadix ١٢ ميلا فمن شريش إلى القناطر ٦ أميال ، ومن القناطر إلى جزيرة قادس ٦ أميال ، ومن اشبيلية المتقدم ذكرها إلى قرطبة ٣ مراحل ولها ٣ طرق طريق « الزنبجيار » Az - Zanbadjar وطريق «لورة» Lora وطريق الوادى ، فأما طريق الزَّنْبجيار فقد ذكرناها ، وهي من اشبيلية إلى قرمونة مرحلة . ومن قرمونة إلى استجة مرحلة . ومن استجة إلى قرطبه مرحلة . وأما طريق لورة فمن اشبيلية إلى منزل « أبان » Aban ثم إلى « مراش » Marlich ثم إلى حصن « القليعة » Coléa وبه المنزل ، وعند مسيرك من مرلش إلى القليعة تبصر حصن قطنيانه Cantillanna على الشمال والمنزل القايمة وهى ضفة النهر الكبير ، يجاز اليها فى المركب ، ومن حصن القليعة إلى الغيران [1] إلى حصن لورة ، وهو يبعد عن الطريق نحو رمية سهم ، وعلى يمين المار حصن كبير عامر ، على ضفة النهر الكبير ، ومن لورة إلى قرية « صدف » [2] ويقابلها على يسار السالك على جبل عال حصن منيع ، وقلعة متحصنة تسمى « شنت فِيلَة » [3] وهى معقل للبربر من قديم الزمان .

---

(١) هذه التى يقول لها ابن حوقل « غرغيرة »

(٢) الصدف ككتف بطن من كندة قال الزبيدى فى تاج العروس فى شرح القاموس : ينسبون اليوم إلى حضرموت وإذا نسبت اليهم قلت هو صدفى محركة كراهة الكسرة قبل ياء النسب قاله ابن دريد وأنشد :

يوم لهمدان ويوم للصدف ولتميم مثله أو تعترف

وقال غيره : هو صدف بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير ابن سبأ . وينسب إليه خلق من الصحابة وغيرهم وقد نزلوا بمصر واختطوا بها ومنهم يونس بن عبد الأعلى الصدفى وغيره اه . وهذه القرية فى الأندلس نزلها أناس من الصدف وعمرت بهم فقيل لها الصدف

(٣) الاسبانيول يقولون لها : Siete Filla

ومن صدف إلى قلعة « ملبال »[1] وهى على نهر ملبال وهو نهر مدينة « فرنجُلوش »[2] ومن هذه القنطرة إلى مدينة فرنجُلوش ١٢ ميلا . ومن القنطرة إلى قرية « شُوشِبيل »[3] وهى قرية كبيرة على نهر قرطبة المسمّى بالنهر الكبير ، ومنها إلى « حصن مُراد »[4] وبه المنزل ، ومن حصن مراد إلى الخنادق إلى حصن المُدَوَّر ، ثم إلى السوانى[5] ثم إلى قرطبة ، وهى المنزل . وبين أشبيلية وقرطبة ٨٠ ميلا على هذا الطريق ، ومن حصن المدور الذى ذكرناه إلى فرنجولش ١٢ ميلا ، وهى مدينة حصينة منيعة ، كثيرة الكروم والأشجار ، ولها على مقربة منها معادن الفضة ، بموضع يعرف بالمرج ، ومنها إلى حصن « قسنطينة »[6] الحديد ١٦ ميلا ، وهذا الحصن حصن جليل ، عامر أهل ، وبجباله معادن الحديد الطيب المتفق على طيبه وكثرته ، ومنه يتجهز إلى جميع أقطار الأندلس ، وبقرب منه حصن « فِرّيش »[7] وبه مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير ، المنسوب إليه ، والرخام الفِرّيشى أجل الرخام بياضاً وأحسنه ديباجا ، وأشده صلابة ، ومن هذا الحصن إلى « جبل العيون »[8] ٣ مراحل خفاف ، ومن شاء المسير إلى قرطبة أيضاً من إشبيلية ركب المراكب ، وسار صاعداً فى النهر إلى أرحاء « الذرّادة » ، إلى عطف منزل « ابان » ، إلى « قطنيانة » ، إلى « لورة » ، إلى حصن « الجرف » ، إلى « شوشبيل » ، إلى

---

(١) لم يعرفها دوزى ولا عرفناها نحن

(٢) الاسبانيول يقولون لفرنجلوش Hornachuelos

(٣) Chouchabil

(٤) هذا الحصن اسمه عند الاسبان Mratalla

(٥) الاسبانيول أخذوا لفظة السانية فيما أخذوه من لغة العرب وهى الآلة الرافعة للماء وأصلها الغرب مع أدواته والسانية أيضا الناقة يستقى عليها من البئر من فعل سنا ارتفع ويقال أيضا سنوت الباب فتحته . والاسبانيول يكتبون السانية : Acéna

(٦) قسنطينة الحديد Constantine De Fer

(٧) Firriche (٨) Gibraléone

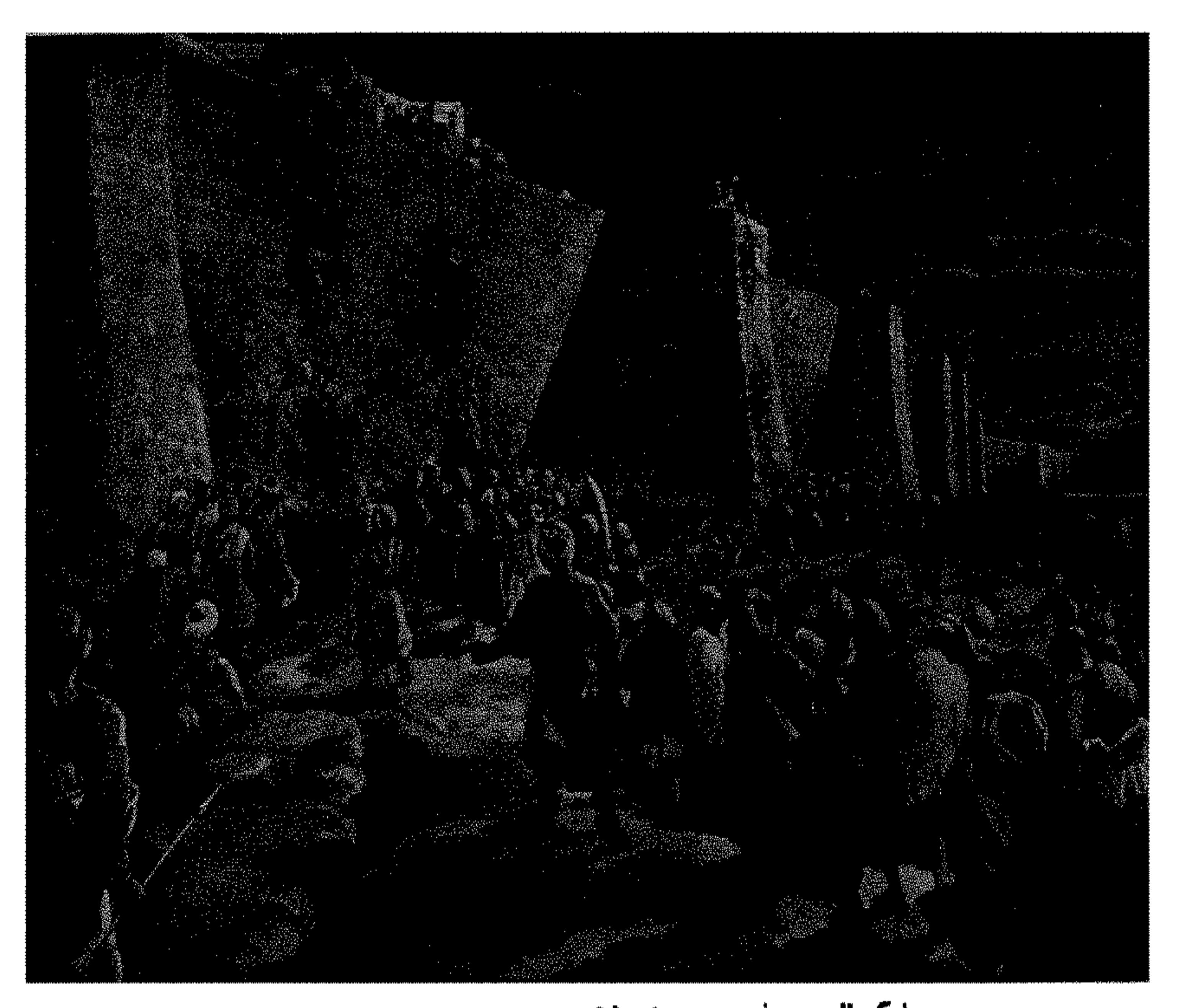
موقع نهر « ملبال » ، إلى حصن « المدور » ، إلى « وادى الرمان » ، إلى أرجاء « ناصح » (١) إلى قرطبة ، ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدنها ، ودار الخلافة الاسلامية .

وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، و إليهم الانتهاء ، فى السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذُكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب ، وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجميل التخصص فى المطاعم والمشارب ، مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائق ، ولم تخلُ قرطبة قط من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجّارها مياسير ، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم مراكب سنية ، وهم عليّة ، وهى فى ذاتها مدن خمس ، يتلو بعضها بعضاً ، بين المدينة والمدينة ، سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات ، وفى طولها من غربيّها إلى شرقيّها ٣ أميال ، وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد . وهى فى سفح جبل مطلّ عليها يسمّى جبل العروس ، ومدنيتها الوسطى هى التى فيها باب القنطرة .

وفيها المسجد الجامع ، الذى ليس بمساجد المسلمين مثله ، بنية وتنميقا ، وطولا وعرضا ، وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة ، وعرضه ٨٠ باعا (٢) ، ونصفه مسقّف

---

(١) Nacih (٢) يقول دوزى نقلا عن لابورد Laborde فى كتابه « وصف أسبانية » Description De L'Espagne : إن طول مسجد قرطبة فى حالته الحاضرة هو ٦٢٠ قدماً وعرضه ٤٤٠ قدماً وهكذا قرر ماندوس Mandoz فى كلامه عن هذا المسجد . وكان فيه أيام العرب ١٤٠٠ سارية أما الآن فهى ٨٥٠ سارية لا غير كما قال البارون شاك Schack قلت : أخبرنى المهندس هرناندز الذى كان دليلى فى قرطبة وهو من الموكلين بالجامع الأعظم أن طول المسجد هو ١٧٥ متراً وأن عرضه ١٢٥ متراً وأخذ القلم وحسب ذلك بالتربيع فوجد أن المسقف والصحن يتسعان لثمانين ألف مصل أما لافى بروفنسال المستشرق الافرنسى صاحب « أسبانية المسلمة



عساكر العرب في حصار قرطبة وهم يتسلقون حصونها سنة ٧١٢ ب . م

ونصفه صحن للهواء ، وعدد قِسِيّ مُسَقَّفِهِ ١٩ قوساً ، وفيه من السوارى ، أعنى سوارى مُسَقَّفه ، بين أعمدته ، وسوارى قِبلَته ، صغاراً وكباراً ، مع سوارى القبة الكبرى وما فيها : ألف سارية . وفيه ١١٣ ثُرَيَّا للوقيد ، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح ، وأقلّها تحمل ١٢ مصباحاً . وسقفه كله سماوات خشب مسمّرة فى جوائز سقفه ، وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشى[1]

فى القرن العاشر ، فقال إن : طول المسجد هو ١٨٠ متراً وعرضه ١٣٠ وسنذكر فيما سيأتى أثناء الكلام على قرطبة كل ما يتعلق بهذا المسجد

(١) الصنوبر الطرطوشى مضرب الأمثال فى الصلابة والثبات هذا وقد نقل المقرى فى النفح كلام الادريسى هنا ملخصا فقال : وقال بعض المؤرخين حين ذكر قرطبة ما ملخصه : هى قاعدة بلاد الأندلس ودار الخلافة الاسلامية ، وهى مدينة عظيمة وأهلها أعيان البلاد وسراة البلاد فى حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم وبها أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، واجلاد الغزاة وأنجاد الحروب ، وهى فى تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضا . وبين المدينة والمدينة سور عظيم حاجز ، وكل مدينة مستقلة بنفسها ، وفيها ما يكفى لأهلها من الحمامات والأسواق والصناعات . وطول قرطبة ثلاثة أميال فى عرض ميل واحد . وهى سفح جبل مطل عليها ، وفى مدينتها الثالثة وهى الوسطى القنطرة والجامع الذى ليس فى معمور الأرض مثله ، وطوله مائة ذراع فى عرض ثمانين . وفيه من السوارى الكبار الف سارية ، وفيه مائة وثلاثة عشر ثريا للوقود ، أكبرها تحمل ألف مصباح . وفيه من النقوش والرقوم ما لايقدر أحد على وصفه . وبقبلته صناعات تدهش العقول . وعلى فرجة المحراب سبع قسىّ قائمة على عمد ، طول كل قوس فوق القامة . قد تحير الروم والمسلمون فى حسن وضعها . وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران ، واثنان لازورديان . ليس لها قيمة . لنفاستهما ، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله فى حسن صنعته ، وخشبه ساج وآبنوس وبقم وعود قاقلى ، ويذكر فى تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه فى سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع ، لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال محمدى ، فكان جملة ماصرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا . وفى الجامع حاصل كبير ملآن

ارتفاع حد الجائزة منه شبر وافر ، فى عرض شبر إلا ثلاثة أصابع ، فى طول كل

من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده ، وبهذا الجامع مصحف يقال إنه عثمانى ، وللجامع عشرون باباً مصفحات بالنحاس الأندلسى ، مخرمة تخريماً عجيباً بديعاً ، يعجز البشر ويبهرهم ، وفى كل باب حلقة فى نهاية الصنعة والحكمة ، وبه الصومعة العجيبة التى ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى ، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونعته . وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، والجميع خلقة ربانية .

وأما القنطرة التى بقرطبة فهى بديعة الصنعة ، عجيبة المرأى ، فاقت قناطر الدنيا حسناً . وعدة قسيها سبعة عشر قوساً سعة كل قوس منها خمسون شبرا ، وبين كل قوسين خمسون شبرا . وبالجملة فمحاسن قرطبة أفضل المحاسن ، وأعظم من أن نحيط بها وصفاً انتهى ملخصاً وهو وإن تكرر بعضه مع ماقدمته فلا يخلو من فائدة زائدة والله الموفق

وما ذكره فى طول المسجد وعرضه مخالف لما مر ، ويمكن الجواب بأن هذا الذراع أكبر من ذلك ، كما أشار اليه هو فى أمر الصومعة ، وكذلك ذكره فى عدد السوارى ، إلا أن يقال : ما تقدم باعتبار الصغار والكبار ، وهذا العدد الذى ذكره هنا إنما هو للكبار فقط كما صرح به والله تعالى أعلم . وأما الثريات فقد خالف فى عدها ما تقدم ، مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخى الأندلس ، ونحن جلبنا النقل من مواضعه وإن اختلفت طرقه ومضموناته انتهى . قلت : أى من قرأ هذا التلخيص ، وكان طالع جغرافية الشريف الادريسى ، يعلم أن هذا النقل الذى نقله المقرى ، إنما نقله عنه ولكن ملخصاً كما صرح هو بذلك . ولم نعلم سبب تحامى المقرى نسبة هذا النقل والتصريح باسم الكتاب الذى نقل عنه . وعلى كل حال فظاهر للعيان أن الكلام ملخص عن « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » غير أنه لابد هنا من بعض ملاحظات : الأولى أن هناك غلطا فى النسخ ، إما فى كتاب الادريسى أو فى كتاب نفح الطيب نفسه ، مثل أن الجامع الأعظم طوله مائة ذراع فى عرض ثمانين . والحال أن الادريسى كما فى نسخة باريز ونسخة أوكسفورد لم يقل مائة ذراع ، وإنما قال مائة باع مرسلة فى ثمانين باعا . والفرق بين الباع والذراع غير خاف على أحد . وأنه يستحيل قول الادريسى إن الجامع هو مائة ذراع فى ثمانين ، لأن الادريسى عرف قرطبة بنفسه ، ووصف المسجد

جائزة منها ٣٧ شبراً ، و بين الجائزة والجائزة غِلَظ جائزة . والسماوات التي ذكرناها

الأعظم وصف من رأى لامن سمع ، فلا يمكن أن يقع فى خطأ فظيع كهذا . ولقد أشار المقرى بأنه يمكن أن يكون هذا الذراع الذى ذكره الادريسى أكبر من الذراع الذى حسب بموجبه غيره من المؤرخين ، ممن ذكروا أن طول الجامع من القبلة إلى الجوف ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعاً ، فمهما كان هذا الذراع يزيد على ذلك الذراع فيبقى البون شاسعاً ، والصحيح أن الادريسى إنما قال مائة باع فى ثمانين ، لا مائة ذراع فى ثمانين . والملاحظة الثانية هى فى اختلاف عدد الثريات ، فالادريسى يقول مائة وثلاث عشرة ثريا ، وهو يخالف لما قاله غيره ، مثل ابن الفرضى مثلا الذى قال أنها مائتان وثمانون ثريا ، ومثل ابن سعيد الذى نقل عن ابن بشكوال فقال أنها مائتان وأربع وعشرون ثريا . وليس الاختلاف هنا بشىء فان الثريات هى مما يزيد وينقص بحسب الوقت ، لأنها آنية منقولة وليست من قبيل المساحة التى هى شىء ثابت محسوس . وتأويل هذا الفرق هو أنه يوم عرف الادريسى مدينة قرطبة لم يكن فى الجامع الأعظم أكثر من ١١٣ ثريا ، فان الادريسى نفسه ذكر كون قرطبة لعهده قد انتقصت منها الحوادث بتوالى الفتن ، ونزح أهلها إلا اليسير ، فلا جرم أن النقص الذى لحق بأهلها وبكل شىء يخصها قد وصل إلى ثريات جامعها ، فسقط عددها إلى النصف مما كانت كما سقط عدد الخدمة فى الجامع فقد ورد فى كلام ابن الفرضى أنه كان يتصرف فى المسجد بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين مائة وتسعة وخمسون شخصاً . وروى غيره أنهم كانوا ثلاثمائة ، والحال أن الادريسى لا يذكر غير ستين شخصاً فيظهر أن هذا العدد هو الذى كان فى زمانه ، أى بعد تقلص العمران فى قرطبة .

والملاحظة الثالثة هى من جهة سقوط كلمات فى النسخ أو اختلافها ، فى نسخة نفح الطيب يقول نقلا عن الادريسى إنه كان يعمل فى المنبر ثمانية صناع ، وفى نسختى باريز واكسفورد يقول ستة ، وفى نسخة نفح الطيب يقول : وفى الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده . وفى نسختى باريز وأوكسفورد يزيد على الذهب والفضة لفظة المسك . وفى نسخة نفح الطيب يذكر أن الصومعة ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى . والحال أنه فى النسختين المذكورتين يذكر الرشاشى بدون المكى . والملاحظة الرابعة هى أنه فى نسخة نفح الطيب يقول

هى كلها مسطّحة ، فيها ضروب الصنائع المنشاة من الضروب المسدّمة والمورّبى ! وهى صنع الفصّ وصنع الدوائر والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضاً ، بل كل سماء منها مُكتفٍ بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية ، والبياض الاسفيذاجى ، والزرقة اللازوردية ، والزرقون الباروقى ، والخضرة الزنجارية ، والتكحيل النقسى ، تروق العيون ، وتستميل النفوس ، باتقان ترسيمها ، ومختلفات ألوانها وتقسيمها . وسعة كل بلاطة منها ، اعنى من بلاطات مسقّفه ٣٣ شبرا ، و بين العمود والعمود ١٥ شبراً ، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام . وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسىّ غريبة ، فوقها قسىّ أُخر ، على عمد من الحجر المنجور متقنة . وقد جصّص الكل منها بالجصّ والجيّار ، وركّبت عليها نحور مستديرة ناتئة ، بينها ضروب صناعات الفسفس بالمغرة . وتحت كل سماء منها إزار خشب فيه مكتوب آيات القرآن .

ولهذا المسجد الجامع قبلة يُعجز الواصفين وصفُها ، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقُها وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملوّن ، مما بعث صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأموى . وعلى هذا الوجه ، أعنى وجه المحراب ، سبع قسى قائمة على عمد ، وطول كل قوس منها أشف من قامة ، وكل هذه القسىّ مزجّجة صنعة القرط وقد أعيت المسلمين والروم بغريب أعمالها ، ودقيق تكوينها ووضعها . وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفساء

إن فى الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح . وهذا لا يوجد فى النسخة التى نقلنا عنها المطبوعة فى ليدن وفقا لنسختى باريز وأوكسفورد ، والخبر كله غريب ، لأن التصوير مكروه ، ولا سيا فى المساجد . وقد أوردنا هذه الملاحظات لأجل الاستدلال على ما بين النسخ من الاختلافات فايكن الراوى من النسخ على حذر ، ولا يجوز له أن يجزم بخبر إلا بعد أن ينخل رواياته نخلا دقيقا ، ويقابل بينها بأجمعها فيعتمد على المتواتر الذى أجمع عليه الرواة أو الذى ترجح بالاقل لدى الجمهور وبالاخص على ماطابق المحسوس

المذهب ، فى أرض الزجاج اللازوردى وتحت هذه القسى التى ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب فى أرض اللازورد ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش ، وفى عضادتى المحراب ٤ أعمدة اثنان أخضران ، واثنان لازورديان لاتقوّم بمال . وعلى رأس المحراب خصّة رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان وعلى وجه المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة .

ومع يمين المحراب المنبر الذى ليس بمعمور الأرض مثله صنعة خشب آبنوس وبقس وعود المجمر ، ويحكى فى كتب تواريخ بنى أمية أنه صنع فى نجارته ونقشه ٧ سنين ، وكان عدد صناعه ستة رجال ، غير من يخدمهم تصرفا ، ولكل صانع منهم فى اليوم نصف مثقال محمدى . وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة ومسك لوقيد الشمع فى ليلة ٢٧ من شهر رمضان المعظم . ومع ذلك ففى هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى اخراجه رجلان من قوَمَة المسجد . وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غشاء بديع الصنعة ، منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ويتولى الامام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه .

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضى إلى القصر بين حائطى الجامع فى ساباط متصل ، وفى هذا الساباط ٨ أبواب منها ٤ تنغلق من جهة القصر ، و ٤ تنغلق من جهة الجامع . ولهذا الجامع عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس ، وفى كل باب منها حلقتان فى نهاية من الأتقان ، وعلى وجه كل باب منها فى الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك ، أنواعاً شتى ، وأجناساً مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البزاة . وفيما استدار بالجامع فى أعلاه لتمدد الضوء

ودخوله إلى السقف متكآت رخام ، طول كل متكأ منها قدر قامة ، فى سعة ٤ أشبار فى غلظ ٤ أصابع . وكلها صُنُعُ مسدّسة ومثمّنة ، مخرّمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضاً

وللجامع فى الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة الجليلة الأعمال الرائقة الأشكال التى ارتفاعها فى الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشى [1] منها ٨٠ ذراعاً إلى الموضع الذى يقف عليه المؤذن بقدميه ، ومن هناك إلى أعلاها ٢٠ ذراعاً ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين أحدهما من الجانب الغربى والثانى من الجانب الشرقى إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لا يجتمعان إلا اذا وصلا أعلاها . ووجه هذه الصومعة كله مبطّن بالكذّان اللّكّى ، منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة صنع مثمّنة تحتوى على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون ، وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسى دائرة على عمد الرخام الحسن . والذى فى الصومعة من العمد بين داخلها وخارجها ٣٠٠ عمود بين صغير وكبير . وفى أعلى الصومعة بيت له أربعة أبواب مغلقة ، يبيت فيه كل ليلة مؤذنان . وللصومعة ١٦ مؤذناً ، ويؤذنون فيها بالدولة لكل يوم مؤذنان على توال . وفى أعلى الصومعة على القبة التى على البيت ثلاث تفاحات ذهب ، وتفاحتان من فضة ، وأوراق سوسنية ، تسع الكبيرة من التفاحات ٦٠ رطلا من الزيت . ويخدم الجامع كله ٦٠ رجلا وعليهم قائم ينظر فى أمورهم ، وهذا الجامع متى سها أمامه لا يسجد لسهوه قبل السلام ، بل يسجد بعد السلام .

ومدينة قرطبة فى حين تأليفنا هذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة ، وغيّرها حلول المصائب والأحداث ، مع اتصال الشدائد على أهلها ، فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير ، ولا بلد أكبر اسما منها فى بلاد الأندلس .

---

(١) الذراع الرشاشى يقال أنه الذراع المكى وهو ثلاثة أشبار

ولقرطبة القنطرة التى علت القناطر فخراً فى بنائها واتقانها ، وعدد قسيّها ١٧ قوساً بين القوس والقوس ٥٠ شبراً ، وسعة القوس مثل ذلك ٥٠ شبراً ، وسعة ظهرها المعبور عليه ٣٠ شبراً . ولها ستائر من كل جهة تستر القامة . وارتفاع القنطرة من موضع المشى إلى وجه الماء فى أيام جفوف الماء ٣٠ ذراعاً ، و إذا كان السيل يصل الماء منها إلى نحو حلوقها . وتحت القنطرة يعترض الوادى رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الجاشية [١] من الرخام . وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء ، فى كل بيت منها أربع مطاحن [٢] .

ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يحاط بها خُبْراً

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء ٥ أميال ، وهى قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها ، وفيها قوم سكان بأهليهم وذراريهم ، وهم قليلون ، وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى على الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط يوازى على الجزء الأسفل ، وكل ثلث منها له سور . فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها . والجزء الأوسط

---

(١) قد ترجم دوزى « الاحجار القبطية » بالاحجار المصرية وقال عن « العمد الجاشية » لعلها مصحفة وأصلها « الخاشنة » ونحن نقول : لم يرد استعمال « الخاشنة » وإنما يقولون « الخشنة » ونرى الأقرب أن تكون هذه اللفظة بالسين المهملة لا بالشين المعجمة وأنها « الجاسية » أى الصلبة

(٢) لا تزال جدران المطاحن قائمة إلى الآن وإليها أشرت بقولى فى القصيدة التى نظمتها يوم زرت قرطبة

وتلك الطواحين الشهيرة لم تزل كأن تركوها أمس لم تتغير

ومنها :

ولما رأيت المسجد الجامع الذى بقرطبة من فوق فوق التصور
عضضت على كفى بكل نواجذى وقلت لعينى اليوم دورك فاهمرى

وسنذكرها كلها فى محلها

بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار والجامع . وهي الآن خراب في حال الذهاب .

ومن مدينة قرطبة إلى المرّية ٨ أيام . ومن قرطبة إلى اشبيلية ٨٠ ميلا . ومن قرطبة إلى مالقة ١٠٠ ميل . ومن قرطبة إلى طليطلة ٩ مراحل ، فمن أرادها سار من قرطبة في جهة الشمال إلى عقبة « أرلش »[1] ١١ ميلا . ومنها إلى دار البقر[2] ٦ أميال « ثم إلى بطروش » [3] ٤٠ ميلا . وحصن « بطروش » حسن كثير العمارة ، شامخ الحصانة ، لأهله جلادة وحزم على مكافحة أعدائهم ، ويحيط بجبالهم وسهولهم شجر البلوط الذى فاق طعمه طعم كل بلوط على وجه الأرض ، وذلك أن أهل هذا الحصن لهم اهتمام بحفظه وخدمته ، لأنه لهم غلة وغياث في سني الشدة والمجاعة . ومن حصن

(١) Arlech

(٢) يقول الاسبان لدار البقر Castillo Del Bacar

(٣) Bedroches جاء في دليل بديكر أن الخط الحديدى من مجريط إلى بطليوس يمر بقرية « غيتاف » Getafe وتكون وراءه جبال وادى الرمل Guadarrama ثم يصل الخط إلى بلدة « القدور » Algodor ومنها يتشعب خط كستيليجو ـ طليطلة . ثم يجاز الخط شعاب جبال طليطلة الفاصلة بين وادى تاجة ووادى يانة ثم يمر ببلدة « المو ناسيد » Almonacid وفيها حصن عربى ثم بلدة « ماسكاراك » Mascaraque ثم بلدة « مورة » Mara وفيها بقايا حصن وهى على ٩١ كيلو متراً من مجريط ثم بلدة « أورغاز » Orgaz وفيها أيضاً حصن كبير ثم بلدة « منسنيق » Manzanéque ثم « ايبانش » Ybenes وعن يمينه « وادى الأرزة » Guadalerza ثم بلدة « أورده » Urda ثم يصل إلى بلدة ريال Ciudad Real التى بقربها بلدة « الأرك » Alarcos وهذه الشهيرة بالوقعة التى انتصر فيها الموحدون على الأذفنش الثامن صاحب قشتالة سنة ١١٩٥ ثم يمر بارض قلعة رباح ثم بلدة « برتلانو » Puertellano ثم بلدة اسمها « المدور » (غير حصن المدور الذى هو من عمل قرطبة) ثم بلدة « صان كنتين » San Quintin ثم « بلد نيباش » Valdepénas بقرب مشتى يقال له وادى السكدية ثم يصل بعد ٢٧١ كيلو مترا من مجريط إلى « المعدن » Almaden وفيها حصن عربى

بطروش إلى حصن « غافق » [(١)] ٧ أميال ، وحصن غافق حصن حصين ، ومعقل جليل ، وفى أهله نجدة وحزم ، وجلادة وعزم ، وكثيراً ما تسرى إليهم سرايا الروم فيكتفون بهم فى إخراجهم عن أرضهم ، وانقاذ غنائمهم منهم ، والروم يعلمون بأسهم وبسالتهم فيناحرون [(٢)] أرضهم ويتحامون عنهم . ومن قلعة غافق إلى جبل « عافور » [(٣)] مرحلة ، ثم إلى دار البقر مرحلة ، ثم إلى قلعة « رباح » [(٤)] ، وهى قلعة حسنة ، وقد سبق ذكرها . وكذلك الطريق من قرطبة إلى بطليوس . . من قرطبة إلى دار البقر المتقدم ذكرها مرحلة ، ومنها إلى حصن « بنذر » [(٥)] مرحلة ، ثم إلى « زواغة » مرحلة ، وزواغة حصن عليه سور تراب ، وهو على كدية تراب ، ومنه إلى نهر « اثنه » [(٦)] مرحلة ، ومنه إلى حصن « الحدش » [(٧)] مرحلة ، وحصن

وفيها معدن من أغنى معادن الزئبق فى العالم ومن هناك يمر الخط بين « شيلون » Chillon و « بطروس » Pedroches بواد اسمه « وادى الميس » Guadalmez ويدخل فى عمل قرطبة فيمر ببلدة « بلال قصر » Belalcasar ثم بلدة « المورشون » Almorchon حيث ينشعب من الخط شعبة إلى قرطبة . وعلى مسافة ٤٠٨ كيلو مترات يصل إلى « مدلين » Medellin وعلى ٤٥١ كيلو مترا يصل إلى ماردة اه محصلا . ثم قال دوزى : إن البلوط الذى نسبه الادريسى إلى بطروس يترجح أنه الكستنا لا البلوط المعهود واستدل على ذلك بأن بطره القلعى يسمى الكستنا بطروش

(١) يقول الأسبان لغافق Ghafic

(٢) فى النسخة التى ترجم عنها دوزى يقول : « ينافرون أرضهم ويتحامون عنهم » ولا معنى هنا لجملة « ينافرون أرضهم » والأقرب أن تكون « يناحرون أرضهم » أى هم ساكنون فى نحر أرضهم ولكنهم لشدة بأسهم تراهم يتجنبون التعرض لهم

(٣) جبل عافور لم يعرفه دوزى ولا نحن اهتدينا له وإنما نعلم أن العرب تقول : وقع فى عافور أى فى شر وعفار ومثله وقع فى عاثور

(٤) Calatrava

(٥) يظن دوزى أن « بنذر » مصحف عن « بنبذر » إذ هناك نهر بهذا الاسم Benbezar

(٦) لم نعلمه ولا عرفنا حقيقة الاسم

(٧) هو الذى يقول له الأسبان Alenje

الحنش منيع شامخ الذروة ، مطلّ الغلوة شاهق البنيّة ، حامى الأفنية . ومنه إلى مدينة ماردة مرحلة لطيفة ، ثم إلى بطليوس مرحلة خفيفة . فذلك من قرطبة إلى بطليوس ، ٧ مراحل . و بشمال قرطبة إلى حصن « ابال » مرحلة ، وهو الحصن الذى به معدن الزيبق ، ومنه يتجهّز بالزيبق والزنجفر إلى جميع أقطار الأرض ، وذلك أن هذا المعدن يخدمه أزيد من ألف رجل ، فقوم للنزول فيه وقطع الحجر ، وقوم لقطع الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أوانى لسبك الزيبق وتصعيده ، وقوم لشأن الأفران والحرق . قال المؤلف : وقد رأيت هذا المعدن فأُخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفله نحو من مائتى قامة وخمسين قامة [1] . ومن قرطبة إلى اغرناطة ٤ مراحل وهى مائة ميل . و بين اغرناطة وجيّان ٥٠ ميلا وهى مرحلتان .

وأما بحر الشام الذى عليه جنوب بلاد الأندلس ، فمبدأه من الغرب ، وآخره حيث انطاكية ، ومسافة ما بينهما ٣٦ مجرى . فأما عروضه فمختلفة ، وذلك أن مدينة مالقة يقابلها من الضفة الأخرى « المزمّة » و « قادس » و بينهما عرض البحر مجرى يوم واحد بالريح الطيّبة المعتدلة . وكذلك « المريّة » يوازيها فى الضفة الأخرى « هُنين » وعرض البحر بينهما مجريان . وكذلك أيضاً مدينة « دانية » يقابلها من الضفة الأخرى « تَنَس » و بينهما ٣ مجارٍ . وكذلك مدينة برشلونة تقابلها من عدوة المغرب الأوسط « بجّانة » و بينهما ٤ مجار فى عرض البحر ، والمجرى مائة ميل

وأما جزيرة « يابسة » فانها جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب ، و بها مدينة حسنة صغيرة متحضّرة ، وأقرب برّ إليها مدينة دانية ، و بينهما مجرى . وفى شرقى جزيرة يابسة جزيرة ميورقة [2] ، و بينهما مجرى ، و بها مدينة كبيرة ، لها

---

(١) نقل لافى بروفسال كلام الادريسى هذا إلى كتابه عن أسبانية

(٢) أقمت بجزيرة ميورقة عشرين يوماً وجولت فيها ، ولشدة ما استلطفتها أخذت عنها معلومات كثيرة ، واقتنيت كتباً من تاريخها بالأسبانيولى ، وجمعت أسماء العلماء والأدباء الذين نبغوا من أهلها من عرب وأسبانيول ، وعزمت أن أفردها بتاريخ هى

مالك وحارس ذو رجال وعدد وأسلحة وأموال ، و بالشرق منها أيضاً جزيرة مينورقة تقابل مدينة برشلونة ، و بينهما مجرى ، ومن مينورقة إلى جزيرة سردانية ٤ مجار . فهذا ما أردنا ذكره .

ماقاله عن إقليم الأندلس
أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمدانى
فى كتابه « صفة جزيرة العرب »

ذكر الأقاليم السبعة التى كان الجغرافيون الأولون يقولون بها ، فذكر الأندلس فى الاقليم الثالث فقال : الاقليم الثالث حده منتهى أرض الحبشة ، مما يلى أرض الحجاز ، إلى نصيبين ، إلى أقصى الشام ، إلى البحر الذى بين أرض مصر و بين الشام إلى وسط البحر الذى يلى الأندلس مما يلى المغرب .

ثم ذكر معرفة قسمة الأقاليم لبطليموس فقال : فأما بطليموس وقدماء اليونانيين فانهم رأوا أن طباع الأقاليم وجبلّتها لا تكون إلا طرائق من المشرق إلى المغرب ، متجاورة بعضها إلى بعض ، من خط الاستواء إلى حيث يقع القطب الشمالى ، خمسين درجة ، وهو ضعف الميل و زيادة جزءين وكسر ، وقد حد فى قانونه عرض كل إقليم منها وساعات نهاره الأطول ، على وسطه دون طرفيه ، بقول من نقل عنه ، فجعل وسط الاقليم الأول مدينة سبا بمآرب من أرض اليمن ، وجعل العرض ستة عشر جزءاً وربعاً وخمساً ، وساعات نهاره الأطول ثلاثة عشر سواء ، وعرض الاقليم الثانى منتهى الميل ، وهو ثلاثة وعشرون جزءا وخمسة أسداس ، وساعات نهاره الأطول ثلاث عشرة ونصف ، والثالث إقليم اسكندرية ، وعرضه ثلاثون

وشقيقتها مينورقة ويابسة واسميه « الاصول المعرقة والغصون المورقة فى محاسن جزيرة ميورقة » ولعله يكون جزءا من هذه الموسوعة إن شاء الله

جزءا وسدس وخمس جزء ، وساعاته أربع عشرة ، والرابع إقليم بابل ، وعرضه ستة وثلاثون جزءا وعشر ، وساعات نهاره الأطول أربع عشرة ونصف . والاقليم الخامس عرضه أربعون جزءا ، وتسعة أعشار ، وثلث عشر ساعة ، وساعاته خمس عشرة ساعة والاقليم السادس عرضه خمسة وأربعون جزءا ونصف وسدس عشر ، وساعات نهاره الأطول خمس عشرة ساعة ونصف ، والاقليم السابع عرضه ثمانية وأربعون جزءا ونصف وثلث عشر ، ونهاره الأطول ست عشرة ساعة . وقد حدّ أقاصيها وأدانيها وبعض ما تشتمل عليه من البلاد المشهورة فقال : إن الاقليم الأول يمر على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التى يكون نهارها الأطول وعرضها ما ذكرناه وابتداؤه حيث يكون نهاره الأطول اثنتى عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة ، وعرضه اثنا عشر جزءا ونصف . وانتهاؤه حيث يكون نهاره الأطول ثلاث عشرة ساعة وربعاً وعرضه عشرين جزءا وربعاً ، ووسط هذا الاقليم مدينة سبأ ، وما كان فى مثل عرضها من مواضع الأرض ، وابتداؤه من المشرق من أقاصى بلاد الصين الخ .

ولما وصل إلى الأقليم الرابع قال : ويمر الأقليم الرابع على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التى يكون نهارها الأطول وعرضها ما قد ذكرناه ، وابتداؤه من الموضع الذى انتهت اليه ساعات الأقليم الثالث ، وعرضه إلى حين يكون نهاره الأطول أربع عشرة ساعة وثلاثة أرباع ساعة ، وعرضه ثمانياً وثلاثين درجة . ووسط هذا الأقليم بالتقريب مدينة أصبهان من مواضع ، وابتداؤه من المشرق آخر أرض الصين وتبّت وبلخ وخراسان والجبال وأرض الموصل وشمال الشام ، وبعض الثغور ، وبحر الشام وجزيرة قبرص ، وبلاد طنجة ، إلى أن ينتهى إلى حد المغرب من دون البحر المظلم . ويمر الأقليم الخامس على وسطه من المشرق إلى المغرب على المواضع التى يكون نهارها الأطول وعرضها ما قدمنا ذكره . وابتداؤه من الموضع الذى انتهى إليه عرض الأقليم الرابع ، ساعاته إلى حيث يكون نهاره الأطول خمس عشرة ساعة وربعاً وعرضه ثلاث وأربعون درجة ، ووسط هذا الأقليم بالتقريب مدينة مَرْو ، وما

كان في مثل عرضها من مواضع الأرض . فابتداؤه من المشرق داخل بلاد الترك وشمال خراسان وأذربيجان وكور أرمينية و بلاد الروم وسواحل بحر الشام الشمالية والأندلس إلى أن ينتهي إلى حد المغرب من دون البحر المظلم .

ثم نقل عن بطلميوس قوله : لما انقسمت دائرة البروج بأربعة أقسام ، وهي المثلثات ، لأن كل قسم منها ثلاثة أبراج ، على طبيعة من الطبائع الأربع ، التي هي النار والأرض والهواء والماء ، انقسم عامر الأرض بأربعة أقسام ، كل قسم منها منسوب إلى قسم من المثلثات في الطباع ، لأن كل محيط بطبع ما أحاط به على قدر طبيعته (إلى أن يقول) فلما كانت هذه الأشياء كذلك ، كان موضع سكناها ينقسم إلى أربعة أرباع متساوية في العدد للمثلثات ، ثم أتى على ذكر الربع المنسوب إلى « أوروفة » ـ يريد بها أوربة ـ فقال : ان الأمم الكلية التي تسكن في هذه الأجزاء هي أهل بلاد الصقالبة و بلاد برطانية وغلاطية وجرمانية و باسترانية و إيطالية وغالية وأبولية وطورينية وقلطيقة وسبانية (إلى أن قال) عن طبائع أهل هذه البلدان : يجب أن يكون أهل هذه البلدان ، في أكثر الأمر ، بسبب رئاسة هذا المثلث ، و بسبب الكواكب التي تشترك في تدبيره ، غير خاضعين ، محبين للحرية والسلاح والتعب ، محاربين ، أصحاب سياسة ونظافة ، كبار الهمم ، ولما كان المشتري والمريخ مشتركين فيهم ، إذا كانا في الحال المنسوبة إلى العشيّات ، وكانت الأجزاء المتقدمة من هذا المثلث مذكرة ، والمتأخرة مؤنثة ، عرض لهذه الأمم ألا يكون لهم غيرة في أمر النساء (إلى أن يقول) : وأما بلاد إيطالية منها و بلاد أبولية ـ يريد نابولي ـ و بلاد غالية ـ جنوبي فرنسة ووسطها ـ و بلاد صقيلية ، فانها تشاكل الأسد والشمس ولذلك صار سكانها أصحاب سياسة ، وأصحاب اصطناع المعروف ، وأصحاب مؤاساة . وأما بلاد طورينية منها و بلاد قالتقى ـ يريد بها بلاد السلتيين Celtes وهم أمة كانت تجاور الغاليين والايبيريين ـ و بلاد سبانية ، فانها تشاكل الرامي والمشتري ولذلك صار سكانها سليمي القلوب محبي النظافة . انتهى .

هذا ما جاء فى كتاب الهمدانى من جغرافيي العرب وحكمائهم عن اسبانية ، وأما قضية تأثير الكواكب فى طباع سكان الأرض ، وما نقله الهمداني عن بطلميوس القلودى من هذا الباب فهو معدود اليوم من النظريات البالية ، التى عدل الناس عنها ، لا سيما أننا لا نراها مطردة ولا غالبة حتى نحكم بصحتها .

ما ذكره أبو العباس أحمد المقرى
صاحب كتاب نفح الطيب عن بلاد الأندلس
من الجهة الجغرافية

اعلم أعزك الله أنه لايزال نفح الطيب من أعظم المراجع التى يعول عليها المحققون فى أخبار الأندلس ، برغم كل ما عليه من مآخذ ومغامز ، وما فاته من مباحث ومسائل ، وذلك لأن صاحبه اتصل بكتب كثيرة لم يتيسر لغيره الاطلاع عليها ، وشافه فى الشرق والغرب عدداً كبيراً من الجلة وحاضَرَهم ، وكان المقري نفسه مولعاً بأخبار الأندلس ، متخصصاً فيها حافظا من أنبائها ، وكلام علمائها ، ونظم شعرائها ، ولا سيما من أقوال لسان الدين بن الخطيب ، وزير بنى الأحمر الشهير بما يكاد يكون من المعجزات ، ولما كان قد رحل إلى المشرق ، كأكثر علماء المغرب ، وحج البيت الحرام خمس مرات ، وزار المدينة المنورة ، والبيت المقدس ، انتهى فى طوافه إلى دمشق الشام التى أخذت بمجامع فؤاده ، فألقى بها عصا التسيار ، وتعرف بكثير من علماء الشام وأدبائها وسراتها ، فكان ذكر الأندلس أمامهم ملهج لسانه الدائم ، وغرام قلبه الملازم ، فأرادوه أولا على تأليف كتاب يتضمن مرويّاته عن لسان الدين بن الخطيب ، فصحت عزيمته على ذلك ، و بدأ بكتابة هذا الكتاب سنة تسع وثلاثين وألف للهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية . إلا أنه بعد ما بدأ به بدا له أن يتوسع فى الموضوع ، ولا يقتصر على أخبار لسان الدين وحده فكان عند ما شرع بهذا التأليف سماه « عَرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن

الخطيب » ثم لما أجمع التوسع فى الموضوع عاد فسمى كتابه « بنفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » وهو لعمرى اسم لائق بمسماه ، ولفظ موافق لمعناه ، ولا أظنه يوجد اسم ألذّ للقارىء من اسم « نفح الطيب » كما أن الملابسة ظاهرة بين قوله « غصن الأندلس الرطيب » ومزايا الأندلس الطبيعية فى كثرة جنانها و بساتينها ووفرة فواكهها ورياحينها ، وما اتصفت به من الخصب والنماء ، وجمعته من زكاء الأرض إلى خير السماء ، ولما كان للسان الدين بن الخطيب في هذا الكتاب الحصة الكبرى فى الآثار المروية ، والأصوات المحكية ، لم يكن من العجب أن يجعل اسمه فيه وقد كان فى الأصل هو المقصود بالتأليف . هذا وقد كان تأليف المقّرى للنفح حينما كان مقيما بالشام ، ولذلك قال عنه فى المقدمة ما يلى :

« وله بالشام تعلق من وجوه عديدة ، هادية لمتأمله إلى الطريق السديدة ، أولها أن الداعى لتأليفه أهل الشام ، أبقى الله مآثرهم ، وجعلها على مرّ الزمان مديدة ، ثانيها أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ، ذوو الشوكة والنجدة الحديدة ، ثالثها أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة . ورابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق ، وسموها باسمها ، لشبهها بها فى القصر والنهر ، والدوح والزهر ، والغوطة الفيحاء ، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة »

قد يكون كلام المقّرى هذا مما لا يعجب بعض الثائرين على السجع فى أخريات هذه الأيام ولكنه ذو معنى كبير ، وفيه تصريح خطير ، ولذلك فإن ثورة هذه الفئة على السجع ، والفاصلة ، ليس من شأنها أن تفل من حد رغبتنا فى نقل كلام يعود على وطننا الشامى بشقص كهذا من الفخر لم يوفره لغيره ثقة كبير ، كأبى العباس أحمد المقّرى المغربى ، إن لم يكن هو حجة فى أخبار الأندلس فياليت شعرى من يكون هو الحجة ؟! فنحن رواة عنه ، ونقلة من نصوصه بأسجاعها وفواصلها وحروفها وحركاتها

نعم إن « نفح الطيب » هو كتاب أدب ، أكثر منه كتاب تاريخ ، وقد قيل فيه ، وكاد يلحق بالأمثال السائرة : إنه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، الذى من لم يقرأه فليس بأديب » ولكنه إلى هذا الوقت لا يزال عمدة المنقبين عن آثار الأندلس سواء فى التاريخ أو فى الجغرافية أو فى الأدب أو فى المحاضرة برغم كل ما فاته منها ، ولا أزال أنا أستقى من منابعه برغم ما نقمت عليه فى كتابى « مختصر تاريخ الأندلس » الذى حررته ذيلا على « آخر بنى سراج » Dernier Des Abencerrage الرواية التى من قلم شاتو بريان الكاتب الأفرنسى الشهير ، وقد ترجمتها إلى العربية واردفتها بتاريخ للأندلس ونشرتهما سنة ١٣١٥ .

فيناسب أن أعيد هنا ما كنت قلته من ٤٠ سنة ، وهو منقول بالحرف عن صفحة ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ من ذلك الكتاب ، طبعته الثانية بمطبعة المنار وهو هذا (تحت عنوان) « تمهيد »

إنما حدانى إلى تذييل هذه الرواية أمران : الأول إعانة القارىء على فهم الحوادث ومعرفة المواقع ، بما تُفقَد بدونه لذة المطالعة . والثانى ما رأيته من اختصار جرم الرواية ، فآثرت اردافها بذيل يطيل من قدها ، و يزيد فى حجمها ، و يكون فيه من حقائق الوقائع التاريخية ما لا يقصّر فكاهة عن موهوم الرواية الغرامية ، فجاءت روايتنا ذيّالا ، و إن لم نرج أن تكون طاووساً ، وليست هذه أول مرة جرّت فيها الروايات أذيالا ، واتخذت القصص أذنابا طوالا .

وما أقصد بهذا الذيل استقصاء تاريخ الأندلس الاجمالى إلا ما اضطر اليه مساق الكلام . فقد كنت منذ نشأتى ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف ، وطال فيه المقال كأنما أعده تكرارا لسابق ، أو إعادة لصدى ، وأراه خلوا من كل براعة . وأخبار الأندلس مستفيضة فى التواريخ شرقا وغربا ، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة فى عدد الكتب . و إنما يستحب الانشاء فى ماندر

فيه الكلام وعز البحث ، وطمست الأعلام ، فاذا قرأته العامة ، بل الخاصة ، سقطت منه على جديد ذى طلاوة ، ولم تسأمة النفوس ، لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التى لا تتغير .

فأشد الأقسام عوزاً إلى البحث من تاريخ هذه البلاد ـ التى لا نزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها ـ إنما هو القسم الأخير ، وأحوج طائفة من أخبارها إلى التدوين ما تعلق بدَور الجلاء ، وعصر الخروج من بلاد كانت مدة الضيافة فيها ثمانمائة سنة ، وذلك لأن هذا الحادث الكبير الذى هو من أضخم الحوادث فى الإسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية ، و بعد مرور زمن العلم والفلسفة عند معشر الناطقين بالضاد ، ولدى إقحاط البلاد بالأدمغة المتوقدة ، وعقم الأمة عن الرؤوس المولدة ، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة ، فانه لا عطر بعد عروس .

نعم لا أنكر أن (كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للعلامة المقّرى هو من أوفى الكتب بأخبار الأندلس وآدابها : حقيبة أنباء ، وقِمَطر حوادث وخزانة آداب ، وكشكول لطائف ، وديوان أشعار ، وقد كان عهد تصنيفه على أثر النازلة الكبرى ببوائق الأندلس ، وامتصاص سؤر الكاس ، وعفاء الأثر الأخير من سلطان المسلمين فيها ، بحيث أمكن صاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة ، واستيلاء الاسبانيول على الجميع ، وختم الدولة الاسلامية فى تلك الديار ، ولكنه ككثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء ولا ينتبهون إلى قاعدة أن الحسن إنما هو تناسب الأعضاء ، فقد بحث فى هذا الخطب الجالل ، والحادث العمم ، بحثاً هو دون حقه بدركات ، وأتى عليه كما يأتى على واقعة متوسطة البال ، من الوقائع التى أشار اليها في بطن كتابه واستوعبه فى أوراق يسيرة ، كانت لطافتها تكون فى كثافتها ، فان التناسب يقضى باعطاء كل مقام من المقال ما يكافيه ، و يقوم بحقه و يجىء على قدره . ولو فسح الفاضل المقّرى رحمه الله لواقعة سقوط مملكة غرناطة ،

وحادث انقراض أمر الاسلام بالأندلس ، ما فسحه فى تاريخه للنثر الكثير ، الذى يغنى عن كله بعضه من المخاطبات التى صدرت عن لسان الدين بن الخطيب ، أو وجهت اليه ، أو إلى غيره ، أو الشعر الغزير الذى كثير منه حقيق بالاسقاط من ذلك المجموع ، والقصص التى يرويها عن بعض المشايخ مع طول أناة غريب فى الاستقصاء ، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم إلى السماء ، لكان ذلك أجزل فائدة وأسنى موقعاً ، وكانت الناس قد شفت غليلها من خبر هذه الطامة التي لكل الحوادث سلوان يسهّلها ، وليس لها سلوان ، كما قال أبو البقاء الرندى ، ولكفينا مؤونة النقل عن كتب الافرنج فيما يختص بالعرب ، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبى عبد الله بن الأحمر ، وعمه الزغل ، وذهاب تلك المملكة ، وما جرى فى ضمنه من الحروب وما حصر من المدن ، فى مسافة من التاريخ ، استوعبت أطول منها رسالة ، واحدة صادرة عن ذلك السلطان إلى الشيخ الوطّاسى صاحب فاس فى موضوع أبرد ما فيه ، مع طوله ، أنه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالأندلس على يده ، بأن الخطب غير نادر المثال ، وأن بغداد ، دار خلافة بنى العباس ، قد أصابها ما أصاب غرناطه ! فانظروا هل هذا مما يؤثر على طوله ، أو مما ترتاح الأنفس إلى قبوله ، على فرض صحة تمثيله ؟ و إن كان العذر فى ذلك ما يقال من أن صاحب النفح قد ألفه وهو نِضو أسفار ، خال من الأسفار ، ليس لديه من العدة ما يستعين به على الاطالة ، والأخذ بالأطراف ، فسبحان الله ! كم يتلهى بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع عن تعليق ما ينفع ؟ ! وهذا الفاضل المقرى قد أملى عن ظهر قلبه أربعة مجلدات كبار ، أودعها من التاريخ والجغرافية والقصص والنكات ، وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوف . غثاً وسميناً ، ما لا أظن حافظة تتمكن من اختزانه بين صدغين ، وتركنا فى التاريخ المهم من تفصيل الوقائع الشداد ، والمعارك التى سالت فيها أنهر الدماء ، في دور النزع الأخير ، عيالا على الافرنج ، مضطرين إلى الأخذ من مصنفاتهم ،

فكنا و إياهم فى أخذ تاريخنا عنهم كما كنا فى أخذ لغتنا عن صحاح الجوهرى [(١)]

ولا لشك أن فى ديار المغرب من التواريخ عن كارثة الأندلس الأخيرة ما يستوفى شرحها [(٢)] ولكنه لم يشتهر عندنا فى المشرق غير نفح الطيب من متأخر التآليف ، وهذه هي الحال معه ، فلا عجب أن ساقنا حب الاستقصاء ، واقتفاء أثر أبناء الجلدة ، إلى أخذ أخبارنا عن الأجانب وتلونا : (هذه بضاعتنا ردت الينا) اه

هذا ما كتبته عن نفح الطيب يوم كنت فى السابعة والعشرين من العمر ، ولست من بعد مضى تسع وثلاثين سنة على ذلك القول براجع عنه اليوم من حيث الجوهر ، و إن كنت أرانى الآن أقل قسوة ، وأكثر عطفاً على المقرى وأعظم تقديراً لما أملاه فى كتابه ، ولا عجب فالذى عند الشيخ من سعة الطبع ، وقبول العذر ، ليس عند الشاب .

---

(١) إن الجوهرى كان فارسياً فلما ألف كتابه الصحاح فى لغة العرب قيل إنه قال لهم : خذوا لغتكم عن هذا الرجل الأعجمى . فجعلت أنا هذه الجملة من قبيل المثال . ولما طبعت كتابى هذا طبعته الثانية بمطبعة المنار وكان الأستاذ الأكبر فقيد الاسلام فى هذا العام السيد محمد رشيد رضا رحمه الله هو المتولى تصحيح الطبع أخذته الغيرة من جملتى هذه فعلق عليها فى الحاشية مايلى : يعنى أخذ العرب لغتهم عن الجوهرى وهو أعجمى النسب . ولكنه صار من العرب لغة وأدباً وديناً وكتابه الصحاح أحد معاجم اللغة وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغنى عنه وليس فيه شيء لا يوجد فى غيره اه . قلت وهذا لا يمنع من أن تكون تلك الجملة قد قيلت وأن يكون المثال مطابقا للحال .

(٢) كنت يومئذ أظن ذلك ولكنى لم أجد هذه الضالة بعد البحث والاستقراء إلا ما كان من وجدانى « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » وكتاب محمد بن عبد الرفيع الأندلسى المتوفى عام اثنين وخمسين وألف أى بعد الجلاء الأخير بخمس وثلاثين سنة اطلعت منه على فصل نقله عنه الشيخ أبو عبد الله محمد أبوجندار فى كتابه « تاريخ رباط الفتح » وشيأ من « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض »

وعلى كل حال فقول المستشرق «لافى بروفسال» Lévi - Provençal فى الانسيكلوبيدية الاسلامية L'Encyclopédie De Lislam إن نفح الطيب هو الوثيقة الوحيدة التى فى أيدينا عن حادثة خروج العرب النهائى من أسبانية ليس بصحيح

ولنبدأ الآن وقد أردنا أن ننقل ما جاء فى النفح من المعلومات الجغرافية عن الأندلس لنقارن بينها و بين معلومات سائر مؤلفى العرب كابن حوقل والادريسى وياقوت وغيرهم . قال فى الجزء الأول فى صفحة ٦٣ من الطبعة الأولى المنسوبة إلى المطبعة الأزهرية المصرية ما يلى :

الباب الأول

فى وصف جزيرة الأندلس ، وحسن هوائها ، واعتدال مزاجها ، ووفور خيراتها واستوائها ، واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها ، وكرم بقعتها التى سقتها سماء البركات بأنوائها ، وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور ، وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور ، المستمدة من أضوائها ، فأقول :

محاسن الأندلس لاتستوفى بعبارة ، ومجارى فضلها لا يشق غباره ، وأنّى تجارى وهى حائزة قصب السبق ، فى أقطار الغرب والشرق ؟ ! قال ابن سعيد : إنما سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها واليه تنسب سبته [1] . قال : وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربى لأنهم إما عرب أو متعربون [2] انتهى . وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى فى بعض كلام له أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية ، أعادها الله تعالى للاسلام ، ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ما نصه : خص الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض [3] ألوان الانسان ، ونبل

---

(١) هذه من الروايات التى هى أشبه بالأساطير

(٢) هذا القول ليس كالذى قبله بل هو فى غاية الصحة

(٣) عند ما كنت فى غرناطة نازلا فى فندق الحمراء أحسن فنادقها كنت أسأل عن الاماكن والبقاع دليل ذلك الفندق وكان من الأدباء فقلت له ذات يوم : جئت

الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الادراك ، واحكام التمدن ، والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار ، مما سواها . انتهى .

وقال أبو عامر السلمى فى كتابه المسمى « در القلائد وغرر الفوائد » : الاندلس من الأقليم الشامى [1] وهو خير الأقاليم وأعدلها هواء وترابا ، وأعذبها ماء ، وأحسنها حيوانا ونباتا ، وهو أوسط الأقاليم ، وخير الأمور أوساطها

قال أبو عبيد البكرى : الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمنية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جباياتها ، صينية فى معادن جواهرها ، عدنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة اليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة ، [2] ، وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلس ، وله

إلى أسبانية من جهة فرنسة فكنت أظن أن سكان الصقع الشمالى منها أوضأ وجوها وأشرق جمالا من سكان الجنوب فرأيت الأمر بالعكس إذ أنى كنت كلما تقدمت إلى الجنوب أرى الوجوه أحسن والقدود أرشق والنعمة أظهر . فأجابنى فوراً : هذا صحيح يعلمه كل احد وذلك لأننا نحن فى الجنوب عرب

(١) يريد أنها موازية للشام وأنهما على خط واحد ومن المعلوم أن القطر الشامى هو فى الجغرافية مثال الاعتدال

(٢) لليونانيين فى أسبانية آثار لا تنكر ، لكنها لا تذكر بالقياس إلى آثار الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والذى يلوح لنا أن أبا عبيد البكرى حمل أكثر ما فى أسبانية القديمة من الآثار على تأثير اليونانيين . وهذا خطأ . أو أنه خلط بينهم وبين الفينقيين والقرطاجنيين والرومان . والحقيقة أن اليونانيين جاءوا إلى السواحل الأسبانية من جهة البحر المتوسط ، ويظن أن انتجاعهم لهذه السواحل وقع بين سنة ٦٣٠ وسنة ٥٧٠ قبل ميلاد المسيح ، ولم ينحصر تبسطهم فى سواحل البحر المتوسط ، بل اخترقوا بحر الزقاق ، وامتدوا على سواحل غاليسية وقنتبرية ، ومع هذا فأكثر ما كانت لهم مستعمرات هو فى السواحل الشرقية التى هى اليوم سواحل كتلونية إلى بلنسية ودانية . وكانوا يسمون مستعمراتهم هذه أمبورياس Ampurias وتوابعها ، ومنها كانوا يتقدمون إلى الداخل لاجل التجارة مع الايبيريين ، وأكثر ما بقى عنهم من الآثار إنما

الأثر فى الصنم بجزيرة قادس وصنم جيليقية ، والأثر فى مدينة طرّكونة [1] الذى لا نظير له .

قال المسعودى : بلاد الأندلس تـكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة . انتهى باختصار . ونحوه لابن اليسع إذ قال : طولها من أربونة إلى أشبونة ، وهو قطع ستين يوماً للفارس المجد . وانتقد بأمرين : أحدهما أنه يقتضى أن أربونة داخلة فى جزيرة الأندلس ، والصحيح أنها خارجة عنها ، والثانى أن قوله ستين يوماً للفارس المجد اعياء وافراط ، وقد قال جماعة أنها شهر ونصف . قال ابن سعيد : وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجد . والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر . وكذا قال الحجارى . وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهر بنيف قليل . قال الحجارى فى موضع من كتابه إن طول الأندلس من الحاجز إلى اشبونة الف ميل ونيف اه . وبالجملة فالمراد القريب من غير مشاححة ، كما قاله ابن سعيد وأطال فى ذلك ، ثم قال بعد كلام : ومسافة الحاجز الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط أربعون

وجد فى خرابات أمبورياس وروزاس ، وهى من آنية الزجاج ، ومن الفخار الملون ، ومن الحلى ، ومن بعض التماثيل ، مثل تمثال اسكولاب المحفوظ فى متحف برشلونة ، ووجدت أيضا بعض قطع من الفسيفساء ، ووجدت مسكوكات مضروبة فى امبورياس وروزاس اللتين يظهر أنهما أول المدن الأسبانية التى وقع فيها ضرب السكة ، وكان لليونانيين فى أمبورياس وروزاس ودانية معابد للالهة ديانة Diane التى هى من معبودات آسية فى الأصل

(١) إن الذى أثر الآثار العظيمة فى طركونة الباقية إلى يومنا هذا تدهش الناظر وتذهل الخاطر ، إنما هو أغسطوس الرومانى الذى أقام بها سنة ٢٦ قبل المسيح ، فبنى فيها الهيكل العظيم لعبادة الآلهة رومة ، وكانت فيها هياكل أخرى وأبنية يقصر عنها الوصف . وأما قادس فقد كان استولى عليها الفينيقيون ، ثم آلت إلى الرومانيين ، وسكن بها أناس من اليونانيين ، وترك الجميع فيها آثاراً مذكورة . وهيكل قادس المشهور عند العرب بصنم قادس هو من آثار الفينيقيين

ميلا ، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق ، ولقلّته ، سمّيت جزيرة ، وإلاّ فليست بجزيرة على الحقيقة ، لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة ، وعرض جزيرة الأندلس فى موسطها عند طليطلة ستة عشر يوماً .

واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز أربونة ، فمن قال إنه فى أربونة . وإن هذه المدينة تقابلها مدينة برديل التى فى الركن الشرقى الشمالى أحمد بن محمد الرازى ، وابن حيان . وفى كلام غيرهما أنه فى جهة أربونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده فى الأسفار براً وبحراً اليها، وتفرّغه لهذا الفن . قال ابن سعيد : وسألت جماعة من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف ، وأن اربونة وبرشلونة [١] غير داخلتين فى أرض الأندلس . وأن الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطرّكونة [٢] فى موضع يعرف بوادى « زنلقطو » ، وهنالك الحاجز الذى يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ، ذات الألسن الكثيرة ، وفى هذا المكان جبل البرت ، الفاصل فى الحاجز المذكور ، وفيه الأبواب التى فتحها ملك اليونان بالحديد والنار والخل ، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك فى البر . وذكر الشريف أن هذه الأبواب فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحر الذى بين جزيرتى ميورقة ومنورقة ، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية . ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى والركن الشمالى أربعون ميلا قال : وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل ، وهى من مدن الأفرنجة ، مطلة على البحر المحيط ، فى شمال الأندلس . قال ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى

---

(١) أما اربونة Narbonne فغير داخلة فى الجزيرة الايبرية وأما برشلونة فهى داخلة فيها لأن كل ماهو جنوبى جبال البرانس هو داخل فى الجزيرة

(٢) كلا فجبال البرتات ليست بين طركونه وبرشلونه بل هى إلى الشمال منهما وهى الحاجز بين الأندلس والأرض الكبيرة

الشمال في بلاد الفرنجة ، ولهم به جزائر كثيرة ، وذكروا من الركن الشمالي عند « شنت [١] ياقوه » من ساحل الجلالقة في شمال الاندلس ، حيث تبتدىء جزيرة « برطانية [٢] الكبيرة » فيتصوّر هنالك بحر داخل بين ارضين ، من الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط ، لطوله الى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برديل [٣] . وذكر الشريف : ان عند شنت ياقوه في هذا الركن المذكور ، على جبل بمجمع البحرين ، صنما مطلا مشبهاً بصنم قادس .

(١) Santiago (٢) Grande - Bretagne

(٣) إن سكان أسبانيا الاصليين لم يتركوا كتابات تاريخية ولا جغرافية عن بلادهم ، كما يصرح به الاستاذ رافائيل بالستر Ballester أحد علماء التاريخ في اسبانية الذى ألف أحسن تاريخ لتلك المملكة ، ونشر كتابه سنة ١٩١٧ ، ثم أعيد طبعه مراراً ، لاقبال الناس عليه ، بما فيه من تحقيق وتمحيص ، واختصار لا يفوت معه معنى مهم ، واجتناب للخوض في مالم يثبت بطريقة علمية . فهو الذى يقول : إن جميع ماورد من المعلومات القديمة عن أسبانية إنما جاء في كتب الرومان واليونان ، وهي أيضاً معلومات ناقصة ، ومنها ماليس مستنداً إلى وثائق يركن إليها . ثم قال إن أقدم كتاب ورد فيه ذكر أسبانية هو كتاب الاوديسه Odyssée المنسوب إلى هوميروس ، وهو ديوان شعر شهير ، وقد جاء فيه ذكر أسبانية تحت اسم « سيكانيه » Sicania وأنها بقعة خصيبة في أقصى المغرب . وفي المائة الخامسة قبل المسيح كان اليونان يعرفون جنوبي أسبانية ، ويسمون ذلك القطر ببلاد تارتسيد Tarteside ويعرفون أيضا القسم الشرقي من أسبانية ، ويقولون له « ايبيرية » نسبة إلى نهر ايره ، وقد شمل هذا الاسم فيما بعد سائر شبه الجزيرة الايبيرية . أما اسم « اسبيرية » Hespéria فيظهر أنه كان اسما شعرياً أطلقه اليونان على جميع الاقاليم الغربية . ولم يكن جغرافيو اليونان بادىء ذي بدء يعرفون خليج غشقونية Gascogne ، وكانوا يظنون أن أسبانية إنما هي على مساواة غالية ، أى جنوبي فرنسة . وبقى الامر كذلك إلى القرن الرابع قبل المسيح ، فجاء سائح اسمه بيتياس Pythéas فاطلع على أن في شمالي اسبانية إلى الغرب بحرا يجعل أسبانية عبارة عن شبه جزيرة

ومن ذلك الوقت صار يقال لأسبانية شبه الجزيرة الايبيرية . وأول ما عرف الأقدمون من أسبانية هو السواحل الجنوبية والشرقية ، أى من جبال البيرانس إلى

والركن الثالث بمقربة من جبل الأغن ؟ حيث صنم قادس . والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط ، مارًّا مع ساحل البحر الجنوبي الى جبل البرت المذكور . انتهى .

والكلام في مثل هذا طويل الذيل . قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازى : بلد الاندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب ، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيّب التربة ، خصب الجناب ، منبجس الانهار الغزار ، والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل الهواء والجوّ والنسيم ، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسِطَة من الحال . لا يتولد فى احدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة ، وتدوم متلاحقة غير مفقودة . أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره . واما الثغر وجهاته ، والجبال المخصوصة ببرد الهواء ، فيتأخر بالكثير من ثمره ، فمادة الخيرات بالبلد متمادية فى كل الاحيان ، وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان . وله خواص في كرم النبات توافق فى بعضها أرض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره ، منها ان المحلب وهو المقدّم فى الافاوية ، والمفضّل فى أنواع الأُشنان [1] لا ينبت بشيء من الأرض الا بالهند والاندلس ، وللاندلس المدن الحصينة ، والمعاقل المنيعة ، والقلاع الحريزة ، والمصانع

أعمدة هرقل التى هى بوغاز جبل طارق ، وأما السواحل الجنوبية فكانت عندهم تنتهى برأس سانفنسان Saint - Vincent كما أن الساحل الشمالى كان ينتهى برأس اورتغال Ortegal فكان الاولون يتصورون سواحل أسبانية من جهة الجنوب تصوراً صحيحاً ، أما من جهة الغرب فكانت فى تخيلهم أقصر مما هى فى الواقع . فاما أواسط أسبانية فلم تعرف إلا فى المائة الثانية قبل المسيح . قال المؤرخ رافائيل بالستر : إن بين أسبانية وأفريقيه تشابهاً عظيما من الجهة الجغرافية ، وقال أيضاً إن أحسن وصف لاسبانية مما تركه الاقدمون هو ما جاء فى كتاب سترابون الجغرافى اليونانى الذى وجد قبل المسيح بقرن واحد .

(١) بضم أوله هو الحمض الذى يغسل به الأيدى وقد يكسر أوله

الجليلة ، ولها البرّ والبحر ، والسهل والوعر ، وشكلها مثلث ، وهى معتمدة على ثلاثة أركان ، الأول هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالاندلس ، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامى ، الآخذ بقبلى الاندلس . والركن الثانى هو بشرق الاندلس ، بين مدينة نربونة ، ومدينة برديل ، مما بايدى الفرنجة اليوم ، بازاء جزيرتى ميورقه ومنورقة ، بمجاورة من البحرين ، البحر المحيط والبحر المتوسط ، و بينهما البر الذى يعرف بالابواب ، مسيرة يومين . ومدينة نربونة تقابل البحر المحيط .[١] والركن الثالث منها هو ما بين الجوف[٢] والغرب من حيز جلّيقية ، حيث الجبل الموفى على البحر ، وفيها الصنم العالى المشبه بصنم قادس ، وهو الطالع على بلد برطانية . قال : والاندلس اندلسان فى اختلاف هبوب رياحها ، ومواقع أمطارها ، وجريان انهارها : اندلس غربى ، واندلس شرقى . فالغربى منها ما جرت اوديته الى البحر المحيط الغربي ، وتمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المَفازَة الخارجة مع الجوف ، الى بلد شنتمرية ، طالعاً الى حوز « اغريطة »[٣] المجاورة لطليطلة ، مائلا الى الغرب ، ومجاورا للبحر المتوسط ، الموازى لقرطاجنة الحلفاء ، التى من بلد لورقة ، وللحوز الشرقى المعروف بالاندلس الأقصى . وتجرى أوديته الى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية ، وهو من حدّ جبل البشكنس ، هابطاً مع وادى « ابره »[٤] الى بلد « شنت[٥] مرية » ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفى القبلة منه البحر الغربى ، الذى منه يجرى البحر المتوسط ، الخارج الى بلد الشام ، وهو البحر المسمّى ببحر « تيران »[٦] ومعناه الذى يشق دائرة الارض ، ويسمّى البحر الكبير . انتهى .

---

(١) سهو من الناسخ فان نربونة تقابل البحر المتوسط

(٢) المغاربة والاندلسيون يقولون للشمال الجوف كما تقدم الكلام عليه وسنعود اليه

(٣) أظن أنه المكان الذى يقول له الاسبانيول Agredas

(٤) Ebro (٥) Santa Maria

(٦) يكتب بالافرنسية هكذا Tyrrhenienne وهو البحر الذى يفصل بين ايطالية وقورسقة وسردانية وصقلية

قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظّام : بلد الاندلس عند علماء أهله اندلسان : فالاندلس الشرقى منه ماصبّت أوديته الى البحر الرومى المتوسط، المتصاعد من أسفل أرض الأندلس الى المشرق ، وذلك ما بين مدينة تدمير الى سرقسطة . والاندلس الغربى ما صبّت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط ، اسفل من ذلك الحدّ ، الى ساحل المغرب . فالشرقى منهما يمطر بالريح الشرقية ، ويصلح عليها ؛ والغربى يمطر بالريح الغربية ، وبها صلاحه ، وجباله هابطة الى الغرب، جبلا بعد جبل . وانما قسمته الاوائل جزئين لاختلافهما فى حال امطارهما ، وذلك انه مهما استحكمت الريح الغربية ، كثر مطر الاندلس الغربى ، وقحط الأندلس الشرقى ، ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقى ، وقحط الغربى . وأودية هذا القسم تجرى من الشرق الى الغرب ، بين هذه الجبال . وجبال الاندلس الغربى تمتدّ الى الشرق ، جبلا بعد جبل ، تقطع من الجوف الى القبلة ، والاودية التى تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها الى القبلة ، وبعضها الى الشرق ، وتنصبّ كلها الى البحر المحيط ، بالاندلس القاطع الى الشام ، وهو البحر الرومى . وما كان من بلاد جوف الأندلس من بلاد جليقية وما يليها ، فان أوديتَه تنصب إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف [1] (وصفة الأندلس) تشكل مركن على مثل الشكل

(١) تقدم لنا أن اخواننا المغاربة اصطلحوا على تسمية الشمال بالجوف ، وأننا بحثنا كثيرا حتى نعلم وجه هذه التسمية ، لانه ليس فى كتب اللغة ما يدل على أن الجوف يعنى به الشمال ، بل الجوف فى اللغة هو المطمئن من الارض ، وهو داخل الشىء : فمن الانسان بطنه ، ومن البيت داخله . ولا مناسبة بين الشمال والجوف فى شىء . ومع هذا فلا تكاد فى جميع كتب الأندلس تجد معنى الشمال معبراً عنه بغير الجوف ، مما حدانا أن نسأل اخواننا المعروفين بسعة الاطلاع فى اللغة ، واصالة الرأى فى توجيه معانى الالفاظ ، عما يرونه من وجه هذا الاصطلاح ، فالسيد علال الفاسى من رؤوس أدباء المغرب ، رأى كما تقدم الكلام عليه ، أن الجوف بلاد واقعة فى شمالى مكة فكما أن الجنوب يسمى بالقبلة فى بلاد الشام ، أصبح الجوف علماً على الشمال بالنسبة إلى أهل الحجاز ، ومن هنا غلب هذا الاستعمال فى المغرب والاندلس . وقد استحسن

المثلث ، ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب ، حيث اجتماع البحرين عند صنم

هذا الرأى الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى العربى فى دمشق . وأما الأستاذ الأب انسطاس الكرملى فمال إلى القول بأن الذين أطلقوا الجوف على على الشمال لا بد أن يكونوا أهالى شمالى أفريقية لأن الريح الشمالية تهب عليهم من جوف البحر المتوسط فصار كل شمالى عندهم جوفاً . ثم أنه جاءنى جواب فى هذا الموضوع من الاستاذ الشيخ خضر حسين التونسى يقول فيه : إن أهل تونس كما يسمون الجنوب بالقبلة ، يسمون الشمال بالجوف . وتجد هذا الاستعمال فاشياً فى تحديد الأرضين ، ويظهر أنه جاء إلى تونس من الاندلس ، وكنت أخبرت الاستاذ الخضر عما ظهر للاستاذ علال الفاسى من جهة هذا الاستعمال ففى جوابه قال لى أنه قد خطر ذلك على باله ، ولكن لم يطمئن إليه لأن هذه الكلمة بهذا المعنى لم تستعمل إلا بالمغرب والاندلس . ويظهر أن أصل استعمالها هو فى الاندلس ، فربما كان السبب فيه أن العرب دخلوا الأندلس من جهة الجنوب ، فكان الجوف عندهم هو داخل البلاد ، وهو فى الشمال كما لا يخفى ، فصار الشمال عندهم مرادفا للجوف

وأما كاتب هذه السطور فقد كنت من أول الأمر أظن أن العرب لما كانوا قد دخلوا الاندلس من الجنوب ، وتوغلوا فيها إلى الشمال ، وصلوا إلى مايسمونه بالارض الكبيرة ، شمالى البرانس ، وهى وسط القارة الاوربية ، لا طرفها كما هى أسبانية فصاروا يقولون للأرض الكبيرة جوفا ، ولما كانت الأرض الكبيرة هى فى الشمال نحرا ، صار الشمال والجوف عندهم مترادفين . وقد جاءنى من السيد علال الفاسى مؤخراً كتاب يقول فيه : « وأما رأيكم فقد وجدت ما يستأنس له به فى كلام ابن خلدون فقد جاء عنده فى صفحة ٣٠٣ مالفظه : « وقال هوروشيوش أن نيرون قيصر انتقض عليه أهل مملكته ، فخرج عن طاعته أهل بربطانية من أهل الجوف ، ورجع أهل أرمينية والشام إلى طاعة الفرس اه .

وخلاصة القول أن الاستاذين عبد القادر المغربى وعلال الفاسى يميلان إلى القول بأن الجوف استعمل للشمال لوقوع بلاد الجوف فى شمالى مكة ، كما استعملت القبلة لمعنى الجنوب لوقوعها فى شمالى الشام ، وأن العلامة الكرملى يرى التسمية المذكورة بدأت عند أهل شمالى أفريقية ، لكون الرياح الشمالية تهب على بلادهم من « جوف » البحر المتوسط ، وأن العلامة خضر حسين التونسى يذهب إلى رأى قريب من رأى

قادس . وركنها الثاني فى بلد جلّيقية ، حيث الصنم المشبه صنم قادس ، مقابل جزيرة بريطانية . وركنها الثالث بين مدينة نربونة ، ومدينة برديل من بلد الفرنجة ، بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامى المتوسط فيكادان يجتمعان فى ذلك الموضع فيصير بلد الأندلس جزيرة بينهما فى الحقيقة ، لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب منه المدخل إلى الأرض الكبيرة ، التى يقال لها الأبواب ، ومن قِبَلِهِ يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ، ذات الألسن المختلفة .

قال : وأول من سكن بالاندلس على قديم الأيام ، فيما نقلته الاخبار يون ، من بعد عهد الطوفان ، على ما يذكره علماء عجمها ، قوم يعرفون بالانداش ، معجمة الشين بهم سمّى المكان ، فعرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا الذين عمروها ، وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهراً ، على دين التمجّس والإهمال والإفساد فى الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم ، فحبس المطر عنهم ، ووالى القحط عليهم ، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها ، وغارت عيونها ، ويبست أنهارها ، وبادت أشجارها ، فهلك كثرهم ، وفرّ مَن قدر على الفرار منهم ، فاقفرت الأندلس منهم وبقيت خالية ، فيما يزعمون ، مائة سنة وبضع عشر سنة ،وذلك من حد بلد الفرنجة إلى حد بحر الغرب الأخضر

هذا العاجز ، وهو أن العرب جاؤا الاندلس من الجنوب ، فكان داخلها أو جوفها هو الشمال فى نظرهم ، وفى الواقع ، فأطلقوا كلمة الجوف على كل ماهو شمالى . وإنما الفرق هو فى أنى أنا أظن أن الجوف عند العرب لم يكن جوف الاندلس نفسها ، ولكن جوف القارة الاوربية كلها ، لأن الاندلس فى ذاتها هى طرف بالنسبة إلى القارة المذكورة ، فالاندلس وجزر البحر المتوسط وايطالية هى بالنسبة إلى أوربة معدودة من الاطراف ، والجوف هو وسط القارة . ولما كان هذا الوسط هو فى الشمال بالنسبة إلى أهل المغرب وعرب الاندلس ، فقد أطلق هؤلاء اسم الجوف على الشمال وكلام ابن خلدون فيه ما يدل على هذا ، لإنه يذكر انتقاض أهل بريطانية ، وهم أهل شمالى فرنسة وجزيرة انكلترة ، ويعدهم أهل وسط اوربة فهذه هي الآراء المختلفة في هذا التوجيه وللقارىء أن يختار منها ما يشاء

وكان عدّة ما عمرتها هذه الامة البائدة مائة عام و بضع عشرة سنة . ثم ابتعث الله لعمارتها الافارقة (١) ، فدخل اليها بعد اقفارها تلك المدة الطويلة ، قوم منهم ، أجلاهم

(١) أى أهل أفريقية . وهذا الرأى الذى قاله ابن النظام معروف فى أوربة . قال رافائيل بالاستر فى تاريخ أسبانية ما خلاصته : إن الذين عمروا أسبانية قبل الجميع هم الليقوريون Ligures والايبيريون Ibères والسلتيون Celtes فأما أصل الليقوريين فمجهول ، ولا يعرف وجودهم إلا من بعض أسماء البقاع ، وكل ما يقال عن أصلهم فهو رجم بالغيب : وأما الايبريون فقد ذهب قوم إلى أن أصلهم هو من آسية ، وقيل إنهم من أصل سامى أفريقى ، وذلك لشدة التشابه بين الايبريين وبين قبائل الاطلس ، والبرابر والطوارق ، سواء فى الملامح ، أو فى المنازع والأخلاق ومن المؤرخين من يرى أن الايبيريين هم أجداد الباشكنس الحاليين ، ويستدلون على هذا ببعض أدلة لغوية . أما السلتيون فهم شعب طرأ من آسية على غربى أوربة والوسط منها وقد انتجعوا أسبانية فى القرن السادس قبل المسيح ، وأقاموا بغربيها وموسطتها ، وتلاقوا مع الايبيريين ، ولم يطرد أحد الفريقين الآخر . وكانت نتيجة تساكن هذين العنصرين تولد اسم « السلتيبير » Celtibères أى السلتى الايبيرى وهو اسم أطلق على الايبيريين الذين فى أواسط أسبانية وقد عرف هذا الاسم منذ سنة ٢١٨ قبل المسيح وبالاختصار كانت اسبانية لذلك العهد منقسمة إلى ما يلى :

القسم الشمالى الشرقى الذى يقطنه الباشكنس ، مثل بيسقاية ونبارة ، ووشقة ، والفاردول Vardules فى « قيبوسقوا » Guipuzcoa . والايلرجيت Illergetes فى لاردة . والكوزيتان Cosétanes فى طركونة ، واللاسيتان Lacétanes فى برشلونة والاوسيتان Ausétanes ، والانديجيت Indigétes فى جرنده Géronne ، والايديتان Edetans فى بلنسية ، والباستيتان Bastitans فى لقنت ومرسية ، والترديتان Turdetans والتردول Turdules والتارتز Tarteses فى الجنوب من بوغاز جبل طارق إلى وادى يانه Guadiana . ثم القسم المتوسط ، وسكانه الاوريتان Orétans فى جهات المانش . والكاربيتان Carpétans فى طليطلة . والاريفاك Arévaques فى شوريه Soria ونومانسيه Numancia مع المقاطعات السلتيبرية الممتدة من الوادى الجوف Dourv إلى أرض بالنسية Palencia (هي غير بلنسية Valencia) حيث يسكن الفاسيون Vaceens

ملك أفريقية تخفيفاً منهم ، لإمحال توالى على أهل مملكته ، وتردد عليهم ، حتى كاد يفنيهم ، فحمل منهم خلقاً فى السفن مع قائد من قِبَلِهِ يدعى أبطريقس ، فأرسوا بريف الأندلس الغربى ، واحتلوا بجزيرة قادس ، فأصابوا الاندلس قد أمطرت وأخصبت فجرت أنهارها ، وانفجرت عيونها ، وحييت أشجارها ، فنزلوا الاندلس مغتبطين وسكنوها معتمرين وتوالدوا فيها ، فكثروا ، واستوسعوا فى عمارة الارض ، ما بين الساحل الذى أرسوا فيه بغربيها ، إلى بلد الأفرنجة من شرقيها ، ونصبوا من أنفسهم ملوكا عليهم ، ضبطوا أمرهم ، وتولوا على إقامة دولتهم ، وهم مع ذلك على ديانة من قبلهم من الجاهلية ، وكانت دار مملكتهم « طالقة » ؟ الخراب اليوم ، من أرض أشبيلية ، اخترعها ملوكهم وسكنوها ، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاماً ، إلى أن أهلكهم الله تعالى ونسخهم بعجم رومة ، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة فى مدتهم تلك أحد عشر ملكاً .

ثم صار ملك الاندلس إلى عجم رومة ، وملكهم أشبان بن طيطش ؟ وباسمه سميت الاندلس اشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان ، فحيل بلسان العجم ، وقيل بل كان مولده بأصبهان ، فغلب اسمها عليه[1] ؟ وهو الذى بنى إشبيلية . وكان اشبانية اسماً خالصاً لبلد اشبيلية ، الذى كان ينزله اشبان هذا ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله . فالعجم الآن يسمونه اشبانية ، لآثار اشبان هذا فيه ، وكان أحد الملوك الذين

ثم القسم الثالث الذى يقطنه القنتبريون Cantabres أهل سنتاندر (أوشنتادرم) والاستوريون Astures (أو الاشتوريون) والغاليسيون Gallaïques أهل غاليسيا Galicia وقبائل سلتية ساكنة بين البحر المحيط والوادى الجوفى والأمة التى يقال لها اللوزيتانيون Lusitains وهم أقوى أمة ايبرية بين الوادى الجوفى ووادى يانه أى البرتغال وشمالى الاسترامادور . وإلى الشرق من لوزيتانية كان يسكن الفتونيون Vettons وكان فى جزيرتى ميورقة ومينورقة قوم يقال لهم « الجيمناز » Gimnèses وفى جزيرة يابسة قوم يقال لهم « البيتيوز » Pytieuses

(١) لم نعثر على شىء من هذا فى كلام المحققين

ملكوا أقطار الدنيا ، فمازعموا ، وكان غزا الا فارقة،عند ما سلطه الله عليهم فى جموعه ففض عساكرهم ، وأثخن فيهم ، ونزل عليهم بقاعدتهم « طالقة»[١] وقد تحصنوا فيها منه . فابتنى عليهم مدينة اشبيلية اليوم . واتصل حصره وقتاله لهم ، حتى فتحها الله عليه وغلبهم ، واستوت له مملكة الاندلس باسرها ، ودان له من فيها ، فهدم مدينة طالقة ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة أشبيلية ، فاستتم بناءها . واتخذها دار مملكته واستغلظ سلطانه فى الارض، وكثرت جموعه ، فملا ، وعظم عتوه . ثم غزا إيليا ، وهى القدس الشريف ، من أشبيلية ، بعد سنتين من ملكه ، خرج اليها فى السفن فغنمها وهدمها وقتل فيهامن اليهودمائةالف واسترق مائة الف ، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الاندلس وقهر الاعداء ، واشتد سلطانه . إنتهى .

وذكر بعض المؤرخين : أن الغرائب التى أصيبت فى مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام ، التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة ، وقُلَيْلة [٢] الدر التى ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة ، وغيرهما من طرائف الذخائر ، إنما كانت مما صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس . إذ حضر فتحها مع بختنصر [٣] ، وكان اسم ذلك الملك بريان ؟ وفى سهمه وقع ذلك ومثله ، مما كانت الجن تأتى به نبى الله سليمان[٤] ، على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام ، انتهى .

---

(١) جاء ذكر طالقة هذه فى معجم البلدان لياقوت قال : طالقة ناحية من أعمال اشبيلية بالأندلس . وقرأت أسماء علماء من العرب منسوبين إلى طالقة

(٢) تصغير قلة بمعنى جرة

(٣) المعروف أن الذى فتح بيت المقدس من ملوك بابل هو نبوكدنصر الثانى ابن نابو بولصر وكان قد خلف أباه سنة ٦٠٤ قبل المسيح وهو الذى حصر بيت المقدس مرتين سنة ٥٩٧ ثم سنة ٥٨٦ وسبى بنى اسرائيل السبي الشهير المعروف بسبي بابل .

(٤) هذه كلها من أساطير الأولين

وقال غير واحد من المؤرخين ، كان أهل المغرب الأقصى يضرون بأهل الأندلس لاتصال الأرض ، و يلقون منهم الجهد الجهيد فى كل وقت ، إلى أن اجتاز بهم الاسكندر[1] ،فشكوا حالهم إليه . فأحضر المهندسين ، وحضر إلى الزقاق،فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامى ، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامى بشىء يسير فأمر برفع البلاد التى على ساحل البحر الشامى ونقلها من الحضيض إلى الأعلى ، ثم أمر بحفر ما بين طنجة و بلاد الأندلس من الأرض ، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية ، و بنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكما ، وجعل طوله اثنى عشر ميلا ، وهى المسافة التى كانت بين البحرين ، و بنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة ، وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال ، فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين ، فدخل فى البحر الشامى ، ثم فاض ماؤه فأغرق مدناً كثيرة ، وأهلك أمماً عظيمة ، كانت على الشطين[2] ، وطفا الماء على الرصيفين إحدى عشر قامة . فأما الرصيف الذى يلى بلاد الأندلس فانه يظهر فى بعض الأوقات إذا نقص الماء ، ظهوراً بيناً مستقيماً ، على خط واحد ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة وأما الرصيف الذى من جهة العدوة ، فان الماء حمله فى صدره ، واحتفر ما خلفه من الأرض اثنى عشر ميلا . وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز ، وسبتة ، وطنجة . وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد ، وجزيرة طريف ، وغيرهما والجزيرة الخضراء ، و بين سبتة والجزيرة الخضراء ، عرض البحر انتهى ملخصاً . وقد تكرر بعضه مع ما جلبناه ، والعذر بيّن ، لارتباط الكلام بعضه ببعض .

وقال ابن سعيد . ذكر الشريف[3] أن لاحظ لأرض الأندلس فى الاقليم

---

(١) ومتى اجتاز بهم الاسكندر ؟
(٢) بمقتضى هذه الأساطير يكون الاسكندر اتقى الضرر الأخف بالضرر الأشد
(٣) يعنون بالشريف الشريف الادريسى

الثالث قال : ويمر بجزيرة الأندلس الاقليم الرابع على ساحلها الجنوبى ، وما قاربه من قرطبة واشبيلية ومرسية وبلنسية ، ثم يمر على جزيرة صقلية ، وعلى ما فى سمتها من الجزائر ، والشمس مدبّرة له . والاقليم الخامس يمر على طليطلة ، وسرقسطة ، وما فى سمتها إلى بلاد أرغون التى فى جنوبها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبّرته الزهرة . والسادس على ساحل الأندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وما قاربه ، وبعض البلاد الداخلة فى قشتالة وبرتقال وما فى سمتها . وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ، ومدبره عطارد ، ويمر الاقليم السابع فى البحر المحيط ، الذى فى شمال الاندلس ، إلى جزيرة انقلطرة ، وغيرها من الجزائر ، وما فى سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان [١] . قال البيهقى : وفيه تقع جزيرة تولى ، وجزيرتا أجبال والنساء ، وبعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال والبلغار ومدبّره القمر . اه

وقال بعض العلماء ما معناه إن النصارى أعطوا عن الآخرة بستاناً متصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج القسطنطينية وعندهم عموم الشاه بلوط ، والبندق ، والجوز ، والفستق ، وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن فى الاقاليم الباردة ، والتمر عندهم معدوم ، وكذا الموز وقصب السكر ، وربما يكون شىء من ذلك فى الساحل ، لان هواء البحر يدفىء . اه

قال ابن حيان فى المقتبس : ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على أشبان المذكور وهو يحرث الارض بفدن له أيام حراثته : فقال له : يا أشبان إنك

---

(١) برجان بالجيم بلد من نواحى الخزر ، قاله ياقوت فى معجم البلدان ، قال المنجمون هو فى الأقليم السادس ، وطوله أربعون درجة ، وعرضه خمس وأربعون درجة ، وكان المسلمون غزوه فى أيام عثمان رضى الله عنه ، فقال أبو نجيد التميمى :

بدأنا بجيلان فزلزل عرشهم ... كتائب تزجى فى الملاحم فرسانا
وعدنا لاشيان بمثل عداتهم ... فعادوا جوالى بين روم وبرجانا

لذو شأن ، وسوف يحظيك زمان ، و يمليك سلطان . فاذا أنت غلبت على ايليا ، فارفق بذرية الانبياء . فقال له اشبان : أساخر بى رحمك الله ؟ أنّى يكون هذا منى وأنا ضعيف ممتهين حقير فقير ؟ ليس مثلى ينال السلطان ! فقال له : قد قدّر ذلك فيك من قدّر فى عصاك اليابسة ما تراه فنظر اشبان إلى عصاه فاذا بها قد أورقت فريع لما رأى من الآية ، وذهب الخضر عنه ، وقد وقع الكلام بخلده ، ووفرت فى نفسه الثقة بكونه ، فترك الامتهان من وقته ، وداخل الناس ، وصحب أهل البأس منهم ، وسما به جدّه ، فارتقى فى طلب السلطان حتى أدرك منه عظيما ، وكان منه ما كان ، ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله . وكان ملكه كله عشرين سنة

وتمادى ملك الاشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الاندلس خمسة وخمسون ملكا

ثم دخل على هؤلاء الاشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات وملكهم طلويش بن بيطه ، وذلك زمن بعث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، أتوا الاندلس من قبل رومة ، وكانوا يملكون أفرنجة معها ، و يبعثون عمالهم اليها، فاتخذوا دار مملكتهم بالاندلس مدينة ماردة [1] ، واستولوا على مملكة الاندلس ، واتصل

(١) المعروف أن الذين بنوا ماردة هم الرومانيون ، وذلك قبل المسيح بخمس وعشرين سنة لاغير ، وسموها « أوغستا أميريتا » Augusta Emerita وكانت قاعدة ولاية « لوزيتانيا » ثم عظمت ونمت حتى صار يقال لها « رومة الاسبانيولية » ودخل عليها القوط وهى بهذه الحالة . وأما « الشتولقات » فلم نعرف من يعنى بهم مؤرخونا ؟ وهم معذورون فى عدم تمحيص التاريخ فى القرون الوسطى التى كان التاريخ القديم فيها لا يزال فى مهد الطفولية سواء فى الشرق أو فى الغرب والمظنون أنهم يريدون بهم الفيزيقوط Visigots أما « أشبان » هذا فلم نعرفه ، ولا عرفنا عنه شيئا ، ولا سمعنا بغزوه بيت المقدس ولا باخضرار العصا فى يده . وجل ما عرفنا عن الذين كانوا يلون اسبانية قبل القوط أنهم من أمة « السويف » Suèves وهى أمة جرمانية زحفت من الشمال إلى الجنوب نظير القوط . ويقال أنها من نفس الجنس الجرمانى الذى يقال له اليوم « سڤاب » Swab وأن القوط نزعوا من أيديهم القسم الشمالى الغربى من اسبانية

ملـكهم بها مدة ، إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملـكا ، ثم دخل على هؤلاء

سنة ٥٨٥ قبل المسيح ومن ذلك الوقت كانت الدولة للقوط الملقبين « بالفيزيقوط » وربما كان العرب رأوا فيهم جنساً آخر غير الجنس القوطى ، على حين أنهم هم قوط الغرب ، كما أن « الأوستروقوط » هم قوط الشرق . وكلا الفريقين استولى على ايطالية وتقدم إلى جنوبى فرنسة ، ثم فتح القوط الغربيون اسبانية ، كما ذكرنا ، وتولى أول ملك منهم عليها سنة ٥٣١ ب م واسمه « طوديش » Theudis ثم « طيوديجيزل » Théodigisèle سنة ٥٤٨ ثم « اجيلا » Agila سنة ٥٤٩ ثم « أتناجيلد » Atanagild سنة ٥٥٤ ثم « ليوبا » الأول Libua سنة ٥٦٧ ثم « ليوفيجيلد » Léowigild سنة ٥٧٢ ثم « هرمينيجلد » Herménigild سنة ٥٨٥ ثم « ريكاريد » Récarède سنة ٥٨٦ ثم « ليوبا » الثانى سنة ٦٠١ ثم « فيتريك » Viteeic سنة ٦٠٣ ثم « غندمار » Gondemar سنة ٦١٠ ثم « سيزبوط » Sisebut سنة ٦١٢ ثم « ريكاريد » الثانى سنة ٦٢١ ثم « سونتيلا » Suintila سنة ٦٢١ ثم « ريسيمر » Ricimer سنة ٦٢٥ ثم سيزيناند Sisenand سنة ٦٣١ ثم « شنتيلا » Chintila سنة ٦٣٦ ثم « طولغا » Tulga سنة ٦٤٠ ثم « شنداسنت » Chindasuinte سنة ٦٤٢ ثم « ريسيزوينت » سنة ٦٥٢ ثم « فامبا » Vamba سنة ٦٧٢ ثم « أرفيج » Ervige سنة ٦٨٠ ثم « أجيزا » Egiza سنة ٦٨٧ ثم « فيتزا » Witiza سنة ٧٠٠ ثم « رودريك » أو « لدريق » Rodrique سنة ٧١٠

والذى يلوح لنا من المقابلة بين هـذه الروايات التى فى بعض كتب العرب وبين تواريخ الافرنج المعول عليها أن الذين يعنيهم ابن حيان بقولهم « البشتولقات » هم « الفيزيقوت » أو « الفيزيقوط » أنفسهم والمشابهة بين اللفظتين ظاهرة فالفاء هى الباء والزاى هى الشين لأن من عادة العرب قلب السين والزاى شيناً بل يقال أن أوائل الاسبان أيضاً كانوا يقلبونهما شيناً فتصير اللفظة هى « البيشيقيوت » واما اللام فطالما ادخلوها على الاعلام التى فيها « واو » مثل « بودوين » Baudwin جعلوها « بلدوين » ومثل « بيوغراد » Beaugrade التى صارت « بلغراد » وعليه فتصير اللفظة « البشيقولت » ثم جمعوها على « بيشقولتات » ثم تعاورها التصحيف الذى لا يوجد اكثر منه فى نسخ العرب للألفاظ الافرنجية فان الاسم الافرنجى يجتاز عند العرب عقبتين الأولى هى اللفظ لأن العرب لا تقدر ان تتلفظ ببعض الحروف الافرنجية ولو قطعت رؤوسها

البشتولقات أمة القوط ، مع ملك لهم ، فغلبوا على الاندلس ، واقتطعوها من يومئذ ..

والثانية هي التحريف والتصحيف في النسخ فبعد ان يمر الاسم الافرنجي بهاتين العقبتين يبعد جداً عن أصله حتى يصعب رده الى الأصل . وانا أرى ان « طوليش بن بيطه » الذي ذكره ابن حيان انه أول من ملك من « البشقولتات » انما هو « طوديش » Theudis الذي ذكر مؤرخو الافرنجة انه أول من ملك من « الفيزيقوط » أو « البيزيقوط » في أسبانية . وكذلك « خشندش » الذي قال ابن حيان انه هو أول من تنصر من ملوك القوط انما هو « شنداسنت » الذي ملك عام ٦٤٢ وان الاسم تحرف أولا الى « خنداشنت » ثم تصحف وتحرف فصار « خشندش » على ان مؤرخي الافرنج يذكرون ان أول ملك تنصر من ملوك القوط هو ريكاريد الأول اي قبل عهد الذي سموه « خشندش » أو تصحف اسمه الى خشندش « بخمسين سنة وشيء . واما « فيتيزا » الذي يسميه العرب في كتبهم « غيطشه » فاني معتقد ان الغين هنا هي تصحيف الفاء وان العرب من البداية قالوا « فيطشه » لا « غيطشه » وذلك لأنهم لفظوا الزاي شيناً على عادتهم فصار « فيتيزه » هو « فيتيشه » ثم فخموا التاء فصار « فيطشه » . واما عدد ملوك « الفيزيقوط » فهو بحسب ما ذكر الافرنج ٢٥ ملكا كما ترى ورواية ابن حيان عن عدد ملوك « البشقولتات » الذين اعتقد انهم هم هم هي انهم ٢٧ ملكا فالروايتان متقاربتان . وهناك ملاحظة . وهي ان المقري يروى فيما بعد قائلا : وقال جماعة : ان القوط غير البشقولتات الخ وهذا دليل على وجود روايات أخرى بان البشقولات هم من القوط انفسهم لا سيما انه يروى عن هؤلاء ان عددهم ٢٧ ملكا

وفي كتابنا « غزوات العرب في اوربة » نذكر مدينة طلوزة Toulouse ونقول انها كانت قاعدة مملكة التكتوزاجيين Valces Tectosages وقلت في الحاشية ان هؤلاء هم جيل من الغولوا ولا نعلم هل هم الذين أرادهم صاحب نفح الطيب عند ذكر الأمم التي عمرت الاندلس وسماهم البشتلقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتلقات وفي صبح الاعشى يذكر الشبنقات ويقول انهم ملكوا الاندلس وبلاد الأندلس معاً وان القوط خرجوا عليهم . انتهى . الا ان العلامات كثيرة على كون المراد بالبشتلقات أو البشتقات هم امة الفيزيقوط . هذا ويظهر ان المؤرخين من أسبانيين وغيرهم مختلفون في عدد ملوك القوط وفي اسمائهم وفي سني ملكهم وذلك كما ترى من سلسلة ملوك القوط التي ننشرها هنا مع صورة كل واحد منهم فانك تراها مختلفة عن

من صاحب رومة، وتفردوابسلطانهم ، واتخذوا مدينةطليطلة دار مملكتهم وأقروابها سرير ملكهم ، فبقي باشبيلية علم الاشبانيين ، ورياسة أوليتهم (وقد كان عيسى المسيح عليه السلام) بعث الحواريين فى الارض يدعون الخلق إلى ديانته ، فاختلف الناس عليهم ، وقتلوا بعضهم واستجاب لهم كثير منهم . وكان من أسرعهم إجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش ملك القوط ، فتنصر ، ودعا قومه إلى النصرانية وكان من صميم أعاظمهم ، وخير من تنصر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم أعدل منه حكما ، ولا أرشد رأيا ، ولا أحسن سيرة ، ولا أجود تدبيراً ، فكان الذي أصل النصرانية فى مملكته ، ومضى أهلها على سنته إلى اليوم ، وحكموا بها ، والانجيلات فى المصاحف الأربعة التى يختلفون فيها من انتساخه ، وجمعه ، وتثقيفه . فتناسقت ملوك القوط بالأندلس بعده ، إلى أن غلبتهم العرب عليها ، وأظهر الله تعالى دين الاسلام على جميع الأديان .

فوقع فى تواريخ العجم القديمة ان عدة ملوك هؤلاء القوط بالاندلس ، من عهد « اثانا وينوس » [1] الذى ملك في السنة الخامسة من مملكة « فلبش [2]

السلسلة الأولى التى نقلناها عن تواريخ محصة افرنجية الا ان السلسلة المصوّرة مبدوء فيها بملوك القوط وهم لا يزالون فى غالية وهي منقولة عن مجموعة عظيمة مطبوعة فى برشلونة بمطبعة « بوناڤيستا » Buenavista كانت قد أهديت الى الوطنى الكبير فقيد المغرب الحاج عبد السلام بنونه من عيون أعيان تطاون رحمه الله وقد أهدانا اياها أخوه الفاضل الحاج محمد العربى بنونه حفظه الله وما نشرناه فى هذا الكتاب من التصاوير والرسوم منه ما أخذناه عن هذه المجموعة ومنه ما اقتنيناه فى أثناء سياحتنا الى الاندلس ومنه ما أرسلنا واستجلبناه منها فيما بعد

(١) أظن هذا الاسم محرفاً وأصله « أتاناجيلدوس » وهو من ملوك القوط ، وقد مر بك

(٢) فيلبس القيصر الرومانى ملك من سنة ٢٤٤ للمسيح إلى سنة ٢٤٩ وكان عربى الأصل .

القيصرى » لمضى ار بعمائة وسبع من تاريخ الصفر [1] المشهور عند العجم ، إلى عهد

(١) كان أشهر تاريخ هو التاريخ المسمى باليلياني Julien وذلك أنهم قسموا السنة إلى ١٢ شهراً تبلغ عدة أيامها جميعاً ٣٥٥ يوماً فلزم حينئذ إضافة شهر جديد تكون أيامه ٢٢ أو ٢٣ يوما ، حتى تتم المطابقة مع السنة الشمسية ، فكان هذا الشهر المضاف يأتى كل سنتين ، ويكون دوره فى آخر السنة بين ٢٣ و ٢٤ فبراير وكانوا يسمونه « مرسدونيوس » Mercedonius فكان دور أربع سنوات يزيد باثنى عشر يوماً على عدد الأيام التى فى السنوات الأربع الشمسية وأخيرا صار يأتى ١ يناير فى ١٥ اكطوبر ، فاضطر يوليوس قيصر إلى اصلاح الحساب ، وأضاف إلى السنة شهرين ، أحدهما ٣٣ يوماً ، والآخر ٣٤ يوماً . ثم جاء الفلكى الاسكندرى سوزستان Sosisthène فقرر للسنة ٣٦٥ يوماً ، وبقيت ست ساعات لأجل تتمة الوقت الذى يقتضيه دوران الشمس حول الأرض ، فألف من هذه الساعات يوم واحد كل أربع سنوات ، فوضعوا هذا اليوم بعد ٢٣ فبراير

وهكذا جرى اصلاح الحساب الأول ، إلا أن سنة سوزستان نفسها بقيت ناقصة باحدى عشرة دقيقة واثنتى عشرة ثانية عن السنة الشمسية ، وبقيت الحال هكذا من سنة ٤٧ للمسيح إلى سنة ١٥٨٢ فنذ لاصلاح هذا الخلل البابا غريغوريوس الثالث عشر . فأصلح الحساب اليوليانى . وسمى الحساب الجديد بالحساب الغريغورى . ولكنه لم يسلم من الخلل أيضاً ، بحيث لا يزال علماء الفلك والتقويم يفكرون فى حساب آخر ينتهى إليه الضبط . ولكن صعوبة ترك التقليد تحول دون هذا المشروع فى اوربة ، وسنة ١٩١٧ إذ كنت من أعضاء مجلس النواب العثمانى فى استانبول ، تقرر عندنا فى المجلس العمل بالتاريخ الغريغورى لكونه أصح من التاريخ العربى ، فتم هذا القرار فى مجلس النواب أو المبعوثين ، وتقدم إلى مجلس الأعيان ، فجاء الفلكى الشهير أحمد مختار باشا الغازى . واعترض على هذا التغيير ، وقال : إن الحساب الغريغورى هو أيضا غير سالم من الخطأ ، فما الفائدة فى العدول عن خطأ إلى خطأ آخر؟ وبين ببراهين علمية صحة نظره . وبذلك عدلت الدولة العثمانية يومئذ عن اتخاذ الحساب الغريغورى ، وبقيت على الحساب الذى يقال له المارتى ، وهو حساب عربى قد رفع منه الفرق بين الشمسى والقمرى ، ولكن تركيا بعد الحرب العامة عادت فاتخذت الحساب الغريغورى . أما فى زمن أغسطس قيصر فقد وضع الرومان حسابين لمواسم الزراعة أحدهما يسمى


سلسلة ملوك القوط في اسبانية
الاريقو ٤٨٤ – ٥٠٧
اوريقو ٤٦٧ – ٤٨٤
تيودوريقو ٤٥٣ – ٤٦٧
توريسموندو ٤٥١ – ٤٥٣
تيودوريدو ٤١٩ – ٤٥١
فاليه ٤١٦ – ٤١٩
سيجريكو ٤١٦
اتولفو ٤١٤ – ٤١٦
ليوبجيلدو ٥٦٩ – ٥٨٦
ليوفا ١ ٥٦٧ – ٥٧٢
آتاناجيلدو ٥٥٤ – ٥٦٧
اجيلا ٥٤٩ – ٥٥٤
توديسيلو ٥٤٨ – ٥٤٩
توديس ٥٣١ – ٥٤٨
امالاريقو ٥١١ – ٥٣١
جيزاليقو ٥٠٧ – ٥١١
سيسيناندو ٦٣١ – ٦٣٦
سوينتيلا ٦٢١ – ٦٣١
ريكاردو ٢ ٦٣١
سيسيبوتو ٦١٢ – ٦٢٠
غونديمارو ٦١٠ – ٦١٢
ويتيريكو ٦٠٣ – ٦١٠
ليوفا ٢ ٦٠١ – ٦٠٣
ريكاردو ١ ٥٨٦ – ٦٠١
لوذريق ٧٠٩ – ٧١١
غيتيشا ٧٠١ – ٧٠٩
ايخيكا ٦٨٧ – ٧٠١
فامبا ٦٧٢ – ٦٨٠
رسيسفنتو ٦٤٩ – ٦٧٢
شنداشفنتو ٦٤٢ – ٦٤٩
تولغا ٦٤٠ – ٦٤٢
سنتيلا ٦٣٦ – ٦٤٠

لذريق آخرهم ، الذى ملك في السنة التاسعة والاربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر ، وهو الذى دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط ، ستة وثلاثون ملكا ، وأن مدة أيام ملكهم بالاندلس ثلثمائة واثنتان وأربعون سنة اهـ .

وقال جماعة : إن القوط غير البشتولقات ، و إن البشتولقات من عجم رومة ، و إنهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا طليطلة دار مملكة ، ثم ذكر تنصر ملكهم خشندش مثل ما تقدم ، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكا

وذكر الرازي أن القوط من ولد ياجوج بن يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك اهـ

وذكر الرازى فى موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ونصه :

إن الاندلس فى آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التى تقدم ذكرها التى هى ربع معمور الدنيا ، فهى موسطة من البلدان ، كريمة البقعة ، بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة القاع ، منبجسة العيون الثرّارة ، منفجرة الانهار الغزار ، قليلة الهوام ذوات السموم ، معتدلة الهواء أكثر الازمان ، لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالابدان ، وكذا فصولها فى أعم سنيها تأتى على قدر من الاعتدال ، وتوسط من الحال ، وفواكهها تتصل طول الزمان ، فلا تكاد تعدم ، لان الساحل ونواحيه ، يبادر بباكوره ، كما أن الثغر وجهاته ، والجبال التى يخصها برد الهواء ، وكثافة الجو ، تستأخر بما فيها من ذلك ، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان ، فمادة الخيرات فيها متصلة كل أوان .

كولوتيانوم Colotianum ، والآخر فالنس Vallense ووجدا مكتوبين على الحجارة

وأما تاريخ الصفر فيقال إنه اصطلاح أسبانى كان مبدأه أول يناير سنة ٣٨ قبل الميلاد . أى فى زمن فتح أغسطس الرومانى لأسبانية ، وبقى مستعملا فيها إلى أواخر القرن الخامس عشر

ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد ، المقدّم على أجناسه فى الطيب ، والصبر على النار ، وبها شجر المحاب ، المعدود فى الأفاوية ، المقدّم فى أنواع الأشنان كثير واسع . وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند ، وبها فقط . وبها خواص نباتية يكثر تعدادها . انتهى [١] .

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال : يوجد فى ناحية « دلاية » [٢] من إقليم « البشرة » [٣] عود الالنجوج ، لا يفوقه العود الهندى ذكاء وعطر رائحة وقد سيق منه إلى خيران [٤] الصقلبى صاحب المرية ، وأن أصل منبته كان بين أحجار هناك « وبأكشونية » [٥] جبل كثيرا ما يتضوّع ريحه ريح العود الذكى ، إذا أرسلت فيه النار ، وببحر « شدونة » [٦] وجد العنبر الطيب الغربى ، وفى جبل « منت ليون » المحاب [٧] ، ويوجد بالأندلس القُسط [٨] الطيب ، والسنبل [٩] الطيب ، والجنطيانة [١٠] تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق وهو عقّار [١١] رفيع

(١) هذه الجملة من كلام الرازى قد تقدمت ، لكن باختلاف قليل عما هى فى هذا الموضع ، ونحن أحببنا أن نحافظ بقدر الامكان على نصوص المؤلفين الذين نقلنا عنهم

(٢) برجة ودلاية هما من عمل المرية

(٣) الأسبان يقولون للبشرة أو البشرات Albuxara وهى جبال عالية مشرفة على البحر المتوسط (٤) سيأتى خبره

(٥) قال ياقوت : اكشونية بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الشين المعجمة وسكون الواو وكسر النون وياء خفيفة مدينة بالاندلس يتصل عملها بعمل أشبونة . وهى غربى قرطبة ، وهى مدينة كثيرة الخيرات ، برية بحرية ، قد يلقى بحرها على ساحلها العنبر الفائق الذى لا يقصر عن الهندى (٦) Sidonia

(٧) ضبطه بفتح أوله وهو شجر له حب يجعل فى الطيب

(٨) بضم أوله فسكون وهو عود يتداوى به

(٩) السنبل هنا هو نبات طيب الرائحة يتداوى به ويسمى سنبل العصافير

(١٠) الجنطيانة هو من العقاقير المعروفة فى المغرب واطباء المغرب يطلقونه على جذر النبات المعروف عند الصيادلة « بأوضمى » هكذا كتب الينا من فاس

(١١) بفتح أوله وتشديد ثانيه والجمع عقاقير

والمرّ الطيب بقلعة أيوب ، وأطيب كهرباء الأرض بشدونة ، درهم منها يعدل دراهم من الجلاوبة . وأطيب القرمز قرمز الاندلس ، وأكثر ما يكون بنواحي اشبيلية ، ولبلة [١] ، وشدونة ، و بلنسية ، ومن الاندلس يحمل إلى الآفاق .

و بناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد ، وقد يوجد في غيرها وعلى مقربة من حضرة لورقة من عمل قرطبة معدن البلور ، وقد يوجد بجبل « شحيران » وهو شرقي « بيرة » وحجر النجادي ؟ يوجد بناحية مدينة الاشبلونة ، في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا كالسراج ، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن « منت ميور » [٢] من كورة مالقة ، إلاّ أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره ، و يوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية « بجانة » [٣] في خندق يعرف بقرية « ناشرة » أشكالا مختلفة كأنه مصبوغ ، حسن اللون ، صبور على النار ، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير . وحجر الشدنة » يوجد بجبل قرطبة ، كثير ، و يستعمل ذلك في التذاهيب . وحجر اليهودي في ناحية حصن « البونت » [٤] أنفع شيء للحصاة وحجر المرقشيثا الذهبية في جبال « ابده » [٥] لا نظيرها في الدنيا ، ومن الأندلس

(١) Niebla قد كررنا تعريف هذه الأسماء بالعربي و بالاسبانيولي لأن القارىء لا يقدر ان يحفظها الا بالتكرار . وان لم ترسخ في ذهنه فلا يستطيع ان يفهم تاريخ الاندلس وجغرافيتها على وجهها . فالتكرار لازم الا في التعريف بالاسماء المشهورة

(٢) Montmayor (٣) Bechina

(٤) قال ياقوت : حصن « البونت » بالضم والواو والنون ساكنان والتاء فوقها نقطتان حصن بالاندلس ، وربما قالوا البنت . وقد ذكر . ينسب اليه ابو طاهر اسماعيل ابن عمران بن اسماعيل الفهري البنتي ، قدم الاسكندرية حاجاً ، ذكره السلفي ، وكان اديباً أريباً قارئاً ، وعبد الله بن فتوح بن موسى بن ابي الفتح بن عبد الله الفهري البنتي أبو محمد ، كان من أهل العلم والمعرفة ، وله كتاب في الوثائق والاحكام . وله أيضاً رواية توفي في جمادى الآخرة سنة ٤٦٢

(٥) Ubeda من أعمال جيان

تحمل إلى جميع الآفاق بفضلها . والمغنيسيا بالأندلس كثير . وكذلك حجر « الطَّلْق »[1] ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشلونة ، إلا أنه جامد اللون . ويوجد المرجان بساحل بيرة ، من عمل المرية ، ما لقط منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربعاً .

ومعدن الذهب بنهر لاردة ، يجمع منه كثير ، ويجمع أيضاً في ساحل الاشبونة ومعادن الفضة في الأندلس كثيرة ، في كورة تدمير ، وجبال جمة »[2] بيجانة ، وباقليم « كرتش » من عمل قرطبة معدن فضة جليل . و « باشكونية »[3] معدن القصدير لا نظير له ، يشبه الفضة ، وله معادن بناحية أفرنجة وليون . ومعدن الزئبق في جبل البرانس ، ومن هنالك يتجهز به إلى الآفاق . ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة . ومعدن التوتية الطيبة بساحل « البيرة »[4] بقرية تسمى « بطرنة »[5] وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس . وبجبال قرطبة توتيا وليست كالبطرنية . ومعدن الكحل أشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طرطوشة ، يحمل منها إلى جميع البلاد . ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى .

وما ذكرت هنا ، وإن تكرر بعضه مع ما سبق أو يأتي ، فهو لجمع النظائر . وما لم نذكره أكثر ، والله تعالى أعلم .

ومن خواص طليطلة أن حنطتها لا تتغير ولا تسوس على طول السنين ، يتوارثها

---

(١) بكسر فسكون وزان مثل هو حجر براق يتشظى اذا دق صحائف وشظايا يتخذ منه مضاوى للحمامات بدلا عن الزجاج واجوده اليماني ثم الهندي ثم الاندلسي

(٢) لا أعلم هل هذه اللفظة هي دجمة ام جمة فان كانت دجمة وقد سقطت الدال منها في النسخ فهي عند الاسبانيول هكذا Diegma وان كانت جمة كما هي مكتوبة في النفح فلا يبعد أن تكون اسما عربياً من أصله لا سيما انه يوجد جبال كثيرة عند العرب باسم جماء بالمد والهمز مؤنث اجم الذى لا قرن له ويقال بيت أجم أى لا شرفة له

(٣) في غربي الأندلس كانت مقاطعة يقال لها اشكونية قاعدتها مدينة شلب

(٤) Vera (٥) Baterna

الخلف عن السلف . وزعفران طايطلة هو الذى يعم البلاد ، و يتجهّز به الرفاق إلى الآفاق . وكذلك الصبغ السماوى . اه

وقال المسعودى فى مروج الذهب بعد كلام ما نصه : والعنبر كثير ببحر الاندلس ، يجهّز إلى مصر وغيرها ، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له « شنترين » [١] و « شدونة » [٢] تباع الاوقية منه بالاندلس ثلاثة مثاقيل ذهباً ، والاوقية بالبغدادى ، وتباع بمصر أوقيته بعشرين ديناراً ، وهو عنبر جيد ، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ، ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء . وبالأندلس معدن عظيم للفضة ومعدن للزئبق [٣] ليس

(١) Santarem فى البرتغال (٢) Sidonia

(٣) جاء فى كتاب « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر للاوى . بروفنسال ماحصله : كانت المعادن من قديم الزمان معروفة فى أسبانية . وكان الرومان يستخرجون منها جانباً كبيراً . وذلك كالحديد والذهب والفضة والرصاص والنحاس ، وكان الحديد مبذولا . ولما دخل المسلمون الى الأندلس لم يهملوا المعادن . بل وفروا لها أعظم جانب من العناية وكانوا يستخرجون الذهب من رمال نهر لاردة ونهر شقر ونهر التاجه . وكانت الفضة فى نواحى مرسية والحمة وقرطبة بمكان يقال له المرج حسبما روى الادريسى وفى « آطرافة » من عمل باجة كما قال ياقوت فى المعجم ويوجد الحديد فى شمالى الوادى الكبير بين قرطبة واشبيلية . وروى الادريسى انه كان منه فى قسنطانية . وروى ياقوت انه كان منه فى ورتش وكان على مسافة ١٢٥ كيلو متراً الى الشمال من قرطبة معدن زئبق مشهور . وكان هذا المعدن معروفا عند الرومانيين ، وتنبه له المسلمون واستغلوه . وجغرافيو العرب يقولون انه فى جبل البرانس ومنه فى المحل الذى يقال له اليوم سيوداديال Ciudadreal فقد كان يوجد زئبق أيضا هناك ، وأيضافى أبال بقرب قرطبة . وقال الادريسى انه رأى فى هذا المعدن الأخير ألف عامل ، منهم من كان مشغولا باستخراج المادة من آبارها ، ومنهم من كان ينقل الحطب لأجل التحمية ، ومنهم من كان يصنع الآنية التى يستودع فيها المعدن بعد ذوبه ، ومنهم من كانوا يبنون المواقد

وكان عمق الآبار نحواً من مائة ذراع

بالجيد يجهّز إلى سائر بلاد الاسلام والكفر، وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل . وأصول الطيب خمسة أصناف المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلا الزعفران والعنبر اهـ .

وهو وإن تكرر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة والله تعالى أعلم .

وذكر البعض أن فى بلاد الاندلس جميع المعادن الكائنات عن النّيرات السبعة الرصاص من زحل، والقصدير الأبيض من المشترى، والحديد من قسم المريخ، والذهب من قسم الشمس، والنحاس من الزهرة، والزئبق من عطارد، والفضة من القمر .

وذكر الكاتب ابراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق بلد الأندلس فقال: أهله أصحاب جهاد متصل، يحاربون من أهل الشرك المحيطين بهم أمة يدعون

وكان يوجد زئبق وتوتية بقرب شَلَوُبين على ساحل البحر المتوسط، وكذلك ذكر المقرى وجودهما فى بطرنه . ويظهر ان المسلمين لم يعتنوا بمعادن التنك التى فى « ريوتنتو » الى الشمال الشرقى من «أنبه » ولكن كانوا يأخذون النحاس من «أشكونية» فى الغرب وهى تابعة البرتغال اليوم . وكان عندهم الرصاص فى « قبره » وعندهم الملح فى سرقسطة، وكان عندهم الطفال بقرب طليطلة والكحل فى نواحى طرطوشة وبسطة وكانت الأندلس موصوفة بالحجارة الثمينة، فكان الياسنت من مالقه وحجر الكهرباء فى مرسية . وأما المرمر فلم يكن يكفى البلاد بل كانوا يستوردون من الخارج وكان معدن المرمر فى جبال مورينا وفى مكايل ومن هذه قطعت أعمدة المرمر التى كانت فى المرية وقد نقلت الآن إلى مجريط . وكان يوجد من الحديد فى جزيرة شلطش بازاء أنبه وهناك دار صناعة حسبما قال الادريسى . وفى شلطش أيضا مصايد للاسماك كان يحمل منها إلى أشبيلية، ويقول الادريسى إنه كان من هذه المصايد فى برليانه بقرب مالقه وكان صيادو السمك فى سواحل الاتلانتيك كما روى ياقوت فى المعجم يبحثون عن العنبر الرمادى ولا سيما فى سيتوبال وكان يقال لها الجون العنبرى عند العرب وكان أيضاً يوجد فى شذونة وكانوا يجدون المرجان بقرب المرية

الجلالقة ، يتاخون حوزهم ، ما بين غرب إلى شرق ، قوم لهم شدة ، ولهم جمال وحسن وجوه ، فأكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال منهم ، ليس بينهم و بينهم درب [١] فالحرب متصلة بينهم ما لم تقع هدنة . و يحاربون بالأفق الشرقى أمة يقال لهم الفرنجة ، هم أشدّ عليهم من جميع من يحاربونه من عدوّهم ، إذ كانوا خلقاً عظيما فى بلاد كثيرة واسعة جليلة ، متصله العمارة ، آهله ، تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين ، وأشدّ بأساً ، وأحدّ شوكة ، وأعظم امدادا . وهذه الأمة يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم ، لمخالفتهم إياهم فى الديانة ، فيسبونهم و يبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم هنالك كثرة ، وتخصيهم للفرنجة يهود [٢] ذمتهم الذين بأرضهم ، وفى ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد ، وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون و يستحلون المثلة .

قال ابن سعيد : ومخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام ، هو بساحل الأندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ، ما بين طنجة من أرض المغرب ، و بين الأندلس فيكون مقدار عرضه هناك كما زعموا ، ثمانية عشر ميلا . وهذا عرض جزيرة طريف إلى قصر مصمودة بالقرب من سبتة . وهناك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الاسكندر بناها ليعبر عليها من بر الاندلس إلى بر العدوة ، و يعرف هذا الموضع بالزقاق ، وهو صعب المجاز ، لأنه مجمع البحرين ، لا تزال الأمواج تتطاول فيه ، والماء يدور ، وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا ، مضاعف ذلك إلى ميناء

(١) الدرب كل مدخل إلى بلاد الروم قال امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

(٢) تقدم الكلام فى إحدى الحواشى أن تجار اليهود كانوا يخصون سبى الصقالبة . وأنه كان بحسب تعبير دوزى معمل للخصاء فى فردون Verdun وقد نقل ذلك عنه لافى بروفنسال فى كتابه «أسبانية المسلمة فى القرن العاشر» L'Espagnie Musulmane Au xem Siècle

سبتة ، ومن هناك يأخذ البحر فى الاتساع إلى ثمانمائة ميل وأزيد ، ومنتهاه مدينة صور من الشام ، وفيه عدد عظيم من الجزائر ، قال بعضهم : إنها ثمانٍ وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرهما اه . و بعضه بالمعنى . وقال بعضهم عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبتة ما صورته : ثم يتسع كما امتدّ حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية .

وقال بعضهم : وكان مبلغ خراج الاندلس الذى كان يؤدى إلى ملوك بنى أمية ، قديماً ثلاثمائة ألف دينار ، دراهم أندلسية كل سنة قوانين . وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار ، و ينفقون فى أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليها مائة ألف دينار و يدخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار اه .

وذكر غيره : أن الجباية كانت بالأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ، ألف ألف دينار فى السنة ، وكانت قبل ذلك لاتزيد على ستمائة ألف[1]. حكاه ابن سعيد وقال : أن الأندلس مسيرة شهر مدن وعمائر[2]

---

(١) سيأتى ذكر دخل الدولة الأندلسية فى أيام الناصر والمستنصر ، وذلك تفصيلا عند ما نصل إن شاء الله إلى قرطبة

(٢) قال المؤرخ الأسبانيولى رافائيل بالستر فى تاريخه المترجم إلى الافرنسية المطبوع سنة ١٩٢٨ ، وذلك فى الصفحة ٥٢ مايلى : «كانت أسبانية الاسلامية من أغنى البلاد الاوربية وأحصاها سكانا فى عصر الخلفاء ، وكان فيها ست حواضر كبرى ، وثمانون مدينة معمورة جد العمران ، وثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية ، هذا عدا القرى التى لا تحصى والمزارع . وكان الذهب والمرمر مبذولين فى القصور والجوامع ، وكذلك العاج والحجارة الكريمة . وكانت مراسم الاحتفالات فى قصور الخلفاء على غاية من الأبهة الشرقية ، وقد كانت هذه الثروة ، وهذه الأبهة هما ثمرة النمو الاقتصادى وتلك السعة التى كانت أسبانية تتمتع بها أوانئذ هى بفضل رقى الزراعة والصناعة والتجارة اه .

وقال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ما صورته : كان هذا القطر الأندلسي من العدوة الشمالية من عدوتي البحر الرومي ، وبالجانب الغربي منها ، يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنه أمم من افرنجة المغرب ، أشدهم وأكثرهم الجلالقة . وكان القوط قد تملكوه ، وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الاسلام ، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين ، حاصروا فيها رومة ، ثم عقدوا معهم السلم ، على أن ينصرف القوط إلى الأندلس ، فصاروا اليها ، وملكوها [1] ، ولما أخذ الروم واللطينيون بملة

قلنا أن الحواضر الست الكبرى لا بد من أن يعني بها قرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة ، وبلنسية ، وطليطلة ، وسرقسطة . وأما الثمانون مدينة المعمورة جداً فيعني بها المدن التي من درجة مالقة ، والمرية ، ومرسية ، وجيان ، وشاطبة ، ودانية ، وميورقة ، وطرطوشة ، وماردة ، وبطليوس ، وشنترين ، وبرشلونة ، واشبونة وما في ضربها . وأما الثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية فهي من قبيل قبرة ، وبيانة ، وبياسة ، والمدور ، وقرمونة ، وشلب ، ولبلة ، وشريش ، ورندة ، والجزيرة الخضراء ، وبسطة ، وبرجة ، ودلاية ، والش ، وأوريوالة ، والقنت ، وقرطاجنة ، وشقورة ، وشنشالة ، واقليش ، وطلبيرة ، وقلعة رباح ، ومجريط ، ووادي الحجارة ، ومدينة سالم ، وشنتمرية ابن رزين ، وقلعة أيوب ، ودروقة ، وتطيلة ، ولاردة ، وطركونة ، ووشقة ، وبربشتر ، وحصن البلوط ، ويابرة ، وشنترة ، وقنطرة السيف ، وجزيرة شقر ، وقونكة ، ومربيطر ولوشة ، ووادي آش ، وقرية سلامة ، وقادس ، وبلش ، واندة ، وبجانة ، وطشانة ، وشنتمرية الغرب ، واشونة ، وقلعة يحصب ، وأستيجة ، واسترقة ، وبلش ، وقلعة حماد ، ومورور ، واندوجر ، والمنكب ، واندرش ، واندة ، ولورقة ، واونبة ، ومرتلة ، ومدينة الزهراء ، وما في ضربها . وكيفما اقتصد المخمن في تخمين عدد سكان الأندلس الاسلامية لعهد بني أمية ، فلا يقدر أن ينزل ذلك عن ١٥ مليون نسمة ، وقد يكون مناهزاً العشرين

(١) ماقاله ابن خلدون هنا هو الصحيح فان أمة اسمها « الفيزيقوط » هي أحد أقسام القوط ، ويقال إنها من أصل جرماني ، هاجمت الرومان واقتتلت معهم في القرن الثالث للمسيح ، فقهرهم الروم أولا ، ثم أذنوا لهم في الاقامة على ضفاف الدانوب ومن ذلك الوقت صاروا أشبه بجيش روماني ، وفي أوائل القرن الخامس ثار زعيم الفيزيقوط

النصرانية ، حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها ، فدانوا بها .
وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة ، وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة ، واشبيلية ، وماردة ، وأقاموا كذلك نحواً من أربعمائة سنة إلى أن جاء الله

« ألاريك » Alaric طالبا من رومة أن توليه القيادة العليا لجيوشها ، فلما أبوا إجابة طلبه هذا نهب رومة وعاث ، ومات سنة ٤١٠ فخلفه « آتولف » Ataulf ودخل إلى بلاد الغال ، وانتصر فيها لهونوريوس الروماني على نظرائه ، فكافأه باقطاعه البلاد التي تغلب عليها ، وكان السويفيون والفاندالس والآلانيون خارجين في أسبانية عن طاعة رومة . فزحف إليهم « فاليا » زعيم القوط ، وأدخلهم في الطاعة ، ولكن بعد أن استتب الأمر للقوط في أسبانية خرجوا هم أنفسهم عن طاعة رومة في أيام زعيمهم المسمى أوريك سنة ٤٦٧ ، ولم يكن القوط في أسبانية أمة ذات عرق واحد ، وإنما كانوا جيشا من أصول شتى يخضعون لرئيس ، وفي سنة ٤٧٦ انحلت السلطنة الرومانية فبسط القوط سلطانهم على أكثر أسبانية ، ولكنهم فقدوا مقاطعاتهم في غالية ، لأن الفرنج Les Francs غلبوهم عليها ، وكان الفرنج كاثوليكيين ، وكان القوط قد تنصروا لكن على مذهب آريوس ، أي كانوا لا يقولون بألوهية عيسى عليه السلام ، فوقعت العداوة بين الفريقين من أجل اختلاف الدين ، وانهزم القوط في واقعة عند بواتية ، Poitiers وقتل فيها أميرهم الاريك الثاني ، ولم يبق لهم في بلاد الغال سوى مقاطعة سبتيمانيا Septimanie التي قاعدتها أربونة . وفي القرن السادس للمسيح اشتدت الفتنة في أسبانية بين القوط بعضهم مع بعض ، وقتل كثير من ملوكهم غيلة ، فجاء تيودوريك ملك الأوستروقوط . أي القوط الشرقيين ، من ايطالية ، ووضع على عرش أسبانية أحد أولاده ، ثم في سنة ٥٥٤ ثار رجل اسمه أتاناجيلد ، وتغلب على المملكة ، وجاءت عساكر أمبراطور الروم من القسطنطينية فأنجدته ، ولما كانت سنة ٥٦٨ ثار الملك ليوفيجيلد ، وتغلب على السويفيين ، وجمل أسبانية كلها في حكم القوط ، إلا أنه كان آريوسيّ المذهب ، وكان أكثر أهل أسبانية كاثوليكيين ، فثارت الأكثرية عليه ؛ وأثاروا عليه ابنه هرمينيجيلد ، فساق عسكراً وتغلب على ابنه وقتله ، ولكن بعد موت ليوفيجيلد خلفه ابنه ريكاريد فترك هذا الآريوسية ، مذهب أبيه ، وتحول كاثوليكيا في سنة ٥٨٧ وصارت في ذلك الوقت الكثلكة هي دين الدولة الاسبانية

بالاسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق ، وهو سمة لملوكهم ، كما أن جرجير سمة لملوك صقليه اه .

ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة [١] وقيل إن الصواب أغرناطة بالهمز ، ومعناه بلغتهم الرمانة ، وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها وقال « الشقندى » : أما غرناطة فانها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ، ومطمح الأنفس ، ولم تخل من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن لها إلا ما خصه الله تعالى به من المرج الطويل العريض ، ونهر شنيل ، لكفاها .

وفى بعض كلام لسان الدين ما صورته : وما لمصر تفخر بنيلها ، وألف منه فى شنيلها ؟ ! يعنى أن الشين عند أهل المغرب عددها الف ، فقولنا شنيل إذا اعتبرنا عدد شينه كان الف نيل [٢] . وفيها قيل :

غرناطةُ ما لهـــا نظير ما مصر ، ما الشام ، ما العراق

ما هى إلا العروس تُجْلَى وتلك من جملة الصداق

وتسمى كورة « البيرة » التى منها غرناطة دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح ، وقيل إنها سميت بذلك لشبهها بدمشق فى غزارة الأنهار ، وكثرة الأشجار ، حكاه صاحب « مناهج الفكر » قال : ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها اليها فصارت المصر المقصود ، والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود [٣] ، ويشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها . وفى قبليها جبل شلير ،

---

(١) سنذكرها فى مكانها إن شاء الله مطولا

(٢) إن المبالغة ولو جازت فى الشعر فلا يجوز أن تصل إلى هذا الحد ولا سيما أن لسان الدين قال ذلك فى النثر لا فى النظم

(٣) كنت ذكرت فى كتابى تاريخ الأندلس الذى جعلته ذيلا على رواية « آخر بنى سراج » فى صفحة ٢٣٧ من الطبعة الثانية مايلى :

« قال بعض المؤرخين إن مملكة غرناطة لعهد السلطان أبى الحسن على (والد أبى

وهو جبل لا يفارقه الثلج ، صيفاً ولا شتاء ، وفيه سائر النبات الهندي ، لكن ليس فيه خصائصه اه .

ومن أعمال غرناطة قطر « لوشة » (١) وبها معدن للفضة جيد ، ومنها ، أعنى لوشة ، أصل لسان الدين بن الخطيب . وهذا القطر ضخم ، ينضاف اليه من الحصون والقرى كثير ، وقاعدته لوشة بينها و بين غرناطة مرحلة ، وهي ذات أنهار وأشجار وهى على نهر غرناطة الشهير بشنيل .

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل « باغة » (٢) والعامة يقولون « بيغة » و إذا نسبوا اليه قالوا بيغى ، وقاعدته باغة ، طيبة الزرع ، كثيرة الثمار ، عزيرة المياه ، و يجود فيها الزعفران .

ومن أعمال غرناطة « وادى آش » (٣) و يقال وادى الأشات ، وهى مدينة جليلة ، قد أحدقت بها البساتين والأنهار ، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار :

وادى الأشات يهيجُ وَجْدى كلَّما ... أذكرت ما أفضت بك النعماء
لله ظلُّك والهجيرُ مسلَّطٌ ... قد برَّدَتْ لفَحاتِه الانداء
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منه فتطرِفُ طرْفها الأفياء
والنهر يبسم بالحبـــاب كأنه ... سلخ نَضَتْهُ حَيَّةٌ رقشـــاء

عبد الله آخر السلاطين المسلمين فى الأندلس) كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة وسبع وتسعين قلعة عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة . وورد فى التاريخ العام للعلامة كنتو الشهير أن سلطنة غرناطة فى تلك الأيام كانت تحتوى ثلاثين مصرا ، وثمانين مدينة صغيرة ، وعدداً لا يحصى من الأبراج والحصون والدساكر . وقد قدر بعض المؤرخين عدد بقية المسمين فى الأندلس بأربعة ملايين نسمة .

(١) Loja وسماها الأسبانيول صان فرانسيكو لوشة

(٢) أصلها « باغو » ثم سماها الأسبانيول « بريغو » Priego

(٣) تقدم عنها كلام والأسبانيول يقولون Guadis وسيرد ذكرها أيضا

فلذاك تحذَرُه الغصون فميلُها أبداً على جَنَباته إيمـــاء

(ومن أعمال وادى آش) حصن « جليانة »[١] وهو كبير يضاهى المدن ، و به التفاح الجليانى الذى خص الله به ذلك الموضع ، يجمع عظم الحجم ، وكرم الجوهر ، وحلاوة الطعم ، وذكاء الرائحة ، والنقاء ، و بين الحصن المذكور ووادى آش اثنا عشر ميلا .

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل ، وهما عظيمتان جداً ، إحداهما بسند[٢] وادى آش ، والأخرى ببشرة[٣] غرناطة ، فى جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب ، وهذا أمر مشهور . قال أبو عبد الله بن جزى وغيره .

وكانت إلبيرة[٤] هى المدينة قبل غرناطة ، فلما بنى الصنهاجى مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها ، انتقل الناس اليها . ثم زاد فى عمارتها ابنه باديس بعده .

---

(١) قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان : جليانة بالكسر ثم السكون وياء وألف ونون حصن بالأندلس من أعمال وادى ياش حصين كثير الفواكه ويقال لها جليانة التفاح لجلالة تفاحها وطيبه وريحه . قيل إذا أكل وجد فيه طعم السكر والمسك ، منها عبد المنعم بن عمر بن حسان الشاعر الأديب الطبيب . كان عجيباً فى عمل الأشعار التى تقرأ القطعة الواحدة بعدة قواف ، ويستخرج منها الرسائل والكلام الحكمى مكتوباً فى خلال الشعر . وكان يعمل من ذلك دوائر وأشجاراً ، وصوراً . سكن دمشق ، وكانت معيشته الطب . يجلس باللبادين ، على دكان بعض العطارين ، كذلك لقيته ، ووقفنى على أشياء مما ذكرته ، وأنشدنى لنفسه مالم أضبطه عنه . ومات بدمشق سنة ٦٠٣

(٢) السند محركة : ما قابلك من الجبل ، وعلا عن السفح ، وفى وطنى من جبل لبنان مكان بين عين عنوب وعيناب يقال له السند ، يعلو عن الأولى وينخفض عن الثانية .

(٣) تقدم لنا أن الجبال التى فى مملكة غرناطة كانوا يقولون لها البشرات

(٤) قال ياقوت فى المعجم : الألف فيه ألف قطع ، وليس بألف وصل ، فهو بوزن إخريطة ، وإن شئت بوزن كبريته ، وبعضهم يقول ايلبيرة ، وربما قالوا لبيرة ، وهى كورة كبيرة من الأندلس ، ومدينة متصلة بأراضى كورة قبرة ، بين القبلة

وذكر غير واحد أن فى كورة سرقسطة الملح الاندرانى الأبيض الصافى الأملس الخالص ، وليس فى الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح . قال : وسرقسطة[1] بناها قيصر ملك رومة التى تؤرخ فى مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام ، وتفسير اسمها : قصر السيد . لأنه اختار ذلك المكان بالأندلس وقيل إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر « جلق »[2] بسرقسطة فاستعذبه ، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسمه فقيل جلق ونظر إلى ما عليه من البساتين فشبهها بغوطة جلق الشام ، وقيل إنها من من بناء الاسكندر والله أعلم . وبمدينة برجة ، وهي من أعمال المرية ، معدن الرصاص وهى على واد مبهج ، يعرف بوادى « عذراء »[3] وهو محدق بالأزهار والأشجار ، وتسمى برجة[4] بهجة ، لبهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيروانى رحمه الله تعالى :

والشرق من قرطبة ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا ، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار ، وفيها عدة مدن منها : قسطيلية ، وغرناطة ، وغيرهما تذكر فى مواضعها . وفى أرضها معادن ذهب وفضة وحديد ونحاس ، ومعدن حجر التوتيا فى حصن منها يقال له شلوبينية ، وفى جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق . انتهى . ثم ذكر ياقوت بعض العلماء الذين نبغوا من أهل إلبيرة ، وسنذكر أسماءهم فى متن هذا الكتاب ، عند ما نصل نحن إلى ذكر إلبيرة وسننقل هناك ما ذكره لسان الدين بن الخطيب عن إلبيرة نقلا عن الاحاطة فى أخبار غرناطة ، وكذلك سنذكر ما قاله غيره

(١) بناها أوغسطس قيصر ، ومنها اشتق اسمه ، وكان يقال لها قبل أن مصرها أوغسطس قيصر سلدوبة Salduba ويظهر أن العرب قالوا « السيدلابة »

(٢) سرقسطة واقعة على نهر « أبره » يشتق منه نهر جلق Gallégo جاريا إلى الشمال ، بينما نهرا شالون Jalon وهرفا Huerva يسيلان إلى الجنوب

(٣) سبق ذكرها . وفى مرج دمشق قرية يقال لها عذرا

(٤) وفى جبل لبنان قرية يقال لها برجة من اقليم الخروب . وفى اقليم سرقسطة قصبة اسمها برجة بضم أولها ، وينسب إليها أناس من أهل العلم

رياض تَعَشَّقها سُنْدُسٌ تَوَشَّتْ معاطفُها بالزهَرْ
مدامعُها فوق خدَّىْ رُبًا لها نظرةٌ فتَنَت مَن نظَرْ
وكلُّ مكان بهـا جنةٌ وكلُّ طريق اليها سَقَرْ

وفيها أيضاً قوله :

حُطَّ الرحال بِبَرْجهْ وارتد لنفسك بَهْجَة
فى قلعة كسلاح وِدَوْحة مثل لُجَّة
فحصْنُها لك أمْن وَرَوْضُها لك فُرْجه
كل البلاد سواها كعُمْرة وهى حَجَّة

وبمالقة التين الذى يضرب المثل بحسنه ، ويجاب حتى للهند والصين ، وقيل إنه ليس فى الدنيا مثله ، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوى المالقى حسبما أنشده غير واحد ، منهم ابن سعيد :

مالقة حُيِّيتَ يا تينَها الفلكُ مِنْ أجلِكِ يا تِينَها[1]
نهى طبيبى عنه فى عِلّتي ما لطبيبى عن حياتى نهى

وذيّل عليه الامام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشى بقوله :

وحِمْص لا تنس لها تينَها واذكر مع التين زياتينَها

وفى بعض النسخ :

لا تنس لاشبيليّة تينها واذكر مع التين زياتينَها

وهو نحو الأول لأن حمص هى اشبيلية لنزول أهل حمص من المشرق بها حسبما

---

(١) الفلك : السفينة ، تذكر وتؤنث وتقال للمفرد وللجمع . فمن المفرد المذكر قوله تعالى (فى الفلك المشحون) ومن المفرد المؤنث قوله تعالى (والفلك التى تجرى فى البحر) ومن الجمع قوله تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) وقوله تعالى (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) وكان سيبويه يقول : الفلك هى جمع تكسير للفلك التى هى واحد

سنذكره . ونسب ابن جزى فى ترتيبه لرحلة ابن بطوطة البيتين الأولين للخطيب أبى محمد عبد الوهاب المالقى ، والتذييل لقاضى الجماعة أبى عبد الله بن عبد الملك فالله أعلم

وقال ابن بطوطة : و بمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ، و يجلب منها إلى أقاصى البلاد ، ومسجدها [1] كبير الساحة ، كثير البركة ، شهيرها ، وصحنه لا نظير له فى الحسن ، وفيه أشجار النارنج البديعة . انتهى . وقال قبله : إن مالقة إحدى قواعد الأندلس ، و بلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ، رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورمانها المرسى الياقوتى لا نظير له فى الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب اهـ .

و بكورة اشمونة المتصلة بشنترين معدن التبر ، وفيها عسل يجعل فى كيس كتان . ولا يكون له رطوبة كأنه سكر . و يوجد فى ريفها العنبر الذى لا يشبه إلا الشحْرى .

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة ، أعادها الله تعالى للإسلام ، و بها الجامع المشهور ، والقنطرة المعروفة بالجسر ، وقد ذكر ابن حيان أنه بنى على أمر عمر بن عبد العزيز [2] رضى الله عنه ، ونصه : وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها

---

(١) وهو الكنيسة الكاتدرائية الآن

(٢) جاء فى كتاب « أخبار مجموعة » فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم . وهو أقدم تاريخ لعرب الأندلس — ولم يعرف اسم مؤلفه — أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة ولى الأندلس السمح بن مالك ، فكتب إلى عمر يعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض فيه الشتاء عامة (قال) فان أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت فان قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ، ونفقات الجهاد وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال والله أعلم أن عمر

قرطبة الجسر الأكبر الذى ما يعرف فى الدنيا مثله . انتهى . وفيها يقول بعض علماء الأندلس .

بأربعٍ فاقت الأمصارَ قُرْطُبَةٌ   منهن قنطرةُ الوادى وجامِعُها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة   والعِلْمُ أعظمُ شىء وهو رابعُها

وقال الحجارىّ فى المسهب : كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدّية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة فى الرواية ، إذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنف بديباج المروج ، مطرز بالأزهار ، تصدح فى جنباته الأطيار ، وتنعر النواعير ، و يبسم النوّار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء ، حاضرتا الملك ، وأُفقاه النعماء والسراء ، و إن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك عادته ! وسل الخورنق والسدير وغُمدان ، وقد أعذر بانذاره ، إذ لم يزل ينادى بصروفه : لا أمان ! لا أمان ! وقد قال الشاعر :

وما زلتُ أسمع أنّ الملو   ك تبنى على قَدْرِ أخطارِها

انتهى .

وقال السلطان يعقوب المنصور بن السلطان يوسف بن السلطان عبد المؤمن بن على لأحد رؤساء أجنادها : ما تقول فى قرطبة ؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامّة الأندلس بقوله : جوفها [١] شمام [٢] ، وغربيها قمام [٣] ، وقبلتها مدام ، والجنة هى

رحمه الله أمر ببناء القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن ، إذ لا يجد له صخراً فوضع يداً فبنى القنطرة فى سنة إحدى ومائة

(١) أى شماليها

(٢) لم يرد شمام مصدراً لفعل شم . وإنما هو الشميم والشم والشميمى وعليه لا يصح شمام إلا إن كان مصدراً لفعل شام ، من باب المفاعلة . أو كان بالتشديد وأما كلام العامة فلا حاجة لتطبيقه على قواعد العربية

(٣) قم الرجل : أكل ما على الخوان ، ومثله اقتم ، والمصدر هو القم والاقتمام ،

السلام . يعني بالشمام جبال الورد ، ويعني بالقمام ما يؤكل ، إشارة إلى محرث « السكنبانية » [١] . ويعني بالمدام النهر .

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي : ما عندك في قرطبة ؟ قال له : ما كان لي أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها . فقال السلطان : إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة : الديار المنفسحة الكبيرة ، والشوارع المتسعة ، والمباني الضخمة المشيدة ، والنهر الجاري ، والهواء المعتدل ، والخارج الناضر ، والمحرث المعظم ، والشعراء الكافيه والتوسط بين شرق الأندلس وغربها . قال فقلت : ما أبقى لي أمير المؤمنين ماأقول !

قال ابن سعيد : ولأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم ، إلاّ أن عامتها أكثر الناس فضولا ، وأشدهم تشغيباً ، ويضرب بهم المثل ، ما بين أهل الأندلس ، في القيام على الملوك ، والتشنيع على الولاة ، وقلة الرضا بأمورهم ، حتى أنّ السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ فقال مثل الجمل ، إن خفّفت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته صاح ، ماندرى أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حجّاج الفتنة ، حتى كان عامتها شراً من عامّة العراق [٢] وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية ، وإني ، إن كلفت العود إليها ، لقائل : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ! انتهى .

فأما القمام فلم يرد بمعنى الأكل بل بمعنى الكناسة . فلهذا أصاب صاحب النفح بقوله إن هذا من كلام عامة الأندلس

(١) Campaina قال ياقوت : ناحية بالأندلس قرب قرطبة ينسب إليها محمد ابن قاسم بن محمد الأموى الجالطى الكنبانى ، ذكر في جالطة بأتم من هذا

(٢) وهم كانوا السبب في سقوط الأندلس لأن الفتنة التي أثاروها هي التي آلت إلى سقوط هيبة الخلافة وسقوط هيبة الخلافة آل إلى ظهور ملوك الطوائف وهؤلاء هم كانوا مبدأ اضمحلال الاسلام في الأندلس

وقال أبو الفضل التيفاشي : جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بن رشد ، والرئيس أبي بكر بن زهر . فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : ما أدرى ما تقول ؟ غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مُطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية . قال : وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً (١) انتهى .

وحكى الامام ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومى . قال : فسألنا : من أين ؟ فقلنا : من قرطبة . فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها . فقال : أقربا إلىّ أشمّ نسيم قرطبة فقربنا منه فشم رأسى وقبّله وقال لى أكتب :

أقرطبة الغراء هل لِىَ أوْبةُ ... إليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانبَ الغربىَّ منك غمامةٌ ... وقعقع فى ساحات دَوْحاتك الرعْدُ
لياليك أسحارٌ وأرضكِ روضة ... وتُرْبكِ فى استنشاقها عنبر ورْدُ

وكتب الرئيس الكاتب أبو بكر بن القبطرنه للعالم أبي الحسين بن سراج بقوله :

ياسيدى وأبى ، هوًى وجلالةً ... ورسولَ وُدّى إن طلبتُ رسولا
عرّجْ بقرطبةٍ إذا بلّغتها ... بأبى الحسين وناده تأميلا
وإذا سعدت بنظرةٍ من وجههِ ... اهدِ السلامَ لكفّه تقبيلا
واذكرْ له شوقى وشكرى مُجْمِلا ... ولو استطعت شرحته تفصيلا
بتحية تُهْدَى إليه كأنما ... جرّتْ على زهر الرياض ذيولا

(١) نقل صاحب نفح الطيب عن أبي محمد بن حزم مايلى : أخبرنى تليد الخصى وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لاغير اه قلنا وكان عدا خزانة كتب دار الخلافة خزائن لاتحصى فى قرطبة

وفى باب اليهود بقرطبة يقول أبو عامر بن شهيد :

لقد أطلَعوا عند باب اليهو د بَدْرًا أَبَى الحُسنُ أنّ يُكسَفا

تراه اليهودُ على بابها أميراً فتحسَبُه يوسُفا

واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا : باب الهدى . وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها فى الباب المنفرد بها ، إن شاء الله تعالى ، وكذلك القنطرة (١)

ومن أعظم مدن الأندلس اشبيلية ، قال الشقندى : من محاسنها اعتدال الهواء ، وحسن المبانى ، ونهرها الأعظم الذى يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سفر :

شقّ النسيمُ علَيْه جَيْبَ قميصِهِ فانساب مِنْ شَطَّيْه يطلب ثارَهُ

فتضاحكت وُرْقُ الحَمام بدَوْحها هُزْءًا فضَمّ من الحياء إزارَهُ

وقيل لأحد من رأى مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ، أهذان أم اشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية : شرفها (٢) غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح اه

ويقال إن الذى بنى اشبيلية اسمه « يوليس » (٣) وأنه أول من سُمّىَ « قيصر »

---

(١) وسنذكرها نحن أيضاً عند الوصول إلى مبحث قرطبة

(٢) يعنى غابة الزيتون العظيمة المسماة بالشرف

(٣) هو يوليوس قيصر وكان قد فتح اشبيلية سنة ٤٥ ق م واتخذها حاضرة لاسبانية كما كان « بومبى » اتخذ قرطبة . وليس يوليوس قيصر هو الذى بناها ، بل هى بلدة عظيمة من قبل ، واقعة على طريق التجارة الأعظم ، من قادس إلى ماردة إلى طلنكة ، وإنما ازداد قيصر اعتناءاً بها ، ثم صارت سنة ٤١١ ب م عاصمة للوندال ، وفى سنة ٤٤١ عاصمة للقوط ، وفى سنة ٥٥٧ انتقل « اتانا جيلد ملك القوط » منها إلى طليطلة ، نظراً لتوسطها فى المملكة ، ولكن بقى يقيم بها فى الأحايين نائب الملك . واستولى العرب على اشبيلية تحت قيادة موسى بن نصير سنة ٧١٢ ب م وسلموا قيادها فى بداية الأمر إلى غيطشة أو فيطشة Vitiza وأعقابه لأنهم ذكروا لغيطشة ولاءه لهم عند الفتح

وأنه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها ، وطيب أرضها ، وجبلها المعروف بالشرف ، فردم على النهر الأعظم مكاناً ، وأقام فيه المدينة ، وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتى الشأن ، تعرفان بأخوين ، وجعلها أم قواعد الأندلس ، واشتق لها اسمها من « رومية يوليس »[١] انتهى . وقد تقدم شيء من هذا .

وكان الأولون من ملوك الأعاجم يتداولون بسكناهم أربعة بلاد من بلاد الأندلس : اشبيلية ، وقرطبة ، وقرمونة ، وطليطلة ، ويقسمون أزمانهم على السكينونة بها . وأما شرف اشبيلية فهو شريف البقعة ، كريم التربة ، دائم الخضرة فرسخ في فرسخ ، طولا وعرضاً ، لا تكاد تشمس فيه بقعة ، لالتفاف زيتونه .

واعلم أن اشبيلية لها كور جليلية ، ومدن كثيرة ، وحصون شريفة ، وهى من الكور المجندة ، نزلها جند حمص ، ولواؤهم في الميمنة ، بعد لواء جند دمشق وانتهت جباية اشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة وثلاثين الف دينار ومائة دينار . وفى اقليم « طالقة »[٢] من اقاليم اشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر ، معها صبى ، وكأن حية تريده ، لم يسمع في الأخبار ، ولا رؤى في الآثار ، صورة أبدع منها ، جعلت في بعض الحمامات ، وتعشقها جماعة من العوام . وفى كورة ماردة حصن « شنت أفرج »[٣] في غاية الارتفاع ، لا يعلوه طائر البتة ، لا نسر ولا غيره

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع « اقليش »[٤] فان

---

(١) سماها قيصر Colonia Julia Romula

(٢) قال ياقوت : طالقة من أعمال اشبيلية بالأندلس

(٣) الأسبانيول يقولون لشنت افرج Santa Cruz أى الصليب المقدس

(٤) عند الأسبانيول Uclès وأكثر سينات الأسبانيول يقلبها العرب شينا مثل برسلونة التى هى عندهم برشلونة ، وسيفيله التى يقولون لها اشبيلية . وسنتره التى يقولون لها شنترة ، ووادیس التى هى عندهم وادى آش . إلى ما لا يحصى من الأعلام إلا أن ذلك غير مطرد ، فبعض الأعلام لا تزال سينها عندهم سيناً ، وذلك مثل بلنسية

طول كل جائزة منه مائة شبر واحد عشر شبراً ، وهي مربعة منحوتة ، مستوية الأطراف

وقال بعض من وصف اشبيلية إنها مدينة عامرة ، على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة ، وعليه جسر مربوط بالسفن ، وبها أسواق قائمة ، وتجارات رابحة ، وأهلها ذوو أموال عظيمة ، وأكثر متاجرهم الزيت ، وهو يشتمل على كثير من اقليم الشرف . واقليم الشرف على تل عال ، من تراب أحمر ، مسافته أربعون ميلا فى مثلها ، يمشى به السائر فى ظل الزيتون والتين . ولها فيما ذكر بعض الناس قرى كثيرة ، وكل قرية عامرة بالأسواق ، والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق .

وقال صاحب « منهاج الفكر » عند ذكر اشبيلية : وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا ، وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة . ويعينهم على ذلك واديها الفرج ، وناديها البهج ، وهذا الوادى يأتيها من قرطبة ، ويجزر فى كل يوم . ولها جبل الشرف[1] ، وهو تراب أحمر ، طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلا ، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلا ، يشتمل على مائتين وعشرين قرية ، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت . انتهى .

ومرسية وسرقسطة وقادس وغيرها . ولقد أخبرنى والدنا الفاضل البحاثة المدقق السيد محمد الفاسى من آل الجد الفهريين أن الأسبان القدماء كانوا أيضاً ينطقون بالسين شينا فى ألفاظ كثيرة مثل Burgos برغش Vargas بركاش اسم آل بركاش الوجهاء فى رباط الفتح ، ولذلك كان الأسبان فى الماضى يكتبون السين المنطوق بها شينا بحرف X فكانوا يكتبون مثلا اشبيلية هكذا Xévilla وارشيدونة Arxidona وشلير Xolair وهلم جرا . قلت : وربما كان القوط أتوا بهذا التعاق من الشمال لانهم هم جرمانيون فى الاصل ، وكل حرف S فى اللغة الجرمانية ينطق به شينا ، وهو عندهم اصطلاح قديم إلا فى مقاطعة هنوفر ، فهناك حرف S ينطق به سينا

(١) لايصح أن يسمى الشرف جبلا ، ولقد مررت به فى ذهابى من أشبيلية إلى رندة ، فهو نشز ناهض قليلا عن الأرض

ولكورة « باجة »[١] من الكور الغربية التي كانت من أعمال اشبيلية أيام بني عباد خاصّية في دباغة الأديم وصناعة الكتان . وفيها معدن فضة . وبها ولد المعتمد بن عباد ، وهي متصلة بكورة ماردة .

وللجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نصير إذ كان أول ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح ، ولذا شهر بجبل الفتح ، وهو مقابل الجزيرة الخضراء ، وقد تجون البحر هنالك مستديراً ، حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء . وفيه يقول مطرّف شاعر غرناطة :

وَأقْوَدَ قد أَلْقَى على البحر مَتْنَهُ فاصبح عن قَوْد الجبال بِمَعْزِلِ
يُعَرِّضُ نحو الأفْقِ وَجْهاً كأنما تراقبُ عيناه كواكبَ مَنْزِلِ

وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبتة في البحر ، بان كأنه سرج . قال أبو الحسن على بن موسى بن سعيد : أقبلت عليه مرة مع والدى فنظرنا اليه على تلك الصفة فقال والدى : أجزْ :

أنظر إلى جبل الفَتْح راكباً متن لُجّ

فقلت : وقد تفتّح مثل الأفنان في شكل سَرْج

وأما جزيرة طريف فليست بجزيرة ، وإنما سميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء . وطريف المنسوبة اليه بربري من موالى موسى بن نصير . ويقال إن موسى بعثه قبل طارق في أربعمائة رجل ، فنزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين ، وبعده دخل طارق . والله أعلم .

ومن أعظم كور الأندلس كورة طليطلة ، وهي من متوسط الأندلس ، وكانت دار مملكة بني ذي النون ، من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة . وسماها قيصر بلسانه « بزليطلة » وتأويل ذلك : انت فارح . فعربتها

---

(١) Beja

العرب ، وقالت « طليطلة » [١] . وكانوا يسمونها وجهاتها فى دولة بنى أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الأعلى . وتسمّى طلطيلة مدينة الاملاك لأنه فيما يقال ملكها اثنان وسبعون انسانا ، ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام ، وعيسى بن مريم ، وذو القرنين [٢] ، وفيها وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر أشبان ملك الروم الذى بنى أشبيلية ، أخذها من بيت المقدس ، كما مر [٣] . وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار . وقيل إنها كانت من زمرد أخضر ، ويقال إنها الآن برومة . والله أعلم بذلك . ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة [٤] منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، وإيوان ممتلىء من أوانى الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه . وقد قيل أن أوانى المائدة من الذهب ، وصحافها من اليشم والجزع . وذكروا فيها غير هذا ، مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه . وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة ، وضياع بديعة ، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلنا نلم ببعض متنزهاتها فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهي مطلة على نهر تاجة ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحد ، تكتنفه فرجتان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعاً ، وخربت أيام الأمير محمد ،

---

(١) قال المؤرخ الرومانى « تيت ليف » : طوليتوم Toletum مدينة صغيرة لكنها ذات موقع حصين

(٢) هذا من أساطير الأولين

(٣) لم نقرأ هذا فى تاريخ يوثق به

(٤) أما هذا فصحيح وإن تطرقت إليه المبالغة ؛ كما هو المعتاد فى مثل هذه الحوادث

لما عصى عليه أهلها ، فهزمهم واحتال في هدمها . وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :

أضحت طُليطلةٌ معطلةً من أهلها في قبضة الصقْرْ
تُرِكَت بلا أهل تؤهلُها مهجورةَ الأكناف كالقبْرْ
ما كان يُبقِي اللهُ قنطرةً نُصبت لحَمْلِ كتائب الكفْرْ

وسيأتي بعض أخبار طليطلة (١) .

ومن مشهور مدن الأندلس المرّية ، وهي على ساحل البحر ، ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وعظمت في دولة المنصور ابن أبي عامر ، وولي عليها خيران ، فنسبت القلعة إليه . وبها من صنعة الديباج ما تفوق به سائر البلاد . وفيها دار الصناعة (٢) . وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام . ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر ، قديم عجيب المنظر

وقال بعضهم : كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول ، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول ، وللاسقلاطون كذلك ، وللثياب الجرجانية كذلك ، وللاصفهانية مثل ذلك ، وللعتابي والمعاجر المدهشة ، والستور المكللة . ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف (٣) . وفاكهة المرّية

(١) سيأتيك خبر طليطلة في الجزء الأول هذا

(٢) المرية كانت مرسى الأسطول الاسلامي الأندلسي الذي بلغ أوج عظمته في أيام عبد الرحمن الناصر ، وبقيت كذلك مدة من الزمن بعد ذهاب الناصر رحمه الله ، وفي أيام مجاهد العامري وولده علي كانت دانية مرفأ عظيما للأسطول الاسلامي وكانت فيها دار صناعة وكانت دور صناعة في مدن بحرية أخرى مثل الجزيرة الخضراء وشلب والقنت وقستلون في كتلونية والمنكب ومالقه وقصر أبي دانيس في الجهة الغربية وجزيرة يابسة ، وفي زمن الناصر أنشئت دار صناعة عظيمة في طرطوشة ، وذلك لأن الصنوبر الطرطوشي مشهور بالصلابة

(٣) نقل لاوي بروفنسال عن مؤلفي العرب ماذكروه عن عظمة تجارة المرية ، وأنها كانت أعظم ميناء في الأندلس ، كما قال الشقندي ، وذكر أنه كان فيها ألف إلا

يقصر عنها الوصف حسناً ، وساحلها أفضل السواحل [١] ، وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة . وقد ألف فيها أبو جعفر بن خاتمة تاريخاً حافلا ، سماه « بمزية المرّية على غيرها من البلاد الأندلسية » في مجلد ضخم ، تركته من جملة كتبي بالمغرب . والله سبحانه المسؤول في جمع الشمل ، فله الأمر من بعد ومن قبل .

ووادي المرية طوله أربعون ميلا في مثلها ، كلها بساتين بهجة ، وجنات نضرة وأنهار مطردة ، وطيور مغردة . قال بعضهم : ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالا من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف ، وهي بين الجبلين ، بينهما خندق معمور ، وعلى الجبل الواحد ، قصبتها المشهورة بالحصانة ، وعلى الآخر ربضها . والسور محيط بالمدينة والربض . وغربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ، ذو فنادق وحمامات ، وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة ، وأحجار أوليّة . وكأنما غربلت أرضها من التراب . ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار . انتهى .

وقال ابن اليسع عند ذكر مدينة « شنترة » [٢] : إن من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته ، وأن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر . قال لي أبو عبد الله الباكوري ، وكان ثقة : أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة ، أهدى اليه أربعا من التفاح ، ما يُقِلُّ الحامل على رأسه غيرها ، دور كل واحدة خمسة أشبار . وذكر الرجل بحضرة ابن عباد أن المعتاد عندهم أقل من هذا ، فاذا أرادوا أن يجيء بهذا العِظَم وهذا القدر قطعوا أصلها وأبقوا منه عشراً أو أقل ، وجعلوا تحتها دعامات من الخشب . انتهى .

ثلاثين فندقاً مقيدة في ديوان الخراج ، وأنها كانت مدينة صناعية من الدرجة الأولى ، وفيها المناسج الحريرية وغيرها ، ومعامل الحديد والنحاس والزجاج

(١) إلى يومنا هذا فواكه المرية مشهورة ، ومنها يجلب إلى أوربة أفضل العنب

(٢) Cintra من مدن البرتغال

وبحصن « شنش »[١] على مرحلة من المرّية التوت الكثير ، وفيها الحرير والقرمز ، ويعرف واديها بوادى « طبرنش »[٢] وبغربى مالقة عمل « سهيل »[٣] وهو عمل عظيم كثير الضياع ، وفيه جبل سهيل ، لايرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه

ومن كور الأندلس الشرقية تدمير[٤] وتسمى مصر أيضاً ، لكثرة شبهها بها ، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر ، وصارت القصبة بعد تدمير مرسية ، وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها ، ولها نهر يصب فى قبليها .

واعلم أن جزيرة الأندلس ، أعادها الله للاسلام ، مشتملة على موسطة وشرق وغرب . فالموسطة فيها من القواعد الممصّرة التى كل مدينة منها مملكة مستقلة ،

---

(١) لانعلم أهى فى الأصل شنشين Chinchin وقد حرفها النساخ إلى شنش ، أم هى من الأصل شنش

(٢) يقول لها الاسبانيول Tabarnax قال عنها لسان الدين بن الخطيب فى « معيار الاختيار » حاضرة البلاد المشرقية ، وثنية البارقة الأفقية ، ماشئت من تنجيد بيت ، وعصر زيت ، وإحياء أنس ميت ، وحمام طيب ، وشعر تنثر فيه دنانير أبى الطيب ، إلا أنها محيلة الغيوث ، عادية الليوث ، ولو شكر الغيث شعيرها ، أخصبت البلاد وعيرها

(٣) هو اسم عربى من أصله والاسبانيول يقولون لهذا المكان « فوانجيرولا » Fuengirola قال لسان الدين فى « معيار الاختيار » : حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضى بفضله كل ذى عقل رصين ، سبب عزه متين ، ومادة قوته شعير وتين ، قد علم أهله مشربهم ، وأمنوا مهربهم ، وأسهلت بين يديه قراه ، مائلة بحيث تراه ، وجاد بالسمك واديه ، وبالحب ثراه ، وعرف شأنه بأرض الوب ، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب ، إلا أن سواحله بلّ الغارة البحرية ، ومهبط السرية غير السرية ، ومسرح السائمة الأميرية ، وخدامها كما علمت أولئك هم شر البرية اه . قلت : قوله البل بكسر أوله معناه مباح يقال هو « حل وبل » أى سواحل سهيل مباحة للغارات البحرية لكثرتها عليها

(٤) هى البلدة التى يقال لها أوريولة وهى من عمل مرسية

لها أعمال ضخام ، وأقطار متسعة : قرطبة ، وطليطلة ، وجيان ، وغرناطة ، والمرية ، ومالقة : فمن أعمال قرطبة « استجة » و « بلكونة » و « قبرة » و « رندة » و « غافق » و « المدوّر » و « اسطبة » و « بيانة » و « اليسانة » و « القصير »[١] وغيرها . ومن أعمال طليطلة « وادى الحجارة » ، و « قلعة رباح » ، و « طلمنكة » [٢] وغيرها . ومن أعمال جيان ، « ابذة » ، و « بياسة » ، و « قسطلة » [٣] وغيرها ، ومن أعمال غرناطة « وادى آش » ، و « المنكّب » و « لوشة » [٤] وغيرها . ومن أعمال المرية « اندرش » [٥] وغيرها . ومن أعمال

---

(١) الأسبانيول يقولون لاستجة Ecija وللكونه Balcona ولقبره Cabra ولرندة Ronda ولغافق Galic وللمدرر Almodovar ولأسطبة Estepa ولبيانه Baessa ولأليسانة Lucana وللقصير Alkosair

(٢) الأسبانيول يقولون لوادى الحجارة Guadalajara ولقلعة رباح Calatrava ولطلمنكة Salamanqua

(٣) الأسبانيول يقولون لجيان خيان بالخاء وبدون تشديد ، ويقول دوزى إن القشتاليين كانوا يقولون فى القرون الوسطى جيان مخففة ، وأن أصل هذا الاسم رومانى ، وهو أوسيانس Ucienso فالعرب حذفوا آخر الاسم ، فبقى أوسيان ، فقلبوا السين شينا ، ثم غلبت الجيم الشين ، وحذفوا الأول ، فانتهى الأمر بأن صارت جيان ، والله أعلم . ويقول الأسبانيول لأبذه Ubeda ولبياسه Baeza ولقسطة Castella وكل هذه الأسماء قد تقدم ذكرنا لها بالعربى وبالاسبانيولى وإنما نكررها لترسخ فى ذهن القارىء

(٤) لا يخفى أن غرناطة هى عند الأسبانيول Granada ووادى آش Geiadix والمنكب Almunécar ، ولا نعلم لماذا الاسبانيول قلبوا الباء راء ، ولوشة هى عندهم Loja

(٥) لا يخفى أن المرية هى من فعل رأى بحسب رأى دوزى ، فقد قال إن هذا الاسم فى أصله لم يكن علماً وأنه صفة لبرج يكون مشرفاً على البحر ، ترى منه مراكب البحر ، وتراه المراكب من البحر . وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب ، لانه فى

مالقة « بلش و « الحامه » [١] ، وغيرهما . و ببلش من الفواكه ما بمالقة ، و بالحامة العين الحارة على ضفة واديها .

وأما شرق الأندلس ففيه من القواعد « مرسية » و « بلنسية » و « دانية » و « السهلة » و « الثغر الأعلى » [٢] . فمن أعمال مرسية « أوريولة » و « القنت » و « لورقة » [٣] وغير ذلك ومن أعمال بلنسية « شاطبة » التي يضرب بحسنها المثل ، و يعمل بها الورق الذي لا نظير له ، و « جزيرة شقر » وغير ذلك وأما « دانية » فهي شهيرة ، ولها أعمال ، وأما « السهلة » فانها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ، ولذا عدها بعضهم من كور الثغر الأعلى ، ولها مدن وحصون . ومن أعمال الثغر الأعلى سرقسطة . وهي أم ذلك الثغر . وكورة «لاردة» والقلعة ، وتسمى بالبيضاء [٤]

العربي يوجد فعل أراه إياه يريه إراءة وإرآء ، أي جعله ينظر فيه فهو مر وهي مرية . فهذا في الارجح أصل هذه اللفظة ، وفيما بعد أدخلوا عليها التشديد بتحريف العوام . ومع هذا فالاسبانيول لايلفظونها بالتشديد بل يلفظونها بفتح الاول وكسر الثاني فسكون فياء فألف هكذا Almeria وأما اندرش فيكتبونها Andarax وهي البلدة التي عينها فرديناند لأبي عبد الله بن الاحمر . بعد أن أخرجه من غرناطة ، حتى يقيم بها قبل أن تحيل عليه وأخرجه إلى المغرب ، وقد ذكرها لسان الدين في «معيار الاختيار» فقال عنها : عنصر جباية ، وكمن به أولو إباية ، حريرها ذهب ، وتربها تبر ملتهب ، وماؤها سلسل ، وهواؤها لايلفى معه كسل إلا أنها ضيقة الأحواز والجهات ، كثيرة المقابر والقهوات ، عديمة الفرج والمتنزهات . ثقيلة المغارم . مستباحة المحارم ، أعرابها أولو استطالة ، فلا يعدم الزرع عدوانا ، ولا يفقد عير الشر نزوانا ، وطريقها غير سوى وما كنها ضعيف يشكو من قوى اه .

(١) الاسبانيول يقولون لبلش مالقة Velez Malaga ويقولون للحامة Alahama

(٢) مرسية هي Murcia وبلنسية Valencia ودانية Denia والسهلة Azaila والثغر الاعلى هي سرقسطة Zaragoza

(٣) كلها قد تقدم ذكرها وبعض وصفها

(٤) أي سرقسطة

وكورة « تطيلة » ومدينتها « طرسونة » [١] وكورة « وشقة » ومدينتها عريط [٢] ، وكورة مدينة سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتها بليانة ، وكورة « برطانية » [٣] وكورة « باروشة » [٤]

وأما غرب الأندلس ففيه « اشبيلية » و «ماردة» و « اشبونة » و «شلب» [٥] فمن أعمال اشبيلية « شريش » و « الخضراء » و « لبلة » [٦] وغيرها . ومن أعمال ماردة « بطليوس » و « يابرة » [٧] وغيرها . ومن أعمال اشبونة « شنترين » [٨] وغيرها . ومن أعمال شلب «شنت ريه » [٩] وغيرها .

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة « قادس » [١٠] وهي من أعمال اشبيلية . وقال ابن سعيد : إنها من كورة شريش ولا منافاة ، لأن شريش من أعمال اشبيلية كما مر . قال : وبيد صنم قادس مفتاح . ولما ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون ، وهو علي بن عيسى قائد البحر بها ، ظن أن تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيأ اه .

وهي أعني جزيرة قادس في البحر المحيط . وفي المحيط الجزائر الخالدات [١١]

---

(١) قد تقدم ذكر هذه المدن وسيأتي الخبر عنها كلها

(٢) Tamarite - Altorricon

(٣) إن هذه الكورة هي المسماة بلطانية عند الأسبان وهي شمالي وشقة

(٤) قال ياقوت : باروشة مدينة من غربي سرقسطة بقرب من أرض الفرنج

(٥) هذه الاسماء هي Sevilla و Merida و Lisboa و Silves

(٦) « « « Xeres و Algezira و Niebla

(٧) « « « Badajoz و Evora

(٨) Santarem (٩) Santamaria

(١٠) Cadix وليست بجزيرة تامة ، وذلك لأنها ترتبط بالبر بخيط دقيق من التراب قليل العرض لايزيد على أمتار معدودات ، وهو أيضاً غير مستطيل

(١١) Canaries

السبع ، وهى غربى مدينة سلا ، تلوح للناظر فى اليوم الصاحى الصافى الجو من الأبخرة الغليظة ، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين ، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها . وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات [١] ، وفيها من المدن والقرى مالا يحصى ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس ، على دين النصارى ، أولها جزيرة برطانية [٢] وهى بوسط البحر المحيط ، بأقصى شمال الاندلس ، ولا جبال فيها ولا عيون ، و إنما يشربون من ماء المطر ، و يزرعون عليه ، وقال ابن سعيد : وفيه جزيرة «شلطيش» [٣] وهى آهلة ، وفيها مدينة ، و بحرها كثير السمك ، ومنها يحمل مملحا إلى اشبيلية ، وهي من كورة « لبلة » مضافة إلى عمل « أونبة » [٤] اه .

وقال بعضهم لما جرى ذكر قرطاجنة من بلاد الاندلس : إن الزرع فى بعض أقطارها يكتفى بمطرة واحدة ، و بها أقواس من الحجارة المقربصة ، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة . ومن أعجب بنائها « الدواميس [٥] » وهى أربعة وعشرون ، على صف واحد ، من حجارة مقربصة ، طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة ، فى عرض ستين خطوة ، وارتفاع كل واحد أكثر من مائتى ذراع ، بين كل داموسين انقاب محكمة ، تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض ، فى العلو الشاهق ، بهندسة عجيبة ، و إحكام بديع . انتهى

« قلت » : أظن هذا غلطا فان قرطاجنة التى بهذه الصفة قرطاجنة أفريقية لا قرطاجنة الأندلس . والله أعلم .

---

(١) Açores

(٢) بريطانية العظمى

(٣) Saltes وهى جزيرة فى غربى الاندلس ينسب إليها أبو محمد الشلطيشى وغيره من أهل العلم وسيأتى ذكرها

(٤) Huelva

(٥) الداموس هو القترة أو ما يستتر به

وقال صاحب « مناهج الفكر » عند ما ذكر قرطاجنة : وهى على البحر الرومى ، مدينة قديمة بقى منها آثار ، ولها فحص طوله ستة أيام ، وعرضه يومان ، معمور بالقرى انتهى . وذكر قبل ذلك فى « لورقة »[١] أنه بناحيتها يوجد حجر اللازورد ، وفي البحر الشامى الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة ، و بينهما خمسون ميلا وجزيرة ميورقة مسافة يوم بها مدينة حسنة[٢] وتدخلها ساقية جارية على الدوام ، وفيها يقول ابن اللبانة :

بلدٌ أعارته الحمامةُ طوقَها وكساه حُلَّةَ ريشِهِ الطاوُوسُ
فكأنما الأنهارُ فيه مُدامةٌ وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كُؤوسُ

وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت :

وَغمَرْت بالاحسان أَرْض مُيورقةٍ و بنيت ما لم يَبْنِهِ الاسْكَنْدَرُ

وجزيرة يابسة[٣] . واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ، ولو تُتبع لكان تأليفاً مستقلا ، وما أحسن قول ابن خفاجة :

إن للجنة بالأندلسِ مُجْتَلَى حُسْنٍ ورَيا نفس
فسَنا صبحتها من شنَب ودُجَى ليلتها من لَعَس
وإذا ما هبَّت الريح صَباً صِحْتُ : واشوقى إلى الأندلس !

وقال بعضهم فى طليطلة :

زادت طُليطُلةٌ على ما حدَّثوا بلد عليه نضرةٌ ونعيمُ

---

(١) Lorca

(٢) الاسبانيول يقولون لهذه المدينة « بالما » Palma وأما العرب فكانوا يقولون للجزيرة ميورقة وللمدينة أيضا ميورقة . وقد أقمت بهذه البلدة عشرين يوماً فى أثناء سياحتى إلى الاندلس سنة ١٩٣٠ فرأيتها من أجمل بلاد الله وأخصبها

(٣) Ibiza

الله زينَّهُ فوشَّح خضْرَهُ نهر المجرّة والغصونُ نجومُ

ولا حرج إن أوردنا هنا ما خاطب به أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس الأمير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على ، فانه مناسب ونصه :

« مولاى أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضمَّ على حبك أحناءهم وأحناءه ، وأوصل لك ماشئت من المنّ والأمان ، كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان ، فانك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أيامك غرر وحجول ، وفرند بهائها فى صفحات الدهر يجول ، ألبست الرعية برود التأمين ، فتناسقت فيك من نفيس ثمين ، وتلقت دعوات خلدك لها باليمين ، فكم للناس من أمن بك و إيناس ، وللأيام من لوعة فيك وهيام والأقطار من لبانات لديك وأوطار ، وللبلاد من قراع على تملكك لها وجلاد ! ! يتمنون شخصك الكريم على الله و يقترحون ، و يغتبقون فى رياض ذكرك العاطر بمدام حبك و يصطبحون ، كل حزب بما لديهم فرحون ، محبة من الله ألقاها لك ، حتى على الجماد ، ونصراً مؤزراً تنطق به ألسنة السيوف على افواه الاغماد ، ومن أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ، ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها و إبداءها ، ومن قدّم صالحا فلا بد من أن يوازيه ، ومن يفعل الخير لايعدم جوازيه ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار ، وطال بها الوقوف على حبك والاقتصار ، كلها يفصح قولا ، و يقول أنا أحق وأولى ، و يصيخ إلى إجابة دعوته و يصغى ، و يتلو إذا بشر بك : ذلك ما كنا نبغى . تنمّرت حمص غيظاً ، وكادت تفيض فيظاً وقالت : ما لهم يزيدون و ينقصون ، و يطمعون و يحرصون ؟ إن يتبعون إلاّ الظن و إن هم إلاّ يخرصون ! ألهم السهم الأسدّ ، والساعد الأشدّ ، والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمدّ ؟ أنا مصر الأندلس والنيل نهرى ، وسمائى التأنس والنجوم زهرى ، إن تجار يتم فى ذلك الشرف[١] ، فحسبى أن أفيض فى ذلك الشرف ، و إن تبجحتم بأشرف

(١) هو غابة الزيتون التى تقدم ذكرها

اللبوس ، فأي إزار اشتملتموه « كشنتبوس »[١] ؟ إلى ما شئت من أبنية رحاب ، وروض يستغنى بنضرته عن السحاب ، وقد ملأت زهراتى وهادا ونجادا ، وتوشح سيف نهرى بحدائقى نجادا ، فأنا أولا كم بسيدنا الهمام وأحق ، الآن حصحص الحق !

فنظرتها قرطبة شذراً ، وقالت : لقد كثرت نذرا وبذرت فى الصخر الأصم بذرا ، كلام العدي ضرب من الهذيان ، وأنى للايضاح والبيان متى استحال المستقبح مستحسناً ، ومن أودع أجفان المهجور وسنا ، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ؟ ! ياعجبا للمراكز تقدم على الأسنة ، وللأثفار[٢] تفضل على الأعنة ! إن ادعيتم سبقاً فما عند الله خير وأبقى ، لى البيت المطهر الشريف ، والاسم الذى ضرب عليه رواقه التعريف ، فى بقيعى محل الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضل ، وفى جامعى مشاهد ليلة القدر ، فحسبى من نباهة القدر ، فما لأحد أن يستأثر على بهذا السيد الأعلى ، ولا أرضى له أن يوطىء غير ترابى نعلا ، فأقروا لى بالابوة ، وانقادوا لى على حكم النبوة ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة ، وكفوا عن تباريكم ذلكم خير لكم عند باريكم .

فقالت غرناطة : لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجرى إلا تحته جياد الغيث السجوم ، فلا يلحقنى من معاند ضرر ولا حيف ، ولا يهتدى إلى خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولا وفعلا ، فقد أفلح اليوم من استعلى ، لى بطاح تقلدت من جداولها أسلاكا ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ، ومياه تسيل على أعطاف كأدمع العشاق ، وبرد نسيم يردد ماء المستجير بالانتشاق ، فحسنى لايطمع فيه ولا يحتال ، فدعونى فكل ذات ذيل تختال ، فأنا أولى بهذا السيد الأعدل ، وما لى به من عوض ولا بدل ، ولم لا يعطف على عنان مجده ويثنى ، وإن أنشد يوماً فاياى يعنى :

(١) Santiponce من قرى اشبيلية

(٢) الثفر محركة وقد تسكن السير : الذى فى مؤخر السرج

بلاد بها عقّ الشباب تمائمى وأول أرض مسّ جلدى ترابها

فما لكم تعتزون لفخرى وتنتمون ، وتتأخرون فى ميدانى وتتقدمون ؟ تبرأوا إلىّ مما تزعمون ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

فقالت مالقة : أتتركونى بينكم هملا ، ولم تعطونى فى سيدنا أملا ؟ ولِمَ ولى البحر العجاج ، والسبل الفجاج ، والجنات الأثيرة ، والفوا كه الكثيرة ؟ ! لدىّ من البهجة ما تستغنى به الحمام عن الهديل ، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشى الى تعويض عنه ولا تبديل ، فما لى لا أعطى فى ناديكم كلاماً ، ولا أنشر فى جيش فخاركم أعلاماً ؟ ! فكأنّ الأمصار نضرتها ازدراء ، فلم تر لحديثها فى ميدان الذكر اجراء ، لأنها موطن لا يحظى منه بطائل ، وبطن البلاد تأولت فيها قول القائل :

اذا نَطَقَ السفيهُ فلا تُجبهُ فخيرٌ من إجابته السكوتُ

فقالت مرسية : أمامى تتعاطون الفخر ، و بحضرة الدر تنفقون الصخر ، إن عدّت المفاخر ، فلى منها الأول والآخر ، أين أوشالكم من بحرى ، وخرزكم من لؤلؤ نحرى ؟ وجمجمتكم من نفثات سحرى ؟ فلى الروض النضير ، والمرأى الذى ما له نظير ، ورتقاتى التى سار مثلها فى الآفاق ، وتبرقع وجه جمالها بغرة الاصفاق ، فمن دوحات ، كم لها من بكور وروحات ، ومن أرجاء ، اليها تمد أيدى الرجاء . فابنائى فى الجنة الدنيوية مودعون ، يتنعمون فيها يأخذون ويَدَعُون ، ولهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يدَّعون ، فانقادوا لأمرى ، وحاذروا اصطلاء جمرى ، وخلّوا بينى و بين سيدنا أبى زيد ، و إلا ضربتكم ضرب زيد ، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

فقالت بلنسية : فيم الجدال والقراع ، وعلام الاستهام والاقتراع ، و إلام التعريض والتصريح ، وتحت الرغوة اللبن الصريح ؟ ! أنا أحوزه من دونكم ، فأخمدوا نار تحرككم وهدونكم ، فلى المحاسن الشامخة الأعلام . والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد الاستسلام ، و برصافتى وجسرى أعارض مدينة السلام ، فأحموا

على الانقياد لى والسلام ، و إلا فعضوا بناناً ، واقرعوا أسناناً . فأنا حيث لا تدركون وأنّى ؟ ومولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منا !

فعند ذلك ارتمت جمرة تدمير بالشرار ، واستدّت اسهمها لنحور الشرار ، وقالت : عش رجباً ، تر عجبا ! أبَعْدَ العصيان والعقوق ، تتهيأن لرتب ذوى الحقوق ؟ ! هذه سماء الفخر ، فمن ضمنك أن تعرجى ؟ ليس بعشك فادرجى ، لك الوصف والحبل . آلآن ؟ وقد عصيت قبل أيتها الصانعة الفاعلة ، من أدراك أن تضربى وما أنت فاعلة ، ما الذى يجديك الروض والزهر ؟ أم يفيدك الجدول والنهر ؟ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ هل أنت إلا محط رحل النفاق ، ومنزل ما لسوق الخصب فيه من نَفَاق ، ذراك لا يكتحل الطرف فيه بهجوع ، وقراك لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فإلامَ تبرز الاماء فى منصة العقائل ؟ ولكن اذكرى قول القائل :

بلنسية ، بِينى عن القلب سَلْوَةً   فانك روض لا أحِنُّ لزَهْرِك
وكيف يُحب المرء داراً تقسَّمَتْ   على صارِمَىْ جُوعٍ وفتنةِ مشرِكِ ؟

بيد أنى أسأل الله تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد ، و يسيل من تسديدك ما جمد ، ولا يطيل عليك فى الجهالة الأمد ، و إياه سبحانه نسأل أن يرد سيدنا ومولانا إلى أفضل عوائده ، و يجعل مصائب أعدائه من فوائده ، و يمكن حسامه من رقاب المشغبين ، و يبقيه وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، و يصل له تأييداً وتأبيداً ، و يمهد له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيداً ، و يمد على الدنيا بساط سعده ، و يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

آمين ! آمين ! لا أرض بواحدة   حتى أضيف اليها ألف آمينا

ثم السلام الذى يتعانق عبقاً ونشراً ، و يتألق رونقاً و بشراً ، على حضرتهم العلية ، ومطالع أنوارهم السنية الجلية ، ورحمة الله تعالى و بركاته [١] (انتهى)

---

(١) يرى القارىء أن صاحب النفح يأتى بالجغرافية والتاريخ والمحاضرات والمسامرات والنظم والنثر ، كل ذلك فى نسق ، وأن الترتيب ليس هو الصفة الغالبة على تاليفه ، بل هو فى

ولما ألمّ الرّحالة ابن بطوطة فى رحلته بدخوله بلاد الأندلس، أعادها الله تعالى للاسلام قال : فوصلت إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم والظاعن . . . إلى أن قال عند ذكره غرناطة مانصه : قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له فى الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلا، يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين الجليلة، والجنات، والرياضات، والقصور، والكروم، محدقة بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها « عين الدمع »[1] وهو جبل فيه الرياضات والبساتين، لامثل له بسواها . انتهى

وقال الشقندى : غرناطة : دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس . ولم تخل من اشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن بها إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها النساء الشواعر، كنزهون القَلْبعيَّة، والركونية، وغيرهما . وناهيك بهما فى الظرف والأدب . انتهى

ولبعضهم، يتشوق إلى غرناطة، فيما ذكره بعض المؤرخين، والصواب أن الأبيات قيلت فى قرطبه كما مر والله أعلم .

أغرناطة الغراء، هل لِيَ أوبة ... اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد

سقى الجانبَ الغربيَّ منك غمامةٌ ... وقَعْقَع فى ساحات رَوْضتك الرعد

لياليك أسحارٌ، وأرضك جنةٌ ... وترْبك فى استنشاقها عنبر وَرْدُ

وقال ابن مالك الرعينى :

رعى الله بالحمراء عيشاً قَطَعْتُهُ ... ذهبت به للأنس والليلُ قَدْ ذَهَبْ

هذا سائر على قاعدة : إن الحديث شجون، ولقد رأينا الاولى أن نبقى نسقه على علاته، وأن لا نتصرف إلا ماندر فى ترتيبه وتبويبه

(١) الاسبانيول يقولون لهذه العين Fuente del Avellano

ترى الأرضَ منها فضةً فاذا اكتَسَتْ بشمسِ الضُّحَى عادت سبيكَتُهَا ذَهَبْ

وهو القائل :

لا تظنوا أن شوقى خمدا بعدكم ، أو أن دمعى جمدا

كيف أسلو عن أناس مثلهم قلّ أن تُبْصِرَ عينى أحداً

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شىء بها ، ويشقها نهر « حَدَرُّه »(١) ويطل عليها الجبل المسمى بشلير ، الذى لا يزول الثلج عنه شتاء ولا صيفاً (٢) ويجمد عليه ، حتى يصير كالحجر الصلد ، وفى أعلاه الأزاهر الكثيرة ، وأجناس الأفاوية الرفيعة ، ونزل بها أهل دمشق ، لمّا جاءوا إلى الأندلس ، لأجل الشبه المذكور . وقرى غرناطة فيما ذكر بعض المتأخرين مائتان وسبعون قرية (٣) وقال ابن جزى مرتب رحلة ابن بطوطة ، بعد ذكر كلامه ما نصه : قال ابن جزى : لولا خشيت أن أُنسب إلى العصبية ، لأطلت القول فى وصف غرناطة ، فقد وجدت مكانه ، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه . ولله در شيخنا أبى بكر ابن محمد بن شيرين السبتى ، نزيل غرناطة حيث يقول :

رعى اللهُ من غِرناطةٍ مُتَبَوَّأً يَسُرّ حزيناً أو يُجيرُ طَريداً

تبرّمَ منها صاحبى عند ما رأى مسارِحَها بالثَّلْجِ عُدْنَ جَليداً

هو الثَّغْرُ ، صانَ اللهُ مَن أهلت به وما خيرُ ثغرٍ لا يكون بَرودا ؟

وقال ابن سعيد ، عند ما أجرى ذكر قرية نارجة ، وهى قرية كبيرة تضاهى

---

(١) الاسبانيول يقرلون Darro

(٢) سيأتى ذكر غرناطة وقراها فى محله

(٣) هذا هو الجبل الذى قال فيه القائل وقد حل باحدى قراه :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم وشرب الحميا وهو شىء محرم

فراراً إلى نار الجحيم فانها أخف علينا من شلير وأرحم

المدن قد أحدقت بها البساتين ، ولها نهر يفتن الناظرين ، وهى من أعمال مالقة : انه اجتاز مرة عليها مع والده أبى عمران موسى ، وكان ذلك زمان صياغة الحرير عندهم وقد ضربوا فى بطن الوادى بين مقطعاته خيما ، و بعضهم يشرب ، و بعضهم يغنى و يطرب ، وسألوا : بِمَ يعرف ذلك الموضع ؟ فقالوا الطراز ، فقال والدى اسم طابق مسماه ، ولفظ وافق معناه .

وقد وجدتَ مكان القولِ ذا سَعَةٍ فإن وَجَدْتَ لساناً قائلا فقُل

ثم قال أجز :

بنارجةٍ حيثُ الطِّراز المُنَمْنَمُ

فقلت : أقِمْ فوقَ نهرٍ ثغرُه يتبسمُ

فقال : وسمعك نحو الهاتفات فإنها

فقلت : لِما أبصرتْ مِنْ بهجَةٍ تترنَّم

فقال : أيا جنةَ الفِردوسِ لستُ بآدمٍ

فقلت : فلاَ يكُ حظِّى من جَناك التندُّمُ

فقال : يعز علينا أن نزورك مثلَ ما

فقلت : يزورُ خيالٌ من سُلَيْمَى مسلِّمُ

فقال : فلو أننى أُعْطَى الخيارَ لَمَا عدَتْ

فقلت : محلَّك لِى عَيْنٌ بمرآكِ تنعَمُ

فقال : بحيثُ الصَّبا والطَّلُّ من نفثاتها

فقلت : وقَتْ لَسْعَ روضٍ فيه للنهر أرْقَمُ

فقال : فوا أسَفِى ! إن لم تكن لِىَ عودةٌ

فقلت : فكنْ مالِكاً إنى عليك مُتَمِّمُ[1]

(١) متمم كمعظم هو متمم بن نويرة بن حمزة التميمى اليربوعى الشاعر الصحابى أخو مالك بن نويرة الصحابى أيضا رضى الله عنهما

فقال : فأحسب هذا آخر العهدِ بيننا

فقلت : وقد يَلْحَظُ الرحمنُ شوقى فيرحَمُ

فقال : سلام ! سلامٌ لا يزال مُرَدَّداً

فقلت : عليك ! ولازالت بك السُّحْب تَسْجُم ! انتهى .

وقال ابن سعيد : إن كورة بلنسية ، من شرق الأندلس ، ينبت بها الزعفران وتعرف بمدينة التراب ، و بها كُمَّثْرَى تسمى الأرزة ، فى قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة الطعم ، ذكاء الرائحة ، إذا دخل دارا عرف بريحه ، و يقال إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس ، و بها منارة ومسارح ، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ، ومُنْية ابن ابى عامر .

وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطى من أبيات فيها :

هى الفِردوْس فى الدنيا جَمالا لساكِنِها وكارهها البعوض

وقال بعضهم فيها :

ضاقَتْ بَلَنْسيةٌ بى وذادَ عَنِّى غُموضى

رقْصُ البراغيث فيها عَلَى غِناءِ البَعُوض

وفيها لابن الزقاق البلنسى :

بلنسيةٌ إذا فكّرتَ فيها وفى آياتها أسنَى البِلادِ

وأعظمُ شاهِدي منها عليْها وأن جَمالها للعين بَادِى

كَسَاها ربُّها دِيباجَ حُسْن لها عَلَمانِ مِنْ بَحْر ووادى

وقال ابن سعيد أيضاً : أنشدنى والدي قال : أنشدنى مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه بمراكش قوله :

كأنّ بلنسيةً كاعِبٌ ومَلْبَسها سُنْدُسٌ أخضَرُ

إذا جئتَها سَتَرَتْ نفسَها بأكمامِها فهْىَ لا تظهَرُ

وأما قول أبي عبد الله بن عياش : «بلنسية بيني» البيتين وقد سبقا ، فقال ابن سعيد : إن ذلك حيث صارت ثغرا يصابحها العدو و يماسيها [١] اه .

وقال أبو الحسن بن حريق يجاوب ابن عياش :

بَلَنْسِيَةٌ قَرَارَةُ كلِّ حُسْن حديث صَحَّ فى شَرْق وغَرْب
فان قالوا مَحَلٌّ غَلَاءِ سعر ومَسْقَطُ دِيمَتَيْ طعن وضَرْب
فقل هيَ جَنَّةٌ حُفَّتْ رُبَاها بمكروهَيْنِ من جوع وحَرْب

وقال الرصافى فى رصافتها :

ولا كالرُّصافة من منزلٍ سقَتْهُ السحائبُ صَوْبَ الوَلِى
أحِنُّ اليها ومَنْ لى بها وأينَ السَرىُّ مِن المَوْصِلى

وقال ابن سعيد : و برصافة [٢] بلنسية مناظر و بساتين ومياه ولا نعلم فى الاندلس مايسمّى بهذا الاسم الاّ هذه ، ورصافة قرطبة . انتهى . ومن أعمال بلنسية قرية « المنصف » التى منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفى وقبره كان بسبته يزار رحمه الله . ومن نظمه :

قالت لِيَ النفسُ : أتاكَ الرَّدَى وانت فى بَحْر الخطايا مُقيم
فَمَا ادَّخَرْتَ الزادَ ، قلت اقصرى! هل يُحْمَلُ الزادُ لدار الكريم ؟

ومن عمل بلنسية قرية « بطرنة » [٣] وهي التى كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى على المسلمين . وفيها يقول ابو اسحق بن يعلى الطرسونى : [٤]

---

(١) هذا كان بعد انصداع الوحدة الأندلسية وانقسام البلاد بين ملوك الطوائف واستئساد طواغيت الاسبانيول .

(٢) الاسبان يقولون Ruzafa وهى إلى الجنوب الشرقى من البلدة .

(٣) هى مقلوبة عن طبرنة Tabernes

(٤) نسبة إلى طرسونة من عمل سرقسطة .

لبسوا الحديدَ الى الوَغَى ولبِستمُ حُلَلَ الحرير عليكُمُ ألوانا
ما كَانَ اقبَحَهمْ وأحسنَكُمْ بها ! لو لم يكُنْ بِبِطَرْنَةٍ ما كانا

ومن عمل بلنسية « مينطة » (١) التى نسب اليها جماعة من العلماء والأدباء . ومن عمل بلنسية مدينة « اندة » (٢) التى فى جبلها معدن الحديد . واما «رندة»(٣) بالراء فهى فى متوسط الاندلس ، ولها حصن يعرف باندة أيضاً . وفى اشبيلية ، اعادها الله ، من المتفرجات والمتنزهات كثير ، ومن ذلك مدينة « طريانة »(٤) فانها من مدن أشبيلية ومتنزهاتها ، وكذلك « تيطل » فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تيطل فى المتفرجات . وقال ابو عمران موسى بن سعيد فى جوابه لأبى يحيى صاحب سبتة ، لما استوزره مستنصر بنى عبد المؤمن ، وكتب الى المذكور يرغبه فى النقلة عن الاندلس

---

(١) Mogente وهى بلدة صغيرة قديمة واقعة فى بقعة طيبة . جاء فى دليل بديكر أنها من بناء العرب .

(٢) Onda قال ياقوت : بالضم فسكون ، مدينة من أعمال بلنسية بالأندلس ، كثيرة المياه والرساتيق والشجر ، وعلى الخصوص التين ، فانه يكثر بها . وقد نسب إليها كثير من أهل العلم اه وذكر ياقوت بعضهم وسنذكرهم ونذكر كل من انتسب إلى أندة ، وكانت أندة دار القضاعيين .

(٣) إن كانت رندة هى الشهيرة التى نعرفها فليست من متوسط الأندلس ، بل هى من الجبال الجنوبية فيها ، تارة كانت تعد من عمل قرطبة ، وطورا من عمل اشبيلية ، وأخيرا آلت إلى مملكة غرناطة . وهى التى منها أبو البقاء صالح بن شريف الرندى الشاعر الشهير صاحب مرثية الأندلس : لكل شىء إذا ماتم نقصان .

(٤) قال ياقوت : طريانة حاضر من حواضر اشبيلية ، ينسب إليها الفقيه عبد العزيز الطريانى ، كان نحوياً بارعاً ، قرأ على أبى ذر مصعب بن محمد بن مسعود ، قرأ عليه صديقنا الفتح بن عيسى القصرى مدرس رأس عين اه قلت : وهى تكتب بالأسبانيولية هكذا : Triana جاء فى دليل بديكر أنها مسكن الطبقة الدنيا من الشعب ، وإليها ينسب الفخار الطريانى المشهور ، وكان يصنع بها أحسن الزليج الاشبيلى وقد أحييت هذه الصناعة من جديد .

إلى مراكش ، ما نص محل الحاجة منه : وأما ما ذكر سيدى من التخيير بين ترك الاندلس ، و بين الوصول الى حضرة مراكش ، فكفى الفهم العالى من الاشارة قول القائل :

والعِزّ محمودٌ ومُلتَمَسٌ   وأَلَذُّهُ ما كان فى الوطن

فاذا نلت بك السماء فى تلك الحضرة ، فعلى من أسود فيها ؟ ومن ذا أضاهى بها ؟

لا رَقَت بي همةٌ إن لم أكن   فيك قد أمّلت كل الأمل

و بعدها فكيف أفارق الأندلس ، وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا ، بما حباها الله به من اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثافة الأفياء ، وأن الانسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس ؟

هى الأرضُ لا وِرْدٌ لدَيْها مُكدَّرٌ   ولا ظلٌّ مقصورٌ ولا رَوْضَ مُجْدِبُ

أفق صقيل ، و بساط مديج ، وماء سائح ، وطائر مترنم بليل ، وكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟ فياسموءل الوفاء ، و ياحاتم السماح ، و ياجذيمة الصفاء ، كَلّ لمن أملك النعمة ، بتركه فى موطنه ، غير مكدّر لخاطره بالتحرك من معدنه ، متلفتاً إلى قول القائل :

وسوّلت لى نفسى أن أفارقها   والماء فى المزْن أصفى منه فى الغُدُر

فان أغناه اهتمام مؤمله عن ارتياد المراد ، و بلغه دون أن يشدّ قتباً ولا أن ينضى عيساً غاية المراد ، أنشد ناجح المرغوب ، بالغ المطلوب :

وليس الذى يَسْتتبع الوَبْلَ رائداً   كمن جاءه فى داره رائدُ الوَبْل

ورب قائل إذا سمع هذا التبسط على الأمانى : ماله تشطّط ، وعدَلَ عن سبيل التأدب وتبسّط ؟ ! ولا جواب عندى إلاّ قول القائل :

فهذه خِطّةٌ ما زلتُ ارقُبها   فاليومَ أبسطُ آمالى وأحتَكِمُ

ومالى لا أنشد ما قاله المتنبى فى سيف الدولة :

ومَنْ كنتَ بحرًا له ياعلىّ   لم يقبل الدرّ إلاّ كبارا

انتهى المقصود منه .

وقال الحجاري : إن مدينة «شريش[١]» بنت اشبيلية ، و واديها ابن واديها ، ما أشبه سُعْدَى بسعيد ! ! وهى مدينة جليلة ، ضخمة الأسواق ، لأهلها همم وظرف فى اللباس وإظهار الرفاهية ، وتخلق بالآداب . ولا تكاد ترى بها إلاّ عاشقاً أو معشوقا . ولها من الفواكه ما يعم و يفضل ، ومما اختصت به احسان الصنعة فى المجبَّنات ، وطيب جبنها يعين على ذلك . و يقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبَّنات فهو محروم اه .

والمجبنات نوع من القطائف يضاف إليها الجبن فى عجينها وتقلى بالزيت الطيب . وفى شلب يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سيدمير

أشجَاكَ النسيمُ حينَ يَهُبُّ ؟ أمْ سَنَى البَرْق إذ يَخُبُّ ويخبو ؟
أمْ هَتوفٌ على الأراكَة تشدُو أمْ هَتونٌ من الغَمامة سكْبُ ؟
كُلٌّ هذاكَ للصَّبابة داعٍ أىُّ صَبٍّ دُموعُه لا تَصُبُّ ؟
أنا لولا النسيمُ والبَرْق والوُرْ قُ وصَوْبُ الغَمام ما كُنت أصْبو
ذكرتْنِيَ شلباً ، وهيهاتَ مِنِّي بَعْدَ ما استحكم التباعُدُ شِلْبُ !

---

(١) Xeres أو Jerez وقد كانوا يقولون لها Xeres de la Frontera ومعناه شريش الثغر ، لأنها بقيت مده طويلة فى أواخر مقام العرب بالأندلس هى الثغر بين المسلمين الذين كانوا فى مملكة غرناطة والاسبانيول الذين كانوا غلبوا على اشبيلية وهى اليوم ثالث بلدة فى اسبانية من جهة الثروة ، ومن أشهر مدن أوربة فى صنعة الخمر . وخمرها هو الذى يقال له « شرى » Sherry عند الانكليز والبلدة نظيفة خفيفة على الروح ، والبيوت فيها لاتزال على طراز البناء العربى . ذهبت إليها صباحا بسكة الحديد من اشبيلية ، ورجعت منها بعد الغداء إلى اشبيلية . وكان استرداد الأسبان لشريش سنة ١٢٥١ على يد الملك فرديناند الا أن العرب استرجعوها أول مرة . ثم عاد الاسبان فغلبوا عليها . ثم عاد العرب فأخذوها ثانى مرة بعد وقائع شداد . ثم عاد الأذفنش الملقب بالحكيم فاستولى عليها سنة ١٢٦٤ وبقيت فى أيدى الاسبانيول من ذلك الحين . وسيأتى ذكرها مفصلا متى وصلنا الى كورة اشبيلية

وتسمى أعمال شلب كورة « اشكونية » وهى متصلة بكورة أشبونة ، وهى ، أعنى أشكونية ، قاعدة جليلة ، لها مدن ومعاقل ، ودار ملكها قاعدة « شِلْب » (١) و بينها و بين قرطبة سبعة أيام . ولما صارت لبنى عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة أشبيلية . وتفتخر شلب بكون ذى الوزارتين ابن عمار منها ، سامحه الله . ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بدران ، وربما قيل ابن بدرون ، الأديب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون التى أولها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعد العَين بالأثَرِ ... فما البُكاءُ على الأشْباح والصُّوَر ؟!

(١) Silves قال ياقوت الحموى فى معجمه : شلب بكسر أوله وسكون ثانيه . وآخره باء موحدة ، هكذا سمعت جماعة من أهل الاندلس يتلفظون بها . وقد وجدت بخط بعض أدبائها : شلب بفتح الشين . وهى مدينة بغربى الاندلس ، بينها و بين باجه ثلاثة أيام ، وهى غربى قرطبة . وهى قاعدة ولاية اشكونية ، وبينها و بين قرطبة عشرة أيام للفارس المجد . بلغنى انه ليس بالاندلس بعد اشبيلية مثلها . وبينها وبين شنترين خمسة أيام . وسمعت ممن لا احصى انه قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعراً ، ولا يعانى الأدب ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأى معنى طلبت منه . وينسب اليها جماعة منهم محمد بن ابراهيم بن غالب بن عبد الغافر ابن سعيد العامرى من عامر بن لؤى الشلبى ، وأصله من باجه يكنى أبا بكر روى عن على بن الحجاج الاعلم كثيراً . وسمع من عبد الله بن منظور صحيح البخارى ، وكان واسع الأدب ، تولى الخطابة ببلده مدة طويلة ، ومات لخمس خلون من جمادى الاولى سنة ٥٣٢ ومولده سنة ٤٤٦ وامر أن يكتب على قبره :

لئن نفذ القدر السابق ... بموتى كما حكم الخالق

فقد مات والدنا آدم ... ومات محمد الصادق

ومات الملوك وأشياعهم ... ولم يبق من جمعهم ناطق

فقل للذى سره مصرعى ... تأهب فانك بى لاحق

انتهى . قلنا وينسب الى شلب من العلماء جم غفير سنأتى بتراجمهم عند الوصول الى ذكر هذه المدينة

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية . ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله

العشقُ لَذَّتُهُ التَّعْنيقُ والقُبَل كما مُنَغِّصُهُ التثريبُ والعَذَلُ

ياليتَ شِعْرى!هل يقضى وِصالـكُمُ لولا المُنى لم يكُنْ ذا العُمْرُ يتصلُ

وِمنها نحويُّ زَمَانهِ وعلاَّمتهُ ، أبو محمد عبد الله ابن السيد البطليوسى ، فان شلبا بَيْضتُهُ ، ومنها كانت حركته ونهضته ، كما فى الذخيرة . وهو القائل :

إذا سألونيَ عَن حالتى وحاولتُ عُذراً فلم يُمكنِ

أقول : بخير ، ولـكنَّهُ كَلَامٌ يَدور على الألسُنِ

وربّكَ يعلم ما فى الصُّدور ويعـلم خائنةَ الأعْيُنِ

وقال الوزير أبو عمرو بن الغلاس يمدح بطليوس بقوله :

بطليوسُ[1] لا أنساكِ ما اتصلَ البُعْدُ فلله غوْرٌ فى جَنابكِ أو نَجْدُ

ولله دَوْحاتٌ تَحُفّكِ يُنَّعاً تفجَّر واديها كما شقّقَ البَرْدُ

و بنو الغلاس من أعيان حضرة بطليوس ، وأبو عمرو المذكور أشهرهم ، وهو من رجال الذخيرة والمسهب ، رحمه الله تعالى . وفى شاطبة[2] يقول بعضهم :

نِعْمَ ملقَى الرَّحلِ شاطبة لِفَتَى طالتْ به الرِّحَل

بلدةٌ أوقاتُهـا سَحَرٌ وصَباً فى ذَيْله بَلَلُ

ونسيمٌ عَرْفُهُ أَرِجٌ ورياضٌ غُصْنُها ثَمِلُ

ووُجوهٌ كُلُّها غُرَرٌ وكلامٌ كلُّه مُثُلُ

وفى برجة يقول بعضهم :

إذا جئت برجةَ مستوفزاً فخُذ فى المقام وَخَلّ السَّفَرْ

فـكلُّ مكان بهـا جَنّةٌ وكلُّ طريق اليها سَقَرْ

(١) سيأتى ذكرها مفصلا عند ذكر مدائن الغرب من الاندلس

(٢) سيأتى ذكرها مفصلا عند ذكر مدائن الشرق من الاندلس

واعلم أنه لو لم يكن للأندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد ، لـكان كافياً ، و يرحم الله لسان الدين بن الخطيب ، حيث كتب على لسان سلطانه إلى بعض العلماء العاملين ما فيه إشارة إلى بعض ذلك ما نصه : من أمير المسلمين فلان إلى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا وصل الله له سعادة تجذبه ، وعناية اليه تقربه وقبولا منه يدعوه إلى خير ماعند الله و يندبه ، سلام كريم عليكم ورحمة الله و بركاته . أما بعد حمد الله المرشد المثيب ، السميع المجيب ، معوّد اللطف الخفى ، والصنع العجيب المتـكفل بإنجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب ، الذى به نرجو ظهور عبدة الله على عَبَدَة الصليب ، ونستظهر منه على العدو بالحبيب ، ونعدّه عدتنا لليوم العصيب . والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا بمشاهدته بأوفى النصيب ، ورموا إلى هدف مرضاته بالسهم المصيب ، فانا كتبناه اليكم ، كتب الله تعالى لكم عملا صالحاً يختم الجهاد صحائف بره ، وتتمحض لأن تـكون كلمة الله هى العليا جوامع أمره ، وجعلـكم ممن تهيى فى الأرض التى فتح فيها أبواب الجنة مدة عمره ، من حمراء غرناطة ، حرسها الله تعالى ، ولطف الله هامى السحاب ، وصنعه رائق الجناب ، والله يصل لنا ولكم ما عوّده من صلة لطفه ، عند انبتات الأسباب ، و إلى هذا أيها المولى الذى هو بركة المغرب المشار اليه بالبنان ، وواحده فى رفعة الشأن المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان ، المتقلل من المتاع الفان ، المستشرف إلى مقام العرفان ، من درج الإسلام والايمان والاحسان ، فإننا لما نؤثره من بركم الذى نعده من الأمر الأكيد ونضمره من ودكم الذى نحله محل الـكنز العتيد ، ونلتمسه من دعائكم التماس العدة والعديد ، لا نزال نسأل عن أحوالكم التى ترقت فى أطوار السعادة ، ووصلت جناب الحق بهجر العادة ، وألقت إلى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة ، فنسرّ بما هيأ الله تعالى لـكم من القبول و بلغكم من المأمول ، وألهمكم من الـكلف بالقرب اليه والوصول ، والفوز بما لديه والحصول ، وعند ما ردّ الله تعالى علينا الرد الجميل ، وأنالنا فضله

الجزيل ، وكان لعثارنا المقيل ، خاطبناكم بذلك لمكانكم من ودادنا ، ومحلكم من حسن اعتقادنا ، ووجّهنا إلى وجهة دعائكم وجه اعتدادنا ، والله ينفعنا بجميل الظن فى دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، و يجمع الشمل بكم فى الجهاد عن الدين ، وتعرفنا الآن بمن له بانبائكم اعتناء ، وعلى جلالكم حمد وثناء ، ولجناب ودكم اعتزاء وانتماء ، بتجاول عزمكم بين حج مبرور ترغبون من أجره فى ازدياد ، وتجدون المهد منه بأليف اعتياد و بين رباط فى سبيل الله وجهاد ، وتَوْثير مهاد ، بين ربا أثيرة عندالله ووهاد ، يحشر يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، والله أصدق القائلين الصادقين ، حيث لاغارة لغير عدو الاسلام تُتَّقَى ، الا لابتغاء مالدى الله يرتقى ، حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها ، وحور الجنان قد زينت أترابها ، دار العرب الذين قرعوا باب الفتح ، وفازوا بجزيل المنح ، وخلدوا الآثار ، وأرغموا الكفار ، وأقالوا العثار ، وأخذوا الثار ، وأمنوا من لفح جهنم ، بما علا على وجوههم من ذلك الغبار ، فكتبنا اليكم هذا نقوّى بصيرتكم ، على جهة الجهاد من العزْمَين ، ونهب بكم إلى إحدى الحسنيين ، والصبح غير خاف على ذى عينين والفضل ظاهر لاحدى المنزلتين ، فانكم إن حججتم أعدتم فرضاً أديتموه ، وفضلا ارتديتموه ، فائدته عليكم مقصورة ، وقضيته فيكم محصورة . و إذا أقمتم الجهاد ، جلبتم إلى حسناتكم عملا غريباً ، واستأنفتم سعياً من الله قريباً ، وتعدت المنفعة إلى ألوف من النفوس ، المستشعرة لبأس البوس ، ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضله لأطنبنا ، وأعنة الاستدلال أرسلنا . هذا لو قدمتم على هذا الوطن ، وفضلكم غُفل من الاشتهار ، ومن به لا يوجب لكم ترفيع المقدار ، فكيف وفضلكم أشهر من مُحيّا النهار ، ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الأوطار ؟ ! فان قوى عزمكم ، والله يقويه ، و يعيننا من بركم على ما ننويه ، فالبلاد بلادكم ، وما فيها طريفكم وتلادكم وكهولها إخوانكم ، وأحداثها أولادكم ، ونرجو أن تجدوا لذكركم الله فى رباها حلاوة

زائدة ، ولا تعدموا من روح الله فائدة ، وتتكيف نفسكم فيها بكيفيات تقصر عنها خلوات السلوك إلى ملك الملوك ، حتى تغتبطوا بفضل الله الذى يوليكم ، وتروا أثر رحمته فيكم ، وتخلفوا لخر هذا الانقطاع إلى الله فى قبيلكم وبنيكم ، وتختموا العمل الطيب بالجهاد الذى يمليكم ، ومن الله تعالى يدنيكم ، فنبيكم العربى ، صلوات الله عليه وسلامه ، نبيّ الرحمة والملاحم ، ومُعمِل الصوارم ، و بجهاد الفرنج ختم عمل جهاده ، والأعمال بالخواتم ، هذا على بعد بلادهم من بلاده ، وأنتم أحق الناس باقتفاء جهاده ، والاستباق إلى آماده .

هذا ما عندنا حثثنا كم عليه ، ونَدَبْنَا كم اليه ، وأنتم فى إيثار هذا الجوار ، ومقارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا من الاستبشار ، بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار ، وتصريف الليل والنهار ، وتقليب القلوب و إجالة الأفكار ، و إذ تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار ، والدار الآخرة دار القرار ، وخير الأعمال عمل أوصل إلى الجنة و باعد من النار ، ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطلاع ، بهذه الأرجاء والاصقاع ، قد اتفقت أخبارها ، واتحدت أسرارها ، على البشارة بفتح قرُب أوانهُ ، وأظلّ زمانه ، فنرجو الله أن تكونوا ممن يحضر مدّعاه ، و يكرم فيه مسعاه ، و يسلف فيه العمل الذى يشكره الله و يرعاه ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله و بركاته . انتهى

ولما دخل الأندلس أمير المسلمين علىّ ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى ، ملك المغرب والأندلس ، وامعن النظر فيها ، وتأمّل وصفها وحالها ، قال : إنها تشبه عُقاباً مخالبهُ طليطلة ، وصدره قلعة رباح ، ورأسه جيّان ، ومنقاره غرناطة وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق . . . في خبر طويل لم يحضرنى الآن ، إذ تركته مع كتبى بالمغرب ، جمعنى الله بها على أحسن الأحوال .

ومع كون أهل الأندلس سُبّاق حَلْبة الجهاد ، مهطعين إلى داعيه من الجبال

والوهاد ، فكان لهم فى الترف والنعيم والمجون ، ومداراة الشعراء ، خوف الهجاء ، محل وثير المهاد . وسيأتى فى الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره ما يشفى ويكفى ، ولكن سنح لى أن أذكر هنا حكاية أبى بكر المخزومىّ الهجّاء المشهور ، الذى قال فيه لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة : إنه كان أعمى شديد الشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلّطا على الأعراض ، سريع الجواب ، ذكى الذهن ، فطنا للمعاريض سابقاً فى ميدان الهجاء ، فاذا مدح ضعف شعره .

والحكاية هى ما حكاه أبو الحسن بن سعيد فى الطالع السعيد إذ قال ، حكاية عن أبيه فيما أظن : قدم المذكور ، يعنى المخزومى ، على غرناطة أيام ولاية أبى بكر ابن سعيد ، ونزل قريباً منى ، وكنت أسمع به : نار صاعقة يرسلها الله على من يشاء من عباده ، ثم رأيت أن أبدأه بالتأنيس والاحسان ، فاستدعيته بهذه الأبيات :

يا ثانياً للمعرّى ... فى حُسنِ نظمٍ ونثْرِ
وفَرْط ظَرْف ونُبْلٍ ... وغَوْصِ فهْمٍ وفِكْرِ
صِلْ ثم واصل حفيًّا ... بكل برٍّ وشُكر
وليسَ إلاَّ حديثٌ ... كما زَهَا عِقْدُ دُرّ
وشادِنٍ يتغنى ... على ربابٍ وزمر
وما يسامحُ فيه الغفورُ مِنْ كأس خَمْرِ
وبيننا عَهْدُ حِلْف ... ليامير حِلْف كفر
نعم نجدّده عهدا ... بطيب سكر ويسر
والكأس مثلُ رَضاع ... ومَنْ كذلك يَدْرى ؟

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبدا صغيرا قاده . فلما استقرّ به المجلس ، وأفعمته روائح الندّ والعود والأزهار ، وهزت عطفه الأوتار ، قال :

دارُ السَّعيدىّ ذى ؟ أم دار رضوان ؟ ... ما تَشْتهى النفسُ فيها حاضرٌ دان !

سقَتْ أباريقها للندّ سُحب ندًى تحدى برَعْدٍ لأوتار وعِيدانِ
والبَرْقُ من كل دَنّ ساكب مطَرًا يُحْيي به مَيْتَ أفكارٍ وأشجانِ
هذا النعيمُ الذى كُنَّا نحدّثُهُ ولا سبيل له إلاّ بآذانِ

فقال أبو بكر بن سعيد : و إلى الآن لاسبيل له إلا بآذان ؟ فقال : حتى يبعث الله ولد زنا كلما أنشدت هذه الأبيات قال إنها لأعمى . فقال : أما أنا فلا أنطق بحرف . فقال : من صمت نجا .

وكانت نُزهون بنت القلاعى حاضرة فقالت : وتراك يا أستاذ ، قديم النعمة بمجرد ندّ وغناء وشراب ، فتعجّب من تأتّيه ، وتشبهه بنعيم الجنة ، و يقول ما كان يعلم إلا بالسماع ، ولا يبلغ إليه بالعيان ! ولكن من يجىء من حصن المدور ، و ينشأ بين تيوس و بقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم ؟ ! فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى ، فقالت له : ذبحة ! فقال : من هذه الفاضلة ؟ فقالت عجوز مقام أمك ! فقال : كذبت ! ماهذا صوت عجوز . . . الخ . ثم قال :

على وجه نُزهونَ من الحسن مَسْحةٌ و إن كان قد أمسى من الضوء عارياً
قواصدُ نُزهونٍ توارك غيرِها ومن قصَدَ البحرَ استقلّ السواقيا

(وطوينا هنا بعض محاضرات لاصلة لها بموضوعنا من جغرافية البلاد إلى أن يقول) :

والذى رأيته لبعض مؤرخى المغرب فى سرقسطة أنها لاتدخلها عقرب ولا حية إلا ماتت من ساعتها ، و يؤتى بالحيات والعقارب إليها حية ، فبنفس ماتدخل إلى جوف البلد تموت . قال ولا يتسوّس فيها شىء من الطعام ، ولا يعفّن ، و يوجد فيها القمح من مائة سنة ، والعنب المعلق من ستة أعوام ، والتين والخوخ وحب الملوك[1] والتفاح والاجّاص اليابسة من أربعة أعوام ، والفول والحمص من عشرين سنة ،

---

(١) هذا الذى يقال له الكرز فى الشرق و بالافرنسية Cerise

ولا يسوّس فيها خشب ولا ثوب ، كان صوفاً أو حريراً أو كتّانا . وليس فى بلاد الأندلس أكثر فاكهة منها ، ولا أطيب طعما ، ولا أكبر جرما . والبساتين محدقة بها من كل ناحية ثمانية أميال ، ولها أعمال كثيرة ، مدن وحصون وقرى ، مسافة أربعين ميلا ، وهى تضاهى مدن العراق فى كثرة الأشجار والأنهار ، وبالجملة فأمرها عظيم . وقد أسلفنا ذكرها .

واعلم أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا مالا يوجد مجموعه غالباً فى غيرها . فمن ذلك ما ذكره الحجارى فى المسهب أن السمّور الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة ، يوجد فى البحر المحيط بالأندلس من جهة جزيرة برطانية ، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها . ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذى يصنع بقرطبة قال : هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ماهو ، ولا ماعنى به ، إن كان هو نباتا عندهم ، أو وبر الدابة المعروفة ، فان كانت الدابة المعروفة فهى دابة تكون فى البحر وتخرج إلى البر ، وعندها قوة ميز . وقال حامد بن سمحون الطبيب ، صاحب كتاب الأدوية المفردة : هو حيوان يكون فى بحر الروم ، ولا يحتاج منه إلا خصاه ، فيخرج الحيوان من البحر فى البر ، فيؤخذ وتقطع خصاه ويطلق ، فربما عرض للقناصين مرة أخرى ، فاذا أحس بهم وخشى أن لا يفوتهم ، استلقى على ظهره وفرّج بين فخذيه ، ليرى موضع خصييه خاليا ، فاذا رآه القناصون كذلك تركوه . قال ابن غالب ويسمّى هذا الحيوان أيضاً « الجند بادستر » والدواء الذى يصنع من خصييه من الأدوية الرفيعة ، ومنافعه كثيرة ، وخاصيته فى العلل الباردة ، وهو حارّ يابس فى الدرجة الرابعة

« والقنلية » ؟ حيوان أدق من الأرنب ، وأطيب فى الطعم ، وأحسن وبرا ، وكثيراً ما يلبس فراؤها ، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى ، ولايوجد فى بر البربر ، إلا ماجلب منها إلى سبتة ، فنشأ فى جوانبها . قال ابن سعيد : وقد جلبت فى هذه المدة إلى تونس حضرة أفريقية .

ويكون بالأندلس من الغزال والأيل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد فى غيرها كثيرا . وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة ، ولا الفيل ، ولا الزرافة وغير ذلك ، مما يكون فى أقاليم الحرارة . ولها سبع يعرف « باللب »(١) أكبر بقليل من الذئب ، فى نهاية من القحة ، وقد يفترس الرجل ، إذا كان جائعاً . وبغال الأندلس فارهة ، وخيلها ضخمة الأجسام ، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعَدْوُ فى خيل البرّ الجنوبىّ . ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول ، وكذلك حيوان البحر . ودوابّ بحرها المحيط فى نهاية من الطول والعرض قال ابن سعيد : عاينت من ذلك العجب ، والمسافرون فى البحر يخافون منها ، لئلا تقلب المراكب ، فيقطعون الكلام ، ولها نفخ بالماء من فيها يقوم فى الجوّ ، ذا ارتفاع مفرط .

وقال ابن سعيد : قال المسعودى فى مروج الذهب : فى الأندلس من أنواع الأفاوية خمسة وعشرون صنفا : منها السنبل ، والقرنفل ، والصندل والقرفة ، وقصب الذريرة ، وغير ذلك . وذكر ابن غالب أن المسعودى قال : أصول الطيب خمسة أصناف : المسك ، والكافور ، والعود ، والعنبر ، والزعفران . وكلها من أرض الهند إلا الزعفران والعنبر ، فانهما موجودان فى أرض الأندلس ، ويوجد العنبر فى أرض الشِّحر : قال ابن سعيد : وقد تكلموا فى أصل العنبر : فذكر بعضهم أنه عيون تنبع فى قعر البحر ، يصير منها ماتبلعه الدواب وتقذفه . قال الحجارى : ومنهم من قال إنه نبات فى قعر البحر ، وقد تقدم قول الرازى : إن المحلب ، وهو المقدم فى الأفاوية ، والمفضل فى أنواع الأشنان ، لايوجد فى شىء من الأرض إلا بالهند والأندلس . قال ابن سعيد : وفى الأندلس مواضع ذكروا أن النار إذا أطلقت فيها فاحت روائح العود ، وما أشبهه . وفى جبل شلير أفاوية هندية . قال : وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ، ويوجد فى سواحلها قصب السكر ،

(١) Loup

والموز ، و يوجدان فى الاقاليم الباردة ، ولايعدم منها إلا التمر . ولها من أنواع الفواكه ما يعدم فى غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين السفرىّ باشبيلية . قال ابن سعيد : وهذان صنفان لم تر عينى ، ولم أذق لهما ، منذ خرجت من الاندلس ، ما يفضاهما . وكذلك التين المالقى والزبيب المنكّبى [١] والزبيب العسلى والرمان السفرى [٢] والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره .

وقد ذكر ابن سعيد أيضاً : أن الارض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة ،

---

(١) قال لسان الدين بن الخطيب فى « معيار الاختبار » عن المنكب : مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومخطبها بلدة معقلها منيع وبردها صقيع ، القصر مفتح الطيقان ، والمسجد المشرف المكان ، والاثر المنبىء عن كان وكان ، كأنه مبرد واقف ، أو عمود فى يد مثاقف ، قد أخذ من الدهر الأمان ، وتشبه بصرح هامان ، وأرهقت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكاد أن يصل ما بين الحوت والحوت ، (يريد باحد الحوتين برج الحوت الذى بالسماء وبالثانى سمك البحر ، كناية عن الارتفاع ، أو كما يقولون : من السماك إلى السمك) غصت بقصب السكر أرضها واستوعب به طولها وعرضها ، زبيبها فائق ، وجنابها رائق ، وقد مت إليها جبل الشوار بنسب الجوار منشأ الاسطول ، فوعده غير ممطول ، وأمده لا يحتاج إلى الطول (إلى أن يقول) هواؤها فاسد ، ووباؤها مستاسد ، التهبت فيها السماء وتغيرت بالسمائم المسميات والاسماء فأهلها من أجداث بيوتهم يخرجون ، إلى جبالها يعرجون ، والودك إليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، والحرباء بعراتها مصلوب

(٢) قالوا انه لما اتسق الأمر لعبد الرحمن الداخل فى الأندلس أرسل القاضى معاوية بن صالح إلى الشام ليأتيه باخته أم الاصبغ فأبت عن الانتقال وقالت : كبرت سنى وأشرفت على انقضاء أجلى ولا طاقة بى على شق القفار والبحار وحسبي أن أعلم ماصار إليه من نعمة الله . ولما صار معاوية بن صالح إلى عبد الرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام وكان فى تلك التحف من الرمان المعروف اليوم بالأندلس بالرمان السفرى فجعل جلساء الأمير من أهل الشام يذكرون الشام ويتأسفون عليها وكان فيهم رجل يسمى سفر فأخذ من ذلك الرمان شيئا لطف به وغرسه حتى علق وتم وأثمر ، فهو اليوم الرمان السفرى . نسب إليه

وأنها فى الاندلس التى هى بعض تلك الأرض . وأعظم معدن للذهب بالاندلس ، فى جهة « شنت ياقور »[١] قاعدة الجلالقة على البحر المحيط . وفى جهة قرطبة الفضة والزئبق والنحاس فى شمال الاندلس كثير ، والصُّفْر الذى يكاد يشبه الذهب ، وغير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها ، والمين التى يخرج منها الزاج فى لبلة مشهورة ، وهو كثير مفضل فى البلاد ، منسوب لجبل طليطلة جمل الطفل[٢] الذى يجهز إلى البلاد ، و يفضل على كل طفل بالمشرق والمغرب .

و بالأندلس عدة مقاطع للرخام . وذكر الرازى : أن بجبل قرطبة مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى وفى « ناشرة » مقطع عجيب للعمد و « بباغة » من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة ، موشاة فى حمرة وصفرة وغير ذلك من المقاطع التى بالأندلس من الرخام الحالك والمجزّع . وحصى المرية يحمل إلى البلاد فانه كالدر فى رونقه ، وله ألوان عجيبة . ومن عادتهم أن يضعوه فى كيزان الماء وفى الأندلس من الأمنان التى تنزل من السماء القرمز الذى ينزل على شجرة البلوط فيجمعه الناس من الشعراء و يصبغون به فيخرج منه اللون الأحمر ، الذى لا تفوقه حمرة .

قال ابن سعيد : والى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل ، وللمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير . فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشّى المذهب الذى يتعجب من صنعته أهل المشرق اذا رأوا منه شيئاً وفى « نيشتالة »[٣] من عمل مرسية تعمل البسط التى يغالى فى ثمنها بالمشرق ، و يصنع فى غرناطة و بسطة من ثياب اللباس المحرّرة ، الصنف الذي يعرف بالملبد المختّم ، ذو الالوان العجيبة . و يصنع فى مرسية من الأسرّة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة ، وآلات الصفر والحديد من

(١) Santiago وهى شنت ياقب أقدس مكان عند نصارى الاندلس
(٢) الفصيح هو الطفال بالضم و بالكسر وهو الطين اليابس
(٣) Jenechtéla

السكاكين ، والمقاصّ المذهبة ، وغير ذلك من آلات العروس والجنديّ ما يبهر العقل ، ومنها تجهز هذه الاصناف الى بلاد افريقية وغيرها ، و يصنع بها و بالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب ، وفخّار مزجج مذهب ، ويصنع بالاندلس نوع من المفضض المعروف بالمشرق بالفسيفساء ، ونوع يبسط به فى قاعات ديارهم ، يعرف بالزليجي ، يشبه المفضّض . وهو ذو ألوان عجيبة ، يقيمونه مقام الرخام الملون ، الذى يصرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم ، كالشاذروان وما يجرى مجراه .

وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر ، فأكثر همم أهل الاندلس ، فيما حكى ابن سعيد ، كانت مصروفة الى هذا الشان ، و يصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول . قال : والسيوف البردليات مشهورة بالجودة ، و برديل [1] آخر بلاد الاندلس من جهة الشمال والمشرق . والفولاذ الذى بأشبيلية اليه النهاية . وفى اشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره . وقد أفرد ابن غالب فى « فرحة الانس » للاثار الاولية التى بالاندلس من كتابه مكانا فقال : منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح الى الأرحى [2] التى « بطركونة » على وزن لطيف ، وتدبير محكم ، حتى طحنت به ، وذلك من أعجب ماصنع . ومن ذلك ما صنعه الاولون أيضا من جاب الماء من البحر المحيط الى جزيرة قادس ، من العين

---

(١) برديل هى التى يقال لها اليوم بوردو Bordeaux التابعة لفرنسة كان اسمها الأصلى ايام الرومان بورديغاله Burdigala وكان لها شأن عظيم فى أيام الرومانيين وصارت الحاضرة العلمية لبلاد الغال . ثم عند ما زحف البرابرة من الشمال مثل الأليئيين Alains والسويفيين Suèves والفندال أخذ عمرانها يرجع الى الوراء وسنة ٤١٣ للمسيح استولى عليها القوط ثم أخذها منهم الفرنج لعهد كلوفيس وسنة ٧٢٩ شن العرب عليها الغارة وذهب دوق اكيتانية التى كانت برديل تابعة له مستصرخاً شارل مارتل الى ان جرت واقعة بلاط الشهداء التى محص فيها العرب وانقطع املهم من التوغل فى أوربة

(٢) تجمع الرحى على أرح ورُحِيّ وارحاء ونادراً على ارحية

التي في اقليم الاصنام ، جلبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوّف ، ذكراً فى انثى ، وشقّوا به الجبال ، فاذا وصلوا به الى المواضع المنخفضة بنوا له قناطر على حنايا ، فاذا جاوزها واتصل بالارض المعتدلة رجعوا الى البنيان المذكور ، فاذا صادف مسبخة بنى له رصيف وأجرى عليه هكذا الى أن انتهى به الى البحر ، ثم دخل به فى البحر وأخرج فى جزيرة قادس ، والبنيان الذى دخل عليه الماء فى البحر ظاهر بيّن . قال ابن سعيد : الى وقتنا هذا .

ومنها الرصيف المشهور بالاندلس ، قال فى بعض أخبار رومية : انه لما ولى يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتذريع الارض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية ، الى المشرق منها والى المغرب ، والى الشمال والى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبطلة ، وأقبل بها على وسط دائرة ، الى أن بلغ بها أرض الاندلس ، وركزها شرقى قرطبة ، ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبليّ قرطبة ، الى شقندة ، الى استجة ، الى قرمونة ، الى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه ، من مدينة رومية ، وذكر انه أراد تسقيفها فى بعض الاماكن ، راحة للخاطرين [١] من وهج الصيف ، وهول الشتاء ، ثم توقع أن يكون ذلك فساداً فى الارض ، وتغييرا للطرق ، عند انتشار اللصوص ، وأهل الشر فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هى عليه .

وذكر فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير إلا الصنم الذى بطرف جليقية . وذكر قنطره طليطلة ، وقنطرة السيف ، وقنطرة ماردة ، وملعب مربيطر [٢] .

(١) لم يرد فى فصيح اللغة « الخاطر » بمعنى المسافر وانما هو من استعمال العوام وقد تابعهم فيه بعض المؤلفين

(٢) كان يقال لبلدة مربيطر فى الماضى سافنتو Saginto وهى مدينة ايبرية استولى عليها القرطاجنيون فى زمن انيبال الذى جاء بعد سدروبال ونازعهم عليها الرومانيون فجرت وقائع هائلة فاستولى القرطاجنيون على ساقنتو فى أول الأمر الا أنها سنة ٢١٤ قبل المسيح آلت الى الرومانيين . والملعب العظيم الذى فيها هو من آثار هؤلاء .

قال ابن سعيد : وفي الاندلس عجائب . منها الشجرة التى لولا كثرة ذكر العامة لها بالاندلس ما ذكرتها ، فان خبرها عندهم شائع متواتر ، وقد رأيت من يشهد بخبرها ورؤيتها ، وهم جمّ غفير ، وهي شجرة زيتون ، تصنع الورق والنّوْر والثمر من يوم واحد معلوم عندهم ، من أيام السنة الشمسية (١) .

ومن العجائب : السارية التى بغرب الاندلس ، يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان إذا أحبوا المطر أقاموها ، فطر الله جهتهم ؟ ومنها صنم فادس ، طول ما كان قائما ، كان يمنع الريح أن تهب فى البحر المحيط ، فلا تستطيع المراكب الكبار على الجرى فيه ، فلما هدم فى أول دولة بنى عبد المؤمن ، صارت السفن تجرى فيه ؟ وبكورة « قبرة » مغارة ذكرها الرازى ، وحكي أنه يقال إنها باب من أبواب الريح ، لا يدرك لها قعر ؟ وذكر الرازى أن فى جهة قلمة « ورد » جبلا فيه شق فى صخرة ، داخل كهف ، فيه فأس حديد متعلق من الشق الذى فى الصخرة ، تراه العيون وتلمسه اليد ، ومن رام اخراجه لم يطق ذلك ، وإذا رفعته اليد ارتفع وغاب فى شق الصخرة ، ثم يعود إلى حالته (٢) . وأما ما أورده ابن بشكوال من الأحاديث والآثار فى شأن فضل الأندلس والمغرب ، فقد ذكرها ابن سعيد فى كتابه المغرب ، ولم أذكرها أنا . والله أعلم بحقيقة أمرها .

وكذلك ما ذكره ابن بشكوال من أن فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبَل الأندلس قال : وذكره سيف عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، والله أعلم بصحة ذلك . ولعل المراد بالقسطنطينية رومية والله أعلم . قال سيف : وذلك أن عثمان ندب جيشا من القيروان إلى لأندلس ، وكتب لهم : أما بعد ، فان فتح القسطنطينية إنما يكون من قِبَل الأندلس ، فانكم إن فتحتموها ، كنتم الشركاء فى الأجر والسلام اه . قلت عهدة هذه الأمور على ناقلها ، وأنا برىء من

(١) لم نسمع بذكر شجرة كهذه فى عصرنا الحاضر
(٢) وهذا الفأس أيضاً لم نسمع بخبره فى هذا الزمن

عهدتها [1] ، وإن ذكرها ابن بشكوال وصاحب المغرب وغير واحد ، فانها عندى

(١) قلت : ان هذا الخبر أقرب جدا إلى العقل من خبر الزيتونة التى تورق وتثمر فى يوم واحد ، وكذلك من خبر الفأس الذى لايقدر أحد أن يرفعه من المغارة . . . بل الخبر المروى عن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه عدا قربه للعقل له آثار ترجع إليه . وفى آخر كتابى « غزوات العرب فى أوربة » الذى طبع سنة ١٣٥٢ فصل بقلم الأستاذ السيد عبد العزيز الثعالبي التونسي يتعلق بهذا الموضوع قال فى أوله ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية فى أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه فانه حين ندب أخاه من الرضاع عبد الله بن سعد بن أبى سرح لفتح بلاد شمالى افريقية ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير والى جيطلة من قبل البيزنطيين ندب القائدين البحريين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله ابن نافع بن الحصين الفهريين وكانا على الأسطول فأمرهما بالمسير إلى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية فى ذلك تلك الوصية الخالدة التى يقول فيها : إن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس وإنكم إن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر . وقد اتخذ ولاة شمالى افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التى يسيرون عليها . وأول أمير شرع فى إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصة الامير حسان بن النعمان شيخ وزراء الدولة الأموية بعد أن دان له شمالى افريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة وجلب لها الصناع من قبط مصر وسار على منهاجه فى ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب فحاز بجيوشه أرض العدوة وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاهما فى ذلك اسماعيل بن أبى المهاجر الذى تقلد إمارة شمالى افريقية فى عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبى أوربة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ولم يعد الا بعد أن أثخن فى ايطالية . وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة . وفى ولاية عبيد الله بن الحبحاب لافريقية جهز أسطولا كبيراً جعل إمارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل . ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربى بسبب تخميس أعشارهم لتلك شطوط إيطالية وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان بن النعمان فى شمالى أفريقية . وفى سنة ٢٠٧

لا أصل لها ، وأى وقت بعث عثمان إلى الأندلس ؟ مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد ! و إنما ذكرت هذا للتنبيه عليه لا غير . والله أعلم

قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس ؛ أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ،

بعد استقرار الدولة الأغلبية جهز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التميمى لمنازلة سردينية ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ وكانت إمارة الجيوش فى هذه المرة لقاضى القضاة الامام أسد بن الفرات فملك «مازرة» وحاصر «سركوسة» وحول أسوارها وأدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب اسطول الأندلس القائد أصبغ المعروف بفرغلوسن . وبعد أن استقرت الأمور فى البلاد المفتوحة قلد زيادة الله إمارة إيطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبدالله بن الأغلب وما زال متواليا للجهاد حتى فتح بليرم ونابولى . إه ومن شاء الاطلاع على تتمة البحث فليراجعه فى كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » ، ولقد قابلت روايات الشيخ الثعالبى بالكتب المعتمدة فى التاريخ فلم أجد إلا ما يؤيدها قال أبو الفداء : فى أيام عثمان فتحت أفريقية وكان المتولى لذلك عبد الله بن سعد بن أبى سرح ولما فتحت أفريقية أمر عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين أن يسير إلى جهة الأندلس فغزا تلك الجهة وعاد عبد الله بن نافع إلى افريقية ، وسنة ثمان وعشرين استأذن معاوية عثمان فى غزو البحر فسير معاوية إلى قبرص جيشا وسار إليها أيضا عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها وقاتلوا أهلها ثم صولحوا على جزية سبعة آلاف دينار فى كل سنة . وجاء فى تاريخ « البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى المراكشى خبر غزو معاوية ابن حديج لجزيرة صقلية فى مائتى مركب . ولم أجد شيئا فيه نظر من كلام الاستاذ الثعالبى إلا إهماله ذكر موسى بن نصير فى فتح الأندلس ، وجعله طارق بن زياد مولى لحسان بن النعمان ، والحال أن طارق كان مولى موسى بن نصير وهو الذى أغزاه الأندلس وأما قول المقرى فى النفح : وأى وقت بعث عثمان إلى الأندلس مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمان الوليد . فليس بشىء لأن عثمان بن عفان رضى الله عنه أمرهم بأن يغزوا الأندلس وكانوا فى ذلك الوقت يحسبون جزائر غربى البحر المتوسط كلها من الأندلس فغزوها وأرادوا أن يعملوا بفكرة عثمان بغزو نفس الاندلس الكبيرة عند أول فرصة تلوح لهم فبقيت هذه الفكرة تتخمر فى رؤوس عمال الخلافة على أفريقية إلى زمن موسى بن نصير عامل الوليد الاموى فخرجت من القوة إلى الفعل

فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لاتكاد تنقطع من العمارة ، مابين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة [١] . ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال ، لتصنع أهلها فى أصناعها وتبييضها ، لئلا تنبو العيون عنها ، فهى كما قال الوزير بن الحجارة فيها :

لاحَتْ قُراها بَيْنَ خُضْرَةِ أَيْكِهَا كالدُّرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكْنونِ

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، و يضيق الصدر بضيق أوضاعها . وفى الاندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها . والمثال فى ذلك أنك إذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم و بعض آخر ، مدينة شريش ، وهى فى نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ، ثم مالقة . وهذا كثير فى الاندلس . ولهذا كثرت مدنها ، وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدوّ ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين وفى حصونها ما يبقى فى محاربة العدو ماينيف على عشرين سنة ، لامتناع معاقلها ، ودربة أهلها على الحرب ، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب ، وكثرة ما تختزن الغلة فى مطاميرها ، فمنها ما يطول صبره عليها نحوا من مائة سنة .

قال ابن سعيد : ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن ، وان كان العدو قد نقصها من أطرافها ، وشارك فى أوساطها ، ففى البقية منعة عظيمة ، فأرض بقى فيها مثل اشبيلية ، وغرناطة ، ومالقة ، والمرّية ، وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة الممصرة ، الرجاء قوى فيها بحول الله وقوته . انتهى . قلت قد خاب ذلك الرجاء [٢] ، وصارت تلك الارجاء للكفر مَعْرَجا ، ونسأل الله تعالى ، الذى جعل

(١) يريد بقوله إن الصحارى فيها معدومة . الأندلس القديمة ، أى الولايات الجنوبية من أسبانية . فاما شمال أسبانية ففيه صحراء شاسعة واسعة جاء فى دليل بديكر أن هذا البسيط المتوسط كان من جملة الصحارى لو لم يكن العرب أنشأوا له نظام رى جرّوا به المياه إليه لاحيائه ولا تزال بقايا آثارهم فى ذلك مدهشة للناظرين

(٢) نعم خاب ذلك الرجاء كما قال المقرى وبعد ان كان فى الاندلس خمسة عشر

للهم فرجا ، وللضيق مخرجا ، أن يعيد اليها كلمة الاسلام ، حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا . آمين !

(ومن غرائب الاندلس) البيلتان [١] اللتان بطليطلة ، صنعهما عبد الرحمن ، لما سمع بخبر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض الهند . وقد ذكره المسعودى ، وانه يدور بأصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس . فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة ، فى بيت مجوف ، فى جوف النهر الاعظم ، فى الموضع المعروف بباب الدباغين ومن عجبهما انهما يمتلئان و ينحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك ان أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء ، فاذا أصبح ، كان فيهما سبعهما من الماء ، فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل فى الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم والليلة ، حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر ، فاذا كان فى ليلة خمسة عشر ، وأخذ القمر فى النقصان ، نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع . فاذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء . واذا تكلف أحد حين ينقصان أن يملأهما ، وجلب لهما الماء ، ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلا ما كان فيهما فى تلك الساعة . وكذا لو تكلف عند امتلائهما افراغهما ، ولم يبق منهما شيئا ، ثم رفع يده عنهما ، خرج فيهما من الماء ما يملأهما فى الحين . وهما أعجب من طلسم الهند ، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال ، حيث لايزيد الليل على

مليون مسلم لم يبق منهم فيها الا خمسة عشر مغربياً فى جبل طارق يتعاطون البيع والشراء وبعد ان كان فيها خمسة عشر الف مسجد احدها مسجد قرطبة الذى يسع ثمانين الف مصل لم يبق فيها الا مسجد يسع ثلاثين مصلياً داخل دار بجبل طارق تخص حكومة المغرب صليت فيه يوم زرت الجبل المذكور (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

(١) البيلة هى صهريج منحوت من رخام او حجر وكثيراً ما يذكر فى تواريخ المغرب ان فلانا صنع فى المسجد أو القصر بيلة أو بيلتين . وفى فاس بالمدرسة العنانية بدار الوضوء بيلة جلبها ابو عنان المرينى

النهار . وأما هاتان فليستا فى مكان الاعتدال ، ولم تزالا فى بيت واحد ، حتى ملك النصارى ، دمرهم الله ! طليطلة ، فأراد الفنش [١] أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتى اليهما الماء ، وكيف الحركة فيهما ، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ .

وقيل ان سبب فسادهما حنين اليهودى الذى جلب حمام الاندلس كلها الى طليطلة فى يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ ، وهو الذى أعلم الفنش ان ولده سيدخل قرطبة و يملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيلتين ، فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا ، وذلك انى اجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران فى الليل . فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل انه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تزل الاخرى تعطي حركتها . والله أعلم بحقيقة الحال .

وقال بعضهم فى أشبيلية : إنها قاعدة بلاد الاندلس ، وحاضرتها ، ومدينة الادب واللهو والطرب ، وعلى ضفة النهر الكبير ، عظيمة الشان ، طيبة المكان ، لها البر المديد والبحر الساكن ، والوادى العظيم ، وهى قريبة من البحر المحيط ، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشرف الا موضع الشرف المقابل لها ، المطل عليها ، المشهور بالزيتون الكثير ، الممتد فراسخ فى فراسخ ، لكفى ، و بها منارة [٢] فى جامعها ، بناها يعقوب

(١) Alphonse وقد يقول له العرب الاذفنش

(٢) يقال لهذه المنارة عند الاسبانيول الخيرالده La Giralda وهى أعجوبة أشبيلية جاء فى دليل بديكر أن هذه المنارة كانت منارة الجامع الأعظم بناها المهندس العربى جابر ليعقوب بن يوسف سلطان الموحدين بين سنة ١١٨٤ للمسيح وسنة ١١٩٦ وقد وضع فيها بقايا أبنية قديمة لوجود كتابات رومانية لا تزال فى حيطانها وهى مبنية من الطوب كلما ازداد ارتفاعها تزداد ضيقا وهى فى الغاية والنهاية من تناسب الخطوط وقاعدتها مربع يبلغ ١٣ متراً و ٥٥ من جهة إلى جهة وسمك الحائط من مترين وثمانية إلى مترين وثلاثين ومن جهتها الشمالية يوجد تجويفان فيهما تصاوير ممحوة من رسم لويس بركاش Vargas . وعند ما يبلغ العلو ٢٥ متراً يصير السطح الاعلى

المنصور ، ليس فى بلاد الاسلام اعظم بناء منها . وعسل الشرف يبقى حينا لا يترمل ولا يتبدل ، وكذلك الزيت والتين . وقال ابن مفلح : ان أشبيلية عروس بلاد الاندلس لان تاجها الشرف ، وفى عنقها سمط النهر الاعظم ، وليس فى الارض أتم حسنا من هذا النهر ، يضاهى دجلة والفرات والنيل ، تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار ، وتغريد الاطيار ، أربعة وعشرين ميلا ، ويتعاطى الناس السرح من جانبيه عشرة فراسخ ، في عمارة متصلة ، ومنارات مرتفعة ، وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك مالا يحصى ، وبالجملة فهى قد حازت البر والبحر ، والزرع والضرع وكثرة الثمار من كل جنس ، وقصب السكر . ويجمع منها القرمز الذى هو أجل من اللك المندى وزيتونها يخزن تحت الارض أكثر من ثلاثين سنة ، ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طرى . انتهى ملخصاً .

للجدران بجانب النوافذ مغطى بشبكات من الطوب ومزينا بمحاريب . وقد أفسد المنظر البديع الذى كان لهذه المنارة ماتوجوها به فى أيام العهد المسيحى فان قسيس الكنيسة العظمى قد أزال القمه المخرمة التى كانت تنتهى بها المنارة وجعل مكانها أبنية مربعة تنتهى بقبة عليها كتابة وصورة امرأة تمثل « الايمان » وكان هذا البناء الذى شوهوا به هذه المنارة سنة ١٥٦٨ وعلو « الخيرالدة » عن الارض ٩٣ مترا . اه .

هذا وقد صعدت إليها يوم زرت اشبيلية وهى من أبدع آثار العرب فى أسبانية وإليها يقصد السياح من أقطار الأرض ويسرح النظر من أعلاها فيما لا نهاية له . ولكنى لم أعلم من أين جاء اسمها هذا « الخيرالده » إلا إن كان محرفا عن « الخالده » ويعقوب المنصور سلطان الموحدين كان من أعظم ملوك الاسلام وأفخمهم آثاراً وله فى الرباط من العدوة جامع حسان الشهير كان قائماً على ٤٠٠ سارية محيط كل منها ١٤ شبراً وطولها أزيد من ٢٠ شبراً ومساحة الجامع ٢٦٥٩ متراً مربعاً وكانت له منارة علوها يزيد على ٦٠ متراً ومحيطها ٢٤٠ شبرا وكانت هذه المنارة أعجوبة من الأعاجيب وكانت أشبه شىء بمنار الاسكندرية ولا تزال ماثلة تشهد بعلو همة المنصور فليست منارة اشبيلية هى الفذة من آثاره الخالدة

ولما ذكر ابن اليسع الاندلس قال : لا يتزود فيها أحد ماحيث سلك ، لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مدائن ، ومن المعاقل والقرى مالا يحصى ، وهي بطاح خضر ، وقصور بيض . قال ابن سعيد : وانا أقول كلاماً فيه كفاية : منذ خرجت من جزيرة الاندلس ، وطفت في بر العدوة ،ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبته ، ثم طفت في أفريقية ، وما جاورها من المغرب الاوسط ، فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية ، فرأيت الاسكندرية والقاهرة والفسطاط . ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الاندلس في مياهها وأشجارها ، إلا مدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام . وفي حماة مسحة اندلسية . ولم أر ما يشبهها من حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن [1] ، و بعض أماكن في تونس وان كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية ، ولكن الاسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع ، ومباني حلب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة ، وفي وضعها وترتيبها اتقان . انتهى . ومن أحسن ماجاء من النظم في الاندلس قول ابن سفر المريني والاحسان له عادة :

في أرض اندلسٍ تلتذ نعماءُ ولا يفارق فيها القلبَ سَرَّاءُ

---

(١) من أحسن ما كتب عن مآثر البناء الباهرة في المغرب كتاب اسمه « مراكش ومدن الصناعة الفنية التي منها طنجة وفاس ومكناس والرباط ومراكش فيه ٢٢٧ صورة لتلك الآثار الباهرة والمعالم الزاهرة مؤلفه بيار شامبيون Peirre Champion Le Maroc et ses villes d' Art

والقارىء يجد في هذا الكتاب من المنابر التي أنشأها يعقوب المنصور في المغرب مالا يقل حسنا وبداعة وفخامة عن منارة اشبيلية ويرى من مآثر المرينيين والسعديين والعائلة المالكة اليوم مالا تفي العبارات بأوصافه مهما ملك الكاتب من ناصية البيان . وقد قال الأخوان الكاتبان جيروم وجان تارو من مشاهير كتاب فرنسة : إن من لم يشاهد في حياته مقبرة الملوك السعديين في مراكش لم يدرك إلى أية درجة من الارتقاء بلغت المدنية الاسلامية »

وليس فى غيرها بالعَيْش مُنْتَفَعٌ ولا تقوم بحقٍّ الأُنس صهْبَاء
وأين يُعْدَلُ عن أرضٍ تحضُّ بها على المدامة أمْواه وأفْيَاء ؟
وكيفَ لا يُبْهِجُ الابصارَ رؤيتُها وكل رَوْض بها فى الوَشْى صَنْعَاء ؟
أنهارُهَا فِضةٌ ، والمِسْكُ تُرْبَتُها والخزُ رَوْضَتُها والدُرُّ حَصْبَاء
وللهواء بها لطفٌ يَرِقّ به مَنْ لا يرقّ وتبدُو مِنْهُ أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سَحَراً ولا انتثارَ لآلى الطَّلِّ أنداء
وإنما أَرَجُ النَّدِّ استثارَ بها فى ماء وَرْدٍ فطابت منه أرجاء
وَأين يبلُغُ منها ما أُصَنِّفُهُ ؟ وَكَيفَ يحوى الذى حازَته إحصاء ؟
قد مُيِّزَت من جهاتِ الأرض حين بدت فريدةً وتولَّى مَيزَها الماء
دارت عليها نطاقا أبحُرٌ خَفَقَتْ وَجْداً بها إذ تَبَدَّت وَهْىَ حَسناء
لذاك يَبسِمُ فيها الزهرُ من طَرَبٍ والطيرُ يَشْدُو وللأغصانِ إصْغاء
فيها خَلَعْتُ عِذَارِى مابهَا عِوَضٌ فهى الرّياضُ وكل الأرض صَحْراء

ولله در ابن خفاجة حيث يقول :

إن للجنة بالأندلُس مُجْتلى مَرْأى وريا نَفَس
فَسَنَى صُبْحَتها مِنْ شَنَب ودُجَى ظُلْمَتها مِنْ لَعَسٍ
فاذا ماهَبَّت الريحُ صَباً صِحْتُ :وَاشَوْقِى إلى الأندلس!

وقد تقدمت هذه الأبيات . قال ابن سعيد . قال ابن خفاجة هذه الأبيات وهو بالمغرب الأقصى ، فى بر العدوة ، ومنزله فى شرق الأندلس بجزيرة شقر . وقال ابن سعيد فى المغرب مانصه : قواعد من كتاب الشهب الثاقبة ، فى الانصاف بين المشارقة والمغاربة ، أول ما نقدّم الكلام على قاعدة السلطنة بالأندلس فنقول : إنها مع ما بأيدى عبّاد الصليب منها ، أعظم سلطنة ، كثرت ممالكها ، وتشعبت فى

وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها ، وندَع كلامَنا في هذا الشأن وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبي فى كتابه ، لما دخلها فى مدة خلافة بنى مروان بها ، فى المائة الرابعة ، وذلك أنه لما وصفها قال : وأما جزيرة الاندلس فجزيرة كبيرة ، طولها دون الشهر ، فى عرض نيّف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية ، والشجر والثمر ، والرخص والسعة فى الأحوال ، من الرقيق الفاخر ، والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هى به من أسباب رغد العيش ، وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهّانهم ، وأرباب صنائعهم ، لقلة مؤنتهم ، وصلاح معاشهم و بلادهم . ثم أخذ فى عظم سلطانها ، ووصف وفور جباياته ؛ وعظم مرافقه ، وقال فى أثناء ذلك : ومما يدل بالقليل منه على كثيره ، أن سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير ، دخلها فى كل سنة ، مائتا ألف دينار ، وصرف الدينار سبعة عشر درهماً ، هذا إلى صدقات البلد وجباياته ، وخراجاته وأعشاره ، وضمَاناته ، والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة ، وغير ذلك [١] .

وذكر ابن بشكوال أن جباية الأندلس بلغت فى مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا من السوق ، والمستخلص [٢] سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار [٣] ثم قال ابن حوقل : ومن أعجب ما فى هـذه

---

(١) نقلنا فيما تقدم جميع ما ذكره ابن حوقل عن الاندلس

(٢) هو ما يقال له اليوم « الخزينة الخاصة » وكان لسان الدين بن الخطيب يقول « مستخلص السلطان »

(٣) قال لاوى بروفنسال فى كتابه « اسبانية المسلمة فى القرن العاشر » ما يلى :

« أما من جهة مجموع دخل الخزانة فى أيام خلافة بنى أمية بالأندلس لعهد الناصر فقد وردت بشأنه شهادة يزيد قيمتها صدورها عن رجل هو اميل إلى التنزيل من قدر الامويين منه إلى التعظيم من امرهم وهو ابن حوقل الذى أقام مدة بقرطبة وذلك فى النصف الثانى من القرن العاشر فهو يقول إن دخل خزانة الخلافة من أول تولى الناصر إلى سنة ٣٤٠ (٩٥١) بلغ عشرين مليون دينار ذهب وثلثمائة وأربعين مليون درهم

الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، و بعدهم من البأس والشجاعة ، والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسها ، ومقدار جباياتها ، ومواقع نعمها ولذاتها . قال على بن سعيد مكمل هذا الكتاب : لم أر بدّا من إثبات هذا الفصل ، و إن كان على أهل بلدى فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ، ولسان الحال فى الرد أنطق من لسان البلاغة ، وليت شعرى إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء ، والهمم والشجاعة ، فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم ، مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم ، فى داخلها وخارجها ، نحو ثلاثة أشهر ، على كلمة واحدة ، فى نصرة الصليب و إنى لأعجب منه إذ كان فى زمان قد دلفت فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث فى بلاد الاسلام ، حيث الجمهور والقبة العظمى ، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب ، وما أدراك ! وفعلوا فيها ما فعلوا ، و بلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة ، إلى غير ذلك مما هو مسطور فى كتب التواريخ

ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام التى يتمكنون بها من بسائط بلادهم ، فيسبون و يأسرون ، فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء فى ذلك ، وقد يستعين به بعضهم على بعض ، فيتمكن من ذلك الداء الذى لا يطب .

وقد كانت جزيرة الأندلس فى ذلك الزمان بالضد من البلاد التى ترك وراء ظهره ، وذلك موجود فى تاريخ ابن حيان وغيره . و إنما كانت الفتنة بعد ذلك .

من الفضة وهو مبلغ عظيم جداً بالنسبة إلى ذلك العصر . ولقد كان هذا الدخل مضاعفاً فى أيام الحكم المستنصر فبلغ إذ ذاك أربعين مليون دينار . اهـ وسنعود إلى هذا البحث عند الكلام على التاريخ

الاعلام بينة ، والطريق واضح [١] . فلنرجع إلى ما نحن بسبيله .

كانت سلطنة الأندلس فى صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين أفريقية ، واختلاف الولاة داع إلى الاضطراب ، وعدم تأثل الأحوال وتربية الضخامة فى الدولة [٢] : ولما صارت الأندلس لبنى أمية ، وتوارثوا ممالكها ، وانقاد اليهم كل أبي فيها ، وأطاعهم كل عصىّ ، عظمت الدولة بالأندلس ، وكبرت الهمم ، واستتمت الأحوال ، وترتبت القواعد . وكانوا صدرا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف . ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ، وملكوا من بر العدوة

(١) هذا البحث قد تقدم عند نقلنا عن ابن حوقل وهو عبارة عن مناقشة بين مسلمى الشرق والغرب كل فريق منهما يعير الآخر ويتهمه بخذلان قومه وقد أوردنا حكمنا فى ذلك وقلنا إن الجميع فى هذا المرض سواء وانهم بعضهم ببعض أشبه من الماء بالماء ولا حول ولا قوة إلا بالله

(٢) أصاب الكاتب هنا المحز . ومما لاجدال فيه ان تعاقب الولاة المستمر على القيروان وبالتالى تعاقب امراء الاندلس الذين كانوا يولونها من قبلهم لا يكاد الواحد منهم يصل إلى قرطبة حتى يأتى الخبر بعزله قد كان الاصل الاصيل فى اضطراب حبل الادارة وفى وقوف الفتوحات العربية فى أوربة لأن الثبات والاطراد هما من اهم شروط النجاح . فلما صار الحكم إلى بنى أمية فى قرطبة واستقر بها ملكهم وتوطد سلطانهم عظمت الدولة فى الاندلس ورسخت العزائم وسمت الهمم واستتبت القواعد كما قال . غير أن هناك ملاحظة لابد منها وهى أن الجهاد العربى فى أوربة أيام وحدة الخلافة كان وراءه الجيوش الجرارة تزحف من أقاصى خراسان إلى فارس إلى العراق إلى الشام إلى مصر إلى المغرب فلا ينقطع مددها ولا يكاد يحصى عددها فلما انفصلت الأندلس عن الخلافة العباسية انفردت الأندلس بنفسها ولم يبق لها معول فى الجهاد الا على مسلمى الأندلس وحدهم وهؤلاء دائرتهم محدودة ومادتهم منحصرة وليسوا أكفاء بأنفسهم لامم النصرانية التى هى أمامهم كلجج البحر الاخضر . فمن بعد افتراق الأندلس عن الخلافة العباسية انقطع ما بينها ، بين سائر بلاد الاسلام وأصبحت يتيمة غريبة مقطوعة الظهر الا ما كان يرد عليها فى الاحايين من مجاهدين ومهاجرين من المغرب الاقصى دون سواه وشتان بين هذا المدد المحدود والمدد العام الذى كان ينظم ما بين الشرق والغرب

ما ضخمت به دولتهم ، وكانت قواعدهم إظهار الهيبة ، وتمكن الناموس من قلوب العالم ، ومراعاة أحوال الشرع فى كل الأمور ، وتعظيم العلماء ، والعمل بأقوالهم ، و إحضارهم فى مجالسهم ، واستشارتهم ، ولهم حكايات في تاريخ ابن حيان ، منها ما هو مذكور من توجه الحكم على خليفتهم ، أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين وأنهم كانوا فى نهاية من الانقياد إلى الحق ، لهم أو عليهم ، بذلك أنضبط لهم أمر الجزيرة .

ولما خرقوا هذا الناموس ، كان أول ما تهتك أمرهم ثم اضمحل [1]

وكانت ألقاب الأول منهم الأمراء أبناء الخلائف ، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين .

---

(١) امراء بنى أمية فى قرطبة كانوا على وجه الاجمال على استقامة فى أمورهم ولم يخرج منهم من يجاهر بالفسق كما خرج من امراء بنى أمية فى دمشق . وكانوا فى الأندلس مذعنين للحق مقيمين لشعائر الاسلام متحلين بحلى التقوى و مجاهدين فى سبيل الله ولم يتهتك أمرهم بسبب فسق أو ظلم أو أهمال للحكم ، ولكن اراد الله أن يكون هشام بن الحكم المستنصر فسلا ضعيفاً لا يقدر على ادارة أمور المملكة بنفسه فاستبد بالامر الحاجب المنصور بن أبي عامر وحجر على الخليفة ولم يبق له شيئاً فاحفظ ذلك بنى أمية وأعوانهم وكثيراً من ابناء البيوتات العربية الذين غصوا بمكان العامريين ولم تتحمل نفوسهم هذا الاستئثار من هؤلاء بالدوله فصاروا قاعدين لهم كل مرصد حتى يثبوا عليهم ويعيدوا الأمر كما بدأ . وكان المنصور وابنه المظفر يعلمان ما يجيش فى صدور الاموية و بيوتات العرب من الحقد عليهم فأخذا باستعمال البربر وعولا عليهم واوقعا العداوة والبغضاء بين العرب والبربر وكان كل منهما من الحزم والتدبير بحيث استوسق له الامر فلما جاءت دولة شنجول ابن المنصور وكان فسلا فاسد التدبير تمكن الامويون من اسقاطه واشتعلت الفتنة التى أسالت الدماء جداول فى قرطبة ووقع بين العرب والبربر ما كان السبب فى صدع وحدة الدولة وظهور ملوك الطوائف واستئساد طواغيت لاسبانيول واسترجاعهم كثيراً من الحصون والمدن وباختصار رجع النصارى فى الأندلس فكرّوا على المسلمين وكانوا أوشكوا أن يقلعوهم من الاندلس تماماً لولا نصرة الدول المغربية كالمرابطين ثم الموحدين ثم بنى مرين الذين نسأوا فى اجل إسلام الاندلس نحواً من ثلاثمائة سنة بالاقل

إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذى رتبت عليه [١] . فاستبدت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها ، وسُمّوا بملوك الطوائف . وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين ، و إن لم يبق لهم خلافة . ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم [٢] ، وصار ملوك الطوائف يتباهون فى أحوال الملك حتى فى الألقاب ، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء ، وترفّعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ، وذلك بما فى جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة ، التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم ، وتنهض بهم للمباهاة

ولأجل توثّبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيروانى :

مما يُزَهّدنى فى أرضِ أندلُس تلقيبُ مُعتَضد فيها ومُعتَمد
ألقابُ مَمْلكةٍ فى غيرِ مَوضِعِها كالهرّ يَحْكى انتفاخاً صَوْلَةَ الأسَدِ

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد ، واقتفى سيرة المعتضد العباسى أمير المؤمنين . وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد . وكانت لبنى عباد مملكة اشبيلية ، ثم انضاف إليها غيرها . وكان خلفاء بنى أمية يظهرون للناس فى الأحيان على أبهة الخلافة ، ولهم قانون فى ذلك معروف إلى أن كانت الفتنة ، فازدرت العيون ذلك الناموس ، واستخفّت به . وقد كان بنو حَمود من ولد ادريس العلوى ، الذين توثبوا على الخلافة فى أثناء الدولة المروانية بالأندلس ، يتعاظمون ، و يأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس ، وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح ، أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم ، يتكلم من وراء حجاب ، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة . ولما حضر ابن مقانا الاشبونى أمام حاجب إدريس بن يحيى

(١) يشير إلى استئثار العامريين بالأمر وغلبتهم على الخلافة وما آل إليه ذلك من الفتنة التى بددت شمل الأمة وأظهرت ملوك الطوائف

(٢) مثل ابن مردنيش وغيره

الحمودى ، الذى خطب له بالخلافة فى مالقة ، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله :

وكأنَّ الشمسَ لمّا أشرقَتْ فانثنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريسَ بنِ يحْيَى بنِ عليّ بن حَمُّودَ أميرِ المؤمنينْ

وبلغ فيها إلى قوله :

انظُرونا نقتَبِسْ مِنْ نورِكُمْ إنّه مِنْ نورِ ربِّ العالمينْ

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت . وانبسط مع الشاعر وأحسن إليه . ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة ،وكثير من العامة ، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة . ومذ وقعت الفتنة بالأندلس ، اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد على إمام الجماعة ، وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة ، كما يتوارث ملوكها الملك ، ومرنوا على ذلك ، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرق ، وعداوة بعضهم لبعض ، بقبيح المنافسة والطمع إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه ، وتلك القواعد فى رؤوسهم كامنة ، والثوار فى المعاقل تثور ، وتروم الكرّة ، إلى أن ثار ابن هود ، وتلقب بالمتوكل ، ووجد القلوب منحرفة عن دولة بر العدوة [1] ، مهيأة للاستبداد . فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل المفرط ، وضعف الرأى . وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة ، يمشى فى الأسواق ، ويضحك فى وجوههم ، ويبادرهم بالسؤال ، وجاء للناس منه مالم يعتادوه من سلطان ،

---

(١) عند ما ظهرت ملوك الطوائف وأخذ بعضهم يغزو بعضاً والعدو يستفيد من الغازى والمغزو ويهتبل كل غرة ، خاف المرابطون ومن بعدهم الموحدون أن يسقط الاسلام كله فى الأندلس ، فخفوا لنجدته وأجازوا إلى الجزيرة بالجيوش الجرارة واستولوا على أكثر ما كان بأيدى ملوك الطوائف . ولكن بعض هؤلاء كانوا يجاذبونهم الحبل مثل ابن هود مثلا وطالما استظهروا بالأسبانيول على دول بر العدوة .

فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء ، وكان كما قيل :

أمورٌ يَضحك السفهاء منها وَيبكى منْ عواقبها الحليمُ

فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة ، وتملك الأمصار الجليلة ، وخروجها من يد الاسلام ، والضابط فيما يقال فى شأن أهل الأندلس فى السلطان ، أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان ، أو جواداً يبرع الأجواد ، تهافتوا فى نصرته ، ونصبوه ملكا من غير تدبير فى عاقبة الأمر ، الام يؤل ؟ و بعد أن يكون الملك فى مملكة قد تووُرثت وتدوولت ، و يكون فى تلك المملكة قائد من قوادها ، قد شهرت عنه وقائع فى العدو ، وظهر منه كرم نفس للأجناد ، ومراعاة ، قدموه ملكا فى حصن من الحصون ، ورفضوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك بكرسي الملك ، ولم يزالوا فى جهاد وتلاف أنفس ، حتى يظفر صاحبهم بطلبته . وأهل المشرق أصوب رأيا منهم فى مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذى يقضى باختلال القواعد ، وفساد التربية ، وحل الأوضاع ، ونحن نمثل فى ذلك بما شاهدناه .

لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس ، تمخضت عن رجل من حصن يقال له أرجونة ، و يعرف الرجل بابن الأحمر ، كان يكثر مغاورة العدو من حصنه ، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة ، إلى أن طار اسمه فى الأندلس ، وآل ذلك إلى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ، ثم نهض فملك قرطبة العظمى ، وملك اشبيلية ، وقتل ملكها الباجى ، وملك جيان ، أحصن بلد بالأندلس ، وأجله قدراً فى الامتناع ، وملك غرناطة ومالقة ، وسموه بأمير المسلمين . فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه

وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فانها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير ، فيسمّيه بالحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها

عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة [1] لذلك ، إلى أن كانت ملوك الطوائف ، فكان الملك منهم ، لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية ، وأنه كان نائباً عن خليفتهم يسمَّى بالحاجب [2] . و يرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به ، وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم ، وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ، و يختص بهم ، وصار الوزير الذى ينوب عن الملك ، يعرف بذى الوزارتين [3] ، وأكثر ما يكون فاضلا فى علم الأدب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالما بأمور الملك خاصة .

وأما الكتابة فهى على ضربين ، أعلاهما كاتب الرسائل ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب . و بهذه السمة يخصه من يعظمه فى رسالة . وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لايكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فان كان ناقصاً عن درجات الكمال ، لم ينفعه جاهه ، ولا مكانه من سلطانه ، من تساط الألسن ، والطعن عليه وعلى صاحبه .

والكاتب الآخر كاتب الزمام [4] ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ، ولا يكون

---

(١) مثل بنى أبى عبده و بنى حدير و بنى شُهيد و بنى جَهْوَر وغيرهم مما سيأتى ذكره فى محله .

(٢) الحاجب فى زمن الحكم المستنصر كان فى يده جميع أمور المملكة ، ولذلك عند ما مات وورائه ولد صغير هشام الثانى غلب الحاجب على الأمر ، وحجب الخليفة وأدى ذلك فيما بعد إلى الفتنة وسقوط الخلافة ، ولقد كان الناصر أبصر بالعواقب فأبقى المملكة بدون حجابة مدة ثلاثين سنة ووزع الأعمال بين وزرائه فراراً من حصر السلطة فى الحاجب

(٣) كان هذا اللقب من أوضاع بنى العباس ومعناه وزارة القلم ووزارة السيف وأول من لقب به فى الأندلس عبد الملك بن شهيد سنة ٣٢٧ فى دولة عبد الرحمن الناصر

(٤) ويقال له : صاحب الأشغال الخراجية ، وكانوا يقولون أحياناً لديوان المالية « ديوان الأزمة »

بالأندلس و برّ العدوة ، لانصرانياً ولا يهوديا البتة ، إذ هذا الشغل نبيه ، يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوهُهم . وصاحب الأشغال الخراجية فى الأندلس أعظم من الوزير ، وأكثر اتباعاً وأصحابا ، وأجدى منفعة ، فاليه تميل الأعناق ، ونحوه تمدّ الأكفّ ، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار .

ومع هذا إن تأثلت حالته ، واغترّ بكثرة البناء والاكتساب ، نُكب وصودر . وهذا راجع إلى تقلب الأحوال ، وكيفية السلطان

وأما خطة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين ، وكون السلطان لو توجّه عليه حكم حضر بين يدى القاضى ، هذا وصفها في زمان بنى أمية ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيل أن يتّسم بهذه السمة إلا من هو وال للحكم الشرعى فى مدينة جليلة ، و إن كانت صغيرة ، فلا يطلق على حاكمها إلاّ مسدّد خاصة ، وقاضى القضاة يقال له قاضى القضاة وقاضى الجماعة .

وأما خطة الشرطة بالأندلس فانها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السمة ، و يعرف صاحبها في ألسُن العامة بصاحب المدينة ، وصاحب الليل ، و إذا كان عظيم القدر عند السلطان ، كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم . وهو الذى يحدّ على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى ، وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة فى أهل العلم والفِطَن ، وكأن صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكباً على الأسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الأعوان ، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان ، للربع من الدرهم رغيف ، على وزن معلوم . وكذلك للثُّمْن ، وفى ذلك من المصلحة أن يرسل المتاع الصبى الصغير ، أو الجارية الرعناء ، فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق ، فى معرفة الأوزان .

وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانته ، فان المحتسب يدس عليه صبياً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثم يختبر الوزن المحتسب ، فان وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى ! و إن كثر ذلك منه ، ولم يتب بعد الضرب والتجريس فى الاسواق نفى من البلد . ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها و يتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لانها عندهم تدخل في جميع المتاعات ، وتتفرع إلى ما يطول ذكره . وأما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب أرباع فى المشرق ، فانهم يعرفون فى الاندلس بالدرابين، لان بلاد الأندلس لها دروب باغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق، و كلب يسهر ، وسلاح معدّ وذلك لشطارة عامتها ، وكثرة شرهم ، واعيائهم فى أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المبانى المشيدة ، و يفتحوا الاغلاق الصعبة ، و يقتلوا صاحب الدار ، خوف ان يقرّ عليهم ، أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد في الأندلس تخلو من سماع : دار فلان دُخِلت البارحة ، وفلان ذبحه اللصوص على فراشه . وهذا يرجع التكثير منه والتقليل إلى شدة الوالى ولينه ، ومع افراطه فى الشدة ، وكون سيفه يقطر دما ، فان ذلك لا يعدم وقد آل الحال عندهم إلى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم ، وما أشبه ذلك ولم ينتهِ اللصوص .

وأما قواعد أهل الأندلس فى ديانتهم فانها تختلف بحسب الاوقات والنظر إلى السلاطين ، ولكن الاغلب عندهم اقامة الحدود ، و إنكار التهاون بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك و إنكاره ، ان تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلج السلطان فى شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ، ولا يعبئون بخيله ورجله ، حتى يخرجوه من بلدهم . وهذا كثير فى أخبارهم .

وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للاعمال ، إذا لم يعدلوا ، فكل يوم . وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق فى الدورة التى تكسل عن الكدّ ، وتخرج الوجوه

للطلب فى الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية . واذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب ، سبّوه وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، فلا تجد بالاندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر .

وأما حال أهل الاندلس فى فنون العلوم فتحقيق الانصاف فى شأنهم فى هـذا الباب انهم احرص الناس على التميّز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميّز بصنعة ، و يربأ بنفسه أن يُرى فارغاً ، عالة على الناس ، لأن هـذا عنـدهم فى نهاية القبح . والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ، و يحال عليه ، و ينبُه قدره وذكره عند الناس ، و يكرم فى جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك . ومع هذا فليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العـلوم في المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يعلموا ، لا لأن يأخذوا جاريا . فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه ، يحمله على أن يترك الشغل الذى يستفيد منه ، و ينفق من عنده ، حتى يعلم . وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فان لهما حظاً عظيماً عند خواصهم . ولا يتظاهرون بها خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة ، أو يشتغل بالتنجيم ، اطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيّدت عليه أنفاسـه ، فان زلّ فى شبهة رجموه بالحجارة ، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرّبا لقلوب العامة . وكثيراً ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجـدت ، و بذلك تقرّب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه ، و إن كان غير خال من الاشتغال بذلك فى الباطن ، على ماذكره الحجارى ، والله أعلم .

وقراءة القرآن [١] بالسبع و رواية الحديث عندهم رفيعة . وللفقه رونق ووجاهة

---

(١) ما رأيت فى التاريخ بلداً من بلدان الاسلام يعنى أهله بقراءة القرآن بوجوهها أكثر من الأندلس

ولامذهب لهم إلا مذهب مالك [١]، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب مايباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى ان المسلمين كانوا يسمّون الامير العظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه ، لأنها عندهم أرفع السمات [٢] . وعلم الاصول عندهم متوسط الحال . والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة ، حتى انهم فى هذا العصر فيه منهم كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه ، كمذاهب الفقه . وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو ، بحيث لا تخفى عليه

---

(١) كان أهل الأندلس لأول الفتح على مذهب الامام الأوزاعى إمام أهل الشام الذين كانت لهم اليد الطولى فى فتح الأندلس ، وكانت الدولة الأموية تعول عليهم قبل الجميع ، وبقى الأندلسيون على مذهب الأوزاعى إلى زمن هشام بن عبد الرحمن الداخل ففى ذلك الوقت رحل زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمى المعروف بشبطون إلى الشرق ، وسمع من مالك كتابه الموطأ ورحل جماعة غير شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، وغيرهم ممن رحل إلى الحج ، فلما رجعوا إلى الأندلس وصفوا من فضل مالك ، وسعة علمه وجلالة قدره ، ما عظم به صيته بالأندلس وكان رائدهم فى ذلك شبطون ، وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملا متقنا . وقيل إن الامام مالكا رضى الله عنه سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس فوصفوا له سيرة الأمير هشام بن عبد الرحمن وأثنوا له عليه وكان مالك غير راض عن سيرة بنى العباس ولا سيما بعد أن فعل أبوجعفر المنصور بعلوية المدينة الافاعيل من الحبس والاهانة فقال الامام مالك للأندلسيين : نسأل الله أن يزين حرمنا بمثل ملككم . فوصل الخبر إلى الأمير هشام مع ما علم من جلالة مالك وورعه فحمل الناس على مذهبه ، وقد ذكرنا هذه القصة برواياتها فى حواشينا على كتاب محاسن المساعى فى مناقب الامام أبى عمرو الأوزاعى ، الذى طبعناه من ثلاث سنوات فمن شاء فليراجعها فى ذلك الكتاب .

(٢) لم يبرح هذا الاصطلاح فى المغرب إلى اليوم .

الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء ، مع ان كلام أهل الاندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبينى أبى علىّ المشار اليه بعلم النحو فى عصرنا الذى غرّبت تصانيفه وشرّقت ، وهو يقرىء درسه ، لضحك بملء فيه ، من شدة التحريف الذي فى لسانه . والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب وأخذ يجرى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه [1] ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات فى الرسائل . وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ، ومستظرفات الحكايات ، أنبل علم عندهم ، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم واعلامهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل . والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، ولهم عليهم حظ ووظائف ، والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم ، إلاّ أن يختلّ الوقت ، ويغلب الجهل فى حين ما ، ولكن هذا الغالب . وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظم فى نفسه لامحالة ، ويستخف ويظهر العُجْب ، عادة قد جبلوا عليها .

وأما زىّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم ، لاسيما فى شرق الأندلس ، فان أهل غربها لاتكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلاّ وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك . ولقد رأيت عزيز بن خطاب ، أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان فى ذلك الأوان ، وإليه الاشارة ، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة ؛ وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب على سواد شعره .

وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة ، فى شرقها أو فى غربها وابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا ، رأيته فى جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة ، وكذلك ابن الأحمر الذى معظم الأندلس الآن فى يده ، وكثيراً

(١) ولا أظن هذا الاستثقال خاصاً بأهل الاندلس

ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم[1]، فسلاحهم كسلاحهم ،

---

(١) قال ابن خلدون رحمه الله فى مقدمته تحت عنوان « إن المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحوله وعوائده » : ان النفس أبدا تعتقد الكمال فى من غلبها وانقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، إنما هو لكمال الغالب ، ماذا غالطت بذلك واتصل لها ، حصل اعتقاداً ، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء . أو لما تراه ، والله اعلم ، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب ، تغالط أيضا بذلك عن الغلب ، وهذا راجع للاول . ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها ، بل وفى سائر أحواله ، وأظهر ذلك فى الأبناء مع آبائهم ، كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً ؟

وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم . وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الاكثر ، لأنهم الغالبون لهم ، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ، ولها الغلب عليها ، فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله اه .

قلت وقد نظرنا هذا بأعيننا فى الأعصر الأخيرة عند ما ظهر غلب الغرب على الشرق بأسباب كثيرة ليس هنا موضع ذكرها فتهافت ولاة الأمور فى الشرق على تقليد الأوربيين لا فى اتقان العلوم والصناعات وتنظيم أحوال الاجتماع وتسديد أمور الملك فقط ، مما هو واجب حتما ، بل تهافتوا على تقليدهم فى أزيائهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم

وبدأ ذلك فى أيام السلطان محمود العثمانى . ولكن لم يبلغ فى وقت من الأوقات حب هذا الاقتداء ما بلغه فى هذا العصر ، لا سيما بعد الحروب العامة ، فما كادت تركية وإيران تسترجعان استقلالها ، حتى بدأتا بالتشبه بالأوربيين فى الدقيق والجليل

وأقبيتهم فى الأشكرلاط وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسروجهم . ومحار بتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن ، ولا يعرفون الدبابيس ، ولا قسى العرب ، بل يعدّون قسى الافرنج للمحاصرات فى البلاد ، أو تكون للرجالة عند المصافقة للحرب ، وكثير ما تصبر الخيل عليهم أو تهلهم لان يؤثروها

ولا تجد فى خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلاّ أنه لايضعه على رأسه منهم إلاّ الأشياخ المعظمون . وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً ، والصفر مخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة . والذؤابة لايرخيها إلاّ العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى ، وهذه الأوضاع التى بالمشرق فى العمائم لايعرفها أهل الأندلس ، وإن رأوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستطراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها ، لأنهم لم يعتدوا ولم يستحسنوا إلاّ أوضاعهم . وكذلك فى تفصيل الثياب .

وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلاّ ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ،

والكلى والجزئى وأصدرت الحكومة التركية أوامرها بلبس القبعة حتما . ودقت مئات من الأعناق على مجرد الاعتراض عليها . وجعلت الأحرف اللاتينية مكان الاحرف العربية برغم ان كتابة التركية بالاحرف اللاتينية قد انحرفت بهذه اللغة عن لهجتها الاصلية ، واستبدلت بها لغة غير الاولى ، ولم يكتفوا بهذا حتى أرادوا حمل الاتراك على طمس معالم كل قديم ، وتحدثوا بالغاء التاريخ التركى من أصله ، ومنعوا الالحان الشرقية وآلات الطرب الشرقى ، وتبدلوا بها الموسيقى الاوربية ، وكادوا ينتقلون الى منع المآكل الشرقية لو لم تكن الاذواق أصعب مراسا من غيرها ، وكل هذا من باب اقتداء المغلوب بالغالب ، مما أشار اليه امام علم الاجتماع ابن خلدون رحمه الله ، وليس فى الحقيقة بضرورة من الضرورات ، ولقد ترقى اليابانيون ، وبلغوا مبالغ الاوربيين فى كل شىء ، وربما بذوهم ، ولم يزالوا يابانيين فى اذواقهم وعاداتهم ، ومآخذهم ومتاركهم ، وكل شىء توارثوه عن آبائهم

و يبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها . وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش ، وحفظ لما فى أيديهم ، خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل . ولهم مروآت على عادة بلادهم ، لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه . ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها ، وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل ، فأوينا إليها وكنا على حال ترقّب من السلطان ، وخلوّ من الرفاهية ، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدّمة فقال لنا : إن كان عندكم ما اشترى لكم فَحْما تسخنون به ، فانى أمضي فى حوائجكم ، وأجعل عيالى يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحما . فأضرم ناراً ، فجاء ابن له صغير ليصطلى ، فضربه ، فقال له والدى : لِمَ ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام أموال الناس ، والضجر للبرد من الصغر . ثم لما جاء النوم قال لابنه : اعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه . فدفع كساءه إلىّ . ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبى منتبهاً ، ويده فى الكساء ، فقلت ذلك لوالدى فقال : هذه مروآت أهل الأندلس ، وهذا احتياطهم أعطاك الكساء وفضلك على نفسه ، ثم أفكر فى أنك غريب ، لايعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه ، خوفا من انفصالك بها وهو نائم . وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل .

انتهى كلام ابن سعيد فى المغرب باختصار يسير . ولله درّه ، فانه أبدع فى هذا الكتاب ما شاء ، وقسمه إلى أقسام ، منها كتاب وشى الطرس ، فى حلى جزيرة الاندلس . وهو ينقسم إلى أربعة كتب : الكتاب الأول : كتاب حلى العرس ، في حلى غرب الأندلس . الكتاب الثانى كتاب الشفاه اللعس ، فى حلى موسطة الاندلس . الكتاب الثالث : كتاب الأنس ، فى حلى شرق الأندلس . الكتاب الرابع كتاب لحظات المريب ، فى ذكر ما حماه من الأندلس عبّاد الصليب .

والقسم الثاني كتاب الألحان المسلية فى حلى جزيرة صقلية . وهو أيضاً ذو أنواع . والقسم الثالث : كتاب الغاية الاخيرة فى حلى الارض الكبيرة . وهو

أيضاً ذو أقسام . وصوّر رحمه الله تعالى أجزاء الأندلس فى كتاب وشى الطرس .
وقال أيضاً : إن كلا من شرق الأندلس وغربها ووسطها يقرب فى قدر المساحة
بعضه من بعض ، وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ليصدق التثليث فى القسمة ،
وهذا دون مابقى بأيدي النصارى . وقدّم رحمه الله كتاب حلى العرس ، فى حلى
غرب الأندلس ، لكون قرطبة قطب الخلافة المروانية ، واشبيلية التى مافى الاندلس
أجمل منها فيه . وقسمه إلى سبعة كتب ، كل كتاب منها يحتوى على مملكة
منحازة عن الأخرى . الكتاب الأول : كتاب الحلة المذهبة ، فى حلى مملكة
قرطبة . الكتاب الثانى : كتاب الذهبية الأصيلية ، فى حلى المملكة الاشبيلية .
الكتاب الثالث : كتاب خدع المماقة ، فى حلى مملكة مالقة . الكتاب الرابع :
كتاب الفردوس ، فى حلى مملكة بطليوس . الكتاب الخامس : كتاب الحلب ،
فى حلى مملكة شلب . الكتاب السادس : كتاب الديباجة ، فى حلى مملكة باجة .
الكتاب السابع : كتاب الرياض المصونة ، فى حلى مملكة اشبونة . وقد ذكر
رحمه الله تعالى فى كل قسم ما يليق به ، وصوّر أجزاءه على ما ينبغى . فالله يجازيه
خيراً . والكلام فى الأندلس طويل عريض .

وقال بعض المؤرخين : طول الأندلس ثلاثون يوماً ، وعرضها تسعة أيام ،
ويشقها أربعون نهراً كبيراً ، وبها من العيون والحمامات والمعادن ما لا يحصى ، وبها
ثمانون مدينة من القواعد الكبار ، وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة ، وفيها من
الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة ، حتى قيل إن عدد القرى التى على
نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية . وليس فى معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه
ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا بالأندلس .

ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلا . وحيثما سار فى
الاقطار يجد الحوانيت فى الفلوات والصحارى والأودية ورؤس الجبال لبيع الخبز
والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة .

وذكر صاحب الجغرافيا أن جزيرة الأندلس مسيرة أربعين يوما طولا ، فى ثمانية عشر يوماً عرضاً ، وهو مخالف لما سبق . وقال ابن سيده : أخذت الأندلس فى عرض الاقليمين الخامس والسادس من البحر الشامى فى الجنوب ، إلى البحر المحيط فى الشمال ، وبها من الجبال سبعة وثمانون جبلا اهـ . ولبعضهم :

لله أندلسٌ وما جمعت بها ... من كلِّ ما ضَمّتْ لها الاهواء
فكأنَّما تلك الدّيار كواكِبٌ ... وكأنما تلك البِقاعُ سَماء
وبكل قُطْرٍ جَدْوَلٌ فى جَنّةٍ ... ولِعَتْ به الأفياء والأنداء

وقال آخر :

حبذَا أندلسٌ من بَلَدٍ ... لم تزلْ تُنْتِجُ لى كلَّ سرور
طائرٌ شادٍ ، وظلٌّ وارِفٌ ... ومياهٌ سابحاتٌ فى قُصُور

وقال آخر :

يا حُسْنَ أندلسٍ وما جَمَعَتْ لنا ... فيها من الاوطارِ والاوطانِ
تلك الجزيرةُ لستُ أنسَى حُسنها ... بتعاقُب الأحيانِ والازمان
نَسَجَ الربيعُ نباتَها من سُنْدُسٍ ... موشيةٍ ببدائع الالوان
وغدا النسيمُ بها عليلا هائماً ... بِرُبوعِها ، وتلاطم البحران
ياحُسْنَها والطّلُّ ينثر فوقها ... دُرَراً خلالَ الورد والريحان
وسواعدُ الانهار قد مُدّت الى ... نُدَمائها بشقائق النعمان
وتجاوبَتْ فيها شوادِى طَيرها ... والتفّت الاغصانُ بالاغصان
ما زُرتُها إلا وحيّانى بها ... حَدَقُ البهارِ وأنمُلُ السوْسان
من بعدها ما أعجبَتْنِى بلدةٌ ... مع ما حلَلْتُ به من البُلْدان

وحكي بعضهم ان بالجامع فى مدينة اقليش بلاطا فيه جوائز منشورة

مستوية الاطراف ، طول الجائزة منها مائة شبر وأحد عشر شبرا. وفى الاندلس جبل من شرب من مائه كثر عليه الاحتلام من غير ارادة ولا تفكر ، وفيها غير ذلك مما يطول ذكره . والله أعلم . انتهى .

ما قاله المسعودى فى مروج الذهب عن الاندلس

وصاحب الاندلس كان يدعى لذريق ، هذا كان اسم ملوك الاندلس ، وقد قيل انهم كانوا من الاسبان ، وهم أمة من ولد يافث ابن نوح ، وانقطعت هنالك ، والاشهر عند من سكن الاندلس من المسلمين ان لذريق كان من ملوك الاندلس الجلالقة ، وهم نوع من الافرنجة . وآخر لذريق الذى كان بالاندلس قتله[١] طارق مولى موسى بن نصير حين افتتح بلاد الاندلس ، ودخل الى مدينة طليطلة ، وكانت قصبة الاندلس ودار مملكتهم ، ويشقها نهر عظيم يدعى تاجه ، يخرج من بلاد الجلالقة « والوسقيد[٢] » وهى أمة عظيمة ، لهم ملوك ، وهم حرب لاهل الاندلس

(١) لا نعلم لماذا قال المسعودى إن أخا لذريق هو الذى قتله طارق بن زياد ، على حين أن الرواية المشهورة هى أن لذريق نفسه هو الذى قتل فى المعركة التى وقعت بين المسلمين والاسبانيول ، وبها انهار ملك القوط بالأندلس . وقد جاء فى كتاب « أخبار مجموعة » الذى هو أول تاريخ للأندلس بعد أن انهزم لذريق – وفى أخبار مجموعة يقول رذريق ، وهى أقرب إلى الأصل – لم يدر أين وقع . إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأبيض ، وكان عليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا حلة من ذهب مكللة بالدر والياقوت . وقد ساخ الفرس فى الطين . وفى التواريخ وقع فيه وغرق العلج . فلما أخرج رجله ثبت الخف فى الطين ، والله أعلم ما كان من أمره ، لم يسمع له خبر ، ولا وجد حياً ولا ميتاً . انتهى

وقد جاء فى بعض تواريخ الأسبان أن لذريق لم يقتل فى المعركة ، وأنه فر إلى شمالى اسبانية ، وبقى يقاتل المسلمين إلى أن مات . ولكن الرواية الغالبة هى أن لذريق قتل فى المعركة .

(٢) هذه اللفظة محرفة بالنسخ ولا شك بأن مراد المسعودى بها أمة الباسك أو الباشكونس وكان يقال لهم قديماً Vascongados

كالجلالقة والافرنجة . و يصب هذا النهر فى البحر الرومى [١] وهو موصوف بانه من أنهار العالم ، وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف ، بنتها الملوك السالفة ، وهى من البنيان المذكور والموصوف ، أعجب من قنطرة سنجة [٢] من الثغر الجزرى ، مما يلى سميساط من بلاد سرحة .

ومدينة طليطلة ذات منعة ، وعليها أسوار منيعة ، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبنى أمية قد كانوا عصوا على الامويين ، فأقامت مدة سنين ممتنعة ، لا سبيل للامويين اليها فلما كان بعد الخمس عشرة وثلثماية ، فتحها عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وعبد الرحمن هذا هو صاحب الاندلس فى هذا الوقت . [٣] وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وقد كان غيّر كثيراً من بنيان هذه

---

(١) أخطأ المسعودى فى قوله أن نهر تاجه ينصب فى البحر الرومى ، والحقيقة أن مصبه فى المحيط الاطلانطيكى ، ولعله وقع منه سهو فحسب نهر تاجه هو نهر إبره الذى يمر بسرقسطة ، فان هذا ينصب فى البحر الرومى .

(٢) لعله أراد سنجار ، لأننا لا نعلم بلداً اسمه سنجة فى بلاد الجزيرة : وأما سنجار فهى منها وهى على نهر . ويوجد بلدة يقال لها سنجة ، والعجم تقول لها سنكة ولكنها ليست فى الثغر الجزرى ، بل فى خراسان ، ويقال لبلادها الغور . وقد كنا نقول لعل فى جملة « الثغر الجزرى » تصحيفا ، وحقها أن تكون « الثغر الخزرى » نسبة إلى بحر الخزر ولكن ينفى ذلك قوله « مما يلى سميساط » والحال أن سميساط هى مدينة من الثغر الجزرى بالعجم . فأما بلاد « سرحة » فلم نجد لها ذكرا فى بلاد الجزيرة . وإنما يوجد سرحة فى اليمن : فالصحيح أنها سرجة بنقطة وهى بقرب سميساط ، على شاطىء الفرات كما ذكر ياقوت فى معجم البلدان .

(٣) أهم شىء فى التاريخ ، وهو الذى يقرب الوقائع الى الذهن ، ويجعل القارىء كأنه يراها بعينه ، هو أن يكون المؤرخ معاصراً للاشخاص الذين يصفهم ، وللوقائع التى يرويها ، لا سيما إذا كانوا من الرجال المشهورين فى التاريخ ، أو كانت الوقائع

المدينة حين افتتحها . وصارت دار مملكة الاندلس قرطبة الى هذا الوقت .

ومن قرطبة الى مدينة طليطلة نحو من سبع مراحل ، ومن قرطبة الى البحر مسيرة نحو من ثلاثة أيام . ولهم على بحر تونس من الساحل مدينة يقال لها اشبيلية .

و بلاد الاندلس مسيرة عمائرها ومدنها نحو من شهرين ، ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة . وتدعى بنو أمية الخلائف ، ولا يخاطبون بالخلفاء ، لأن الخلافة لايستحقها عندهم إلا من كان مالكا للحرمين ، غيرأنه يخاطب بأميرالمؤمنين[1]

التي يتحدثون عنها من الحوادث التي اشتهر خبرها : فالمسعودي ، كابن حوقل ، كان معاصرا للخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر وهو يكتب تاريخه هذا سنة ٣٣٢ ، إلى بعد أن خرج ابن حوقل في سياحته ، وبدأ بكتابه ، بسنة واحدة : والواقعة التي محص فيها المسلمون في زمان عبد الرحمن في بلاد الجلالقة عند مدينة سمورة ، وذكر المسعودي وقوعها سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، وقتل فيها من المسلمين أربعون الفاً ، وقيل خمسون الفاً هذه نفسها جاء خبرها في كتاب « أخبار مجموعة » ولكنه جعلها في عام ستة وعشرين وثلثمائة . ولم يذكر عدد شهداء المسلمين فيها . وإنما قال انهم هزموا أقبح هزيمة واتبعهم العدو أياما يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكد ينجو منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم . وتخلصوا إلى بلدانهم . ثم إن المسعودي يذكر أن الثغر بين المسلمين والأفرنج سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، كان طرطوشة ، على ساحل البحر الرومي ، ثم يذكر غارات المجوس على الأندلس .

ثم هناك نقطة ذات بال وهي أن من ملك الحرمين الشريفين يحق له أن يدعى الخلافة . وهي من النظريات التي كانت تدور في ذلك العصر . ولا تزال إلى يوم الناس هذا .

(١) ستعلم أن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر عاد فنادى بنفسه خليفة . وأطلق عليه مسلمو الأندلس هذا اللقب ، وذلك بعد أن ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد بهم الأعاجم ، وتصدعت وحدة المملكة العربية . فرأى عبد الرحمن نفسه جديرا بالخلافة ، ولم ينكر ذلك أحد . لانه كان أعظم ملوك عصره في عالمي الاسلام والنصرانية وسار على خطته ابنه الحكم الملقب بالمستنصر ، ولكن خاف من بعدهما خلف أضاعوا الخلافة ، وكان ذلك مبدأ ضياع الاندلس .

وقد كان عبد الرحمن بن معاوية ، أو هشام بن عبد الملك بن مروان سار إلى الأندلس في سنة تسع وثلاثين ومائة ، فملكها ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر . ثم هلك فملكها ابنه هشام بن عبد الرحمن سبع سنين . ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحواً من عشرين سنة ، وولده ولاتها إلى اليوم ، على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمن ابن محمد . وولى عبد الرحمن فى هذا الوقت فتاه الحكم ، وكان أحسن الناس سيرة وأجملهم عدلا . وقد كان عبد الرحمن صاحب الاندلس فى هذا الوقت المقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلثمائة فى أزيد من مائة الف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهى مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان ، قد أحكمتها الملوك السالفة ، بين الأسوار فصلان وخنادق ، ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين ، ثم ان أهلها ثاروا على المسلمين ، فقتلوا منهم ، ممن أدرك الاحصاء ، وممن عرف ، أربعين ألفاً ، وقيل خمسين الفا . وكانت للجلالقة والوسكيدعلى المسلمين وآخر ما كان بأيدى المسلمين من مدن الاندلس وثغورها مما يلى الافرنجة مدينة أربونة ، خرجت عن ايدي المسلمين من مدائن الالس وثغورها سنة ثلاثين وثلثمائة ، مع غيرها مما كان فى أيديهم من المدن والحصون . وبقى ثغر المسلمين فى هذا الوقت ، وهو سنة ست وثلاثين وثلثمائة من شرقى الاندلس ، طرطوشة ، وعلى ساحل بحر الروم مما يلى طرطوشة آخذاً في الشمال « افراغة[1] » على نهر عظيم ، ثم لاردة . ثم بلغنى عن هذه الثغور أنها تلاقى الافرنجة وهى أضيق مواضع الاندلس . وقد كان قبل الثلثمائة ورد إلى الاندلس مراكب فى البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم ، زعم أهل الأندلس أنهم ناس من المجوس[2] ، تطرأ إليهم فى هذا البحر فى كل مائتين

---

(١) Fraguas ومن عادة العرب أن يجعلوا ألفاً قبل الاسم حتى لا يبدأوا بالساكن وقد قيل فى طرابلس اطرابلس وفى غرناطة اغرناطة وفى فراغه افراغه ولها نظائر .

(٢) هؤلاء هم النورمنديون وكانوا وقتئذ مجوساً

من السنين ، وأن وصولهم إلى بلادهم من خليج يعترض من بحر اوقيانوس ، وليس بالخليج الذى عليه المنارة النحاس . وأرى ، والله أعلم ، أن هذا الخليج متصل ببحر مانطش [١] ونيطش ، وأن هذه الأمة هم الروس الذين قدمنا ذكرهم فى ماسلف من هذا الكتاب ، إذ كان لايقطع هذه البحار المتصلة ببحر أوقيانوس غيرهم

قول القلقشندى فى صبح الأعشى عن الأندلس

قال فى الجزء الخامس تحت عنوان « المملكة السادسة من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس » قال فى تقويم البلدان : وجزيرة الأندلس على شكل مثلث : ركن جنوبىّ غربىّ . وهناك جزيرة قادس ، وفم بحر الزقاق . وركن شرقىّ ، بين طرّكونة ، و بين برشلونة ، وهى فى جنوبيه ، و بالقرب من بلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة . وركن شمالىّ بميلة إلى البحر المحيط ، حيث الطول عشر درجات ودقائق ، والعرض ثمان وأربعون . وهناك بالقرب من الركن المذكور مدينة شنتياقوه ، وهى على البحر المحيط فى شمالىّ الأندلس وغربيها . قال : والضلع الأول من الركن الجنوبي الغربى ـ وهو عند جزيرة قادس ـ إلى الركن الشرقى الذى عند ميورقة ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الجنوبى الممتد على بحر الزقاق . والضلع الثانى من الركن الشرقى المذكور إلى الركن الشمالى الذى عند شنتياقوه . وهذا الضلع هو حد الأندلس الشمالى ، ويمتد على الجبل المعروف بجبل البرْت [٢] ، الحاجز بين الأندلس و بين أرض تعرف بالأرض الكبيرة . وعلى ساحل الأندلس الممتد على بحر بَرْدِيل . والضلع الثالث من الركن الشمالى المذكور إلى الركن الجنوبى المقدّم الذكر ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الغربى الممتد على البحر المحيط .

---

(١) La Manche

(٢) وربما قال العرب « البرتات » وهى لفظة افرنجية معناها الأبواب وهذا الجبل هو البرانس أو البيرانة .

قال ابن سعيد : قال الحجارى : وطول الأندلس من جبل البرت الفاصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ، وهو نهاية الأندلس الشرقية إلى اشبونة ، وهى فى نهاية الأندلس الغربية ، الف ميل . وعرض وسطه ، من بحر الزقاق إلى البحر المحيط ، عند طليطلة وجبل البرت ، ستة عشر يوماً . قال فى تقويم البلدان : وقد قيل : إن طوله غرباً وشرقاً من اشبونة ، وهى فى غرب الاندلس إلى أربونة ، وهى فى شرق الأندلس ، مسيرة ستين يوماً ، وقيل : شهر ونصف . وقيل : شهر . قال : وهو الأصح .

واعلم أن جبل البرت المقدّم ذكره متصل من بحر الزقاق إلى البحر المحيط ، وطوله أربعون ميلا ، وفيه أبواب فتحها الأوائل ، حتى صار للأندلس طريق فى البر من الأرض الكبيرة ، وقبل فتحها لم يكن للاندلس من الأرض الكبيرة طريق . وفى وسط الأندلس جبل ممتد من الشرق إلى الغرب ، يقال له جبل الشارة ، يقسمه بنصفين : نصف جنوبىّ ونصف شمالى اه . ثم ذكر القلقشندى أهم حواضر الأندلس وسنأثر عنه مانجده جديراً بالنقل ، وذلك عند وصولنا إليها .

ماقاله ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب

فى سنة أربع وثمانين افتتح موسى بن نصير أوربة من المغرب ، وبلغ عدد السبي خمسين ألفاً . اه . سمى الأندلس أوربة ، من باب تسمية البعض باسم الكل

وذكر فى حوادث سنة ٨٧ فتح سردانية من المغرب . وفى حوادث ٨٩ فتح جزيرتى ميورقة ومنورقة . وقال عن حوادث ٩٢ : فيها افتتح إقليم الاندلس على يد طارق مولى موسى بن نصير ، وتمم موسى فتحه فى ثلاث سنوات . وذكر فى حوادث سنة ١٧٢ موت صاحب الأندلس أبى المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى الدمشقى المعروف بالداخل وقال إنه : فرّ إلى المغرب عند زوال دولتهم ، فقامت معه اليمانية ، وحارب يوسف الفهرى ، متولى

الأندلس ، وهزمه ، وملك قرطبة فى يوم الأضحى سنة ثمان وثلاثين ومائة . وامتدت أيامه ، وكان عالماً ، حسن السيرة ، وعاش اثنتين وستين سنة . وولى بعده ابنه هشام ، وبقيت الأندلس لعقبه إلى حدود الأربعمائة الخ .

قول المقدسى فى جغرافيته الشهيرة المسماة

« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم »

ذكر المقدسى الأندلس فى جملة إقليم المغرب ، بدأ بافريقية ، أى مملكة تونس الحاضرة ، وتقدّم إلى المغرب الأوسط ، وكان يسمّى فى ذلك اوقت اقليم تاهرت ثم تقدم إلى سجلماسة ، وفاس ، والسوس الأقصى . ثم ذكر جزيرة صقلية ، وبعد أن عدد مدنها بدأ بالأندلس فقال : وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أنّا لم نقف على نواحيها فنكوّرها ، ولم ندخلها فنقسمها . ويقال اسها الف ميل . وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينـة ، يعني المشهور منها ، لأن أحداً لم يسبقنا إلى تفصيل الكور ، ووضع القصبات ، فبعض المدن التى ذكر هى قصبات ، على قياس مارتبنا .

وسألت بعض العقلاء منهم عن الرساتيق المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة اليها والمدن فقال : انا نسمى الرستاق اقليما ، فالاقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر « أرْجونة » « قَنْطَلّة » « شَوْذَر » « مارْتُشْ » « قَنْبانُش » « فجّ ابن لَقيط » « بلاط مَرْوان » « حصن بُلكونة » « الشنيدة » «وادى عبد الله » « قرسيس » « المائدة » « جيّان » ــ وعلى ما دل اخر الاسم هى ناحية مدنّها الجفر ــ « بَيغُو » « مارتُش » « قانت » « غَرْناتة » « مَنْتيشة » « بَيّاسَة » وسائر مدن اندلس المذكورة « طُرْطُوشة » « بَلَنْسِيَة » « مُرْسِيَة » « بجّانَة » « مالِقَة » « جزيرة جبل طارق » «شَذُنة» « إشبيلِيَة » « أُخشُنُبَة » « مريّة » «شَنْتَرين» « باجَة »

« لَبْلَة » « قَرْمُونة » « مَوْرُور » « إسْتِجَة » .

ثم عاد بعد قليل فذكر الاندلس بشيء من التفصيل فقال : قرطبة هى مصر الأندلس سمعت بعض العثمانية يقول : هى أجلّ من بغداد . فى صحراء يطل عليها جبل ، ولها مدينة جوّانيّة ، ور بض الجامع فى المدينة وأسواق . وأغلب الأسواق ودار السلطان فى الربض . قدامها واد عظيم ، سطوحهم قراميد . الجامع من حجر وجير . وسواريه رخام . حواليه مياض .

والمدينة خمسة ابواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، عامر . وقد دلت الدلائل ، واتفقت الآراء على انه مصر جليل ، رفق طيب ، وان ثمّ عدلا ، ونظراً ، وسياسة ، وطيبة ، ونعما ظاهرة ، وديناً ، وان ناحية الاندلس على سجية « هيطل »[٢] ابداً ثم غزاة ، ابداً فى جهاد ونفير[١] مع علم كثير ، وسلطان خطير ، وخصائص ، وتجارات ، وفوائد .

وحدثنى بعض الاندلسيين انها ثلاثة عشر رستاقا على خمسة عشر ميلا « أرْجُونة » مسورة ، ليس لها بساتين وأشجار ، لكنها بلد الحبوب ، ولهم عيون ، ومزارعهم على المطر ، و « قَنْطَلَة » على ثلاثة عشر ميلا من أرجونة ، وهى فى سهلة كثيرة الأشجار والزيتون والكرمات ، ومشاربهم من آبار ، ويسقون البساتين بالسوانى . و« شَوْذَر » على ثمانية عشر ميلا من قرطبة ، وهى فى سهلة كثيرة الزيتون جداً ، شربهم من أعين ، « مارْتُش » على خمسة عشر ميلا من قرطبة ، وهى جبليّة ، ليس لها غير الكرمات ، ولهم أعين . و « قَنْبَانُش » على خمسة عشر ميلا ، وهي سهلية ، ذات مزارع أكثرها بموضع يقال له « قَنْبَانِية » مشاربهم من آبار . و« فج ابن لقيط » على خمسة وعشرين ميلا فى سهلة كثيرة المزارع ، شربهم من آبار . و « بلاَط مَرْوَان » على ثلاثين ميلا ، لها واد جرّار ، سهلية ، ذات مزارع . و « بُرْيَانَة » ذات

(١) هذا خلاف ما زعمه ابن حوقل . والصحيح فى هذا المقام هو كلام المقدسى

(٢) يقال هيطل لبلاد ما وراء النهر : بخارى وسمرقند وما جاورها

مزارع سهلية ، شربهم من آبار ، وفيها حصن من حجارة ، والربض حوله ، والجامع في الحصن ، والأسواق في الربض . وحصن « بُلكُونَة » كثير الزيتون والاشجار ، والعيون ، مسوّرة بحجارة ، شربهم من عين واحدة وآبار ، على أربعين ميلا من قرطبة ، و « الشنيدة » على جبل ، كثيرة الكروم والمزارع والعنب ، شربهم من أعين وآبار ، على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط . و « وادى عبد الله » من نحو القبلة ، على أربعين ميلا من قرطبة . المنزل « وادى الرُّمّان » سهلية ذات مزارع وأنهار وأشجار . و « قرسيس » على ستين ميلا من قرطبة . سهلية كثيرة التين والأعناب والزيتون الكبير ، شربهم من أعين و « جيّان » على خمسين ميلا من قرطبة . اسم الرستاق « أوْلَبَة » ومدينة جيّان على جبل ، كثيرة الأعين ، قد خرب حصنها ، غير أنها منيعة بالجبل ، بها اثنتا عشرة عيناً ، ثلاث عليها أرحية ، تقوم بالأندلس ، ومن ثم ميرة قرطبة وثمارها كثيرة ، وصِفْ ماشئت من طيبها ورُخصها ، فانها جنة الأندلس على ما حكي لى . ودل آخر الاسم على أنها ناحية بنيانهم بالحجارة ، باردة كثيرة الرياح ، وبكورتها حرّ ، هى فى عداد النواحى قياساً على مارتدنا . ومدّتها الجفر [١] ، على الجبل ، كثيرة الاودية والارحية ، على عشرة أميال من جيان ، كلها أشجار وثمار ، وزيتون وأعناب ، على واد تجمع الفواكه . و « بَيَغُو » وهى جبلية لها أودية تخر منها عيون تدير الأرحية ، كثيرة التوت والزيتون والتين . و « مارتش » مسورة على جبل ، شربهم من أعين ، كثيرة التين والزيتون والكروم . « فانت » مسورة فى قنبانية . لا بساتين لها زاكية . و « غرناطة » على واد به منية ، طوله ثلاثة عشر ميلا للسلطان ، فيه من كل الثمار حسن عجيب ، سهلية كثيرة المزارع . قلت : وما المنية ؟ قال البستان [٢] . « مَنتيشَة » مسورة على واد

---

(١) كذا ولم يظهر لنا مراد المؤلف هنا إلا أن يكون ثمة تحريف

(٢) تقدم لنا ذكر لفظة المنية وماذا كانوا يعنون بها ، وهذا نص يؤيد ما ذكرناه وهو أن المنية المتنزه أو البستان

كثيرة الزيتون والتين سهلية . و « بيَّاسة » مسورة فى جبل ، بناؤهم طين ، وشربهم من أعين ، كثيرة التين والكرمات . قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا . قلت : فاشبيلية و بجانة . . . وذكرت عدة من البلدان . قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة وهم يسمون الرستاق اقليما . فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها إن لم تكن أجل من كور هيطل فليست بأقل منها

فيحصل القول ، وتثبت الدلائل ، على ان مثل المغرب كمثل المشرق ، كل واحد منهما جانبان : فكما ان المشرق خراسان وهيطل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والاندلس يفصل بينهما بحر الروم .

غير انا نعجز عن تكوير الاندلس ، فتركناها على الجملة ، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها ، واتضح عندنا أمرها . وعرضت كتابي على شيخ من مشايخهم فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الاندلس ثمانى عشرة كورة ، فعدّ بجّانة ، مالقة ، بلنسية ، تُدمير ، سَرَقوسَة [1] ، يابِسَة ، وادى الحجارة ، تُطيلَة ، وَشْقَة ، مدينة سالم . طُليطُلة ، إشبيلية ، بَطَلْيوس ، باجة ، قرطبة ، شَذُونة ، الجزيرة الخضراء وسألت آخر فقال : صدق ، وزاد لِبيرَة ، خُشُنُبة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحي ، قياساً على يلاق وكشّ والصفانيان . والله أعلم بالصواب .

ثم ذكر المقدّسى جمل شؤون هذا الاقليم فقال : هو اقليم جليل كبير طويل يوجد فيه أكثر ما يوجد فى سائر الاقاليم ، مع الرخص ، كثير النخيل والزيتون ، به مواضع الحرّ ، ومعادن البرد ، كثير اليهود ، جيد الهواء والماء .

فأما الحر فانك تجده من مصر الى السوس الاقصى ، إلا فى مواضع ، فان بها جبلاً و بلداناً باردة ، والغالب على الاندلس البرد ، كثير المجذّمين ، والخصيان ، والثقلاء ، والبخلاء ، قليل القصّاص ، رُفَق ، يحبون العلم وأهله ، ويكثرون التجارات والتغرب .

---

(١) يعنى سرقسطة وهو أقرب إلى لفظ الاسبانيول بها

وأما المذاهب فعلى ثلاثة أقسام : أما فى الاندلس فمذهب مالك وقراءة نافع . وهم يقولون : لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فان ظهروا على حنفيّ أو شافعيّ نفوه ، وان عثروا على معتزليّ أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه . و بسائر المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعى (رحه) انما هو ابو حنيفة ومالك (رحمهما) . وكنت يوماً أذاكر بعضهم فى مسألة فذكرت قول الشافعى (رحه) فقال : اسكت ! من هو الشافعى ؟ انما كانا بحرين: ابو حنيفة لأهل المشرق، ومالك لأهل المغرب ، افنتركهما ونشتغل بالساقية ؟ و رأيت أصحاب مالك (رحه) يبغضون الشافعى قالوا : أخذ العلم عن مالك ثم خالفه .

وما رأيت فريقين أحسن اتفاقاً وأقل تعصباً منهم ، وسمعتهم يحكون عن قدمائهم فى ذلك حكايات عجيبة ، حتى قالوا انه كان الحاكم سنة حنفيّ ، وسنة مالكى . قلت : وكيف وقع مذهب أبى حنيفة (رحه) اليكم ولم يكن على سابلتكم ؟ قالوا : لما قدم وهب بن وهب من عند مالك (رحه) وقد حاز من العلوم والفقه ماحاز استنكف أسد بن عبد الله أن يدرس عليه ، لجلالته وكبر نفسه ، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك ، فوجده عليلا ، فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمى وكفيتكم به الرحلة ، فصعب ذلك على أسد ، وسأل : هل يعرف لمالك نظير ؟ فقالوا : فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة . قالوا : فرحل اليه وأقبل عليه محمد اقبالا لم يقبله على أحد ، ورأى فهماً وحرصاً ، فرقه الفقه زقاً . فلما علم أنه قد استقل و بلغ مراده فيه ، سيّبه إلى المغرب ، فلما دخلها اختلف اليه الفتيان ، ورأوا فروعاً حيرتهم ، ودقائق أعجبتهم ، ومسائل ما طنت على أذن بن وهب وتخرج به الخلق ، وفشا مذهب أبى حنيفة (رحه) بالمغرب قلت : فلم لم يفش بالأندلس ؟ قالوا لم يكن بالاندلس أقل منه ههنا ، ولكن تناظر الفريقان يوماً بين يدى السلطان فقال لهم : من أين كان أبوحنيفة ؟ قالوا : من الكوفة . فقال : مالك ؟ قالوا : من المدينة . قال : عالم دار الهجرة يكفينا ؟ فأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة . وقال : لا أحب أن

يكون فى عملى مذهبان . وسمعت هذه الحكايات من عدة من مشايخ الاندلس

والقسم الثالث مذاهب الفاطمىّ ، وهى على ثلاثة أقسام : أحدها ما قد اختلف فيه الأئمة مثل القنوت فى الفجر ، والجهر بالبسملة ، والوتر بركعة ، وما أشبه ذلك . والثانى الرجوع إلى ما كان عليه السلف ، مثل الاقامة مثنى التى ردّها بنو أميّة الى واحدة ، ومثل لبس البياض الذى ردّه بنو العباس إلى السواد ، والثالث ما تفرّد به مما لا يخالف الائمة ، وإن لم يعرف له قدمة ، مثل الحيعلة في الآذان ، وجعل أول الشهر يوماً يرى فيه الهلال ، وصلاة الكسوف بخمس ركعات وسجدتين فى كل ركعة وهذه مذاهب الشيعة ، ولهم تصانيف يدرسونها .

ونظرت فى كتاب « الدعائم » فاذا هم يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول ويقولون بمذهب الاسماعيلية . ولهم فيه سر لا يعلمونه ولا يأخذونه على كل أحد ، إلا من وثقوا به ، بعد أن يحلّفوه ويعاهدوه . وإنما سموا باطنيّة لانهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن ، وتفاسير غريبة ، ومعان دقيقة . وهذه الأصول مذاهب الادريسية وغلبتهم بكورة السوس الاقصى ، وهى قريبة من مذاهب القرامطة .

وأهل المغرب والمشرق فى مذاهب الفاطمى على ثلاثة أقسام : منهم من أقرّ بها واعتقدها . ومنهم من كفر بها وأنكرها . ومنهم من جعلها فى اختلاف الأمة . وأكثر أهل اصقلية حنفيّون . وقرأت فى كتاب صنّفه بعض مشايخ الكرّاميّة بنيسابور أن بالمغرب سبعمائة خانقاه لهم ، فقلت لا والله ولا واحدة !

وأما القراءات فى جميع الاقليم فقراءة نافع حسب الرسوم ، لا يشهد فى هذه الأقاليم الستة إلا معدّل ، وحضرنا يوماً [1] ملاكا فأمرنى أبو الطيب حمدان أن أكتب شهادتى ، فَهُنِّيت بذلك ، ولا يأخذون الميت إلا من الرأس أو الرجلين ، ويصلون كل ترويحة ويجلسون ، ولا يسلخون الأغنام إذا شووها ، ويدخلون

---

(١) الملاك : الزواج

الحامات بلا مآزر إلا القليل ، و بالمغرب رسومهم مصرية ، إلا أنهم قل ما يتطلسون وكثيراً ما يجعلون الرداء بطاقين ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباة ، أصحاب قلانس مصبّغة ، والبربر ببرانس سود ، وأهل الرساتيق بأكسية ، والسوقة بمناديل ، والتجار يركبون أحمرة مصرية و بغالا ، وكل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة فى رقوق ، وأهل الاندلس أحذق الناس فى الوراقة ، خطوطهم مدورة ، و به تجارات تحمل من برقة ثياب الصوف والأكسية ، ومن اصقلية الثياب المقصورة الجيدة ، ومن افريقية الزيت والفستق ، والزعفران ، واللوز ، والبرقوق ، والمزاود ، والانطاع والقُرَب ، ومن فاس التمور ، وجميع ما ذكرنا ، ومن الاندلس بز كثير ، وخصائص وعجائب ، ومن خصائص الاقليم المرجان ، يخرج من جزيرة فى البحر اسم مدينتها مرسى الخرز ، يدخل إليها فى طريق دقيق كالمهدية ، من بحرها يرتفع القرن ، وهو المرجان ، لا معدن له غيرها . وهى جبال فى البحر ، يخرجون إلى جمه فى قوارب ، ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئاً من الكتان المحلول ، وربطوا فى كل صليب حبلين ، يأخذهما رجلان ، فيرميان بالصليب . و يدير النواتى القارب ، فيتعلق بالقرن ثم يجذبونه ، فمنهم من يخرج عشرة آلاف إلى عشرة دراهم . ثم يجلى في أسواقهم ، و يباع جزافا رخيصاً ، ولا اشراق له قبل جليه ولا لون . و بتطيلة سمُّور كثير [1] .

و بالاندلس السفَن [2] الذى يتخذ منه مقابض السيوف . و يقع اليهم من البحر المحيط عنبر كثير فى وقت من السنة ، و يرتفع من اصقليّة نوشاذر كثير ابيض . وسمعت انه قد انقطع معدنه ، واستغنى عنه أهل مصر بدخان الحمامات .

وأما الارطال فكانت بغدادية فى الاقليم كله ، إلا الذى يوزن به الفلفل ، فانه يشف على البغدادى بعشرة دراهم . والآن هو المستعمل فى أعمال الفاطمىّ بالمغرب كله . والمكاييل قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمناً ، والثمن ستة أمداد بمدّ النبىّ

(١) المشهور أنه بسرقسطة ولكن تطيلة هى من عملها

(٢) السفن محركة جلد أخش كجلود التماسيح يجعل على قوائم السيوف

صلى الله عليه وسلم . وقفيز الاندلس ستون رطلا ، والربع ثمانية عشر رطلا . وفنيقة نصف القفيز . ومكاييل الفاطمي الدوّار ، وهي التي تشفّ على ويبة مصر بشيء يسير قد ألجم رأسها بعارضة من حديد ، وأقيم عمود من قاعها الى العارضة فوقه حديد يدور على رأس الويبة ، فاذا اترعها أدار الحديد ، فسحت فم الويبة ، وصح الكيل . وأرطاله رصاص على كل رطل اسم أمير المؤمنين ، فان اجتمعت أرطال بموضع واحد بسيط صبّها ، وطبع على كل رطل ، ولو كانت عشرة .

وأما نقوده في جميع أعماله الى أقصى دمشق فالدينار ، يزلّ عن المثقال بحبة ، أعني شعيرة ، والسكّة مدوّرة الكتابة . وله ربع صغير يؤخذان بالعدد . والدرهم أيضا زالّ له نصف يسمونه القيراط ، وربع ، وثمن ، ونصف ثمن ، يسمونه الخرنوبة ، يؤخذ الجميع بالعدد . ولا يرخصون في المعاملة بالقطع ، وسنجهم [1] من زجاج مطبوع ، كما ذكرنا من الارطال . ورطل مدينة تونس اثنتا عشرة أوقية ، والوقية اثنا عشر درهماً .

والعجائب بهذا الاقليم كثيرة ، منها ابو قلمون ، وهي دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبرها ، وهو في لين الخز ، لونه لون الذهب ، لايغادر منه شيئاً ، وهو عزيز الوجود ، فيجمع وينسج منه ثياب تتلوّن في اليوم ألواناً ، ويمنع السلطان من حمل ذلك الى البلدان ، إلا ما يخفى عنهم ، ربما بلغ الثوب عشرة آلاف دينار .

بأصقليّة جبل تفور منه النار أربعة أشهر ، في كل عشر سنين مرة ، وسائر الاوقات يدخن ، وحوله ثلوج متلبدة ، إلا موضع الدخان .

بمدينة « إيكِجَا » عيون تخرج أوقات الصلاة ثم تغور . فان قصدها رجل كان قد قتل نفساً بغير حق لم يخرج له شيء .

فان قال قائل : إنك تركت كثيراً من العجائب في هذا الاقليم لم تذكرها . قيل له : إنما تركنا ماذكره من قبلنا في تصانيفهم . ومن مفاخر كتابنا الاعراض

---

(١) جمع سنجة وهي ما يوزن به كالأوقية والرطل

عما ذكره غيرنا . وأوحش شيء في كتبهم ضد ماذكرنا . ألا ترى أنك إذا نظرت في كتاب الجيهاني وجدته قد احتوى على جميع أصل ابن خرداذبه ، و بناه عليه ، و إذا نظرت في كتاب ابن الفقيه ، فكأنما أنت ناظر في كتاب الجاحظ والزيج الأعظم ، و إذا نظرت في كتابنا وجدته يستبح وحده يتيما في نظمه . ولووجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلّغنا الله تعالى أقاصي الاسلام ، وأرانا أسبابه ، وألهمنا قسمته ، وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين . ألا ترى إلى قوله تعالى : (قل سيروا في الأرض) (أفلَم يسيروا في الأرض فينظروا) وفيما نذكرعبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر .

مما قاله عن الاندلس لسان الدين بن الخطيب

وقال لسان الدين بن الخطيب السلماني عن مملكة غرناطة ، وقوله هذا في الاحوال الاجتماعية يصدق على جميع الأندلس : أحوال أهل هذا القطر في الدين ، وصلاح العقائد أحوال سنة ، والنحل فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية . وطاعتهم للأمراء محكمة . وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة . وصورهم حسنة . وأنوفهم معتدلة غير حادة . وشعورهم سود مرسلة . وقدودهم متوسطة معتدلة ، إلى القصر . وألوانهم زهر مشربة بحمرة . وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها أعراب كثير ، وتغلب عليهم الامالة [1] وأخلاقهم أبيّة في معاني المنازعات . وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير . ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء ، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة والمقدار والكتان والحرير والقطن والموعر والاردية الافريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشقوقة صيفا ، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الازهار المفتّحة في البطاح الكريمة ، تحت

---

(١) عرب الأندلس كانوا يتكلمون بالأمالة ، وسنأتي بأمثال من ذلك عند الوصول إلى هذا الموضوع

الاهوية المعتدلة . أنسابهم حسبما يظهرمن الاشتراءات والبياعات السلطانية والاجازات عربية يكثر فيها القرشي [(١)] . والفهري [(٢)] . والأموى [(٣)] . والانصارى [(٤)] . والاوسى [(٥)] . والخزرجى [(٦)] . والقحطانى [(٧)] . والحميرى [(٨)] . والمخزومى [(٩)] .

---

(١) قرشه : جمعه من ههنا وههنا وضم بعضه إلى بعض . قال الفراء : ومنه قريش القبيلة وأبوهم النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون ولد كنانة ومن فوقه كذا فى الصحاح . قال الزبيدى فى تاج العروس : قلت وعند أئمة النسب كل من لم يلده فهر فليس بقرشي ، قاله ابن السكابي ، وهو المرجوع إليه فى هذا الشان . وقيل سميت قريش بهذا الاسم حين غلب عليها قصى ابن كلاب ، وكان يقال : تقرّش القوم إذا اجتمعوا ، وكان قصى يسمى مجمعاً لجمعه قريش بالرحلتين ، وقيل لأنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها ، أولأن النضر بن كنانه اجتمع فى ثوبه يوما فقالوا تقرش . أولأنه جاء إلى قومه يوما فقالوا كأنه جمل قريش أي شديد . أو سموا قريش بمصغر القرش ، وهى دابة بحرية سيدة دواب البحر وكذلك قريش سادات الناس جاهلية واسلاما ، وقيل سموا بذلك لأنهم كانوا أهل تجاره ، لا أصحاب زرع وضرع ، من قولهم فلان يتقرش المال ، والنسبة إلى قريش قرشي ونادرا يقال قريشي

(٢) هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وقريش كلهم ينسبون إليه

(٣) نسبة إلى بنى أمية ، وهما اميتان الأكبر والأصغر ابنا عبد شمس بن عبد مناف من قريش ، والنسبة اليهم أموى بضم ففتح وأموى بالتحريك على التخفيف

(٤) نسبة إلى أنصار الرسول عليه السلام

(٥) نسبة إلى الأوس وهو أوس بن قيلة أخو الخزرج

(٦) نسبة إلى الخزرج وكان الخزرج والأوس أخوين ، وهما ابنا قيلة ، وهى أمهما ، وأبوهما حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد من عرب اليمن

(٧) نسبة إلى قحطان أبو عرب اليمن ، وقالوا فى نسبه قحطان بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام

(٨) نسبة إلى حمير وهو ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان

(٩) نسبة إلى مخزوم وهو ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب وأولاده

والتنوخي [١] . والغساني [٢] . والازدي [٣] . والقيسي [٤] . والمعافري [٥] .
والكناني [٦] . والتيمي [٧] . والهذلي [٨] . والبكري [٩] . والكلابي [١٠] . والنمري [١١] .

حي من قريش ومخزوم أيضاً قبيلة من عبس وهو بن مالك بن غالب بن قطيعة ابن عبس

(١) نسبة إلى تنوخ كصبور قبيلة من اليمن ، قيل إنهم عدة قبائل اجتمعوا وتحالفوا وقيل تنوخ ونمر وكلب ثلاثتهم إخوة

(٢) نسبة إلى غسان كشداد وهو ماء نزل عليه قوم من الأزد بين رمع وزبيد من اليمن ، فسموا به وهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث من عرب اليمن

(٣) نسبة الى الأزد وهو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ ، ويقال أزد شنوئة وأزد عمان وأزد السراة واستدرك الزبيدى على صاحب القاموس أزد بن عمران بن عمرو بن عامر ، وقالوا ان الأزد افترقوا على سبع وعشرين قبيلة

(٤) نسبة إلى قيس عيلان وهو أخو الياس الذى هو خندف ، وكلاهما ولد مضر وقد غلب هذا الاسم على العرب العدنانية ، فالناس يقولون قيس ويمن

(٥) نسبة إلى معافر حي من همدان من عرب اليمن

(٦) نسبة إلى كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وهم خمس قبائل بنو عبد مناة بن كنانة ، وبنو عمرو بن كنانة ، وبنو عامر بن كنانة ، وبنو ملكان ابن كنانة ، وبنو مالك بن كنانة ، ثم بنو كنانة قبيلة أخرى فى تغلب بن وائل ، وقبيلة من كلب منهم خلف بن حامد الكنانى من قضاة الأندلس

(٧) تميم كأمير ابن مر بن أد بن طابخة أبو قبيلة من مضر مشهورة

(٨) هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر حي من مضر

(٩) نسبة إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه أو إلى بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة ابن خزيمة أو إلى بكر بن عوف بن النخع أو الى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب أو إلى بكر بطن من عذرة

(١٠) كلاب فى قريش هو ابن مرة وفى هوازن ابن ربيعة بن صعصعة

(١١) النمر ككتف بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، والنسبة اليه نمرى بفتح الميم ، والحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر المالكي الأندلسي هو نمرى

واليعمرى [١] . والمازنى [٢] . والثقفى [٣] . والسلمى [٤] . والفزارى [٥]
والباهلى [٦] . والعبسى [٧] . والعنسى [٨] . والعذرى [٩]

(١) يعمر بطن من كنانة وربما كان هذا اللفظ هواليعفرى، لا اليعمرى، وذلك لأننا نقلنا كلام لسان الدين بن الخطيب عن الاحاطة طبعة مصر، وهى طبعة مشحونة غلطا وتصحيفا وتحريفا. وقد رددنا كثيراً من ألفاظها إلى الأصل بالقرينة والاستدلال فان كان هذا اللفظ هو اليعمرى، فيوجد فى العرب قبيلة اسمها يعمر جاء ذكرها فى تاج العروس، إلا أنه لم ينسبها ولكن السويدى ذكر أنها من كنانة. وإن كان هو اليعفرى فبنو يعفر هم بطن من حمير ويقال لهم الأوزاع

(٢) مازن بن مالك بن عمرو بن تميم وهم حى مشهور منهم أبو عثمان المازنى النحوى وبنو مازن أيضا من الخزرج، وبنو مازن بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان. وبلادهم الطائف وجبالها

(٣) ثقيف كأمير أبو قبيلة من هوازن واسمه قسىّ بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

(٤) نسبة إلى سليم كزبير وهو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة من قيس عيلان، وهم قبيلة كبيرة منتشرة فى الشرق والغرب، ومنهم أكثر عرب برقة

(٥) فزارة بلالام ابن ذبيان بن غضيب بن ريث بن غطفان، أبو قبيلة من غطفان منهم بنو العشراء وبنو غراب وبنو شمخ

(٦) نسبة إلى باهلة قبيلة من قيس عيلان، وباهلة اسم امرأة من همدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فنسب ولده اليها

(٧) نسبة إلى عبس اسم أصله الصفة وهو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس. وهم رهط الحطيئة الشاعر وعروة بن الورد وإليهم ينسب عنترة بن شداد، وفى بنى هلال أحياء ينسبون إلى عبس

(٧) العنس بسكون النون بطن من كهلان وإليهم ينسب الأسود العنسى الذى كان فى اليمامة وارتد هو ومسيلمة الكذاب

(٩) عذرة بلالام قبيلة فى اليمن وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن سعد بن ليث ابن سود بن أسلم بن ألحاف بن قضاعه واخوته الحارث ومعاوية ووائل وصعب بنو سعد هذيم بطون كلهم عذرة وأمهم عائد بنت مر بن أد، وكذلك منهم سلامان

والحجبي[(١)] والضبي[(٢)] والسكوني[(٣)]. والتيمي[(٤)]. والعبشمي[(٥)]. والمري[(٦)]. والعقيلي[(٧)]

ابن سعد فى عذرة أيضا كذا قاله ابن عبيد وهم مشهورون فى العشق والعفة حتى ضرب المثل بالهوى العذرى ومنهم جميل بن عبد الله بن معمر صاحب بثينة، ومنهم عروة بن حزام صاحب عفراء

(١) جاء فى تاج العروس : والحجبيون محركة بنو شيبة لتوليهم حجابة البيت الشريف

(٢) ضبة ابن أد عم تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر وأبناء ضبة ثلاثة سعد، وسعيد، مصغرا، وباسل. فسعيد وباسل لا عقب لهما فانحصر جماع ضبة فى سعد بن ضبة وهم جمرة من جمرات العرب

(٣) السكون كصبور حى من العرب، وهو ابن أشرس بن ثور بن كندة

(٤) فى قريش تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر. ومن تيم هؤلاء اثنان من العشرة المبشرين بالجنة، أبو بكر الصديق، وأبو محمد طلحة بن عبيد الله، وهما يجتمعان فى عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، ويجتمعان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة ابن كعب وفى قريش أيضا تيم بن غالب بن فهر أخو لؤى بن غالب وفى بنى بكر بن وائل، تيم بن قيس بن ثعلبة بن عكابة وفيهم أيضا تيم بن شيبان بن ثعلبة وقيل إن تيم بن شيبان هذا هو من بنى شيبان بن ذهل ثم فى بنى ضبة تيم اللات ابن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد، وفى الخزرج تيم اللات بن ثعلبة، قال فى تاج العروس. والتيوم كثيرون

(٥) نسبة إلى عبد شمس، وهم بطن من قريش، ويوجد فى العرب عبشمس ابن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، والعب هنا قيل ضوء الشمس، وقيل لعاب الشمس وقيل هو العبء بالهمز يفتح فيكسر والنسبة أيضا عبشمى قال الشاعر :

وتضحك منى شيخة عبشمية   كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانيا

(٦) نسبة إلى مر وهو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر قبيلة مشهورة، وهناك مر ابن عمرو بن الغوث بن جلهمة من طىء وإخوته ستة عشر، ويقال أيضاً مرى نسبة إلى مرة بالتاء. وفى قريش مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ثم إنه يوجد فى قيس عيلان قبيلة اسمها بنو مرة، وهو مرة بن عوف ابن سعد بن قيس عيلان.

(٧) نسبة إلى عقيل كزبير، وعقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر. وفى بنى فزارة عقيل بن هلال، وفى أشجع أيضاً عقيل بن هلال.

والفهمى[١]. والصريحى[٢] والجزلى[٣]. والقشيرى[٤]. والكلبى[٥].والقضاعى[٦].

---

(١) نسبة إلى فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان ، رهط تأبط شرا . وفهم أيضا هم فهم الجمرات ، بطن من لخم . وفى الأزد فهم بن غنم بن دوس ، منهم جذيمة بن مالك بن فهم الملك الأبرش .

(٢) لم نقف حتى الآن على اسم قبيلة يقال لها الصريح ، وغاية ما رأينا أنه فى تاج العروس يقول : (والصريحان قبيلة) ولم يزد على هذه الكلمة شيئاً ـ ونظراً لكثرة التحريف والتصحيف فى طبعة الاحاطة التى أخذنا عنها فيغلب على ظننا أن (الصريحى) هنا إنما هو الصليحى باللام ، فاذا كان كذلك فالصليح نخذ من همدان منهم القاضى محمد بن على الهمدانى الصليحى ، وكانوا قائمين بدعوة العبيديين باليمن كما جاء فى سبائك الذهب للسويدى وذكر السلطان بن رسول صاحب أنساب العرب منهم أمراء .

(٣) نسبة إلى جزيلة كسفينة بطن من كندة .

(٤) نسبة إلى قشير كزبير وهو قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ابن معاوية بن بكر بن هوازن ، والى هذه القبيلة ينسب الامام أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة المشهورة .

(٥) نسبة إلى كلب بن وبرة وهو أخو نمر وتنوخ كما فى معارف ابن قتيبة وقال العينى : فى طيء كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة .

(٦) قضاعة قبيلة من حمير من القحطانية . وعليه جرى ابن اسحاق والكلبى وغيرهما وذهب بعض النسابين إلى أن قضاعة من العدنانية وأنه بن معد بن عدنان . قال ابن عبد البر وعليه الاكثر : قال السويدى : والأشهر هو الأول . قلنا وهو المعتمد عليه . إلا أن النسابة جعفر بن حبيب قال : لم تزل قضاعة فى الجاهلية والاسلام تعرف بمعد حتى كانت الفتنة بالشام بين كلب وقيس عيلان أيام مروان بن الحكم فالت قضاعة إلى اليمن وانتمت إلى حمير . وذكر ابن الأثير فى الانساب هذا الاختلاف ونقل عن محمد بن سلام المصرى وقد سئل انزار أكثر أم اليمن ؟ أنه قال : إن تمعددت قضاعة فنزار أكثر وإلا فاليمن . ومن الغريب أنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثان كل منهما له طريق أحدهما يفيد أن قضاعة من اليمن والآخر أنها من معد بن عدنان . وهذا برهان على كثرة الوضع فى الأحاديث ، وقد رأيت كلا منهما فى كتاب انساب العرب لابن رسول من سلاطين اليمن .

والاصبحي (١) . والمرادي (٢) . والرعيني (٣) . واليحصبي (٤) . والتجيبي (٥) .

---

(١) نسبة إلى ذى أصبح من حمير ، قيل هو الحارث بن عوف بن مالك بن زيد ابن سدد بن زرعة وقال بن حزم ، وهو ذو أصبح مالك بن زيد بن الغوث من ولد سبأ الأصغر . وإلى هذه القبيلة ينسب سيدنا مالك بن أنس أحد أصحاب المذاهب الأربعة . وجده الأقرب هو أبو عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان الاصبحي الحميرى من التابعين .

(٢) نسبة إلى مراد كغراب وهو مراد بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا ، وفى المصباح : مراد قبيلة من مذحج قال الزبيدى : ومذحج هو مالك بن زيد المتقدم ذكره

(٣) نسبة إلى ذى رعين كزبير قال الجوهرى إنه من ولد الحارث بن عمرو بن حمير بن سبا من عرب اليمن ، ورعين حصن أو جبل فيه حصن ، وفى اليمن مخلاف يقال له شعب ذى رعين .

(٤) نسبة إلى يحصب ذكر الحافظ بن حزم فى جمهرة الانساب : أن يحصب هو أخو ذى أصبح جد الامام مالك ، وقلعة يحصب بالأندلس سميت بمن نزلها من اليحصبيين من حمير ، منها سعيد بن مقرون بن عفان ، والنابغة ابن ابراهيم المحدثان . والقاضى عياض بن موسى صاحب الشفاء ، وعبد الله بن محمد بن معدان اليحصبي الاندلسى كتب عنه السلفى .

(٥) تجيب بالضم كما جزم به أهل الحديث ، وأكثر الأدباء : قال الزبيدى فى تاج العروس : إن اهل الانساب يميلون إلى فتحه وقال القاضى عياض : إنه بالفتح كما قيدناه عن شيوخنا ، وذهب أبو محمد بن السيد النحوى إلى صحة الوجهين ، وسمعت الاستاذ السيد رشيد رضا رحمه الله يلفظ تجيب بالضم نقلا عن أحد مشايخه فى الحديث والتاء فى تجيب أصلية عند الخليل ، وتابعه فى ذلك الفيروزآبادى مجد الدين ، ولكن الجوهرى وابن فارس وابن سيدة ذهبوا إلى أنها زائدة ، والقبيلة بطن من كندة ، قال ابن قتيبة ، ينتسبون إلى جدتهم العليا ، وهى تجيب بنت ثوبان بن سليم بن مذحج وقال ابن الجوانى : هى تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رها بن منبه بن حريث بن جلد ابن مذحج وهى أم عدى وسعد ابنى أشرس بن شبيب بن السكون ، قال ابن حزم : كل تجيبي سكونى ولا عكس . ومن تجيب كنانة بن بشر التجيبي قاتل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، وهناك قبيلة أخرى اسمها تجوب منها عبد الرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فهو تجيبي من مراد ثم من حمير ،

والصـدفى [١] . والغافقى [٢] . والحضرمى [٣] . واللخمى [٤] .

(١) نسبة إلى صدف ككتف قيل هو صدف بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ ، وينسب إلى صدف خلق من الصحابة وغيرهم ، نزلوا بمصر واختطوا بها ، ومنهم يونس بن عبد الأعلى الصدفى صاحب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقد نزل من الصدف قوم بالأندلس ولهم قرية بغربى الأندلس تقدم ذكرها والنسبة إلى الصدف صدفى بالتحريك كراهة الكسرة قبل ياء النسب

(٢) بطن من عك قال ابو عبيد كان منهم فى الاسلام أمراء ورؤساء ، ويوجد الغافق بالألف واللام وهم بطن من انمار بن أراش ، وجاء فى نفح الطيب أن أكثر أهالى شقورة من الأندلس ينتسبون إلى غافق ، وإلى غافق ينسب عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس الذى استشهد فى وقعة بلاط الشهداء

(٣) نسبة إلى حضرموت وهو ابن سبأ الأصغر ، وسميت به مدينة حضرموت ويقال للعرب الذين من حضرموت حضارمة . وقد انتسب إلى هذه البلدة أعيان كثيرون من كل قطر ، وأورد فى تاج العروس من أسماء الحضرميين من فقهاء ومحدثين ما ملأ صحيفة كبيرة وابن خلدون إذا انتسب يقول عن نفسه الحضرمى

(٤) قبيلة من كهلان ، جاء فى أنساب العرب لابن رسول من ملوك اليمن أن اسم لخم مالك بن عدى . قال : واختلف فى لخم وجذام ، فقال قوم : هم ابنا عدى بن عمرو بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقال ابن اسحاق : وأكثر أهل النسب على أن لخم وجذام ابنا عدى بن عمرو بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقال ابن الكلبى : لخم وجذام ابنا عدى بن عمرو بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قال ابن رسول : وكل هؤلاء قد أجمعوا أن لخما وجذاما فى قحطان . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة باسناد ليس بالقوى : الايمان يمان آل لخم وجذام ، صلوات الله على لخم وجذام ، يقاتلون الكفار على رؤوس الشعف ، ينصرون الله ورسوله . وقالت فرقة : إن قنص بن معد بن عدنان هو أبو لخم ، واحتجوا بحديث روى عن بن الخطاب رضى الله عنه أنه أتى بسيف النعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة

والجذامى [(١)] . . . .

وعنده جبير بن مطعم ، فقال له عمرو ياجبير ممن كان النعمان بن المنذر ؟ فقال كان من اشلاء قنص بن معد بن عدنان يعنى من بقايا قنص ، انتهى .

قلنا فى هذه الرواية شك . وإن صحت عن جبير بن مطعم فيكون خطأ منه ، لأن لخم وجذام هم من عرب اليمن ، والقول بخلاف ذلك هوخرق للاجماع قال فى سبائك الذهب : وقدكان للخميين ملك بالحيرة من العراق وإنه كان لبقايا لخم ملك باشبيلية من الأندلس ، وهى دولة بنى عباد : وقال القضاعى فى خطط مصر انهم حضروا فتح مصر واختطوا بها ، وفى صعيد مصر بنو سماك وبنو سهل وبنو شنوءة وبنو عدى وبنو راشد وأفخاذ كثيرة من لخم ومنهم بنو عمم الذين ينسب إليهم ملوك الحيرة رهط النعمان بن المنذر واسم عمم الأصلى هو عدى ، ولما كانت عائلة محرر هذه السطور تنتسب إلى المناذرة فقد راجعت سلسلة نسبهم إلى لخم فى سجل النسب الارسلانى المبدوء به سنة ١٤٢ للهجرة المتسلسل خلفاً عن سلف من ذلك التاريخ إلى الآن تحت تصديق القضاة والحكام ، والعلماء الأعلام فوجدته يقول : إن الملك المنذر الذى لقبته العرب بالمغرور هو ابن الملك النعمان أبى قابوس بن الملك المنذر بن الملك المنذر، وهو ابن ماء السماء مارية ابنة ربيعة التغلبى أخت كليب والمهلهل بن الملك امرىء القيس ابن الملك النعمان الأعور ابن الملك امرىء القيس بن الأمير النعمان ابن الملك عمرو بن الملك امرىء القيس بن الملك عمرو ، وهو بن أخت جذيمة الأبرش الذى زوجها من ابنه عدى حتى يملك على لخم . وعدى هو ابن نصر بن ربيعة بن المنذر بن تميم بن عمرو ابن سعد بن ذميل بن الحارث بن زيد بن الحارث بن إياد بن نصر بن فهم بن عامر بن زهير بن مالك بن جزيلة ابن مالك . وهو لخم بن عدى بن عمرو بن عبد شمس ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان جد العرب العرباء والله أعلم .

(١) نسبة إلى جذام ، وهى بضم الجيم وبالذال المعجمة ، بطن من كهلان ، ويقال ان جذام كان أخا لخم ، وهذه هى الرواية المشهورة ، وإنك لتجد هذين القبيلين دائماً متلازمين . قال الجوهرى : ويزعم نسابة مضر أن جذام من مضر وأنهم انتقلوا إلى اليمن فحسبوا من اليمن . ثم إن جذام هم فى مقدمة العرب الذين فتحوا مصر مع عمرو ابن العاص ، ذكر السويدى فى سبائك الذهب نقلا عن الحمدانى قال : وبالأسكندرية من جذام ولخم أقوام ذوو عدد وعدد ، وأهل شجاعة وإقدام وضرب بالسيف ورشق بالسهام ، ولهم أيام معلومة . وأخبار معروفة ، ووقائع فى البر والبحر مشهورة . ومن جذام ملوك بنى هود أصحاب سرقسطة

والسلولى (١) . والحكمى (٢) . والهمداني (٣) . والمذحجى (٤) . والخشنى (٥) .

---

(١) سلول فخذ من قيس بن هوازن ، وفى الصحاح والعباب قبلة من هوازن هم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وسلول اسم امهم ، وهى ابنة ذهل ابن شيبان بن ثعلبة ، وفى سلول هؤلاء قيل :

وإنا أناس لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

(٢) نسبة إلى الحكم وهو مخلاف فى اليمن نسب إلى الحكم بن سعد العشيرة من مذحج . قال الزبيدى فى تاج العروس : ولبنى الحكم بقية كثيرة باليمن منهم بنو مطير ، وقال ابن الكلبى أن الحكم بن يتبع بن الهون بن خزيمة دخل فى مذحج منهم رهط الجراح بن عبد الله الحكمى عامل خراسان

(٣) نسبة إلى همدان بفتح فسكون ، بطن من كهلان ، واسم همدان هو أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ قال الزبيدى : والعقب من همدان فى جشم بن خيران بن نوف بن همدان ، والعقب من جشم فى فخذين لصلبه بكيل وحاشد فمن بكيل فى رومان وسوران وخيران ، ومن حاشد فى سبيع بن سبع بن صعب بن معاوية بن كثير بن مالك بن جشم بن حاشد ولهم بطون متسعة باليمن انتهى .

وهم الذين نصروا عليا فى حرب صفين حتى قال رضى الله عنه .

فلو كنت واباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وإلى همدان ينسب الهمدانى صاحب الاكليل وصفة جزيرة العرب ، وكان علامة فيلسوفا ، وقد سمى بهمدان أحد حصون مملكة غرناطة والاسبانيول يقولون « هندين Alhendin » قلبوا الميم نونا ولفظوا الاسم بالامالة كما سمعوا من العرب الأندلسيين

(٤) مذحج كمجلس هو مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ، وقيل بل مذحج هو ابن يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . قال الزبيدى : وهم شعب عظيم منه بطون وأفخاذ

(٥) نسبة إلى خشين كزبير وهو جابر بن خشين بن عاصم بن لؤى فى نسب فزارة وأيضاً هناك خشين بن النمر بن وبره بن تغلب بن حلوان فى قضاعة . ومن هؤلاء جرثوم بن ناشر الخشنى رضى الله عنه ، ومنهم بشر بن حيان التابعى ، ومنهم محمد بن عبد السلام الخشنى أبو عبد الله صاحب كتاب القضاة فى قرطبة وولده محمد بن محمد

والبلوى [١] . والجهنى [٢] . والمزنى [٣] . والطائى [٤] . والاسدى [٥] .

وأبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشنى الأندلسى النحوى المعروف بابن أبى الركب أخذ عنه الشريشى صاحب المقامات

(١) نسبة إلى بلى كرضىّ قبيلة معروفة وبلى هو ابن العمرو بن الحاف بن قضاعة والنسبة إلى بلى بلوى مثل علوى

(٢) نسبة إلى جهينة بضم الجيم وفتح الهاء وسكون الياء المثناه وفتح النون بعدها حى من قضاعة يسكنون اليوم فى سواحل الحجاز وعددهم كبير

(٣) نسبة إلى مزينة كجهنة قبيلة من مضر . وهو بن أد بن طابخة ، وهم رهط ابن أبى سلمى الشاعر صاحب المعلقة . وهم يسكنون اليوم حول المدينة المنورة

(٤) نسبة إلى طىء بفتح الطاء وتشديد الياء وهمزة فى الآخر قبيله من كهلان كانت منازلهم باليمن فخرجوا على أثر خروج الأزد منها ، وانتهى أمرهم بالاستيلاء على جبلى أجأ وسلمى الذين يعرفان الآن بجبلى طىء ، قال السويدى فى سبائك الذهب : وافترقوا فى أول الاسلام فى الفتوحات قال ابن سعيد : هم الآن أمم كثيرة تملأ السهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقا قال : وهم أصحاب الرئاسة فى العرب إلى الآن فى العراق والشام ومن بنى طىء بنو نبهان ، وبنو ثعل المشهورون بالاجادة فى الرمى ، وبنو جرم الذين أعقابهم فى بلاد غزة ، وبنو بولان بفتح أوله وسكون الثانى . ومنهم الثلاثة الذين يقال إنهم وضعوا الخط العربى . وكان منهم بنو الجراح أيام الفاطميين ، وكانت لهم رئاسة على طىء ثم صارت الآن لآل عيسى بن مهنا . ومنهم بنو سنبس طائفة ببطايح العراق ، وطائفة بدمياط من الديار المصرية ، ومنهم بنو لام فى العراق ومنهم بنو تيم الذين كان يقال لهم مصابيح الظلام ، وهم الذين مدحهم امرؤ القيس . ومنهم بنو صخر فى بلاد البلقاء . ومنهم آل فضل من ربيعة طىء ولهم رئاسة وامارة ، ومنهم بطون وأفخاذ لا يحصيها إلا خالقها كما أن الأعيان والأعلام المنسوبين إلى بنى طىء لا يحصى عددهم . ومنهم حاتم الطائى الذى ضرب به المثل فى الكرم ، وأبو تمام الطائى والبحترى كلاهما أشعر شعراء المولدين . ومنهم محي الدين بن عربى المتصوف الشهير ومنهم ابن مالك النحوى الجيانى الأندلسى

(٥) نسبة إلى اسد وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، وكذلك أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وهى قبيلة أخرى

والاشجعى [١]. والعاملى [٢]. والخولاني [٣]. والايادى [٤]. والليثى [٥]. والخثعمى [٦]

(١) نسبه إلى أشجع وهم حى من غطفان كانوا عرب المدينة ، وكان سيدهم معقل ابن سنان . قال فى العبر : ان منهم بالمغرب الأقصى حياً عظيما فى جهات سجلماسة

(٢) نسبة إلى عاملة وهم حى باليمن من ولد الحارث بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ نسبوا إلى أمهم عاملة بنت مالك بن وديعة بن قضاعة ، أم الزاهر ، ومعاوية بن الحارث بن عدى نفسه ، ومنهم عدى ابن الرقاع الشاعر قال الجوهرى : ويزعم نساب مضر أنهم من ولد قاسط قال الاعشى :

أعامل حتى متى تذهبين إلى غير والدك الأكرم
ووالدكم قاسط فارجعوا إلى النسب الفاخر الأقدم

قال فى تاج العروس : وشذ بن الأثير حيث جعل عاملة من العمالقة اه .

وجاء فى سبائك الذهب نقلا عن أبى عبيد أن بنى عاملة هم بنو الحارث بن مالك يعنى ابن الحارث بن مرة بن أدد وانه كان تحته عاملة بنت مالك بن وديعة بن عُفير ابن عدى قال الحمدانى : وجبل عاملة من بلاد الشام وقيل إن هذه القبيلة من اليمن نزلت به فقيل له عاملة وقد يحذفون التاء فيقال جبل عامل وهو الواقع بين صيدا وصور من الشمال إلى الجنوب وبين البحر المتوسط وغور الحوله من الغرب إلى الشرق

(٣) نسبة إلى خولان بطن من كهلان وبلاد خولان فى اليمن من شرقيه وقد افترقوا فى الفتوحات ومنهم بنو سعد وبنو بكر وبنو قيس وبنو الأصهب وبنو حبيب وبنو عمرو ومما أتذكره أننى رأيت فى الجبل الأخضر من برقة مكاناً إلى الجنوب منه يقال له خولان

(٤) نسبة إلى أياد وهم حى من معد إلا أنهم يسكنون اليمن قال ابن دريد : هما إيادان إياد بنى نذار وإياد بن سود بن الحجر بن عمار بن عمرو

(٥) نسبة إلى ليث وهو ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وفى التهذيب بنو ليث حى من كنانة

(٦) بنو خثعم بطن من أنمار بن أراش قال فى العبر : بلاد خثعم مع اخوتهم بجيلة بسروات اليمن والحجاز . وقال السلطان ابن رسول فى كتابه أنساب العرب . واختلف فى خثعم وبجيلة فأكثر أهل النسب يقولون أنهما أبناء أنمار بن نزار بن معد ابن عدنان وأنهما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن العمرو بن غوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

والسكسكى (١) . والزبيدى (٢) . والثعلبى (٣) . والكلاعى (٤) . والدوسى (٥)

(١) نسبة إلى سكاسك حى باليمن وهما قبيلتان الأولى من كندة وهو كندة بن عفير بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد وولد لكندة أشرس وولد لاشرس سكسك ويقال له حبيس وهو أخو السكون وحاشد ومالك بنى أشرس . والقبيلة الثانية هم بنو زيد بن واثلة بن حمير وزيد هذا كان يلقب بالسكاسك .

(٢) نسبة إلى زبيد كزبير وهم بطن من مذحج وهو منبه الاكبر بن صعب بن سعد العشيرة بن مالك وهو جماع مذحج وزبيد الأصغر هو منبه بن ربيعة بن سلمة بن مازن ابن ربيعة بن زبيد الاكبر قال ابن دريد : زبيد تصغير زبد وهو العطية . وينسب إلى زبيد عمرو بن معدى كرب الصحابى الفارس المشهور أسلم سنة تسع وشهد الفتوح واستشهد بالقادسية وقيل بنهاوند رضى الله عنه والقاضى أبو الهذيل محمد بن الوليد بن عامر الزبيدى ومحمد بن الحسين الزبيدى الاندلسى صاحب القالى ومحمد بن عبيد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدى الاشبيلى للغوى نزيل قرطبة .

(٣) نسبة إلى ثعلب ويوجد فى العرب قبائل شتى باسم ثعلبة . فثعلبة فى أسد . وثعلبة فى تميم . وثعلبة بن ربيعه . وثعلبة فى قيس ، وثعلبتان فى طىء وهما ثعلبة بن جذعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طى وثعلبة بن رومان بن جندب المذكور قال الزبيدى : وقرأت فى أنساب أبى عبيد : الثعالب فى طى يقال لهم مصابيح الظلام كالربائع فى تميم . ويوجد بطن اسمه ثعلبة فى غطفان

(٤) نسبة إلى ذى الكلاع وهما من اليمن أحدهما الأكبر . وهو يزيد بن النعمان الحميرى من ولد شهال بن وحاضة بن سعد بن عوف بن عدى بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة بن سبأ الأصغر وذو الكلاع الأصغر هو أبو شراحبل سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر .

(٥) الدوس بن عدثان بن عبد الله وأخطأ بعضهم فظن أنه عدنان بالنقطة الموحدة والحال أنه بالثاء المثلثة وهم قبيلة من الأزد قال ابن الجوانى النسابة : هو دوس بن عدثان بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن أزد منهم أبو هريرة الدوسى الصحابى المشهور ، ودوس أيضاً قبيلة من قيس وهم بنو قيس بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان .

والحوارى (١) . والسلمانى (٢)

هذا و يرد كثير من شهادتهم ، و يقل من ذلك السلمى نسباً والدوسى والحوارى والزبيدى ، و يكثر فيهم كالانصارى والحميدى (٣) والجذامى والقيسى والغسانى وكفى بهذا شاهداً على الاصالة ودليلا على العروبة .

وجندهم صنفان : اندلسى ، و بربرى . والاندلسى منهم يقودهم رئيس من القرابة و حصى (٤) من شيوخ الممالك ، و زيهم فى القديم شبه زى اقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج : اسباغ الدروع ، وتعليق الترسة ، وجفاء البيضات ، واتخاذ عراض الأسنة ، و بشاعة قرابيس السروج ، واستركاب حملة الرايات خلفه ، كل منهم بصفة تختص بسلاحه ، وشهرة يعرف بها . ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا الى الجواشن المختصرة ، والبيض المرهفة ، والدرق العربية ، والسهام اللمطية (٥) ، والاسل العطفية .

والبربرى يرجع الى قبائله المرينية ، والزناتية ، والتجانية ، والمغراوية ، والعجيسية

---

(١) لم نجد فى ما قرأناه إلى الآن قبيلة لها هذه النسبة وإنما ورد فى تاج العروس : وحوار كغراب صقع بهجر ، وكذلك بلد الحيرة بقرب الكوفة النسبة اليها حيرى وحارى وقد تكون هذه اللفظة من جملة الألفاظ التى حرفها النساخ فأصبح لا يعرف أصلها .

(٢) نسبة إلى سلمان بطن من مراد وهو سلمان بن يشكر بن ناجية بن مراد قال الرشاطى : وأهل الحديث يفتحون اللام . منهم عبيدة بن عمرو وقيل ابن قيس الكوفى السلمانى أسلم فى حياة النبي عليه السلام ولم يره وروى عن على وابن مسعود . وإلى هذه القبيلة ينسب الوزير العلامة لسان الدين بن الخطيب الذى ننقل كلامه الآن . ويوجد بطن من جذام اسمهم السلمان بالألف واللام

(٣) لعله يريد الحميدات وهم من بنى أسد بن عزى ينسبون إلى حميد بن زهير بن الحرث بن راشد كما فى التوشيح قاله الزبيدى فى تاج العروس .

(٤) الحصى بالحاء المهملة المعروف بالعقل .

(٥) نسبة إلى قبيلة من البربر اسمها اللمط معروفة بنوع من الدرق إلى النهاية فى المتانة ولكن الموصوف هنا هو السهام .

والعَرب المغربية ، الى أقطاب ورؤوس يرجع أمرهم الى رئيس على رؤسائهم ، وقطب لعرفائهم ، من كبار القبائل المرينية ، يمت الى ملك المغرب بنسب . والعمائم تقل فى زى هذه الحضرة ، إلاّ ما شذّ فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربى منهم . وسلاح جموعهم العصى الطويلة المثناة بعصى صغار ذوات عرى فى أوساطها ، ترفع بالانامل عند قذفها ، تسمى « بالامداس » وقسى الافرنجة يحملون على التدريب بها على الايام . والمواسم متوسطة ، وأعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد . والغنى بمدينتهم فاش ، حتى فى الدكاكين التى تجمع صنائعها كثيراً من الاحداث كالخفافين ومثلهم . وقوتهم الغالب البُرّ الطيّب عامة العام ، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضَعَفة والبوادى والفَعَلة فى الفلاحة الذرة العربية . ومثل أصناف القطانى الطيبة .

وفواكههم اليابسة عامة العام متعددة ، يدّخرون العنب سليما من الفساد الى شطر العام ، الى غير ذلك من التين ، والزبيب ، والتفاح ، والرمان ، والقسطل [(١)] ، والبلوط ، والجوز ، واللوز ، الى غير ذلك مما لا ينفد ولا ينقطع ، إلا مدة فى الفصل الذى يزهد فى استعماله .

وصرفهم فضة خالصة ، وذهب ابريز طيب محفوظ ، ودرهم مربع الشكل من وزن المهدى القائم بدولة الموحدين ، فى الاوقية منه سبعون درهما ، يختلف الكتب فيه : فعلى عهدنا فى شِق : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وفى شِق آخر : « لا غالب إلا الله » غرناطة . ونصف ، وهو القيراط ، فى شق : « الحمد لله رب العالمين » وفى شق : « وما النصر إلا من عند الله » ونصفه ، وهو الربع ، فى شِق : « هدى الله هو الهدى » وفى شِق : « العاقبة للتقوى » .

ودينارهم فى الاوقية منه ستة دنانير وثلثا دينار ، وفى الدينار الواحد ثُمن أوقية وخُمس ثُمن أوقيـة ، وفى شِق منه : « قل اللّهمّ مالكَ المُلْكِ (الى) بيدِك الخير » ويستدير به قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » وفى شِق :

(١) هو ما يقال له الكستنا

« الامير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين ابى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ابن نصر أيّد الله أمره » و يستدير به : « لا غالب إلا الله » ولتاريخ تمام هذا الكتاب في وجه : « يا أيها الذين آمنوا اصْبِروا وصابِروا ورابطوا واتّقوا اللهَ لعلّكم تفلِحون » و يستدير به : « لا غالب إلا الله » وفي وجه : « الامير عبد الله الغنى بالله محمد بن يوسف بن اسماعيل بن نصر أيّده الله وأعانه » و يستدير بربع : « بمدينة غرناطة حرسها الله » .

وعادة أهل هذه المدينة الانتقال الى حلل المصير ، أوان إدراكه بما تشتمل عليه دورهم ، والبروز الى الفحوص باولادهم وعيالهم ، معوّلين فى ذلك على شهامتهم . وأسلحتهم على أكتاد دوابهم ، واتصال أمصارهم بحدود أرضهم ، وحليهم في القلائد والدمالج والشنوف والخلاخل الذهب الخالص الى هذا العهد فى أولى الجدة ، واللجين فى كثير من آلة الراجلين فيمن عداهم ، والاحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد ، ونفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة الى ظل دولة ، أو اصالة معروفة موفّرة .

وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النّشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، إلا أن الطول يندر فيهن . وقد يبلغن من التفنن فى الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبّغات ، والتنافس بالذهبيات والديباجياب ، والتماجن فى اشكال الحلى الى غاية ، نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ، و يكف كف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه بعزته وقدرته . انتهى . قلت : كيف لو عاش ابن الخطيب فى عصرنا هذا ! فماذا كان يقول ياليت شعرى ! ؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد ! .

ما ذكره المقّرى فى النفح عن أنساب عرب الأندلس

قال : إنه لما استقر قدم أهل الاسلام فى الأندلس ، وتتامّ فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان . فأماالعدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش . وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب فى فرحة الأنفس: بالأندلس منهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب . ومن هؤلاء بنو حمّود ملوك الأندلس بعد انتثار ملك بنى أمية . وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس . قال ابن سعيد : و يعرفون هنالك إلى الآن بالقرشيين ، وربما عموا نسبهم إلى أمية فى الآخر ، لما انحرف الناس عنهم ، وذكروا أفعالهم فى الحسين رضى الله عنه . وأمابنو زهرة فمنهم باشبيلية أعيان متميّزون وأما المخزوميون فمنهم أبو بكر المخزومى الأعمى الشاعر المشهور من أهل حصن المدور . ومنهم الوزير الفاضل فى النظم والنثر أبو بكر بن زيدون ، ووالده الذى هو أعظم منه ، أبو الوليد ابن زيدون وزير معتضد بنى عباد .

قال ابن غالب : وفى الأندلس من ينتسب إلى جمح ، وإلى بنى عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفين بالفهريين من بنى محارب بن فهر ، وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قطَنَ سلطان الأندلس . ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، و بنو الجد [١] الأعيان العلماء . ومن بنى محارب بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، سلطان الأندلس ، الذى غلبه عليها عبد الرحمن الأموى الداخل وجدّ يوسف عقبة بن نافع الفهري ، صاحب الفتوح بأفريقية . قال ابن حزم : ولهم بالأندلس عدد وثروة .

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجلهم فى طُلَيْطُلة وأعمالها ، ولهم

---

(١) لمولاى سليمان سلطان المغرب تأليف خاص فى نسب بنى الجد الذين يقال لهم اليوم بنو الفاسى

ينسب الوشقيون الكنانيون الأعيان الفضلاء ، الذين منهم القاضى أبو الوليد ، والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة ، وقد ذكرناه فى محله .

وأما هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أن منزلهم بجهة أريولة من كورة تدمير . وأما تميم بن مرة بن أُدّ بن طابخة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب أيضاً أنهم خلق كثير بالأندلس ، ومنهم أبو الطاهر صاحب المقامات اللزومية . وأما ضبة بن أُدّ بن طابخة فذكر أنهم قليلون بالأندلس . فهؤلاء خندف من العدنانية .

وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومنهم من ينتسب إلى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس ، كعبد الملك بن حبيب السلمى الفقيه ، صاحب الامام مالك رضى الله عنه وكالقاضى أبى حفص بن عمر قاضى قرطبة . ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة . قال ابن غالب : وهم بأشبيلية خلق كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن قال ابن غالب : ولهم منزل بجوفى بلنسية ، على ثلاثة أميال منها وبأشبيلية وغيرها منهم خلق كثير ، ومنهم بنو حزم ، وهم بيت غير البيت الذى منه أبو محمد بن حزم الحافظ الظاهرى ، وهو فارسى الأصل[1] ومنهم من ينتسب إلى سعد بن بكر بن هوازن . وذكر ابن غالب أن منهم بغرناطة كثيرا كبنى جودى وقد رأس بعض بنى جودى . ومنهم من ينتسب إلى سلول ، امرأة نسب اليها بنوها وأبوهم مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . ومنهم من ينتسب إلى نمير بن عامر بن صعصعة . قال ابن غالب : وهم بغرناطة كثير ومنهم من ينتسب إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . ومنهم بلج بن بشر صاحب

(١) الأفرنج مجموعون على أنه من أصل اسبانيولى

الأندلس وآله و بنو رشيق . ومنهم من ينتسب إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . ومنهم من ينتسب إلى أشجع بن ريث ابن غطفان . ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الأشجعي سلطان الأندلس

وفى ثقيف اختلاف : فمنهم من قال إنها قيسية ، وإن ثقيفاً هو قيس بن منبه ابن بكر بن هوازن ، ومنهم بالأندلس جماعة ، وإليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفى صاحب الأندلس وقيل إنها من بقايا ثمود انتهى قيس بن عيلان وجميع مضر

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار . قال فى فرحة الأنفس : ان اقليم هؤلاء مشهور باسمهم . بجوفىّ مدينة وادى آش انتهى والأشهر بالنسبة الى أسد أبداً بنو اسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، ومنهم من ينتسب الى محارب بن عمرو بن وديعة بن بكير بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد ابن ربيعة ، . قال ابن غالب في فرحة الانفس : ومنهم بنو عطيه أعيان غرناطة . ومنهم من ينتسب الى النمر بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ ابو عمر بن عبد البر ، ومنهم من ينتسب الى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب ، كبنى حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب الى بكر بن وائل كالبكريين أصحاب أونبة وشلطيش ، الذين منهم أبو عبيد البكرى صاحب التصانيف . انتهت ربيعة .

وأما إياد بن نزار ، وقد يقال انه ابن معدّ ، والصحيح الاول ، فينتسب اليهم بنو زهرة المشهورون باشبيلية وغيرهم . انتهت العدنانية . وهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام .

واختلف فى القحطانية ، هل هم من ولد اسماعيل ؟ أو من ولد هود ؟ على ما هو معروف ، وظاهر صنيع البخارى الاول ، والاكثر على خلافه . والقحطانية هم المعروفون باليمانية ، وكثيراً ما يقع بينهم و بين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالاندلس ، كما كان يقع بالمشرق ، وهم الاكثر بالاندلس ، والملك فيهم أرسخ ، إلا ما كان من

خلفاء بنى أمية ، فان القرشية قدمتهم على الفرقتين ، واسم الخلافة لهم بالمشرق . وكان عرب الاندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والافخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر الداهية الذى ملك سلطنة الاندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء ، وقدّم القواد على الأجناد ، فيكون فى جند القائد الواحد فِرق من كل قبيل ، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالاندلس ، إلا ما جاءت على غير هذه الجهة .

قال ابن حزم : جماع أنساب اليمن من جرم بن كهلان ، وحمير بن يشجُب ابن يَعْرُب بن قحطان بن عابر بن شالَخ بن ارْفَخْشذ بن سام بن نوح ، وقيل قحطان بن الهَمَيْسَع بن تيمان بن نابت بن اسماعيل ، وقيل قحطان بن هود ابن عبد الله بن رباح بن جارف بن عاد بن عَوْص بن إرَم بن سام . والخلف فى ذلك مشهور ، فمنهم كهلان بن سبا بن يشجُب بن يعرب بن قحطان ، ومنهم الازد ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، واليهم ينتسب محمد بن هانىء الشاعر المشهور الالبيرى ، وهو من بنى المهلّب . ومن الازد من ينتسب الى غسّان ، وهم بنو مازن بن الازد ، وغسّان ماء شربوا منه . وذكر ابن غالب ان منهم بنى القسيعي من أعيان غرناطة ، وكثير منهم بصالحة ، قرية على طريق مالقة ، ومن الازد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجم الغفير بالاندلس .

قال ابن سعيد : والعجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس فى أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة . ولقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه إلاّ شيخاً من الخزرج ، وعجوزاً من الأوس . قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة ، وهم أكثر القبائل بالأندلس فى شرقها ومغربها انتهى . ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء ، من ولد سعد بن عبادة ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المشهور بالموشحات . و إلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة ، الذين كان لسان

الدين بن الخطيب أحد وزرائهم ، وعليهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين ، واستولى العدو على الجزيرة جميعاً كما يذكر . ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عك بن عديان بن أزان بن الأزد . وقد يقال عك بن عدنان بالنون .فيكون أخا معدّ بن عدنان وليس بصحيح

قال ابن غالب : من غافق : أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب ، وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق . ومن كهلان من ينتسب إلى همدان ، وهو أوسلة ابن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان ، ومنزل همدان [1] مشهور ، على ستة أميال من غرناطة . ومنهم أصحاب غرناطة بنو أضحى . ومن كهلان من ينتسب إلى مَذْحِج . ومَذْحِج اسم أكَمَة حمراء باليمن ، وقيل اسم أم مالك وطيء بن أدَد بن زيد بن كهلان . قال ابن غالب : بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مَذْحِج . ومنزل طيء بقبليّ مرسية . ومنهم من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أُدَد . وحصن مراد بين أشبيلية وقرطبة مشهور . قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقا كثيرا . ومنهم من ينتسب إلى عنس بن مالك بن أدَد ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب المُغْرب . وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة . ومن مَذْحِج من ينتسب إلى زُبَيْد قال ابن غالب : وهو منبه بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد . ومن كهلان من ينتسب إلى مرة بن ادد بن زيد بن كهلان . قال ابن غالب : منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى عاملة . وهي امرأة من قضاعة ، ولدت للحرث بن عَدِيّ بن الحرث مرة بن أدد فنسب ولدها منه إليها . قال ابن غالب : منهم بنو سماك القضاة من أهل غرناطة . وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان ، وقيل هم من قضاعة .

---

(١) الاسبان يسمون هذا المكان « هندين » Hendin لأنهم قلبوا الميم نوناً ثم لفظوا الألف بالامالة فصارت كالياء .

ومن كهلان خولان بن عمرو بن الحرث بن مُرّة . وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء واشبيلية . ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة . ومنهم من ينتسب إلى المعافرين يعفر بن مالك بن الحرث بن مرة ، منهم المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس . ومنهم من ينتسب الى لخم بن عدى بن الحرث بن مرّة . منهم بنو عباد أصحاب اشبيلية وغيرها . وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة . ومنهم بنو الباجى أعيان اشبيلية ، و بنو وافد الأعيان . ومنهم من ينتسب إلى جذام ، مثل ثوابة بن سلامة صاحب الأندلس ، و بنى هود ملوك شرق الأندلس . ومنهم المتوكل ابن هود الذى صحت له سلطنة الأندلس بعد الموحدين . ومنهم بنو مردنيش أصحاب شرق الأندلس . قال بن غالب : وكان لجذام جزء من قلعة ر باح . واسم جذام عامر ، واسم لخم مالك ، وهما ابنا عدى

ومن كهلان من ينتسب إلى كندة ، وهو ثور بن عفير بن عدى بن مرّة بن أُدَد ، ومنهم يوسف بن هرون الرمادى الشاعر . ومنهم من ينتسب إلى تُجيب ، وهى امرأة أشرس بن السّكون بن أشرس بن كندة . ومن كهلان من ينتسب إلى خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ومنهم عثمان بن أبى نسعة [1] سلطان الأندلس . وقد قيل انمار ابن نزار بن معد ابن عدنان . انتهت كهلان .

وأما حمير بن سبا بن يشجُب بن يعرب بن قحطان فمنهم من ينتسب إلى ذى رُعَين . قال ابن غالب : وذو رُعَين هم ولد عمرو بن حِمْير فى بعض الأقوال ، وقيل هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معارية بن جُشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن بن عَريب بن زُهَير بن ايمَن بن الهَمَيْسَع بن حمير . قال : ومنهم أبو عبد الله الحناط الأعمى الشاعر . قال الحازمى فى كتاب النسب : واسم ذى رُعين

(١) اكثر الافرنج يجعلون عثمان بن ابى نسعة هذا الذى تزوج بابنة الكونت اود ملك غاليا بربريا ولم نعلم سندهم فى ذلك

عَريم بن زيد بن سهل . ووَصَل النسب . ومنهم من ينتسب إلى ذى أَصْبَح . قال ابن حزم : هو ذو أصبَح بن مالك بن زيد من ولد سبا الأصغر ابن زيد بن سهل ابن عمرو بن قيس، ووَصل النسب . وذكر الحازمى أن ذا أصبح من كهلان . واخبر أن منهم مالكَ بنَ أنس الامام ، والمشهور أنهم من حمير . والأصبحيون من أعيان قرطبة . ومنهم من ينتسب إلى يحصب قال ابن حزم : إنه أخوذى أصبح ، وهم كثير بقلعة بنى سعيد ، وقد تُعْرف من أجلهم في التواريخ الأندلسية بقلعة يحصب . ومنهم من ينتسب إلى هوازن بن عوف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث . قال ابن غالب ومنزلهم بشرق اشبيلية والهوازنيون من أعيان أشبيلية . ومنهم من ينتسب إلى قُضَاعة بن مالك بن حمير ، وقد قيل إنه قضاعة بن معدّ بن عدنان ، وليس بُمرْض

ومن قضاعة من ينتسب إلى مهرة ، كالوزير أبى بكر بن عمار ، الذى وثب على ملك مرسية (١) ، وهو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . ومنهم من ينتسب إلى خشين بن تنوخ ، قال ابن غالب : وهو بن مالك بن فهم بن نمر ابن وبرة بن تغلب . قال الحازمى : تنوخ هو مالك بن فهر بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة . ومنهم من ينتسب إلى بَلِيّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . ومنهم البلويون الاشبيلية . ومنهم من ينتسب إلى جهينة بن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . قال ابن غالب : وبقرطبة منهم جماعة . ومنهم من ينتسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان ، كبنى أبى عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة ووزراؤها . ومنهم من ينتسب إلى عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن أسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة

ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى حضرموت منهم الحضرميون بمرسية وغرناطة واشبيلية (٢) و بطليوس وقرطبة . قال ابن غالب : وهم كثير بالأندلس ،

(١) وهو الذى قتله المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية لهجوه اياه هجوا مقذعاً

(٢) ابن خلدون صاحب التاريخ هو من حضارمة اشبلية ولا تزال فى اسبانيا وثائق خطية تثبت املاك بنى خلدون فى ذلك الصقع

وفيه خلاف ، قيل : إن حضرموت هو ابن قحطان ، وقيل هو حضرموت بن قيس ابن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جيدان بالجيم بن قَطَن ابن العريب بن الغرز بن نبت بن أيمن بن الهيسع بن حمير . كذا نسق النسب الحازمى ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى سلامان ، ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب حسبما ذكر فى محله .

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بنى أمية ، وإن تقدم ، ويأتى ذكر جملة منهم بما هو أتمّ مما هنا فنقول : طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، ثم الأمير موسى بن نصير ، وكلاهما لم يتخذ سرير السلطنة ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وسريره اشبيلية ، ثم أيوب بن حبيب اللخمى وسريره قرطبة . وكل من يأتي بعده فسريره قرطبة ، والزهراء والزاهرة بجانبيها ، إلى أن انقضت دولة بنى مروان ، على ما ينبه عليه ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، ثم السّمْح بن مالك الخولانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، ثم عنبسة بن سحيم الكلبى ، ثم عذرة بن عبد الله الفهرى ، ثم يحيى بن سلمة الكلبى ، ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، ثم حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عبيد الكلابى ثم محمد بن عبد الله الأشجعى ، ثم عبد الملك بن قَطَن الفهرى ، ثم بلج ، ثم بشر ابن عياض القشيرى ، ثم ثعلبة بن سلامة العاملىّ ، ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبى ، ثم ثوابة بن سلامة الجذامى ، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة ، افرادا ، عددهم عشرون ، فيما ذكر بن سعيد ، ولم يتعدوا فى السمة لفظ الأمير قال ابن حيان . مدتُهم ، منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصرانى ، وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المروانى على سرير الملك بقرطبة ، وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ـ ست وأربعون سنة وخمسة أيام اه .

ثم كانت دولة بنى أمية ، أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ثم ابنه هشام الرضى . ثم ابنه الحكم بن هشام . ثم ابنه عبد الرحمن الأوسط . ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن . ثم ابنه المنذر بن محمد . ثم أخوه عبد الله بن محمد . ثم ابن عمه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله . ثم ابنه الحكم المستنصر ، وكرسيهما الزهراء . ثم هشام ابن الحكم . وفى أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبى عامر الزاهرة . ثم المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر . وهو أول خلفاء الفتنة ، وهدمت فى أيامه الزهراء والزاهرة ، وعاد السرير إلى قرطبة . ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ، ثم تخللت دولة بنى حمود العلويين ، وأولهم الناصر على بن حمود العلوى الادريسى . ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود . ثم كانت دولة بنى أمية الثانية وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر . ثم المستكفى محمد ابن عبد الرحمن بن عبد الله . ثم المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس . وحين خلع اسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية ، واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور فى قرطبة ، وابن عبّاد باشبيلية ، وغيرهما ، ولم يمد نظام الأندلس إلى شخص واحد إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من بر العدوة ، وفتك بملوك الطوائف ، وبعد ذلك ما خلصت له ولا لولده على ابن يوسف ، لأن بنى هود نازعوه فى شرقها بالثغر ، إلى أن جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه . فما صفَت لعبد المؤمن بمحمد بن مردنيش الذى كان ينازعه فى شرق الأندلس ثم صفت ليوسف بن عبد الرحمن بموت ابن مردنيش ، ثم لمن بعده من بنيه ، وحضرتهم مراكش . وكانت ولاتهم تتردد على الأندلس وممالكها ، ولم يوآوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها ، الى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بنى هود ، ملوك سرقسطة ، وجهاتها ، فملك معظم الأندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان ، ولم ينازعه فيها إلا زيان بن مردنيش فى بلنسية من شرق الأندلس ، وابن هلالة فى طبيرة من غرب الأندلس . ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته

ولما قتله وزيره ابن الرميمى بالمرية زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر . وكان عرب أهل الأندلس فى المائة السابعة يخطبون لصاحب افريقية السلطان أبى زكريا يحيى ابن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص . ثم تقلصت تلك الظلال ، ودخل الجزيرة الانحلال ، إلى أن استولى عليها حزب الضلال . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

نظرة إجمالية

إن اسبانية والبرتغال ليستا على وجه الاجمال معروفتين حق المعرفة عند الناس ومهما اتسعت المعلومات عنهما فالناس تعلم عن أكثر البلدان الأوربية ما لا تعلمه عنهما ، لأن الممالك المعدودة كأنموذجات للمدنية الحاضرة ، والعواصم التى يقصد اليها السياح لأجل الفرجة والاستشفاء أو البحث ، ويؤمها الطلبة لأجل تحصيل العلوم ، ليست فى اسبانية ولا فى البرتغال ، وإذا رجعنا إلى طبيعة الأرض ، وبداعة المناظر فليس فى الجزيرة الايبيرية فى الحقيقة من تنوع المناظر الساحرة ما فى إيطالية مثلا ، كما أن السائح لا يرى فيها تلك المروج الزمردية ، والبحيرات اللطيفة ، والجبال الشامخة ، المعممة بالثلج ، ولا مسارح اللمحات التى يراها فى سويسرة ، ولكن مما لا جدال فيه أن مواقع معدودة من اسبانية والبرتغال تعد من أبدع مواقع العالم ، وأنها المثل الأعلى من جهة الجنان والبساتين .

أما من جهة المدنية فهى فى جنوبي اسبانية راجعة الى أشد أدوار التاريخ توغلاً في القدم ، وقد كان للفينيقيين فى هذه البلاد دور طويل عريض ، وقد أثروا فيها آثاراً لاتزال بقاياها ماثلة إلى الآن ، ثم جاء الرومانيون ، وكانت لهم طبيعة عمرانية معروفة لهم شرقا وغرباً ، فوجدوا مجال العمل فى اسبانية ذا سعة ، فعملوا ، وبنوا ، وأثّروا ، وأثّلوا ، وتركوا آثاراً ناطقة بفضلهم ، وجسوراً وأقنية معلقة منبئة عن شأوهم، وملاهى وهياكل ، كالتى فى ماردة ، وطرّكونة ، ومربيطر ، وغيرها مما لا يدرسه الزمان ، ولا ينال منه الحدثان .

وجاء بعد ذلك العرب فأثلوا في الجزيرة الايبيرية ، أو الجزيرة الاندلسية على رأيهم ، حضارة عربية شرقية بلغت من الأبهة ، والفراهة ، وسلامة الذوق ، سدرة المنتهى ، فلا تكاد تمر بمكان إلا للعرب فيه آثار باهرة ، وعنهم أخبار تتحدث بها السامرة ، ولا يزال نظام سقيا الجنان ، وتوزيع المياه على الارضين ، هو النظام الذى رتبوه فى أيامهم ، ثم انه لا ينكر ان الفن المسيحى ، سواء فى القرون الوسطى ، أومن بعد عهد النهضة Renaissance قد ترك فى اسبانية آثاراً فاخرة ، ومبانى فخمة ، كقصر الاسكوريال مثلا .

فالذين يقصدون إلى اسبانية من السياح لا تخيب آمالهم ، ولا تذهب نفقاتهم سدى ، وذلك لأن السائح الأوربي يجد دائماً فى اسبانية أشياء جديدة بالنسبة اليه .

فالبلاد كلها عبارة عن جزيرة يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ، وتحيط بها جبال البرانس الشامخة من الجهة الرابعة ، فهي معتزلة فى مكانها ، منتبذة من اوربة زاوية خاصة بها ، غير متأثرة بغيرها ، محتفظة بجميع مميزاتها وخصائصها ، لا هى شرقية تماما ، ولا هى غربية تماما ، بل هى متوسطة بين اوربةوأفريقية ، واصلة بين المشرق والمغرب ، منطوية فى أحناء وجودها هذا المستقل على أسرار لا يعرفها إلا من أكثر من التجوال فيها ، وقرن السير بالنظر .

وهناك شعب شديد الخنزوانة قائم بذاته ، لا يشبه غيره ، ولا يريد أن يتشبه بغيره ، وله مآخذ ومتارك لاينزل عنها ، وهو بفطرته لايحب تقاليد الشعوب الاخرى ، بل هو من قديم الزمان مستمسك بأوضاعه ، متعال عن السير وراء أقرانه ، لا يرضى بما لديه بدلا ، ولا يبتغى عما ائتلفه حوَلا .

نعم من جهة الصناعة وفن الرسم والتصوير قد يقلّد الاسبانيول سواهم ، بل يجد الناظر فى كنائسهم وقصورهم آثاراً للفن الايطالى ، الذى يدور على محاكاة الطبيعة . وكذلك يجد فى رسومهم وتصاويرهم تأثير الفن الافرنسي ، والفلمنكي ، بل ليس فى اسبانية فن تصوير خاص بها ، ولا فن بناء خاص بها ، وإنما هى محاكاة للامم

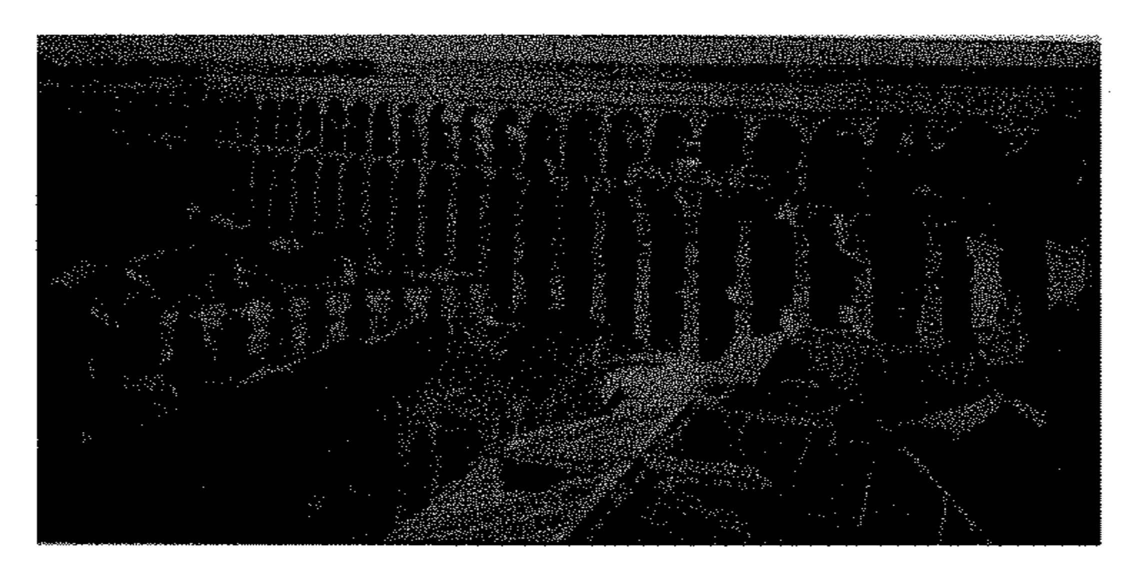
الغربية الاخرى مع جزء فيها من الطبع الاسبانى . وإذا كان السائح الاوربى لم يعرف بلاد الشرق ، أو لم يقيض له أن يزور بلاد الاسلام ، فانه يجد فى اسبانية آثاراً عربية ، تكفيه لأخذ صورة حقيقية عن المدنية الاسلامية ، التى منها فى الاندلس أمثلة كافية ، وقِطَع تعد من أنفس وأرق ما تركه العرب من الآثار فى الارض .

وأما السائح الشرقى فانه يقضى سياحته فى أسبانية متأملا ، غائصاً فى بحار العبر هائماً فى أودية الفكر . كلما عثر على أثر عربى خفق له قلبه ، واهتزت أعصابه ، وتأمل فى عظمة قومه الخالين ، وما كانوا عليه من بعد نظر ، وعلو همم ، وسلامة ذوق ، ورفق يد ، ودقة صنعة . وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فى ماوراء البحر فى بحبوحة النصرانية ، وملتطم أمواج الأمم الأوربية ، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين ويشيدوا فيها ألوفا من الحصون ، وأن يملأوها أساساً وغراساً ، كأنهم فيها أبد الآبدين ، فلايزال قلب السائح المسلم فى الأندلس مقسّما بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها ، والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم ، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذى كانوا ملكوه ، والوجد على ضياع ذلك الارث الذى عادوا فتركوه ، وأكثر مايغلب عليه فى سياحته هناك هو الشعور بالألم ، فهو لا يزال يسير بين تأمّل وتألّم ، وتفكر ، وتحسّر ، لكنه يريد مع ذلك أن يقترى هذه الآثار ، وأن يمشى فى مساكن أولئك الآباء ، وأن يخاطب الأحجار ، وذلك لأنه لهوى النفوس سرائر لاتُعلم ، من من جملتها أنها تنزع إلى البكاء عند دواعى الوجد ، كما ترتاح إلى الطرب عند بواعث السرور ، وأنها قد تهتف بالأمرين معاً ، وتجمع الضدين شَرَعاً ، وأن كل ما هو حنين وتذكار ، وولوع بعد الأعيان بالآثار ، هو من سرائر البشرية ، ومما هو غالب على النفس الناطقة .

العمران والفن فى اسبانية

هذا ، و إذا حاولنا تحليل الإنشاء العمرانى الذى يعول عليه فى اسبانية وجدناه ينقسم إلى أربعة أدوار : رومانى ، وقوطى ، وعربى ، وأوربى متجدد ، فالروماني أعظم آثاره متجلية فى مدينة ماردة ، قاعدة « لوزيتانيا » التى بناها أغسطس ، ففيها الجسر الذى كانت له ٨١ حنيّة ، وفيها القناتان المعلقتان ، وفيها الملهى التمثيلى ، وفيها ملهى التمثيل البحرى وفيها الملعب العام ، وفيها هيكل المريخ الذى تحول فيما بعد كنيسة وفيها قوس النصر الشهيرة ، وغير ذلك من المبانى الخالدة . وطركونة فيها عدة هياكل وملهى تمثيلى ، وملعب وحمامات ، وجميعها من أفخم المبانى الرومانية التى يقيدها التاريخ لتلك الأمة العظيمة . وسقوبية Ségopice هى ذات القناة المعلقة التى طولها ٨١٨ متراً ، منها ٢٦٦ متراً راكبة على طاقين من الحنايا ، الواحد فوق الآخر ، عدد قناطرها ١١٩ قنطرة ، وهو أكمل وأروع بناء رومانى فى اسبانيا .

وأما القوطى فأقدم آثاره فى « أوبيط » Oviedo وهى كنيسة « سان ميكال دولينو » San Mikal de Lino من بناء رامير الأول (٨٤٢ - ٨٥٠) وكنيسة



القناة الرومانية المعلقة فى شقوبية

« سانتا مار ية نارنــكو » Naranco وغيرهما . وفى برشلونة اديار البندكتيين « سان بابلو دالــكمبو San Pablo delcampo و « سان بدرو دولاس بو يلاّس » San Pedro de Las Puellas من أبنية القرن العاشر .

و بعد ذلك لعهد بداية الــكرّة الاسبانيولية على العرب ظهرت صنعة جديدة فى البناء تدل عليها كنائس ذلك الوقت ، يكثر فى بنائها شكل الصليب ، و يقل الزخرف ، وتمتاز بالرصانة والمتانة . ومن هذا النوع كنيسة «سانت ياقو دو كومبوستيلا» De Compostela التى يرجع بناؤها إلى سنة ١٠٦٠ ، وقد امتد إلى سنة ١٠٩٦ وهى تقاليد لــكنيسة « سان سِرنين » فى طلّوزة . وعلى نسق هذه الــكنيسة بنيت كنيسة « سان ايز يدورو » فى ليون بين سنتى ١٠٦٣ و ١١٤٩ و « سانتا مَرية » فى « كورنية » وسان بدرو فى وشقة وغيرها . ثم فى القرن الثانى عشر بدأوا فى اسبانية يقلدون نسق البناء المعروف في فرنسة ، و يقال له هناك غوتيق Gothique وأصله نسبة إلى القوط ، ولــكنه ليس بالقوطى الاسبانيولى القديم ، فبنيت كنائس فى طلمنكة ، وطرّكونة ولاردة ، وتطيلة ، وآبلة ، وسقو بية ، على هذا النسق . وقدفاقت فى الضخامة جميع ما تقدمها .

وفي مدينة برغش Burgos كنيسة كبرى بناها المطران مور يسيو سنة ١٢٢١ تحتوى مجموعة فنون البناء فى الثلاثة الاعصر الاخيرة لذلك العهد . وكان يقال انها أبدع كنيسة فى اسبانية . بناها الاستاذ يوحنا الــكولونى Jean Cologne وكان من بلدة كولونية بنّاؤون كثيرون يعملون فى اسبانية ، وكانوا يتوخون فى ذلك العهد مناغاة الابنية العربية . و يحاولون التفوّق عليها . فكنيسة برغش بنيت سنة ١٢٢١ و بعد ذلك بقليل ، عند ما حوّلوا المسجد الأعظم فى طليطلة الى كنيسة فى سنة ١٢٢٧ اجتهدوا فى أن يعطوه من السعة والاتقان والفخامة والضخامة ما لم يكن معهوداً إلى ذلك الوقت ، وليس في اسبانية كنيسة أوسع رقعة من كنيسة طليطلة سوى كنيسة اشبيلية . ثم بعد بناء كنيسة طليطلة أنشأوا الــكنيسة الــكبرى فى ليون ،

ذات الصور البديعة على البلور ، وتبع ذلك كنيسة « آبلة » Avila ثم فى القرن الرابع عشر والخامس عشر جدّ طرز آخر للبناء يميل إلى توسيع الداخل، ومنه كنيسة سانت ياقو فى طليطلة ، وكنيسة « استورقة » Astorca وكنيسة سان بنيتو فى « بلد الوليد » Valladolid ودير « البرّال » Parrel فى سقوبية ، وفى « نبارة » Navarre كنيسة بنبلونة Panpelonne وهى أشبه بكنائس فرنسة . وأبهى تلك الكنائس كلها الكنيسة العظمى فى برشلونة . بناها فابر الميورقى . وفى القرن الخامس عشر بنيت كنيسة أشبيلية مكان الجامع الكبير الذى كان فيها ، وهى أوسع بنية فى ذلك العصر ، بناها معلمون من هولاندة ، وكانوا قد بدأوا يقلدون العرب فى نقش الكتابات على أحجار المبانى العامة ، وتطريس الخطوط على الأبواب

وأما فى كتلونية فانتهى طرز انشاء الكنائس بأن أصبح مطابقاً تمام المطابقة لطرز بنائها فى فرنسة ، ولما كشف الاسبانيول أميركة ، وبلغت اسبانية ما بلغته من العظمة والبسطة فى القرن الخامس عشر . ازداد الاسبان تفنناً فى البناء ، وشادوا تحت تأثير العز ، ونشوة السلطان ، وكثرة الخيرات ، مبانى مدهشة ، تستحق السياحة من البلاد النائية ، وذلك من قبيل « سان بابلو » و سان غريغوريو » فى بلد الوليد ، و « سنتا كروس » فى سقوبية ، وفى ذلك العصر نبغ « خيل دوسيلو » الذى يعد عبقرى وقته فى البناء . إلا أنه قد دخل إذ ذاك فى هندسة الكنائس فى أسبانية بدعة لم تكن لتزيدها بهاء ولا رونقا ، وهى جعل موضع خاص فى وسط البيعة لأجل الأحبار والقسيسين ، مما كان يخل بالهندسة ، و ينافى وحدة الخطوط .

وكذلك هناك بدعة أخرى ، ليست بأقل منها هُجْنة ، وهى الاجتهاد فى منع النور عن الكنائس ، وإبقاء داخلها مظلما بقدر الامكان . وهذه العادة فاشية فى أكثر بيع أوربة حتى يظن الغريب الجاهل بالأوضاع أن الظلمة هي مستحبة فى قانون الكنيسة ، وأن النور مكروه فيه . ولا نظن أحداً يكابر فى هذه الحالة

وأما طرز البناء العربى فهو على العكس من ذلك فهو يكره الظلام ، و يحب

النور ، كما تشهد ذلك فى جميع المساجد والمبانى العمومية التى شادها المسلمون فى الأندلس وغيرها ، فأما مسجد قرطبة فهو أعظم مسجد فى أسبانية ، ومن أعظم المساجد فى الاسلام ، لا أظن مسجداً يفوقه فى السعة سوى المسجد الحرام ، وسوى المسجد الأقصى . وربما كان جامع ابن طولون فى مصر بهذا المقدار . ولم يقع إنشاء المسجد الأعظم فى قرطبة دفعة واحدة ، بل وقع شيئا فشيئا ، كما سيأتى تفصيل ذلك ، فكان يزاد فيه كلما ازداد سكان قرطبة . وترى الافرنج الذين يدخلون إليه يؤوّلون سعته هذه بأنه بناء قوم كانوا يحلمون بأن الاسلام لابد أن يعم العالم ، فان المسقوف والصحن من هذا المسجد يسعان ثمانين ألف مصل يصلون وراء إمام واحد .

فأما النقش والفُسَيفِساء اللذان فى هذا المسجد فلا شك فى كونهما من الصنعة البيزنطية ، كما أنه لا شك فى أن صنّاع المسلمين تعلموها وتفنّنوا فيها ، وقد تفننوا فى الخرط والنحت والنقش والزينة بما جعل لهم أسلوبا خاصاً معروفا بهم منسوباً إليهم ، تجده فى مساجدهم ، وقصورهم ، وحماماتهم ، وأبراجهم ، وأبوابهم ، وكل بناء يولونه شطراً من عنايتهم .

ومما تمتاز به المبانى الاسلامية نقش آيات القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة والامثال ، والأشعار ، فى الحيطان والسقوف ، وفوق الابواب ، وفى الامكنة المعروضة للنظر ، بما تزداد به الابنية سناء ، والابهاء بهاء ، ويعد من نفائس الزينة التى تزهو بها هذه المعاهد . ولقد رأيت فى رُندة قاعة انكشفت جديدا ، حيطانها كلها من المرمر ، وقد حُفر عليها سورة الفتح من أولها إلى آخرها . وكان الاسبانيول يوم أجلوا العرب عن الاندلس إذا رأوا بناء متقناً ، وضنّوا به أن يجعلوه دكا ، أبقوه ماثلا ، لكنهم غطوا بالجص جميع ما على الحيطان من الكتابات العربية ، حتى يمحوا أثر الاسلام من بلادهم بالمرة .

ولبث ذلك ديدنهم إلى هذا العصر الذى شعروا فيه بأن السياح إنما تقصد بلادهم لأجل مشاهدة الآثار العربية ، فرجعوا ينقبون عنها فى كل سهل وجبل ،

وكلما انكشف لأحدهم منها شيء عدّ نفسه قد عثر على كنز ، وصارت المجالس البلدية تمنع هدم أي أثر قديم للعرب ، و إن كان متداعياً إلى الخراب اكتفوا بتقويم شعثه ، وأبقوه على هيئته . وقد يكون الشارع ضيقاً ولا يسمحون بتوسيعه ، إذا استلزم ذلك هدم الأبنية العربية .

ومما يُعجب به الافرنج من مساجد الأندلس جامع في طليطلة يقال له اليوم « سانتو كريستو دولالوز » Dela Luz تاريخ بنائه كما يفهم من الكتابة التي في مدخله سنة ٩٢٢ مسيحية . ولما استرجع الأسبانيول طليطلة في القرن الحادي عشر المسيحي حولوه كنيسة ، ولم يغيروا فيه إلا الجهة الشرقية . وفي هذا المسجد بقايا نقوش عربية بديعة . و يقال إن الأذفونش السادس الذي احتال على ابن ذي النون حتى أخذ من يده طليطلة قد سمع أول قداس بعد استيلائه على هذه البلدة في هذا المسجد نفسه . وفي طليطلة أيضاً من أمثلة الصنعة العربية كنيس لليهود يقصد إليه السياح لنفاسة بنائه . وقد بقي في الأندلس من الآثار العربية التي يشار إليها بالبنان قصر الجعفرية في سرقسطة ، ومنارة اشبيلية الشهيرة ، و باب ساحة النارنج في هذه البلدة ، والقصر Alcazar الذي بناه ملك بترو الملقب بالغاشم ولكن على الطرز العربي بأيدي بنائين من العرب .

فأما حمراء غرناطة فلا تزال إلى يوم الناس هذا زينة اسبانية وحليتها ، ومقصد المتفرجين من جميع الأقطار يزورها في دور السنة من سبعين الى مائة ألف متفرج ، ومن أغرب ما سمعت أن بعضهم يقيم الشهر والشهرين والثلاثة في غرناطة ، وقلما يمضي يوم إلا و يقصد فيه إلى الحمراء حتى يمتع نظره بما فيها من نفائس الصنعة ، و بدائع الطبيعة ، لأن موقع الحمراء الطبيعي هو أيضا نادر في الدنيا . ومما يحمد الله عليه أن صناعة البناء الأندلسية هي محفوظة كلها في المغرب ، لا تختلف في شيء عما كانت عليه في الاندلس ، وان الزليج الذي تزين به الحيطان والساحات ، والذي يشبه القاشاني في المشرق ، لا يزال يصنع و يتنافس به .

هذا ، و بعد أن استرد الاسبان بلاد الاندلس من أيدى العرب ، وصار هؤلاء تبعة لهم تحت اسم المدجّنين ، والاسبان يقولون مدجّر Mudéjar بقيت الصنعة العربية زاهرة ، يبنى بها الاسبان أنفسهم ، و يدخلونها حتى فى بعض كنائسهم ، وقد يجمعون بينها و بين الصنعة القوطيـة . ومن القصور المبنية على الطراز العربى قصر « الانفانتادو » فى وادى الحجارة ، وقصر اسمه « كازادل كردون » Casa del Cardon فى برغش ، من بناء مهندس عربى اسمه محمد ، من سقوبيـة ، تاريخ بنائه يرجع الى القرن الخامس عشر .

ولا تخلو اسبانية من أبنية قلدوا فيهـا الصنعة الايطالية بعد عصر التجدد Renaissance ثم رغبوا فى زيادة التزيين والتزويق والتخريم والترصيع ، حتى سمى هذا الطرز من البناء بطرز الصـياغة . وكان البناءون من الطليان يطوفون فى اسبانية ، و يبنون القصور لأمرائها بحسب الصنعة الايطالية ، و ربما أرسـل بعض المترفين من اسـبانية إلى جَنَوَة ، فأوصوا على رسوم لقبور موتاهم ، و بنوا بحسبها فى بلادهم . ولم يكن الطليان وحدهم هم الذين يبنون بمقتضى الهندسة الجديدة فى اسبانية بل كان هنـاك بناءون من فرنسة وهولاندة و بلجيكة وكان أشهر هؤلاء « أنريك دوايغاس » Enrique de Egas الذي هندس مدرسة « سنتا كروز » فى بلد الوليد ، وعدة مستشفيات فى طليطلة وغرناطة وسانت ياقو .

واشتهر من النحاتين فى ذلك العصر « فيليب فيكارنى » Vigarni « وسيلو » Siloe الذى بنى كنائس غرناطة وكنيسـة مالقـة . واشتهر أيضاً دياغو دوريانو Diego Deriano الذى له ابنية شهيرة فى اشبيلية . مثل دار البلدية ، وكذلك فى تلك الحقبة بنيت فى بيّاسة دار بلدية فاخرة . وفى أُبذة كنيسة سانتا مارية المشهورة بناها المهندس المسمّى « بلد البيرة » وهو الذى بنى كنيسة جيّان . واشتهر أيضاً « ريبارا » بانى دار البلدية فى شريش . ومن المدن الشهيرة بالمبانى المشيدة بحسب الطراز الجديد طلمنكة Salamanqua ذات الاديار والمـدارس ، ومدينـة القلعـة

Alcala وقَونكة . ثم جاء عهد فيليب الثانى ، وكان الميل فيه إلى الفخامة ، مع عدم الاعتناء بالزخرف ، وبحسب هذا الاسلوب بُنى الاسكوريال الشهير كما لايخفى .

ثم جاء مهندسون أحبوا الخروج عن قواعد الفن ، ونزعوا منزع عدم التقيد مثل « جوفاره » Juvara الذى بنى قصر آل ربون الملوكى ، ويقال انه من أنفس آثار هذا الأسلوب الجديد الحر الذى يسميه الاسبان باسم « روكوكو » Rococo وكذلك يعدون مدخل كنيسة مرسية من طُرف هـذا الاسلوب . و بالاجمال ففى اسبانية من جميع أساليب الفنون النفيسة ، وكلها تستحق النظر . وفيها عدا الكنائس وقصور الملوك والمبانى العمومية منازل للنبلاء والمترفين فى كثير من المدن ، يجدر بالسائحين أن يعوجوا عليها ، مثل قصور « آل بينافنت » Benavente فى بياسة ، وآل مدينة سالم Medinaceli فى « كوغولودو » Cogolludo وقصور « فالاسكو » Velasco « وميراندة » Miranda فى برغش وقصور « مندوزه » Mendoza فى وادى الحجارة ، وغيرها من قصور العائلات النبيلة .

فأما صناعة النحت فقد وجد منها آثار قديمة ترجع إلى زمن الرومانيين ، لكنها شخوص معدودة . ثم وجدت تماثيل قليلة من أوائل عهد النصرانية . ولكن فن النحت ، فى اسبانية لم يبلغ درجة تستحق الذكر إلا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وإن وجد فى اسبانية بعض تماثيل تعد من طرف الفن فيكون ذلك من صنع الطليان أو الفرنسيس ، وفى كنيسة طركونة أمثلة من جميع أساليب النحت المعروفة حتى إن من جملتها محراباً باقياً من عهد المسلمين . وقد كان الغالب على بلاد « نبرة » الأسلوب الافرنسى فى النحت ، كما ترى ذلك فى دير بنبلونة وأماكن أخرى وأجمل ما فى اسبانية من التماثيل تماثيل السيدة مريم العذراء ، تجد منها نفائس فى اشبيلية وطرطوشة وميورقة وطليطلة وغيرها . وأكثر ما تنحت التماثيل هو للأموات من ملوك وأمراء وأحبار وأعيان . وأشهر هذه تمثال الملك فرديناند فى برغش ، وتمثال الأسقف « فرنندس دولونا » Deluna فى كنيسة سرقسطة . وكذلك تمثال الأسقف

« دوسار ڤنتس » De Cervantes فى اشبيلية وأرباب الفن يترنمون دائما بذكر تماثيل برغش ، التى هى من خرط خيل « سيلو » Siloe ويعجبون بقبور كارلس الثالث وامرأته فى بنبلونة « وجوان كرادو » Grado فى زمّورة . ثم إنه فى كنيسة سرقسطة المسماة « بالسيو » وفى كنيسة طركونة تماثيل يقول أهل الصنعة إنها يتائم فى بابها .

ولو جاء الكاتب يحصى ما فى اسبانية من التماثيل الشهيرة ، والتصاوير المستعذبة والتهاويل المعروفة ببداعة الصنعة ، لطال به الأمر ، فان هذه البلاد ملأى بهذاالنوع منه ما هو من عمل صنّاع طليان ، ومنه ما هو من عمل صنّاع البلدان الشماليه ، كفرنسة والمانية وبلجكة وهولاندة . ومن أشهر المتفننين فى النحت من أمة الاسبانيول « الونزو برّوغيت » Berruguete الذى كانت له حظوة لدى الامبراطور شارلكان فى بلد الوليد ، فقد ترك هذا المِفَنُّ آثاراً كثيرة ، أثيرة ، يطول تعدادها . ومثله « بياترو تورّيجيانى » Torrigiani . ومما يجب ذكره أن مملكة أراغون كانت لها ملَكة قوية فى صناعة النحت ، امتازت بها على غيرها من الأقطار الاسبانية واشتهر من صناعها « داميان فورمان » Forment ، كما أنه كان فى قشتالة من الصناع المشهورين « كسبار بسرّة » Becerra أقام مدة طويلة فى رومة ، وقد رجع منها أستاذاً كبيراً فى النحت والتصوير معاً ، وكان يؤثر العمل فى الخشب على العمل فى الحجر ، وأحسن آثاره المذبح الذى فى استورقة . وممن اشتهر فى اشبيلية « مارتينس مونتانس » Montanes المعدود من فحول هذا الفن ، وكان أسلوبه وطنياً محضاً ، غير متأثر بأى فن أجنبى . ونبغ فى القرن الثامن عشر نحات أصله طليانى ، مولود فى مرسية اسمه « زار سيلو » Zarcillo وكان له مذهب خاص لا يقلد فيه غيره .

أما من جهة التصوير فلم يوجد فى اسبانية بقايا تصوير من عهد القوط الأولين وإنما بقيت تصاوير راجعة إلى القرون التي كان فيها العرب مالكين لاسبانية . وان السائح يجد فى الاسكوريال ، وفى المكتبة الوطنية فى مجريط ، وفى أكاديمية التاريخ

فى هذه العاصمة ، كتباً أثرية تشتمل تضاعيفها على صور يأخذ منها صورة ذهنية عن درجة هذا الفن فى اسبانية لعهد العرب ، ومنها صور لبعض القصور العربية ، وكان يسمى هذا النوع من الرسم بالبيزنطى . ثم دخل في اسبانية التصوير الافرنسى ، ومنه آثار تذكر فى طلمنكة ، و بنبلونة ، وتطيلة ، ودخل من جهة أخرى التصوير الايطالى واشتهرت له نفائس فى بلنسية وكتلونية وجزيرة ميورقة ، وامتاز بنصاعة الألوان ، ودقة التقاطيع ، وغلب عليه الجمال . وقد وجد فى اسبانية نوع من التصوير لا يخلو من الصنعة العربية منه مذبح دير « بيادره » Piedra

وعلى كل حال فلا الفن الافرنسى ، ولا الفن الايطالى ، بلغ فى اسبانية فى التصوير ما بلغه الفن الفلمنكى ، فلقد اشتهر من مصورى الفلمنك الذين كانت اسبانية معرضاً لبدائعهم « جان فان أيك » Van Eyck ونبغ مصورون اسبانيوليون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، هم من مقلدى الطريقة الفلمنكية . وفى كل مقاطعة من أسبانية يجد العارف بهذا الفن مسحة منتقلة اليها من مملكة أجنبية . ففى الشمال مثل نبارة وأراغون تسود الريشة الافرنسية ، وفى الشرق مثل بلنسية وميورقة تسود الريشة الإيطالية ، وأما فى برشلونة فتوجد آثار الرسم الافرنسى والألمانى والإيطالى على السواء ، وأبدع أمثلة التصوير الاراغونى والقشتالى يجدها الإنسان فى سقوبية وآبلة ، وفى المتحف الآثارى فى مجريط ، كما أنه يجد أنفس قطع الفن الكتلونى فى فى كنيسة برشلونة ، وكذلك يجد فى متحفى بلنسية وميورقة نفائس كثيرة . وفى اشبيلية يتجلّى أيضاً الفن الفلمنكى عياناً ، لأن أعظم مصور فى هذه البلدة وهو « كاسترو » Castro كان من أتباع الطريقة الفلمنكية ، ثم طرأت على اشبيلية طريقة جديدة طليانية الأصل تميل إلى محاكاة الواقع بحذافيره ، وعدم الاسترسال إلى التخيل ، واشتهر بها مصور اسمه « زور باران » Zurbaran ولا تنس آثار مصورى البنادقة الذين من عملهم أماثيل أنيقة فى الاسكوريال وقصر مجريط . وكان قد نبغ من رجال الفن البندقى مصور يقال له « تتوان » Tetuan ونبغ له تلميذ يونانى الأصل

أطلق عليه الأسبان لقب « السكريكو » Greco وقد رأيت لهذا السكريكو صوراً كثيرة فى طُليطلة

وفى القرن السادس عشر نبغ في مصورى اسبانية رجل يقال له « هريره » Herrera يعدّه الاسبانيول المفن الوطنى الأكبر ، لأنه يمثل الرصانة والشدة والحمية والصفات التى تغلب عليهم . وكان أهل بلنسية معروفين بحسن الذوق فى التصوير ونبغ فيهم نوابغ فى هذا الفن ، ولكن تأثير الفن الايطالى ظاهر فى تصاويرهم ، ومن أشهرهؤلاء « ريبالتا » Ribalta ثم « اسپينوزه Espinosa تلميذه ثم « ريباره » Ribera . وليس فى اسبانية مدرسة أحدث عهداً فى التصوير من مدرسة غرناطة وممن نبغ فيهسا « الونزوكانو » Cano . وفى القرن السابع عشر نبغ « مورلّو » Murullo الذى يحبه الاسبانيول أكثر من غيره ، وقدكان فى فنه من مقلدى الطبيعة ، أميناً للحقيقة ، لا يؤثر الخروج عنها ، وكان له ميل إلى محاكاة أذواق العامة وله تلاميذ كثيرون مثل « اوزوريو » Osorio و « طوبار » Tobar وظهر فى ذلك العصر أيضا « فلاسكس » Velazquez وأصله من شاب وقد تبع فى التصوير الطريقة الاشبيلية ، وترك آثاراً يفتخر بها الاسبانيول ، مثل صورة فليب الرابع ، وصورة الدون كارلوس ، ولم يسن لنفسه طريقة يقال إنها طريقة مدرسيه ليتابعه الناس فيها ، بل لم يكن يتقيد بأسلوب خاص به . وفى مجريط نبغ « جوان كارينيو » Carreno فى أوائل القرن السابع عشر ، وكان مصوراً للبلاط الملوكى فى أواخر عهد آل هبسبورغ ، ثم اشتهر « سيريزو » Cerezo و« فرنسيسكو ريزى » Rizi الذى يحاكى فى تصويره الألوان المستحبّة فى الشرق . ومن مصورى القرن السابع عشر فى مجريط « ليوناردو » Leonardo ثم « مينوز » Munoz : وفى أواخر القرن السابع عشر نبغ « كولّو » Coello وكان يحاكى الفلمنكيين بسطوع الألوان واشعاع النور ، وشثونة التقاطيع . وبه ختمت دولة التصوير القديمة في اسبانية ، وقيل انه مات كمدا ، لأن البلاط الملوكى استدعى إليه « جيوردانو »

ولكن البوربون « بالومينو » Palomino وفى زمن آل بوربون نبغ Jiordano في القرن الثامن عشر اعتمدوا على مصورى الفرنسيس ، وروجوا بضائعهم . وفى أواخر القرن الثامن عشر ، إلى أوائل التاسع عشر ، اشتهر « فرنسيسكو غويا » Goya وكان هذا الرجل أعجوبة فى طريقته ، يرسل نفسه على سجيتها ، ولا يعرف المحاباة ، وقد تعرض غويا هذا لجميع المواضيع ، وله تصاوير دينية معلقة فى كنائس طليطلة وبلنسية ومجريط ، إلا أنه لم يكن يحسن إلا هذا اللون ، ولم يكن الناس يحبون تصاويره إلا لخشونتها ، ولمذهبه فى الصراحة ، لا رئاء فيها . والصورة التى رسمها لعائلة كارلوس الرابع هى فى الحقيقة مخراة ناطقة بعظائم أمور . وله تصوير ملاعب الثيران ، وديوان التفتيش ، وتصاوير تمثل حرب الاستقلال ، أجاد فيها إلى الغاية ويقال إنه أقدر مصور مثّل أعياد الاسبانيول . وجاء خلفا له مصور يقال له « مدرازو » Madrazo

ثم جاء العصر الأخير فنبغ « براديلّا » Pradilla « وبنليور » Benlliure واضرابهما ، فأتقنوا الصور التاريخية ، وفق هوى الاسبانيول فى الغرام بالماضى المجيد ، والافتتان بالعظيم والمحزن والمناظر القاسية . ثم ظهر المصور « فورتوف » Fortuny وهو من كتلونية ، اعتنى بالحياة العصرية ، وكان له ملكة تامة فى ايجاد تناسب الألوان ، على نمط نسّاجى خراسان وكشمير . وبالجملة فالأسبانيول أصحاب دولة فى التصوير والنحت ، وربما كانوا أدرى بتمثيل أحوالهم الداخلية ، والأشكال التى ترتاح إليها نفوسهم من سائر الأمم ، ولو كان الآخرون أعلى منهم كعباً فى الفنون المقيسة على وجه العموم

كلام القاضى أبى القاسم صاعد بن أحمد
الأندلسى الطليطلى

المتوفى سنة ٤٦٢ وذلك عن الأندلس العربية فى كتابه « طبقات الأمم »

قال تحت عنوان « العلوم فى الأندلس » : وأما الأندلس فكان فيها أيضاً بعد تغلّب بنى أمية عليها جماعة عُنيت بطلب الفلسفة ، ونالت أجزاء كثيرة منها ، وكانت الأندلس قبل ذلك فى الزمان القديم خالية من العلم ، لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به إلاّ أنه يوجد فيها طِلّسمات قديمة في مواضع مختلفة ، وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية ، إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم

ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة إلى أن افتتحها المسلمون فى شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فتمادت على ذلك أيضاً لا يُعنى أهلها بشىء من العلوم إلا بعلوم الشريعة ، وعلم اللغة ، إلى أن توطد الملك لبنى أمية ، بعد عهد أهلها بالفتنة ، فتحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلوم ، وتنبهوا لإشارة الحقائق على حسب ما يأتى ذكره بعد ان شاء الله تعالى .

وأما دين أهل الأندلس فدين الروم من الصابئة أولا ثم النصرانية إلى أن افتتحها المسلمون فى التاريخ الذى ذكرناه ، وأما ملكهم فكان لطوائف من الأمم مختلفة ، تداولوها أمة بعد أمة ، فمن تلك الأمم الروم وكان عمّالهم ينزلون مدينة طالقة العتيقة المجاورة لاشبيلية . واتصل ملكهم بها زمناً طويلا إلى أن غلبتهم عليها القوط . فانتسخ الملك الرومى منها ، واتخذ القوط مدينة طليطلة ، من مدائنها العتيقة قاعدة لملكه ، وملكوا الاندلس أفخم ملك قريباً من ثلاثمائة سنة ، إلى أن غلبهم المسلمون عليها فى التاريخ الذى قدمنا ذكره ، واقتعد ملوكهم قرطبة وطنا ، ولم تزل مركزاً لملك المسلمين بها إلى زمان الفتنة ، وانتشار الأمر على بنى أمية . فافترق عند

ذلك شمل الملك بالأندلس ، وصار إلى عدة من الرؤساء ، حالهم كحال الطوائف من الفرس .

وأما حدود الأندلس ، فان حدها الجنوبى منها الخليج الرومى ، الخارج مما يقابل طنجة فى موضع يعرف بالزقاق ، سمته اثنا عشر ميلا ، ثم ينتهى إلى مدينة صور من مدائن الشام . وحداها الشمالى والغربى ، البحر الأعظم المسمى أوقيانوس المعروف عندنا ببحر الظلمة . وحدها الشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة اواصل ما بين البحرين : بحر الروم ، والبحر الأعظم ، ومسافة ما بين البحرين فى هذا الجبل ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس ، وحداها الأكبران الجنوبى والشمالى ، ومسافة كل واحد منهما نحو ثلاثين مرحلة ، ومسافة حدها الغربى نحو من عشرين مرحلة ، ووسط الأندلس مدينة طليطلة العتيقة ، التى كانت قاعدة القوط . وعرضها ٣٩ درجة و ٥٠ دقيقة ، وطولها ٢٨ درجة بالتقريب ، فصارت بذلك فى التقريب من وسط الاقليم الخامس ، وهى فى وقتنا هذا الذى هو سنة ستين وأربعمائة قاعدة الأمير أبى الحسن يحيى بن اسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون عظيم ملوك الأندلس . وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، على البحر الجنوبى منها ، وعرضها ٣٦ درجة ، وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ٤٣ درجة ، فمعظم الأندلس فى الاقليم الخامس ، وطائفة منها فى الاقليم الرابع ، كاشبيلية ، ومالقة ، وقرطبة ، وغرناطة ، والمرية ، ومرسية . وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذى هو الحد الشرقي من الأندلس ، هو الحاجز ما بين الأندلس و بين بلاد افرنسة من الأرض الكبيرة ، التى هى بلاد افرنجة العظمى والأندلس آخر المعمور فى المغرب ، لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر الأوقيانوس الأعظم اه

التقسيمات الجغرافية

القشتالتان وليون

لم تكن اسبانية فى الماضى مملكة واحدة كما هى الآن ، بل كانت أقساماً شتى ، وممالك مستقلة بعضها عن بعض . و بعد أن غلب العرب على جميعها ، ولم يبق موضع قدم منها لم يستولوا عليه ، بقيت صخرة لاذ بها ملك يقال له « بلاى » ، دخل فى كهف منها بثلاثمائة رجل ، فلم يزل العرب يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا ، وترامت طائفة منهم إلى الطاعة ، فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلا ، معهم عشر نسوة أصرّوا على الامتناع فى ذلك الكهف ، الذي كان يصعب الوصول اليه ، وجعلوا يقتاتون من العسل الذي كان النحل يمجه فى خروق الصخرة ، فاستخف بهم المسلمون وتركوهم وقالوا على ما فى رواية « أخبار مجموعة » : ثلاثون علجاً ما عسى أن يكون أمرهم ! ؟ فهؤلاء بعد رجوع المسلمين عنهم عادوا فخرجوا من الصخرة غير خاضعين ، واعصوصب حولهم كل من نزع به فى تلك الأرض عرق الأنفة عن الخضوع للأجنبى ، ورأس بلاى هذا تلك العصابة التى لم تزل تنمو وتغلظ ، حتى صارت امارة حقيقية ، ثم مملكة يحسب حسابها . ثم تكونت منها سلطنة قشتالة التي هى أول حكومة اسبانيولية استقلت عن العرب بعد أن دانت لهم جميع الجزيرة الايبيرية .

ثم لما بدأ العرب يتراجعون إلى الجنوب ، بسبب الفتن التى كانت تقع بينهم و بين البربر ، وتقع فيما بينهم بعضهم مع بعض ، جعلت قشتالة تسترد شيئاً فشيئاً من البلدان التى كان المسلمون قد استعمروها ، وصار المسلمون يجلون عن الشمال إلى الجنوب ، فلذلك انقسمت قشتالة الى ما يقال له « قشتالة القديمة » و « قشتالة الجديدة » وجميع قشتالة Royaume de deux Castilles واقعة بين جبال « استورياس » Asturies و « بسقاية » Biscaye من الشمال ، ومملكتى « اراغون » و « بلنسية »

من الشرق ، ومملكة « مرسية » والاندلس من الجنوب ، و « الاسترامادور » و « ليون » من الغرب . فأما «قشتالة القديمة » Castilla la Vieja فهي إلى الشمال وأما « قشتالة الجديدة » Castilla la Heuva فهي إلى الجنوب . والبسيط المرتفع الايبيري الذى يقول له الاسبانيول « ميزيتا » Meseta يشتمل على القشتالتين وليون والاسترامادور . وليس فى هذا البسيط شيء ينطبق على ما يتخيله الناس ، وما تسير به الأخبار عن خصب اسبانية ، وكرم تربتها . وطيب نجعتها ، واعتدال هوائها . والحقيقة ان اسبانية التي كسبت تلك الشهرة ، وقيل انها جنة الله فى أرضه ، هى مقاطعات اسبانية الجنوبية والشرقية ، وقطعة من وادي ابره لاغير . ومتوسط ارتفاع هذا البسيط الذى نحن فى صدده عن سطح البحر هو ٨٠٠ متر يحده من الشمال جبال اشتور ياس Asturias وجبال قنتبرية Cantabres ومن الشرق الجبال المسماة الايبيرية ومن الجنوب شارات مورينا . وقولنا انه ليس مطابقاً للصفة التي يتخيلها الناس عن اسبانية لا ينفي أن يكون فيه أودية عميقة ، ذات زرع وضرع ، وإن كان يوجد بجانبها بسائط ، هى فى الحقيقة غير قابلة للسكنى ، من قسوة هوائها ، وكزازة ارضها .

وأما تقسيمات قشتالة القديمة التى أوتادها جبال قنتبرية فى الشمال والتي رتبها بواسطة « الوادى[1] الجوفى » أي « دورو » Douro ووادى « إبرُه » ووادى

(١) هذا النهر أول منابعه مكان يقال له اوربيون Urbion على علو ٢٢٥٥ متر عن سطح البحر بين شارات دومندا Demanda وشارات سان لورانزو Lorenzo وشارات سيبوليرا Cebollera وهي التي منها تنحدر مياه نهر إبره أيضا . وأصل اسمه دورو Duero مشتق من لفظة « دور Dour » ، ومعناها الغزارة ، واتصال هذا النهر بنهر ابره كان له تأثير فى الوحدة الأسبانية . أى فى توحيد قشتالة مع أراغون . والوادى الجوفى هذا يجرى على ارتفاع سبعمائة متر فوق سطح البحر ، فهو يسقى بسائط فى غاية الاتساع ، إلى أن يصل إلى بلد الوليد ، التى هى على يمينه ، وفى أول مجراه ينحدر انحداراً خفيفا حتى يصل إلى الحدود بين أسبانيا والبرتغال ، فهو ينصب هناك بجرية شديدة فى مضايق تجعل منه نهراً هائلا ، ويصير مجراه فى غاية العمق ، وفى بعض

« بَسيورقة » Pisuerga فهى ست مقاطعات : الاولى « برغش » Burgos ومساحتها ١٤١٩٦ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها نحو من ٣٥٠ ألف نسمة . والثانية « آبلة » Avila ، ومساحتها ٨٠٤٧ كيلو متراً مربعاً . وعدد سكانها ٢١٠ آلاف نسمة ، والثالثة « سقوبية » Ségovie ومساحتها ١٠٣١٨ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها زهاء ١٧٠ ألف نسمة . والرابعة « شورية » Soria ومساحتها ١٠٣١٨ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ١٦٠ ألف نسمة . والخامسة «لوكرونى» Logrono ومساحتها ٥٠٤١ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها ١٩٠ ألف نسمة . والسادسة « شنت اردم » أو « شنت اندر » Santander ومساحتها ٥٤٦٠ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها نحو من ٣٠٠ ألف نسمة .

أما قشتالة الجديدة فهى فى قلب اسبانية تتوسطها شارات « وادى الرمل » Guadarrama وأعلى قنة فيها ترتفع عن سطح البحر ٢٣٨٥ متراً وهى إلى الشمال من قشتالة الجديدة ، وأما شارات موريَنا فهى منها إلى الجنوب الغربى ، وفيها يمر « وادى تاجُه » Tago « ووادى شقر » Xucar و « مَنزَانارس » Manzanares « ووادى يانة » Guadiana وهى تشتمل على المقاطعات الآتية:

الأماكن ترتفع ضفافه مائتى متر عن سطح المياه ، وأحيانا تتقارب الضفتان تقارباً شديدا ، وينحصر الماء انحصاراً عجيبا ، وتتكون من هذا الوادى شلالات ، لو استخدمت قوتها الكهربائية لجاءت بالخوارق ، ولكنه عند ما يدخل فى بلاد البرتغال ينبسط فى الأراضين ، ويعود هادئا . وللوادى الجوفى أنهر تمده من اليمين ومن الشمال ، منها دوراتون Duraton وسيغه Cega وأداجه Adaja وزابارتيال Zapartiel وطورماس Tormes ويقال انهم يفكرون فى شق جداول بين هذه الأنهار ، حتى يمكن المجيء على الماء من طلمنكة ، التى هى على نهر طورماس ، إلى زمورة ، التى هى على الوادى الجوفى . ونهر أداجة هو نهر آبلة ، ولكن أراضيها لاتستفيد منه كما يجب ، ونهر زابارتيال وهو نهر مدينة الكمبو . وأما نهر طورماس ، فانه يسقى بسيط طلمنكة ويتصبب إلى الوادى الجوفى على مقربة من البرتغال وأما اشقوبية فان نهرها هو المسمى بآرسما Aresma

مقاطعة « مجريط » Madrid ومساحتها نحو من ٨٠٠٠ كيلومتر مربع ، وعدد سكانها ٨٨٠ ألف نسمة . و « طليطلة » ومساحتها ١٥٣٣٤ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها نحو من ٤١٥ ألف نسمة . و « سيودادريال » Ciudad - Real ومعناها البلدة الملكية ، وهي محدثة بعد مجيء العرب ، ومساحتها ١٩٧٤١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٣٨٠ ألف نسمة . و « قونكة » Cuenla ومساحتها ١٧١٩٣ كيلو متراً مربعاً ، وأهلها ٢٧٠ ألفاً . و « وادى الحجارة » Guadalajara ومساحتها ١٢١٩٢ كيلو مترا مربعاً ، وسكانها ٢١٠ آلاف .

وأما مملكة « ليون » Léon فكانت حدودها من الشمال الاشتورياس ، ومن الشرق والجنوب الشرقي قشتلة القديمة ، ومن الجنوب نحراً « الاسترا مادور » L'Estrémadure ومن الغرب غاليسية ــ و بلاد البرتغال ، وليون اليوم هي عبارة عن المقاطعات التالية :

نفس ليون ومساحتها ١٥٣٧٧ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٤٠٠ الف نسمة . « وطلمنكه » Salamanqua ومساحتها ١٢٣٢١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٣٣٥ الفاً . و « زمورة » Zamora ومساحتها ١٠٦١٥ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٢٨٠ الفاً . و « بلد الوليد » Valladolid ومساحتها ٨١٤١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٢٨٥ الفاً و « بالنسية » Palencia ــ هي غير بلنسية Valencia التي على البحر المتوسط ــ ومساحتها ٨٤٣١ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها نحو من ٢٠٠ الف نسمة .

ولقد كانت هذه المقاطعات التي في قلب اسبانية تعد من فيافي بني أسد ، لولا ما ساق اليها العرب من مياه ، وشقوا من جداول ، واتخذوا من وسائل ، حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وكانوا إذا عدموا الينابيع المتفجرة ، التي تلزم لأجل الري ، يبادرون إلى إنشاء البرك ، والمصانع الهائلة ، يجمعون اليها المياه السائلة في الشتاء ، على نمط ما كانوا يعملون في اليمن ، وذلك مثل البركة التي في « منسا » Mansa وهي تحريف المصنع ، وأما بعد رحيل العرب فقد تهدمت المصانع وطمست

تلك القنيّ ، ورجعت هذه الأرضون إلى قسوتها الأولى ، وتبدلت من خضرتها غَبَرَة وصارت تلك الفلات من حنطة وحبوب وزعفران سداداً من عوز ، فى أماكن معلومة ، وبقى ذلك الى العصر الحاضر الذى عمّت به المدنية ، وامتدت السكك الحديدية ، فعاد الأهالى يعتنون بهذه الأراضى ، و يستدرون خيراتها ، لأنهم أصبحوا قادرين على اخراجها الى الخارج ، بواسطة السكك الحديدية ، صاروا يميرون بحنطتهم بلاد البرتغال ، وقويت رغبتهم فى زراعة قصب السكر ، والشمندر . وقد كان فى أسبانية من عشرين سنة أكثر من ثمانين معملا للسكر

بلاد البشكنس

أما بلاد البشكونس فهى ثلاث مقاطعات : الأولى «غيبوسكوه» Guépuzco ، والثانية « بسقاية » Biscaye أو Vizcaya والثالثة « ألبَة » بالتحريك Alava ومساحة جميعها ٧٠٧٥ كيلو مترا وعدد سكانها نحو من سبعمائة ألف . وهم أمة مستقلة بنفسها ، تسكن إلى الشرق من جبال قنتبرية ، على أبواب فرنسة ، وأصل اسم هذه الأمة هو « الباسقونغادوس » Vascongados ومنه اشتق اسمها الحالى « الباسك » أو « الباسكس » Les Basques . وكان العرب يقولون لهم الباشكونس ، ومنهم من يقيم على حدود « نَبَاره » Navarre ومجموعهم يقارب مليوناً أو أكثر . ومنهم جمٌّ فى أرض فرنسة ، ولغة الجميع واحدة مختصة بهم . ومنهم من يتكلم بالأسبانى أو الافرنسى ، ولكن نحواً من نصف مليون لايتكلمون بغير لغة الباشكونس . وهم من أشد أمم الأرض استمساكا بقوميتهم ، واحتفاظاً بخصوصيتهم ، يزعمون أنهم أقدم أمة في أوربة ، ولا نزاع فى أنهم هم بقايا الشعب الايبيري القديم ، والثمالة الخالصة المحضة التى لم تدخل عليها شائبة من ذلك الشعب القديم . أشداء جبليون ، موثقو الخَلْق ، تغلب عليهم السمرة ، إلا من كان منهم

فى أعالى الجبال ، فيغلب عليه اللون الأشقر ، شُمّ الأنوف ، محدّدو الأذقان ، شعورهم مائلة إلى السواد ، وكان لهم زىّ خاص بهم لا يعرفون سواه ، ولكن قد بدأ هذا الزى يضمحل ، ولم يبق منه إلا طاقية من الصوف يقال لها البوانه Laboina لا يزالون يلبسونها على رؤوسهم ، وهى زرقاء فى مقاطعة غيبوسقوه ، وحمراء فى بسقاية وبيضاء فى ألبَة . والبشكونس الذين فى أرض فرنسة أيضاً يحافظون عليها . وأما من جهة عاداتهم القديمة فمنهم من تركها ، ومنهم من لايزال يعض عليها بالنواجذ ، مثل أهل بسقاية . وتجدهم يستعملون محاريثهم القديمة ، ومجلات تجرها البقر ، وعليها نيرٌ مزخرف مغطى بجلد ضان . وعندهم نوع من الرقص فى أعيادهم ومواسمهم يسمونه « أور يسكو » Aurrescu يجرونه على صوت مزمار صغير يسمى « دولسينيه » Dulsinya مع قرع الطبول .

والبشكونس من أشد أمم الأرض حباً بالحرية وأنفَة عن قبول الضيم ، وكما كانوا يردّون غارات العرب من الجنوب ، كانوا يردّون غارات الفرنج من الشمال وكانت مواقع بلادهم الجبلية تساعدهم على رد غارات هذه الأمم العظيمة ، فإن مساكنهم أكثرها فى الجبال تحيط بها الأوعار ، والأرض كما يقال تقاتل مع أهلها .

وهم الذين أوقعوا بجيش شارلمان وهو منصرف عن سرقسطة بعد أن عجز عن أخذها . وسيأتى فى كتابنا هذا عند الوصول إلى التاريخ تفصيل جميع ما وقع بين البشكونس والعرب . ولم يخضع البشكونس لملوك ليون ، وملوك نبَارة ، وملوك قشتالة فى الآخر ، إلا على شرط احترام هذه الدول لعاداتهم وقواعدهم . وكانت لهم امتيازات يقال لها « فيُورس » Fueros ولم تزل امتيازاتهم هذه محفوظة ، إلى أن جرت الحروب الداخلية المسماة بالكارلوسية ، والتى آخرها كان سنة ١٨٧٦ فمن بعدها أزالت الحكومة الأسبانية امتيازاتهم وأخضعتهم للخدمة العسكرية ، ولقانون احتكار الملح ، واحتكار الدخان .

وهم يسمون أنفسهم بغير الاسم الذى يسميهم به الأسبان ، أى الباسقونغادوس ،

الذى منه جاء اسم الباشكونس ، الذى كان يسميهم به العرب . فاسمهم هم بلغتهم هو « أوسكالدوناك Euscaldunac ولايعرف معنىهذه الكلمة . وفىلغتهم لايضعون أل التعريف قبل الاسم بل بعده . وهذا الاصطلاح ليس بنادر ، بل اللغة السويدية واللغة الدانمركية واللغة البلغارية واللغة الرومانية فيها ذلك . وليس فى هذه اللغة المثنى بل عندهم المفرد والجمع . وعلامة الجمع هى الكاف (K) وكذلك لايوجد عندهم فرق بين المذكر والمؤنث فى التعبير . وقد غلب ذلك على لسانهم حتى إذا تكلم البشكونسى بالافرنسية يقول . هذا المرأة Ce Femme بدلا منهذه المرأة . وأما من جهة الأفعال فربما كان بينهم بعض المشابهة مع العرب ، فانه إذا أراد البشكونسى أن يقول مثلا : أنا أجىء » يقول « أنا عمال أجىء » وإذا أراد أن يقول لك « ستأكل » قال « عليك أن تأكل » وكذلك هم مثل العرب فى كثرة المترادفات فى لغتهم، برغم أن لغتهم فى أصلها فقيرة ، وهى لم تكمل إلا بالالفاظ الكثيرة الاجنبية ، منغشقونى ، وافرنسى ، واسبانيولى ، وعربي . بحيثإذا تجرد هذا اللسان من هذه الالفاظ الداخلة عليه لايبقى منه إلا ما يعبرّ عن الاشياء المادية والمحسوسة ، فهو فى هذا أشبه بالتركى . وليس عند الباشكونس لفظة تعبر مثلا عن « الروح » واسم الله عندهم « السيد الذى فى العلى » وعندهم « الارادة » يعبر عنها بلفظة تفيد « الفكر والشهوة والتمنى » وقد اجتهد كثير من العلماء فى درس لغة الباشكونس ، ولكن صعوبة هذا الدرس جاءت من كثرة اختلاف لهجات هذه الأمة ، فان القرية الواحدة لاتتكلم بلهجة القرية التى تجاورها ، فصارت اللهجات لا تحصى . وهذا شأن كل لغة الكتابة فيها نادرة ، وشأن كل شعب تغلب عليه الأمّية . ومع هذا فقد أحصى الأمير لويس بونابرت ٢٥ لهجة باشكونسية ، يمكن إعادتها إلى ثمانية أصول بالتحليل الدقيق . وهذه الأصول الثمانية تتلخص فى ثلاثة عامة . أما الأصول الثمانية فهى : اللابوردى ، والسولتى ، والنبارى الادنى الشرقى ، والنبارى الأدنى الغربى ، والنبارى الأعلى الشمالى ، والنبارى الأعلى الجنوبى ، والغيبوشقى ،

والبسقانى ، ويمكننا أن نردّ أيضا هذه اللهجات المختلفة إلى شرق وغربى ، فالسولى والنبارى الادنى هما الشرقى ، والبِسقانى هو الغربى . واللهجات الاخرى هى المتوسطة بينهما . و بلاد الباشكونس لا تخلو من أجناس غريبة عنها ، وليس فيها مقاطعة خالية من الغرباء غير « غيبوسقوه » و بلاد نبارة نصفها أو أقل من الباشكونس. وأمابيُّونة و بنبلونة و بلباو فلا يتكلمون فيها بلغة الباشكونس ، وقد بدأت هذه اللغة تنحل وتضمحل بغلبة الاسبانيولى والافرنسى عليها . ولا عجب فى ذلك ، فان مكتوباتها نادرة ، ولم يعثر الباحثون على كتب بهذه اللغة ترجع إلى أعلى من القرن العاشر للمسيح ، قيل إنهم وجدوا صحيفة قديمة من سنة ٩٨٠ فيها تحديد مقاطعة بيُّونة Bayonne ، وقيل إن هذه الصحيفة نفسها ليست بوثيقة لايعترضها الشك .

وقد كشف أحد الرهبان اليسوعيين جدولا فيه ثمانية عشر كلمة من لغة الباشكونس ، وذلك فى كتاب مخطوط لزائر افرنسى زار كنيسة سنت ياقو فى القرن الثانى عشر ، وأقدم كتاب عند الباشكونس طبع سنة ١٥٤٥ ، وهو ديوان شعر مشتمل على قصائد دينية ، وأخرى غرامية . وقد طبعوا أيضا ترجمة الانجيل الى هذه اللغة سنة ١٥٧١ ، وذلك على نفقة مجلس نبَارة وجميع ما هومكتوب بلغة الباشكونس يبلغ ستمائة مجلد لا أكثر . وأكثر الذين كتبوا هذه الكتب هم مؤلفون تلقوا ثقافة افرنسية أوقشتالية ومعظمها فى مواضيع دينية ، وعن حياة القديسين . نعم يوجد من الباشكونس من تلقوا ثقافة اسبانيولية أو افرنسية ، وأجادوا الكتابة ، لكن باللغة الافرنسية واللغة الاسبانية ، وقد جمع بعض المؤلفين كثيراً من قصص الباشكونس وتقاليدهم وأخبارهم . وأحسن المجاميع فى هذا الموضوع هو ما كتبه يوليان فيسون Viuson الذى له على الباشكونس بحث فى الانسيكلو بيدية الافرنسية الكبرى [1] .

---

(١) فى هذه الأيام الأخيرة انبرى الكاتب الافرنسى المسمى فرنسوا دوهوركو François Duhourcau فنشر فى جريدة عطارد فرنسة Mercurede France بحثاً طويلا عن البشكنس ، لأنه من الكتاب المعجبين بهذه الأمة ومتانة أخلاقها

أما الباشكونس الذين فى أرض فرنسة فهم يسكنون مقاطعات لابورد Labourd ونباره السفلى La basse Navarre وسول Soule ومساحة هذه المقاطعات الثلاث

وشدة استمسا كها بأوضاعها القديمة . فالبشكنس يزعمون أنهم أقدم أمة على وجه الأرض وأنهم لم يطرأوا على أسبانية من مكان آخر ، بل كأنهم نزلوا من السماء إلى أرضها ، ولكن المؤرخين مع اقرارهم بشدة توغل هذه الأمة فى القدم ، يذهبون إلى أنها هى أيضاً طارئة على اسبانيا من مكان آخر ، ومن جملتهم المسيو دوهوركو ، يرى ان أصل أهالى الجزيرة الايبيرية هو الجنس الايبيرى ، وأن الفرق بين البشكنس وسائر الاسبانيول أن البشكنس هم ايبيريون اقحاح ، وان سائر الاسبانيين هم أيبيريون امشاج ، وان الايبيريين شعب قوقازى طرأ على أسبانية ، عن طريق البحر المتوسط وجنوبى فرنسة ، فنزل على المنحدرين الشمالى والجنوبى من البيرانس . وقد حاول الكاتب المذكور أن يستدل على أصل البشكنس وقرابتهم من الأمم الاخرى بأدلة من لغتهم ، وهو منزع كنا فى مقدمة من نبه عليه ، ولنا رسالة فى ذلك قرأناها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى ليدن سنة ١٩٣١ ونشرناها فى مجلة المقتطف ، وعنوانها « علاقة اللهجات بالتاريخ » إذاً لا نرى هذا الباحث مخطئاً فى تنقيبه عن أصل هذه الأمة من جهة تشابه لغتها مع لغات أمم أخرى . فهل وفق دوهوركو إلى بلوغ مراده ؟ الجواب أنه من المعلوم أن اللغة البشكنسية هى اقدم من اليونانية واللاتينية ، ولم يثبت كونها فرعا من لغة السنسكريت الهندية ، بل يظن البحاثون أن أصلها لغة منقرضة فرض العلماء وجودها فرضاً ، وهى فى هذا أشبه باللغة الاتروسكية Etrusque فان هذه اللغة أيضاً ليست فرعا من فروع السنسكريت ، فيظهر للمسيو دوهوركو أن الاتروسكيين والبشكنس من أصل واحد ، وقد وجد بعض الكلمات فى لغة البشكنس تشبه كلمات أخرى فى لغة الاتروسك . من ذلك كلمة « لار » فهى تفيد معنى « رئيس » فى لغة البشكنس ، وهى كذلك فى لغة الاتروسك ، فمن هنا استدل على كون هذين الشعبين من أصل واحد ، ولما كان الرومانيون أصلهم من الاتروسك ، وصل إلى الاستنتاج بأن البشكنس هم أولاد عم الرومان ، وأصل الأصل هو من القوقاز ، وليس هذا الرأى بكرا ، فقد زعم اليزه ركلوز الجغرافى الشهير من خمسين سنة أنه يوجد بين لغتى البشكنس والكرج تشابه ، وان أصلهما لغة كانت شائعة فى آسية الصغرى منذ الآف وآلاف من السنين ، ولم تكن هذه اللغة لا من اللغات الآرية ولا السامية ولا الاورالية.

هى ستة آلاف كيلومتر مربع . فأما المقاطعات التى يسكنونها فى اسبانية فقد تقدم ذكرها ، وهى جزء من ثلاثين من مساحة الجزيرة الأيبيرية بحسب تعريف اليزى « ركلوس » الجغرافى الشهير Lisée Reculs و بلادهم فيها قابلية زراعية ، وفيها معادن كثيرة كالقصدير والرصاص والحديد ولكنهم من جهة الزراعة لم يكونوا ممن بلغ شأواً عالياً . ومن الباشكونس مهاجرون كثيرون إلى أميركة كل سنة ، فلهذا عددهم يقل فى بلادهم الأصلية يوماً فيوماً .

وقد فحص الأطباء مثل الدكتور بروكا والدكتور فالسكو من مجريط جماجم الباشكونس من سبعين سنة ، وأخذوا منها عدداً كبيراً من مقابر تلك البلاد ، كما انهم ميزوا جماجم الأحياء ، فوجدوا أن هذه الأمة فيها نوعان من الجماجم ، منها النوع الذى يزيد طوله على عرضه بنحو الربع ، ومنها الذى يتساوى طوله بعرضه . ويقال عن أخلاق الباشكونس انهم كثيرو الخيالات ، سريعو الانفعالات ، وان عندهم خرافات قديمة لم يتخلصوا منها حتى الآن ، ولكن فطرتهم الأصلية مبنية على الاستقامة ، وعندهم حسن معاشرة ومخالقة ، إلا أنهم بطّاشون عند الغضب ، ومع ان الرصانة غالبة على طباعهم ، فانهم يحبون الألعاب ، و يتلذذون بالمآكل والمشارب وحسن الوفادة ، واكرام الضيف عندهم مما لا يفوقهم فيه أحد . ونساؤهم حلائل أمينات ، وأمهات مربيات ، إلا أن التدين عندهن بالغ درجة الوسواس ، لاسيما عند البنات اللواتى يئسن من المحيض ، وكثيراً ماينتهى أمر العانس من هؤلاء بالجنون . والباشكونسىّ بطبيعته ذكى الفؤاد ، شهم ، عزيز النفس ، صعب المقادة ، واذا تعلم وتهذّب ففيه قابلية كبيرة للترقى ، أما خرافاتهم القديمة فمنها أن الانسان اذا رأى امرأة يوم الاثنين تحت نافذة بيته ففى ذلك الاسبوع يحصل له بلاء ، واذا صاح الديك فى أول الليل فيكون هذا الصياح علامة على كون الديك أحس بمرور الساحرات وهو خطر يتلافونه بأخذ قبضة من الملح وذرها فى أرض البيت ، والمتزوج يوم عرسه يجتهد أن يمسك بذيل من ثوب زوجته و يضعه تحت ركبه حتى يكون فيما بعد

هو السيد في البيت ، وكان للباشكونس اعتقاد عظيم بالسحر ، وكانت السحرة عندهم فى كل مكان ، وكانت لهم اجتماعات يتداعون اليها ، و يعتقدون ان هؤلاء السحرة لهم علاقات مع الشيطان وأنهم يدفعون شره ، ولكن هذه الخرافات قد بدأت تضمحل شيئاً فشيئاً .



حصن بوترون فى بيلباو من بلاد الباشكنس

وقد كان للباشكونس دور مهم فى حروب استرداد الاندلس من أيدى المسلمين و بهذا السبب تميزت بينهم عائلات كثيرة ، ورأست وعزّت و بزّت ، و بتوالى الزمن صارت نبيلة . فنى قشتالة وليون الملك هو المالك لجميع الأرض ، أما فى نبارة ، حيث مواطن الباشكونس ، فالملك يشاركه فى ملك الأراضى هؤلاء النبلاء الذين ساعدوه على طرد المسلمين ، ولهذا عندهم هناك ثلاث طبقات : النبلاء ، والعامة ، والطبقة المتوسطة بينهما . وفى « ألبَه » الأهالى ينقسمون إلى نبلاء و إلى عامة ، وذلك لأن منهم من حارب المسلمين ، ومنهم من خضع لهم ، فالذين خضعوا لهم هم المعدودون من صنف العامة .

ولهذا حصل التمايز بينهما ، أما فى « بسقاية » و « غويبوسقوه » و « لابورد »

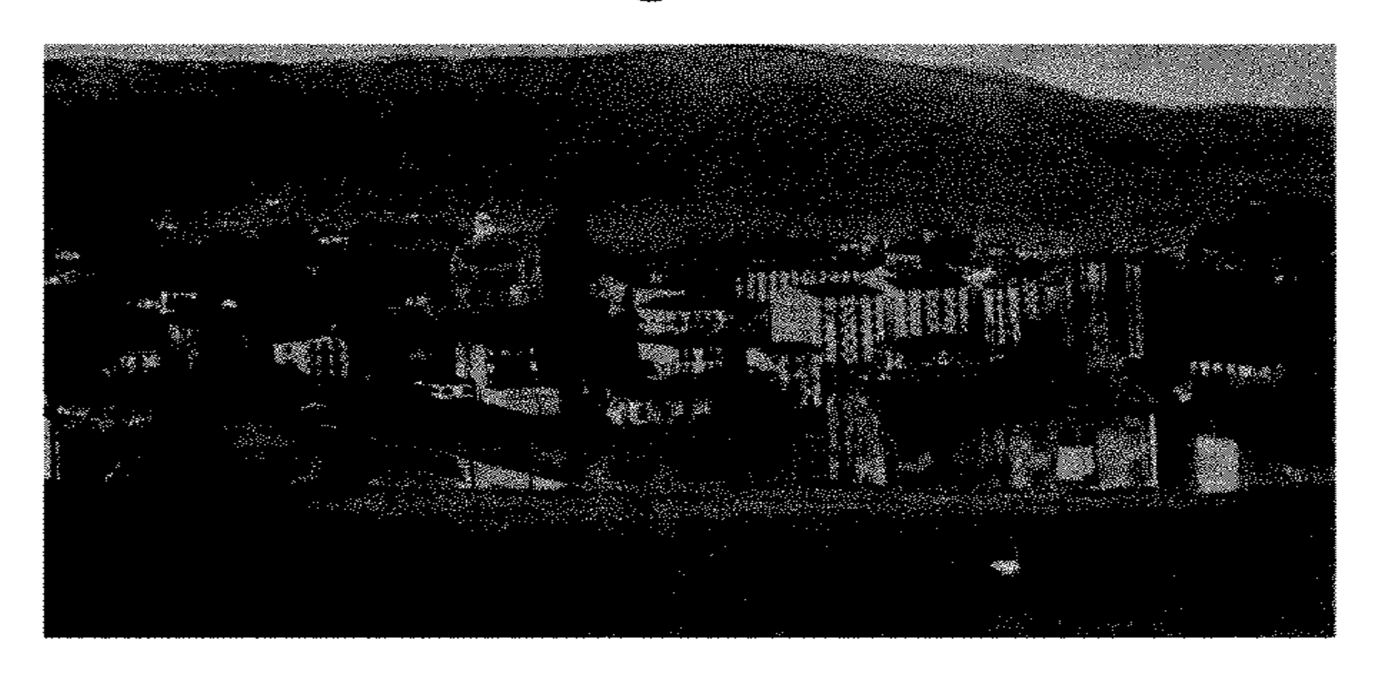
حيث لم يتمكن المسلمون ، ولم تكن لهم ولاية ، فجميع الأمة معـدودة من النبلاء ، لأنه ليس فيها من أسلم ، ولا من خضع للاسلام . والنبالة فى هذه المقاطعات يقال لها نبالة أرض ، لا نبالة دم ، والفرق بينهما أن الذين أخرجوا المسلمين بالحرب صارت لهم حقوق متأثلة ، واستولوا على الأراضى التى كانت صارت إلى العرب ، وأقاموا فيها أكّارين من عبيدهم وجنودهم ، فصار هؤلاء بكرور الأيام عائلات نبيلة ذوات اقطاع ، وأما نبلاء الأرض فهم الذين توارثوا أراضيهم من القديم ، وحفظوها خلفاً عن سلف ، لأنه لم يقع عليها فتح ، وأما القوانين والأعراف التى يمشي الباشكونس عليها فهى عبارة عن عادات واصطلاحات قديمة مختلطة بقوانين جديدة ولـكل ناحية عادات تختلف عن غيرها . وأكثرها يدور حول الامتيازات التى نالها بعض الأهالى ، وتملكوا بها الأراضى فى حروبهم مع العرب . وهذا هو خلاصـة ما يقال عن الباشكنس، إحدى الأمم الأيبرية وأقدمها ، ونزيد عليه أن باشكنس فرنسة و باشكنس اسبانية عقدوا سنة ١٩٠٢ مؤتمراً فى « فونتارابية » سموه مؤتمر اتحاد الباشكنس .

عود إلى ليون وقشتالة

ثم نعود إلى تفصيل ما أجملناه عن ليون والقشتالتين بقدر الامكان فنقول :

الحدود بين فرنسة واسبانية من جهة الشمال الغربى هى وادى « بيداسوا » Bidassoa الذى يجرى بين « هنداى » Hendaye و « فونترابية » Fontarabie وهناك جزيرة اسمها جزيرة الحجل ، فى وسط النهر اتفقت فرنسة واسبانية من قديم الزمان على جعلها منطقة متحايدة ، وفيها تلاقى الـكردينال مازارين مع الدون « دوهارو » ، لأجل عقد صلح البرانس ، وتقرير زواج بنت فيليب الرابع ولويس الرابع عشر ، وفى هذه الجزيرة نفسها انعقد سنة ١٤٦٤ مؤتمر بين لويس الحادى عشر ملك فرنسة ، وهنرى الرابع ملك قشتالة ، وفيها أيضاً ودّع فرنسوا الأول ملك فرنسة أولاده وعانقهم وهم ذاهبون رهائن إلي مجريط ، بحسب معاهدة سنة ١٥٢٦

وفى هذه الجزيرة أيضاً تقررت بين فرنسة واسبانية مصاهرة مزدوجة ، وذلك سنة ١٦١٥ بعقد نكاح ايزابلّة ابنة هنرى الرابع ملك فرنسة على فليب الرابع ملك اسبانية وعقد نكاح حنّة النمساوية أخت فيليب الرابع هذا على لويس الثالث عشر .



مدينة ايرون

ويوجد على وادى بيداسوا جسر مشترك طوله ١٣٠ متراً ، والنقطة المتوسطة منه هى الحد الفاصل بين المملكتين ، فاذا تجاوزته إلى الغرب فأنت فى مقاطعة « غينبوسكو » من بلاد الباشكونس . وأول مدينة تستقبلك هى مدينة « ايرون » Irun وعدد سكانها بضعة عشر ألف نسمة ، وهى بلدة عصرية ذات موقع جميل على الضفة اليسرى لوادى بيداسوا . ثم على مسافة عشرين كيلو متراً من هناك تصل إلى مدينة « سان سيباستيان » Saint - Sebastien والباشكونس يقولون لها « دونوستيا » Donostiya و يقولون لها أيضاً « أيروشولو » Eruchulo وهى قاعدة مقاطعة « غينبوسكوا » وموقعها من أبدع المواقع . وفيها كانت تصيف العائلة الملوكية فى أسبانية ، ونبلاء الاسبانيول يقصدونها للنزهة ، وعدد سكانها يقرب من خمسين ألف نسمة . وهى قسمان ، قديم وجديد ، وحولها جبال يصعد إليها المتنزهون ، وعليها حصون منها جبل « ايقلدو » Igueldo وجبل « العليا » Ilia وعلى خمسين كيلو متراً

من هناك مدينة « طولوزه » Tolosa وهي بلدة صغيرة ، سكانها ستة آلاف نسمة ، وموقعها بهيج ، وفيها معامل للورق ، وهي على نهر « أورية » ، وبالقرب منها على مسافة عشرين كيلو متراً بلدة « زومَرّاقة » Zumarraga وهي بلدة على نهر أورروله Urola ، ولها أيضاً منظر بديع . ومن هذه البلدة خرج « ميكال لوبّس دوليكازبي » De Ligazpé فاتح جزر الفيليبين سنة ١٥٦٩ ، وله فيها تمثال ، وبالقرب منها بلدة صغيرة يقال لها « فِرغاره » Vergara والبلاد هناك كلها جبال وأودية ، إلى أن يصل المسافر إلى بسيط « أَلَبَة » Alava ولألبة ذكر كثير في كتب العرب . وهذا البسيط تنحدر إليه جداول أهمها نهير يقال له « زادوره » وقاعدة مقاطعة ألبة مدينة « فيتورية » وكانت معروفة عند العرب ، ويقال إنهم كانوا يقولون لها سنت مرية ؟ وهي بلدة صناعية ، سكانها ٣٥ ألفاً ، يقال أن بانيها هو « ايوفيجلد » ملك البيزيقوت Leovigilde بناها سنة ٥٨١ بعد يوم كان له على الباشكونس ، ثم إن الأذفونش الثامن ملك قشتالة انتزعها من يد النماريين سنة ١١٩٨ وفيها تمثال لرجل يقال له « ماتيومورازه » من زعماء الباشكونس ، كان يدافع عن امتيازاتهم . والبلدة قسمان عتيق وجديد ، والعتيق هو القسم الأعلى . وفي هذه البلدة ، أي فيتورية ، جرت معركة بين الانكليز والفرنسيس في ٢١ يونيو سنة ١٨١٣ وكانت هذه المعركة ختام حرب أسبانية في زمان نابوليون الأول . ثم هناك بلدة يقال لها « كستيلو » وبلدة أخرى يقال لها « أرغانزون » وهما من البلاد الصغيرة القديمة . ثم بلدة « ميرانده » وهذه سكانها خمسة آلاف نسمة ، وفيها حصن قديم وهي على نهر إبرُه

ومن جهة البحر يوجد بلدة يقال لها « غوتارية» Guetaria وبلدة يقال لها « زوميا » Zumaya على مصب نهر أروله ، وبلدة يقال لها « سيستونه » Cestona وفي تلك الناحية دير كبير منسوب إلى القديس أغناطيوس لويوله Ignacio de Loyola مؤسس رهبانية الجزويت ، وهو مبني في مكان البيت الذي ولد فيه لويوله . وعلى البحر مرسى يقال له « ديفا » Deva سكانه ثلاثة آلاف ، وبلدة أخرى إسمها « ليكتيو »

Lequeitio سكانها أربعة آلاف ، ولها مرسى بديع . ثم بلدة «موتريكو» Motrico وأهلها صيادو سمك ، وفيها تمثال من رخام للجنرال « داميان » المولود فى موتريكو ، والمقتول فى واقعة طرف الأغر سنة ١٨٠٥ ثم بلدة « أونداروه » Ondarroa وهى مرسى سكانه صيادو سمك أيضاً ، و بلدة « الزولة » Alzola وفيها حمامات معدنية تنفع لأجل مرض المثانة ، و بلدة « الجويبار » Elgoibar و بلدة أخرى اسمها « إيبار » وفى كلتيهما معامل للسلاح . ثم بلدة دورنغو Durango ولها واد خصيب وفيها كنيسة « سان بطرودو طبيره » من أقدم كنائس الباشكونس ، و بلدة يقال لها « آمور يبيطه » Amorebieta و بلدة يقال لها « غرنيقه » Guernica وسكانها



بيلباو

٣٥٠٠ ، ولها موقع فى غاية الجمال ، وكانت فى القديم قاعدة لمقاطعة « بسقاية » وهناك وادٍ بديع يقال له « ميندا كا » Mundaca وكان للأمبراطوره أوجينى زوجة نابوليون الثالث قصر للنزهة فى تلك البقعة . ثم بلده « برميو » Bermeo وسكانها عشرة آلاف ، وفيها بيمارستان للمجانين يخص ثلاث مقاطعات الباشكونس . ثم بلدة « بيلباو » Bilbao وسكانها ٩٥ ألفاً ، وهي على نهر « نرڤيون » Nervion وهي

قاعدة مقاطعة بسقاية ، تحيط بها جبال مغطاة بالحراج ، وتبعد عن البحر ١٢ كيلومتراً ولها تجارة واسعة ، وهى قسمان . المدينة الجديدة ، والمدينة القديمة . فالقديمة هى على الضفة اليمنى للنهر ، والجديدة هى على الضفة اليسرى . وعلى النهر خمسة جسور ، وقد أصلحوا النهر حتى صارت البواخر التى محمولها أربعة آلاف طن تدخل فيه . ولهذه البلدة مرسى على البحر عند مصب النهر يقال له « العبره » El - Ebra وهذه المدينة معدودة من المدن الغنية ، بسبب معادن الحديد التى بجانبها ، وفيها مبانٍ جديرة بالذكر ، ومعاهد خيرية ، منها ملجأ للعميان وللخرس ، وفيها معامل ، ويقال إن بانى هذه المدينة هو « لوبس دوهارو » Haro أمير بسقايه ، وذلك سنة ١٣٠٠



الحمام فى بيلباو

وفى تلك الناحية بلدة « ارانغورن » Arenguren وفيها معامل للورق ، و بلدة « كارانزا » Carranza وفيها ينابيع معدنية والمهم هناك هو مدينة « سانت اندر » Santander وهى مدينة بحرية سكانها سبعون ألفاً . وهى قاعدة مقاطعة بهذا الاسم ، وهى بلدة قديمة ، كانت تنتهى إليها طريق رومانية ، وكان العرب يقولون لها « شنت أدرم » وأحياناً « شنت اندر » وهى قسمان : القسم الأعلى ، وهو المدينة القديمة ، وأزقتها ضيقة ، والقسم الأدنى ، وهو المدينة الجديدة ومرساها بديع ، وتجارتها واسعة ، وهى من أهم المرافىء البحرية فى شمالى اسبانية

ثم مدينة « أوردونية » وهى على وادى « نرڤيون » وعدد سكانها ٣٥٠٠ وجميع مناظر تلك البلاد شائقة نظراً لكثرة الجبال والأودية والغابات فيها .

ثم نعود إلى الجهة الداخلية ، وهى التى يمر بها نهر ابرُه ، فمن مدن هذه الجهة « بريفسكا » Briviesca وهى بلدة صغيرة سكانها ٣٥٠٠ اجتمع فيها نواب البلاد سنة ١٣٨٨ وقرروا أن ولى عهد قشتالة ينبغى أن يحمل لقب « برنس الاشتورياس »



أحد البيوت المالية فى بيلباو

وبقربها بلدة « أونيه » One وفيها دير للبندكتيين اسمه سان سلفادور ، مبنى سنة ١٠١١ وفيه أربعة قبور من قبور الملوك وهناك قرية « كينتانا بالاّ » Qnintanapalla التى فيها سنة ١٦٨٢ تزوج كارلوس الثانى ملك اسبانية بمارية لويز من آل بربون ، فى زمن لويس الرابع عشر . وقرية « توركادة » التى ينسب اليها « تومادوتوركادة » Torquemada رئيس ديوان التفتيش الشهير فى اسبانية . وفي تلك البلاد مساكن كثيرة منحوتة فى الجبال . ومن الأماكن المذكورة فيها قرية « دويناس » Duenas التى تلاقى فيها فرديناند ملك أراغون مع ايزابلا ملكة قشتالة قبل زواجهما

وعلى وادى دورو Duero الذى يقول له العرب « الوادى الجوفى » بلدة « ارانده » Aranda وهى صغيرة بديعة المنظر ، وهناك مدينة « صان استبان »

San Estevan de Gormaz وكان العرب يقولون لها « شنت استابين » وفيها حصن قديم من أيام حروب العرب . ومدينة « اوسما » Osma وهي بلدة ايبيرية عتيقة ، كان لها ذكر في الدور العربي ، وبالقرب منها على شفير واد عميق دِمَن حصن عربي قديم . وقرية « المازان » Almazan ، وفيها مسارح نظر بديعة ، وآثار أسوار قديمة ، وقنطرة على الوادي الجوفي طولها ١٦٣ متراً . ومدينة « الكامبو » Medina del Campo وهي صغيرة ، وكان فيها قصر اسمه « قصر موتا » Castillo de la Mota مبني من سنة ١٤٤٠ كانت تؤثره الملكة ايزابلا ملكة قشتالة ، زوجة الملك فرديناند ، وتقيم به وماتت فيه سنة ١٥٠٤

ومن مدينة « الكانبو » أو « الكامبو » إلى « زمورة » ٩٠ كيلو مترا بالسكة الحديدية ، وبينهما بلدة « تورو » Toro مبنية على جبل شاهق مدهش فوق الوادى الجوفى

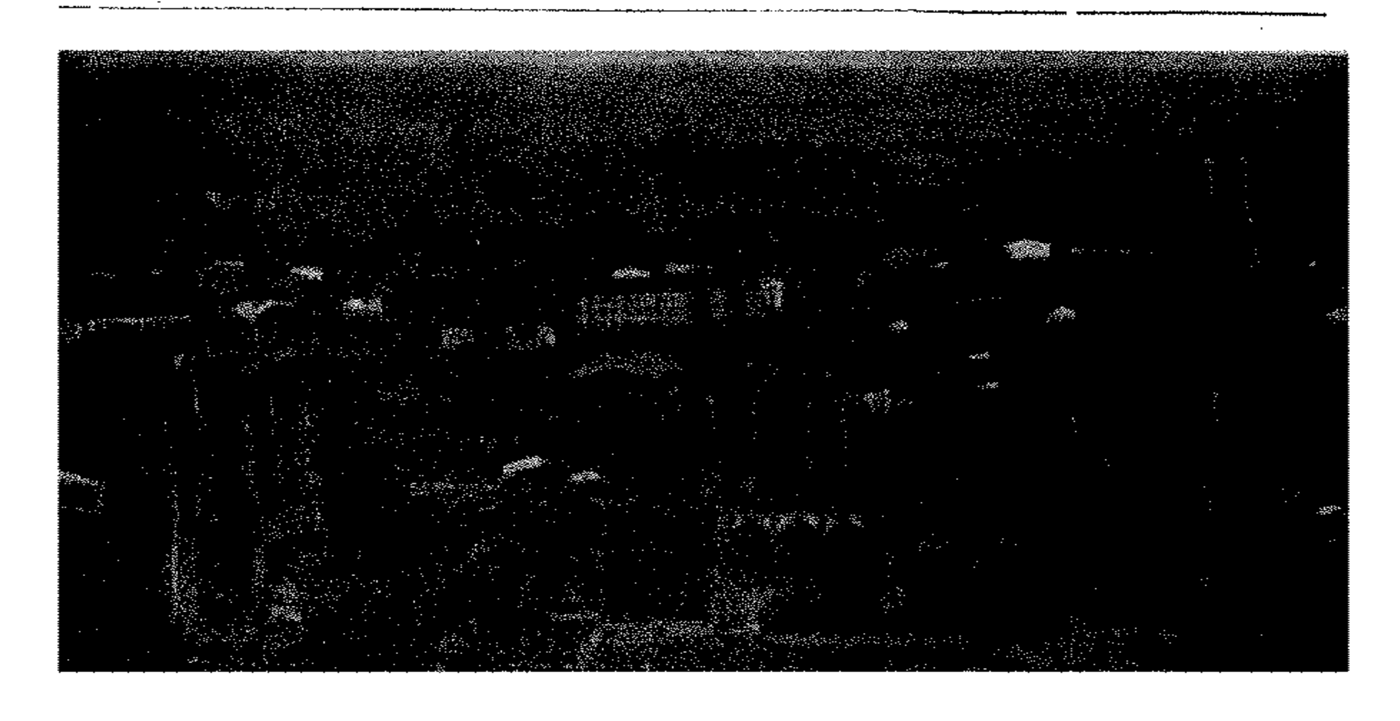
برغش

وأما برغش ، Burgos فهى مركز مقاطعة بهذا الاسم ، وسكانها يزيدون على ثلاثين ألفاً ، وهي مركز قيادة عسكرية ، ومقر رئاسة أساقفة ، وموقعها على يفاع من الأرض فى القسم الشمالى من قشتالة ، يسقيها نهر اسمه « ارلنسون » Arlençon تراه أكثر السنة شحيحا ، لكن له فيضانات مدهشة . وفى برغش حصن على رابية مشرفة على البلد ، لم يبق منه إلا رسوم طامسة . وفى أسفل هذه الرابية الكنيسة الكبرى وهى من أبدع بدائع الصنعة القوطية فى اسبانية .

ولبرغش سهل مريع يسقيه جدول اسمه « بيكو » وأقنية من ارلنسون . وهذه البلدة هى من أقرس مدن اسبانية بردا ، يتسلط عليها ريح الشمال ، وقد يقع فيها الثلج فى شهر يونيو وفى الشتاء يصح أن يقال فيها :

لا ينبح الكلب فيها غيرَ واحدة من الصقيع ولا تسرى أفاعيها

وأما فى القيظ فهى من أشدها حرارة ، يهب عليها ريح الجنوب المحرق فيشوى



مدينة برغش « منظر عمومى »

الوجوه ، وعليها يصدق المثل الذى يقال عن مجريط وهو : تسعة أشهر شتاء ، وثلاثة أشهر جهنم الحمراء .

وفى برغش أبنية تعد من أجل ما يوجد فى اسبانية ، وأهمها الكنيسة الكبرى بدأ ببنائها الملك فرديناند الثالث الذى يقال له القديس فرديناند ، وذلك سنة ١٢٢١ واستمروا يبنون فيها و يزخرفون و يزينون مدة ثلاثمائة سنة . فتأمل كم فيها من بدائع وتصاوير وتماثيل وتخاريم ، تعد فى الدرجة الأولى من درجات الفن . و يوجد غير الكنيسة الكبرى كنائس أخرى تقصدها السياح . مثل كنيسة سان نيقولا ، وكنيسة سان اشتابين ، وكلها على طرز البناء القوطى ، وكذلك فى هذه البلدة حصن قديم يقال له « كاستيليو » يصعدون إليه من باب عربى اسمه قوس سان اشتابين وكان يسكن فيه ملوك قشتالة . وفى هذا الحصن احتفل بزواج السيد لذريق دو بيفار المسمى بالقمبيدور الشهير فى التاريخ الذى يجعله الاسبانيول بطلهم القومى ، نظراً لشجاعته واقدامه . برغم أنه كان ظالماً غدارا ، ناقص الذمام ، عديم الوفاء . مما ثبت فى التاريخ ثبوتاً لا ريب فيه ، ولكن الشعب الأسبانى تعامى عن ذلك وخلق لهذا

الرجل محاسن لم تسكن فيه ، حتى يمكنه تمام الاعجاب به ، وقد ولد لذريق البيفارى De Buver هذا سنة ١٠٢٦ ومات سنة ١٠٩٩

وسنأتى على ذكره فى قسم التاريخ ، ونروى كيفية استيلائه على بلنسية ، واحراقه القاضى ابن جحاف فى ساحة تلك البلدة ، بحجة أنه خبأ عنه بعض خزائنه والحقيقة انه إنما أراد إلقاء الرعب فى قلوب أهل بلنسية . حتى لا يخفوا عنه شيئاً من الأموال التى كان يطمع فيها . وقد كانت ولادة هذا البطل الغشوم فى برغش ، ومكان البيت الذى ولد فيه لا يزال معروفاً . وفى دار البلدية تخدع فيه عظام السيد المذكور . وقد كانت من قبل مدفونة فى دير « كاردينية » Cardena ، وتقلبت هذه العظام على حالات شتى إلى أن جمعوها سنة ١٨٨٣ فى دار البلدية فى برغش . وبالقرب من دير كاردينية ، كانت تسكن امرأة السيد ، وهى المسماة « شيمانة » وكانت ابنة الكونت دياغو من « اوبيط » diego d'oviedo فاتها بعد أن مات زوجها وأخرجت من بلنسية سكنت فى برغش إلى أن ماتت [1] سنة ١١٠٤ .

---

(١) اختلف الناس فى أمر هذا البطل الاسبانى اختلافاً شديدا من كونه عبقرى بسالة وأصالة متحليا بجميع مزايا الابطال ، إلى كونه سيدا عملسا سفاكا للدماء ، غدارا نهابا ، ليس فيه شىء من مزايا الكرام ، وقد كتب المؤرخون سيرته بين قادح ومادح ، وقد وجد فى مكتبة ديرسان ايزيدور فى ليون مخطوط نشر سنة ١٧٩٢ يتكلم عن هذا السيد . ولكن أحسن كتاب عن السيد باعتراف الافرنج انفسهم هو المخطوط الذى عثر عليه دوزى فى غوته Gotha سنة ١٨٤٤ وهو كتاب كتبه الكاتب العربى ابن بسام بعد موت السيد بعشر سنوات ، لازيادة . وكان ابن بسام يعرف السيد معرفة شخصية فوصفه عن معرفة تامة ، ولم يكن يذكره إلا ويردف اسمه باللعنة ، ولذلك إذا قال فيه خيرا فلا بد من تصديقه ، لانه كلام عدو بحق عدوه ، فهو يقول عن السيد ما يأتى : برغم هذا كله لابد من الاعتراف بأن هذا الرجل الذى كان نقمة إلهية فى وقته ، بحبه للمجد ، ومتانة خلقه ، ورباطة جأشه ، وشجاعته الخارقة للعادة ، كان أعجوبة وقته ، وكان النصر لايفارق رايته ، وكانوا يقرأون سير أبطال العرب بحضوره . ولما وصلوا إلى سيرة المهلب أعجب بها اعجاباً شديدا ، انتهى .

ويقال ان بانى برغش هو « رودريغس بورسالوس Rodriguez Porcelos كونت قشتالة ، بناها سنة ٨٨٤ ، وكانت من قبل تابعة للاشتورياس ، ولكن الملك «أوردونيو» الثانى Ordono قتل ذرية بورسالوس ، فاستقلت المدينة واتخذت لنفسها حكومة جمهورية ، ثم فى زمن« فرنانغونزاليز » Farnen Gonzales صارت قاعدة قشتالة [1] ثم عند ما اتحدت قشتالة وليون مملكة واحدة كانت هى مركز قشتالة القديمة . وفى برغش هذه هزم الفرنسيس فى زمن نابليون الجيوش الاسبانية .

ومن مباني برغش المشهورة القصر المسمَّى « بالكُردون » Caza del Cordôn وهو قصر بناه أمير الجيوش « فاليسكو » فى أواخر القرن الخامس عشر على يد البناء المشهور المسلم محمد السقوبى Mahomat de Segovia وفى برغش دير للراهبات شهير أصله مقسف للملوك قشتالة ، ثم حوّله الأذفونش الثامن سنة ١١٨٧ ديراً للراهبات ، وكان فيه مائة من هؤلاء المتبتّلات . ولم يبق الآن سوى ثلاثين. و يقال للواحدة منهن

هذا كلام بن بسام بحق السيد ، ترجمه دوزى من العربية ، ونحن الآن نترجمه إلى العربية عودا على بدء ، والله أعلم بمكان الأصل . ومنه يعلم أن السيد كان بطلا حقيقياً ، لا بطلا خياليا ، وإنما الناس حلوه محاسن لم تكن فيه وربما أضافوا إليه مقابح تجاوزوا فيها الحدود ولكن بما لا مشاحة فيه أن الشر غالب عليه ، وانه أحرق القاضى ابن جحاف فى ساحة بلنسية ، لكونه خبأ عنه أمواله . أما شجاعته وإقدامه فما لا يختلف فيه اثنان ، وكان ملكا قشتالة واراغون فرديناند وراميرِ يتنازعان على مدينة كالاهوره Calahorra فلولا السيد لم يتغلب ملك قشتالة على ملك اراغون ، وسنأتى بقصة السيد على وجهها فى القسم التاريخى من هذا الكتاب ، وإنما اكتفينا الآن بالاشارة اليها .

(١) وقرأت فى كتاب «الصلة» لأبى القاسم خلف بن بشكوال ترجمة صادق بن خلف ابن صادق بن كبيل الأنصارى من طليطلة فقال عنه إنه سكن برغش . فن هنا يظهر أن العرب استولوا على برغش وسكنوا بها . هذا إلا إذا كان المقصود بالبلدة الى سكن بها صادق بن خلف الأنصارى هى قرية « برغش » بفتح الباء Bargos التى فى وادى الرمل على مسافة ٦٣ كيلو مترا من مجريط . فاما برغش المدينة المشهورة فهى بضم الباء Burgos

« سنيوره » أي سيدة ، ولا يقال « أخت » كما يقال لغيرهن .

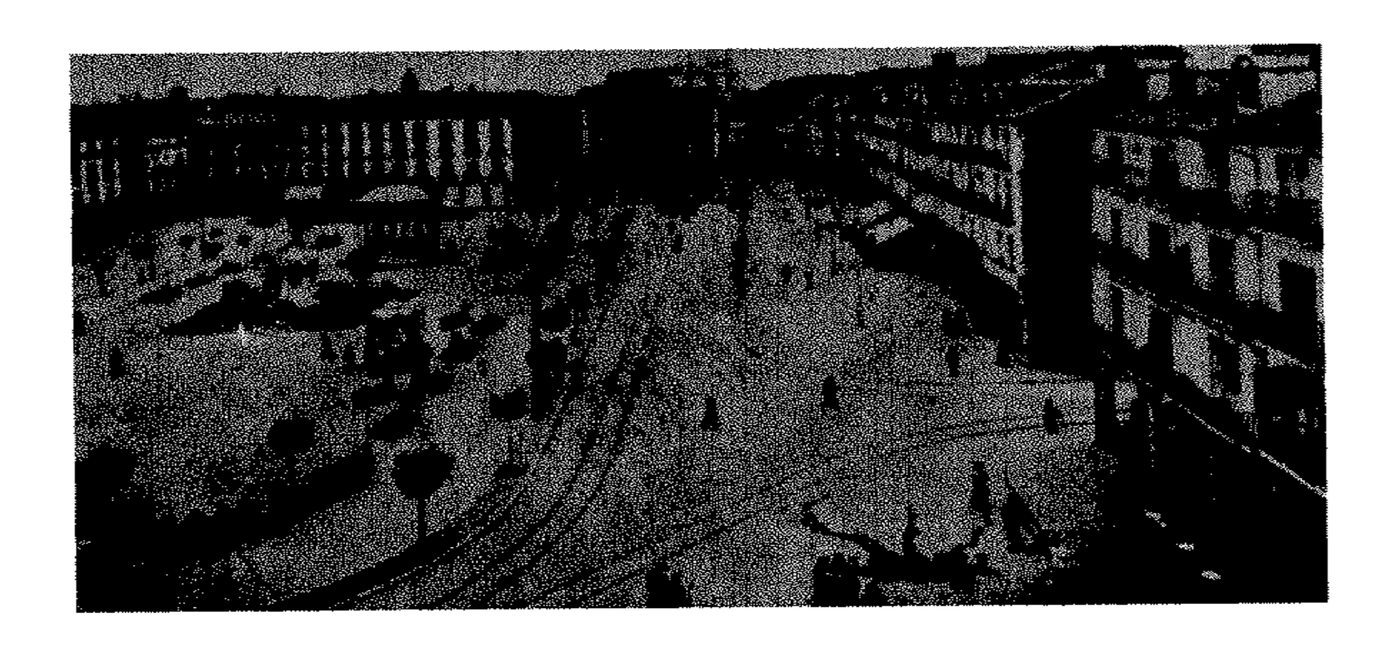
وفى هذا الدير كنيسة خزانة فيها راية عربية أخـذها الأسبان من المسلمين في وقعة العقاب . وأما دير كوردينية فهو من أقدم الأديار ، كان بناؤه سنة ٥٣٧ و بانيه سَنْشَه Sancha أم الملك تيودوريق . وهناك دير آخر تاريخ بنائه يرجع إلى سنة ٥٩٣ فى قرية صغيرة بقرب برغش يقال له دير سيلوس Silos بانيه الملك « ريكاريد » Récared وهو اليوم للبندكتيين

بلد وليد

ثم بلد الوليد Valladolid وهذه اللفظة عربية محرفة عن « بلد الوالى » . هكذا سماها العرب ، فأضاف إليها الأسبان حرف الدال ، فصار الانسان يتوهم أنها بلد بناها رجل يقال له الوليد ، وهى الآن مركز مقاطعة بهذا الاسم . سكانها فوق السبعين ألفاً وموقعها فى مرج أفْيَجْ ، على الضفة اليمنى من وادى بسيورقة . وكانت هـذه البلدة مقراً لملوك قشتاله [1] وفيها تأهل فرديناند بايزابلّا سنة ١٤٦٩ وفيها مات كريستوف كولولمب فى ٢١ مايو سنة ١٥٠٦ وفيها أقام فيليب الثانى وفيليب الثالث ، وكذلك نابوليون الأول جعل فيها مركزه عند مافتح أسبانية ، وفيها كنيسة كبرى بدأوا بهـا سنة ١٥٨٥ على يد « هرّيرة » من البنائين المشهورين ، طول المسقوف من هذه الـكنيسة ١٢٢ متراً ، وعرضها ٦٢ متراً ، وفيها مدرسة جامعة ، عدد طلبتها يقارب خمسة آلاف ، وأساتيذها خمسون ، وفيها خزانة كتب تشتمل على ٣٥ ألف مجلد . منها

---

(١) قال فى صبح الأعشى : مدينة وليد بفتح الواو وكسر اللام وسكون المثناة من تحت ودال مهملة فى الآخر . وموقعها فى أواخر الاقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول احدى عشرة درجة واثنتا عشرة دقيقة والعرض ثمان وثلاثون درجة وثلاث دقائق . قال فى « تقويم البلدان » : وهى من أحسن المدن وهى فى الغرب من طليطلة فى جنوبى جبل الشارة الذى يقسم الاندلس نصفين . قال : ويحلها الفونش ملك الافرنج فى أكثر أوقاته



الساحة الكبرى « بلد الوليد »

ثلاثمائة مخطوط ، وأمام المدرسة الجامعة تمثال للكاتب الاسبانيولى الشهير « ميشال دوسرفانتس » Cervantes صاحب كتاب « الدون كيشوط » . وفى هذه البلدة متحف كان فى أصله مدرسة يقال لها مدرسة « سانتا كروز » Santa Cruz وعلى باب هذه البناية القديمة صورة المطران « مندوزا » ساجداً أمام القديسة « تيريزه » وفى هذا المتحف مجموعة من تماثيل خشبية نادرة فى بابها ، لأشهر نحاتى أسبانية ، وفيه من نفائس التصاوير والتماثيل مايدهش السائحين .

وفى هذه البلدة أيضاً كنيسة يقال لها كنيسة المجدلية ، فيها قبر بانيها «الدون بدور دولاغاسكا » de Lagasca وفيها كنيسة يقال لها كنيسة « سانتامارية لا انطيقا » la Antigua هى من الكنائس الاثرية ، ومدرسة يقال لها مدرسة «سان غريغوريو» ، بناها البناء الشهير « فيغارنى » فى أواخر القرن الخامس عشر . على بابها شجرة نسب الملوك الكاثوليكيين أى فرديناند وأيزابلا والمطران الونزو دو برغش . وفي بلد الوليد ايضاً كنيسة سان بابلو ، بدأوا ببنائها سنة ١٢٧٦ ثم جددها سنة ١٤٦٣ الكردينال « توركادا » وفيها ست أو سبع كنائس غير التى ذكرت . وكلها من الأبنية الموصوفة

بحسن الصنعة . وبالقرب من بلد الوليد بلدة « شنت طانكش » ، وأصل اسمها في زمن الرومانيين « سبتيمانكة » Septimanca ثم انقلب إلى سيمنكاس Simancas والعرب يقولون لها « شنت طانكش » وفيها حصن مودعة فيه أوراق دولة اسبانية من القديم ، وهي ثمانون ألف اضبارة ، تشتمل على ٣٣ مليون وثيقة .

و بالقرب من سيمنكاس مدينة قديمة صغيرة اسمها «طورد زلاّس» Tordsillas ومن مدن تلك الجهة « أريفالو » Arévalo وهي بلدة قديمة صغيرة ، سكانها أربعة الآف نسمة ، وكانت في الماضي معدودة من مفاتيح مملكة قشتالة . ثم مدينة «آبلة[1] »

---

(١) قد سكن المسلمون في آبلة لأول فتح العرب لاسبانيا ، وانتسب اليها جماعة من أهل العلم ، منهم أناس هاجروا منها إلى فاس ، وقد ذكر لي الاديب المدقق السيد محمد الفاسي من بني الجد الفهريين أن أبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن احمد العبدري الآبلي المتوفى في فاس سنة ٧٥٧ للهجرة ، أصل أجداده من آبلة ، نزحوا منها إلى تلمسان وبها ولد أبو عبد الله هذا ، ثم انتقل إلى فاس ومات بها ، وهو تلميذ العالم الرياضي الكبير ابن البناء المراكشي ، والشيخ العلامة ابن خلدون

وقد وجدت في آبلة بلاطة تاريخ الكتابة التي عليها سنة ٨٠١ للهجرة ، نقلها لاوى بروفنسال ، وقال إن هذه البلاطة وجدت بقرب باب القصر Alcazar في آبلة ، وهي هذه : « هذا قبر عبد الله بن يوسف السي (؟) المقتول على ظلم . . . . . (؟) . . . . . ظه وملكه عام ضا ١ لهجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . . . . . (؟) . . . الله يجمعنا معه في الجنة النعيم لا حول ولا قوة إلا بالله »

قال لاوى بروفنسال إن هذا التاريخ يوافق سنة ١٣٩٨ - ٩٩ مسيحية . قلنا إن آبلة هي من المدن التي أخلاها المسلمون من أوائل الفتح . مثل شقوبية ، وسمينكاس ، واستورقة . وليون ، وزموره وغيرها ، نعم ان المنصور بن أبي عامر كان قد غزا فيما بعد هذه البلاد كلها . واستولى عليها . بعد أن أوقع بجيوش جميع أمم الاسبانيول ، وأعاد شمالي اسبانية إلى ملك الاسلام . ولكن لم يمض على ذلك إلا قليل ، حتى كانت الفتنة في قرطبة ، وسقطت الخلافة . وصار المسلمون يستعين بعضهم على بعض بالنصارى ونجمت ملوك الطوائف ، وأصبحت الحالة أشبه بالفوضى ، فاسترجع النصارى جميع تلك المدن ، منها ما أخذوه بالقوة ، ومنها ما اشترطوا التخلي عنه لأجل النصرة التي كان

Avila وسكانها ١٢ ألف نسمة ، وهى مركز مقاطعة بهذا الاسم ، ومركز أسقف ، وموقعها على سطح رابية منقطعة من الجهات الثلاث ، وأمامها الجبال التى يقال لها شارات « مالاغون » من جهة الشرق ، وشارات آبلة من جهة الشمال الغربى . وهواء هذه البلدة هو فى غاية القسوة ، وقد تنازع الأسبانيول والعرب هذه البلدة مدة أربعة قرون متوالية ، ولم تدخل فى حوزة المسيحيين نهائياً إلا سنة ١٠٩٠ فى زمن الاذفونش السادس ، فحصنها الاذفونش ، وجدد فيها أبنية كثيرة ، وبقيت إلى القرن السابع عشر من أحفل مدن اسبانية وكان فيها جم غفير من الموريسك ، أى العرب الذين نصّرهم الأسبانيول ظاهراً ، ولبثوا مسلمين باطناً ، وكانت هذه المدينة عامرة بهم ، فلما طردوهم فى سنة ١٦١٠ ، وهو الجلاء الأخير ، سقطت هذه المدينة سقوطاً تاماً . وفى آبلة من الكنائس مايعدّ فى الطبقة الأولى بين كنائس أسبانية ، على كثرة احتفال الأسبانيول بالكنائس ، و بذلهم فى بنائها ما عز وهان . ومن أشهرها كنيسة « سان سلفادور » San Salvador وهى مبنية من الحجر المحبّب ، يخالها الناظر إليها حصناً من الحصون . وهى من القرون الوسطى ، وبابها بديع الصنعة ، وفى داخلها تصاوير لأشهر المصورين ، وفيها قبر المطران «الفونسو دومادر يغال» من عمل النحات الشهير « فاسكو زارزا » Zarza ، وفيها كنيسة « سان بدرو » ودير « سانتو توماس » بناه الملوك الكاثوليكيون ، أى فرديناند وايزابلا سنة ١٤٨٢ ، وفيه قبر البرنس جوان الذى مات سنة ١٤٩٧ ؛ وكان الولد الوحيد لفرديناند وايزابلا وسور آبلة القديم طوله ٢٤٠٠ متر ، ولم يكملوه إلا سنة ١٠٩٩ . وفى آبلة ماتت

يرجوها منهم كل من الفريقين المتقاتلين فى قرطبة ، إذاً فى سنة ٨٠٠ للهجرة لم يكن فى آبلة مسلمون غير المدجنين ، فان آبلة كانت قبل تاريخ هذه الكتابة بثلاثمائة سنة رجعت إلى النصرانية . فان كان قد بقى فيها مسلمون فيكونون ممن اختاروا « الدجن » أى الاقامة تحت حكم النصارى ، من دجن دجنا ودجونا أى أقام بالمكان وألفه واستأنس به . وأصل استعماله للحمام والحيوانات ، يقال الحيوانات الداجنة ، ضد الحيوانات البرية



سور مدينة آبلة

القديسة « تريزا » Teresa ، ولها هناك دير مشيد فى محل البيت الذى ولدت فيه سنة ١٥١٥ ، وهذه القديسة هى شفيعة آبلة . وفيها أيضاً كنائس أخرى متقنة مثل « سان سغوندو » Segundo و « سان فيسنت » Vicente نسبة إلى القديس فيسنت الذى يقال انه في سنة ٣٠٣ للمسيح قتل من أجل عقيدته المسيحية . وهناك صخرة هى فى داخل الدير ، يقال إن القديس المذكور قتل عليها . وفى آبلة ساحة منسوبة إلى المنصور بن أبى عامر . و بالقرب من آبلة واد بهيج ، يقال له « وادى البرش » Alberche ، وفيه بلدة مشهورة بنوع من العنب يسمى البِياو Albillo و يقال لهذه البلدة « سبريروس » Cebreros

ومن مدن قشتالة « فيلاَّلبة » Villalba واقعة على واد متسع تحيط به أهاضيب من شارات وادى الرمل ، وهى على حدود قشتالة الجديدة . وفى تلك الجهة قرية يقال لها « شارمارتين » Charmartin وهى التى فيها كان نابليون الأول عند ما استسلمت له مدينة مجريط .

ومن مدن قشتالة « أولميدو » Olmedo وهى صغيرة ، ثلاثة آلاف نسمة ،

إلا أنها كانت ذات شأن فى الماضى ، وكانت مسكن نبلاء قشتالة ، حتى ضرب المثل بها ، فكانوا يقولون : من أراد أن يسود فى قشتالة ، فعليه أن يستند على أولميدو وأريفالو . ثم بلدة يقال لها « كوكو Coco » كان لها شأن عظيم فى القديم ، ولكنها اليوم قرية صغيرة . و بلدة سقوبية Ségovia ، وكل هذه البلاد قريبة من مجريط ، والسكة الحديدية تمر على سقوبية ثم تدخل فى نفق وادى الرمل ، وطوله ٢٧٠٠ متر وإذا أفاض الانسان من هذا النفق وقع نظره على سهل قشتالة الأفيح ، فشاهد أجمل ماتقع عليه العين . وفى تلك الناحية دير الاسكوريال الشهير ، ثم مجريط

وهذه البلدة هى اليوم عاصمة أسبانية ، وسكانها يزيدون على ثمانمائة الف وفيها مدرسة جامعة ، ومركز اسقفية ، وموقعها على ٦ ، ١ ، ٣١ من الطول الغربى من خط نصف النهار الباريزى ، وعلى ٤٠ ، ٢٤ ، ٣٠ من العرض الشمالى . وهى تعلو عن سطح البحر ٦٤٠ متر

مجريط Madrid

قال ياقوت فى معجم البلدان : مجريط بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وكسر الراء ، وياء ساكنة ، وطاء : بلدة بالأندلس ينسب إليها هارون بن موسى بن صالح بن جندل القيسى الأديب القرطبى ، أصله من مجريط ، يكنّي أبا نصر ، سمع من أبى عيسى الليثى وأبى على القالى ، روى عنه الخولانى ، وكان رجلا صالحا صحيح الأدب ، وله قصة فى القالى ذكرتها فى أخباره من كتاب الأدباء ـ يعنى كتابه معجم الأدباء ـ ومات المجريطي لأربع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠١ قاله ابن بشكوال . اه

ومن غريب الأمور أن ياقوت ذكر مجريط في مكانين من كتابه ، ففى الأول ذكرها فى صفحة ٣٨٨ من الجزء السابع من معجمه ، الطبعة الأولى المصرية المصححة بقلم الشيخ احمد بن الأمين الشنقيطى ، ثم فى صفحة ٣٩٤ من الجزء نفسه ، عاد فذكر مجريط هى نفسها وترجمها غير الترجمة الأولى فقال : مجريط بالفتح ثم السكون وكسر الراء ، وياء ، وآخره طاء مهملة : مدينة بوادي الحجارة ، اختطها محمد بن عبد الرحمن

ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . ينسب إليها سعيد بن سالم الثغرى ، ساكن مجريط ، يكنّى أبا عثمان . سمع بطليطلة من وهب ابن عيسى ، و بوادى الحجارة من وهب بن مسرّة وغيرهما ، وكان فاضلا ، وقُصد السماع عليه ، ومات لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٣٧٦ قاله ابن الفرضى انتهى نقلا عن بغية الملتمس

والذى يلوح لنا أنه كتب عن مجريط أولا ، وانتهى منها ، ثم تلقّى معلومات جديدة عنها فبدلا من أن يلحقها بما تقدم له فى شأن مجريط ، عاد فترجمها مرة أخرى

وينسب إلى مجريط عدد من أهل العلم فى الاسلام منهم أبو محمد عبد الله بن سعيد المجريطى[1] وعبد الرحمن [2] بن عبد الله بن حماد المجريطى . وهارون بن موسى ابن صالح ابن جندل القيسى القرطبى ، أصله من مجريط ، وأبو العباس يحيى بن محمد ابن فرج بن فتح ، المعروف بابن الحاج[3] المجريطى ، توفى بقرطبة سنة ٥١٥ وأبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن عبدالله بن حمّاد[4] المجريطى ، توفي بمجريط نفسها سنة ٤٧٣ وعبد الرحمن بن عيسى بن عبد الرحمن بن الحاج المجريطى ، سكن قرطبة ، وكان

---

(١) سمع من علماء طليطلة وعلماء قرطبة وتوفى بالمشرق سنة ٣٩٠ أو فى السنة التى بعدها

(٢) أخذ عن ابن مدراج وعبدوس بن محمد وأبى بكر الزبيدى وابن الهندى وابن العطار وابن ابى زمنين وكان فاضلا ثقة متواضعاً قال ابنه يوسف بن عبد الرحمن : توفى أبى رحمه الله فى صفر سنة ٤٠٧ وهو ابن ٧٧ سنة

(٣) كان من علماء الأدب والعربية قال ابن بشكوال : وقد أخذ عنه أصحابنا وكان أحد العدول وتوفى رحمه الله يوم الاثنين لاربع بقين من ربيع الأول سنة ٥١٥ بقرطبة ودفن بمقبرة أم سلمة حضرت جنازته اه

(٤) روى عن ابى عبد الله بن الفخار وابى عمر الطلمنكى وابى محمد الشنتجيالى ورحل الى المشرق حاجاً ولقى أبا ذر الهروى ويحيى بن نجاح ولقى ببرقة ميمون ابن طريف وباطرابلس أبا الحسن بن المنمر وقرأ عليه كتابه فى الفرائض وكان أبو يعقوب ابن الحاج هذا ثقة حسن الخط من بيت خير وفضل توفى بمجريط سنة ٤٧٣

يكنّى بأبي الحسن[١] . وأبو الحسن غريب بن خلف بن قاسم الخطيب القيسي المجريطي نزيل مالقه ، كان من أهل العلم ، وله تصنيف

وأعظم المنسوبين إلى مجريط أبو القاسم مسلمة بن احمد المجريطي الفلكي الكيماوي الشهير ومن ينسب إلى مجريط سعيد بن سالم المجريطي المعروف بأبي عثمان الثغري الذي ذكره ياقوت ، وينسب إلى مجريط أبو العباس يحيي بن عبد الرحمن ابن عيسى بن عبد الرحمن بن الحاج ، كان ساكناً في قرطبة . وتولّى قضاء جيّان ، وقضاء مرسية ، وقضاء غرناطة ، ثم تولّى قضاء قرطبة بعد أبي الوليد بن رشد ، وكان قاضياً جليلا ، توفي[٢] سنة ٥٩٨ .

وأما أبو يعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حمّاد المجريطي الذي قلنا إنه توفي بمجريط سنة ٤٧٣ . فاذا كان القشتاليون استولوا على مجريط سنة ١٠٨٣ فينبغي أن تكون وفاته وقعت في مجريط بعد استرداد الاسبانيول لهذه البلدة . وأخبرني مهندس اسبانيولي مدقق متخصص بعلم الآثار اسمه فرناندس من أهل قرطبة أنه لما استولى الأسبان على مجريط كان فيها أربعة جوامع

كان بناء مجريط في زمن العرب ضرورة عسكرية ، لأنهم جعلوها قلعة في وجه القشتاليين ، ولولا القلعة ما تكونت ثمة بلدة ، إذ ليس إلا بلد مَحْل ، وماء ضَحْل ، وبقيت في أيدي العرب مدة طويلة إلى أن تمكن الاسبانيول من إرجاعها سنة ١٠٨٣ وذلك على يد الأذفونش السادس ، وكانت القلعة العربية في مكان القصر الملوكي الحالي وهذا القصر هو أفخم بناء في هذه العاصمة الآن ، وكان الشروع ببنائه سنة ١٧٦٤

(١) قال ابن الأبار في التكملة : يعرف بالمجريطي لان أصله منها أخذ القراءات عن ابي القاسم بن النحاس وتولى القضاء برندة وحدث عنه ابنه القاضي أبو العباس يحيي بن عبد الرحمن وكان مولده سنة ٤٧٣ وتوفي سنة احدى وعشرين وخمسمائة

(٢) ترجمه ابن الابار . فقال : انه اخذ القراءات عن أبيه وقرأ على ابي بكر ابن العربي وأبي زيد الخزرجي وأبي بكر بن سمجون وتولى قضاء جيان ومرسية وغرناطة ثم قضاء قرطبة بعد ابن رشد وكان معدوداً في رجالها مع الجزالة والعدالة والايثار للحق

هذا ، ولما دخلها الاسبانيول حوّلوا مسجدها الكبير إلى كنيسة باسم السيدة العذراء وأعطوا مجريط امتيازات كثيرة ، وصارت لذلك العهد مدينة لابأس بها ، تمتد إلى باب « لاتينه » Latina وباب « سرّاده » Cerrada ، و باب «وادي الحجارة » و باب « سانتو دومينكو » Sato Domingo و باب «سان مارتين » San Martin و باب « الصول » Del Sol ، ووقع بين أهل مجريط وأساقفة أسبانيه دعوى على مشاعات البلدة ، فصدر الحكم بأن تكون المراعى لرجال الكنيسه وأن تكون الغابات للمدينه .

وفى سنة ١٣٢٩ جمع فرديناند الرابع أول مجلس للأمة الاسبانية فى مجريط وفى سنة ١٣٨٣ التجأ إلى اسبانية لاوون ملك أرمينية شريداً ، فولّوه على مجريط ، ولكن بعد وفاته رجعت البلدة إلى حكم قشتالة ، وفى سنة ١٣٩٠ حصلت في مجريط فتن متتابعة أيام كان الملك هنري الثالث صغيراً فانتقلت العائلة المالكة إلى سقوبية . ثم تجددت هذه الفتن فى زمن هنرى الرابع بين سنتى ١٤٥٤ و ١٤٧٤ ، ولم تستقر أحوال مجريط إلا فى زمن الملوك الكاثوليكيين ، أى فرديناند و ايزابلّا سنة ١٤٧٧ وفى زمن شارلكان ثارت مجريط عليه ، وانضمت إلى الحزب الذى كان يأبى الانقياد للحكم المركزى ، إلا أن هذا الحزب انتهى أمره بالفشل ، فدخل شارلكان مجريط سنة ١٥٢٤ و بعد ذلك بسنة ، لما وقع فرنسوا الأول ملك فرنسة أسيراً فى يد الامبراطور شارلكان ، بعد معركة « بافيه » Pavia جيء به إلى مجريط ، واعتقلوه مدة في البرج المسمى « لوجانس » Lujanes ثم نقلوه إلى القصر Alcazar ، وكان عدد أهالى مجريط فى أوائل القرن السادس عشر لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة .

والذى فكر فى جعل مجريط عاصمة اسبانية هو فيليب الثانى ، وذلك سنة ١٥٦٠ وقبلها كانت العاصمة طليطلة . وكان فى طليطلة كرسى الأسقف الأكبر ، فكانت هذه المدينة عاصمة اسبانية فى الدين والدنيا ، وكان الاحتكاك الدائم لايخلو من حوادث تبعث على الاختلاف ، فأخذ فيليب الثانى يفكر فى الانتقال إلى مركز

آخر يتوسط المملكة من جميع الجهات ، فلم يجد أفضل من مجريط ، على علاّتها ، وقحولة أرضها ، وعطلها من أكثر المواهب الطبيعية التى تقوم بها عمارة البلدان . فانه فكر فى سرقسطة ، فوجدها منحرفة إلى الشمال . وفى برغش وليون ، فلم يجد فيهما التوسط اللازم الذى جعله نصب عينيه ، وفى قرطبة واشبيلية ، فوجدهما ضاربتين فى الجنوب ، وكان مراده على كل حال أن يغادر طليطلة فراراً من مجاورة أحبار الكنيسة فاختار مجريط ، برغم وقوعها فى أرض قليلة الخيرات ، لا تجرى فيها أنهار ولا تمتاز بزرع ولا ضرع ، كما أن هواءها جامع بين الأضداد ، فمن نوافح البرد القارس ، إلى لوافح الحر المحرق ، ففى أيام الشتاء قد تنزل درجة الحرارة فى الميزان إلى ١١ تحت الصفر و يتجمد الماء أكثر فصل الشتاء ، وفى الصيف تصعد الحرارة إلى الدرجة ٤٣ فى الظل ، كأنه حر الساحل الجنوبى ، ثم ان هواء مجريط ، إما أن يكون شديداً عاصفاً ، يصرع الرجل الماشى فى الشارع ، و إما أن ينقطع تماماً ، حتى لا يطفىء المصباح ، فتقلبات الأحوال الجوية فى هذه العاصمة أعجوبة من الأعاجيب ، ومن أمثالهم : لا تترك معطفك قبل ٢٠ مايو .

ولما انتقل فيليب الثاني إلى مجريط كان فيها ٢٥٠٠ بيت ، و ٢٥ ألف نسمة ، فضاقت على رجال الدولة والجند . وصدرت الأوامر بانزال الأمراء والقواد وأصحاب المناصب فى البيوت الكبيرة ، فمن ذلك الوقت امتنع الناس عن بناء الدور الفيحاء ، وصار الأغنياء منهم يعتمدون السكنى فى المنازل الحقيرة ، حتى لا ينزل رجال الدولة فى دورهم . فلذلك بقيت مجريط لا تتقدم إلى الأمام مدة طويلة ، مع ان الفن لذلك العهد كان بلغ أوج الترق ، واستمرت هذه الحالة على مجريط إلى أن جاء آل بوربون ملوكاً على اسبانية ، فشرع كارلس الثالث ، أفضل ملوك هذه العائلة ، فى عمارة مجريط والاعتناء بشأنها . ولما استعفى كارلس الرابع من عرش اسبانية سنة ١٨٠٨ جاء يوسف بونابرت ، وأخذ يوسع شوارع مجريط ، و يهدم حاراتها القديمة ، والأديار التى كانت تضيق بها الأرض بما رَحُبت ثم ذهب حكم نابليون ، وأعيد حكم آل

بربون ، وجاء فرديناند السابع ، فأخذ يعتنى بتوسيع مجريط وتزيينها ، إلى أن كسبت شكل عاصمة حقيقية .

وأشهر ساحة فى مجريط هى التى يقال لها « باب الشمس » Peurta del Sol ومن هذه الساحة يمتد شارعان ، أحدهما المسمى شارع « القلعة » Alcala وهو أوسع شوارع المدينة وأبهاها ، وبه تسير جميع المواكب فى الاحتفالات ، والثانى شارع « جيرونيمو » وفيه أعظم المخازن وأغناها .

وفى مجريط أكاديميه للفنون النفيسة ، وفيها متحف المدفعية وفيه آثار ونفائس كثيرة . وفيه قاعة تسمى القاعةالعربية ، جمعوا إليها كل ما قدروا عليه من مخلفات العرب ، من رايات ، وعمائم ، وأثواب ، وأحذية ، وسيوف ، ومن جملتها سيف أبي عبد الله بن الأحمر ، آخر ملوك غرناطة . وقد اشتمل هذا المتحف أيضاً على غنائم كثيرة مما حازه الاسبانيول فى فتح أميركة ، وتلك المستعمرات الواسعة ، وكذلك فى هذا المتحف تذكارات كثيرة من أيام حروب الكرلوسيين .

وحروب الكرلوسيين تشغل من تاريخ اسبانية حيزاً كبيراً ، بحيث لا يفهم القارىء حقيقة تاريخ اسبانية فى القرن الماضى بدون أن يعرف قضية الكرلوسيين هذه . فلذلك رأينا تلخيصها فيما يلى :

الدون كارلوس البربونى المولود سنة ١٧٨٨ المتوفى سنة ١٨٥٥ كان ابن كارلس الرابع ، ملك أسبانية ، واخا فرديناند السابع . فلما حمل نابليون الأول فرديناند هذا على الاستعفاء واعتقله ، كان الدون كارلس مع أخيه فى الاعتقال ، فلما عاد فرديناند الى الملك ، بعد سقوط نابليون سنة ١٨١٤ عاد الدون كارلس أيضاً مع أخيه ونظراً لكون فرديناند لم يعقب ولداً ، كان كارلس هو ولىّ العهد الشرعى ، وحوله اجتمع رجال الكنيسة والرهبان والنبلاء الذين يكرهون مبادىء الثورة ، وجميع من كان من أنصار الملكية المطلقة ، وأصحاب الامتيازات والاقطاعات ، فصار الدون كارلس يناوىء أخاه الملك ، ولم يتمكن فرديناند من العرش فى وسط هذه المزاهز الاّ بواسطة

جيش أنجدته به فرنسة سنة ١٨٢٣ ، واشتدت العداوة بين الأخوين ، فتزوج الملك فرديناند بمارية كرستينا من ملوك الصقليتين ، وولد له منها الأميرة ايزابلاّ ، فصارت هي فى نظر أبيها وارثة الملك . والحال ان قانون أسبانية كان يحصر الارث فى الذكور ، فادّى الامر الى الحرب بين حزب الملك وحزب الدون كارلس ، ومزّقت هذه الحروب الأمة الأسبانية تمزيقاً ، واتفقت فرنسة وانكلترة ، فعضدتا الملك فرديناند فى وجه أخيه ثم مات الملك سنة ١٨٣٣ فقامت مقامه زوجته الدونة مارية ، وعضدتها فرنسة وانكلترة ، فانهزم كارلس الى البرتغال ، لمصاهرة بينه و بين الدون ميكال ملك البرتغال . الاّ ان حزب الدون كارلس كان كبيراً ، وثارت معه المقاطعات التى كانت تكره النظام المركزى ، فاشتعلت نار الفتنة فى الاستور ياش ، وبلاد الباشكونس ، ونَبَارَه ، واراغون ، وكتلونية . واشتدت الحرب الأهلية فى أسبانية ، الى ان وقع الخلف أخيراً بين زعماء حزبه ، ففشلوا ، واضطر كارلوس الى الفرار سنة ١٨٣٩ ، والتجأ الى فرنسة فى زمن الملك لويس فيليب ، واعتقل فيها .

ثم نزل عن دعواه لشخصه وخلفه ابنه الدون المسمى كارلس أيضاً ، فاخذ هذا يثير حزبه على ابنة عمه ، وجرت وقائع وحروب فى أيامه ، كما جرت فى أيام أبيه . وما زال يقاتل و يثير الفتنة الى أن مات . فخلفه أخوه الدون جوان . ثم خلف الدون جوان ولده الدون كارلس أيضاً ، وذلك سنة ١٨٦٨ ، وسماه حزبه كارلس السابع ، ودخل أسبانية ، وأثار الفتنة ، نظير عمه وجده . وتغلب على عساكر الدولة الاسبانية ، وقام بتشكيل وزارة ، واوشك ان يستولى على العرش . واستمرت هذه الحالة مدة أربع سنوات ، الى أن تغلبت الدولة الاسبانية فى الآخر عليه ، فانهزم الى الخارج ، فصار يجول فى الاقطار الى ان مات . وانتهت الشحناء الكارلوسية .

ثم نعود الى ذكر مدينة مجريط فنقول : انه فيها دار لمجلس النواب ، يقال لها دار المؤتمر Palacio del Congreso وهى بناء فخم ، انشأه المهندس . ترسيزو بشكوال Pascual . وأمام الرتاج اسدان من سكب الرمل ومدافع غنمهما الاسبان من

المراكشيين فى واقعة تطوان سنة ١٨٦٠ . وفى مجريط متحف يقال له متحف البرادو Prado ، بدأوا به سنة ١٧٨٥ ، وهو قسمان ، أحدهما للتماثيل ، والآخر للتصاوير . وفيه آثار ايدى مشاهير المصورين والنحاتين ، ممن تقدم لنا ذكرهم فى الفصل المتعلق بالفن ، ومن غيرهم . فهو من أحفل متاحف أوربة بلا نزاع ، يختلف اليه عشاق الفن ما شاؤا ان يختلفوا ، ولا يزالون يرون فيه أشياء جديدة . وفيها جنة النبات Gardin Botanique ، وقد بدأوا بها سنة ١٧٧٤ الا ان دليل بديكر يجعلها دون حديقة النباتات التى فى بلنسية ، ودون حدائق النباتات التى فى البرتغال .

وفى مجريط ساحة يقال لها ساحة الشرق ، فى نهايتها ماهى التمثيل الملوكى . وأما قصر مجلس الشيوخ فانه فى طرف من المدينة ، بينما مجلس النواب هو فى الطرف الآخر .

وأما خزانة الكتب الوطنية ففيها عدا الكتب ، وعدا الوثائق التاريخية ، متحف يقال له متحف الفن الحديث ، ومتحف آخر يقال له متحف الآثار القومية . وقد بدأوا ببناء دار الكتب هذه سنة ١٨٦٦ ، وانتهوا منها سنة ١٨٩٤ ، وامام رتاجها تماثيل المشاهير من رجال أسبانية ، وفى داخلها تماثيل ملوكهم وملكاتهم . وأول من جمع هذه الكتب فى مجريط هو الملك فيليب الخامس ، وذلك من مائتين وخمس وعشرين سنة . وسنة ١٨٦٦ اشترت الحكومة مجموعة كتب مخطوطة كانت تخص دوق اوشونة ، واضافتها الى هذه المكتبة . ومجموع ما تشتمل عليه من الكتب هو ستمائة وخمسون الف مجلد ، منها ثلاثون الف مخطوط ، والفان وسبعة وخمسون كتاباً طبعت فى بداية عهد الطباعة . وفيها عشرون الف ورقة من الوثائق . وثلاثون الف صورة يدوية . وفيها ثمانمائة طبعة من كتاب الدون كيشوط . والبناء هو سبع طبقات من الحجر والحديد ، وفى قاعة القراءة ٣٢٠ كرسياً . ولما ذهبت الى مجريط سنة ١٩٣٠ كنت أذهب كل يوم الى هذه المكتبة ، وفيها اطلعت على كتب كثيرة تتعلق بالأندلس ، ثم اقتنيت اكثرها فيما بعد ذلك ، ونسخت بخط يدى

يومئذ قسما من كتاب اخبار مجموعة ، وهو أول تاريخ عربي لمسلمي الاندلس ، يصل الى زمان الناصر ، وقسما من كتاب القضاة بقرطبة ، لأبي عبد الله محمد الخشني

وأما خزانة الآثار القومية ففيها مائتا ألف وثيقة ، جمعت من كل الأطراف ، ولا سيما من كنيسة آبلة . وتحت المكتبة أقباء ملأى بالآثار القديمة التي قبل التاريخ وعظام بشرية ، وهناك مكان للماديات الشرقية ، ومنسوجات قبطية ، وآنية أصلها من قبرص ، وكثير من المصنوعات الايبيرية ، والتماثيل العتيقة ، مما يحار له العقل . ويقضي السائح الأيام والأشهر وهو يقضي منه العجب ، ويوجد قاعات لآثار القرون الوسطى : من كتابات ، وقطع فنيّة ، ونواويس . وهناك قاعة خاصة بآثار العرب ، والآثار المسيحية التي يطلق عليها اسم الطراز المدجّن ، والاسبانيول يقولون المدجّر ، وأكثر هذه الآثار العربية مأخوذة من أشبيلية وقرطبة وسرقسطة وغرناطة وفي القاعة العربية أسطرلابان عربيان ، أحدهما تاريخ صنعه سنة ١٠٦٧ مسيحية ، وهو أقدم أسطرلاب معروف اليوم . وفيها تحت الزجاج مجموعة عظيمة من الصحون والآنية العربية . وإلى الحائط الغربي من القاعة العربية قوسان من باب الجعفرية ، في سرقسطة ، وقطع من البهو الملوكي في الجعفرية المذكورة ، وباب عربي جيء به من ليون ، وحوض للوضوء جيء به من مدينة الزهراء في قرطبة ، وآثار من جامع بناه محمد الثالث في غرناطة . وإلى الحائط الجنوبي باب عربي من خشب وجدوه في « دروقه » ، وإلى الحائط الشرقي مجموعة من الزّليج ، وفي الوسط فوّارة أشبه بفوّارة قاعة الأسود في الحمراء ، وفوّرتان من قرطبة ، ويوجد سيوف عربية ، وخواتم ، وآنية من العاج ، وغير ذلك من نفيس صناعات العرب . ومما يوجد في هذا المخزن مفاتيح مدينة وهران يوم دخلها الاسبانيول سنة ١٥٠٩

وفي الطبقة الأولى من خزانة الآثار هذه توجد آثار مكسيكية قديمة ، حازها الاسبانيول يوم فتحوا تلك البلاد ، وآثار غريبة ، وآنية خَزَفيّة ، ومنسوجات من أميركا الجنوبية ، وفُسَيفِساء من صنعة أميركا الشمالية القديمة وغير ذلك مما وجدوه في المكسيك وكولومبية وكوبا وغيرها .

ومكتبة مجريط هى من أغنى مكاتب أوربة بلا نزاع ، سواء فى الكتب ، أوفى الآثار أو فى التحف النفيسة ، وفيها أيضاً نفائس من صنعة فارس وتركية والهند ، وتماثيل صينية ، ومصنوعات من العاج من عمل الصين ، وفيها أيضاً من صناعة اليابانيين و بلاد الفيليبين ، وفيها معرض للمسكوكات القديمة ، من زمان قرطاجنة فما بعدها ، وغير ذلك مما لايكاد يحيط به العقل .

وفى مجريط تمثال لكريستوف كولومب منصوب فى ساحة منسوبة إليه . وتمثال للملكة إيزابلّا الكاثوليكية ، وتماثيل أخرى لأعاظم الرجال . وفيها متحف للعلوم الطبيعية أنشأوه سنة ١٧٧١ ، يوجد فيه كثير من الحيوانات والطيور والحشرات والهوام والبقايا المتحجرة . ولما كانت مجريط خالية من الماء فى وسطها فقد جرّوا إليها قناة يقال لها « لوزويّ » Lozoya ، وأنشأوا خزّاناً يفضى إليه الماء فى أعلا نقطة من المدينة ، وهذا الخزّان يسع ١٨٠ ألف مترمكعب من الماء ، وهنالك برج عال ارتفاعه ٣٧ متراً تتفرق منه المياه على الحاضرة . وأوسع ساحة فى مجريط هى الساحة التى يقال لها «ساحة الشرق» Plaza de Oriente أنشأها يوسف بونابرت لما كان ملكاعلى أسبانية ولكثرة ما أنشأ من الساحات صاروا يقولون له « Rey Plazueles » ومعناه ملك الساحات . وقد هدم لأجل توسيع هذه الساحة عدة أديار وكنيسة وخمسمائة بيت . وفيها أربعون تمثالا للملوك القوط والأسبان . وفى مجريط دار للسلاح مشهورة ، وكان أصلها فى بلد الوليد ، فنقلها فيليب الثانى إلى مجريط ، وفيها أسلحة من جميع الأنواع ، منها ماجاء هدية من اليابان إلى فيليب الثانى ، ومنها أسلحة مكسيكية . وفيها رايات باقية من زمن شارلكان وفيليب الثانى ، وكذلك دروع ومغافر كانت لشارلكان وفيها أيضاً عمامة وأسلحة منسوبة لخير الدين بربروس ، قيل إنهم أخذوها فى موقعة تونس سنة ١٥٣٥ ، وفيها أسلحة علي باشا أمير البحر التركى ، مع ثيابه وراية تركية، مما أخذه الأسبان فى واقعة ليبنط الشهيرة سنة ١٥٧١ ، وفيها رايات لمشاهير قوّاد أسبانية . وخيمة من مصنوعات تركية ، كانت لفرنسوا الأول ملك فرنسة وقدأخذها

الاسبانيول في وقعة « باڤيا » التي أسر فيها ، وفيها سيوف باركها البابوات لأن أصحابها جاهدوا في المسلمين ، مثل الملك هنري الرابع صاحب قشتالة ، والامبراطور شارلكان وفيليب الثاني ، وفيليب الثالث ، وفيليب الرابع ، وفيها أسلحة تركية من صنعة القرن السادس عشر والسابع عشر ، و بقايا غنائم أخذوها يوم فتحوا وهران سنة ١٧٣٢ ، وفيها أسلحة شارلكان يوم نازل تونس ، و يوم انكسر عن مدينة الجزائر . وفيها أسلحة كانت للملك فرديناند الكاثوليكي ، وقلما وجد سلاح لملك من ملوك أسبانية إلا ومنه بقية في هذا المخزن

وفي مجريط دار يقال لها أكاديمية التاريخ ، بنيت سنة ١٧٣٨ ، وفيها متحف يحتوي على أسلحة ايبيرية قديمة ، وعلى مجموعة مسكوكات ، ومن جملة مافيها راية عربية كانت من قبل في كنيسة سان اشتبان . وأما من جهة الكتب ففيها ٤٤ ألف مجلد ، من أصلها ألفان من المجلدات المخطوطة ، وأكثرها عائد لتاريخ أسبانية

وأما الكنائس فحدّث عنها ولا حرج ، ففي اسبانية تكون القصبة لا يتجاوز سكانها عشرة آلاف نسمة ، ولا تعدم فيها كنيسة متقنة تستحق أن يقصد السياح اليها ، فكيف تكون ياليت شعري ! حاضرة المملكة التي جلس فيها ملوك اسبانية من ثلاثمائة سنة ؟ وأشهرها الكنيسة الكاتدرائية التي يقال لها كنيسة سيدة المدينة Nuestra Senoira de la Almudena

هذا وقد ترددت في أثناء مقامي بمجريط على مكتبة أكاديمية التاريخ ، وعثرت فيها على كتب كثيرة . وقطفت من أزهارها . ونسخت بقدر ماأمكنني الوقت ، واني لذاكر الآن بعض الكتب التي استجلبت نظري ، من أسفار تلك المملكة وهي : «تاريخ علماء» الاندلس ، لأبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي ، وكتاب « الحلل الموشية في الأخبار المراكشية » . و« الروضة الغنّاء في أصول الغناء» ، و « تفريج الكرب عن كروب أهل الأرب . في معرفة لامية العرب» لمحمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور ، و « نظم الدر والعقيان ، في شرف

بيت بني زيّان ، وذكر ملوكهم الأعيان ، ومن ملك من أسلافهم في مامضى من الزمان » ، و « عمدة الطبيب في معرفة النبات » ، لابن بطلان ، و« نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق » للشريف الادريسي ، الذي نقلنا عنه كل ما قاله عن الاندلس في كتابنا هذا وكتاب « فتوح أفريقية » ، وكتاب « القواعد المسطرة ، في علم البيطرة » لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل بن محمد الفزاري . وكتاب «فضالة الاخوان في طيّبات الألوان » ، لأبي الحسن علي بن محمد بن القاسم بن محمد بن أبي بكر بن الوزير التجيبي الاندلسي . و« تقييد الرسائل » من انشاء الفقيه القاضي الكاتب ابن المطرّف ابن عميرة . و « عقد الجمان ، في تاريخ أهل الزمان » لبدر الدين أبي محمد محمود بن احمد بن موسى العيني . و « الروض المتون ، في أخبار مكناسة الزيتون » ، لمحمد ابن احمد بن محمد بن محمد بن عزى العثماني المكناسي . و « نتيجة الاجتهاد ، في المهادنة والجهاد » ، لاحمد بن المهدي الغزّال الفاسي . وكتاب « الاكتفا في أخبار الخلفا » ، لأبي مروان عبد الملك بن الكردبوس . وكتاب « الدرة المضية ، في اللغة التركية » ، لزين الدين عبد الرحمن بن ابي بكر العيني . و « القوانين الكاية ، لضبط اللغة التركية » ، لشمس الدين محمد بن نور الدين علي بن زين الدين . وكتاب « استخراج ملح المعادن » . وكتاب « تأيُّد الملّة » . و« الذخيرة» لابن بسام ، و رسالة بفضل الاندلس لأبي الوليد اسماعيل بن محمد الشقندي . و« حكاية الجارية تودور» ، وما كان من حديثها . وكتاب الجغرافية في مساحة الأرض وعجائب الأسقاع والبلدان . وقصة الست زمرّد الستورية . و « التكملة» لابن الأبّار . ودفتر لرسم الكتب الموضوعة في خزائن يمنى المحراب من الجامع الأعظم (يريد جامع قرطبة) . ودفتر لرسم الكتب الموضوعة في خزائن يسرى المحراب من الجامع الاعظم . وكتاب «فوائد الموائد» تأليف يحيى بن عدي ، وقيل تأليف جمال الدين ابي الحسن المعروف بالجزّار . وكل هذه الكتب نظرت فيها بقدر ما وسع الوقت وكتاب فوائد الموائد كثير النكات ، يقرأه الانسان للتسلية . أوله : « الحمد لله الذي جعل الطعام رزقاً للعباد ، وقواماً للأجساد ، وسبباً لذم البخلاء ومدح الأجواد ، أحمده على ما منح من طيبات رزقه ، ومعرفة

الكرام من خلقه ، رازق الاطعمة الشهية ، ومسخر النفوس السخية ، الخ» . وأجل كتاب رأيته فى هذه المكتبة هو «الفلاحة فى الارضين» ، لابى زكريا يحيي بن محمد ابن احمد بن العوام الاشبيلي . وهو جزءان ، وعدة صفحاته ٨٤١ . ويندر أن يكون فى هذا الفن كتاب أجل قدراً منه . وقد قرأت فى مجلة المجمع العلمى العربى التى تصدر فى دمشق أنه مترجم إلى الافرنسية وقد نسخت من هذا الكتاب عدة صفحات ورأيته ينقل كثيراً عن الفقيه الامام أبى عمر احمد بن محمد بن حجاج فى كتابه «المقنع» وهو المؤلّف سنة ست وستين وار بعمائة ، نقل فيه صاحبه عن الرازى ، واسحق ابن سليمان ، وثابت بن قرّة وغيرهم . وكذلك نقل ابو زكريا يحيي بن محمد بن العوّام الاشبيلى صاحب كتاب الفلاحة هذا عن كتاب الشيخ أبي عبد الله محمد بن ابراهيم ابن الفصّال الاندلسى ، الذى بنى كتابه على تجاربه الخاصة ، ونقل عن كتاب الحكيم الشيخ ابى الخير الاشبيلى ، وهذا مبنى على تجارب المؤلف وعلى آراء جماعة من الحكماء والفلاحين . ونقل عن كتاب الحاج الغرناطى . وكتاب ابن أبى الجواد ، وكتاب غريب بن سعد ، ونقل عن حكماء اليونان ، وأيضاً عن كتاب الفلاحة النبطية المشهور المبنى على أقوال جلّة من الحكماء منهم آدم ، وصغريت ، وينبوشاد ، وأخنوخا ، وماسى ، ودونا ، وكانترى ، وغيرهم . وأما تاريخ ابن الفرضى ، ورسالة الشقندى فى فضل الانداس ، فقد نقل عنهما صاحب النفح ما شاء .

الاسكوريال L'escurial

ومن ضواحى مجريط قرية الاسكوريال Escorial أو Escurial ومعناها معدن الحديد ، والقرية قسمان : القرية القديمة تسمّى « أباجو » ، والقرية الجديدة وتسمّى « الريبة » وعدد سكان هذه ثلاثة آلاف نسمة . وهى مصيف لاهل مجريط ، وفيها الدير الشهير الذى يسميه الاسبانيون Rial Monasterio de San Lorenzo del Escorial وهو الذى بناه فيليب الثانى ، وذلك انه فى حصار مدينة سان كنتين سنة ١٥٥٧ أصاب مدافعه كنيسة باسم القديس « لورنزو » ، وهو جندى رومانى

من أصل اسبانيولى ، توفى شهيداً فاراد فيليب أن يعوّض القديس من هدم تلك الكنيسة المبنية على اسمه ببناء دير عظيم ، جعل فيه أيضاً مدفن والده شارلكان ، الذى كان تخلى عن الملك من تلقاء نفسه ، واختار العزلة والنسك ، وصح فيه قول المتنبى:

ويمشى به العُكّازُ فى الدَّيْرِ راهباً وَمَا كانَ يَرْضَى مَشْيَ أشقرَ أجْرَدَا

وكان فيليب الثانى يريد ان يقتفى أثر أبيه فى التنسك والاعتزال ، فبعد ان بحث نحواً من سنتين عن مكان لهذا الغرض اصابه فى جوار مجريط بقرية الاسكوريال ، فاستدعى اليه المهندس الطليطلى الشهير « جوان بوتيستا » ، و بدأ بالعمل سنة ١٥٥٩ ، ولكن المهندس مات بعد أن بدأوا بالبناء ، فخلفه عليه « جوان دوهرّيره » الذى هو من تلاميذه ، وكان الأول تعلم البناء فى رومة ، وأما الثانى فكان تحصله فى بروكسل . وكان فيليب الثانى يشترك بنفسه فى الشغل ، و يأخذ و يعطى مع الصنّاع ، ولا يتركهم يعملون شيئاً بدون رأيه وقد بذل همة فوق تصور العقل لاجل اكمال هذه البنية التى قل ان يوجد مثلها فى الدنيا . وقد انتهوا من العمل ووضع الصليب على القبة سنة ١٥٨١ ، وآخر حجر وضع فى هذا الدير كان وضعه فى ١٣ سبتمبر سنة ١٥٨٤ ، وأما المقبرة الملوكية فما تمت الا فى زمن فيليب الرابع ، حفيد فيليب الثانى . وقد خمّنوا نفقات هذه البناية الكبرى بستة عشر مليوناً وخمسمائة الف بسيطة . وطرز هندسة هذا الدير هو طرز عصر التجدد الثانى فى ايطالية ، وهو الذى يعتمد في جلاله على مجرد تناسب الاقسام ، وليس فى الاسكوريال شىء من الزينة ولا الزخرف ، وجميع تلك الجدران لا يتخللها غير نوافذ صغيرة . واذا نظرت الى هذا البناء العظيم حسبت انه قلعة أو سجن . ولما أراد فيليب الثانى ان يزين داخل الدير بالتصاوير التى لابد منها نظراً للمذهب الكاثوليكي ، استجاد بعض مصورى ايطالية المشاهير مثل « تيبالدى » و « كامبيازو » و « زوكارو » وأما من أسبانية فقد استدعى « جوان فرناندس » و « نافاريت اللكرونى » .

وقد انتقد الكثيرون من أساطين الفن بناء الاسكوريال ، وقالوا إنه ليس له

من مزيّة غير السعة والكثرة ، وانه ليس فيه ذوق ولا قوة توليد ، ولا فضل اختراع ، وكل ماهنالك فهو خطوط هندسية مستقيمة ، تسود عليها بساطة زائدة ، يمجّها الطبع . وقد علّل بعضهم هذه البساطة الزائدة بكون فيليب الثانى كان هو الآمر الناهى فى اختيار الأشكال التى لم يكن يستحسن منها إلاّ البسيط الساذج . وكان كلما جاءه المهندسون بشىء من الزخرف رفضه فجاءت بنايته هذه أشبه فى يبوستها وجهامة منظرها بالبرية التى تحيط بها . أما طول البناية فهو ٢٠٦ أمتار والعرض هو ١٦١ مترا ، ولها أربعة أبراج . وفى وسطها كنيسة ذات قبة عالية و برجين عظيمين ، فى كل منهما جرس كبّار و إلى الشرق والشمال من هذه الكنيسة المقر الملوكى ، و إلى الغرب ساحة خارجية ، و إلى الجنوب الدير الحقيقى وحواشيه وأماكن القسيسين .

وللاسكوريال رتاج عظيم ، عليه تمثال القديس لورانزو ، يعلو أربعة أمتار ، ورأسه و يداه من المرمر ، وفى يده اليمنى مِشواة من النحاس المذهب ، إشارة إلى كيفية استشهاد القديس ، الذى يقال إنه أُميت على آلة مثلها . وفى الكنيسة ست اسطوانات ، عليها تماثيل ملوك العهد القديم ، وجميع الرؤوس والأيدى من الرخام الأبيض ، والتيجان والصوالجة من النحاس المذهب . وقبة الصليب ترتفع ٩٥ مترا ، والكنيسة فى غاية الاتساع ، وفيها ٤٨ مذبحاً وعلى حيطانها تصاوير الوقائع الدينية الكبرى ، مثل البشارة ، والحمل ، وولادة عيسى ، وعبادة الملائكة له ، وملوك المجوس ، و بنى إسرائيل فى البادية ، واليوم الآخر ، وهزيمة بنى إسرائيل للعمالقة ، وغير ذلك .

وأما مقبرة الملوك فهى مجاورة للمذبح الأعظم ، وذلك حتى تقام القداسات اليومية على عظام الملوك المدفونين وفى هـذه المقبرة زخرف كثير ، مخالف لقاعدة البساطة التى كان فيليب الثانى قد جعلها إماماً له فى بناء هذا الدير . والسبب فى ذلك هو أن هذه المقبرة قد أكملها خلفاؤه من بعده ، والمدافن واقعة ضمن محاريب فى الحيطان ، وكل مدفن فيه ناووس من الرخام الأسود ، عليه كتابة باسم الدفين . وفى هذه المقبرة ستة وعشرون ناووساً ، لم يبق منها غير قليل خالياً ، وليس جميع الملوك

مدفونين هنا ، بل فيليب الخامس ، وفرديناند السادس ، ونساؤهما ، ليسوا فيها . وهناك مقبرة أخرى فيها أجساد الأمراء والأميرات ، ممن لم يصل إلى العرش .

وفى هذا الدير خزانة كتب عظيمة ، واقعة فى بهو طوله ٥٢ متراً ، فوق الرتاج الذى منه الدخول إلى المقر الملوكى . وفى هذه الخزانة من نوادر الكتب والآثار مايستحق كل اعتبار . من ذلك كتب الصلاة التى كان يصلى بها شارلكان وفيليب الثانى ، ومخطوط اسبانيولى يتضمن قصيدة فيرجيل الشاعر الرومانى التى تسمّى «اينايد» Eneide ، والأناجيل الأربعة ، فى مجموعة كتبت لكونراد الثانى ، قيصر ألمانية ، وأنجزت فى زمن هنرى الثالث ، وتاريخها سنة ١٠٥٠ ، ومخطوط فيه رؤيا يوحنا ، تاريخه القرن الخامس عشر . وفيها مصحف شريف بخط مغربى مذهب كبير الحجم ، اتصل بالاسبانيول سنة ١٥٩٤ ، وقد سألت عنه بعد زيارتى للاسكوريال ، السيد الشريف الأجل ، مؤرخ المغرب فى هذا العصر ، مولاى عبد الرحمن بن زيدان ، حفظه الله ، لأنى وجدت مكتوبا على الصوان البلورى ، الذى فيه هذا المصحف أنه مأخوذ من السلطان زيدان ، صاحب المغرب . فأجابنى مولاى عبد الرحمن بأن السلطان الذى أخذ منه هذا المصحف ليس من العائلة الشريفة السجلماسية بل من الملوك السعديين ، وذلك أن بعض قرصان الاسبانيول غنموا مركباً من البحر لهذا السلطان ، وكان فيه أمتعة نفيسة ، وكتب من جملتها هذا المصحف . وقد قرأت فى تاريخ الاستقصا للناصرى السلاوى ، فى الجزء الثالث ، فى صفحة ١٢٨ ما يلى : وقال منويل : « إن قراصين الاسبانيول غنمت فى بعض الأيام مركبا للسلطان زيدان فيه أثاث نفيسة ، من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك »

ومن جملة آثار خزانة الاسكوريال تآليف للملك الاذفونش الملقب بالحكيم ، من القرن الثالث عشر ، وكرة أرضية ، كان فيليب الثانى يستعملها فى مطالعاته وكية . وفى هذه الخزانة صورة لفيليب الثانى ، يوم كان فى الواحدة والسبعين من

العمر ، وصورة لشارلكان يوم كان فى التاسعة والأربعين ، وصورة لفيليب الثالث ، وصورة أيضا لكارلس الثانى ، وهو ابن أربع عشرة سنة . ثم إنه يوجد فى الخزانة قسم للكتب الخطية ، لا يمكن الاطلاع عليه إلا بإذن خاص من إدارة الاسكوريال .

وأما القصر الملوكى الذى فى الاسكوريال فانه إن كان فيه شىء من الزخرف ، فهذا قد حصل بعد موت فيليب الثانى . فأما هو فلم يكن بنى لنفسه إلاّ غرفة صغيرة يشاهد منها المذبح الأكبر فى الكنيسة ، وغرفتين بجانبها ، ولا تزال فيها المفروشات التى كانت فى أيام فيليب الثانى ، ولا تزال فى غرفته الخاصة المائدة التى كان يكتب عليها مع أدواتها ، وهناك الكرسى التى كان يمد عليه رجله . وفى هذه الغرفة كان يستقبل سفراء الدول . وفيها مات ، وذلك فى اليوم السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٩٨ ، على أثر مرض برّح به ، وكان وهو يجود بروحه ينظر إلى مذبح الكنيسة الكبير ، كما أنه كان في يده نفس المصلوب الذى كان فى يد والده شارلكان يوم فاضت روحه .

وللاسكوريال حديقة تنفتح أبوابها الساعة الثانية بعد الظهر . ولها منظر من أبدع المناظر ، لا تبلغ العينان مَدّهُ على سهل قشتالة الجديدة ، ومجريط ، ووادى الرمل .

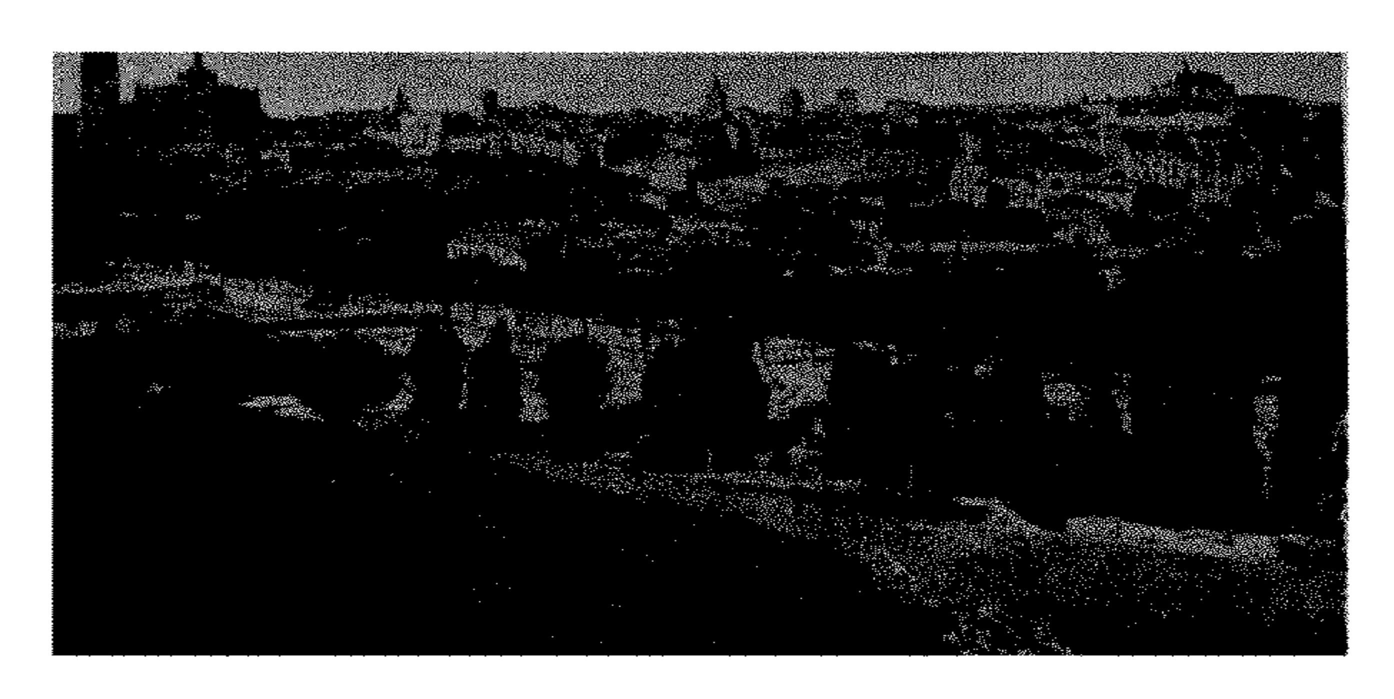
ولما زرت اسبانية سنة ١٩٣٠ أى من ست سنوات ، ذهبت إلى الاسكوريال أنا واثنان من شبان المغرب النجباء ، وسرواته الأدباء ، وهما السيدان العالمان الفاضلان أحمد بلافريج ، ومحمد الفاسى الفهرى ، وكان معنا السنيور دوزميت يواكين ، من شبان نبلاء الاسبانيول ، فطوّفنا فى الاسكوريال مدة ساعات ، وجلسنا فى خزانة الكتب ، حيث رأيت من الكتب العربية ما لا يوجد فى كثير من المكاتب . وهناك تعارفنا مع الأستاذ المستشرق العلامة القسيس آسين بلاسيوس المشهور ، وتحادثنا معه فى مختلف المواضيع ، وسألناه عن سبب ذهابه إلى أن رواية دانتى ، الشاعر الايطالى الأكبر ، المسماة بالمهزلة الالهية ، هى فكرة مسروقة من رسالة الغفران ، لأبى العلاء المعرّى ، فأدلى إلينا بآرائه فى الموضوع ، وبيّن لنا أن التشابه الواقع

فى عدة من النقط لا يمكن أن يكون من قبيل وقع الحافر على الحافر ، وقال أيضاً إن رسالة الغفران كانت مترجمة إلى اللاتينية ، ككثير من الكتب العربية ، فيترجح أن يكون دانتى قد اطلع عليها . ثم سألناه عن رأيه فى علماء غرب الأندلس ، فرأينا له فى حقهم رأياً عظيما ، وذكر منهم عدداً من جملتهم أبو محمد بن حزم ، برغم كون ابن حزم طعن كثيراً في النصرانية ، وان آسين بلاسيوس ليس نصرانياً فحسب ، بل هو قسيس مستمسك بدينه . وأما لسان الدين بن الخطيب فقال لنا انه لا يعجبه . وذكر لنا آسين بلاسيوس أنه تلميذ « قُدَيره » المستشرق الاسبانيولى الذى أصله من العرب ، والذى طبع فى مجريط كتب ابن بشكوال ، وابن الابّار وغيرهما ، وله تحقيقات كثيرة ، و إليه يرجع الفضل فى تجديد العناية بالعربية فى اسبانية

شقوبية (١) Ségovie

ومن مدن قشتالة المعدودة « مدينة « شقوبية »Ségovia وهى مدينة عالية سكانها اليوم ١٥ — ١٦ ألف نسمة ، وهى مركز مقاطعة منسوبة اليها ، ومركز اسقف ، و إنما أهميتها هي بكونها من أقدم المدن الايبيرية ، وأنها تشتمل على آثار قديمة ذات عظمة ، منها القناة الرومانية المعلقة ، وفيها كنائس وقلاع باقية من القرون الوسطى ، وموقعها أشبه بموقع طليطلة ، وذلك أنها مبنية على قمة صخرية ، علوها مائة متر ، ولها شوارع ضيقة ، معوجة ، معرّجة ، غريبة الشكل ، والقصر Alcazar فى

(١) قد كان لهذه البلدة شأن عظيم فى قشتاله القديمة ، ولم تبق فى أيدى المسلمين أكثر من نصف قرن ، اذ ابتدر استرجاعها الاذفونش الأول ، أو ابنه فرويله ، ثم عاد فزحف اليها المنصور ابن أبى عامر و فتحها ، فى جملة مافتح من شمالى أسبانية ، ولكن بعد موته ، وبعد اشتعال الفتنة الكبرى فى قرطبة ، انتهز الأسبان الفرصة فاسترجعوها هى وسموره وطلنكه وآبلة ، وما يتبع هذه المدن من النواحى . وكان الفريقان اللذان يقتتلان فى قرطبة ، كلما استعان احدهما على الآخر بالاسبانيول ، اشترط هؤلاء عليه لمعاونته على الفريق الآخر ، تسليم كذا وكذا من الحصون ، فيبادر المسلمون بالتخلى للاسبان عنها ، كما سيأتى مفصلا



شقوبية « منظر عمومى »

أعلى القمة ، و بالقرب منه الـكنيسة . وللبلدة نهر يقال له « اريسمة » يجرى فى جانبيها ، ولها أسوار قديمة من زمان الايبيريين ، ثم جددها الرومانيون . ولها أرباض مثل « سان دورانزو » و « سان مرقس » و « سان ميلان » مبنية فى سفوح الجبل الذى هى عليه .

أما القناة المعلقة ، التى هى مع جدران طرّكونة ، أعظم مآثر الرومان فى اسبانية فالمظنون أنه كان بناؤها في أيام أغسطس قيصر ، ثم تجددت فى أيام فلافيانوس ، أو تراجانوس ، كما يظهر من الـكتابات الباقية ، والماء مجلوب من شارات « فنفريا » Fuenfria ، وهو يجري فى البداية مكشوفاً على مسافة ١٦ كيلو متراً ، إلى أن يصل إلى شرق شقوبية ، حيث بُنِيَتْ له خزّانات ، ومن هنا يكون مجراه على جسر طوله ٨١٨ متراً . منه على مسافة ٢٧٦ متراً قسم مبنى طبقاً عن طبق ، ولهذا القسم ١١٩ قوساً ، وهو الواصل بين جانبى الوادى العميق ، وارتفاع أركان الجسر هو من سبعة أمتار إلى ٢٨ متراً ونصف ، وجميع البناء هو من الحجر المحبّب . ولما حاصر العرب شقوبية سنة ١٠٧١ انهدم فى أثناء الحصار خمس وثلاثون قوساً ، و بقيت مهدومة إلى زمن

الملكة ايزابلا ، فأمرت بتجديدها . وهذه القناة المعلقة تمر فوق ساحة يقال لها إلى اليوم ساحة «السويقة» La Plaza Del Azoquejo هى فى مدخل المدينة العليا وهذه الساحة هى أهم مركز للبيع والشراء واسمها عربى كما لايخفى . وفى شقوبية ساحات أخرى ، وفيها كنائس متعددة ، منها كنيسة سان ميكال ، بنيت سنة ١٥٥٨ ، والكنيسة الكاتدرائية ، بدأوا بها سنة ١٥٢٢ ، وانتهوا منها سنة ١٥٧٧ ، بناها المعلم « جوان خيل اونتانون » بانى كنيسة طلمنكة ، وابنه « لذريق بن خيل » وطول هذه الكنيسة ١٠٥ أمتار ، وعرضها ٤٨ متراً . أما القصر فى شقوبية فهو من بناء الاذفونش السادس ، وكان قد تهدم ثم تجدد

وبالقرب من شقوبية بلدة يقال لها « سان ايلدفونسو » San Ildefonso سكانها أربعة آلاف نسمة ، فى موقع بديع ، يقصدها الناس للاصطياف ، يقال إن بانيها هنرى الرابع ، جعل فيها هناك مكاناً ينزل فيه عندما كان يذهب إلى الصيد ، وذلك سنة ١٤٥٠ ، وبالقرب من هذه البلدة قرية يقال لها « لاغرنجة » La Granja وكانت مكاناً لفيليب الخامس أول ملوك البوربون فى اسبانية ، وقد بنى فيها قصراً وحدائق على نسق وطنه فرنسة . وكان يجلس فيها خلفاؤه . مثل فرديناند السابع . وبالقرب من هناك بلدة « ارانجويز » Aranjuez وهى بلدة سكانها ستة آلاف نسمة ، يمر عليها جدول من نهر تاجه ، فيسقى البسائط التى حواليها . وهذه البلدة قديمة من زمن الرومانيين ، وكانت تصطاف فيها الملكة ايزابلا الكاثوليكية . وقد بنى فيها الأمبراطور شارلكان مكاناً ينزله عند الصيد ، فصارت هذه البلدة مركزا لاصطياف ملوك اسبانية إلى زمن كارلس الرابع ، الذى تخلّى هناك عن الملك لابنه سنة ١٨٠٨ ومن ذلك الوقت أهملت الأبنية الملوكية هناك ، ولم يبق للنزهة غير الجنان البديعة التى تحدق بها ، ومن الغريب أنهم كانوا يقيّظون فيها ، مع أن الحرارة ربما تصعد فيها إلى درجة ٤٧ من ميزان سنتيغراد . والحقيقة أن أحسن فصل فى أرانجويز هو فصل الربيع . وهى بالنسبة إلى ملوك أسبانية أشبه بفرساى بالنسبة إلى ملوك فرنسة ،

و بوتسدام بالنسبة إلى ملوك بروسية . والقصر الملوكى فى أرانجويز هو من القصور الملوكية المعدودة ، فيه كثير من التحف والتصاوير و بديع الصنعة (١)

طليطلة Tolêdo

هذه البلدة هي من أعظم بلاد اسبانية قديماً وحديثاً ، مركزها فى وسط اسبانية ، و إن كانت أميل إلى الجنوب منها إلى الشمال ، وأصل بنائها متوغل فى القدم ، يقال إنها كانت حاضرة الكار بيتانيين Carpetani ، وقد ورد ذكرها فى كتاب المؤرخ الرومانى « تيتليف » ، وهو يقول لها « طُليطُم » Toleteum ، و يذكر أنها بلدة صغيرة ، ولكنها منيعة بموقعها الطبيعى . استولى عليها الرومانيون سنة ١٩٢ قبل المسيح ، وفى زمن القوط Visigoths جعلها الملك « أتانجلد » كرسياً للملكه وذلك سنة ٥٦٧ للمسيح ، وصارت هى حاضرة المملكة .

ولما وقع الانشقاق الدينى فى النصرانية بين الكاثوليكيين الذين يقولون بألوهية عيسى ، والاريوسيين الذين لم يكونوا يقولون بألوهية عيسى ، جرت فى طليطلة مجادلات دينية شديدة ، وانعقدت مجامع متعددة لفصل الخلاف ، وكان لكل من الحزبين قوة هى كفوء للأخرى ، إلا أن الملك القوطى ريكاريد جحد المذهب الاريوسى سنة ٥٥٧ للمسيح ، فسادت بعد ذلك الكثلكة فى اسبانية كلها . ولم يلبث العرب بعدها أن فتحوا اسبانية ، واستولوا على حاضرتها طليطلة ، وغنموا فيها مغانم كثيرة ، مما سيرد ذكره فى القسم التاريخى من هذا الكتاب . ولكن العرب

---

(١) قد ذكر الوزير الغسانى فى رحلته إلى أسبانية فى زمان السلطان مولاى اسماعيل أن ملك أسبانية دعاه للنزهة فى أرانجويز هذه حيث رحب به كثيراً وأكرم نزله قال : فدخلنا بستاناً له هناك قد حفه به واديان كبيران بمجموعهما يسمى وادى طاجه وهو المار بمدينة طليطلة من هذا الموضع بعد مروره بمسيرة يوم وهذا البستان هو غاية فى جداوله و نظم أشجاره وقد اشتمل على أزهار وأنوار ودواليب وصهاريج وبرك مياه ومقاعد فى غاية الاتقان .

لم يتخذوها حاضرة لملكهم كالقوط لأنهم و إن كانوا وجدوها متوسطة بالنسبة إلى اسبانية ، فلم يجدوها متوسطة بالنسبة إلى القوة العربية ، وقد كانوا لا يقدرون أن يبعدوا كثيراً عن افريقية ، فلذلك جعلوا مركز الإمارة في اشبيلية ، ثم في قرطبة ، وصارت قرطبة هي العاصمة مدة قرون متطاولة .

على أن طليطلة كان لها شأن عظيم في زمن العرب ، وكانت هي المعقل الأعظم لهم في وجه الاسبانيول ، وكانت تسمى الثغر الأدنى ، وكان فيها أمير من قبل الخليفة وطالما انتقضت طليطلة على قرطبة ، وطالما ساق عليها بنو أمية من قرطبة الجحافل الجرارة ، وكانت تمتنع عليهم ، وربما تغلب عليها الخلفاء بالحيلة ، كما سيأتي خبره . وأخيراً عند ما جرت الثورة في قرطبة ، وانتثر سلك الخلافة ، استأثر بأمر طليطلة الأمراء بنو ذي النون ، واستقلوا بها سنة ١٠٣٥ . وفي جميع أدوارها كانت مدينة علم وصناعة ، وفيها أحسن معامل السلاح ومناسج الحرير والصوف . وفيها صنعة الحفر والتنزيل على المعادن ، وهي الصنعة الباقية إلى الآن من أيام العرب . ونفائس هذه الصنعة تباع في كل أوربة . وفي طليطلة تسعة معامل في يومنا هذا ، والمترفون يتنافسون باقتناء ما يصنع بها من ساعات ، وأسفاط ، وعلب ، ومحاجن ، وأقلام ، وسكاكين ، وغير ذلك ، من عمل اليد . وقد ورث الطليطليون كل هذا من العرب

وقد بقيت طليطلة في أيدي العرب من سنة ٧١٢ مسيحية إلى سنة ١٠٨٥ ، أي زهاء أربعة قرون ، وكانت في أيامهم كلها زاهرة باهرة . وغلبت العروبة على نصارى طليطلة ، فلبثوا نصارى ، ولكن اتخذوا اللغة العربية والثقافة العربية لأنفسهم وكانوا يقيمون صلواتهم ، وما يسميه النصارى بالطقوس الكنيسية ، وباللغتين العربية والقوطية ، وصار الاسبانيول يطلقون عليهم اسم « موزاراب » Mozarabes محرفة عن « نصف عرب » ومن الغريب أن رغبة أهل طليطلة في العربية ، وصلت إلى أنهم بعد سقوط طليطلة في أيدي الاسبانيول الذين أرجعوها حاضرة لملكهم ، لم يزالوا مستمسكين بعروبتها ، ولبث أخذهم ، وعطاؤهم ، وبيعهم ، وشراؤهم ، وجميع

صكوك معاملاتهم، بالعربية [١] إلى سنة ١٥٨٠ ، أى أن آثار العربية لم تندرس من

(١) ومن شدة رغبة مستعربى طليلة فى اللغة العربية كانوا ينقشون على قبورهم فضلا عن دورهم الكلمات العربية التى يعبرون بها عن مرادهم فقد وجد من هذه القبور فى طليطلة من جملتها قبر تاريخه سنة ١١٥٦ مسيحية وعليه بلاطة مكتوب عليها اسم الدفين بالعربى وباللاتينى متقارنين ذكر ذلك لاوى بروفنسال ونقل نص الكتابة وهو هذا : بسم الله الرحمن الرحيم كان من مضى لله برحمته مقايل بن سمنة من دار الدنيا إلى دار الآخرة يوم الأحد ماضى من نوتنبر اربعة أيام سنة أربعة وتسعين ومائة والف لتاريخ الصفر نضر وجهه و . . . وقد نقل الكتابة اللاتينية التى بجانب الكتابة العربية وقال ما يفيد أن صاحب هذا القبر كان من الطائفة المستعربة فى طليطلة وهى فئة من النصارى الاسبانيين اتخذت اللغة العربية لساناً لها حتى بعد رجوع طليطلة إلى الأسبان ثم ذكر قبراً آخر تاريخه ١١٦٠ مسيحية وعليه كتابة عربية بجانبها كتابة لاتينية أيضاً ونصها : لتاريخ الصفر هذا القبر لشمسى ابنة ابن الشيخ رحمها الله وجعل الجنة مأواها بيوم أربع وعشرين لشهرا اغشت ثمانية وتسعين ومائة الف

ولما كان لاوى بروفنسال يترجم كل هذه الكتابات للافرنسية فقد ترجم لفظة « شمسى » بقوله بالافرنسية Mon Soleil وقال انه اسم متداول كثيرا بين مستعربة طليطلة . قلنا : نعم قد مر علينا هذا الاسم فى الصكوك التى نقلناها كأنموذجات لمعاملات نصارى طليطلة باللغة العربية ولكننا نميل إلى الظن بأن لفظة شمسى ليست من باب الاضافة إلى ضمير المتكلم بل هى شمسة بالتاء المربوطة ملفوظا بها بالامالة التى كانت غالبة على لفظ أهل الأندلس . فبدلا من أن يقولوا « شمسة » بفتح السين كانوا يقولون « شمسة » بكسر السين كما يقول أهل سورية اليوم لأن الامالة هى لهجة أهل سورية أيضا وأصل وجود الامالة فى لغة الأندلس آت من الشام . فأما كتابة شمسى هنا بالياء فلا عبرة به بل هو غلط إملاء كما هو فى كتابات أخرى لهؤلاء المستعربين وردفها إملاء لفظة « مضا » بالألف و « أتا » مما نقله لاوى بروفنسال نفسه . ثم إن لفظة شمسة هى ذات أصل فى اللغة وهى مستعملة فى سورية كاسم مرة من طلوع الشمس أو انتشار نورها ولها فى اللغة معنى آخر وهى مشطة معلومة للنساء . وأنت إذا ذهبت إلى سورية الآن تجد أسماء لا تحصى من قبيل « نجمة » ، والأهالى لا يلفظونها بفتح الميم بل بكسرها بمقتضى الامالة فتظنهم يقولون « نجمى » ، فلو ترجمت هذه اللفظة فلا ينبغى أن تترجم Mon étoile لأنها ليست لفظة نجم مضافة إلى ياء المتكلم بل هى مؤنث « نجم »

طليطلة إلا قبل عهدنا هذا بثلاثمائة سنة لاغير . وكان ذلك بتكرار الأوامر الصادرة من الحكومة بمعاقبة كل من يتكلم بالعربية ، أو يكتب بها ، ولولا ذلك لربما كانت بقيت العربية فى طليطلة إلى يوم الناس هذا .

وقد جمع « أنجل غوانزاليز بالانسيه » أحد أساتيذ الأدب فى مجريط Angel Gonzalez Palencia تحت عنوان « نصف العرب ، أو موزاراب طليطلة ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر » عدداً كبيراً من الصكوك والوثائق ، التى كانت تكتب فى طليطلة لذلك العهد ، فبلغ ذلك ثلاثة مجلدات ، فيها مايناهز ألف صفحة بالقطع الكبير مع ترجمتها بالاسبانيولى . و إليك بعض أمثلة من هذه الوثائق .

« بجميع منافعه كله إلى آخرها ، وعامة مرافقه على ضروب أنواعها ، فى قاعته ، وفيما عليها ، و بكل حق وملك ، هو من هذا المبيع الموصوف و به وله ومنسوب إليه ، فى داخله وخارجه ، و بالدخول إليه والخروج عنه ، لم يستبق البايع المذكور لنفسه ، ولا لأحد بسببه ، فى شىء من جميع المبيع الموصوف كله ، حقاً ولا ملكا ، قليلا ولا كثيراً ، ولا منتفعاً بوجه من الوجوه كلها ، ولا بسبب من الأسباب ، إلا وخرج عنه للمبتاع المذكور ، بالبيع الصحيح التام البتّ البَتْل[1] الناجز الصريح الذى لم يتصل به شرط مفسد ولا ثُنيا ولا خيار » انتهى .

مثال آخر :

« دفع الأرسيدياقن[2] المذكور جميع الذهب الموصوف كله للبايع المذكور ، وقبضه منه ، وصار عنده وفى ملكه وذمته ، وأنزله فى جميع المبيع الموصوف كله منزلة ذى المال فى ماله ، وذى الملك فى ملكه ، بعد أن عرفا قدر هذا المبيع ومبلغه بمنتهى

(١) البتل هو القطع مثل البت

(٢) Archidiacre أو « أرشيد ياكر » بالافرنسية وهو ذو رتبة كنسية له الحق فى مراقبة القسيسين الذى يخدمون الرعية وتفقد أعمالهم والرتبة هى نفسها يقال لها « أرشيد ياكونة » Archidiaconat وأما فى الاسبانية فصاحب هذه الرتبة يقال له « أرسيديانو » Arcidiano وقد قال له العرب « أسيدياقن »

خطره ، ولم يجهلا شيئاً منه ، وعلى سنة النصارى فى بيوعهم وأشريتهم ، ومراجع إدراكهم » اهـ.

مثال ثالث :

« شهد على أشهادهما بالمذكور فيه عنهما ، من أشهاده به على أنفسهما ، حسب نصه وسمعه منهما ، وعرفهما بحال الصحة والجواز والطواعة » اهـ

و إليك هذا الصك :

« اشترى ربى بواسحق بن نحميش اليهودى من جميلة بنت فرج زوجة البليوشى البناّ جميع [١] خصتها وهو النصف من الكرم المعروف بالقوجال بحومة قرية جَلَنْكِشْ [٢] من قرى مدينة طليطلة وعلى الاشاعة فيـه مع من يشركها بسائره وحدُّه فى القبلة الطريق وفى الجوف جبل لابن برطال ، وفى الشرق كرم ابن فرنجيل [٣] وفى الغرب الطريق وفيه بابه بثمن عدته ثلاثمائة مثقال من الصروف الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ بما فيه عشر درهما [٤] بمثقال على سنة المسلمين فى بيوعهم ومرجع الدرك . فى رمضان المعظم عام خمسة وتسعين وأربعمائة [٥]

وممن اشهده على بن البليوشى باجازته له و إمضائه له و إقراره ألاّحق له فى شىء من المبيع المذكور و بوجه من الوجوه ولاسبب من الأسباب ، و إنه كان لوالدته جميلة إلى أن باعته حيث وصف .

إبراهيم على بن سعيد بن الفتح اللدنى . و إبراهيم بن وهب (هنا كلة غير مقروءة) . و (هنا كلة أخرى لاتقرأ) بن يوسف بن الربابى . ومحمد بن احمد بن سعيد وعبد الرحمن بن أحمد بن عفيف الفهرى وأحمد بن محمد (كلة ممحوّة) . ومحمد ابن

---

(١) الخص هو بيت من الشجر أو الورق وهو كثير الاستعمال فى لغة سورية ولا نرى المبيع هنا بيتاً من الشجر أو الورق وإنما هو نصف كرم والفرق ظاهر ولعلهم توسعوا فى هذه اللفظة أوهى « خاصها » وقد كتبت بحذف الألف ككثير من الألفاظ

(٢) Chalencas (٣) Aben Franchil (٤) كذا

(٥) هذا الصك تاريخه بعد خروج طليطلة من يد الاسلام بسبع عشرة سنة

عبد الله بن مظاهر الأنصارى . واحمد بن يوسف الأنصارى . و إبراهيم بن عبدالرحمن ابن أبى . . . . وسلمة بن يونس الأنصارى . ويحيى بن عبد الله . . . . الغافقى »

و إليك هذا الصك :

« اشترى عبيد بن أسد من خلف بن عبد الله جميع الكرم الذى له فى أول منزل رزين . حده فى القبلة نهر تاجه ، وفى الجوف كرم يشت الحريرى [١] ، وفى الشرق كرم لأبى خالد ، وفى الغرب غروسات السلطان [٢] أيده الله ، بثمن عدته ستون ديناراً ، من البريزات [٣] الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ ، وفى شهر نونبر الكاين فى سنة ثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر [٤] .

ومما وجب إلحاقه إلى المدخل للكرم الموصوف فوق هذا على باب الكروم [٥] الذى لردريقة قسيس السلطان الذى هو من ليون والباب المذكور مشترك بينهما إذ كان الكرم فى القرع واحد وعلى ذلك كله يقع الاشهاد .

عبدالرحمن بن زكريا : يوان بن خلف شاهد . سليم بن زكريا وكتب عنه . سليمان ابن عمر شاهد وكتب عنه . وعلى بن الحرير . عبد العزيز بن خير . وعبد الله ابتوال . وسليمان بن المدجالة . إليان بن سعيد . وعبد الملك بن عبد الملك وكتب عنه وعليه شهد عندى . و بخط عجمى جليانش بطريس تشتا . و بخط عجمى سيدا له ابن مشرك

---

(١) Justo el Hariri

(٢) السلطان هنا هو الاذفنش لأن تاريخ الصك واقع فى أيام دولة الاسبان بطليطلة فقد كان رجوع طليطلة إلى الاسبانيول يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ وقيل فى المحرم .

(٣) كذا . فهل هى محرفة عن « اربزات » ؟ بمعنى ذهبات . أولها تأويل آخر ؟

(٤) تاريخ الصفر هو تاريخ كان مصطلحاً عليه فى اسبانية من قبل دخول الاسلام بل من قبل المسيح وكان مبدأه فى أول يناير سنة ٣٨ قبل المسيح لعهد أغسطس قيصر وبقى هذا التاريخ معروفاً فى اسبانية إلى القرن الخامس عشر للمسيح .

(٥) استعمل هنا الجمع استعمال المفرد بدليل قوله « الموصوف » ، وقوله عنه « الذى »

شاهد . وعلى كل اسم من العجمي معلم شهد عندى . و بالعربى أبو خالد بن أسطر اه .

مثال آخر :

« اشترى خير بن ركوى من يحى بن عبد السلام جميع الدار التى له بحومة رحبة القشالى[1] حد الدار في الشرق دار خلف بن جواد[2] ، وفى الغرب دار جلبارت الفرنجى[3] ، وفى القبلة دار أبى الحسن بن ذكرى وفى الجوف دار مفرّج ابن عثمان بثمن عدته أربعون ديناراً من الدينارات الجارية بطليطلة حين هذا التاريخ من شهر إبريل فى سنة واحد وثلاثين ومائة وألف من تاريخ الصفر .

وشهود الأصل فيه : فرج بن عبد الله . ومسعود زرقون شهد وكتب . عبد الرحمن بن يحى شاهد على ذلك . وعيسى بن الحسن شاهد وكتب عنه بأمره . وعيشون بن يحى شاهد . هذيل بن حكم شاهد وكتب . ذكرى بن عثمان شاهد وكتب عنه . وبالأعجمى يُشتُش فليش[4] بطرُه[5] يُشتش .

صحت هذه النسخة (الخ) فى العشر الأوسط من شهر شبتمبر سنة ثلاثين ومائتين وألف للصفر . يوان بن يليان الصقلي شهد . و يوانش بن مقايل بن عبدالعزيز المشنارى . و باطرُه بن عمر بن غالب بن القلّاس .

مثال آخر :

« ابتاع يحيى بن خلف ويحيى بن قريش من بيطر وأنفونش[6] وزوجه يشته[7]

---

(١) Plaza del Caxali (٢) Jàlaf ben Chuad

(٣) Chelabert el franco من هنا يعرف أن طليطلة بقيت حتى بعد رجوعها إلى الاسبانيول بلدة عربية يشار فيها إلى الافرنجى بصفته هذه لأنه غريب فيها

(٤) Justes fèlix (٥) Petro ومن هنا يعلم أنه كان فى طليطلة نزر لا يعرفون الكتابة العربية فكانوا يوقعون بالاسبانيولية

(٦) يعرف من هنا أن اسم « الفونس » كما كان يقال له عند العرب « اذفنش » كان يقال له أيضا « الفونش » وانفونش » واللام والنون كثيراً ما تقوم إحداهما مقام الأخرى . وقد رجعنا إلى ترجمة هذا الصك بالاسبانيولى فوجدناه يكتب هذا الاسم هكذا Pedro Alfonso (٧) يشته هى فى الترجمة الاسبانبولية Justa

جميع المنية[١] التى لها بمنزل مُشكة[٢] المعروفة من قبل لابن سلمة ، والمتصيرة إليهما بالابتياع ، التى حدها فى الغرب مضربة القرمادين ، وفى القبلة المضربة المذكورة أيضاً وفى الشرق محجة سمرة إلى الكرمات ، وفى الجوف المحجة السالكة من طليطلة إلى القرضيطة[٣] ، وفيها بابها ، تخرج بين ذلك حصة لاشتافن من بيت قو به ، وحدها من المحجة الداخلة إلى الثانية ، بثمن مبلغه من الدنانير اثنان وثمانين[٤] ديناراً ، من الدينارات الجارية بمدينة طليطلة ، حرسها الله حين التاريخ كل دينار منه . . . . . عشره و إلى ذلك الكريم[٥] المعروف بالقوجول بمنزل مُشكة المبتاع منهما المذكورين بيطره أنفُنش وزوجه بُشته ، والمتصيِّر إلى يحيى ، و يحيى بالابتياع من البايعين للمنية بيطره وزوجه زيادة وعواناً إلى الدنانير المذكورة فى عقب . . . . ابريل التى من سنة ألف ومائة وثلاثة وثلاثين للصفر

عبد الملك بن عامر . ولب . . . وعبد الله بن جلبرت . وخير بن يحيى . ومروان ابن غالب . يحيى بن معبد وكتب عنه و بأمره . السرقسطى كتب عنه بأمره . وعمر ابن عامر بن الليث . وعبد الرحمن بن غلمير بن عريب . وعبد العزيز بن سعيد وكتب عنه بأمره . وعبد الله القوطى وكتب عنه بأمره »

مثال أيضاً :

«اشترى دمنقوس الارجيقس ودمنقوس القس . . . . كنيسة شنت لوقادية[٦] خارج مدينة طليطلة حماها الله من ميقال . . . . وزوجه بيليه . . . . من الحصة التى له بدار الخازن ، و بحوز المشاطر ، وهو نصف خمسين ونصف القرية ، بمبلغه من الثمن خمسة وأربعين ديناراً من السكة الجارية حين عقده ، اشترى دمنقوس والارجيقوس

(١) تقدم فى هذا الكتاب كلام طويل عن معنى « المنية » وهو البستان
(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Man-el Mosca (٣) فى الترجمة الاسبانيولية Alcardete
(٤) كذا ويظهر أن كاتب هذا الصك لم يكن يعرب كثيرا
(٥) تصغير كرم (٦) فى الترجمة الاسبانيولية Leocadia

وديعنقوس المذكوران جميع هـذا النصف سهله ووعره عامره وغامره أنادره [١] وقرالاته [٢] وسدوده [٣] وقنانره [٤] وأرحاءه و برجه ، والمدخل إلى جميع الدار والمخرج منه وذلك كله فى النصف من شهر مارس من سنة ألف ومائة وخمسة وأر بعين

شهد عندى . . . . . بن يوانش شاهد . شهد عندى . . . . . . بن عبد . . . . شهد عندى ، وعبد الرحمن بن . . . . »

مثال آخر :

« اشترى مرتين الأرجيد ياقن من يوسف بن يعيش اليهودى جميع الثلاثة جبال السكروم المتصلة التى له بمرطيلة ، حدها فى الشرق كرم بيطر والجزار ، وفى الغرب كرم شلوط ، وفى القبلة كرم . . . . . الطريق بثمن عدته . . . . . اثنتان وثلاثون دنانير الجارية بطليطلة حين التاريخ فى شهر مارس الكاين فى عام ثمانية وأر بعين بعد ألف لتاريخ الصفر .

و يوصف بن . . . . . . شاهد . وسيف بن العزاد شاهد . إبراهيم بن إسحق ومرتين الخيّاط . عمر بن عبد الله ، وعبد الملك بن مرتين بن خير ، وسعدان بن عبد الله ، و يعقوب البرسلونى شاهد »

مثال آخر :

« اشترى ميقايل بن بقي من البيرة زوج فرننده منيوس ، و بينهما منيوه وغانصالبه ، وأختهما وابنتهما شولى جميع نصف الجنان المعروف لهم بحومة الليتيق

---

(١) جمع اندر وهو الذى تدرس عليه الحبوب كالبيدر

(٢) هو جمع قرال وهو حظيرة الحيوانات تكون وراء المنزل وهـذا لفظ اسبانيولى استعمله عرب الأندلس (٣) وفى الترجمة الاسبانيولية Azud فيظهر أن الاسبانيول أخذوا لفظة « السد » إلى لغتهم (٤) فى الترجمة الاسبانيولية Canales أى قناة فيظهر أن الأسبان أخذوا هذه اللفظة إلى لغتهم وضموا إليها اللام . ثم رجعت العامة فى طليطلة فجعلت اللام راء وجمعت الكلمة جمع تكسير على « قنانر » بدلا من أن تقول « قنالات » أو تردها إلى العربى الفصيح فتقول « أقنية »

من نظر مدينة طليطلة ، حماها الله ، على الاشاعة ، حده فى الشرق نهر تاجُه ، وفى الغرب حده أرض بيضة للشيخ ابن مُشقيق ، وفى القبلة نهر تاجُه أيضاً ، وفى الجوف[1] المحجة السالكة ، بثمن عدته مائتين ديناراً اثنتين من الفرود الجارية حين التاريخ ، والمثقال الشرقية المأحونية ، دينارين وسدس فى عقب فبرير سنة تسع وأربعين ومائة وألف لتاريخ الصفر

سهل بن خلف بن على ، حسان بن جهيد وسلمة بن سعد وكتب عنه بأمره ، عبد الله بن حسّان »

مثال آخر :

« اشترى دمنقه بن يحيى من سفيان بن أبى البق ومفرّج بن خير ، جميع حصتهما من المنية التى بمنزل مُشكة ، من نظر مدينة طليطلة حماها الله ، وذلك الثلث من جميع هذه المنية التى تعرف فى عهد الاسلام . . . . . مع ثلث البير وثلث ثمار القباوب ؟ على البحيرة ، وثلث الصهريج مع . . . . . والمدخل والمخرج إلى البير والصهريج ، وحد هذا الثلث المذكور فى الشرق كرم لأبى اسحاق القمرانى مع القس ابن فرحون ، وفى الغرب حصة لورثة يحيى بن سرير رحمه الله ، وفى القبلة فدان

---

(١) تقدم لنا بحث غير قصير عن قضية استعمال الاندلسيين والمغاربة لفظة الجوف بمعنى الشمال واختلاف آراء أدباء العصر وأهل اللغة فى منشأ هذا الاصطلاح ولما كان بعضهم ذهب إلى كون الجوف إنما استعمل بمعنى الشمال لأن مدينة الجوف ونواحيها واقعة فى شمالى الحجاز وذلك قياساً على أن أهل الشام يستعملون القبلة بمعنى الجنوب فقد سألت حضرة الوجيه المفضال الشيخ محمد نصيف المشهور من أعيان جدة هل لهذا الاصطلاح من أثر فى الحجاز ؟ فأجابنى أنه سأل العلماء والقضاة وكتاب المحاكم والمحامين وغيرهم فأجابوه بأنهم لم يسمعوا بشيء كهذا ولا رأوا فى الصكوك والوثائق القديمة تسمية الحد الشمالى بالجوف بل الحدود فى الحجاز هى هكذا : شرقا وغربا وشمالا ويمناً أى جنوبا وقد يقولون جنوبا . فثبت من هنا أن لاستعمال الجوف بمعنى الشمال وجهاً آخر خاصا بالاندلس نفسها وقد يكون جاء إلى المغرب من الاندلس

حُبس على شنت فليج [١] وفى الجوف الطريق الداخل إلى القرضيط ، بعدد مبلغه من الذهب المرابطية [٢] سبعة عشر مثقالا ، فى أول شهر شبتمبر عام خمسين ومائة وألف تاريخ الصفر

إن ثلث المنية المذكورة فوق هذا أن ثلثى أرضها أرض بيضا خاوية عن جميع الثمرات والكرم والغراسات ، وجميع الثلث المذكور بغير تعليق [٣] ولا اعتمار

عمر بن سعيد شهد وخلف بن عمر كذلك ، وسلامة بن مقيال شهد ، وعبد الله ابن عثمان نقطة ، وعتبة بن وليد ورمّان بن عامر ، وخير بن مورن . وعبد العزيز بن أبى الحسن بن أبى رجال ، و يعيش بن فيليش ، وعبد الملك بن بهلول ، و بهلول بن . . . . وكتب عنهم بأمرهم ، وعبد الله بن فرسان وكتب عنه ، وعبد الرحمن ابن عبد الرحمن شاهد ، وعثمان بن عثمان شاهد وكتب عنه

شهدوا الشهود على . . . . . بعد اقرار الفريقين فى التاريخ المؤرخ إن شاء الله

مثال آخر :

« اشترى يوانش بن ملّوك بن استافن بن عبد الرحمن جميع الغرس مع الأرض البيضا المتصلة به المعهودين له بحومة بنال من عمل طليطلة حرسها الله ، حدها فى الشرق الطريق الناهض إلى حصن مورة حرسها الله ، وفى الغرب غرس بيطرُه شّرانُه الحداد ، وفى الجوف غرس مرتين بلايس بثمن عدته أربعة مثاقيل ذهباً مرابطياً فى شهر يولية من سنة إحدى وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر

يحيى بن على بن يحيى شاهد ، بيطرُه بن سهل ، ومقيال بن يوانس شاهد ، ومسعود بن يحيى بن عفان شاهد ، فليس ابن مروان شاهد وكتب عنه لورانس بن . . . . . . يوانس شاهد »

---

(١) Félix

(٢) كانت المسكوكات المرابطية فى ذلك العهد متداولة لأن المرابطين كانوا فى الاندلس

(٣) لا نعلم هل هى هكذا من الأصل أم هى محرفة عن « تعزيق » وهو مصدر عزق فعل المبالغة من عزق الأرض شقها وكربها

مثال آخر :

« اشترى بلدوين ڤيليار وزوجه مونينه من بيطره الخياط ، من أهل مدينة شقوبية جميع حصته الواجبة له بالقسمة مع شركة بيطره تعليقس [١] وذلك النصف الذى بجهة الشرق من الميشون [٢] والقرال [٣] المتصل به بحومة ربض الأفرنج ، قرب القاعدة شنته مرية أم النور بمدينة طليطلة حرسها الله ، حد هذا النصف المبيع من الميشون والقرال ، فى الشرق حوانت السلطان أيده الله ، وحوانت الأحباس ، وفى الغرب النصف الثانى الذى لبيطره تعليقس قسيمة المبيع المذكور ، وفى القبلة المحجة السالكة ، وإليها يشرع باب الميشون المبيع المذكور ، وفى الجوف حوانت السلطان أيده الله التى للفخارين بثمن عدته خمسون مثقالا ذهباً مرابطياً [٤] مالكية طيّبة وازنة ، فى شهر يوليو من عام اثنين وسبعين ومائة وألف للتاريخ الصفر .

هوبر الافرنجى وكتب عنه ، وهربرت بلنك وكتب عنه ، وبامين الافرنجى وكتب عنه وغطارد [٥] طليطلة وكتب عنه ، وبيطُره بن يوسف بن مروان ، ومرتين ابن استافن وعثمان بن سليمان بن ملك وكتب عنه ، ويوليان بن يحيى وكتب عنه ، وغونصلبُه فرولس ، وكتب عنه أبو على بن روبين وكتب عنه . وبيطره قولونبيريانة ، وكتب عنه وبياك مونس من سنت رمان وكتب عنه ، ودون مينوه

---

(١) Talliques بالترجمة الاسبانيولية

(٢) بالاسبانيولى Meson وهو بمعنى Maison بالافرنسى أى بيت ولكن يغلب عليه بالاسبانيولى معنى الخان أو الفندق

(٣) ذكرنا أن القرال حظيرة الحيوانات أو الدجاج عندهم

(٤) كان هذا العهد عهد دولة المرابطين بالاندلس وربما كان متأخراً عن دورهم ولكن مسكوكاتهم بقيت متداولة . والأصح أن دولتهم انقضت سنة ١١٤٧ للمسيح

(٥) علامة الشرف عند الافرنج هى De كما لايخفى وقد جاءت فى هذه الصكوك أحيانا بوضع حرف الدال مع كسرة فى آخرها هكذا دِ وجاءت أحيانا بوضع حرف الدال ومعها الياء

أدفونش قايد « مورة »[(١)] شاهد وكتب عنه بامرته »

مثال آخر :

« اشترى الوزير دون ميقايل ميطس ، أعزه الله ، من بهلول وأخيه بيطره ابنى مرتين بن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة ، والقرال المتصل بها ، من جهة الغرب ، والقبلاريسا المتصلة أيضاً بها من جهة القبلة ، حدود جميع ذلك كله فى الشرق الطريق السالك واليه يشرع الباب ، وفى الغرب دار ابن طورنيو المسلم[(٢)] أمين الفخّارين ، وفى القبلة دار بيطره البنّا ابن بهلول ، وفى الجوف دار تيقيت بين البائمين ودار سلمة بن حسان ، بثمن عدته ثمانون مثقالا ذهباً مرابطياً ، فى العشر الأول شهر اوغوشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر .

وعبد الله بن داود شاهد . وباقى بن عمر بن باقى . وديمنقوه بن يحيى بن مرتين وبهلول بن عمر شاهد على النص . عبد الله بن البعص . ويوان بن عامر . وعامر ابن تمام . وعبد الرحمن بن ابراهيم شاهد . ويحيى بن مفرّج وكتب . وعلى بن عيّاش وكتب عنه . وحكم بن شلمون وكتب عنه . ويوليان بن سلمة شاهد . وجنيد ابن عبد الملك بن ليون وكتب عنه . وبيطره بن عبد العزيز بن عطّاف بن لنبطار .

مثال آخر :

« يشهد من تسمى أسفل هذا الكتاب من الشهداء انهم حضروا وسمعوا من يوان الكراسنى وزوجه اوبانية ، يقولا انهما باعا من رودريقه اوردوناز الحصّار جميع الكرم الذى لهما بالوعد بحومة كنيسة شنت فليس ، قبلى طليطلة ، حرسها الله ، وحدّه فى الشرق كرم لبنت الشمنتانى ، وفى الغرب كرم لولدين[(٣)] سربى ، وفى القبلة

---

(١) لايخفى أن مورة اسم حصن من حصون طليطلة

(٢) لما قل عدد المسلمين فى طليطلة بالهجرة والتنصر صاروا إذا ذكروا مسلماً فى أحد الصكوك يذكرونه بقولهم فلان المسلم

(٣) اسم علم

الجبل ، وفى الجوف كرم القسكلى بثمن عدته ثلاثة مثاقيل ذهباً مرابطياً ، ودفع البايع الثمن الى البايعين ، وأقرّا انهما قد اتصفا منه وأنزلا فى المبيع وحقوقه الخ . وكتب الاستدعا فى شهر مايو من عام خمسة وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر .

يعيش بن قريش شهد عندى ، ومرتين بن رمانش شاهد وكتب عنه شهد عندى . شهدوا عندى الشهود بأعيانهم ، وفى التاريخ وأنا عبد الرحمن بن يحيى بن حارث وبالله التوفيق .

مثال آخر :

« اشترى مرتين سلمة بن ابى حجة من مرتين باطرس قرعتين اثنين من جملة اثنين وثمانين قرعة بقرية الكلبيين والنجار من عمل مدينة طليطلة من أراض بور ومعمور وأنادر ، ومروج وأشواط[1] و برادات و بكل حق ، بثمن عدده أربعة مثاقيل مرابطية ، ورباعى مثقال ضرب المرية ، فى شهر نونمبر الذى من عام سبعة وثمانين ومائة وألف للصفر

شهود الأصل فيه . . . . . مجانت بن عثمان بن خلف . وعمر بن عبد الله شاهد . و يحيى بن سعيد شاهد كذلك . و بالعجمى سبربان بطرس تشتش . ديمنقه شر بطول تشتش

هذه النسخة الخ . فى العشر الاخير من نونمبر سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف للصفر :

اشتابن بن لازُره . وشلبطور[2] بن سهل بن عبد الرحمن . و يحيى بن وليد ابن قاسم . و باطره بن عمر بن غالب بن القلاّس » .

ولا يمكننا أن نستقصى جميع الصكوك والحجج التى فى هذه المجموعة التى تقع فى ألف صفحة كبيرة ، و إنما اقتبسنا منها بعض أمثلة لاجل تمثيل حالة طليطلة

(١) جمع شوط والشوط بالعربية يأتى بمعنى الأرض بين شرفين يجرى بها الماء

(٢) Salvador

الاجتماعية ، التي قيل فيها بحق إنها الحد الواصل بين الاسلام والنصرانية ، والتخم الذى يجمع بين الشرق والغرب ، ترى ذلك من اختلاط الأسماء فبينما الأب هو عمر إذ الابن هو بطره ، و بينما الأب هو عبد العزيز إذ الابن هو ميقيال . وربما تجد بيطره بن يحيي بن أصبغ ، واشتافن بن حسّان ، ومرتين بن عثمان ، وشلبطور بن عبد الرحمن وهلم جرا . والسبب فى ذلك هو أنه لما فتح العرب الأندلس ، وأسلم من أهلها أناس كثيرون استعربوا اسما وفعلا . ومنهم من لم يدخل في الاسلام ، ولكنه استعرب وهو باق على نصرانيته . وأكثر ما تجلى هذا الوضع فى مدينة طليطلة التي كان النصارى فيها يشبهون نصارى المشرق باستعمال كثير من العربية فى صلواتهم وطقوسهم الدينية .

وقد تبدلوا بأسمائهم الأسبانيولية القديمة أسماء عربية كأسماء المسلمين إلى أن كان القسوس ورجال الكنيسة منهم يتسمون بأسماء اسلامية . وحسبك أن أحد مطارين طليطلة كان اسمه عبيد الله بن قاسم وكان له مقام عند الخليفة الناصر رحمه الله ، كما أنه بعد أن استرجع النصارى طليطلة تنصّر من مسلميها عدد كبير ، نقل صاحب النفح عن ابن بسام فى الباب الثامن من الجزء الثاني : أنه لما دخل الأذفونش طليطلة سار مع المسلمين سيرة حسنة فى أول الأمر حتى استمالهم إليه . وعبارة ابن بسام هى هذه : « و بسط الكافر العدل على أهل المدينة وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله ، وشرع فى تغيير الجامع كنيسة في ربيع الاول سنة ست وتسعين وار بعمائة » اهـ .

قلنا إنه تمهل قليلا حتى أجرى بالفعل ما كان يضمره من أول ساعة دخوله إلى طليطلة ، فأما بحسب الروايات التى بين أيدينا ، والتى معناها أن طليطلة خرجت من يد الاسلام سنة ١٠٨٥ مسيحية فان الجامع الأعظم تحول إلى كنيسة [١] ثانى سنة

---

(١) قد جاء ذكر طليطلة فى رحلة الكاتب الأرفع أبى عبد الله بن عبد الوهاب الوزير الغسانى الأندلسى الفاسى ، كاتب السلطان مولاى اسماعيل ، الذى أرسله

وقد رأينا فى دليل بديكر أن الاذفونش السادس فتح طليطلة سنة ١٠٨٥ ، وكان

السلطان سفيرا فى بعض المهمات إلى صاحب اسبانية ، وكان قد جول فى تلك المملكة واطلع على أحوالها فكتب رحلة شهيرة بديعة اتصلت بترجمتها إلى اللغة الافرنسية قبل أن أطلع على أصلها العربى الذى أهدانيه العلامة الكبير المؤرخ الشهير مولاى عبد الرحمن بن زيدان ، نقيب العائلة السلطانية العلوية بالمغرب ، أدام الله عزهم ، وقد نقلت كثيرا من هذه الرحلة إلى الفصل المتعلق بمسلمى الاندلس فى كتابى حاضر العالم الاسلامى . وكانت وفاة الوزير الغسانى فى فاس عام تسعة عشر ومائة والف . قوله عن طليطلة : قد أمر الطاغية من أصحب معنا من خدامه بمرورنا على مدينة طليطلة لنشاهد مسجدها الجامع الذى هو من عجائب الدنيا فى بنائه وذكره وبعد صيته فبتنا يوم خروجنا من مدريد بقرية يقال لها وشقة ، وكانت من حواضر العدوة التى لها ذكر ، دار علم ونباهة ، وهى اليوم قرية متبدية ، وبها من أثر البناء القديم الاسلامى بعض أثر مثل الباب الذى يدخل به إليها حين كانت مدينة . أما اليوم فالتبدى أقرب إليها من الحضر . وبينها وبين مدينة طليطلة أحد وعشرون ميلا . وطليطلة مدينة كبيرة قاعدة من قواعد مدن العدوة ، ودار ملك قديم ، وهى على ربوة من الأرض ، فى حافة مطلة على الوادى المسمى طاجو ، وهو الوادى المار بأرنجويس ـ كتب الوزير الغسانى طاجو وأرنجويس بالخاء لا بالجيم وذلك بحسب تلفظ الاسبانيول بهما ـ وقد أحاط هذا الوادى بالحافة التى عليها المدينة من ثلاثة أرباعها والربع الموالى للبر هو الآتى من طريق مدريد . وأسوار هذه المدينة وحيطانها وازقتها باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين ، وأثرها أثر الحضارة . إلا أن أزقتها ضيقة جداً ، ودورها باقية على حالها من البناء الاسلامى وتفصيله ، والنقش فى السقوف والحيطان بالكتابة العربية ، ومسجدها الجامع هو من عجائب الدنيا ، إذ هو مسجد كبير مبنى كله من الحجارة الصلبة الغريبة ، القريبة الشبه من الرخام ، وسقوفه مقبوة من الحجارة وهى فى غاية ارتفاع السمك وعلوه ، وسواريه فى غاية الضخامة ، والصناعة العجيبة والنقوش ، وقد أحدث النصارى فى هذا المسجد من جوانبه زيادة فى الوسط بشباك من نحاس أصفر ، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان التى يضربون بها وقت صلواتهم ، مع الكتب التى يقرأونها فى الصلوات ، شىء كثير . وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة المصلوب ، وهو من ذهب ، يقابلونها فى صلواتهم ، وأمام المصلوب

المسلمون اشترطوا لتسليمها أن يبقى المسجد الأعظم لهم ، ورضى الاذفونش بهذا

مصابيح كثيرة من ذهب وفضة ، توقد ليلا ونهاراً ، مع شموع كثيرة كبيرة . وأبواب هذا المسجد فى غاية الاتقان والصناعة . وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوائدهم التى لا يمكنهم تركها ، ومن الزيادات المحدثة فى جوانب هذا المسجد بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال ، فيها من الذخائر والأحجار الملونة ، مثل الياقوت الأحمر والأبيض ، والأصفر ، والزمرد ، والتيجان المرصعة بالدر الفاخر ، والأحجار النفيسة التى لها بال ، ولا تقوم بمال ، ومع هذه الذخائر تاج كبير من ذهب ، ومعه سواران من ذهب ، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله . وعن يمين هذه الخزائن خزانة فيها كتاب كبير مكتوب بماء الذهب ، زعموا بأنه كتاب التوراة ، وهو عندهم فى غاية التحفظ والصون والاعتناء به ، لا يخرج عن موضعه الذى به ، وذكروا أن والد هذا الطاغية أحب إخراجه من هناك ، وأن يكون عنده بعد أن أعطاهم فيه مدينة كبيرة بخراجها وجميع منافعها ، فلم يعطوا به كلاماً ، لضنهم به . وعن يمين هذه الخزانة أيضاً خزانة أخرى ، فيها صندوق كبير مرصع ، مشحون بالموائد الفاخرة المرصعة بالذهب ، مثل الهدايات والقلائد والسلاسل والخواتم الثمينة وعن يمينه صومعة من فضة ، تزيد على قامة الانسان ، وداخلها وخارجها من الذهب المرصع بالأحجار النفيسة ، وقد عمل هذا المنار على شكل منار مسجد طليطلة ، وعلى هيئته ومثاله ، وهو عندهم زينة ، يخرجونه فى أعيادهم مع الصلبان التى يطوفون بها فى الأزقة ، وهذا المنار الذى بهذا المسجد ، أعاده الله للاسلام ، وعمل هذا على شكله ، هو من أعاجيب البناء صناعة وعلواً فى الجو ، فقد اشتمل على ثلاثمائة درجة . منها مئتان إلى موضع التأذين وفى موضع التأذين جعل أعداء الله تعالى تسعة نواقيس كبار جدا ، دائرة ، كل ناقوس منها ستة وثلاثون شبرا ، مع غلظ ثلاثة أرباع الذراع . وبناء هذا المنار كله من الحجارة الصلبة التى تشبه الرخام ، من جنس الحجر الذى بنى المسجد منه ، نسأل الله أن يعيده لتوحيده وذكره ، وحوالى هذه الخزائن من الخزائن المشحونة بالقناديل الذهبية والفضية والصلبان المرصعة ، والثياب التى يلبسها الغرايلية ، وأكابر القسوس والشمامس والرهبان ، التى طرزت بالجوهر النفيس شىء كثير . وهؤلاء الرهبان الذين فى هذه الكنيسة هم جميعاً إلى نظر الكردينال ، الذى هو اليوم أكبر كردينال عند سائر المسيحية ، وهو الذى تحت البابا كما تقدم التنبيه عليه ، وعلى البابا

الشرط ، ولكن فى السنة التالية نقض الاذفونش عهده ، بناء على الحاح الملكة كونزتانزة و برنار رئيس الأساقفة اﻫ .

وكيف كان الأمر فقد تنصر كثير من مسلمى طايطله ، و بقى كثير من المسلمين على دينهم ، لاسيما طبقة الخواص ، ولكنهم لم يهجروا البلدة دفعة واحدة . وما خلت طليطلة من المسلمين تماماً إلا بعد قرون متطاولة . ومن الغريب أن طليطلة رجعت إلى النصارى فى الثلث الثالث من القرن الحادى عشر للمسيح ، وأنه فى أوائل القرن السابع عشر كان لا يزال فيها مسلمون فى زى نصارى . وقد نقلنا فى بحث مسلمى الاندلس فى حاضر العالم الاسلامى فى الجزء الثانى عن كتاب الأنوار النبوية فى أنباء خير البرية ، للعالم النسابة سيدى محمد بن عبد الرفيع الاندلسى المتوفى فى رجب عام اثنين وخمسين وألف ، وصفه يوم كانوا بالاندلس لحالة المسلمين الذين كانوا مضطرين تحت خطر الحرق بالنار ، أن يظهروا النصرانية وهم يبطنون الاسلام ، وكيف كان والد المؤلف المذكور يعلم ولده الاسلام سراً ، و يوصيه بأن يكتم ذلك

دمرهما الله . وحيث كانت طليطلة هى من قواعد مدن اسبانية ، كان الكردينال الذى يتولى أمر كنيستها أكبر من يتلقب بالكردينال عند عبدة الصليب . وهذا الكردينال الموجود اليوم هو رأس ديوان اسبانية ، واليه ينتهى جميع أمرهم فى دينهم ودنياهم ، وعن رأيه يصدر كتاب الديوان جميعا ، وفى طليطلة أثر القصبة التى كان يسكنها الملوك قبل هذا . وقاعدة طليطلة كانت دار ملك العجم الأولى . هى واشبيلية ، وإليها كان قصد طارق ، رحمه الله ، بوجهته حين دخل العدوة ، بعد مروره بقرطبة . ولم يعرج على غيرها ، حتى انتهى اليها ، ووجد بها من الآثار التى تدل على مكانتها مالا حصر له . ومن جملة ذلك المائدة المشهورة . إلا أن بعض أهل التاريخ يزعم أن المائدة لم تكن بطليطلة ، بل كانت بموضع آخر قريب من طليطلة ، يسمى وادى الحجارة وان طارقا لما فتح طليطلة خرج إلى الموضع المعروف بوادى الحجارة قرب الفج الذى كان ينسب إليه خلف الجبل حتى بلغ مدينة المائدة . وسميت بذلك لوجودها بها ، وهى المنسوبة إلى سليمان بن داود عليهما السلام ، وقيل إنها كانت من زبرجدة خضراء ، وانها كان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا والله اعلم ، انتهى

حتى عن والدته وعمه وأخيه ، وجميع أقاربه ، وأن لا يخبر أحداً من الخلق بما يعلمه إيّاه فى الخفاء . ثم كان يرسل والدته إليه فتسأله : ما الذى يعلمك والدك فيقول لها : لاشيء . فتقول له : أخبرنى بذلك ولا تخف لانى عندى الخبر بما يعلمك . فيقول لها : أبداً ماهو يعلمنى شيئا . قال : وكذلك كان يفعل عمى ، وأنا أنكر أشد الانكار ثم أروح إلى مكتب النصارى . وآتى الدار فيعلمنى والدى ، إلى أن مضت مدة ، فارسل إلى من اخوانه فى الله والأصدقاء . فلم أقرّ لأحد قط بشيء ، مع أنه رحمه الله تعالى قد ألقى بنفسه للهلاك لامكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لامحالة . لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده الخ . إلى أن يقول : فلما تحقق والدى رحمه الله تعالى أنى أكتم أمور دين الاسلام عن الأقارب ، فضلا عن الأجانب ، أمرنى أن أتكلم بافشائه لوالدتى وعمى و بعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين وأنا أسمع ، فلما رأى حزمى مع صغر سنى فرح غاية الفرح ، وعرفنى بأصدقائه وأحبائه واخوانه فى دين الاسلام فاجتمعت بهم واحداً واحدا . » اه

وقد علقت على هذه الجملة بقولى : إن الاسلام بالاندلس حسبما يظهر من هذا الوصف كان أصبح شبيها بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان ، ولايقدر واحد من المسلمين أن يبوح باسلامه إلا لمن يكون قد ابتلى أمانته ، وامتحن صدقه فكانوا يجتمعون سراً إذا كان بعضهم واثقا ببعض ، و يتكلمون فى أمر الدين فى أشد الخفية . ثم نقلت عنه مايلى :

« وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيان ، مدينة ابن مالك إلى غرناطة ، و إلى قرطبة ، واشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للاسلام فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال ، كانوا كلهم يحدثوننى بأمور غرناطة ، وما كان بها فى الاسلام حينئذ ، و بما أقوله وقلته بعد ، فسندى عال لكونه ماتم إلا بواسطة واحدة بينى و بين الاسلام بها » اه .

وعلقت على هذه الجملة الأخرى مايلى : إنما من عرف كون ابن عبد الرفيع

توفى عام ألف واثنين وخمسين للهجرة ، لا يخفى عنه أنه كان شاباً فى أول سنى الالف للهجرة ، أي منذ نيف وثلاثمائة سنة . و يظهر له أنه منذ نيف وثلاثمائة سنة ، كان فى جيان وغرناطة واشبيلية وقرطبة أناس لا يزالون يدينون بالاسلام سرا ، وهم فى الظاهر نصارى . وأغرب من هذا وجود مثل هؤلاء فى طليطلة المصاقبة لمجريط ، والتى كان مضى على استرجاع الاسبانبول لها يوم زارها ابن عبد الرفيع أكثر من خمسمائة سنة . أى أنه بقى مسلمون فى الباطن فى طليطلة من بعد أن زال عنها حكم الاسلام بخمسمائة عام

ثم ذكرت فى محل آخر من هذا البحث : « وقيل لى إن أحد المغاربة وقع فى هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة ، فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد النحر عندنا ، و يقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم اه .

ثم إني أذكر فى المبحث نفسه فصلا عثرت عليه فى جريدة « العَمَلَة » النمساوية الصادرة فى فينة ، عددها المؤرخ فى ٣ يناير سنة ١٩٣٢ ، جاء فيه بمناسبة الكلام عن ثورات أهل العمل ، كلام عن موريسك الأندلس ، وأعمال ديوان التفتيش الكاثوليكى مايلى :

« فأخذ هذا الديوان ينقّب وينقّر عن الكلّية والجزئية من أعمال المسلمين ، ومنع جميع شعائرهم الدينية ، بل منع جميع عاداتهم ومذاهبهم فى الحياة : ولو لم يكن لها تعلق بالدين ، وعاقب على ذلك . وكان يعاقب أشد العقاب من علم عنه أنه لا يأكل لحم الخنزير أو الميتة ، أو عرف عنه أنه لا يشرب الخمر ، أو قيل إنه أدرج ميته فى كفن نظيف . وكانت النظافة فى ذاتها ذنباً يعاقب عليه ، و فى سنة ١٥٩٧ وجد فى طليطلة المسمى « موريسكوبار ثولوم شانجه » فلحظ عليه القوم أنه شديد التطهر ، فعذبوه عذاباً شديداً ، وما زالوا يعذبونه حتى أقر بأنه يتطهر عن عقيدة ، فحكموا عليه بالسجن المؤبد ، و بضبط جميع أملاكه . ووجدوا قرآناً عند عجوز اسمها « ايزابلا زاسن » فقالت انها لا تقدر أن تقرأه فلم ينفعها هذا القول ، وعذبوها ،

ولـكن لما كان عمرها تسعين سنة اكتفوا من اهانتها بحملها على حمار ، والطواف بها فى الشوارع وعليها غطاء مكتوب عليه اسمها « و إثمها » ثم زجّوها فى السجن بعد ذلك ، و بقيت فيه إلى أن علّموها قواعد المسيحية » اه .

من هذا الفصل الوارد فى جريدة « العَمَلة » النمساوية .

Arbeiterzeitung يتأيد ما رواه ابن عبد الرفيع الاندلسى ، من انه فى أوائل القرن السابع عشر كان لا يزال فى طليطلة بقايا مسلمين ، وأن العروبة لم يكن طمس هنالك أثرها بالـكلية . وهذا بحث سنفرد له إن شاء الله ، بعد أن أعددنا مواده ، جزءاً خاصاً من كتابنا هذا .

ونعود إلى طليطلة واختلاط أسمائها ، الاسبانيولى بالعربى ، والعربى بالاسبانيولى مما يدل على امتزاج المجتمعين فى هذه البلدة ، بشكل غريب ، لم يسبق له مثيل ، وإليك أمثلة أخرى :

« باعِ القائد دون شبيب بن عبد الرحمن من دون دُمنقه مرزالُه الدليل ، ومن زوجه يُشتَة بنت مرتين الخ . والشهود يحيى بن خليل ورفاعة بن يحيى القنترى وابراهيم بن خليل وعبد الله بن عمر وحسين بن جعفر بن حسين وميقائيل بن شبيب ابن عبد الرحمن » .

ومثال آخر :

« اشترى القس دون دمنقة بن مقيال بن الريم من بوان باطرس جميع الفدان الواحد الأرض البيضا الذى له بحومة أوليش الـكبرى عمل طليطلة حرسها الله . إلى أن يقول : وسعة هذا الفدان المبيع المذكور كسمة كل قرعة هى بالحومة المذكورة بثمن عدته مثقال ونصف من الذهب البياسى الضرب [1] . أما الشهود فهم : بيطُره ابن يليان بن ابى الحسن ، وشلمون بن على بن وعيد الخ .

و فى مكان آخر صك المشترى فيه الارجبرشت [2] دون نقلاوش القونوتى [3]

---

(١) البياسى نسبة إلى بياسه من عمل قرطبة ويظهر أنه كان بها دار ضرب لعهد الاسلام

(٢) Archiprêst القس الأكبر (٣) Canonigos القانونى

بقاعدة شنتة مرية عمّرها الله والبائعة مرية بنت تمام على حفيدها الصغير الذى من غير رشد المسمّى شر بند بن باطُرة غرسية الذى فى حضانتها . و فى هذا الصك ذكر الوزير القاضي دون يليان بن أبي الحسن بن الباصُه أدام الله عزّه .

و فى صك آخر يقول : اشترى دون لازر بن على من دون يوان بن عثمان ومن زوجه دمنقة بنت حنصون جميع الكرم الذى لهما بحايز شنت اشتاين خلف نهر تاجُه و بمقربة من قرال بنى ابى مالك من احواز مدينة طليطلة حرسها الله . والتاريخ هو فى العشر الأوسط من شهر ينير سنة إحدى ومائتين وألف للصفر والثمن ثلاثون مثقالا من الذهب البياسي . والشهود يليان بن فرجون و بيطرو بن اندراش بن عزيزى وميقايل بن سلمة بن سدرابه ولب بن فرنندس . وفى آخر الصك يقول : وأنا يوان ابن عثمان بن عثمان بعت وقبضت » اه

وانظر إلى هذا الصك :

« اشترى الدياقن دون دمنقه نفرُه الذى من أئمة قاعدة شنتة مرية بطيطلة حرسها الله من الامام دون بيطرو جلبرت منها أيضاً جميع الغرس المعلوم له بحومة برج الشياطين عدوة نهر تاجه فى حومة شنت فليس من أعمال مدينة طليطلة المذكورة انها يصل اليه وهو الغرس الذى كان اغترسه أبو الطيّب المغترس وحدّه فى الشرق غرس لدون اشنا بن التميرانى وفى الغرب شنطير سالك من النهر المذكور الى الطرق التى بالحومة المذكورة و إلى سواها وفى القبلة غرس الاندراش وفى الجوف غرس لبيطروه اشكردُه بثمن عدده ثلاثة عشر مثقالا ونصف مثقال ذهباً بياسى الضرب طيباً وازناً فى شهر مارس من عام اثنين ومائتين وألف » .

وهذا المثال :

« اشترى ميقيال يوانش وأخيه دمنقر يوانش على السواء بينهما والاعتدال من دونة التى كانت زوجاً لاندراش دِ حجاج ومن بينهما يوانش و يُليان واشتابن ورومان ومريه وقُلُنبَه جميع الدار التى لهم بحومة شنت رومان داخل مدينة طليطلة حرسها

الله التي حدها فى الشرق دار لورثة دمنقه سبريان وفى الغرب الزقاق الغير نافذ والباب فيه شارع وفى القبلة غرفة على اسطوان هذه الدار وهى لدون فيليز شنجس»
وهذا صك آخر :

« اشترى الاردُه [١] الافرنجى وزوجه دونة مرشكيطه [٢] ، من اولاليه [٣] بنت ديقُه ، وهي التى كان أخاها بيطروه ديس [٤] شيون السكنفرية [٥] متاع [٦] شنتة مريه العظمى ، جميع الدار المعلومة لها ولأخيها بيطروه ديس المذكور بحومة شنتة مريه القاعدة داخل مدينة طليطلة حرسها الله التى حدها أجمع فى الشرق الطريق السالك ، والباب إليه شارع ، ودار كانت لنقلاش دِ طوريش ، وفى الغرب دار انتالين ولد غلتار لقواس ، وفى القبلة دار الوزير القاضى دون رودريقه ديمنقس ، ودار لاشتافن مشتابار ، وفى الجوف قرال لانتلين المذكور ، ولريموند بلدى [٧] ولد جفري مرابطى [٨] ، ودار كانت لأرنلد فرانسا شك الخ »

وتأمل فى هذا الصك :

« اشترى دونه لوقاديه بنت ميقائيل شايس ، وابنتها دونه مريه ، التى كانت زوجاً لدون غرسية القميرانى رحمه الله من دونه مرينه التي كانت زوجاً لدون قليام ومن بينهما دون فليز ، ودون بيطروه ، ودون يوانش ، ودونه ديمنقه ، جميع الميشون الذى هو حانوت الآن ، والشوطار الذى تحته ، والغرفة التى عليه ، المعلوم لهم بحومة

---

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Alardo el Franceses
(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Dona Morisquita
(٣) Eulalia فى الترجمة
(٤) Diaz فى الترجمة
(٥) Sayon de la cofradia فى الترجمة
(٦) متاع هنا يراد به المنسوب إلى المكان وهو اصطلاح العامة
(٧) Raimundo boldi فى الترجمة
(٨) Jofré Almoravide فى الترجمة

كنيسة شنته مريه القاعدة فى ربض الافرنج [١] ، داخل مدينة طليطلة ، حرسها الله وحد هذا المبيع فى الشرق والغرب والقبلة والجوف طريق آخذ على ما يشين الطعام الى سوق الرقيق ، وطريق آخر على اليليندين ، إلى سوق الحصّارين ، وميشون لقليان د ديقرميلش وميشون لارنال ميقلدُه ، وهو قريب البائعين ، وكان قسيم المبيع ومثله بثمن مبلغه أربعون مثقالا ذهباً ، ببّاسية الضرب ، طيبة وازنة ، بشهر ديجمبر الذى من عام ثلاثة ومائتين للصفر .

وشهود الأصل فيه بيطرو بن يايان بن أبى الحسن ، وعمر بن أبى الفرج ، وفيليس بن غليام ، ويوانش بن غليام ، و بيطروش بن غليام ، واندراش فرتوم ، وميقاييل ارتند . وفى آخره مذكور هكذا : صحة النسخة (الخ) وذلك فى العشر الأوسط من شهر فبرير سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف للصفر

شلبطور بن عبد الملك بن العريب ، ويحيى بن وليد بن قاسم »

وغيره :

« واشترى القس دعنقة بن اريم من دونة بنت الوزير القاضى عبد الرحمن ابن يحيى بن حارث ، جميع الكرمين المعلومة لها محومة منزل مُشقة من مدينة طليطلة حرسها الله ، وحد أحدها فى الشرق كرم لورثة لب اشنابنس ، وفى الغرب نهر تاجُه وفى القبلة كرم لمرتين فاليه وفى الجوف جبل كرم لمرتين فاليه ، وقطعة كرم اصق نهر

---

(١) كان للافرنج أى للفرنسيس حارة خاصة بهم فى طليطلة لسكناهم هناك بحسب رواية المسيو لافالى Lavallée وسبب ذلك هو انه لما فتح الاسبانيول طليطلة سنة ١٠٨٥ كانت امرأة الأذفونش السادس يقال لها كونستنزه ، وكانت أفرنسية الأصل وكان مع جيش الأذفونش الذى فتح طليطلة عدد كبير من الفرنسيس وكان معهم رهبان كثيرون من الفرنسيس أيضاً اشتهر بينهم راهب اسمه برنارمن دير ساهاغون Sagahun فلما تم استيلاء الاسبان على طليطلة سكن هؤلاء الفرنسيس فيها . وكانت الملكة التى هى أفرنسية الأصل تمدهم وتعززهم حتى أنها جعلت الراهب برنار المذكور مطراناً لطليطلة .

تاجه (إلى أن يقول) : حضر لهذا المبيع دون يوليان بن البائعة . وقال ان لا اعتراض عنده فيه وسلّمه

والشهود بيطرو بن مرتين بن بهلول ، و بهلول بن غالب ، و يوانش بن تمام وعمر بن أبي الفرج . وفي الآخر هكذا : كان ذلك بحضرى وانايوانش بن عطاف بن لنبضار »

وغيره :

« اشترى الارجبرشت [1] الاجل دمنهُ نقلاوش أدام الله عزه ، من دينقةُ بنت شلبطور [2] أبقاها الله ، جميع النصف من المسجد الذى بحومة شنته مرية ، بحضرة طليطلة حرسها الله ، حد هذا النصف المذكور فى الشرق النصف الثانى الذى هو لاختها شول ، وفى الغرب حجرة لمريم المسلمة التى كانت زوجاً للابدى الجزّاز . وفى القبلة الدار التى كانت لابرسيوه ، وفى الجوف الطريق و إليه يشرع الباب ، بثمن مبلغه ثمانية عشر مثقالا من الذهب الطيب الوازن ، فى العشر الآخر من شهر مايو سنة خمسه ومائتين وألف

والشهود : عبد الرحمن بن عبد الملك ، ودينقة بيطروس الباسى ، وعبد الله بن عمر بن يوانش بن سليمان ، وعامر بن يحيى بن بلاى »

وغيره :

« اشهدت دونة شولى بنت عمر بن هشام ، و بنتاها يوشتا وستى بنتى مقيال ابن سليمان على أنفسهن شهدا آخر هذا الكتاب أنهن بعن من الوزير الأجل دون اشتافن يليانس ، أكرمه الله الربع الواحد على الاشاعة من جميع السد المعروف بسد الفته الذى فى نهر تاجُه تحت حصن قلانيه الخ . »

وغيره :

« اشترى يوان مستعرب [3] لدون مَلَندة الدليل ، و بمال دون ملنده المذكور

---

(١) Archiprêtre (٢) Salvador

(٣) Mozarabe انه يظهر من هذه الكتابات التى إذا ذكرت الافرنجى تنص عليه بأنه افرنجى وإذا ذكرت الاسبانيولى المتكلم بالعربية تنص عليه بأنه مستعرب

من دونه ستميورى ، التي كانت زوجاً لدون ديمنقه البرنيّي ، رحمه الله جميع الحوانيت والفُرَيْفة المتصلة بها ، (إلى أن يقول) واعترف المتبايعان المذكوران أن البايعة المذكورة قبضت عن الستة عشر مثقالا المذكورة أعلاه من المبتاع المذكور القلايب

وإذا ذكرت المسلم أشارت أنه مسلم وإذا ذكرت اليهودى أشارت اليه بأنه اسرائيلى انه كان فى طليطلة أربع أو خمس فرق منها العرب المسلمون الذين بقوا حافظين للغتهم ودينهم حتى بعد استيلاء الاسبانيول ومنها الاسبانيول المستعربون الذين كانوا يتكلمون ويكتبون ويقيمون صلواتهم بالعربية حتى إنهم كانوا إذا كتبوا كتاباً يبدأونه ببسم الله الرحمن الرحيم وكانوا متعصبين جدا للعربية ولذلك بقيت اللغة العربية والثقافة العربية سائدين فى طليطلة مدة ستمائة سنة بعد انقراض حكم الاسلام منها ومنهم الاسبانيول الذين يتكلمون ويكتبون بلغتهم الاسبانية وكان المستعربون يسمونهم بالقشتاليين كما مر فى أحد الصكوك التى نقلناها . وكان منهم أيضاً الافرنج الذين بدأت سكناهم فى طليطلة من وقت استرداد الاسبانيول لها لأنهم كان منهم جنود كثيرون فى جيش الأذفونش السادس . ومنهم اليهود الذين كانوا عنصرا كبيرا ولم يكن الاسبانيون المستعربون بالفئة التى ترضى بالسيادة للاسبانيين القشتاليين أو للافرنج حتى انه وقع خلاف بين النصارى المستعربين والنصارى غير المستعربين من قشتاليين وافرنج فى مسئلة الصلوات فان المستعربين كانوا يقيمون القدّاس الذى يسمى بالاسبانية بالميشة أو الميسة وذلك باللغة القوطية بحسب قاعدة قديس عندهم يسمى سان ايزيدور وكانوا يخلطون ذلك بالعربية وكان الاسبانيول يقولون لهذا الطقس « نصف عربى » أو « موزاراب » فكان الافرنج والقشتاليون يريدون حمل الجميع على استعمال الطقس الرومانى ولكن المستعربين أبوا إباء شديدا وكان أشدهم خصاما فى هذا الأمر جوان رويس ماتانزاس Juanriuz de los Matanzas ولما تعذر حل هذه العقدة قيل إنهم لجأوا إلى البراز وأنهم يخرجون من كل فئة فارساً فيتجاول الفارسان والذى يصرع الآخر تكون فئته هى الغالبة فى الموضوع . فلما تبارز الفارسان كانت الغلبة للفارس المستعرب ولكن فئة الافرنج بقيت مصرة على عنادها . فلجأوا إلى امتحان آخر على عهدة الرواة ورموا كتاب الصلاة الرومانى وكتاب الصلاة القوطى فى النار وقالوا الكتاب الذى يخرج سالما من النار يكون له الحكم . فخرج كتاب المستعربين سالما وخرج الكتاب الرومانى أقل سلامة منه فيقال أن الأذفونش السادس أبقى عند ذلك الطقسين معا .

المعروفة لَمَنْدَة الدليل بقرية قنالِش ، والنبر الذى كان له بها ، والحمار والعجلة ، هذه الأسباب المذكورة عن سبعة مثاقيل ونصف الخ . »

وغيره :

« اشترى الوزير المشرّف دون ديعنقهُ بن سليمان بن غصن بن شربند ، أكرمه الله من سبريان بن بِسَنْت ، ومن زوجه لوفادية بنت يحيى البياسى ، جميع الدار المعلومة لهما بحومة كنيسة شنت يوانش ، بثمن عدده ومبلغه سبعون مثقالا من الذهب الفنشى الطليطلى الضرب الطيب الوازن الخ . »

وغيره :

« اشترت الابطيسة[1] الجايلة دونه مطرى أكرمها الله ، التى بديرشنت قلمنت عمّرها الله من القس دون ديعنقهُ الخ »

وغيره :

« اشترى أبو زكرى يحيى بن على المالقى ، من دونه لوفادية بنت بيطروسُلبيس ومن ابنها رودريقه بن بشكوال جميع الكرم المعلومة لها بحومة كنيسة شنته قلمبه عمل مدينة طليطلة حرسها الله الخ .

والشهود فرنانده يوانش وعبد الله بن عبد العزيز بن خطّاب ، و بَسَنْت بن عبد العزيز بن سعد ، وباطره بن عمر بن غالب بن القلاّس »

وغيره :

« اشترى دون يوان البلجانى أكرمه الله من بيطرو بن يوليان بطيط جميع الجنينة[2] التى له بحومة باب المخاضة ، على نهر تاجُه (إلى أن يقول) ودخل فى هذا المبيع الموصوف جميع ما كان للبايع المذكور فى السانية الكبيرة المشهورة الخ . »

---

(١) أى الراهبة الرئيسة

(٢) فى جميع البلاد العربية يستعملون « الجنينة » بمعنى البستان الصغير

وغيره :

« اشترى افراير [١] دون فرناندوه الذى من فرايرين قلعة رباح ، للرواهب الذين بدير شنت قلمنت بمدينة طليطلة ، أعاها الله من ميقايبل إلى آخره »

وغيره :

« اشترى دون يايان القس الميردوم ، متاع شنت دعنقة ، إلى دير شنت قلمنت الذى هو بمدينة طليطلة حماها الله ، ومن مال الدير المذكور الخ » .

وغيره :

« اشترى الفرايلى دون فرناند وه يوانش ، متاع قلعة رباح إلى الابطشة دونة مطرى متاع شنت قلمنت الخ » .

ومن هذه الصكوك مافيه :

« اشترى الوزير الأجل المشرف الأفضل الأكمل أبو عمر شوشان [٢] ، أدام الله عزه ، من دون مرتين [٣] دى القونط ، ومن زوجه دونة قمبة بنت فرنند واباط [٤] الشطر الواحد على الاشاعة ، من جميع الاندر الذى شطره الثانى للمتاع المذكور ، وقد بيّن فيه قرال ، وهو بقرية أولش الكبرى من عمل مدينة طليطلة حرسها الله ، ولشهرته استغنى عن تحديده ، بثمن مبلغه ستة مثاقيل من الذهب الفونشى الضرب ، وذلك في شهر ديجمبر سنة ست وثلاثين ومائتين للصفر .

---

(١) الراهب .

(٢) مكتوب فى الترجمة الاسبانيولية اسم هذا الرجل هكذا Abuomar Susán: وقبل اسمه مكتوب Alguacil Almogarife ومن المعلوم أن الاسبانيول حرفوا لفظة « الوزير » حتى صارت « الغاسيل » ، ويظهر ان لفظة « المشرف » كانت دخلت أيضا فى لغتهم حتى صارت تستعمل فيها .

(٣) Martin de Alconte

(٤) Fernando Abat

وتحته مكتوب : غالب بن غلمون . ومرتين بن يحيي بن عبد العزيز . وديعنقه ابن بيطروه القنترى . تكيف الأشهاد فيه بين يدى وأنا شلمون بن على بن وعيد »

ثم هذا الصك الذى يتضمن بيع عقار موقوف ، و بيان السبب الذى اضطر إلى هذا البيع فهو يقول :

« باعت الابطيشة [١] الجليلة دونه شنجه التى على دير شنت باترو بالحزام [٢] أكرمها الله مع كونباتها [٣] الـكائن أسماهم فى هذا الـكتاب ، من دون مرتين ابن باطروه دِ قشطَرَة [٤] ، جميع الميشون الذى علم فى أصله للدير المذكور بربض الافرنج التى على مقربة العشابين و بداخل مدينة طليطلة ، حرسها الله ، وهو الميشون الذى حده فى الشرق طريق سالك للحصارين ، وفى الغرب ميشون لدون بطال السبطير [٥] ، ولدونة يوشتة [٦] زوج غليلم [٧] دبياسة ، ولباطروه غليلم ، ولبنى دون جوان دلبدقدوه [٨] ، وفى القبلة المحجة السالك ، و بابها شارع اليها ، وفى الجوف ميشون لدون باطروه جَشُواين [٩] ، وحوانيت السلطان ، بثمن مبلغه وعدده أربعون مثقالا ذهباً من الذهب القونشى ، وصار عندهم وفي ملـكهم لينفقوه على أنفسهم ، وعلى جميع من هو فى الدير المذكور ، مما يجب له النفقة منه في الدير ، لا غنى لهم عنه فى المأكل فى هذه الاعوام المحيلة ، إذ ألجتهم الحاجة والفاقة لئلا يموتون جوعاً ، إذ قد

(١) فى النص الاسبانيولى Abbatissa Sancecia

(٢) فى الترجمة Alhicem

(٣) أى صواحباتها .

(٤) Pedro de Castro

(٥) Don Vidal El - Zapatero

(٦) Justa

(٧) Guèllermo de Baeza

(٨) فى الترجمة الاسبانيولية وضعوا مكان هذه الـكلمة نقطا للدلالة على جهالتها .

(٩) Pedro Chasolin

أحفلوا على ذلك فى الدير المذكور، وخارج الدير ، قد شاوروا فيه الاعيان القنونقين[١] بالقاعدة[٢] شنتة مرية أم النور ، درّ لنا الله شفاعتها ، فكلهم قد حطوه عليه ، وأجمعوا الرأى فيه ، إذ الضغطة والحاجة والفاقة ، قد صحت انها حاطت بهم ، ولذلك باعوا المبيع الموصوف ، وجاز لهم بيعه ، وصح للمبتاع ابتياعه عن ذلك أبداً ، وللمبتاع المذكور براءة تامة ، فبرىء في العشر الأول من شهر فبرير سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف لتاريخ الصفر .

واعترف المبتاع المذكور دون مرتين أن هذا الشرى على حسبه ونسبته هو بينه و بين زوجه دونه يوشتة ، على المناصفة ، وعلى الجميع يقع الاشهاد .

مقيال بن على بن عمر . ويواتش بن مقيال بن عبد العزيز الشنارى .

Ego Abbatissa Sancia. Monasterii Sancti Petri Consedo. Ego Fernandus Iohnnes Subdiaconus Sancti Nicolai Testis. Ego Dominica Priora Confirmo. Ego Lazarus Presbiter Sancti Sevastiani Eeclesie Testis. Ego Liocadia Confirmo. Ego Anastasia Confirmo. Ego Eugenia Confirmo etc.

فمن هذا الصك وأمثاله يعرف انه فى طليطلة لم يكن الجميع يكتبون بالعربية وكان لا يزال قسم كبير من الاسبانيول يضعون امضاءاتهم بالاسبانية ولكن العربية كانت هى السائدة .

ولنأخذ من بعض الصكوك بعض الجمل التى تدل على حاله طليطلة الاجتماعية فى ذلك العصر ، لكون استقصاء هذه الوثائق بأجمعها غير ضرورى ويكفى من القلادة ما أحاط بالجيد .

فمن ذلك صك شراء للدون البيروه البرس[٣] وزوجته الدونة مرية الجنان[٤]

---

(١) Alos Canonigos يريد بها القانونيين وهى رتبة دينية عندهم

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية هى الكنيسة الكبرى Catedrale

(٣) فى الترجمة الاسبانيولية « البيروه » هو Alvaro « والبرس » هو Alvarez

(٤) الجنان جمع جنة ولكنه يستعملها استعمال المفرد بدليل قوله «الذى علم لوالده»

الذى علم لوالده دون مقيال بن الوزير سيد ، بحومة السوميل ، من عمل مدينة طليطلة (الخ) و فى آخر هذا الصك يقول هكذا : وليعلم أن الجنان المذكور هو الآن مبور ، ومقطوعة ثماره ، كان قطعوها المسلمون دمرهم الله . وذكر ذلك ليعلم بعد أن ألزمت نفسها ومالها دونة ديمنقه المذكورة دفع ابنها الفونش المذكور متى قام أو قام أحد عنه وأراد طلب المبتاعين شيء منه يدفعه عنهما بمالها .

و إليك هذا الصك يستدل منه القارىء على أحوال طليطلة فى ذلك العصر فهو يقول :

« اشترى القبشقول[1] دون جردان من دونه دونة بنت عبد الله بن يحيى جميع الدار التى لها بحومة القاعدة شنقته مريه ، داخل الدرب المشهور بدرب الارسبرست[2] دون نيقولاش ، و بداخل مدينة طليطلة حرسها الله ، ومنتهى حدودها فى الشرق اسطبل كان مسجداً فى القديم ، هو للارسبرست[3] دون بيطرو من طلبيره[4] ودار لورثة شُقْرُه[5] ، وفى الغرب دار كانت لورثة الايطي[6] ، هى الآن للمبتاع المذكور ، وفى القبلة دار لورثة البرنيطى[7] ، وفى الجوف الدرب المذكور ، والباب

وقد مر أيضاً أنه استعمل « الكروم » استعمال الكرم بالمفرد وعلى كل حال ليست جميع هذه الصكوك كتابة المدققين بالعربية وان كان منها ما هو بغاية الضبط

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Capiscol Don Jordan

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Arcipreste

(٣) هذه اللفظة أى « الارسبرست » بمعنى القسيس الاكبر تكتب أحيانا بالسين وأحيانا بالشين والغالب أن العرب كانوا يلفظون السين فى الاعلام الاسبانيولية شيناً ولكن قد يراعون فيها الأصل أحياناً فيلفظونها سيناً

(٤) Talavrra

(٥) Suegro

(٦) فى الترجمة الاسبانيولية Laiti

(٧) فى الترجمة الاسبانيولية Berniti

إليه شارع ، و بعض دويرة المسلم على ولد القلبق [١] الخ ، والشهود : قرشتو بل بن يليان ، ولورنس بن ديعنقه بن عمران . و بيطروه بن مرتين مستعرب .

وقد رأينا هذه اللفظة «مستعرب» مراراً فى هذه الصكوك ، واستدللنا بها على أن نصارى طليطلة كانوا قسمين قسم يقال لهم المستعربون ، وهم الذين كانوا يتكلمون ويكتبون و يقيمون صلواتهم باللغة العربية ، وقسم آخر كانوا يتكلمون و يكتبون بالأسبانيولية و يقيمون صلواتهم باللاتينية ، وهذا هو السبب فى أنهم عند كتابة الصكوك يميزون الأسبانيولى الذى لغته العربية بقولهم «مستعرب» وكذلك يذكرون عند وضع الشهادات لفظة « بالعربى » ولفظة « بالعجمى » لأن من الشهود من كان يكتب امضاءه بالعربى ومنهم من لم يعرف وضع امضائه بالعربى فيشيرون إلى أنه وضع بالعجمى

ومما نعرف منه اصطلاحاتهم مثل هذا الصك :

اشترى دون غونصالبه المكرّج بالة عدة شنته مريه كريطور المطران الأجل دون غونصالبه قدّس الله روحه . فلفظة « كريطور » هى ترجمة Criado بالاسبانيولية وهى لفظة معناها أشبه بمعنى شمس المعروف فى الشرق ، وهو الذي يخدم المطران . وفى هذا الصك ذكر رجل يقال له الدون مرتين المدوى المثناء . فأنت ترى فى كل مكان اختلاط الاسماء العربية بالأسماء الأسبانية

وانظر إلى صك آخر :

باع كونبانت [٢] القاعدة المعظمة شنته مريه أم النور . درّ كنا الله شفاعتها ، وأكرمهم . من دونة ديمقه بنت أبى الربيع سليمان بن عثمان ، التى كانت زوجاً لدون لب بن يحيى ، جميع الدار الخ .

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Galápago ومن هنا يعلم أنه كان لايزال مسلمون بطليطلة تحت النصارى من بعد ما استولى عليها الاسبانيول بقرن وقرنين وثلاثة وكانوا معروفين بأنهم مسلمون لأن اكراه المسلمين على النصر لم يقع إلا من القرن السادس عشر فصاعدا بعد سقوط غرناطة آخر سلطة اسلامية فى ذلك القطر

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Convento

وفى هذا الصك ذكر دار كانت للشقرشتان (١) ولأخته دونه اغطه .

و إليك هذا الصك :

اشترى رومان بن (٢) باطرو زور ير حفيد السمّاد ، لنفسه ولزوجه دونه أوره بونه ، ومن مالها جميعاً ، على اعترافه ، من دونه دِيَنقُة بن عبد الرحمن بن جابر (الخ) بحومة بال ذي قبش (٣) عمل طليطلة (الخ)

و يظهر أنه كان لليهود فى طليطلة شأن عظيم ، لأن الأسماء الاسرائيلية تدور كثيراً فى هذه الصكوك ، وفيها أسماء رجال لهم مقام اجتماعى نبيه ، مثل ماورد فى بعض الصكوك قوله :

« اشترى الوزير أبو هارون موسى بن الشحات الاسرائيلى أعزه الله من دونه غاليانه (الخ) .

وأما أهمية رجال الكنيسة فلا تخفى فى كل حرف من حروف هذه الكتابات ومنها يظهر أن أكثر الأملاك كانت لهم ، لأن أكثر البيع والشراء هومنهم و إليهم و إذا ورد ذكر أحدهم فبغاية التعظيم والاجلال ، مثل قوله فى كثير من الصكوك :

« اشترى المطران (٤) الأجل المقدّس الأفضل دمنُه مرتين لبّوس (٥) الذى

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Sacristán

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Román Huigo de Pedro El Cebrero, Nieto de Assamad ولا نعلم هل هذا الاسم مأخوذ من السماد أو هو محرف عن الصمد فانهم أحياناً يخطئون فيجعلون الصاد سينا كما مر بقولهم حومة « السوميل » وحقها أن تكون بالصاد « الصوميل » والصميل اسم عربى شهير هذا مع كون السين والصاد تقوم احداهما مقام الاخرى فى الفاظ كثيرة

(٣) فى الترجمة الاسبانيولية Valdecubas

(٤) فى الاسبانيولى Arzobispo

(٥) Martin Lopéz

لكرسى قاعدة طليطلة و برماطم أشبانية الخ » [١]

ولم تكن أسماء رجال الكنيسة كلها لاتينية بل من القسيسين من كانت أسماؤهم عربية ففى بعض الصكوك :

« اشترى القس دون لب بن تمام بن بحيط الذى من أئمة كنيسة شنت زوال [٢] من دونة توطه بنت دون لب دقترال [٣] جميع الدويرة التى صارت لها بالمطية من الدياقن دون مقايال دالبه [٤] رحمه الله بحومة كنيسة شنت يناس [٥] وبداخل مدينة طليطلة الخ . وفى بعض الصكوك مذكور القس الدون عبد العزيز من أئمة كنيسة شنتة لوفاديه الخ »

ومن الصكوك التى تستجلب النظر ما يلى :

« اشترى دون دمنقة بشكوال ، تربية المطران الأجل ، القديس الأفضل ، الحسيب الأكمل ، دون ردريقه شمنس [٦] وصل الله بركته ومن مال المطران المذكور ، وله و يده فيه عارية الخ »

ومثله :

« اشترى القونوق دون جوان دى ستفيله [٧] ، أعزه الله ، لمولانا المطران القديس الأفضل ، البرماط الأعدل ، دون رودريقه شمنس ، أدام الله نصره ، ومن مال

(١) Primado de Espana وهو الاسقف الاعظم لاسبانية ومن هنا يعلم أن معاملات الاسقف الأعظم نفسه كانت بالعربية حتى بعد استرداد الاسبان لطليطلة بزمن طويل

(٢) San Zoel

(٣) Toda Hija De Don Lope De Cotarel

(٤) Mical De Alba

(٥) San Gines

(٦) Rodrigo Giménez

(٧) De Setfila

المطران ، و يده فيه عاريّة بقوله ، من دونة مريه بنت حسين بن قرّون ، رحمه الله وأعزها ، جميع الملك المشهور لأبيها المذكور ، والحق لها بالارث عنه ، وهو بحايز قرى شسلة [١] مدينة طليطلة ، حرسها الله ، والمبيع الموصوف هو تحت كدية قرية المونسير [٢] ، و يقسم التخم مع القريه المونسير المذكورة ، ومع قريه بيله انتقوه (إلى أن يقول) دخل فى هذا المبيع كل الذى صح وصار لوالد البايعة المذكورة بالعطية عن الامبراطور الشريف [٣] مع ابنه السلطان المعظم دون شانجه ، رحمهما الله ، بالصك الكريم التى استظهرت البائمة المذكورة ودفعته للمبتاع المذكور اه .

ومثله :

« اشترى دون ر برت [٤] الافرنجى ، الذى هو الآن من ر بض الافرنج ، لنفسه ولزوجه دونه رواش [٥] سوية بينهما ، من دونه ديمنقه ، ومن اختها دونه مرتينه ، بنتى دون غليلن ، جميع الدار التى لها بحومة حمام يعيش ، من حومة البير المر ، داخل مدينة طليطلة الخ

والشهود : بيطروه بن اشتافن الربالى . وديمنقه اندراش ، ودون رجلد الافرنجى ودون غليلم طبلد ، من ر بض الافرنج ، و بيطرو نقولا البنّا ، وكتب عن كل واحد منهم اسمه عنه بأمرهم وحضرتهم وفليلز بن يحيى بن عبد الله

وهذا تأييد لكون الافرنج لم يزالوا بعد رجوع طليطلة إلى الأسبان كأنهم غرباء فيها . وفى صك من الصكوك يذكر مشتريين ثم يقول : بعد أن فسر عليهما

---

(١) Sisla

(٢) Almonasir

(٣) Emperador وهو الاذفونش السادس الذى تولى من سنة ١٠٧٢ إلى سنة ١١٠٩ ولقب نفسه بامبراطور اسبانية

(٤) فى الترجمة الاسبانيولية Roberto El Francés

(٥) فى الترجمة الاسبانيولية Raues

معانيه بلفظ أعجمى فهماه واعترفا بفهمه ، فى العشر الآخر من شهر أوغوشت سنة ست وخمسين ومائتين وألف للصفر .

ومما يستجلب النظر صك فيه :

« باع دون جوان رويس [١] بن دون رودريقهُ رويس ، أخ الأسقوف [٢] المعظم دون غرسيه رويس ، الذى على سقافة كرسى كونكة ، أدام الله كرامته الخ

ومما يستجلب النظر صك فيه :

اشترى المطران الأجل دون رودريقهُ شيمانس ريتاط أشبانية أطال الله مدة وأدام بقاءه ، من دون فرنندوه لبّوس بن دون لب فرنندس رحمه الله وأكرمه الخ .

ومثله :

« اشترى القَبِلْتَه [٣] المكرم من شنانير [٤] القاعدة العظمى ، شنته مريه ، دركنا الله شفاعتها الخ

ومما يستجلب النظر هذا الصك :

« اشترى أبو حسن على الشيري المسلم وزوجه عائشة بنت الدودري من الغيران وفقهم الله . على المناصفة بينهم ، من دونه أو راجونه ، تربيه القائد الأجل دون اشتابين الخ والتاريخ العشر الآخر من ينير سنة أربع وثمانين ومائتين وألف للصفر . ومن هذا التاريخ أيضاً يعلم أنه كان يوجد جماعة من المسلمين بطليطلة فى ذلك العصر

وهذا الصك :

« اشترى دون بيطرو رويس فارس ، من أتانس [٥] قائد الغَرْديه [٦] ،

---

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Guan Ruiz

(٢) فى الترجمة الاسبانيولية Obispo Deluenca وهى أى كونكة بلدة تقدم ذكرها فى هذا الكتاب كان فيها العرب وكانوا يقولون لها فونكة وأحياناً كونكة

(٣) فى الترجمة الاسبانيولية Cabildo وهو ذى رتبة فى الكنيسة

(٤) فى الترجمة الاسبانيولية Senares ومعناها السادات

(٥) فى الترجمة الاسبانيولية Atenas

(٦) فى الترجمة الاسبانيولية Guardia ومعناه الحرس

لمولانا الأليته [١] دون شانجه بن مولانا الأمير المعظم المرحوم فرننده عفا الله عنه الخ

وكان النصارى والمسلمون يبيعون الأسرى بالوثائق ، كما يظهر لك من الصك الآتى : باع مرتين غرسيه دى أبْرَه [٢] ، من أبو عمر بن الشيخ أبو سليمان بن أبي عمر ابن نحميش الاسرائيلى ، أسير واحد إسمه محمد بن ابراهيم القصلونى من غرناطة ، بيعاً تاماً ناجزاً ، بثمن مبلغه وعدده مائة وخمسة وأربعون مثقالا (إلى أن يقول) نقلا عن كتاب عجمى بشأن الأسير ، إن هـذا الأسير محمد أخرجه جوان ديمنقوس بالمناداة [٣] بقرطبة ، وتاريخه ألف وثلاثمائة وعشرة من تاريخ الصفر اه

وفى صك آخر :

باع غنصالُبه قاضى الحضرة أيده الله ، وقاضى بمدينة قرطبة ، وساكن بها ، من غنصالُبه بن الفونش بن الفونش بيطروس بن سربتوش أكرمه الله أسير واحد ، على الأسمر البنّا بن سعيد مملوك كان لغنصالبه رودريقهُ بمدينة قرطبة المذكورة بيعاً تاماً صحيحاً بثمن عدده أربعمائة مثقال كل مثقال خمسة عشر فرد من البيض الجارية ، الآن وهذا الأسير باعه البايع للمبتاع المذكور كما ذكر على يدى دلال الأسارى أبي عمر ابن اسرائيل الاسرائيلى الذى هو دلال الأسارى بطليطلة فى حادى وعشرين نونبر عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر

---

(١) فى الترجمة الاسبانيولية Eleito ومعناه المختار أو المنتخب

(٢) Martin de Garcia de Abra

(٣) المناداة هى فى الاصطلاح ان ينادى الدلال على البضاعة المعروضة للبيع حتى يقبل السامعون للنداء على شرائها وقد كان استعمال هذه اللفظة لهذا المعنى فى بغداد وجاءت بهذا المقام فى المقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذانى كما انها كانت مستعملة فى الأندلس وأخذها الاسبانيول فى جملة ما أخذوه من العربى الى لغتهم . واما الاسير المسلم محمد الذى بيع فى المناداة فى قرطبة فقد بيع فيها بعد استيلاء النصارى عليها

ومما يستوجب النظر الصك الآتى :

اشترت دونه مركاشه لابنها المدرّج[١] شانجه مرتينوس ، كاتب مولانا الملك المعظم ، دون شانجه أطال الله بقاءهم ، وخلّد ملكهم ، بمال ابنها المذكور ، الذى صار له بالعطية من مولانا الملك المذكور الخ .

وفى صك آخر يقول :

كاتب مولانا الملك المعظم الأعلى دون شانجهُ أطال الله بقاءهم ، وخلّد ملكهم وأيدهم ونصرهم ، ومن ماله المختص به الذى صار له من مولانا الملك المذكور الخ .

وهذا الصك :

اشترى مرتين شانجس قبدلَه[٢] القاعدة شنته مريه لنفسه ولزوجه مانقه بنت مرتين غونس ، سوية بينهما ، من قاسم البنّا بن محمد مملوك مولانا الملك المعظم دون شانجه ، أطال الله بقاءهم ، ومن زوجته فطومة الماشطة ، جميع الدار التى لهما بحومة بيرالمر الملاصقة بالفرن بها الخ .

وهذا الصك الذى فيه :

اشترى دون جوان بيطروس بن دون بيطروه يليان بن الوزير القاضى دون يليان أكرمه الله لنفسه ومن ماله ، من مريه بنت جوان النجار ، جميع الدار مع خمسة حوانت ، بحومة كنيسة شنت يوشت ، وقريب السكدية . بمدينة طليطلة حرسها الله ويلاصق ذلك كله من جوانبه وجهاته قاعة قرال ، هى لجماعة مسلمين طليطلة ، حيث تذبح الكباش ، ودار لجوان مرتين المدّار ، ودار لقنونقين شنته لوقادية لصق قصر مولانا الملك الخ ، والتاريخ سابع نونبر عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر اهـ .

قلنا ثبت من هنا أنه كان فى ذلك التاريخ جماعة من المسلمين فى طليطلة وهذا

---

(١) لقب من ألقاب الكنيسة

(٢) قبدله بمعنى خادم الكنيسة والقاعدة العظمى هى الكنيسة الكاتدرائية Catédrale

بعد سقوط طليطلة فى أيدى الاسبان بمائتين وخمسين سنة . وكانوا إلى ذلك الوقت يمارسون شعائر دينهم و يذبحون الكباش فى عيد الاضحى

وهذا الصك :

قاطع القونتق الأجل دون غشطين ، الذى من قونوتقين القاعدة العظمي شنته مر يه أم النور ، درَّكنا الله شفاعتها ، أسيرته ومملوكته المتنصرة سيسليه المسماة به بالمعمودية ، على حر ية نفسها منه ، بأر بعون مثقالا فونشياً صروفاً ، لتخدم سيسليه المذكورة بداخل مدينة طليطلة ، حرسها الله و باحوازها ، دون رقيب عليها ولاثقاف وتأخذ لنفسها جميع مايعود الله عليها من فايد وعايد ، قلّ به أم كثر ، وتؤدى له الفدية المذكورة ، كما يذكر بعد هذا ، فى كل شهر، شهر بعد آخر ، إلى أن تتم الفدية المذكورة و إذ ذلك تكون سيسليه المذكورة حرة كسائر حرائر النصرانيات أهل ملتها ، وما ينقص لها من شهر تكمله فى شهر ثان وثالث ، و إن لم يتكمل لها فى الشهر الثالث ، كما ذكر ، حاشى مرض بيّن يمنعها عن الفدية ، أو هر بت وخالطت قوم سوا ، أو وجدت فى سرقة أو خيانة ، فتخسر ما يكون منها مدفوعاً ، وتعود الأسر كما كانت الخ .

وتاريخ هذا الكتاب ديجمبر سنة تسع وسبعين ومائتين وألف اه ملخصاً

و يوجد صكوك أخرى فى موضوع شراء المسلمين لحريتهم [1] من ذلك مايلى :

قاطعت الابطيشة الجليلة دونة أو رابونة التى على راهبات ديرشنت قلمنت

---

(١) هذه الطريقة يقال لها فى الاسلام المكاتبة وهى ان يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه انه اذا ادى نجومه فى كل نجم كذا وكذا فهو حر فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه وذلك ان مولاه سوغه كسبه الذى هو فى الاصل لمولاه فالسيد مكاتب بكسر التاء والعبد مكاتب بفتحها اذا عقد عليه ما فارقه عليه من أداء المال . سميت مكاتبة لما يكتب للعبد على السيد من العتق إذا أدى مافورق عليه ، ولما يكتب للسيد على العبد من النجوم التى يؤديها فى محلها وأن له تعجيزه اذا عجز عن اداء نجم يحل عليه .

والبريورة [١] به ، دونه لوقاديه ودونه امونيه ، دام عزهن ، لأسيريهن ومملوكيهن عزوز ، ويعرف برود ريقه بن معمّر العربى ، واحمد اللوق ، على حريتهما منهن بخدمتهما جميع الغرس المعلوم للدير المذكور بحومة برالس ، فى حيّز قرية أوليش ، على أن يخدما الارض المذكورة مدة خمسة أعوام متوالية ، من تاريخ هذا الكتاب ، فى كل عام منها بالكشف والحفر والثنى والتثليث ، ويطيبا المواضع بقضبان الزرجون [٢] ، وعليها القيام بالزبار [٣] طول المدة . واذا قام المقاطعين المذكورين بالخدمة والعمارة حسبما وصف يصيران أحراراً كسائر أحرار المسلمين أهل ملتهما ، فى مالهم وعليهم ، وإن تهربا أو أحدهما فى طى المدة المذكورة ، أو عجزا عن اكمال القطيع الموصوف يخسرا ما يتقدم لهما ، ويردهما راهبات الدير للأسر كما كانا أولا . وتاريخ هذا الصك عشر نونبر عام خمسة وثمانين ومائتين وألف للصفر اه .

ومثله صك آخر للابطيشة المذكورة بحق أسرى مسلمين هم : محمد المنارى ولد

---

(١) La Priora وهى وظيفة فى الدير

(٢) الزرجون جمع زرجونة وهو قضيب الكرم ويقال له الشكير وجاء فى المخصص لابن سيده عن ابن قتيبة ان الزرجون آت من الفارسية وانه فيها زركون بالكاف ومعناه الصفرة كلون الذهب وهذه اللفظة معروفة فى سورية ومنها جاءت الى الاندلس

(٣) هو تقليم الكرم وهى لفظة معروفة فى سورية بهذا المعنى يقال زبر فلان كرمه وقد وصلت الى الأندلس من أهل الشام والحال انه ليس فى كتب اللغة هذه اللفظة بهذا المعنى بل فى اللغة زبر البئر زبراً طواها بالحجارة وكذلك زبرت الكتاب قرأته وزبرته كتبته وقيل انه النقش فى الحجارة . والزبور الكتاب المزبور . والمزبر هو القلم . ثم ان الزبر يأتى بمعنى الزجر ولم نجد فى ما راجعناه من كتب اللغة فعل زبر بمعنى قطع وانما فسروا قوله تعالى (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) بان الزبر هى القطع جمع زبرة وهى مثل قوله تعالى (آتونى زبر الحديد) اى قطع الحديد وفى بلادنا لبنان يقولون للنجل زوبر وليست فى كتب اللغة بهذا المعنى وانما هى فى اللغة : الداهية فلعل هذا المعنى لهذه المادة دخل الى العربية الشامية من احدى اللغات السامية التى كانت فى الشام قبل الفتح

القنّان ، واحمد الذى كان لدون ميقائيل دى رنالش ، وعمر بزارة ، يعرف بابن احمد ابن جامع الصنهاجى ، وعلى الرمنقارة الغمارى على حرية أنفسهم ، وذلك بالخدمة مدة ثمانية أعوام متوالية فى جميع الكرم المعلوم بحومة قرية أوليش ، (إلى أن يقول) وان هربوا أجمع أو أحدهم ، أو خالطوا قوم سوا ، أو وجدوا فى سرقة ، يخسروا ما يكون لهم ويرجعون للأسر الخ ، وتاريخه ست وثمانون ومائتان وألف .

ومثل ذلك هذا الصك :

قاطعت الجليلة دونة قلنبة ابنة الوزير الأجل دون غطار فرنندس أدام الله عزتها مع يعيش الخياط بن احمد الغرناطى ، على حرية أسيرتها أم الهدى الجلياقية ، بمائتين مثقال فنشية وثمانية مثاقيل ونصف ، صرف خمسة عشر ديناراً كل مثقال ، ليبتنى يعيش المذكور بأم الهدى المذكورة ، ويتخذها زوجته ، ويخدمان بطليطلة فى الذى يليق بهما دون رقيب عليهما ولا ثقاف ، ويأخذان لأنفسهما فائدهما وعائدهما قل أم كثر ، ويؤديان الفدية المذكورة ، وذلك مثقالين اثنين كل شهر ، (إلى أن يقول) وإن لم يتكمل لها ذلك بتمام الشهر الثالث ، حاشا مرض بيّن يمنعهما عن الخدمة ، أو هربا جميعاً أو خالطا قوماً سوا ، أو باتا بخارج طليطلة بغير أمرها ، أو شرب يعيش المذكور خمراً [1] ، يخسران ما يتقدم لهما مدفوعا ، وترجع أم الهدى للأسر كما كانت أولا ، ويؤدى يعيش الفدية على التنجيم ، وإن عجز عن التأدية فقد فُوِّض للجليلة دونه قلنبة التقبض على جسمه ، ولا تسرحه إلا اذا أنصفها ، وعليه أن يهدى لها فى كل عيد من ثلاثة أعيادها هدية ، دون عذر ولا تأخير ، وأن يخيط لها [2] بدون أجرة لنفسها خاصة دون غيرها . وتاريخ هذا الصك ديجمبر عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف .

---

(١) من النكت اللذيذة ان هذه الدونة النصرانية تشترط على رقيقها يعيش المسلم ان لا يشرب خمرا وان شرب يرد الى الاسر

(٢) لأنه خياط كما تقدم

ثم ضمن يعيش المذكور على بن على الفبري بخمسة مثاقيل ، وابراهيم بن يحيي خمسة مثاقيل ، وزينب ابنة الحاج خمسة مثاقيل ، وقاسم بن احمد الحضرمى الاشبيلى خمسة مثاقيل ، ولب بن نصر القزاز خمسة مثاقيل ، وابنة سليمان التى كانت لابن يعيش خمسة مثاقيل ، وميمونة ابنة يحيي اللمطى خمسة مثاقيل ، وابنة عبد الحق الانصارى من مجريط[1] خمسة مثاقيل ، وفاطمة ابنة احمد الانصارى من وبذة[2] خمسة مثاقيل وابن مفرّج من مرشانة[3] مقاطع[4] ابى يوسف يعقوب البرجلونى اربعة مثاقيل ومحمد ابن احمد بن غرْغل الخيّاط مقاطع اسحق الشنتربنى خمسة مثاقيل ومحمد عبد الرحمن الصفار مقاطع ربى بن قفاجة ثلاثة مثاقيل ، ويوسف ابن حسن الفهارى القزاز مقاطع روبس بن دون روى ثلاثة مثاقيل ، وعلى بن يوسف البهلى ثلاثة مثاقيل ، وفاطمة ابنة محمد مقاطعة امشابجة الحكيم أربعة مثاقيل ، وابراهيم ابن مالك الفران مقاطع ربى قسيم السوفر خمسة مثاقيل ، وابراهيم بن عمر الاشبيلى مقاطع ابى اسحق بن الصباغ مثقالين ، وحسين الصباغ بن على الاشبيلى مقاطع ابى الربيع بن صدوق مثقالين . فضمن المذكورون ماذكر عنهم فى يعيش المذكور لسيدته المذكورة ، وذلك على شرط انه إن يهرب يعيش فى طى القطيع فوقه[5] ولم يحضروه لها فعليهم غرم ما ضمنوه فيه لها .

وهناك صك مقاطعة لراهبة بدير شنت قمنت لمملوكتها فطيمة بنت عمر على النحو المتقدم .

ومما يستجاب النظر ، ويطلع به القارىء على اصطلاحات النصارى فى مايكتبونه بالعربية فى ذلك الوقت هذا الصك :

كتاب معاوضة صحيحة تكيفت باسم الله تعالى وحسن عونه بين الكمندتور[6]

---

(١) Madrid (٢) Ubda ويقال لها ابذة أيضاً

(٣) Marcina (٤) مقاطع اى مكاتب بالفتح

(٥) اى اعلاه (٦) Comanador

دون جيل الذي هو الآن كندتور دار شنت ياقب [١] للاصبيطال [٢]، وعلى حبوسات الرتبة الافرايرية [٣] بها و بين الابطيشة الجليلة دون سيسيلية التى على دير شنت قلمنت أنعام الله الخ .

ولما كان اليهود فى كل مكان وكل زمان يتعاملون بالدّين ، فنى هذه المجموعة صور مئات من السندات المالية أكثرها لهم نذكر منها بعض أمثلة : للأمين أبى الحسن زيزه بن ربى بن أبى يوسف أعزه الله ، قِبَل دون بطرو البرقنطى ، وقِبَل زوجه لبّه وفى مالها وذمتهما ، وعلى جميع أملاكهما وأحوالهما كلها حيث كانت وعلمت لهما دَيْنا لازما وحقا واجباً ، سبعة مثاقيل ونصف ذهباً فنشياً الخ

ومثال آخر : لأبى سرور فرج بن أبى عمران مرال الاسرائيلى ، قِبَل دون غرسيه غليالم شبرين القُنُنق [٤] دون غرسيه الذى كان من قاعدة شنته مريه وهو بعل مريه لنبرت [٥] من ربض الافرنج دينا لازما اثنى عشر مثقالا وثمان فونشية لانصافه من ذلك شهرين اثنين تاريخ هذا الـكتاب ، وداخل ضامن غارم عنه فى ذلك الدون دعنقُه انطاين الباطير بن دون انطاين ، من ربض الأفرنج ، و إن كانت قلمية فى ذلك فيكون عليهما على مالها ، فى تاسع يوم من شهر مارس سنة تسع وخمسين ومائتين للصفر اهـ . وتحته الشهود

ومثال آخر : لأبى عمر بن الشيخ أبى سليمان بن أبى عمر بن نحميش الاسرائيلى قِبَل الوزير دون بيطروه يواش ، وقبل زوجه الجليلة دونه طريشة [٦] بنت الوزير القاضى دون جوان بونش أعزهما الله ، واجب خمسون مثقالا فونشياً لينصفاه دَينه

---

(١) Santiago (٢) Hospital

(٣) الرهبان وفى المغرب يقولون لهم افرايريلية وهى محرفة عن افرايرية واصل معناها الاخوان

(٤) Canonigos فى الترجمة الاسبانيولية

(٥) Lonbert (٦) Thérésa

يوم فصح شنت ميقائيل الآتى لتاريخه ، و إن عجزوا عن انصافه إذ ذلك يغرّما له قوط رباعى كل يوم يجوز بعد الأمد المذكور ، و إن طلبا منه يعيّز يغرّما له قوط خمسة مثاقيل ، و بظهور هذا الكتاب و بعد فسره عليهما فى رابع وعشرين ابريل عام ستةوثمانين ومائتين وألف للصفر اه . ثم الشهود

وفى هذه المجموعة صكوك من أنواع متعددة ، منها وصايا ، ومنها رهون ومنها مصالحات ، ومنها صكوك شركات ، ومنها مزارعات ، وما أشبه ذلك . لنذكر منها صك مزارعة على سبيل المثال ، وهو هذا :

أنزل القس ماير دمنقُه المستعربى من كنيسة شنت مارتين ليوان فرنندس فى الأرض المعلومة له بحومة جبل حمارة ، عمل طليطلة حرسها الله ، حدها فى الشرق غرس بيطرو مرتينس ، وفى الغرب أرض بيضا ، وفى القبلة رأس جبل حمارة المذكور ، وفى الجوف غرس غنصالُبه الجزّار ، فى أرض القس المذكور بالمناصفة ، وذلك بشرط يأتي ذكره بعد هذا ، ليغترسها يوان المذكور بقضيب الزرجون ، و يعتمر بالزبر والحفر والثنا فى كل عام ، مدة خمسة أعوام ، أولها تاريخ هذا الكتاب . . . . . الأعوام المذكور ينقسم الغرس على ثلاثة أثلاث ، يأخذ صاحب الأرض الثلث الواحد يأخذه الخيار فى أحد الجانبين ، والمغترس الثلثين متصلين عن اغتراسه واعتماره . فى أول شهر مارس من سبعة وتسعين ومائة وألف من تاريخ الصفر اه .

وهذا الاصطلاح بقولهم « انزل » فلان لفلان فى الأرض الفلانية على شرط كذا وكذا مستفيض فى هذه الصكوك

ومن غريب هذه الصكوك صك ما يتضمن استرهان الأسارى والتعامل بهم كأنهم من جملة الأموال : أشهد دون مرتين فرنندس القرمادي بن دون فرنندو القرمادى وفقهما الله على نفسه شاهداً آخر هذا الكتاب أنه قبض الآن من أبى الحسن بن يامن بن أبى اسحاق البرجلونى الاسرائيلى أعزه الله الثلاثة اسارى الذين استرهنهم لدونه أورابونه زوج فيدلقُه عن دَينه المترتب له قِبَلها ، وهم الأسارى

سليمان الذى كان لدون ميقاييل خريبش ، وعبد الله اللوشى الكوسيج [١]، ويوسف الغازى الصغير ، الذين قيمتهم خمسون مثقالا فونشياً ، صرفاً طيباً ، وصارت عنده الأسارى المذكورين . و فى ملكه ، وعلى شرط وربط أن يصرفهم لأبى الحسن بن يامن المذكور ، متى ما يطالبه بهم . ويدوم أخذهم منه على كل حال من الأحوال ، وإن عجز عن احضارهم له عندمايطالبه بهم فليغرّم له قيمتهم الخسين مثقالا . سادس عشر أوكطوبر عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف للصفر . ثم الشهود اه .

ومن الصكوك المتعلقة بأسارى المسلمين مايأتى :

ضمن للابداشة [٢] الجليلة دونه لوقاديه فرنندس التى على راهبات دير شنت قلمنت ، ادام الله كرامتها وجه أسيرها احمد بن يوسف الرحوى الأسمر من يوسف والد المضمون أحمد المذكور ومريم ابنة محمد زوجة يوسف والدة أحمد المضمون ويوسف بن محمد المعروف الشقيق ، ضمان وجه واحضار ، على شرط أن يمشى أحمد المضمون المذكور مسرّحاً من الثقاف من الآن لتمام أربعة أعوام . فان هرب في طيّ الأعوام المذكورة ولم يحضروه لسيدته المذكورة على الحلول من هروبه ، فعلى الضُمّان المذكورين غرم مئة مثقال فنشية ، صرف كل مثقال منها خمسة عشر ديناراً ، وعلى المضمون المذكور أن يعطى اسيدته الابطيشة المذكورة فى كل شهر طول

---

(١) الكوسج بفتح السين الذى لحيته على ذقنه لا على عارضيه وهى لفظة فارسية وهو فى العربى الأثط ولقد كتبوها هنا بياء وهوخطأ ولكن الأندلسيين كانوا يتكلمون بالامالة ويقولون للحكم مثلا « الحكم » بالكسر وللامام الأوزاعى الامام «الأوزيعى» ويقولون « سنه » بكسر السين والنون بدلا من « سنة » بفتحهما ولفظهم هذا أشبه بلفظنا نحن فى بر الشام ويقولون « زمان » بكسر أوله ويقولون « فرقد » بكسر القاف ويقولون « كتيب » أى « كتاب » ويقولون « برى » بكسر الباء بدلا من « برّى » بالفتح ويقولون « خمسمية » كما نقول نحن فى سورية لا خمسماية وهلم جرا

(٢) بالترجمة الاسبانيوليه Abadasa ولعلها الابطيشة التي مر ذكرها أو تقرب منها ومعناها ظاهر وهو الراهبة الكبرى

الأربعة الأعوام المذكورة مثقالا واحداً ، شهراً بعد آخر إلى تمام الأربعة أعوام ، دون مطل ولا تسويف بوجه ، وفى الشهر الذى يعجز المضمون المذكور عن آداء المشاهرة المذكورة فعلى الضُمّان المذكورين إحضاره لسيدته المذكورة أو يغرّموا لها المشاهرة المذكورة ، وإن عجزوا عن غرم المائة مثقال المذكورة أو عن المشاهرة المذكورة ، فقد فوضوا له وللمستظهر بهذا الرسم التقبض عليهم وتثقفهم فى ثقافها ، ولا تسرحهم منه إلا إذا أنصفوها من الضمّان المذكورين من الجائز عليهم من المشاهرة المذكورة ، دون أمر حاكم بوجه من الوجوه . فى العشر الاوسط من شهر ديجمبر سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف للصفر . والشهود : محمد بن عبد الرحمن ابن محمد ، وعلى بن يحيى بن محمد الانصارى

ومثله صك تضمن به عائشة ابنة احمد السكونى ، زوج داود الأسمر بن سليمان ، أسير دون غنصالبُه الفونش بن دون الفونش بيطروس سر باتش [1] وذلك زوجها المذكور داود ، ضمان وجه واحضار ، على شرط أن يتمشى الاسير داود و يتصرف فى أشغال سيده ، حيث يأمره بالحاضرة والبادية ، فان هرب ولم تحضره زوجته فقد فوضت له التقبض عليها ، وتثقيفها فى ثقافه بدون أمر حاكم . وتاريخ هذا الصك الخامس والعشرون من شهر يونيو من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف للصفر ، وشهوده احمد بن محمد بن احمد الأنصارى ومحمد بن عبدالرحمن بن محمد

ومثله ضمان نزهة بنت سعيد الاوريولى [2] ، ووالدتها عايشة بنت سعيد الحداد من لورقة [3] . وجه زوجها احمد الحداد بن على ، نحو سيده دون غنصالبُه الذى مر ذكره ، ضمان وجه و إحضار . و إن هرب المضمون فتغرّم نزهة وعايشة خمسمائة مثقال من البيض . وتاريخ هذا الصك حادى عشر يونيو عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة

(١) Servatus

(٢) نسبة الى اوريولة Orihoala

(٣) Lorca

وألف ، وشهوده : على بن أحمد بن حسن بن عبد الله الأنصارى وعلى بن قاسم بن علي بن الصيقل الانصارى [١]

ومثله :

اعترفت شمسى [٢] بنت لب الفخار المعروف الغزيل [٣] و بنت عائشة المعروفة الروبية اعترافا صادقا أنها تضمنت وجه زوجها شعيب الرحوى بن محمد المعروف بالمطيرش وحفيد غالب السمار نحو المطران الأعز الأكرم دون غتار غومس [٤] ضمان وجه واحضار على النمط الذى تقدم ، وتاريخ هذا الصك الخامس والعشرون من شهر ابريل عام ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف ، وشهوده : أحمد بن على بن محمد ، ويوسف ابن قاسم بن يوسف الانصارى وابراهيم بن أحمد بن ابراهيم .

وهنا صك وقف يجدر بالنظر :

وقف الدياقن مرتين من كنيسة شنت مرية أم النور بطليطلة حرسها الله ، فى مجلس القضاء أنماه الله بالدوام ، بين يدى الوزير القائد عمران ، وفقه الله ، عن تقدم الوزير الجليل القاضى الأعلى ، أبى الحسن حاتم ابن حاتم ، أدام الله توفيقه وتسديده وذكر ان الشنيور يوان رودميروس فى أيام حكمه الحضرة المذكورة ، أمر لشانجة قرلون بدار بحومة القاعدة المذكورة ، وحازها وسكن فيها ، إلى مدة وفاته ، فى خدمة السلطان واستظهر بعقد بذلك ، فأعذر إلى الدياقن المذكور ليستظهر بكتاب من

---

(١) يكثر ذكر « الأنصارى » فى عرب طليطلة وهو يؤيد ما روى من كون اكثر قبائل الاوس والخزرج لأول فتح الأندلس نزلت فى طليطلة و نواحيها

(٢) يلزم أن تكون «شمسه» ولكن الأندلسيين يتكلمون بالامالة كما قلنا فالكاتب كتب الاسم بحسب ما كان يلفظ عندهم وقال « شمسى » والآن فى سورية يلفظون « شمسه » كأنها « شمسى » الا فى أماكن معلومة لا يتكلم أهلها بالامالة

(٣) حقها ان تكون « الغزال » ولكن الامالة الأندلسية جعلتها « الغزيل » وفى الترجمة الأسبانية Algazil

(٤) Gitierre Gomez

الشنيور المذكور ، إذ لا مقنع فى العقد ، فرغب الى الوزيرين الجليلين القاضى الأعلى أبى الحسن حاتم ، وصاحب المدينة زيد بن حارث [١] . أعزهما الله ، ليتفضلا عليه بخطاب منهما ومن القونشلى [٢] أبقاهم الله ، إلى الشنيور المذكور . فأذنى له بذلك ، ثم بعد ذلك أحضر الدياقن عند من وفقه الله مرتين [٣] الناظر ، و بيطره ناغروه [٤] و برمندة بلاييس و بيطره بلاييس [٥] ، وخلف بن رزق ، وعبد الله بن ماضى وشهدوا عنده فى مجلس نظره ، و بمحضر من الحاكم مرتين غرسيس ، انهم أشهدهم الشنيور يوان رودميروس و بأيديهم خطاب لطينى [٦] الى الوزير الجليل القاضى الأعلى أبى الحسن حاتم ، والوزير الجليل صاحب المدينة أبى زيد بن حارث ، أعزهما الله فى الدارين ، اللتين قلت لى أنا أعطيت الواحدة لشابجة ، والأخرى لميقايبل ، فثبت عندهما ، وفقهما الله ، ذلك وأمضياه ، وأنزلا الدياقن المذكور في الدار . وتاريخ هذا الصك شهر مايو سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف لتاريخ الصفر . ومنه يعلم أنه فى ذلك التاريخ أى بعد أخذ الاسبانيول لطيطلة بنحو من مائة وسبعين سنة كان يوجد فيها قضاة من العرب أو المستعربين ، وكان صاحب المدينة أيضاً منهم .

ومن الصكوك التى استرعت نظرنا حكم يتعلق بصدقات الامبراطور الاذفونش السادس جاء فيه :

فلما وقف الوزير القاضى المذكور مع من ينزل اسمه أسفل هذا ، من أهل الشورى مع اسمه أدام الله عز جميعهم ، على جميع ما تقدم ذكرهم ، من احتجاجها ، وعلم ما استظهر به كل واحد منهما ، من فوائد وأصول ما بيده ظهر لهم دام عزهم أن الامبراطور قدس الله روحه تصدق بما كان له فى القرية المذكورة على الدير المذكور

---

(١) كان العرب يسمون والى البلدة من قبل السلطان بصاحب المدينة

(٢) فى النص الاسبانى Concilio

(٣) Martin (٤) Negro (٥) Pelayz

(٦) أى لاتينى العبارة

(إلى أن يقول) ولما يعلم علماً صحيحاً ان أغلب قرى مدينة طليطلة حرسها الله لم تصر لأربابها المالكين الآن لها إلا بعطية . . . أو بعطية من تقدّمه من سلفه الشريف الكريم رضى الله عنهم جميعهم دام عزهم ، أن يحلوا القرية المذكورة محل غيرها من القرى المعطاة من عندهم ، رضى الله عنهم فأوجبوا حكما منهم من السنّة للدير المذكور لتكون له مالا وملكا على مقتضى الملك العزيز المؤرخ المذكور ، وكل استدعاء استظهر به المتكلم عن ورثة عبد الملك بن هارون رحمه الله وأكرمهم اسقطوها لوجوه كثيرة اه . وفى الآخر يقول : وفى الأصل الذي انتسخت هذه النسخة منه أسماء الحكام أهل الشورى الذين حضروا الحكم المذكور وأمضوه أعز الله جميعهم . بخط عجمى: اغوغنصالبة[١] أرسبيسبو طولاطانة برماط اسبانية[٢] و بخط عجمى: اغوديمنقش ارجيديا قُنش مجريط . و بخط عجمى : اغوجرنانش برشبتر طولطانش كونفورم[٣] . و بخط أعجمى : اغو بطروش ديس القائد كونفورم . و بخط عربى : سلمون بن على ابن وعيد . وخير بن شلمون بن على بن وعيد . وخالد بن سليان بن غض بن شر بند و بخط عربى : انا فالحتش الأسقف لكورة لبلة [٤] خيرها الله ، و يوشاب الارجقش ابن منصور حضر ذلك . و يوشتبش القس بن عبد الملك و باطره بن عمر بن غالب ابن القلاس . اشتابن بن يليانس .

انتهت النسخة وذلك فى شهر ابريل عام اربعة وعشرين ومائتين وألف للصفر.

عمر بن عبد الرحمن ، و يوسف بن عبد العزيز ، ومرتين بن حسن ابن عبد العزيز الخ .

و يوجد جم من الاحكام على هذا النسق و يظهر ان ملكتهم فى العربية

(١) Ego أى أنا
(٢) اسقف اسبانية الأعظم
(٣) Conforme أى مطابق
(٤) Niebla

أخذت تضعف بمرور الأيام فتجد صكوكا وأحكاماً كثيرة ملأى من الخطأ واللحن مثلا :

كانت قرية دار الخازن من قرى الحاضرة طليطلة حرسها الله من إمام المسلمين معطلة الناعورة ومشرعها واقفة ، فوقع اتفاق أهل القرية المذكورة من المدرّجين[1] ليعمروها ، وإقامة ما وهى منها ، وتجديد ما عهد لها ، وكان بها حبسان أرض بيضا للكنيسى شنت لو قادية الخارجة عن الحاضرة المذكورة ، وشنت مرتين بها عرض المدرّجون واللايقون على الخدام بالكنيستين المذكورتين ، عرضهم فى إقامة الناعورة وتجديد ما وهى منها ، فادعوا عندهم بقلة ذات اليد من أنفسهم ، ومن رسوم الكنيستين ، فرأى المتقدمون بالذكر اعراض ذلك ثانية على المطران الفاضل دِمِنْه برنندُه ، كفيل البيعة المقدسة أدام الله توفيقه وتسديده لما إليه تفويض الحبسان ، والنظر من الديارات ، وانه رأس الامامة بالقاعدة شنت مرية ، أم النور بالحاضرة طليطلة أدام الله حمايتها فظهر إليه ومن حضر قعدودته[2] من أئمة النظر فى ذلك ، وأمر العالى أمره أن يعطى هذين الحبسين لمن يعتمرهما باسم المساقاة إلى مدة الخ

وهذا كتاب صلح :

هـذا كتاب وقع الاصطلاح عليه ، وجرى الاقتصار اليه ، مابين هند بنت جبران وبنى أخيها الوزير مايرتمام رحمه الله غرسيه وأولياليه ومريه ، على ما يأتى ذكره بعد هذا ، وذلك أن يعطى غرسيه لهند عمته المذكورة جميع حصته فى جنان أبيه المخلّف له ولأخته المذكورين المعروف بعهد المسلمين بجنة الحنشى ، بربض طليطلة وبحومة مرج القاضى الخ .

---

(١) تتكرر كثيراً فى هذه الصكوك لفظة « المدرج » و « المدرجين » وفى الترجمة الأسبانية التى بازاء الأصل العربى تفسر بلفظة Racionero

(٢) هكذا وجدنا هذه اللفظة والاشبه أن تكون محرفة وأن تكون « قعودته » فالقعودة هى المجلس وأما القعدودة فلم نجدها

ومن الوثائق التى اطلعنا عليها عقود أنكحة كالذى يلى :

كتاب إيجاب واختطاب ، وعقد نكاح وارتباط ، أمر بعقده والاشهاد على نفسه بجميع مافيه دون ديمنقُه بيطريس حين مراهقة[1] الخاتمين ، و بذل المربانين[2] بعد تقديسهما بينه و بين دونه لوقادية التى كانت زوجاً لدون رودريقُه دِ مرسيه عن بنتهما دونه يوشته البكر التى فى حجرها ، وتحت ولاية نطقها ، لتكون دونه يوشته المذكورة لهذا دون ديمنقه بطريس المذكور زوجاً سنيّة ، وصاحبة مرضية ، كالذى توجبه الشريعة المنتوليقية ، وتحطعليهالديانة الحوارية ، وعلىأنهذا دونديمنهبيطرس المذكور أوجب لخطيبته المذكور عن الأزدواج بها بيمن الله مهراً لها عشر جميع ماله أثاثاً وعقاراً ، حيث كان ، واين علم ، وعلى أن ينقدها أيضاً عند الابتناء بها هدية موهو به لها . وذلك خلدى[3] ، وفنك[4] ، و رداء ، وقناع ، وخف ، وجورب ، تفعل فى جميعه بحول الله عند ذلك ما وافقها كفعل ذى المال فى ماله ، وجميع ما يكتسباه الخطيبان المذكوران من وقت ازدواجهما فانه يكون بينهما سوية بالمناصفة والاعتدال إن شاء الله ، والتزم الخطيب المذكور احضار الهدية المتقدمة الذكر ، والانفاذ بها لخطيبته المذكورة ، عند الابتناء بها بيمن الله وتوفيقه . والتزم المتاهران المذكوران أيضاً إكمال ذلك كله بحول الله بعد أن قبض كل واحد من

---

(١) المراهقة المقاربة

(٢) العربان والعربون بضم أولها والعربون بفتح الأول والثانى هو ما عقد به المبايعة من الثمن أو هو ان يعطى المشترى شيئاً من الثمن أو المستأجر شيئاً من الايجار ثم يقول ان تم العقد احتسبنا وان لم يتم فما أخذته هو لك . ونحن فى الشام نقول العربون والعامة تقلبه فتقول الرعبون . ويظهر ان الأندلسيين استعملوا العربان وهو صحيح فصيح ومن العادة فى الزواج عند النصارى ان يتعاطى العروسان الخواتم والعربون أو العربان وهذا قبل البناء

(٣) فى النص الاسبانيولى Unos Pendiantes

(٤) فى النص الاسبانيولى Una Alfanega colcha

الخطيبين خاتم ثابتة عرباناً لما وقع الاتفاق عليه ، والارتباط إليه ، بتأييد الله ، مما ذكر فوق هذا ، بعد المعرفة منهما بقدر ما ارتبط اليه المتماهرين المذكورين ، على سنة النصارى فى ازدواجهم الجيّاز عندهم ، بعد أن أعلمت الدونه يوشتة المذكورة بذلك كله ، ورضيت به ، وأشهدته أيضاً به على نفسها ، وذلك فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس سنة ثلاثة وعشرين ومائتين وألف للصفر ، ووقع الاشهاد اليوم الخامس والعشرين من الشهر المذكور .

ومن الوثائق التى يستدل منها على رسوخ الثقافة العربية فى طليطلة صك وصية للقس ماير(١) عبد العزيز بن سهيل يقول فيه :

لما مرض القس ماير عبد العزيز بن سهيل رحمه الله المرض الذى توفى منه أمر بكتب وصيته و إنفاذ متضمنها على أيدى النايه (٢) القس ومايرِ قرشتبول من شنت مرتين ، ويحيى بن عبد الكريم ونسخة الوصية كذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به القس ماير عبد العزيز بن سهيل ، وهو بحال الصحة والجواز والطواعية ، مؤمن بالأب والابن والروح القدس إله واحد ، وبالشنلة (٣) الذى هو وثيقة الايمان وبالأناجيل الأربعة ، وبما أمر به الحواريون ، والآباء المقدسون ، فأوصى إن حدث به حدث الموت أن يعطى للوفادية الساكنة معه ، والخادمة له ، جبل الغرس الذى عند الطريق ، بدار الخازن ، وثلث الزرع ، وسبعة مثاقيل مرابطية عن دويرة كذا (إلى أن يقول) : وما يبقى يعطى عن روحه لقسيسين أو ثلاثة من أصحابه عن أربعين مدّة ، وما بقى يعطي للمساكين ، وعن لبان للكنائس ، وكرم الفندرى يكون باقياً فى أيدى الأوصياء وما قام فيه يخرج منه بما يُخدم . وما فاض يكون منه خمسين ربعاً والغير يكون منه الثلث فى زيت ولبان وحطب ، والثلث

---

(١) Mair (٢) Annaye (٣) El - Simbolo

الثانى للأسرى ، والثالث للمساكين . وجعل هذه الوصية والعمل بها إلى يحيى قرمانُه ، والقس دون قرشتو بل ، والقس النايه . ليكملوا ذلك حسب ماوصفه . ومن مات منهم يترك من يقوم مقامه عن خدمة الكرم . وكتب فى يوم الثلاثة الثامن من شهر ديجمبر من عام ثلاثة وستين ومئة وألف . فأنفذ الأوصياء جميع ما أمر به فى هذه الوصية ، وما أمر به فى الكرم المعلوم له بدار الخازن . وقد يفسر فيها . فلما بقى الكرم بأيدى الأوصياء مدة ثلاثة أعوام ، واعتمروه عمارة جيدة ، لم يكن فيه فائد للشرائع والأسرى والمساكين ، حسب ما كان ظنه الموصى رحمه الله واعتقده فيه ، فلما صح عند الوزير القاضى أبى الاصبغ بن لنبطار(1) وفقه الله ، قلة فائدته ، وأنه على غير ماظنه الموصى فاعتقده فيه ، أخذ فى ذلك مع من وجب الأخذ معه فيه ، من كبار مدينة طليطلة من المدرّجين والمستعربين والقشتيليين ، فرأى الوزير القاضى المذكور معهم أحباس الكرم المذكور على قاعدة شنته مرية ، بحضرة طليطلة ، أدخلنا الله فى شفاعتها ، لما ظهر إليهم من قلة الفائد العائد إليها ، وكثرة مؤنها بعد رغبة جميعهم إلى الأوصياء ، والتحامل عليهم فى ذلك ، فاسعفوا الرغبة ، وصح احباس الكرم المذكور ، على القاعدة المذكورة عن شرط على أهل القاعدة ، أن يكون اسم القس ماير عبد العزيز بن منصور رحمه الله فى جملة أسماء القونقين المتوفين بالقاعدة المذكورة حسب رتبهم وسيرهم الخ ، وتاريخ هذه الوصية مع حكم القاضى شهر يوليوه من سنة سبع وستين ومئة وألف . وبعد ذلك الشهود منهم من هو وضع شهادته بالعربى ومنهم من هو واضع شهادته بالأسبانى

وهذه وصية ثانية :

هذا ما أوصى به وعهد بتنفيذه ، حسب ما يأتى الذكر فيه الوزير القاضى دومنقهُ انطولين ، أعزه الله وهو عليل فى جسمه وثابت فى عقله وذهنه مؤمن بالأب

---

(1) L' Elgiacil Y Alcald Abulasbag Ben Almpader

والابن والروح القدس الله واحد ، ومعتقد بما بشر به الحواريون ، ووصفه الأنبياء المختارون ، خشية الموت، وحلول الفوت ، الذى لابد منه ، ولا محيص لأحد خلق الله عنه ، فأول ما أمر به شفاه الله أن يمثل بعد عينه إن توفاه الله تعالى ، أن يزين على أقباره حين دفنه ، ومدة الثلاثة أيام بجميع أئمة البلد من أهل الكنائس بعد اندابهم بمن حف بهم من أساقفة ومدرجين ، على حسب رتبهم ، و إن كان المطران حاضراً فيندب ، وله الأجر والثواب إن يحضر و يزين مع من حضر مدة الثلاثة أيام المذكورة ، و بعد الثلاثة أيام فليستمر مدرجين كنيسة شنته لوفاضية ، التى داخل المدينة بالتزيين إلى تمام تسعة أيام . وأمر أن يعطى المطران الأجل أكرمه الله خمسة مثاقيل ، وللأسقف دومنه يوانس المرشانى مثقال وللاسقف دومنه فلقيس مثقال فينا الخ ، و بعد أن عدد جميع ما أراد الايصاء به بالتدقيق من عقار ولباس وطعام ومال صامت وناطق ، ذكر بأن يخرج جميع ما ذكر من ثمن غنمه و بقره ودوابه ، ورما كه وخنازيره ، ومن مانتاتى ومن الكاس الصغير الفضة ، وأمر أن يعطى ليوان مستعرب الكاب ، وما يبقى بعد هذا كله يكون لأخته دونه مريه و بنتيها

وفى وصية أخرى للمسماة دونه لوقادية بنت يوانش ، بعد ذكر الديباجة المصطلح عليها فى أول الوصايا ، وذكر جميع ما أرادت توزيعه على الكنائس والقسوس والصواحبات تقول : وأمرت أن تكون الأسيرة عائشة التى لها فيه النصف ترد نصرانية إن هى شاءت وتنصف دون غرشيه عن نصفيته من ثمنها بما اشتريت ، والنصفية خمسة مثاقيل من مالها ، وتكون حرّة من أحرار النصارى فيما لهم وعليهم ، تصير حيث تشاء وتهوى ، بعد أن تخدم لدون غرسية عام واحد لاغير .

وقرأت فى وصية أخرى من دونه قرشتينة بنت اندراش بعد الايصاء للكنائس وللقسيسين وللأصحاب ولذوى القرابة مايلى :

وعهدت الموصية المذكورة فى أسيرتها مريم زوج عبد الله القزّاز ، أن تكون حرة من أحرار المسلمين فى ما لهم وعليهم ، عن عشرة مثاقيل ذهباً فنشياً ، كانت

الموصية المذكورة قد قبضتها باعترافها من عبد الله القزاز زوجها المذكور . ولذلك انقطع عن مريم المذكورة حبل الرق ، فتملك مريم المذكورة نفسها ، تنهض حيث تشاء الخ .

وفى أكثر هذه الوصايا يذكر شيء من المال لفكاك أسرى النصارى ، فقد كانت الحالة عندهم كما عند المسلمين ، فأصحاب الخير والاحسان ، ولا سيما النساء من المسلمين ، كانوا يوصون بجانب من أموالهم لفكاك أسرى المسلمين فى بلاد النصارى وكذلك أهل الخير من النصارى ، ولا سيما النساء ، كانوا يوصون بشطر من أموالهم لفكاك أسرى النصارى فى بلاد المسلمين . قرأت فى وصية المسمى دون رودريقة شلبطورس بن دون شلبطور بن الوزير دون يوان ميقاليس مايلى :

أمر أن يزين عليه فى كفنه ، وأيام زيارة قبره ، ودفنه ، فى جميع ما احتاج إليه بما يقوم فى ذلك ويليق بمثله ، ويكون دفنه فى قبر والده دون شلبطور المذكور ، بالقاعدة شنته مريه ، وأمر للقانونقين بها عن دفنه بها ، وعن أن يذكروه فى صلواتهم ، عشرين مثقالا . وأمر عن ميشات [1] عن روحه مفرقة على أئمة كنائيس الحضرة مئة مثقال ، وأمر عن فك أسارى النصارى العمال فى أسر المسلمين خمسمائة مثقال ، وأمر عن قبلانية [2] بالقاعدة شنته مرية ثلاثمائة مثقال ، على شرط أن يقدس ميشة كل يوم عن روحه ، لمدى الدهر ، فى هيكل من هيا كل القاعدة المذكورة ، ويضع انفشاريوه [3] كل عام عن روحه قانونقين القاعدة المذكورة ، كما العوائد وبذلك يصبح لهم القبلانية ، يعنى الثلاثمائة مثقال المذكورة ، وأمر لمعلمه ومعرّفه القس دون شانجه ، من كنيسة شنت يوانس ، عشرة مثقالات ، على أن يقدس

---

(١) جمع ميشة وهى ما يقول له نصارى الشرق القدّاس

(٢) خدمة كنسية

(٣) هو ما نسميه بالحول وبالافرنسية Anniversaire

مدى عام ميشات عن روحه . وفى آخر الوصية بعد ذكر الخيرات كلها يقول :

وقيد فيه عن أمره على يدى والدته ، دونه ستى المذكورة ، ثقة منه بديانتها وحسن أمانتها ، أنها تفعل فى ذلك كله فعل من يعلم أن الله لايخفى عليه خافية فى سماواته وأرضه ، والتاريخ شهر يونوه سنة تسع وأربعين ومائتين للصفر

وفى وصية للدون ملندُه فرنندس ابن الوزير القاضى يقول : فأول ما أمر به أن يعطى لمعلمه القس جوان مثقالا واحداً ، ويحل عن روحه الفين ميشه ويخرج أيضاً من بلاد الاسلام أسير بالغ مابلغ بعشرين مثقالا .

وفى وصية للدون غنصالبُه خل تاريخها شهر اوكتوبر سنة اثنين وسبعين ومائتين وألف . أمر متى توفاه الله ان يعلم ما له كله ، أصله ومتحركه ، أثاثاً وعقاراً ، دقه وجلده ، جامده ومتخاخله ، ويخرج منه عن خمسمائة مثقال فونشية ، وتبذل عن روحه ، الى أن يقول : ويعطى في استفكاك أسارى من بلاد الاسلام ستين مثقالا الخ

وفى وصية للدون بطره شانجه من جماعة شنت رمان ، وصهر دون جوان اشتا ابن دى البقال ، يقول من جملة وصايا عدة : وأمر لرتبة افرايرين قلعة رباح مائة مثقال فونشية على شرط ان يدفنوه الافريرين منها هنا بطليطلة بشنته فليج ، ويزينوا عليه كما لو كان افرايرى منهم ، وأمر بان يفك زوج نصارى اسيرين فى بلاد الاسلام بما يقوم فى ذلك

ومن أطول الوصايا التى اطلعنا عليها فى هذه المجموعة وصية المسمى الدون الفونش[1] متاوش بن دون متاوش بن دون ميقال بن فرون ، أمر بانه متى توفى يعلم ماله كله ، قليله وكثيره ، ويبذل عن روحه فى سبيل الله ، وأن يزين منه عليه فى دفنه وكفنه بما يليق لمثله ، ويكون كفنه من الصوف أرخص ما يوجد للشراء ، ويوقد عليه زوج قناديل ، يكون زيتهما ربع واحد فقط ، وزوج قناديل أخرى صغار . توقد حيث

---

(١) Alfonso Mateos

يكون جثمانه ، ودفنه يكون بكنيسة شنتة لوقادية ، بقبر جده ، ويزين عليه لتمام الخسين يوماً ، ولتمام العام ، وتكون القناديل لذلك مثل القناديل المذكورة ، ويقدس عليه مشيتين فى كل يوم من يوم دفنه إلى السابع يوم ، ويفرق على المساكين في كل يوم طول السبعة أيام مثقال وأمر أن يبتاعوا أوصياؤه المذكورين بعد هذا ملكا بمائتين أو ديار بمائة وثمانون مثقالا ، وتحبسها زوجه دونه ميورى طول حياتها ويعمل من فائدها قبلانية عن روح الموصى المذكور تقديس ميشة واحدة فى كل يوم للأبد ، وتعمل منه نفرشاريه [١] واحد عن روح الموصى فى كل عام ، ثم أخذ فى توزيع تركته على وارثيه ، وعلى من أراد أن يتصدق عليهم ، وعلى الكنائس والرهابين ، وحبس أملاكا لوارثيه أن يستغلوها ، بدون أن يكون لهم حق بالبيع ، وجعل شطراً كبيراً من ثروته لزوجته دونه ميورى ، وأيضاً الاماء الست اللاتى كن له ثم قال : والمسلمتين الباقيتين من مسلماتها تبقى لانصاف الوصية ، ولا يعترض أحد خلق الله لدونه ميورى ، والستة إماء المذكورات بوجه قال فى هذه الوصية : وميز الموصى المذكور أن نبّون المسلم والجعفر بن الجعفرين ، وابراهيم الاحول والاسمر والاعرج المسمى دومنقه روبيّوه وبكر ، انهم لزوجه دونه ميورى صارو لها باتراث عن أبويها ولها أيضاً فى خاصتها احمدوج السقا ، ابتاعته من مالها المختص بها وقاسم وعلى هما للموصى ولزوجه دونه ميورى ، الحظ الذى فيهما للموصى يباع ويبدل ثمنه فى انصاف هذه الوصية ، وقطيع مريم وفطّوش الباقى منه هو لدونه ميورى ، ويكون لها فى خاصتها اهـ . نقلنا ذلك لأجل اطلاع القارىء على كيفية معاملة الاسبانيول لأسرى المسلمين ، وتاريخ هذه الوصية سادس مايو عام ستة وثلاثمائة للصفر .

ثم اطلعنا على وصية للدونه متاية [٢] زوج الدون غنصالبه البطلير ساكنه بربض الافرنج من طليطلة نصها : بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد وحده . هذا ما أوصت

---

(١) Anniversaire بالافرنسية

(٢) Matia

به دونه متايه الخ وتاريخ هذه الوصية سادس ديجمبر عام عشرين وثلاثمائة وألف للصفر . وفى تاريخ ١١٩١ صك يقول فيه :

اشترى يحي بن محمد الانصارى ، من دون غليان القس ، لزوجه هند بنت عبد الرحمن ابن محمد ، جميع الحجرة التى بقرب كنيسة امنيوم شنتوروم ، بمدينة طليطلة ، حرسها الله ، حد هذه الحجرة فى الشرق قرال لورثة دينقه اياس ، وفى الغرب طريق فيه خرج الحجرة المذكورة ، واليه يشرع بابها ، وفى الجوف دار ولد الشقية المسلم ، وفى القبلة قرال لورثة دينقه إياس ، بثمن مبلغه عشرة مثاقيل من الذهب الطيب البيادى الخ .

وفى آخر المجموعة صكوك ووثائق خاصة باليهود ، تجد منها سطراً بالعربية ، وسطراً آخر بالعبرية ، ولا حرج أن يهود طليطلة كان لهم شأن عظيم يستدل عليه من كثرة الوثائق المتعلقة بهم ، ومنها سندات لا تحصى لهم على نبلاء النصارى بأموال وافرة . فقد كانوا هم المرابين فى تلك الحضرة ونواحيها ، وكان عددهم كبيراً ، ومن شاهد كنيس اليهود [١] الذى شاهدته أنا بنفسي فى مدينة طليطلة ، وهو الذى يعد من أنفس نفائس الصنعة العربية ، ولا يذهب سائح إلى طليطلة إلا ويشاهده ، علم

(١) الكنيس المذكور بنى فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر وقيل ان الوزير صموئيل لاوى هو الذى قام بنفقة بنائه ، وكان فى طليطلة عدة كنس لليهود لكثرة عددهم فيها وأحدها حوله الأسبان الى كنيسة باسم « صان رومان » اما ظن « توما تامايو بركاش Toma Tamayo De Vargas ان كنيسة « صانتا مارية البيضا » أصلها كنيس لليهود وانه معبد قديم لهم وسابق لعهد النصرانية وانه كان فى طليطلة جالية يهودية لعهد المسيح انفرد احبارها بعدم استحسان الحكم عليه الى غير ذلك فيترجح كونه تخرصاً وأحاديث ملفقة وربما كان بعض اليهود اخترعوا تلك الرواية من بعد ، رامين بها الى الزلفى لدى الاسبانيول بعد ان ملكوا البلد . وعلى كل حال فليس فى كنيسة « صانتا ماريه » المذكورة ادنى شبه مع هندسة معابد اليهود بل كلها طرز عربى بحت ان كان فى أقواسها أو فى نقش حيطانها أو فى زليجها أو فى تقسيمها وقد بنيت فى القرن الثالث عشر مكان جامع كان تداعى الى الخراب

مكانة اليهود المادية والمعنوية فى تلك الحاضرة[١] ، وكانت لهم أيضاً بجانبهما مكانة علمية أدبية ، إذ نبغ منهم العلماء والادباء ، وكانوا هم أكثر القائمين بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والاسبانية ، بحيث انه بواسطتهم انتشرت علوم العرب فى أوربة فى القرون الوسطى . ولذلك قيل ان أوربة لم تعرف علوم يونان رأساً ، وانما عرفتها بواسطة العرب .

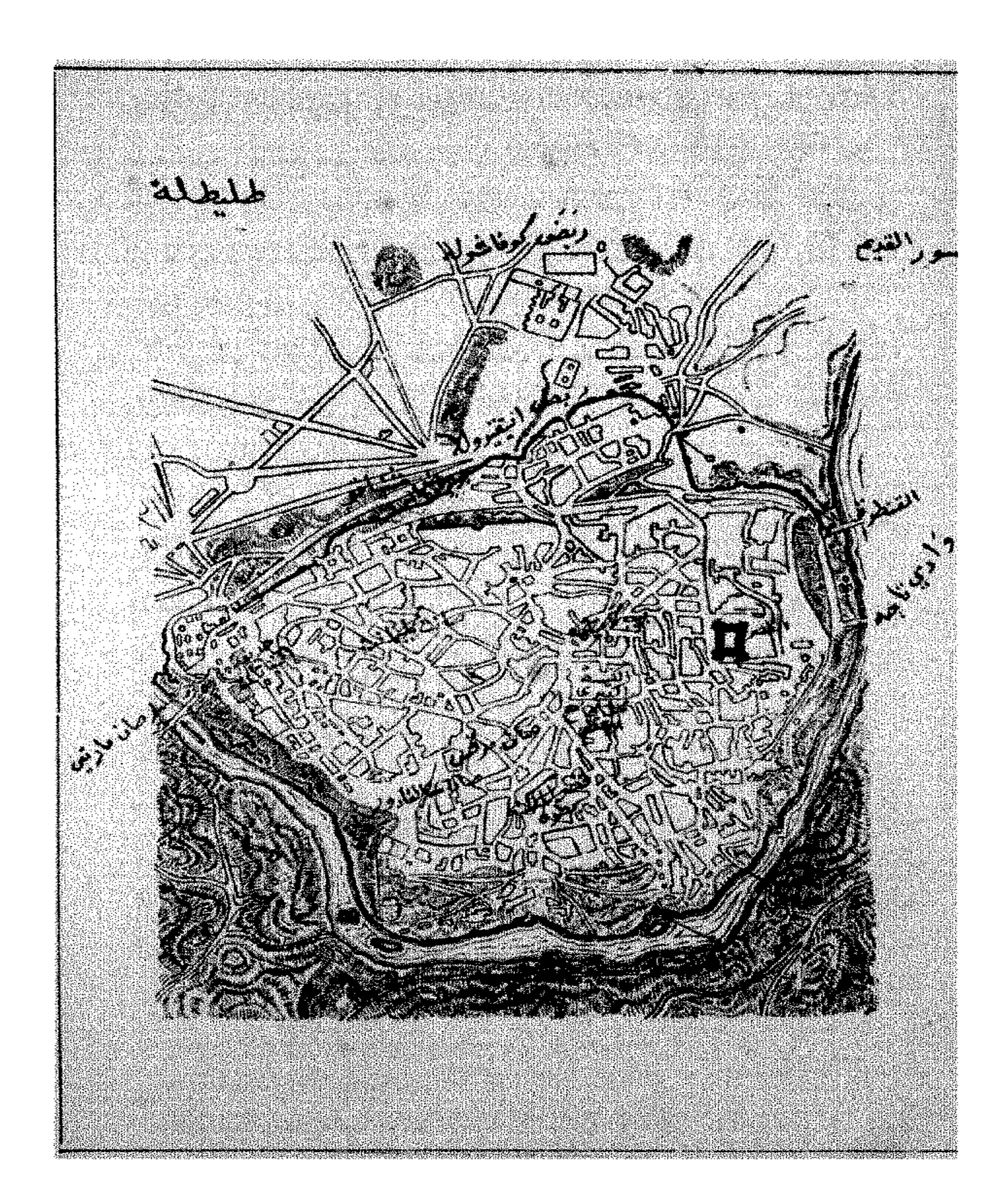
فلم يخطىء الذين قالوا إن طليطلة كانت واسطة التعارف بين الشرق والغرب ، وان العالمين الاسلامى والمسيحى قد تلاقيا فيها . وقال المسيو جوسه P. Jousset صاحب جغرافية أسبانية والبرتغال المصورة :

ان الرسوبات البشرية التى ثبتت فى طليطلة ، قد جعلت من هذه المدينة متحفاً حقيقياً ، لا متحفاً كالمتاحف المعتادة ، التى يجمع أصحابها فيها الآثار النادرة ، جمعاً مصطنعاً حتى يأتى الناس و يطلعوا عليها ، ولكنه متحف حقيقى أوجدتهأعصر تبلغ عشرين قرناً ، وكل منها ترك أثراً فى طليطلة ومن زار أسبانية ولم يزر طليطلة فيعود كانه لم يعرف أسبانية . فهى مدينة أصيلة ثابتة بارزة ، ليس فيها شىء من المعتاد المألوف الذى ملته الأنفس ، بل كل مافيها أصل جليل يهم الآثارى والمتفنن . وهى وحدها تستحق سياحة السائح الى أسبانية . ومدخلها قنطرة ذات قوس واحد على نهر تاجُه وعلى هذه القنطرة برج مكتوب عليه أن النهر طغى ، فهدم الجسر ، فرممه الاذفونش ، الملقب بالحكيم سنة ١٢٥٢ . ثم اكمل تجديده بريماط أسبانية المطران تينوريو Tenorio سنة ١٣٨٠

وكان هذا الجسر من زمان العرب ، بل يظن انه كان من قبلهم . وقد نقل « سلازار دو مندوسه » Salazar de Mendoza الكتابة العربية التى كانت

---

(١) وكان منهم عند ملوك الأسبانيول وزراء وكتاب ، وكان صموئيل لاوى ناظر الخزانة عند الطاغية بطرس الملقب بالصارم ، ونفذت كلمته عنده كثيرا وان كان قتله فى الآخر


طليطلة
ربض كوفاغولا
سور القديم
ربض انتيقورو
القنطرة
وادي تاجه
صان مارتين

مزبورة على الحجر فى هذا الجسر : الله اكبر والصلاة والسلام على جميع من آمن بالله ورسوله محمد [١] ونقل الكونت دوموراه de Mora كتابة أخرى مدفونة فى باطن الجسر هى هذه : « بنى هذا الجسر بامر ملك طليطلة المظم محمد سويد المجاشعى بطليطلة حرسها الله وانتهى سنة ٢٠٤ للهجرة » [٢]

وجاء فى نفح الطيب : وطليطلة قاعدة ملك القوطيين، وهي مطلة على نهر تاجُه ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحدة ، تكنفه فرجتان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعاً . وخربت أيام الامير محمد ، لما عصى عليه أهلها ، فغزاهم ، واحتال فى هدمها . »

قلنا : أما هذه القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها فلا يمكن أن تكون القنطرة الحالية ، لأن هذه ليست بهذه المظمة التى ذكروها ، وان كانت جليلة فى ذاتها . وهذه ذات قوس كبيرة واحدة ، مع أخرى صغيرة . وقد كانت القنطرة العربية فى مكانها ، ولكن الوادى عند ما طغى ذهب بها ، فرممها الاذفنش الملقب بالحكيم [٣] ثم ان تنوريو الأسقف الأعظم برماط أسبانية ، اكمل تجديد البناء كما مر

وعلى هذه القنطرة برج مبنى من سنة ١٤٨٤ ، وتمثال للقديس « سان [٤] ايلدفونس » وكتابة من زمن فيليب الثانى . وعلى الضفة اليسرى من نهر تاجه بقايا حصن سان «سرفنده» أو شربند ، كما يقول العرب والفئة المستعربة من الاسبانيول . وهو حصن كان بناه على ذلك الجبل الاذفونش السادس ، فاتح طليطلة ، الذى فى

(١) نقلنا هذا عن جغرافية أسبانية والبرتغال المصورة تأليف جوسة Jousset ولم نطلع على الأصل العربى لهذه العبارة

(٢) لم نعثر على أصل هذه الكتابة بالعربى وانما نقول انها غير ممكنة بهذا الشكل . ونحن نرويها عن جغرافية أسبانية والبرتغال لجوسه Jousset

(٣) Alphonse le Sage

(٤) Ildefonse

أيامه بدأ انهيار دولة الاسلام في الاندلس . ومن جسر طليطلة الى محطة السكة الحديدية مسافة يشرف منها السائح على منظر بديع ، والى الشمال الشرقي من المحطة يوجد بقايا حصن عربي قديم يقال له اليوم قصر « عاليانه » [1]

فأما أسوار طليطلة فهي موصوفة بالمنعة ومن رأى طليطلة يقول إنها لا تحتاج إلى أسوار ، لمنعة موقعها الطبيعي ، ولكثرة ما فيها من غور ونجد ، فهي في هذا المعنى أشبه بمدينة لوزان في سويسرة ، لا يكاد يجد فيها الإنسان مساحة مسطحة . تزيد على ٢٠٠ متر بل ترى الماشي فيها يصعد وينزل أبداً ، وربما كانت طليطلة تفوق لوزان في قلة الاستواء ، فان أكثر شوارعها لا تسير فيها العربات ، ولهذا تقل المركبات في طليطلة ، والناس تنقل أشياءها على الدواب . فكيفما توجهت في طليطلة تجد جر الأثقال ضربا من المحال .

ورغم هذا فان الملوك الغابرين قد أحكموا أسوارها ، وجعلوها طبقاً عن طبق ، فجمعت بين المنعتين الطبيعية والصناعية .

ومما لا نزاع فيه أنه مع كل ما بنى فيها الاسبانيول على أيدي مهندسين من الفرنسيس والألمان والطليان ، وما بثوا فيها من الكنائس والأديار والمستشفيات والمدارس وما عنوا بتغيير شكلها العربي ، لا تزال المسحة العربية عامة على هذه البلدة ، في ضيق الشوارع ، وقلة نوافذ البيوت ، وسعة الدور الداخلية ، وحصانة الأبواب ، وغير ذلك من أساليب العرب في البناء ، ولا تجد الرهبان والراهبات مقيمين في أديار هي على الطراز العربي إلا في طليطلة . وقد نقل دايل بديكر كلمة في حق طليطلة عن الكاتب الافرنسي المشهور « تيوفيل غوتيه » [2] هي هذه ، وقد أبدع وصفها : « طليطلة فيها من الدير ، ومن السجن ، ومن القلعة ، ومن الحرم الاسلامي ، وذلك لأن العرب مروا بها » . نعم فيها من الدير لكثرة ما شاد الاسبانيول

---

(١) Palacio de Galiana

(٢) Theophile Gautier

فيها من المعاهد الدينية تغطية لآثار العرب وفيها من السجن لما يشاهد من الوثاقة والمتانة فى مبانيها . وفيها من القامة لكثرة أسوارها ولمنعة مكانها الطبيعى وفيها من الحرم لأن بيوتها الأصلية هى بيوت عربية كسائر بيوت العرب فى الدنيا

وأعظم بنية فى طليطلة هى الكنيسة الكبرى التى يقول لها المستعربون «القاعدة» وهى على اسم مريم العذراء عليها السلام ، وفيها مذابح رومانية ، ومذابح نصف عربية وهى فى الحقيقة بيعة عظيمة بمنتهى الفخامة ، تعد من الدرجة الأولى في كنائس العالم وموقعها بحذاء الأكمة التى عليها القصر Alcazar

ويقول المؤرخون عن تاريخ هذه الكنيسة انه فى زمن ريكاريد القوطى تشيدت سنة ٥٨٧ كنيسة باسم العذراء . لا تزال هناك كتابة تدل عليها وكان بجانبها دار أسقفية أقام بها القديسون أوجين ، و إيلاد ، و إلديفونس ، و يايان . وفي سنة ٧١٢ ب . م . عند ما فتح العرب طليطلة حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد ، وكانت لهم المسجد الجامع [1] ، وبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٠٨٥ التى فيها استولى

(١) كان فى هذا المسجد الجامع حوض أمر ببنائه الظافر بن ذى النون سنة ٤٢٣ وقد وجدت كتابة على بلاطة رخام بالخط الكوفى البارز هذا نصها بعد البسملة : أمر الظافر ذو الرئاستين أبو محمد اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون اطال الله أيامه ببنيان هذا الجب بجامع طليطلة حرسها الله فتم بعون الله فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة . وقد ظهر من هذه الكتابة التى نقلها لاوى بروفنسال ان الظافر المذكور تولى طليطلة بطلب من أهلها قبل التاريخ الذى ذكره المؤرخون فقد قالوا انه جاء خلفاً ليعيش بن محمد بن يعيش سنة ٤٢٧ والحال ان هذه الكتابة مؤرخة سنة ٤٢٣ فهى تصرح بكون الظافر بن ذى النون هو الذى أمر ببناء هذا الحوض اذ اصطلح الأندلسيون على تسمية الحوض بالجب . وأما لقب ذى الرئاستين فقد لقب الظافر نفسه به حتى يعلو عن لقب ذى الوزارتين الذى كان لقبه به الخليفة الأموى . وقد وجدت كتابة ثانية فى طليطلة نصها : مما أمر بعمله الظافر ذو الرئاستين اسماعيل بن ذى النون فى سنة تسع وعشرين واربعمائة

الأذفونش السادس على طليطلة صلحاً بعد حصار طويل [١]

---

(١) نحب أن نذكر هنا ما قاله دوزى R. Dozy المستشرق الهولاندى الشهير فى كتابه : تاريخ مسلمى أسبانية Histoire Des Musulmans En espagne وهو ملخصاً : « ان القادر بن ذى النون كان فرض على أهل طليطلة مبالغ وافرة من المال فأدوها اليه وقدمها للاذفنش . فقال له الامبراطور : (لان الاذفنش السادس كان سمى نفسه بذلك) هذا لا يكفى . فقدم له القادر ذخائر أبيه وجده . فقال له : وهذا أيضاً لا يكفى . فقال له القادر : انى حاضر لاعطائك فوق هذا لكن على أن تمطنى مهلة . فقال له الأذفنش : انى بمهلك على شرط أن تسلمنى أيضاً حصونا تكون رهناً عندى . فرضى القادر بهذا الشرط اذ لم يكن له قدرة على الامتناع فكان مضطراً أن يرضى بكل شىء وكان يرى سيف الاذفونش معلقاً فوق رأسه لا يستطيع أن يخالفه فكان يدفع المال بعد المال ويخلى الحصون بعد الحصون ولأجل ارضاء الامبراطور يفرض المغارم الثقيلة على رعيته التى بدأت تهاجر الى مملكة سرقسطة . وكان الأذفونش كلما ازداد القادر طاعة له يزداد عتواً فانتهى الأمر بان فرغت يد القادر فجاء الأذفونش واكتسح ارباض طليطلة فحاول القادر أن يدافع عن عرشه لكنه رأى نفسه عاجزاً فعرض على الاذفونش تسليمه طليطلة تحت شروط وهى ان الاذفونش يتعهد بتأمين أهالى طليطلة على أموالهم ودمائهم ومن شاء منهم الهجرة هاجر ومن شاء الاقامة أقام وانه لايفرض عليهم الا غرامة واحدة مقررة من قبل وان المسجد الاعظم يبقى للمسلمين وان الاذفونش يساعد القادر على ملك بلنسية

فرضى الأمبراطور بهذه الشروط وفى ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ دخل الأذفونش طليطلة وقد بلغ من العظمة ما ليس له حد وما لا يساويه إلا ما بلغه أمراء المسلمين وقتئذ من الدناءة فاقبلوا عليه من كل فج يقدمون له الهدايا ويعرضون طاعتهم ويعلنونه أنهم ليسوا أكثر من جباة عنده فتسمى الأذفونش بملك الملتين وكان يكتب ذلك فى مناشيره ولم يكن يخفى احتقاره لأمراء الاسلام . ولما جاء حسام الدولة بن رزين يهنىء الأذفونش بفتح طليطلة مقدماً له نفائس الهدايا كان عند الأذفونش قرد يلعب أمامه فأنعم عليه به ورجع حسام الدولة مفتخراً بأن الأمبراطور أنعم عليه بقرد وعد ذلك من أعظم النعم . وكان فى بلنسية ولدا عبد العزيز يتنازعان ملكها وكان فيها حزب ثالث يريد تمليك صاحب سرقسطة وحزب رابع يميل إلى القادر بن ذى النون وقد

وكان المسلمون قد اشترطوا لأجل تسليم البلدة بقاء المسجد الجامع لهم ورضى

كان هذا يظاهره جيش قشتالة تحت قيادة (الفارفانيس) Alvar Fanez وكان البلنسيون مضطرين أن يقدموا ميرة هذا الجيش وكانت تكلفهم ستمائة ذهب فى النهار فقالوا للقادر إنهم فى غير حاجة إلى هذا الجيش حتى يطيعوه فلم يسمع القادر كلامهم لأنه كان يعلم أنهم لا يحبونه فاستبقى القشتاليين فى بلنسية استظهارا بهم وفرض على أهلها وأهالى ملحقاتها غرامات منقضة للظهور وبلص الأعيان من أموالهم ومع هذا فلم يقدر أن يقوم بكل ما يتطلبه القشتاليون فعرض عليهم أن يقطعهم أراضى فى مملكة بلنسية فرضوا بذلك وتملكوا القرى ولكنهم لم يقوموا على حرثها بأنفسهم بل جعلوا فيها زراعاً يحرثونها لهم واستمروا يشنون الغارات على الأطراف وانضم إلى الجيش القشتالى جماعة من غوغاء العرب ومن العبيد ومن الأشقياء أصحاب السوابق فى الاعتداء وقطع السابلة وارتد هؤلاء عن الاسلام وأخذوا يفعلون الأفاعيل التى لم يسمع بمثلها فكانوا يسفكون الدماء ويهتكون أعراض النساء وربما باعوا الأسير المسلم بزق خمر أو برغيف من خبز أو بقطعة من حوت وكانوا يمثلون بمن يمتنع عن إعطائهم مايريدون فيقطعون لسانه أو يفقأون أعينه أو يلقون به للكلاب المفترسة لتأكله . فكانت بلنسية وقتئذ فى الحقيقة ملكا للأذفونش ولو كان القادر بن ذى النون ملكا عليها فى الظاهر ، وكانت سرقسطة أيضاً تحت حصار الامبراطور وقد أقسم أن يفتحها ، وكان هناك القائد القشتالى غرسية شيميناس بجماعة من فرسانه يشن الغارات على المرية وكان صاحب غرناطة فى المقيم المقعد أيضا مع القشتاليين . وفى ربيع سنة ١٠٨٥ نازل القشتاليون أهل غرناطة فى عقر دارهم ووقع الرعب فى قلوب المسلمين حتى صار الخمسة منهم لا يقومون لواحد من النصارى ووجد فى إحدى المرار أربعمائة جندى من المرية وكانوا من نخبة الجند فهربوا من وجه ثمانين قشتاليا فعم اليأس جميع المسلمين ورأوا أنه لم يبق أمامهم إلا إحدى خطتين ، إما الرحيل عن أوطانهم ، وإما الدخول فى طاعة النصارى ، وبقيت خطة ثالثة وهى استصراخ المرابطين من إفريقية . ثم ذكر دوزى كيف دعا المعتمد بن عباد يوسف بن تاشفين لانقاذ الأندلس ولما ذكر له ولده الرشيد ما فى ذلك من الخطر عليهم أجابه أنه لم يبق أمامنا إلا إحدى هاتين الخطتين إما أن نخضع لحكم النصارى وإما أن نرضى بولاية المرابطين وإنى أفضل أن أرعى الجمال فى إفريقية على أن أرعى الخنازير فى قشتالة وسيأتى ذكر ذلك تفصيلا فى باب التاريخ .

الأذفونش بذلك . قال ابن بسام . لما توالت على أهل طليطلة الفتن المظلمة والحوادث المصطلمة وترادف عليهم البلاء والجلاء ، واستباح الفرنج لعنهم الله تعالى ، أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب النوادر الدالة على الخذلان ان الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها فلما كانت السنة التي استولى عليها العدو فيها ، لم ترفع الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد . فعلم الناس أن ذلك بمشيئة الله تعالى ، لامر أراده ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى العدو على طليطلة ، وأنزل من بها على حكمه . وخرج ابن ذي النون منها على أقبح صورة وأفظع سيرة ، ورآه الناس و بيده أسطرلاب . يأخذ به وقتاً يرحل فيه . فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون .

و بسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون بذلك ما لا يطاق حمله . وشرع في تغيير الجامع كنيسة في ربيع الأول سنة ست وسبعين وار بعمائة .

ومما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامى رحمه الله تعالى صار إلى الجامع وصلى فيه ، وأمر مريداً له بالقراءة . ووافاه الفرنج ، لعنهم الله تعالى ، وتكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته ، وعصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة ، وسجد سجدة ، ورفع رأسه و بكى على الجامع بكاء شديداً ، وخرج ولم يعرض له أحد بمكروه اه .

قلنا إن الأسبان كانوا يعلمون أن تلك الساعة هي الساعة الأخيرة للجامع فصبروا على هذا الشيخ الجليل حتى أتمها بآخر عبادة اسلامية فيها

وفي ١١ أغسطس ١٢٢٧ جعل ملك أسبانية ، الذي يقولون له القديس فرديناند هذه البنيَّة دكا ، حتى يبنى مكانها بيعة على الطراز القوطى ، الذي منه كنائس شمالى فرنسة ، وجنوبى ألمانية ، وانتدب المهندس الافرنسى بطرس بترى ، الذي بقى متولياً إدارة تشييدها مدة تزيد على خمسين سنة ، وبعد وفاته عمل فيها مهندسون

آخرون ، أشهرهم رودريقه الفونسُه ، وجوان غواس ، والبير غومس ، ومرتين شانجس وغيرهم ، فالعمل فيها لم ينقطع مدة طويلة ، وهي قائمة على خمسة صفوف من الاساطين وطولها ١٢٠ متراً وأربعون سنتيمتراً ، وعرضها ٥٩ متراً و ١٣ سنتيمتراً و بناؤها من الحجر المحبب ، إلا أن نقوشها الخارجية والداخلية هي في الحجر الكلسي ، ولايضارعها في أسبانية إلا كنيسة اشبيلية من بعض الوجوه وكنيسة طليطلة أطول من كنيسة اشبيلية بعشرة أمتار إلا أن كنيسة اشبيلية أعلى بعشرة أمتار . ومزايا كنيسة طليطلة على كنيسة اشبيلية هي في تناسب الأقسام و بداعة الزخرف وتخريم المذبح الأعظم ، حتى كأنه قطعة من العاج المخرّم المرصع .

ولا عجب ، فقد بقي العمل في القاعدة العظمى ، بحسب قولهم ، مدة ثلاثة قرون ولها ثمانية أبواب ، أكثرها من الأعاجيب . وهي أبواب الغرب التي لايفتحونها ، مقتصرين على الباب الجنوبي المسمى بباب الاسود ، والباب الجوفي المسمى بباب الساعة ، الذي يشرع من جهة المدينة العليا . وفيها عدة مذابح ، منها مذبح نصف عربي . ولكن جميع بدائع الصنعة والنقش والتصوير مستوفاة في المذبح الأعظم . وعقود الاقواس كلها من المرمر ، تحيط بأعناقها قلائد مذهبة من الصنعة العربية Arabesque

وفي هذه الكنيسة من صنوف الخرط والنّجْر وفنون التنزيل والحفر ما يعجز القلم عن وصفه ، فليس له إلا النظر بالعين ! وماذا تقول في بناء لبثوا يعملون فيه ثلاثمائة سنة ، و بذلوا عليه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، واستجادوا له أشهر الصنّاع في أعصرهم ، وأمهر النحاتين والمصورين في أوقاتهم ؟ ! وفي خزائن هذه البيعة كنوز هي فوق التخمين من كل نوع ، قد تراكمت من قرون . ولكن الذي يريد الفرجة لايقدر أن يتبين محاسنها ، من ضعف النور الذي يدخل إلى الكنيسة ، لأنهم ، كما لايخفى ، يستحب عندهم في الكنائس أن يكون نهارها ليلا ، لما في ذلك من الهيبة بزعمهم ، وهذا ما رأينا الكثيرين من الافرنج ينتقدونه ، و يقابلون بينه و بين مساجد الإسلام التي تفيض نوراً .

وأما المذبح نصف العربى فقد جعلوه بقرب الباب ، وقد كان بناؤه على يد المهندس هنرى دوايفاس ، بأمر الكردينال شيمانيس الشهير Jiménes وذلك سنة ١٥٠٤ ، وهم يقدسون على هذا المذبح بحسب الطقس القوطى الذى وضعه سان ايزيدور . وكانت فى طليطلة قد بقيت ست كنائس محافظة على الطقس القوطي إلى سنة ١٨٥١ ، فمن ذلك الوقت توحّد الطقس ، وصار رومانياً محضاً .

ومن كنائس طليطلة المعدودة كنيسة سان جوان [١] الملوك ، وهى كنيسة بناها فرديناند و إيز بلاّ على الأسلوب القوطى ، والأسلوب المعروف بالرينانسنس [٢] مجموعين فيها وقد بذل فرديناند و إيزبلاً فى بنائها قناطير مقنطرة من الذهب فجاءت من أبدع الكنائس زخرفا وكانا أعدّاها لدفنهما فيها ، إلاّ أنهما عدلا عن ذلك الرأى بعد استيلائهما على غرناطة سنة ١٤٩٢ ومحوهما كل أثر للملك الاسلام فى الأندلس . فقررا عند ذلك أن يكون دفنهما في كنيسة غرناطة ، وتوقف العمل فى كنيسة سان جوان هذه ، ولم تتم إلا فى القرن السابع عشر . فلذلك اختلف طرز بنائها فى ذاته بحيث جمعت بين أسلوبين متغايرين . وعلى جدران هذه الكنيسة الخارجية سلاسل حديد يقولون انها كانت قيوداً لأسارى المسيحيين الذين أنقذهم فرديناند وايزابلا يوم دخلا غرناطة ، وفى هذه الكنيسة صور للقديس سان جوان . وصورة شعار الملكين فرديناند وايزابلا وأسلحتهما ، والمذبح الاعظم من هذه الكنيسة منقول من كنيسة شنت افرج [٣] القديمة ، قال فى دليل بديكر : إن زينة حمراء غرناطة ونقوشها قد تمثلت هنا بصور مسيحية . وقد كانت هذه الكنيسة فى يد الفرنسيسكانيين ، ثم تحولت من زهاء مائة سنة كنيسة لأهالى المحلة المجاورة . وكان بجانبها دير تحول متحفاً ومدرسة صناعية .

---

(١) San Guan de las Reyes

(٢) Renaissance

(٣) Santa Cruz

وموقع هذه البيعة هو على أكمة مشرفة ، تسرح منها الأنظار على وادى تاجه ، وعلى البقعة [١] ، وعلى شارات سان برناردو وغريدوس . و إلى الشمال الغربى من دير سان جوان الملوك يقع الباب المسمى عند العرب بباب المكاره [٢] ، وعلى مقربة من هنالك فى بقعة يقال لها باجَه كنيسة سانتا لوقادية . وهى قديمة ، بنيت فى القرن الرابع ، فى المكان الذى يقال ان القديسة لوقادية نالت فيه اكليل الشهادة ، وكان

---

(١) La Vega

(٢) Al - Makara وحق هذه اللفظة أن تكون « المكاراة » بألفين اثنتين وهى مصدر كاراه الدابة ، والفاعل مكار ، ويقال مكارى الدواب وكرى الدواب أيضاً . هذا ويقال إن هذا الباب كان موجودا فى زمن القوط ثم جاء العرب فبنوه على ذوقهم ثم لما استرجع الاسبان طليطلة هدموه وبنوه من جديد على طرز أبنيتهم ولكنه بقى منه قوس عربى واحد يعتمد على أعمدة مكتوب على أحدها : الله اكبر . اشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . وقد نقل « جوسه » فى جغرافية أسبانية والبرتغال عن « سلازار مندوزه » كتابة يقولون إنها كانت باقية فى الحجر إلى زمن فيليب الثانى ومعناها على عهدتهم هو هذا : لااله إلا الله محمد رسول الله جميع المؤمنين الذين يعتقدون بنبينا محمدو يقبلون أيدى المرابط مولاى عبد القادر يغفرالله لهم ذنوبهم ولا يكونون فى يوم من الأيام صما ولا عمياً ولا مقطوعى الأعضاء ويتلقون منه البركة فى ساعة الموت ولا يعتلون قبل موتهم إلا ثلاثة أيام ويذهبون إلى الجنة وعيونهم مفتوحة وذنوبهم مغفورة انتهى قلت : هذه القصة مستغربة جدا فانه لا يذكر أى عبد القادر هو المقصود هنا ؟ فان كان عبد القادر الجيلانى الولى الشهير الذى تقال فيه مثل هذه الأقاويل فالشيخ عبد القادر الجيلانى مات سنة ٥٦١ أى بعد فتح الاسبان لطليطلة بثلاث وثمانين سنة ويستبعد جداً أن يكتب المسلمون فى طليطلة على باب من أبواب المدينة كتابة منقوشة على الأحجار ان لم تكن البلدة فى أيديهم ولم تكن الولاية عليها للاسلام . وأما إن كان المراد بالمرابط عبد القادر شخصاً آخر من الأولياء الذين عاشوا قبل خروج طليطلة من يد الاسلام فن العجب أن يذكر اسم هذا المرابط غفلا بدون نسبة ومن العجب أيضاً أن تقال جمل كهذه فى كتابة مزبورة على الحجر لمخالفتها للسنة ولذلك لنا شبهة قوية فى صحة وجود كتابة كهذه

العرب قد هدموها ، فلما رجع الاسبانيول جددوها .

وعلى ضفة نهر تاجه قريباً من هناك معمل السيوف ، وتاريخ إنشائه سنة ٧٨٨ ولكن لم تبق لسيوف طليطلة تلك الأهمية ، بعد أن بقيت قروناً مشهورة بهذه الصناعة من زمن الرومان إلى زمن القوط ، إلى زمن العرب ، إلى زمن الأسبان ، لاسيما القرن السادس عشر ، ومن النصال الطليطلية انموذجات بديعة فى متحف مجريط ، وإلى الجنوب من باب المكاره ، قطعة من السور تنتهى بباب سان مرتين ، وإلى الشمال من هذا الباب المسلخ الذى يقال انه كان فى مكانه قصر الملك لذريق ، الذى منه انتزع العرب جزيرة الاندلس ، وهو الذى افتض كريمة الكونت يليان المسماة فلورندة [٢] ، ولأجل ذلك حنق هذا الكونت حنقاً بلغ به أن دعا العرب لاجتياح الأندلس ، ففتحوها ويقال من حملة الاساطير انه كان يوجد هناك كهف يقال له كهف هرقل ، نظر فيه لذريق مرة فعثر على كتابة تؤذن بانتهاء ملك الاندلس .

وعلى الوادى يوجد جسر سان مرتين ، معقود فوقه الى الغرب من البلدة . وكان بدؤه سنة ١٢١٢ ، ثم تجدد سنة ١٣٩٠ . وله خمسة أقواس ، الاوسط منها يرتفع ثلاثين متراً ، وعليه برجان . والى اليمين منه تحت السور حمام يقال له حمام الكهف [١] حيث الملك لذريق شاهد فلورنده كريمة الكونت يوليان تستحم ، وكان بعد ذلك ما كان .

والى الجنوب من بيعة سان جوان الملوك كانت فى القديم حارة اليهود ، التى كان يقال لها « الجديرة » ، وكان هؤلاء اليهود بنوا هناك حصناً حصيناً يضعون فيه أموالهم وأما كنيسة مارية البيضاء فكانت فى الأصل كنيساً لليهود ، بنى فى القرن الثانى عشر ، ثم تحول كنيسة للنصارى فى بداية القرن الخامس عشر ، ثم صارت محل خلوة للمتنسكين ، ثم ثكنة عسكرية ، ثم مخزنا . وهى ذات بناء فخم على ثمان وعشرين

---

(١) Florinda

(٢) Bain de la Cave



الملك لذريق مع الأميرة فلوريندة ابنة يليان صاحب سبتة التى من أجل قصتها أغرى يليان العرب بغزو اسبانية

(٢٨ – ج أول)

قوساً ، وقواعد أساطينها مزينّة بالزلّيج ، والصنعة العربية . وأما الكنيس الشهير الذى تقدم الكلام عليه فيقال له كنيس[١] الانتقال ، فقد بناه الحاخام «ماير عبدلى» على نفقة صموئيل لاوى ، كما تقدم الكلام عليه . واتقن بناؤه إلى النهاية ، فلما طرد الملوك الكاثوليك يهود اسبانية حولوا هذا الكنيس إلى كنيسة باسم سان بنيتو ، وسلّموه إلى فرسان قلعة رباح ، ثم تحول كنيسة باسم العذراء . و إلى الشرق من هذا الكنيس يوجد بيت المصور الشهير غريقو[٢] الذى له آثار كثيرة فى كنائس طليطلة وأصله يونانى من جزيرة كريت وقد ساقته الأقدار من البندقية إلى طليطلة سنة ١٥٨٥ فسكن فى طليطلة فى قصر المركيز « فيلنه »[٣] والآن يوجد هناك متحف لآثار غريقو

ومن كنائس طليطلة كنيسة يقال لها سان جوان الندامة[٤] بناها الكردينال شيميناس سنة ١٥١٤ ، وجعل معها ديراً ، وهى فى شرق البلدة . ومن الكنائس المعدودة كنيسة سانتو طومى[٥] وكانت جامعاً فحولوه كنيسة ، وجددوا بناءه فى القرن الرابع عشر ، ولكن منارته لا تزال على أصلها . وفى هذه الكنيسة قبر الكونت أورغاز الذى جددها على نفقته . و إلى الجنوب من هذه الكنيسة قصر كان يقيم به الأمبراطور شارلكان ، وفيه ماتت امرأته ايزابلا البرتغالية ، وفى هذا القصر صناعات عربية وقوطية مختلطة

ومن كنائس طليطلة المعدودة كنيسة سانت ياقو الربض بنيت لعهد الاذفونش السادس ، وهى على الهندسة العربية ومنارتها لا تزال منارة مسجد اسلامى . وأما

(١) أى انتقال مريم العذراء إلى السماء Sinagoga del transito

(٢) Greco

(٣) Villena

(٤) Penitencia

(٥) Santo Tomé

الدار الاسقفية التى يقيم بها برماط اسبانية ، وكان له ذلك الشأن العظيم حتى كان يجاذب الملك الحبل فهى قبالة الكنيسة الكبرى من الجهة الغربية

قال المسيو جوسّة صاحب جغرافية اسبانية والبرتغال المصورة : لو أردنا أن نتكلم عمّا فى طليطلة من قصور كانت لنبلاء العرب والاشبيليين فى تلك الشوارع الضيقة وعلى مفارق الطرق ، وذلك مثل قصر آل بركاش[١] وآل ما كِدة[٢] وموناريس[٣] وغيرهم وقصر البقعة[٤] ، وقصر الميزة[٥] بقاعته العربية المدهشة لاستلزم ذلك كتاباً مستقلا . وقاعة الميزة هذه ذات سقف نادر النظير فى صنعته العربية . وطولها ٢٠ متراً ، وعرضها سبعة أمتار وعلوها ١٢ متر

ومن قنطرة طليطلة يسير الانسان صُعُداً إلى الشمال الغربى فيمر بالسور العربى الذى كان للمدينة وبسور أحدث منه بُنى لأجل حماية الحارة المسماه بالربض[٦] .

---

(١) Vargas وهى عائلة معروفة مشهورة ربما كان منها بركاش المغرب الذين منهم والى رباط الفتح الحالى السيد عبد الرحمن بركاش ومن أراد أن يطلع على تاريخ هذه العائلة فعليه بكتاب « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » للشيخ محمد أبى جندار

(٢) Maqueda حتى الآن لم يظهر لنا حقيقة هذا الاسم

(٣) Munarriz

(٤) Vega

(٥) Mesa

(٦) Arrabal الاسبانيول يقولون للربض « الربال » بقلب الضاد لاما وهو بدون شك تحريف الا انه وجد لذلك أصل فى اللغة العربية وقد نص على ذلك علماء اللغة ولما كنت فى جبال الحجاز سمعت هذه اللغة من ثقيف وهذيل فى ناحية يقال لها الشفا فسمعتهم يقولون « الليف » باللام المفخمة يريدون بها « الضيف » ، وصلاة « اللهر » فى صلاة « الظهر » وقرية « الليق » فى قرية « الضيق » وهلم جرا . وقد ذكرت ذلك فى كتابى « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج الى اقدس مطاف » ، وعقبت عليه بقولى : ولما كنت فى الأندلس سمعتهم يقولون فى كل بلدة « الرَّبال » يعنون به ضاحية البلدة فاردت أن أعرف مأخذها فقرأت فى كتبهم انها لفظة عربية محرفة عن « الربض »

وبعد مسيرة خمسة دقائق يصل إلى باب عربي البناء يقال له باب « السول » Puerta del Sol قيل إنه بنى سنة ألف ومائة مسيحية ، أى بعد استرداد الاسبانيول لطليطلة ، ولكنه بُنى على الطرز العربى ، وكان هذا الباب في القديم هو باب طليطلة الحقيقى . ولم يتفق المؤرخون فى تاريخ هذا الباب : فقال بعضهم : إنه بُنى لعهد الادفونش السادس ، وقال بعضهم : انه بُنى فى آخر زمان العرب ، وعلى مقربة من هذا الباب باب آخر يقال له باب « بيزَغرة » Visagra وأصله باب شقره بناه الأسبانيول ، وعليه تمثال النسر ، شعار الأمبراطور شارلكان ، ويوجد باب آخر يقال له « بيراغرة انتيكة » Visagra Antigia[1] أى العتيقة لأنه من زمان العرب

ففكرت حينئذ فى قلب الضاد لاما عند هذيل ومن جاورهم من ثقيف وقلت من يدرى ؟ فلعل أول من تلفظ بالربض هناك تلفظ بها باللام ، فقد كان فى غزاة الاندلس كثير من هذيل وثقيف . انتهى . ولما كان كتابى هذا قد طبع بمطبعة المنار فى القاهرة وتولى تصحيح مسوداته الأستاذ الأكبر فقيد الاسلام السيد رشيد رضا رحمه الله فقد علق على عبارتى هذه فى الحاشية ما يأتى : مخرج الضاد العربية الفصحى قريب من اللام المفخمة ، فهو بينها وبين مخرج الضاد ، فلهذا تشتبه الضاد تارة بالظاء فى نطق اكثر العرب الى عهدنا هذا وتارة باللام المفخمة فى نطق هؤلاء الهدليين والثقفيين . ومثل هذا الاشتباه يكثر فى النطق ، ولا سيما نطق الذى يعجل بالكلام فيتلقاه بعض السامعين محرفاً فيصير التحريف اصلا متبعا . وذكر علماء اللغة انه سمع ابدال اللام من الضاد فقالوا « الطجع » أى اضطجع كعكسه فى قولهم رجل « جضد » أى « جلد » . وبعد كتابة ما تقدم راجعت مادة ضجع فى التاج فاذا هو يقول : قال المازنى : ان بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول « الطجع » ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهى اللام . زاد فى اللسان : وهو شاذ . وقال الأزهرى : وربما أبدلوا اللام ضادا كما أبدلوا الضاد لاماً قال بعضهم « الطراد » و« اضطراد » لطراد الخيل . انتهى . نقلنا كلام السيد الامام هنا لفائدته

(١) هذه اللفظة محرفة عن بيب شقرة إذ لايخفى كون الآمالة الاندلسية جعلت الباب بيباً

وهو بناء يستحق النظر ومنه يسير الانسان على طريق عريض على جانبيه الأشجار إلى باب يقال له باب « قرون » Cambron وهناك بقايا قصر آل بركاش . ولا يجوز أن ننسى من آثار طليطلة التاريخية الكنيسة التي بقرب باب السول ، والتي يقال لها « سانتو كريستو دولالوز » Santo Cristo de la Luz أي النور وأصل هذه الكنيسة الصغيرة مسجد صغير بني سنة ٩٢٢ مسيحية ، كما يستنتج من الكتابة العربية التي على بابه [1] ، وهو على ستة صفوف من الأعمدة ويقال إن أعمدته مأخوذة من كنيسة قوطية قديمة والله أعلم ، وتتعلق خرافة بهذا المسجد المقلوب كنيسة والذى له ولأمثاله قال الشاعر العربي راثى طليطلة يوم استولى عليها النصارى :

مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ ! أيُّ قَلْبٍ عَلَى هَذَا يَقَرُّ وَلاَ يَطِيرُ ؟ !

وهذه الخرافة معناها انه لما دخل الاذفونش السادس إلى طليلة ، وكان معه القمبيدور الملقب بالسيد سجد حصان السيد بزعمهم امام حائط هناك ، فهالهم سجود الحصان من نفسه فبحثوا فى الحائط ، فوجدوا فيه مصلوباً ، وبجانبه سراج يضيء زيته من زمن القوط .

---

(١) يقال لهذه الكنيسة الصغيرة كنيسة بيب مردوم أى الباب المردوم والبيب كما لا يخفى هو الباب بلفظ أهل الأندلس الذين كانوا يتكلمون بالامالة وكان على باب الجامع الذى تحول كنيسة كتابة تاريخها ٣٧٠ للهجرة كشفوها سنة ١٨٩٩ وتكلم عنها مارسه Marçais فى كتابه عن الفن الاسلامى . وكذلك ذكرها الامبار Lambert فى كتابه عن طليطلة وفى كتابة أخرى « فن البناء الاسلامى بقرطبة وطليطلة فى القرن العاشر » . وكان العالم الاسبانيولى أما دوردولوس ريوس Amador de Los Rios قد حل هذه الكتابة بما يفيد أن الجامع بنى بمعرفة مهندس اسمه موسى بن على وشخص آخر اسمه سعادة وذلك فى المحرم سنة ٣٧٠ وفق ٩٨٠ قال لاوى بروفنسال الذى نقلنا عنه هذه الرواية من كتابه « الكتابات العربية فى اسبانية » إنه هو فى سنة ١٩٢٥ لم يستطع قراءة هذه الكتابة ما عدا البسمله . فلعلها سنة ١٨٩٩ كانت لاتزال محفوظة وكانت قراءتها لا تزال ممكنة .

وأشهر قصر فى الاندلس هو قصر طليطلة المبنى على أعلى قمة من تلك البلدة ، فقد كان فيما يظهر مقر الامارة من قديم الدهر ، ففيه أقام الايبيريون ، ثم القوط ، ثم العرب ، ثم الاسبان ، وفيه نزل اذفونش السادس يوم دخل طليطلة . ولقد تبدلت هيئته كثيراً بكثرة ما توالى عليه من الحريق . وكان كلما احترق جددت الملوك بناءه ولكن الذى لايتغير فيه هو مسرح النظر الذى له ، والذى لا يضارعه منظر لقصر من قصور اسبانية كلها . وقد كان هذا القصر تارة حصنا وطوراً قصرا ، وتعاقبت عليه أدوار مختلفة .

وأشهر ساحة فى طليطلة ، وهى التى فيها اكثر حركة البلدة ، الساحة التى يقال لها ساحة البرّ [1] أى ساحة القمح ، ومنها يصعد الصاعد إلى القصر ، وبالاجمال لايوجد بلدة أكثر من طليطلة قد حفظت الهيئة والبيئة العربيتين ، وكيف ما توجه السائح فيها يعثر على نقوش عربية ، وزلّيج ، وخشب محفور من آثار العرب ، وقد ذكر جوسّه انه وجدت تيجان ذهب مخرمة فى ضواحى طليطلة ، وتحقق انها من كنوز العرب المدفونه ، ومن قديم الدهر كان فى طليطلة أبنية فخمة ، وللارشيبرست يوليان بيرز Julian Pérez تاريخ أحصى فيه عدد الكنائس القوطية التى هدمها العرب أو حولوها الى جوامع ، مثل شان قرشتوبل Cristobal ، وسان لورنزوه ، وسان يشته Justo وسانتا مرية المجدلية ، وسان ايزيدور ، وسان انطواين والمقبرة التى كانت فى كنيسة شنت ليقودية ، فقد زعم هذا القسيس ان العرب خربوا جميع هذه الكنائس ، وجعلوا عاليها سافلها ، وقال انه كانت فى طليطلة اديار كثيرة من قبل ما أعلن الملك القوطى ريكاريد إلغاء المذهب الاريوسى ، وأمر بأن تكون الكثلكة هى المذهب السائد بدون منازع ، وذكر ان العرب تركوا بعض هذه الأديار للمسيحيين مثل سان سيلفانو Silvano

---

(١) Zocodover

وأما تاريخ طليطلة فخلاصته انها كانت العاصمة الدينية والمدنية لاسبانية فى زمن القوط ، وانه انعقد فيها ستة عشر مجمعاً ، آخرها كان انعقاده سنة ٦٣٣ ، تحت رئاسة يزيدور مطران اشبيلية ، الذى كان عندهم قديساً ، وأكثر أسباب هذه المجامع الدينية كانت ناشئة عن الجدال بين الاريوسية والكثلكة . وكان مبدأ الاريوسية آراء قسيس شهير اسمه آريوس Arius ، ولد فى برقة أو الاسكندرية سنة ٢٨٠ للمسيح ، ومات سنة ٣٣٦ . واشتهر بتجديد عقيدة سابليّوس و بولس المريساتى ، وهى التى تقول بأن المسيح لم يكن هو ابن الله فعلا ، وانما كان ابنه اسما ، والله هو الآب فقط ، واتبع عقيدة اريوس جم غفير فحكم مجمع الاسكندرية بكفره سنة ٣١٩ ولكن بقى له تبع كثير بحيث ان الامبراطور قسطنطين اضطر إلى عقد مجمع عام هو المجمع المسمى بالمجمع النيقى ، لأنه انعقد فى نيقية بقرب القسطنطينية سنة ٣٢٥ ، فقرر المجمع المذكور بالأكثرية لا بالاتفاق ان الابن والآب طبيعة واحدة ، وأن المسيح هو الله مثل الآب ، وانه هو الابن ، وحرر دستوراً للايمان على هذه القاعدة ولم يزل هذا الدستور هو قانون الدين المسيحى إلى يومنا هذا . وقد صدر أمر الامبراطور قسطنطين بنفى اريوس مدة من الزمن ، إلى أن سكنت الخواطر ، ثم أذن له فى العودة الى الاسكندرية ، وربما كان قسطنطين فى الباطن مائلا إلى عقيدة اريوس ، لكنه كان مضطراً إلى مجاراة العامة ، ثم مات اريوس ولم تمت عقيدته وانقسم بها الرومانيون إلى قسمين ، فتمسك بها بعض قياصرتهم كقسطنس ، وحمل عليها الآخرون كتيودوسيوس . وأخيراً تلاشت فى المملكة الرومانية ، إلاأنها عادت فظهرت بين البرابرة الذين جاءوا من الشمال مثل القوط ، والوندال ، والبرجونيين ، واللونبرديين ، ثم تغلبت عليها الكثلكة فى القرن السابع ، ثم عادت فظهرت مرة ثالثة بعد الاصلاح البروتسطانتى ، وعرف بها فئة يقال لهم السوسينيون ، نسبة إلى رجل لاهوتى من ايطالية انتصر لهذه العقيدة ، بل أنكر أكثر قواعد النصرانية .

وقد كان فى طليطلة هذه عقد المجمع الذى حكم بتحريم مذهب اريوس .

ولما افتتحها العرب لم يجعلوها عاصمتهم ، كما كانت فى زمن القوط ، وآثروا عليها قرطبة لكونها أقرب إلى افريقية ، فصارت طليطلة تعصى أمر قرطبة ، وتثور على بنى أمية ، ولكن عمرانها لم يتقلص بالثورات ، لكثرة ما كان بها من الصنائع ، مثل صناعة السيوف [١] وصناعة نسج [٢] الحرير والصوف ، ولأن بقعتها من

(١) يقال إن الرومانيين عند ما ملكوا طليطلة وجدوا فيها صناعة السيوف زاهرة ثم لما جاء العرب اليها وجدوها أيضا كما وجدها الرومانيون وإنما زادوها إتقاناً بما كان لأهل دمشق من رسوخ القدم فى هذه الصنعة . وبقيت طليطلة تصنع السيوف طول مدة العرب فيها ثم بعد أن رحلوا عنها مدة ستة قرون والناس تتنافس بالسيوف الطليطلية . ولكن عند ما جدت الأسلحة الحديثة فى أواخر القرن الثامن عشر قضت على سيوف طليطلة . وكان الطليطليون غير مقتصرين على صنعة السيوف بل كانوا يصنعون أيضاً ابر الفولاذ وكانوا يصنعون السروج وعدد الخيل والمهاميز وزرد الدروع . وكانت عندهم صناعة الخزف والصناعة المسماة فى دمشق بالقاشانى

(٢) كانت طليطلة مركزا لصناعة نسج الحرير والصوف والمخمل والأطلس بجميع أنواعها ولم تكن اشبيلية ولا قرطبة تفوقانها فى هذا وكان النساجون فى طليطلة وارباضها خمسين الف عامل . وفى القرن السادس عشر كانت فيها صنعة الطربوش فكان يعمل بها بضعة الآف عامل وكانوا يشحنون في ذلك الوقت إلى نحو من خمسة ملايين طربوش فى السنة إلى افريقية وإلى البلاد الشرقية . وكانوا يصنعون القلانس والكمم والطاقات المزركشة بأنواعها

ومما اشتهرت به طليطلة لذلك العهد صنعة الخبز التى كانت فيها المثل الأعلى وكانوا يصنعون نوعا من الاقراص بالسمن والسكر واللوز لم يكن أحد يباريهم فيه وكانت للخبازين فى طليطلة مكانة لا يستخف بها وأول كتاب فى الطبخ طبع فى اسبانية وكان طبعه سنة ١٥٢٥ فى طليطلة . ولا يزال إلى هذا اليوم مع تقلص عمران طليطلة محفوظاً بها بعض الشيء من ذلك الاتقان فى الخبز وهم يصنعون مربيات كثيرة من الفواكه

أما الصناعات الباقية إلى الآن فى طليطلة بعد أن سقطت عن معاليها القديمة فهى نسج الحرير والقطن ونقش المعادن على طرز دمشق مما يسمى فى اوربة بالاراباسك والادوات الكنسية والحفر والتنزيل فى الخشب وما أشبه ذلك . فطليطلة بعد أن نزل عدد سكانها من مائتى الف نسمة إلى عشرين الفاً لاتزال تعد من المدن الصناعية

أخصب بقاع الاندلس فكانت تبقى السنين الطوال والخلفاء يحاولون اخضاعها ، و يغادونها و يراوحونها بالجيوش ، وهى مع ذلك عزيزة منيعة ، ثابتة راسخة ، أمنع من عقاب الجو . وقد كان استرداد الاسبانيول لطليطلة مبدأ تأخر العرب بدون نزاع ، وفى ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسّال :

حُثُّوا رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ فَمَا الْمُقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الْغَلَطِ
الثَّوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوَسَطِ
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لاَ يَأْمَنْ عَوَاقِبَهُ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطٍ ؟

وقد أصاب هذا الشاعر فى قوله هذا ، لأنه لما استولى النصارى على طليطلة كانوا كأنهم دخلوا فى وسط بلاد الاسلام ، وجاءت الاسلام الضربة فى حامل رأسه لأنه كان المسلمون فى ذلك الوقت لايزالون فى سرقسطة ونواحيها ، وكان لايزال لهم قواعد وحواضر هى إلى الشمال من طليطلة . ثم إن موقع طليطلة بمنعته الخارقة للعادة جعلت الأسبانيول منها فى حصن حصين لا يؤتى وعصمتهم فى حرز حريز لا يؤخذ ، وهم أنفسهم لم يقدروا على طليطلة فى حقيقة الأمر إلا بفساد أحوال المسلمين ، والفتن التى كانت بينهم . وخلاصة الأمر أنه بعد أن نشبت الفتنة الكبرى فى قرطبة بين العرب والبربر ، وانتثر السلك ، ونجمت الملوك الذين يقال لهم ملوك الطوائف ، استبد بأمر طليطلة بنو ذى النون ، كما سيأتى الكلام عليه ، فوقعت العداوة بينهم و بين بنى هود الذين استقلوا بسرقسطة ، وتوالت الوقائع بين الفريقين ، وكل منهما يستظهر بالاسبانيول على الآخر

ولنأتك بمثال ننقله لك عن ابن عذارى المراكشى فى كتابه « المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » وهو خير كتاب عرّف بأخبار الأندلس . قال عند ذكره سقوط طليطلة : « وخرج فرديلند الطاغية أيضا المظاهر لسليمان بن هود ، وهو فردلند بن شانجة ، أمير جليقية إلى ثغر طليطلة فى خلق كثير . وجاءه ابن عم

ابن ذى النون ليدله على عورات البلاد ، وتهارب الناس أمامه من كل جهة إلى طليطلة حتى غصت بهم ، واضطربت أحوال أهلها . كل ذلك وأميرهم يحيى بن ذى النون غائب عنهم بجيشه فى مدينة سالم ، مقيم بها لئلا يدخلها ابن هود فلما تيقن بخروج هذا اللعين إلى عمله ، وضجت رعيته إليه ، جاء فى جموعه ، فلم يصنع شيئا ولا قدر على لقائه (أى على لقاء الطاغية) واضطربت أحوال الناس بطليطلة خلال ذلك ، فلما رأى ذلك أهل طليطلة أرسلوا إلى الطاغية فردلند المظاهر لابن هود ليعقدوا معه صلحاً على بلدهم طليطلة وما حولها على مال يؤدونه إليه و يرحل عنهم . فقال لهم : ما أجيبكم إلى سلم ، ولا أعفيكم من حرب ، حتى تفعلوا كذا وكذا . واشترط عليهم شروطاً لا يقدرون عليها . فقالوا : لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة ، واستدعيناهم لكشف هذه المعضلة . فقال لهم فرلند : « أما قولكم لا تقدرون على هذه الأموال فذلك محال ، فلو كشفت سقوف بيوتكم لبرقت ذهباً لكثرته ، وأما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا ، وتهددوننا به ، ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم ، ونحن قد صمدنا إليكم ، ما نبالى من أتانا منكم ، فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم ، فقد سكنتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم بردائتكم ، فارحلوا إلى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا و بينكم » اه .

فلم يجد رسل أهل طليطلة عند فردلند وأصحابه النصارى قبولا لما عرضوه عليهم من الصلح .

وكان أخو هذا العلج صاحب يحيى بن ذى النون مظاهراً له فخرج فى هذه السنة إلى بلاد ابن هود فوطئها ، وأغلظ فى اهلاكها ، وأخل بالثغر الأعلى ، فعل أخيه فردلند فى نظر ابن ذى النون ، ودامت الفتنة بين هذين الأميرين ، ابن هود وابن ذى النون ، على هذه الحال من سنة خمس وثلاثين إلى آخر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة وانقطعت بموت سليمان بن هود فى السنة المذكورة . ولما تنفس مخنق ابن ذى النون

بموت سليمان المذكور جعل يطلب جاره ابن الأفطس صاحب بطليوس فجرت له معه حروب كثيرة الخ

قلنا إن بيت القصيد فى هذا التاريخ هو قول الطاغية : « وقد نُصِرنا عليكم بردائتكم » . جاء فى نفح الطيب : ومن أول ما استرد الافرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذى النون سنة ٤٧٥ . وقال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله ابن المأمون يحي بن ذى النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها فى منتصف محرم سنة ٤٧٨ اهـ . وفيه بعض مخالفة لما قبله ، وسيأتي قريباً بعض ما يؤيده . قال : وهى مدينة حصينة قديمة أزليّة ، من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير [1] . ولها قصبة حصينة فى غاية المنعة ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان ، على قوس واحد ، والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى . ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها فى الجو تسعون زراعاً ، وهى تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة .

وطليطلة هذه دار مملكة الروم ، وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامون فتحه ، حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب اهـ .

وقد حكي ابن بدرون فى شرح العبدونية أن المأمون يحي بن ذى النون صاحب طليطلة بنى بها قصراً تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة ، على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها ، محيطاً بها ، متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب [2] لا يفترّ ، والمأمون ابن ذى النون قاعد فيها لا يمسه من الماء

(١) العمالقة المعروفون فى التاريخ لم يكونوا البانين لطليطلة ولكن العرب يطلقون لفظة عمالقة على جميع الأقدمين الذين اشتهروا بالقوة والعظامة وأما قولهم النهر الكبير فان كان يريد به نهر تاجه فهو صحيح لأنه من أكبر أنهار الاندلس ولكن جرت العادة بأن يسمى بالوادى الكبير نهر قرطبة النازل إلى اشبيلية وهو غير تاجه كما لا يخفى

(٢) إن طليطلة هى من الأقاليم المعتدلة فى اسبانية ولكن الحر يشتد فيها جدا أيام

شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد :

أَتَبْنِي بِنَاءَ الخالدين وَإِنَّمَا بقاؤُكَ فيها لو عَلِمْتَ قَلِيلُ
لَقَدْ كانَ في ظِلِّ الأَرَاكِ كِفَايَةٌ لِمَنْ كُلَّ يَوْمٍ يَعْتَرِيهِ رَحِيلُ

فلم يلبث بعد هذا إلاّ يسيراً حتى قضى نحبه . اه .

وقال ابن خلكان : إن طليطلة أخذت يوم الثلاثة مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد . وقال ابن علقمة : إن طليطلة أخذت يوم الاربعا لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلاّقة التي نشأت في السنة بعدها اه .

وجاء في دليل بديكر أن الأذفونش السادس ملك قشتالة دخل طليطلة ومعه السيد[1] في ٢٥ مايو ١٠٨٥ ونقل كرسي الملك من برغش إلى طليطلة عام ١٠٨٧ وجعل مطران طليطلة هو أسقف اسبانية الأعظم ، وبدأوا ببناء الكنائس والأديار فأكثروا منها . ولكن المدينة العربية بقيت حافظة سيادتها في وجه الحملة المسيحية، وبقي الناس في طليطلة يبنون مدة قرون متطاولة على الطرز العربي (إلى أن قال) وكان أساقفة طليطلة مثل لوذريقة وفونسيقة وتنووريو ومندوسة . وشيمينيس وطلبيرة ولورنسانة هم أصحاب الأمر والنهي في البلدة ، وكان دخل الأسقفية السنوي ثلاثمائة الف دوكة ، وكان في دار الأسقفية ١٥٠ قسيساً هم حاشية برماط اسبانية ، وكانت لهم عناية بالعلوم والآداب[2] وكانوا أيضاً يسوقون الجيوش إلى القتال

الصيف بما يلفحها من رياح افريقية حتى تبلغ درجة الحرارة فيها أربعين بميزان سنتيغراد وهي تجمع الاضداد ففي الشتاء تنزل درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر ولكن لا يطول فصل البرد الشديد أكثر من شهر واحد وفصل الربيع فيها لا يطول أيضاً بل يبدأ الحر فيها من شهر مايو . وأحسن فصولها هو الخريف

(١) Le Cid وهو القمبيذور الذي سبق ذكره عند ذكر مدينة برغش

(٢) في دار الاسقفية خزانة كتب مفتوحة للزائرين ثلاث ساعات قبل الظهر ولكن خزانة كتب الكنيسة الكبرى هي أهم بكثير وفيها مخطوطات نفيسة واسفار من الطابع القديم . وليس اليوم في طليطلة معاهد علمية تستحق الذكر كما كان في الماضي فقد

فأسماؤهم داخلة فى جميع الحوادث الكبيرة فى عصرهم . ولقد كان الكردينال بطروه غونزاليس مندوزه هو الذى أغرى أكثر من الجميع بقتال مملكة غرناطة اه .

ولنذكر الآن ما جاء فى معجم البلدان عن طليطلة قال : طليطلة ، هكذا ضبطه الحميدى . بضم الطائين ، وفتح اللام ، وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادى الحجارة ، وهى غربى ثغر الروم ، و بين الجوف [1] والشرق من قرطبة . وكانت قاعدة ملوك القوطيين ، وموضع قرارهم ، وهى على شاطىء نهر تاجه ، وعليه القنطرة التى يعجز الواصف عن وصفها . وقد ذكر قوم أنها مدينة دقيانوس صاحب أهل الكهف . قال : و بالقرب منها موضع يقال له جنان الورد ، فيه أجساد أهل الكهف لا تبلى إلى الآن ، والله أعلم . وقد قيل فيهم غير ذلك ، كما ذكر فى الرقيم ، وهى من أجل المدن قدراً ، وأعظمها خطراً . ومن خاصيتها أن الغلال تبقى فى مطاميرها سبعين سنة لا تتغير ، وزعفرانها هو الغاية فى الجودة . و بينها و بين قرطبة سبعة أيام للفارس وما زالت فى أيدى المسلمين منذ أيام الفتوح إلى أن ملكها الافرنج فى سنة ٤٧٧ [2]

كان أمرها فى زمن العرب معلوماً وسيرى القارىء من كثرة عدد من خرج منها من العلماء والادباء درجة رقيها العلمى فى الدور العربى . ولما عاد الاسبانيول إليها وردوها عاصمة لهم لم تبلغ الدرجة التى كانت عليها لعهد العرب لأن مدنية العرب كانت بلاجدال أرقى جداً من مدنية الاسبانيول . إلا أنه فى القرن الخامس عشر بنى الاسبانيول فيها مدرسة جامعة وظهرت فيها نهضة علمية وتحولت قصور عبد الله بن موسى أحد امراء طليطلة لعهد العرب معاهد للتدريس ولكن انتقال الحكومة إلى مجريط رد طليطلة إلى الدرجة الثانية بل الثالثة من جهة العلم والتعليم

(١) يستعمل ياقوت الحموى هنا لفظة الجوف بمعنى الشمال على نسق المغاربة

(٢) روى بعضهم أن استيلاء الفرنج على طليطلة وقع فى سنة ٤٧٥ وروى آخرون أنه وقع سنة ٤٧٧ وروى آخرون أنه فى سنة ٤٧٨ وهى أصح الروايات وأما بالتاريخ المسيحى فدخول الاذفونش السادس إلى طليطلة فاتحاً كان فى ٢٥ مايوعام ١٠٨٥

وكان الذى سلمها اليهم يحيى بن يحيى بن ذى النون ، الملقب بالقادر بالله ، وهى الآن فى أيديهم (إلى أن قال) : ينسب اليها جماعة من العلماء ، منهم أبو عبدالله الطليطلى روى كتاب مسلم بن الحجّاج ، توفى يوم الأربعاء الثانى عشر من صفر سنة ٤٥٨ وعيسى بن دينار بن واقد الغافقى الطليطلى ، سكن قرطبة ، ورحل ، وسمع من أبى القاسم ، وصحبه ، وعوّل عليه ، وانصرف إلى الأندلس ، فكانت الفتيا تدور عليه ، لا يتقدمه فى وقته أحد . قال ابن الفرضى : قال يحيى بن مالك بن عائذ : سمعت محمد بن عبد الملك بن أيمن يقول : كان عيسى بن دينار عالماً متفنناً ، وهو الذى علّم المسائل أهل عصرنا .

وكان أفقه من يحيى بن يحيى ، على جلالة قدر يحيى . وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول : فقيه الاندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى ابن يحيى . وتوفى سنة ٢١٢ بطليطلة ، وقبره بها معروف . ومحمد بن عبد الله بن عيشون الطليطلى أبو عبد الله ، كان فقيهاً ، وله مختصر فى الفقه ، وكتاب فى توجيه حديث الموطأ ، وسمع كثيراً من الحديث ، ورواه . وله إلى المشرق رحلة ، سمع فيها من جماعة ، وتوفى بطليطلة لتسع ليال خلون من صفر سنة ٣٤١ اهـ كلام ياقوت

ولما تغلب الاسبانيول على طليطلة اهتز لذلك الاسلام ، وأدرك العقلاء سوء المصير ، لأن ذهاب هذه القاعدة من أيدى المسلمين ، وهى فى وسط أسبانية ، كان مقدمة حوادث كبار توقعوها ، ولم يخطئوا فى حسبانهم لها . وقد كانت وقعة الزلاقة فى السنة التالية ، وهى التى أجاز فيها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس اصراخاً لمسلميها هى نتيجة سقوط طليطلة فى أيدى النصارى . و بالرغم من كون ابن تاشفين أحرز فى وقعة الزلاقة نصراً عزيزاً ، وفتحاً مبيناً ، وخضد شوكة الاسبانيول فى ذلك اليوم ، فانه لم يتمكن من استرداد طليطلة ، و بقيت العلة فى محلها ، و إنما تأخر انحلال دولة الاسلام فى الأندلس بواسطة المرابطين ، ثم بواسطة الموحدين نحواً من ثلاثمائة سنة

ولنذكر هنا مرثية قيلت لدى سقوط طليطلة ، وحتى الآن لم نعرف اسم قائلها ، ونحن ننقلها عن نفح الطيب كما هي . وهي هذه :

لِثُكْلِكِ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ ... سُرُورًا بعْدَ مَابَئِسَتْ ثُغُورُ ؟ !
أَمَا وَأَبِى مُصَابٌ هُــدَّ مِنْهُ ... ثَبِيرُ الدِّينِ ، فَاتَّصَلَ الثُّبُورُ
لَقَدْ قُصِمَتْ ظُهُورٌ حِينَ قَالُوا : ... أَمِيرُ الْـكَافِرِينَ لَهُ ظُهُورُ
تُرَى فى الدَّهْرِ مَسْرُورًا بِعَيْشٍ ؟ ... مَضَى عَنَّا لِطِيَّتِهِ السُّرُورُ !
أَلَيْسَ بِنَا أَبِيٌّ النَّفْسِ شَهْمٌ ... يُدِيرُ عَلَى الدَّوَائِرِ إِذْ تَدُورُ ؟ !
لَقَدْ خَضَعَتْ رِقَابٌ كُنَّ غُلْبًا ... وَزَالَ عُتُوُّهَا وَمَضَى النُّفُورُ
وهَانَ عَلَى عَزِيزِ الْقَوْمِ ذُلٌّ ... وَسَامَحَ فِى الْحَرِيمِ فَتًى غَيُورُ
طُلَيْطُلَةٌ أَبَاحَ الْـكُفْرُ منها ... حِمَاهَا ! إِنَّ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ !
فلَيْسَ مِثَالَهَا إِيوَانُ كِسْرَى ... وَلاَ مِنْهَا الْخَوَرْنَقُ وَالسَّدِيرُ
محصَّنة بَعِيدٌ ... تناوُلها ، وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
أَلَمْ تَكُ مَعْقِلاً لِلدِّينِ صَعْبًا ... فَذَلَّلَهُ كَمَا شَاءَ الْقَدِيرُ
وَأَخْرَجَ أَهْلَهَا مِنْهَا جَمِيعًا ... فصَارُوا حَيْثُ شاءَ بِهِمْ مَصِيرُ
وَكَانَتْ دَارَ إِيمَانٍ وَعِلْمٍ ... مَعَالِمُهَا التى طُمِسَتْ تُنِيرُ
فَعَادَتْ دَارَ كُفْرٍ مُصْطَفَاة ... قَدْ اضطَرَبَتْ بِأَهْلِيهَا الأمُورُ
مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ ! أَيُّ قَلْبٍ ... على هــذا يقَرُّ ولاَ يَطِيرُ ؟ !
فَيَا أَسَفَاهُ ! أَسَفَاهُ ! حُزْنًا ... يُكَرَّرُ مَاتَكَرَّرَتِ الدُّهورُ
و يُنْشرُ كلُّ حُسْنٍ لَيْسَ يُطْوَى ... إِلَى يَوْمٍ يكونُ بِهِ النُشُورُ
أُذِيلتْ قاصرات الطرفِ كانتْ ... مَصونات مَسا كنُهَا القصورُ
وَأَدْرَكَهَا فُتورٌ فى انتِظَارٍ ... لِسِرْبٍ فى لَوَاحِظِهِ فُتورُ

وكانَ بِنَا وَبِالقَيْنَاتِ أوْلَى لَوْ انضَمَّتْ عَلَى الكلِّ القُبورُ
لَقَدْ سَخُنَتْ بِحالَتِهِنَّ عَيْنٌ وَكَيفَ يَصحُّ مَغْلُوبٌ قَرِيرُ ؟
لَئِنْ غِبْنا عَنِ الإخْوَانِ إنَّا بأحزانٍ وَأشْجَانٍ حُضورُ
نذورٌ كانَ لِلأيَّامِ فيهمْ بِهلكهم فقد وفَتْ النذورُ
فإنْ قُلْنَا العقوبَةُ أدْرَكَتْهُمْ وجَاءهُمُ مِنَ اللهِ النَّكِيرُ
فإنَّا مِثْلُهم وَأَشدُّ مِنهمْ نَجُورُ ، وَكَيفَ يَسْلَمُ مَنْ يَجُورُ ؟
أنأمَنُ أنْ يَحُلَّ بنَا انتِقَامٌ وفينا الفسقُ أجْمَعُ وَالفُجُورُ ؟
وَأكلٌ لِلْحَرَامِ ولاَ اضطرارٌ إليهِ ، فَيَسْهُلُ الأمرُ العسيرُ
ولكن جُرْأةٌ في عُقْرِ دَارٍ كذلكَ يفعَلُ الكَلْبُ العَقُورُ
يزولُ السِّترُ عَنْ قَوْمٍ إذا ما على العِصْيانِ أُرْخِيَتْ السُّتورُ
يطولُ عليَّ ليلِي ، رُبَّ خطبٍ يطولُ لِهوْلِهِ اللَّيْلُ القصيرُ
خُذوا ثار الدِّيَانَةِ وانصرُوها فقَدْ حامَتْ على القَتْلَى النسُورُ !
ولا تَهِنُوا وسُلوا كل عَضْبٍ تهابُ مضاربا عنهُ النحورُ
وَمُوتوا كُلُّكُمْ فالمَوْتُ أولى بكم ، منْ أنْ تُجَارُوا أوْ تَجُورُوا
أصَبْرًا بَعْدَ سَبْيٍ وامتِحَانٍ يُلامُ عَلَيْهِما القَلْبُ الصَّبُورُ ! ؟
فأمُّ الصَّبْرِ مِذكارٌ وَلُودٌ وأمُّ الصقرِ مِقلاتٌ نَزُورُ
نَخورُ إذَا دُهِينَا بالرَّزَايَا وليس بمعجبٍ بقرٌ تَخُورُ
وَنَجْبُنُ ليس نَزْأَرُ ، لو شَجُعنا ولم نَجْبُنُ لَكانَ لَنا زَئِيرُ
لَقَدْ سَاءتْ بنَا الأخْبارُ حَتَّى أماتَ المخبرِينَ بهَا الخَبيرُ
أتتنَا الكُتْبُ فيهَا كُلُّ شَرٍّ وَبشَّرَنا بأنحسِنا البَشِيرُ
وقيل تَجَمَّعُوا لِفراق شَمْلٍ طُلَيطلةٌ تملَّكَها الكَفُور

فقُل فى خُطة فيها صَغارٌ يَشيب لكَرْبِها الطفلُ الصَّغيرُ
لَقد صمَّ السَّميعُ فلم يُعوِّل على نبأ كما عَمِيَ البَصيرُ
تُجاذِبُنا الأعادِى باصطِناعٍ فينجذبُ المُموِّلُ وَالفَقِيرُ
فباقٍ فى الديانة تحت خِزْيٍ تثبِّطُه الشُّوَيْهَةُ والبَعيرُ
وَآخَرُ مَارِقٌ هَانَتْ عليْهِ مصائبُ دينهِ فلهُ السَّعِيرُ
كَفَى حَزَناً بأنَّ النَّاسَ قَالُوا إلى أيْنَ التَّحَوُّلُ وَالمَسِيرُ ؟
أَنترُكُ دُورَنَا وَنَفِرُّ عَنْهَا ؟ وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ البحرِ دُورُ
ولا ثمَّ الضِيَاعُ تَرُوقُ حُسناً نُبَاكِرُها فيُعجِبنَا البُكُورُ
وظِلٌّ وَارِفٌ وَخَرِيرُ مَاءٍ فلا قُرٌّ هناكَ وَلا حَرُورُ
وَيُؤْكَلُ مِنْ فَوَاكِهِهَا طرِيٌّ وَيُشْرَبُ من جَدَاوِلِها نَمِيرُ
يؤدِّى مُغْرَمٌ فى كُلِّ شهْرٍ ويؤخَذُ كلَّ صائفةٍ عُشُورُ
فهُمْ أحْمَى لِحَوْزَتِنَا وَأَوْلَى بنا ، وَهُمُ الموالى وَالعَشِيرُ
لقد ذَهَبَ اليقينُ فلاَ يَقِينٌ وغَرَّ القَوْمَ باللهِ الغَرُورُ
فلاَ دِينٌ ولا دُنيا وَلَكِنْ غُرورٌ بالمَعِيشَةِ مَاغُرُورُ
رَضُوا بالرِّق ، يالله ! ماذا رآه وَمَا أشَارَ به مُشيرُ ؟
مضى الاسلامُ فابكِ دَماً عَلَيْهِ ! فما يَنفِى الجَوَى الدمعُ الغزيرُ
وَنُحْ وَاندُبْ رفاقاً فى فَلاةٍ حيارَى لا تَحُطُّ ولا تَسِيرُ
ولا تجنَحْ إلى سَلْمٍ وحارِبْ عَسى أنْ يُجْبَرَ العظْمُ الكَسِيرُ
أنعْمَى عن مرَاشِدِنَا جميعاً وما إنْ منهمُ إلاَّ بَصِيرُ ؟ !
وَنَلْقَى واحداً وَيفِرُّ جَمْعٌ كما عَنْ قَانِصٍ فرَّتْ حَمِيرُ !
ولو أنَّا ثَبتْنَا كان خيراً ولكن مالَنَا كَرَمٌ وَخِيرُ

إذا ما لم يكن صَبْرٌ جَمِيلٌ فليسَ بنافعٍ عـدَدٌ كَثِيرُ
ألا رَجُلٌ له رَأْيٌ أَصِيلٌ به مِمَّـا نُحَاذِرُ نَسْتَجِيرُ !
يكُرُّ إذَا السيوفُ تنَاوَلَتْـهُ وَأينَ بنَا إذَا وَلَّتْ كَرُورُ ؟
وطَعْنٌ بالقَنَا الخطَّارِ حَتَّى يقولُ الرمْحُ : ما هَذا الخطيرُ ؟
عظيمٌ أن يكونَ الناسُ طُرّاً بأنْدُلُس : قتيلٌ ، أو أسِـيرُ
أذَكِّرُ بالقِرَاعِ اللَّيثَ حِرْصاً على أنْ يَقْرَعَ البِيضَ الذُّكورُ
يبادرُ خَرْقَهَا قبلَ اتساعٍ لِخَطْبٍ مِنهُ تَنْخَسِفُ البُدورُ
يُوَسِّعُ لِلَّذِى يَلْقَاهُ صَـدْرًا فقد ضَاقَتْ بِمَا تَلْقَى صُدُورُ
تَنَغَّصَتِ الحَيَاةُ فلا حَيَاةٌ وودَّعَ جيرةٌ إذ لا مُجيرُ
قليل فيهِ هَمٌّ مُسْتَكِنٌ وَيَوْمٌ فيـهِ شَرٌّ مُسْتَطِيرُ
ونرجو أن يُتِيحَ اللهُ نَصْراً عليهم ، إنهُ نِعْمَ النَّصِيرُ !

ويقال فى قضية أخذ الأسبانيول لطليطلة النكتة الآتية : كان الاذفونش السادس قد فرّ من وجه أخيه شانجه ، فالتجأ الى ابن ذى النون ملك طليطلة ، فسمح له بالاقامة عنده ، ولم يكن من عادة العرب أن يستنكفوا فى وقت من الأوقات من إيواء الدخيل . وكان المسلمون أنفسهم اذا حزب الواحد منهم أمر يذهب نزيلا عند أحد ملوك النصارى ، وكم التجأ فيما بعد مسلمون من غرناطة الى اشبيلية ، ونصارى من اشبيلية الى غرناطة فالمأمون ابن ذي النون تلقى الاذفونش أوانئذ براً وترحيباً ، وائتلف الضيف والمضيف وكانا يذهبان معاً إلى الصيد ، وكانت أرض طليطلة شجراء ، أكثر جداً مما هي اليوم فبينما ذات يوم المأمون والاذفونش فى إحدى الجنان بجوار طليطلة ، أدركت القائلة الاذفونش ، فاضطجع فى ظل شجرة ، وجلس المأمون يتحدث إلى أصحابه على مقربة منه ، فبينما هم فى الحديث ، عنّ لهم موضوع طليطلة وما هى عليه من المنعة الطبيعية ،

على شفير ذلك الوادى العميق . فأجمع من حضر من أهل النظر على أن طليطلة لاتؤخذ ولا ينال منها مرام . فانبرى أحد الذين كانوا فى ذلك المجلس ، وخالف رأى الجماعة ، وقال إنه يكفى لتذليل طليطلة ، أن يعمد العدو إلى ضواحيها فيجتاحها ، ويقطع الميرة عن أهلها ، فيضطروا إلى التسليم . فان لم يمكن أخذ طليطلة بالسيف فيمكن جداً أخذها بالجوع .

وكان الأذفونش بين النائم والواعى . فلما سمع الحديث عن أخذ طليطلة ، أصغى إليه ، وتنبه له ، ووعى كل ماسمعه . ولكنه أسرّها فى نفسه ، ولم يشعر القوم بأنه سمع مما قيل شيئا . ثم إنه لما جلس على عرش قشتالة تذكر ذلك المجلس ، وعمل برأى من قال إن طليطلة قد تؤخذ بالحصر والجوع .

ويظهر من هنا أن الاذفونش لم يكن يجهل العربية ، لأن ابن ذى النون وجماعته إنما تكلموا فى تلك القائلة بالعربية ، لا بالاسبانيولية . فلو لم يكن الأذفونش عارفا بالعربية لما فهم الحديث

والخلاصة أنه حاصر طليطلة عدة سنوات وعاث فى نواحيها ، وقطع الميرة التى كانت تأتيها من ضواحيها ، وما زال يجوّع أهلها حتى أخذها فى ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ كما تقدم

وقيل ، وهو الأرجح ، إنه استولى على تلك البلدة بدون عناء كبير ، بل باقناعه القادر بن المأمون بن ذى النون بأنه يكون خيرا له لو ذهب إلى بلنسية ، وملك فيها وهى في بحبوحة من الاسلام ، وترك له طليطلة الواقعة دائما فى حلق العدو .

وقد أجمع المؤرخون على سوء تدبير القادر بن ذى النون ، وأنه لم يكن كفؤاً لعروس مثل طليطلة ، فكان وجوده فيها السبب فى ذهابها من يد الاسلام . وكان ذلك نبأً كبيراً ، كما جاء فى مرثية طليطلة ، لان القشتاليين أخذوا بعدها بمخنق الاسلام وبركوا على قلبه فى جزيرة الأندلس ، وصار بعدها ثغرُه مُعْوِرا وأمرُه مدبرا .

وأصل بنى ذى النون من البربر الذين كانوا فى خدمة الدولة العامرية . وروى

ابن عذارى أن اسم جدّهم لم يكن « ذا النون » ، و إنما كان « زنون » ، وهو اسم من أسماء البربر فتصحف بطول المدة ، وصار « ذا النون » بالذال .

قال : ولم يكن لهؤلاء القوم نباهة قديمة ، ولا ذكر إلا فى دولة ابن أبى عامر ، فانهم تقدموا فى دولته واشتهروا ، فكان منهم من يقود الجيوش ، و يلى الأعمال والبلاد . وكان منهم فى آخر أمد الجماعة وال بكورة « شنت برِيه » ، فلما وقعت الفتنة بالأندلس كان الوالى بمدينة طليطلة وذواتها عبد الرحمن بن منيوه ، وأدركته منيته فى خلال ذلك، فورث نظره عبدالملك بن عبد الرحمن بن منيوه ، فأساء السيرة بالرعية . وكان أهل طليطلة على قديم الدهر أهل فتنة وقيام على الملوك ، فلم يرضوا سيرة هذا الفتى فخلوه ، وولوا على أنفسهم من ينظر فى أمرهم . ثم إنهم نقموا عليه شيئا فعزلوه وولوا غيره ، ثم خلعوه . ثم رأوا أن يرسلوا إلى ابن ذى النون بشنت برِيه ، فوجه إليهم ابنه اسماعيل بن عبدالرحمن بن ذى النون . فاستولى هذا الفتى على ملك طليطلة و بلادها ، فساس أهل مملكته السياسة الحسنة

وكان أكبر أهل طليطلة رجلا يسمى أبا بكر بن الحديدى ، وكان شيخها ، والمنظور اليه بها من أهل العلم ، والعقل والدهاء ، وحسن النظر فى صلاح البلد . وكانت العامة تعضده ، وتقوم دونه ، فكان هذا الفتى اسماعيل بن ذى النون لايقطع أمراً دونه ، و يشاوره فى مهمات أموره ، فحسده قوم من أهل طليطلة على منزلته عند أميرهم ، فناقشوه وعادوه ، وحضرت منية اسماعيل بن ذى النون ، فولى بعده ابنه يحيى بن اسماعيل الملقب بالمأمون ، ولما ملك يحيى بن ذى النون طليطلة جرى على سيرة أبيه فى استعمال قانون العدل ، وجرى مع بن الحديدى على سنن أبيه ، فاستقامت طاعته ، وضخم ملكه . انتهى . قلنا ولم يكن القادر بن المأمون على شىء مما كان عليه أبوه فلذلك أضاع تلك البلدة العذراء ، والخطة الغراء ، وأى ملك أضاع ! وأى ثغر مكن منه عدو الاسلام ، فتمكن بقدر ما استطاع ؟ !

ولنذكر هنا ملخصاً ما قاله المستشرق لاوى بروفنسال فى الانسيكلو بيدية

الاسلامية قال : توليدو ، وبالعربى طليطلة ، مدينة فى اسبانية ، موقعها فى وسط الجزيرة الايبيرية على مسافة ٩١ كيلو متراً إلى الجنوب ، والجنوب الغربى من مجريط وارتفاعها عن سطح البحر ٥٦٨ متراً ، وهى على أكمة من الصخر ، يحيط بها نهر تاجُه من الجهات الثلاث ، جاريا فى واد عميق ، يسقى حفافيه إلى الشمال الشرقى ، والشمال الغربى ، بقعة بديعة مريعة ، ومن بعدها ترى بسائط قشتالة الجرداء . وليس فى طليطلة اليوم أكثر من ٢٥ ألف نسمه من السكان ، إلا أنها لا تزال مركز ولاية ، ولايزال فيها كرسى الأسقف الأعظم برماط اسبانية . وأما موقعها فلايضاهيه موقع فى العظمة .

وقد ذكرها جغرافيو العرب فأطالوا ، وقصروا ، وجعلها الشريف الادريسى من إقليم الشارات ، وفى زمانه كانت طليطلة انتقلت إلى أيدى الاسبانيول ، وإنما نوه الإدريسى بمنعة موقعها ، وبحصانة أسوارها ، وبالتفاف جنانها التى تجرى فيها قنيّ الماء المرفوع بالنواعير .

وممن أطرى طليطلة أبو الفداء الذى ذكر بساتينها ، وقال إنه يوجد فيها رمان ذو حجم غير معهود . وقال ياقوت الحموى : إن الحنطة التى تنبتها بقعة طليطلة تبقى سبعين سنة ولا تتعفن ، وإن زعفرانها هو بغاية الجودة . وقد ذكر طليطلة المؤرخ الرومانى تيتليف وسماها « توليته » وقال : إن الرومانيين استولوا عليها بصعوبة سنة ١٩٣ ق . م . وذلك فى زمن فولفيوس Fulvues ، وكانت مدينة زاهرة لعهد الرومان وصار لها شأن عظيم بعد انتشار النصرانية . وفى سنة أربعمائة للمسيح انعقد فيها مجمع أساقفة حضره ١٩ أسقفا ، وفى سنة ٤١٨ استولى عليها القوط ، وجعلوها حاضرة ملكهم . وفى سنة ٥٦٧ استقر بها «أتاناجلد» ملك القوط ، ولما تنصرريكاريد سنة ٥٨٧ عظم شأنها ، وصارت عاصمة الكثلكة فى اسبانية . وفى طليطلة كان لذريق ملك اسبانية ، ويتحدثون أنه فيها شاهد فلورندة ابنة الكونت يوليان صاحب سبتة تغتسل فى الحمام ، الذى يقال له حمام الكهف ، فهام بها ، ولما فتح طليطلة طارق بن

زياد سنة ٩٢ للهجرة ، او ٧١٤ للميلاد ، كانت تقريباً خاوية على عروشها ، ولم يكن فيها غير نزر من اليهود ، ضمهم طارق إلى جيشه . ثم وافاه الجيش الذى كان سرحه لأخذ غرناطة ومرسية . وفى طليطلة جعل مؤرخو العرب ملتقى طارق مع موسى ابن نصير سيده ، ولكن موسى لم يتريث فى طليطلة ، بل ساق منها إلى الشمال قاصداً سرقسطة . وجميع من كتبوا من العرب عن الأندلس ينقلون الأخبار التى كانت شائعة ، والتى هى أشبه بالأساطير منها بالحقائق عن الكنوز والأموال التى وجدها العرب فى طليطلة عند ما فتحوها ، وأشهر هذه الأخبار قصة « البيت المغلق فى طليطلة » وقد بحث فى هذا الموضوع بحثا دقيقا المسيو «رينى باسه» René Basset فى رسالة ألفها سنة ١٨٩٨ .

ويدور ذكر طليطلة كثيراً فى كتب العرب ، ولا سيما من بعد استقرار دولة بنى أمية فى قرطبة ، فان طليطلة لم تكن تطيع قرطبة ، وأصبحت مركز عصيان دائم على الدولة ، ومما لا شك فيه أن السواد الأعظم من أهلها بعد استيلاء الاسلام عليها لم يتركوا الديانة الكاثوليكية برغم استعرابهم ، وأنهم كانوا لا يطيقون حكم المسلمين برغم شدة تسامح هؤلاء ، فكانوا لا يدعون فرصة تمر ، ولا غِرة تلوح ، حتى يطغوا ويتمردوا

وفى طليطلة وجدت الثورة البربرية التى وقعت سنة ١٢٢ للهجرة أعظم أنصارها وبجانب طليطلة كانت واقعة وادى السليط التى استأصل فيها جيش قرطبة دابر ثوار طليطلة .

ثم الى طليطلة هذه انهزم يوسف الفهرى من وجه عبد الرحمن الداخل ، وبقى ممتنعاً بها حتى قتل [1] سنة ١٤٢ ، ومن زمن عبد الرحمن الداخل إلى زمن عبدالرحمن

---

(١) بعد أن تمت الغلبة لعبد الرحمن الداخل على يوسف الفهرى فى خبر سنأتى على تفصيله فى قسم التاريخ إن شاء الله . فر يوسف إلى « قريش » ثم إلى « فحص البلوط » كما جاء فى كتاب « اخبار مجموعة » أقدم تاريخ عربى للاندلس ، ثم واقع محجة طليطلة



ملاقاة موسى بن نصير مع طارق بن زياد بأرض طليطلة

الناصر لم تفترّ طليطلة يوماً واحداً عن المقاومة ، وفى سنة ١٤٧ ثار فيها هشام بن عذره فرماه عبد الرحمن باثنين من قواده : بدر وتمام بن علقمة اللذين حصرا المدينة (١) ،

يريد بن عروة ، ليأمن عنده ، وهو إلى طليطلة على عشرة أميال ، فمر بعبد الله بن عمر الانصارى . وهو بقرية من قرى طليطلة ، فقيل له : هذا يوسف منهزماً . فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرجوا بنا نقتله ، ونريح الدنيا منه ، ونريحه من الدنيا ، ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلا ناجشا للحرب . فخرج حتى لحقه ، وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال ، وليس معه إلا سابق الفارسى ، مولى لبنى تميم ، ومن يجهله يقول مولى يوسف . وبقيته بسرقسطة ، ووصيف واحد فقط ، وقد ماتوا من شدة الركض ، وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسف الفهرى ، وقتل سابق ، وهرب الغلام حتى دخل طليطلة . ثم أقبل عبد الله بن عمر برأس يوسف ، فلما بلغ ابن معاوية (أى عبد الرحمن الداخل) إقبال عبد الله بن عمر برأس يوسف أمر بضرب عنق عبد الرحمن بن يوسف المكنى بأبى زيد ، وكان عليه حردا لما صنع بعياله ، ثم أخرج رأسه إلى رأس أبيه . اه قلنا ظاهر من هذا النص ، وصاحبه أدرى بالحقيقة لأنه أقرب عهداً بالحوادث المذكورة ، ان يوسف الفهرى لم يكن دخل طليطلة ، وإنما كان قاصدا دخولها يوم قتله عبد الله بن عمر الانصارى

(١) الذى فى « أخبار مجموعة » هو هشام بن عروة الفهرى ، لاهشام بن عذره ؟ ولا نعلم هل التصحيف فى كلام أخبار مجموعة أو فى كلام لاوى بروفنسال ؟ وقال فى « أخبار مجموعة » إنه كان مع هشام فى الثورة حياة بن الوليد التجيبى والعمرى من ولد عمر بن الخطاب رحمه الله فخرج إليه الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة فحاصره فيها فلما عضته الحرب ، وناله الحصار ، دعا إلى الصلح وأعطى ولده رهينة ، ورجع عنه الأمير. فلما انصرف عنه خلع أيضا ، وعاد إلى نفاقه ، فغزاه الأمير السنة الثانية ، فنزل به وحاربه ودعاه إلى الرجوع فصبر ، فلما يئس منه أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه ، ثم جعل الرأس فى المنجنيق ورمى به إليه فسقط فى المدينة . ورجع عنه ذلك العام (إلى أن يقول) ثم رجع الأمير ، وبعث بعد ذلك بدراً مولاه ، وتمام بن علقمة إلى طليطلة فحاصر هشام بن عروة ، وقطع الأمير البعوث على الأجناد ، وجعلها بينهم دولا فى كل ستة أشهر . فاذا انقضت دولة ندب أخرى ، حتى مل أهل المدينة الحصار ، واستثقلوا الحرب ، وكاتبهم مع ذلك تمام وبدر ، فاسلموا هشاماً والعمرى وحياة (إلى أن يقول) ثم أمر بهم الأمير فقتلوا وصلبوا

ولما تولى هشام الاول ونازعه أخوه سليمان، ذهب هذا إلى طليطلة ، والتزم الاميرهشام أن يذهب و يحاصر طليطلة ، و بعد حصار شهر ين رجع عنها خائباً . وسنة ١٨١ تولى الحكم بن هشام فثارت عليه أيضاً طليطلة بقيادة رجل اسمه عبيدة بن حُميد ، وكان أكثر من يغرى أهل طليطلة بالثورة شاعرهم غِربيب ، الذى كانوا يحبونه[١] حباً جماً ، فولي الامير الحكم على طليطلة مولّداً أصله من وشقه ، اسمه عمروس ، وكان اتفق مع الامير أن يأخذ أهل طليطلة في شَرَك يوقعهم فيه ، وذلك انه دعاهم وقتلهم جميعاً ، في الواقعة المسماة بواقعة الحفرة[٢] (سنة ١٩١) ولكن لم يمض أكثر من عشر سنوات

---

(١) قال فى النفح : وكانت فى أيام الحكم حروب وفتن مع الثوار من أهل طليطلة

(٢) يقول دوزى المستشرق العظيم ، أشهر أوربى كتب على الاندلس ، إن طليطلة كان فيها من الاسبانيول المستعربة أكثر مما فيها من العرب والبربر الذين كانوا منتشرين فى قراها . فبسبب ذلك ، وبسبب نفوذ كلمة القسيسين والأساقفة ، كانت طليطلة مستعدة دائما للانتقاض . وكان الاسبانيول لايزالون ينظرون إليها نظرهم إلى عاصمة لهم فى الدين والدنيا ، وأهل طليطلة بفطرتهم مترعون إلى الثورة لا يضاهيهم فى ذلك قبيل ، وكان عندهم شاعر اسمه غربيب من عائلة اسبانيولية مسلمة يغريهم بالانتقاض أبدا . وكان أمير الاندلس يحسب الحساب لغربيب ، ولم يقدم على شيء بحق طليطلة ما دام غربيب حياً ، ولكن بعد موت غربيب استدعى الأمير اسبانيوليا مسلما من وشقة اسمه عمروس وقال له : انه لايوجد غيرك من يقدر أن يريحنى من أهل طليطلة الذين لا يرضون عليهم والياً عربيا ، فلذلك أنا اخترتك واليا عليهم لأنهم من جنسك . ثم أسر اليه رأيه فى الاقتصاص منهم فوافقه عمروس عليه لما كان من شدة طمعه ورغبته فى ارضاء الأمير ، ثم كتب الأمير إلى أهل طليطلة كتابا يقول لهم فيه إنه نزولا عند رغبتهم اختار لهم والياً من جنسهم

وما وصل عمروس الى طليطلة حتى بدأ بإعمال الحيلة حتى ينال ثقة الطليطليين التامة ، وأخذ يتظاهر بالعصبية للجنس الأسبانيولى ، ويبدى فى الأحايين بغضاءه لبنى أمية وللعرب على الاطلاق ، ثم قال للطليطليين ان سبب العداوة بينكم وبين السلطان هو وضع الجنود فى بيوتكم ، وتثقيلهم عليكم باصناف المغارم فمن هناك كانت تنشأ أسباب الخصام فاذا ساعدتمونى فى بناء حصن لايواء هذه الجنود فى طرف البلدة تكونون

على هذه الواقعة حتى ثارت طليطلة مرة أخرى ، وذلك سنة ١٩٩ فزحف اليها الأمير الحكم بنفسه ، ودخل البلدة ، وأحرق الجانب الأعلى منها ، ثم فى سنة ٢١٤ وفق

كفيتم أنفسكم مؤونة هذه المشاجرات . ولما كان الطليطليون قد أولوا عمروس مزيد ثقتهم رضوا باقتراحه هذا بل آثروا أن يكون هذا الحصن فى وسط البلدة بدلا من أن يكون على طرف منها . ولما انتهى بناء الحصن أعلم عمروس السلطان بانه قد أتم بناء الحصن وانتقل اليه بجنوده . فاسرع السلطان باعلام أحد القواد الذين يرابطون فى الثغور بان يكتب اليه عن حركة بدت من جهة العدو ، وذلك حيلة منه حتى يتمكن من ارسال الجنود الى طليطلة . فلما وصل كتاب القائد أمر السلطان بزحف الجيوش على رأسها ثلاثة من وزرائه بمعية ابنه الأمير عبد الرحمن ، ولم يكن بلغ من العمر اكثر من ١٤ سنة ، فوصلت الجيوش الى ضواحى طليطلة فاشار عمروس الى أعيان الطليطليين بالسلام على الأمير ففعلوا وقابلهم الأمير بالحفاوة الزائدة ورجعوا مسرورين فقال لهم عمروس : تقتضى المصلحة ان ندعو الأمير ليقيم بين أظهرنا عدة أيام ، فان هذا الأمير سيكون هو الملك فى المستقبل ، وانه يحسن أن تكون علاقات الطليطليين به وثيقة فاستحسن القوم رأى عمروس ، وأقبلوا على الأمير يدعونه ليقيم عندهم أياماً فأجاب دعوتهم بعد أن اعتذر ثم لما حصل المقصود أمر الامير بدعوة أهالى طليطلة وضواحيها إلى طعام فكتبوا إلى جميع الأعيان والوجوه واقبلوا زرافات فى الميعاد المعين ، فلم يأذنوا لهم فى الدخول إلا واحداً واحداً فكان الواحد يدخل من باب ويرسل فرسه مع تابعه لانتظاره أمام الباب الآخر . وكان عمروس أمر بحفر حفرة فى دار الحصن أقام بجانبها عددا من الجلادين فعندما يصل الواحد من أعيان طليطلة إلى جانب الحفرة يتلقونه بالسيوف ويلقونه فيها . ولم يعلم على التمام عدد الذين قتلوا فى ذلك اليوم : فابن عذارى يقول سبعمائة والنويرى وابن القوطية يجعلونهم خمسة الآف . ولما صار الوقت ضحى قال أحد أطباء طليطلة لجماعة كانوا أمام باب القصر : ماذا تراه حصل بهؤلاء المدعوين ؟ فقيل له : لعلهم خرجوا من الباب الآخر . فقال لهم : كنت عند الباب الآخر فلم أجد احداً خرج . ثم نظر فرأى دخاناً يتصاعد فقال لهم : ليس هذا دخان الوليمة وإنما هو دخان أجساد قتلاكم . وبعد ذلك هدأت طليطلة مدة طويلة . اه وأما غريب الشاعر الطليطلى فقد قال عنه فى « بغية الملتمس » ما يلى : غريب (بكسر أوله) الطليطلي شاعر قديم مشهور الطريقة في الفضل والخير ومما يتداول الناس من شعره :

٨٢٩ ، ثارت طليطلة أيضاً بتحريض مولد اسمه هاشم الغرّاب ، فاستمرت الفتنة سنتين إلى أن سكنت . وفي زمن عبد الرحمن الثانى ثارت أيضاً فأرسل اليها جيشاً بقيادة الأمير أميّة ، وكان ذلك بعد الفتنة السابقة بخمس سنوات لاغير .

ثم في السنة التى بعدها حصر الامير طليطلة حصاراً استمر عدة أشهر ، ثم أخذها عنوة في عام ٢٢٢ ولم يرجع عنها حتى أخذ منها رهائن بقيت فى قرطبة الى سنة ٢٣٨ ولكن فى هذه السنة نفسها عند ولاية الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم رفعت طليطلة لواء العصيان ، وعزل أهلها الوالى العربى الذى عندهم وزحفوا بجيش هزم جيش الأمير محمد فى اندوجر سنة ٢٣٩ ، ولما كانوا يتوقعون زحف الجيوش اليهم من قرطبة تحالفوا مع « أوردونوه » الأول ملك ليون الذى أمدهم بجيش من عنده ، ولكن الجيش الأموى تغلب عليهم وقتل منهم عشرين ألفاً .

وسنة ٢٤٤ قوّب الأمير محمد تحت جسر طليطلة بينما كتائب الجند فوق القنطرة ، فوقعت وهلكوا جميعا ، فاضطر الطليطليون إلى الخضوع ، ولكن على صورة دفع جزية سنوية ، وتمتعهم باستقلالهم الداخلى .

و بقيت الحال على هذا المنوال إلى زمن الخليفة الناصر ، فلما انتهى من إخضاع

يهددنى بمخلوق ضعيف يهاب من المنية ما أهاب
وليس إليه محيا ذى حياة وليس إليه مهلك من يصاب
له أجل ، ولى أجل ، وكل سيبلغ حيث يبلغه الكتاب
وما يدرى ، لعل الموت منه قريب . أينا قبل المصاب
لعمرك مايرد الموت حصن إذا اكتاب الملوك ولا حجاب
لعمرك إن محياى وموتى إلى ملك تذل له الصعاب
إلى ملك يدوّخ كل ملك وتخضع من مهابته الرقاب

فظاهر من شعر غريب أنه شاعر ثائر صعب المقادة لايرهب الملوك ولا يعرف فرقاً بين الملك والصعلوك وهو يذكر مايذكر من استواء الجميع أمام الموت تهويناً للموت على الناس صنع كل داع إلى ثورة

جميع الثائرين أرسل إلى طليطلة جماعة من الفقهاء ، ليبلغ أهلها بأن استقلالهم الداخلي غير مقبول . فنصح الفقهاء لهم ، فذهب نصحهم بدون فائدة فزحف الخليفة إلى طليطلة بنفسه بجيش جرّار ، وخيّم على الجبل المقابل لطليطلة ، وأصرّ وصمّم على أن لا يبرح مكانه حتى يفتحها .

ثم جعل يبني في المخيّم بالحجر ، وأقام سوقاً ، وسمّى المخيّم مدينة الفتح . ودام الحصار إلى سنة ٣٢٠ ، وفق ٩٣٢ ، فاضطر الطايطليون إلى الاستسلام . وجعل فيها الناصر حامية أموية ، وصارت مركزاً للثغر الأوسط .

وكان والي طليطلة معدوداً من أكابر رجال الديوان ، فتولاها محمد بن عبد الله ابن حُدير ، ثم القائد أحمد بن يعلى .

وفي زمن الحكم المستنصر بن الناصر تولاها غالب بن عبد الرحمن الناصري ، حمو الحاجب المنصور بن أبي عامر

ولما نشبت في قرطبة الفتن التي أفضت إلى سقوط دولة بني أمية ، لم تستفد طليطلة من تلك الحوادث ، كما كانت تفعل قبل ذلك ، وكانت على مدة سنين مقراً للقائد واضح ، وملجأ لمحمد بن هشام بن عبد الجبّار ، ولكن لما انقسمت الأندلس إلى ممالك صغيرة صارت طليطلة مملكة مستقلة يليها بنو ذي النون

وكان بنو ذي النون من زعماء البربر خدموا المنصور بن أبي عامر ، وكانوا في شنته بَرِيّه [1] . فلما سقطت الخلافة في قرطبة أرسل أهل طليطلة إلى عبد الرحمن ابن ذي النون يعرضون عليه ولاية بلدهم ، فأرسل إليهم ابنه اسماعيل ، فتولّى طليطلة وملحقاتها ، واعتمد على أحد أعيانها أبي بكر بن الحديدي . وذهب بعض مؤرخي العرب إلى أنه بعد سقوط الخلافة لم يكن ابن ذي النون أول أمير لطليطلة ، بل سبقه ابن مسرّة ، ومحمد بن يعيش الأسدي ، وولده أبو بكر يعيش . وذكروا أيضاً سعيد

---

(١) Santaver وهي من مقاطعة قونكة



تسليم طليطلة لعبد الرحمن الثانى سنة ٨٣٨ م

ابن شنظير ، و ولده أحمد وعبد الرحمن بن منيوه وولده عبدالملك . على أن بداية حكم ابن ذى النون كانت سنة ٤٢٧ وفق ١٠٣٥ إلى ١٠٣٦ ، فتلقّب ابن ذى النون بالظافر . وكانت وفاته سنة ٤٣٥ ، وخلفه ابنه يحيى ، وتلقّب بالمأمون . ولما مات يحيى سنة ٤٦٧ كانت المملكة الطليطلية قد عظمت واتسعت ، فخلفه حفيده يحيى بن اسماعيل بن يحيى ، الذى تلقّب بالقادر ، ولم يكن فى هذا شىء من حسن تدبير جده ولا من دهائه . فأخذت مملكة طليطلة بالانحطاط ، وفارقه جميع حلفاء جده من أمراء الاسلام ، فانفرد وأحسّ بالضعف ، والتزم أن يلجأ إلى الاذفونش السادس صاحب قشتالة وليون ، فرضى الاذفونش بأن يحميه لكن على شرط أن يؤدى إليه إتاوة سنوية كان الأذفونش يزيدها سنة عن سنة . فاضطر القادر إلى أن يزيد الضرائب على أهل مملكته ، فثاروا به فتقبض على كثير من أعيانهم ، وأوقع بهم ، ومن جملتهم وزيره ابن الحديدى ، فازداد بذلك غضب الطليطليين ، حتى فرّ القادر من طليطلة ، وبايع أهلها المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس الذى تولاها سنة ٤٧٢ .

فلما زحف إليها الأذفونش السادس بحجة أنه يريد حفظها لابن ذى النون كان ذلك خداعاً منه ، ودخلها فى ٢٧ محرم سنة ٤٧٨ ، وفق ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ وكان قد أجبر القادر على عقد معاهدة معه يتخلى له بها عن المملكة ، فكانت مرحلة شاسعة من مراحل استرداد المسيحيين للأندلس .

وحصل لأخذ طليطلة وقع عظيم فى النصرانية وعند المسلمين أيضاً . وكانت هذه الواقعة سبب غارة المرابطين فى السنة التالية . إلا أنه مع ظفر يوسف بن تاشفين ، والأيام التى أدالها الله للموحدين بعد المرابطين فى جزيرة الأندلس ، لم يتمكن المسلمون من استرجاع طليطلة ، ولبثوا يحاصرونها حيناً بعد حين ، فقد حصروها مرة في زمن الأذفونش السادس نفسه ، ومرة أخرى فى زمن سلطان الموحدين أبى يوسف يعقوب المنصور ، وذلك سنة ٥٩٢ ، وفق ١١٩٥ ، وكان المنصور يعقوب استرجع فى هذه

الغزاة قلعة رباح ، ووادى الحجارة ، ومجريط ، على أثر واقعة الأَرَك[1] ، التى كانت للمسلمين على النصارى[2] ، إلا أنه بعد واقعة نافاس طولوزه (المسماة عند العرب بالعقاب) فى ١٦ يوليو سنة ١٢١٢ ، لم يبق أدنى أمل للاسلام فى استرجاع طليطلة .

ولما رجعت طليطلة مسيحية ، وصارت عاصمة قشتالة ، بقيت حافظة مسحة إسلامية راسخة ، فان قسما من أهلها لبثوا مسلمين ، فكما أنها كانت مدينةالوزاراب

(١) يسميها احمد بن يحى بن احمد بن عميرة صاحب بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس ، واقعة الاركة فهو يقول ما يلى : وكان جواز عسكر الموحدين أعزهم الله - يقول أعزهم الله لانه هو كان فى ذلك العصر - الى الجزيرة الخضراء فى عام تسعة وثلاثين وخمسمائة وكان النصارى وقمهم الله قد استجاش بهم ابن غانية ودخل بهم قرطبة وغلبوا عليها وأدخلوا دوابهمفىجامعها المعظم ومزقت أيدى الكفار بهمصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفانرضى الله عنه وجمع بعد جهد . ولما سمعالنصارى وزعيمهم الانبراطور بان عسكر الموحدين قد جاز الى الجزيرة خاف وخار وجمع الاعوان والانصار واستشار فاشاروا عليه بان يرجع الى بلاده وينظر فى حمايتها فخذله الله وتوافق مع ابن غانية على أن يتركه بقرطبة وينصرف فتركه بها ثم خدعه وطلب منه بياسه فدفعها اليه مخافة أن يستقر بقرطبة . واستولى الأمر العالى أدامه الله بعد ذلك على جميع ما كان بايدى المسلمين بالأندلس وارتفعت المحن والفتن والجور والجزية واجتمعت الكلمة وجرت على الروم دمرهم الله هزايم جمة آخرها هزيمة أذفونش بن شانجه قصمه الله عند الاركة على مقربة من قلعة رباح فى التاسع لشعبان المكرم عام احدى وتسعين وخمسمائة . وكان عسكره الذميم ينيف على خمسة وعشرين الف فارس وماتى الف راجل . وكانمعه جماعات منتجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين واسلابهم واعدوا لذلك أموالا فهزمهم الله تعالى واستوعب القتل اكثرهم وحاز الموحدون جميع ما احتوت عليه محلتهم الذميمة وعاين اللعين الحمام ونجا برأس طمرة ولجام وكانت هزيمة شنيعة على الشرك واهله لم يسمع بمثلها والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين .

(٢) الذين يعرفون تاريخ دولة الموحدين يجزمون بأنه لو طالت حياة يعقوب المنصور لاسترجع طليطلة وجميع ما كان خلا من الاسلام من بلاد الأندلس .

أى الأسبان المستعربين فى دولة الاسلام ، كانت أيضاً مدينة المورسك أى المسلمين المدجّنين في دولة النصارى . ومن الغريب أنه لم يبق آثار كثيرة فى هـذه البلدة للمسلمين عن إقامتهم الطويلة بها ، وكل مابقى هو آثار جامع صغير فى بيب[١] مردوم هو الذى تحول إلى كنيسة باسم كنيسة مسيح النور ، وكذلك وجـد فى طليطلة من بقايا الاسلام بعض أقسام من قصر « تورنيرياس[٢] » ، ومن الباب القديم المسمى بباب شقره[٣] . ولكنه وجـد كثير فى الأرباض من قبور المسلمين التى عليها كتابات عربية[٤] .

(١) ذكرنا من قبل أنهم فى الأندلس كانوا يلفظون بالامالة ويقولون للباب بيب ولا يزال فى قرطبة وفى اشبيلية وفى غرناطة أبواب كثيرة يقال للواحد منها بيب كذا وبيب كذا وهى إمالة يرجح عندى انهم أخذوها من الشام فقد سمعت باذنى بعض أهالى بعلبك يقولون للباب بيب وإن كان الأكثرون فى الشام اليوم لايلفظون الباب بالامالة . ولقد حررت رسالة فى علاقة اللهجات العربية بالتاريخ القيتها فى مؤتمر المستشرقين بليدن سنة ١٩٣١ ونشرتها فى مجلة المقتطف وربما أطبعها على حدة إن شاء الله .

(٢) Tornerias (٣) Visagra

(٤) وجدت سنة ١٨٧٨ فى ديرسان برتلمى فى بقعة طليطلة كتابة هى الآن محفوظة فى المتحف الأثرى الوطنى فى مجريط هذا نصها بعد البسملة : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . هذا قبر محمد بن أحمد بن محمد ابن مغيث كان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون توفى رحمه الله ليلة الاحد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وأربعمائة »

ذكر لاوى بروفنسال : أن الغزال سفير المغرب زار سنة ١٧٦٦ طليطلة واطلع على هذه الكتابة وروى ذلك فى رحلته فقال : « وركبت فى الحال مع الحاكم للمواضع التى أرشدنا إليها فاذا بمقبرة المسلمين رحمهم الله سارية من الرخام مكتوب عليها بخط كوفى : يا أيها الناس الآية ، وهذا قبر الامام أحمد بن أحمد بن مغيث كان يشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق

وختم لاوى بروفنسال هذا الفصل فى الانسيكلوبيدية الاسلامية بقوله : برغم أن طليطلة كانت ثغراً ، وكان فيها عناصر عظيمة من النصرانية ، فقدكانت لآخرعهد بنى أمية ، وفى أيام المأمون بن ذى النون ، من القواعد الكبرى للثقافة الاسلامية فى الاندلس ، و إن كثيراً من التراجم والسير لتتعلق بعلماء وحكماء وفقهاء من مسلمى طليطلة . انتهى

ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون توفى رحمة الله عليه ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الثانى سنة تسع وأربعين واربعمائة ثم سارية أخرى مكتوب فى أولها مافى الأول من الآية الشريفة غير أن صاحب القبر لم يعرف من هو لمحو المحل الذى هو مكتوب ولم يبق من الحروف إلا لفظ أربع وأربعين فى محل التاريخ لايقرأ ماقبله ولاما بعده

قال لاوى بروفنسال : إن صاحب هذا القبر فيما يترجح هو ابن أبى عمر احمد بن محمد بن مغيث الصدفى المحدث الطليطلى الذى مات سنة ٤٥٩ وترجمه ابن بشكوال فى الصلة وقال إن السفير المغربى لم يكن فيما يظهر ماهرا بقراءة الخط الكوفى

وقد وجدت أيضاً فى تلك البقعة كتابة أخرى هى هذه : البسملة . . . « هذا قبر أحمد بن فرج مولى محمد بن جهور توفى رحمه الله يوم الأحد يوم خمس عشرة من شهر رمضان سنة اثنتين وستين واربعمائة رحمة الله عليه » ، وكتابة أخرى على قبر مجهول نصها : « البسملة . . . هذا قبر محمد بن يوسف ابن العاسل توفى رحمه الله يوم الخميس لستة عشر خلون من المحرم سنة أربع وستين واربعمائة فرحم الله من ترحم عليه » ووجدت كتابة بخط نسخى تاريخها سنة ٦٦٠ للهجرة هذا نصها بعد البسملة والتصلية : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور هذا قبر زهرة بنت محمد بن محمد رحمها الله توفيت وهى تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فى عام ستين وستمائة »

فهذه الكتابة هى بعد رجوع طليطلة للاسبانيول بنحو من مايتى سنة فقد بقى فيها عدد غير قليل من المسلمين المحافظين على جميع شائرهم وقد بقى فيها مسلمون إلى ما بعد ذلك العهد بكثير ولكن بعد صدور الأوامر من ملوك الاسبان بتنصير جميع المسلمين قسراً أصبحوا لايقدرون أن يعلنوا اسلامهم وبقى فى تلك البلدة مسلمون مكرهون على النصرانية وقلوبهم مطمئنة بالايمان إلى ما بعد سنة الف للهجرة

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية تحت لفظة « أندلس» بقلم المستشرق سيبولد كلام قال فيه : إلى الآن لم يتيسر القيام بتحقيق على تام عن كيفية تأثير المدنية الاسبانية العربية بأوربة فى القرون الوسطى ، وإلى أية درجة بلغ هذا التأثير . فهذا الأمر يتعلق بالبحث عن دار الترجمة التى كانت بطليطلة ، وهى الواسطة التى قام بها أدباء اليهود بين الشرق والغرب ، وكان هؤلاء اليهود بأجمعهم منسوبين إلى الثقافة العربية . انتهى

وجاء فى صبح الأعشى للقلقشندى : أن موقع طليطلة فى آخر الاقليم الخامس قال ابن سعيد : حيث الطول خمس عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثمان عشرة دقيقة ، قال في تقويم البلدان : وهى من أمنع البلاد وأحصنها ، مبنية على جبل عال ، والأشجار محدقة بها من كل جهة ، ويصير بها الجُلَّنار بقدر الرمانة من غيرها ، ويكون بها شجر الرمان عدة أنواع ، ولها نهر يمر بأكثرها ، ينحدر من جبل الشارة ، من عند حصن هناك يقال له تاجُه ، وبه يعرف نهر طليطلة . ومنها إلى نهاية الأندلس الشرقية ، عند الحاجز الذى هو جبل البُرت، نحو نصف شهر . وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شِلب . ثم ذكر القلقشندى من مضافات طليطلة مدينة وليد[١] ، ومدينة الفرج[٢] ، ومدينة سالم[٣] التى فيها قبر المنصور بن أبى عامر

بقى علينا أن نذكر قضية المائدة التى يقال إن طارق بن زياد وجدها فى طليطلة عند فتحها ، وأطال مؤرخو العرب فى وصفها ، وهاموا فى أودية الخيال ، وقالوا ماليس وراءه مقال ، وسمّوها مائدة سليمان ، ورعموا أنها كانت من دخائر أشبان ، ملك الروم الذى بنى أشبيلية ، وأنه أخذها من بيت المقدس. وقالوا إن هذه المائدة قُوِّمت عند

---

(١) Valladolid

(٢) ويقال لها وادى الحجارة وبالاسبانيولى Guadalajara

(٣) والاسبانيول يقولون لها مدينة سالى بالترخيم Medinaceli

الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل إنها كانت من زمرد أخضر . وقالوا إن طارقا وجد بطليطلة ذخائر عظيمة ، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، و إيوان ممتلىء من أوانى الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه . وذكروا أن أوانى المائدة من الذهب ، وصحافها من اليَشْم والجزَع ، قال المقّرى فى نفح الطيب بعد سرده هذه الأشياء : وذكروا فيها غير هذا مما لايكاد يصدقه الناظر فيه

قلنا : هذه أخبار أشبه بالأساطير ، وحكايات العجائز منها بالتواريخ ، وقد كان مؤرخونا رحمهم الله فى غنى عن نقل كل ماتلوكه ألسن العوام الذين يتكلمون بقدر عقولهم ، وكلما بعد الزمان أو المكان ازدادت المبالغة فى الخبر . ورحم الله ابن خلدون الذى عاب على المؤرخين تسوقهم من الأخبار كيفما اتفقت ، بدون تمحيص ولا تفكير و بدون عرض الأشياء على أصولها ، ولاقياسها بأشباهها ، وأطال فى هذا الموضوع . وكان حجة للعرب فى أمر التحقيق .

والحقيقة التى لامفر منها أن من عادة مؤرخى العرب ، إلا من رحم ربك ، نقْلَ الغث والسمين بدون أن يأذنوا لأنفسهم فى الاعتراض على ما يكونون هم أنفسهم مرتابين فى صحته ، وذلك تورّعا عن تكذيب من قبلهم ، و بحجة ان هذه المرويات قد تكون صحيحة ، وان هذا العالم هو عالم الامكان ، فليس ثمة شئ مستحيل ، وان قدرة الله تعالى لا يعجزها شىء ، وما أشبه ذلك من التعليلات .

والجواب : نعم ان قدرة الله تعالى لايعجزها شىء ، وان هذه المرويات وأغرب منها بكثير غير خارج عن حيز الامكان ، ولكن هذا شىء والذى نحن فيه شىء آخر ، فعدم خروج الغرائب عن حيز الامكان لا يوجب أن يكون كل ما يروى منها صحيحا ، اذا لم توجد له أسانيد لايتطرق اليها الشك ، وحجج لا يمكن فيها النزاع . والحال انه فى مايروى عن هذه المائدة التى قيل ان العرب وجدوها فى طليطلة ، لا توجد إثبات تحمل على الجزم بصحتها ، وقد يكون طارق وجد فى عاصمة القوط هذه

بعض ذخائر ونفائس ، مما لا تخلو منه عواصم الملوك ، وربما وجد مائدة مرصعة بالدرر واليواقيت ، وهذا عند الملوك شيء معتاد ، وقد قيل : عن الملوك ولا تسل ، ولكن العوام جعلوا الواحد مئة ، ووصلوا المسألة إلى الحد الذى يتخيل فيه الانسان قصص ألف ليلة وليلة .

وأما الافرنج فقد تكلموا عن هذه الروايات فحملوها على الخيالات ، وعدوها من المحالات ، وهذا أيضاً مردود لأن عاصمة كعاصمة اسبانية يجوز أن يجد فيها الفاتح من ذخائر ملك القوط حجارة كريمة ، وتيجاناً مرصعة ، ومائدة من الذهب والفضة ويجوز أيضاً أن يطأ إيواناً واسعاً ، مموهة أطرافه بالذهب ، وإن كانت الفرسان لا تلعب فيه بأرماحها .

وأما طول قنطرة طليطلة وعرضها ، وان الطول ثلاثمائة باع ، وان العرض ثمانون باعاً ، فهو من المبالغات التى تتناقلها العوام بدون روية ، ولعلها من خطأ النساخ الذين نقلوا نفح الطيب .

أما ابن حوقل فى المسالك والممالك فيقول عن طليطلة : وهى مدينة كبيرة جليلة مشهورة ذات سور منيع ، وهى على وادى تاجُه ، وعليه قنطرة عظيمة ، ويقال ان طولها خمسون باعاً ، الخ . فظهر من هنا اختلاف الرواية من ثلاثمائة إلى خمسين ، على ان المقرى فى النفح يروى أن هذه القنطرة قد خربت أيام الأمير محمد الأموى ، لما عصاه أهل طليطلة ، وقال فيها الحكيم عباس بن فرناس أول من اخترع آلة للطيران :

ما كان يُبقِى اللهُ قنطرةً نُصبت لحال كتائب الكفر

والأمير محمد قد توفى سنة ٢٧٣ ، وابن حوقل كتب كتابه هذا فى الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة ، أى بعد وفاة الأمير محمد الأموى بستين أو سبعين سنة ، فتكون القنطرة الشهيرة الموصوفة قد خربت ، وقام مقامها القنطرة الحديثة ، التى يقول ابن حوقل ان طولها خمسون باعاً فهل بين القنطرتين كل هذا الفرق ؟ وعلى كل حال

لا نجد القنطرة الحاضرة على تلك العظمة التى حدثوا عنها ، فهى قنطرة كبيرة بجانبها أخرى صغيرة أصلها من بناء العرب ، ثم تشعثت فى زمن الاذفونش الملقب بالحكيم فأصلحها . ثم جددها تينور يوه رئيس الأساقفة .

وجاء فى مروج الذهب للمسعودى عن طليطلة قوله : قصبة الاندلس يشقها نهر عظيم يدعى تاجُه : يخرج من بلاد الجلالقـة والوسقيد (Basque) وهى أمة عظيمة لهم ملوك وهم حرب لأهل الأندلس كالجلالقة والافرنجة ، و يصب هذا النهر فى البحر الرومى .

هذا تحر يف من النساخ أو هو سهو من المسعودى نفسه ، لأن نهر تاجه مصبه فى البحر الاطلانتيكي وهو موصوف بأنه من أنهار العالم ، وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف ، بنتها الملوك السالفة .

ومدينة طليطلة ذات منعة ، وعليها أسوار منيعة ، وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبنى أميـة قد كانوا عصوا على الأمو يين ، فأقامت مدة سنين ممتنعة ، لا سبيل للامو يين اليها . فلما كان بعد الخمس عشرة وثلاثمائة فتحها عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله ابن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاو ية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحـكم ، وعبد الرحمن هذا هو صاحب الاندلس فى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وقد كان غيّر كثيراً من بنيان هذه المدينة حين افتتحها وصارت دار مملـكة الاندلس قرطبة إلى هذا الوقت . . . (إلى أن يقول) : ولهم من المدن الموصوفة نحو من ار بعين مدينة ، وتدعى بنو أمية الخلائف ، ولا يخاطبون بالخلفاء ، لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالـكا للحرمين ، غير انه يخاطب بأمير المؤمنين اه .

قلت : ذ كر هذا المسعودى فى زمن عبد الرحمن الناصر ، و يظهر انه كتبه قبل أن علم أن الناصر رحمه الله تلقب فى آخر الأمر بالخليفة ، و بأمير المؤمنين معاً . وذلك بعد أن توحدت الجز يرة الاندلسية تحت حكمه ، وامتد سلطانه إلى بر العدوة ، وكان قد بدأ الضعف فى دولة بنى العباس فى بغداد .

وربما يكون الناصر لم يكن اشتهر تلقبه بالخلافة فى سنة ٣٣٢ التى كتب المسعودى فيها كتابته هذه فإن وفد قسطنطين بن ليون ملك القسطنطينية إلى الناصر، كان فى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، على رواية ابن خلدون ، أوسنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، على رواية غيره ، وقد خاطب فيه صاحب القسطنطينية المذكور عبدالرحمن الثالث الأموى الناصر لدين الله بقوله : « العظيم الاستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالاندلس ، أطال الله بقاءه » وفى الاحتفال الذى جرى عند وصول سفراء ملك الروم وتكلم فيه القاضى المفوّه المشهور ، منذر ابن سعيد البلوطى ، كان من جملة كلامه فى ذلك الجمع : فأصبحتم بنعمة الله إخواناً وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات . (إلى أن يقول) : فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين ، أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قراراً ، وأمنعهم داراً الخ .

فمن هنا يظهر أن لقبى الخليفة ، وأمير المؤمنين كانا فى ذلك الوقت مستعملين بحق عبد الرحمن الناصر ، واذا رجعنا الى رواية النفح نجد أن الناصر تلقب بهما من قبل ذلك ، فانه يقول فى صفحة ١٦٥ من الجزء الأول ، الطبعة المصرية الاولى ، ما يلى : وهو أول من تسمى من بنى أمية بالاندلس بأمير المؤمنين ، عند ما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، فتلقب بألقاب الخلافة . انتهى .

وفى بغية الملتمس لابن عميرة : ان موسى ابن نصير لما افتتح الاندلس ، مضى على وجهه يفتتح المداين ، حتى انتهى الى مدينة طليطلة ، وهى مدينة الملوك ، فوجد فيها بيتاً يقال له بيت الملوك ، وجد فيه خمسة وعشرين تاجاً مكللة بالدر والياقوت ، وهى على عدد الملوك الذين ملكوها ، كلما مات ملك جعل تاجه فى ذلك البيت ، وكتب على التاج اسم صاحبه ، وكم أتى عليه من الدهر إلى يوم مات . انتهى . فهنا خمسة وعشرون تاجاً لا غير .

وأما فى نفح الطيب فقد ذكر فى الجزء الأول فى الصفحة ١٣٥ أنه وجد فى طليطلة مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد فيها الف سيف ملوكى ، ووجد فيها من الدر والياقوت اكيال ، ومن الذهب والفضة مالا يحيط به وصف . ومائدة سليمان ، وكانت فيما يذكر ، من زمردة خضراء وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان [1] ، و إنما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة فى دينهم ، إذا مات أحد منهم ، أوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم مال له قدر ، صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسى من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس ، فوقها الأناجيل فى أيام المناسك ، و يضعونها فى الأعياد للمباهاة . فكانت تلك المائدة فى طليطلة مما صنع فى هذا السبيل ، وتأنق الملوك فى تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برّزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كل مطار . وكانت مصوغة من الذهب الخالص ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد . وقيل إنها من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا ، وكانت توضع فى كنيسة طليطلة ، فأصابها طارق ، اه .

قال المقّرى : وقد ذكرنا فيما مر عن ابن حيان مافيه نظير هذا ، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها مافيه بعض تخالف . وما ذلك إلا لأنا ننقل كلام المؤرخين ، و إن خالف بعضهم بعضاً ، ومرادنا تكثير الفائدة

و بالجملة فالمائدة جليلة المقدار ، و إن حصل الخلاف فى صفتها ، وجنسها ، وعدد أرجلها . وهى من أجل ماغنم بالأندلس ، على كثرة ماحصل فيها من الغنائم

(تم الجزء الأول والحمد لله)

---

(١) ونظنه أصاب

فهرس الكتاب

قبل مجيء العرب وما ورد فى ذلك من أساطير ومن حقائق — ملوك القوط ومدة كل منهم — الحساب اليوليانى والحساب الغريغورى وحساب الصفر الاسبانيولى — بحث عن المعادن بالاندلس وما نقله المقرى وما قاله لاوى بروفنسال المستشرق المعاصر — قول رافائيل بالستر إن اسبانية الاسلامية كانت من أغنى البلاد الاوربية وأحصاها سكاناً ، فى عصر الخلفاء ، كان فيها ست حواضر كبرى وثمانون مدينة معمورة جد العمران وثلاثمائة مدينة من الدرجة الثانية — مملكة غرناطة آخر ممالك الاسلام بالاندلس كانت قبل سقوطها ثلاثين مصراً وثمانين قصبة وعددها أربعة ملايين نسمة — المرية مرسى الاسطول الاسلامى الاندلسى وفيها دار الصناعة — دور الصناعة فى دانية والجزيرة الخضراء وشلب والقنت وقسطلون والمنكب ومالقة وقصر أبى دانيس وطرطوشة وجزيرة يابسة — كان فى المرية ألف إلا ثلاثين فندقاً مقيدة فى ديوان الخراج — طليطلة قاعدة ملك القوطيين — كلام أبى بحر صفوان بن ادريس عن الأندلس بشكل مفاخرة بين مدائنها — أهل شلب وفصاحتهم بالعربية وأن الفلاح الذى خلف فدانه كان يقرض الشعر — كتاب من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب عن لسان سلطانه بترجيح الجهاد فى الاندلس على الحج وصف سرقسطة وذكر السمور المنسوب إليها — التين المالقى والزبيب المنكبى والزيت الاشبيلى والرمان السفرى الخ — أفاويه الاندلس المتنوعة — حيوانات الاندلس وطيورها — مقاطع الرخام بالأندلس — صناعات الاندلس المتعددة الفائقة — قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة وملعب مربيطر — رواية أن الخليفة عثمان بن عفان هو أول من أوصى بفتح الأندلس — كلمة للشيخ عبد العزيز الثعالبى عن هذه الرواية — خبر البيلتين اللتين كانتا بطليطلة — منارة اشبيلية التى من بناء يعقوب المنصور — دخل الدولة الاندلسية أيام الناصر عشرون مليون دينار ذهب وثلاثمائة وأربعون مليون درهم من الفضة . ويقول لاوى بروفنسال إنه تضاعف فى زمن المستنصر إلى أربعين مليون دينار وهذا عظيم جداً بالنسبة إلى ذلك العصر — تعاقب الولاة المستمر بسرعة على القيروان وبالتالى على الأندلس كان السبب فى وقوف الفتوحات العربية فى أوربة لأن الثبات والاطراد هما من أهم شروط النجاح . وأما بعد أن صار الحكم إلى بنى أمية فى قرطبة فقد زال التذبذب الذى كان فى ولاية الاندلس — الجهاد العربى فى أوربة صار مقصوراً على مسلمى الاندلس وحدهم وفى الأحايين من يأتيهم من المغرب وذلك بسبب

فهرس الاعلام

الواردة فى الجزء الأول من كتاب
الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

رتبها الفقير إليه تعالى عثمان خليل

(غ)

(ف)

ق

(أبو)

تم ولله الحمد فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلاد

الواردة فى الجزء الأول من كتاب

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

رتبها الفقير إليه تعالى عثمان خليل

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

تم فهرس الأماكن والبلاد والحمد لله



الخطأ والصواب الواقع فى الجزء الأول

من الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٦	سهام غير خطاء	سهام غير حطاء
٦	١٦	وهما	هما
٨	١٤	ففلشت	ففشلت
٢٥	٢٢	العناصر العربية	العناصر الغربية
٢٦	٢٢	الكتكلونيون	الكتلونيون
٢٨	١٧	و « الميزيتا »	« الميزيتا »
٢٩	٦	نشوذ	نشوز
٣٤	١٢	السلتون	السلتيون
٣٦	١٩	sisbonne	Lisbonne
٣٧	٥	دوريزين	درايزن
٣٧	٢١	réuniment	réunissent
٣٩	١٦	فى حوالى	نواحى
٣٩	١٦	الهمذانى	الهمدانى
٤٢	٢٠	من أكثرهم	فى أكثرهم
٤٣	٢٠	أغراء	إغراء
٤٤	١٢	بن سعيد	ابن سعيد
٤٦	٦	قلاع	سلاع
٤٦	٢٢	Verdune	Verdun
٤٧	٢	مقدّ	مقدود
٥٠	٤	خمسة عشر دقيقة	خمس عشرة دقيقة
٥٠	١٠	فرس فاره أو بزدون هجين	فرسا فارها أو بزدونا هجينا
٥٠	١٣	فمن يقبض رزقه	ممن يقبض رزقه
٥٥	١١	marcie	murcie

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٦٩	٩	الزلية	أزلية
٧٧	١١	البلوطين	البلوطيين
٨٧	١٧	المجتازون	المجتازين
٩٠	٢٣	١٨٧٦	١٢٧٦
٩٤	٢٧	جنوبي	جوبي
٩٥	٣	(قرب) ما بين	ما بين
٩٥	١٥	شاليش	شالطيش
١١٥	٣	بإتقان	باتفاق
١١٥	٦	ثلاثة	ثلاث
١١٥	١٢	ولا تزال عادة	(ولا تزال عادة
١١٦	١	إلى يومنا هذا	إلى يومنا هذا)
١١٩	١٨	دجار	رجار
١٢٢	١٢	خمسة	خمسُ
١٤١	١٢	إتقان	أتقان
١٤٧	٨	نحو من	نحوا من
١٥٦	٢	لشك	نشك
١٥٦	٢٥	Lislam	L'islam
١٥٨	٣	در	درر
١٥٨	٨	اليونانيين	لليونانيين
١٧٢	٣	ممتهين	ممتهن
١٧٨	٢٠	الصغر	الصفر
١٨٠	٦	الاشبلونة	الاشبونة
١٩٩	١٥	والدنا	ولدنا
١٩٩	١٧	Vargas	و Vargas
٢٠٥	٩	Baossa	Baena

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠٦	١٨	القهوات	الفوهات
٢١٤	١٢	القلبعية	القَلْعية
١٢٥	٦	يجب هنا وضع رقم ٣ على جبل شلير ووضع رقم ٢ على قوله « ماثتان وسبعون قرية »	
٢٣٢	٢	شنت ياقور	شنت ياقو
٢٤٨	١٤	فاذردت	فازدرت
٢٦٤	٨	الى بعد	اى بعد
٢٦٥	١٣	عن ايدى	عما بايدى
٢٦٥	١٣	الالس	الاندلس
٢٧١	١٥	الصفانيان	الصغانيان
٢٧١	١٠	ولا يأخذونه على	ولا يأخذون به
٢٩٩	١٥	محد بن عبد الله	محمد بن عبد الله
٣١٩	١٨	الاراضين	الارضين
٣٢٠	٥	قونلة Cuenla	قونكة
٣٤٤	٢٥	ابن الحاج	ابن حماد
٣٥٢	٢٠	موقعة	واقعة
٣٥٣	١٩	المملكة	المكتبة
٣٥٦	٩	تحصله	تحصيله
٣٦٥	٢٢	وردفها	ورد فيها
٣٦٩	٥	ذ كرى	ز كرى
٣٧٢	٤	المأحونية	المأمونية
٣٧٩	٢٤	الغرايلية	الفرايلية
٣٧٩	٢٧	و على	و الى
٤٣٦	١	خمسة دقائق	خمس دقائق
٤٤١	٩	حامل رأسه	حافة رأسه

تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر

ابن خلدون : هو حجة التاريخ العربى ، وإمام فلسفته ، وواضع علم الاجتماع الانسانى والعمران على غير مثال . أطلعته سماء تونس الخضراء سنة ثنتين وثلاثين وسبعمائة كوكباً متألق النور فى العالم العربى كله ، تفرد بعقليته ، وتوحد بعبقريته فطبع التاريخ العربى بطابع ثابت من عقله الحكيم ، وذوقه السليم ، فلم يكن فى شيمة من سبقه أو لحقه من المؤرخين فى سرد التاريخ وقائع ، وروايته أعلاما ودولا وسنين ومواقع ؛ بل أرسل عليه من هديه ودقة خبرته وقوة تفكيره وسعة اطلاعه ، أشعة ساطعة تكشف عن دقائقه فى ثنايا المبالغة والابهام ، وتبين عن حقائقه فى أثناء الحوادث الجسام ، وتجرد هذه الحقائق من غواشيها ، ثم تجلوها ناصعة كأنه رآها وسايرها ، بل كأنه دارجها وعاصرها

مزية تلك ، بل مزايا مجتمعة ، بنى عليها ابن خلدون مقدمته ، ثم كتابه « العبر » فجاء مصدراً للتحقيقات العلمية للتاريخ ومرآة صافية تلوح فيها دول الاسلام كل دولة فى زمانها ، وكل أمة بأخيلة أعيانها ، وسياسة كل عصر بفنونها وأفنانها ، وتقلبها ودورانها

وقد كان كتاب « العبر » فى كل زمن حجة المؤرخين وبخاصة من الأوربيين الذين آمنوا بأنهم من المؤلف بازاء عقل جبار دقيق الوزن للحوادث ، دقيق التقدير للأقدار ، مستندا فى إثبات ما يثبت ونفى ما ينفى وتضعيف ما يضعف على أقيسة من التاريخ نفسه . فهم إليه يرجعون فى تحقيق بحوثهم العمرانية والاجتماعية والتاريخية ، وعليه يعولون فى تحقيق جغرافية الممالك والأقاليم ، وصغار المدن وكبارها .

طبعة ابن خلدون الجديدة : وقد كانت طبعته القديمة كما تشهد على نفسها بنفسها فائضة بصنوف من الهنات والهفوات ، مردها إلى عبث النساخ وجهالاتهم . ولكننا لحسن الحظ حصلنا

على صورة مصبوطة من نسخة بخط المؤلف نفسه وقد كان أهداها إلى سلطان المغرب فى عصره موقع الاهداء بإمضائه ، و بقيت منذ ذلك العهد مصونة فى خزانة الكتب القروية بفاس ؛ حتى أذنت لنا وزارة مولاى السلطان سيدى محمد ملك المغرب أعزه الله بالمراجعة عليها لطبعها وتعميم نفعها : ما عدا المجلد الأول فقد أخذنا نسخته عن مخطوطة الشنقيطى المحفوظة بدار الكتب المصرية ، ومما يجدر ذكره أننا عثرنا فيها على زيادة تبلغ نحو ٦٠ صفحة موقعها من الطبعة القديمة صفحة ٢٢ من المجلد الثالث .

فكان من هذا المجهود الشاق صورة كاملة نادرة المثال ، كما راجعناه على الأجزاء الموجودة من نسخة المرحوم أحمد تيمور باشا والمرحوم أحمد زكى باشا بدار الكتب

ولم نشأ أن نطبع الطبعة الجديدة مكتفين بدقة التصحيح على نسخة المؤلف كما قدمنا ، بل أردنا أن يكون لهذه الطبعة مزايا على الطبعة القديمة أيسرها الدقة والتصحيح ، فوكلنا ذلك إلى لجنة علمية من الأستاذين الكبيرين السيدين محمد علال الفاسى ، وعبد العزيز بن إدريس بالمغرب، فعنيا بتصحيح الأصول وضبط الأعلام والتعليق عليها ، وتمييز مواضع البياض الموجودة بالأصل ، والاعتماد على مختلف المراجع العلمية فى التصحيح والتنقيح . و إلى أمير البيان ، وفخر كتاب العربية فى هذا الزمان ، الأمير شكيب أرسلان فعلق عليها أو فى تعليق خرجت به النسخة أصح صحة وأجل جمالا ، وأتم تماما . وبخاصة فى الجزء الشامل لمبدأ تاريخ الدولة العثمانية فقد أتى فى تعليقاته على هذا الجزء بمعلومات دقيقة كان صدره خزانتها ، وعلمه الواسع جعبتها .

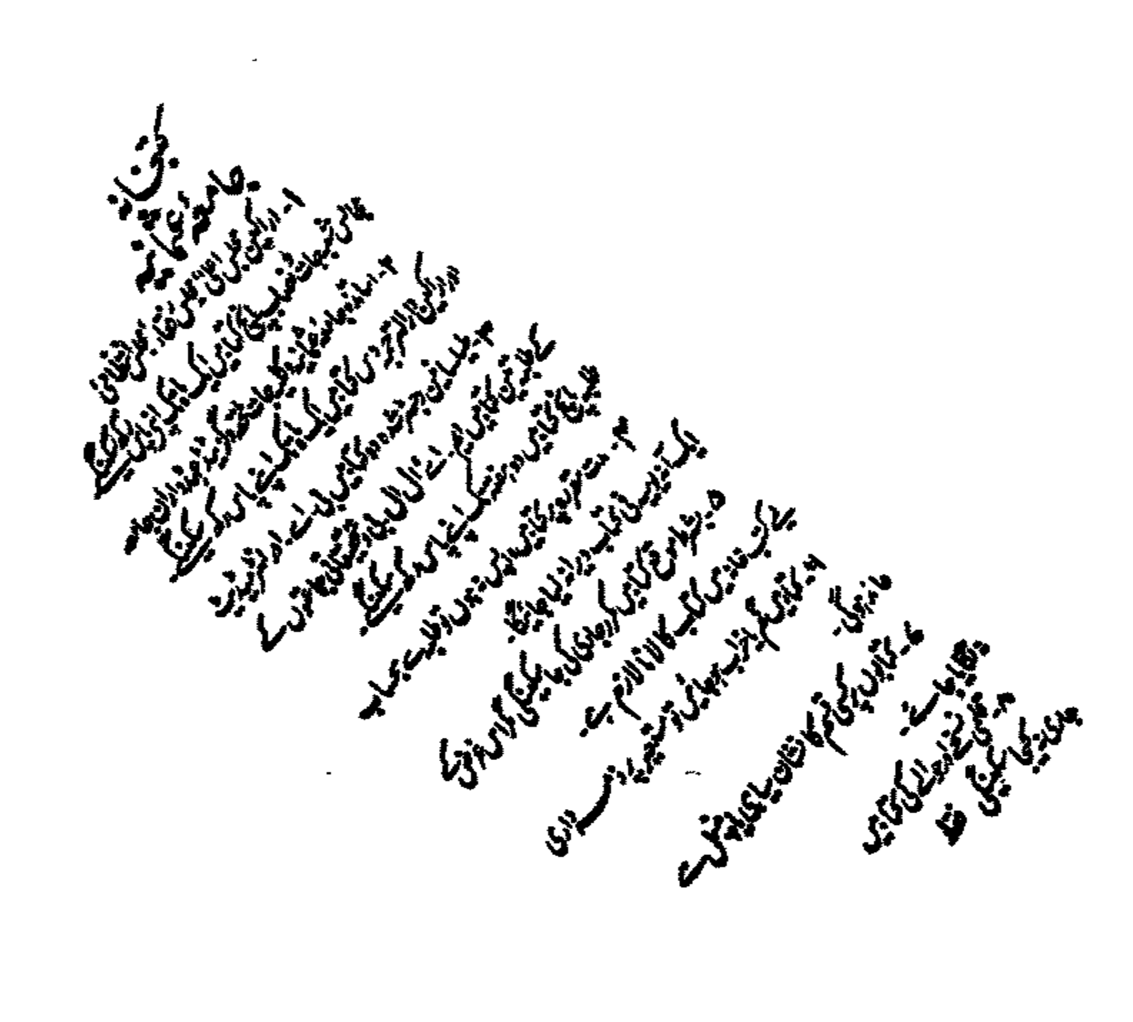
وقد تفضل حضرة الأستاذ الكبير أحمد أمين بك بكتابة مقدمة هذه الطبعة .

وقد امتازت هذه الطبعة بوضع عدة فهارس لها مرتبة على حروف الهجاء ، عنى بترتيبها وتنسيقها الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى افندى الموظف بدار الكتب المصرية

وستخرج هذه المجموعة من الكنوز التاريخية فى أربعة عشر جزءاً تباعاً كل جزء منها يقع فى قرابة ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط والورق المصقول .

الاشتراك قبل الطبع و بعده : وقد جعلنا قيمة الاشتراك فى كل جزء أثناء الطبع ، ولمدة أربعين يوماً داخل القطر وستين يوماً فى الخارج منذ اليوم ، ١٥ قرشاً مع ثلاثة قروش اجرة البريد داخل القطر وأن يدفع المشترك قيمة جزءين ثلاثين قرشاً صاغا مع اجرة البريد ، فاذا وصله جزءان أثنان أرسل ثلاثين قرشاً ثمن الجزءين التاليين وهكذا يرسل فى كل مرة ثمن جزأين

وقد باشرنا طبع «تعليقات» الأمير شكيب أرسلان على الجزء الأول فى مجلد مستقل فى نحو ٥٥٠ صفحة ، وكذلك باشرنا طبع الجزء الثاني من تاريخ ابن خلدون وسيصدران بعد شهر واحد إن شاء الله وسيكون ثمن كل جزء بعد الطبع عشرين قرشاً صاغاً وقد تم طبع الاول وهو الآن تحت طلب من يبتغيه تحريراً فى أول اكتوبر سنة ١٩٣٦ محمد المهدى الحبابي بوستة الغورية



الحُلَل السُّندُسيَّة

في الأخبارِ والآثارِ الأندلُسيَّة

وهى مَعْلَمَةٌ أندلسيّةٌ تحيط بكلّ ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود

بقلم

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي
وفقه الله لما يرضاه

الجزء الثاني

١٣٥٥ هـ الطبعة الأولى ١٩٣٦ م

محمد المهدي الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس
وفروعها بالأقطار المغربية

المطبعة الرحمانية بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

من نبغ فى طليطلة

من الحكماء والفقهاء والأدباء

احمد بن محمد بن داود التجيبى ، يكنى أبا القاسم ، توفى سنة ٣٨٣ ، . وأحمد ابن سهل بن محسن الأنصاري المقرىء ، المكنى بأبي جعفر ، المعروف بابن الحداد . له رحلة إلى المشرق ، توفى فى شهر رمضان سنة ٣٨٩ . واحمد بن محمد بن الحسن المعافرى ، توفى سنة ٣٩٣ ، أوفى السنة التى بعدها . واحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموى ، يعرف بابن ميمون ، يكنى أبا جعفر ، صاحب أبي اسحق بن شنظير ، ونظيره فى الجمع والاكثار والملازمة معاً ، والسماع جميعاً ، رحل إلى المشرق سنة ٣٨٠ مع صاحبه أبى اسحق ، فحج معه ، وسمع بمكة ، والمدينة ، ووادى القرى ، ومَدْين ، والقلزُم ، وغيرها ، ثم عاد إلى طليطلة واستوطنها ، ورحل الناس إليه بها ، والتزم الرباط بالفهمين[1] منها ، وكانت له أخلاق كريمة ، وآداب حسنة ، مع الفضل والزهد والورع ، وجمع كثيراً من الكتب ، وكان أكثرها بخط يده . قال ابن بشكوال : وكانت منتخبة ، مضبوطة ، صحاحاً ، أمهات ، لايدع فيها شبهة مهملة . وكانت كتبه وكتب صاحبه ابراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة ، وتوفى يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان سنة ٤٠٠ ودفن بحومة باب شاقره[2] بربض طليطلة ، وصلى عليه صاحبه أبو اسحق بن شنظير وكانت ولادته سنة ٣٥٣ .

وأبو عمر احمد بن محمد بن وسيم ، كان فقيهاً متفنناً ، شاعراً لغوياً نحوياً ، غزا مع محمد بن تمام إلى مكادة ، فلما انهزموا هرب إلى قرطبة ، فاتبعه أهل طليطله فى

---

(١) تقدم ذكر هذه القصبة التى نزل فيها بنو فهم فنسبت إليهم وهى من أعمال طليطلة

(٢) وهو الباب الذى يقول له الاسبان Visagra

ولاية واضح ، وظفروا به فصلبوه ، فقال حينئذ : كان ذلك فى الكتاب مسطوراً !
وجعل يقرأ سورة ياسين حتى سقط من الخشبة . قال ابن حيان فى تاريخه : صلب
ابن وسيم في رجب سنة ٤٠١

واحمد بن محمد بن فتحون الأموى ، كان نبيلا ، توفى سنة ٤٠٧ . واحمد بن خلف
ابن احمد المعافرى ، يكنى أبا عمر ، و يعرف بابن القلاباجّه ، روي عن عبدوس ابن
محمد ، وعن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وكان من أهل العلم والدين ، يستظهر موطأ
مالك . واحمد بن سعيد بن كوثر الأنصارى ، يكنى أبا عمر ، كان فقيهاً متفننا ، كريم
النفس ، أخذ عن علماء طليطلة ، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبة . حدّث عبد الله
ابن سعيد بن أبى عون قال : كنت آتى إليه من قلعة رباح وغيرى من الشرق ،
وكنا نيفّا على أربعين تلميذاً ، فكنا ندخل فى داره فى شهر نونبر ودوجنبر وينيّر[1]
فى مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ، وفى
وسطه كانون فى طول قامة الانسان مملوء فحماً ، يأخذ دفئه كل من فى المجلس . فاذا
فرغ الحزب أمسكهم جميعاً ، وقدّمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان ، بالزيت
العذب ، وأيام ثرائد اللبان فى السمن أو الزبد . فكان ذلك منه كرما وجوداً وفخراً ،
ولم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة . وولى أحكام طليطله مع يعيش
بن محمد ، ثم استثقله ودبّر على قتله ، فذُكر أن الداخل عليه ليقتله ألفاه وهو يقرأ فى
المصحف ، فشعر أنه يريد قتله ، فقال له : قد علمتُ الذى تريد ، فاصنع ماأمرت .
فقتله ، وأشيع فى الناس أنه مرض ومات . وذكر ابن حيان غير هذا ، وهو أنه مات
معتقلا بشنترين مسموما سنة ٤٠٣ رحمه الله

واحمد بن عبد الله بن شاكر الأموى ، يكنى أبا جعفر ، كان معلما بالقرآن ، توفى
سنة ٤٢٤ . واحمد بن يحيى بن حارث الأموى ، يكنى أبا عمر ، وكان ميله إلى الحديث
والزهد والرقائق ، وكان ثقة . وأحمد بن ابراهيم بن هشام التيمى أبو عمر ، كان معظما
عند الخاصة والعامة ، توفى فى سنة ٤٣٠ . واحمد بن حيّة ، كان فاضلا متواضعا حافظا

---

(١) Novembre, Décembre et Janvier

توفى فى شعبان سنة ٤٣٩ . واحمد بن عبد الله بن محمد التجيبى ، المعروف بابن المشّاط يكنى أبا جعفر ، كان ثقة زاهداً ، غلبت عليه العبادة . وأحمد بن محمد بن يوسف بن بدر الصدفى ، أبو عمر ، كان زاهداً عابداً ، توفى فى ذى القعدة سنة ٤٤١ . واحمد بن قاسم بن محمد بن يوسف التجيبى أبو جعفر ، يعرف بابن ارفع رأسه ، كان رأسا فى الفقه ، وشاعراً مطبوعا ، بصيراً بالحديث ، وكانت له حلقة فى الجامع ، وتوفي ليلة عاشوراء سنة ٤٤٣ . واحمد بن سعيد بن احمد بن الحديدى التجيبى ، يكنى أبا عباس له رحلة إلى المشرق ، حج فيها ، وله أخلاق كريمة ، توفى سنة ٤٤٦ . واحمد ابن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد بن وثيق بن عثمان التغلبى ، قاضى طليطلة ، يكنى أبا الوليد ، استقضاه المأمون بن ذى النون ، وكان مجتهداً فى قضائه صليبا فى الحق ، صارماً فى أموره كلها ، متبركا بالصالحين ، توفى قاضيا لخمس بقين من رمضان سنة ٤٤٩

واحمد بن يوسف بن حمّاد الصدفى ، أبو بكر ، يعرف بابن العوّاد ، كان معلما بالقرآن ، حسن الضبط ، ورعا ؛ توفى سنة ٤٤٩ . واحمد بن يحيى بن احمد بن سُميق ابن محمد بن عمر بن واصل بن حرب بن اليسر بن محمد بن على ، قال ابن بشكوال : كذا ذكر نسبه رحمه الله ، وذكر أن أصلهم من دمشق من اقليم الغدّير (؟) يكنى أبا عمر ، من أهل قرطبة ، سكن طليطلة وتوفى بها في حدود الخمسين وار بعمائة .

وكان خروجه عن قرطبة فى أثناء الفتنة ، فولّاه أبو عمر بن الحذّاء قاضى طلطيله أحكام القضاء بطلبيرة ، فسار فيهم بأحسن سيرة ، وعني بالحديث ، وكان مشاركاً فى عدة علوم ، وكان متهجدا بالقرآن ، له منه حزب بالليل ، وحزب بالنهار . وكان ملتزماً لداره ، لا يخرج منها إلا للصلاة أو لحاجة . وكان يختلف إلى غلّة له بحومة المترب ، يعمرها بالعمل ليعيش منها

واحمد بن محمد بن عمر الصدفى ، المعروف بابن أبى جنادة ، المكنى بأبى عمر ، كان من أهل العلم والعمل ، صواماً قواماً ، منقبضاً عن الناس ، فارًّا بدينه ، ملازماً لثغور المسلمين ، توفي فى شوال سنة ٤٥٠ ، وصلى عليه تمام بن عفيف ، وحضر جنازته

المأمون بن ذى النون ملك طليطلة . واحمد بن مغيث بن احمد بن مغيث الصدفى ، المكنى بأبى جعفر ، من جلّة علماء طليطلة ، بلغ الرئاسة فى العلم والحديث وعلله ، واللغة ، والنحو ، والتفسير ، والفرائض ، والحساب ، وعقد الشروط . له فيها كتاب سمّاه المقنع ، وكان كلفا بجمع المال ، توفى في صفر سنة ٤٥٩ .

واحمد بن محمد بن مغيث الصدفى ، له رحلة إلى المشرق ، وكان يحفظ صحيح البخارى ، و يعرف رجاله ، وكان يفضل الفقر على الغنى ، مات فى منسلخ رمضان سنة ٤٥٩ [1] ، وصلى عليه القاضى أبو زيد الحشّاء . واحمد بن سعيد بن غالب الأموى المكنى أبا جعفر ، المعروف بابن اللورانكى ، كان فقيها فى المسائل مشاركاً فى الحديث والتفسير ، أديبا ، فرضيا ، لغوياً ، توفى فى شوال سنة ٤٦٩ وصلى عليه عبد الرحمن ابن مغيث .

وأحمد بن محمد بن أيوب بن عدل ، المكنى أبا جعفر ، كان متولياً الصلاة والخطبة بجامع طليطلة ، وكان من أهل الصلاح والعفاف ، توفى فى ربيع الآخر سنة ٤٧٨ ، أى بعد سقوط طليطلة ، لأنها سقطت فى محرم ، وقيل فى صفر من تلك السنة . وأحمد بن يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصارى ، أبو عمر ، كان ثقة بصيراً بالحديث والتفسير ، عالماً بالفرائض ، رحل إلى المشرق وحج ، ثم تولى القضاء بطليطلة ثم صُرف عنه ، وتوفى بقرطبة سنة ٤٨٠ . قال ابن بشكوال : انه وجد على قبره بمقبرة أم سَلَمَة انه توفى فى شعبان سنة ٤٧٩ . واحمد ابن بشر الأموى ، وكان نبيلا وقوراً

(١) وجدت كتابة كوفية محفوظة اليوم فى المتحف الأثرى بمجريط كانت على قبر محمد بن احمد بن محمد بن مغيث وقد نقلناها فى محل آخر بمناسبة ما وجد فى أرباض طليطلة من قبور المسلمين ، وصورتها : بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . هذا قبر محمد بن احمد بن محمد بن مغيث كان يشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . توفى رحمه الله ليلة الأحد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وأربعمائة . ونظن أن صاحب هذا القبر هو ابن المترجم .

عاقلا ، انتقل من طليطلة الى سرقسطة و بقى بها إلى أن توفى سنة ٤٨٥ . واحمد ابن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصارى ، أبو جعفر ، لقى كثيرا من الشيوخ وأخذ عنهم وكان بصيراً بالمسائل ، مولعاً بحفظ الآثار ، وتقييد الأخبار ، وله كتاب فى تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها ، وقد نقل عنه ابن شكوال أكثر التراجم التى سبقت ونحن هنا نقلناها تلخيصاً عن ابن بشكوال ، وتوفي بطليطلة فى أيام النصارى سنة ٤٨٩ . واحمد بن ابراهيم بن قزمان المكنى أبا بكر ، أخذ عن أبى بكر بن الغرّاب، وأبى عمرو السفاقسى،وحدّث عنه أبوحسن بن الابيرى ، وابراهيم ابن اسحق الاموى المعروف بابن أبى زرد ، كنيته ابو اسحق ، توفى فى رمضان سنة ٣٨٢ . وابراهيم بن محمد ابن اشبيح الفهمى ، كان متفنّناً عارفاً باللغة والعربية والفرائض والحساب ، وشُوِور فى الأحكام ، وتوفى فى شعبان سنة ٤٤٨ ، وصلى عليه احمد بن مغيث ، وحضر جنازته المأمون بن ذى النون ، وأبواسحق ابراهيم بن محمد بن أبى عمرو ، كان صالحاً ، وقوراً عاقلا ، توفى فى صفر سنة ٤٥١ ، نقل ذلك ابن شكوال عن ابن مطاهر ، وأبو اسحق ابراهيم بن محمد بن حسين بن شنظير الأموى ، صاحب أبى جعفر بن ميمون الذى سبق ذكره ، وكانا معاً كفرسى رهان فى العناية الكاملة بالعلم والبحث عن الروايات. أخذا العلم معاً عن مشيخة طليطلة ، ثم رحلا الى قرطبة ، فأخذا عن مشيختها ، وسمعا بسائر بلاد الأندلس ، ثم رحلا إلى المشرق ، فسمعا معاً ، وكانا لا يفترقان . وكان السماع عليهما معاً ، وكانت أجازتهما بخطهما لمن سألهما ذلك معاً . وكان لهما حلقة فى المسجد الجامع . ورحل الناس اليهما من الآفاق ، ولما توفى احمد بن محمد بن ميمون ، انفرد ابو اسحق بن شنظير بالمجلس ، وكان فاضلا ناسكاً ، صواماً ، قواماً ، ورعاً ، كثير التلاوة لكتاب الله ، ما رؤى أزهد منه فى الدنيا ، ولا أوقر مجلساً . كان لا يذكر فى مجلسه شىء من أمور الدنيا إلا العلم ، ولم يكن يجرأ أحد أن يضحك بين يديه

قال ابن مطاهر : انه توفى سنة ٤٠١ ، ودفن بربض طليطلة . ونقل ابن شكوال عن أبى إسحق ابراهيم بن وثيق أنه سمع أبااسحق ابراهيم بن شنظير يقول : ولدتُ

سنة ٣٥٢ ، سنة غزاة الحكم أمير المؤمنين . وكانت وفاته ليلة الخميس من سنة ٤٠٢ وقال : هذا أصح من الذى ذكره ابن مطاهر . وأيضاً أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن شنظير الأموى ، كان من أهل العلم والدين ، اختصر المدونة ، والمستخرجة ، وكان يحفظها ظاهراً ، ويلقى المسائل من غير أن يمسك كتاباً ، قال ابن بشكوال : وكان قد شرب « البلاذر » انتهى .

قلت : ورد فى ترجمة أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى المؤرخ الشهير بالبلاذرى أنه تناول بغير قصد كمية من حب البلاذر ، أثرت فى فكره تأثيراً عظيما ، حتى كانت تقع له نوبات جنون ، إلى أن مات . وهو صاحب تاريخ فتوح البلدان ، من أجلّ التواريخ قدراً .

وأبو اسحق إبراهيم بن محمد بن وثيق ، أخذ عن أبى إسحق بن شنظير ، وصاحبه أبى جعفر بن ميمون ، وكان ثقة . وإسماعيل بن إبراهيم بن اسماعيل بن أبى الحارث التجيبى ، وكان رجلا صالحاً ، توفى سنة ٤٤٤ . وأبو إبراهيم اسحق بن محمد بن مسلمة الفهرى ، أخذ عن علماء الأندلس ، ورحل إلى المشرق ، وكان مشاوَراً فى بلده ، وتوفى فى رجب سنة ٤٦٩ عن تسعين سنة . وأغلب بن عبد الله المقرى ، كان قارئاً بحرف نافع .

وتمام بن عفيف بن تمام الصدفى الواعظ الزاهد ، يكنى أبا محمد ، أخذ عن أبى اسحق بن شنظير ، وعن صاحبه ابى جعفر بن ميمون ، وعن عبدوس بن محمد ، وشهر بالزهد والورع ، وكان يعظ الناس ، توفى فى ذى القعدة سنة ٤٥١ ، ذكره ابن مطاهر . وأبو أحمد جعفر بن عبد الله بن أحمد التجيبى ، من أهل قرطبة ، من ساكنى ربض الرصافة بها ، استوطن طليطلة ، وأخذ فيها عن أبى محمد بن عباس الخطيب ، وأبى محمد الشنتجالى . وكان ثقة فاضلا ، قتل فى داره بطليطلة ظلماً ليلة عيد الأضحى سنة ٤٧٥ ، ومولده سنة ٣٩٣ . وجماهر بن عبد الرحمن بن جماهر الحَجْرى ، يكنى أبابكر ، أخذ عن علماء الاندلس ، ثم رحل الى المشرق حاجاً سنة ٤٥٢ ، فلقى بمكة كريمة المروزية

وسعد بن على الزنجانى ، ولقى بمصر أبا عبد الله القضاعى ، وسمع منه تواليفه . ولقى بالاسكندرية أباعلى حسين بن معافى ، ولقى شيوخاً كثيرين . وكان حافظاً للفقه على مذهب مالك ، عارفاً بالفتوى وعقد الشروط . وكان حسن الخلق متواضعاً ، معظماً عند الناس وكان قصير القامة جداً. وتوفى لاثنتى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٤٦٦ ، وهو ابن ثمانين سنة ، وصلى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدى ، وازدحم الناس جداً حول نعشه .

وأبو على الحسين بن أبى العافية الجنجيالى ، قدم طليطلة مرابطاً ، وكان شيخاً صالحا ، توفى سنة ٣٨٣ . وخلف بن صالح بن عمران بن صالح التميمى ، أبو عمر[1] ، كان من أهل الحديث ، توفى ليلة الاثنين لسبع خلون من عشر ذى الحجة سنة ٣٧٨ . وأبو بكر خلف بن اسحق ، ولد سنة ٣٠٠ ، وتوفى سنة ٣٨٠. وأبو بكر خلف بن بقى التجيبى ، تولى أحكام السوق ببلده ، وكان يجلس لها بالجامع ثم عزل عنها وكان صليبا في الحق . وأبو بكر خلف بن احمد بن خلف الأنصارى المعروف بالرحوى ، رحل إلى المشرق ، وكان عارفاً بالأحكام ، ناهضاً ، وقضى أكثر دهره صائما ، وكان مع ذلك كثير الصدقات ، وكان له حظ من قيام الليل ، ودعى إلى قضاء طليطلة فأبى ، وهرب من ذلك ، وتوفى سنة ٤٢٠ .

وأبو القاسم خلف بن ابراهيم بن محمد القيسى المقرىء الطليطلى ، سكن دانية وأخذ عن أبى عمرو المقرى ، وعن أبى الوليد الباجى ، وتوفى يوم الاثنين عقب ربيع

(١) وجدت كتابة فى طليطلة نصها بعد البسملة : « هذا قبر محمد بن عبد الله بن عمران توفى رحمة الله عليه ورضوانه ليلة الاحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول سنة احدى وتسعين وثلاثمائة فرحم الله من ترحم عليه ودعا له وصلى الله على محمد »

روى لاوى بروفنسال أن المستشرق الاسبانى قديرة Codera الذى هو من أصل عربى قال إن هذا الرجل هو من عائلة خلف بن صالح بن عمران التميمى المتوفى سنة ٣٧٨ ، وعبد الله بن محمد ابن صالح بن عمران التميمى المتوفى سنة ٣٨٤ وكلاهما قد ترجمه ابن بشكوال فى الصلة . بل نظن أن محمد بن عبد الله بن عمران هذا هو ابن أبى محمد عبدالله ابن محمد بن صالح بن عمران التميمي، الذى سيأتى ذكره بين المترجمين من علماء طليطلة

الأول سنة ٤٧٧ . وأبو القاسم خلف بن سعيد بن محمد بن خير الزاهد الطليطلى ، سكن قرطبة ،قرأ القرآن على أبى عبدالله المغامى (نسبة إلى مغام ، من قرى طليطلة ، وقد سبق ذكرها)وتأدب به ، وأخذأيضاً عن أبى بكر عبد الصمد بن سعدون الركانى وكان رجلا صالحا ورعا ، متقللا من الدنيا ، يتبرك به الناس ، كثير التواضع ، وكان صاحب صلاة الفريضة بالمسجد الأعظم بقرطبة . قال ابن بشكوال : توفى رحمه الله يوم الاثنين ، ودفن عشى الثلاثا ، منتصف ذى القعدة سنة ٥١٥ ، ودفن بالربض ، وصلى عليه القاضى أبو القاسم بن حمدين ، وكانت جنازته فى غاية من الحفل ، ما انصرفنا منها الا مع المغرب ، لكثرة من شهدها من الناس .

وأبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن أبى سعد بن يزيد بن أبى يزيد بن سليمان بن ابى جعفر التجيبى ، كان مقرئا اخذ عن عبدوس بن محمد ، وعن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وكان من أهل الصلاح ، توفى فى رمضان سنة ٤٣١ . وأيضا أبو الربيع سليمان بن عمر بن محمد الأموى ، يعرف بابن صهبيّة ، روى عن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وعن الصاحبين : ابن شنظير وابن ميمون ، وكانت له رحلة الى المشرق ، وكان يقرىء القرآن بجامع طليطلة . وكان ابن يعيش يستخلفه على القضاء فيها ، وكان مع هذا شاعراً ، نحوياً ، خطاطاً . وأيضاً ابو الربيع سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ ، من أهل قرطبة ، لكنه مات فى طليطلة ، فى الار بعين وار بعمائة . وكان بارع الخط ، افنى عمره فى كتابة المصاحف . وأيضاً أبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن هلال القيسى ، كان رجلا صالحاً زاهداً ، فرّق جميع ماله ، وانقطع الى الله عز وجل، وكان مشاركا فى الحديث والتفسير ، ولزم الثغور ، وتوفى بحصن عرماج . وذكروا ان النصارى يزورون قبره و يتبركون به . وأبو عثمان سعيد بن أحمد بن سعيد بن كوثر الانصارى ، وكانت فتيا طليطلة تدور عليه وعلى محمد بن يعيش . وكان من أهل الفطنة والدهاء والثروة ، توفى فى نحو الار بعمائة . وأبو عثمان سعيد بن رزين ابن خلف الأموى ، يعرف بابن دحية ، ذكره ابو بكر بن أبيض فى شيوخه وأثنى عليه .

وأبو الطيّب سعيد بن احمد بن يحيى بن سعيد بن الحديدى التجيبى ، روى عن أبيه وعن محمد الخشنى ، وجمع كتباً لا تحصى ، وكان معظما عند الخاصة والعامة ، ورحل الى المشرق حاجاً ، وسمع بمكة وبمصر ، وبالقيروان . وكان أهل المشرق يقولون : ما مرّ علينا مثله . قال ابن مطاهر : توفى يوم الاثنين لخمس خلون من ربيع الأول سنة ٤٢٨ . وابراهيم بن يحيى بن ابراهيم بن سعيد ، يعرف بابن الأمين ، كُنيتهُ أبو اسحق ، سكن قرطبة ، وأصله من طليطلة ، وكان من جلّة المحدثين ، ومن كبار الادباء ، توفى بلبلة فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ ، قال ابن بشكوال : وأخذت عنه وأخذ عنى . واثنى عليه وعلى دينه وعلمه .

وخلف بن يحيى بن غيث الفهري ، من أهل طليطلة ، سكن قرطبة ، وتوفى بها سنة ٤٠٥ ، وكان شيخاً فاضلا عالماً ، ونقل ابن بشكوال عن قاسم الخزرجى انه توفى فى منتصف صفر ، ثم قال : وقرأت بخط ابنه محمد بن خلف : توفى والدى رضى الله عنه ليلة السبت ، والاذان قد اندفع بالعشاء الآخرة ، لاربع خلون من صفر سنة ٤٠٥ . وأبو الربيع سليمان بن سماعة بن مروان بن سماعة بن محمد بن الفرج بن عبد الله ، نقل ابن بشكوال عن أبى على الغسانى من خط يده انه قال بحقه : هوشيخ من أهل الأدب ، اجتمعتُ به ببطَلْيوس و بقرطبة . وأبو عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموى ، روى عن الصاحبين : ابن شنظير وابن ميمون ، وكان فاضلا ، ثقة ، عفيفاً ، كثير الصلاة والصيام ، نابذاً للدنيا . مات فى رمضان سنة ٤٤٨ (١)

---

(١) يذهب المستشرق قديرة إلى أن الكتابة التى وجدت فى طليطلة سنة ١٨٨٨ فى أثناء تسوية طريق المقبرة وهى محفوظة فى المتحف الأثرى بتلك البلدة ونصها بعد البسملة : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور هذا قبر الفقيه أبى عثمان سعيد بن جعفر توفى رحمه الله يوم السبت لعشر بقين لشهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة » هى على قبر أبى عثمان سعيد بن محمد بن جعفر الأموى الطليطلى الذى ترجمه ابن بشكوال فى الصلة ولكن فى كتاب ابن بشكوال يعين تاريخ وفاة هذا الرجل رمضان سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وليس ثلاثا وأربعين

وأبو عثمان سعيد بن عيسى الأصفر ، كان عالمـا بالعربية ، مشاركا فى المنطق ، كاتباً للأخبار ، توفى فى نحو الستين وأربعمائة .

وأبو طيب سعيد بن يحيى بن سعيد بن الحديدى التجيبى ، كان من أهل العلم والذكاء ، ولّاه المأمون بن ذى النون قضاء طليطلة ، فحسنت سيرته ، وكان ثقة متحرياً مبلوّ السداد ، ولم يزل قاضيا حتى توفى المأمون ، فامتحن أبو الطيب هذا وقتل أبوه ، وسجن هو بسجن « وَبْذَة » فمكث فيه إلى أن توفى في شوال سنة ٤٩٢ ، وذكر ابن مطاهر انه عهد قبل موته أن يدفن بكبلة ، وأن يكتب فى حجر يوضع على قبره. (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) فامتثل ذلك . وأبو القاسم سلمة بن سليمان المُكتِّب، وكان شيخاً فاضلا وأبو محمد سرواس بن حمّود الصنهاجى ، كان معلما للقرآن ، توفى فى ربيع الأول سنة ٣٩١ . وصاعد بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد[١] التغلبى ، يكنى أبا القاسم أصله من قرطبة ، روى عن أبى محمد بن حزم ، والفتح ابن القاسم ، وأبي الوليد الوقشى واستقضاه المأمون يحيى بن ذى النون بطليطلة ، وكان متحريا فى أموره . واختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق ، و بالشهادة على الخط ، وقضى بذلك ، وكانت

وأربعمائة . قلنا ان توجيه هذا الفرق سهل فقد يجوز ان يكون ابن بشكوال اخطأ فى تعيين السنة كما انه يجوز ان يكون وقع سهو من أحد نساخ كتاب الصلة فبدلا من أن يكتب ثلاث واربعين كتب ثمان وأربعين وهذا يقع كثيراً . والأصح هو التاريخ المزبور على الحجر كما لا يخفى

(١) القاضى صاعد بن أحمد الطايطلى الأندلسى هو من أعظم من أنجبته طليطلة بل الأندلس كلها وهو من الحكماء الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والحكمة على نسق القاضى ابن رشد ومن كتابه « طبقات الأمم » فى تاريخ العلوم والعلماء والامم التى عنيت بالعلم والمدنية يستدل على علو طبقته وقد نقلنا عنه فى هذا الكتاب بعض شذرات فى القسم الجغرافى وأخرى فى تراجم علماء الاندلس ولكننا لم نطلع من تآليفه إلا على هذا الكتاب

ولادته بالمرّية سنة ٤٢٠ ، وتوفى بطليطلة ، وهو قاضيها ، فى شوال سنة ٤٦٢ ، وصلى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدى . وأبو الحسن صادق بن خلف بن صادق بن كتيل الانصارى ، من أهل طليطلة ، سكن برغش[1] ، وكان رحل إلى المشرق ، فحج ودخل بيت المقدس ، وأخذ عن نصر بن ابراهيم المقدسى ، وأخذ عن أبى الخطاب العلاء ابن حزم ، وذلك فى البحر فى انصرافهما من الشرق الى الاندلس ، وكتب بخطه علما كثيراً ، وكان فاضلا . ديّنا ، عفيفا ، متواضعا ، توفى بعد سنة ٤٧٠ . وأبو محمد عبد الله بن عبد الله بن ثابت بن عبد الله الأموى ، حدّث عنه الصاحبان بطليطلة ، وقالا انه ولد سنة ٣٠٦ ، وتوفى سنة ٣٨٢ . وأبو محمد عبد الله بن محمد بن صالح ابن عمران التيمى ، حدث عنه الصاحبان أيضا ، وقالا كان صاحبنا فى السماع ، وتوفى سنة ٣٨٤ .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهينى الطليطلى ، سكن قرطبة ، وسمع فيها من قاسم بن اصبغ ، وصحب القاضى منذر بن سعيد ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٤٢ ، وكانت رحلته وسماعه مع أبى جعفر بن عون الله ، وأبى عبد الله ابن مفرّج ، فلقوا جلّة العلماء بالمشرق ، ولما رجعوا إلى الأندلس رغب الناس إليه أن يحدّث فقال : لا أحدّث مادام صاحباى أبو جعفر بن عون الله ، وأبو عبد الله بن مفرّج حيين ، فلما ماتا جلس للسماع ، وأخذ عنه العلماء الكبار : أبو الوليد بن الفرضى والقاضى أبو المطرّف بن فطيس ، وأبو عمر بن عبد البرّ ، وأبو عمر بن الحذّاء ، والخولانى ، وغيرهم .

---

(١) برغش هذه المشار اليها هنا ليست فيما يترجح مدينة برغش التى كانت قاعدة قشتالة بل هى قرية من قرى طليطلة وقد ضبطها ياقوت فى المعجم بعين مهملة والشين معجمة فقال : قرية بقرب طليطلة بالاندلس قال ابن بشكوال : سكنها صادق بن خلف ابن صادق بن كتيل الانصارى الطليطلى له رحلة إلى المشرق وسمع وروى ، ومات بعد سنة ٤٧٠

قال ابن الحذّاء : كان أبو محمد هذا شيخاً فاضلا ، رفيع القدر ، عالى الذكر ، عالما بالأدب واللغة ومعانى الشعر ، ذاكراً للأخبار ، حسن الايراد لها ، وقوراً ، وما رأيت أضبط لكتبه وروايته منه : وقال الخولاني : كان شيخاً ذكياً ، حافظا لغوياً ، رحل إلى المشرق ، وسمع جلّة العلماء بمكة و بمصر و بالشام ، وأسنّ ونيّف على الثمانين بثلاثة أعوام ، وصحبه الذهن إلى أن مات . قال ابن الحذّاء : ولد سنة ٣١٠ ، وتوفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٥ ، زاد ابن حيّان : ودفن بمقبرة مُتعة ، وصلى عليه القاضى أبو العباس بن ذكوان . وكان السلطان قد تخيّر أبا محمد بن أسد هذا لقراءة الكتب الواردة عليه بالفتوح بالمسجد الأعظم بقرطبة ، لفصاحته ، وجهارة صوته ، وحسن ايراده ، فتولى ذلك مدة ، إلى أن ضعف ، وثقل بدنه ، فاستعفى السلطان من ذلك فاعفاه ، ونصب سواه ، فكان يقول : ما وليت لبنى أمية قط ولاية غير قراءة كتب الفتوح على المنبر ، فكنت أتحمل الكلفة دون رزق ، ومنذ أعفيت منها كسلت ، وخامرنى ذل العزلة . وكان حاضر الجواب ، حارّ النادرة ، وأخباره كثيرة . وكان يستحسن الاستخارة بالمصحف .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن نصر بن أبيض بن محبوب بن ثابت الأموى النحوى ، من طليطلة ، سكن قرطبة ، أخذ عن جلّة العلماء ، وكان أديباً حافظا ، نبيلا ، أخذ الناس عنه ، وجمع كتابا فى الرد على محمد بن عبد الله بن مسرّة ، أكثر فيه من الحديث والشواهد ، وأخذ عنه الصاحبان ابن شنظير وابن ميمون ، وقالا إن مولده فى شعبان سنة ٣٢٩ ، وسُكناه بزقاق دُحين ، وصلاته بمسجد الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وتوفى سنة ٣٩٩ أو سنة ٤٠٠ . وأبو محمد عبد الله بن أحمد ابن عثمان ، المعروف بابن القشّارى ، من طليطلة ، وخطيب جامعها ، كان ثقة ديّنا ورعا ، قليل التصنع . وكان الغالب عليه الرأى ، وكان مشاوَرا فى الأحكام ، وكان يعقد الوثائق بدون أجرة ، وكان من الشعراء . توفى ليلة السبت لليلتين خلتا من شعبان سنة ٤١٧ ، وصلى عليه أبو الطيب بن الحديدى .

وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن زُنين بن عاصم بن عبد الملك بن إدريس بن بهلول بن أزرق بن عبد الله بن محمد الصدفى ، روى ببلده عن أبيه ، وعن عبدوس بن محمد ، وعن أبى عبد الله بن عيشون وغيرهم ، و بقرطبة عن أبى جعفر بن عون الله ، وأبى عبد الله بن مفرّج ، وخلف بن قاسم وغيرهم ، وكتب بمدينة الفرج عن أبى بكر بن يُنُق ، وأبى عمر الزاهد ، وأبى زكريا بن مسرّة ، و رحل إلى المشرق مع أبيه سنة ٣٨١ ، فحج وسمع بمكة و بمصر و بالقيروان ثم عاد إلى طليطلة بلده ، فأخذ عنه أهلها ، و رحل الناس إليه من البلدان . وكان فاضلا عابداً زاهداً ، آمراً بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، يتولى ذلك بنفسه ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وله فى هذا المعنى كتاب . وكان مع تواضعه مهابا مطاعا ، يُجلُّه جميع الناس ، ولا يختلف اثنان فى فضله ، وكان مواظبا على الصلاة بالمسجد الجامع ، ومن جملة أوصافه أنه كان يتولى شغل كرمه بيده ، وكان كثير الصدقات ، وتوفى سنة ٤٢٤ ، وما رؤى على جنازة بطليطلة ما رؤى على جنازته من ازدحام الناس لأجل التبرك به . وأبو محمد عبد الله بن بكر بن قاسم القضاعى ، روى عن كثير من الشيوخ ، ورحل إلى المشرق حاجاً سنة ٤٠٧ ، وسمع بمكة و بمصر و بالقيروان ، وكان فاضلا ورعا عفيفا سليم الصدر ، منقبضا عن الناس ، توفى سنة ٤٣١ . وعبد الله بن سعيد بن أبى عوف العاملى الرباحى ، انتقل من قلعة رباح إلى قرطبة ، واستوطنها ، ورحل حاجا ، وكان ورعا ، مداوما على صلاة الجماعة ، أول من يدخل المسجد لصلاة الصبح ، وآخر من يخرج منه بعد صلاة العشاء . وكان فى رمضان يرابط فى حصن وَلْمِشْ ، توفى سنة ٤٣٢ .

وعبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى ، المعروف بالشارق ، يكنى أبا محمد ، أخذ عن القاضى بقرطبة ، يونس بن عبد الله ، وعن أبى عمر الطَّلَمنكى ، وعن أبى عمر بن سُميق ، وأبى محمد الشنتجالى وغيرهم ، وحج وسمع فى المشرق من أبى اسحق الشيرازى ورجع إلى الأندلس واستوطن طليطلة ، وانقطع إلى الله تعالى . ورفض الدنيا بلا أهل

ولا ولد ، إلى أن مات سنة ٤٥٦ ، واحتفل الناس بجنازته . وكان مع زهده وتنسكه حصيف العقل ، نقى القريحة ، جيد الادراك ، ولا عجب فى صفاء ذهن من رضى من الطعام باليسير ، وكان في آخر أمره عزم على الحج ثانى مرة ، فأرسل اليه القاضى زيد ابن الحشّا وقال له : قد قمت بالفرض ، فهذه المرة الثانية هى نافلة ، والذى أنت فيه الآن آكد . فمنعه من الخروج حرصاً على وجوده في طليطلة معلماً مهذباً للناس .

وأبو محمد عبد الله بن سليمان المعافرى ، يعرف بابن المؤذّن كان من أهل العلم والخير غالباً عليه الحديث والأدب والقراءة ، وكان ملازماً بيته ، لا يخرج إلا لصلاة الجمعة أو لباديته.وكان صَرورةً لم يتزوج قط ، وتوفى سنة ٤٦٠ . وأبو محمد عبد الله بن محمد ابن جماهر الحَجْرى ، روي عن أبى عبد الله بن الفخّار، ورحل حاجاً،فروى عن الجلّة من العلماء ، وكان له حظ وافر من الحساب والفرائض ، وتوفى سنة ٤٦٣ . وأبو بكر عبد الله بن على بن أبي الأزهر الغافقى الطليطلى ، سكن المريّة ، وحج ، ولقى أباذر الهروى ، وأبا بكر المطوّعى،وكان من أهل العلم ، أخذ الناس عنه ، ومات سنة ٤٦٣. وعبد الله بن محمد بن عمر ، يعرف بابن الأديب ، كنيته أبو محمد ، روى عن الصاحبين ابن شنظير وابن ميمون ، وعن عبدوس بن محمد ، وعن محمد الخشنى ، وغيرهم ، وعاش طويلا ، ومات بعد الثمانين والاربعمائة .

وعبد الله بن فرج بن غزلون اليحصبى ، يعرف بابن العمّال كنيته أبو محمد ، روى عن أبى عمر بن عبد البر ، وعن ابن شق الليل ، وابن ارفع رأسه ، وأخذ عن ابيه فرج بن غزلون ، وعن القاضى أبى زيد الحشّا ، وكان شاعراً مفلقاً ، ومع الأدب حافظاً للحديث متقناً للتفسير ، له مجلس حفل ، يقرأ فيه التفسير ، وعاش طويلا . واستقضى بطلبيرة بعد أبى الوليد الوقشى ، وتوفي سنة ٤٨٧ وقد نيّف على الثمانين . وأبومحمدعبد الله بن يحيى التجيبى ، من أهل إقليش ، يعرف بابن الوحشى ، قرأ بطليطلة وأخذ عن أبى عبد الله المغامى ، وعن أبى بكر بن جماهر ، وكان من أهل الفضل

والنبل والذكاء . اختصر كتاب مُشكل القرآن لابن فورك ، وتوفى سنة ٥٠٢ وهو قاضٍ ببلده إقليش .

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن ذنين بن عاصم بن ادريس ابن بهلول بن أزراق بن عبد الله بن محمد الصدفى ، روى عن أبى المطرّف بن مدراج وأبي العباس بن تميم ، وغيرهما ، ورحل إلى الشرق سنة ٣٨١ ، ولقى بمكة أبا القاسم السقطى وأبا الطاهر العجيفى ، ولقى بمصر أبا الطيّب بن غلبون ، وأبا اسحق التمّار ، وغيرهما ، ولقى بالقيروان أبا محمد ابن أبي زيد ، وأبا جعفر بن دحمون . وغيرهما . وكان له عناية كاملة بالحديث ، وكان فى غاية الورع ، تقرأ عليه كتب الزهد والرقائق فيعظ الناس بها ، وله تواليف ، منها كتاب عشرة النساء فى عدة أجزاء . وكتاب المناسك وكتاب الأمراض . ولد سنة ٣٢٧ ، ومات سنة ٤٠٣ وله ٧٩ سنة . وأبو بكر عبد الرحمن بن منخّل المعافرى ، سكن طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ابن غلبون المقرىء ، وحدث عنه حاتم بن محمد ،قرأ عليه بطليطلة سنة ٤١٨ . وأبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن خالص الأموى له رحلة إلى المشرق ، وكان من أهل الخير والصلاح ، حدث عنه جماهر بن عبد الرحمن وغيره .

وأبو محمد عبد الرحمن [(١)] بن محمد بن عباس بن جوشن بن ابراهيم بن شعيب ابن خالد الأنصارى ، يعرف بابن الحصّار ، صاحب الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بطليطلة ، روى عن علماء من أهل بلده ، ومن أهل ثغورها ، والقادمين عليها ، وسمع أيضاً بقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، وحج وهو حديث السن ، وعنى بالرواية والجمع ، وكانت الرواية أغلب عليه من الدراية ، وكان ثقة صدوقا ، وأخذ عنه حاتم ابن محمد وأبو وليد الوقشى ، وجماهر بن عبدالرحمن ، وأبو عمر بن سُميق وأبو الحسن ابن الالبيرى ، وغيرهم من المشاهير . وفى آخر عمره ضعف عن امامة الجامع فلزم داره ، وتوفى سنة ٤٣٨ ، رواه أبو حسن الألبيرى . وأبو محمد عبد الرحمن بن

(١) ورد ذكرهذا فى الصلة وفي بغية الملتمس أيضاً

محمد بن أسد ، روى عن الصاحبين فى بلده طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق ، وكان عالما ، فاضلا ، جواداً ، متواضعاً ، توفى فى شعبان سنة ٤٤٢ . وأبو أحمد عبد الرحمن ابن أحمد بن خلف ، المعروف بابن الحوّات ، له رحلة إلى المشرق ، حج فيها ، ولقى أبا بكر المطوّعى ، وكان اماماً . قال الحُميدى إنه كان يتكلم فى الفقه والاعتقادات بالحجة القوية ، وله تواليف ، وكان من كبار الأدباء . وتوفى قريباً من سنة ٤٥٠ ، وقيل إنه توفى بالمرّية فى المحرم سنة ٤٤٨ ، وقد أربى على الخمسين . وأبو محمد عبدالرحمن ابن أحمد بن زكريا ، يعرف بابن زاها ، سمع من عبدوس بن محمد ، ومن الخشنى ، وكان نبيلاً فصيحاً ، أنيس المجلس ، كثير المثُل والحكايات ، توفى فى صفر سنة ٤٤٩. وعبد الرحمن بن اسماعيل بن عامر بن أبى جوشق ، يكنى أبا المطرّف ، روى عن عبدوس ابن محمد ، وعن الخشني وغيرهما فى بلده ، ثم سمع بقرطبة من خلف بن القاسم ، وأبى زيد ابن العطار ، وأبى مطرف القنازعى ، وابن نبات وغيرهم . وكان معتنياً بجمع الآثار ، وكتب بخطه علماً كثيراً . وكان من الثقات . وتوفى بعد سنة ٤٥٠ .

وأبو المطرّف عبدالرحمن بن محمد بن عيسى ، يعرف بابن البيرولة ، سمع من الخشنى وأبى بكر بن زهر ، وأبى محمد بن ذنين ، والتبريزى ، وابن سُميق وكان من أهل النباهة والفصاحة [1] ، واعظا ، متواضعا ، حسن الخلق ، سالم الصدر ، توفى فى أول ربيع الأول سنة ٤٦٥ ، وصلى عليه يحيى بن الحديدى . وعبد الرحمن بن لب بن

(١) وجدت فى طليطلة كتابة بالخط الكوفى بأعلى قوس كان مبنياً من فوقه فلم ينكشف إلا فى أثناء ترميم وقع فى كنيسة صغيرة فى محلة « سنتا أورسوله » وقد ترجم هذه الكتابة المستشرق قديرة وقد نقلها لاوى بروفنسال إلى مجموعته ونصها بعد البسملة : « قام هذا البلاط بحدالله وعونه على يدى صاحبي الاحباس الأمينين عبدالرحمن ابن محمد بن البيرولة وقاسم بن كهلان فى شهر رجب سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة فرحم الله المحبس عليه والساعى فى شأنه والمصلى فيه والقارىء له آمين رب العالمين فصلى الله على محمد خاتم النبيين وسلم » هذا الرجل ترجمه ابن بشكوال والضبى وذكرا

أبى عيسى ابن مطرف ابن ذى النون ، يكنى أبا محمد ، روى عن أبى عمر الطلمنكى ، وروى عنه ابو حسن الالبيرى المقرىء .

وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن ، المعروف بابن الحشا ، قاضى طليطله ، أصله من قرطبة ، سمع بالمشرق من أبى ذر الهروى ، وأبى الحسن محمد بن على بن صخر ، وأحمد بن على الكسائى ، وعبد الحق بن هارون الصقلى ، وروى بمصر عن أبى القاسم عبد الملك القمّى وغيره ، وبالقيروان عن أبى عمران الفاسى وغيره ، وروى بقرطبة عن القاضي يونس بن عبد الله ، وعن القنازعى ، وأخذ بدانيه عن أبى عمر بن عبد البر ، وأبى عمر المقرى وغيرهما . وكان من أهل العلم والفهم ، سرى البيت عالى الشأن ، استقضاه المأمون يحيى بن ذى النون بطليطلة ، بعد أبى الوليد بن صاعد ، فى الخمسين والأربعمائة ، وحمده أهل طليطلة فى قضائه ، ثم صُرف عن قضائها فى الستين ، وسار إلى طرطوشة ، واستُقضى بها ، ثم صُرف عن قضاء طرطوشة ، فاستُقضى بدانية ، إلى أن توفى بها سنة ٤٧٣ ، ذكر تاريخ وفاته ابن مدير . وعبد الرحمن بن قاسم بن ماشاء الله المرادى ، كنيته أبو القاسم ، كان حافظا للمسائل والرأى ، طاهراً وقوراً ، توفى فى رجب من سنة ست وسبعين وأربعمائة . وأبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن سلمة الأنصارى ، روى عن أبى محمد بن الخطيب ، وأبى عمر الطلمنكى ، وحماد الزاهد ، وأبى بكر بن زهر وغيرهم ، وكان حافظا للمسائل ، دربا بالفتوى ، وقوراً ، وسيما ، حسن الهيئة ، قليل التصنع ، مواظباً على الصلاة فى الجامع ، وكان ثقة فى روايته ، وكان الرأى غالبا عليه . وامتُحن فى آخر عمره مع أهل بلده ، بحسب عبارة ابن بشكوال ، وسار إلى بَطَلْيوس فتوفى بها فجأة ، عقب صفر من سنة ٤٧٨ ، وظاهر من هنا أنه خرج من طليطلة

أنه توفى سنة ٤٦٥ وقال ابن بشكوال إن له كتاباً يشتمل على تراجم فقهاء طليطلة وقد أخذ صاحب « الصلة » عنه وقال لاوى بروفنسال إن البيرولة لفظة اسبانيولة تكتب بالاسبانى هكذا « Alberola »

يوم استولى عليها الاسبانيول ، لأنهم فتحوها فى المحرم ، أو فى صفر سنة ٤٧٨ كما لايخفى . وأبو المطرّف عبد الرحمن بن عبد الله بن أسد الجهنى ، سكن طليطلة ، روى عن ابن يعيش ، وابن مغيث ، وغيرهما ، وحج ، وأخذ بمكة عن أبى ذر الأموي ، وغيره ، وكان ثقة ، وشوور فى الأحكام ، وكان متواضعا توفى فى بلده ، فى الثمانين والأربعمائة ، أى بعد استيلاء الاسبانيول .

وأبو الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله التجيبى ، المعروف بابن المشاط أخذ عن علماء طليطلة وغيرهم ، وكان حافظاً ذكياً وأديباً لغوياً ، شاعراً محسناً . سكن مدة باشبيلية ، وتولى بهـا الأحكام ، ثم صُرف عنها ، وقصـد مالقة ، إلى أن توفى بها ليلة الجمعة لسبع ليـال من رمضان سنة الخمسمائة ، وشهد جنازته جمع عظيم . وأبوالحسن عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الأموى ، من أهل طليطلة سكن قرطبة ، المعروف بابن عفيف ، وهو جده لأمه ، سمع من علماء طليطلة وغيرهم . وكان شيخاً فاضلا عفيفاً ، مشهور العدالة ، وكان يعظ الناس ، وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، قال ابن بشكوال : كان كثير الوهم فى الأسانيد ، عفا الله عنه ، توفى يوم الجمعة ودفن إثر صلاة العصر من يوم السبت الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢١ ودفن بمقبرة ابن عباس ، وصلى عليه القاضى أبو عبد الله بن الحاج . وأبو مروان عبد الملك محمد بن شق الليل ، سمع بطليطلة بلده من الصاحبين ، وكان زاهداً ورعا ، توفى فى ربيع الآخرة سنة عشر وأربعمائة ، وأبو بكر عبد الصمد بن سعدون الصدفى المعروف بالركّانى أخذ عن علماء طليطلة بلده ، ثم رحل إلى المشرق وحج ، وتوفى بعد سنة ٤٧٥ . وأبو حفص عمر بن سهل بن مسعود اللخمى المقرىء ، روى ببلده طليطلة عن علمائها ، ورحل إلى المشرق ، ولقى كثيراً من العلماء ، وكان إماما فى كتاب الله ، حافظا للحديث الشريف ، ولأسماء الرجال وأنسابهم خفيف الحال ، قانعاً راضياً ، توفى بعد سنة ٤٤٢ وحدّث عنه ابن البيرولُه . وأبو حفص عمر بن محمد بن عبد الوهاب بن الشرّانى الرعينى ، كان مفتيا . توفى فى رجب سنة تسع وأربعين بعد الأربعمائة .

وأبو حفص عمر بن عمر بن يونس بن كُريب الأصبحى ، أصله من سرقسطة ، روى عن الجلّة ، مثل القاضى أبى الحزم خلف بن هشام العبدرى ، والقاضى أبى عبد الله ابن الحذّاء ، والقاضى عبد الرحمن بن جحاف ، وأبى عمر الطلمنكى ، وأبى بكر بن زهر وغيرهم ، وكان فاضلا ثقة ، وأسنّ ، وتوفى بطليطلة سنة ست وسبعين وار بعمائة ، وأبو بكر عثمان بن عيسى بن يوسف التجيبى ، يعرف بابن ارفع رأسه ، كان عالما فاضلا ، رأسا فى مذهب مالك ، تولى قضاء طلبيرة . وأبو بكر عثمان بن محمد المعافرى المعروف بابن الحوت ، المتوفى سنة ٤٤٩ . قال ابن بشكوال : وكان من خيار المسلمين وفضلائهم . وأبو الحسن على بن فَرَجون الانصارى النحوى ، كان شيخا لغو يانحو ياً شاعراً ، جواداً ، لا يمسك شيئاً ، مؤثراً على نفسه ، رقيق القلب ، اذا سمع القرآن خشع و بكى . وأبو الحسن على بن أبى القاسم بن عبد اللهبن على المقرى ، من سرقسطة سكن طليطلة ، روى بالمشرق عن أبى ذر الهروى ، وأبى الحسن بن صخر ، وأخذ عن القاضى الماوردى كتابه فى التفسير ، وكان رجلا صالحا ؛ قدم الى قرطبة فى آخر عمره ، وأقام فيها سبعة أشهر فى الفندق الذى نزل فيه منقبضا ، لم يتعرض للقاء أحد ، إلى أن مات فى ر بيع الأول سنة ٤٧٢ . وأبو الحسن على بن سعيد بن احمد بن يحيى بن الحديدى التجيبى ، كان فقيها فى المسائل بصيراً بالفتيا ، توفى فى شوال سنة ٤٧٤.

وأبو الاصبغ عيسى بن حجاج بن احمد بن حجاج بن فرقد الانصارى ؛ أصله من طليطلة ؛ وسكن قرطبة ، حدّث عنه الصاحبان ؛ وقالا : مولده سنة ٣١٨ ، وله رحلة الى المشرق . وأبو الاصبغ عيسى بن على بن سعيد الأموى ، روى عن أبيه ، وعن أبى زيد العطّار ، والخشنى ، وتوفى سنة ٤٣٥ ، وله رحلة إلى المشرق . وأبو الاصبغ عيسى بن فرج بن أبى العباس التجيبى ، المغامى أخذ عنه ابنه ابو عبدالله المغامى وتوفى في مستهل جمادى الأولى عام أر بع وخمسين واربعمائة . وأبو عبيدة عامر بن ابراهيم بن عامر بن عمروس الحَجْرى من أهل قرطبة سكن طليطلة روى عنه ابو الحسن ابن الابيري المقرىء ، كان حليما وقوراً خادماً للعلم ، وأخذ عنه أبو المطرّف

ابن البيرولُه . وقال : كان شيخاً فاضلا حاسباً كاتباً . إمام مسجد ابن ذُنى القاضى بالحزام (١) من طليطلة سمع الناس منه ومات بعد سنة ٤٣٣ . وأبو الاصبغ عسلون ابن احمد بن عسلون، حدّث عنه الصاحبان . وقالا : كان رجلا صالحاً مستوراً . جالسناه وصحبناه ، ولزم الانقباض ، ولم تزل أحواله صالحة إلى أن توفي . وكان مولده عام ٣٢٠

وأبو النصر فتح بن إبراهيم الأموى ، يعرف بابن القشّارى ، رحل إلى المشرق ، وسمع بالقيروان ، و بمصر ، و بمكة المكرمة . وكان شيخاً صالحا ، فاضلا ، مجاهدا ، صوّاما قوّاماً متصدقاً . بنى بطليطلة مسجدين أحدهما بالجبل البارد ، والآخر بالدباغين وكان يلزم الصلاة فى المسجد الجامع . و بنى حصن « وقّش » ، وحصن «مكّادة» ، فى زمن المنصور بن أبى عامر . توفى أول ليلة من رجب سنة ٤٠٣ ، وكانت وفاته ليلة الجمعة ، ودفن نهار الجمعة بعد صلاة العصر ، وصلى عليه عبد الله بن ماطور . وفرج بن غزلون بن العسّال اليحصبى الطليطلى ، روى عن شيوخها ، وحدث عنه ابنه أبو محمد عبدالله بن فرج الواعظ . وأبو الحسن فرج بن أبى الحكم بن عبد الرحمن ابن عبد الرحيم اليحصبى ، وكان من العلماء المعدودين ، وكان حفيل المجلس ، توفى فى ١٠ ذى الحجة سنة ٤٤٨ ، وحبس داره على طلبة السنّة . وفرج بن غزلون بن خالد الأنصارى ، حدّث عن فتح بن إبراهيم وغيره ، وكان حسن الخط . وفرج مولى سيد بن أحمد بن محمد الغافقى ، يكنى أبا سعيد ، رحل إلى المشرق ، وفى حجه لقى أبا ذر الهروى ، وأجاز له ، وكان رجلا صالحا ثقة . قال ابن بشكوال : أخبرنا عنه أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله العدل ، وأثنى عليه وغيره من شيوخنا ، وتوفى بعد سنة ست وسبعين وأربعمائة . وأبو سعيد الفرج بن أبى الفرج بن يعلى التجيبى ، تولى أحكام القضاء بطليطلة ، وكان ديّنا فاضلا ، عالما عاقلا ، حسن السيرة فى قضائه ، محبباً إلى الناس ، معظما عندهم . توفى سنة ٤٧٠ فى شهر رجب . وأبو نصر فتحون بن محمد بن عبد الوارث بن فتحون التجيبى ، حدّث عنه الصاحبان

---

(١) من أحياء طليطلة ، مر ذكره فى بعض الصكوك

توفى ليلة الثلاثاء لست خلون من ربيع الأول سنة ٣٩٣ ، وصلى عليه ابن سائق .
وأبو نصر فتحون بن عبد الرحمن بن فتحون القيسى ، روى عن علماء بلده ، وكان رجلا معدّلا حسن الأخلاق ، توفى سنة ٤٦٤ فى رجب . وفيرّه بن خلف بن فيرّه اليحصبى ، من أهل طليطلة كان من أهل المعرفة بالقراءات ، حسَن الصوت ، تولى الصلاة والخطبة بجامع طليطلة . وكان يكنى بأبى جديده ، فأشار عليه ابن يعيش بأن يتكنى بغيرها ، فأبى وقال : الكنية القديمة أولى بنا .

وأبو محمد قاسم بن محمد بن عبد الله الأموى ، يعرف بابن طالَ ليلُه ، روى عن الحسن بن رشيق ، وابن زياد اللؤلؤى ، وتميم بن محمد ، وحدّث عنه أبو عبد الله ابن عبد السلام الحافظ ، وغيره ، توفى بعد سنة سبع وأربعمائة .

وأبو محمد قاسم بن محمد بن سليمان الهلالى القيسى ، روى عن الصاحبين ، وعن عبدوس بن محمد ، وعن أبي عمر الطلمنكى ، ويونس بن عبد الله القاضى ، ومحمد بن نبات ، وابن الفرضى ، وابن العطار ، وابن الهندى ، وجماعة كثيرة من علماء الأندلس . ورحل إلى الشرق للحج ، وأخذ عن أبى ذر الهروى وغيره . وكان عظيم الاجتهاد فى العلم ، مع الصلاح والانقباض ، وكانت جل كتبه بخط يده ، وكان ثقة فى روايته ، حسن الخط ، وكانت له حلقة فى الجامع ، يعظ فيها الناس ، ولم يكن يذكر عنه من أمر الدنيا شيء . وكان سيفاً على أهل الأهواء ، صليباً فى الحق وروى بعضهم أنه كانت به سلاسة بول لاتفارقه ، فاذا جلس فى الجامع ارتفع ذلك عنه إلى أن ينقضى مجلسه ، فاذا تقوض المجلس ؛ وعاد إلى منزله ، عاد إليه المرض وكانت وفاته سنة ٤٥٨ فى رجب

وأبو محمد قاسم بن عبد الله بن ينَّج ، له رواية عن أبى جعفر بن مغيث وغيره . كان من أهل العلم والفهم ، توفى بقرطبة فى رمضان سنة ٤٩٨ ، ودفن بالربض .
وأبو عبد الله محمد بن تمام بن عبد الله بن تمام ، روى عن أبيه تمام بن عبد الله وغيره ، ورحل إلى المشرق مع أبى عبد الله بنِ عابد ، وكان عالماً متفنناً ، شاعراً ، حسنِ الخطِ ،

مهيباً ، إلا أنه كان جشماً فى الأكل . وقتله أهل طليطلة سنة أربعمائة ، أو إحدى وار بعمائة . وأبو عبد الله محمد بن يبقى بن يوسف بن ارمليوث بن عبدرى الصيدلاني سكن بجّانة ، وأصله من طليطلة . له رحلة إلى المشرق ، سمع فيها من العلماء ، ثم فى طريقه إلى الأندلس أسرته الروم ، ثم تخلص وسكن المرية . وأبو عبد الله محمد [١] ابن ابراهيم بن أبى عمرو المعافرى ، روى بطليطلة عن ابن عيشون وغيره ، وله رحلة سمع فيها من أبى قتيبة سلم ابن الفضل ، ومن أبى بكر بن خروف ، وتوفى فى نحو الاربعمائة . وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن مسعود القيسى ، روى عن أبى عبد الله بن الفخّار ، وابن القشّارى ، وكان من أهل العناية بالعلم والفقه ، مشاوراً فى الأحكام ، كتب لقضاة طليطلة . وتوفى في رمضان سنة ٤٦٦ . وأبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن حفص ابن الشرّانى ، وكان يروى عن صهره محمد بن مغيث ، وعن أبى بكر بن زهر . وكان الغالب عليه الورع . وترك الرئاسة ولزم الانقباض عن الناس ، لا يخرج من بيته إلا لما لابد له منه ، ولا ينبسط مع أحد فى الكلام ، وكان مع ذلك إذا قصده قاصد يحسن لقاءه ، توفى سنة ٤٧١ فى صفر . وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن سليمان بن هلال القيسى ، روى عن أبيه ، وعن أبى عمر الطلمنكى وغيرهما ، وكان له حظ من الفقه والأدب توفى سنة ٤٧٢ فى جمادى الآخرة . وأبو عبدالله محمد بن أحمد ابن حزم الأنصارى ، من طليطلة ، تولى قضاء طلبيره ، وتوفى سنة ٤٧٨ ، أى سنة سقوط طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق . وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن فرج بن أبى العباس بن اسحق التجيبى المغامى [٢] المقرى ، روى عن أبى عمرو المقرى ، وعن أبى

---

(١) فى التكملة لابن الآبار يروى ترجمة أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن يحيى بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن محمد المعافرى ويقول : إنه رحل إلى المشرق وروى عن أبى قتيبة سلم بن الفضل وأبى بكر محمد بن خروف وإنه حدث عنه أبو عبد الله بن عبد السلام الطليطلى وإنه حدث عنه ايضاً الصاحبان وقالا إنه توفى سنة ٣٩٩ وزاد ابن بشكوال فى رجب وذكره فى زيادته ولم يستوف خبره

(٢) الذي يتأمل في انيساب هؤلاء العلماء المنسوبين إلى طليطلة يري أكثرهم يقال له

محمد مكى بن أبى طالب المقرى ، وعن أبى الربيع سليمان بن ابراهيم . وكان اماماً فى القراءات ، ومن أهل الصلاح توفى فى اشبيلية فى منتصف ذى القعدة سنة ٤٨٥ ، وحبس كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة .

وأبو بكر محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جماهر الحَجْرى ، روى ببلده طليطلة عن عمه أبى بكر جماهر بن عبد الرحمن ، وأبى محمد قاسم بن هلال ، وأبى بكر ابن العواد وغيرهم ، ورحل إلى المشرق مع عمه أبى بكر سنة ٤٥٢ ، وأدى الفريضة وسمع بمكة من أبى معشر الطبرى وكريمة المروذيّة وغيرهما ، وبمصر من أبى عبدالله القضاعى وأبى نصر الشيرازى وغيرهما ، وبالاسكندرية من أبى على بن معافى . قال ابن بشكوال : كان معتنياً بالجمع والاكثار والرواية عن الشيوخ ، لا كبير علم عنده . وقال : توفى بمدينة طليطلة ، أعادها الله ، فى أيام النصارى ، دمّرهم الله ، سنة ٤٨٨ ، انتهى ، أى بعد سقوط طليطلة بعشر سنوات .

وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن قاسم البكرى ، روى ببلده عن أبى بكر جماهر ابن عبد الرحمن ، وأبى الحسن بن الالبيرى ، وابن ما شاء الله وغيرهم ، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر ، ورحل إلى المشرق وحج ، وأخذ بمكة وبالاسكندرية ، وقدم قرطبة فى شعبان سنة ٤٨١ ، وسكن باجه وغيرها من بلاد الغرب ، وتوفى بباجة .

وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن مزاحم الأنصارى الخزرجى ، أصله من اشبونة ، سكن طليطلة ، وله رحلة إلى المشرق ، وكان النهاية فى علم العربية ، ومن تآليفه كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات أخذ عنه أبو الحسن العبسى المقريء وابن مطاهر توفى سنة ٥٠٢ فى بدايتها .

وأبو عبد الله محمد بن على بن محمد الطليطلى ، يعرف بابن الديوطى ، سمع من

التجيبى والأموى والأنصارى مما يدل على أن عرب طليطلة كان أكثرهم من بنى أمية ومن الانصار الأوس أو الخزرج ومن تجيب . وأما المغامى فمغامة قرية تقدم وصفها من قرى طليطلة

أبى الوليد الباجى وقاسم بن هلال وغيرهما ، و بعد أن استولى الاسبانيول على طليطلة خرج إلى بر العدوة ، فسكن فاس ثم سبتة ، وولى خطابة الموضعين . وكان ضريراً صالحاً ، وتوفى وهو خطيب سبتة سنة ٥٠٣ فى محرم .

وأبو عامر محمد بن أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم [١] ، من أهل طليطلة سكن قرطبة ، روى عن علماء طليطلة ، وأجاز له أبو بكر جماهر بن عبد الرحمن ، والقاضى أبو الوليد الباجى ، وأبو العباس العذرى ، وأبو الوليد الوقّشى وكانت عنده جملة كثيرة من أصول علماء طليطلة وفوائدهم ، وكان ذاكراً لأخبارهم وازمانهم ، فكان يُحتاج اليه بسببها . قال ابن بشكوال فى الصلة : ترك بعضهم التحديث عنه لأشياء اضطرب فيها من روايته ، شاهدتها منه مع غيرى ، وتوقفنا عن الرواية عنه ، وكنت قد أخذت عنه كثيراً ، ثم زهدت فيه لأشياء أوجبت ذلك غفر الله له ، وتوفى رحمه الله عشىّ يوم الجمعة ، ودفن بعد صلاة العصر من يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٢٣ ، ودفن بالربض ، وصلّى عليه أبو جعفر ابن حمدين .

وأبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث ابن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمى البغدادى ، سكن طليطلة ، وهو من بيت علم وأدب ، خرج إلى القيروان فى أيام المعز بن باديس فدعاه إلى دولة بنى العباس فاستجاب لذلك ، ثم وقعت الفتن هناك ، فخرج إلى الأندلس ، والتى ملوكها وحظى عندهم بأدبه وعلمه واستقر بطليطلة ، فى كنف المأمون بن ذى النون ، وتوفى بها ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٤٥٥ قال ابن بشكوال : وذُكر أن أبا

(١) نقلنا هذه الترجمة عن كتاب الصلة لأبى القاسم خلف بن بشكوال ووجدنا هذا الرجل مترجماً أيضا فى بغية الملتمس لأحمد بن عميرة الضبىّ يقول فيه : محمد بن احمد بن اسماعيل أبو عامر القاضى الطليطلى فقيه عارف مشهور يروى عن أبى المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن البيروله وأبى بكر جماهر بن عبد الرحمن بن جماهر ومحمد بن خلف المعروف بابن السقاط ويروى عنه أبو الحسن بن النعمة

الفضل هذا كان يتهم بالكذب ، عفا الله عنه . وأبو عمران موسى بن عبد الرحمن يعرف بالزاهد ، من أهل الثغر ، قدم طليطلة مجاهداً ، كانت له رحلة إلى المشرق حدّث عنه الصاحبان بطليطلة وقالا : قُتل فى ربيع الآخر سنة ٣٧٨ ، وموسى بن قاسم بن خضر كان الغالب عليه قراءة الآثار ، وكان فاضلا أصيب فى إحدى الغزوات سنة ٤٤٣ .

وموسى بن عبد الرحمن يعرف بابن جوشن كان فاضلا له أخلاق حسان ، وآداب لطيفة ، حسن اللقاء لا يمرّ بأحد إلا سلم عليه ، توفى سنة ٤٤٨ ، ذكره ابن مطاهر . وأبو عبد الرحمن معاوية بن مُنتيل بن معاوية ، رحل إلى المشرق وحج ، وحدّث عنه الصاحبان فى طليطلة وقالا : انه توفى سنة ٣٧٥ فى جمادى الآخرة . وأبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان التجيبى يعرف بابن الباليُه رحل إلى المشرق وانصرف وكان زاهدا فاضلا ورعا ، منقبضا عن الناس ، بهىّ المنظر دُعى ليتولى الاحباس فرفض واعتذر . ذكره ابن طاهر .

وأبو بكر مفرج بن خلف بن مغيث الهاشمى المعروف بابن الحصّار . كان فقيهاً عارفاً بالفتوى ، يعقدها باختصار و إيعاب لفقهها ؛ وتأثل منها مالا عظيما ؛ وكان معتصما بالسنة مبغضاً لأهل البدع . وأبو القاسم محسن بن يوسف روى عن مشيخة بلده طليطلة ؛ وحدث عنه الصاحبان وقالا : توفى سنة ٣٧٤

وأبو القاسم محبوب بن محبوب بن محمد الخشنى ، روى عن محمد بن ابراهيم الخشنى ، وعن الصاحبين ، وكان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية بصيراً بالحديث وعلله ، فهما ذكيا ، وكان فهمه أكثر من حفظه ، مع صلاح وفضل ، ومات سنة ٤٤٦ فى المحرم. ومفرج الخرّاز ، يكنى أبا الخليل ، كان من الفقهاء العُبّاد الزُهّاد ، روى عن أبى عمر بن عبد البر وغيره ، وكان صائما مدة ستين سنة ، وسكن بناحية طليطلة ، وتوفى عند السبعين وأربعمائة ، ذكره ابن مدير ، وأبو سعيد ميمون بن بدر القروى ذكره ابن بشكوال فى الغرباء ، وهو من أهل بغداد ، قدم الأندلس ، وسكن طليطلة

مرابطا بها ، حدّث عنه أبو محمد بن ذنين الزاهد ، وقال هذا فى خبره إنه ولد سنة ٣١٣ وأبو القاسم نعم الخلف بن يوسف ، حدّث عن عبد الرحمن بن عيسى بن مدراج ، وعن محمد بن فتح الحجارى ، وحدّث عنه الصاحبان بطليطلة وقالا إنه توفى سنة ثلاث أو أربع وتسعين وثلاثمائة . ووهب بن ابراهيم بن وهب القيسي ، وكان خيّراً فاضلا ثقة ، ورحل إلى المشرق ، وتوفى فى ذى الحجة سنة٤٥٣ ، ودفن يوم الأضحى .

وأبو الوليد هشام بن ابراهيم بن هشام التميمى ، وكان له حظ وافر من الأدب ، وشوور فى الأحكام ، وكان فارسا شجاعا استشهد سنة تسع عشر وأربعمائة .

وأبو الوليد هشام بن عمر بن محمد بن اصبغ الأموى ، المعروف بابن الحنشى ، كان نبيلا ، ورحل إلى المشرق حاجا ، ولقى بها جماعة من العلماء ، وعاد إلى الاندلس بكتب كثيرة ، وكان من أهل الخير والانقباض والثروة . وأبو الوليد هشام بن محمد ابن سليمان بن اسحق بن هلال القيسى السايح ، روى عن عبدوس بن محمد ، وعن محمد الحشنى ، وعن تمام بن عيشون ، وعبد الرحمن بن ذنين من مشيخة طليطلة ، وروى بقرطبة عن القاضى يونس بن عبد الله ، وعبدالوارث بن سفيان ، وابن نبات وابن العطار ، وابن الهندى ، وغيرهم ، ورحل إلى المشرق حاجا ، فلقى بمكة أبا يعقوب ابن الدخيل وأبا الحسن بن جهضم ، وأبا القاسم السقطى ، وسمع بالقيروان من أبى حسن القابسى وأبى عمران الفاسى ، وكان زاهدا ، فاضلا ، متبتلا منقطعا عن الدنيا صواماً قواماً ، حسن الخط ، جيد الضبط ، كتب بخطه علما كثيراً ، وكان يصوم رمضان فى الفهمين [1] ويصنع فى عيد الفطر طعاما كثيرا لأهل الحصن ولمن هنالك من المرابطين ، وينفق المال الكثير ، وكان يرابط بنفسه فى الثغور ، ويلبس الخشن من الثياب ، وتوفي فى العشرين والاربعمائة ، وهشام بن محمد بن حفص الرعينى المعروف ابن الشرّانى قرأ على ابن يعيش وكان يجله ويكرمه ، وكان حافظا لمذهب مالك عاقلا

(١) تقدم ذكر قرية الفهمين أو الفهميين وهى من قرى طليطلة

حسن السمت وتوفى بطليطلة وصلى عليه ابن الفخار .

وهشام بن قاسم الأموى ، ويكنى أبا الوليد ، قرأ على محمد بن يعيش ، وعُنى بالعلم وكان متمولا . وأبو الوليد هشام بن محمدبن أحمد الأنصارى ، قرأ على يوسف بن أصبغ ، وامتحن فى آخر عمره ، ومات مقتولا سنة ٤٣٤ فى آخر ذى الحجة . وأيضا أبو الوليد هشام بن محمد بن مسلمة الفهرى ، له رحلة إلى المشرق ، استفاد فيها علماً ، وكان مشاوراً فى الأحكام ووقعت عليه محنة عظيمة ، وتوفى سنة ٤٦٩ فى صفر . وأيضا أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد بن هشام الكتانى المعروف بالوقّشى ، أخذ العلم عن أبى عمر الطلمنكى ، وأبى محمد بن عباس الخطيب ، وأبى عمر السفاقسى ، وأبى عمر بن الحذّاء ، وأبى محمد الشنتجالى ، وغيرهم ، قال القاضى صاعد[1] بن أحمد : أبو الوليد الوقشى أحد رجال الكمال فى وقته ، باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم ، وهو من أعلم الناس بالنحو واللغة ، ومعاني الاشعار ، وعلم الفروض وصناعة البلاغة ، وهو شاعر مجيد متقدم ، حافظ للسنن ، ولأسماء نَقَلَة الأخبار ، بصير بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، واقف على كثير من فتاوى فقهاء الامصار نافذ فى علم الشروط والفرائض ، متحقق بعلم الحساب والهندسة ، مشرف على جميع

---

(١) الذى قرأناه من كلام القاضى أبى القاسم صاعد بن احمد الطليطلى الاندلسى المتوفى سنة ٤٦٤ فى كتابه « طبقات الامم بشأن أبى الوليد الوقشى هو هذا بحرفه : ومنهم أبو الوليد هشام بن احمد بن خالد الكتانى المعروف بابن الوقشى من أهل طليطلة أحد المتفننين فى العلوم المتوسعين فى ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ فى علم النحو واللغة والشعر والخطابة والأحكام بعلم الفقه والاثر والكلام وهو مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله شاعر عالم بالانساب والاخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم لقيته بطليطلة سنة ثمان وثلاثين واربعمائة وقد تقلد القضاء بين أهل طلبيرة من ثغور طليطلة قاعدة الأمير المأمون يحي بن الظافر اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون . انتهى هذا نقلا عن طبقات الامم النسخة المطبوعة بمصر

آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب ، ثاقب الذهن في تمييز الصواب ، يجمع ذلك إلى آداب الأخلاق ، وحسن المعاشرة ، وصدق اللهجة . اهـ .

قال أبو بكر عبد الباقي بن محمد الحجاري : وكان شيخنا أبو محمد الريولي يقول: وكان من العلوم بحيث يُقضى له في كل علم بالجميع ، توفى بدانية يوم الاثنين ، ودفن يوم الثلثا لليلة بقيت لجمادى الآخرة من سنة ٤٨٩ ، وقد نيّف على الثمانين . و يظهر أنه ممن رحل عن طليطلة بعد استيلاء النصارى عليها .

ويحيى بن عبد الله بن ثابت الفهري النحوي ، المكنى بأبي بكر ، كان من علماء العربية والفقه ، وكان لسناً شاعراً ، وتوفى سنة ٤٣٦ في صفر . وأبو بكر يحيى ابن محمد بن يحيى الأموي ، كان أديباً شاعراً ، حسن الخط ، وقورا ، حسن السمت توفى في الواحدة والستين والار بعمائة .

وأبو بكر يحيى بن سعيد بن أحمد بن يحيى بن الحديدي ، سمع من علماء طليطلة ، وكان نبيلا ، فصيحاً ، فطناً ، مقدما في الشورى ، كانت له مكانة عظيمة عند المأمون يحيى بن ذي النون ، الذي لم يكن يقطع في شيء إلا بمشورته ، ودخل مع المأمون قرطبة لما ملكها ، وكان مستولياً على أمره ، فلما توفى المأمون استثقله حفيده القادر بالله ، حتى قتل بقصره يوم الجمعة في المحرم سنة ٤٦٨ اهـ . ملخصا عن ابن بشكوال والقادر ابن ذي النون هو الذي بحمقه وسوء تدبيره أضاع طليطلة ، وكان السبب في هذا الخرق الذي عجز المسلمون عن سده ، حتى أدى إلى ضياع جميع الأندلس . وأبو عمر يوسف بن أصبغ بن خضر الأنصاري ، أخذ عن الخشني ، وابن ذنين ، وغيرهما واعتنى بالعلم إلى الغاية ، وكانت وفاته سنة ٤٣١ في صفر[1] . وأبو عمر يوسف

---

(١) وجدت في المكان المسمى برادوسان ايزيدور في طليطلة كتابة محفوظة اليوم في المتحف الأثري بمجريط وهي ثمانية أسطر بالكوفي قد أصبح أكثرها طامسا ونصها : بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر يوسف بن الاصبغ بن الخضر توفى رحمة الله عليه عشي يوم السبت . . . . من جمادى . . . و . . . ،و . . . وأربعمائة

ابن عمر الجهنى ، يعرف بابن أبى ثلة ، كان عالما بالفرائض والآداب ، وعلم النجوم واستبحر فى ذلك وتوفى فى الخامسة والثلاثين والار بمائة . وأبو عثمان سعيد بن عثمان البنا الشيخ الصالح المرابط بالفهمين من قرى طليطلة . و يوسف بن موسى بن يوسف الأسدى ، يعرف بابن البابش أخذ عن ابن مغيث وشوور فى الأحكام وولد ببلدة وَلْمُشْ ودفن بها سنة ٤٧٥ فى ذى القعدة

وأبو عبد الله يوسف بن محمد بن بكير الكنانى ، سمع من أبيه القاضى محمد بن بكير ، كان عالما بالفقه والحديث والفرائض ، رحل إلى الشرق وحج ، ثم رجع إلى الأندلس ، وتولى قضاء قلعة رباح ، فحسنت سيرته ، وكان حسن الرأى والهيئة ، مات سنه ٤٧٥ فى ذى الحجة .

وأبو الوليد يونس بن محمد من أهل قرطبة ، سكن طليطلة . وأبو الوليد أيضاً يونس بن أحمد بن يونس الأزدى ، يعرف بابن شوقُه ، روى عن أبى محمد بن هلال وجاهر بن عبد الرحمن ، وأبى عمر بن عبد البر ، وأبى عمر بن سُميق القاضى ، وغيرهم كان فاضلا ، باراً باخوانه ، من أحسن الناس خلقاً ، وأكثرهم بشاشة ، لايخرج من منزله إلا لأمر مؤكد ، وكان الغالب عليه من الحديث ما فيه الزهد والرقائق . وهو من أهل طليطلة ، لكنه مات فى مجريط سنة ٤٧٤ ، فى ربيع الأول . وأبو الوليد أيضا يونس بن محمد بن تمام الأنصارى ، كان فقيها مفتيا ، صالحا ، منقبضا عن الناس ، توفى فى جمادى الآخرة سنة ٤٧٨ ، أى بعد سقوط طليطلة بأشهر قلائل .

وأبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى ، له رحلة إلى المشرق ، وكانت له عناية كثيرة بالعلم ، وكان فقيها . تولى الأحكام ببلده طليطلة ، ثم صار إليه تدبير الرئاسة فيه . ونفع الله به أهل موضعه . ثم خُلع عن ذلك وسار إلى قلعة أيوب ، وتوفى بها سنة ٤١٨ ، على رواية ابن مظاهر ، أو فى التى بعدها على رواية ابن حيّان .

وفاطمة بنت يحيى بن يوسف المغامى ، أخت الفقيه يوسف بن يحيى المغامى ، من

احدى قرى طليطلة ، كانت عالمة ، فاضلة ، فقيهة ، استوطنت قرطبة ، و بها توفيت سنة ٣١٩ ودفنت بالربض ، ولم يُرَ على نعش امرأة قط ما رؤى على نعشها ، وصلى عليها محمد بن أبى زيد . ومحمد بن أحمد بن عدل الفقيه المحدث ، قرأ كتاب مسلم على أبى محمد الشنتجالى بطليطلة . ومحمد بن أحمد بن محمد بن غالب ، يروى أيضا عن الشنتجالى .

وأبو عبد الله محمد بن عيشون ، يعرف بابن السلاخ . قال ابن عَميرة فى بغية الملتمس : غلب عليه الفقه ، وله فيه كتاب ، وهو من المشهورين . وأبو عبد الله محمد ابن الفرج بن عبد الولى الأنصارى ، رحل إلى الشرق ، وسمع بالقيروان ، و بمصر ، و بمكة ، وكان رجلا صالحا ، ثقة ، ضابطاً ، كانت وفاته بعد الخمسين وأربعمائة . وأبو عبد الله محمد بن موسى بن مغلّس . قال ابن عميرة فى بغية الملتمس : فقيه موثّق متفنن محدِّث . وأحمد بن سهل بن الحداد ، قال ابن عميرة : فقيه مقرىء توفى سنة ٣٨٧ . و إسماعيل بن أمية ، كان محدثاً ، ومات سنة ٣٠٣ . واسحق بن ابراهيم بن مسرة ، مات بطليطلة ، لثمان بقين من رجب سنة ٣٥٢ ، قاله ابن عَميرة . و إسحق ابن إبراهيم ، غير الأول ، قال ابن عميرة : فقيه ، توفى بطليطلة سنة ٣٦٤ ، قاله ابن عميرة أيضاً . و إسحق بن ذقابا ، بالذال ، وقيل بالزاى محدّث ، ولِىَ القضاء بطليطلة ومات بها سنة ٣٠٣ .

و زكريا بن عيسى بن عبد الواحد ، توفى ببلده طليطلة ، سنة ٢٩٤ ، عن بغية الملتمس . وسليمان بن هارون الرعينى ، أبو أيوب من محدثى طليطلة مات سنة ٢٧٩ عن بغية الملتمس أيضاً .

وسعيد بن أبى هند ، من قدماء الأندلسيين ، أصله من طليطلة ، وسكن قرطبة وقيل في اسمه : عبد الوهاب ، يروى عن مالك بن أنس رضى الله عنه ، ذكره محمد بن حارث الخشنى فى كتابه ، وزعم أن مالـكا كان يقول لأهل الأندلس ، إذا قدموا عليه : مافعل حكيمكم ابن أبى هند ؟ توفى سعيد المذكور فى أيام

عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس . وقد ترجم صاحب بغية الملتمس شخصا يقال له عبد الرحمن بن محمد بن عباس ، و يكنى أبا محمد ، غير الأول ، وقال إنه صاحب الصلاة بجامع طليطلة ، و إنه فقيه مشهور ، وذكر مشايخه ، مثل أبى غالب ابن تمام ، ومحمد بن خليفة البلوى ، وعبد الله بن عبد الوارث ، وخطاب بن سلمة ابن بُتري ، وغيرهم ، ولكن لم يذكر سنة وفاته ، وأبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف ، المعروف بابن عفيف ، قال فى بغية الملتمس : فقيه فاضل ، يروى عنه ابن النعمة ، وابو عبد الله بن سعادة ، كتب إليه سنة ٥١٤ ، وهو يروى عن جماهر . بن عبد الرحمن بن جماهر . وأبو هند عبد الرحمن بن هند الأصبحى ، روى عن مالك بن انس ومات ببلده طليطلة بعد المائتين .

وكليب بن محمد بن عبد الكريم ، كنيته أبو حفص ، وقيل أبو جعفر ، طليطلى ، رحل إلى مكة فأقام بها مدة ، ثم رجع إلى مصر فمات بها سنة ٣٠٠ . وكان فقيهاً محدثاً ، ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس . وعيسى بن محمد بن دينار ، سمع من محمد بن احمد العتبي ، مات بالأندلس ، فى ايام الامير عبد الله بن محمد الأموى ترجمه ايضا ابن عميرة فى بغية الملتمس . ثم ترجم رجلا آخر اسمه عيسى بن دينار ابن وافد الغافقى صحب عبدالرحمن بن القاسم العتقى صاحب مالك ابن أنس وكان اماماً في الفقه على مذهب مالك وعلى طريقة عالية من الزهد والعبادة . و يقال إنه صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة وكان يعجبه ترك الرأى والاخذ بالحديث توفى سنة ٢١٢ وعلى بن محمد بن مغاور ، فقيه طليطلى ، يروى عن أبى على الصدفى . وعلى بن عيسى ابن عبيد الطليطلى صاحب المختصر في الفقه ، فقيه مشهور ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس ، وعبدوس بن محمد بن عبدوس ، يكنى أبا الفرج ، فقيه محدث مشهور ، توفى سنة تسعين وثلاثمائة . وهشام بن حسين من علماء طليطلة ، رحل إلى مصر ، وسمع من عبدالرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبدالعزيز ، مات قريباً من سنة عشرين ومائتين . وأبو عمر يوسف بن يحيي الازدي المغامى ، قال ابن عميرة فى البغية : قال بعضهم : هو

من ولد أبى هريرة ، رحل إلى المشرق ، وسمع بمصر من يوسف بن يزيد القراطيسى وغيره ، وكانت له رحلة إلى مكة واليمن ، ومات بالقيروان سنة ٢٨٣ . وقيل ٢٨٥ .
وأبو الحسن بن فرجون ، وكان من الأدباء . وابن فصيل الطليطلى ، وكان من الشعراء .
وجودى بن عثمان النحوى العبسى ، من أهل موررور ، أصله من طليطلة ، رحل إلى المشرق ، فلقى الكسائى والفراء وغيرهما ، وهو أول من أدخل الى الأندلس كتاب الكسائى وله تأليف فى النحو يسمى « منبّه الحجارة » ترجمه ابن الأبّار ، وقال : كانت له حلقة ، وأدّب أولاد الخلفاء ، وظهر على من تقدمه ، توفى سنة ١٩٨ ، وصلى عليه الفرَج بن كنانة القاضى .

وجرير بن غالب الرعينى ، تولى قضاء طليطلة أيام ثورتها على الأمير الحكم بن هشام ، وهى الثورة التى تقدم ذكرها ، وانتهت بقتل عدة مئات من أعيان طليطلة فى قصر البلدة ، وردت ترجمة جرير المذكور فى التكملة لابن الأبّار . وحريز بن سلمة الانصارى ، من أهل طليطلة ، سكن بطليوس ، وهو ابن عم القاضى أبى المطرّف بن سلمة ، كان من الفقهاء المشاوَرين . ومن الأدباء. ترجمه ابن الأبّار فى التكملة . وخلف ابن تمام ، يكنى أبا بكر ، من أهل قلعة عبد السلام ، من عمل طليطلة ، حدّث عنه أبو محمد بن ذُنين . وخليفة بن ابراهيم ، ابو بكر ، طليطلى ، حدّث عنه أبو الاصبغ عسلون بن احمد ، من شيوخ الصاحبين . ومحمد الاسدى ، المعروف بابن بُنْشكَلِش من علماء طليطلة ، وصفه الصاحبان بالفقه والزهد . ومحمد بن حزم بن بكر التنوخى ، من طليطلة سكن قرطبة ، يعرف بابن المدينى ، صحب محمد بن مسرّة الجبلى قديماً ، واختص بمرافقته فى طريق الحج ، ولازمه بعد انصرافه ، وكان من أهل الورع ، ولما كان في المدينة المنورة كان يتتبع آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، ليستدل على أمكنة سكناه ، وجلوسه . ويتبرك بذلك ، ومحمد بن يحيى بن آدم التنوخى ، من أهل طليطلة ، كتب إلى الصاحبين بمعلومات عن رجاله . ومحمد بن رضا بن احمد بن محمد ، من أهل طليطلة ، كان هو وأخوه احمد من أهل الرواية والعناية بالفقه ، وقد سمعا جميعاً المدونة

من خلف بن احمد المعروف بالرحوى فى سنة ٤٢٣ ، قال بن الأبّار : وقفت على ذلك . ومحمد بن قاسم بن محمد بن اسماعيل بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية القرشى المرواني ، من أهل قرطبة ، يعرف بالشبانسى ، سكن طليطلة ، وكان ممن ترك قرطبة بعد الفتنة فيها وصار فى طليطلة كاتباً للرسائل لأنه كان متقدماً فى البلاغة بارع الكتابة . قال بن الأبّار : وكان آخر من بقى من أكابر أهل صناعته ، توفى سنة ٤٤٧ ، ذكره ابن حيان . ومحمد ابن احمد بن سعدون ، يكنّى أبا بكر ، له رحلة إلى الشرق ، سمع فيها من أبى ذر الهروى ، حدّث عنه القاضى ابو عامر بن اسماعيل الطليطلى ، ترجمه بن الأبّار . ومحمد بن شدّاد ، يكنى أبا عبد الله ، و يعرف بابن الحداد ، يروى عن الحافظ ابن عبد السلام المعروف بابن شق الليل . وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعيد بن عيسى الكنانى من طليطلة ، سكن بلنسية ، روى عن أبى بكر احمد بن يوسف بن حمّاد سمع منه مختصر الطليطلى فى الفقه ، وروى عنه أبو الحسن بن هذيل المقرىء ، وكان فقيهاً أديباً ، أصولياً ، متكلما ، ووقعت عليه محنة في بلنسية من أبى احمد بن جحاف الأخيف فخرج إلى المرية وتوفى قبل الخمسمائة . ذكره ابن الأبّار .

وأبو عبيد الله محمد ابن احمد بن عبد الرحمن الانصارى المقرى من أهل طليطلة نزل مدينة فاس يعرف بابن فُرقاشش ، أخذ القراءات بطليطلة عن المغامى ، وأبى الحسن ابن الالبيرى وكان مقرئاً جليلا . له تأليف فى اختلاف القرّاء السبعة . أخذ عنه أبو اسحق الغرناطى فى مقدَمِه غرناطة واقرائه منها بمسجد حمزة سنة ٥١٢ . وابو محمد بن محمد ابن عبد الله الطليطلى ، روى عن عبد الله بن سعيد بن رافع الاندلسى ، وزياد بن عبد الرحمن القيروانى ، والحسن بن رشيق المصرى . وحدث عنه الصاحبان بطليطلة ونصر المصحفى النقّاط ، كان يقرىء القرآن ، و ينقّط المصاحف ، أخذ عنه محمد ابن عبد الجبّار الطليطلى ، فلما قرأ بمصر على ابراهيم النحاس أعجبته قراءته . ونصر بن سيد بونُه بن خلف الطائى ، له رحلة إلى المشرق حاجّا ، وسمع بدانية من الفقيه

أبى عبد الله بن الصايغ ، الذى أجاز له سنة ٤٦٦ .

ونجدة بن سليم بن نجدة الفهرى الضرير من أهل قلعة رباح ، سكن طليطلة ، يكنى أبا سهل ، روى عن أبى عمرو المقرى ، وأبى محمد الشنتجالى ، وأبى محمد بن عباس الطليطلى وغيرهم ، وتصدّر بطليطلة لاقراء القرآن وتعليم العربية ، وتوفى بعد سنة ٤٧٥ ذكره ابن الأبّار . وأبو محمد عبد الله بن يونس ، كان من أهل العلم والعبادة والجهاد وتركِ الدنيا ، والتهجّد بالقرآن . وقد حج بيت الله ، وعاد إلى الاندلس ، ولحقته سعاية من قِبَل عامل طليطلة ، فى أيام المنصور بن أبى عامر ، فأسكنه قرطبة مدة سنتين ، ولكن لم يمد يده الى شىء من نعمته ونشبه ، وكان ذا ثروة طائلة ، ولما أقام بقرطبة لم يلق فيها أحداً ، ولا طلب إلى سلطانه شفيعاً ، إلى أن صرفه مكرماً إلى وطنه ، وتوفي بعد قليل من تسريحه ، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وسنُّه نحو الثمانين . وكان مع تقواه من أهل الأدب ، والبصر بالعربية ، ترجمه ابن الأبّار . وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بالاشهب ، حدّث عنه أبو الحسن عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف ترجمه ابن الأبّار أيضاً فى التكملة .

وعبد الله بن محمد بن على بن عبيد الله بن سعيد بن محمد بن ذي النون الحَجْرى (بسكون الجيم بعد فتح الحاء) من حَجْر ذى رُعين ، أصله من طليطلة ، سكن المرية وهم فى الأصل من بنى ذى النون ، أمراء طليطلة ، كما كان يقول . ولما تحولوا من طليطلة نزلوا حصناً اسمه قَنْجَايَر بينه و بين المرية ثلاثون ميلا على الجادّة إلى مالقة . سمع صحيح مسلم من أبى عبد الله بن زغيبة ، وروى عن أبى القاسم بن ورد ، وأبى الحجاج بن يسعون ، وأبى عبد الله ابن أبى أحد عشر ، وأبى محمد الرشاطى وغيرهم ، وذلك فى المرية . ثم رحل إلى قرطبة ، فروى عن أبى القاسم بن بقيّ ، وأبى الحسن ابن مُغيث ، وأبى بكر بن العربى وغيرهم ، ولقى باشبيلية شُريح بن محمد ، وقرأ عليه صحيح البخارى فى رمضان سنة ٥٣٤ ، وكان شُريح بطول العمر قد انفرد بعلو الاسناد فى صحيح البخارى لسماعه إياه من أبيه وأبى عبدالله بن منظور ، عن أبى ذر (الهروى)

فكان الناس يرحلون اليه بسببه ، وكان قد عيّن لقراءته شهر رمضان، فيكثر الازدحام عليه فى هذا الشهر من كل سنة ، قال ابن الأبّار فى التكملة : ان عبد الله المذكور كان الغاية فى الصلاح والورع والعدالة ، وكان أبو القاسم بن حبيش يقول : انه لم يخرج على قوس المرية أفضل منه . قال ابن الأبّار : وأشبه أبا القاسم ابن بشكوال فى اكثاره وتولّى الصلاة والخطبة بجامع المرية ، ودعى إلى القضاء فأبى . ولما تغلّب العدو على المرية أول مرة خرج إلى مرسية ، فدعى إلى ولايات أباها ، ثم خرج إلى مالقة ، ثم أجاز البحر قاصداً إلى فاس ، ثم عاد إلى سبتة وأقام يُقرىء القرآن ، ويُسمع الحديث ويرحل اليه الناس ، لعلو اسناده وحسن ضبطه ، وكان له خط حسن ، وكانت ولادته بقَنْجَايَر سنة ٥٠٥ ، وتوفى ليلة الأحد من صفر سنة ٥٩١ ، بسبتة ، وهو ابن خمس وثمانين سنة ، ودفن بالموضع المعروف بالمنارة ، وكانت له جنازة مشهودة ، روى ذلك ابن الأبّار فى التكملة ، ونحن ننقله ملخصاً .

وأبو الحسن عبد الرحمن بن أبى بكر محمد بن محمد بن مغيث الصدفى ، أخذ عن مشيخة بلده طليطلة ، وقدم بلنسية فى وجوه أهل طليطلة ، للعقد على ابنة المأمون بن ذى النون ، مع المظفّر عبد الملك بن المنصور ، عبد العزيز بن أبى عامر ، فسمع معهم من أبى عمر بن عبد البر سنة ٤٥١ ، وكان هذا الرجل من بيت شهير بالعلم والفقه فى طليطلة ، وهو الذى صلى على أبى جعفر احمد بن سعيد اللورانكى عند وفاته فى طليطلة سنة ٤٦٩ .

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمى ، رحل إلى قرطبة ، فتعلم فيها الطب على أبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى وكان مع تقدمه فى علم الطب فقيهاً أديباً متفنناً ، وله فى الطب كتاب الأدوية المفردة استعمله الناس ، وكتاب الوساد . وله فى الفلاحة مجموع مفيد ، وكان عارفاً بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة ولد سنة ٣٨٩ وتوفى منتصف يوم الجمعة ، لعشر بقين من رمضان سنة سبع وستين وأربعمائة .

وأبو زيد عبد الرحمن بن سعيد الأنصارى ، لقى أبا الحسن بن الالبيرى المقرى وأخذ عنه ، وحدّث عنه أبو بكر بن الحلوف ، بكتاب الاستذكار ، لمذاهب القراء السبعة المشهورين فى الأمصار ، لابن الألبيرى المذكور ، قال ابن الأبّار : وقد تقدم ذكر محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الطليطلى المقرى ، وروايته عن أبى عبد الله المغامى ، ولعله ابن هذا . وعبد الجبار بن قيس بن عبد الرحمن بن قتيبة ابن مسلم الباهلى ، من أهل طليطلة ، ولّى قضاءها من قِبَل الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل .

وأبو الحسن على بن عبد الرحمن بن يوسف الأنصارى من ولد سعد بن عبادة يعرف بابن اللونقة ، روى عن أبى عمر بن عبد البر ، وأبى العباس العذرى وغيرهما وكان فقيهاً ورعاً ، وأخذ علم الطب عن أبى المطرّف بن واقد ، وكان خرج من طليطلة قبل تغلب الروم عليها ، وأقام بقرطبة ، ومات فيها سنة ثمان أو تسع وتسعين وأربعمائة . ترجمه ابن الأبّار . وأبو الحسن على بن احمد بن أبى بكر الكنانى ، يُعرف بابن حنين الطليطلى ، ثم القرطبى ، نزيل فاس ، سمع بقرطبة ، وبجيّان ، وحج سنة خمسمائة وبعدها مرتين ، ولقى أبا حامد الغزالى ، وصحبه ، وسمع منه أكثر الموطّأ وأقام ببيت المقدس تسعة أشهر ، يُقرىء القرآن ، وفى سنة ٥٠٣ كان فى مدينة فاس ، توفى سنة ٥٦٩ معمّراً ، لأنه ولد سنة ٤٧٦ ، ترجمه ابن الأبّار . وسعيد بن محمد ، المعروف بابن البغونش ، يكنى أبا عثمان ، قرأ بقرطبة علم العدد والهندسة ، وأخذ عن أبى محمد بن عبدون الحلبى ، وسليمان بن جُلجُل ، علم الطب . واتصل بأمير طليطلة الظافر اسماعيل بن ذى النون ، ثم انقبض عن الناس ، ومال إلى العبادة فى دولة ابنه المأمون يحيى بن ذى النون ، وتوفى فى رجب سنة ٤٤٤ ، عن خمس وسبعين سنة . وأبو عثمان سعيد بن عيسى بن أحمد بن لب الرُعينى ، يعرف بالأصفر ، وبالقُصيرى لولادته بقصير عطية ، ولد سنة ٣٨١ ، ورحل إلى قرطبة فى طلب العلم سنة ٣٩٩ ، وقرأ بقرطبة وبمالقة على أبى الحسن الزهراوى ، وعلى أبى عثمان نافع ، وكان

مقدماً فى علم العربية ، وتوفى سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وأبو اسحق ابراهيم بن محمد الأنصارى المقرىء الضرير ، يعرف بالمُجُنقونى ، سكن قرطبة ، وأصله من طليطلة كان من جلة أصحاب أبى عمر المقرىء ، وسمع الحديث على أبى بكر جماهر بن عبد الرحمن الحَجْرى ، وكان ثقة فاضلا عفيفاً منقبضاً ، وكان إمام مسجد طَرفة بالمرية ، وكانت وفاته عقب شعبان سنة سبع عشرة وخمسمائة . وأبو بكر يحيى بن احمد من طليطلة ، نزل اشبيلية بعد تغلّب الروم على وطنه . قال ابن الأبّار : إنه كان يتقدم أدباء عصره تفننا فى الآداب ، وتصرفا فى النظم توفى سنة ٥٤٥ .

وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام الأنصارى ، يعرف بابن شق الليل ، سمع بمصر أبا الفرج الصوفى ، وأبا القاسم الطحّان ، وأبا محمد بن النحاس ، وغيرهم ، وكان قد قرأ على علماء طليطلة ، وكان غالبا عليه علم الحديث ، مع معرفة اسماء رجاله . وكان مليح الخط ، جيد الضبط ، شاعراً مجيداً ، لغوياً ، صالحاً فاضلا ، توفى بطلميرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ ، ترجمه ابن بشكوال ، وذكره المقّرى فى من رحل من أهل الأندلس إلى الشرق . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سهل الأموى الطليطلى ، المعروف بالنقّاش ، نزل مصر ، وقعد للاقراء بجامع عمرو بن العاص ، وأخذ عنه جماعة ، وتوفى بمصر سنة ٥٢٩ ، ورد ذكره فى نفح الطيب . وأبو زكريا يحيى بن سليمان ، قدم إلى الاسكندرية ، ثم رحل إلى الشام ، وأقام بحلب ، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء ، قال بعض من طالعه : ما رأيته مدح أحداً إلا وهجاه . عن نفح الطيب . وأبو محمد عبد الله ابن العسال الطليطلى ، له شعر قرأته فى صفحة ١٤٨ من الجزء الثانى من نفح الطيب وعبد الله بن المعلم الطليطلى . ومحمد بن خيرة العطار كان متقناً لعلم العدد والفرائض علم بذلك فى قرطبة ، ذكره القاضى صاعد ، ترجمه ابن الأبّار فى التكملة . واحمد بن محمد بن الحسن الطليطلى ، من شيوخ الصاحبين .

وأبو جعفر احمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة ، قال القاضى

صاعد بن احمد عنه : أحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب ، وله مشاركة فى علوم اللسان ، وحَظٌّ صالح فى الشعر ، وهو من أقران القاضى أبى الوليد هشام بن احمد ابن هشام ، وأبى إسحق ابراهيم بن لب بن إدريس التجيبى ، المعروف بالقويدس . كان من أهل قلعة أيوب ، ثم أخرج عنها ، واستوطن طليطلة ، وتأدّب فيها ، وبرع فى علوم العدد والهندسة والفرائض ، وقعد للتعليم بذلك زماناً طويلا وكان له بصر بعلم هيئة الأفلاك ، وحركات النجوم ، وعنه أخذتُ كثيراً من ذلك ، وكان له مع ذلك نفوذ فى العربية ، وقد أدّب بها زماناً بطليطلة ، وتوفى رحمه الله ليلة الأربعاء ، لثلاث بقين من رجب سنة أربع وخمسين وار بعمائة . انتهى .

ثم ذكر القاضى صاعد بعض من عنى بالفلسفة من أهل الأندلس فقال : وفى زماننا هذا افراد من الاحداث منتدبون بعلم الفاسفة ، ذوو افهام صحيحة ، وهمم رفيعة قد أحرزوا من أجزائها ، فمنهم من سكان طليطله وجهاتها : أبو الحسن على بن خلف ابن احمر ، وأبو اسحق ابراهيم بن يحيي النقّاش المعروف بولد الزرقيال ، وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجى ، وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن غالب التهلاكى ، وعيسى بن أحمد بن العالم ، وابراهيم بن سعيد السهلى الاسطرلابى . (ثم قال) : وأعلمهم بحركات النجوم ، وهيئة الأفلاك ، أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش ، المعروف بولد الزرقيال ، فانه أبصر أهل زماننا بارصاد الكواكب ، وهيئة الأفلاك ، وحساب حركاتها ، وأعلمهم بعلم الازياج ، واستنباط الآلات النجومية اه .

ثم ذكر القاضى صاعد غير هذا من الحكماء وعلماء الفلك والرياضيين ، من أهل الأندلس ، ممن سنذكرهم عند الوصول إلى ذكر بلدانهم . ثم ذكر علماء الطب فقال مايلى : وكان بعد هؤلاء إلى وقتنا هذا جماعة من أشهرهم : أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش ، وكان من أهل طليطلة ، رحل إلى قرطبة بطلب العلم ، فأخذ عن مسلمة بن أحمد علم العدد والهندسة ، وعن محمد بن عبدون الجبلى وسليمان بن جلجل ، وابن الشناعة ، ونظرائهم ، علم الطب . ثم انصرف إلى طليطلة ، واتصل بأميرها الظافر

اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن عامر بن مطرّف بن ذى النون ، وحظى عنده وكان أحد مدبّرى دولته ، ولقيته فيها بعد ذلك ، في صدر دولة المأمون ذى المجد يحيى بن الظافر بن اسماعيل بن ذى النون ، وقد ترك قراءة العلم ، وأقبل على قراءة القرآن ، ولزوم داره ، والانقباض عن الناس ، فلقيت منه رجلا عالما ، جميل الذكر والمذهب ، حسن السيرة ، نظيف الثياب ، ذا كتب جليلة ، فى أنواع الفلسفة ، وضروب الحكمة . وتبينت منه أنه قد قرأ الهندسة وفهمها ، والمنطق وضبط كثيراً منه . ثم أعرض عن ذلك ، وتشاغل بكتب جالينوس وجمعها ، وتناولها بتصحيحه ومعاناته ، فحصل له بتلك العناية فهم كثير منها . ولم يكن له دربة فى علاج المرضى ، ولا طبيعة نافذة فى فهم الأمراض . وتوفى عند صلاة الصبح يوم الثلثاء أول رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وعمره خمس وسبعون سنة اهـ .

ثم ترجم القاضى صاعد الوزير أبا المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير ابن يحيى بن وافد بن مهنّد اللخمى ، قال عنه : أحد أشراف أهل الأندلس وذوى السلف الصالح منهم ، والسالفة القديمة فيهم ، عُنِيَ عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها ، ومطالعة كتب ارسطاطاليس ، وغيره من الفلاسفة ، وتمهّر فى علوم الأدوية المفردة ، حتى ضبط منها مالم يضبط أحد فى عصره . وألّف فيها كتابا جليلا لانظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسفوريدوس ، وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب . وهو مشتمل على قريب من خمسمائة ورقة ، وأخبرني عنه أنه عانى جمعه ، وحاول ترتيبه ، وتصحيح ماضمّنه من أسماء الأدوية وصفاتها ، وأودعه إياه من تفصيل قواها ، وتحديد درجاتها ، من عشرين سنة ، حتى كمل موافقا لغرضه ، مطابقا لبغيته . وله فى الطب منزع لطيف ، ومذهب نبيل . وذلك أنه لايرى التداوى بالأدوية ، ما أمكن التداوى بالاغذية ، أو ما كان قريباً منها ، فاذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوى بمركّبها ، ماوصل إلى التداوي بمفردها . فان اضطر إلى المركّب لم يكثر التركيب . بل اقتصر على أقل مايمكن منه . وله نوادر

محفوظة ، وغرائب مشهورة ، فى الابراء من العلل الصعبة ، والأمراض المخوفة ، بايسر العلاج وأقربه ، وهو فى وقتنا هذا حى مستوطن مدينة طليطلة وأخبرني أنه ولد فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة اه .

ثم ذكر القاضى صاعد علماء آخرين من بلده ، اشتهروا بالفلسفة والطب والفلك والهندسة فقال : ثم من احداث عصرنا ، ممن يعتنى بطلب الفلسفة : أبو الحسن عبدالرحمن ابن خلف بن عساكر ، اعتنى بكتب جالينوس عناية صالحة ، وقرأ كثيراً منها على أبى عثمان سعيد بن محمد بن بغونش ، واشتغل أيضاً بصناعة الهندسة والمنطق ، كانت له عبارة بالغة ، وطبع فاضل فى المعاناة ، ومنزع حسن فى الفلاح ، وهومع ذلك صِنْع[1] اليدين ، متصرف فى ضروب من الأعمال اللطيفة ، والصناعات ، ساع فى نيلها ، وله من جودة القريحة ، وصحة الفهم ، مايمكنه من البلوغ إلى المراتب الراقية من الفلسفة ، إن أعانه جد ، وساعده حال .

وأما صناعة أحكام النجوم فلم تزل نافعة بالاندلس قديماً وحديثاً ، واشتهر بتقلدها جماعة فى كل عصر إلى وقتنا هذا . فكان من مشاهيرهم فى زماننا هذا ، وزمان بنى أمية : أبو بكر يحيي بن أحمد ، المعروف بابن الخياط ، كان أحد تلاميذ أبى القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى فى علم العدد والهندسة . ثم مال إلى أحكام النجوم ، فبرع فيها ، واشتهر فى علمها ، وخدم بها سليمان بن الحكم بن الناصر لدين الله أمير المؤمنين فى زمان الفتنة ، وغيره من الأمراء . وكان آخر من خدم بذلك معتنياً بصناعة الطب دقيق العلاج ، وكان حصيفاً ، حليما ، دمثا ، حسن السيرة ، كريم المذهب ، توفى بطليطلة سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وقد قارب ثمانين سنة اه .

(ثم قال) : ومنهم من أحداث عصرنا أبو مروان عبيد الله بن خلف ، أحد المتحققين بعلم الأحكام ، والمشرفين على كتب الأوائل ، فلا أعلم أحداً فى الأندلس فى وقتنا هذا ولا قبله ، وقف من أسرار هذه الصناعة وغرائبها على ماوقف عليه .

---

(١) صنع اليدين بكسر الصاد وسكون النون ويجوز بتحريك الصاد والنون

وله فى التسيرات ، ومطارح الشعاعات ، وتعليل بعض أصول الصناعة ، رسالة فاضلة ، لم يتقدمه أحد إليها . كتب بها إلىّ من مدينة قونكة اه .

هؤلاء هم علماء العرب المنسوبون إلى طليطلة ، من فقهاء ، ومحدثين ، وحكماء ، ومتكلمين ، وشعراء ، ومنشئين ، وأطباء ، ومهندسين ، وحكماء ورياضيين ، ممن وقفنا على أخبارهم . ولا شك فى أنه ندّ منهم من لم نقف على خبره ، أو من وقع منا سهو عن تقييد ترجمته ، والاحاطة غير ممكنة ، كما لا يخفى . وان فاتنا شىء ووقفنا على فوته قيّدناه ليلحق بالطبعة الآتية إن شاء الله

فأما الذين ينسبون إلى طليطلة من كبار الرجال فى دور النصرانية ، فأشهرهم الكردينال « بادرو غونزالز دو مندوزا »[1] الذى كان أكبر موقد لنار الحرب على غرناطة ، توفى سنة ١٤٩٥ . والكردينال « شيمينيس دوسيزناروس[2] » المتوفى سنة ١٥١٧ ، وهو صاحب ديوان التفتيش الشهير ، الذي كان يحرق بالنار المسلمين واليهود الذين يأبون التنصر ، أو يتنصرون ظاهراً ، ثم يأتى من يخبر عنهم بأنهم لا يزالون يدينون بدينهم سراً . والكرادلة « رودريقو »[3] ، و « فونسيكا »[4] ، و «تينوريو»[5] ، بانى قنطرة طليطلة الأخيرة . و «تافيرَه»[6] ، و «لورانزانه»[7] ، وكلهم كانوا رؤساء أساقفة أسبانية . وفى طليطلة مات الشاعر اغسطين كابانيا[8] ، سنة ١٦٦٩ وولد فرنسيسكو روجاس زورلّا[9] سنة ١٦٠٧

(١) Pedro Gonzalez de Mendoza
(٢) Ximénes de Cisneros (٣) Rodrigo
(٤) Fonseca (٥) Tenorio (٦) Tavera
(٧) Loranzana (٨) Cabanà (٩) Rojès - Zorrilla

طلبيرة Telavera

ومن الأعمال الشهيرة التى كانت مضافة إلى طليطلة فى زمان العرب طَلَبيرة[١]، وهى على مسافة ١٣٥ كيلومترا من مجريط . وسكانها اليوم أحد عشر ألف نسمة ، واقعة على ضفة نهر تاجُه ، ولها جسر ٢٥ قوساً باق من القرن الخامس عشر ، وفيها باب رومانى قديم ، وأبراج عربية من زمن بنى أمية . وفى هذه البلدة هزم الانكليز جيش بونابرت فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٩ . و يوجد ثلاث بلاد باسم طَلَبيرة فى أسبانية : طَلَبيرة على ضفة وادى يانه ، من عمل بطَلْيوس فى غرب الأندلس وهى قرية صغيرة ، وطلبيرة هذه ذات الشأن ، وكانت تعد من أعمال طليطلة . وطَلَبيرة بيجة على ٣٠ كيلومتراً من طلبيرة الكبرى .

قال ياقوت الحموى : طلبيرة بفتح أوله وثانيه ، وكسر الباء الموحدة ، ثم ياء مثناة من تحت ساكنة ، وراء مهملة : مدينة بالأندلس ، من أعمال طليطلة ، كبيرة ، قديمة البناء ، على نهر تاجه بضم الجيم . وكانت حاجزاً بين المسلمين والافرنج ، إلى أن استولى الافرنج عليها فهى فى أيديهم الآن ، فيما أحسب . وكان قد استولى عليها الخراب ، فاستجدها عبدالرحمن الناصر الأموي ، ولطلبيرة حصون ونواح عدة اه .

و ينتسب إلى طلبيرة عدد كبير من أهل العلم ، مما يدل على عمرانها العظيم فى أيام العرب : منهم أبو الحسن عبد الرحمن بن سعيد بن شمّاخ ، روى ببلده عن أبى الوليد مرزوق بن فتح ، وروى عن أبى عبد الله المغامى ، وكان من أهل الذكاء والمعرفة ، توفى فى شوال سنة ٥٢٠ . وأبو الوليد عبدربه بن جهور القيسى ، روى عن أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد السلام الحافظ وغيره ، وروى عنه ابنه ابراهيم بن عبد ربه . وأبو القاسم عيسى بن ابراهيم بن عبدربه المذكور ، سكن شريش ، ورحل إلى الشرق ودخل بغداد ، وأخذ عن الحريرى صاحب المقامات ، وكان أديباً بارعا صالحاً ثقة ، مات باشبيلية وسط سنة ٥٢٧ .

---

(١) Telavera de la Reina

وأبو الحسن على بن موسى بن ابراهيم بن حِزب الله ، من أهل طلبيرة سكن سرقسطة ، روى عن أبى عمر المديونى ، ورحل إلى المشرق وحج ، وأدرك الجلّة من الرجال ، وحدث عنه أبو عمرو المقرىء ، وأبو حفص بن كُريب ، وكان كثير الرواية ، غير أن العبادة غلبت عليه ، فامتنع عن الرواية إلّا يسيراً ، واعتزل الناس ، وكان يختم القرآن فى ثلاث ليال . قال ابن بشكوال : ولم ألقَ مثله فى الزهد والتبتل ، رحمه الله . وأبو نصر فتوح بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ، روى عنه أبو الوليد مرزوق بن فتح ، وقال : كان الغالب عليه الرأى .

وأبو عبد الله محمد بن فتوح بن على بن وليد بن محمد بن على الأنصارى ، روى عن أبى جعفر بن مغيث وثائقه ، وأخذ عن أبى عمر بن عبدالبرّ ، وأبى عمر بن سُميق ، وأبى عمر الطلمنكى ، وعن التبريزى . وكان عالماً بالرأى والوثائق ، تولى أحكام القضاء بغرناطة وتوفى بمالقه ، أول يوم من صفر سنة ٤٩٨ . وأبو الوليد مرزوق بن فتح بن صالح القيسى ، روى عن أبى عبد الله محمد بن عبد السلام الحافظ ، وعن أبى العباس بن فتوح وعن التبريزى ، والسفاقسى ، وعن أبى محمد الشنتجياني ، وأبى محمد بن عباس الخطيب ، ورحل إلى المشرق حاجا ، ولقى بمكة أبا ذر الهروى فى موسم سنة ٤٢٨ ، وكان من أهل المعرفة والنباهة ، توفى فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وأبو الفتح نصر بن عامر بن أنس الأنصارى ، روى عن عبد الرحمن بن مدراج ، وروى عنه ابن عبد السلام الحافظ ، وأبو محمد بن خزرج . وقال هذا عنه : كان من أهل العلم ، ثقة ثبتاً ، مشهوراً بالعناية والسماع ، وذكر أنه أجاز له سنة ٤١٦ . وأبو العباس وليد بن محمد بن فتوح الأنصارى ، روى عن عبدوس بن محمد ، وله رحلة إلى المشرق ، وكان يغلب عليه الرأى .

وأبو العباس احمد بن عمر المعافرى المرسى ، أصله من طَلَبيرة ، يعرف بابن إفرند . وخلف المقرى مولى جعفر الفتى ، يكنى أبا القاسم ، له رحلة إلى المشرق ، سمع فيها بالقيروان من أبى محمد بن أبى زيد ، ولازمه سنين عدة ، وأقام بالمشرق

سبعة عشر عاماً ، وحج ثلاث حجج ، وقرأ القرآن بمصر على ابن غلبون المقرىء ، ودخل بغداد والبصرة والكوفة ، قال ابن بشكوال : قرأت خبره كله بخط أبى بكر المصحفى ، وذكر أنه لقيه بطَلَبيرة ، وقال : كان رجلا صالحاً متبتلا ، دائم الصيام ، عابداً ، يسكن المسجد ، ويحاول عجن خبزه بيده ، وكان قصيراً مفرط القصر ، وكان فقيهاً يقظاً ، وذكر أنه أخذ عنه سنة ثمان وأربعمائة . وأبو بكر خلف بن يوسف بن نصر المعروف بالمُغيلى ، أخذ عن أبى عبد الله بن عيشون مختصره فى الفقه ، وحدّث عنه الصاحبان فى طليطلة ، وقالا : توفى فى شعبان سنة ست وتسعين وثلاثمائة .

قشبرة

ومن أعمال طليطلة بلدة يقال لها قُشُبْرَة ، بضم أوله وثانيه ، وسكون الباء . قال ياقوت الحموى : وجدت بعض المغاربة كتبه بالواو (قشوبره) . وهى من إقليم شنشلة ينسب إليها أبو الحسن على بن محمد بن احمد الأنصارى القُشُبْرى ، سمع الحديث بأصبهان من أبى الفتوح بن محمود بن خلف العجلى ، ومحمد بن زيد الكرانى ، وحدّث فيما وراء النهر ببخارى وسمرقند ، وكان عالماً بالهندسة ، وتوفى بسمرقند

أُقليش Aclés

ومن أعمال طليطلة أيام العرب أُقليش ، ذكرها ياقوت فى المعجم فقال : بضم الهمزة ، وسكون القاف ، وكسر اللام وياء ساكنة ، وشين معجمة : مدينة بالأندلس من أعمال شنت برية ، وهى اليوم للافرنج . وقال الحُميدى : اقليش بليدة من أعمال طليطلة ، ينسب إليها أبو العباس احمد بن القاسم المقرى الاقليشى ، وأبو العباس احمد بن معروف بن عيسى بن وكيل التجيبى الاقليشى . قال أحمد بن سِلفة [1]

(١) المراد بابن سلفة أبو طاهر السلفى الحافظ الشهير المحدث المنقطع النظير أحمد ابن محمد بن احمد بن محمد بن ابراهيم الاصبهانى الحروانى ، وحروان محلة بأصبهان . وسلفة بكسر المهملة لقب جده احمد ، ومعناه غليظ الشفة ، أخذ عن أبى عبد الله الثقفى واحمد بن عبد الغفار بن أشته . ومكى السلار ، وخلق كثير باصبهان . وحدث فى بلده

فى معجم السفر : كان من أهل المعرفة باللغات ، والأنحاء والعلوم الشرعية . ومن جملة أساتيذه أبو محمد بن السيد البطَلْيوسى ، وأبو الحسن بن سبيطة الدانى ، وأبو محمد القَلَنّى ، وله شعر ، وكان قد قدم علينا الاسكندرية سنة ٥٤٦ ، وقرأ علىّ كثيراً ، وتوجه إلى الحجاز ، و بلغنا أنه توفى بمكة . اه

وعبد الله بن يحيى التجيبى الاقليشى ، أبو محمد ، يعرف بابن الوحشى ، أخذ بطليطلة عن المغامى المقرىء القراءة ، وسمع بها الحديث ، وله كتاب حسن فى شرح الشهاب واختصر كتاب مشكل القرآن ، لابن فورك . وتولى أحكام بلده في آخر عمره وتوفى سنة اثنتين وخمسمائة . اه

قلنا : وممن ينسب إلى اقليش من العلماء خلف بن مسلمة بن عبد الغفور ، كان قاضيا فى أقليش يكنى أبا القاسم روى بقرطبة عن أبى عمر بن الهندى ، وأبى عبد الله

وهو ابن سبع عشرة سنة . ثم رحل إلى بغداد ، وتفقه فيها بالكيا الهراسى ، وأبى بكر الشاشى ، ثم طاف فى البلدان ، فسمع من علمائها فى زنجان وهمذان والرى والدينور وقزوين واذربيجان ، هذا من بلاد العجم ، وسمع بالحرمين والكوفة وبصرة والشام ومصر من بلاد العرب ، وأتقن مذهب الشافعى ، وبرع فى الأدب ، وجود القرآن بالروايات واستوطن الاسكندرية بضعاً وستين سنة ، مكبا على المطالعة والنسخ واقراء الحديث ، وإذا قرأت تراجم الأندلس فلا تكاد تجد راحلا من الأندلسيين إلى الشرق إلا وقد قيل عنه إنه سمع من أبى طاهر السلفى فى الاسكندرية . ومما لا جدال فيه أنه لم يوجد من قضى عمرا يساوى عمره فى خدمة الحديث حتى كانوا يقولون عنه إنه مسند الدنيا وقد جاء فى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى أن أبا طاهر السلفى مكث نيفاً وثمانين سنة يسمع عليه ، قال الذهبى : ولا اعلم احداً مثله فى هذا . وقال ابن عساكر : سمع السلفى من لا يحصى . قلت : وسمع منه عدد لا يحصى . وله كتاب ترجم فيه من لقيه . وأما من جهة سنه فيقول فى شذرات الذهب إنه جاوز المائة بلا ريب . وإنما النزاع فى مقدار الزيادة ، وتزوج بالاسكندرية امرأة ذات يسار ، وحصلت له ثروة بعد فقر ، وصارت له بالاسكندرية وجاهة . وبنى له العادل على بن اسحاق بن السلار أمير مصر مدرسة بالاسكندرية وكانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة بكرة خامس ربيع الآخر سنة ٥٧٦ .

ابن المطار ، وأخذ عنهما كتاب الوثائق من تأليفهما ، وجمع كتاباً فى الفقه سماه بالاستغناء ، وأبو القاسم خلف ابن مسعود بن أبى سرور ، روى بقرطبة عن شيوخها وحدث عنه القاضى محمد بن خلف بن السقّاط . وأبو محمد عبد الله بن يحيى التجيبى المعروف بابن الوحشى ، الذي ذكره ياقوت فى المعجم كما تقدم . وأبو الربيع هشام بن سليمان المقرى ، له كتاب فى القراءات . وأبو العباس احمد بن قاسم بن عيسى بن فرج بن عيسى اللخمى المقرى الاقليشى سكن قرطبة[1] . وأبو العباس الاقليشى احمد ابن معد بن عيسى التجيبى الاندلسى الداني . قال الحنبلى فى شذرات الذهب . إنه مات سنة ٥٠٥ ، وسمع أبا الوليد ابن الدبّاغ ، وأخذ بمكة عن الكروخى ، وكان زاهداً عارفاً ، وله شعر في الزهد ، وتصانيف من جملتها كتاب النجم . انتهى .

وكان والده أبو بكر معد بن عيسى بن وكيل التجيبى ، نزيل دانية ، من العلماء أيضاً ، وقد حدّث عنه ابنه المذكور ، ذكر ذلك ابن الأبّار فى التكملة . وأبو المطرف عبد الرحمن بن خلف التجيبى ، روى عن أبى عثمان سعيد بن سالم المجريطى ، ورحل حاجاً سنة ٣٤٦ . وبهلول بن فتح من أهل اقليش ، له رحلة إلى المشرق حج فيها ، وكان رجلا صالحا . وأبو اسحق ابراهيم بن محمد بن سليمان بن فتحون من أهل اقليش وقاضيها رحل إلى المشرق وحج ، وسمع بمكة ، من كريمة المروزية ، وسمع بمصر من أبى اسحق الحبّال ، وأبى نصر الشيرازى ، وأبى الحسن محمد بن مكى الازدى ، وكان سماعه منهم مع أبى عبدالله الحميدى سنة ٤٥٠ ، وكان خطيباً محسنا ، استقضى باقليش بلده ، ثم أعفى من القضاء ، ثم دعى إلى قضاء وَبَذَي فأبى وعزم عليه فى ذلك وجاءه

---

(١) لأبى العباس هذا رحلة إلى المشرق دخل فيها بغداد ، وسمع من أبى القاسم عبيد الله بن محمد بن حبابة ، وأبى حفص الكتانى ، وسمع بمصر أبا الطيب بن غلبون ، وطاهر بن غلبون ، ورجع إلى الاندلس يقرأ بقرطبة فى مسجد الغازى . وألف كتابا فى معانى القراءات ، وحدث عنه أبو عمر بن عبد البر ، والخولانى ، والصاحبان ، وأبو عبد الله بن عبد السلام ، وكان رجلا صالحاً فاضلا ، وانتقل فى الفتنة من قرطبة إلى طليطلة ، وأقرأ الناس بها إلى أن توفى فى رجب سنة ٤١٠ ، عن سبع وأربعين سنة

أهل وَبَذَى لهذا الفرض ، و باتوا ليلتهم فى اقليش ، وتوفى أبو اسحق فى صبيحة تلك الليلة . وأبو اسحق ابراهيم بن ثابت بن أخطل من أهل أقليش ، سكن مصر ، وكان دخوله إليها بعد سنة ٣٩٠ واستوطنها ، وكان مقرئا ، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين بعد الار بعمائة اه .

و ينسب إلى بعض قرى اقليش حلالة بن حسن الفهرى ، ذو الوزارتين ، يعرف بابن المديونى سكن سرقسطة وقونكة ، ثم سكن غرناطة ، وعلّم فيها النحو والأدب

قونكة

وغير بعيد عن طليطلة « مدينة قونكة Ceuenca » وهى مركز مقاطعة، وسكانها اليوم بضعة عشر الفا . وهى الآن قسمان : البلدة القديمة وهى جنينة على قمة شاهقة ، عليها حسن ، وأمامها وادى شقر[1] و إلى الشمال الغربى من المدينة تقع البلدة الجديدة وفى قونكة كنيسة قديمة من القرن السادس عشر ، فيها مقابر عائلة البرنس Albornoz و يسير الراكب من ارانجويش إلى قونكة شرقا مسافة ١٥٢ كيلو مترا ، وقد كان العرب عمروا قونكة ، وكانت تابعة لشنترية ، فأخذها منهم الأزفونش الثامن سنة ١١٧٧ . قال ياقوت فى المعجم . قونكة مدينة بالاندلس من أعمال شنترية ينسب إليها ابراهيم بن محمد بن خيرة أبو اسحق القونكى ، روى ببلدته عن قاضيها أبى عبدالله ابن محمد بن خلف بن السقاط ، وسكن قرطبة وأخذ بها عن أبى على العسالى وعن عبدالله بن كرج وكان حافظا للحديث ومات فى شوال سنة ٥١٧ . قاله ابن بشكوال

البسيطة Albacete

ومن المدن التى تقع فى الجانب الشرقى من طليطلة مدينة البسيطة وهى كاسمها فى بسيط من الأرض وسكانها اليوم خمسة عشر ألفا ، وهى قسمان : المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، والجديدة وهى فى أسفل القديمة ، ويمر بها الطريق الحديدى الذاهب من مجريط إلى القنت والسواحل الشرقية .

---

(١) Jucar

شنتجالة Chinchilla

وعلى مقربة من البسيطة . مدينة شنتجالة.وهى بلدة معروفة جداً فى أيام العرب وموقعها على مسافة ٢٩٨ كيلو متراً من مجريط ، ولها حصن مرتفع على رابية تعلو مائتى متر . وبجانب هذا الحصن كهوف كثيرة مسكونة . وشنتجاله هى ملتقى خطى الحديد: خط مرسية ، وخط قرطاجنة ، وقد ورد ذكرها فى مانقلناه عن جغرافيي العرب ، عند ما تكلموا على تقسيمات الأندلس. ولنذكر الآن ما قاله ياقوت فى معجمه :

شنتجالة بالأندلس . وبخط الاشترى : شنتجيل، بالياء . ينسب إليها سعيد بن سعيد الشنتجالى أبو عثمان . حدّث عن أبي المطرف بن مدرج وابن مفرج وغيرهما . وحدث عنه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن بنان . قال ابن بشكوال : وعبد الله بن سعيد بن لبّاج الأموى الشنتجالى المجاور بمكة ، وكان من أهل الدين والورع والزهد ، وأبو محمد رجل مشهور لقى كثيرا من المشايخ ، وأخذ عنهم وروى ، وصحب أبا ذر عبد الله بن أحمد الهروى الحافظ ، ولقى أبا سعيد السجزى ، وسمع منه صحيح مسلم ، ولقى أبا سعد الواعظ ، صاحب كتاب شرف المصطفى ، فسمعه منه ، وأبا الحسين يحيى بن نجاح ، صاحب كتاب سبل الخيرات ، وسمعه منه . وأقام بالحرم أربعين عاماً لم يقض فيه حاجة الانسان ، تعظيما له ، بل كان يخرج عنه إذا أراد ذلك ، ورجع إلى الأندلس فى سنة ٤٣٠ . وكانت رحلته سنة ٣٩١ ، وأقام بقرطبة إلى أن مات فى رجب سنة ٤٣٦ اهـ

قلنا : ويقال إن أبا محمد عبد الله بن لبّاج المذكور حج خمساً وثلاثين حجة

هذا وممن ينسب من العلماء إلى شنجالة أبو الوليد يونس بن أبى سهولة بن فرج ابن بنّج اللخمى ، سكن دانية ، وتوفى بها سنة ٥١٤ . وأبو الحسن مفرّج بن فيرُه الشنجالى . وخديجة بنت أبى محمد عبد الله بن سعيد الشنجالى ، وكانت من الفاضلات المحدّثات . وأما أبو الحسن مفرّج بن فيرُه فكان قد أخذ عن أبى وليد الوقشى ، وأبى عبد الله بن خلصة السكفيف . وتوفى حول ٤٨٠

و بالقرب من شنجالة بلدة يقال لها ألبيرة Alpera يوجد بجانبها كهفان فيهما نقوش من العصر الجليدى ، من رسوم حيوانات ورجال .

وهناك أيضا قرية المنصة Almansa واصل هذه اللفظة « المصنع » وذلك أنه يوجد فيها بركة ماء كبيرة طولها ألفا متر ، فى عرض ألفين ، فى عمق ثمانين مترا ، وهذا المصنع مبنى على واد ، والسد ينخفض كلما ذهب صُعُدا . و يوجد فى قرية المصنع حصن من زمن العرب مشرف على تلك السهول . وقد مررت فى سياحتى إلى أسبانية بهذه الأمكنة كلها .

مكّادة

ومن أعمال طليطلة المعروفة فى أيام العرب « مكّادة » بفتح أوله وتشديد ثانيه و بعد الألف دال مهملة . قال ياقوت : مدينة بالأندلس من نواحى طليطلة هى الآن للافرنج (ياقوت توفى سنة ٦٢٦) قال ابن بشكوال : سعيد بن يمن بن محمد بن عدل ابن رضا بن صالح بن عبدالجبّار المرادى ، من أهل مكّادة ، يكنى أبا عثمان ، روى عن وهب بن مسرّة وعبد الرحمن بن عيسى وغيرهما وتوفى فى ذى القعدة سنة ٤٣٧ . وأخوه محمد بن يمن بن محمد بن عدل ، رحل إلى المشرق روى عن الحسن بن رشيق وعمر بن المؤمل . وأبو محمد بن أبى زيد ، وكان رجلا صالحاً خطيباً بجامع مكّادة حدّث عنه جماعة ، ومات بعد سنة ٤٥٠ ه .

وممن ينسب إلى مكّادة أبو عثمان سعيد بن عثمان ، وكان معتنياً بالحديث وسماعه وحدّث ، قال ابن بشكوال : ورأيت السماع عليه مقيداً في كتابه سنة ٤٢١ بطَلَمنكة في جامعها .

قلعة عبد السلام

ومن أعمال طليطلة قلعة عبد السلام ، و إليها ينسب من أهل العلم أبو بكر خلف ابن تمام ، حدّث عنه أبو محمد بن ذنين . وابراهيم بن سعيد بن سالم بن أبى عصام القلعى ،

يروى عن محمد بن القاسم بن مسمدة ، وعن عبد الرحمن بن عيسى بن مدراج وغيرهما روى عنه الصاحبان وقالا : قدم علينا طليطلة مجاهداً ، وتوفى فى التسعين وثلاثمائة .
وأبو عمر يوسف بن عمر بن يوسف الأنصارى الخزرجى ، يعرف بابن الفخار ، يحدث عن مسعود بن سعيد بن عبد الرحمن ، حدّث عنه أبو محمد بن ذنين

بالنسية Palencia

هذا ومن المدن المعدودة في قشتالة بالنسية ، غير بلنسية الشرقية ، وهى مدينة ايبيرية قديمة ، استولى عليها الرومان بعد مقاومة شديدة . وفي القرن الثانى عشر صارت مقراً لملوك قشتالة ، وفى أيام شارلكان ثار أهلها فى جملة من ثار به فأثخن الامبراطور فيها النكاية ، وأسقطها عن عظمتها ، وفيها كنيسة عظيمة بديعة الصنعة ، هى الكنيسة الكبرى ، وفيها كنائس أخرى أيضاً ، وسكانها اليوم بضعة عشر ألفاً .

ليون Leon

ومدينة ليون وهى من المدن الشهيرة ، ولها مقاطعة يقال لها مقاطعة ليون ، ولكنها اليوم قد نزلت عن درجتها الأولى ، ولا يزيد سكانها على خمسة عشر ألفاً ، وهى من المدن القديمة التى استولى عليها الرومان ، وجعلوا فيها مركز قيادة عسكرية . ثم استولى عليها القوط ، ولبثت فى أيديهم إلى أن فتحها العرب سنة ٩٨٣ ، ثم استرجعها الاسبانيول ، وعظم أمرها فى القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر ، ثم انضمت إلى قشتالة مملكة واحدة ، وكنيستها الجامعة من أبدع محدثات الأسلوب القوطى فى البناء ، وأول حجر وضع فيها كان سنة ١٢٠٠ ، وفيها كنائس وأديار متعددة ، وآثار تدل على عظمتها السالفة . ثم مدينة

طلمنكة Salamanqua

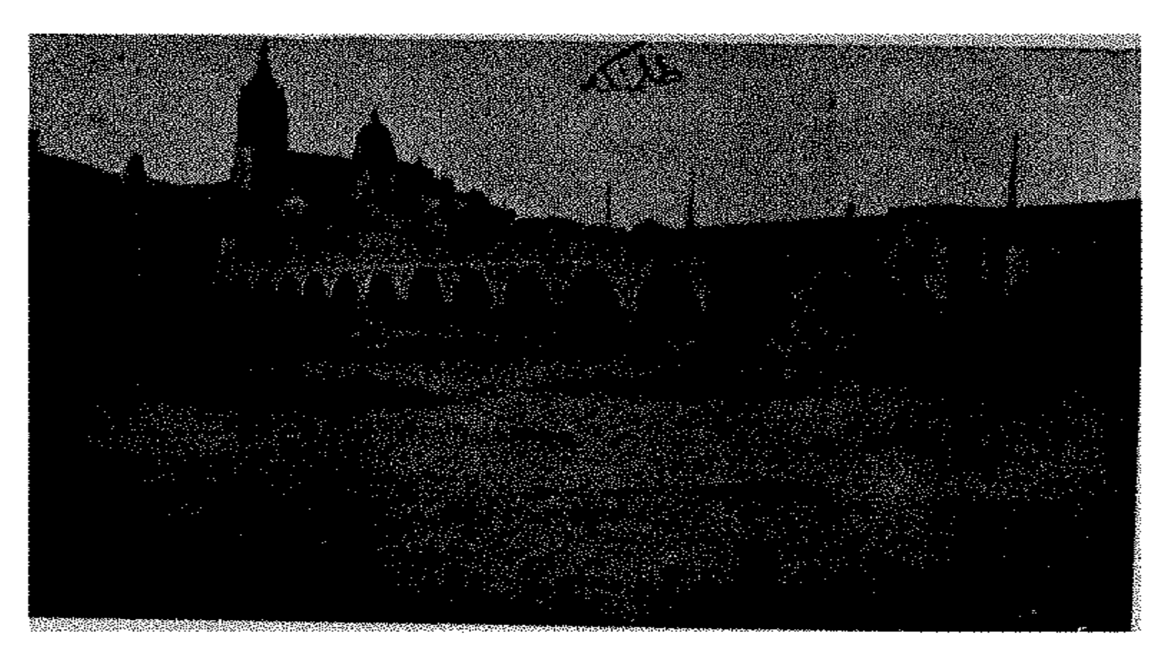
فالعرب يلفظونها بالطاء ، وأما الأسبان فيلفظونها بالسين ، وهي بلدة متوسطة ، سكانها ٢٥ ألفا ، واقعة على نهر طورمس ، وهى مركز مقاطعة وأسقفية ، و إنما اشتهرت

من القديم بمدرستها الجامعة ، وهى فى بسيط من الأرض ، وهواؤها شديد الاختلاف أشبه بهواء برغش ، ففى الشتاء يشتد فيها البرد ، كما فى برغش وآبلة ، وفى الصيف حرّها لايطاق . وكان اسمها فى القديم سالامانتيكا . واستولى عليها أنيبال القرطاجنى سنة ٢١٧ قبل المسيح ، ثم كانت فى زمن الرومان تابعة لولاية لوز يطانية ، ولما جاء العرب وقعت عليها الوقائع الشداد بينهم و بين الأسبان ، لكونها واقعة على الطريق السلطانى الرومانى ، المؤدى من ماردة إلى أسترقه . وقد استردها الأسبان من أيدى العرب فى جملة ما استردوه من شمالى أسبانية ، وصارت قاعدة مملكة ليون ، وحصّنها الاذفونش السادس الذى استولى على طليطلة ، ولأجل أن يجعل الأذفونش فيها حامية كثيفة استجلب إليها كثيراً من الغرباء ، لا سيا من الافرنجة ، ولكن عظمة طَلَمَنْكة لم تبدأ حقا إلا بالمدرسة الجامعة التى بناها أذفونش التاسع سنة ١٢٣٠ (١) ، وقد قارن النجاح هذه المدرسة ، فازدهرت ، وشاع ذكرها ، وصارت تعد من أكبر جامعات أوربة ، نظير جامعة باريز واكسفورد . وكان فيها سبعة آلاف طالب (٢) فى القرن السادس عشر ، وكانوا من جميع أقطار الأرض . جاء فى دليل بديكر أن هذه المدرسة كانت هى التى تنشر معارف العرب فى بقية أوربة .

---

(١) ويقال إنه كان يعيش من جامعة طلمنكة ٥٠ طباعا و ٨٠ كتبياً و ١٨ الف تاجر وصانع

(٢) كانوا يبحثون عن أشهر المدرسين فى جامعات أوربة وينتدبونهم للتعليم فى جامعة طلمنكة وكذلك فى جامعة قلعة رباح التى كان فيها ٤٢ منبراً لتدريس اللاهوت والقانون وأربعة منابر للطب واثنان للتشريح والجراحة و ١٤ لتعليم اللغات والنحو والبيان وكانوا يقرأون التوراة باللاتينى والعبرى واليونانى والكلدانى . وكانوا يختارون من علماء اليهود من يدرس التوراة اليهودية . وكان عدد تلاميذ جامعة القلعة ثمانية الآف . وفى ذلك الوقت كان نبلاء اسبانية والمترفون فيها يتنافسون فى تشييد الجامعات العلمية فأنشئت عشرون جامعة فأكثر فى سرقسطة وآبلة وبلنسية وشنت ياقب ولوشنة وطليطلة وغرناطة واشبيلية وبسطة واوريولة وطرّكونة وغيرها ، ولكن لم يطل الأمر



نهر تورمس وجسر رومانى فى طلمنكة



من مبانى طلمنكة

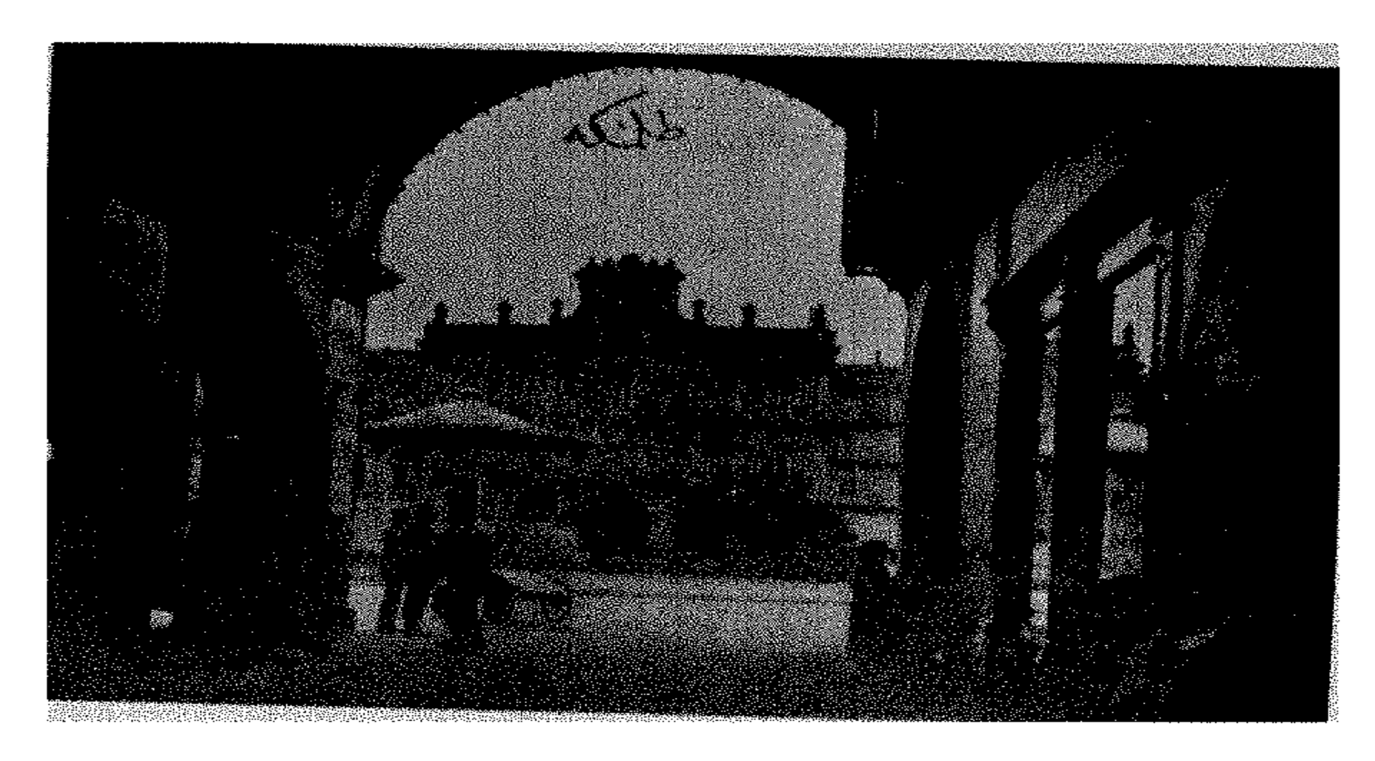
ولم تبدأ طلمنكة بالانحطاط إلا فى زمن فيليب الثانى عند ما نقل كرسيه من طليطلة ، وجعل مركز الأسقفية فى بلد الوليد بدلا من طلمنكة . وأهم من ذلك أنه كان فيها عدد كبير من المور يسك ، أى بقايا العرب ، فلما أجبروهم على الجلاء سنة ١٦١٠ تناقص بذلك جداً عمران المدينة . وفى زمن بونابرت عند ما استولى الفرنسيس على أسبانية ، جعلوا طَلَمَنْكة قاعدة حربية ، فهدموا كثيراً من حاراتها. وفى طَلَمَنْكة ساحة عمومية مربعة ، هى من أجمل ساحات أسبانية ، وفيها جسر رومانى قديم ، وفيها كنائس متقنة كسائر كنائس أسبانية . وفيها خزانة كتب تشتمل على ثمانين ألف مجلد ، بينها مخطوطات نفيسة ، وهذه الخزانة خاصة بالمدرسة الجامعة ، إلا أن المدرسة ليست اليوم على شىء من أهميّتها الماضية ، وعدد الطلبة فيها لايتجاوز ثلاثمائة . وكم فى طَلَمَنْكة من أثر قديم ، و بناء فخم ، ودور مرخّمة ، وأحجار مخرّمة

وقد ذكر ياقوت الحموى طَلَمنكة فقال : بفتح أوله وثانيه ، و بعد الميم نون ساكنة ، وكاف : مدينة بالأندلس من أعمال الافرنج اختطّها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . خرج منها جماعة منهم أبو عمرو ، وقيل أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن عبد الله بن لب بن يحيى بن محمد المعافرى المقرى الطَّلَمنكى ، وكان من المجوِّدين فى القراءة ، وله تصانيف فى القراءة روى الحديث وعمّر حتى جاوز التسعين ، يروى عنه محمد بن عبد الله الخولانى اه .

ثم قلت : وكان أبو عمر الطلمنكى من أشهر علماء الأندلس ، من أخذ عنه عد نفسه قد رزق حظا كبيراً ، وكثيراً ما يدور ذكره فى تراجم العلماء ، وقد سار على أثره ابنه أبو بكر عبدالله بن أبى عمر أحمد بن محمد بن عبد الله بن لب المعافرى الطَّلَمنكى[1]

حتى فترت الهمم وقلت الرغبة فى تحصيل العلم ولم تزل فى التقلص إلى هذا العصر الذى استأنفت فيه الأمة الاسبانية نشاطها مقتدية بغيرها من الامم

(١) ان المسلمين كانوا غلبوا على الجهات الشمالية كلها من اسبانية ، وندر أن توجد بلدة لم يستولوا عليها ، عدا صخرة بيلاى التى التجأ اليها بقية السيف من الاسبانيول ، ولم يزالوا يقلون حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون علجاً ، فمل المسلمون حصارهم فى الكهف



ميدان ميور بطلمنكة

زمورة Zamora

وعلى مسافة ستين كيلومتراً من طلمنكة ، مدينة زمورة ، مبنية فوق صخرة عالية يجري تحتها الوادى الجوفى ، وكانت من قديم الزمان قلعة منيعة تتصادم أمامها الجيوش وطالما وقعت عندها الملاحم ، بين العرب والافرنج ، ولا تزال آثار حصونها ماثلة ، وفيها كنائس مذكورة ، أبدع فيها الصناع ، ولها جسر أنيق المنظر على واديها وليست

الذى أحجروهم فيه ، وتركوهم قائلين : ثلاثون علجا ، ماذا يمكن أن يكون منهم ؟ فتركوهم احتقارا لشأنهم ، وانصرفوا عنهم ، وقد ارتفع العلمَ الاسلامى على جميع تلك البلاد ، وعم حكم العرب السهل والوعر . ولكن لم يلبث العرب أن وقع بعضهم فى بعض ، وتوالت الملاحم بين القيسية واليمنية . وأهم من ذلك ماوقع بين العرب والبربر وكان البربر قد ثاروا فى افريقية . وجرت بينهم وبين العرب وقائع يطول شرحها وملاحم يعجز القلم عن وصفها . وسنأتى على ذكرها فى التاريخ . وكان البربر فى أول الأمر قد ظهروا على العرب فى افريقية ، فجاء الخبر إلى بربر الاندلس ، بأن بربر العدوة

فى يومنا هذا من المدن الممدودة ، و ينسب اليها رئيس جمهورية اسبانية السابق ، الذى يقال له « قلعة زمورة » Alcala - Zamora ، الذى ترأس جمهورية اسبانية فى

ظهروا على عربها ، وأهل الطاعة فيها ، قال فى أخبار مجموعة : فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم وأخرجوا عرب استورقة والمدائن التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن الا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الاطراف كلها إلى وسط الاندلس . الا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فانهم كانوا أكثر من البربر . فلم يهج عليهم البربر، فأخرج عليهم عبد الملك بن قطن جيوشاً فهزموها ، وقتلوا العرب فى الآفاق . فلما رأى ذلك وخاف أن يلقى ما لقى أهل طنجة ، وبلغه إعداد البربر له ، لم ير أعز له من الاستمداد بأهل الشام ، فبعث إليهم السفن فأدخلهم أرسالا ، فى سنة ثلاث وعشرين ومائة (إلى أن يقول عن البربر) . وحشدوا من جليقية واستورقة وماردة وقورية وطلبيرة ، فأقبلوا فى شىء لا يحصيه عدد حتى اجازوا نهرا يقال له تاجه ، يريدون عبد الملك بن قطن ، وأخرج اليهم عبد الملك ابنيه قطنا وأمية ، فى عرب الشام ، اصحاب بلج ، وعرب البلد (إلى أن يقول) : فالتقوا فى أرض طليطلة : على وادى سليط ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، واقبل اهل الشام عليهم حنقين ، فمنحهم الله اكتاف البربر ، فقتلوهم قتلا ذريعا ، افنوهم به . فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب اهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيوش فى ارض الاندلس ، فقتلوا البربر حتى اطفأوا جمرتهم ، (ثم ذكر فى اخبار مجموعة) كيف ان عبد الملك بن قطن عاد فاقتتل مع اهل الشام ، فظفروا به وقتلوه ، وصلبوه على رأس القنطرة بقرطبة فلما بلغ ابنيه الخبر حشدا من أقصى اربونة (ناربون فى فرنسة) وراجعا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فاذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى . وذكر المعركة الثانية ومعارك أخرى من جملتها معركة شقندة ، بين القيسية واليمانية وقال عنها إنها كانت وقيعة قاطعة للارحام وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومائة . وعقبها الجوع والقحط (قال) : فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغاظ أمر علج يقال له بلاى ، قد ذكرناه فى أول كتابنا ، نخرج من الصخرة ، وغاب على كورة وستوريس (Asturies) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زماناً طويلا ، حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة . فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم بلاى ، وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب فى دينه ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى

السنوات الاخيرة بعد سقوط الملكية فيها . وقد كانت العرب استولت على زمورة ، ثم استرجعها الأسبان فى زمن الملك فرويلة بن أذفونش بن بطره ، أيام عبد الرحمن الداخل بسبب فتن العرب بعضهم مع بعض ، إلا ان عبد الرحمن الناصر استرجعها وأنزل بها المسلمين . ثم بعد وفاة الحكم المستنصر استرجع النصارى تلك المدن ، فزحف عليهم المنصور سنة ٣٧٨ ، وافتتح ليون وحاصر زمورة ، وأخذها عنوة ، وأوطن المسلمين زمورة سنة ٣٨٩ ، إلى أن كانت الفتنة فى قرطبة ، فرجعت إلى النصارى ، وكان عامل المنصور على زمورة أبو الاحوص معن بن عبدالعزيز التجيبي .

خلف الجبل ، إلى استورقه ، حتى استحكم الجوع ، فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية ، ومااردة ، فى سنة ست وثلاثين . انتهى ما قاله فى أخبار مجموعة فى هذا الصدد . وقال دوزى : إن ثورة الجلالقة وقعت سنة ٧٥١ ، فاخرجوا المسلمين من بلادهم ، وبايعوا اذفونش ملكا عليهم ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين ، وانكفأ البقية من هؤلاء إلى استورقة ، والذين كانوا قد أسلموا من أهل جليقية ، وكان إيمانهم لا يزال ضعيفاً ، رجعوا إلى الكنيسة بمجرد ما رأوا راية الصليب منتصرة . وهذا ما أشار اليه صاحب أخبار مجموعة بقوله : وتنصر كل مذبذب فى دينه . ثم اضطر البربر أيضاً أن ينزلوا إلى الجنوب ، وأخلوا افراغه وبورتو وقيزو ، وجميع الساحل إلى ما وراء مصب الوادى الجوفى ، ثم تقهقروا أيضا ولم يبق مسلمون فى استورقة وليون وزاموره وليدسمه Ledesma وطلمنكة ، وانكفأوا إلى قورية ، والى ماردة ، وبقيت لهم بقايا فى ضواحى ليون واستورقة . وأما من الجهة الشرقية فقد أخلوا سلدانية ، وسيمنقاس ، وشقوبية ، وآبلة ، واوقة Oca واوسمة Osma، وميراندة ، على وادى ابره ، وسنيسره Cenicero ، والبزانكو Alesanco ، ومن ذلك الوقت صارت المدن الثغرية بيد المسلمين والمسيحيين من جهة الغرب ذاهباً إلى الشرق ، قويمره ، على نهر منديق Mondego ، فقورية ، فطلبيرة فطليطلة ، فوادى الحجارة ، فتطيلة ، فبنبلونة ، قال دوزى : وكان سبب جلاء الاسلام عن تلك النواحى فتن المسلمين الداخلية ، ومجاعة سنة ٧٥٠ ، ولم يكن السبب سيف الاذفونش كما يزعم مؤرخو الاسبانيول .

أشتوريش وجلّيقية asturies et Galice

ان مقاطعة اشتوريش القديمة هى اليوم ولاية اوفيدو Oviedo و يقول لها العرب أو بيط وهذه الولاية عدد سكانها يناهز سبعمائة ألف ، واقعة إلى الغرب من بلاد الباشكونس ، وجبال قنتبرية ، إلى خليج بسقاية أو غشقونية Biscaye ou Gascogne وأما مدينة أو بيط فأصل اسمها أو بيطوم ، وسكانها ٢٥ ألفاً وفيها كرسى أسقفية ، ومدرسة جامعة .

وأصل بناء هذه المدينة ان الملك فرويلة الأول بنى هناك ديراً فى القرن الثامن المسيح ، ثم جعل الاذفونش الثانى هناك مقرّه فتكونت بجانب هذا الدير بلدة ولم يقدر العرب ولا النورمنديون أن يستولوا على أو بيط . وموقع هذه البلدة هو على رابية مشرفة على نهر « نورَه » وأرضها منبسطة موصوفة بالخصب وفيها كنيسة جامعة تشتمل على كثير من بدائع التصاوير وليست بالكنيسة الوحيدة .

وغير بعيد عن او بيط مدينة جيجون وفيها ثلاثون ألف نسمة ، ولها مرسى عظيم على الخليج بناها الرومانيون . ولما جاء العرب استولوا عليها مدة قصيرة من سنة ٧١٥ الى سنة ٧٢٢ لأن الأمير بيلاى ، وهو أول أمير اسبانى مستقل بعد مجيء العرب كما سيأتى الكلام عليه ، عاد فاسترجعها وصارت مركزاً لملوك اشتوريش وتعاقبت عليها من ذلك الوقت أدوار مختلفة . وقد استفادت جداً من مد السكة الحديدية اليها سنة ١٨٨٤ . وفيها مدرسة للتجارة والملاحة . وفى هذه المدرسة خزانة كتب فيها ٥٥٠٠ مجلد وعدد كبير من التصاوير . وفى ساحة جيجون تمثال لبيلاى البادىء بتحرير اسبانية . ومن مدن اشتوريش بلدة استورقة Astorga وهى رومانية كانت فى القديم عامرة ومركزاً لجنوبى اشتوريش . وقد وصل اليها العرب وهدموا حصونها ولعل استورقة [1] هذه هي التى يسميها ياقوت باستوريس و يقول عنها : حصن من

---

(١) نازل المنصور بن أبي عامر أستورقة قاعدة غليسية فملكها وهلك صاحبها

أعمال وادى الحجارة بالاندلس ، أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموى ، عمّره فى نحر العدو . ولا تزال أسوار استورقة ماثلة ، والحكومة تحافظ عليها خدمة للتاريخ . وحول استورقة جبال يسكنها جيل من الناس يقال لهم المغاراتوس Magaratos يظن انهم أقدم سلالة للامة الايبيرية وهم أهل جد ونشاط ذوو زراعة وصناعة ولكنهم على أشد ما يكون من المحافظة على عاداتهم القديمة ولهم أزياء خاصة بهم ، ولا يتزوج بعضهم إلا من بعض . ثم مدينة لوغو Lugo وهى من زمن الرومانيين ، ولها سور لا يزال قائماً ، وعليه أبراج كثيرة ، وقد استولى على هذه البلدة العرب ، فيما استولوا عليه . وهناك بلدة يقال لها بيتنزوس Betanzos ، سكانها عشرة الآف ، واقعة على نهير بين كروم وأعناب ، وهى من البلاد التى استولى عليها العرب ، وفيها حصن باق من أيامهم .

كورونية Corigna

وهناك مدينة كورونية ، فيها أربعون الى خمسين الفا من السكان ، مركز لمقاطعة بهذا الاسم ، واقعة على لسان من الأرض ، بين جونين من البحر ، أحدهما إلى الشرق اسمه « الباهيه » ، والآخر إلى الغرب اسمه « اورزان » ، وكان للبلد

غرسية فتولى ابنه شانجة وضرب المنصور عليهم الجزية وصار أهل جليقية جميعاً فى طاعته وكانوا كالعمال له إلا برمند بن أرزون ومتند بن غندشلب قومس غليسية فانهما كانا املك لأمرهما . على أن برمند Bermund بعث بنته إلى المنصور سنه ٣٨٣ وصيرها جارية له فأعتقها وتزوجها . ثم انتقض برمند وغزاه المنصور فبلغ شنت ياقب موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحوارى من أقصى غليسية وأصابها خالية فهدمها ونقل أبوابها إلى قرطبة فجعلها فى سقف الزيادة التى أضافها الى المسجد الأعظم . ثم تطارح برمند بن ارزون فى السلم وانفذ ابنه بيلايو مع معن بن عبد العزيز صاحب جليقية فوصل به الى قرطبة وعقد له فى السلم وانصرف الى أبيه وألح المنصور على أهل غومس وكانوا فى طرف جليقية بين زمورة وقشتيلة وقاعدتهم شنتمرية فافتتحها سنة ٨٥ انتهى عن ابن خلدون

حصون هي مهملة الان ، وهي مدينة ايبيرية قديمة . وكان يقال لها في زمن الرومان « بريفانتيوم » ، ثم اطلق عليها اسم « كورنيوم » ، في القرون الوسطى . وقد استولى عليها العرب في ما استولوا عليه ، وصارت تابعة لقرطبة . ومن مرسى هذه البلدة ذهب اسطول فيليب الثاني سنه ١٥٨٨ ، المؤلف من ١٣٠ سفينة حربية ، عليها ثلاثون الف مقاتل ، لغزو انجلترة ، انتقاماً عن قتل مارية ستوارت ، ولكن الانجليز عادوا فأحرقوا كورونية سنة ١٥٩٨ ، وكذلك بقرب كورونية في ٤ يونيو سنة ١٧٤٧ تغلب الاسطول الانكليزي على الاسطول الافرنسي ، ثم في ٢٢ يوليو ١٨٠٥ أحرق الانكليز اسطولا افرنسياً اسبانيولياً متحداً .

والبلدة قسمان : أعلى وأسفل . فالقسم الأعلى هو القديم منها ، والقسم الأدنى هو الجديد . وكان في الماضي حارة لصيادي السمك ، فاليوم صارت فيه مساكن المترفين ، وشوارعه على الطراز الجديد ، بخلاف القسم الأعلى الذي شوارعه ضيقة ، وبيوته قديمة . وفي تلك البلدة إلى الشمال الغربي ، على لسان داخل في البحر ، فوق جندل كبير علوه ٥٦ متراً ؛ منارة للسفن من زمان الرومانيين .

وعلى مقربة من كورونية بلدة الفرّول Ferrol وهو المرسى الحربي الوحيد لاسبانية على الاقيانوس الاطلانتيكي ؛ وسكان هذا المرسى ٢٥ الفاً وفيه مسلحة ودار صنعة للمراكب ، ومدرسة بحرية .

ومدينة أورَنس Orense سكانها عشرة آلاف واقعة على ضفة نهر مينيو Mino وهي مركز مقاطعة ؛ وكانت في زمان الرومانيين يقال لها أوريوم Aurium لوجود الذهب في نواحيها ؛ مما يدل عليه اسمها ؛ وقد غزاها العرب سنة ٧١٦ ، ثم عاد الاذفونش الثالث فبناها ؛ وأحكم أسوارها سنة ٨٨٤ ؛ ولها جسر على نهر مينو بسبع أقواس

ثم مدينة فيغو Vigo وسكانها ثلاثون ألفاً ، وهي مرسى حربي وتجاري ، مبنية على منحدر رابية ، عليها حصن سان سابستيان . وقد وقعت فيها واقعة بحرية سنة ١٧٠٢ بين الانجليز والهولنديين من جهة ، والفرنسيس والاسبان من جهة

أخرى ، وفى هذه البلدة أيضاً حارة قديمة بشوارع ضيقة ، وحارة عصرية جديدة .

ثم مدينة بونت فيدرا Ponte Vedra وهى صغيرة سكانها عشره الآلاف ولها مرسى على البحر .

شنت ياقب Santiago de Campostela

وهى بلدة سكانها ١٥ ألف نسمة ، وكانت قاعدة مملكة جلّيقية . وكان لها الشأن الاول ، فنزلت عن معاليها السالفة ، ورجعت مركز مقاطعة ، وكرسى رئاسة أساقفة . وفيها مدرسة جامعة بناها المطران فونسيكا سنة ١٥٣٢ ، وهى قديماً وحديثاً مدينة اسبانية المقدسة ، يحج اليها الاحامس فى الدين الكاثوليكى من جميع اسبانية والبلدان المجاورة ، وذلك لأنه يوجد حكايةمتواترة عند الاسبانيول بأنأحدالحواريين وهو يعقوب بن زَبَدَة ، قد ذهب الى اسبانية ، ونشر فيها العقيدة المسيحية ، وهذه الحكاية لها رَضْخ يرجع الى القرن الرابع للمسيح ، إلا أنها بدأت ترسخ فى أذهانهم فىالقرن السابع ، ثم بمرور الأيام صارت هذهالقصة تجر ذيولاً . منها : أن عظام الحوارىّ يعقوب كانت مدفونة فى ذلك المحل الذى استشهد فيه ، ولم يكن أحد يهتدى الى مكانها الى أن كشفها المطران تدمير الايرى Théodemir D'Iria فبنيت الكنيسة الحاضرة على القبر ، وأما لفظة كومبوستالاّ ، أى حقل النجمة ، فقد قالوا فيها انها جاءت من جهة ان المطران اهتدى الى القبر بنجمة ضاءت له وقد فنّد دليل بديكر هذا القول ، وذهب الى أن الاسم سابق لقصة الحوارىّ يعقوب ، وكيف كان الأمر فالاسبانيول يعدون القديس يعقوب ، دفين شنت ياقب ، بزعمهم ، حامى اسبانية وشفيعها ، و به كانوا يستغيثون فى حروبهم مع المسلمين ، وطالما رأوه بزعمهم متقلداً سلاحه ، يقاتل فى صفوفهم ، وأول من بنى على هذا القبر هو الاذفونش الأول ، ولكن الكنيسة التى بناها هذا الاذفونش هدمها الغازي الكبير المنصور بن أبى عامر المعافرى سنة ٩٩٧ للمسيح ثم جددوا بناءها ، ومازالوا يزيدون فى شنت ياقب الاديار

والكنائس حتى أصبح فيها ٤٦ بيعة و ٢٨٨ مذبحاً و ١١٤ جرساً و ٣٦ رهبانية ، وفى هذا ما يكفى لاثبات قدسيتها التامة عند الاسبانيول ، وكونها لهم الحرم الأعظم .

وقد كان الابتداء ببناء الكنيسة العظمى سنة ١٠٧٨ ، وما زال الاساقفة يشتغلون ببنائها إلى سنة ١٢١١ ، ولها رتاج كبير ، على جانبه برجان ، ارتفاع الواحد منهما سبعون متراً وفى أعلى الحائط تمثال للقديس يعقوب . وداخل الكنيسة له منظر مؤثر بكثرة الاساطين والمماشى والقباب ، والمذبح الأعظم واقع على القبر ، و يقال ان فيه خمسمائة كيلو جرام من الفضة ، وفى محراب يعلو المذبح تمثال ليعقوب الحوارىّ مزين بالفضة والذهب والحجارة الكريمة ، و ينزلون إلى القبر بدرج أمام المذبح الأكبر ، وهنالك مرقد يعقوب واثنين من رفاقه ، وفى هذه الكنيسة قبور لا تكاد تحصى لأعاظم الاسبانيول وملوكهم مثل فرديناند الثانى ، واذفونش التاسع ، ملك ليون ، وامرأة اذفونش السادس ، وأمرأة بطرس الغاشم وغيرهم . وفيها تصاوير وتهاويل وتماثيل لأشهر المصورين والنحاتين . ولا يسع الكاتب أن يصف جميع ما فى شنت ياقب من المعاهد الدينية ، والآثار الفنية لكثرتها ، وتنافس الملوك والأحبار فى البذل والانفاق عليها . أما غزوة المنصور بن أبى عامر لهذه البلدة فقد ذكر المقّرى فى نفح الطيب ما يلى : ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب ، قاصية غليسية ، وأعظم مشهد للنصارى فى بلاد الأندلس ، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ، وللكعبة المثل الأعلى ، فيها يحلفون ، واليها يحجون ، من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، و يزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر ، وكان أخصهم بعيسى ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهم يسمونه أخاه، للزومه إياه ، و ياقب بلسانهم : يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس ، فجعل يستقرى الارضين ، داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية . ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة ، التى كانت أقصى أثره ، ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام فى قصدها



كنيسة شنت ياقب المشهورة

ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، و بعد شقتها ، فخرج المنصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة ، يوم السبت است بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهى غزوته الثامنة والار بعون . ودخل على مدينة « قورية »[(١)] فلما وصل الى مدينة غليسية ، وافاه عدد عظيم من القوامس[(٢)] المتمسكين بالطاعة فى رجالهم ، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا فى عسكر المسلمين، وركبوا فى المغاورة سبيلهم .

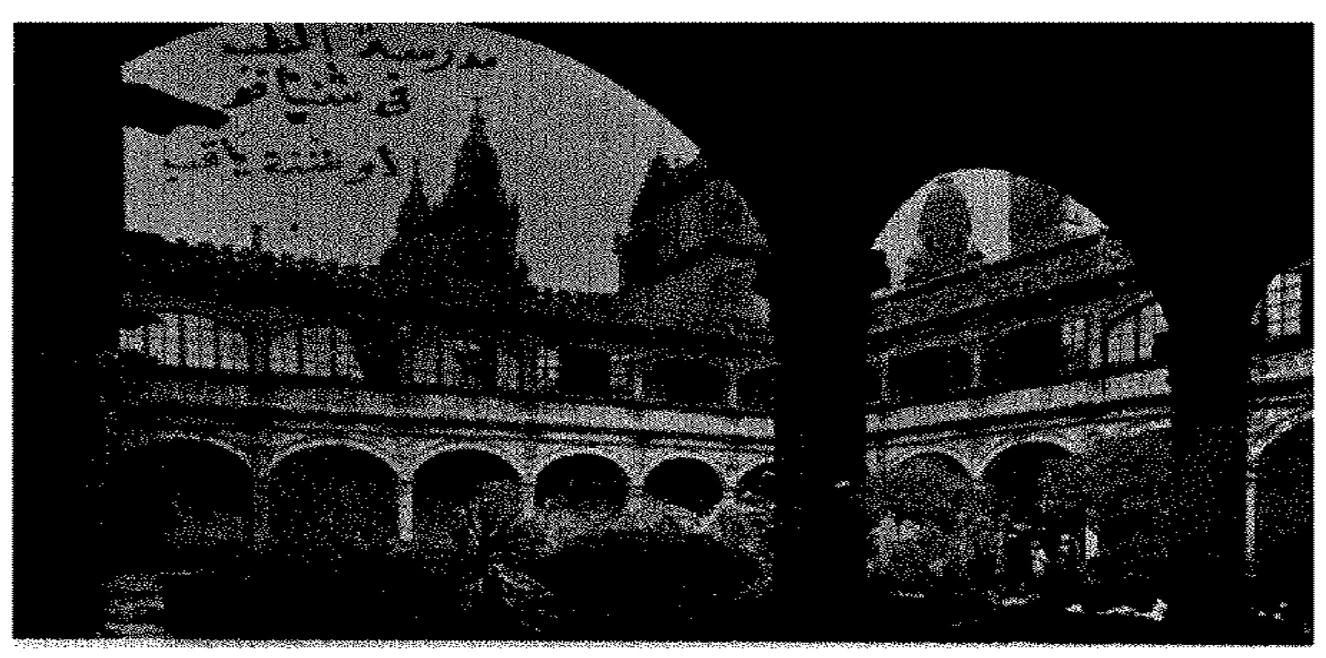
وكان المنصور تقدم فى انشاء اسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الاندلس ، وجهز برجاله البحريين ، وصنوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة ، والعدة والاسلحة ، استظهاراً على نفوذ العزيمة ، إلى أن خرج لموضع برتقال ، على نهر « دويرة » فدخل فى النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه ، فعقد هناك من هذا الاسطول جسراً بقرب الحصن الذى هناك ، ووجه

(١) Goria .
(٢) جمع قومس وهو كونت أو كند كما كان العرب يقولون فى زمن الصليبيين

المنصور ما كان فيه من الميرة الى الجند ، فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت ياقب ، فقطع ارضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار ، وخلجان يمدها البحر الاخضر[1] ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ، ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعورة لا مسلك فيه ولا طريق ، لم يهتد الأدلاء الى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد . لتوسعة شعابه ، وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر ، وعبروا بعده وادى «مُنْيُهْ»[2] وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مغيرتهم إلى دير فشان[3] ، و بسيط بَلَنْبُهْ على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بيلايه ، وغنموه وعبروا بساحته إلى جزيرة من البحر المحيط ، لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ اليها ، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية[4] ، المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، فتخللوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً فى معبرين . أرشد الادلاء اليهما . ثم الى نهر آبلة ، ثم افضوا الى بسائط واسعة العمارة ، كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر ، تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل ، يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ، ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما ، فغادره المسلمون قاعا ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة ، وذلك يوم الاربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفّوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه و يدفع الأذى عنه ، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما ، كأن لم تغن بالأمس .

---

(١) المراد بالبحر الأخضر الاوقيانوس الاطلانتيكى
(٢) لعلها Minho لأنه من أنهر ناحية شنت ياقب
(٣) نظنها محرفة أو مصحفة وان صحتها دير فنسان أو فيسانء
(٤) موراسيا إلى الشمال من أشبونة



مدرسة الطب فى شنت ياقب

وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط ، وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ، ولا وطئها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ، ولا وراءها انتقال .

وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب ، وقدبلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله [1] ، فجعل

(١) قال أبو جعفر الوقشى البلنسى نزيل مالقة ، يحث على الجهاد فى الأندلس :

ألا ليت شعرى هل يمد لى المدى فأبصر شمل المشركين طريدا
وهل بعد يقضى فى النصارى بنصرة تغادرهم للمرهفات حصيدا ؟
ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب يعيد عميد الكافرين عميدا
ويلقى على أفرنجهم عبء كلكل فيتركهم فوق الصعيد هجوداً
يغادرهم جرحى وقتلى مبرحاً ركوعاً على وجه الفلا وسجوداً
ويفتك من أيدى الطغاة نواعماً تبدلن من نظم الحجول قيوداً
وأقبلن فى خشن المسوح وطالما سحبن من الوشى الرقيق برودا
وغبر منهن التراب ترائباً وخدد منهن الهجير خدودا
لحق لدمعى أن يفيض لأزرق تملكها دعج النواظر سودا

فى طريقه القصد على عمل برمند بن اردون، يستقريه عائثاً ، حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين ، الذين فى عسكره ، فأمر بالكف عنها ، ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بيليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح من بيليقية ، وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه لملوك الروم ، ومن حسن غناؤه من المسلمين ، ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى ، وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر ، وكساءين عنبريين ، وأحد عشر سقلاطونا ، وخمسة عشر مريشاً ، وسبعة انماط ديباج ، وثوبى ديباج رومى ، وفروَىْ فنك .

ووافى جميع العسكر قرطبة غانماً ، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ، ولم يجد بشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال : أونس يعقوب فأمر بالكف عنه . اه .

ويالهف نفسى من معاصم طفلة تجاور بالقد الأليم نهودا
ويا أسفى ما ان يزال مردداً على شمل أعياد أعيد بديدا
وآهاً بمد الصوت منتحباً على خلو ديار لو يكون مفيدا

وهى من قصيدة قالها الوقشى لأمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن على مطلعها :

أبت غير ماء بالنخيل ورودا وهامت به عذب الجمام برودا

وكان يوسف بن عبد المؤمن دخل الأندلس سنة ٥٦٦ وفى صحبته مائة ألف فارس من الموحدين ورجال المغرب وشرع يسترجع من بلاد المسلمين التى كان قد استولى عليها الافرنج وأغارت سراياه على طليطلة قاعدة ملكهم ثم أنه حاصرها فاجتمع الافرنج للدفاع عنها واشتد الغلاء فى عسكره فقفل إلى المغرب ولكنه لم يقم بعده مثله ومثل أبيه فى الجهاد ولكن جاءت فى أواخر دولة الموحدين واقعة العقاب التى لم تقم بعدها للاسلام فى الأندلس قائمة تحمد



الراهب الذى بقى يؤنس يعقوب الحوارى عندما وصل المنصور بن أبى عامر إلى شنت ياقب وفر جميع الرهبان

اراغون ونبارة

Aragon et Navarre

هاتان المملكتان هما متجاورتان ، يسقى كلا منهما نهر ابرُه ، وهذا النهر له منبعان أحدهما يقال له « هيجار Higar » ، يتفجر من جبل يقال له « كورد Cardel » عليه الثلج صيفاً وشتاء ، وتنحدر منه مياه إلى الوادى الجوفى ، منحدرة إلى الغرب ومن مياهه ما يتحدر إلى الشرق ، وهي مياه هيجار التى تجرى مسافة ١٦ كيلو متراً ، ثم تلتقى مع مياه ابرُه ، التى تنبع من غربى مكان يقال له « رينوزه Reinosa » وهذا الوادى يخرج من بحيرات صغيرة بين تلك الجبال المتفرعة من البرانس ، ثم يمد ابره عدة أنهار ، حتى يعدّل ماؤه ، عندما يصل إلى ميرانده ، بعشرين الف متر مكعب فى الثانية . وعندما يصل إلى لوكرونى ، بواحد وثلاثين الف متر مكعب . فاذا وصل الى تطيلة صار يصب ٤٥٢٠٠ متر مكعب فى الثانية . وهو يسقى عند تطيلة جانباً من بسيط اراغون الذى لولا ابرُه لكان أشبه بصحراء افريقية .

ولكن لايستفيد من مياه ابره وفروعه إلاجزء قليل من هذه الصحراء ، بحيث إن بعض أهالى الأماكن المأهولة من أطرافها هم فى عناء شديد من جهة الماء ، فقد صح فى أهلها المثل القائل : أياعطشى والماء يجرى . قيل إن عامل بلدة تارديانته Tardienta جمع أهالى بلدته ليوزع عليهم الماء الباقى فى الصهريج العمومى ، فكان نصيب العائلة الواحدة عشرة ليترات من الماء ، وهو ماء من كدورته يؤكل ولا يشرب

فلو كان هناك جداول من ابره لتحولت تلك الصحراء جِناناً غناء . والسائح ترى البلاد هناك على طرفى نقيض ، فبينما صحراء « ڤيولاده Violada » هى كفيافى بنى أسد ، إذا ضواحى سرقسطة غير بعيدة عنها ، هى كغوطة دمشق . وقد شق الأسبانيول جدولين من أبرُه عند سرقسطة وتطيلة ، وسقوا بهما أراضى واسعة ، ولا يزالون يشقون منها جداول إلى يومنا هذا فى أراغون وكتلونية . و بالاجمال فلولا إبرُه لكانت الحياة متعذرة فى أكثر مملكة أراغون ، وفى قسم كبير من كتلونية

مملكة نبارة القديمة هي اليوم مقاطعة بهذا الاسم ، مساحتها ١٠٥٠٠ كيلومتر مربع ، وعدد سكانها ثلاثمائة وخمسة عشر الف نسمة . أما أراغون فهي عبارة عن مقاطعة سرقسطة ، ومساحتها ١٧٤٢٤ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٤٤٨٩٩٥ نسمة . ومقاطعة وشقة ، ومساحتها ١٥١٤٩ كيلو متراً مربعاً ، وأهلها ٢٤٨٢٥٧ نسمة . ومقاطعة تَرول Teruel ، ومساحتها ١٤٨١٨ كيلو متراً مربعاً ، وسكانها ٢٥٥٤٩١ نسمة.

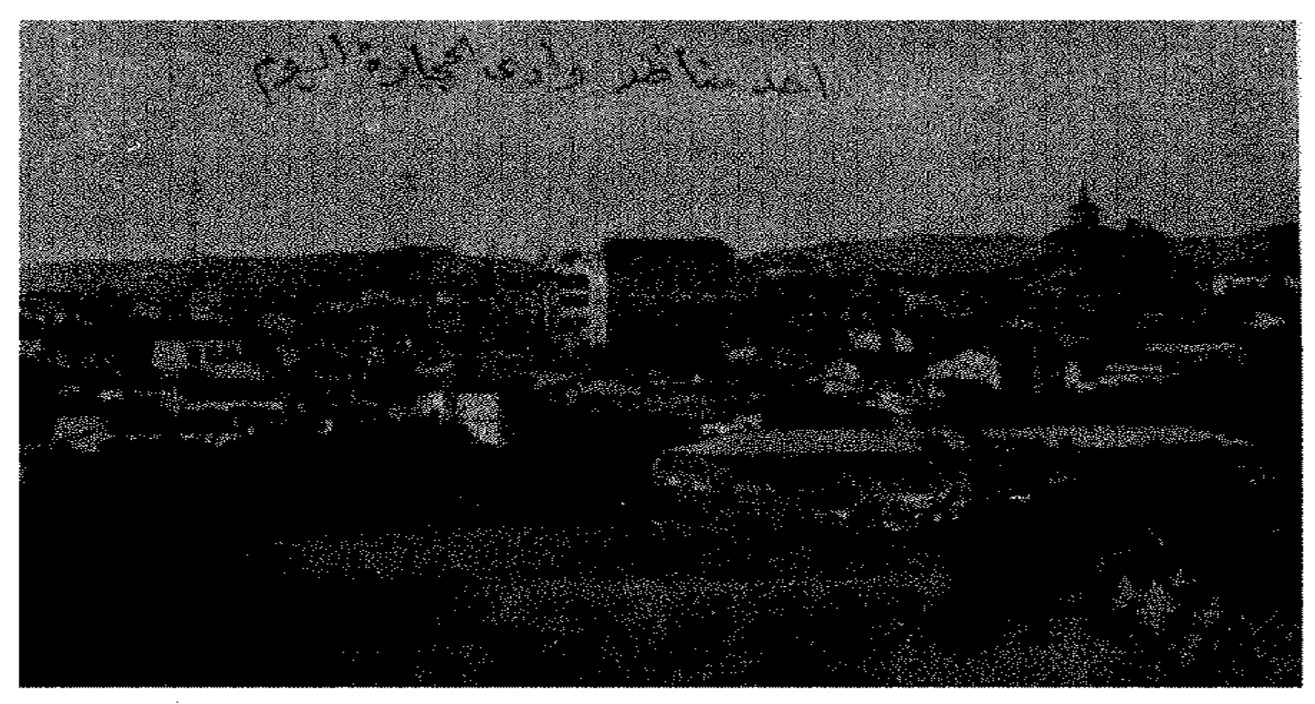
و إذا توجه الراكب بالسكة الحديدية من مجريط قاصداً إلى سرقسطة ، فان أهم ما يمر به من البلاد هو القامة المسماة بقلعة هينارس ، على مسافة ٣٤ كيلو متراً من مجريط . وهذه البلدة هي رومانية ، كانوا يقولون لها « كومبلوتوم » ، ولما جاء العرب استولوا عليها ، و بعد خروجهم من هناك اسّس الكردينال شيميناس رئيس أساقفة طليطلة فيها مدرسة جامعة ، تضاهي مدرسة طَلَمَنكة ، و بقيت فيها إلى سنة ١٨٣٦ فنقلوها إلى مجريط . و إلى هذه البلدة ينسب الكاتب الشهير سرفنتس Cervantes صاحب كتاب الدون كيشوط ، وعدد سكان البلدة اليوم اثنا عشر ألف نسمة . وفي هذه البلدة بقايا حصون عربية . وضواحي هذه البلدة ناضرة بهيجة .

وادي الحجارة Guadalajara [1]

ثم على مسافة ٥٧ كيلو متراً من مجريط تقع وادي الحجارة ، وسكانها اليوم بقدر سكان القلعة ، وهي مبنية على الضفة اليمنى من نهر هينارس . وفي هذه البلدة تزوج فيليب الثاني بالملكة إيزابلا ، من آل فالوا ، وفيها مات الكاردينال بادرو مندوزه ، وفيها مدفن الكونت طانديلا ، أول قائد عسكري لغرناطة بعد استيلاء الاسبانيول عليها .

---

(١) وتسمى مدينة الفرج . قال في صبح الأعشى : مدينة الفرج بفتح الفاء والراء المهملة ثم جيم وهي مدينة شرقي طليطلة وشرقيها مدينة سالم . قال ابن سعيد : ويقال لنهرها وادي الحجارة .



أحد مناظر وادى الحجارة اليوم

وقد كانت مدة بقاء العرب فى وادى الحجارة ٣٦٧ سنة . قال ياقوت الحموى فى المعجم : فَرَج بالتحريك والجيم ، مدينة بالأندلس تعرف بوادى الحجارة ، وهى بين الجوف والشرق من قرطبة ، ولها مدن بينها و بين طليطلة . ينسب إليها أيوب ابن الحسين بن محمد بن احمد بن عوف بن حُميد بن تميم ، يكنى أبا سليمان ، و يعرف بابن الطويل ، رحل إلى المشرق ، ثم استقضاه الحكم المستنصر ببلده ، وكان أديباً حكيما ، قدم قرطبة ، و روى عنه ابن الفرضى ، وتوفى سنة ٣٨٣ بوادى الحجارة ، ذكر ذلك ابن الفرضى . انتهى .

وقال ابن حوقل عن وادي الحجارة : مدينة كبيرة ، ثغر مشهور الحال ، مسور بحجارة ، وهى ذات أسواق ، وفنادق ، وحمامات ، وحاكم ، ومحلّف ، و بها تسكن ولاة الثغور ، كاحمد بن يعلى وغالب ، وعليها أكثر جهاد جليقية ، ومنها إلى شعراء القوارير ، و بها منهل تنزله الرفاق مرحلة ، ومنها إلى مدينة سالم مرحلة . انتهى .

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية : أن وادى الحجارة يقال لها أيضاً مدينة الفرَج ، نسبة إلى عائلة من البربر يقال لهم بنو فرَج كما روى اليعقوبى . وكان فتح العرب لهذه البلدة سنة ٧١٤ ، زحف اليها موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً ، وبقيت فى أيدى العرب إلى سنة ١٠٦٠ ، إذ استرجعها منهم الملك فرديناند القشتالى ولكن عاد العرب ففتحوها مرة ثانية ، وبقيت فى أيديهم إلى سنة ١٠٨١ ، فافتتحها ألفار يانس دومينيّة Alvar Ganez de Minaya من أبناء عم القمبيدور ، الملقب بالسيد ، ومن قواد الاذفونش السادس ، وكانت معدودة من القلاع العربية الحصينة وخرج منها كثير من أهل العلم ، كما يظهر من المكتبة العربية الاسبانية . أى مطبوعات قُديرة [١] ، والنسبة إلى هذه البلدة حجارى ، وهناك مؤرخ معروف اسمه الحجارى ، أصله من وادى الحجارة . ولما كانت في أيدى العرب كان قد بقى فيها عدد غير قليل من المسيحيين . انتهى .

من انتسب من العلماء إلى وادى الحجارة

منهم أبو بكر يحيى بن الفتح بن حنش الأنصارى الحجارى ، يروى عنه محمد بن عبدالرحيم . ومحمد بن عذرة الحجارى ، سمع من محمد بن وضّاح وغيره ، ومات بالاندلس سنة ٣١٣ . وأبو عبد الله محمد بن يونس الحجارى ، روى عن أبى عمر الطلمنكى ، وأبى محمد بن الأسلمى وغيرهما ، وكان مقدماً بالمعرفة والنحو واللغة ، وكتب الاشعار والأخبار ، واستأدبه المظفر بن الأفطس ، صاحب بطَلْيوس لنفسه ولبنيه ، وسكن بطليوس ، وتوفى بها سنة اثنتين او ثلاث وستين وأربعمائة . وأبو عثمان سعيد بن على ابن يعيش بن أحمد بن خلف الاموى ، حدث عنه ابن ابيض ، وكان من أهل السنة

(١) مستشرق اسبانيولى من عائلة عربية الأصل نشر عدة تآليف عربية طبعها فى مجريط وهو أستاذ أبسن بلاسيوس المستشرق الاسبانيولى المشهور كما أخبرنيه هو بنفسه يوم تلاقيت معه فى خزانة كتب الاسكوريال سنة سياحتى إلى الأندلس .

والخير ، مولده سنة ٣١٦ ومحمد بن إبراهيم بن حيون الحجارى ، كان إماما فى الحديث حافظاً لعلله ، بصيراً بطرقه ، لم يكن فى الاندلس فى وقته أبصر به منه ، سمع من أبى عبد الله الخشنى ، وابن وضّاح ، وابن مسرّة .

ثم رحل إلى المشرق ، فتردد هنالك نحوا من خمس عشرة سنة ، سمع فيها بصنعاء من أبى يعقوب الدبرى وعبيد بن محمد الكشورى ، وسمع بمكة من على بن عبد العزيز وأبى مسلم الكشى ، ومحمد بن على الصايغ ، وغيرهم ، وببغداد من جماعة ، منهم عبد الله بن احمد بن حنبل ، وروى عن القاضى أبى عبد الرحمن احمد بن حماد بن سفيان الكوفى ، لقيه بالمصّيصة سنة ٢٩٤ ، وسمع بمصر من عبد الله بن احمد بن عبد السلام الخفّاف ، وابراهيم بن يعقوب الجوزجانى ، وسمع من ابن قتيبة بعض كتبه ، ورجع إلى الأندلس ، وأخذ عنه الكثيرون ، وكان من الشعراء وتوفى بقرطبة عقب ذى القعدة سنة ٣٠٥ [(١)] ومفرّج بن يونس بن مفرّج بن محمود بن فتح بن نصر بن هلال الحجارى المكتّب ، سكن قرطبة ، وكان يعلم بمسجد سرور ، وكان شيخاً صالحا . وأبو بكر محمد بن القاسم بن مسعده البكرى الحجارى ، المكنى أبا عبد الله ، سمع بقرطبة من الحسن بن سعد ، وحدّث عنه بالناسخ والمنسوخ ، وسمع من غيره بقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، سمع فيها من ابن الاعرابى بمكة ، ومن محمد ابن أيوب الصموت بمصر .

وأبو بكر محمد بن القاسم الكاتب ، يعرف باسكنهادة ، سكن قرطبه ، وهو من وادى الحجارة ، وارتحل إلى المشرق بعد الفتن التى جرت بقرطبة ، وحوّلت أحوالها فجال فى العراق والشام وحلب ، ثم عاد إلى الى الاندلس واستقر بدانية [(٢)] ، وطاب

---

(١) هذه الترجمة منقولة عن بغية الملتمس وقد رأيتها فى نفح الطيب وإنما ثمة بالنفح زيادة وهى : قال خالد بن سعيد : لو كان الصدق لساناً لكان ابن حيون وكان يزن بالتشيع لشىء كان يظهر منه بحق معاوية رضى الله عنه

(٢) لمحمد بن قاسم المذكور شعر أورده المقرى فى النفح وهو قوله عند مادخل حلب

أين أقصى الغرب من أرض حلب أمل فى الغرب موصول التعب

مقامه بها . وأبو بكر عبد الباق بن محمد ابن سعيد الأنصارى ، المعروف بن برّال . ومحمد ابن ابراهيم بن اسحق الحجارى

وأبو عبد الله محمد بن يوسف ، الورّاق التاريخى الحجارى ، ألّف للخليفة الحكم المستنصر كتابا ضخماً فى ممالك أفريقية ومسالكها ، وألف أيضاً كتباً جمة فى أخبار ملوكها وحروبهم ، وفى أخبار تيهرت ، ووهران ، وسجلماسة ، ونكور الخ . قال أبو محمد بن حزم : ومحمد هذا أندلسى الأصل والفرع ، آباؤه من وادى الحجارة ، ومدفنه قرطبة ، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن لب بن صالح بن ميمون بن حرب الأموى الحجارى المقرىء ، سكن قرطبة ، يعرف بالريوله ، ولد سنة ٣٤٤ ، وكان فى قرطبة إماماً لمسجد ابن حيويه ، وله رحلة إلى المشرق ، روى فيها عن أبى بحر الشيرازى ، وروى عن الحسن بن رشيق ، وكان من أهل الفضل والخير ، حسن الصوت ، مجرّداً للقرآن . وأبو بكر عبد الله بن محمد بن فتح ، روى عن أبيه محمد بن فتح ، كتاب جهاد النفس من تأليفه ، حدّث عنه أبو الفرج بن فتح السالمى ، من شيوخ المنذر بن المنذر الحجارى . وأبو محمد عبد الله بن محمد الأنصارى ، يعرف بابن بيبر ، سمع من أبي عيسى الليثى ، حدّث عنه بالموطأ ، وأبى عمرو أحمد بن ثابت التغلبى ، وغيرهما . روى عنه أبو عبدالله

حن من شوق إلى أوطانه ... من جفاه صبره لما اغترب
يا أحباى اسمعوا بعض الذى ... يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربة ... يرجع الرأس لديها كالذنب

واجتاز بدمشق فقال عفا الله عنه

دمشق جنة الدنيا حقيقاً ... ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد ... وصحبتهم تؤول إلى حروب

وقال بعد حلوله بدانية قافلا إلى الأندلس

وكم قد لقيت الجهد قبل مجاهد ... وكم أبصرت عينى وكم سمعت أذنى
ولاقيت من دهرى وصرف خطوبه ... كما جدت النكباء فى معطف الغصن
فلا تسألونى عن فراق جهنم ... ولكن سلونى عن دخولى إلى عدن

ابن شق الليل الطليطلي ، ذكره ابن الدباغ ، وترجمه ابن الأبار فى التكملة . وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى بن وليد النحوي ، يعرف بابن الأسلمى ، ويقال فيه أيضاً ابن الأسلميه . روى بوادي الحجارة عن أبي الحسن بن معاوية بن مصلح ، وأبي عبدالله ابن مسعدة ، وأبي عمر المديونى ، وأبي بكر بن ينّق ، وأبي عبد الله بن خاف بن سعيد الشوله ، وروى بقرطبة عن أبي جعفر بن عون الله . سمع منه صحيح البخارى ، وعن القاضى عبد الله بن مفرج ، وسمع بقلعة أيوب عن أبي محمد بن قاسم ، و بقلعة عبد السلام عن أبي عمر بن عمران الفخار ، وروى أيضاً عن أبي حفص عمر بن على الحجارى ، وأخذ عن أبي اسحق بن شنظير ، وأبي محمد بن ذنين ، من علماء طليطلة ، وأخذ عن أبي عمر الطلمنكى ، وأجاز له الحسن بن رشيق ، مع جاره أبي الحكم المنذر ابن المنذر الحجارى . قال ابن الأبّار عنه : أحد الأئمة المتفننين فى العلوم ، المتقدمين فى معرفة لسان العرب ، والاحاطة به ، المشار إليهم بالكمال ، مع النزاهة والاعتدال ، وله تواليف منها كتاب تفقيه الطالبين ، وكتاب الارشاد ، إلى اصابة الصواب فى الأشربة ، وتوفى بعد العشرين وار بعمائة ، وقيل أنه كان يختم كتاب سيبويه كل خمسة عشر يوماً ، وكان عفيف النفس وقورا

وأبو محمد عبد الله بن محمد ، المعروف بابن الأثرم ، كان من أهل المعرفة بالنحو والأدب معلماً بذلك ، أخذ عنه أبو حاتم الحجارى وغيره ، ذكره ابن عُزير . وأبو محمد عبد الله بن على بن المنذر بن المنذر بن على بن يوسف الكنانى ، كان من أصحاب أبي العيش معمّر بن معدّل الحجارى ، وكان راوية فقيهاً ، له وقوف على النحو والأدب، ذكره ابن عُزير . وأبوالحسن اسماعيل بن عيسى بن محمد بن بقى . واسماعيل ابن احمد الحجارى ، كان من أهل الفضل محدّثا . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مطرّف الحجارى ، المعروف بابن الموره . يروى عن أبي محمد الشنتجالى ، وكان محدثا ، قال ابن الأبار : وقفت على اجازته لبعض رواته فى سنة ٤٦٥ . ومحمد بن الدباغ أخذ عن ابراهيم بن حفص ، وصحب القاسم بن فتح ، وسَفِر بينه و بين أبي محمد بن حزم

فى مسائل وجوابات كانت بينهما . وكان أبرع أهل وقته فى النحو والأدب . ذكره ابن عزير . وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن بقاء الأنصارى ، من أهل بُلَغِى وسيأتى ذكرها . وكان يسكن فى وادى الحجارة ، و يقرىء فيها بالمسجد الجامع ، ولد فى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٤٥٤ ، وأخذ القراءات عن أبى داود بن نجاح ، ورحل إلى الشرق حاجاً ، وقدم دمشق ، واقرأ بها القرآن بالسبع . وتوفى يوم الاربعاء عند صلاة العصر ، ودفن يوم الخميس ، عند صلاة الظهر ، الثانى من ذى الحجة سنة ٥١٢ ، ودفن فى مقبرة الصحابة ، بالقرب من قبر أبى الدرداء ، رضى الله عنه . قال ابن عساكر : وشهدت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه .

وأبو العيش معمّر بن عبد الله بن معذّل الباهلى ، أخذ عن ابراهيم بن حفص الحجارى ، وكان من كبار أصحابه ، عارفا بالعربية ، مع الفقه والحديث ، والمشاركة فى سائر العلوم ، حدّث عنه اسماعيل بن عيسى الحجارى ، وأبو بكر البلجانى وغيرهما وأبو عبد الله محمد بن عثمان بن حسين البكرى الحجارى ، روى بوادى الحجارة عن أبى بكر عبد الباقى بن برّال ، وأبى الربيع سليمان بن خلف الطحان ، وأجاز له أبو عبد الله بن الموره الحجارى ، وأبو الوليد الوقشى ، كتب إليه من بلنسية سنة٤٨٥ قال ابن الأبار : ورأيت السماع عليه فى سنة ٥١٩ . وأبو الحسن عبد الرحيم بن قاسم ابن محمد بن النحوى ، كان عالما ، فاضلا ، صالحا ، كثير البكاء والعبادة توفى سنة٥٤٣ فى قرطبة . وأبو الحسن على بن المنذر بن المنذر بن على الكنانى . روى عن أبى عمر الطَّلَمنكى ، وأبى عمر بن عبد البر ، وله رحلة إلى المشرق ، توفى في نحو الثمانين وأربعمائة . وابن أمينة الحجارى الفقيه الشافعى ، ذكره ابن حزم وأثنى عليه . وأبو الحسن سعيد بن محمد بن سعيد الجُمحى المقرىء المعروف بابن قوطه له رحلة قرأ فيها على جماعة ، وأخذ أيضاً عن أبى الوليد الباجى ، وأقرأ القرآن بوادى الحجارة ، وتوفى ببلدة طرسونة من الثغر سنة ثمان أو تسع وخمسمائة

وسعيد بن عمر ، من أهل وادى الحجارة ، روى عن وهب بن مسرّة ، وسمع

بقرطبـة من أبى بكر بن الأحمر ، وحـدّث عنه الصاحبان وقالا : توفى بالمشرق فى نيّف وثمانين وثلاثمائة وسعيد بن مسعدة الحجّارى المحدّث ، مات سنة ٢٧٣ . وقيل سنة ٢٨٨ ، ذكر ذلك بن عُميرة فى بغية الملتمس . وأبو محمد عبد العزيز بن احمد ابن لب الأنصارى ، روى عن وهب بن مسرة ، وابن الأحمر ، وأبى ميمونة ، ومحمد ابن فتح الحجارى ، وحدّث عنه الخولانى ، وأبو عبد الله بن عبد السلام الحافظ

وأبو القاسم عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، يعرف بابن غرسيّة ، روى بوادى الحجارة عن محمد بن فتح ، وعن محمد بن عبد الرحمن الزيادى ، وغيرهما ، حدّث عنه الصاحبان وقالا : كان رجلا صالحا ، وتوفى سنة احدى أو اثنتين وثمانين وثلاثمائة . وأبو بكر عبد الباقى ابن محمد بن سعيد بن أصبغ بن قُرّيال الأنصارى ، روى عن المنذر بن المنذر ، وأبى الوليد هشام الكنانى ، وأبى محمد بن الفتح ، وأبى عمر الطّلَمنكى . قال ابن بشكوال : وكان نبيلا ، حافظا ، ذكيا ، أديبا ، شاعرا ، محسناً ، سكن فى آخر عمره بالمرية ، وأخبرنا عنه غير واحـد من شيوخنا ، وتوفى فى مستهل رمضان سنة ٥٠٢ ببلنسية ، وكان مولده سنة ٤١٦ .

وأبو الحكم منذر بن منذر بن على بن يوسف الكنانى ، روى ببلده عن أبى الحسن على بن معاوية بن مصلح ، وأبى بكر بن موسى ، واحمد بن خلف المديون وعبدالله بن القاسم بن مسعدة ، وأبى سليمان أيوب بن حسين ، قاضى مدينة الفرج ، أى وادى الحجارة ، وروى أيضاً عن عبد الله بن قاسم بن محمد القلعى ، ورحل إلى المشرق فحج ، وأخذ عن أبى بكر احمد بن محمد الطرسوسى ، وأبى عبـد الله محمد ابن احمد الباخى ، وأخذ بمصر عن الحسن بن رشيق وغيره : وأخذ بالقيروان عن أبى محمد ابن أبى زيد ، وأبى الحسن القابسى ، وكان رجلا صالحا ، قديم الطلب للعلم ، كثير الكتب ، موثوقاً فيما يرويه ، قال ابن بشكوال : وكان ينسب إلى غفلة كثيرة ، وتوفى سنة ٤٢٣ . وأبو بكر احمد بن موسى بن ينّق ، سمع من وهب بن مسرّة معظم ماعنده ، وكان رجلا صالحا ، ثقة ، حـدّث عنه الصاحبان ، وأبو محمد بن ذُنّين من

علماء طليطلة ، وقالوا : توفي في ذي القعدة سنة ٣٧٩ ، وكان مولده سنة ٣٠٦ .
وأبو عمر احمد بن خلف بن محمد بن فرتون المديونى الزاهد الراوية ، سمع ببلده وادى الحجارة من وهب بن مسرّة ، وسمع بطليطلة من عبد الرحمن بن مدراج ، ورحل إلى المشرق ، وروى عن أبي الفضل محمد بن ابراهيم الديبلى المكى ، والحسن ابن رشيق المصرى ، وأبى محمد بن الورد ، وأبى الحسن النيسابورى ، وأبى على الأفيوطى ، وأبى حفص الجرجيرى ، وحدث عنه أبو عمر الطلمنكى ، والمنذر بن المنذر الكنانى وأبو محمد بن أبيض . وكان زاهداً ، ثقة فيما يرويه ومن روايته عن وهب بن مسرّة قال : دخلت على محمد بن وضّاح بين المغرب والعشاء مودعاً ، فقلت له : أوصنى رحمك الله . فقال : أوصيك بتقوى الله عز وجل ، و برّ الوالدين ، وحزبك من القرآن فلا تنسه ، وفرّ من الناس ، فان الحسد بين اثنين ، والنميمة بين اثنين ، والواحد من هذا سليم . وروى عن النيسابورى عن أبى عبد الرحمن النسائى قال : مانعلم فى عصر ابن المبارك رجلا أجل من ابن المبارك ، ولا أعلى منه ، ولا أجمع لكل خصلة محمودة ، هذا ، وممن روى عن احمد بن فرتون المديونى الصاحبان : أبو اسحق بن شنظير ، وأبو جعفر بن ميمون ، وكذلك أبو محمد بن ذُنيّن ، وقالوا جميعاً : توفى سنة ٣٧٧ . وقال أبو محمد : يوم الخميس فى المحرم ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة ، وصلى عليه أبو بكر احمد بن موسى .

وعلى بن معاوية بن مصلح ، يكنّى أبا الحسن ، رحل إلى المشرق وسمع بمكة من عمر بن احمد الجمحى ، وأبى الحسن الخزاعى ، وأبى اسحق الديبلى ، وأبى بكر الآجرّى وسمع بالمدينة من قاضيها عبد الملك المروانى ، وسمع بمصر من الحسن بن رشيق ، والحسن بن الخضر ، وأبى محمد بن الورد ، وغيرهم ، وسمع بالاسكندرية من أبى العباس بن سهل العطّار وغيره وسمع بقرطبة من أبي بكر القرشى ، واسماعيل بن بدر وغيرهما ، وسمع بطليطلة من ابن مدراج وغيره ، و بوادي الحجارة من وهب بن مسرّة ومحمد بن القاسم بن مسعدة ، وحدّث عنه الصاحبان وغيرهما ، وكان شيخاً فاضلا ثقة

توفى فى رجب سنة ٣٩٧ ، ومولده سنة ٣١٣ ، ذكر مولده ووفاته الحافظ بن عبد السلام . وأبو زكريا يحيى بن محمد بن وهب بن مسرة بن حكم بن مفرّج التميمى سمع ببلده ، وادى الحجارة ، من جده وهب بن مسرة وغيره ، ورحل إلى المشرق ، وروى عن أبى بكر الطرسوسى ، والحسن بن رشيق ، وأبى الطيب الحريرى ، وعبد الغنى ابن سعيد الحافظ ، واختصر كتاب الأسماء والكُنَى للنسائى ، وأخذ عنه الناس كثيراً قال ابن شنظير : توفى يوم الجمعة عقب ذى القعدة سنة ٣٩٤ ، ومولده سنة ٣٣٤ ، وأبو الحسن عبد الرحيم بن قاسم بن محمد بن النحوى المقرىء ، كان من أهل المعرفة والفضل والذكاء والحفظ ، قوى الأدب ، ومع ذلك كان ديّناً ، عابداً ، كثير الصلاة قوام الليل متهجداً ، كثير البكاء ، حتى أثّر ذلك بعينيه ، توفى عقب شعبان من سنة ٥٤٣ ذكر ذلك بن بشكوال ، وكانت وفاته بقرطبة . وأبو محمد عبد الله بن على بن المنذر بن المنذر بن على بن يوسف الكنانى ، وقد تقدمت ترجمة أبيه أبى الحسن على ابن المنذر ، وكان عبد الله هذا راوية ، فقيهاً عالماً بالنحو ، أديباً ، وصحب أبا العيش معمّر بن معذل الحجارى .

وأبو مروان عبد الملك بن غصن الخشنى الشاعر ، وكان من الأدباء المعدودين ، وامتحنه المأمون بن ذى النون ، صاحب طليطلة ، وسجنه في وبذة مع جماعة غضب عليهم ، فألّف حينئذ كتابه المعروف بكتاب «السجن والمسجون والحزن والمحزون» ضمنه ألف بيت من شعره وروايته ، ثم أطلق سبيله ، فسار إلى بلنسية ، ثم إلى قرطبة وتوفى سنة ٤٥٤ فى غرناطة . وأبو نصر الفتح بن يوسف بن محمد المعروف بابن الربول والد الحافظ أبى محمد قاسم ، من وادى الحجارة ، روى ببلده عن القاضى أيوب بن حسين ، وبقرطبة عن احمد بن ثابت وغيره ، وحدث عنه ابنه أبو محمد بن الفتح ، وأخذ عنه احمد بن بدر سنة ٤٠٨ .

ثم ابنه ابو محمد قاسم بن الفتح ، روى عن أبيه ، وعن أبى عمر الطلمنكى ، وأبى محمد الشنتجيالى ، ورحل إلى المشرق وأدى الفريضة ، وروى عن أبى عمران الفاسى

وغيره وكان عالماً بالحديث عارفاً باختلاف الأئمة ، قارئاً بالقراءات السبع ، مفسراً ، متكلماً شاعراً ، أديباً زاهداً ، ورعا ،صادق اللهجة ، وكان لايرى التقليد ، وله تآليف حسنة ومن شعره :

يا طالباً للعلاء مهلاً ما سهمك اليوم بالمعلّى
كم أمل دونه اخترامٌ وكم عزيز يذوق ذُلاّ
أبَعْد خمسين قد تولَّت تطلب ماقد نأى وولى
فى الشيب ، إمّا نظرْتَ وعظٌ قد كان بمضاً فصار كُلا

قال أبو القاسم بن صاعد : كان ابو محمد القاسم بن الفتح واحد الناس فى وقته فى العلم والعمل ، سالكا سبيل السلف فى الورع والصدق ، والبعد عن الهزل ، متقدماً فى علم اللسان والقرآن ، وأصول الفقه وفروعه ، ذا حظ جليل من البلاغة ، ونصيب صالح من قرض الشعر . وتوفى رحمه الله على ذلك جميل المذهب ، سديد الطريقة ، عديم النظير . وذكره الحميدى ، ووصفه بالعلم والفقه والزهد ، وأنشد له من زهدياته :

يا مُعجباً بِعَلائِهِ وغنَائِهِ ومُطوِّلاً فى الدَّهْرِ حَبلَ رجَائِهِ
كَمْ ضاحِكٍ أكفَانُهُ منشورَةٌ وَمُؤَمِلٍ والمَوتُ مِن تِلْقَائِهِ

قال أبو بكر عبد الباقي بن بُريَّال الحجارى : إنه كان إماما مختارا ، ولم يكن مقلداً ، وكان يقول بالعلة المنصوص عليها والمعقولة ، ولايقول بالمستنبطة ، ومضى عليه دهر وهو يقول بدليل الخطاب ، ثم ظهر له فساد هذا القول ، فنبذه . وتوفى فى بلده ، بعد مطالبة جرت عليه من جهة القضاة بها ، رحمه الله ، وكانت وفاته سنة ٤٥١ ، قاله ابن صاعد .

وأبو حفص عمر بن على الحجارى ، روى عن أبى جعفر بن عون الله ، وابن مفرّج وغيرهما ، وله رحلة إلى المشرق سمع فيها من علماء جِلّة ، وحدث عنه الخولانى ، وأجاز له سنة ٣٩٧ ، رواه ابن بشكوال . وطاهر بن أحمد بن عطية المرى القاضى ،

أصله من وادي الحجارة ، يكنى أبا محمد ، روى عن أبى بكر بن بشر ، وأجاز له ولابنه عبد الله بن طاهر فى سنة ٥٣٧ ، يحدث عنه أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى ، ذكره ابن بشكوال . وأبو محمد عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، المؤرخ الشهير ، صاحب المسهب ، وولداه أحمد ومحمد ، وحفيداه موسى وعلى وكلهم من أهل العلم . وسعد بن عمر . وأحمد بن سعيد بن مسعدة ، ذكره صاحب بغية الملتمس

ومن المدن القريبة من وادي الحجارة على ضفة نهر هنارس ، « سيغوانه » Signenza وكان اسمها عند الرومانيين «سيغونطية Segontia ،وقد استولى عليها العرب ، وفيها من آثارهم قصر لا يزال معروفاً ، وفيها كنيسة قديمة ، بنيت سنة ١١٠٢ وسكان هذه البلدة خمسة الآف نسمة ، وغير بعيد عنها بلدة يقال لها « السكنيسة » Alconeza

والسكة الحديدية بين مجريط وسرقسطة ترتفع إلى علو ١١٩١ مترا عن سطح البحر ، و ٥٥١ مترا عن مجريط ، وتدخل فى نفق يقال له « هورنه » ثم ينحدر الخط الحديدى ، ولا يزال ينحدر حتى يصل إلى سرقسطة ، وعلى هذا الخط ، بين البلدتين بلاد كثيرة منها « تُرّالُبه » Tarrlb « والمازان » Alamazun و « صوريه » Soria . والعرب يقولون لها شورية ، وهى بلدة قديمة ، سكانها سبعة آلاف نسمة وموقعها على الضفة اليمنى من نهر دوروه ، ولكن الأراضى حولها قليلة الجداء ، وفى هذه البلدة أيضاً أديار وكنائس قديمة ، ومتحف فيه آثار ايبيرية وأخرى رومانية عثروا عليها فى أخربة بلدة « نومنسه » Numance

وهى بلدة ايبيرية قديمة ، عند مازحف الرومان إلى أسبانية ، كانت من أشدها مقاومة لهم . فحاصرها هؤلاء مدة سنوات إلى أن فتحوها عنوة سنة ١٣٣ قبل المسيح وجعلوها دكا ، وبقيت خاوية على عروشها . وفى سنة ١٩٠٥ ، إلى ١٩١٢ ، قام الأستاذ المسمى « شولتن » Sculthen بأعمال حفر مهمة للكشف عن بقايا هذه المدينة الايبيرية ، التى دمرها سيبيون الرومانى ، فكشف منها جانباً . وانكشفت

له أيضاً مستعمرة رومانية ، وأما كن المعسكرات التى كانت لسيمون عند ما أحاط بالبلدة ، ثم كشف الأسبانيول بعد شولتن مسا كن ايبيرية قديمة

ومن شورية يذهبون بالعربات إلى « كستيجون » Cestjon و « كالهوة » Celaharo و « خرسونه »

مدينة سالم Medinaceli

ثم مدينةسالم ، والأسبانيول يقولون لها مدينة«سالى» و يلفظونها بالثاء لا بالسين ، وهى فى موقع رفيع منيع ، وقد كان للعرب فيها قلعة شهيرة ، جعلوها من أهم الثغور في وجه الاسبانيول والبلدة المعروفة من قبل العرب ولا تزال فيها آثار رومانية من من القرن الأول بعد المسيح إلا أن العرب حصنوها واعتنوا بها وكانت مركزاً عسكرياً عظيما . وكان يقال لمدينة سالم « الثغر الأوسط » ، فقد كانوا يقسمون الثغور إلى كور منها : الثغر الأعلى ، و يقال له أيضاً الثغر الأقصى ، وهذا الثغر هو سرقسطة وكورتها ، ثم الثغر الأوسط و يقال له أحياناً الثغر الادنى ، وهو مدينة سالم وكورتها وطليطلة ، وكان يوجد ثغر ثالث ، وهو ثغر «قو يمرة» ، ور بما أضيف إلى الثغر الأوسط بعض الأحيان .

وكان ولاة هذه الثغور قواداً ، وكان أكثرهم من أبناء البيوتات ، سواء من العرب ، أو من البربر ، أو من المولدين ، وذلك مثل التجيبيين ، و بنى هود ، و بنى رزين ، و بنى ذى النون ، و بنى قسّى ، وهؤلاء اسبانيون دانوا بالاسلام ، وكان من أشهر قواد الثغور فى زمن بنى أمية غالب بن عبد الرحمن ، فهو الذى فى سنة ٣٣٥ هجرية رمَّم حصون مدينة سالم ، بعد أن خربت . وهو الذى فى سنة ٣٤٢ زحف على قشتالة ، وأوقع بأهلها ، و بقى فى قيادة الثغر الأوسط إلى زمن الحكم المستنصر ، فانتدبه لامارة الجيوش فى افريقية ، عند ما عزم على محاربة الأدارسة . وفى إحدى غزواته

ببر العدوة استصحب معه قاضياً محمد بن أبى عامر ، فاتصل به ، وانعقدت بينهما مودة أكيدة ، انتهت بأن غالباً أزوج محمد بن أبى عامر ابنته ، و بواسطة هذه المصاهرة ترقى ابن أبى عامر . وحاز رتبة ذى الوزارتين ، وما زال يترقى فى الدولة حتى صار هو الحاجب الكبير ، وحتى غلب على الدولة كلها ، وحجر الخليفة هشام ، ولم يُبقِ له إلا اسم الخلافة ، وأخيراً وقعت الوحشة بين القائد الكبير غالب بن عبد الرحمن وصهره محمد بن أبى عامر ، الذى تلقب بالمنصور ، وذلك بعد أن استفحل أمره ، ورأى فيه غالب خطراً على الدولة ، فأدى ذلك إلى الحرب بينهما ، وجرح غالب بن عبدالرحمن فى الواقعة ومات ، وفقدت الدولة الأموية بموته ركناً من أعظم أركانها .

وفى مدينة سالم هذه دفن المنصور بن أبى عامر ، كما هو معروف فى التاريخ ، وكان قد توفى فى الغزوة الأخيرة [1] . فاحتملوه إلى مدينة سالم ، ودفن بها قال ابن خلدون :

---

(١) هذه الغزاة يسميها العرب بغزاة قنالش والدير ، لأن المنصور وصل فيها إلى قنالش ، وهى على مقربة من ناجرة ولوكرونى من مقاطعة ريوجه Rioja . وأما الدير فالمرجح أنه ديرسان ميلان ، شفيع قشتالة . وقد هدمه المنصور بتلك الغزاة فيما هدم من الأديار ، ووجدت كتابة من شانجه الكبير ملك نبارة مورخة فى ١٠٢٧ تدل على هذا الحادث ، وكان المنصور عندما قام رحمه الله بهذه الغزاة يشكو المرض ، ولم يقعده ذلك عن الزحف بنفسه ، وعبثاً حاول الأطباء أن يمنعوه من الخروج ، فانه أصر وصمم على الغزو ، وكان معتقدا أن مرضه غير قابل للشفاء . فلما خرج للغزو اشتدت به الآلام وأصبح غير قادر على الاستقلال بجواده ، حملوه فى محفة على أكتاف الرجال وبقى يحمل فى المحفة أربعة عشر يوماً ، ولما وصل إلى مدينة سالم استدعى ولده الأكبر عبد الملك ، وأمره بالرجوع إلى قرطبة ، وتسليم قيادة الجيش إلى أخيه عبد الرحمن ، وذلك لأن المنصور كان يتوجس عند موته خيفة الانتقاض فى قرطبة على الدولة العامرية ، وكان يحتاط لأجل توطيد الحكم لأولاده ، فلما ذهب عبد الملك راجعا إلى قرطبة أفاق المنصور بعض الشىء ، واستدعى كبار القواد ، وودعهم ، وأوصاهم بما يجب على مثله أن يوصى به فى وقت كهذا ، ثم أسلم الروح فى ليلة الاثنين ١٠ أغسطس عام ١٠٠٢ من التاريخ المسيحى ، وكانت تلك الغزاة مقرونة بالنصر لغيرها من غزوات المنصور التى قيل إنها بلغت أربعاً وخمسين غزوة ، وقيل ستاً وخمسين ، وقيل سبعين غزوة

وهلك المنصور أعظم ما كان مُلكا ، وأشد استيلاء ، سنة اربع وتسعين وثلاثمائة

قال لسان الدين بن الخطيب : واصل رحمه الله الغزو بنفسه فيما يناهز سبعين غزوة ، وفتح فيها البلاد ، وخضد شوكة الكفر ، وأذل الطواغيت ، وفض مصاف الكفار ، وكسر الصلبان ، وبلغ الأعماق ، وضرب على العدو الضرائب ، إلى أن تلقاه عظيم الروم نفسه بنته ، واتحفه بها فى سبيل الرغبة فى مهره ، فكانت أحظى عقائله ، وأبرت فى الدين والفضل على سائر أزواجه . انتهى . نقل هذا دوزى فى كتابه « المباحث عن تاريخ اسبانية وآدابها فى القرون الوسطى » وقد سمى المؤرخون غزاة المنصور الأخيرة التى توفى على أثرها بغزاة قلعة انيازور Calatanazor وزعم مؤرخو الاسبانيول مثل لوكاس دوتوى Lucas de Tuy ولذريق الطليطلى Rodrigue de Tolède أن المنصور انكسر فى تلك الغزاة ، وقد فند دوزى زعمهم بما سنذكره فى القسم التاريخى من هذا الكتاب ، عند الوصول إلى أخبار الدوله العامرية

وجاء فى نفح الطيب نقلا عن ابن حيان : ثم خرج المنصور لآخر غزواته ، وقد مرض المرض الذى مات فيه ، وواصل شن الغارات ، وقويت عليه العلة ، فاتخذ له سرير خشب ، ووطىء عليه مايقعد عليه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يحمل على أعناق الرجال ، والعساكر تحف به ، وكان هجر الأطباء فى تلك العلة ، لاختلافهم فيها ، وأيقن بالموت ، وكان يقول : إن زمانى يشتمل على عشرين الف مرتزق ، ما أصبح فيهم أسوأ حالة منى . ولعله يعنى من حضر معه تلك الغزاة ، وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد ، واشتغل ذهنه بأمر قرطبة ، وهو فى مدينة سالم ، فلما أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك وجماعته ، وخلا بولده ، وكان يكرر وصايته ، وكلما أراد أن ينصرف يرده ، وعبد الملك يبكى ، وهو ينكر عليه بكاءه ، ويقول : وهذا من أول العجز . وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر ، وخرج عبد الملك إلى قرطبة ، ومعه القاضى أبو زكوان ، فدخلها أول شوال ، وسكن الأرجاف بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه ، ووجد المنصور خفة فأحضر جماعة بين يديه ، وهو كالخيال لا يبين الكلام ، وأكثر كلامه بالاشارة كالمسلم المودع ، وخرجوا من عنده ، فكان آخر العهد به . ومات لثلاث بقين من شهر رمضان ، وأوصى أن يدفن حيث يقبض ، فدفن فى قصره بمدينة سالم ، واضطرب العسكر ، وتلوم ولده أياماً ، وفارقه بعض العسكر إلى هشام ، وقفل هو إلى قرطبة ، فيمن بقى معه ، ولبس فتيان

بمدينة سالم ، منصرفه من بعض غزواته ، ودفن هنالك . وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه . اه . وزاد المقرى على ذلك فى النفح قوله : مما حكى أنه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى :

آثارُه تنبيك عن أخبارِه حتى كأنك بالعيانِ تراهُ
تاللهِ لا يأتى الزمانُ بمثلهِ أبداً ولا يحمِى الثغورَ سواهُ

قال : وعن شجاع مولى المستعين بن هود : لما توجهت إلى اذفونش ، وجدته فى مدينة سالم ، وقد نصب على قبر المنصور بن أبى عامر سريره ، وامرأته متكئة إلى جانبه ، فقال لى : ياشجاع أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم؟؟ قال : فحملتنى الغيرة أن قلت له : لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ، ما سمع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار ! ! فهمّ بى ! فحالت امرأته بينى و بينه وقالت له : قد صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟ وقال فى موضع آخر : وتوفى رحمه الله فى غزاته للافرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، وحُمل فى سريره على أعناق الرجال ، وعسكره يحف به و بين يديه إلى أن وصل إلى مدينة سالم ، ودامت دولته ستاً وعشرين سنة ، غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة . قال انتهى كلام ابن سعيد وفى بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون . ثم نعود إلى الكلام على مدينة سالم فنقول: إن ياقوت الحموى يذكرها فى المعجم تحت اسم « سالم » و يقول : مدينة بالأندلس ، تتصل بأعمال باروشة[1] ، وكانت من أعظم المدن وأشرفها، وأكثرها شجراً وماء ، وكان طارق لما افتتح الأندلس ألفاها خراباً . فعمرت فى الاسلام ، وهي الآن بيد الافرنج . اه

المنصور المسوح والأكسية ، بعد الوشى والحبر والخز ، وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر ، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه ، وخلع عليه ، وكتب له السجل بولاية الحجابة . وكان الفتيان قد اضطربوا ، فقوم المائل ، وأصلح الفاسد ، وجرت الأمور على السداد ، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد . انتهى

(١) أظن باروشة هذه تصحيف أروشة وأن هذه البلدة هى أريزة عند الاسبانيول وقد سألت الأستاذ المحقق السيد علال الفاسى الجد الفهرى رأيه فى هذه المسالة فأجابنى



المنصور بن أبي عامر يجود بنفسه بين أيدى ابنه وقواده وأطبائه

وجاء فى صبح الأعشى : مدينة سالم قال ابن سعيد : وهى بالجهة المشهورة بالثغر من شرق الاندلس (والحقيقة أنها من شماليها الى الشرق أو من جوفيها على رأى الأندلسيين) قال : وهى مدينة جليلة . قال فى تقويم البلدان : و بها قبر المنصور بن أبى عامر .

وفي مدينة سالم قبور عائلة أسبانيولية نبيلة يقال لها عائلة دوق مدينة سالم Duc du Medinaceli . وكورة مدينة سالم قاحلة ، قليلة الزرع والضرع ، ويكثر فى أرضها الجفصين .

وعلى مسافة ثلاثين كيلو متراً من مدينة سالم بلدة شنتا مَرْيَة Santa Maria de Huerta . و بالقرب من شنتا مرية هذه ، بينها و بين «أديزه» Ariza خرابات مدينة ايبيرية قديمة يظن انها مدينة اركوبريقه Arcobriga . ثم تمر ببلدة أريزة ، وهى داخلة فى حدود اراغون ، وحول هذه المدينة الصغيرة كهوف ومغاور كانت مسكونة فى القديم . والغالب على أرض هذه البلدة الصخور والجنادل ، ولون التراب أحمر الى السواد ، و يمر بها نهر شلون [1] وماؤه يميل الى الحمرة ، وكانت من ملحقات

بما يلى : «أما أريزة أو أريسة فأنا لا أرى بعيدا أن تكون هى المسماة «باروشة» فقد جاء فى دائرة المعارف للبستانى : أريزة بلدة فى اسبانيا تبعد سبعين ميلا عن سرقسطة إلى الجنوب الغربى . وفى معجم البلدان يقول ياقوت عن باروشة : بلدة من غربى سرقسطة ، من نواحى الأندلس، شرقى قرطبة ، تقرب من أرض الافرنج . فأنتم ترون التقارب فى التحديد بينها و بين سرقسطة . ومع ذلك فأرى أن أريسة - وإن لم استطع تعيينها - كانت تعرف كذلك عند العرب ، أى لم يلحقها تحريف ، إذ حفظ لنا التاريخ اسم شخصين يدعيان بالاريسى ، أحدهما أبو عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن احمد الاريسى ، المعروف بالجزائرى ، الشاعر الشهير ، المترجم له فى «عنوان الدراية» فى علماء بجاية » صفحة ١٣٤٤ ، والثانى جده محمد بن احمد الاريسى ، مترجم له أيضاً فى هذا الكتاب صفحة ١٤٤ . فيغلب على ظنى أن هـذه العائلة منسوبة إلى بلدة أريسة . والله أعلم » اهـ

(١) Jalon

مدينة سالم فى أيام العرب بلدة يقال لها « شمّونت » ، قال ياقوت : شمّونت بالفتح والتشديد وسكون الواو وفتح النون ، قرية من أعمال مدينة سالم بالاندلس ، لها ذكر فى أخبارهم . انتهى . وقال أبو الفداء : إن مدينة سالم كانت قاعدة الثغر الأوسط ، وقال الادريسى إنها مدينة عامرة ذات بساتين ورياض . وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ما معناه إن مدينة سالم واقعة فى نصف الطريق بين مجريط وسرقسطة ، وارتفاعها عن سطح البحر الف متر . وليست هى مدينة ابن السالم ، التى هى من ملحقات اشبيلية ، وكانت فى زمان العرب مركز الجيوش المرابطة فى الثغور ، ومنها تخرج الى قتال العدو ، واليها تتراجع ، و بها تعتصم فى حال الفشل . وكانت قد سقطت مكانتها حيناً من الدهر ، الى أن تولى الخليفة الناصر ، فاعاد عمرانها فى سنة ٣٣٥ للهجرة ، عن يد القائد غالب ، و بقيت فى أيدى المسلمين الى أن استرجعها المسيحيون . ثم عاد المسلمون فاسترجعوها . ثم عاد المسيحيون فأجلوهم عنها ، عندما أخذ الاسلام فى الاندلس بالتقهقر [١]

من انتسب من أهل العلم الى مدينة سالم

إن العرب لم يحلوا فى محل ، ولو مدة قصيرة الا وحلّت مدنيتهم معهم فيه .

(١) شنتامرية التى تقدم ذكرها فى الكلام على مدينة سالم قد ورد ذكرها فى معجم البلدان قال ياقوت : شنت مريه بفتح الميم وكسر الراء وتشديد الياء ، وأظنه يراد به مريم بلغة الافرنج : حصن من أعمال شنتبرية ، وبها كنيسة عظيمة عندهم ، ذكر أن فيها سوارى فضة ، لم ير الراءون مثلها ، لايحزم الانسان واحدة منها ، مع طول مفرط ، قال أبو محمد عبد الله ابن السيد البطليوسى النحوى :

تنكرت الدنيا لنا بعـــد بعدكم   وحفت بنا من معضل الخطب ألوان
أناخت بنـا فى أرض شنت مرية   هواجس ظن خان والظن خوان
رحلنا سوام الحمـــد عنا لغيرها   فلا ماؤها صدى ولا النبت سعدان

قلنا جاء فى دليل بديكر أن فى شنت مرية هذه ديرا فيه مكان مائدة صنعة بنائه افرنسية ، ولم يحدث عن سوارى فضة . ولا شيء مما رواه ياقوت بدون تحقيق

واشتغلوا هناك بالعلم والأدب ، وعكفوا على الاقراء ، والتدريس ، وتصنيف الكتب.

فمن المنسوبين الى مدينة سالم من أهل العلم أبو الحسن على بن يوسف القيسى السالمى ، سكن جيّان . وأخذ القراءات عن محمد بن أحمد بن الفرّا ، وتصدّر للاقراء. ذكره ابن الابّار فى التكملة . وأبو الحسن على بن موسى بن على بن موسى بن محمد بن خلف الأنصارى السالمى الجيانى ، المعروف بابن النقَرات . كان من القراء ، ونزل مدينة فاس ، واليه ينسب الكتاب الموسوم بشذور الذهب فى الكيمياء ، ذكره التجيبى وأثنى عليه بالصلاح والورع وقال : سألته عن مولده فقال : سنة ٥١٥ ، و بقى الى سنة ٩٣ . وابو الاصبغ عيسى بن أبى يونس بن أسد اللخمى ، قرأ على أبى العباس بن هاشم المقرىء ، وعلى غيره ، وتوفى ببلده سنة ٤٨٢ ، على رواية ابن بشكوال . ومنه يفهم ان الاسبانيول افتتحوا طليطلة نهائياً قبل مدينة سالم ، لأن الروايات متفقة تقريباً على أنهم استولوا على طليطلة سنة ٤٧٨ ، ومدينة سالم هى الى الشمال من طليطلة بمسافة بعيدة ، فما كذب الذي قال :

الثوب يُنسلُ من أطرافه وأرَى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسَطِ

هذا إلا إذا كان هذا الرجل أقام بمدينة سالم من بعد استيلاء الأسبان عليها

ثم أبو الحسن على بن ابراهيم بن فتح ، يعرف بابن الامام ، أخذ عن أبى عمر بن عبد البر وأبى الوليد الباجى وغيرهما ، وكان من أهل النبل والأدب ، توفى سنة ٤٧٩ ، وله ثلاث وستون سنة . ذكره ابن مدير ، وعنه نقل ابن بشكوال . وأبو الأصبغ عيسى بن عبد الرحمن بن سعيد الأموى المقرىء ، سمع من القاضى ابن السقاط ، وكان من أهل العلم ، وتوفى بمصر سنة ثمان وتسعين بعد الار بعمائة . وأبو العاص حكم بن محمد بن اسماعيل بن داود القيسى السالمى ، من ساكنى سرقسطة ، أخذ عن جماعة من علماء الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق ، فأخذ عن ابن رشيق وغيره ، وكان صالحاً ورعا تولى الصلاة بجامع سرقسطة ، وحدّث عنه الصاحبان ، وذكر وضّاح بن محمد السرقسطى أنه توفى سنة ٣٩٩ ، نقلاً عن ابن بشكوال . وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوى ،

من أهل طرطوشة وسكن مرسية ، وأصله من مدينة سالم ، كان من أهل العلم والادب مؤرخاً ، له كتاب اسمه « درر القلائد وغرر الفوائد » وله فى اللغة كتاب حسن ، وله كتاب فى الطب سماه « الشفاء » وكتاب فى التشبيهات ، وكان له حظٌ من قرض الشعر ، وتوفى سنة ٥٥٩ . ترجمه ابن الأبار فى التكملة . ومحمد بن أحمد البلوى السالمى ، قال فى بغية الملتمس : إنه فقيه أديب ، له كتاب جمع فيه علوماً ، وجدّد من الدهر آثاراً ورسوماً ، سماه « كتاب السلك المنظوم ، والمسك المختوم » ولم يذكر ابن عميرة فى البغية أين سكن محمد بن أحمد البلوى هذا ، ولم نعلم هل هو أبو عامر محمد ابن أحمد البلوى ، الذى سكن طرطوشة ، وترجمه ابن الأبار ، وله كتاب «درر القلائد وغرر الفوائد » أم هو غيره . كما أن ابن عميرة لم يذكر سنة وفاته ، بحيث يترجح عندنا أن هذا البلوى محمد بن أحمد هو واحد ، لا اثنان تشابه اسماهما ؟

وأبو زيد خالد بن أحمد بن أبى زيد الرصافى ، ولى قضاء مدينة سالم وامتُحن بالنهب عند قتل واليها ذى الوزارتين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن باق ، الكاتب القرطبى سنة ٤١٩ ، وكان يلقّب بجبل الثلج . من خط ابن حبيش . قاله ابن الأبّار فى التكملة . وخلف بن يامين ، من أهل مدينة سالم وقاضيها . قال ابن الأبار : حضر مع غالب مولى الناصر ، ووثوبَهُ على محمد بن أبى عامر ، إذ حاول الفتك به . فقبض على أسفل كمه لما أهوى إليه بالسيف ، فنثّر خربته ، وجعل يناشده الله حتى أدهشه ، وأفلت ابن أبى عامر ، وعدا غالب عليه (أى على خلف) بعد ذلك ، فقتله أفظع قتلة ، لخروج مدينة سالم عن يده . وذلك فى منسلخ شهر رمضان سنة ٣٦٩ انتهى . ومن هنا يُعلم أن مدينة سالم تداولها المسلمون والنصارى مراراً لأنه بعد هذا التاريخ دفن فيها محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور ، وكانت يومئذ فى أيدى المسلمين . وخلف ابن محمد بن خلف المقرىء ، روى عن أبى عمرو المقرىء ، وأخذ عنه أبو الحسن بن قوطه الحجارى ، سمع منه فى شعبان سنة ٤٧٦ . وأبو الوليد يونس بن عيسى بن خلف الأنصارى ، سمع من أبى عبد الله بن السقاط ، وقرأ على أصحاب أبي عمرو المقرىء ،

قال ابن بشكوال:أخذعنه أصحابنا ، وقرأت بخط بعضهم أنه توفى سنة ٥٠٨ ، و بيبش ابن خلف الأنصارى ، روى عن أبى عمرو المقرىء ، وكان عنده علم وخير . وقد حدث، وأخذ عنه عن ابن بشكوال . ونصر بن عيسى بن نصر بن سحابة من أهل مدينة سالم ، سكن سرقسطة ، كان من أهل الأدب والمعرفة بالعروض ، وله فى العروض كتاب ، صنعه للمؤتمن بن المقتدر بن هود . قال ابن الأبار فى التكملة : وكان له حظ من النظم ضعيف . وله رواية عن أبى الحسن بن سيده . وأبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن شاس القيسى ، من أهل مدينة سالم ، سكن سرقسطة ، كان أديباً كتب عنه ابن سيدراى . وأبو القلعى كامل السالمى الحكيم ، حكى عنه أبو داود المؤيدى فى حفظ أبى عمرو المقرئ ، وذكر أنه كان رفيقا له .

وأبو محمد الغالب بن يوسف السالمى ، كان عالما بالأصول ، سكن سبتة ، ثم مراكش وتوفى بها سنة ٥٧٦

وأبو عبدالله محمد بن موسى الأنصارى ، كان من القراء أخذ عن المغامى .

وأبو مروان عبد الملك بن خلف بن محمد الخولانى المكتّب ، أصله من مدينة سالم . سكن غرناطة وتصدر للاقراء بها . وكان من جلة القراء مع الصلاح والزهد ، أخذ عنه أبو بكر بن الخلوف وأبو الحسن بن ثابت ، ترجمه ابن الأبار فى التكملة .

الحمة Alhama

وعلى مسافة ٢١٩ كيلومتراً من مجريط إلى الشرق وعلى مقربة من أريزة توجد بلدة الحمة Alhama حمة أراغون ، فيها مياه معدنية سخنة ، ومن ذلك اسمها «الحمة» وأينما وجد العرب مياها حارة تنبع من الأرض ، سموها حمة (١) و بقرب هذه المياه

(١) قال ياقوت فى المعجم : الحمة العين الحارة يستشفى بها الاعلاء والمرضى ، وفى الحديث : العالم كالحمة تأتيها البعداء ويتركها القرباء . فبينما هى كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم وبقى أقوام يتفكنون أى يتندمون . قال : وفى بلاد العرب حمات كثيرة منها حمة اكيمة وحمتا الثوير ، وحمة البرقة ، وحمة خنزر ، وحمة المنتضى ، وحمة الهودرا .



الحامة فى اراغون

الحارة يجرى نهر شلون [١] بين الصخور . وضواحى هذه البلدة هى فى غاية النضارة

هذه الست فى بلاد كلاب . قال : والحمة جبل بين ثور وسميراء . وحمة ما كسين فى ديار ربيعة . والحمة قرية فى صعيد مصر . والحمة مدينة بافريقية من عمل قسطنطينة من بلاد الجريد . والحمة قرية من أودية العلاة من أرض اليمامة . والحمة عين حارة بين اسعرت وجزيرة ابن عمر على دجلة ، تقصد من النواحى البعيدة ، يستشفى بها ، ولها موسم اه بتصرف

قلنا : وقد فات ياقوت حمة اليرموك فى فلسطين ، وهى من أهم الحمات وأنفعها ماء ، وكان عندها أبنية من قديم الدهر . ولما كنا فى اليمن مررنا بحمة عظيمة من بلاد آنس لها موسم كل سنة يستمر شهراً . أما حمات الاندلس فأشهرها حمة غرناطة الى الجنوب الغربى منها ، بحذاء شارة الحمة ، وكانت بلدة ذات بال . وحمة أراغون التى نحن بصددها وحمة بين مرسية ولورقة .

(١) الاسبانيول يقولون لهذا النهر جالون Jalon ، وقد ورد ذكره فى معجم ياقوت قال : شلون بفتح أوله ، وبضم ، وسكون الواو ، وآخره نون : ناحية بالاندلس من نواحى سرقسطة ، نهرها يسقى أربعين ميلا طولا ، ينسب اليها ابراهيم بن خلف ابن معاوية العبدرى المقرى الشلونى ، يكنى أبا اسحق ، من جملة أصحاب أبى عمرو المقرىء ، وكان حسن الحفظ والضبط .





شلال آخر

و ينحدر من نهر «بيبدره» Piepra هناك اثنا عشر خلالاً ، إحداها ينصب من علو ٤٤ متراً ، وفى تلك النواحى كهوف تستحق الفرجة

ثم بلدة « بو بيرقة » وعندها جسر على نهر شاون . ثم بلدة « عتيقة » Ateca وهى بلد قديمة وسكانها ٣١٠٠ نسمة كان لها قلعة فى زمن العرب افتتحها القمبيذور سنة ١٠٧٣ وأخرج منها ، ولا تزال فيها أبراج من أيام العرب

وعلى مسافة ٢٤٥ كيلو متراً من مجريط إلى الشرق

قلعة أيوب Kalat Ayoub

والاسبان يقولون Calatayud كلاتايود

وهى الآن بليدة لا يزيد عدد سكانها على عشرة آلاف نسمة ، لكنها فى موقع من أبدع المواقع منظراً ، على وادى جالون يشرف عليها قلعة تسمى قلعة أيوب ، يقال إن بانيها هو أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير ولذلك انتسبت اليه . ومبانى هذه البلدة من الطين المجفف فى الشمس ، وعليها علامة الفقر . وفيها كنيسة يقال لها كنيسة سانتامرية ، كانت فى الأصل جامعة ، ولها منارة للجرس كانت فى أصلها مئذنة ، وكنيسة أخرى يقال لها كنيسة القبر المقدس ، لها برجان ، وكانت فى الماضى أعظم مركز لفرسان الهيكلين فى أسبانية . وقد بنيت هذه الكنيسة سنة ١١٤١ أى بعد اجلاء العرب عن قلعة أيوب باثنتين وعشرين سنة ، لأن الاذفونش الاول ملك أراغون انتزع قلعة أيوب من أيدى العرب سنة ١١١٩

وفى جوار قلعة أيوب كهوف وغيران يسكن فيها البشر ، أشهرها الكهف الذى يقال له المُرَيَّة Moreria ، وكذلك المغاور التى يقال لها « كامينوسوليداد » Camino de la Soledad . والى الشرق من قلعة أيوب على الطريق السلطانى المؤدى من ماردة الى سرقسطة ، كانت مدينة « بيلبيليس » Bilbilis . وهى بلدة بناها بعض الجالية الايطالية فى أثناء المائة الأولى من التاريخ المسيحى ، وكانت موصوفة بحسن الصياغة ، وباتقان صنعة الاسلحة ، وبتربية الخيل المسومه . ومن قلعة أيوب

الى بلنسية ٢٩٤ كيلو متراً بالقطار الحديدى ، الذي يسير كل يوم ، ومنها طريق الى يرْوَل Teruel يسير عليه القطار أيضاً . ثم إن السكة الحديدية تمتد من قلعة أيوب فى وادى جلّق Giloca فلا يسير القطار اكثر من خمسة كيلو مترات حتى يصل إلى بلدة يقال لها « باراكولُوس » Paracuellos ، و بعد خمسة كيلو مترات أخرى ، الى بلدة يقال لها « مالونده ڤليلة Maluenda Velilla ، وفيها عدد من الكنائس ، و بعد ثلاثة كيلو مترات لا غير يصل الى موراته Morata ، ثم على مسافة تقرب منها الى قرية يقال لها « فنت جِلق » ، في أرضها معدن من الجفصين والمرمر . ثم على مسافة قريبة من هذه بلدة « فيلا فليش » Villa Feliche ، واقعة بين أكَمَتَيْن ، وفيها آثار مساجد اسلامية . والسكة الحديدية فى هذه المسافة تخترق الجبل فى عدة أماكن . وعلى ٣٥ كيلو متراً من قلعة أيوب مدينة دروقة ، وليس فيها الآن الا أربعة آلاف نسمة ، لكنها فى موقع بديع خفيف على الروح ، ضمن واد عميق من جِلّق . وقد كانت هذه البلدة من زمان الايبيريين ، ولكنها عمرت كثيراً في أيام العرب ، الى أن افتتحها الاذفونش الأول صاحب أراغون سنة ١١٢١ وأجلى العرب عنها ، ولها قلعة من بناء العرب معروفة بقلعة دورقه ، وسور عظيم طوله ثلاثة كيلو مترات ، وعليه ١١٤ برجاً .

والى الشمال الشرقى من دروقة ، وهناك منظر من أبدع المناظر ، سرداب طويل ، يزيد على خمسمائة متر ، و يعلو على ستة أمطار ، لاجل تصريف المياه ، في وقت الفيضان ، نحو وادى جلق . وعلى مقربة من دورقة بلدة فى سهل مريع تسمى «باغنه» Bagiena ، و بلدة أخرى اسمها كَلَموشه Calamocha ثم بلدة تسمّى كاميزيال Caminreal على نهير يقال له « ريجه » واقع على الطريق السلطانى بين قاعدتى سرقسطة و بلنسية

من نبغ من أهل العلم من أهل قلعة أيوب

ولنذكر الآن بعض ما جاء فى كتب العرب وغيرها عن قلعة أيوب . قال ياقوت: مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر ، وكذا ينسب اليها ، فيقال : ثغرى ، من أعمال سرقسطة ، بقعتها كثيرة الأشجار ، والأنهار ، والمزارع . ولها عدة حصون . و بالقرب منها مدينة لبلة . ينسب اليها جماعة من أهل العلم ، منهم محمد بن قاسم بن خُرّة ، من أهل قلعة أيوب ، يكنى أبا عبد الله ، رحل سنة ٣٣٨ ، سمع بالقيروان من محمد بن أحمد بن نادر ، ومحمد بن محمد بن اللباد ، حدثنا عنه ابنه عبد الله بن محمد الثغرى ، وقال : توفى سنة ٣٤٤ . قاله ابن الفرضى . ومحمد بن نصر الثغرى ، يكنى أبا عبد الله ، أصله من سرقسطة ، كان حافظاً للاخبار والأشعار ، عالماً باللغة والنحو ، خطيباً بليغاً ، وكان صاحب صلاة قلعة أيوب . قال ابن الفرضى : أحسب أن وفاته كانت فى نحو سنة ٣٤٥ . انتهى

قلنا : لم يذكر ياقوت استيلاء النصارى على قلعة أيوب ، ونظن ذلك قد فاته سهواً ، لأنه فى أيام ياقوت الحموى المتوفى فى ٦٢٦ للهجرة ، كان مضى على قلعة أيوب نحو مائة وعشرين سنة وهى فى يد الاسبانيول . وقد ذكر ياقوت تحت لفظة الثغر ، ترجمة أبى محمد عبد الله بن القاسم بن محمد بن حزم بن خلف الثغرى ، من أهل قلعة أيوب ، سمع بتطيلة من ابن شبل ، وأحمد بن يوسف بن عباس ، وبمدينة الفرج من وهب بن مسرة ، ورحل الى المشرق سنة ٣٥٠ ، فسمع ببغداد من أبى على الصواف ، وأبى بكر بن حمدان ، سمع منه مسند احمد بن حنبل والتاريخ ، دخل البصرة والكوفة ، وسمع بها ، وسمع بالشام ومصر وغيرهما ، من جماعة يكثر تعدادهم ، وانصرف الى الاندلس ، ولزم العبادة والجهاد ، واستقضاه الحكم المستنصر بموضعه ، ثم استعفاه منه فأعفاه ، وقدم قرطبة فى سنة ٣٧٥ ، وقرأ عليه الناس . قال ابن الفرضى : وقرأت عليه علماً كثيراً ، فعاد الى الثغر ، فاقام الى أن مات . وكان يعد من الفرسان . وتوفى سنة ٣٨٣ بالثغر من مشرق الأندلس اه

قلنا : وممن ينسب إلى قلعة أيوب من أهل العلم ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عيسى بن عبد الرحمن بن عبد الحميد التجيبي ، يعرف بالقبريرى ، كان فقيهاً مالكياً جليلا ، بصيراً بالمذهب ، حافظاً للرأى ، وله مسائل فى الآذان ، وفى الحضانة وكتاب سماه « بالانتصار لابن العطار فيما رده عليه أبو عبد الله بن الفخار » وقدروى عنه أبو عبد الله بن سيدراى القلعى ، ذكره القنطرى ، وقال فى نسبه : محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد بن عبد الحميد ، وذكر أنه كان من كبار الفقهاء الحفاظ وكان شاعراً ، روى هذا ابن الأبار فى التكملة . وأبو عبد الله محمد بن احمد الكفيف يُعرف بابن الحاج ، حدث عنه ابن عبد السلام الحافظ وقال : أجاز لنا كتاب الشريعة لأبي بكر الآجُرى ، وكان قد كف بصره . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سعيد بن مطرف التجيبي القلعى ، يعرف بالبيرانى ، روى عن أبى محمد بن عتاب ، وكان من أهل العلم والفضل ، حدث عنه ابنه أبو حفص عمر ، وتوفى بعد الأر بعين والخمسمائة . ذكره ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن سليمان ن سيدراى الكلابى الوراق القلعى ، سكن ببلنسية ، كان يروى عن أبي الحسن بن واجب وأبى بكر بن العربى وأبى الأصبغ المنزلى ، وأبى عبد الله القبريرى ، سمع منه المدونة ثلاث مرات ، وخرج من بلده لما تغلب العدوعليه ، بعدوقيمة كتندة فى سنة ٥١٤ ، فكان يبيع الكتب فى دكان له ، وكان أبوه من قبله ورّاقا ، توفى ببلنسية فى رجب سنة ٥٤٨ ، وقد نيف على السبعين ، وقيل بلغ الثمانين .

وأبو عمر يوسف بن يونس الأموى ، يعرف بالمورى ، له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن أبى الوشا ، وأبي حفص ىن عراق ، ورايق الصقلى وغيرهم ، وأخذ ببلده قلعة أيوب عن القاضى ابى محمد عبد الله بن قاسم ، واخذ عنه الصاحبان وابو عمر المقّرى

وأبو الطيب سعيد بن فتح الانصارى ، منّ قلعة أيوب ، أخذ القراءات عن أبى داود ، وابن الدوش ، وابن البياز ، وغيرهم ، وتصدر للأقراء بمرسية ، وكان

متقنا أديبا ، أخذ عنه أبو عبد الله بن فرج المكناسي وغيره ، توفي بقرطبة سنة خمس عشرة أو ست عشرة وخمسمائة . ذكره ابن الأبار . وأبو محمد يحيى بن محمد بن حسان القلعي ، أخذ القراءات عن أبي جعفر بن حكم ، ورحل ، فلقي بالمهدية أبا عبد الله ابن الحداد الأقطع ، وأخذ عن أبي عبد الله الطرابلسي ، وتصدر للإقراء في قلعة أيوب ، وأخذ عنه أبو عمرو عثمان البلجيطي [1] ، وكانت وفاته سنة ٥١٢ ، ذكره ابن الأبار . وأبو القاسم اسماعيل بن أبي الفتح ، قال ابن بشكوال : كان فقيه جهته ، من أهل العلم والتقدم في الفتوى ، توفي في نحو الخمسمائة . أفادنيه ابن عياض . وأبو القاسم اسماعيل ابن يونس الموري ، حدّث عن أبي محمد عبدالله بن محمد بن قاسم الثغري وغيره ، حدّث عنه أبو عمرو المقري وأبو حفص بن كُريب وغيرهما . وأبو عثمان سعيد بن يوسف ابن يونس الأموي ، له رحلة إلى المشرق روى فيها عن أبي بكر بن عمار الدمياطي ، وأبي اسحق ابراهيم بن أبي غالب المصري ، وأبي محمد بن النحاس وغيرهم ، حدّث عنه الصاحبان ، وأبو عبد الله بن عبد السلام ، وقال : توفي في عقب ذي الحجة سنة ٣٩٧ . وأبو بكر عبد الله بن عبد الله بن محمد بن قاسم بن أبي محمد القلعي ، توفي سنة ٤٢٥ . وأبو يونس عبد العزيز بن عبد الله بن هذيل العبدي القلعي ، يروي عن أبي الوليد الباجي ، سمع منه صحيح البخاري بسرقسطة في جيئته رسولا اليها سنة ٤٧٠ ، روى عنه أبو الحسين بن حفصيل السرقسطي ، وأبو مروان بن الصيقل الوشقي ، وكان أديباً فقيهاً مشاوَراً . وأبو محمد عبد الرحيم بن عبد الجبار بن يوسف بن عبد الرحيم بن احمد الشعنتي ، وشعنت حصن في قلعة أيوب ، خرج من بلده سنة ٥١١ ، ونزل بمرسية سنة ٥٢٦ ، وتصدر بها للإقراء . وأبو يونس عبدالله بن هذيل العبدري ، والد عبدالعزيز ابن عبد الله بن هذيل . وأبو محمد عبد الله بن عبد الله بن عبد الله (ثلاثا) بن محمد ابن قاسم القلعي ، تولى قضاء قلعة أيوب بعد أبيه ، وتوفي سنة ٤٨٧ .

---

(١) نسبة إلى بلجيط Belchite من عمل سرقسطة

وأبو بكر عبد الله بن عبد الله بن محمد بن قاسم بن حزم يعرف بالبطرورى نسبة إلى قرية منها بوادى جلّق ، وهو والد القاضى أبى محمد القلمى ، توفى سنة ٤٢٥ .

من نبغ من أهل العلم من مدينة دروقة

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعيد بن عبد الله بن سعيد الدروق ، يعرف بابن زرياب ، لقى أبا بكر بن العربى ، وكان من أهل العلم والزهد ، فقيهاً مشاوَراً ، توفى ببلنسية ليلة الخميس منتصف رمضان سنة ٥٢٢ . ذكره ابن الأبار فى التكملة .
وأبو القاسم محمد بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد بن معاوية بن داود الأنصارى ، أصله من دروقة ، وسكن أبوه قرطبة ، وكان يقال له الدروق ، روى عن أبيه عبد العزيز وعن أبى على الصدفى ، وعن أبى بكر بن العربى ، وكان من أهل الحفظ للحديث . قاله ابن الدباغ ، وتوفى فى حياة أبيه قبل العشرين وخمسمائة ، ذكره ابنَ الأبار .
وأبو محمد عبد العزيز بن محمد بن معاوية الانصارى . يعرف بالدروق الأطروش ، قال ابن بشكوال : روى عن أبى بكر محمد بن مفوز ، وأبى على حسين الصدفى ، وأبى عبد الله الخولاني ، وسمع من جماعة من شيوخنا بقرطبة وغيرها . وكان معتنياً بالحديث وكتبه وتقييده ، حافظاً له ، عارفاً بعلله وطرقه ، وصحيحه وسقيمه ، وأسماء رجاله ، مقدماً في جميع ذلك على أهل وقته ، سمعنا منه ، وأجاز لنا بلفظه ما رواه وجمعه ، وكان حرج الصدر ، نكد الخلق ، توفى رحمه الله فى ربيع الآخر سنة ٥٢٤ . انتهى . قلنا: وجاء فى معجم البلدان تحت اسم « دورقة » بالدال قبل الواو ، ترجمة عبد العزيز هذا ولكنه كنّاه بأبى الأصبغ لا أبى محمد ، عبد العزيز بن محمد بن سعيد بن معاوية ابن داود الأنصارى الدورقى الأطروشى . وقال ياقوت : كان من أهل المعرفة بالحديث والحفظ وله تآليف ، وكان عسراً سيء الأخلاق ، قلما يصبر على خدمة أحد ، وكان له ولد من أهل الفقه والمعرفة يقال له محمد بن عبد العزيز ، مات قبل أبيه . قال ياقوت: وأبو زكريا يحيى بن عبد الله بن خيرة الدورقى المقرىء ، بلغ الاسكندرية ، وحضر عند أبى طاهر السلفى ، وكتب عنه ، انتهى ملخصاً

ومن الغريب أن ياقوت الحموى ذكر فى معجمه دروقة ، بفتح أوله وثانيه ، وسكون الواو . وهنا قدّم الراء على الواو ، وقال إنها بلدة أو قرية بالأندلس ، ينسب إليها أبو زكريا يحيي بن عبد الله بن خِيرة الدروقي المقرىء ، قال السلفى : قدم علينا الأسكندرية سنة ٥٢٩ ، وسألته عن مولده فقال : سنة ٤٦٤ بدروقة ، وقرأت القرآن على أبى الحسين يحيي بن ابراهيم البسّار القرطبي بمرسية ، وسمعت الحديث على أبى محمد عبد الله بن محمد بن اسماعيل القاضى بسرقسطة . انتهى ، ثم قال : ومات بقفط من الصعيد سنة ٥٣٠ انتهى . ثم رجع ياقوت فذكر بلدة اسمها دورقة ، بتقديم الواو على الراء ، وقال : إنها مدينة من بطن سرقسطة ، ينسب إليها جماعة ، منهم أبو محمد عبد الله ابن جوشن الدورقى المقرىء النحوى ، كان اية فى النحو ، وتعليل القراءات ، وله شعر حسن ، وسكن شاطبة وبها توفى سنة ٥١٢ . ثم ذكر ياقوت ترجمة أبى الأصبغ عبد العزيز الأطروشى ، وأبى زكريا يحيي بن خيرة الدورقى ، وذلك بعد أن كان ذكر ترجمة ابن خيرة المذكور تحت اسم دروقة ، لا دورقة . والحقيقة أنه لا يوجد بلدتان إحداهما اسمها دروقة ، والأخرى دورقة . وإنما هى بلدة واحدة يتلفظ بعضهم باسمها بتقديم الراء على الواو ، والآخرون بتقديم الواو على الراء .

والذى فى الصلة لابن بشكوال ، وفى التكملة لابن الأبار ، هو دروقة بتقديم الراء على الواو ، وهكذا يتلفظ بها الاسبانيول . وممن ينسب إليها ، عدا من تقدم ذكرهم ، أبو الحسن على بن محمد بن يحيي بن أبى العافية الأنصارى الدروقى ، روى عن أبى القاسم بن حبيش ، وأبى القاسم السهيلى ، واحمد بن ابراهيم الدروقى . وأما محمد بن عبد الله بن جوشن المقرىء النحوى ، فقد أخذ القراءات بسرقسطة عن أبى زيد ابن الورّاق ، وأبى جعفر بن الحكم ، وأخذ العربية عن أبى جعفر بن باق . وكان له معرفة بعلم الكلام ، ومشاركة فى الطب ، وكانت وفاته سنة ٥١٤ ، وهو دون الأربعين ، هذا ماقرأناه عنه ، وياقوت يقول : إن وفاته كانت سنة ٥١٢ .

ترول Teruel

وعلى مسافة ١٣١ كيلومتراً من قلعة أيوب ، إلى الجنوب ، بلدة « ترول » Teruel ، وسكانها ١٢ ألفاً ، وهى مركز جنوبى أراغون ، وموقعها على وادي الأبيار ، وفيها آثار أسوار من القرون الوسطى ، وفيها قناة معلقة ، وهى إلى الشرق من مملكة بلنسية القديمة ، ومنها يقطعون النهر الذى يقال له المجرّ ، وعليه جسر علوه ٤٢ متراً ، وفى تلك الناحية بلدة يقال لها « جريقة » Gérica ، وفى هذه البلدة آثار حصن عربى قديم استولى عليه جقُّوم الأول ، ملك أراغون سنة ١٢٣٥ ، والخط الحديدى ينحدر من هنالك إلى بسائط مملكة بلنسية القديمة ، وفى مقاطعة ترول هذه يضع الجغرافيون مدينة شنتمرية الشرق

شنتمرية ابن رزين(١)

جاء فى الأنسيكلوبيدية الأسلامية أن شنتمرية الشرق ، ويقال لها شنتمرية ابن رزين ، هى مدينة على نهر « تُريه » Turia الذى يقول له العرب وادى الأبيار المنحدر من مقاطعة ترول فى جنوبى أراغون . وقد ورد ذكر هذه البلدة فى تاريخ ابن عذارى ، عند كلامه على ذهاب أمير شنتمرية ، الذى هو ابن رزين من البربر ، وذلك إلى قرطبة ، لأجل حلف يمين الأمانة للخليفة عبد الرحمن الناصر . وقد سموا هذه البلدة شنتمرية ابن رزين ، ومنها جاء اسم « البراسين » الذى هو اليوم اسم تلك المقاطعة Albarracin ويقال لها شنتمرية الشرق ، تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب ، التى هى اليوم فى البرتغال ، ومركزها قريب من مرسى « فارو » Faro

جاء فى الانسيكلوبيدية المذكورة أنه بعد سقوط بنى أمية فى قرطبة ، ومجىء ملوك الطوائف ، استقل بشنتمرية الشرق أبو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين ، ثم جاء بعده أخوه أبو مروان عبد الملك بن خلف ، ثم خلفه ابنه أبو محمد هذيل الثانى

(١) Albarrazin

الملقب بعز الدولة ، وجاء بعده ابنه أبو مروان عبد الملك الثانى الملقب بحسام الدولة ، وذلك سنة ٤٩٦ للهجرة ، وفق ١١٠٢ للميلاد . وفى سنة ١٠٨٧ انضم ابن رزين إلى القمبيذور الملقب بالسيد ، وزحف معه لحصار بلنسية سنة ١٠٩٤ ثم إن شنتمرية ابن رزين انتهى أمرها باستيلاء الدون بتره رويز الصخرة Ruiz de Azagra عليها ، فخرجت من يد الاسلام ، وفى سنة ١٢٣١ اندمجت فى مملكة أراغون . انتهى .

وقد اطلعنا على ذيل لكتاب « البيان المُغْرِب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » لأبي العباس بن عذارى المراكشي طبعه الأستاذ لاوى بروفنسال مع الجزء الثالث من كتاب ابن عذارى ، وفيه نُتف من أخبار ملوك الطوائف . ومن الجملة ذكر دولة بني رزين هؤلاء . قال الكاتب : ذكر دولة بنى رزين ملوك شنتمرية الشرق ، وهى مدينة عظيمة فى شرق الأندلس ، و يعرفون ببنى الأصلع ، لما اشتعلت الفتنة بالأندلس فى ثورة ابن عبد الجبار ، وثار كل رئيس بموضع ، ثار ابن الأصلع بشنتمرية و يقال لها السهلة ، واسمه هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربرى ، وكنيته أبو محمد ، بويع له بها سنة ثلاث وأربعمائة ، وكان من أكابر ناس الثغر ، وكان بارع الجمال ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، ظاهر المروءة ، لم يُرَ فى الأمراء أبهى منه منظراً مع طلاقة لسانه ، و إدراك حوائجه ببيانه ، وكان أرفع الملوك همة فى اكتساب الآلات ، واقتناء القينات ، اشترى جارية الطبيب أبى عبدالله الكنانى بثلاثة آلاف دينار .

قال ابن حيّان فى تاريخه : لم يُرَ فى زمانها أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ولا ألين أعطافا ، ولا أطيب صوتا ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا خطاً ، ولا أبدع أدبا ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغِنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب ، وعلم الطبائع ، ومعرفة التشريح ، وغير ذلك مما يقصّر عنه علماء الزمان . وكانت محسنة فى صناعة الثقاف ، والمجاولة بالتراس واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة ، لم يُسمع لها فى ذلك بنظير ولا مثل ولا عديل [1]

(١) هذه المرأة هى ريحانه وقهرمانة معاً

ثم إن الأمير هذيل اشترى كثيراً من الجوارى الحسنات المشهورات بالتجويد ، طلبهن فى كل جهة ، فكانت ستارته أحسن ستائر ملوك الأندلس . وكان مع هذه الأوصاف كنفاً للقصاد ، ومنهلاً عذباً معيناً للورّاد ، سهل المأخذ ، لم يزل على أحسن حالاته إلى أن أدركته منيته ، فمات بالسهلة ، سنة ست وثلاثين وأربعمائة . فكانت دولته ثلاثا وثلاثين سنة كلها آمنة هادنة

وولّى بعده ابنه عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ، بويع له يوم موت أبيه سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وكان فى أيام أبيه يسمى حسام الدولة ، وكان بالعكس من أبيه . قال ابن حيان : وكان سيئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلاً لا متجاهلاً ، وخاملاً لا متخاملا ، قليل النباهة ، شديد الإعجاب بنفسه، بعيد الذهبة بأمره ، زاريا على أهل عصره ، إن ذُكرت الخيل فزيدها ، أو الدهاة فسعدها وسعيدها ، أو الشعراء فجرولها وأسيدها ، أو الأمراء فزيادها ويزيدها ، أو الكتاب فبديع همذان ، أوالخطابة فقس وسحبان ، أو النقد فقدامة ، والعلم ليس منه ولا كرامة، خلىّ من المعارف ، وشعره أهتف من كل هاتف ، ومنه قوله الذى هو جسم بلا روح ، وليل بلا صبوح :

أدِرْها مُداماً كالغزالة مزّة   تَلينُ لرائيها وتأبى عن اللمس
وتَبْدُو إلى الأبصار دونَ تجسمٍ   على أنها أشفَى على الذهن والحسّ

وقوله أيضاً :

يارُبّ ليل أطال الهجْرُ مدّتَهُ   فأيأسَ العُمرَ من إدراكِ مُنتصَفه
ليلٌ تطاولَ حتى ما تبيّنَ لى   عندَ التأمُّل أن الدهرَ من سُدَفهِ

وقوله :

أنا مَلِكٌ تجمعتْ فىّ خمسٌ   هى للأنام مُحْيي مُميتُ
هى ذِهْنٌ وحِكْمةٌ ومَضاء   وكلامٌ فى وقتهِ وسكوتُ

إلى غير هذا من سخفه ، انتهى كلام ابن حيان . ومن لعمرى لايوافقه عليه ؟

وذكره الفتح بن خاقان فى كتابه « قلائد العقيان » فأثنى عليه بما ليس فيه من المحاسن ، ووصفه بصفات ليس هو بأهل لها ، ثم قال بعدها : إلا أنه كان يتشطط على ندامة ، ولا يرتبط فى مجلس مدامة ، فربما عاد إنعامه بوساً ، وانقلب ابتسامه عبوساً ، فلم تتم معه سلوة ، ولا فقدت فى ميدانه كبوة ، وقليلا ما كان يقيل ، ولا يناجى المذنب عنده إلا الحسام الصقيل

ففُهم من هذا الوصف هوره وحماقته ، وسرعته إلى القتل . ولم يزل على ذلك من أفعاله إلى أن مات بحصن السهلة ، غدوة الاثنين التاسع من شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة ، فكانت دولته ستين سنة . انتهى .

قلنا : فما كان أصبر رعيته على نار هذه المحنة ، التي استمرت ستين سنة ! ثم جاء فى هذا الذيل ذكر ولده يحيى بن عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ، بويع له يوم موت أبيه ، بعهده ووصيته ، وسلك فى التخلف مسلك أبيه ، مدمناً للخمر ، مكثراً من الغثيان ، ضعيف العقل ؛ ومن ضعف عقله أن الفنش (يعنى به الأذفونش السادس) لما أخذ الثغور وتملكها ، أهدى إليه كل ملك من ملوك الطوائف الهدايا الجليلة ، فلم يلتفت إلى أحد منهم ، ولا كافأه على هديته . فأهدى إليه حسام الدولة يحيى هذا هدية جليلة ، من الحلى والحلل ، والخيل والبغال ، وتحف الملوك ، يعجز عنها الوصف ، فأعجب الفونش هديته ، فكافأه عليها بقرد . فكان من ضعف عقله يفخر بذلك القرد على ملوك الأندلس . فانظر إلى هذا السخف وهذا الخذلان ! ولم يزل على سخفه وخذلانه إلى أن خلعه المرابطون يوم الاثنين الثامن من رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، فكانت دولته سنة واحدة . وانقرضت دولتهم اهـ

ولما كانت شنتمرية ابن رزين معمورة بالعرب ، خرج منها عدد من أهل العلم لأنهم أينما حلوا كانوا يقيمون سوق المعارف على ساقها

من نبغ من أهل العلم فى شنتمرية ابن رزين

أبو عيسى لب بن عبد الجبار بن عبد الرحمن يعرف بابن ورهزن ، سمع من أبيه ومن القاضى أبى بكر بن العربى، لقيه بكولية من الثغور الشرقية حين غزاها مع الأمير أبى بكر بن على بن يوسف بن تاشفين فى جمادى الآخرة سنة ٥٢٢ ، وسمع أيضاً من أبى مروان بن غردَي ، وولى الأحكام بشاطبة ، ثم ولى قضاء بلدة شنتمرية بآخرة من عمره مضافة إلى البونت من أعمال بلنسية . وتوفى سنة ٥٣٨ وقد نيف على الستين . ترجمه ابن الأبار فى التكملة . وأبو عيسى لب بن عبد الملك بن احمد بن محمد بن نذير الفهرى من أهل شنتمرية الشرق ، سكن بلنسيه ، روى عن أبيه أبى مروان ، وتولى قضاء بلده وراثة عن أبيه ، ثم سُعى به إلى السلطان فغربه عن وطنه وأسكنه حضرته بلنسية إلى أن توفى بها بعد سنة ٥٤٠ ، حدَّث عنه ابنه أبو المطاء وهب بن لب . وأبوعبد الله محمد بن مسعود بن خلف بن عثمان العبدرى من شنتمرية الشرق ، سكن مرسية ورحل حاجاً ، وسمع من أبى على الصدفى . وأبو مروان عبدالملك بن احمد بن محمد بن نذير بن وهب بن نذير الفهرى ، سمع ببلدة شنتمرية الشرق من أبيه ،و بمدينة سالم من أبى الحسن على بن الحسن صاحب الصلاة فيها ، وتولى القضاء ببلده ، وتوفى بعد التسعين والأر بعمائة . وأبو الوكيل عبد الجبار بن عبد الرحمن بن ورهون من أهل شنتمرية الشرق وقاضيها ، روى عن أبى مروان بن نذير فى شنتمرية سنة ٤٨٩ . وأبو مروان عبدالملك بن عبد العزيز بن فيروه بن وهب بن غردَى من أهل مرسية، أصله من شنتمرية الشرق ، له رحلة إلى المشرق ، ذكر ابن بشكوال أنه توفى سنة ٤٢٥ ، وأبو مروان عبد الملك بن مسرّة بن فرج بن خلف بن عزير اليحصبى من أهل قرطبة ، أصله من شنتمرية الشرق ، ومن مفاخرها وأعلامها ، اختص بالقاضى أبى الوليد بن رشد وجمع بين الحديث والفقه ، وكان على منهاج السلف الصالح ، وتوفى سنة ٥٥٢

وأبو الخيار مسعود بن عثمان بن خلف العبدرى ، والد أبى عبدالله محمد بن مسعود ابن عثمان العبدرى . وأبو جعفر احمد بن بقاء بن مروان بن نميل اليحصبى ، من أهل

شنتمرية الشرق، نزل مرسية ، وتوفى سنة ٥٤٤ . وأبو العطاء وهب بن لب بن عبد الملك ابن احمد بن محمد بن وهب بن نذير الفهرى من شنتمرية الشرق ، سكن بلنسية ، وتولى قضاءها مع الخطابة ، وتوفى سنة ٥٩٥ ، ترجمه ابن الأبار ، وترجم والده أبا عيسى لب بن عبد الملك . وأبو عبد الله محمد بن وهب بن نذير بن وهب بن نذير الفهرى ، له ولأهل بيته نباهة ، و بسماع العلم عناية ، توفى صفر سنة ٤٣٣ قاله ابن الأبار .

ثم إن ابن عذارى فى البيان المغرب فى أخبار بنى رزين ، بدأ بذكر أبى مروان عبد الملك الملقب بحسام الدولة ، فنقل عن ابن حيسان ما يلى : كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين ، المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة ، موسطة مابين الثغر الأقصى والأدنى من قرطبة ، فانه كان من أكابر برابر الثغر ، ورث ذلك عن سلفه ، ثم سما لأول الفتنة (أى فتنة قرطبة الكبرى) إلى اقتطاع عمله ، والأمارة لجماعته ، والتقيل لجاره اسماعيل بن ذى النون ، فى الشروع عن سلطان قرطبة . فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره من جميع من انتزى في الأطراف ، شرقاً وغرباً ، وقبلة وجوفاً . إلا أن هُذيلا هذا مع تمرزه على المخلوع هشام (أى ابن الحكم المستنصر) لم يخرج عن طاعته ، ولا وافق الحاجب منذراً ، ولا جماعة المتمالئين على هشام ، فى شأن سليمان عدوّه (سليمان بن الحكم بن الناصر ، وكان يسمى بالمستعين) ، إلى أن ظفر بهشام ، فسلك هذيل مسلكه ، فرضى منه سليمان بذلك ، وعقد له على مافى يده هنالك لعجزه عنه ، فزاده ذلك بعاداً معه ، وتمرّس به الحاجب منذر بن يحيى ، مدرجاً له فى طى من استعمله ، واشتمل عليه من سائر أمراء الثغر النازلين فى ضِبنه ، فأبت له نفسه الخنوع له ، والانضمام إليه ، فردّ أمره وحادّه ، وأجاره منعة معقله ، وظاهر أعداء منذر ، حتى حالف الموالى العامريين ، واستمر معهم على دعوة هشام المخلوع . وقطع دعوة سليمان . وكانت واقية الله له كونه موسطة الثغر ، فصار ذلك أردّ الأشياء عنه ، فسلم من معرّة الفتنة أكثر وقته ، وتخطته الحوادث لقوة سمده ، واقتصر مع ذلك على ضبط بلده ، المرسوم بولاية عهده ، وترك التجاوز لحده ، والامتداد إلى شىء

من ولاية غيره ، فاستقام أمره ، وعمر بلده ، وقطع بعد جمهور الثوار بالأندلس شأو الحياة .

وليس فى بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بنى رزين سلفه فى اتصال عمارتها . فكثر ماله ، إذ ناغى جاره وشبيهه فى جمع المال ، اسماعيل بن ذى النون ، ونافسه فى خلال البخل ، وفرط القسوة . وكان مع ذلك شاباً جميل الوجه حامى الأنف ، غليظ العقاب ، جباراً ، مستكبراً ، صار اليه أمر والده منبعث الفتنة ، وهو فتى فى العشرين من سنه ، فأنجده الصباء على الجهالة ، وقواه الشباب على البطالة ، فبعُد فى الشرور شأوه ، فلم يحالف أحداً من الأمراء على أداء الأتاوة ، ولاحظى أمراء الفتنة منه بسوى إقامة الدعوة فقط ، دون معونةٍ بدرهم ، ولا إمداد بفارس ، ولا شارك الجماعة فى حلوٍ ولا مر ، على كثرة ماطرق الحضرة من خطوب دهم ، استخفت البطاء ، وقربت البعداء ، فضلا عن الأولياء ، إلاّ ما كان من هذه الحية الصماء ، فانه لم يزل على تصامهٍ عن كل نداء ، إلى أن مضى لسبيله ، والأخبار متتابعة عن جهله وفظاظته ، حتى زعموا أنه سطا بوالدته ، وتولى قتلها بيده ، لتهمة لحقتها عنده ، وكانت أشنع ما كان من كبائره .

ثم ذكر ابن حيان ما تقدم نقله عن هذيل هذا من مغالاته فى شراء القيان [1]

---

(١) وفى نسخة أخرى من كتاب ابن عذارى ورد عند ذكره شراء هذيل بن رزين جارية ابن عبدالله المتطبب بثلاثة آلاف دينار قوله : لم ير أخف روحا منها ولا أملح حركة ولا أليق إشارة ولا أطيب غناء ولا أجود كتابة ولا أملح خطاً ولا أبدع أدبا ولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسنه وتدعيه مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه إلى الشروع فى علم صالح من الطب ينبسط بها القول فى المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه أكثر منتحلى الصناعة ، إلى حركة بديعة فى معالجة صناعة الثقاف والمجاولة بالحجفة واللعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرهفة وغير ذلك من أنواع اللعب المطاربة ، لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ، وابتاع إليها كثيراً من المحسنات المشهورات بالتجويد ، طلبهن فى كل جهة ، فكانت ستارته فى ذلك أرفع ستائر

ثم ذكر ابن عذارى عن حسام الدولة أبى مروان ابنه خلاف ما جاء فى الذيل المتقدم ذكره ، فانه قال عنه : كان له طبع يدعوه فيجيب ، و يرمى بغرّة الصواب عن قوسه فيصيب ، على ازدراء كان منه بالأمة ، وقلة استجداء لمن عُنى بالأخذ عنه من الائمة ، وربما جالسهم مباحثاً ، بين مغالطة وأنفة ، و بالجملة فلو جرى ذو الرئاستين على عفوه ، ابلغ منتهى شأوه . قال : وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره :

يارُبّ ليلٍ أطال الهجر مدته الخ . وقد تقدم هذان البيتان

ولنعد إلى قلعة أيوب متوجهين صوب سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى فنقول :

إن الخط الحديدى يمر بينها و بين سرقسطة على ثمانية جسور ، معقوداً أكثرها على نهر شالون ، وهو يخترق أحشاء جبال بيكور[١] ، و إن منظر ضفاف نهر شالون هو من أبدع مناظر الاندلس ، بما فيه من خضرة ناضرة ، وجنان زاهرة ، تحاذى القفار اليابسة التى بأزائها ، أشبه شىء بغوطة دمشق ، بحذاء جبل الصالحية الموجود ، ولا تزال القرى والقصاب منتظمة بلبّة نهر شالون الى أن تبلغ سرقسطة ، ومن جملتها بلدة « كالاتوراو »[٢] وهى مدينة قديمة رومانية ، حصنها العرب وأقاموا بها ، و بالقرب منها بلدة « ساليلاس »[٣] وفيها بيوت منحوتة فى الجبل ، ثم بلدة أبيلة ، ولعلها التى يقول لها العرب ابلة ، من عمل سرقسطة ، وهى بحذاء سلسلة جبال يقال لها شارات « مولا »[٤] و بحذاء تلك الجبال بلدة « روطة » وفيها حصن قديم من بناء العرب . قال ياقوت فى معجم البلدان : روطة بضم أوله وسكون ثانيه وطاء مهملة : حصن من أعمال سرقسطة بالأندلس ، وهو حصين جداً على وادى شلون . ثم بلدة يقال لها « بلازنسيا » على شالون ، ثم « كازيتاس » على مقربة من سرقسطة . وعلى

الملوك بالاندلس . وحدثت عنه أنه اجتمع عنده مائة وخمسون حظية ، ومن الصقلب المجابيب (الخصيان) ستون وصيفاً لم تجتمع عند أحد من نظرائه . قلت : قوله كانت ستارته أرفع ستائر الملوك بالاندلس معناه كان حرمه أرفع حرم الملوك بالاندلس

(١) Seirra de Vicor (٢) Calatorao أو قلعة أوراو

(٣) Salillas (٤) Muela

مسافة ٣٤١ كيلو مترا من مجريط تقع مدينة سرقسطة عاصمة مملكة أراغون فى القديم، ومركز ولاية أراغون اليوم .

وقبل أن ندخل فى مبحث أراغون وسرقسطة ، نرى مناسباً أن نتكلم عن :

سلسلة جبال البرانس Pirénées

هذه هي الجبال الفاصلة بين فرنسة واسبانية . ولما انتخب الأسبان حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسة ملكا عليهم قال له جده : ياولدى لم يبق برانس . وذلك إشارة إلى أن هذه الجبال هى الحد الحاجز بين المملكتين .

وهى ممتدة من البحر المتوسط الى البحر الاطلانطيكى ، و بدايتها من جهة البحر المتوسط رأس « كريّوس » Créus فى أرض اسبانية ، وهو متصل « برأس سربار » Cerbére من أرض فرنسة شمالى مرسى « بو » Port - Bou ونهايتها عند الاطلانتيكى نهر « بيداسوا » Bidassoua الذى يصب ماؤه فى خليج غشقونية Gascogne وفي وسط هذا النهر جزيرة الحجال التى اصطلحت المملكتان أن تجعلها منطقة متحايدة بينهما .

عرض هذه الجبال هو من الغرب ٣٠ و ٤٢ إلى ٢٠ و ٤٣ ، ومن الشرق من ٢٠ و ٤١ إلى ٤٣ ، فهى مائلة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى . وكلما تقدمت نحو البحر الرومى يزداد عرضها . وثخانة هذه السلسلة الجبلية هى ٥٥٣٨٠ كيلو متراً مربعاً ، من أصلها ٣٨٥٦٥ كيلو مترا مربعاً فى المنحدر الأسبانيولى ، و ١٦٨١٥ فى المنحدر الافرنسى ، فمنها إذا الثلثان فى أرض أسبانية ، والثلث فى أرض فرنسة . وهذه السلسلة حفظت فى الجنوب هيئتها الأصلية أكثر مما حفظت فى الشمال ، وذلك بسبب كون الجنوب أصفى أفقا ، وأكثر شعاع شمس ، بحيث إن المياه تتبخر فيه بسرعة . فأما فى الشمال فالرطوبة الزائدة ، والرياح الشديدة الهابة من الشمال ، أحدثت فى هذه الجبال بكرور الدهارير تغييرات عظيمة . وكثيرا ما تبددت النجود لاحقة بالسهول . ويزداد هذا التفكك فى البرانس الشمالية ، كلما قربت من الأوقيانوس

وارتفاع البرانس يتدرج من المكان الذى يقال له « رون » Rhune وعلوه تسعمائة متر مقابلا للاوقيانوس إلى قمة « أنيتو » Anto ، وعلوها ٣٤٠٤ أمتار ، وهى أعلى قمة فى الجبال المسماة بالجبال الملعونة Maidits وفى جميع السلسلة . وهناك قمم أقل ارتفاعاً ، مثل قمة « آنى » Anie التى علوها ٢٥٠٤ أمتار ، وقمة «أوساو»Ossau وعلوها ٢٨٨٥ متراً ، وقمة « بَلاَيطُس » Balaitous وعلوها ٣١٤٦ متراً ، وذروة « فينمال » Vignemale ، وعلوها ٣٢٩٨ متراً ، وذروة الجبل الضائع Mont Perdiu وعلوها ٣٣٥٢ متراً ، وقنة « بوزانس » Posets وعلوها ٣٣٦٧ متراً

و إلى الشرق من الجبال الملعونة ، ومن قمة أنيتو ، تهبط الارتفاعات إلى ٢٧٥٨ متراً ، ولكن يبقى ارتفاع كبير لا يهبط ، فان جبل كانيغو Canigou المشرف على البحر المتوسط لا يقل ارتفاعه عن ٢٧٨٥ متراً

أما المعابر التى فى جبال البرانس ، والتى يقال لها عند العرب أنفسهم «البرتات» فهى تعلو بحسب علو الجبال ، وتكثر عقابها ، و يمر السائر فيها بكثير من مناسف الثلج . وفيها طرق معبدة أحيانا ، تمر عليها العربات إلا أنه يوجد أماكن ليست فيها طرق صالحة للعربات ، و إنما هى شعاب يصعب حتى على البغال العبور منها . ومن هذه المعابر أو البرتات ، معبر مركادو Marcadau ارتفاعه ٢٥٥٦ متراً ، وهو يفضى من المكان الذى يسمى كوتريه Cauterets إلى حمامات بانتيكوزه Panticosa التى علوها ١٦٧٣ متراً فى جوف نهر كالدارس Caldares وهو من الأنهر التى تنصب فى جلّق ، نهر سرقسطة . وقبل الوصول إلى بنتيكوزه يمر السائح ببحيرات ماشيماسة Machi Massa و يرى شلالا عظيما يقال له ليفازه Levaza ، وكثيراً ما يذهب السياح إلى هناك لمشاهدة جمال الطبيعة .

وكل شىء يراه الانسان هناك يراه صغيراً بالنظر لعظمة الجبال الشماء ، فالبشر أشبه بالنمل ، والمبانى التى لو كانت فى أماكن أخرى لكانت شاهقة ، لا يكاد الرائى يبصرها . وفى أواسط جبال البرانس نقطة يقال لها غافارنى Gavarnie علوها ١٣٤٦

متراً ، منها ينفذون من مضيق يقال له مضيق رولان Brèche dé Roland علوه ٢٨٠٤ أمتار ، وهو مضيق وعر ، يمرون منه على مثلجة يقال لها تايون ، علوها ٣١٤٦ مترا ، ولكن هذه المثلجة لا تخلو من خطر ، لأنها أبداً تقذف بالصخور ، و بقطع الثلج الكبار ، وقد سبق هلاك المارة من هناك .

ومن المعابر المشهورة البورت المسمى فينسك Venasque علوه ٢٤٤٨ متراً ، ويذهبون إليه من لوشون ، وفي أيام الصيف تكثر القوافل المارة منه بالسياح أو بالتجار ، وهناك معبر يقال له اليرش La Peereche بين سردانية Cerdagne وكابسير Capcir وكانت تمر به بينهما طرق رومانية قديمة ، وعلوه ١٦٠٠ متر ، ثم معبر برتوس Perthus يفيض الناس منه على سهول أمبوردانية Ampurdan ومن هنا يقع المرور بين بار بينيان Perpignan في فرنسة ، وجيرونة Girona في أسبانية . وهذا المعبر هو البورت الأعظم ، والأقدم ، وطالما مرت به جيوش العرب في غزواتها للأرض الكبيرة

أما الحدود هناك بين فرنسة وأسبانية فلا تسبل عنها ، بل هي مما يصح أن يقال فيه : كيفما اتفق . فأية هيئة سياسية تقدر أن تسير أشهراً في تلك الجبال الشامخة في جوار المثالج الهائلة ، حتى تعين حدوداً معقولة بين المملكتين ؟ فلذلك تجد أنهارا أسبانيولية منابعها أفرنسية ، وأخرى أفرنسية منابعها أسبانيولية ، وترى كثيرا من الجبال والوهاد متشابكة بين فرنسة وأسبانية تشابكا فظيعاً . ولجميع أقسام أسبانية حظ من البرانس ، ولكن أوفرها حظا منها مملكة أراغون ؛ فان الجبل الضائع ، وجبل مالاديتا Maladeta ، هما أراغونيان . والفاصل بين برانس أراغون و برانس كتلونية واد يقال له ريباغورزانة Ribagorzana

أما الجبال المسماة بالجبال الملعونة ، فهي تابعة لبلاد أراغون ، وأعالى ذراها تبلغ ثلاثة آلاف متر ، فهي من شواهق جبال أوربة . ولو كانت هذه الجبال في آسية أو أميركا لما كانت بهذه الجلالة ، لأن جبال حملايا في آسية ترعى فيها الغنم إلى

ارتفاع ستة آلاف متر . وفى أميركا الجنوبية توجد بلاد مسكونة فى الجبال على ارتفاع أربعة آلاف متر . وفى جزيرة العرب تجد قرى وقصبات عامرة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر . فكوكبان من اليمن بلدة تعلو عن سطح البحر ثلاثة آلاف متر ، وصنعاء اليمن تعلو ٢٣٤٢ متراً . وصعدة مدينة تعلو ٢٢١٦ متراً ، والروضة ٢٣٠٦ أمتار . وتلا ٢٨٦١ مترا . وزمرمر ٢٦٩٨ متراً . وشبام ٢٦٣٥ مترا . وذمار ٢٤٣١ مترا . وبوعان ٢٩٣٦ مترا . وسوق الخميس ٢٣٧٢ متراً ، ومناخة ٢٣٢١ مترا . وعمران ٢٣٠٢ أمتار . وأبها من عسير ٢٢٧٥ مترا . وغامد من عسير ٢١١٠ أمتار .

والسبب فى كون ارتفاعات كهذه توجد عليها المساكن ، هو قربها من خط الاستواء[1] ، وعدم نزل الثلوج عليها إلا فى النادر الأندر . فلو كانت هذه الجبال فى سورية لما استطعت سكناها أصلا ، لأنها تكون مغمورة بالثلج أكثر أشهر السنة . هذا وإن غلظ جبال البيرانس هو أعظم من غلظ جبال الالب ، فمسافاتها بعيدة ، والسفر فيها متعذر جداً ، لعدم وجود مراكز يمكن استمداد الغذاء ولوازم المعيشة منها . فمن أراد أن يتوقل جبال البيرانس ، لزمه أن يحمل معه جميع اللوازم إلى مدة مديدة ، وليس هذا بالأمر السهل . ولهذا بقيت أكثر أراضى البيرانس مجهولة طول الدهر ، ولم يبدأ الناس أن يعرفوا عنها ما يجب العلم به إلا من خمسين سنة . وأعلى قمم الجبال الملعونة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى هى

(١) فى نفس اسبانية قد صعدت إلى ارتفاعات ٢٥٠٠ متر فى جبال غرناطة المشرفة على البحر المتوسط وذلك فى شهر اغسطس ، فوجدتنى كأننى أسير فى ارتفاعات لا تزيد على الف وثلاثمائة متر من سورية مثل عين صوفر مثلا ، ووجدت هناك قرى معمورة ونباتات لا تنبت عندنا فى الشام فى جبال بهذا العلو ، ونحن فى جبال الشام لا نعلم عمراناً دائما فى ارتفاع يزيد على ١٥٠٠ متر إذ لو زاد على ذلك لتعذر السكن فيه أيام الشتاء . والذى يلوح لى والله أعلم أن مهب الرياح الحارة الجنوبية من جهة القطب الجنوبى على جبال اسبانية وجبال أميركا هو الذى يخفف صقيعها ويجعل السكن فيها ممكناً على ارتفاعات لا تمكن السكنى عليها فى أماكن أخرى

قنة ألب ، علوها ٣١١٩ متراً ، وقنة روسّل Russel وعلوها ٣١٩٨ متراً . والقنة المسماة « مالديتا » علوها ٣٣١٢ متراً . وأكثرما يتراكم الثلج ويستمر هو فى نواحى قنة مالديتا . وأما القنة العليا على الجميع ، وهى أنيتو ، فان الثلج محيط بها من كل الجهات ، وقد وصل إليها السياح بشق الأنفس ، ومن جملتهم الكونت روسل Russel الذى كتب عن سياحته هذه تذكرة بديعة

أما الجبل الضائع فعلوه ٣٣٥٢ متراً ، ومكانه متوسط بين حرارة الجنوب ، وبرد الشمال ، وبين أشعة الشمس المحرقة من جهة أسبانية ، والضباب الكثيف المطبق من جهة فرنسة . وفى حذاء الجبل الضائع يوجد مزارع لفلاحى الأراغون ، ويبدأ العمران ، وهناك نهر يقال له « آرَه » Ara عليه بلدة يقال لها بروتو Broto وحولها قرى ، ويقال لهذه الناحية وادى بروتو ، وكلما انحدر الانسان من هناك يزداد العمران . وتجد قرى وقصابا ، وهناك مكان غربى شارة بارسيز Berciz يقال له « بارنكومسكون » Berranco de Mascum وفيه بلدة يقال لها القصر Alquézar وسواء كان القصر أو المسكون فلفظه عربى ، ولا تزال فى هذه البلدة آثار من زمن العرب ، وقد قرأت أنه فى القرن التاسع كان للعرب مسلحة فى هذه البلدة ، ومنها كانوا يحرسون معابر جبال البيرانس ، وكانوا قد جعلوا محارس على القمم المشرفة على تلك المعابر ، وهى أبراج ، كل برج منها يقابل أخاه ، فإذا أحسوا عدواً ، أوقدوا النيران من برج إلى برج ، فكانوا دائماً على حذر وأهبة . ومن هذه الابراج برج مديانو Mediano المشرف على وادى انترمون Entremon وأبراج أبيزنده Abizanda وارتازونه Artasona واستاديلاّ Estadilla على وادى الغرادُه Elgrado وأبراج أولفينا Olvena و بينابار Benabarre والساموره Alsamora وهى فى وادى « ريبا رغورزانه » المتقدم ذكرها ، وكانت على وادى بلار يزا Pallaresa قلاع للعرب لأن هؤلاء طاردوا الاسبانيول ، لأوائل الفتح ، إلى أن أقبعوهم فى الكهوف والمغاور . وسيأتيك خبر صخرة بيلاى التى آوى إليها بيلاى ، ولم يبق معه

سوى ثلاثين علجاً ، والاسبانيول يقولون لهذه الصخرة صخرة « كوفا دونقه » Covalouga وكان بطل آخر يسمى غرسى شيمينيس Garci - Jimenez قد لجأ بجماعة إلى أعالى بلاد أراغون ، فطاردهم عبدالرحمن الأموى ، وأرسل جيشاً ، فاستولى على بلدة جاقة Jaca واكتسح وادى أراغون ، ودمّر قصبة أنْسَه Ainsa عند ملتقى نهرى « آرَه » و « سِنْـكَه » .

ولكن إلى الغرب من جاقة ، فى برية عاصية ، اجتمع فلّ المشرّدين ، على رأسهم جوان اتارس Atares وكان من رفاق لذريق آخر من ملوك القوط ، وصار كل من انهزم ينضم إلى هؤلاء الشذاذ .

ثم زحف غرسى المذكور ومعه خمسمائة مقاتل ، فاجتاز وادى جلق الى وادى آرَه ، وهجم على العرب بغتة بقرب « أنسة » فهزمهم ، وانتعش بذلك أصحابه ، وبايعوه باسم ملك سوبرار به Sobrarbe وجعلوا أنسة قاعدة المملكة الجديدة . ولما كان عددهم قليلا لم يكونوا فى بادىء الأمر يجرءون على الخروج من جبالهم التى كانت تقاتل معهم ، ولكن بفتن العرب بعضهم مع بعض بصورة مستمرة ، كانت تلوح للاراغونيين كل يوم غرّة فينتهزونها ، وينحدرون إلى الأمام ، ويأخذون قلعة بعد قلعة ، ويدمرون حصناً بعد حصن ، إلى أن بلغوا مدينةوشقة Huesca ، وجعلوها قاعدة مملكة سو برار به ، ثم صارت بعد ذلك تسمى مملكة اراغون ، وكان استرجاع الاسبانيول لوشقة سنة ١٠٩٦ بعد حصار شهير قتل فيه ملك اراغون شانجة راميرس . وفى وشقة آثار قديمة كثيرة .

سرقسطة أو الثغر الأعلى وبنبلونة

Zaragoza او Saragosse و Pampelonne

قد تقدم لنا ذكر منبع وادى ابرُه ، وقول الناس إن أصله راشح من وادي « هيجار » حتى قالوا إنه اذا جرت سيول بسبب الزوابع اضطرب لها وتعكرماء هيجار يتعكر أيضاً ماء ابره . وعلى كل حال فابره يمده وادى « هيجار » ومنبع «رينوزة »، وهو حياة مملكة أراغون ، وقسم من كتلونية . وكلما تقدم إلى الشرق تنضم اليه أنهر من الشمال ومن اليمين ، ولا سيما الأنهر التى تأتيه من الشمال ، فهى ذات بال ، وينحدر الى أراغون من البيرانس مياه لا تحصى أنهارها .

ومن المدن المعدودة فى تلك الناحية مدينة بنبلونة [١] ، يقال إن الرومانيين

---

(١) مما ورد فى نفح الطيب عن الوقائع التى جرت فى بنبلونة قوله عن الامير عبد الرحمن الثانى الاموى ابن الحكم إنه سنة تسع وعشرين ومائتين بعث أبنه محمداً بالعساكر فتقدم إلى بنبلونة فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى (ثم جاء فى النفح عن بنبلونه) : وفى سنة سبع واربعين ومائتين أغزى محمد الى نواحى بنبلونة وصاحبها حينئذ غرسية بن « ونقه » ؟ وكان يظاهر اردن بن اذفنش فعاث فى نواحى بنبلونة ورجع وقد دوخها وفتح كثيرا من حصونها واسر فرتون ابن صاحبها فبقى أسيرا بقرطبة عشرين سنة . ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر بالعساكر الى نواحى ألبة والقلاع (قلنا ألبة هى Alava من بلاد البشكنس وأما القلاع فكان العرب يسمون بالقلاع أعالى بلاد اراغون ونبارة . انظر إلى كلام ياقوت عن منبع ابره) فعاثوا فيها ، وجمع لذريق للقائهم فلقيهم وانهزم ، وأثخن المسلمون فى المشركين بالقتل والأسر ، فكان فتحاً لا كفاء له . وفى سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب ، وفى السنة التى بعدها إلى بلاد بنبلونة فدوخها ورجع (ثم ذكر أيام عبد الرحمن الناصر ، فمن جملة كلامه عنه) : ووصل إلى سدته الملوك من أهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه (ثم قال) : غزا سنة ثمان وثلاثمائة

أحدثوها ، ثم استولى عليها القوط ، ثم العرب سنة ٧٣٨ ، ولكن العرب لم تطل مدة استيلائهم عليها ، قيل إنهم لم يلبثوا فيها إلا بضع عشرة سنة ، و إن النباريين استرجعوها ، ثم استغاثوا بشارلمان الذى جاء من فرنسة ، وحاصر سرقسطة ، فرده العرب عنها ، ففى أثناء رجوعه ، كان النباريون والبشكونس قد رأوا من جيشه ما أثار حفائظهم ، فكمنوا له فى الجبال وأوقعوا به .

ولاتزال بنبلونة[1] حافظة حصونها وآثارها القديمة ، وهى أهم مدينة فى تلك الجبال .

الى جليقية وملكها اردون بن اذفنش فاستنجد بالبشكنس والافرنجة وظاهره شانجة ابن فرويله صاحب بنبلونة أمير البشكنس فهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم . ثم غزا بنبلونه سنة اثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدو يحاذيه فى الجبال والاوعار ولم يظفر منه بشيء . ثم بعد مدة بلغه انتقاض طوطه ملكة البشكنس فغزاها فى بنبلونه ودوخ أرضها واستباحها . ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بنبلونه وردد عليها الغزوات ، وكان سنة اثنتين وعشرين غزا إلى بنبلونه فجاءته طوطة بطاعتها لابنها غرسية على بنبلونة . ثم عدل إلى ألبة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها اه

(١) قد زار هذه البلدة الاستاذ احمد زكي باشا المصرى العلامة المشهور رحمه الله ، وذلك سنة أوفدته الحكومة المصرية إلى المؤتمر العلمى الشرقى سنة ١٨٩٢ فبعد أن قام بسياحة فى اورية فكر بأن يزور بلاد الاندلس لرؤية آثار المسلمين فيها فجاءها من طريق ايرون الى فونترابية الى سانسيباستيان الى بنبلونة الى سرقسطة الخ . وذكر بنبلونة فى الصفحة ٣٨٣ من الطبعة الثانية من كتابه « السفر إلى المؤتمر » فقال : بنبلونة وتسمى فى قليل من كتابات العرب بنقلونه ، وقد حكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة فقط ، وهى أنظف مدينة رأيتها ، وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بالنور الكهربائى

وجاء ذكر بنبلونة فى صبح الأعشى هكذا : قال فى تقويم البلدان بفتح الياء المثناة من تحت وسكون النون وضم الباء الموحدة واللام ثم واوساكنة ونون مفتوحة وهاء فى الآخر ، وموقعها فى أوائل الاقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة والعرض أربع وأربعون درجة .

وموقعها على نهر آرغه Arag وتأتى بعدها مدينة جاقة ، وفيها أيضاً قلاع وحصون وأبراج . ومن تلك الجبال يخرج نهر جاّق Gallego الذى يمر بأراضى سرقسطة ، ويتصل بابرُه . فأما سرقسطة فهى على الضفة اليمنى من ابرُه ، ولها ربض على الضفة اليسرى منه . و يقال لهذا الربض الطاباس Altavas ، و بين البلدة والربض جسر حجر

وسرقسطة بلدة كبيرة سكانها يناهزون ١٢٠ ألف نسمة ، وفيها مدرسة جامعة ، ودار أسقفية ، وهى مركز قيادة جيش أراغون ، وضواحيها تشرب من القناة التى يقال لها القناة السلطانية التى شقها رجل يقال له بينياتلّى Pignatelli ، وله بسرقسطة تمثال . وكل من نهر هورفه Huerva وابرُه وجاق يمر بأرض سرقسطة . ومن سرقسطة يسرح النظر فى بسائط أراغون

وسرقسطة مدينة جيدة الهواء ، معتدلة لا يشتد الحر فيها ولا البرد . ومنها قسم جديد ، وقسم لا يزال على قدمه . وكان العرب يبالغون بمحاسنها ، وقد مر بنا قولهم إن الحيّات لا تعيش فيها ، و إنه إذا جيء إليها بأفعى لا يلبث أن يموت حالا . وقالوا إن الفواكه فيها تبقى مدة طويلة ولا تتعفن ، ولكننا لم نجد لها هذه الأوصاف فى كتب الافرنج . وفيها من الكنائس الشيء الكثير ، وأعظمها كنيسة سِيئُو Seo قد بنيت على أنقاض المسجد الأعظم الذى كان للمسلمين ، و يقال إن بانى هذا

قال فى تقويم البلدان : وهى مدينة فى غرب الاندلس خلف جبل الشارة . قال : وهى قاعدة النبرى احد ملوك الفرنج و تعرف هذه المملكة بمملكة نبرة بفتح النون و تشديد الباء الموحدة المفتوحة وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر ، وهى مملكة فاصلة بين مملكتى قشتالة و برشلونة وهى مما يلى قشتالة من جهة الشرق . انتهى

قلنا : إن هذه المملكة هى نبارة Navarra وكونها فاصلة بين مملكتى قشتالة و برشلونة هو صحيح ، ولكن قوله إنها فى غرب الاندلس فليس بصحيح لأنها فى شمالى الاندلس أو فى جوفيها على قول الاندلسيين . ثم إن البلدة بنبلونة يبدأ اسمها بالباء وهو هكذا عندالافرنج ، وفى تقويم البلدان يبدأ الاسم بالياء وهو خلاف الصحيح ، وقد كان يمكن الظن بأن الباء انقلبت ياء بخطأ فى النسخ ولكنه يصرح بقوله « الياء المثناة »

المسجد هو التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى رضى الله عنه ، و إنه توفى سنة ١٠٠ للهجرة ، ودفن مع أحد أصحابه بازاء المحراب . ثم إن هذا المسجد ضاق عن جماعة المسلمين ، فوسعوه سنة ٢٤٢ ، فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى . ولما استرجع النصارى سرقسطة هدموا المسجد ، ولم يبقوا من بنائه إلا القليل ، و بنوا الكنيسة العظمى سيو على مقتضى الفن القوطى ، وأتقنوا بناءها إلى النهاية . ومن الغريب أن فيها رواقا من النحاس الأصفر ، هو أبدع شىء فيها ، قد رأيته عندمازرت سرقسطة ، وشاهدت هذه الكنيسة . والبنّاء الذى بنى هذا الرواق هو مهندس عربى اسمه الرامى Alrami ، صنعه سنة ١٤٩٨ على مافى دليل بديكر

وفى هذه الكنيسة قبر فرنندو حفيد الملك فرديناند الكاثوليكى . والكنيسة و إن كانت على طرز البناء القوطى ، ففيها كثير من الزليج والصنعة العربية ، وذلك أن سرقسطة لاتزال حافظة مسحة عربية قوية ، كان السبب فيها أنه لما تغلب أهل أراغون على العرب ، وأخرجوهم من سرقسطة ، بقى كثير من صناع العرب ساكنين فى المدينة لأجل أسباب معيشتهم ، وكانت لهم علاقات وطيدة مع المسيحيين من أهل سرقسطة . وكذلك بقى فيها اليهود الذين كانت ثقافتهم عربية ، فلم يبرحوا المدينة . ثم لما استولى فرديناند وايزابلا على غرناطة ، وضيّقوا على مسلمى الجنوب ذلك التضييق الفاحش ، لم يجدوا لزوماً لمثل هذا التضييق فى الجهات الشمالية ، حيث المسلمون مبعثرون فى مدن متعددة ، ولم تكن لهم أدنى قوة سياسية هناك ، فمن أجل هذا بقى مسلمون كثيرون ، و يهود كثيرون ، فى سرقسطة و برشلونة . وكان منهم صناع كثيرون متمسكون بتقاليدهم الشرقية . وكانت لهم آثار كثيرة لا تزال محفوظة إلى الآن . ومن أهم هذه الآثار هو حائط القرميد الذى فى كنيسة السيو ، وكذلك برج الساعة الذى بنى فى زمن الملك فرديناند ، وثبت نحواً من أربعمائة سنة ، ثم تداعى إلى الخراب ، فهدموه خوفاً من خطر سقوطه [1] وهناك برج آخر لكنيسة سان ميشال

(١) قال أحمد زكى باشا فى كتابه «السفر إلى المؤتمر» : وقد زرت جميع آثار سرقسطة

المعروفة بسان ميشال النبار يين ، فهو أيضاً مصنوع بالقرميد والزليج . وقبة الجرس فى كنيسة المجدلية أصلها منارة جامع ، وهى مزينة بالزليج والفُسَيفِسَاء

ومن مبانى العرب المشهورة فى سرقسطة ، المحفوظ منها جانب إلى اليوم ، قصر الجعفرية ، شرقى البلدة ، على ضفة ابرُه . وهو الآن ثكنة عسكرية . قرأت فى دليل بديكر أن بانيه هو أبو جعفر أحمد ، بناه فى القرن الحادى عشر للمسيح ، ولم أطلع على ترجمة لأبى جعفر أحمد هذا ، ويغلب على ظنى أن بانى هذا القصر هو المقتدر بالله بن هود ، ملك سرقسطة ، وقد كان يكنى بأبي جعفر فقيل لقصره : الجعفرية ، نسبة إليه . وكذلك كان يقال للمستعين الثانى ابن هود « أبو جعفر »

وقد زرت هذا القصر فى شهر يونيو سنة ١٩٣٠ ، فلم أجد فيه من آثار العرب المحفوظة سوى جامع صغير ومقصورة . وفي هذا القصر الغرفة التى ولدت فيها سنة ١٢٧٠ القديسة اليصابات ملكة البرتغال . و بالاختصار فمن جهة الصنعة تتلاقى فى سرقسطة أوربة وآسية . وفى قصر الجعفرية مثال بارز لهذا الأمر . وقد كان ملوك أراغون بعد أن استولوا على سرقسطة ، جعلوا إقامتهم فى هذا القصر ، ثم صار مركزاً لديوان التفتيش . وسنة ١٨٠٩ فى أثناء الحرب بين الفرنسيس والاسبانيول ، تهدم الجانب الأعظم من الجعفرية ، ثم رمموه ، وجعلوه ثكنة للعساكر .

العربية وغير العربية ، وصعدت الى قمة البرج المائل ، وهو من صنع العرب المرتدين ، وقد شرع القوم فى تقويض دعائمه خوفا من سقوطه اه . قلنا : إن هذا البرج هو من بناء العرب المدجنين ، وكان يقال له البرج الجديد ، ويظهر أنه دخل عليه وهن من أساسه ، فصار مائلا ، وخافوا من سقوطه فهدموه . وليس العرب المدجنون فى الحقيقة من المرتدين ، وإنما أكرهوا على عدم اظهار شعائر الاسلام . وكان يقال لهم المدجنون وهى لفظة تفيد الاقامة والاستئناس فى المكان ، ومنه الحيوانات الداجنة ، أى التى تألف البيوت ، ووجه المناسبة أنهم أقاموا تحت حكم النصارى ودجنوا . وقد حرف الاسبانيول لفظة مدجن الى مدجر Mudjar وصار يقال عندهم لفن البناء العربى ، ولكل شىء عربى ، « مدجر » ولما كانوا يقلبون الجيم خاء صارت فيما بعد « مدخر » فكنا فى « المدجن » وانتهينا الى « المدخر »

ومن المباني المشهورة فى سرقسطة كنيسة سيدة بيلار Pilar وهى الكنيسة الثانية بعد كنيسة السيو فى تلك البلدة ، وقبابها مزخرفة بالزليج العربى ، وفيها العمود الذى يزعمون أنه تجلت عليه السيدة العذراء للحوارى يعقوب ، عند ما كان ذاهباً إلى شنت ياقب ، وفى هذه الكنيسة من الصنعة والزخرف ، وفى خزانتها من الكنوز ما يعجز القلم عن وصفه . وهناك كنيسة ثالثة شهيرة يقال لها سان بابلو ، ولها برج مبنى على الطرز العربى ، وفيه كثير من الزليج الأخضر والأبيض .

وفى سرقسطة حارات جديدة بشوارع واسعة ، على الطراز الحديث ، ولكن لايزال فيها أيضاً حارات قديمة ، ذات شوارع ضيقة ، وأما القناة الامبراطورية المشتقة من ابرُه فانما سميت بذلك نسبة للامبراطور شارلكان ، وكان الابتداء بشقها سنة ١٥٢٨ ، وهى تتبع الضفة اليمنى من ابره ، وطولها ٨٨ كيلو متراً .

و بساتين سرقسطة غاية فى البداعة ، فيها التين والزيتون واللوز والكرم وأصناف الفواكه ، وأما نهر جلق فأصل اسمه عند الاسبان غاليقو Gallego ولكن العرب قالوا له جلق لأنه كاسم دمشق التى يقال لها جلق . وجاء فى نفح الطيب أن موسى بن نصير لما وصل إلى سرقسطة وشرب من مائها ، استعذبه جداً ، وقال إنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسم النهر الذى منه هذا الماء ، فذكروا له اسمه ، فقال : إذاً هذا نهر جلق ، وهذه غوطة دمشق ، لأن البساتين التى تحدق بسرقسطة تشبه غوطة الشام

وجاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى عن سرقسطة ما يلى :

سرقسطة ، بفتح أوله وثانيه ، ثم قاف مضمومة ، وسين مهملة ساكنة ، وطاء مهملة : بلدة مشهورة بالاندلس ، تتصل أعمالها بأعمال تطيلة ، ذات فواكه عذبة ، لها فضل على سائر فواكه الأندلس ، مبنية على نهر كبير ، وهو نهر منبعث من جبال القلاع ، وقد انفردت بصنعة السمور ، ولطف تدبيره ، يقوم فى طرزها بكمالها ، منفرداً بالنسج فى منوالها ، وهى الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية . هذه خصوصية لأهل

هذا الصقع . وهذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو ، ولا أى شىء يعنى به : إن كان نباتاً عندهم ، أو وبَرَ الدابة المعروفة ؟ فان كانت الدابة المعروفة فيقال لها الجندبادستر أيضاً ، وهى دابة تكون فى البحر ، وتخرج إلى البر وعندها قوة ميز . وقال الأطباء : الجندبادستر حيوان يكون فى بحر الروم ، ولا يحتاج منه إلا الى خصاه ، فيخرج ذلك الحيوان من البحر ، ويسرح فى البر ، فيؤخذ ويقطع منه خصاه ، ويطلق ، فربما عرض له الصيادون مرة أخرى ، فاذا علم أنهم ماسكوه ، استلقى على ظهره ، وفرّج بين فخذيه ، ليريهم موضع خصيته خالياً ، فيتركونه حينئذ .

وفى سرقسطة معدن الملح الذرّانى ، وهو أبيض صافى اللون ، أملس خالص ، ولا يكون فى غيرها من بلاد الأندلس .

قال : ولها مدن ومعاقل ، وهى الآن بيد الافرنج ، صارت بأيديهم منذ سنة ٥١٢ انتهى .

ثم ذكر من ينسب الى سرقسطة من العلماء ، وسنأتى على هذا البحث . وقد تقدم فيما نقلناه عن نفح الطيب ماذكره العرب من مزايا هذه المدينة ، وقالوا إنها هى أم تلك الكورة التى يقال لها الثغر الأعلى ، وكانت تسمى بالبيضاء . ونقلوا عن الحجاري فى كتابه « المسهب » أن السمّور الذى يعمل من وبَره الفراء الرفيعة ، يوجد فى البحر المحيط بالأندلس ، من جهة جزيرة برطانية ، ويجلب إلى سرقسطة ويصنع بها . جاء فى نفح الطيب : ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذى يصنع بقرطبة قال : هذا السمور المذكور هنا لم أتحقق ماهو ، ولا ما عنى به إن كان هو نباتا عندهم ، أوبر الدابة المعروفة ، فان كانت الدابة المعروفة ، فهى دابة تكون فى البحر ، وتخرج إلى البر ، وعندها قوه ميز . وقال حامد بن سمحون الطبيب ، صاحب كتاب « الأدوية المفردة » : هو حيوان يكون فى بحرالروم ، ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه ، فيخرج الحيوان من البحر فى البر ، فيؤخذ ، وتقطع خصاه ويطلق ، فربما عرض للقناصين مرة أخرى ، فاذا أحس بهم ، وخشى أن لا يفوتهم ، استلقى

على ظهره ، وفرّج بين فخذيه ، ليُرى موضع خصيته خالياً ، فاذا رآه القناصون كذلك تركوه . قال ابن غالب : و يسمى هذا الحيوان أيضا الجند بادستر ، والدواء الذى يصنع من خصييه هو من الأدوية الرفيعة ، ومنافعه كثيرة . الخ

قلنا : أنت ترى أن هذه العبارات هى عبارات ابن غالب فى وصف هذا الحيوان ، وهو الذى قال : وهذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو ، ولا أى شىء يُعْنى به . والحال أن ياقوت الحموى يذكر هذه العبارة بدون أن يرويها عن ابن غالب ، بل يسوقها كأنها منه ، و إنما تصرّف فى بعض جملها ، وزاد ونقص . و بدلا من قول ابن سعيد : قال حامد بن سمحون الطبيب ، جعل : قال الأطباء . فأخل ياقوت هنا بأمانة النقل

وأما أن سرقسطة لا تدخلها عقرب ولا حية ، و إذا جىء إليها بشىء من ذلك مات لحينه ، وأن القمح فيها لا يتعفن ولو بقى مائة سنة ، وأن العنب يؤكل فيها ولو تعلق ستة أعوام ، وأنه لا يسوس فيها الخشب ، ولا يدخل العث على أثوابها ، صوفا كانت أو حريراً أو كتانا ، إلى غير ذلك مما جاء فى كتب العرب ، فلم أجد شيئا من هذه الأوصاف فى كتابات الاوربيين عن سرقسطة . وسألت عن ذلك بعض أدباء الأسبانيول فلم يجيبونى بأجوبة شافية

وجاء فى الانسيكلوبيدية الاسلامية ماملخصه : سرقسطة مدينة من أسبانية ، هى مركز مقاطعة سرقسطة اليوم ، وقاعدة مملكة اراغون فى القديم ، واقعة على يمين نهر ابرُه ، ارتفاعها عن البحر ١٨٤ مترا ، وهي فى وسط بقعة خضراء بديعة ، واسمها سرقسطة هو الاسم الذى أعطاه إياها أغسطس الرومانى ، مشتق من سيزارية أوغسطة Caesarea Ongusta فالعرب قالوا لها سرقسطة ، والنسبة إليها عندهم سرقسطى ، ومنذ فتحها العرب إلى أن استرجعها المسيحيون كانت تعد من قواعد المملكة الاسلامية الكبرى ، وبسبب موقعها الجغرافى كانت مركز الثغر الأعلى . وفى أيام الادريسى ، أى القرن الثانى عشر ، كانت معمورة جداً ، وكان يقال لها المدينة البيضاء ، نظراً لبياض أسوارها ، وكانت فواكهها معدودة

من أحسن فواكه الأندلس ، وكان فرو السمور الذى يصنع بها مشهوراً فى كل العالم الاسلامى .

وقد استولى العرب على سرقسطة سنة ٩٤ للهجرة ، وفق ٧١٢ ، بعد أخذهم طليطلة بقليل ، زحف إليها موسى بن نصير ففتحها ، وفتح القصاب ، والحصون التى حولها . وروى ايزيدور الباجى[١] أن العرب عاثوا فيها ، وعاملوا أهلها بأقصى الشدة . وفى أيام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس كانت من القواعد الكبار ، وتولى عليها الصُميل بن حاتم ، وكان ذلك سنة ١٣٢ . ولما جاء شارلمان يحاول فتحها سنة ٧٧٨ مسيحية ، كان فيها والياً الحسين بن يحيى الخزرجى ، فحاصرها شارلمان ، فامتنعت عليه ، وإذ ذلك جاء الخبر إلى شارلمان من بلاد الرين بخطب أوجب انصرافه إلى بلاده ، فقفل بعساكره ، ولما صار إلى مضيق رونسفو[٢] Rancevaux كمن له هناك البشكنس وأوقعوا بجيشه ، وكانت وقيعة شنيعة تخلد ذكرها بأنشودة رولان .

وفي سنة ١٦٤ زحف اليها عبد الرحمن الداخل ففتحها ، ولكنها عادت فخرجت من أيدى الأمويين ، فسرح اليها هشام سنة ١٧٥ جيشاً عقد لواءه لعبيد الله بن عثمان ، فاستولى عليها ، ثم عادت فانتقضت سنة ١٨١ ، وكان خلائف قرطبة يسرحون اليها الزحف بعد الزحف ، فتارة ينجحون وتارة يفشلون ، وفي أواخر القرن الثامن عظم أمر عائلة يقال لها بنو قصىّ ، فاستولت على أراغون ، وهى عائلة اسبانيولية دانت

(١) Isidore de Beja يقال إنه من قرطبة ، ترك باللاتينية تأليفاً تاريخه ٧٥٤ مسيحية ، وذكره دوزى فقال : إنه كان قسيساً . ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد على العرب ، وهو يروى مثلا أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبدالعزيز بن موسى بن نصير ولا يجد فى ذلك إثماً كما كان يفعل غيره من القسيسين لو قص هذه الحادثة . قال دوزى إن كراهية ايزيدور الباجى للعرب هى بسبب كونهم شعباً غريبا عن شعبه لا من أجل عملهم

(٢) ويقال Roncevalles والعرب يسمون هذا المضيق باب الشزرى

بالاسلام ، وأحدرؤساءهذهالعائلةموسى بن فورتونيو[1] Fortinio صهر اينيقوار يستة Inigo Arista ، أول ملك على بنبلونة ، انحاز الى الامير هشام الأموى ، وساعده على استرجاع سرقسطة . ثم إن موسى الثانى من أفراد هذه العائلة كان والياً على تطيلة وقائداً لجيوش عبد الرحمن الثانى التى كانت تغير على حدود الافرنجة ، وقد كان لموسى هذا مواقف جهاد فى رد عادية النورمانديين الذين كانوا نزلوا فى البرتغال

وسنة ٨٥٢ لما تولى الأمير محمد الأموى كان موسى بن قصى عاملا له على سرقسطة وتطيلة ووشقة ، وكان أشبه بأمير مستقل ، وطالما تبادل الهدايا مع ملوك النصارى ، مثل شارل الأصلع ، ملك فرنسة ، إلا أنه في سنة ٨٦٠ تغلب أوردونة الأول ملك ليون على موسى ، ولم يلبث أن قتل بعد ذلك بسنتين ، و بعد موته انتقض بنو قصى على خلائف قرطبة . فعول الأمير محمد الأموى على التجيبيين لادخال بنى قصى فى الطاعة ، وولى عبد الرحمن التجيبى على الثغر الأعلى .

والتجيبيون عائلة عربية استقرت فى سرقسطة من أول الفتح (وكانت أهالى سرقسطة ونواحيها عرباً صراحا كما هو معلوم فى التاريخ) . وفى سنة ٨٨٨ بلغ الأمير عبد الله الأموي خبر مكيدة تدبّر عليه فى سرقسطة ، فولى محمد بن عبد الرحمن التجيبى الملقب بالأنقر ، وأمره بالفتك بعامل سرقسطة ، فأنفذ الأمر ، ولكنه استبد بالامارة ، وقتل محمد بن لب زعيم بنى قصى ، وتوارث الامارة عقبه إلى زمن

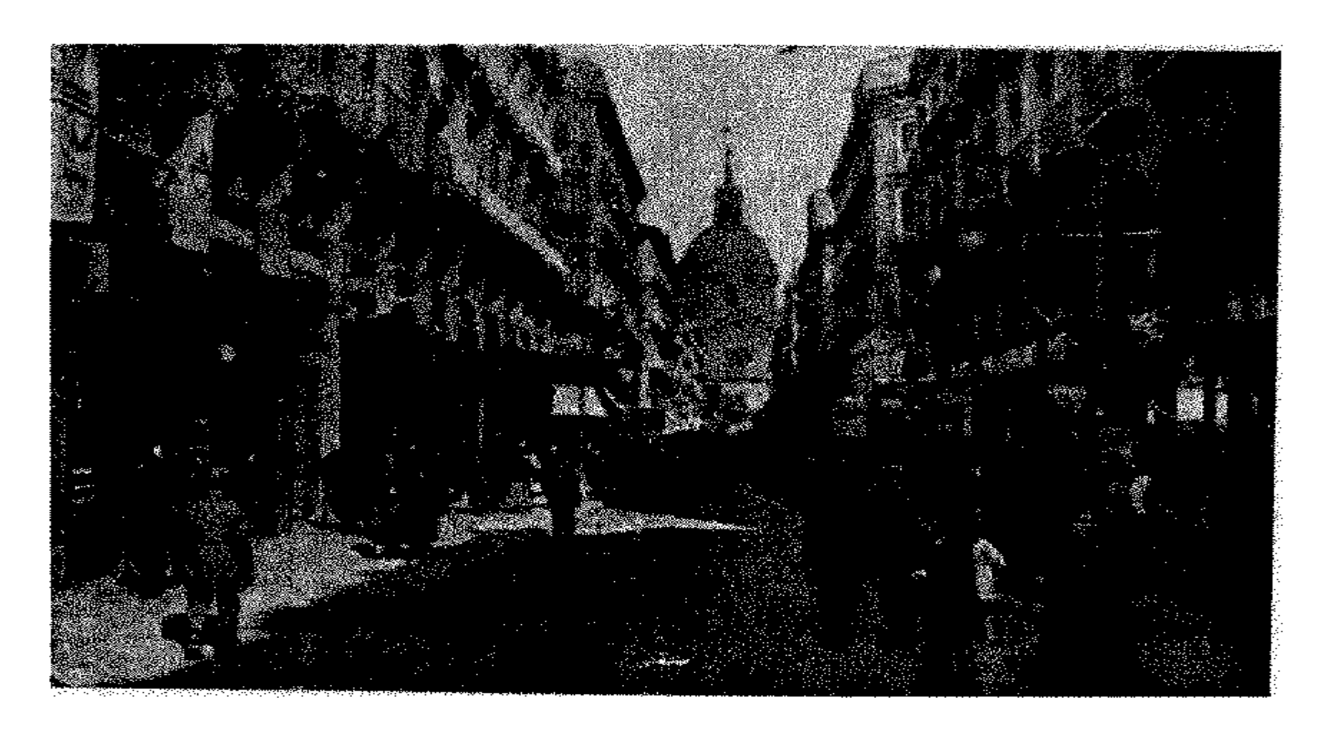
---

(١) قال دوزى : إن عائلة بنى قصى هذه أصلها من القوط وقد دانت بالاسلام فى القرن التاسع وصارت لها سيادة عظيمة فى الثغر الأعلى وكان موسى الثانى من بنى قصى لعهد الأمير محمد الأموى مستولياً على سرقسطة وتطيلة ووشقة وعاهدته طليطلة ، وكان شجاعاً مقداماً تارة يناجز كونت برشلونة وطوراً كونت قشتالة وملك فرنسة . وكان هذا يصانعه ويرسل اليه بالهدايا وكان موسى يلقب نفسه «بملك أسبانية الثالث» ، ومازال كذلك إلى أن مات ، فاسترجع الأمير الأموى سرقسطة وتطيلة ، لكن ظفره لم يطل لأن أولاد موسى بن قصى حالفوا أذفنش الثالث ملك لون وقاتلوا عساكر السلطان وهزموها .

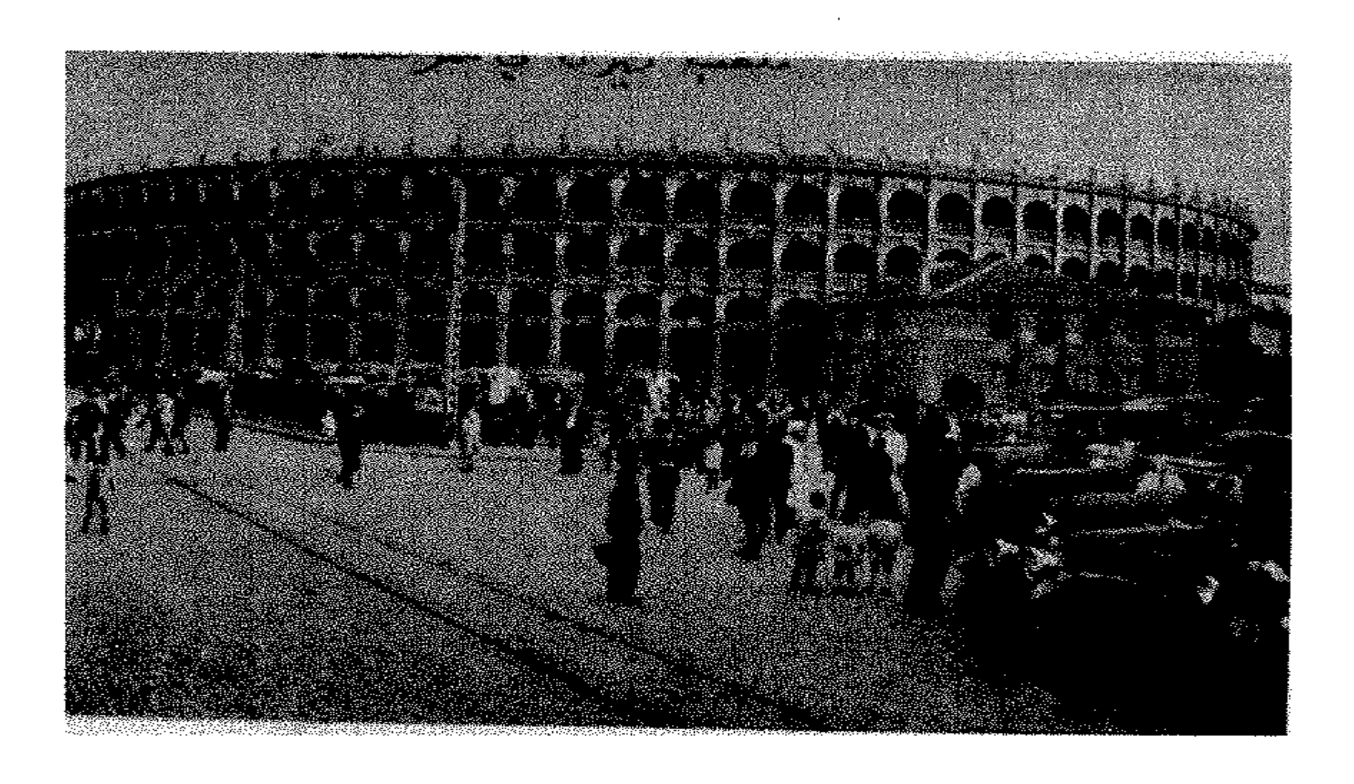
عبد الرحمن الناصر ، الذى أحسن إلى التجيبيين ، ولكن أحدهم محمد بن هاشم خلع الطاعة سنة ٩٣٤ ، وانضم الى رميروه الثانى ملك ليون ، و إلى ملك نبارة ، وأثار جميع أهالى الثغر الأعلى على الخليفة ، فزحف الخليفة بنفسه ، وأخذ قلعة أيوب عنوة ، وحاصر سرقسطة وضيق عليها ، إلى أن لاذ محمد بن هاشم بطالب العفو ، فعفا الناصر عنه ، وأقره على إمارته ، وخلفه ابنه يحيى التجيبى ، الذى صار من قواد الناصر ، وابنه الحكم المستنصر . وتولىسرقسطة سنة ٩٧٥ .

وفى أيام حجابة المنصور بن أبى عامر أراد عامل سرقسطة عبد الرحمن بن مطرف ابن محمد بن هاشم التجيبى أن يشق عصا الطاعة ،فتغلب عليه المنصور وقتله سنة ٩٨٩. ولما سقطت الخلافة في قرطبة كان الوالى على سرقسطة أحد أحفاد يحيى المذكور ، وخلفه ولده المنذر ، الذى اتفق مع الصقالبة على البربر ، وأعلن نفسه ملكا على سرقسطة ، وتعاهد مع ملوك قشتالة و برشلونة ، وفى أيامه استتبت الراحة في سرقسطة وازداد عمران البلدة ، و بلغت أوج مجدها .

وكان المنذر التجيبى هذا أبهة ملك ، ونعمة عيش ، تغنت بهما الشعراء . ومن جملتهم ابن درّاج القسطلى . واستمر حكم المنذر إلى سنة ١٠٢٣ مسيحية ، فخلفه ابنه المظفر ، ولم تطل مدته ، فخلفه ابنه المنذر الثانى ، معزّ الدولة ، فاستمرت إمارته عشر سنوات . ثم خرج عن طاعة الخليفة هشام الثانى ، فقتله ابن عمه عبدالله بن الحكم ، وكاد يستولى على الامارة ، فثار به الأهالى ، واشتعلت الفتنة بينهم ، حتى جاء عامل لاردة ، أبو أيوب سلمان بن محمد بن هود ، فدخل البلدة ، ومهد الأمور ، واستأثر بالإمارة لنفسه ، ثم اتخذ لقب المستعين ، وهو مبدأ دولة بنى هود ، التى كان مركزها سرقسطة ، وكان يتبعها لاردة وطليطلة ، وقلعة أيوب . وكانت وفاة المستعين هذا سنة ٤٣٨ ، وفق ١٠٤٦ ، وخلفه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة ٤٧٤ ، ثم يوسف المؤتمن إلى سنة ٤٧٨ ، ثم أحمد المستعين الثانى . وقتل فى معركة بينه و بين النصارى اسمها معركة فلتيرة Valtierra ، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة ، وفى أيامه انتزع



سرقسطة



ملعب الثيران فى سرقسطة

النصارى سرقسطة من أيدى المسلمين فى ٤ رمضان سنة ٥١٢

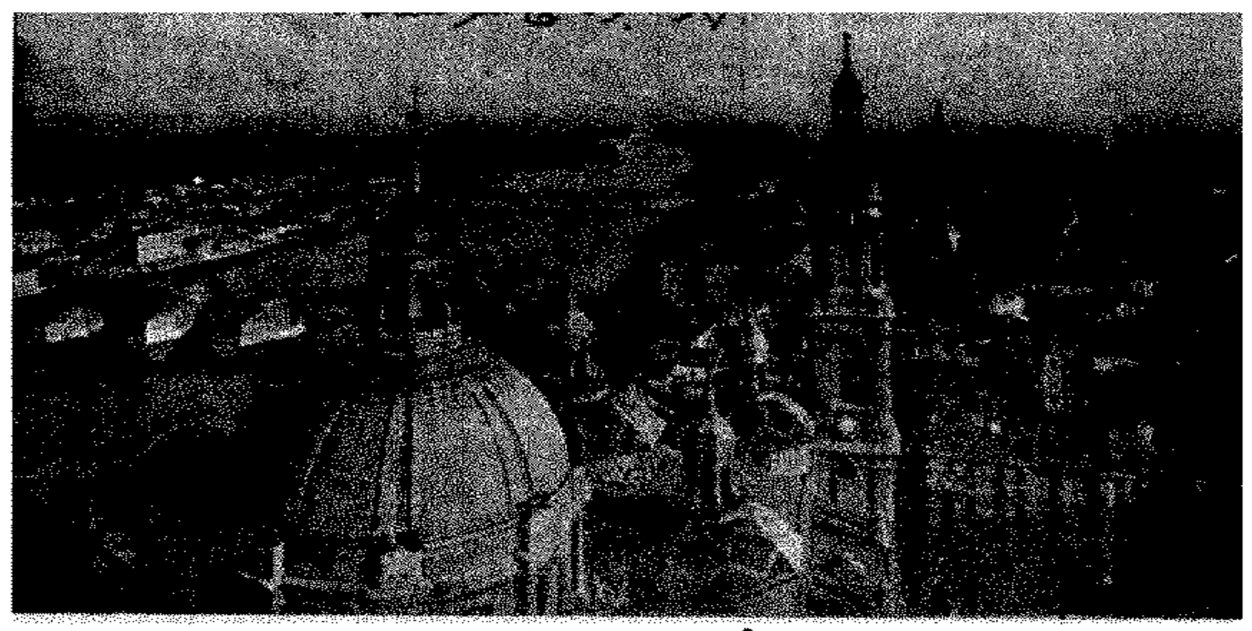
قال لاوى بروفنسال : إنه لا يوجد عندنا معلومات كافية عن أيام دولة بنى هود ، وإن أرقام التواريخ المتعلقة بهم يناقض بعضها بعضا . وقد ثبت أنه قبل استيلاء النصارى على سرقسطة بتسع سنوات كان جيش المرابطين قد احتلها ، وأدخلها تحت حكم على بن يوسف بن تاشفين ، وذلك فى أول ذى القعدة سنة ٥٠٣

ولم يبقَ من آثار المسلمين فى سرقسطة شىء كثير ، لأنها بمرور الأعصر تهدمت مراراً ، و بنيت مرارا ، بكثرة ماوقع عليها من المحاصرات الشديدة ، أما كنيسة السيو المبنية مكان الجامع الأعظم ففى الشمال الشرقى منها حائط مزيّن بالزليج ، يظهر أنه من أيام العرب [1] . وروى بعض المؤرخين والجغرافيين أن بانى المسجد الأعظم الذى فى محله بنيت كنيسة السيو هو التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى [2] ، المتوفى

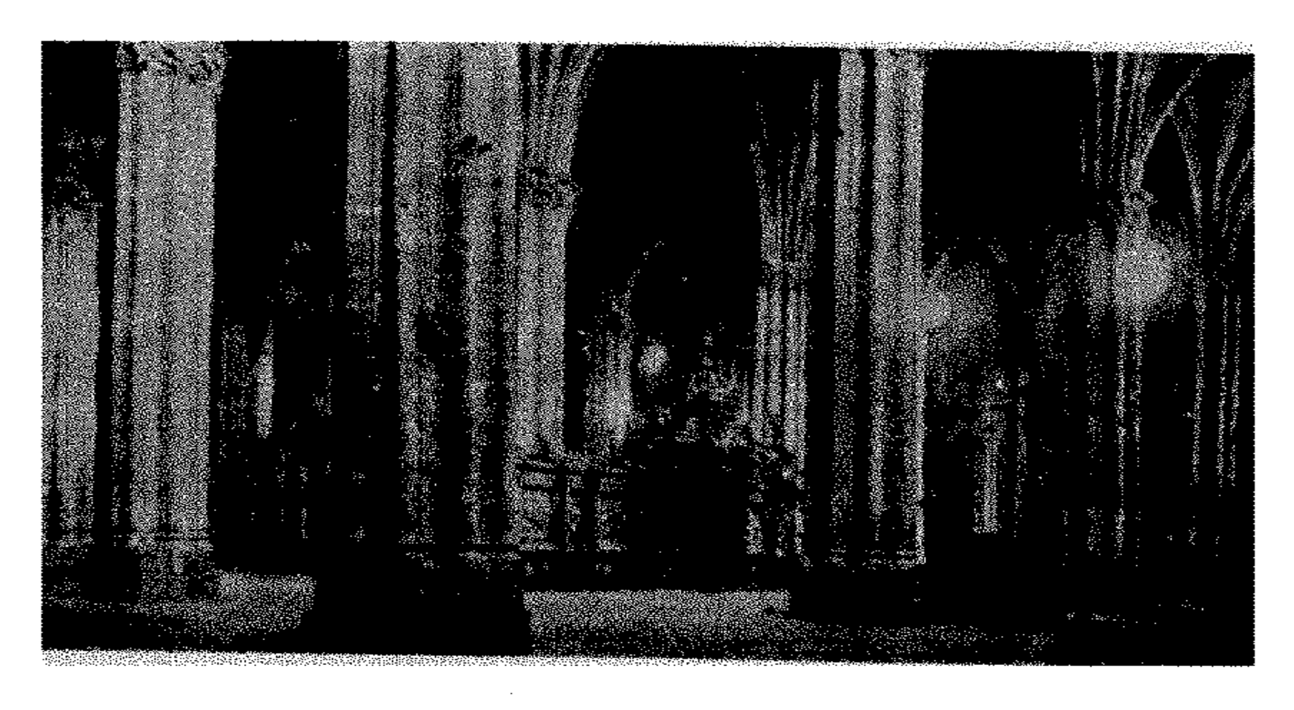
---

(١) الأرجح أن بانى الرواق العربى المذكور فى كنيسة السيو هو من العرب المدجنين الذين كان منهم عدد غير قليل فى سرقسطة إلى ماقبل هذا التاريخ بثلاثمائة سنة . وقرأنا فى دليل بديكر أن اسم هذا البناء المذكور هو الرامى ، كما تقدم عند ذكر تلك الكنيسة

(٢) جاء فى نفح الطيب : ومن التابعين الداخلين إلى الاندلس حنش الصنعانى ، وفى كتاب ابن بشكوال قال ابن وضاح : حنش لقب له واسمه حسين بن عبد الله ، وكنيته أبو على ، قال ابن بشكوال : وهو من صنعاء الشام . وذكر أبو سعيد بن يونس فى تاريخ أهل مصر وافريقية والاندلس فقال : إنه كان مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وغزا المغرب مع رفيقه رويفع بن ثابت ، وغزا الاندلس مع موسى بن نصير وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأتى به إلى عبد الملك فى وثاق . فعفا عنه . وكان أول من ولى عشور افريقية فى الاسلام ، وتوفى بافريقية سنة مائة (سيأتيك خلاف هذه الرواية) قال ابن حبيب : دخل الاندلس من التابعين حنش بن عبد الملك الصنعانى ، وهو الذى أشرف على قرطبة من الفج المسمى بفج المائدة ، وأذن فى غير وقت الأذان فقال له أصحابه فى ذلك ، فقال : إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلا أن تقوم الساعة ، هكذا ذكره غير واحد . قال المقرى : وقد كشف الغيب خلاف ذلك ، فلعل الرواية موضوعة ، أو مؤولة ، والله تعالى أعلم .



نهر أبرة فى سرقسطة



كنيسة السيو فى سرقسطة

سنة مائة للهجرة . والآن لايوجد بناء عربي جدير بالذكر فى سرقسطة سوى الجعفرية نسبة إلى جعفر أو ابن جعفر ، ولا نعلم من هو . (قلت : يظهر لى أنها من بناء المقتدر أو المستعين الثانى ابن المؤتمن بن هود وكان يقال لكل منهما أبو جعفر . والله أعلم) . فهذا البناء حصلت فيه تغييرات كثيرة ، وتهدم جانب منه سنة ١٨٠٩ ، ولم يبق منه سوى مسجد صغير : ٢٢ متراً مربعاً ، فوقه قبة بديعة علوها ١٤ متراً قائمة على أعمدة من المرمر ، لها قواعد بديعة ، وله محراب بحفر وتنزيل . و يغلب على الظن أن الجعفرية هى من جملة أبنية بنى هود التى لم نحفظ منها إلا اسم قصر السرور

وممن ينتسبون إلى سرقسطة من العلماء المحدّث الكبير أبو على الحسين بن محمد ابن فيرُّه بن حيون الصدفى ، المعروف بابن سكرة ، ولد سنة ٤٥٢ ، وقتل شهيداً فى واقعة كتندة سنة ٥١٤ ، ولأجل تراجم تلاميذه جمع ابن الأبار المعجم الذى نشره قديرة فى المجلد الرابع من المكتبة العربية الأسبانية . اهـ .

قلنا . وكان لبنى هود فى سرقسطة قصور متعددة لم يبقَ لها أثر ، منها دار السرور ومنها قصر الذهب ، اللذان يقول فيهما ابن هود :

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الطرب

وجاء فى صبح الأعشى ذكر سرقسطة قال : قال فى تقويم البلدان . سرقسطة بفتح السين والراء المهملتين ، وضم القاف ، وسكون السين الثانية ، وفتح الطاء المهملة ، وهاء فى الآخر : مدينة من شرقى الأندلس ، موقعها فى أواخر الاقليم الخامس من الأقاليم السبعة ، قال ابن سعيد : حيث الطول إحدى وعشرون درجة وثلاثون

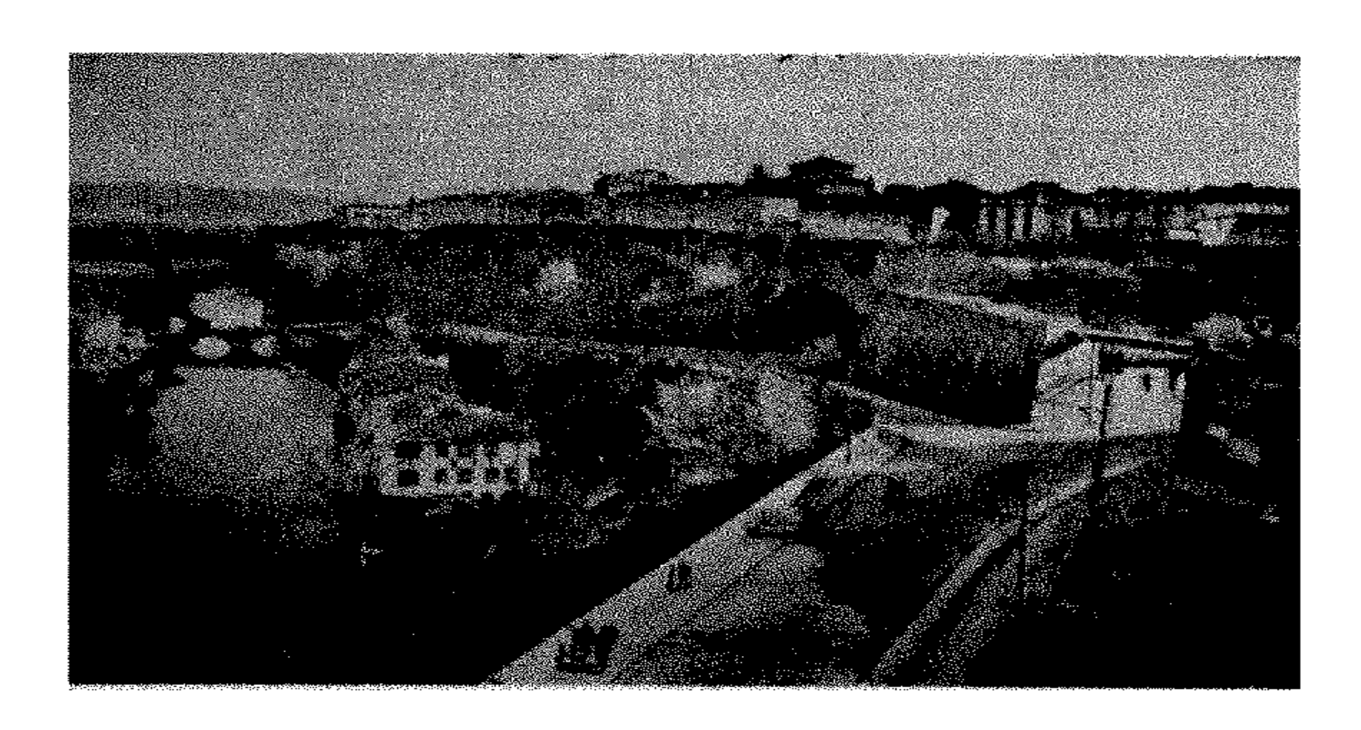
ثم قال : إن ابن عساكر فى تاريخه طول ترجمته ، وقال إن صنعاء المنسوب اليها قرية من قرى الشام ، وليست صنعاء اليمن . وفى تاريخ ابن الفرضى أن حنشاً كان بسرقسطة وأنه الذى اسس جامعها . وبها مات . وقبره معروف عند باب اليهود بغربى المدينة . قلنا : قد روى ابن عساكر عن الحيدى صاحب تاريخ الأندلس أن حنشاً كان مع موسى ابن نصير ، ويقال إنه هو الذى اختط جامع سرقسطة .

دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، قال فى تقويم البلدان : وهى قاعدة الثغر الأعلى ، وهى مدينة أزلية بيضاء فى أرض طيبة ، قد أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء ، والتف عليها أربعة أنهار ، فأضحت بها مرصعة مجزّعة ، ولها متنزهات . منها قصر السرور ، ومجلس الذهب .

ثم قال فى محل آخر : وأما سرقسطة والثغر فاستولى عليهما بقية بنى هود ، إذ كان منذر بن يحيى بن مطرّف بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التجيبى ، صاحب الثغر الأعلى بالاندلس ، وكانت دار إمارته سرقسطة . ولما وقعت فتنة البربر آخر أيام بنى أمية ، استقل منذر هذا بسرقسطة والثغر ، وتلقب بالمنصور ، ومات سنة أربع عشرة وأربعمائة ، وولى مكانه ابنه يحيى . وتلقب بالمظفر ، وكان أبو أيوب سليمان ابن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى مولى أبى حذيفة الجذامى من أهل نسبهم مستقلا بمدينة تطيلة ومدينة لاردة ، من أول الفتنة ، وجدهم هود هو الداخل الى الأندلس ، فتغلب سليمان المذكور على المظفر يحيى بن المنذر ، وقتله سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، وملك سرقسطة والثغر من أيديهم ، وتحول إليها ، وتلقب بالمستعين واستفحل ملكه . ثم ملك بلنسية ودانية ، وولى على لاردة ابنه احمد المقتدر ، ومات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ، فولى ابنه احمد الملقب بالمقتدر سرقسطة وسائر الثغر الأعلى ، وولى ابنه يوسف الملقب بالمظفر لاردة ، ومات احمد المقتدر سنة اربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه . فولى بعده ابنه يوسف المؤتمن ، وكان له اليد الطولى فى العلوم الرياضية ، وألّف فيها التآليف الفائقة ، مثل « المناظر » و « الاستكمال » وغيرهما ، ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . وولى بعده ابنه احمد الملقب بالمستعين ، ولم يزل أميراً بسرقسطة إلى أن مات شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة ، فى زحف ملك الفرنج إليها . وولى بعد ابنه عبد الملك ، وتلقب عماد الدولة ، وزحف اليه الطاغية أذفنش ملك الفرنج ، فملك منه سرقسطة ، وأخرجه منها واستولى عليها سنة ثنتى عشرة وخمسمائة ، ومات سنة ثلاث عشرة . وولى ابنه أحمد ، وتلقب سيف الدولة



صورة بنبلونة



صورة بنبلونة (منظر عمومى)

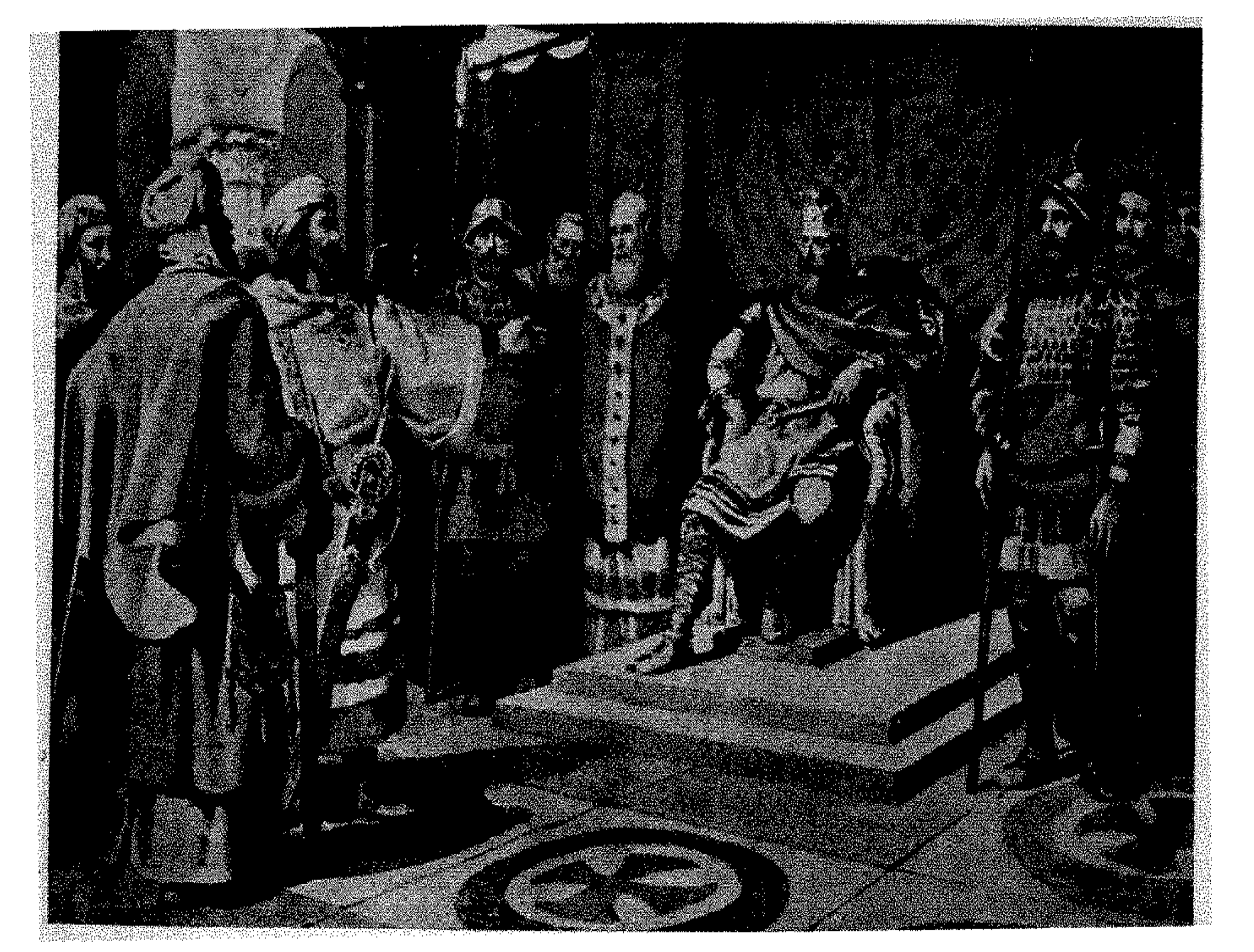
والمستنصر ، وبالغ فى النكاية فى الطاغية ملك الفرنج ، ومات سنة ست وثلاثين وخمسمائة . وكان من ممالك بنى هود هؤلاء طرطوشة ، وقد كان ملكها مقاتل أحد الموالى العامريين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، ومات سنة خمس وأربعين . وملكها بعده يَعْلى العامرى ، ولم تطل مدته ، وملكها بعده نبيل أحدهم ، إلى أن نزل عنها لعماد الدولة أحمد بن المستعين بن هود سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة ، فلم تزل في يده ويد بنيه بعده إلى أن غلب عليها العدو المخذول فيما غلب عليه من شرق الأندلس . انتهى .

وجاء فى كتاب « أخبار مجموعة » أقدم كتاب فى تاريخ الأندلس ، كُتب فيما يظهر لعهد المستنصر بن الناصر الأموى ـ كلام عن مدينة سرقسطة وما جرى بها من الحوادث ، لأول الفتح الأموي ، قال : ثار سليمان الأعرابى بسرقسطة ، وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير (عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد ، فى جيش ، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أياماً . ثم إن الأعرابى طلب الفرصة من العسكر ، فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب ، وقالوا قد أمسك عن الحرب ، وأغلق أبواب المدينة ؛ لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه فى المظلة ، فصار عنده أسيراً ؛ وانهزم الجيش ، فبعث به الأعرابى الى قارلة [1]

(١) كان فى برشلونة عامل يقال له سليمان الاعرابى حدثته نفسه بالاستقلال ، فانتقض على الأمير عبد الرحمن الداخل ، واستولى على سرقسطة ، وعقد محالفة مع شارلمان الذى يقول له العرب قارله . وقد استوفينا هذا الخبر فى كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » فى صفحة ١١٦ و١١٧ وخلاصته أن سليمان الأعرابى أسر ثعلبة المرسل من قبل عبد الرحمن الداخل ، وأرسله إلى شارلمان حليفه . ويقال إن سليمان الاعرابى قصد هو وأمير آخر الى فستفالية وتواجها مع شارلمان ، فازداد طمع شارلمان فى الزحف إلى الاندلس ، وكان يظن أن المسيحيين فى الاندلس سيثورون بأجمعهم وينضمون إليه فزحف سنة ٧٧٨ فلم يصب حسبانه من جهة المسيحيين ، لأن أهل تلك الجبال أبوا أن يخضعوا لأجنبى أياً كان ؛ فاضطر شارلمان أن يقاتلهم وأن يحاصر بنبلونة ، ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . ولما وصل إلى سرقسطة قاومه العرب أشد المقاومة ، مع انه كان يظن أن

فلما صار عنده ، طمع فارلة فى مدينة سرقسطة من أجل ذلك ، فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودافعوه أشد الدفع ، فرجع إلى بلده . وخرج الأمير غازياً إلى سرقسطة ، فقبل أن يبلغ الأمير سرقسطة عدا حسين بن يحيى الأنصارى على الأعرابى يوم جمعة ، فقتله فى المسجد الجامع ، وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الامير ، وكان عيسون بن سليمان الاعرابى قد هرب إلى أربونة . فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة ، وصار على جرف الوادى ، فأقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد ، وقتله ، ثم رجع إلى أصحابه ، فسمى ذلك الموضع إلى اليوم مخاضة عيسون ، ثم استدعاه الأمير حتى صار فى عسكره ، وحارب سرقسطة معه ، فلما ضاق أهل المدينة من الحصار طلب حسين الصلح ، وأعطى ابنه رهينة ، فقبل ذلك الأمير منه ، ورجع عنه . وكان اسم ابنه ذلك سعيداً ، وكان نجداً ، فلم يُقم فى عسكر الأمير إلا يوماً ، حتى أعمل الحيلة فهرب إلى أطيانله بأرض بليارش ، ومضى الأمير فدوّخ بنبلونة ، وقلنيرة ، وكر على البشكنس ، ثم على بلاد الشرطانيس ، فحل بابن بلاسكوط ، فأخذ ولده رهينة ، وصالحه على الجزية . (إلى أن يقول) : إن حسين بن يحيى الأنصارى متولى سرقسطة ، عاد إلى نفاقه ، قال : فخرج اليه الأمير غازياً ، ونصب على سرقسطة المجانيق ، فيقال إنه حفها بستة وثلاثين منجنيقاً ، وضيق على أهلها أشد الضيق . فترامى القوم اليه ، وأسلموا اليه حسيناً ، فلم يقتل من أهل المدينة غيره ، وغير رجل من أهلها يقال له رزق من البرانس . انتهى

سليمان الاعرابى وغيره من الخارجين عن طاعة قرطبة سينضمون اليه . أما رفعه الحصار عن سرقسطة فمؤرخوا العرب يقولون إن شارلمان عجز عن أخذها ، فانصرف عنها بينما مؤرخو الافرنج يقولون أنه بينما كان شارلمان يحاصر سرقسطة جاء الصريخ بان أمة السكسون قد أبت أن تترك ديانتها الوثنية وزحفت للقتال،فاضطر الى الرجوع،وفى أثناء رجوعه عند ما وصل إلى وادى « رونزفو » انقض عليه المسيحيون الجبليون فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها . وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيس، بينهم رولان الفارس الشهير



ملاقاة سليمان الأعرابى مع شارلمان



صورة نهر أرقا فى بنبلونة

وقد اشتهرت سرقسطة من قديم الدهر بشدة المقاومة لمن يحاصرها ، فقبل الفتح العربي كان قد غزاها سنة ٥٣٣ شيلد برت Childeberte ، ملك الافرنج ، وكذلك كلوتار الثانى Clotaire ، وقاومتهما مقاومة خارقة للعادة . ولما جاءها شارلمان بنفسه عجز عنها ، وكثيراً ما زحف إليها بنو أمية بجيوشهم فلم ينالوا منها وطراً . ولما استرجعها أذفنش الأول ملك اراغون من أيدى العرب ، واستمرت الحرب عليها خمس سنوات ؛ وما دخل الاسبانيول سرقسطة إلا بعد حصار شديد ، اتصل تسعة أشهر .

ومن أشد مدافعاتها المشهورة الدفاع الذى دافعت به الفرنسيس سنة ١٨٠٨ و ١٨٠٩ ، وذلك فى حرب الاستقلال ، فقد زحف إليها الفرنسيس بجيش جرار ، يقوده أربعة قواد ، كل منهم برتبة مارشال . وكان الذين تولوا كبر المقاومة : شاباً من أهلها اسمه بلافوكس Palafox ، وقسيساً اسمه سنت ياغوساس ، ورجلا كان يقال له العم ، واسمه جورج ايبور Ibort ، وانضم إليهم اثنان من الفلاحين ، أحدهما اسمه ماريانو سيريزو Cerezo ، والآخر مارين . فهؤلاء أثاروا حمية الأهالى ، ووقفت البلدة كلها وقفة



صورة بنبلونة

الرجل الواحد فى وجه الفرنسيس ، و بعد حصار شهرين اضطر المارشال لُفقر Lefepvre أن يرفع الحصار . ثم عاد اليها الفرنسيس بجيش عدده ثلاثون ألفاً ، وكان السرقسطيون قد زادوا تأهبهم للدفاع ، ولكن لم يكن سور بلدتهم يعلو أكثر من ثلاثة إلى أربعة أمتار ، فترك السرقسطيون الدفاع عن دير يسوع ، على ضفة أبرُه من اليمين ، وتركوا أيضاً الدفاع عن دير « طوريروه » وجمعوا أنفسهم الى داخل المدينة ، و بدأ القتال بشدة لم يسبق لها مثيل ، فوضع الفرنسيس خمسين مدفعاً تقذف بالنار الدائمة ، الى أن خرقوا السور من ثلاث جهات . وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٠٩ دخل المارشال « لان » الى البلدة من جهة دير سنتا انغراسيه . ولكن الأهالى استمروا يقاومون عن بيت بيت ، و يقاتلون فى شارع شارع ، فقتل وجرح من الفريقين أربعة وخمسون ألف نسمة في مدة ستين يوماً . ولم تعول البلدة على الاستسلام إلا بعد أن فتكت بأهلها المجاعة والأمراض . وقد لُقبت سرقسطة من أجل ذلك الدفاع بالخالدة Inmortal .

وكذلك كان لها موقف شديد فى الحرب الكارلوسية ضد الكارلوسيين

أما تاريخها القديم قبل العرب فالمعلوم منه أن السويفيين Sueves استولوا عليها سنة ٤٥٢ ، وأن القوط دخلوها سنة ٤٧٦ ، وأنها كانت فى زمن الأيبريين يقال لها « سالدوبه » Salduba ، وأن أغسطس قيصر رومة اعتنى بها ، ومن اسمه اشتق اسمها (١)

(١) قد ذكر جغرافيو العرب من أعمال سرقسطة شلوقة ، قال ياقوت : حصن بقرب سرقسطة ، ينسب إليه على بن إسماعيل بن سعيد بن أحمد بن لب بن حزم الخزرجى ، قرأ على ابن عطية الغرناطى الحديث ، وعلى ابن طراوة المالقى النحو ، وأبوه أيضا مقرىء نحوى ، لقيهما وكتب عنهما . اهـ وذكروا قتندة ، أو كتندة ، وهى التى وقعت فيها الواقعة الشهيرة بين المسلمين والاسبانيول ، ومحص فيها المسلمون ، واستشهد فيها إمام المحدثين القاضى أبو على الحسين بن محمد بن فيره بن حيون بن سكرة الصدفى السرقسطى ، فى ربيع الأول سنة ٥١٤ عن ستين سنة . وكان أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ألزمه أن يقلده القضاء بمرسية فى شرقى الأندلس ، فتقلده على كره منه سنة ٥٠٥ ، ثم استعفى فلم يعفه ، فاختفى مدة حتى أعفاه ، ولكنه غضب عليه مدة ، ثم رضى عنه وحضه على نشر العلم ، وكانت لهذا الرجل فضائل كثيرة ، ورحلة إلى الشرق ، لقى فيها جلة من العلماء . وقد ألف الحافظ بن الأبار القضاعى البلنسى كتاباً اسمه العجم فى أصحاب الامام أبى على الصدفى ، ذكر فيه أسماء من أخذوا عنه ، وهو مما طبعه قديماً فى مجريط

وذكروا « القناطر » بقرب « روطه » من عمل سرقسطة ، ينسب إليها أحمد بن سعيد بن على الأنصارى القناطرى ، يكنى أبا عمر ، سمع بقرطبة ، ورحل الى المشرق ، وتوفى باشبيلية سنة ٤٢٨

وذكروا « أشبرة » من قرى سرقسطة ، ينسب اليها أناس من أهل العلم ، منهم خلف بن موسى بن فتوح الأشبرى

وذكروا « إشكرب » بكسر أوله ، وراء ساكنة ، وباء موحدة ، ينسب اليها أبو العباس يوسف بن محمد بن فاره الإشكربى ، نشأ بجيان ، وسافر الى الشرق ، ومات ببلخ سنة ٥٤٨

وذكروا « بيطرة » وقال ياقوت : إنها من حصون سرقسطة

وذكروا « منيونش » وقالوا إنها من نواحى بربشتر من عمل سرقسطة

وقد تعذر علينا المطابقة بين أسماء هذه الأماكن بالعربى ، وأسمائها بالاسبانيولى ، ولم نشأ التخمين

من انتسب الى سرقسطة من أهل العلم

قال ياقوت الحموى فى المعجم : و ينسب الى سرقسطة أبو الحسن على بن ابراهيم ابن يوسف السرقسطى ، قال السلفى : كان من أهل المعرفة والخط . وكان بينى و بينه مكاتبة . وأنبل من نسب الى سرقسطة ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف بن سليمان بن يحيى العوفى ، من ولد عوف بن غطفان ، سمع بالأندلس ، ثم رحل الى المشرق هو وابنه قاسم ، فسمعا بمكة ومصر ، وتوفى ثابت بسرقسطة عن ٩٥ سنة ، وكان مولده سنة ٢١٧ . وابنه قاسم بن ثابت كان أعلم من أبيه ، وأنبل وأروع ، و يكنى أبا محمد ، رحل مع أبيه فسمع معه ، وعنى بجمع الحديث واللغة ، فأدخل الى الأندلس علماً كثيراً . و يقال إنه أول من أدخل كتاب العين للخليل إلى الأندلس . وألف قاسم بن ثابت كتاباً فى شرح الحديث سماه كتاب الدلائل ، بلغ فيه الغاية من الاتقان ، ومات قبل كماله ، فأكمله أبوه ثابت بعده . قال ابن الفرضى : سمعت العباس بن عمرو الوراق يقول : سمعت أبا على القالى يقول : كتبت كتاب الدلائل ، وما أعلم وضع فى الأندلس مثله . ولو قال إنه ما وضع فى المشرق مثله ما أبعد . وكان قاسم عالماً بالحديث والفقه ، متقدماً فى معرفة الغريب والنحو والشعر ، وكان مع ذلك ورعاً ناسكا ، أريد على أن يلى القضاء بسرقسطة فامتنع من ذلك ، وأراد أبوه إكراهه عليه ، فسأله أن يتركه يتروى فى أمره ثلاثة أيام ، و يستخير الله فيه ، فمات فى هذه الثلاثة الأيام . يقولون إنه دعا لنفسه بالموت ، وكان يقال إنه مجاب الدعوة . وهذا عند أهله مستفيض . قال الفرضى : قرأت بخط الحكم المستنصر بالله : توفى قاسم بن ثابت سنة ٣٠٢ بسرقسطة ، وابنه ثابت بن قاسم بن ثابت من أهل سرقسطة ، سمع أباه وجده ، وكان مليح الخط ، حدّث بكتاب الدلائل ، وكان مولعاً بالشراب . وتوفى سنة ٣٥٢ . قال : وجدته بخط المستنصر بالله أمير المؤمنين ، انتهى . قلنا : لا يخفى

وأما نهر شلون Jalon فهو جار فى عمل سرقسطة ، وله ناحية اسمها شلون ينسب إليها إبراهيم بن خلف بن معاوية من أصحاب أبي عمرو المقرىء

أن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر كان معدوداً من العلماء والحكماء ، وقد ترك آثاراً من قلمه

قلنا : وممن ينسب الى سرقسطة من أهل العلم أبو عبد الله محمد بن يحى بن عبد الرحمن بن فرتش ، ابن عم القاضى محمد بن اسماعيل ، روى عن أبي عمر الطلمنكى ، والقاضى أبي الحزم بن أبي درهم ، وابن محارب ، وغيرهم . واستقضى ببلده ، وكان فاضلا ديّناً عالماً ، أخذ الناس عنه . ولد سنة ٣٩٠ ، وتوفى سنة ٤٨٠ . ترجمه ابن بشكوال . وأبو عبد الله محمد بن يحى بن سعيد العبدرى ، يعرف بابن سماعة ، من أهل سرقسطة وخطيبها ، حدّث عن أبي عمر الطلمنكى وغيره ، وحدّث عنه أبو على بن سكّرة ، وقال : هو مشهور بالصلاح التام . وأجاز له . وقال : توفى فى سنة ٤٧٢ ، ودفن هو وأبو الحسين بن القاضى أبي وليد الباجى ، وصلى عليهما فى وقت واحد ، وموضع واحد . وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن هاشم الهاشمى ، سمع من القاضى محمد بن فرتش ، وأبي القاسم مفرّج بن محمد الصدفى ، وسمع بمصر من أبي العباس بن نفيس مسند الجوهرى ، وسئل عنه أبو على بن سكرة فقال : رجل صالح ، كان يحفظ الموطأ والبخارى ، ورأيته يقرأ من حفظه كتاب البخارى على الناس فى ما بين المشائين بالسند والمتابعة ، لايخل بشىء من ذلك . وأبو عبد الله محمد بن حارث بن أحمد بن منيوه النحوى ، كان من جلّة أهل الأدب ، روى عن أبي عمر أحمد بن صارم الباجى ، وحدث عنه أبو الحسن على بن أحمد المقرى ، لقيه بغرناطة سنة ٤٧٣ وأخذ عنه . وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله المقرى ، روى عن أبي عبد الله بن شريح ، وأبي عبد الله بن مهلب قال ابن بشكول : أخذ عنه القراءات شيخنا القاضى الامام أبو بكر بن العربى ، وذكر أنه كان شيخاً صالحاً ، وكان يقرىء الناس بحاضرة إشبيلية ، وتوفى بعد سنة ٥٠٠ .

وأبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن محمد بن عقبى الكلبى ، كان فقيهاً عالماً زاهداً ورِعاً ، لم يمسح على الخفين قط ، وكان مع ذلك يفتى بالمسح . وأراد المقتدر بن هود

أن يوليه الأحكام فأبى عليه ، وحلف ألاّ يقبلها ، فأعفاه منها ، وتوفى سنة ٤٦٨ في المحرم . وأبو المطرف عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن فرتش ، كان فقيهاً أديباً ديّناً عاقلا من أخط الناس ، وكان فصيح اللسان ، عارفاً بعقد الشروط ، وكتب لابن عمه القاضى محمد بن إسماعيل بن فرتش ، وتوفى سنة ٤٦٨ . ترجمه ابن بشكوال ، وترجم الذى قبله . وكذلك فى صلة ابن بشكوال ترجمة أبى زيد عبد الرحمن بن شاطر ، من أدباء سرقسطة . قال : كان ذا فضل وأدب وافر وشعر ، ثم انزوى ولزم الانقباض . ومن شعره :

ولائمة لى إذ رأتنى مُشَمّرا ... أهرول فى سبل الصبا خالع العذر

تقول : تنبه و يك من رقدة الصبا ... فقد دب صبح الشيب فى غسق الشعر

فقلت لها : كفى عن العتب واعلمى ... بأن ألذّ النوم إغفاءة الفجر

ومن تراجم ابن بشكوال سيرة أبى زيد عبد الرحمن بن منتيل الأنصارى ، من أهل سرقسطة ، كان صهر القاضى أبى على بن سكرة ، وقد أخذ عنه أبو على تبركا به ، روى عن القاضى محمد بن فرتش ، وكان صالحاً ورعاً منقبضاً ، مقبلا على مايعنيه و يقرب به من ربه عز وجل . وكان ممن يتبرك بلقائه ، وكان أيضاً أديباً شاعراً ، ومن شعره :

سأقطع عن نفسى علائق جمة ... وأشغل بالتلقين نفسي و باليا

وأجعله أنسى وشغلى وهمّتى ... وموضع سرى والحبيب المناجيا

وكتب الى القاضى أبى على بن سكرة :

كتبت لأيام تجد وتلعب ... و يصدقنى دهرى ونفسى تكذب

وفى كل يوم يفقد المرء بعضه ... ولا بد أن الكل منه سيذهب

وأبو عبدالله محمدبن عبدالعزيز بن أبى الخير بن على الأنصارى ، من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، روى بسرقسطة عن القاضى أبى الوليد الباجى ، واختص به ؛ وعن القاضى أبى محمد بن فرتش ، وعن أبى العباس العذرى ، ومحمد بن سعدون

القروى ، وأبى داود المقرى ، وكان عارفاً بالأصول والفروع ، معنياً بالقراءات وتجويدها ، حافظاً للقرآن العظيم ، حسن الصوت به ، جميل العشرة ، كامل المروءة ، باراً بإخوانه ، قال ابن بشكوال : أخذ عنه أبو على الغسانى الحافظ ، ورأيت قراءاته مقيدة عليه فى أحد كتبه ، وحدث عنه أيضاً القاضى أبوعبد الله بن الحاج فى برنامجه ، وغيره من كبار شيوخنا ؛ وقرأت عليه كثيراً من روايته ، وأجاز لى مارواه بخطه غير مرة ، وصحبته إلى أن توفى رحمه الله ضحوة يوم السبت ، ودفن يوم الأحد الثانى عشر من رجب سنة ٥١٨ ، ودفن بمقبرة الربض ، وصلى عليه أخوه أبو جعفر

وأبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمى من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، قال ابن بشكول عنه : صاحبنا سمع من أبى على الصدفى كثيراً ، ومن أبي محمد بن ثابت ، وأبى عمران بن أبي تايد ، وأبى محمد بن السيد ، و بقرطبة وأشبيلة من غير واحد من شيوخنا . وكان مقدماً فى اللغة والعربية ، شاعراً محسناً ، وله مقامات من تأليفه ، أخذت عنه واستحسنت ، قال : وتوفى رحمه الله بقرطبة فى جمادى الأولى من سنة ٥٣٨ . وأبو القاسم مسعود بن على بن آدم ، حدث عنه أبو عمرو المقرى ، وأبو القاسم مفرّج بن محمد الصدفي ، روى بالمشرق عن أبى القاسم الجوهرى مسنده فى الموطأ ، وعن أبى حسن الحلبى ، قال ابن بشكوال : سمع الناس منه ببلده سرقسطة ، وكان شيخاً صالحاً ، وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٤٤٠ ، ودفن بباب القبلة ، وأبو عبد الله مزاحم بن عيسى ، روى عن أبى إسحق بن شعبان ، وأبى القاسم حمزة بن محمد وغيرهما ، توفى سنة ٣٩٤ . وأبو العباس الوليد بن بكر بن مخلد بن أبى زياد العمري رحل وسمع من الحسن بن رشيق وطبقته ، وألف كتاباً اسمه « الوجازة ، فى صحة القول بالإجازة» وذكر أنه لقى فى رحلته نيفاً على ألف شيخ ، بين محدث وفقيه ، وسمع منهم ، وقد سمع من أبى عباس الوليد السرقسطى المذكور : أبو ذر الهروى ، وأبو عمر المليحى وأبو القاسم بن الحسن التنوخى ، وغيرهم ، قال ابن بشكوال : ذكره الخطيب وقال : كان ثقة أميناً كثير السماع والكتاب فى بلده وفى الغربة ، وهو عالم فاضل . وقال

الخطيب : حدثني القاضي أبو العلاء محمد بن علي الواسطي قال : توفي الوليد بن بكر الأندلسي بالدينور سنة ٣٩٢ . وأبو محمد وضاح بن محمد بن عبد الله بن مطرف بن عباد الرعيني ، سمع من أبي عمر الطلمنكي ، وأبي عبد الله بن الحذاء ، وأبي بكر بن زهر وغيرهم ، ورحل الى المشرق سنة ٤١٨ ، فلقي بالقيروان أباعمران الفاسي ، وأخذ عنه ، ولقي بمصر أبا القاسم عبد الجبار بن أحمد بن عمرالطرسوسي ، قال ابن بشكوال: ومولده سنة ٣٨١ ، قرأته بخط أبي الوليد صاحبنا . وأبو محمد يحيي إبن إبراهيم بن محارب، روى عن القاضي أبي محمد الثغري ، وعبدوس بن محمد ، ورحل الى المشرق وحج ، وروى عن أبي القاسم السقطي ، وأبي موسى بن حنيف وغيرهما ، وكان فاضلا زاهداً ، روى عنه الصاحبان ، وقاسم بن هلال ، وعمر بن كريب ، وموسى بن خلف بن أبي درهم ، ووضاح بن محمد السرقسطي ، وقال : كان من أهل الدين والورع ، ما رأيت أورع منه في وقته . وتوفي سنة ٤١٤ . ترجمه ابن بشكوال .

وأبو الحسن يحيي بن فرج بن يوسف الأنصاري ، له رحلة الى المشرق سنة ٤٢٥ سمع فيها من محمد بن الفضل بن نظيف وغيره ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وتصدر للإقراء ببلدة سرقسطة ، وكان يعرف فيها بابن المصري . وأبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير ، له سماع من أبي مروان بن سراج ، وأبي علي الجياني وغيرهما ، وكان من أهل النحو ، متقدما في علم التوحيد . قال ابن بشكوال : وهو آخر أئمة المغرب ، أخذ عن أبي بكر المرادي ، وكان مختصاً به ، وله تصانيف حسان ، وأراجيز مشهورة ؛ وانتقل أخيراً الى العدوة ، وسكن حضرة السلطان ، فتوفي بها سنة عشرين وخمسمائة . وأبو سعيد خلف بن عثمان بن مفرج ، كانت له رحلة إلى المشرق ، وحج فيها ، وكان خيّراً فاضلا ، مشاوراً في الأحكام ببلده سرقسطة . وتوفي في ربيع الأول سنة ٤٢٤ . ذكره ابن بشكوال . وأبو علي الحسن بن محمد بن هالس الأزدي المقرىء ، سمع من القاضي أبي عبد الله بن فرتش تاريخ ابن خيثمة ، وروى عن أبي عمرو المقرىء ، وأجاز له في صفر سنة ٤٠٤ ، وكان من جلّة أصحابه . وهو أحد الشهود على أبي عمر الطلمنكي بخلاف السنة . قال ابن الأبار : غفر الله له . وحسين بن إسماعيل

ابن حسين الغفارى ، من أهل سرقسطة ، وأحد شهودها المعدلين و نبهائها . قال ابن الأبار فى التكملة : قرأت اسمه بخط أبى الحكم بن غشليان فى نسخة العقد المرتسم ببراءة أبى عمر الطلمنكى ، و إسقاط شهادة الذين نسبوه إلى مخالفة السنة . وذلك عن رأى القاضى محمد بن عبد الله بن فرتون فى سنة خمس وعشرين وأربعمائة . وأبو الحزم خلف بن محمد بن خلف بن أحمد بن هاشم العبدرى ، صاحب الأحكام بسرقسطة ، جده لأبيه ، وهو المعروف بالقروذى ، كان قاضى الجماعة بسرقسطة ، وجده لأمه أبو الحزم خلف بن أبى درهم ، كان قاضى وشقة . روى عن خاله أبى هارون موسى ابن خلف وغيره ، وأجاز له جده ابن أبى درهم ، وقدم للنظر فى جامع بلده سنة ٤٤١ ، ثم تولى الأحكام سنة سبع وستين . وكان فقيها زاهداً ، محبباً إلى الخاصة والعامة . وكان المستعين أبو جعفر بن المؤتمن بن هود يعرف له حقه ويكرمه ، وكان يعوده فى مرضه ، ولد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٤١٢ ، وتوفى ليلة الأحد الموفى ثلاثين لذى الحجة سنة ٤٩٣ ، ودفن بمقبرة باب القبلة ظهر يوم الأحد ، وشهد المستعين جنازته ، ومشى أمامها راجلاً من داره إلى قبره ، وتسامع الناس بموته فابتدروا حضورها ، ولم يعهد بسرقسطة مثلها . وكان قد أوصى المستعين بالصلاة عليه ، فقدم لذلك أبا عبد الله بن الصراف ، صاحب الصلاة ؛ وكفل ابنته ، ولم يكن له عقب غيرها ، فضمها إلى قصره . أكثره من خط أبى محمد بن نوح . وسماه عياض القاضى فى الذين لقيهم أبو على بن سكرة الصدفى بسرقسطة . وذكر ابن الدباغ أنه يحدث عنه ؛ وقال : كان أحد الجلة الفضلاء ، وذكره ابن بشكوال مختصراً اهـ قاله ابن الأبار فى التكملة .

ومن هنا يُعلم أن المستعين الثانى بن المؤتمن بن هود كان يكنى بأبى جعفر ، فهو الذى يترجح أن يكون قصر الجعفرية منسوباً إليه .

وأبو القاسم خلف بن خلف بن محمد بن سعيد بن اسماعيل بن يوسف الأنصارى يعرف بابن الأنقر ، روى ببلده سرقسطة عن أبى عبد الله بن الفرّاء الجيانى ، وعن عبد الله بن سماعة ، صاحب الأحكام ، وعن أبى عبد الله بن هاشم ، وأبى عبد الله

محمد بن يحيى بن فرتش ، وتفقه به ، وصحبه ثمانية عشر عاماً ، يسمع عليه المدونة ، ويقرؤها ، وأخذ العربية والآداب عن أبى عبد الله بن ميمون الحسينى ، وذكر أبو عمرو زياد بن الصفار أن له رواية عن أبى عمر بن عبد البر ، وكان من أهل الفقه والحديث والأدب ، مقدماً فى الحفظ ، صدراً فى المفتين، يقرض من الشعر يسيراً . قال ابن الأبار فى ترجمته : خرج من سرقسطة بعد أن استولى الروم عليها ، واستوطن بلنسية أول سنة ٥١٧ ، ودرس بها ، وأسمع وأفتى ، وشاوره قاضيها أبو الحسن بن واجب ، وكان بسرقسطة يشاوره قاضيها أبو القاسم بن ثابت ، ولم تخرج بلاد الثغر الشرقى أفضل منه ومن أبى زيد بن منتيال الخطيب ، وكانا متعاصرين يشار إليهما بالعلم والصلاح . قال أبو بكر بن رزق : درس الفقه ، وبرع فيه ، واستفتى ببلده ، ولزم الانقباض والزهد فى الدنيا ، وكان موصوفاً بالصلابة فى الحق ، والقوة فى الدين ، مع حسن الخلق ولين الجانب ، اختلفتُ إليه وأخذت عنه ، وكتب لى بخط يده ، وروى عنه أبو مروان ابن الصيقل ، وأبو بكر بن عمارة ، وأبو محمد أيوب بن نوح وغيرهم . ومن قول ابن الأنقر السرقسطى المذكور :

احفظ لسانك والجوارحَ كلَّها ... فلكلِّ جارحةٍ عليك لسانُ
واخزن لسانك ما استطعت فانه ... ليثٌ هَصور والكلامُ سِنانُ

توفى عن سن عالية ، تنيف على الثمانين ، ليلة الجمعة منسلخ شوال سنة ٥١٩ . قرأت بعض ذلك بخط ابن عمارة . وعن ابن رزق أنه توفى أول سنة عشرين ، ودفن بمقبرة باب بيطالة ، لِصْق قبر بلديِّه وصاحبه أبى زيد بن منتيال . انتهى ، عن ابن الأبار . وأبو الحسن ذيال بن عبد الرحمن بن عمر الشريونى ، من شريون بالثغر الشرقى [١] له سماع بسرقسطة من أبى الوليد الباجى ، مع أبى داود المقرى ، وأبى محمد الركلى سنة ٤٦٣ . عن ابن الأبار .

(١) قال ياقوت فى المعجم : حصن من حصون بلنسية بالأندلس نسب إليها السلفى أبا مروان عبد الملك بن عبد الله الشريونى ، وكان قد كتب الحديث بالمغرب والحجاز

وطاهر بن محمد بن طاهر بن عبد الرحمن القرشى الزهرى ، من ولد أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوض ، يعرف بابن الناهض ، سكن سرقسطة ، و روى عن أبى ذر الهروى ، وأبى عمر الطلمنكى ، وكان حسن الخط ، ذكره ابن حبيش . اه عن ابن الأبار . وأبو بكر الكميت بن الحسن . قال ابن الأبار فى التكملة : سكن سرقسطة ، وكان من شعراء عماد الدولة أبى جعفر بن المستعين بالله أبى أيوب بن هود . قال الحميدى: لقيته وقرأت عليه كثيراً من شعره . اه ، قلت : قد كني هنا بابى جعفر عماد الدولة ابن المستعين بالله بن هود ، وعماد الدولة هو عبد الملك بن المستعين الثانى . والحال أنه تقدم لابن الأبار فى ترجمة أبى الحزم خلف العبدرى أن المستعين بالله هو الذى كان يكنى بأبى جعفر ، فلا نعلم هل الأب المستعين هو الذى كان يكنى بأبى جعفر أم هو الابن عبد الملك عماد الدولة ؟ ولاشك بوقوع خطأ فى النسخ . ومحمد بن نصر الجهنى ، كان أبوه نصر من أهل قرطبة ، انتقل منها الى سرقسطة عند هيج أهل الربض ، وهو أخو إبراهيم بن نصر ، قال ابن الفرضى : شاركه فى رحلته ، يعني التى سمع فيها من يونس بن عبد الأعلى ، ومحمد بن اسماعيل الترمذى ، والحارث بن مسكين ، والمزنى ، والربيع بن سليمان صاحب الشافعى وغيره . ومحمد بن أحمد بن عبد الله ابن محمد بن سليمان بن صالح بن تمام العذرى ، يعرف بابن فرتش ، وهو جد القاضى محمد بن إسماعيل بن محمد ، رحل حاجاً ، ولقى محمد بن اللباد وغيره ، وولى قضاء سرقسطة بلده ، وقضاء تطيلة للخليفة الناصر وابنه المستنصر . ترجمه ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن بسام بن خلف بن عقبة الكلبى ، من أهل سرقسطة ، و إمام الجامع بها ، يروى عن أخيه عبد الله بن بسام ، حدث عنه الصاحبان

وتفقه على أبى يوسف الربانى على مذهب مالك . ويوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن عدبس الأنصارى الشريونى يكنى أبا الحجاج ، أخذ عن أبى عمر بن عبد البر وغيره وسكن طليطلة ، ومات فى شوال سنة ٥٠٥ اه . ويظهر أن شريون كانت تعد من الثغر الشرقى أحيانا وتضاف إلى بلنسية أحياناً

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن احمد بن محمد بن قاسم يعرف بابن الانصارى ، روى عن أبيه ، وولي أحكام القضاء ببلده سرقسطة، حدّث عنه ابن عبدالسلام. انتهى عن ابن الأبار • ومحمد بن اسماعيل بن محمد ، قاضي سرقسطة ، وهو ابن فرتش ، رحل مع أبيه اسماعيل ، فسمع بالقيروان من أبي عمران الفاسي سنة ٤١٠

ومحمد بن احمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صُمادح التجيبي ، من أهل سرقسطة ، كان والياً على وشقة ، ثم تخلى عنها لابن عمه منذر بن يحيى التجيبي ، كان مع رياسته من أهل العلم والأدب ، له اختصار في غريب القرآن ، استخرجه من تفسير الطبرى ، رواه عنه ابنه أبو الأحوص ، معن بن محمد ، أمير المرية . قال ابن الأبار : ذكر ذلك ابن عبيد الله ، ووقفت على وصيته لمن هذا ، منقولة من خط أبي بكر بن زهر ، وحكى ابن حيان أنه هلك عطباً في البحر الرومى وكان قد ركبه من دانية يبغي الحج في مركب تأنق في صحبته ، واستجاد آلته وعدته ، وتخير أعدل الأزمنة ، ومعه خلق كثير تشاحّوا في صحبته ، فعطب جميعهم سوى نفر منهم ، تخلصوا للإخبار عنهم ، ومضى هو لم يغن عنه حزمه ولا قوته ، فكان اليم أقصى أثره . وذلك في سنة ٤١٩ ، زاد ابن زهر في جمادى الأولى بين يابسة والاندلس . انتهى .

قلت : وغير بعيد من هنالك ، بالقرب من مينورقة ، على مسافة خمسة كيلو مترات من مرسى سيوداديلة Ciudadela غرق في عشرة فبراير سنة ١٩١٠ باخرة افرنسية اسمها الجنرال شانزى ، وعطب جميع ركابها ، إلا شخصاً واحداً لاغير .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن فرتون ، من أهل سرقسطة ، وقاضي الجماعة بها ، وهو الذى انتصر لأبي عمر الطلمنكي من الذين شهدوا عليه بأنه حرورى سفّاك للدماء ، يرى وضع السيوف على صالحي المسلمين ، فأسقط شهاداتهم ، وكانوا خمسة عشر من الفقهاء والنبهاء بسرقسطة ، وأسجل بذلك على نفسه في سنة ٤٢٥ . انتهى

من تكملة ابن الأبار . ومحمد بن رافع بن غربيب الأموى أحدالشاهدين على الطلمنكى بخلاف السنة ، وذلك لتشدده على أهل عصره وغيرهم ممن حركهم لمطالبته ، فحضروا عند رافع بن نصر ، وهو ابن أخى محمد هذا ، وكتبوا رسماً أوقعوا فيه شهاداتهم بما ذكر ، فأسقطها القاضى ابن فرتون ، وقمع تلك الجماعة ممتعضاً للطلمنكي . ذكره ابن الأبار . ومحمد بن يحيى بن محمد التجيبى كان معدوداً فى فقهاء سرقسطة ونبهائها ، وشاوره القاضى محمد بن عبد الله بن فرتون فى قضية الطلمنكى والشاهدين عليه بخلاف السنة ، عفا الله عن جميعهم ، فأفتى باسقاط شهاداتهم .

وأبو عبد الله محمد بن وهب بن محمد بن وهب ، وهو المعروف بنوح الغافقى ، كان معدوداً من فقهاء سرقسطة ، توفى يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٤٥٨ ، ودفن لظهر يوم الخميس بعده . وأبو عبد الله محمد بن ميمون القرشى الحسينى من أهل سرقسطة ، ومن ولد الحسين بن على رضى الله عنهما ، روى عن أبى عمر القسطلى وغيره ، وكان من أهل العلم بالعربية والآداب ، مدرساً لها ، وعنه أخذ أبو القاسم بن الأنقر ، وأبو مروان عبد الملك بن هشام وغيرهما ، ولأبى محمد الركلى[1] إجازة منه . قال ابن الأبار فى التكملة : قرأت بخط ابن الانقر ، وحدثنى أبو عبد الله ابن نوح عن أبيه أيوب ، وأبو الخطاب بن واجب عن ابن رزق جميعاً قال : حدثنى الفقيه الأديب النحوى أبو عبد الله محمد بن ميمون الحسينى ، قراءة منى عليه فى مسجد الجزارين بسرقسطة ، قال : كانت لى فى صبوتى جارية ، وكنت مغرى بها ، وكان أبى رحمه الله يعذلنى فيها ، ويعرّض لى ببيعها ، لأنها تشغلنى عن الطلب ،

---

(١) نسبة إلى ركلة من عمل سرقسطة . قال ياقوت فى معجمه : ركلة من عمل سرقسطة بالاندلس ينسب اليها عبد الله بن محمد بن درى التجيبى الركلى ابو محمد ، روى عن أبى الوليد الباجى وابى مروان بن حيان وابى زيد عبد الرحمن بن سهل بن محمد وغيرهم وكان من أهل الأدب قديم الطلب ، مات سنة ٥١٣ ، اه . قلنا إن الأسبان يتلفظون بها كالعرب بكسر أولها أى Ricla وهى بقرب نهر شلون لا تبعد كثيراً عن موراطه Morata وموقع ركلة بديع وفيها برج مثمن الشكل ومساكن منحوتة فى الصخور

فكان عذله يزيدني إغراء بها ، فرأيت في المنام كأن رجلا يأتيني في زي أهل المشرق كل ثيابه بيض ، وكان يلقى في نفسي أنه الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان ينشدني:

تصبُو إلى مَيٍّ ومَيٌّ لا تنِي ... تُزهَى ببلواكَ التي لا تنقضي

وبجارُكَ القومُ الأُلَى ما مِنهمُ ... إلا إمامٌ أو وَصيٌّ أو نبي

فاثنِ عِنانكَ لِلهدى عن ذا الهوَى ... وخَف الالهَ عليك ويحك وارعوِي

قال : فانتبهت فزعاً مفكراً فيما رأيته ، فسألت الجارية : هل كان لها اسم قبل أن تتسمى بالاسم الذي أعرفه ؟ فقالت : لا . ثم عاودتها ، حتى ذكرت أنها كانت تسمى بهية ، فبعتها حينئذ ، وعلمت أنها وعظ وعظني الله عز وجل به ، و بشرى .

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يونس بن حبيب بن اسماعيل الأنصاري ، روى عن أبي عمر بن عبد البر ، وأبي عمرو المقري ، وأبي الوليد الباجي ، وأبي عبد الله بن فرتش القاضي ، وأبي عبد الله بن سماعة ، وأبي الوليد الوقشي ، ورحل حاجاً ، فقدم دمشق ، وحدّث بها عن هؤلاء ، ذكره ابن عساكر وقال : سمع منه أبو محمد بن الأكفاني ، وحكى عنه تدليساً ضعّفه به . وتوفي في جمادى الأخرى ، وقيل في رجب سنة ٤٧٧ . عن ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن عبدالله بن عباس يُعرف بابن الموّاق ، روى عن الباجي وابن سعدون القروي وغيرهما . وتولّى قضاء روطة من أعمال سرقسطة ، وكان فقيهاً حافظاً ، وأديباً ماهراً ، توفي سنة ٥٠٣ عن ابن حبيش . قاله ابن الأبار . وأبو عبدالله محمد بن عبد الملك التجيبي المقرئ ، قال ابن الأبار : أحسبه سرقسطيا . يروي عن محب بن حسين أحد أصحاب ابن سفيان ، مؤلف الهادي في القراءات ، أخذ عنه أبو مروان بن الصيقل . وأبو عبد الله محمد بن وهب ابن محمد بن وهب بن محمد بن وهب ، وهو المعروف بنوح الغافقي ، كان فقيها مشاوَراً معظما عند الخاصة والعامة ، يرعاه السلطان و يأتمنه على حرمه وقصره . وخرج من وطنه بعد أن ملكته الروم ، فنزل بلنسية ، وولاه القاضي حسن بن واجب قضاء جزيرة شقر ، و بها توفي ليلة الخميس آخر شهر صفر سنة ٥١٨ ، ودفن بقبلي جامعها ، حدّث عنه ابنه

أيوب . قال ابن الأبار : وبخطه قرأت وفاته . قلنا ظاهر أن المترجم هنا هو حفيد محمد بن وهب بن محمد بن وهب ، المعروف بنوح الغافقى ، المتوفى سنة ٤٥٨ ، وقد تقدمت ترجمته .وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمدبن أحمد بن سهل الأنصارى الأوسى ، من أهل سرقسطة ، سكن بلنسية ، يعرف بابن الخرّاز ، روى عن أبى عبد الله بن أوس الحجارى ، وأبى العباس العذرى ، وأبى الوليد الوقشى ، واختص به ، وسمع منه روايته ، وهو كان القارئ لما يؤخذ عنه ، وكان أديباً ، شاعراً ، راوية ، مكثراً ، حسن الخط . وكان أبوه أبو جعفر أيضاشاعراً ، وهو الذى خاطبه أبو عامر بن غرسية بالرسالة المشهورة . حدّث عنه أبومحمدالقلنى [1] ، وأبو عبدالله بن ادريس المخزومى ، وأبو الطاهر التميمى وغيرهم ، وقال ابن الدباغ : أقرأ القرآن بالثغر ، وكان عنده أدب صالح . عن ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن عقال المقرى ، سمع من الباجى والعذرى ، وله رحلة حج فيها ، حدث عنه أبو الفضل بن عياض . وأبو القاسم محمد بن عبد العزيز بن محمد ابن سعيد بن معاوية بن داود الأنصارى ، سرقسطى أصله من دروقة ، وقد تقدمت ترجمته فيمن انتسب إلى دروقة ، وتوفى قبل العشرين وخمسمائة ، وثكله أبوه . وأبو بكر محمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن أحمد العذرى ، يعرف بابن فرتش ، روى عنه عمه القاضى أبو محمد عبدالله بن محمد،سمع منه مسند أبى بكر البزّار، ومنه سمعه أبو على الصدفي ، وكان أبو على هذا قد استجاز له وجماعة معه أكثر شيوخه الجلّة بالمشرق ، كأبى الفوارس الزينبى ، وابن خيرون . والمبارك بن عبدالجبار وطبقتهم ، وولى الأحكام بسرقسطة ، ثم خرج منها بعد غلبة العدو عليها ، وجوّل ببلاد الأندلس ، وحدث ، وسمع منه بغرناطة أبو جعفر بن الباذش ، وأبو عبدالله

---

(١) نسبة إلى قلنة . قال في معجم البلدان : بلد بالاندلس . قال ابن بشكوال : ينسب اليها عبد الله بن عيسى الشيبانى أبو محمد من أهل قلنة حيز سرقسطة ، محدث حافظ متقن ، كان يحفظ صحيح البخارى وسنن أبى داود عن ظهر قلب ، فيما بلغنى عنه ، وله اتساع فى علم اللسان وحفظ اللغة ، وأخذ نفسه باستظهار صحيح مسلم ، وله عدة تآليف حسنة ، وتوفى ببلنسية عام ٥٣٠

النميرى . وحكى عنه ابن بشكوال وفاة جده القاضى محمد بن إسماعيل . وتوفى بعد الثلاثين وخمسمائة . عن ابن الأبار .

وأبو عبد الله محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد الله البزّاز ، لقى بدانية أبا الحسن الحسن الحصرى ، وسمع منه بعض منظومه ، ورحل حاجاً ، ودخل العراق ، فأجاز له ابن خيرون ، والحُميدى . وأبو زكريا التبريزى ، والمبارك بن عبدالجبار ، وهبة الله بن الأكفانى وغيرهم ، ونزل الاسكندرية وحدث بها ، وأخذ عنه الناس ، وتوفى هنالك . وأبو عبدالله محمد بن خليل بن يوسف بن نظير الأنصارى ، من أهل سرقسطة ، سكن بلنسية ، أخذ عن أبى المطرّف بن الوراق ، وأبى محمد بن سمحون ، وكان سماعه من هذا فى سنتى ثلاثين و إحدى وثلاثين وخمسمائة . عن ابن الأبار . وأبو حاتم محمد بن أحمد بن عيسى بن ابراهيم بن مزاحم من أهل سرقسطة ، كان معنياً بالفقه ، موصوفا بالزهد والنزاهة ، توفى ببلنسية عصر يوم الخميس الثالث عشر لرجب سنة ٥٣٣ . نقل ذلك ابن الأبار عن أيوب بن نوح .

وأبو جعفر محمد بن حكم بن محمد بن أحمد بن باق ، من أهل سرقسطة ، جده ذو الوزارتين محمد بن أحمد صاحب مدينة سالم ، قتل فيها سنة ٤٢٠ ، روى أبو جعفر عن أبى وليد الباجى ، وأبى عبد الله محمد بن يحيى بن هاشم والقاضى أبى الأصبغ بن عيسى ، وأبى جعفر بن جرّاح ، وأبى عبيد البكرى ، وعبد الدائم القيروانى ، وأبى الفوارس بن عاصم وغيرهم ، واستقر بمدينة فاس وأفتى بها ، وولى أحكامها ، وأقرأ العربية ، وكان ذا حظ من علم الكلام ، حسن الخلق ، قوالا بالحق ، وله شرح على الايضاح لأبى على الفارسى ، وكان واقفاً على كتبه ، وعلى كتب أبى الفتح ابن جنى ، وأبى سعيد السيرافى ، وقد حدّث عن أبى جعفر المذكور أبو الوليد بن خيره وأبو مروان بن الصيقل الوشقى ، وأبو محمد بن رحمان ، وأبو عبد الله الأندى ، وأبو محمد ابن بونُه ، وأبو الحسن اللواتى ، وغيرهم ، وتوفى بتلمسان فى نحو سنة ٥٣٨ ، روى ابن الأبار أكثر هذه الترجمة عن ابن حبيش . وأبو بكر بن محمد بن يوسف بن

سليمان بن محمد بن خطاب القيسي ، من أهل سرقسطة ، سكن مرسية ، يعرف بابن الجزار ، أخذ العربية عن أبى بكر بن الفرضى ، وأبى محمد البطليوسى ، وسمع الحديث من أبى على الصدفى ، وأبى محمد بن أبى جعفر ، وأجاز له أبو عبد الله الخولانى ، وقعد للتعليم بالعربية ، وكان مشاركا فى القراءات ، أديباً كاتباً شاعرا ، وجرت بينه و بين أبى عبد الله ابن خلصة مسائل فى إعراب آيات من القرءان ظهر عليه فيها ، وضمّن ذلك رسالة أخذها عنه أبو عبد الله المكناسى فى اختلافه إليه لقراءة النحو عليه ، وقال : قتل بناحية غرناطة سنة ٥٤٠ . تلخيصاً عن ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن سليمان التجيبي السرقسطى ، منها نزل المرية ، كان من أهل المعرفة بالقراءات والفرائض والحساب ، وله فى ذلك تواليف . وأبو الوليد محمد بن محمد بن عريب بن عبد الرحمن بن عريب العبسى من أهل سرقسطة ، سكن شاطبة ، روى عن أبى على الصدفى وأبى محمد بن عتّاب ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى القاسم بن ورد ، وأجاز له الرئيس أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر ، وأبو بكر غالب بن عطية ، وأبو الحسن بن الباذش وغيرهم ، وتصدر للإقراء بشاطبة ، وولى بها الصلاة والخطبة ، قال ابن الأبار فى التكملة : أخذ عنه شيخنا أبو عبد الله بن سعادة المعمر قراءة نافع ، وأجاز له جميع روايته. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجبر التجيبي السرقسطى ، نزيل مصر ، كان مقرئا متصدراً بمقربة من جامعها العتيق ، ذكره ابن حوط الله وقال : أجاز لى فى سنة ٥٨٤ قاله ابن الأبار . وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد الرعينى السرقسطى ، يلقب بالركن ، كان فقيها متحققاً بعلم الكلام ، متقدماً فيه ، يناظر عليه فى الارشاد لأبى المعالى وغيره ، تولى قضاء معدن عوّام ، بمقربة من مدينة فاس ، أخذ عنه أبو الحسن ابن خروف ، وأبو سليمان بن حوط الله ، لقيه بمالقة سنة ٥٨٧ ، وقال توفى سنة ٥٩٨ . وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصارى من أهل غرناطة ، أصله من سرقسطة ، يعرف بابن الصقر ، روى عن أبيه أبى العباس وأبى عبد الله النميري ، وغيرهما ، وولى القضاء ، وكان بارع الخط ، وكتب علماً كثيراً .

وأبو سعيد مسعود بن سعيد من أهل سرقسطة ، وصاحب الصلاة بها ، روى عن أبى بكر الآجرّى ، حدث عنه أبو الحزم خلف بن مسعود بن الجلاد الوشقى . قال ابن الأبار فى التكلة : وذكر ابن الفرضى مسعود بن عبد الرحمن الحنتمى الثغرى ، وكناه أبا سعيد ، وقال إنه سكن قرطبة ، ولم يذكر له رواية عن الآجرى ، ولا جعله من أهل سرقسطة، ولا أدرى أهو هذا وغلط فى نسبه أم غيره ؟ قلنا : لا يوجد دليل على كون ابن الفرضى قصد بمسعود بن عبد الرحمن الحنتمى رجلا اسمه مسعود بن سعيد كان صاحب الصلاة فى سرقسطة .

وأبو الأحوص معن بن معن بن معن الانصارى ، نسبه فى البربر ، ويتولى الأنصار ، من أهل سرقسطة ، وأحد رجالاتها ، ومدره جماعتها . قال ابن الأبار : قرأت اسمه ونسبه فى الأمان الذى عقده الناصر عبد الرحمن بن محمد لصاحب سرقسطة محمد بن هاشم التجيبى ، عند انخلاعه عنها ، وولى قضاء بلده سرقسطة سنة ٣٢٦ من قبل الناصر ، وكان حصيف العقل ، معروفا بالدهاء ، له فهم وإدراك ، ولا ينسب اليه فقه ولا علم ، ذكر ذلك محمد بن حارث ، ولم يزل قاضياً بسرقسطة إلى أن توفى سنة ٣٣٠. ونصر بن عيسى بن نصر بن سحابة ، من أهل مدينة سالم ، سكن سرقسطة ، وكان أديباً ذا معرفة بالعروض . قال ابن الأبار فى التكملة : وقفت له على تأليف فى العروض ليس بذلك ، صنعه للمؤتمن أبى عمر يوسف بن المقتدر أبى جعفر بن هود ، صاحب سرقسطة ، ولابنه وولى عهده أبى جعفر المستعين . اهـ

ظهر من هنا أن كلا من المقتدر بن هود وابنه المستعين الثانى يكنى بأبى جعفر ، وأن قصر الجعفرية هو منسوب اليهما .

وأبو العلاء نام بن محمد بن ديسم بن نام ، كان من أهل الأدب والبلاغة ، وكتب لبعض الرؤساء ، وكان يقرض الشعر ، قال ابن الأبار : واستجاز له أبو على الصدفى ، ومن خطه نقلت اسمه ، والجماعة معه من أهل سرقسطة وبلادها ، وتوفى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة . وأبو محمد عبد الله بن ثابت بن سعيد بن ثابت بن

قاسم بن ثابت بن حزم العوفى ، كان يحدث بالدلائل ، تأليف جده الأعلى قاسم بن ثابت ،عن أبيه ، متصلاذلك فى سلفه إلى المؤلف ، وكان فقيها مشاوراً جليلا، عريقاً فى النباهة والعلم ، شاوره القاضى محمد بن عبد الله بن فرتون فيما شُهد به على أبى عمر الطلمنكى ، من كونه حروريا على خلاف السنة ، وكان معه جماعة هو صدرهم ، فأفتوا باسقاط شهادات المتألبين على الطلمنكى . حدث عن ابى محمد المذكور ابنه القاضى ابو القاسم ثابت بن عبد الله ، آخر من حدث من أهل بيتهم . وأبو محمد عبد الله بن على الانصاري من ذرية الحسين بن يحيي بن سعيد بن قيس بن سعد بن عبادة ، تولى الصلاة ببلده مضافة اليها من قبل المؤتمن أبى عمر يوسف بن المقتدر أبى جعفر ابن هود ، وكان فاضلا من بيت علم و رئاسة ، وكانت وفاة المؤتمن في سنة ٤٧٨ ، روى ذلك ابن الأبار عن محمد بن نوح . وعبد الله بن سعيد بن عبد الله اللخمى أحد الفقهاء المشاورين فى سرقسطة ، وهو ممن أفتى باسقاط شهادة من شهدوا على الطلمنكى بمخالفته للسنة . وأبو محمد عبد الله بن موسى بن ثابت ، له سماع من أبى العباس العذرى ، أخذ عنه صحيح مسلم . وأبو الحسين عبد الله بن مروان بن عبد الله بن محمد ابن حفصيل ، من ولد حفص بن سليمان ، راوية عاصم بن أبى النجود القارى ، أخذ عن أبى يونس عبد الله بن هذيل القلعى ، وأخذ عنه أبو عمرو البلجيطى المقرىء . وأبو بكر عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عمير الثقفى ، روى ببلده سرقسطة عن صاحب الأحكام أبى الحزم خلف بن هاشم ، وأخذ عن أبى على الصدفى . قرأ عليه بمرسية رياضة المتعلمين لأبى نعيم فى سنة ٤٩٥ ، وسمع بقرطبة من أبى بحر الأسدى بعد خروجه من سرقسطة سنة ٥١٦ ، وتوفى بمدينة فاس سنة ٥٢٩ ذكر وفاته ابن حبيش .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مقاتل التجيبى ، من أهل بلنسية ، أصله من سرقسطة ، صحب القاضى أبا بكر بن أسد ، وتفقه به ، وحضر مجلس أبى محمد بن عاشر ، وكان فقيها عارفاً بعقد الشروط متقناً لها ، قال أبو محمد بن نوح : توفى

ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة ٥٥٢ ، ترجمه ابن الأبار . وأبو محمد عبدالله ابن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن محمد بن مطروح التجيبي ، من أهل بلنسية ، أصله من سرقسطة ، سمع أباه وأبا العطاء بن نذير ، وأبا عبدالله بن نسع ، وأبا الحجاج ابن أيوب ، وأبا الخطاب بن واجب ، وأبا ذر الخشني ، والقاضي أبا بكر عتيق بن على وغيرهم . وأكثر من أخذ عنه هو أبو عبد الله بن نوح ، فقد تلقى عنه القراءات والأدب ، ولازمه طويلا ، وأجاز له أبو بكر بن الجد ، وأبو عبد الله بن الفخّار ، وأبو عبد الله بن زرقون ، وأبو القاسم بن حبيش ، وأبو الحسن بن كوثر وغيرهم ، وأجاز له من أهل المشرق أبو الطاهر بن عوف ، وأبو عبد الله بن الحضرمى ، وأبو الثناء الحرّانى ، وأبو طالب التنوخى وغيرهم . قال ابن الأبار : وولى بآخرة من عمره قضاء دانية ، ثم صُرف بى عند ما قلدت ذلك فى رمضان سنة ٦٣٣ ، ثم أعيد الى قضائها بعد ذلك ، لما استعفيت منه ، وكان فقيهاً عارفاً بالأحكام ، عاكفاً على عقد الشروط ، من أهل الشورى والفتيا ، أديباً شاعراً مقدماً فكها ، صدوقاً فى روايته ، سمعت منه حكايات وأخباراً ، وأنشدنى لنفسه ولغيره كثيراً ، وأجاز لى غير مرة لفظاً جميع ما رواه وأنشاه ، وروى عنه بعض أصحابنا . توفى ببلنسية مصروفاً عن القضاء عند المغرب من ليلة الجمعة التاسع لذى القعدة سنة ٥٣٦ ، والروم محاصرون بلنسية ، ودفن بمقبرة باب الحنش لصلاة ظهر الجمعة ، قبل امتناع الدفن بخارجها ، ومولده سنة ٥٧٤ انتهى . وأبو عبد الله بن الصفّار ، أخذ بسرقسطة عن أبى العباس احمد بن على بن هاشم المقرى المصرى فى مقدمة سرقسطة سنة ٤٢٠ ، ذكره أبو عمر ابن الحذاء في برنامجه . وأبو مروان عبيد الله بن هاشم بن خلف بن احمد بن هاشم العبدرى ، روى عن أبى هارون موسى بن أبى درهم ، وسمع من أبى وليد الباجى ، وهو كان القارىء عليه لصحيح البخارى بسرقسطة فى رجب سنة ٤٦٣ ، وأخوه أبو الحزم خلف بن هاشم هو أيضاً من علماء سرقسطة .

وأبو الحكم عبيد الله بن على بن عبيد الله بن غَلِنْدُه الأموى ، مولاهم ، من

أهل سرقسطة ، لما تغلب العدو على بلده خرج مع أبيه وجده إلى قرطبة ، وأخذ عن أبى عبد الله بن أبى الخصال ، وأبى بكر يحيى بن الفتح الحجارى ، ثم رحل عن قرطبة إلى اشبيلية فأوطنها ، وكان أديباً شاعراً ، وطبيبا ماهراً ، وكان صناع اليدين أبرع الناس خطا ، وأحسنهم ضبطا ، وكتب علما كثيراً . قال ابن الأبار فى التكملة : وأنشدنى له بعض أصحابنا من لزومياته :

إذا كان إصلاحى لجسمىَ واجباً فاصلاحُ نفسى لا محالةَ أوجبُ
وإن كان ما يَفنى إلى النفس مُعجباً فان الذى يَبقَى إلى العقل أعجبُ

وتوفى بمراكش سنة ٥٨١ ، وحدثنى الثقة أنه بلغ سبعاً وتسعين سنة اه . وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأموى البزاز ، يعرف بابن الصرّاف ، روى عن أبي محمد الاصيلى ، وأبى بكر بن موهب القبرى ، حدّث عنه ابن أخيه أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد الخطيب بسرقسطة ، ترجمه ابن الأبار . وعبد الرحمن بن عبدالله ابن ميسرة ، من أهل سرقسطة وقاضيها ، ذكره أبو محمد بن نوح وقال : توفى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت لرجب سنة ٤٤٢ . ودفن يوم الأربعاء بعده ، قال : وولى القضاء فى آخر شعبان من السنة محمد بن اسماعيل بن فورتش . وفى هذه السنة ، ولاحدى عشرة ليلة بقيت لرجب ، احترق من جامع سرقسطة البلاط الشرقى . نقلا عن ابن الأبار . وأبو القاسم عبد الرحمن بن فُرتون الانصارى ، روى عن أبى عمرو المقرى ، وحدث عنه بحياته بكتاب « تفكر الحافظ » من تأليفه ، قال ابن الأبار: وقفت على ذلك فى نسخة عتيقة منه ، ويقال إن هذا الكتاب هو أول ما ألفه أبو عمرو . وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن عياض اليحصبى المكتّب ، كان من القراء ، ومن علماء الحساب ، وأدّب بذلك ، أخذ عنه أبو على الصدفى ، وعنده أكمل حفظ القرآن . وأبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الرحمن فورتش ، رحل حاجا فسمع بمكة أبا ذر الهروى ، وأجاز له أبو عمرو السفاقسى ، ولأخيه القاضى أبى عبدالله محمد بن يحيى بن فورتش ، لقيه أبو على الصدفى ولم يسمع منه شيئا . وعبد الرحمن

ابن موسى بن ميسرة من أهل سرقسطة أو ناحيتها ، يحدث عن أبى الفوارس منجّى ابن موسى من أصحاب أبى بكر بن الخطيب .

وأبو بكر عبد الرحمن بن احمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عمير الثقفى ، من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، روى عن أبيه وعمه ابى بكر عبد الله بن يحيى ، وابى عامر بن شروّية ، وابى الحسن بن مغيث ، وابى بكر بن العربى ، وابى عبد الله بن مكى ، وابى مروان بن مسرة ، وابى عبد الله بن ابى الخصال ، وابى الحكم بن غُشليان ، وابى بكر يحيى بن موسى ، سمع منه بقرطبة فوائد ابن صخر . وكان من أهل العناية بالرواية ، حسن الخط والضبط ، أزعجته الفتنة بقرطبة إلى ميورقة فنزلها وحدث بها ، وسمع منه ابو محمد بن سهل المنقودى وغيره سنة ٥٣٨ ، رواه ابن الأبار . وعبد الملك بن هشام التجيبى ، ويكنى أبا مروان ، روى عن ابى عبد الله محمد القسطلى . وعبد العزيز بن جوشن ، من أهل سرقسطة ، كان فقيها مشاوراً ، وولى الصلاة بجامعها . وكان ممن أفتى باسقاط شهادات المتألبين على ابى عمر الطلمنكى

وأبو جعفر عبد الوهاب بن محمد بن حكم الانصارى ، من سرقسطة ، أخذ القراءات بطليطلة عن ابى عبد الله المغامى ، وأجاز له ابو الفضل بن خيرون ، من بغداد ، فى رمضان سنة ٤٨٦ ، وتصدر ببلده للاقراء ، ومن مشاهير تلاميذه ابو محمد عبد الله بن ادريس بن سهل المقرىء نزيل سبتة ، وأبو محمد يحيى بن محمد بن حسان القلعى ، وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن بقاء البُلغى ، نزيل دمشق ، وأبو محمد بن سعدون الوشقى الضرير وغيرهم ، واستشهد فى وقيعة وشقة سنة ٤٨٩ ، فى آخر ذى القعدة أو أول ذى الحجة منها ، وهى إحدى الوقائع الفاجعات بالاندلس . قتل فيها نحو عشرة آلاف من المسلمين ، ذكر ذلك ابن الأبار القضاعى فى التكملة .

وأبو عمر عثمان بن فرج بن خلف المبدرى السرقسطى ، حج فسمع من الرازى ومن أبى بكر بن عبد الله بن طلحة اليابُرى ، وأبى الحجاج بن زياد الميورقى ، وأبى الحسن على بن النبيهى الزاهد ، وسكن بالقاهرة . قال ابن الأبار : وروى عنه من شيوخنا

أبو عبد الله الألشى ، لقيه فى جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة . وأبو عمرو عثمان ابن يوسف بن أبى بكر بن عبد البر بن سيدى بن ثابت الانصارى السرقسطي ، ويقال له البلجيطى ، أخذ القراءات عن أبى زيد الوراق ، ويحيى بن محمد القلعى ، وأخذ عن أبي زيد بن حياة قراءة نافع ، واختلف الى أبى جعفر بن شريح ، وأبى الحسن بن طاهر فى أخذ العربية ، وسمع التيسير من أبى الحسن بن هذيل سنة ٥٢١ واستوطن « لريه » ثم ولى قضاءها ، وكان قارئا ضابطاً ، محققاً إخبارياً ذاكراً ، وأسن ، وأخذ عنه الناس . قال ابن الأبار : وأخذ عنه من شيوخنا أبو عبد الله الشونى وأبو الربيع بن سالم ، وكانت ولادته سنة ٤٨٧ ، ووفاته فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٧٧ . وأبو الحسن على بن عبد الله بن موسى بن طاهر الغفارى السرقسطى البرجى ، وبُرجة من أعمال سرقسطة ، كان من القراء ، توفى سنة خمس أو ست وثلاثين وخمسمائة . وأبو الحسن على بن يوسف بن الامام ، من أدباء سرقسطة ، وكان زاهداً روى عنه أبو الوليد بن خيرة الفقيه .

وأبو العلاء همام بن يحيي بن همام السرقسطى ، كان كاتبا بليغا متفننا ، بديع الخط ، كتب عن المقتدر بالله ابى جعفر بن هود ، ثم عن ابنه المؤتمن ، ثم عن المستعين ابن المؤتمن ، وتوفى فى الدولة اللمتونية . عن ابن الابار . ومثله ابنه أبو بكر يحيي بن همام ابن يحيي السرقسطى ، المعروف بابن ارزاق ، كان من أهل الأدب مع بداعة الخط ، وكتب للمستعين ابى جعفر بن هود مع أبيه همام ، وكتب ليوسف بن تاشفين ، ثم لابنه على ، واستدعى إلى مراكش سنة ٤٩٥ ، وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٣٧ ، عن ابن الأبار . وابو بكر يحيي بن محمد السرقسطى ، نزيل مرسية ، يعرف باللبّانى ، أخذ عن أبى الوليد الوقشى ، وابى الحسن بن افلح النحوى ، وكان ماهراً فى علم العربية ، حافظا للغة ، أقرأ بمرسية وغيرها ، أخذ عنه ابو عبد الله بن سعادة ، وأبو على ابن عريب ، وغيرهما ، وتوفى فى نحو العشرين وخمسمائة . ومحمد بن سليمان بن تليد ، ولى القضاء بسرقسطة ، ووشقة ، يروى عن محمد بن احمد العتبي ، ومحمد بن يوسف

ابن مطروح الربعي، توفى سنة ٢٩٥ ترجمه ابن عُميرة الضبي فى بغية الملتمس . ومحمد ابن عبد الرحمن بن عبد الله السرقسطى الفقيه المقرىء ، روى عنه أبو بكر بن العربي وغيره .

وأبو اسحق ابراهيم بن نصر السرقسطى ، حدّث عن احمد بن عمرو بن السرح ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، ويحيي بن عمر ، روى عنه عثمان بن عبد الرحمن ، ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس . وابراهيم بن هارون بن سهل ، قال ابن عميرة : قاضى سرقسطة من ثغور الأندلس ، فقيه محدث ، مات بها سنة ست وتسعين ومائتين. وحفص بن عبد السلام السلمى ، قال ابن عميرة : سرقسطى ، روى عن مالك بن أنس ، مات بالأندلس قريباً من سنة مائتين ، ورَزين بن معاوية ، قال ابن عميرة : سرقسطى محدث ، توفى سنة ٥٢٤ بمكة ، زادها الله شرفاً . وسليمان بن مهران السرقسطى ، أديب شاعر مشهور ، له جلالة وقدر ، روى أبو محمد بن حزم عن محمد بن الحسن المذحجى قال : أنشدني سليمان بن مهران ، فى مجلس الوزير أبي الاصبغ عيسى بن سعيد وزير المظفر عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر :

خليليَّ ما لِلريحِ تأتى كأنما ... يخالطها عند الهُبوب خَلوقُ
أم الريحُ جاءت من بلادِ أحبّتى ... فأحسبها عَرْفَ الحبيب تسوقُ
سقى الله أرضاً حلها الأغيَدُ الذي ... لتَذْكارِه بين الضلوع حريق
أصار فؤادى فِرقتين فعندَه ... فريقُ وعندى في السّياقِ فريقُ

وأبو الربيع سليمان بن حارث بن هارون الفهمى ، قال ابن عميرة : فقيه سرقسطى، توفى بالاسكندرية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة .

وأبو عبد الله محمد بن بسام بن خلف بن عقبة الكلبي من أهل سرقسطة وإمام الجامع بها، يروى عن أخيه عبدالله بن بسام،حدّث عنه الصاحبان . وحسان بن عبد السلام السلمى ، يروى عن مالك بن أنس ، قال ابن عميرة : ذكره محمد بن حارث الخشنى ، وأبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطى ، يعرف بالحمّار . قال ابن عميرة :

له أدب وعلم وتصرف فى حدود المنطق ، وهو مشهور . وعبد الله بن محمد بن زرقون السرقسطى . قال ابن عميرة : بتقديم الزاى على الراء ، محدّث ، روى عن أصبغ بن الفرج . روى عنه محمد بن وضاح ، ومن جملة ما روى عنه رواية عن أصبغ بن الفرج عن ابن وهب ، وهى : ما يحل لأحد أن يرد شيئاً بغير علم ، ولا يقول شيئاً بغير ثبت. ولقد سمعت مالكا يقول : والله ما أحب أن تكتبوا عنى كل ما تسمعون منى . قال ابن وهب : ولو عرضنا على مالك كل ما كتبنا عنه لمحا ثلاثة أرباعه . وعبد الله بن أبى النعمان قاضى سرقسطة ، قال ابن عميرة : من أهل العلم والفضل ، مات سنة خمس وسبعين ومائتين . وأبو الحكم عبد الرحمن بن عبد الملك بن غشليان السرقسطى ، توفى بقرطبة سنة ٥٤١ قاله ابن عميرة . وعبدالأعلى بن الليث ، يكنى أبا وهب ، من أهل سرقسطة ، محدث له رحلة ، مات بالأندلس سنة ٢٧٥ ، ذكره ابن عميرة في البغية . وكلثوم بن أبيض المرادى ، يكنى أبا عون ، من أهل سرقسطة ، محدث له رحلة ، مات بالاندلس سنة ٢٥٣ ، ذكره أيضا ابن عميرة . وأبو مروان بن الانصارى السرقسطى ، من ذرية الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجى أمير سرقسطة ، كان فقيها فاضلا زاهداً ، وكان أمراء بلده بنو هود يتناغون فى اكرامه واحترامه . ذكره ابن نوح عن ابن الابار .

وأبو محمد لب بن عبد الله ، من أهل سرقسطة ، قال ابن عميرة : محدث ، كان فاضلا زاهداً ، كتب عن أهل الاندلس ولم يرحل ، وكانت وفاته فى صدر أيام الامير عبد الله بن محمد . قاله أبو سعيد . وموسى بن على بن رباح ، قال ابن عميرة : يقال إن قبره بسرقسطة بإزاء قبر حنش بن عبد الله . وأبو عبد العزيز عبدالرءوف بن عمر بن عبد العزيز ، محدث معروف ، قال ابن عميرة . مات بلاردة من ثغور الأندلس سنة ثمان وثلاثمائة . والوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس بن عبد الله الباهلى القاضى، من أهل سرقسطة ، ذكره محمد بن حارث الخشنى ، ترجمه ابن عميرة فى بغية الملتمس . وأبو الحجاج يوسف بن محمد السرقسطى ، قال ابن عميرة : كان قارئاً لكتب الحديث

محسنا ، توفى بعد السبعين وأربعمائة . والفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول السرقسطى ، جاء فى نفح الطيب ذكره ، وقال: إنه قد ذكره العماد الاصفهانى فى الخريدة ، وذكره السمعانى فى الذيل ، وأنه دخل بغداد فى حدود سنة ست عشرة وخمسمائة ، ومن شعره :

أيا شمسُ إني إن أتتكِ مدائحي وهُنَّ لآلٍ نُظِّمت وقلائد
فلستُ بمن يبغى على الشعر رِشوة أبَى ذاكَ لِي جدٌّ كريم ووالد
وأنىَ من قوم قديماً ومحـدثاً تباع عليهم بالألوف القصائد

وأبو مروان محمد بن يوسف بن مرونجوش ، قال ابن عميرة : سرقسطى فقيه ، توفى سنة تسع عشرة وخمسمائة . وعبد الله بن سعيد بن عبد الله اللخمى .

وأبو محمد عبد الله بن محمد بن سندور بن منتيل بن مروان التجيبى ، سمع أبا عمر ابن عبد البر ، وأبا الوليد الباجى ، وأبا العباس العذرى ، وأبا عمر الطلمنكى ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وتوفى قبل الخمسمائة .

وأبو محمد عبدالله بن محمد بن طريف ، قال ابن الأبار : كان من أهل المعرفة بالعربية، مع حظ من قرض الشعر ، وكان فى نحو الخمسمائة . وأبو محمد يعيش بن محمد بن فتحون من أهل الثغر ، له رحلة إلى المشرق ، روى فيها عن أبى الطاهر العجيفى ، وأبي القاسم الجوهرى وغيرهما ، حدث عنه محمد بن عبد السلام الحافظ . و يوسف بن عبد الملك ، ثغرى ، يكنى أبا عمر ، روى عن وهب بن مسرة وغيره ، حدث عنه الصاحبان وقالا : توفى فى المحرم سنة ٣٨٧ . وخلف بن سيد ، من أهل الثغر الشرقى ، يحدث عن عيسى بن موسى بن الامام ، لقيه بتطيلة ، وأخذ عنه ، وأبو الحسن ذيّال بن عبد الرحمن بن عمر الشريونى الثغرى ، سمع بسرقسطة من أبى الوليد الباجي وغيره سنة ٤٦٣ . وأبو عبد الله محمد بن جعفر الهمذانى ، يعرف بالشرقى ، نسبة إلى شرق الاندلس ، قرأ بجامع قرطبة ، ذكره ابن الدباغ ووصفه بالعلم والنبل ، وتوفى سنة ٥١٣ ، قاله ابن الأبار . وأبو الربيع الخصيب بن محمد بن خصيب بن الخزاعى . وأبو

الطاهر الاشتركونى ، من اشتركونى ، حصن من أعمال تطيلة ، اسمه محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن ابراهيم ، سمع من جلة العلماء ، وتحقق باللغة والأدب ، وألف المسلسل ، وأنشأ المقامات اللزومية ، ومات بقرطبة سنة ٥٣٨ ، ومن عادة الاندلسيين أنهم إذا أطلقوا الثغر أرادوا به سرقسطة أو إحدى جهاتها ، وقد ينسبون إلى الثغر فيقولون فلان الثغرى ، و يكون من سرقسطة ، أو من وشقة ، أو من تطيلة ، أو من لاردة ، وهلم جرًّا من المدن التى كانت يومئذ آخر بلاد المسلمين ، أو من ملحقاتها .

فمن هؤلاء أبو حديدة ناهض بن عريب ، قال ابن الأبار : من أهل الثغر الشرقى روى عن زكريا بن النداف . وأبو يونس عبد العزيز بن عمر بن حبنون ، من أهل منتشون ، من أهل الثغر الشرقى ، سمع من أبى الوليد الباجى صحيح البخارى بسرقسطة سنة ٤٦٣ وولى الأحكام بموضعه . قال ابن الابار : قرأت ذلك بخط أبى داود المقرىء. وأبو الاصبغ عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن خلف الاموى ، من أهل بلشند . قال ياقوت : بسكون اللام وفتح الشين وسكون النون ، من نواحى سرقسطة بالانداس ، وفيها حصن يعرف ببنى خطاب ، روى عن أبى محمد بن أبى جعفر ، سمع منه ، وحكى عنه أنه كان يقول :سمعت كتاب صحيح البخارى على ابى الوليد الباجى ، ولكنى لا أحدث به عنه ، لأنه كان يصحب السلطان . وأبو الحجاج يوسف بن ابراهيم العبدرى المعروف بالثغرى ، قال ابن عميرة : فقيه محدث راوية ، عارف أديب ، انتقل الى مرسية فى الفتنة واقتنع ولم يتعرض لظهور ، وكان قد غصّ به جماعة من الفقهاء بمرسية حين وصلها ، فسُعى له فى الخطبة بجامع قليوشة من قرى مدينة اوريوالة ، وانتقل اليها ، سمعت عليه بعض كتاب الموطأ ، يروى عنه جماعة ، منهم أبو الحسن بن مغيث والحافظ ابو بكر وابو الوليد ابن رشيد ، وأجاز له ابو الحسن رزين بن معاوية العبدرى ، وتوفى سنة ٥٦٠ . وكان مولده سنة ٤٧٢ ببلده اه . قلت : قرأت فى بعض الكتب أن القاضى أبا يوسف كان محدثا ، فلما اتصل بهارون الرشيد تحامى الناس سماع حديثه

وخلف بن سيد من أهل الثغر الشرقي يحدث عن عيسى بن موسى بن الامام

لقيه بتطيلة ، وأخذ عنه . وخلف بن موسى بن فتوح المقرىء ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بالأشبرى ، وأشبرة قرية من قرى سرقسطة . كان مقرئا ، أخذ عنه أبو على ابن بشر السرقسطى وغيره ، ذكره ابن الدباغ ، عن ابن الأبار . وأبو عبدالله محمد بن فتح الأنصارى الامام الثغرى ، قال أبو عمرو المقرىء أنشدنى أبياتا فى الزهد منها :

كم مِنْ قوىٍّ قوىٍّ فى تَقَلُّبه مهذبِ الرأى عنه الرزق ينحرفُ
ومِن ضعيفٍ ضعيف الرأى مختبلٍ كأنه من خليج البَحْر يَغترف

وغالب بن عبد الله الثغرى ، شاعر أديب ، ذكره ابن عميرة .

وأبو القاسم خلف بن عيسى ، من أهل الثغر الشرقى ، وليس بابن أبى درهم ، روى عن أبى عمر بن المندى ، وأبى عبدالله بن العطار . ذكره ابن الأبار . ومحمد بن سعيد بن ثابت العبدرى ، من أهل الثغر الشرقى ، أبو عبدالله ، حدث عنه أبو زاهر سعيد بن أبى زاهر ، وكان صاحب الصلاة بموضعه . ذكره ابن الأبار نقلا عن ابن حبيش . وأبو عبدالله محمد بن فرج بن جعفر بن خلف القيسى ، من أهل الثغر الشرقى ، سكن غرناطة ، يعرف بابن أبى سمرة ، أخذ القراءات عن أبى جعفر أحمد بن عبدالحق الخزرجى ، وأبى القاسم بن النحاس ، وأبى الحسن بن كرز وغيرهم . ودرس العربية ولقيه أبو عبد الله بن حميد بغرناطة سنة ٥٣٥ ذكره ابن الأبار .

وممن ينسب إلى سرقسطة من المشاهير ، وإن لم يكن من أهل العلم ، ابراهيم ابن محمد بن مفرج بن همشك ، وهمشك جده نصرانى أسلم على يد بنى هود بسرقسطة وكان مقطوع إحدى الأذنين ، فكان النصارى إذا رأوه فى القتال قالوا (همشك) معناه ترى مقطوع الأذن ، فان (هاء) عندهم قريب من (اما) بالعربية . والمشك فى لغتهم هو المقطوع الأذنين .

وإبراهيم هذا لما خرج بنو هود من سرقسطة نشأ تحت الخمول . قال لسان الدين ابن الخطيب فى الاحاطة فى صفحة ١٦٠ من الطبعة المصرية : إنه كان شهماً متحركا خدم بعض للموحدين بالصيد وتوسل بدلالة الأرض ، ثم نزع إلى ملك قشتالة ،

واستقر مع النصارى ، ثم انصرف إلى بقية اللمتونيين بالأندلس ، بعد شفاعة و إظهار توبة . ولما ولى يحيى بن غانية قرطبة ارتسم لديه برسمه ، ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين

وثار ابن أحمر بقرطبة ، وتسمّى بأمير المؤمنين ، فبعثه ابن غالية رسولا ، ثقة بكفايته ودربته ، لمحاولة الصلح بينه و بين ابن أحمر ، فنبه قدره .

ثم غلى مرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس ، فاتصل بالأمير ابن عياض بالشرق وغيره ، إلى أن تمكن له الامتياز بحصن شقوبش ، ثم تغلب على مدينة شقورة (١) وتملكها ، وهى ماهى من النعمة ، فغلظ أمره ، وساوى محمد بن مردنيش أمير الشرق ، وداخله حتى عقد معه صهراً على ابنته ، فاتصلت له الرئاسة والامارة ، وكان سيفا لصهره المذكور مسلّطا على من عصاه ، فقاد الجيوش ، وافتتح البلاد ، إلى أن فسد بينهما ، فتفاتنا وتقاطعا ، وانحاز بما لديه من البلاد والمعاقل ، وعد من ثوار الأندلس أولى الشوكة الحادة ، والشبا المرهوب ، بعد انقباض دولته . قال محمد بن أيوب بن غالب ، المدعو بابن حمامة : أبو اسحق الرئيس شجاع بهمة من البهم ، كان جريئا شديد الحزم ، سديد الرأى ، عارفا بتدبير الحروب ، حمى الأنف ، عظيم السطوة ، مشهور الاقدام ، مرتكباً للعظيمة . قال بعض من عرّف به من المؤرخين : إنه و إن كان قائد فرسان ، فقد كان حليف فتنة وعدوان ، ولم يصحب قط متشرعا ، ولا نشأ فى أصحابه من كان متورعا ، سلطه الله على الخلق وأملى له ، فأضر بمن جاوره من أهل البلاد . وقال لسان الدين : كان جباراً قاسياً ، فظاً غليظا ، شديد النكال ، عظيم الجرأة والعبث بالناس ، بلغ من عبثه فيهم إحراقهم بالنار ، وقذفهم من الشواهق والأبراج ، و إخراج الأعصاب والرباطات عن ظهورهم ، عن أوتار القسى ، وضم أغصان الشجر العادى بعضها إلى بعض ، وربط الانسان بينها ، ثم تسريحها فيذهب كل غصن بحظه من الأعضاء . قال : ورآه بعض الصالحين فى النوم وسأله : ما فعل الله بك ؟ فأنشده :

مَنْ سره العَيْش فى الدنيا بخلقة مَنْ ... يصوّر الخَلْق فى الأرحام كيف يشا

(١) Segura سيأتى ذكرها

فليصير اليوم صبري تحت بطشته مقلّلاً أمتطي جَمّ الفضا فُرُشا

ثم ذكر لسان الدين شجاعته فقال : زعموا أنه خرج متصيداً ، وفي صحبته مخاولون له ، وقارعوا أوتار الغناء في مائة من الفرسان ، فما راعهم إلا خيل العدو هاجمة على غرة ، في مائتين من الفوارس ، فقالوا : العدو في مائتي فارس ؛ فقال : و إذا كنتم أنتم لمائة وأنا لمائة فنحن قدرهم . فعد نفسه بمائة ، ثم استدعى قدحاً من شرابه وصرف وجهه إلى المغني وقال : غنّ لي تلك الأبيات ، وكان يغنيه بها فتعجبه :

يتلقى النّدَى بوجـه حياء وصدورَ القنَا بوجه وقاح

هكذا هكذا تكون المعالي طُرُق الجدّ غير طرْق المزاح

فغناه بها ، واستقبل العدو وحمل عليه بنفسه و بأصحابه حملة رجل واحد ، فاستولت على العدو الهزيمة ، وأتى على معظمهم القتل ، ورجع غانماً إلى بلده ، ثم انصرفت الأيام ، وعاد للصيد في موضعه ، وأطلق بازه على حجلة فأخذها ، وذهب ليذبحها ، فلم يحضره خنجر ، فبينما هو يلتمسه إذ رأى نصلا من نصال المعترك ، من بقايا الهزيمة فأخذه وذبح الطائر ، واستدعى الشراب وأمر المغني ، فغناه بيتي أبي الطيب :

تذكرت مابين العُذيب و بارِق مجرّ عَوالينا ومَجْرى السوابق

وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلة ما قد كسروا في المفارق

وقد رأيت من يروى هذه الحكاية عن أحد أمراء بني مردنيش . وعلى كل حال فهي من مستظرف الأخبار .

قال لسان الدين : وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة ، في جمادى الأولى منها ، قصد إبراهيم بن همشك بجمعه مدينة غرناطة ، وداخل طائفة من ناسها ، وقد تشاغل الموحدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم ، وتوجه الوالي بغرناطة السيد أبو سعيد إلى العدوة ، فاقتحم ابن همشك غرناطة ليلا ، واعتصم الموحدون بقصبتها فنصب لهم المجانيق ، وقتلهم بأنواع من القتل . وعند ما اتصل الخبر بالسيد أبي سعيد بادر إليها ، فأجلز البحر ، والتف به السيد أبو محمد ، والسيد أبو حفص ، بجميع

جيوش الموحدين ، و وصل الجميع إلى ظاهر غرناطة ، وأصحر إليهم ابن همشك ، و برز منها ، والتقى الفريقان بمرج الرقاد من خارجها ، ودارت بينهم الحرب ، فانهزم جيش الموحدين ، واعترضت الفلّ تخوم الفدادين ، وجداول المياه التى تتخلل المرج ، فاستولى عليهم القتل ، وقتل فى الوقيعة السيد أبو محمد ، ولحق السيد أبو سعيد بمالقة ، وعاد ابن همشك إلى غرناطة ، فدخلها بجملة من أسرى القوم أفحش فيهم المثلة ، بمرأى من إخوانهم المحصورين .

واتصل الخبر بالخليفة ، وهو بقرية سلا ، فجهز جيشاً أصحبه السيد أبا يعقوب ولده والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته ، وداهية زمانه ، فأجازوا البحر، والتقوا بالسيد أبى سعيد بمالقة ، وتتابع الجمع ، والتفّ بهم من المجاهدين والمطوعة ، واتصل منهم السير الى قرية داق من قرى غرناطة . وكان من استمرار الهزيمة على ابن همشك ، لذى جره لنفسه وجيشه من نصارى وغيرهم ما يأتى ذكره عند اسم مردنيش . ثم قال :

ولما فسد بين ابن همشك وابن مردنيش بسبب بنته التى كانت تحت ابن مردنيش فطلقها ، وانصرفت إلى ابيها ، وأسلمت اليه ابنها ، وسئلت عن إمكان صبرها عنه ، فقالت : جرو سوء من كلب سوء ! فأرسلت كلمتها فى نساء الاندلس مثلا ـ اشتدت بينهما الفتنة ، وعظمت المحنة ، وهلك بينهما من شاء الله هلاكه ، إلى أن كان أقوى الأسباب فى تدمير ملكه .

ولما صرف ابن مردنيش عزمه إلى بلاده ، وتغلب على كثير منها ، خدم ابن همشك الموحدين ، واستجار بهم ، وقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة ، فأكرم قدومه ، وأقرّه بمواضعه ، إلى أوائل عام أحد وسبعين ، فطولب بالانصراف إلى العدوة بأهله وأولاده ، وسكن بمكناسة ،وأقطع بها أملاكا لها خطر

وابتلاه الله بفالج غريب الأعراض ، فكان يدخل الحمام الحار فيشكو حره بأعلى صراخه ، فيخرج فيشكو البرد كذلك ، إلى أن مضى لسبيله ، انتهى ببعض تصرف

وممن ينسب إلى سرقسطة عمر بن مصعب بن أبى عزير بن زوارة بن عمرو بن

هاشم العبّادى ، وقيل العبدرى ، ذكره ابن عميرة فى بغية الملتمس ، نقلا عن ابن يونس. وأبو الحكم المنذر بن رضا السرقسطى ، سكن بلنسية ، وكان من الشعراء . ومظفر الكاتب السرقسطى ، خرج من سرقسطة ، وسكن غرناطة ، وكنيته أبو الفرج ، أخذ عن قاسم بن محمد الشيبانسى ، وأبى عمر القسطلى ، وصحب أبا بكر المصحفى ، ذكره ابن الأبار .

ونسب إلى سرقسطة حكماء وعلماء من اليهود ، من مشاهيرهم ابن الفوال [١] الطبيب الفيلسوف . ومنهم الفضل حسداى [٢] المشهور بالحكمة والرياضيات .

وممن سكن فى سرقسطة من الأطباء أبو عبد الله بن الكتانى ، وهو من أطباء المسلمين ، ترجمه ابن أبى أصيبعة فقال : هو أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكتانى ، كان أخذ الطب عن عمه محمد بن الحسين وطبقته ، وخدم به المنصور بن أبى عامر ، وابنه المظفر ، ثم انتقل فى صدر الفتنة إلى مدينة سرقسطة ، واستوطنها ، وكان بصيراً بالطب ، متقدماً فيه ، ذا حظ من المنطق والنجوم ، وكثير من علوم الفلسفة . قال القاضى صاعد : أخبرنى عنه الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد اللخمى أنه كان دقيق الذهن ، ذكى الخاطر ، جيد الفهم ، حسن التوحيد والتسبيح ، وكان ذا ثروة وغني واسع ، وتوفى قريباً من سنة

---

(١) قال ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء : منحم بن الفوال يهودى من سكان سرقسطة كان متقدماً فى صناعة الطب متصرفاً مع ذلك فى علم المنطق وسائر علوم الفلسفة . ولمنحم بن الفوال من الكتب كتاب كنز المقل على طريق المسألة والجواب وضمنه جملا من قوانين المنطق وأصول الطبيعة .

(٢) قال ابن أبى أصيبعة : أبو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى من ساكنى مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالأندلس من ولد موسى النبى عليه السلام ، عنى بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فأحكم علم لسان العرب ونال حظاً جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع فى علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيق وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر ، واشتغل أيضاً بالعلم الطبيعى وكان له نظر فى الطب، وكان في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة فى الحياة وهو فى سن الشبيبة .

عشرين وأربعمائة ، وهو قد قارب ثمانين سنة . قال : وقرأت فى بعض تآليفه أنه أخذ صناعة المنطق عن محمد بن عبدون الجبلى ، وعمر بن يونس بن أحمد الحرانى ، وأحمد بن جفصون الفيلسوف ، وأبى عبد الله محمد بن إبراهيم القاضى النحوى ، وأبى عبد الله محمد بن مسعود البجانى ، ومحمد بن ميمون المعروف بمركوس ، وأبى القاسم فيد بن نجم ، وسعيد بن فتحون السرقسطي ، المعروف بالحمّار ، وأبى الحارث الأسقف ، تلميذ ربيع بن زيد الأسقف الفيلسوف ، وأبى مرين البجائى ، ومسلمة بن أحمد المرجيطى .

وقد ترجم ابن أبى أصيبعة عالماً من علماء الأندلس ، وطبيباً من أطبائها ، اسمه ابن بكلارش ، كان يهودياً ، قال إنه خدم بصناعة الطب بنى هود ، وله من الكتب كتاب « المجدولة فى الأدوية المفردة » وضعه مجدولا ، وألفه بمدينة المرية للمستعين بالله أبي جعفر أحمد بن المؤتمن بالله بن هود .

ولا شك فى أنه ليس من ذكرناهم هم جميع الذين نبغوا من أهل سرقسطة فى العلم والأدب ، بل مهما استقصى الانسان فلا بد من أن يفوته تراجم كثيرة ، إما سهواً منه أو من المؤلفين الذين أخذ عنهم ، وهذا هو الشأن فى كل مدينة حاولنا أن نذكر من خرج منها من العلماء والأدباء .

هذا وفي سرقسطة صدر الأمر من فيليب الثانى ملك اسبانية باخراج الموريسك أى المسلمين الذين أكرهوا على التنصر ، ولبثوا يضمرون الاسلام فى قلوبهم ، وكان لايزال منهم عدة ألوف فى بلاد أراغون وفى سائر اسبانية ، وكان منهم عدد غيرقليل فى سرقسطة و برشلونة ، وفي مدن قشتالة ، وقلما خلت منهم بلدة . فلما صممت الدولة الاسبانية على إخراجهم جميعاً من البلاد ، بحجة أنهم لايزالون مسلمين فى الباطن ، اعترض على ذلك كثيرون من الأهالى ، لاسيما أصحاب الأراضى ، وقدموا وأخروا ، وقالوا للملك : إن بعض البلاد ستصبح قاعاً صفصفاً إذا خرج الموريسك منها ، فأبى الملك إلا إنفاذ أمره الذي صدر في ٢٣ مايو سنة ١٦١٠

وبمقتضى هذا الأمر كان يجب اجتماع جميع الموريسك ليأتي المعتمد الخاص من قبل الحكومة، ويسير بهم إلى الثغر البحري، الذي سيخرجون منه، وقد جاء في هذا الأمر أن الموريسكي الذي يكون متزوجا بمسيحية أصلية يجوز بقاء امرأته وأولاده، إذا شاءوا البقاء في البلاد. وكذلك المسيحيون الأصليون المتزوجون بموريسكيات إذا أرادوا هم ونساؤهم البقاء في البلاد فلهم ذلك. وكذلك الموريسك الذين تحقق أنهم ارتدوا عن الاسلام ارتداداً صحيحياً لا شائبة فيه، فهؤلاء لهم أيضاً حق البقاء.

فخرج من الموريسك بضعة عشر ألفاً، بطريق نبارة إلى فرنسة. وخرج بضعة عشر ألفاً إلى ميناء كمفرنش، والتحقوا ببلاد الاسلام.

وتاريخ الموريسك بتفاصيله سنأتي به في جزء خاص، بعد الانتهاء إن شاء الله من جغرافية الأندلس، وتاريخ الدول الاسلامية فيها.

ومن توابع سرقسطة حصن يقال له شميط، بضم فكسر، ذكره ياقوت في المعجم، وحصن آخر يقال له « قشب[1] » بفتح فسكون. قال ياقوت: حصن من قطر سرقسطة ينسب اليه أبو الحسن نفيس بن عبدالخالق بن محمدالهاشمي القشبي المقريء، جاور بمكة مدة، قال أبو طاهر السلفي: وقرأ عليّ بعد رجوعه من مكة وتوجه إلى الأندلس. ومن حصون سرقسطة الحصن المسمى قشتلار Castellar وبلدة يقال لها « الاغون » وبلدة أخرى اسمها « منزلبار با » وبلدة أخرى اسمها بُرجة. وهي مدينة قديمة سكانها اليوم ستة آلاف نسمة إلى الشمال الغربي من سرقسطة، وهي تناوح شارات مونكايو Moncayo، وقد كانت برجة من البلاد المعروفة في زمن العرب. ونبغ فيها أناس من أهل العلم، ومنهم من سكن سرقسطة، وقد تقدم ذكر أحدهم، وهي غير برجة التي هي من أعمال البيرة، فان برجة سرقسطة هي بضم أولها

(١) بالاسبانيولية Caspi وهي على نصف المسافة بين سرقسطة ولاردة موقعها على نهر أبره.

كان يلفظها العرب كما يلفظها الاسبانيول اليوم Boya [1] وأما برجة البيرة فهى بفتح أولها .

تطيلة Tudela

وعلى مسافة ٧٨ كيلو مترا من سرقسطة مدينة تطيلة ، واقعة على الضفة اليمنى من ابره . ولها هناك جسر ١٩ قوساً ، وسكان هذه المدينة اليوم نحو من عشرة آلاف . ولكنها كانت عظيمة فى أيام العرب .

قال ياقوت الحموى فى المعجم : تطيلة بالضم ثم الكسر وياء ساكنة ولام : مدينة بالأندلس فى شرق قرطبة ، تتصل بأعمال أشقة ، هى اليوم بيد الروم [2] شريفة البقعة ، غزيرة المياه ، كثيرة الأشجار والأنهار ، اختطت فى أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية . وقال أبو عبيد البكرى : كان على رأس الاربعمائة بتطيلة امرأة لها لحية كاملة كلحية الرجال ، وكانت تتصرف فى الأسفار كما يتصرف الرجال ، حتى أمر قاضى الناحيــة القوابل بامتحانها فأجبن عن ذلك ، فأكرهنها

(١) وقيل إن من توابع سرقسطة « المنارة » قال ياقوت : وعن السلفى : أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن سلامة الانصارى المنارى ، ومنارة من ثغورسرقسطة بالاندلس كان يحضر عندى لسماع الحديث سنة ٥٣٠ بعد رجوعه من الحجاز ، وذكر لى أنه سمع بالاندلس من أبى الفتح محمد المنارى ، وذكر أنه قرأ على أبى الوليد يونس بن أبى على الآبرى . وعلى بن محمد المنارى صاحب أبى عبد الله المغامى ، سمع الموطا وغيره بالمغرب اه . قلت : إن المعروف عندى هو أن بقرب دروقة من عمل سرقسطة جسراً يقال له جسر المنارة . وكذلك توجد بلدة اسمها « المنار» بقرب « بلغى » من عمل لاردة من الثغر الشرقى .

وذكر العرب من توابع سرقسطة «ملوندة» قال ياقوت إنها حصن من حصون سرقسطة

(٢) كتاب العرب كانوا يعبرون عن الاسبانيول بقولهم تارة : الافرنج ، لأن هذ الاسم صار عند العرب مرادفاً للاوربيين ، وتارة بالروم لأنه عند العرب اسم لكل من كان فى الأصل تابعاً لمملكة رومة ، وأحياناً بالنصارى الاسم العام لهم ، ولم يكن اسم الاسبانيول معروفاً حينئذ .

فوجدوها امرأة ، فأمر بحلق لحيتها ، ولا تسافر إلا مع ذى محرم . و بين تطيلة وسرقسطة سبعة عشر فرسخاً ، و ينسب إليها جماعة ، منهم أبو مروان اسماعيل بن عبد الله التطيلى اليحصبي وغيره . انتهى .

من انتسب إلى تطيلة من أهل العلم

عبد الله بن محمد الفهرى كانت له رحلة ، نقل ابن الأبار القضاعى عن ابن حبيش قال : كان عالما فاضلاً ، صالحا ديّناً ، من الحفاظ المتقدمين . وأبو عبدالله ابن محمد بن عيسى بن القاسم الصدفى ، سكن بآخرة مدينة فاس ، سمع أبا على بن سكّرة الصدفى ، ولازم مجلسه لسماع الحديث ، ومسائل الرأى ، وكان فقيها عارفا بالوثائق ، أديبا شاعراً ، استكتبه ابن الملجوم فى قضائه بمكناسة ، واستخلفه ، وتوفى سنة ٥٢٩، عن ابن الأبار . وأبو حفص عمر بن محمد بن اسماعيل الزاهد المعروف بالترنى ، روى بالمشرق عن أبى القاسم بن الصقلى ، توفى سنة ٣٧٩ .

وسكن تطيلة من العلماء عبد الرحمن الحسين ، روى عن عبد الله محمد بن يحيى ابن عبد العزيز بن الخراز صاحب الصلاة بقرطبة . وأبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بابن لبُريلى من أهل تطيلة وقاضيها . له رحلة الى المشرق حج فيها سنة ٣٨١ ، ولقى مشيخة المصريين ، وأخذ عنهم ، وكان موصوفا بالعلم والصلاح ، والعفة والشجاعة ، والجهاد بثغره ، وخرج مع المهدى محمد بن هشام لنصرته ، فقتل بعقبة البقر ، فى صدر شوال سنة ٤٠٠ ، عن ابن بشكوال .

وأبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن سعيد بن موسى بن نعم الخلف الرعينى ، من أهل تطيلة ، سمع بسرقسطة من القاضى أبى الوليد الباجى ، وكان قد رحل حاجاً فلقى بمكة أبا معشر الطبرى ، و بالاسكندرية أبا الفتح السمرقندى ، وكان مولده سنة ٤٤٣ ، وتوفى سنة ٥٠٧ فى أوريوله ، قاله ابن بشكوال . وأبو عبد الله محمد ابن أحمد بن مطرف البكرى ، يروى عن أبى العباس أحمد بن أبى عمر المقرى ، وأبى الوليد الباجى وأبى على بن المبشر ، والحصري وغيرهم ، توفى بالميرته سنة ٥٢١، عن

ابن بشكوال . ووليد بن خطاب بن محمد ، سمع من أبى بكر التجيبى وغيره ، وله رحلة إلى المشرق كتب فيها عن أبى سعد المالينى ، وعن جماعة سواه . كانت له عناية بالحديث وكان ثقة ، رواه ابن بشكوال . وأبو بكر يحيى بن زكريا بن محمد الزهرى القرشى ، روى ببلدة تطيلة عن عبد الله بن بسام وغيره ، حدّث عنه الصاحبان وقالا : كان رجلا صالحا ، رحمه الله

وأبو الحسن داود بن اسماعيل المكتّب، حكى عنه أبو عمرو البلجيطى [1] ترجمه ابن الأبار وأبو جعفر أحمد بن على بن غزلون الأموى ، روى عن أبى الوليد سليمان بن خلف الباجى، وهو معدود من كبار أصحابه ، وكان من أهل الحفظ والذكاء ، وتوفى بالعدوة فى نحو ٥٢٠ قاله ابن بشكوال . وحوشب بن سلمة ، قال ابن عميرة : تطيلى منسوب إلى بلدته ، ولى قضاءها ، ومات بها فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وأبو الوليد حيون بن خطاب بن محمد ، يروى عن أبى العاصى حكم بن ابراهيم المرادى ، وأبى محمد بن أرفع رأسه ، وسهل بن ابراهيم الاستجى وابن الهندى وابن العطار ، وله رحلة إلى المشرق حج بها ، ولقى الداودى والقابسى ، والبراذعى وله كتاب جمع فيه أسماء الرجال الذين لقيهم ، حدّث عنه محمد بن سمعان الثغرى .

وزكريا بن الخطاب بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن حزم الكلبى محدث ، من أهل تطيلة ، رحل إلى المشرق حاجا سنة ٢٩٣ ، فسمع بمكة كتاب النسب للزبير بن بكار ، من الجرجانى ، وروى موطأ مالك بن أنس ، رواية أبى المصعب الزهرى ، فكان الناس يأتون إلى تطيلة للسماع منه . وعمر بن يوسف ابن موسى بن فهد بن خصيب بن الامام ، تطيلى ، توفى سنة ٢٣٧ . ونعم الخلف ابن أبى الخصيب ، يكنى أبا القاسم ، من أهل تطيلة ، كان محدثا ، شاعراً ، زاهداً ،

---

(١) نسبة إلى بلجيط من عمل سرقسطة إلى الجنوب منها ، والاسبان يقولون لها « بلشيت » Belchite . وقد ذكر ياقوت فى المعجم بلدة من نواحى سرقسطة اسمها « بلطش » بفتح الطاء والشين معجمة ، وقال : ان لها نهراً يسقى عشرين ميلا . ولم نتحقق اسمها بالاسبانيولى

مرابطاً ، غازياً ، قتل شهيداً سنة ٢٩٨ . ذكره ابن عميرة فى بغية الملتمس . وعامر ابن مؤمل ، بالميم ، وقيل موصل ، بالصاد ، ابن اسماعيل بن عبد الله بن سليمان بن داود بن نافع اليحصبى ، يكنى أبا مروان ، محدث من أهل تطيلة ، مات فى أيام الأمير عبد الله بن محمد الأموى . ومحمد بن على بن محمد بن شبل بن كايب بن معشر ابن عبد الله القيسى . وسعيد بن هارون بن عفان بن مالك بن عبد الله ، اليحصبى التطيلى محدث ، له رحلة . ذكره محمد بن حارث الخشنى عن ابن عميرة .

وإلى الشمال من تطيلة مدينة « القاره » (١)

---

(١) Alfaro وهى من المدن التى كانت للعرب. قال ياقوت: فاره بالراء المشددة والهاء بلفظ قولهم : امرأة فارة ، اى هاربة . مدينة فى شرق الاندلس ، من اعمال تطيلة اه جاء فى دليل بديكر أنها مدينة قديمة سكانها اليوم ستة آلاف نسمة

وعما ذكره جغرافيو العرب من اعمال تطيلة « فاجرة » قال ياقوت : بكسر الجيم والراء المهملة ، مدينة فى شرق الاندلس من أعمال تطيلة هى اليوم بيد الافرنج . قلت : هى بلدة قديمة كان يقيم بها الملوك وفيها أديار وكنائس ولفظها عند الاسبانيول Najera كما هو عند العرب .

وقالوا إن من أعمال تطيلة أرنيط ، قال ياقوت : بضم أوله مدينة فى شرق الأندلس من أعمال تطيلة ، مطلة على أرض العدو ، بينها وبين تطيلة عشرة فراسخ ، وبينها وبين سرقسطة سبعة وعشرون فرسخا . قال ابن حوقل : هى بعيدة عن بلاد الاسلام اه . قلنا : إلى الشمال من تطيلة ، ضاربة فى الارض التى كانت يومئذ للعدو ، بلدة « أوليت » وفيها مساكن للملوك نبارة ، فهل هذه هى التى يقال لها « ارنيط » أو الراء فيها محرفة عن الواو وهى « أونيط » واللام والنون تتبدل إحداهما من الاخرى ؟ على ان الادريسى يذكر « أرنيط » على انها إقليم قلعة أيوب ودروقة ، وفى دليل بديكر ذكر بلدة اسمها « ارنيدو » على ٣٠ كيلو متراً من « كلهرة » فالاقرب ان أرنيط هى هذه .

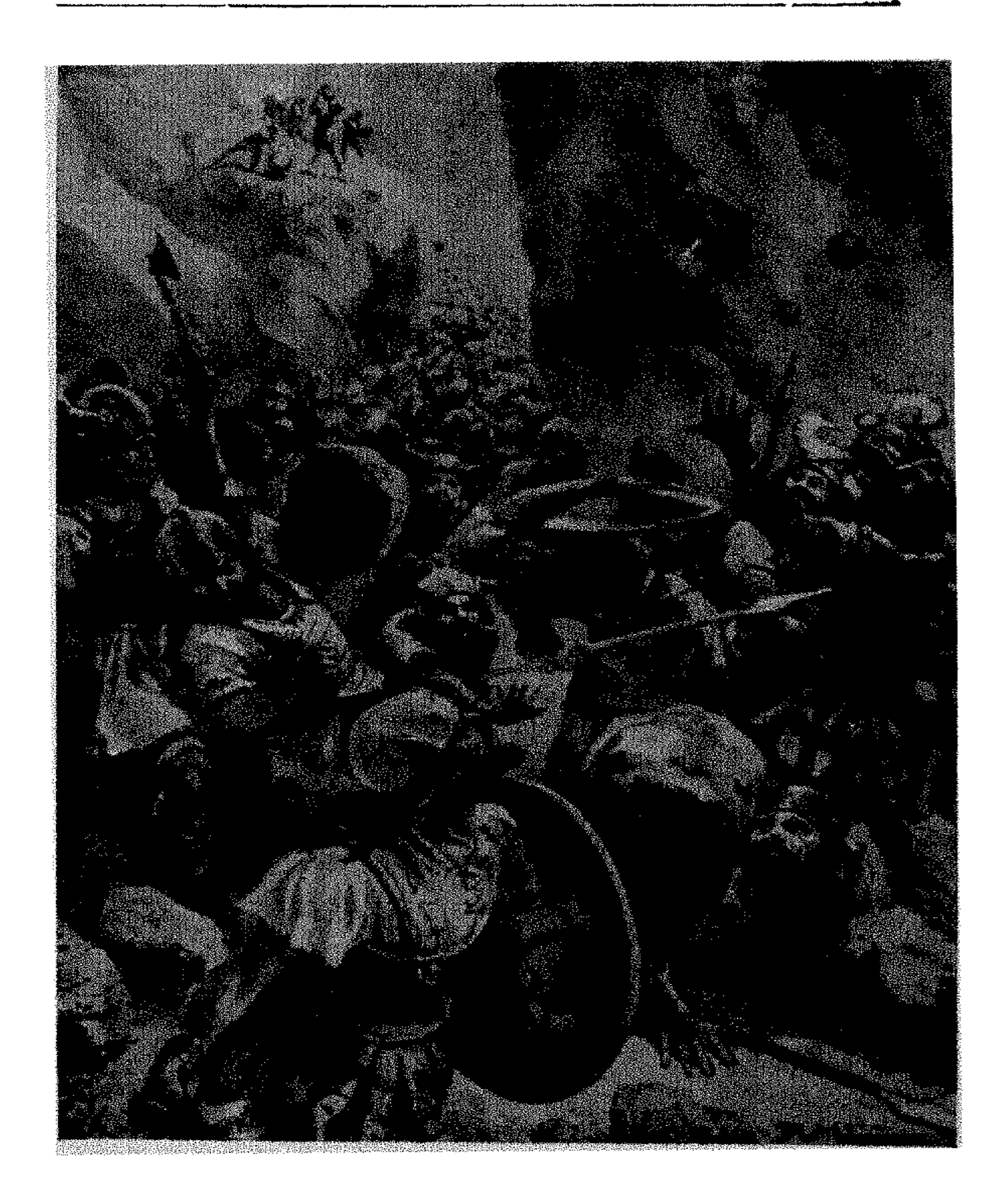
وذكروا أيضاً من أعمال تطيلة « بقيرة » قال ياقوت : بينها وبين تطيلة أحد عشر فرسخاً . فهل هى « أقيلة » Aguila التى بقرب تطيلة من جهة الشرق وقد حرفها العرب الى « بقيرة » ؟ .

طرسونة Tarazona

و إلى الجنوب الغربى من تطيلة مدينة طرسونة Tarazona على مسافة ٢٢ كيلو متراً . واسمها كان عنـد الرومانيين توريا سو Turiaso ، سكانها اليوم ثمانية آلاف نسمة ، وفيها كنيسة من بناء القرن الثانى عشر ، وقد كانت طرسونة من المدن العربية المعروفة. قال ياقوت فى المعجم : بينها و بين تطيلة أربعة فراسخ ، معدودة فى أعمال تطيلة ؛ كان يسكنها العمال ومقاتلة المسلمين إلى أن تغلب عليها الروم ، فهى فى أيديهم إلى هذه الغاية [1]. انتهى . ومن طرسونة إلى شورية Soria ٦٧ كيلو مترا

(١) ومن البلاد التى تتصل بتطيلة « قلصادة » جاء فى دليل بديكر أنها على مسافة ١٩ كيلو متراً إلى الغرب من ناجرة ، على طريق برغش Burgos والأسبان يقولون لها « سانتا دومينيقو قلصادة » Santa Dominigo de la calzada وليس فيها أكثر من أربعة آلاف من السكان ، ولكن فيها كنيسة من الطرز القوطى عظيمة . قلنا إنه منسوب إلى قلصادة ، ونظنها هى هذه ، رجل من أعلم علماء الأندلس اسمه أبو الحسن على بن محمد بن على القرشى البسطى القلصادى ، ترجمه نفح الطيب فيمن رحل إلى المشرق ، وضبطه « القلصادى » بفتحات وقال فى حقه : الرحلة المؤلف الفرضى ، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس ، وأكثر تصانيفه فى الحساب والفرائض كشرحيه العجيبين على تلخيص ابن البناء والحوفى ، وكفاه فخراً ان الامام السنوسى صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض والحساب ، وأجازه جميع مروياته . وأصله من بسطة ، ثم انتقل الى غرناطة فاستوطنها ، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرقسطى وغيرهما ، ثم ارتحل الى المشرق ، ومر بتلمسان ، فاخذ بها عن عالم الدنيا ابن مرزوق والقاضى أبى الفضل العقبانى ، وأبى العباس بن زاغ وغيرهم ، ثم ارتحل فلقى بتونس تلاميذ ابن عرفة كابن عقاب والقلشانى ، وغيرهما ، ثم حج ولقى أعلاما ، ورجع فاستوطن غرناطة ، إلى أن حل بوطنه ماحل ، فتحيل فى خلاصه من الشرك ، وارتحل فمر بتلمسان فنزل بها على الكتيب ابن مرزوق ابن شيخه . ثم جدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية ، منتصف ذى الحجة سنة ٨٩١ (أى قبل سقوط غرناطه بست سنوات)

ومن تآليفه أشرف المسالك إلى مذهب مالك .وشرح مختصر خليل ، وشرح الرسالة وشرح التلقين ، وهداية الانام فى شرح مختصر قواعد الاسلام ، وشرح رجز القرطبى ، وتنبيه الانسان إلى علم الميزان ، والمدخل الضرورى ، وشرح ايساغوجى فى المنطق .



انكسار جيش شارلمان فى باب الشرزى من جبال البرانس

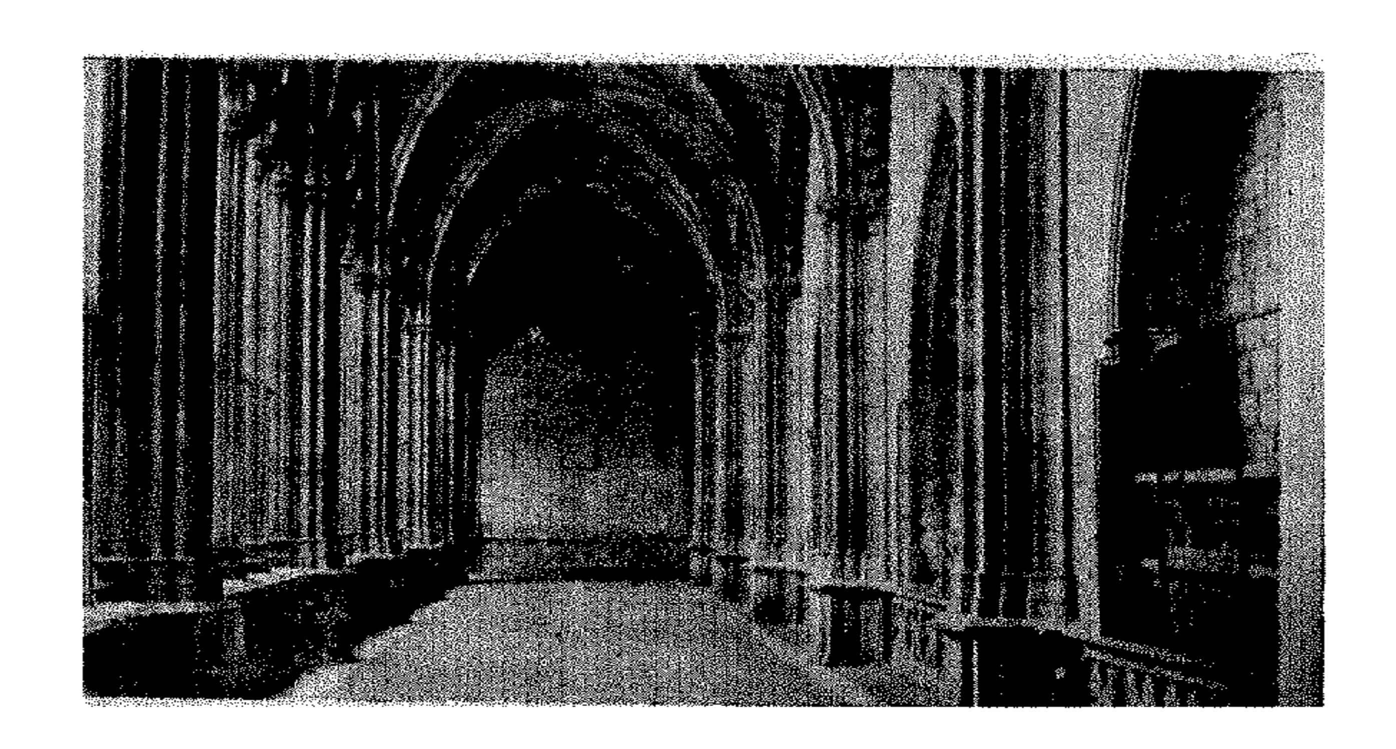
هذا وينسب إلى طرسونة بعض أهل العلم ، منهم أبو سحق بن يعلى الطرسونى (١)
ثم مدينة كشيجون Cactjon على مسافة ٩٤ كيلو متراً من سرقسطة ، وقصبة «اوليت»
Oliete ، وسكانها نحو من ألفى نسمة ، وقصبة طفاله Tafalla سكانها خمسة آلاف
نسمة . وعلى ٨٨ كيلو مترا من سرقسطة بنبلونة الشهيرة ، وقد تقدم ذكرها فى أثناء
الكلام على جبال البيرانس ، والأسبانيول يكتبونها بالميم بعد الفاء الفارسية ، أى
بامبلونة ، ولكن العرب يكتبونها بالنون ، لأنهم لايأتون بالميم بعد الباء ، و إنما يأتون
بالنون . وسكان بنبلونة نحو من ثلاثين ألفا ، وهى واقعة على ضفة نهر أرقة Arga
و يحيط بها سور قديم بناها بومى Pompée الرومانى ، فانتسبت إليه ، وصارت
تسمى بومبايلو Pompaela ثم تحرفت إلى اسمها الحالى بنبلونة ، وكان استيلاء القوط
على هذه البلدة سنة ٤٧٦ للمسيح ، ثم فى سنة ٥٤٢ استولى عليها الافرنج ، ثم فى
سنة ٥٧٨ جاءها العرب ، واستولوا عليها مدة غير طويلة . ومن سنة ٩٠٥ صارت
قاعدة مملكة نبارة Navarra ، ثم استولى عليها القشتاليون سنة ١٥١٢ ، وفى حصارها

وشرح الانوار السنية لابن جزى ، وشرح رجز الشراز فى الفرائض . وشرح حكم
ابن عطاء الله ، وشرح رجز أبى عمرو بن منصور فى اسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، وشرح
البردة ، وشرح رجز ابن برى . وشرح رجز شيخه أبى إسحق بن فتوح فى النجوم .
وشرح رجز ابن مقرعة . وله النصيحة فى السياسة العامة والخاصة . وهداية النظار فى
تحفة الاحكام والاسرار . وكشف الجلباب عن علم الحساب . وكشف الاسرار عن
علم البخار . والتبصرة . وقانون الحساب وشرحه . وشرحان على التلخيص كبير وصغير
وشرح ابن الياسمين فى الجبر والمقابلة ومختصره . وكليات الفرائض وشرحها . وشرحان
للتلمسانية كبير وصغير . وشرح فرائض صالح بن شريف . وفرائض مختصر خليل .
وشرح لابن الحاجب . وكتاب الغنيه فى الفرائض . وغنية النجاة وشرحاها الكبير
والصغير . وتقريب المواريث . ومنتهى العقول البواحث . وشرح مختصر العقبانى ولم يتم .
ومدخل الطالبين . ومختصر مفيد فى النحو . وشرح رجز ابن مالك ، وشرح الأجرومية
وشرح جمل الزجاجى . وشرح ملحة الحريرى . وشرح الخزرجية . ومختصر فى العروض.

(١) وقد أقام بطرسونة أبو الحسن سعيد بن محمد الجهمى المقرىء من أهل وادى
الحجارة وتوفى بها، وكان يعرف بابن قوطه



صورة أحد أبواب بنبلونة



صورة باب الكنيسة الكبرى فى بنبلونة

جُرح اينيقولو بيس ريكالد الذى بعد أن كان قائد عسكر ترهّب وأقلع عن الدنيا ، وصار هو القديس أغناطيوس لو يولا Loyola مؤسس الرهبانية اليسوعية

وفى بنبلونة كنيسة كبرى بدأ ببنائها كارلس الثالث ملك نبارة سنة ١٣٩٧ ، وفى الزاوية الجنوبية الغربية من الكنيسة شبكة حديدية أصلها سلسلة ، كانت تحيط بسرادق الناصر سلطان الموحدين ، أخذت منه في الهزيمة الكبرى التى وقعت على المسلمين فى وقعة العقاب التى يقول لها الاسبان «لاس نافاس دوطولوزه» Les Novas de Tolosa

ومن بنبلونة يصعد السائح الى جبال البيرانس ، وغير بعيد من هنالك مضيق رونسفو ، و يقال له أيضاً رونسفال Roncevalles الذى انهزمت فيه ساقة شارلمان وهو قافل من سرقسطة ، و يقول له العرب باب الشزرى .

ومن بنبلونة إلى سان سبستيان ٩٣ كيلو متراً بسكة الحديد . وفى هذه المسافة يقطع الخط الحديدى الحد الذى كان فاصلا بين قشتالة القديمة ونبارة . ومن مدن تلك البلاد « الفاره » وسكانها ستة آلاف ، ثم « كَلَهَرَّه » وهى مدينة ايبيرية قديمة سكانها عشرة آلاف ، واقعة على نهر سيدا كوس Cidacos وكان اسمها فى القديم كالاغوريس ناسيكا Calagurris Nassica وفيها كنيسة قديمة جداً فيها عظام بعض شهداء النصرانية . ومن كاهره الى شورية ٩٩ كيلو مترا . وأما الارض القفر المسماة سولانا Solana فتمتد من الابره الى أرقة Arga .

ومن المدن المجاورة لنهر سيدا كوس قصبة يقال لها ارنيدو Arnide [١] ثم بلدة يقال لها لودوسا Lodosa فيها كهوف كانت مساكن ، ثم بلدة يقال لها آغون سيلّو وفيها حصن بأربعة أبراج ، ثم مدينة لوكرونتو Logrono وكان العرب يقولون لها « لوكرونى » وهى بلدة سكانها خمسة عشر ألفا ، معدودة من قشتالة القديمة . ومن لوكرونى مسافة ٢٥ كيلو مترا إلى ناجرة ، وهذه بلدة قديمة كان لها شأن فى القديم ،

(١) هذه التى نظن أن العرب كانوا يقولون لها « ارنيط » ، وبعد ذكرها ياقوت والإدريسى وغيرهما

وفيها قصر كان يسكنه الملوك فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وعلى ١٩ كيلو متراً إلى الغرب من ناجره ، على طريق برغش ، بلدة يقال لها سانتودومِنقُه قالصادة . وهى التى ينسب اليها الامام القلصادي المار الذكر Santo Domingo de la Calzada وفيها أربعة آلاف نسمة ، ومن لوكرونى مسافة قصيرة إلى بلدة استلّه Estella

وقد ورد ذكر ناجره فى كتب العرب ، قال ياقوت : ناجرة بكسر الجيم ، والراء مهملة . مدينة فى شرقى الاندلس من أعمال تطيلة ، هى الآن بيد الافرنج ، والى اليمين من نهر ابرُه توجد جبال وعرة فى وسط الحقول ، وذلك عن بلدة « فون مايور » Fuenmayor وعندها قنطرة على ابره ، ثم بلدة « غواردية » وأما بلدة هارو Haro فهى من ناحية « ريوجَه » Rioja وسكانها ثمانية آلاف نسمة ، وبالقرب منها وادى ميرَنْدَة

ومن سَرَقسطة يمر الخط الحديدى على الضفة اليمنى من نهر جلّق ، فعلى مسافة ثمانية كيلو مترات يصل إلى بلدة يقال لها « سان جوان موزار يفار » وبالغرب منها بلدة أخرى اسمها « فيلاّ نوڤة » ثم بلدة « زويرة » ثم قصبة يقال لها المدور ، سكانها ثلاثة آلاف فيها حصن قديم : ثم بلدة تسمى « تارديئتة » Tardienta

ثم مدينة وشقة وهى بلدة فى غاية القدم ، سكانها اليوم ثلاثة عشر ألفاً ، لا يزيدون وهى على رابية مشرفة على سهل الهوّية La Hoya ، وكان يقال لهذه البلدة لعهد الرومانيين أوسكا Osca وكان سرطوريوس لذلك العهد أسس فيها مدرسة لشبان الأيبيريين . وقد فتح العرب وشقة فى ما فتحوه من المدن عند ما استولوا على سَرَقسطة أى في سنة ٩٦ للهجرة ، وفق ٧١٣ للمسيح ، وفى الانسيكلوبيدية الاسلامية ينقل عن المستشرق قُدَيرة : أن وشقة كانت مركز مقاطعة مستقلة فى نواحى سنة ٣٠١ ، لعهد أميرها محمد بن عبد الملك الطويل ، و بقيت فى يد العرب الى سنة ١٠٩٦ من التاريخ المسيحى ، فاسترجعها الأسبان ، وجعلوها قاعدة مملكة أراغون ، و بقيت

كذلك إلى سنة ١١١٨ ، إذ نقلوا مركز الحكم الى سرقسطة نفسها بعد أن أخرجوا العرب منها .

أما ياقوت الحموى فقال عن وشقة ، بفتح أوله ، وسكون ثانيه والقاف : بليدة بالاندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر ، له رحلة . وابراهيم ابن عجيس بن اسباط بن اسعد بن عدىّ الزيادى الوشقى ، كان حافظاً للفقه ، واختصر المدوّنة ، له رحلة سمع فيها من يونس بن عبد الأعلى ، ومات سنة ٢٧٥ . عن ابن الفرضى . وابنه احمد ، سمع من أبيه . وتوفى سنة ٣٢٢ انتهى .

من انتسب إلى وشقة من أهل العلم

خالد ابن أيوب أبو عبد السلام ، محدث من أهل وشقة . ذكره ابن يونس ، ونقل ذلك بن عميرة . وأبو الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخير ، المعروف بابن أبى درهم القاضى من أهل مدينة وشقة ، محدّث له رحلة ، قال الحُميدى : ورأيت فى نسبه زيادة بخط ابن ابنه القاضى أبى عبد الله يحيى بن القاضى أبى الاصبغ عيسى ابن القاضى أبى الحزم خلف ابن عيسى ابن سعيد الخير ن أبى درهم بن وليد بن ينفع بن عبد الله التجيبى ، سمع بالأندلس أبا عيسى يحيى بن عبد الله بن أبى عيسى بن يحيى ، وأبا بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ، وأبا زكريا يحيى بن سليمان بن هلال بن بطرة ، و بمصر من أبى محمد الحسن بن رشيق وطبقته . روى عنه أبو الوليد هشام بن سعيد الخير بن فتحون الكاتب ، حدّث عنه بالموطأ رواية يحيى ابن يحيى . ذكره ابن عميرة .

وأبو عثمان سعد ابن سعيد بن كثير المرادى محدث ، وشقى ، سمع من محمد ابن يوسف بن مطروح وطبقته ، مات فى صفر سنة ٣٠٦ . ذكره ابن عميرة ، وكان ابنه سعيد أيضاً من أهل العلم . وصالح بن محمد المرادى ابو محمد يعرف بابن الوركانى ، وشقىّ محدّث ، مات بالاندلس سنة ٣٠٢ ، ذكره ابن عُمَيرة .

وعبد الله بن حسن بن السندى ، وشقىّ ، توفى سنة ٣٣٥ ، عن ابن عميرة .

وعبد الله بن وهب ، وشقى محدث ، مات سنة ٣٠١ . عن ابن عميرة .

وأبو المطرّف عبد الرحمن بن ابراهيم بن عجنس بن أسباط الزيادى ، من أهل وشقة ، مات سنة ٣١٤ ، عن ابن عُميرة

وعبد السلام بن وليد ، محدث ، ولى قضاء وشقة فى أيام الأمير الحكم بن هشام الأموى ، قال ابن عميرة : ذكره ابن يونس

وأبو عثمان عفان بن محمد ، من أهل وشقة ، مات سنة ٣٠٧ ، ذكره ابن عميرة

وهشام بن سعيد الخير بن فتحون ، أبو الوليد الكاتب ، قال الحُميدى : أظن أصله من وشقه ، محدّث جليل ، سمع بالأندلس ، ورحل إلى الحج ، فسمع بطريقه فى القيروان ، وبمصر ، وبمكة ، من جماعة ، ورجع إلى الأندلس ، فحدّث بها ، وسمعنا منه . فمن شيوخه بالأندلس القاضى أبو الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخير الوشقى ، المعروف بابن أبى درهم . وأبو مهدى عبدالله بن أحمد بن فُترى . ومن شيوخه بالقيروان أبو عمران الفاسى ، وأبو اسحق المكناسى ، وعتيق بن إبراهيم ، وابن عياش الأنصارى ، وابن الحوّاص . ومن شيوخه بمصر عبد الجبار بن عمر ، وأبو العباس بن منير ، وأحمد ابن محمد بن الحاج الاشبيلى . ومن شيوخه بمكة أبو محمد بن فراس الأطروش ، وأبو بكر ابن الاسفرائينى ، وأبو العباس بن بندار الرازى ، وأبو الحسن بن بندار القزوينى ، وأبو بكر بن الحسن الصقلى ، وأبو محمد مكى بن عيسون ، وأبو عبدالله محمد بن سهلان الواسطى . وكان أبو الوليد جميل الطريقة منقطعاً إلى الخير ، مات بعد الثلاثين وأربعمائة

وأبو عمر يوسف بن مروان بن عيشون المعافرى ، قال ابن عميرة : وهو وشقى ، يروى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وطبقته ، ويُعرف أهلُ بيته بوشقه ببنى المؤذن ، مات بالأندلس سنة ٣٠٩ . وأبو محمد عبدالله بن محمد بن غالب الوشقى القاضى ، حدّث عن أبى هارون موسى بن هارون بن خلف بن أبى درهم ، قال ابن الأبار فى التكملة : قرأت ذلك بخط ابن الصيقل المرسى . وأبو محمد عبدالله بن سعدون بن مجيب ابن سعدون بن حسّان التميمى الضرير ، من أهل وشقة ، سكن بلنسية ، أخذ القراءات عن أبى المطرّف بن الورّاق ، وأبى جعفر عبد الوهاب بن حكم الوشقى ، وأبى القاسم

خلف بن أفلح الأموى ، وأبى داود المقرئ ، وأبى الحسن بن الدوش ، وتصدر للاقراء بجامع بلنسية ، قال ابن الأبار : وكان من أهل التجويد والتعليل ، والضبط والاتقان لهذا الشأن ، مشاركا فى العربية ، وكان يعلم بها ، أخذ عنه أبو الربيع بن حوط الله ، وأبو العطاء بن نذير ، وأبو الوليد بن بسّام اللاردى ، وغيرهم ، وقفت على ذلك ، وتوفى قبل الأربعين وخمسمائة . وأبو المطرّف عبد الرحمن بن موسى بن خلف بن عيسى بن سعيد الخير بن وليد بن ينفع بن أبى درهم التجيبى ، روى عن أبيه أبى هارون وعن غيره ، وولى قضاء بلده وشقة وراثة عن سلفه ، حدّث ، وأخذ عنه ، قال ابن الأبار : وقفت على ذلك بتاريخ شوال من سنة إحدى وخمسمائة . وأبو زيد عبدالرحمن ابن محمد بن حيات الأنصارى المقرئ من أهل وشقة ، نزل سرقسطة ، يعرف بابن قرّايش ، أخذ القراءات عن أبى اسحق بن دُخنيل ، وأبى داود المقرئ ، وأبى الحسن ابن الدوش ، وأبى تمام القطينى ، وتصدّر للاقراء بسرقسطة ، وكان مقرئا ماهراً ، نحوياً حافظا ، أخذ عنه أبو الطاهر الأشتركوى ، وأبو مروان بن الصيقل . وأبو عمر البلجيطي ، وغيرهم ، قال ابن الأبار : وتوفى شهيداً بسرقسطة ، فى الكائنة على أبى عبد الله ابن الحاج المتوفى بها سنة ٥٠٣ ، وتسمّى سنة المرج . قال : بعضه عن ابن حبيش ، وسائره عن ابن عيّاد .

وأبو القاسم عبد الرحمن بن احمد بن قاسم التجيبى ، من أهل وشقة ، سكن المرية ، أخذ القراءات بقرطبة عن أبى جعفر الخزرجى ، وأخذ عن أبى القاسم ابن النحاس قراءة نافع خاصة ، وتصدر بجامع المرية للاقراء ، وأخذ عنه الناس ، ومن المختصين به أبو العباس البانسى . قال ابن الأبار : لازمه إلى سنة ٥٢٧ ، وأخذ عنه أيضاً أبو محمد الشُّنْتى المقرىء ، ذكر ذلك ابن عيّاد . وأبو مروان عبد الملك ابن سلمة بن عبد الملك بن سلمة الأموى ، مولاهم ، من أهل وشقة ، يعرف بابن الصيقل أخذ القراءات عن أبى المطرّف بن الورّاق ، وأبى زيد بن حيات ، وأبى الحسن ابن شفيع ، وغيرهم .

ولقى أبا محمد بن عتّاب ، وأبا الوليد بن رشد ، وأبا بحر الأسدى ، وأبا الحسن ابن الأخضر ، وأبا عبد الله الموروري ، وأبا على الصدفى ، وأبا بكر بن العربي ، وأبا عبدالله بن الحاج ، وأبا القاسم بن ثابت ، قاضى سرقسطة ، وأبا محمد الركلى ، وأبا محمد البَطَلْيوسى ، وغيرهم . وأجاز له بعضهم. وقال أبو عبد الله بن عيّاد : له اجازة من ابن عتّاب ، وابن رشد ، وأبى بحر ، ولم ينص على سماعه منهم . قال ابن الأبار : وهو صحيح . وتصدر ببلنسية لاقراء القرآن والنحو والأدب سنين جملة ، وكان مشاركا فى فنون ، فقيهاً، أديباً ، فصيحاً ، مع الضبط والاتقان . حدّث عنه أبو عمر بن عيّاد وأبو جعفر بن نصرون ، وأبو بكر بن هذيل ، وشيخنا أبو عبد الله بن نوح وغيرهم ، وتوفى بالمرية ، منصرَفَهُ من العدوة سنة ٥٤٠ . وصارت كتبه ببلنسية ، وأمواله بالمرية ، لبيت المال .

وأبو يونس عبد العزيز بن زكريا بن حيّون ، كان من العناية بالعلم ، قال ابن الأبار : ولم تكن له رحلة ، وتوفى سنة ٣٢٠ . ذكره ابن حارث ، وذكر ابن الفرضى أباه زكريا بن حيون . وأبو هرون موسى بن خلف بن عيسى بن أبى درهم التجيبى ، قاضى وشقه ، سمع أباه ، وأبا عمرو السفاقسى وحج فى سنة ٤٠٧ . فسمع من أبى عبد الملك البونى كتابه شرح الموطأ ، وسمع بالقيروان صحيح البخارى من أبي عمران الفاسى ، وأجاز له جماعة . وهو من بيت قضاء وجلالة ، حدّث عنه ابناه أبو موسى هرون ، وأبو المطرف عبد الرحمن ، وابن اخته صاحب الأحكام بسرقسطة ، أبو الحزم خلف ابن محمد العبدرى ، وحدث عنه سنة ٤٤٥ . عن ابن الأبار . وأبو الحزم خلف ابن مسعود بن موسى من أهل وشقة ، يعرف بابن الجلاد ، حدّث عن أبى العاصى حكم ابن ابراهيم المرادى ، ومسعود بن سعيد السرقسطى ، وحكم بن محمد السالمى وغيرهم . حدّث عنه بالأجازة أبو هارون موسى بن خلف بن أبى درهم . وأبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن محمد ، يعرف بابن الأبّار ، روى عن أبيه اسماعيل الوشقى ، وعن عبد الله ابن حسن السندى ، وعن زكريا بن النداف ، وغيرهم . وكان من أهل الفقه والحديث

قال ابن الأبار القضاعي : سمع منه أبو الحزم بن أبي درهم ، وحدّث عنه بالمدوّنة ، وغيرها . ذكر ذلك أبو الوليد الباجي وسواه . وأبو عبد الله محمد بن موسى بن خلف الوشقي ، منها . أخذ عن ابي داود المقريء ، ورحل حاجاً فلقي ابن الفحّام ، وأخذ عنه ، وقفل إلى الأندلس ، فأوطن الش ، وتولى الصلاة والخطبة بجامعها ، وكان بها يُقرىء القرآن ، وكفّ بصره بآخرة من عمره ، وتوفى قبل الثلاثين وخمسمائة ، عن ابن الأبّار . وأبو الأحوص معن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح التجيبي ، والي المرية ، ودارُهم وشقة . كان أميراً مرضي السيرة ، عدلا ، باسطا للحق ، بريئاً من الدماء وأموال الناس . وقلّد ذلك القضاة وأصحاب الشورى ، فما أفتوه به أنفذه بواسطة صاحب الشرطة . وكان ذا حظ من العلم . وقد روى عن أبيه أبي يحيي مختصره لغريب القرآن ، الواقع في تفسير الطبري الكبير .

ذكر ذلك أبو محمد بن عبيد الله في برنامجه وقال : وقال الحسن بن أبي الحسن : حدّثوا عن الأشراف ، فانهم لايرضون أن يدنّسوا شرفهم بالكذب ولا بالخيانة . قال ابن الأبار القضاعي في التكملة : وتوفى أبو الأحوص هذا بالمرية سنة ٤٤٣ . وأبو بكر احمد بن سليمان بن محمد بن أبي سليمان قاضي وشقه ، روي بالمشرق عن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن الحسن الشافعي ، وأبي ذر الهروي ، وغيرهما . حدّث عنه أبو بكر محمد بن هشام المصحفي ، وسمع منه ، وأثنى عليه . قاله ابن بشكوال في الصلة .

وكثير بن خلف بن كثير الوشقي ، منها ، روى عن أبي عبد الله بن عيشون ، سمع منه سنة ٣٦٤ ، قاله ابن بشكوال . وأبو عيسى لب بن هود بن لب بن سليمان الجذامي ، رحل من وشقه إلى المشرق ، ودخل بغداد ، وسمع بها مع القاضي أبي علي الصدفي على الشيوخ ، وصحبه هناك ، قاله ابن بشكوال . وهرون بن موسى بن خلف ابن عيسى بن أبي درهم ، تقدمت ترجمت أبيه ابي هرون موسى ، سمع من أبيه ، ومن أبي محمد الشنتجالي ، وحيّون بن خطّاب ، وغيرهم ، واستوطن دانية ، وكان قاضياً

بها ، وخطيباً بجامعها ، قال ابن بشكوال : وكانت له معرفة بالأحكام وعقد الشروط وتوفي سنة ٤٨٤ أو نحوها . وأبو عبد الله يحيي بن عيسى بن خلف بن أبي درهم ، سمع من خاله موسى بن عيسى ، ومن ابى الوليد الباجى ، وكان أبو على بن سكّرة يحسن الثناء عليه ، قاله ابن بشكوال . وسعيد بن يحيي الخشّاب ، محدّث وشقى ، مات بالأندلس سنة ٣١٨ . وأبو الحسن على بن غالب بن محمد بن غالب ، من أهل وشقة ، له رحلة إلى المشرق ، استوطن طرطوشه ، وولّى الخطبة بجامعها ، وتوفى سنة ٥٢٠ وكان من أهل العلم والفضل . وأبو إسحق ابراهيم بن دُخنيل المقرىء ، من أهل وشقه ، سكن سرقسطة ، روى عن أبي عمر و عثمان بن سعيد المقرىء ، قال ابن بشكوال: وكان رجلا فاضلا ، جيد التعليم ، حسن الفهم ، أخبرنا عنه غير واحد من شيوخنا ، توفى بسَرَقسطة فى حدود السبعين والأر بعمائة . ومحمد بن سليمان بن تليد ، قاضي وشقه وتولّى القضاء بسرقسطة أيضاً ، يروى عن محمد بن العتبى ، وعن محمد بن يوسف ابن مطروح الربعى ، مات بالأندلس سنة ٢٩٥

* * *

و إلى الشرق من وشقة مدينة « تمريط » (١) مائلة إلى الجنوب ، وهى إلى الشمال من لاردة . ذكرها نفح الطيب .

و إلى الشمال من وشقة على مسافة ١٣٣ كيلو متراً من سرقسطة مدينة «جاقة» سكانها خمسة آلاف نسمة ، وهى قاعدة مقاطعة سو برار به Sobrarba ، ولها سور وأبراج ، وفيها كنيسة بناها راميرو الأول سنة ١٠٤٠ ، ثم مدينة « سار ينينه » Sarinena وسكانها أربعة آلاف نسمة .

ثم مدينة بَرْبُشطر (٢) ، وهى الآن مدينة صغيرة ، سبعة آلاف نسمة . ولكن كان لها شأن عظيم فى زمان العرب ، وهى إلى الجنوب الشرقى من وشقة ، جاء ذكرها فى معجم البلدان فقال : بَرْبُشْتَر ، بضم الباء الثانية ، وسكون الشين المعجمة ، وفتح

---

(١) Tamarite (٢) Barbastro

التاء المثناة من فوق : مدينة عظيمة فى شرق الأندلس ، من أعمال بَرْبَطَانية [(١)] ، وقد صارت للروم فى صدر سنة ٤٥٢ ، حُمل منها لصاحب القسطنطينية فى جملة الهدايا سبعة آلاف بِكْر منتخبة . ثم استعادها المسلمون فى إمارة أحمد بن سليمان بن هود فى سنة ٤٥٧ ، بعد ذلك بخمسة أعوام ، فغنموا فى ماغنموا عشرة آلاف امرأة ، ثم

---

(١) Boltania والعرب يقولون « بربطانية » وبه قال ياقوت الذى يضبطها هكذا : بفتح الباء الثانية وطاء وألف ونون مكسورة وياء خفيفة وهاء . قال : انها مدينة كبيرة بالاندلس يتصل عملها بعمل لاردة ، وكانت سداً بين المسلمين والروم ، ولها مدن وحصون ، وفى أهلها جلادة وممانعة للعدو ، وهى فى شرق الاندلس ، اغتصبها الافرنج ، فهى اليوم فى أيديهم . انتهى . ولكن فى نفح الطيب يسميها كورة برطانية ، بباء واحدة ، لا ببائين ، وهو الأقرب للاصل الاسبانيولى ، وهو يذكرها مع كورة باروشة فيقول : كورة تطيلة ، ومدينتها طرسونة ، وكورة وشقة ومدينتها تمريط ، وكورة مدينة سالم ، وكورة قلعة أيوب ، ومدينتها بليانة ، وكورة برطانية ، وكورة باروشة ، وقد تكرر ذكر برطانية فى نفح الطيب ، فانه يذكر فى أيام الأمير هشام ابن عبد الرحمن الداخل أنه أرسل وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث سنة سبع وسبعين ومائة بالعساكر إلى أربونة وجرندة ، فأثخن فيهما ، ووطىء أرض برطانية . ثم انه عند ذكره إمارة عبد الرحمن الثانى يقول انه فى سنة ست وعشرين بعث العساكر إلى أرض الفرنجة ، وانتهوا إلى أرض برطانية ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ، ولقيهم العدو ، فصبروا حتى هزم الله عدوهم ، وكان لموسى فى هذه الغزاة مقام محمود ، انتهى . ولا يمكن أن يكون قد أراد ببرطانية هنا بلاد بريطانية التى هى فى شمالى فرنسة ، لأنها شديدة البعد ، ولم تذكر التواريخ أن عبد الرحمن الثانى أوغل فى أرض فرنسة ، حتى وصل إلى برطانية . ثم إنه يذكر فى هذه الواقعة بلاء عامل تطيلة موسى بن موسى ، وهو موسى بن موسى بن قصى ، الذى هو من أصل اسبانيولى ، وقد أسلم وتولى الثغر الشرقى مدة طويلة ، فظاهر من هنا أن برطانيه هى البلدة التى يقول لها الاسبانيول « بلطانية » باللام ، وهى إلى الشرق الجنوبى من جاقة ، وإلى الشمال من بربشتر .

عادت إليهم خذلهم الله ، ولها حصون كثيرة ، منها حصن القصر ، وحصن الباكه [١]
وحصن قصر منيونش [٢] ، وغير ذلك . وينسب إليها خلف بن يوسف المقري
البربُشترى ، أبو القاسم ، روى عن أبي عمرو المقرى ، وأجاز له . وكان من أهل القرآن
والحديث والبراعة والفهم ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٤٥١ . ويوسف بن عمر بن
أيوب بن زكريا التجيبى الثغرى البربشترى ، أبو عمرو ، وله رحلة سمع فيها بمصر من
الحسن بن رشيق وغيره ، وكان يسكن الاسكندرية ، وبها حدّث . وسمع من أبى
صخر بمكة ، قاله السلفى . اه .

قلنا إن ما ذكره ياقوت فى معجمه عن خلف بن يوسف المقرى وجدناه منقولا
بالحرف تقريباً عن الصلة لابن بشكوال ، لا يختلف إلاّ فى قول ابن بشكوال إن وفاة
خلف كانت لعشر خلون من رمضان ، وإنه مات بالطاعون . وأما يوسف بن عمر بن
أيوب التجيبى ، فكذلك مترجم في الصلة لابن بشكوال . وإنما يقول فى الصلة إن
كنيته أبو عمر ، وانه روى بقرطبة عن أبى زكريا بن فطرة ، ويقول إن له رحلة
إلى المشرق ، سمع فيها من أبي الحسن بن رشيق بمصر وغيره . ولكنه يزيد على ذلك
بقوله : حدّث عنه الصاحبان ، وتوفى بعدها بأندة سنة ٤٠٨ ، وحدّث عنه أيضاً
أبو عمرو المقرى . فظهر لنا أن ياقوت نقل عن أبي طاهر السلفى قوله انه سكن الاسكندرية
لأن السلفى كان هناك ، كما لا يخفى

وأما فاجعة بَرْبُشْتر التى مع جميع ما حصل بالاسلام من الفجائع لم يوجد أشق
منها ، فقد ذكرها ابن عَذارَى فى البيان المُغرِب فقال : إن جيش الاردمانيين (؟)

---

(١) ذكر ياقوت هذا الحصن ، وجعله بتشديد الكاف ، فقال : حصن بالاندلس
من نواحى بربشتر وهو اليوم بيد الافرنج . انتهى ولعله هو الحصن الذى بقرب
المنار ، بين لاردة وبربشتر ، والاسبانيول يقول له « الباكه » Albca وهو أقرب
إلى لاردة منه إلى بربشتر .

(٢) لم نجد فى أعمال بربشتر ما يقال له اليوم منيونش ، وإنما توجد بالقرب من
بربشتر بلدة يقال لها المنية ، ويقول لها الاسبانيول منية سان يوان

نزلوا عليها ، وجدّوا فى قتالها وحصارها جداً عظيما ، فكان أهلها يقاتلونهم خارج مدينتهم ، وذلك فى سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وكان الماء يأتيها فى سرب تحت الأرض من النهر حتى يدخل إليها فيخترقها ، فخرج رجل من القصبة إلى الروم ودلهم عليه ، فساروا إليه وهدموه وحالوا بينه وبين الاتصال بفم السرب . فعدم أهلها الماء ، ولم يكن لهم صبر على العطش ، فراسلوا الروم فى أن يسلموهم فى أنفسهم وذراريهم ويسلموا إليهم البلد ، فأبى الروم من ذلك فجالدهم المسلمون إلى أن دخل الروم عليهم عنوة ، فقتلوا المقاتلة ، وسبوا الحريم والذرية وحصلوا منها على أموال جليلة ، فكان أشد الرزايا بهذه الجزيرة ، وحصل بأيدى الروم من نساء أهل بَرْبشتر وذريتهم قرب المائة ألف ، حصل من ذلك فى سهم رئيسهم اللعين أربعة آلاف قسمة ، اختارهن أبكاراً ، من الثمانية أعوام إلى العشرة فأهدى منهن لملكه ماشاء . وكان هذا اللعين يسمّى بالبطيبين ؟ وذكر أنه حصل فى سهمه أخزاه الله ، من أوقار الأطعمة والحلى والكسوة خمسمائة حمل . وكان الخطب فى هذه المدينة أعظم من أن يوصف ، لأن الحال كان آل بهم إلى أن القوا بأيديهم بسبب الظمأ ، وخرجوا من المدينة ، وانتشروا فى بسيط من الأرض . فلما رأى الطاغية ، ضاعف الله عذابه ، كثرتهم وانتشارهم ، خاف أن تدركهم حمية ، فى استنقاذ أنفسهم فأمر ببذل السيف فيهم ، وبعضهم ينظر إلى بعض من رجال ونساء . فقيل انه قتل منهم يومئذ نحو ستة آلاف ، ثم نادى برفع السيف عنهم ، وأمر بخروجهم عن المدينة بالأهل والذرية ، فبادروا الخروج منها مزدحمين على أبوابها ، فمات فى ازدحامهم خلق كثير .

ولما عرض جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها ، بعد قتل من قتل منهم ضموا قياماً ذاهلين منتظرين نزول القضاء بهم ، ثم نودى فيهم بأن يرجع كل ذى دار إلى داره بأهله وولده ، وأزعجوا لذلك . ولما استقروا بالدور مع عيالاتهم وذرياتهم ، اقتسمهم المشركون ، فكل من صارت فى حصته دار حازها وما فيها من أهل وولد

ومال ، فحكم كل علج منهم فى من سلط عليه من أرباب الدور ، بحسب ما يبتليه الله به منه ، يأخذ كل ما أظهر له ، و يعذبه فيما أخفى عنه . ور بما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح، و ربما أنظره أجله إلى أسوأ من مقامه ذلك ، لأن عداة الله كانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم و بناتهم بحضرتهم ، إبلاغاً فى نكايتهم (الى أن يقول) فبلغ الكفرة يومئذ منهم مالا تلحقه الصفة ، والحول والقوة لله العظيم

فلما استولى الروم على هذه المدينة المشؤومة ترك فيها اللعين الف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، ورحل منها إلى بلاده . ولم يكن للنصارى قبل هذه الفعلة مثلها فى بلاد المسلمين

فلما رأى بن هود هذا الأمر نادى بالنفر للجهاد فى سائر بلاد المسلمين ، فحميت نفوس أهل الاسلام ، وجاءه منهم خلق عظيم لايحصى عدده ، ذكر انه وصل من سائر بلاد الاندلس ستة آلاف من الرماة العقّارة ، فنازلوا مدينة بر بشتر وتأهبوا لقتال من ورد عليهم من الكفار ، فلما عاين الكفار قوة المسلمين وكثرة حماتهم ورماتهم أغلقوا أبوابهم ، وتركوا حربهم ، وعظم عليهم أمرهم ، فأمر ابن هود المقتدر بالله بالنقب لسورها ، وأمر الرماة أن ينقبوا السور ، لئلا يمنع الكفرة النقّابة من النقب . فكان الروم لا يخرجون أيديهم من فوق السور ، فنقبوا شقة كبيرة ، ودعموا السور وأطلقوا النار فى الدعائم ، فوقعت تلك الشقة واقتحم المسلمون البلد . ولما عاين الروم ذلك خرجوا من ناحية أخرى على باب آخر فاتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤا ، ولم ينج منهم إلا اليسير ممن تأخر أجلهم . وسبوا كل ما كان فيها من عيالهم وأبنائهم وقتل من أعداء الله نحو الف فارس ، وخمسة آلاف راجل ، ولم يصب من جماعة المسلمين إلا نحو الخمسين .فاستولى المسلمون على المدينة ، وغسلوها من رجس الشرك ، وجلوها من صدأ الإفك

قال البكرى : أدخل منها سرقسطة نحو ألف سبية ، ونحو ألف فرس ، ونحو ألف درع ، وأموال وأثاث ، وكان أخذها فى جمادى الاولى من سنة سبع وخمسين وار بعمائة ، فكان بين دخول الروم اليها وعودها للمسلمين سنة كاملة ، وشاع لابن هود

صنيع فى بلاد المسلمين لهذا الفتح الذى اتفق على يديه . انتهى ما قاله ابن عذارَى عن فاجعة بر بشتر ، وانتقام المسلمين لها .

ونقل المقّرى فى النفح عن ابن حيان ما يلى قال : وكان تغلب العدو ، خذله الله تعالى ، على بر بشتر ، قصبة بلد برطانية ، وهى تقرب من سرقسطة ، سنة ست وخمسين وار بعمائة ، وذلك أن جيش الاردمليش نازلها وحاصرها ، وقصّر يوسف بن سليمان بن هود فى حمايتها ، ووكّل أهلها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أر بعين يوماً ، ووقع ما بين أهلها تنازع فى القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدد القتال عليها والحصر لها ، حتى دخل المدينة الاولى فى خمسة آلاف مدّرع ، فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة ، قتل فيها خمسمائة افرنجى . ثم اتفق ان القناة التى كان الماء يجرى فيها من النهر إلى المدينة تحت الارض فى سرب موزون انهارت ، وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدّت السرب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة . ويئس من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة ، دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل ، والقاضى ابن عيسى ، فى نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الاموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى ان الذى خص بعض مقدمى العدو لحصته ، وهو قائد خيل رومة ، نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلىّ والكسوة خمسمائة جمل . وقدّر من قتل وأسر مائة ألف نفس . وقيل خمسون ألف نفس

ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة ، وانقطعت المياه ، ان المرأة كانت تقف على السور وتنادى من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها ، أو لولدها فيقول لها اعطينى ما معك ، فتعطيه ما معها من كسوة وحلىّ وغيره .

قال : وكان السبب فى قتلهم أنه خاف ممن يصل لنجدتهم ، وشاهد من كثرتهم ما هاله ، فشرع فى القتل ، لعنه الله تعالى ، حتى قتل منهم نيفاً على ستة آلاف ، ثم نادى الملك بتأمين من بقى ، وأمر أن يخرجوا ، فازدحموا فى الباب إلى أن مات منهم

خلق عظيم ، ونزلوا من الأسوار فى الحبال ، للخشية من الازدحام فى الأبواب ، ومبادرة إلى شرب الماء .

وكان قد تحيّز فى وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه ، وحاروا فى نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممن أسر وقتل ، وأخرج من الأبواب والأسوار ، وهلك فى الزحمة ، نودى فى تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان وأرهقوا وأزعجوا ، فلما حصل كل واحد منهم بمن معه من أهله فى منزله ، اقتسمهم الافرنج ، لعنهم الله تعالى ، بأمر الملك ، وأخذ كل واحد منهم داراً بمن فيها من أهلها ، نعوذ بالله تعالى .

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم و برزوا فى صور الهلكى من العطش ، فأطاق سبيلهم ، فبينما هم فى الطريق ، إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله . قال : وكان الفرنج ، لعنهم الله تعالى ، لما استولوا على أهل المدينة (وذكر أموراً هنا أمسكنا عن نقلها لأنها مما تتفطر له الكبود وتقشعر الجلود) وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فى ما مضى من الزمان ، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده ، تخيّر من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيبات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة ، حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه ، وترك من رابطة خيله ببر بشطر ألفاً وخمسمائة ، ومن الرجال ألفين .

قال ابن حيان : واختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولى الألباب بنادرة يكتفى باعتبارها عما سواها ، وهى أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ، ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ، ممن نجا من أهلها ، حصلن فى سهم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه . قال : فهديتُ إلى منزله فيها . واستأذنت عليه ، فوجدته جالساً مكان رب الدار ، مستوياً على فراشه ، رافلا فى نفيس ثيابه ، والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته ، لم يغير شيئاً من رياشها وزينتها ، ووصائفه مضمومات الشعور ،

قائمات على رأسه ، ساعيات فى خدمته . فرحب بى وسألنى عن قصدي ، فعرفته وجهه ، وأشرت إلى وفور ما أبذله فى بعض اللواتى على رأسه ، وفيهن كانت حاجتى فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فى من عرضناه لك ! أعرض عمن هنا ، وتعرض لمن شئت ممن سيَّرته لحصنى ، من سبي وأسراى ، من أقاربك فى من شئت منهم . فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لى فيه ، و بقربك أنست ، وفى كنفك اطمأننت ، فسُمْنى ببعض من هنا ؛ فانى أصير إلى رغبتك ، فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير الطيب ، والبز الرفيع الغريب . فقال : كأنك تشهِّينى ماليس عندى ! ياباجه- ينادى بعض أولئك الوصائف، يريد يابهجة ، فغيَّره بعجمته- قومى فأعرضى عليه ما فى ذلك الصندوق . فقامت إليه ، وأقبلت ببدر الدنانير ، وأكياس الدراهم ، وأسفاط الحلى ، فكشفت ، وجعلت بين يدى العلج ، حتى كادت توارى شخصه . ثم قال لها : أدنى إلينا من تلك التخوت ، فأدنت منه عدة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر ، مما حار له ناظرى ، وبُهت ، واسترذلت ماعندى . ثم قال لى : لقد كثر هذا عندى حتى ما ألذّ به . ثم حلف بآلهه : إنه لو لم يكن عندى شىء من هذا ثم بذل لى بأجمعه فى ثمن تلك ، ماسخت بها يدى ، فهى ابنة صاحب المنزل ، وله حسب فى قومه ، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتى ، حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن، أيام دولتهم ، وقد رُدّت لنا الكرة عليهم ، فصرنا فى ماتراه، وأزيدك بأن تلك الخود الناعمة — وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية —مغنّية والدها، التى كانت تشدو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته . يافلانة ، يناديها — بلكنته— : خذى عودك فغنى زائرنا بشجوك . قال : فأخذت العود وقعدت تسويه وإنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العلج مسحهُ ، واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا ، فضلا عن العلج ، فصار من الغريب أن حثّ شربه عليه ، وأظهر الطرب منه . فلما يئست مما عنده ، قمت منطلقاً عنه ، وارتدْتُ لتجارتى سواه ، واطلعت لكثرة مالدى القوم من السبى والمغنم على ماطال عجبى به فهذا فيه مقنع لمن تدبّره ، وتذكر لمن تذكّره !

قال ابن حيان : قد اشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة ، على مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القُلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من أثارة ، ولا شك عند ذوى الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشمار ذلك، والتمادى عليه على شفا جرف، يؤدى إلى الهلكة لامحالة . انتهى ببعض اختصار

قال المقّرى : وذكر بعده كلاماً فى ذم أهل ذلك الزمان ، من أهل الأندلس ، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وأن من أدلّ الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم ، و بعدهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغورهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ، و يستقرى بسائط بقاعهم ، و يقطع كل يوم طرفاً ، و يبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا ، صموت عن ذكرهم ، لهاةٌ عن بثّهم ، ما إن يُسمع عندنا بمسجد من مساجدنا ، أو محفل من محافلنا ، مذكّر لهم أو داع ، فضلا عن نافر اليهم ، أو ماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن بثقهم ليس بمفض الينا ، وقد بخلنا عليهم بالدعاء ، بخلنا بالعناء : عجائب فاتت التقدير ، ولله عاقبة الأمور و إليه المصير . انتهى .

قال المقّرى : ولقد صدق ابن حيان رحمه الله تعالى ، فان البثق سرى إليهم جميعاً كما ستراه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونقل المقّرى عن ابن حيان أيضا فى هذه الفادحة ما يلى : ان بربُشتر هذه تناسختها قرون المسلمين ، منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتوح الاسلامية بجزيرة الأندلس، فرسخ فيها الايمان، وتُدورس القرآن، إلى أن طرق الناعى بها قرطبتنا صدر رمضان من العام ، فصك الاسماع ، وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصيرلكل شغلا يشغل الناس فى التحدث به ، والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله أياماً ، لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالأمل، والاستناد الى أمراء الفرقة الهَمَل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل ، يصدونهم عن سواء السبيل ، ويُلبِّسون عليهم

وضوح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين ، هم كالملح فيهم : الامراء والفقهاء ، بصلاحهم يصلحون ، و بفسادهم يفسدون . فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه

فالأمراء القاسطون قد نكّبوا عن نهج الطريق ، زيالا عن الجماعة ، وجريا إلى الفرقة . والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكّده الله تعالى عليهم ، من التبيين لهم ، قد أصبحوا ما بين آكل من حلوائهم ، وخابط فى أهوائهم ، و بين مستشعر مخافتهم ، آخذ في التقية من صدقهم . وأولئك هم الأقلون فيهم . فما القول فى أرض فسد ملحها ، الذى هو مصلح لجميع أغذيتها ، وما هى الا مشفية على بوارها . ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الامراء ! لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق وتعلية الأسوار ، وشد الاركان ، وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوءة السوءى من إلقائهم يومئذ بأيديهم اليه أموراً قبيحات الصور ، مؤذنات الصدور باعجاز الغِيَر

أمور لو تدبّرها حكيمٌ إذاً لنَهَى وحبّب ما استطاعا

انتهى باختصار

ثم قال ابن حيان : فلما كان عقب جمادى الأولى سنة ٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها ـ أى إلى بر بُشتر ـ وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرّط فيها والمتهم على أهلها ، لانحرافهم إلى أخيه ، صمد لها مع امداد الخليفة عباد ، وسعى لإصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه مالا يمحوه إلا عفوه ، فتأهب لقصد بر بشتر فى جموع من المسلمين، فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان ، وحمى الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه ، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوها أجمعين ، إلا من فرّ من مكان الوقعة ، ولم يدخل المدينة ، فأجيل السيف فى الكافرين واستؤصلوا أجمعين . إلا من استُرِق من أصاغرهم ، وفُدِى من أعاظمهم ، وسَبَوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارىء ، وأصيب فى منحة النصر المتاح ، طائفة من حماة المسلمين الجادّين فى نصر الدين ، نحو الخمسين ، كتب الله

تعالى شهادتهم وقتل فئة من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدأ الافك . انتهى

قانا قد ظهر من هذا النقل أن المقّرى ، ومن قبله ابن عذارى ، إنما نقلا تاريخ فاجعة بر بُشتر عن ابن حيان لأن بعض الجمل مثل « فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدأ الافك » مذكورة فى نفح الطيب نقلا عن ابن حيان ، وأيضاً فى البيان المغرب لابن عذارى ، وكذلك يوجد اتفاق فى بعض الروايات مثل أنه استُشهِد من المسلمين يوم ارتجعوا بر بشتر نحو الخمسين، وأن العدوّ فقد يومئذ ألف فارس وخمسة آلاف راجل . إلا أنه موجود بين روايتى ابن حيان وابن عذارى اختلافات فى بعض التفاصيل . فان ابن عذارى لم يذكر تقصير يوسف بن سليمان بن هود فى حماية بر بشتر، ولا ذكر أيضاً أن احمد المقتدر أخاه فرّط فى أمرها لانحراف أهلها إلى أخيه يوسف مع وجود العداوة بينهما . والحال أنه من سياق الكلام، ومن قول ابن حيان إن العدو أقام يحاصر بر بشتر أربعين يوماً ، يظهر للقارىء أن التفريط وقع من بنى هود فى أمرها سواء كان يوسف بن هود أو أخوه احمد ، وأن أهل بر بشتر كانوا من حزب يوسف ، فبهذا السبب تركهم احمد الذى كان أميراً لسرقسطة ولم ينجدهم . وكذلك يوسف تأخر عن نصرتهم ، ولا سبب فى ذلك ، والله أعلم ، سوى خوفه من أخيه ، لأنهما كانا فى شقاق بعيد ، وكل منهما يستنصر بالطاغية ابن ردمير على أخيه فتأخر يوسف وتأخر احمد عن نجدة أهل بر بشتر بخوف كل منهما من الآخر . فجرى على بر بشتر ما جرى من الفاجعة التى ندر وقوع مثلها في الاسلام . ولا شك فى أنه تحدّث المسلمون بهذا الخبر فى كل ناد ، وجعلوا التبعة فى هذه الفجيعة على بنى هود ، ولا سيا على أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر صاحب سرقسطة لأنه كان أقدر من أخيه على اصراخ أهل تلك البلدة ، فلذلك عمد احمد لاصمات سوء المقالة عنه ، كما قال ابن حيان ، وصمد إلى بر بشتر بجموع المجاهدين واسترجعها ، وشفى صدور المسلمين

مما قد كان لجمهم من حادثها ، فقال ابن عذارى : وشاع لابن هود صنيع فى بلاد المسلمين لهذا الفتح الذى اتفق على يديه . ولكن ابن حيان يقول: ان الله تعالى كتب عليه من حادثة بر بشتر مالا يمحوه إلا عفوه . و بالاختصار يظهر للمتأمل أن جميع ماحل بالمسلمين من الفجائع فى الاندلس انما كان نتيجة انقسامهم، واشتغالهم بمحاربة بعضهم بعضاً ، واستظهارهم بملوك الاسبانيول على إخوانهم ، ولما كانت الامارة الاسلامية موحدة فى قرطبة والكلمة مجتمعة ، كان يبعد أن يقع بهم ما وقع فى ما بعد ، وكانوا لو أصيبوا فى حادثة واحدة لم يمض وقت حتى يجبروا كسرها ، بخلاف ما آل اليه أمرهم فى زمن ملوك الطوائف ، عند ماسقطت الخلافة فى قرطبة، ووقعت الفتنة الكبرى بين العرب والبربر ، وصارت كل مدينة من مدن الأندلس مستقلة بنفسها ، فيها أمير المؤمنين ومنبر . فأصل فساد أمر الأندلس انما كان من سوء أحوال أمرائها ، وتنزّى جميعهم على الملك ، غير ناظرين إلى العواقب ، وفى جانب هذا الفساد لم يكن من صلاح الفقهاء ما يقوّم الأوَد ، بل غلب على هؤلاء حب الدنيا ، كما قال ابن حيان فى ما نقلناه عنه ، وهو عين ما ذكرناه نحن فى رسالتنا المشهورة « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ » قلت فى الصفحة ٤٣ من الطبعة الأولى من تلك الرسالة :

«ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء، إلا من رحم ربك، أن الأمة خلقت لهم ، وأن لهم أن يفعلوا بها مايشاؤون ، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء، المتقلبون فى نعمائهم، الضاربون بالملاعق فى حلوائهم، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح ، بحجة أنه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة . ولقد عهد الاسلام إلى العلماء بتقويم أوَد الأمراء ، وكانوا فى الدول الاسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية فى هذا العصر، يسيطرون على الأمة ، و يسددون خطوات الملك و يرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، و يهيبون بالخليفة فمن بعده إلى الصواب ، وهكذا كانت تستقيم الأمور، لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد، متحلين بالورع،

متخلين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب ذلك الملك الجبار أم رضى ؟ فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم، بما يعلمون من انقياد العامة لهم، واعتقاد الأمة بهم . إلا أنه بمرور الأيام ، خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ، فسوّغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم ، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين . هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم موافقة للشريعة ؛ والفساد بذلك يعظم ومصالح الأمة تذهب ، والاسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمّر ، وكل هذا إثمهُ فى رقاب هؤلاء العلماء » اه .

وقد وضع الأستاذ فقيد الاسلام صاحب المنار رحمه الله حاشية على هذه الجملة قال فيها : وفّينا هـذه المسألة حقها فى المنار ، وأهمه مقالة فى المجلد التاسع عنوانها « حال المسلمين فى العالمين ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين » أنحينا فيها باللائمة على علماء هذا العصر فى تقصيرهم عن نصيحة الملوك والأمراء . اه .

على أن فقهاء الأندلس برغم كل ما ثبت عنهم من التقصير فى إقامة أمرائهم على الطريق المستقيم ، لا ننكر أنه ضاق ذرعهم أخيراً بفتن ملوك الطوائف التى كان من ورائها تقلص ظل الاسلام شيئاً فشيئاً ، فراسلوا المرابطين ومن بعدهم الموحدين ، فى بر العدوة حتى أجازوا إلى الاندلس المرة بعد المرة وكانت مواقفهم فى جهاد النصارى هى السبب فى نسيئة أجل الاسلام فى تلك البلاد مدة مائتين إلى ثلاثمائة سنة

ومما يجب الانتباه إليه بمناسبة حادثة بربشتر هو العمران الزائد الذى وصلت اليه لذلك العهد أسبانية الاسلامية ، فأنت ترى أنهم عدّلوا سبى تلك البلدة بمائة ألف نسمه أو بخمسين ألفاً ، ولا شك فى أن أهلها لم يكونوا أجمعين من جملة السبى . والحال أن بربشتر لم تكن إلا مدينة من الدرجة الثالثة بالكثير فى مدن الأندلس، أى من المدن التى رافائيل بلستر أحصاها بثلاثمائة مدينة فى أسبانية المسلمة . فلا هى من الحواضر الكبرى ، ولا هى فى الثمانين مدينة المعمورة جداً ، بل هى فى القصاب التى تأتى فى

الدرجة الثالثة، ومع هذا فقد رأيت ما كان من عدد أهلها، وماظهر من عظمة ثروتهم وسبوغ نعمتهم ؛ وفى حكاية التاجر اليهودى الذى ذهب لفكاك السبايا مافيه كفاية

ولقد ذكرنا أن بر بشتر هى من أعمال بر بطانية أو برطانية فى شرق الأندلس و برطانية يقول لها الأسبان بولطانية باللام ، وهى إلى الشمال من بر بشتر ، و إلى الشمال الشرقى من وشقه . وقد نقلنا عن ياقوت فى المعجم أنها مدينة كبيرة بالاندلس، يتصل عملها بعمل لاردة، وكانت سداً بين المسلمين والروم، ولها مدن وحصون، وفى أهلها جلادة وممانعة للعدو ، وهى فى شرق الأندلس اغتصبها الافرنج فهى اليوم فى أيديهم . اه .

قلنا ان بلطانية أو برطانية هى فى وسط جبال البرانس ، تقع فى الجنوب من الجبل المسمى بالجبل الضائع، وفى الشرق من الشارات التى يقال لها « شارات بانيه » Pena وأما لاردة فهى الى الجنوب الشرقى من برطانية . ثم انه إلى الجنوب من بر بشتر تقع مدينة « مونتشون » و يقول لها الاسبانيول Monzon (١) وهى بلدة صغيرة اليوم أهلها أربعة آلاف نسمة ولكنها قديمة ، وفيها خرب من زمن الرومان ، وعلى صخرة عالية منها ، تشرف عليها ، حصن قديم كان ريموند بيرانجه الرابع أمير برشلونة تخلى عنه سنة ١١٤٣ لنظام الفرسان الهيكليين . و بالقرب من حصن مونتشون إلى الشرق بحراً بلدة تَمَريط Tamarite وإلى الجنوب الشرقى من تَمَريط تقع بلدة يقال لها المنار و بالقرب منها بلدة « بُلَغى » التى سيأتى ذكرها، وهى من عمل لاردة من بلاد كتلونية .

والطريق من سرقسطة إلى برشلونة بالسكة الحديدية هو على الجنوب الشرقى ، بين نهر ابرُه والقناة الامبراطورية، وهناك قرية يقال لها باستريز « Pastriz » وقرية أخرى يقال لها البُرجو ، ولا شك انها محرّفة عن البرج ، ثم ان على النهر بلدة يقال لها « الفونت » تنتهى عندها القناة الامبراطورية ، وفيها قصور لعائلة نبيلة كانت لها

(١) قال ياقوت فى المعجم : منت شون الشين معجمة وآخره نون حصن من حصون لاردة بالاندلس قديم بينه وبين لاردة عشرة فراسخ وهو حصين جدا تملكه الافرنج سنة ٤٨٢

سيادة على الفونت ، وغير بعيد عنها قرية « أغيلار » ثم قصبة يقال لها « بينه » ثم مدينة « كينتو » Quinto وهى صغيرة وكلها قصاب على وادى ابرُه ، ثم بلدة قلسة Gelsa و « الزائدة » Zaida و « اسقاطرون » Escatron ثم السهلة ويقول لها الاسبانيول Azaila

وعلى مسافة ٧٢ كيلو مترا من سَرَقسطة بلدة صغيرة اسمها هيجار Hijar أهلها ألفا نسمة . وعلى مسافة ٣٢ كيلو متراً من هيجار بلدة يقال لها الكنيز Alcaniz وكان العرب يقولون لها القنيت وهى بلدة قديمة ايبيرية . كان اسمها فى الماضى أنيتورجيس Anitorgis وفى هذه البلدة ظفر القرطاجنيون بقيادة الاسد الرئبال أسد روبال Hesdrubal بالجيش الرومانى سنة ٢١٢ قبل المسيح . وبالقرب من القنيت هذه يوجد صخر كبير يقال له « صخر المغربى Roca del Moro عليه صور قديمة عُذمُليّة تمثل كثيراً من الحيوانات ، وفى تلك الناحية تجتاز السكة الحديدية وادى لب ، وتعود فتدنو من نهر أبره . وأما حصن جَبْرَة فيقع على مائة وكيلو مترين من سَرَقسطة وهذا الحصن يقول له الاسبانيول شبرانة ، وقد ذكره ياقوت بهذا الاسم فقال :

شبرانة من ثغور شرف الاندلس بقرب طرطوشة ينسب اليها أديب يقال له الشبرانى ، وإلى الشمال من جبرة أو شبرانة تقع بلجيط . وبلجيط قصبة من عمل سرقسطة ينسب إليها أناس من أهل العلم قد ورد ذكرهم فى تراجم علماء سرقسطه(١)

وإلى الجنوب من جبرة مدينة قشب Caspe وقد مر ذكرها ، وهى سبعة أو ثمانية آلاف نسمة على الضفة اليمنى من وادى ابرُه ، والوادى من عند قشب يدور صوب الشرق ، ماراً بمكناسة ، ويدخل فى بلاد كتلونية .

وكانت قشب من الحصون المعروفة عند العرب ، وينسب إلى قشب من العلماء أبو الحسن نفيس ابن عبد الخالق بن محمد الهاشمى القشبى المقرىء ، لقيه السلفى بالاسكندرية ، وحج ورجع إلى الأندلس ، وذكر السلفى انه قرأ عليه قبل رجوعه إليها . وقد تقدم ذكره .

---

(١) منهم أبو عميرة البلجيطى

ومن أعمال سرقسطة بلدة إلى غربيها يقال لها المنُية Almuna و بلدة أخرى إلى الغرب منها أيضاً ، بينهاو بين دروقة ، يقال لها كار ينّنه Carinena ولا نعلم هل هذه التى يقول لها العرب قُلُنَّة ، أم هى غيرها ؟ قال ياقوت فى المعجم : قُلُنة بلد بالأندلس ، قال ابن بشكوال انه ينسب إليها عبدالله بن عيسى الشيبانى ، أبو محمد ، من أهل قُلُنة حيّز سرقسطة ، محدث حافظ متقن ، كان يحفظ صحيح البخارى ، وسنن أبى داود ، وله اتساع فى علم اللسان ، وحفظ اللغة ، وله عدة تا ليف حسنة ، وتوفى ببلنسية عام ٥٣٠

وجاء فى معجم البلدان أن من جملة حصون سرقسطة حصن اسمه «ملونده[1]» بضم أوله وثانيه ، وسكون النون ، ثم دال مهملة . ومن هذا القبيل « بَلْشَنْد » و « بِلْطش » اللتان قال ياقوت انهما من أعمال سرقسطة . ولم نقف على أسمائهما بالاسبانى الى هذه الساعة ، ونرجح أنه من أثر التحريف . وذكر ياقوت من جملة حصون سرقسطة حصناً اسمه شُلَوقة ، ينسب إليه على بن اسماعيل بن سعيد بن احمد ابن لب بن حزم الخزرجي ، قرأ على ابن عطية الغرناطى الحديث ، والنحو على ابن طراوة المالقى ، وأبوه أيضاً مقرى، نحوى ، لقيهما السافى (بالاسكندرية) وكتب عنهما ولا نعلم هل شُلَوقة هذه هى التى يقول لها الاسبانيول سلوسية S. lucia ؟ وهى إلى الشرق نحواً من بينية ، الواقعة على نهر ابره ، إلى الجنوب من سرقسطة

ومتى تجاوزت قشب تجد نهر ابره قد توجه إلى الشمال ، ودار من حول شارات مكناسة Sierra de Mequinenza المعدودة من جبال كتلونية ، ثم يعود ابره فينحدر إلى الجنوب ، و يعود الخط الحديدى فيتلاقى بابره ، عند بلدة يقال لها فيّون ، على مسافة ١٥٢ كيلو متراً من سرقسطة ، وهناك الحد بين أراغون وكتلونية ثم ينحدر ابرُه طالباً طرطوشة ، حيث ينصب فى البحر ، وعلى مسافة ٢١١ كيلو متراً بلدة يقال لها مرسى فلسيت ، عدد سكانها أربعة آلاف ، و بالقرب منها معدن رصاص ، وهى

(١) لعلها التى يقول لها الاسبانيول اليوم مالونده على نهر جلق Malunda velilla Giloca وهى بقرب بلدة موراطة Morata

واقعة فى واد بهيج ، على سفح جبل مُولا Mola ؛من بعدها إلى الشرق بلدة بورجاس دلكامبو Borjas del Cabmpo ثم يطل السائح على البحر المتوسط .

كتاونية Catalogne

هذه البلاد هى قائمة بذاتها من قديم الدهر ، وكثيراً ما كانت مستقلة عن سائر اسبانية ، ولم تتحد مع اراغون وقشتالة إلا بعد طرد المسلمين من الاندلس ، وأهلها أمة يقال لها الكتالان ، لسانهم غير الاسبانيول ، والفرق بينهما أن الاسبانيول مشتق من اللاتينى ، وهو أقرب إلى اللاتينى من اللغة الكتلونية ، وان هذه اللغة أقرب إلى لغة بروفنسة ، التى هي لغة جنوبى فرنسة . وجنس الكتلان على وجه الاجمال لا يود الجنس القشتالى . قال لى رجل من الكتلان ، ونحن آتون من مجريط إلى برشلونة : نحن والقشتاليون كالماء والزيت ، بمجرد اختلاطنا ينفصل كل فريق منا عن الآخر .

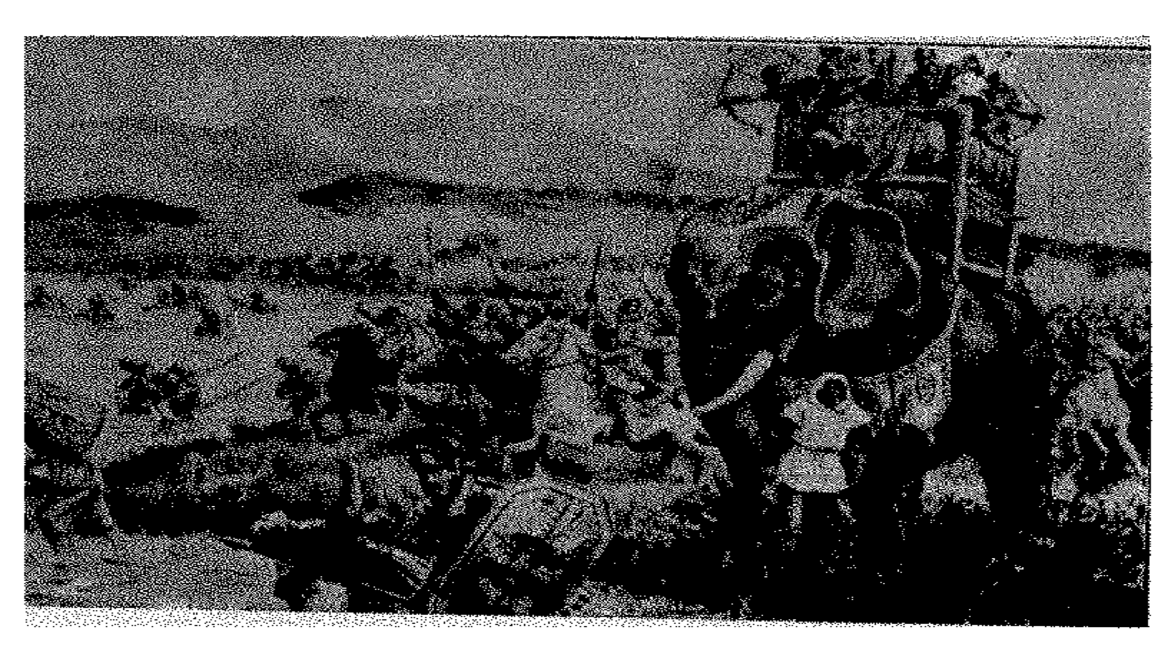
وحدود كتلونية جبال البيرانس من الشمال ، و بلاد أراغون من الغرب ، وولاية بلنسية من الجنوب ، والبحر المتوسط من الشرق ، وكان لكتلونية على هذا البحر من السواحل مسافة ار بعمائة كيلو متر من رأس سر بيرة Cerbira في الشمال إلى مصب نهر سينيه Cenia ، وأهم مدنها البحرية روزاس Rosas وكاداكيس Cadaques و بالاموس و برشلونة وطركونة وسالو Salou ولوس الفاكيس Los Alfaquis . وأهم قسم لها من البرانس الجبال المسماة بجبل نيغرو Negro وسان غراو Sangrau ومونشارّات Montserrat وغيرها ، وأهم الأودية المتكونة من هذه الجبال هى وادى اندور ، وهو واد له حكومة مستقلة ، بين فرنسة واسبانية ، كما لا يخفى ، ووادى آنيو Anéo ، ووادى آرون Aron ، ووادى آرو Aro . ووادى كردونة Cardona وغيرها . وأعظم أنهرها نهر ابرُه ، ثم نهر سِكر Segre ثم نهر لوبريقات Llobregat ونهر تير Ter ونهر فلوفيه Fluvia .

والقسم الشمالى من كتلونية شديد البرد . لمساقبته لجبال البرانس ، ولكن

السواحل هى فى غاية الاعتدال ، وكذلك القسمان الغربى والجنوبى . وليست البلاد من جهة أرضها معدودة من البقاع الخصيبة فى الدنيا . وأكثر أراضيها جبلية ، والأوعار فيها كثيرة ، إلا أن الكتلان من أكثر الأمم نشاطاً وأشدهم ثباتاً فى العمل فلذلك ترى فى أراضيهم المزارع العظيمة للحبوب ، وكروم العنب المالئة للسهل والوعر ومن بساتين الزيتون ، ومن الغياض مالايحصى ، ومن الأماكن التى تذكر بحسن زراعتها سهول لامبوردان Lampordan ، وجيرندة ، وسيردانيه ، و ناجس ، و بنادس وطركونة وضفاف نهر سيفر ، ونهر ابره ، ولا تنس لحص طرطوشة ، و بقعة لاردة .

ومن حاصلات كتلونية الثمار بأنواعها ، والخشب ، والبقول ، وأكثر ما تباع فى فرنسة ، وكذلك يستخرجون الخمر بكثرة . ثم إن عندهم فى الجبال مواشى كثيرة . أما المعادن فيكثر فى كتلونية الجير والجص والملح ، وفى طرطوشة وطركونه رخام كثير و بقرب ساليت Salut معدن رصاص ، والحديد موجود فى البرانس ، والمياه المعدنية كثيرة أيضاً ، أشهرها فى عاريقة Garriga وكالداس Caldas و بودا Puda الخ

وأما الصناعة فى كتلونية ففى منتهى الازدهار ، لاسيا فى ارباض برشلونة ، ومما لانزاع فيه ان كتلونية هى أرقى بلاد اسبانية فى الصناعة . ومن صناعات كتلونية نسج القطن والصوف والحرير والجوخ ، وسائر أنواع المنسوجات . وعمل الورق والصابون والزجاج والسلاح ، وغير ذلك ، و بسبب ازدهار الصناعة نجد تجارة برشلونة هى أوسع من تجارة أية مدينة فى اسبانية ، بل برشلونة تعد من أعظم المدن التجارية فى العالم . وفى كتلونية عرق فينيقى ثابت فى التاريخ ، فان الفينيقيين زاروا تلك البلاد وعمروها ، وكانوا يبحثون فيها عن معادن الذهب والفضة ، ثم جاء اليونانيون فزاحموا الفينيقيين ، وأنشأوا مستعمرات على شواطىء البحر ، مثل بلدة روزاس التى قيل لها الروضة ، وأنبورياس التى قيل لها انبوريون Enporien ، ثم عند ما عظمت دولة قرطاجنة جاء القرطاجنيون فى القرن الثالث قبل المسيح ، وزاحموا اليونانيين وانتشروا فى كتلونية . والمظنون أن اسدروبال برقة Asdrubal Berca

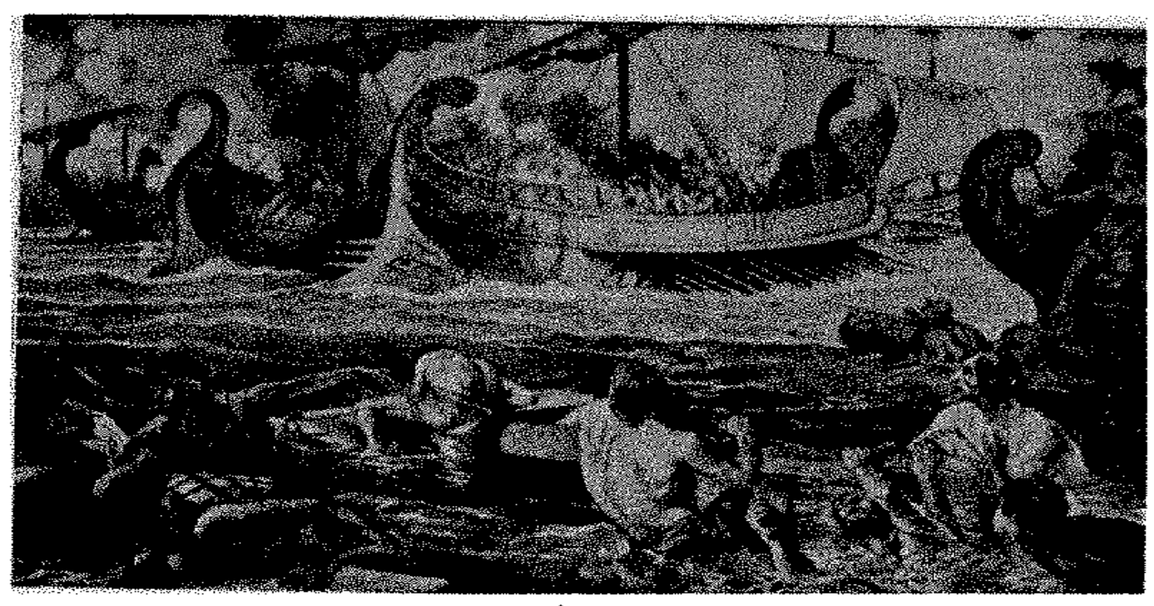


صورة انتصار اينبال على الرومان فى واقعة براسيانو سنة ٢١٧ ق ٠ م

الزعيم القرطاجنى هو بانى مدينة برشلونة ، التى كان اسمها فى القديم بارسينو Bercino

ولما كان الرومانيون حلفاء لليونانيين لم تلبث الحرب أن نشبت بين الرومان والقرطاجنيين، لأن الرومان أرسلوا فى سنة ٢١٨ قبل المسيح القائد سيبيون Scipion وأخاه بأسطول إلى مياه امبور يون ، ثم إلى طركونة ، ودارت الحرب بين القرطاجنيين والرومان ، فانهزم سيبيون وأخوه ، وقتلا فى المعركة ، وفى طركونة نفسها عاد الرومانيون فنزلوا وحشدوا لقتال القرطاجنيين ، وصارت هذه البلدة قاعدة للرومان ، ومنها امتدوا وانتشروا فى اسبانية ، وصارت الروضة وامبور يون و برسينو ، أى برسلونة ، وجيرندة وفيك و بادلوانة ودرطوزة التى سماها العرب طرطوشة ، وايلَرْدة ، التى سموها لاردة وغيز ونة وايزونة وسيقارة ، من المدن المعروفة فى ذلك الوقت تحت حكم الرومانيين

وقد ذكر المؤرخون من اللاتين أسماء الشعوب التى كانت معروفة فى كتلونية ، مثل الـكوزتانى Cozetani ، واللاسيتانى Lacitani والايلارجيت Ilergetes ، والايندیجيت Indigetes ، واللالتانى Laletani ، والسيرتانى Cerretani والاوزتانى Austani ، والـكاستلانى Castelloni ، و بعض المؤرخين يذهبون إلى



صورة واقعة بحرية بين القرطاجنين والرومان سنة ٢١٨

أن اسم كتلونية مشتق من اسم الـكاستلانى ، والآخرون يقولون إنه مشتق من اسم قبيلة يقال لها « قوطي ألانى » Gothi - Alani .

أما تاريخ كتلونية فى القرون الأولى من القرون الوسطى فلايزال إلى اليوم غامضاً وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن العرب استولوا على كتلونية فى القرن الثامن للمسيح

قال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير إلى الأندلس :

نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين ، في عسكر ضخم ، من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر ، فوافوا خليج الزقاق ، ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبّع ، و يقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب إليه ، المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل طارق ، وتمم الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة من جهة المشرق ، وأر بونة فى الجوف ، وضم قادس فى الغرب ، ودوّخ أقطارها وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتى المشرق من جهة القسطنطينية ، و يتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ودروبه و يخوض إليه ما بينهما من بلاد أمم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، ومستلحما لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق .

ونمى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب،ورأى أن ما همّ به موسى تغرير بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين ، إن لم يرجع هو ، وكتب له بذلك عهده . ففتّ ذلك فى عزم موسى ، وقفل عن الأندلس ، بعد أن أنزل الرابطة والحامية فى ثغورها . واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها ، وأنزله بقرطبة ، فاتخذها دار إمارة . إلى آخر ما ذكره ابن خلدون ، مما يدل على أن فتح العرب لبرشلونة وقع فى زمن موسى ابن نصير نفسه ، بل يقول انه أوصل الغزو إلى اربونة ، إلا أنه يقول بعد ذلك : ثم تتابعت ولاة العرب على الأندلس ، تارة من قبل الخليفة ، وتارة من قبل عامله بالقيروان ، وأثخنوا فى أمم الكفر ، وافتتحوا برشلونة من جهة الشرق ، وحصون قشتالة و بسائطها من جهة الجوف ، وانقرضت أمم القوط . وأوى الجلالقة ومن بقى من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب ، فتحصنوا بها ، واجتازت عساكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة ، حتى احتلوا البسائط وراءها ، وتوغلوا فى بلاد الفرنجة ، وعصفت ريح الاسلام بأمم الكفر من كل جهة ، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكرة ، فرجع الافرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة ، لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها اه .

ثم انه فى نفح الطيب مذكور فتح هشام بن عبد الرحمن الداخل لمدينة أربونة الشهيرة من جنوبى فرنسة ، ولا يقدر الأمير هشام المذكور أن يفتح أربونة وهى فى الجوف ، على مسافة غير قصيرة إلى الشمال من البرانس ، أو جبل البُرتات ؛ إلاّ إذا كان استولى على كتلونية . وجاء فى نفح الطيب أن الأمير هشام بعث سنة ست وسبعين ومائة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، لغزاة العدو ، فبلغ أَلَبَة والقلاع ، وأثخن فى نواحيهما ، ثم بعثه بالعساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجيرندة فأثخن فيهما ، ووطىء أرض برطانية . اه .

وقد نقلت هذه الفقرة فى كتابى « غزوات العرب فى أوربة » وعلّقت عليها بقولى : الأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية ، برطانية الافرنسية ، بل امبرطانية الكتلانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد المذكورة قبلها جيرندة التى هى فى جنوبى فرنسة ، والتى قاعدتها بوردو ، بل جيرندة التى هى من مقاطعات كتلونية ، أى جيرندة التابعة لبرشلونة ، والتى يقال لها اليوم جيرونة ، فان إسمها الرومانى القديم جيروندة Gerunda . وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب . نبّهنى إلى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسى الفهرى ، وقال لى انه لم يزل بفاس إلى الآن عائلة من الأندلس ، يقال لها عائلة الجيرُندى ، نبغ منها علماء مثل أبى العباس أحمد بن على بن عبد الرحمن الجيرندى الأندلسى ، المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ، ترجمه القادرى فى نشر المثانى ، والكتانى محمد بن جعفر فى سلوة الأنفاس . ولا شك فى أن العرب سكنوا جيرندة الكتلونية طويلاً ، ولكنهم لم يسكنوا جيروندة التى عاصمتها بوردو ، ولا عرفوها إلا فى الغزوات ، عابرى سبيل . روى لى محمد الفاسى أن المستشرق الاسبانى قُديرة ، كتب فصلاً خاصاً عن فتح العرب للمدن الثلاث : برشلونة ، وجيرندة ، وأربونة ، يتلخص منه أن العرب فتحوا جيرندة ، عند مافتحوا الأندلس ، و بقيت فى أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ؛ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ، ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ؛ ثم عادوا ففتحوها ، ثم أخرجوا منها نهائياسنة ٨٠٠

وفى الصفحة ١١٦ من كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » ذكرت نقلا عن المستشرق الافرنسى رينو ، ما يلى : منذ استرجع « ببّين » القصير أربونة ، وأجلا العرب عنها ، سكنت الأمور بين مسلمى الأندلس والفرنسيس . وكان ببّين يعد البيرانة هى التخم الطبيعى بين فرنسة واسبانية . وكان عبد الرحمن (يريد الداخل) مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه . ولم يكن ببّين يهمل شيئاً من الوسائل لاثارة نيران الفتنة بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أى بعد استرداد الفرنسيس لأربونة (وقرقشونة Carcassone) دخل أمير برشلونة ، المسمّى سليمان فى علاقات مع ببّين

وتعاهد معه . ومؤرخو الفرنسيس يزعمون أنه انضوى تحت لواء ببّين ؛ ولكن الأصح أن يقال انه ما قصد إلاّ أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه . ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين فى شمالى الأندلس فيوم يضغط عليهم السلطان فى قرطبة ، يلجأون إلى فرنسة ، ينشدون عندها التنفيس من خناقهم . و إذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيس بحق بلادهم ، عادوا إلى رئيسهم فى قرطبة ، واعتصموا به . انتهى كلام رينو

وعلقت على هذا الكلام مايلى : سليمان الأعرابى الكلبى أمير برشلونة كانت بينه و بين شارلمان علاقات ، مذ كان أميراً بسرقسطة . أنظر ما يقوله صاحب أخبار مجموعة ، ثم ثار سليمان الأعرابى بسرقسطة ، وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، من ولد سعد بن عبادة ، فبعث إليه الأمير (يعنى عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد فى جيش ، فنازل أهل المدينة ، وقاتلهم أياماً ، ثم ان الأعرابى طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب ، وقالوا قد أمسك عن الحرب ، أغلق أبواب المدينة ، وأعدّ خيلا ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه فى المظلّة فصار عنده أسيراً ، وانهزم الجيش ، فبعث به الأعرابى إلى قارلّة ، فلما صار عنده طمع قارلّة فى مدينة سرقسطة من أجل ذلك ، فخرج حتى حلّ بها ، فقاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع ، فرجع إلى بلده . انتهى

وقلت بعد ذلك ان العرب يسمون شارلمان قارلّة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتى ذكر قصة الأمير سليمان هذا الذى مالأ شارلمان على قومه ، وكيف انتهى أمره . انتهى

وقد ورد فى « أخبار مجموعة » ذكر سليمان الأعرابى فى محل آخر حيث يقول : ثار على الأمير (أى عبد الرحمن الداخل) عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، الذي كان يقال له السقلابى بتدمير ، فكاتب سليمان الأعرابى الكلبى ، وكان ببرشلونه ، ودعاه إلى الدخول فى أمره ، فكتب إليه الأعرابى . إنى لا أدع عونك .

فامتعض الفهرى من جوابه ؛ إذ لم يجمع له فغزاه . فهزمه الأعرابى ، فكرّ الفهرى إلى تدمير . اه

وجاء فى « أخبار مجموعة » فى مكان آخر : أن حسين بن يحيى الأنصارى عدا على الأعرابى يوم جمعة ، فقتله فى المسجد الجامع فى سرقسطة ، وصار الأمر لحسين وحده ، فنزل به الأمير ، وكان عيسون بن سليمان الأعرابى قد هرب إلى أربونة ، فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة ، أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة ، وصار على جرف الوادى ، فاقحم عيسون فرساً له ، كان يسميه الناهد ، وقتله ، ثم رجع إلى أصحابه فسمى ذلك الموضع مخاضة عيسون اه

ونقلت فى كتابى « غزوات العرب فى أوربة » عن المستشرق رينو مايلى :

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين فى مقاطعات نهر أبره ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه ، قاصدين شارلمان فى قستفالية ، حيث كان منعقداً مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين ، وهو المسمى سليمان ، قد قاتل عساكر قرطبة ، وأخذ قائدها أسيراً ، وجاء به ، وقدّمه كهدية إلى شارلمان ، ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل فى طاعة الأمبراطور الافرنسى . اه

وعلقت على هذا بقولى : استشهد رينو على ذلك بمجموعة الدون بوكه ، وكذلك بتاريخ ابن القوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير ، لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربي ، والآخرين يسمونه مطرّف بن العربى . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الأعرابى الكلبى . وأما أسيره الذى أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذى أسره بحيلة كما تقدم . اه .

وفى صفحة ١٢٤ من كتابى « غزوات العرب فى أوربة » ، فى أثناء كلامى على إمارة عبد الرحمن الثانى ، نقلت عن نفح الطيب قوله : وفى سنة ٢٢٦ بعث عبدالرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة ، وانتهوا إلى أرض برطانية ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى ، عامل تطيلة ، ولقيهم العدو ، فصبروا حتى هزم الله عدوهم اه

وعلقت على هذه الجملة بقولى : برطانية هنا لا يظهر أنها التى يقال لها بريطانية Bretagne من شمالى فرنسة إلى الغرب ، بل هى مقاطعة من كتلونية ، يقال لها اليوم أمبوردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها « امبرطانية» ، وهى لفظة مشتقة من « أمبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ، ثم يونانية فى أرض كتلونية . اهـ . ولقد لاح لى الآن أن برطانية هنا ليست أمبوردانية من كتلونية وإنما هى برطانية من أراغون . وهى التى تقدم ذكرها ، والاسبان يقولون لها «بلطانية» باللام ، ففى هذه الواقعة كان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى من بنى قصىّ ، وكان عاملا بتطيلة من بلاد أراغون .

وفى صفحة ١٣٠ من « غزوات العرب فى أوربة » ذكرت ملك الحكم بن هشام فى قرطبة ، وكيف ثار به عماه ، فاضطر أن يقضى أوائل أيامه فى قمع الثورة ، ونقلت عن المستشرق رينو [1] صاحب كتاب «غارات العرب فى بروفانس وسيمونت وسويسرة » ما يلى :

---

(١) أخذ علينا بعض المؤلفين كوننا فى كتابنا « غزوات العرب فى أوربة » لم نزد على أن نقلنا كلام المستشرق الافرنسى رينو ؟ وعدوا ذلك قصورا فى التأليف ؟ وحقيقة الحال أننا نحن توخينا عمداً النقل عن رينو الافرنسى وكلر الألمانى والمحافظة على نصوصهما وذكر المنابع التى استقيا منها وذلك حتى لا يظن أننا نحن تصرفنا بروايات مؤرخى الافرنجة وطولنا وقصرنا فى الموضوع وما أشبه ذلك مما يتعرض له المؤلفون الذين يجعلون التاريخ مجرد استنتاج بعقولهم ويخلطون الرواية بالرأى الشخصى . فالموضوع الذى طرقناه لم يسبق أن أحدا من العرب أفرده بالتأليف وكل ما جاء عنه فى كتب العرب بعض جمل فى تضاعيف السطور جمعناها من هنا وهناك إلى كتاب واحد واخترنا وضعها فى الحواشى تعليقا على كلام رينو وكلر الذين رويا ما رويا بناء على وثائق لا تحصى من كتب الافرنج والعرب وممن عاصروا تلك الوقائع وقد جاءت هذه الحواشى التى علقناها مؤيدة فى الجملة للمتون التى ترجمناها من الافرنسية والألمانية والطليانية والتى أحببنا نقلها بالأمانة العلمية اللازمة . والمقصد الحقيقى عندنا هو تمحيص الروايات التى يحصل بها برد اليقين عن تلك الحوادث لا إظهار البراعة الشخصية

بينما كان شارلمان فى مدينة « اكسلا شابيل » جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم ، وعم الحكم أمير قرطبة (نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكه) وفى تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك أكيطانية عاقداً مجمعاً فى طلوزة جاءه رسول من الأذفونش ملك جليقية وأشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية ، وتجريدها لقتال العدو العام ، ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم ، فى ناحية وشقة ، يقال له « باهالوك » يريد أن يسالم المسيحيين ، فظهر أن الفرة كانت لائحة لأخذ الثأر من المسلمين ، وللدخول الى اسبانية . وكان لويس ملك اكيطانية ، وأخوه شارل ، قد شنا الغارات فى أطراف المقاطعات التى تشرب من نهر ابره : ثم عاد لويس فأجاز البيرانة من جهة أراغون ، وحاصر وشقة ، التى كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسيس لتسلم بلدته ، امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر .

وفى ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة . قد استولى على طليطلة وعمه الآخر سليمان استقر فى بلنسية ، فسرح جيشاً لقتال عمه عبد الله فى طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانة ، فأدخل فى الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التى كانت أشرطت نفسها للعصيان . انتهى .

وأيدت رواية رينو برواية نفح الطيب عن هذه الحوادث ، وهى هذه : وفى سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لذريق بن قارله ، ملك الفرنج ، جموعه ، وسار لحصار طركونة ، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى العساكر فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً . ولما كثر عيث الفرنج فى الثغور ، بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه ، سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين ، فافتتح الثغور والحصون ، وخرب النواحى ، وأثخن فى القتل والسبى ، وعاد إلى قرطبة ظافراً . اه

قلت : لعل صاحب نفح الطيب يعنى بلذريق بن قارله لويس بن شارلمان أما الأمير المسلم الذى كان فى ناحية وشقة ويسميه الافرنج « بهالوك » فنرجح أنه هو بهلول بن مخلوق ، من عمال قرطبة . وكان قد انضم إلى لويس بن شارلمان في تلك الغارة

فالمؤرخ كوندى الاسبانيولى يقول : إن الحكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطّد أطنابها بتعبه وجهاده ، ففى سنة ٨٠١ مسيحية ، وفق ١٨٥ هجرية ، تحرك ملك اشتورية وأراد التجاوز على المسلمين ، ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم، استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجدته ، مؤملا بذلك الاستيلاء على اسبانية الشمالية وضمها إلى مملكته ، فجملت امداد شارلمان تثوب إلى الاسبانيول ، تحت قيادة ولده لويس ملك اكيطانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة وجاء فحاصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن مخلوق (الذى نحت منه الافرنج اسم بهالوك) من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس إلى طرطوشة ، فزحف الحكم بنفسه ، ومعه عمروس ، ومحمد بن مفرّج ، قائد الخيالة . الذى كان عظيم الاعتماد عليه ، نظراً لدهائه وإقدامه ، ثم أغار الحكم على نبارة و بنبلونة ، ودخل وشقة . فخشى الاذفونش على بلاده ، وحشد عساكره ، وزحف إليه يوسف بن عمروس ، فأوقعه الأذفونش فى كمين ، وأخذه أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه .

وأما الحكم فكان يتوقد صدره إحنة على بهلول بن مخلوق عامله ، الذى انحاز إلى الفرنسيس ، ومشى بين أيديهم . ولما عرف أنه فى جوار طركونة ، عمد إليه من فوره ، ولم يزل فى أثره حتى ثقفه فى طرطوشة بعد أن هزمه ، ثم احتز رأسه ، ورجع الحكم إلى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة ، وذلك خوفاً من الفشل فى حصارها اه.

وقال المستشرق رينو — الذى اعتمدنا على كتابه « غارات العرب فى بروفنس و بيمونت وسويسرة » لأنه أشهر كتاب فى هذا الموضوع ، وكل جملة فيه تقريباً مدعومة بالوثائق ، مؤيدة بروايات مؤرخى ذلك العصر ، سواء من الافرنج أو من العرب — ما يلى :

ولم يكن شىء من تلك الغارات ، سواء من جهة العرب أو من جهة الافرنج ، ليؤدى إلى نتيجة حاسمة ، يستفصّ منها أحد الفريقين ملكا . أو يحوز فتحاً مبيناً .

وكان أهم ما لقيه الفرنسيس فى هذه الحرب ، هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان ، أبوا أن يقبلوها عند ماجاءت جيوشه إلى بلادهم ، وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى ، والمعاقل المنيعة ، مثل برشلونة ، وطرطوسة ، وسَرَقُسطة . وكانت برشلونة . بنوع خاص ، بحصانة موقعها ، و بقربها من فرنسة ، و بكونها مدينة بحرية ، هى من أشد البلاد نكاية بالفرنسيس وكان الأمير الذى فيها ، وهو الذى يسميه مؤرخو الافرنجة « زاتون »[1] قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول فى طاعته ، ولكن عندما حضر الفرنسيس أمام بلدته ، قلب لهم ظهر المجن ، وكشّر عن ناب العداوة ، فأجمع لويس شارلمان ، ملك اكيطانية بالاتفاق مع غليوم ، كونت طلّوزة ، و برأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد ، أن

(١) جاء فى تاريخ متس وتاريخ ريجنون وغيرهما أنه فى سنة ٧٩٧ من التاريخ المسيحى قدم أمير برشلونة العربى على شارلمان . وبعد ذلك فى سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته فاخذ أسيراً ونفى ، وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون » Zaton وطوراً « زادو Zaddo » وأحياناً « زاد Zaad » والارجح ان اسمه سعدون أو سعد . وقد ورد فى تاريخ الملك لويس الحليم أن سعدون هذا وقع أسيراً فى سربونة وانه بعد اسره تولى امارة برشلونة ابن عم له اسمه عامر فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين تحمل فى أثنائها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أى قبيل عن تحمله وذهب مؤرخون منهم « مارمول Marmol » إلى أن سعدون أو سعداً كان من عمال ملك قرطبة فانتقض على سلطانه فارسل إلى شارلمان يعده بالدخول فى طاعته . وفى سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل هذا الامير فعلا فى طاعة شارلمان ولكن شارلمان شعر بعد سنتين من هذا العهد بأن أمير برشلونة نقض طاعته . فسرح اليه جيشاً تحت قيادة ولده لويس أو لودفيك ، ولذلك العرب حرفوه إلى لذريق ـ فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها . فجاء أمير سرقسطة واستردها . ولكن لويس شارلمان عاد سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها . فالروايات تختلف فى كيفية استيلاء الفرنسيس على برشلونة ولكن خلاصتها واحدة وهى ان العرب خسروا بلاد كتلونية من ذلك الوقت وانه تولى عليها فى البداية أمراء تابعون لفرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عن فرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عن فرنسة وعن العرب معاً

يستولى على برشلونة في أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ فى رومة مشغولا بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب . وكانت برشلونة قد أصبحت للمسلمين معقلا متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فتبث الغارات فى بلاد النصارى وتعود وأيديها ملأى بالغنائم ، وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيس لبثوا سنتين يحصرونها ، و يضيقون عليها ، و يكتسحون نواحيها ، ولم يقدروا على دخولها .

وكان الفرنج فى حصارها ، قد قسموا جيشهم إلى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم نفس برشلونة ، وقسم ثان ، يقوده غليوم كونت طلوزة ، كان يرابط فى الممر الذى كانت تفيض منه جيوش المسلمين المقبلة من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه . وكان فى جبال البرانس يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة ، وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار فيما بينهم ، حتى يتهيأ لكل فريق منهم أن يتقن عمله ، فمنهم من كان شغله وضع السلالم ، والتسلق على الأسوار والابراج ، ومنهم من لم يكن له شغل غير جلب الميرة والعدة . ومنهم من كان موكولا إليه الحفر والنقب . ومنهم من كان معهوداً إليه بوظائف أخرى . فاشتد الحصار إلى درجة غير معهودة ، وجاءت جيوش المسلمين لتفرج عن برشلونة ، فلم تقدر على النفوذ إليها ، فتحولت إلى بلاد اشتورية ، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، والمدد بعيد عنه ، وخرج فى إحدي المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة حملتهم الأخيرة ففتحوها .

وكان فتح الافرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ بعد أن بقيت تسعين سنة فى أيدى المسلمين . فلما دخلوها بادروا بتحويل جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانباً من الغنائم ، من دروع ، وزرود ، وخوذ ، وخيول مسرجة بأفخر السروج ، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان فى شمالى اسبانية : إحداهما كتلونية ، وقاعدتها برشلونة ، والثانية غشقونية ، ومن مضافاتها نبارة وأراغون .

أما مؤرخو العرب فينسبون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله ، عمّا الحكم الأموى ، وشغلته عن انجاد تلك المدينة ، كما جاء فى كلام أبى الفداء وابن خلدون والمقّرى وغيرهم . وهذا هو الصحيح .

و بقيت برشلونة وما يليها من كتلونية ، حاشا طركونة ، ولاردة ، وطرطوشة ، خارجة عن حكم العرب ، حتى فى زمن عبد الرحمن الناصر ، برغم كثرة غزواته ، وعظمة دولته . وقد ذكر المسعودى ، وهو ممن عاصر الناصر وولده المستنصر ، أن الحدود بين المسلمين والنصارى كانت فى ذلك الوقت طرطوشة ، ومنها إلى أفراغه . وقال ابن خلدون انه لأول وفاة الناصر طمع الجلالقة فى الثغور ، فغزاهم الحكم المستنصر بنفسه ، ونازل شنت اشتابين ، وفتحها عنوة ، فبادروا إلى عقد السلم معه ، وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزا غالباً مولاه بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، فهزمهم واستباحهم .

وكان شانجه بن ردمير ، ملك البشكنس ، قد انتقض ، فأغزاه الحكم التجيبى ، صاحب سرقسطة ، فى العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم . ثم أغزا الحكم ابن يعلى و يحيى بن محمد التجيبى إلى بلاد برشلونة ، فعاثت العساكر فى نواحيها

قال ابن خلدون : ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة يسألان تجديد الصلح ، و إقرارهما على ما كانا عليه ، و بعثا بهدية ، وهى عشرون صبياً من الخصيان الصقالبة ، وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذرع صقلبية ، ومائتا سيف أفرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم ، وأن ينذروا بما يكون من النصارى فى الاجلاب على المسلمين . اه .

ومن هنا يعلم أن برشلونة وطركونة ونواحيهما كانت فى ذلك الوقت ، وهو أواسط القرن الرابع للهجرة ، فى أيدى أهلها ، إلا أن ملوك تلك النواحى كانوا يعدون أنفسهم تحت سيادة الخليفة فى قرطبة .

وفى زمن أبى مروان المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر كانت غزاة للمسلمين فى كتلونيه ، لأن ابن عَذارَى ذكر أنه فى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة كانت أُولى غزوات المظفر إلى بلاد الافرنج ، وفتح حصن « مُمَقْصَر » من ثغر برشلونة عنوةً ، وأسكنه بالمسلمين ودوّخ بسيط برشلونية ، وما اتصل به . قال ابن حيّان : وأظهر عبد الملك المظفر الجِدّ فى أمر هذه الغزوة ، غرة رجب من السنة ، أى ٣٩٣ ، ودفع المعاريف والصلات إلى طبقات الأجناد الغازين معه فيها . ووافت الحضرة طوائف كثيرة من مطوعة العدوة المجاهدين ، فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وفقهائهم ، وتعرّض قوم من أمراء هذه القبائل لصلة عبد الملك ، فأطلق لهم عند تكاملهم ببابه خمسة عشر ألف دينار عينا ، وزّعها عليهم بحسب مقاديرهم ، معونة على جهادهم ، قبلوها منه بالتأوّل . وتحرّج آخرون ممن وافى معهم عن فعلهم

واتصل ورود المطوعة من كل قوم ، وكل ناحية ، فتكاملت الحشود بالحضرة ، ودنا وقت الحركة ، فصُبّ المال صباً . وعهد عبد الملك إلى خزان الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف درع ، وخمسة آلاف بيضة ، وخمسة آلاف مِغفَر ، على طبقات الأجناد الدارعين .

وركب عبد الملك إلى المسجد الجامع لشهود عقد الألوية ، على عادة أمراء الأندلس قبله وذلك يوم الجمعة لثمان خلون من شعبان من تلك السنة ؛ ثم خرج يوم الاثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من شعبان ، من باب الفتح الشرقى ، من أبواب الزاهرة ؛ وقد اجتمع الناس لرؤيته ، فخرج عليهم شاكى السلاح ، فى درع جديدة سابغة ، وعلى رأسه بيضة حديد مثمنة الشكل ، مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان فى أحسن تعبئة ، وسار عبد الملك إلى أن نزل بمنية أرملاط ، أول محلاته ، ثم سار إلى أن وصل طليطلة ، لسبع بقين من شعبان فتلوّم بها يوم الجمعة ، ورحل يوم السبت إلى مدينة سالم ، فوافاه هناك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومئذ ، اذفونش بن اردن ، المعروف بابن البربرية

ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجه بن غرسية ، زعيم الجلالقة ، وصاحب قشتيلة وألبَة . وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدى عبد الملك ، على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد أول هذه السنة . فأحسن عبد الملك قبولهم ، وأوسع انزالهم ، وأصعد عن مدينة سالم إلى الثغر الأعلى ، فاحتل سَرَقُسطة .

وأخرج عبد الملك مولاه واضحاً ، فى نخبة من رجاله ، إلى حصن «مدنيش»[1] بعقربة من حصن «مُمَقْصَر»[2] الذى عمل على قصده ، فسار واضح فصبّح هذا الحصن مع إسفار الصبح ، ورحل عبد الملك ، فتلقته رسل واضح ، فبشروه بالفتح ، وأشرف المسلمون على حصن ممقصَر ، فكبّروا لما نظروا إليه تكبيراً عالياً ، كادت الأرض ترجف له ! وتتابع قرع الطبول ، وطَمّ هوله ، فذعر الكفرة ، لأول وقتهم ، واحتل الحاجب عبد الملك وعسكرُ المسلمين بساحتهم ، فأحاطوا بالحصن من جميع جهاته ، وصمم المسلمون صاعدين إلى الحصن ، فوجاً إثر فوج ، وقد برز المشركون إلى الربض ، يمانعونهم عنه بزعمهم ، فنشب القتال بين الطائفتين ، وصبر المشركون ، فلم يمهلهم المسلمون إلا ريثما كشفوهم عن الربض ، وأقحموهم خلف السور ، واضطروهم إلى التحصن به . ثم جدّ الكفرة فى الدفاع ، وصدقوا القراع ، فتجرعوا كؤوس الحمام دراكا ، وضرب الليل رواقه ، فحجز بين الفريقين ، وقد ثلم المسلمون فى السور ثلما كثيرة .

ثم غدا المسلمون على القتال بعد صلاة الفجر ، فناهضوا أعداء الله بأصح عزيمة ، وقامت الحرب على ساق ، فصبر المسلمون على مباشرتها أكرم صبر سمع به ، حتى ولى العدوُّ الأدبار ، فاقتحموا عليهم الأسوار ، وأخذوا كثيراً منهم ، وركب الحاجب عجِلاً بنفسه ، مع أكابر أهل مركبه ، فارتقى إلى باب قصبتهم ، واقتحم الناس على

(١) لم نتحقق اسم هذا الحصن بالاسبانيولى

(٢) لم نجد ممقصر ولكن وجدنا اسم محل فى الجبل الى الغرب من طركونة اسمه الاقصر Aleixar فربما كان هو الحصن المقصود إلا أن الاسماء تتحرف بين الاسبانيولى والعربى إلى أن لا يهتدى إلى حقيقتها .

أعداء الله القصبة ، فملكوها ، وخلصت طائفة منهم إلى محل منيع بهذه القصبة ، فساورهم أولياء الله بذروة ذلك المحل ، فأيقنوا بالهلاك ، وسألوا النزول على حكم الحاجب فأنزلهم ، وحكم فيهم بحكم ابن عمه سعد بن معاذ ، رضى الله عنه ، فقتل جميعهم ، وملك الحصن ، وحاز الغنائم .

وعهد الحاجب إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلا ، ولا يهدموا بناء ، بما ذهب اليه من أسكان المسلمين هناك ، فشرع للوقت فى إصلاح الحصن ، ونادى فى المسلمين : من أراد الاثبات فى الديوان بدينارين فى الشهر ، على أن يستوطن فى هذا الحصن ، فعل ، وله مع ذلك المنزل والمحرث . فرغب فى ذلك خلق عظيم ، واستقروا به فى حينهم .

ولما استكمل الحاجب ما أراده من أمر هذا الحصن ، وأقام كلمة الاسلام منه بأرض لم ترَ الاسلام قط ، رحل عنه إلى بسيط برشلونة ، فدوّخ بلاد الكفرة ، وانبسط المسلمون فى عرصاتهم ، يحرقون ويهدمون ، وانبسطت خيل المغيرة فى أرضهم إلى أن أتى بسيطاً كثير العمارة ، فاحتلوه ، وعمّوا جميعه ، ووقعوا على كثير من عيال الجالية من هذه الحصون ، فردوهم سبياً إلى المحلة ، وأبلغوا فى النكاية ، وأحرزوا الأجر الجزيل .

وعيّد الحاجب والعسكر عيد الفطر بأرض برشلونه ، فانه رحل يوم عيد الفطر غرة شوال من السنة المؤرخة ، فأدركه وقت صلاة العيد وهم سائرون ، فنزلوا للصلاة . ولما قضى الحاجب صلاته ، تبوأ بمصلاه مقعداً ، لتهنئته بما سنّى الله له من التعييد فى سبيل جهاده ، فتقدم إليه أكابر الناس على مراتبهم ، ثم ركب فرسه ، فتقدم إليه طبقات الأجناد ، مبتهلين بالدعاء له ، وسار العسكر ، ونزل بالبطحاء ، ثم رحل من منزل إلى منزل ، فعم ذلك كله غارة وانتسافا .

قال حيان بن خلف : ورأى الحاجب عبد الملك أن قد بلغ الغاية من التدويخ لأرض العدو ، فرحل بالعسكر منكفئاً نحو أرض الاسلام ، وأمر كاتب الرسائل احمد

ابن برد أن يكتب بالفتح نظيرين : أحدهما إلى الخليفة هشام المؤيد بالله ، والآخر يقرأ على كافة المسلمين بقرطبة ؛ وتنفذ نسخته إلى الأقطار ، فعجل ذلك وأنفذه نحو حضرة قرطبة ، وكان جملة ماتضمنه كتاب الفتح من عدد السبى خمسة آلاف وخمسمائة وسبعين رأساً ، وعدد الحصون التى افتتحت عنوة ، فقُتلت مقاتلتها ، ستة حصون ، وكان عدد الحصون التى أخلاها العدو فخربت ودمّرت خمسة وثمانين حصناً ، وكلها قد سمّيت فى كتابه ، وأذن الحاجب لجميع المطوعة فى القفول إلى بلادهم ، إذ قدقضوا ماقصدوا له من جهاد عدوهم ، فقفلوا فرحين مستبشرين .

ورحل العسكر من مدينة لاردة يوم الثلاثاء لثمان خلون من شوال ، فدخل قرطبة لخمس خلون من ذى القعدة ، فتلقاه أهل قرطبة وعلماؤها ووجوهها مهنئين شاكرين ثم دخل الحاجب إلى الخليفة هشام ، فرفع مجلسه وكساه من ملابسه السنية ثلاث رزم ، قرن بها سبعين من خاص سيوفه ، فاظهر عبد الملك السرور بذلك ، وشكر الخليفة ، وقبل يده ، وانصرف إلى قصره بالزاهرة .

وجلس يوم الأربعاء ثانى يوم وصوله مجلس التهنئة فى أبهة فخمة ، وأذن للناس فى الوصول على مراتبهم ، فوصل فى أوائلهم كبار قريش ، من بيت الخليفة ، المروانيون، ثم القضاة والحكام والفقهاء ، ثم وجوه أهل الأسواق والأرباض من قرطبة ، ثم وصل الشعراء والأدباء ، فانشد منهم من رسمه الأنشاد ، ووضع سائرهم الأشعار بين يدى الحاجب . انتهى نقلا عن ابن عذارى ببعض اختصار .

وجاء فى الانسكلو بيدية الاسلامية عن برشلونة مامحصّله : أن العرب افتتحوها سنة ٧١٣ فى غارة موسى بن نصير لأول الفتح ، وسموها برشينونة Barshinona ، ولكن غلب عليها اسم برشلونة ، باللام ، ثم صارت برسلونة بالسين . وكان العرب يلقبون ملك أراغون وكتلونية بالبرشلونى أو بالبرجلونى بالجيم . وفى سنة ٨٠١ غلب عليها لويس بن شارلمان ، وبقيت تابعة للملكة الافرنجية إلى سنة ٨٨٨ ، فى ذلك الوقت استقل بها أمراؤها الذين كان يقال للواحد منهم كونت برشلونة . وقد ذكر

«البيان المغرب» أنه فى سنة ٢٤٢ عاد العرب فاحتلوها ، كما أن دوزى ذكر أن المنصور ابن أبى عامر أخذ برشلونة عنوة ، ولكن فى سنة ٩٨٧ رجع الكونت بوريل Borel فاستولى عليها ، وفى سنة ١١٣٧ انضمت إلى مملكة أراغون .

ومما هو جدير بالذكر من خبر برشلونة أن علياً بن مجاهد العامرى ، ملك دانية أصدر أمراً تاريخه ٤٥٠ للهجرة وفق ١٠٥٨ للمسيح ، يضع فيه أسقفيات دانية ، وأوريولة ، وجزر ميورقة ، ومينورقة ، ويابسة ، تحت رئاسة أسقف برشلونة . اهـ

وقد راجعنا قول دوزى فى كتابه « تاريخ مسلمى أسبانية » فوجدناه يقول فى صفحة ١٩٩ من الجزء الثالث ان المنصور بن أبى عامر رحل من مرسية قاصدا كتلونية فهزم الكونت بوريل ، ووصل نهار الأربعاء أول يوليو إلى برسلونة . ويوم الاثنين من الأسبوع التالى دخل البلدة عنوة ، فقتل جانباً من الأهالى ، وأخذ الباقى أسرى وانتهب العسكر البلدة وأحرقوها . ونقل دوزى عن ابن الخطيب أن المنصور استولى على برشلونة فى وسط صفر سنة ٣٧٥ ، فهذا اليوم يوافق ٦ يوليو سنة ٩٨٥ قال دوزى ان هذا التاريخ صريح فى كتب العرب ، وهو مطابق تواريخ الأفرنج وقد أخطأ بوفارول[1] Bofaroll فى زعمه أن هذا الحادث وقع فى السنة التى بعدها

وجاء فى الأنسيكلوبيدية الافرنسية الكبرى أنه بعد أن استرجع الأفرنج كتلونية كان يوجد فيها تسعة أكناد تابعون للأمبراطور ، وفى سنة ٨٧٢ استقل أحدهم ، وهو المسمى عند الكتلان غريفا بيلوس Griva Pelos وهم يعدونه أول واضع لأساس استقلال كتلونية . وكان يتولى أيضا بلاد جيرندة Gironde وڤيش Vich ومانرسه Manresa وبرجه Berga ، وبيرالده Peralada ، وريباغورس Ribagorce ، وسيردانية Cerdagne ، وبسالو Besalu ، وأمبورياس Ampurias وبالارس Pallars ، وتوفى هذا الكند سنة ٩٠٢ ، ودفن فى دير ريبول Pipoll

(١) هو صاحب الكتاب المسمى بتاريخ اكناد برشلونة Condes de Barcelone

الذى كان قد بناه ، وفى مدة أولاده أغار المنصور بن أبى عامر على برشلونة ، واستولى عليها سنة ٩٨٥ ، ولـكن بوريل الثانى لم يلبث أن استرجعها . ثم ان بوريل ريموند الثالث قام بدور عظيم فى أثناء الحروب الأهلية التى اشتعلت بين المسلمين ، وأضعفت الاسلام فانتصر لمحمد بن هشام على سليمان بن الحـكم ، وانتصر فى واقعة عقبة البقر سنة ١٠١٠ اهـ

قلنا ان واقعة عقبة البقر هذه هى واقعة شهيرة ، تحرير خبرها أن عبد الرحمن ابن المنصور بن أبى عامر ، وهو الملقب بشنجول ، لأن أمه اسبانيولية ، بنت الملك شانجة ، كان من الحمقى ، وعلى يده انتهت الدولة العامرية . وذلك أنه حمل الخليفة هشام المؤيد بالله على توليته عهده بمحضر من الملأ ، وكان يوماً مشهوداً ، فقرىء العهد عليهم ، وهو من إنشاء أبى حفص بن برد ، فنقم أهل الدولة على شنجول هذه الجرأة الفظيعة ، ولا سيما أقارب الخليفة هشام ، من الأمويين والقرشيين ، وتمشت رجالاتهم في أمر القيام على شنجول ، وقتلوا صاحب شرطته ، وهو غائب فى إحدى غزواته ، وكان ذلك سـنة تسع وتسعين وثلاثمائة . وخلعت قرطبة هشاماً المؤيد ، وبايعت هشام بن عبدالجبار بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وطار الخبر إلى عبدالرحمن شنجول بمكانه من الثغر فقفل إلى الحضرة بجيشه ، فلما قرب من قرطبة ، وثب عليه من احتزّ رأسه . وحمله إلى محمد بن هشام الخليفة الجديد ، الذى تلقب بالمهدى . وكان العرب قد كرهوا البربر ، لمظاهرتهم المنصور بن أبى عامر وأولاده ، ونسبوا ما حل من الضعف بدولة بنى أمية إليهم ، وأخـذ المهدى باهانتهم ، ونهبت العامة بعض دورهم ، فتمشت رجالاتهم ، واشتوروا في تقديم هشام بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر ، فعرف بذلك المهدى ، فأمر بالقبض على هشام وأخيـه أبى بكر ، وضرب أعناقهما ، وفرّ سليمان بن أخيهما الحـكم ؛ ومعه البربر ، واجتمعوا بظاهر قرطبة ، فبايعوه ، ولقبوه بالمستعين بالله ، ونهضوا به إلى طليطلة ، حيث استجاش المستعين ، بشانجة بن غرسية بن فردلند ، ثم نهض بجموع البربر والنصارى إلى قرطبة ، وبرز

المهدى إليهم بجموع قرطبة ، فـكانت الدائرة على المهدى والقرطبيين ، فقتل منهم البر بر والنصارى عشرين ألفاً ، وهلك فى هذه الوقعة من خيار الناس والعلماء ، وأئمة المساجد عدد كبير . ودخل المستعين الحضرة ختام المائة الرابعة . وقيل ان الذى هلك من أهل قرطبة ثلاثون ألفاً ، وقالوا انها كانت أول ما أخذ النصارى من ثاراتهم عند المسلمين ، وكان ذلك على يد فرقة من أنفسهم ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

* * *

ثم نعود إلى ما ذكرته الانسيكلو بيدية الافرنسية الـكبرى من تاريخ كتلونية فنقول :

« إنه بعد ريموند بوريل الثالث ، قام بيرنجة ريموندالاول (١٠١٨ ـ ١٠٣٥) وهذا قسم مملـكته بين أولاده الاربعة ، وكان أكبرهم ريموند بيرنجه الاول ، الملقب بالشيخ (١٠٣٥ ـ ١٠٧٦) الذى اتسعت مملـكته ؛ وغزا مرسية العربية سنة ١٠٧٤ وقام بعده ولده ريموند بيرنجه الثانى ؛ وحفيده بيرنجه ريموند الثانى الذى قتل أخاه وانفرد بالمملـكة (١٠٨٢ — ١٠٩٧) وكان لهذا الـكند مدخل فى الحرب الاهلية بين المسلمين وهو الذى انتزع طركونة من أيديهم سنة ١٠٩١ ؛ ورحل إلى المشرق مشتركا فى الحرب الصليبية . وخلفه ابن أخيه الذى تلقب بريموند بيرنجه الثالث ؛ ويقال له الـكبير . وفى زمانه بلغت كتلونية قمـة عزها ومجدها ؛ وصار لبرشلونة أسطول وكانت لها تجارة واسعة . وفى أيامه أخرج الاسبانيول العرب من جزائر ميورقة واخواتها . وذلك باجتماع أسطول برشلونة مع أساطيل بيزة ورومة من ايطالية مما سيأتى الكلام عليه ، فسقطت ميورقة فى أيدى الـكتلان سنة ١١١٥ ، وكان العرب قد شنوا الغارة على كتلونية فهزمهم ريموند برنجه فى واقعة كونغسط Congost وفى سنة ١١٢٠ زحف إلى طرطوشة وحاصرها ، وضيّق عليها ، وأجبر كلا من أميرى طرطوشة ولاردة أن يؤدى له إتاوة سنوية ، إلا أن العرب عادوا فأغاروا على بلاده ، وهزموه فى واقعة كوربينس Corbins و بينما كان يتأهب لأخذ الثأر منهم ، وقعت وفاته فى سنة ١١٣١ ، وكانت اتسعت مملـكته جداً ، لأنه عدا كتلونية ، كان قد استولى على

قرقشونة وكونتية بروفنس من فرنسة ، وكانت فى يده ميورقة ، والجزائر التى حولها .

وبعد وفاته انقسمت المملكة بين ولديه ، أحدهما البكر وهو المسمى ريموند بيرنجة الرابع ، والثاني بيرنجة ريموند ، الذى تولى بلاد بروفنس من فرنسة ، وترك لأخيه كل ما كان تابعاً للمملكة من اسبانية ، وتلقب ريموند بيرنجة الرابع بالقديس وأخذ يحارب المسلمين ، واتفق مع راميرِ الثانى Ramire II ملك أراغون ، الذى كان قد ترهب فى الآخر ، وتقرر بينهما ترويج ريموند بيرنجة بالأميرة بترونيليه Pétronilla وارثة مملكة أراغون ، ولما خلع راميرِ الثانى نفسه من ملك أراغون ، واختار الرهبانية بايع أهل أراغون ريموند بيرنجة المذكور ملكا عليهم ، فصارت فى يده قوة عظيمة ، وتحالف مع الأذفونش السابع ملك قشتالة ، وساعده فى غارته على المرية سنة ١١٤٧ ثم انه بمساعدة الجنويين حاصر طرطوشة ، واستولى عليها فى ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٨ وبعد أن طرد العرب من طرطوشة أخرجهم أيضاً من مواطنهم الأخيرة فى أطراف بلاده ، من جهة الغرب ، مثل لاردة ، وفراغه ، ومكناسة ، وفى سنة ١١٥٢ لم يكن بقى للعرب شىء فى كتلونية .

وفى سنة ١١٦٢ خلفه ابنه ريموند ، الذى ضم وشقة إلى مملكته ، وتلقب باذفونش الثانى [١] ، وكانت كل من مملكتى أراغون وكتلونية تحت حكمه ، ولكن الاتحاد بينهما كان سياسياً فقط ، إذ كل من المملكتين كانت محتفظة بلغتها ، وعاداتها ومشاربها ، ولم يمنع اختلاف الذوق والمشرب من الاتفاق فى السياسة ، فان أراغون كانت ، بسبب كتلونية تتصرف بقوة بحرية عظيمة . كما ان كتلونية ، بواسطة

---

(١) ولد هذا الملك فى سنة ١١٥٢ وبويع ملكا على برشلونة وعلى أراغون سنة ١١٦٣ وتوفى سنة ١١٩٦ وكان قد استولى على بروفنس فى جنوبى فرنسة ووقعت الحرب بينه وبين شانجة ملك نبارة وقاتل جيوش الموحدين الزاحفين من افريقية إلى الأندلس وخلفه ابنه بتره ملكا على أراغون وبرشلونة ويقال له بتره الثانى ولد سنة ١١٧٤ واشترك مع اذفونش السادس ملك قشتالة فى قتال الموحدين سنة ١٢١٢ ومات فى السنة التي بعدها قتيلا فى حرب الالبيجيين Albigeois

أراغون ، كانت تتصرف فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوة برية عظيمة . فأفادهما الاتحاد فوائد لا تحصى ، لاسيما فى اجلاء العرب عن شرقى اسبانية .

ولما آل الملك إلى فرديند الكاثوليكى ، ثم إلى شارلكان ، كانت كتلونية تابعة لاسبانية ؛ ولكن الكتلان بطبيعتهم لا يحبون القشتاليين ، ولا يمتزجون معهم ، وفى سنة ١٦٣٩ ، عند ما أراد فليب الرابع ، ملك أسبانية ، الغاء امتيازات كتلونية ، ثار الكتلان به ، وحاربوه بمساعدة لويس الثالث عشر ، ملك فرنسة ، الذى اعترف بحكومة جمهورية لكتلونية ، واستمرت هذه الثورة مدة اثنتى عشرة سنة . ثم وقع الاتفاق بين الفريقين سنة ١٦٥٩ . وصدر العفو عن الثائرين ، وبقيت امتيازات كتلونية محفوظة ، ولكن فى سنة ١٦٨٩ ثارت كتلونية مرة ثانية ، ولما انتخبت أسبانية حفيد لويس الرابع عشر ملكا عليها لم يعجب ذلك الكتلان ، كرهاً بأهل قشتالة ، الذين انتخبوه ، فانتقم فيليب الخامس من الكتلان ، وأذاقهم عذاباً واصباً وألغى امتيازاتهم ، ونقل المدرسة الجامعة من برشلونة إلى سرڤيره Cervera . إلا أن الكتلان هم أهل جد ونشاط ، فلم يلبثوا أن تقدموا إلى الامام بجدهم ، وصارت بلادهم أغنى قطعة من أسبانية . ولما زحفت جيوش نابليون على أسبانية قاومها الكتلان مقاومة شديدة ، كسائر أهل أسبانية . وفى الحروب الاهلية التى تقع كثيرا فى أسبانية ، كان الكتلان ينقسمون إلى قسمين ، فأهل الجبال منهم ينزعون بطبيعتهم إلى المبادىء الملكية ، وأهل السواحل ، مثل برشلونه ، يميلون إلى المبادىء الحرة .

ولما سقطت الملكية سنة ١٩٣١ جرت حركة شديدة فى كتلونية ، لأجل الانفصال عن سائر أسبانية ؛ ولكن المعتدلين من الكتلان كانوا يكتفون لكتلونية بالاستقلال الداخلى ، ولما كانوا فى أيام الملكية قد اتفقوا مع زعماء الحرب الجمهورى على ذلك ، بموجب معاهدة وقع عليها الفريقان ، لم يقدر زعماء هذا الحزب بعد أن قبضوا على ناصية الحكم ، إلا أن يجيبوا الكتلان إلى بعض مطالبهم بالأقل ، فلم يكن

رضى الكتلان عن الحكومة الجمهورية الجديدة تاماً ، ولبثوا يترقبون الفرصة لأجل استكمال حريتهم .

وفى أثناء ما نحن نكتب هذه السطور تشتعل نيران الحرب الأهلية فى أسبانية بين الحزبين الكبيرين الحزب المحافظ ، ومعه القسوس ، والأحبار ، وأكثر قواد الجيش ، والفئة الملكية ، والفئة الجمهورية المعتدلة . والحزب الاشتراكى ، ومعه العملة ، والشيوعيون ، والصعاليك ، والفلاحون من طلاب الأراضى ، والجمهوريون الغُلاة الثائرون على القديم . ولقد مضى إلى ساعة رقم هذه الأحرف نحو من خمسة عشر يوما والفتنة تضطرم فى جميع مدن أسبانية ، والقوتان متكافئتان إلى هذا اليوم ، لا يقدر الناظر إلى الحوادث أن يستخلص منها حكما بترجيح الظفر لاحدى الفئتين . وقد وقعت الوقائع فى برشلونة أيضاً ، وانتصب الميزان نحواً من ثلاثة أيام ، إلا أن كفة حزب اليسار رجحت فيها على كفة الحزب المحافظ ، وسارت العساكر الموالية للجمهورية ومعها عصائب من الأهالى ، قاصدة إلى سَرَقُسطة ، لاخضاع الجيش الثائر فيها على الحكومة . وقد مرت هذه القوّة الزاحفة ببلدة قشب ، وأدخلتها فى الطاعة ، ولا نعلم ماذا يتم فى سرقسطة ؟

فظهر من هنا أن سكان السواحل من كتلونية لاتزال تنزع فيهم من الحرية أعراق تتجلى فيهم عند كل فرصة

* * *

ذكرنا قبلا أن اللغة الكتلونية هى أقرب لغة إلى اللغة البروفنسية Provençal ومن المعلوم أن الكتلونية ، والبروفنسية ، والقشتالية ، والبرتغالية ، كلها مشتقة من اللغة اللاتينية التى هى الأم . وذلك بفساد طرأ على اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى فما زال يعمل عمله فيها حتى تكونت منها عدة فروع ، يقال لها عند الافرنج : لغات الاوك Langues d' Oc وقد أصبحت اللغة الكتلونية لغة متميزة عن غيرها ، منفصلة عن القشتالية والغالية فى القرن الثانى عشر للمسيح ، ولكنها

إلى ذلك الوقت لم تكن لغة أدب وتأليف ، وما ابتدأ التأليف في اللغة الكتلونية إلا فى القرن الثالث عشر ، فظهرت فيها دواوين شعرية ، ومعجمات لغوية ، وكتب نحو وصرف ، وأخذت تنمو وتنتشر ، ولما استولى ملوك برشلونة واراغون على جزر الباليار ، امتدت اللغة الكتلونية إلى ميورقة ومينورقة ويابسة ، وإلى بلنسية والقنت ، وصارت هى اللغة السائدة فى شرقى اسبانية . وكانت الملاحة فى سواحل اسبانية الشرقية فى أيدى الكتلان ، فصارت اللغة الكتلونية هى أداة التفاهم عند جميع البحرية ، في هذه القطعة من البحر المتوسط . وقد انقسمت اللغة الكتلونية هى أيضاً إلى لهجتين إحداها الميورقية ، والثانية البلنسية ، وأكثر ما كان التباين هو فى اللفظ ، وفى تركيب بعض الجمل . ولما اتحدت مملكتا أراغون وقشتالة ، تقلصت اللغة الكتلونية من أراغون ، ولكنها بقيت هى اللغة المعروفة فى كتلونية ، وجزر الباليار ، وبلنسية والقنت

ولما كنت فى ميورقة جرى التعارف بينى وبين قسيس كبير طاعن فى السن ، قيل لى انه من كبار العلماء ، وانه صنف كتاباً بالغاً عدة مجلدات فى فرائد اللغة الكتلونية .

وهذه اللغة وإن كانت لاتينية محضة فى أصلها فقد دخل فيها ألفاظ كثيرة جرمانية وألفاظ كثيرة بروفنسية ، وألفاظ كثيرة عربية ، وهى فى كثرة الداخل عليها من العربى أشبه بالاسبانيولية القشتالية .

أما فى تركيب الجمل فيوجد تشابه كثير بينها وبين البروفنسية ، ومن خصائصها أنه يقع فيها تبديل حرف بحرف ، فيجعلون بدلا من حرف E حرف I أو حرف O أو حرف U ، وهم يجعلون دائما حرف X بدلا من حرف S . وإذا كان اسم أو نعت باللغة البروفنسية منتهياً بأحرف An أو En أو In أو Im فالكتلونى يضيف إلى هذا الاسم أو هذا النعت حرف Y فاذا جاء فى البروفنسى لفظة Engin مثلا جعلوها فى الكتلونى Enginy . وعلامة التأنيث فى النعوت هى فى الكتلونى حرف A كما هى فى البروفنسى ، ولكن ليس ذلك مطرداً ، فقد يقولون Fort فى مقام التأنيث بدلا

من أن يقولوا Forta ومزية هذه اللغة هى الاختصار والنحت ، فهى لا تعرف تغيير أواخر الكلم بحسب مواقعها من الاعراب . بل تقتصر على أصل الكلمة ، وربما تحذف بعض أحرف من أواسطها . فتجد فيها مثلا لفظة Vino منحوتة بلفظة Vi ولفظة Bono منحوتة بلفظة Bo [٢] ولذلك تمتاز هذه اللغة بالشدة والجزم ، وقوة المقاطع وهى فى هذا كالتركية . ومن مزاياها كثرة الألفاظ المحاكية للاصوات ، وهى التى من قبيل الطقطقة ، والهمهمة ، والغمغمة ، والدمدمة ، وخرير الماء ، وصرصرة البازى ، وشقشقة الفحل . وفحيح الحية ، وما أشبه ذلك فى العربية فهذا الضرب من الكلام مستفيض فى هذه اللغة واذا انتهت فيها الكلمة بحرف صائت حذفوه ، وتلفظوا بها بصورة الجزم .

وأما آداب اللغة الكتلونية فقد قسمها بعضهم إلى ثلاثة أدوار : الأول هو الدور البروفنسى ، وأمده من القرن الثالث عشر إلى أواسط القرن الرابع عشر . والدور الثانى هو الكتلانى ، الذى يبدأ من زمان الدون جقوم ، وينتهى بالقرن

---

(١) إذاً الكتلونية فى هذا تشبه جارتها العربية المغربية فلا شك فى كون اخواننا المغاربة هم أعظم النحاتين فى العربية فيقولون فى عبد الله « عبو » وفى عبد الرحمن « رحو » وفى عبد السلام « عبسلام » ويصغرونه « بسلامو » وفى عبد الكريم « عبكريم » وفى تصغيره « كريمو » ويقولون فى عبد القادر « عبقادر » و « قدور » والمشارقة أيضاً يقولون قدور وينحتون محمداً « بحمود » وعبد اللطيف أو لطف الله « بلطوف » وزكريا « بزكور » ونصر الله « بنصور » وعبد الرزاق ورزق الله « برزوق » وعبد الجبار « بجبور » وهذه ايضا فى المغرب وفيه ايضا «عزوز» و«كبور» لعبد العزيز وعبد الكريم وفيه غرائب نحت من قبيل « مح » و« مُحَ » و « حمو » فى فى محمد و « طامة » و « طامو » و « طم » و « ط » فى فاطمة و « عشوش » و « ش » فى عائشة ويقال إن النحت فى فاطمة وعائشة يبلغ بضع عشرة صورة . أما فى المشرق فنقتصر فى نحتها على « فطوم » و « عيوش » ومن غرائب نحت الأسماء ماسمعته من إخواننا مسلمى بوسنه وهرسك وهو « ميو » فى مصطفى و « سلو » فى صالح ومنها عند الاكراد « حسو » فى حسن ، وهلم جرا

الرابع عشر . والثالث هو المسمّى بالبلنسى ، وهو يبدأ باوز ياس مارك Ausias March وينتهى بنهاية القرن الخامس عشر . ثم إنه فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر كُتبت باللغة الكتلونية كتب نفيسة ، ونظم الشعراء أشماراً رائقة ؛ ولكن الأدب الحقيقى لم يبدأ إلاّ فى القرن الثالث عشر ، ففى ذلك العصر عدل الشعراء والزجالون من الكتلان عن اللغة المكتوبة ، ونظموا باللهجات العامية كما يعلم من قرأ شعر بركدان Berquedan و بليور Benluire وغيرهما . وممن اشتهر بهذا الأسلوب من شعرائهم برناردو موغوده Bernardo de Moguda وجقّوم فبرَر Jaime Fabrer وكان موغوده فى صحبة الملك جقوم الأول عند مافتح ميورقه ، فقال فى ذلك الفتح ما هو شعر وتاريخ معاً . وللشاعر فبرر والشاعر الآخر جوردى دلراى Jordi del Rey قصائد وصفا بها تلك العاصفة الشديدة التى دمّرت أسطول جقوم الأول ، ومنعته من خوض غمرات الحرب الصليبية فى الشرق

والغالب على الكتلان أنهم يميلون إلى ذكر الأحداث الواقعة المحسوسة أكثر من ميلهم إلى العواطف والخيالات ، ولذلك نجد لهم فى التاريخ كتباً قيّمة وكان جقّوم الأول ، الملقب بالفاتح ، قد كتب هو نفسه تاريخا لغزواته ، مملوءاً بالوقائع ، وقد طبع هذا التاريخ طبعته الأولى فى برشلونة سنة ١٥١٧ ، وهذا الملك كان قد سن قانونا بحرياً لبثوا مدة طويلة يعملون بموجبه فى البحر المتوسط ، ثم دخلت منه قواعد كثيرة فى القوانين البحرية الحديثة . فلهذا كان هذا الملك معدوداً من أعظم الأدباء الذين خدموا اللغة الكتلونية . وفى القرن الرابع عشر اشتهر بتره الثالث ابن جقّوم الأول ، فأمر بكتابة تاريخ عن مغازى والده ومغازيه هو .

وممن امتاز فى علم التاريخ والآثار دسكلوت Desclot محرر تاريخ أراغون ، المعدود من أحسن مؤلفات القرون الوسطى . ثم مونتانير Montaner وهو نديدُه في

معرفة التاريخ ، ولكنه أعلى منه عبارة ، ويقال إنه أفصح مؤلف فى عصره .

وممن نبغوا لذلك العهد جوان مورتوريل Martorell وله كتاب قصص عن العروسية ، يقال إن أديب أسبانية الأكبر سرفنتيس Cervantes لم يكن يحفل بغيره . ولا يجب أن ننسى بونيفاسيو فرّر Ferrer الذى ترجم التوراة كلها إلى الكتلونية ، وطُبعت هذه الترجمة فى بلنسية سنة ١٤٧٨ . ونبغ كثير من الشعراء بهذه اللغة نخص منهم بالذكر رامون مونتانير Ramon Montaner وموزن زاليا Mosen Zalba وموزن توريل Mosen Turrell وغيرهم . وفى زمن بترُه الرابع ملك أراغون تألفت أكاديمية بسعى لويس آڤيرسو Averso وجايم مارك Jaime Merch وكان للأدب الايطالى تأثير فى الأدب الكتلوني ، نظراً لكثرة الملاقات بين البلادين ، وترجم اندرى فبرر المهزلة الالهية لدانتى

أما الدور البلنسى فهو أرق أدوار اللغة الكتلونية ، وذلك لأن اللهجة البلنسية أرق وأشجى بكثير من اللهجة البرشلونية الجاسية ، ولأنه نبغ فى بلنسية شعراء كان يجرى فى عروقهم الدم العربى ، ومن شعراء بلنسية المشهورين دوسان جوردى de San Jordi وجقّوم رواغ Roig وجقوم غازول Gazull الذى اشتهر برثائه الفلاحين فى سهل بلنسية ، وأنليزة Anleza و بلترا ربورتلس Portells و نرسيز و فينيولاس Vinyolas ومرسين غرسية ، وجوان فوغاسو Fogasso وتورنيدة Turneda الذى نظم المبادىء الأدبية المسيحية شعراً .

ونبغ من الناثرين جوان مانسو Manso الذى ألف كتاباً على اللهجة البلنسية و بيترُه طوميش ، وله تاريخ وقائع ، وجبرائيل تورّل ، صاحب تاريخ اكناد [1]

(١) جمع كند واليوم يقولون كونت بالتاء وكان العرب يقولون قمط بالميم والطاء ويجمعونها على اقاط وكثيراً ما جاء فى كتبهم ذكر اقاط برشلونة أو برجلونة وقد أهدانا الفاضل المؤرخ الحاج محمد العربى بنونة من أعيان تطوان عدة مراسلات خطية دارت بين سلاطين غرناطة بنى الاحمر وبين أقاط برجلونة سننشرها هنا

برشلونة ، ولويس الـكنيس ، وميكال بيريز Perez وغيرهم ، و بقيت الآداب اللغوية الـكتلونية زاهرة مدة دوام استقلال برشلونة ، فلما أضاعت هذه البلاد استقلالها فى زمن الامبراطور شارلـكان ، تقلّصت الآداب الـكتلونية ، ورجعت تلك الحركة إلى الوراء ، ومع هذا فقد نبغ من الـكتلان فى ذلك العصر شعراء ، مثل بيترُه سيرافى Serafi ، وجيبرغا Giberga ، وجُوان ماتارو Mataro ، الذى نظم قصيدة عن واقعة ليبنط البحرية ، التى تغلبت فيها الأساطيل النصرانية على الاسطول العثمانى، واشتهر من المؤلفين بيترُه كار بونيل Carbonell ، وفرنسيسكو كالسّه Calça وميكال فرّر ، وكاتب جغرافى اسمه فرنسيسكو طَرَفة Tarrafa وروكه مؤلف معجم لغوى للسان الـكتلونى .

ومن الفقهاء فرنسيسكو سولسونة Solsona ، ومن الأطباء جوان روفائيل مواكس Moix وغيرهم ، ولـكن زوال الدولة البرجلونية فتّ فى عضد اللغة الـكتلونية وهو أمر بديهى ، لحيث لا توجد دولة قومية ، لا يوجد أدب حقيقى ، انظر إلى العرب كيف ضعفت ملـكة البيان عندهم ، بعد استيلاء الأعاجم على بلادهم .

وكان مبدأ انحطاط اللسان الـكتلونى فى القرن السابع عشر، واستمر إلى الثامن عشر وزاد الطين بلة أن فيليب الخامس أمر بالغاء الامتيازات الـكتلونية ، و بعدم تحرير أوامر الحكومة باللغة الـكتلونية . وصاروا يؤلفون الـكتب فى كتلونية باللغة القشتالية ، ولـكن برغم تضييق الدولة الاسبانية على هذه اللغة ، بقيت فيها بقايا صالحة من شعراء وكتّاب ، مثل فرنسيسكو بالار ، وايغناسيو فرّيره ، وأوغسطين اورَه ، وغيرهم .

و بقيت اللغة الـكتلونية تتقهقر إلى الوراء إلى أيام الثورة الافرنسية ، التى تلقى الـكتلان مباديها بشوق عظيم ، لحصلت نهضة سياسية صحبتها نهضة لغوية ، ونشطت هذه اللغة ثانية من عقالها ، وتنظمت جامعة برشلونة على نسق جديد ، وتألفت أكاديميات ، وانتشرت صحف ، ونشأ ناشئة كتلونية ، تنزع إلى إحياء أدبها القديم .

ونشرعبدون ترّاداس Abdon Terradas أول جريدةباللغةالكتلونية سنة١٨٣٨ وأخذوا ينظمون وينثرون بهذه اللغة ، وكثر الشعراء والزجالون . مثل بادريس Padris . و بوفارول Bofarull . وريكار Ricart .واستراادا Estrada . وغيرهم . ولكن اللغة القشتالية بقيت فائقة .

ومن سنة ١٨٦٠ فصاعداً انقسم الأدباء إلى قسمين : بعضهم يذهب إلى ترقية اللغة الكتلونية ، بدون اهمال القشتالية شقيقتها ، و بعضهم يأبى إلا حصر الأدب والقضاء والسياسة فى الكتلونية ، والحزب الأول يكثر فى بلنسية ، وأما الحزب الثانى فأكثره فى برشلونة ، وعلى كل حال فاللسان الكتلونى من ستين أو سبعين سنة إلى اليوم ، قد بُعث بعثة جديدة ، وتمثّلت فيه الروايات ونظمت المآسى ، والمهازل والنشائد المختلفة ، واشتهر فى هذا الدور فيكتور بلاغر Balaguer من الشعراء وأورس Ors رئيس اكاديمية الآداب فى برشلونة ، وفرنسيسكو مارترينة ، وغيرهم . ومن كتاب القصص فونتانلس Fontanals وله شهرة فى كل أوربة ، وأولّر Oiler وتوده Toda .

مراسلات سلطانية

وقعت بين أقماط برجلونة ملوك أراغون

وسلاطين بنى الاحمر أصحاب غرناطة

كانت المراسلة لا تنقطع بين سلاطين غرناطة بقية ملوك العرب فى الأندلس ، من جهة ، و بين ملوك قشتالة ، وملوك أراغون ، وأقماط برجلونة من جهة أخرى ، بسبب الجوار ، واتصال الأرض بالأرض ، واشتباك المصالح ، والمرافق ، ولقد أتينا فى كتابنا « آخر بنى سراج » المذيل بمختصر تاريخ اسبانية ، فى طبعته الثانية ، بأربعة مراسيم سلطانية صادرة عن السلطان أبى الحسن على بن الأحمر ، إلى بعض فرسان الاسبانيول وزعمائهم . ونحن الآن ناشرون بعض كتب من سلطان غرناطة يوسف بن اسماعيل بن فرج ، إلى الدون بترُه ، ملك أراغون وكتلونية . قد أهدانا هذه الوثائق النفيسة الأخ الفاضل الوجيه الحاج محمد العربى بنونة ، من أعيان تطوان وذلك نقلا عن مجموعة رسائل اتصل بها من كتلونية ، حاوية عدداً كبيراً من هذه المراسلات ، إلا أن تقادم العهد قد طلسها ، وعبث الأرَضة بها قد جعل قراءتها متعذرة وطمسها ، فبعد الجهد الجهيد تمكن الأخ العربى بنونه ، جزاه الله خيراً ، من نسخ هذا الجزء القليل ، الذى اتضح له خطه ، وتسنى له ضبطه ، وهو ما يلى بحروفه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، دون بطرُه : ملك أراغون ، وسلطان بلنسيّة وسردانية وقرصقة ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرّم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين ، أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن

نصر ، سلطان غرناطة ومالقة والمريه ووادى آش وما يليها ، أما بعد فانا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وعن العلم بمحلكم فى الملوك الأوفياء ، والشكر مما لكم فى الصحبة من المذاهب والانحاء ، و إلى هذا فموجبه إليكم هو أنه حدثت شكايات فى هذا الصلح ، رفع إلينا فيها أهل بلادنا ، وطلبوا خلاصها ، فاقتضى نظرنا أن وجهنا إليكم كتابنا هذا ، صحبة سفير بها ، ومن هذه الشكايات ماصدر عن أهل بلادكم . من أخذ أسارى ، وحملهم إلى أرض غير أرضكم ، و بيعهم لهم بها ، ونحن نعلم أنكم أوفى ملوك النصرانية ، وانك ما عُرفت إلا بالوفاء قديماً وحديثاً ، فقصدنا منكم أن تعملوا فى هذا الحال ماتقتضيه غيرتكم على عهدكم ، ومحلكم في الوفاء وتأمروا بخلاص الشكايات على الوجه الذى يقتضيه نظركم ، و يكون ذلك مما نشكره من أعمالكم ، ونزداد به علماً بوفائكم ، وحسن مصادقتكم . وقد وجهنا إليكم برسم هذه الشكايات مملوك جانبنا القائد بشيراً ، ومعه أُقين ولد خديمنا وخديمكم بُشقلين شرنجة [1] ، وأنتم تفعلون ما هو اعتقادنا فيكم ، وما نعلمه من مقاصدكم فى الوفاء ومناحيكم ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى اليوم الرابع والعشرين لشهر محرم مفتتح عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، عرّف الله خيره .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، دون بطرُه ، ملك أراغون ، وسلطان بلنسية ، وصاحب سردانية ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرّم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الوفاء

(١) لم نعرفه

ومذاهبه ، حافظ عهده البر به ، العارف بمحله فى الملوك ومنصبه ، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، أما بعد فانا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وعن الحفظ لعهدكم ، والثناء على مذهبكم فى الوفاء وقصدكم ، والعلم بمنصبكم فى ملوك النصرانية ومجدكم ، و إلى هذا فقد وصلنا كتابكم جواباً عما كتبناه إليكم ، فى شأن الضرر الذى لحق بلادنا من أرضكم ، تذكرون ان ذلك الضرر لاعلم عندكم به ، وحاشا لله أن نعتقد فيكم إلا الوفاء الذى يليق بمملكتكم وسلفكم ، فمثلكم من الملوك الكبار لا يعتقد فيه إلا الوفاء والصدق . وما ذلك الضرر إلا من أهل الأرض ، وأكثره من الناس الخارجين عن طاعتكم من لَقَنْت ، والمدوّر ، وأُريولة ، والارض التى لنظر بِطرُه شارققة ، ومع ذلك فانه ضرر كبير ، ومنه ما هو من البلاد التى تحت طاعتكم . فى هذه الأيام أضر بهذه السواحل شينى [1] ، وحمل من المسلمين حملة (جملة لم نتبين حقيقتها) ببلنسية ، فالقصد منكم أن تنظروا فى هذا الحال بما هو المعلوم من وفائكم ، وغيرتكم على عهدكم ، حتى تجدوا ما أُخذ من المسلمين وأموالهم ، وعرفونا بما عندكم فى قضية تلك البلاد التى خرجت عن طاعتكم ، لنعلم مذهبكم فى ذلك ، ونبنى عليه وعرفتم بأنكم قد كتبتم إلى ميورقة ، ليوصل اليكم منها المفسدون الذين خرجوا على عهدكم ، وأضروا بالمسلمين لتعملوا فى قضيتهم الواجب ، وذلك هو الذى يليق بكم ، ونشكركم عليه ، ووقفنا فى آخر كتابكم على فصل طلبتم منا فيه أن نعرفكم بمذهبنا فى الصلح ، فانكم صعُب عليكم ما تضمنه كتابنا ، و إنه لا صبر على هذا الضرر ، فاعلموا أن قصدنا بما كتبناه إليكم ما هو إلا (كلمة أشكلت قراءتها) فى ذلك الضرر ، وأما ما عقدناه

---

(١) الشانى بمعنى السفينة ، ويجمعونها على الشوانى . وقد يقولون فى مفردها « شينى » وقد قال صاحب التاج إنها لغة مصرية ، مثل الشونة ، بمعنى مخزن الغلة . والعلامة الأب أنسطاس الكرملى يرجح أنها فارسية ، وأن أصلها « دونى » بمعنى السفينة . وهو يقول إن العرب قد يقلبون الدال شيناً ، كما ترى فى الارتعاد والارتعاش .

من الصلح فنحن نوفى به على حسب ما اشترطناه ، ما وفيتم لنا أيها السلطان ، فكونوا من ذلك على يقين ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم بطاعته و رضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى يوم الخميس الثالث والعشرين لشهر محرم مفتتح عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور الأوفى الأشهر المشكور الأخلص ، دون بطره ، ملك أراغون ، و بلنسية ، وميورقة ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برجلونة ورشليون [1] ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرم مملكته ، الحافظ لعهده ، الأمير عبدالله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل ابن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إليها ، وأمير المسلمين ، أما بعد فانا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيرا ، وجانبكم مكرم مبرور ، ومحلكم فى الملوك الأوفياء مشهور ، ومذهبكم فى الصحبة والوفاء بالعهد معلوم مشكور ، و إلى هذا فقد وصلنا كتابكم ، جواباً عن كتابنا الذى وجهناه إليكم ، صحبة ارسالنا ، واستوفينا ما ذكرتم فيه ، وما قررتم عندنا ، من أنكم أمرتم خدامكم وولاة بلادكم ، بالإنصاف من كل ما أُخذ للمسلمين بعد عقد الصلح ، وذلك هو الذى يليق بسلطان مثلكم ، فما زال أسلافكم الملوك يعرف منهم الوفاء بالعهد ، والوقوف فى حفظ أمور الصلح على ما عقدوا عليه ، وتعلمون أن هذه الشكايات التى لحقت أرضنا من ناسكم ، قد طال الحال فيها ، ووجهنا فيها إليكم ارسالا ، وهم يترددون فى طلبها ، منذ نحو من عام ، وما زال أهل بلادنا الذين لحقهم الضرر ، يتشكون إلينا ، مرة

(١) Roussillon مقاطعة افرنسية اليوم مركزها بربينيان على الحدود بين فرنسة وكتلونية

بعد مرة ، ولا يسعنا إلا أن ننظر لهم ، فقصدنا منكم أيها السلطان أن تعزموا فى هذه الحال عزيمة مثلكم من السلاطين ، وتحكموا على ناسكم بخلاص ذلك حكما حزماً ، وقرّ رأينا أن وجهنا إليكم بكتابنا هذا خديمنا الفارس المكرم أبا الحجاج يوسف بن فرج أكرمه الله ، فعسى أن تجعلوا معه من يظهر لكم من ناسكم ، يتردد معه على الجهات التى تعيّنت الشكايات فيها ، وتنفذوا لهم أمركم فى ذلك بالخلاص الذى يقع به الإنصاف على أكمل الوجوه ، فان فعلتم ذلك فعلتم ما يليق بكم ، وما نقابلكم عليه بالشكر ، و إلاّ فلا يسعنا إلاّ أن ننظر لرعيتنا وجهاً يكون فيه خلاص شكاياتهم ، و إذا وقع الاسترهان ، فلا يخفى عليكم ما يحدث فى ذلك من خلل فى الصلح ، وأنه لاتستقيم له . هذا ما عندنا عرفنا كم به ، ونحن نرقب ما يكون من عملكم فى ذلك . والله يصل لكم بطاعته عوارف رضوانه ، ومواهب إحسانه . والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى التاسع عشر لشهر ذى الحجة عام ستة وأربعين وسبعمائة

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، الأوفى الأخلص ، المبرور المشكور ، المرفّع المكرم ، دون بطرُه ، ملك أرغون ، و بلنسية ، وميورقه ، وسردانية ، وقرسقه ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، و يسّره لما يحبه الله و يرضاه ، مكرم مملكته ، البرّ بجانبه ، الشاكر لمقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إلى ذلك ، وأمير المسلمين . أما بعد فكتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حماها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، وجانبكم مبرور ، ومحلكم فى ملوك النصرانية معلوم مشهور ، و إلى هذا فموجبه إليكم هو أن شخصين من أهل المرية ، يعرف أحدهما بعلى بن بكرون الصائغ ، والآخر بسعيد بن أحمد الحجام ، أُخذا فى جفن[1] الرُّخاج (كذا) وهما خارجان من

---

(١) الجفن معناه هنا السفينة وهو اصطلاح عامى ليس له أثر فى الفصيح ولعلهم تواضعوا عليه من باب التشبيه بجفن العين .

مالقة ، وثبت عندنا عقد صحيح انهما أُخذا فى نصف شهر صفر الفارط قريبا ، ونصف صفر موافق للسابع والعشرين ليونيو ، المتصل بشهر مايو ، وصلحنا معكم عقد بتاريخ الرابع عشر من الشهر العجمى المذكور ، فظهر من ذلك أنهما أُخذا بعد عقد الصلح بإثنى عشر يوماً ، وهذان المسلمان وصل بهما إلى المرية نصرانى من بلنسية ، يروم فداءهما فرفع إلينا قرابتهما ، وعرفونا أنهما أُخذا فى الصلح ، فرأينا أن حكمنا على قرابتهما بأداء الفدية للنصرانى ، ثقة بأنكم تخلّصون القضية ، وتحكمون على من اشتراهما أو باعهما بعد أخذهما فى الصلح بغرم ما يجب فى ذلك ، فغرضنا منكم أن تعملوا فى هذه القضية ماهو المعلوم من وفائكم ، حتى يخلص قرابة الأسيرين من الفدية التى غُرّموها فى غير حق ، تعملوا فى ذلك واجب الوفاء الذى نشكره لكم ، والله يصل عزتكم بتقواه ، وييسركم لما يحبه ويرضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، كتب فى الثامن والعشرين من شهر رجب الفرد عام خمسة وأربعين وسبعمائة اﻫ .

وبعد انتهاء المكتوب ملحق به سطران بخط غير خط المكتوب ، وهو دونه فى الحسن ، والمظنون أنهما بخط سلطان غرناطة نفسه ، ونصهما :

والفدية التى افتُكّوا بها ، وحكمنا عليهم بغرمها للنصرانى الذى أوصلهم ، هى اثنان وخمسون ديناراً من الذهب العين ، سواء بينهما ، فعرفناكم بذلك ، بعد الوقوف على عقود الفدية بذلك ، ومعاد السلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . وفى تاريخه كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه ، أننا الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى اش ، وما إليها ، وأمير المسلمين . لما انعقد الصلح بيننا وبين السلطان الأجل المرفّع ، الأوفى المبرور الأخلص ، دون بطره ، سلطان أرغون وبلنسية ، وقرسقة ، وميورقة ، وسردانية ، وقمط برجلونة ، أسعده الله بطاعته ورضاه ، طلبنا من محل أبينا

السلطان الجليل المعظم الأشهر الأوحد أمير المسلمين أبى الحسن [١] ، سلطان العدوة ، أن ينعم بالأذن لنا فى عقد صلح معه على بلاده ، على ماجرت به عوائد صلحه مع تلك المملكة ، وأعطانا مقدرة لعقد ذلك ، فاقتضى نظرنا أن وجهنا إلى السلطان دون بطرُه ، برسم عقد الصلح معه على بلاد السلطان أبى الحسن بالعدوة والأندلس ، القائد الأجل الأغر الأرفع الأمجد الحسيب الأصيل ، الأفضل خاصتنا ، الحظى لدينا ، المبرور الأخلص ، أبا الحسن بن كُماشة [٢] ، وصل الله عزته ورفعته ، وأمرنا له بهذا المكتوب ظهيراً على أن مايعقده فى ذلك فنحن نمضيه ، ونلتزم حكمه ، ونلزمه من أذن لنا فيه ، بما عندنا من قبل السلطان ، ولأن يكون هذا ثابتا ، ولا يلحق فيه شيئا أمرنا بكتب هذا المكتوب ، وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا ، شاهداً علينا بامضاء حكمه ، وذلك فى السادس عشر لشعبان من عام خمسة وأربعين وسبعمائة اهـ

كتاب آخر من أحد وزراء بنى الأحمر إلى الدون الهنشُه [٣] ، ملك أراغون وقمط برجلونة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

مولاى السلطان المعظم ، المؤمَّر المبرور ، الأوفى المشكور ، الكبير الشهير ، دون الهنشُه ، ملك أراغون ، و بلنسية ، وسردانية ، وقمط برُجُلونه ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، معظم سلطانه ، ومكرم جانبه ، الشاكر لمقاصده فى

---

(١) السلطان أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب .

(٢) نقرأ اسم عائلة كماشه فى تاريخ غرناطة لعهد بنى الأحمر وان وزير أبى عبدالله ابن الاحمر يوم تسليم هذه البلدة كان يوسف بن كماشة . وأما أبو الحسن بن كماشة المذكور هنا فلعله الوزير القائد ابو الحسن على بن يوسف الحضرمى ابن كماشة ذكره لسان الدين ابن الخطيب فى « اللمحة البدرية » فقال : ـــ المستفيض عن تصرفاته عدم النجح أمراً مطرداً . وزر للسلطان محمد بن يوسف الذى صدر عنه هذا الكتاب .

(٣) هو الفونشه ولد بتره .

الوفاء ومذاهبه ، الحافظ لعهده ، المثنى على غرضه فى صحبة مولاه وقصده ، وزير السلطان أيده الله ، رضوان بن عبد الله [١] . كتبه إليكم من الباب الكريم أسماه الله بحمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه ثم ببركة الدعاء لمولاى أيده الله

(١) هو رضوان النصرى الحاجب ترجمه لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة فقال : حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها رومى الأصل اخبرنى انه من أهل القاصارة وان نسبه تتجاذبه القشتالية من طرف العمومة والبرجلونية من طرف الخؤولة وكلاهما نبيه فى قومه وأن أباه ألجاه الخوف بدم ارتكبه فى محل اصالته من داخل قشتالة إلى السكن بحيث ذكر ووقع عليه سبى فى سن طفولته ، واستقر بسببه فى الدار السلطانية ومحض احواز رقة السلطان دائل قومه أبو الوليد فاختص به ولازمه قبل تصيير الملك اليه فتدرج فى معارج حظوته واختص بتربية ولده وركن إلى فضل أمانته وخلطه فى قرب الجوار بنفسه واستجلى الأمور المشكلة بصدقه وجعل الجوائز السنية لعظماء دولته على يده وكان يوجب حقه ويعرف فضله إلى أن هلك فتعلق بكتف ولده وحفظ شمله ودبر ملكه وكان ستراً للحرم وشجنا للعدا وعدة فى الشدة وزيناً فى الرخاء رحمة الله عليه .

ثم قال فى حاله وصفته : كان هذا الرجل مليح الشيبة والهيئة معتدل القد والسحنة ، مرهوب البدن مقبول الصورة حسن الخلق واسع الصدر أصيل الرأى رزين العقل كثير التجمل عظيم الصبر قليل الخوف فى العاهات ثابت القدم فى الأزمات ميمون النقيبة عزيز النفس عالى الهمة بادى الحشمة آية فى العفة مثلا فى النزاهة ملتزماً للسنة دوءباً على الجماعة جليس القبلة سديد الادراك مع السكون ثاقب الذهن مع اظهار الغفلة مليح الرعاية مع الوقار والسكينة مستظهراً لعيون التاريخ ذاكراً للكثير من الفقه والحديث كثير الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد عارفاً بالسياسة مكرماً للعلماء تاركا الهوادة قليل التصنع نافراً من أهل البدع متساوى الباطن والظاهر مقتصداً فى المطعم والملبس اتفقوا على انه لم يعاقر مسكراً قط ولا زن بهناة ولا لطخ بريبة ولا وسم بخلة تقدح فى منصب ولا باشر عقاباً غير جائز ولا أظهر شفاء من غيظ ولا اكتسب من غير التجر .

ثم ذكر آثاره فقال : أحدث المدرسة بغرناطة ولم تكن بها بعد وسبب إليها الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة وانفرد بمنقبتها فجاءت نسيجة وحدها بهجة وظرفا

ونصره وأسعده وظفّره إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً وجانبكم

وفخامة وجلب الماء الموقف فائد سقيه عليها وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين فانتظم منه النجد والغور فى زمان قريب وشارف التمام إلى هذا العهد وبنى من الابراج المنيفة فى مثالم الثغور ورم فى مطالعها المنذرة ما ينيف على أربعين برجاً فهى ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقى من ثغر البيرة إلى الاحواز الغربية وأجرى الماء بجبل موررور مهتديا إلى ما خفى على من تقدمه .

وقال عن جهاده : غزا فى السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة وهى ماهى من الشهرة وكرم البقعة فأخذ بمخنقها وشد حصارها عنها فتملكها عنوة وعمرها بالحماة ورتبها بالمرابطة فكان الفتح فيها عظيما ، وفى أوائل شهر المحرم من عام اثنتين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عدو المشرق وطوى المراحل مجتازاً على على بلاد قشتالة ولورقة ومرسية وأمعن فيها ونازل حصن المدور وهو حصن أمن غائلة العدو مكتنف بالبلاد موضوع على طية التجارة وناشبه القتال فاستولى عنوة عليه منتصف المحرم من العام المذكور وآب مملوء الحقائب سبياً وغنما .

وغزواته كثيرة كمظاهرة الامير الشهير أبى مالك على منازلة جبل الفتح وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر وأثر عنه من المنقبة الداله على صحة اليقين وصدق الجهاد أصابه سهم فى ذراعه وهو يصلى فلم يشغله عن صلاته ولا حمله توقع الاعادة على ابطال عمله .

ثم ذكر ترتيب خدمته وما تخلل ذلك من محنته فقال : لما استوثق أمر الامير المخصوص بتربيته محمد بن أمير المسلمين أبى الوليد ابن نصر وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ووقع بينه وبين المترجم عهد على الوفاء والمناصحة لم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة وبعثه ليلا إلى مرسى المنكب واعتقله فى الطبق من قصبتها بغياً عليه وارتكب فيه اشنوعة أساءت به العامة وأنذرت باختلال الحال ثم أجازه البحر فاستقر بتلمسان ولم يلبث أن قتل المذكور وبادر سلطان الموتور بقريبه عن سرته استدعاءه فلحق بمحله من هضبة الملك متملياً ما شاء من عز وعناية فصرفت اليه المقاليد ونيطت به الامور وأسلم اليه الملك وأطلقت يده فى الحال واستمرت الأحوال الى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وظهر من سلطانه التنكر عليه فعاجله الحمام نخلصه الله منه وولى أخوه أبو الحجاج من

معظم مبرور ، وقصدكم فى الوفاء معروف مشكور ، وقدركم فى ملوك النصرانية معروف

بعده فوقع الاجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام اربعة وثلاثين وسبعمائة فرضى الكل به وفرحت العامة والخاصة للخطة لارتفاع المنافسات بمكانه ورضى الأضداد بتوسطه وطابت النفوس بالامن من غائلته فتولى الوزارة وسحب أذيال الملك وانفرد بالأمر واجتهد فى تنفيذ الأحكام وتقدم الولاة وجواب المخاطبات وقود الجيوش إلى ليلة الاحد الثانى والعشرين من رجب عام اربعين وسبعمائة فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة البرك هائلة الفجاة من غير زلة مأثورة ولا سقطة معروفة إلا مالا يعدم بباب الملوك من شرور المنافسات ودبيب السعايات الكاذبة وقبض عليه بين يدى محراب الجامع من الحمراء إثر صلاة المغرب وقد شهر الرجال سيوفهم فوق رأسه يحفون به ويقودونه إلى بعض دور الحمراء وكبس ثقات السلطان منزله فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمة وضم إلى المستخلص عقاره (المستخلص هو فى الاندلس الملك الخاص بالسلطان) ثم نقل بعد أيام إلى قصبة المرية محمولا على الظهر فشد بها اعتقاله ورتب الحرس عليه إلى أوائل ربيع الثانى من عام أحد وأربعين وسبعمائة فبدا للسلطان فى أمره واضطر إلى إعادته وفقد نصحه وأشفق لما عدم من أمانته وعرض عليه بالنوم الكف عن ضرره فعفا عنه وأعاده إلى محله من الكرامة وصرف عليه من ماله ما فقد وعرض عليه الوزارة فأباها واختار برد العافية وأنس لذة التخلى فقدم لذلك من سد الثغور فكان له اللفظ ولهذا الرجل المعنى فلم يزل مفزعا للرأى محلا للعظة كثير الأمل والغاشى إلى أن توفى السلطان المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد أبى عبد الله وقام خير قيام بأمره وقد تحكمت التجربة وعلت السن وزادت الخشية من لقاء الله الشفقة فلا تسأل عما أفاض من عدل وبذل من مداراة ودامت حاله متصلة على ما ذكر إلى أن لحق ربه وقد علم الله انى لم يحملنى على تقرير سيرته والاشادة بمنقبته داعية وإنما هو قول بالحق وتسليم لحجة الفضل وعدل فى الوصف والله عز وجل يقول : (واذا قلتم فاعدلوا) .

ثم قال عن وفاته : فى ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمائة طرق منزله بعد فراغه من إحياء ثلث الليل متبذل اللبسة خالص الطوية ممتطياً للأمن مستشعراً للعافية قائماً على المسلمين بالكل حاملا للعظيمة وقد بادر الغادرون بسلطانه فكسروا غلقه بعد طول معالجة ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده وذهبوا إلى الدائل برأسه وجعوا الاسلام بالسائس الخصيب المغاضى راكب متن الصبر ومطوق طوق

مشهور ، وموجبه إليكم هو أن الواصل إليكم بهذا الكتاب ، وجهه مولاى السلطان ، أيده الله برسم إيصال الأسارى المأخوذين فى الصلح الذين وقع الكلام فيهم مع رسولكم المكرم ، دون رامون بيل ، مقصد مولاى أيده الله منكم أن تتفضلوا بتسريحهم وتوجيههم معه ، يكون ذلك مما يشكره من أعمالكم ، وأنتم تفعلون فى ذلك مايقتضيه وفاؤكم المشكور ، وقصدكم المبرور . والسلام يراجع سلامكم كثيرا أثيراً وكتب فى اليوم الخامس عشر لذى حجة مختتم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة

كتاب آخر من وزير آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وسلم تسليما

مولاى السلطان الأجل المكرم المعظم المرفع المبرور ، الأوفى المشكور ، الشهير الكبير الخطير ، دن الفونشُه ، ملك أراغون ، وسلطان بلنسية ، وسردانية وقمط برجلونة وصل الله اعزازه بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، معظِّم جانبه ، ومجل سلطانه ، الباذل فى خدمته جهد إمكانه ، الشاكر لنعمته ، العارف بسمو مملكته ، على بن كُماشة ، كتبه إليكم من باب مولانا ، أيده الله ، بحمراء غرناطة ، حرسها الله ،

النزاهة والعفاف وآخر رجال الكمال والستر الضافى على الاندلس ولوثم من الغد بين رأسه وجسده ودفن بازاء لحود مواليه من السبيكة (مقبرة ملوك بنى الأحمر كانت بمحل يقال له السبيكة فى الحمراء) ظهرا ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس وتبرك بعد بقبره وقلت عند الصلاة أخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية :

أرضوان لايوحشك فتكة ظالم ... فلا مورد إلا سيتلوه مصدر
ولله سر فى العباد مغيب ... يشهر خافيه القضاء المقدر
سميك مرتاح إليك مسلم ... عليك ورضوان من الله أكبر
تحت المطا ليس النعيم بمنقض ... ولا العيش فى دار الخلود مكدر

انتهى ببعض اختصار ومنه يفهم مكان الحاجب أبى النعيم رضوان النصرى من الدولة النصرية .

وليس بفضل الله سبحانه ، ثم بنعمة مولاى ، أدام الله أيامه ، إلا الخير الأتم ، واليسر الأعم ، وعن التعظيم لملكتكم ، والمسارعة لخدمتكم ، والشكر لنعمتكم ، و إلى هذا وصل صحبة معظم ملككم ، رسولكم وخديمكم : المكرم ريمون بيل إلى حضرة مولانا ، أيده الله ، وحضر بين يديه ، وأدى رسالته ، وأظهر من حسن آدابه ومقاصده فى خدمتكم ، ما هو اللائق بأمثاله ، ممن تربى ، فى داركم ، ونشأ فى خدامكم ، واستحسن مولاى أيده الله ، ، قصده فى ذلك ، وجدد من مودتكم وصحبتكم ماتقفون على شرحه فى كتابه إليكم ، وأما معظم جانبكم ، فعمل في خدمتكم ما يجب عليه ، وألقيت لمولانا أيده الله ، مالكم فيه من المحبة ، والمودة وشكرها لكم أتم الشكر ، وعملت أيضا فى خدمة ولدكم مولاى المعظم ، دون بطره الكبير أسعده الله بطاعته ، ما يجب ، وقد كتب له مولاى ، أيده الله ، كتاباً بالصحبة والمودة ، ومن خديمكم ريمون المذكور تتعرفون ما عملت فى ذلك كله ، ومنه تتعرفون أيضاً جميع الأخبار ، وكرامة مولاى ، أيده الله له ، وعنايته به ومما أعرف به سلطانكم أني كنت طلبت من انمامكم كسوة من لباسكم ، وأخبرنى الزعيم المكرم برناط شرمى ، أنكم أصدرتم أمركم بذلك ، وأنعمتم به ومعظم جانبكم ينتظر ذلك ، وأخبرنى أيضاً أنكم أمرتم لى ببازى ، وأنا أنتظر ذلك أيضاً ، وأذكركم (هنا كلمات لم تمكن قراءتها) و يصلكم يامولاى القوسان اللذان قلت لكم عنهما صحبة رسولكم ، ريمون بيل المذكور ، وما أنا إلا خديمكم ، ومقر بنعمتكم فما كان بجانب سلطانكم أعمل فيه ما يجب عليه ، والله سبحانه يصل أعزازكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلام مولانا كثيراً أثيراً . وكتب فى اليوم الخامس عشر لذى حجة مختتم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اه .

كتاب آخر من سلطان غرناطة إلى ملك أرغون :

الحمد لله حق حمده . وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده .

وصل الله عزتكم بتقواه ، وأسعدكم بطاعته ورضاه . ألقى إلينا رسولكم .

ريمون بيل ، الشكايات التى لأهل أرضكم ، فكان من جملتها قضية الفيلوك [١] الذى أخذه أهل المرية فى العام الفارط ، وقد خلّصت قضيته ، ورُدّ إليكم بآلاته كلها ، وكل ما كان فيه من سلع كانت قد بيعت بالمرية ، فنقُد لصاحبها ثمنها ، بديوان المرية ، وتخلّص منه ، وقضية ابن الحسين صاحب الشينى ، الذى ذكرتم أنه تعرّض لأرضكم فى الصلح ، قد بحث عن جميع ما أوصله ، وذلك جفنان اثنان ، كان أحدهما قد استقر بمالقة ، والآخر ببيرة ، وقد مُكن منهما أصحابهما ، الواصلون عنهما ، واستُقصى البحث عن كل ما أوصله من النصارى ، وكانوا سبعة عشر ، وُجهوا كلهم بجملتهم مع رسولكم وهم يصلونكم ، وقد كان وجّه من النصارى قبل ذلك مع القائد أبى الحسن ابن كُماشة ثمانية عشر . وأما السلع فما وجد منها قبضه أصحابه الواصلون من قبلكم ، واعلموا أن الرئيس ابن الحسن الذى صدر عنه ما ذكرتم ، كان قد كتب فى شأنه محل أبينا السلطان المعظم الأوحد ، أمير المسلمين ، أبو الحسن أيده الله ، ليوجّه إليه هو وكل ما وصل به ، وقد وجّه إليه هو والاعلاج الذين (كلمة لم تمكن قراءتها) فى حركته الاخيرة ، وجميع ما أوصله فان كان نقصكم شىء مما أخذه ، فأنتم تكتبون فى ذلك إلى المقام العلىّ ، أسماه الله ، ونظره أجمل ، وما أوجب الابطاء بتوجيه ذلك كله إلا أنه قرّر عندنا أن الاعلاج المذكورين ، والسلع من أرض الحرب فلما وصل كتابكم صدقناكم فى ذلك ، وأمرنا برد جميع ذلك كله . وتسريحه بجملته تصديقاً لقولكم ، وتوفية لقصدكم . والله يصل سعادتكم بتقواه ، ومعاد السلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى الرابع لذى حجة مختتم عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اه .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وآله وسلم تسليما

---

(١) يظهر أن المراد به الفلك أو هو مصغره عند الاندلسيين .

السلطان الأجل الأكرم ، المرفع المبرور المشكور . الأوفى الأخلص ، دون بطره ملك أرغون وسلطان بلنسية وقرسقة ، وسردانية ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، مكرم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الصحبة ومذاهبه الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين ، أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إليها ، وأمير المسلمين ، أما بعد فانا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، عن الخير الأكمل ، واليسر الأشمل والحمد لله كثيرا ، ونحن نعلم مالكم فى ملوك النصرانية من القدر المشهور ، والوفاء المشكور ، ونقابل جانبكم من الكرامة بالحظ الموفور ، وقد وصلنا الكتاب الذى وجهتم إلينا ، الذى يتضمن تثبيت العهد ، وتوكيد الود ، وتصحيح العقد ، و إخلاص الصفاء ، وتجديد الوفاء ، فقابلنا ذلك بشكر نجده لملكتكم ، و إخلاص صادق فى صحبتكم ، ثم انه بلغنا أن والدكم السلطان المرفّع ، دون الفونشو ، مات ، و انكم ورثتم مملكته التى أنتم أحق بها ، فرأينا أن وجهنا كتابنا هذا إليكم ، نعزيكم فى الوالد ونهنيكم بالملك ، حسبما يقتضيه حق الصحبة التى بيننا ، التى تأكد رسمها ، ونعرفكم أننا ما عندنا إلا ما يرضيكم ، من الاعتقاد فيكم ، والحفظ لعهدكم ، والشكر لقصدكم فكونوا من ذلك على يقين ، ومما نعرفكم به أن خديمنا بشقلين سريجه ، كتب إلينا فى أمور مما يخص جهتكم ، وقد كتبنا اليه فى جوابها ما تتعرفونه من قبله ، فصدقوه فيما يلقيه عنا إليكم ، واعلموا أنه لما وصلنا خبر موت والدكم كتبنا إلى بلادنا الشرقية كلها ، أن لاسبيل لأن يتطرق لجهة أرضكم أحد بضرر ، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم برضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، كتب فى السابع والعشرين لجمادى الآخرة عام ستة وثلاثين وسبعمائة عرّف الله بركته اه .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى ، دون الفونشه ، ملك أراغون ، وسلطان بلنسية ، وصاحب سردانية ، وقرسقه ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، و يسّره لما يحبه الله و يرضاه ، مكرم مملكته ، وشاكر مودته ، المثنى على صحبته ، البرّ بجانبه ، العارف بمقاصده فى الملوك الأوفياء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، أما بعد ، فانّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً . وجانبكم مبرور ، ومذهبكم فى الوفاء مشكور ، ومنصبكم فى الملوك معلوم مشهور ، و إلى هذا فقد وصل كتابكم المبرور ، فى شأن الأشخاص الذين باعهم الجنويون بالمرية ، وعرّفتم أنهم من أهل أرضكم . واعلموا أننا لو عرفنا أنهم من أهل أرضكم ماسُمح فى بيعهم ولوجّهناهم إليكم ، على ما يوجبه الوفاء بالعهد فاننا ماعندنا إلاّ الوفاء بما عاهدناكم عليه ، ولكن عند وصول كتابكم وجّهنا التفسير بأسمائهم إلى المرية ، وأمرنا أن يُبحث عنهم ، و يُسترجعوا من أيدى من هم عنده ، ونحن نعمل فى ذلك ما يوجبه الوفاء ، وما يقتضيه اعتقادنا فى صحبتكم بحول الله ، فاعلموا ذلك ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى الموفى ثلاثين لشهر جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اه .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

مولاى السلطان المعظم ، الأجل المكرم ، المرفّع الأوفى الأشهر ، المبرور المشكور ، دون بطرُه ، سلطان أرغون ، و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برجلونة وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعته ورضاه ، معظّم ملككم الشهير الزكى ، القائم لجانبكم المعظم ، بموصول الثناء ومستمر الشكر ، وزير السلطان رضوان بن عبدالله ،

كتبه إليكم من باب مولاه ، أيده الله ، بحمراء غرناطة حرسها الله ، ولا جديد بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة هذا الأمير الكريم ، أيد الله سلطانه ، إلا الخير العميم ، والحمد لله ، وعن العلم بمالكم من الملك المرفع الجانب ، والشكر لما عندكم من الوفاء الذى حصلتم منه على أجل المواهب ، واختصصتم منه بأكرم المذاهب ، ووصل كتابكم المكرّم ، صحبة كتابكم إلى مولاى السلطان ، أيده الله ، بتجديد الصلح الذى كان بين أسلافه وأسلافكم ، الذى عقده عليه بُشقلين سَريجة ، وقد أنعم بكتب عقد عن مقامه ، بنص العقد الذى وجّهتم ، وعلى حسب فصوله ، وما عنده ، أيده الله ، إلاَّ الحفظ لعهدكم . والارتباط لصحبتكم ، فكونوا من ذلك على يقين. واعلموا أننى لا أزال أعمل فى توفية حفظ ذلك الصلح ، وتكميل أموره ، ما هو الواجب علىّ فى خدمة مولاى ، أيده الله ، حتى تتمشى الأمور على ما يقتضيه الحق ، ويوجبه الوفاء . وأما ماذكرتم من اعتقادكم الجميل وكرامتكم ، فذلك فضل منكم أشكركم عليه غاية الشكر ، ومثلكم من الملوك الكبار من يصدر عنه قول الخير وفعله ، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه ، ويسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيرا أثيراً . كتب فى اليوم الرابع لذى الحجة عام ستة وثلاثين وسبعمائة اه .

* * *

كتب إلينا الأخ الحاج محمد العربى بنونه أن خط هذا الكتاب الأخير رديء جداً ، وقال : « لا أدرى كيف صدر من ديوان الحمراء » وقد أسفنا أن تكون أكثر الكتب السلطانية ، التى اشتملت عليها تلك المجموعة ، قد أكلتها الأَرَضة ، وتنكر خطها ، وتعذر ضبطها ، وهيهات أن توجد لها مجموعة أخرى ! وعلى كل حال لو اتصلت يدنا بنسخ جليّة ، لهذه الكتب السلطانية ، البالغ عددها ستين كتاباً ، فى ما علمنا ، لبادرنا إلى استنساخها ، وإلحاقها بالطبعة الثانية من الحلة السندسية ؛ لما فى هذه المراسلات بين سلطنتى غرناطة وأراغون ، من تمثيل الحالة على ما كانت

عليه فى القرن الثامن للهجرة ، الموافق للقرن الرابع عشر للميلاد ؛ وذلك بين المسلمين وجيرانهم المسيحيين من أهل أسبانية .

أما الملكان اللذان توجهت إليهما هذه الرسائل من سلطان غرناطة ووزرائه فهما الفونش الرابع ، وولده بطره

ولأجل أن يرتوى القارىء من تاريخ هذين الملكين ، نعيد هنا ما كنا كتبناه فى مختصر تاريخ أسبانية ، الملحق « بآخر بنى سراج » صفحة ١٧٧ من الطبعة الثانية وهو :

« ثم مملكة أراغون ، حذاء جبال البيرانه ، اعتمدت فى أوائل أمرها على لصوصية البحر ، واشتهر بين أمرائها جقوم[1] ، وهو الذى استولى على جزائر الباليار : ميورقة ، ومينورقة ، ويابسة . وقيل ان السبب فى الاستيلاء عليها تعرّض أهل ميورقة لمراكب الاسبانيول

و يفهم من قول المخزومى فى تاريخ ميورقة ، كون سبب أخذها من المسلمين أن أميرها فى ذلك الوقت محمد بن على بن موسى ، احتاج إلى الخشب ، فأنفذ طريدة بحرية ، وقطعة حربية ، إلى يابسة بأخذه . فعلم بذلك والى طرطوشة ، فجهز إليها من أخذها ، فترصد محمد بعض مراكبهم وأخذها ، فأجمع الروم على قتاله فى عشرين ألفا ، وجهزوا ستة عشر ألفا فى البحر ، وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالى صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر ، فضرب أعناقهم . فاجتمعت الرعية إلى أبى حفص بن سيري ، وأخبروه بما نزل ، وعزوه فى من قتل ، وقالوا له : هذا أمر لا يطاق ! وأصبح الوالى يوم الجمعة ، منتصف شوال ، والناس من خوفه فى أهوال ، ومن أمر العدو فى إهمال ، فأمر صاحب شرطته باحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة ، فأحضرهم ، و إذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالى ، وأخبره بأن الروم قد أقبلت ، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع . وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر وقال : إن أسطول العدو قد تظاهر ، و إنه عد سبعين شراعاً . فصح الأمر

---

(١) اوجاك اوجامس وهذا الأخير هو الذى اختاره لسان الدين بن الخطيب فى لفظ هذا الاسم كما يتبين من كتابه « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية »

عند الوالى وأطلقهم واستنفرهم . ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد ، فانهم عدوا مائة وخمسين قلعاً ، فأخرج الوالى جماعة تمنعهم من النزول

وفى الثامن عشر من شوال وقع المصاف ، وانهزم المسلمون ، وارتحل النصارى إلى المدينة ، ونزلوا منها على الحربية الحزنية [١] من جهة باب الكحل . ولما رأى ابن سيرى أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية .

ولما كان يوم الجمعة الحادى عشر من صفر قاتلوا البلد قتالا شديدا . ولما كان يوم الأحد أُخذ البلد ، وقُتل فيه أربعة وعشرون ألفاً ، وأُخذ الوالى وعُذب ، وعاش خمسة وأربعين يوماً تحت العذاب ومات . وأما ابن سيرى فتحصن فى الجبال ، وجمع حوله ستة عشر ألفاً ، وما زال يقاتل حتى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة . وجدُّه من آل جَبَلَة بن الأيهم الغسانى . وأما الحصون فأُخذت فى آخر رجب من تلك السنة وفى شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين ببلاد الاسلام . انتهى ماذكره ابن عميرة المخزومى ملخصاً [٢]

قلنا اننا كنا قد نقلنا هذا النقل عن نفح الطيب وسنعود إلى خبر ميورقة وأخواتها عند الوصول إلى الكلام على هذه الجزائر جغرافية وتاريخاً ، ونأتى إن شاء الله على الموضوع بالتفصيل ، وإنما تعرضنا لهذا النقل هنا من جهة اتصاله بتاريخ ملوك أراغون ، الذين هم أقماط برشلونة . فأما باب الكحل الذى دخل منه النصارى إلى مدينة بالمه [٣] التى كان العرب يسمونها ميورقة ، فقد شاهدناه يوم زيارتنا لتلك

(١) هكذا كما فى نفح الطيب وهل لفظة « الحزنية » هنا هى نسبة إلى الحزن ، بالفتح ، وهو ضد السهل ؟ . أوهى مصحفة بالنسخ ، وأصلها « المخزنية » . نسبة إلى « المخزن » ، الذى يستعمله المغاربة والاندلسيون بمعنى الحكومة ؟

(٢) نقلنا ما لخصه المقرى عن ابن عميرة المخزومى . وذلك من نفح الطيب ، ولما كانت الرواية فى غاية الاختصار ، والحادثة هى فى غاية البال ، لم ينقع ذلك منا غليلا ، وتطلعنا إلى كتاب ابن عميرة نفسه ، فبحثنا عنه مااستطعنا ، ونشدناه فى خزائن الكتب المشهورة فى فاس ومكناس والرباط وغيرها وحتى اليوم لم نجده

(٣) Palma



مدينة بالما قاعدة جزيرة ميورقة



طاحون هواء في ميورقة

الجزيرة سنة ١٩٣٠ . وأما الجبال التى تحصن بها ابن سيرى فقد مررنا بحذائها ، وهى على مسافة نحو من ساعتين بالسيارة الكهربائية من المدينة ، ومن رآها علم أنها لا تؤخذ ولا يتأتى الصعود إليها ، لوعورتها ، وامتناع السلوك فيها . وما أظن المسلمين تركوا القتال ، ولحقوا ببلاد الإسلام إلا بأحد سببين : إما أن يكون قتل ابن سيرى قد فتّ فى أعضادهم ، ووقع الخلف بعده فيما بينهم ، فلم تنتظم لهم كلمة بعد ذهابه ، فطلبوا التسليم على شرط النجاة بأرواحهم ، ولحقوا ببلاد الاسلام . و إما أن يكون تعذر عليهم المقام بهذه الجبال العالية الوعرة التى ليس فيها شىء يقوم بميرتهم ، وكانوا لا يقدرون أن يهبطوا منها إلى السهول ، لكثرة جيش العدو المرابط بحذائهم . والله أعلم .

***

ثم نعود إلى خبر كتلونية وأراغون فنقول انه فى مدة جقّوم هذا ، فاتح البليار خرجت بلنسية من أيدى المسلمين ، و بعد ذلك اجتمع بقايا المسلمين فى مملكة أراغون وثاروا ، وأثخنوا فى عدوهم إلا أن جقوم طردهم أخيراً فانحاز أكثرهم إلى مملكة ابن الأحمر ، وأجاز بعضهم إلى أفريقية .

وقد اشتهر جقوم هذا بحب الطلاق والزواج واتخاذ الخطايا ، و بينما كان مطران جيرونه يوبخه مرة على استهتاره هذا ، استشاط غضباً ، وأمر بقطع لسانه . واغتصب مرة امرأة أحد رعيته . وكانت وفاته فى ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦

وخلفه الدون بطره ، وفى مدته انضمّت مملكة صقلية إلى مملكة أراغون ، وطرد الدون بطرُه منها شارل دانجو Danjoi أخا القديس لويس ملك فرنسة ، وذلك بالرغم من إرادة البابا ، وقصدوا استعادتها فانهزموا ، فأصدر البابا حرماً على حرم بحق بطرُه ، وأخيراً أقطع البابا مملكة أراغون شارل دوفلوا ، بن فيليب الجرىء ملك فرنسة . فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون ، وكان له من جقوم أخى بطره نفسه عضدا ، لإحنة كانت مستحكمة بين الأخوين ، فانهزم جند بطرُه . واستولى الفرنسيس على جيرونة ، إلا أن العلة تفشّت فيهم من رائحة جثث القتلى ، فهلك منهم

خلق كثير ، وأصيب الملك فيليب نفسه ، وحمل ومات فى الطريق .

و بعد انصراف الفرنسيس استعاد بطره جيرونة ، وحول نظره صوب أخيه جقوم الذى ظاهر عليه الغريب ، فأرسل ولده الفونس إلى ميورقة بأسطول ليأخذها من يده ، وتوفى بطره ، وابنه الفونس يحاصرها . فلم يقلع حتى دخلت فى حوزته . وقام بأمر أراغون بعد أبيه . ومات هذا وخلفه أخوه جقوم ملك صقلية ، فترك أمور هذه الجزيرة لوالدته ، وجاء إلى أراغون متسلماً زمامها ، وأعاد ميورقة على عمه جقوم . ثم تولى صقلية أخوه فردريك ، وتزوج بابنة شارل دونابل ، وولد له منها خمسة ذكور : جقّوم ، والفونس ، وجوان ، و بطره ، ورامون . وخطب لابنه البكر جقوم الدونة ليونورة القشتالية ، و بينما كانوا يعقدون له عليها إذ عدل عن الزواج زاعماً أن أباه أجبره عليه ، وانه هو يريد الترهب والتبتل ، وأسقط حقه من وراثة الملك ، ودخل فى سلك الرهبان ، وقضى الناس من ذلك العجب ، لما كان عليه من الانغماس فى اللذات والاسترسال إلى الشهوات ، فولى العهد أخوه الفونس ، وصار جوان أخوهما مطران طليطلة ، وأخذ كل من الاخوين الباقيين اقطاعاً باسمه .

ثم مات جقوم الثانى فى برشلونة ، فى ٢ نوفمبر سنة ١٣٢٧ ، وخلفه ولى عهده الفونش الرابع ، فتزوج هذا مرتين ، وولد له من إحدى امرأتيه الدون بطره ولى عهده فلما مات سنة ١٣٣٦ وقع النزاع بين ولده بطره ، و بين امرأة أبيه ، التى كانت أخت ملك قشتالة ، فادعت أنه يريد انتزاع أملاك اخوته ، أولادها ، فكاد الخلاف بسبب ذلك يتسع بين قشتالة وأراغوان ، لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدسة ضد المسلمين لعهد السلطان أبى الحسن المرينى ، صاحب المغرب .

و بعد وقعة طريف وانتقاض بطره من عوارض تلك الحرب أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره جقوم .

قيل إن السبب فى ذلك أن الدون بطره كان متوجهاً إلى افينيون ، لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكباً بجانبه ، فلما صارا على مقربة من البلدة ، وقد حفت بهما

حاشيتهما ، رأى سائس حصان الدون جقوم ، أن سائس حصان الدون بطرُه ، يحث مسير حصان مولاه ، فلطمه ليتئد ، و يمكنه اللحاق به ، فأبصر ذلك الملك، واغتاظ من ابن عمه لسكوته واغضائه على حركة سائسه ، فوقرت في صدره ، وانتهز الفرصة لتجريده من مملكته ميورقة ، فى خلف وقع بين جقوم و بين ملك فرنسة من أجل مونبليه . فزحفت عساكر فرنسة لأخذها ، فبعث جقوم إلى ابن عمه بالصريخ ، فلم يجبه . ثم نقم عليه أموراً ، منها أنه يحاول الاستقلال ، وأنه ضرب السكة باسمه . وأخيراً أعلن خلعه من ولاية الجزر ، فاستغاث جقوم بالبابا ، فأرسله البابا إلى برشلونة نزيلا عند بطره ، ومستميحاً عفوه ، فعند ما حصل عنده ضبط عليه امرأته التى هى أخت بطره ، وسرحه ، فلحق جقوم بميورقة ، وقد نادى بحرب بطره ، والانفصال عنه ، وكان اسطول بطره فى رباط المسلمين بالجزيرة الخضراء ، فاسترجعه منها ، ونزل به على ميورقة . ففر جقوم إلى فرنسة ، و بقى فى نزاع مع ابن عمه بطره إلى أن باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسة ، وجهز بثمنها ثلاثة آلاف ماش ، وثلاثمائة فارس ، وركب بها البحر ، طامعاً فى استرداد جزيرته ميورقة فقابله واليها من قبل بطره بجيوش أوفر مراراً من جيشه ، وهزمه ، فهلك فى الهزيمة .

وما انتهى بطره من خطب جقوم ابن عمه ، حتى ثارت معه مسئلة أخرى مع أخيه المسمى أيضاً بجقوم ، وذلك بسبب انتقال الملك ، فان بطره لم يكن له أولاد ذكور ، فأراد العهد لابنته ، والحال أن أخاه كان يطالب بهذا الحق فانشقت المملكة بهذا السبب إلى قسمين ، ونشبت الحرب بينهما ، وقام جمهور من الرؤساء على الملك وفي أثنائها توفي أخوه جقوم ، فاتهم بطره بكونه سمه ، فازدادت الثورة ، وزحف الملك إلى الرعية الثائرة فجرت عدة وقائع سالت فيها الدماء غزاراً ، وغدر بطره بالرؤساء الذين استسلموا اليه ، وأرهق مدن مملكته حصراً وعسراً ، إلى أن تمت له الغلبة ، ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده ، رغم إرادة بطره ملك قشتالة ، وقعت الحرب بينهما وانضم إلى أراغون الأمراء الذين كان بطره القشتالى قد

آسفهم ، وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلت الثانية ، ثم الثالثة .

وهلك بطره الأراغونى سنة ١٣٨٧ ، بعد أن ملك نيفاً وخمسين سنة ، وكان سفاكاً للدماء ، غداراً ، غدر بأهله واخوته ، وأهرق سيولا من الدم ، حتى لقب بالخنجرى . وتزوج بأربع نساء الأولى دونه مارية ابنة ملك نباره ، ماتت سنة ١٣٤٦ والثانية دونة ليونيورة ابنة ملك البرتغال ، وماتت هذه بعد تلك بسنتين بالطاعون الذى عم جنوبى أوربة ، وشمالى افريقية ، وهو الذى يسميه ابن خلدون بالطاعون الجارف ، خرب كثيراً من ديار الشرق والغرب ، ثم اقترن الدون بطره بليونورة أخت ملك صقلية ، وماتت سنة ١٣٧٤ ، وقد ولدت منه ثلاثة ذكور ، وابنة واحدة فاقترن بامرأته الرابعة ، سيبيله فورسيه ، كانت أرملة ، بارعة فى الجمال ، وكان أوانئذ قد بلغ هو الحادية والستين ، فملكت قلبه وأعطاها قياده ، وأقطعها من أملاك التاج الملكى ، فاعترضه ولى عهده جوان ، وهو ابنه من امرأته الثالثة ، ووقع النزاع ، وانتهى بتحكيم أحد القضاة .

وفى أواخر مدة هذا الملك وقع النزاع الشهير بين البابا أوربان السادس ، والبابا كليمان السابع ، وأخذ كل منهما يحرم الآخر ، وانقسمت ممالك أوربة فى شأنهما إلى شطرين : ففرنسة وقشتالة ونبارة ، ونابولى قامت بدعوة كليمان ، وانجلترة والبرتغال وأراغون ، قامت بدعوة أوربان ، إلا أن أراغون مالت فيما بعد إلى كليمان .

وبعد وفاة بطره قام ابنه جوان الأول . وفى الحال تقبض على سيبيليه امرأة أبيه وعلى أخيها وأعوانها ، وابتزها الأملاك التى كان أبوه وهبها إياها ، وسلمها إلى امرأته دونه « فيولنته » واعتنى بتزويج دون مارتين ابن أخيه بابنة عمه فردريك ، ملك صقلية التى كان آل إليها إرث تلك الامارة بعد وفاة والدها ، وكان جوان مولعاً بالشعر والموسيقى والصيد ، مهملا الجد من الأمور ، حتى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ، ومجتمع مغنين ، لايسمع فيه إلا إيقاع أو انشاد ، فقام أعيان البلاد ، وطلبوا منه إقصاء حظيته دونه « كاروزة » لاتهامهم إياها بترغيبه فى ما هو فيه من العبث

فانقاد إلى إرادتهم ، خوف انتقاضهم ، وتوفى جوان فى الصيد بكبوة جواد تردّى به فى غابة ، وهو يطلب ذئباً ، فخلفه أخوه الدون مرتين ، لأن جوان لم يعش له غلام من صلبه . فنازعه فى الملك آل فواكس ، فغبهم عليه واستوثق له الأمر ، وتزوج بالدونة مارية . فولد له منها أربعة أولاد ، توفى منهم ثلاثة دون البلوغ ، و بقى الواحد وهو الدون مرتين متوّج صقلية ، فمات هذا فى غزاة بسردانية عام ١٤٠٩ ، ولم يعش له ولد ، على كونه تزوج مرتين ، نعم كان له أولاد من حظاياه ، فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور الشرعيين من البيت المالك ، وتنازع حقوق الوراثة خمسة أمراء : الدون فادويك ، ولد مارتين من إحدى حظاياه . وكونت أورجل ، ابن عم مارتين فى الدرجة الخامسة ، ودوق كالابرة ، ابن الدونة فيولنتة ، بنت جوان الأول ، ثم فرديناند القشتالى ، الملقب عندهم بالرشيد ، وهو ابن جوان الأول القشتالى ، والدونة ليونوره أخت الدون مرتين ملك صقلية ، الذى بموته انقطعت السلالة ، فهو إذاً ابن أخت الملك الشرعى ، فكان أقرب المتنازعين إلى الحق فى هذا العرش ، وكان كذلك كونت أورجل بمكانه من الكلالة لأنه من نفس بيت الملك .

ور بما كان لهذا الكونت « أو الكنداو القمط » فى مملكة اراغون الشيعة الكبرى ، إلا أنه لم يحسن طلب حقه ، وجمع العساكر ، فأخذت تعيث فى البلاد مما أحال عنه القلوب إلى فرديناند ، فانتخبوه ملكا فى ٣ سبتمبر سنة ١٤١٢ ، وتقبض على كونت أورجل وسجنه ، واستتب له الأمر . إلا أنه فى سنة ١٤١٦ مات ، وخلفه بكر أولاده الفونش الخامس ، فاتح نابولى . ثم مات هذا سنة ١٤٥٨ عن غير ولد ، فانتقل الملك إلى أخيه جوان ، الذى كان تزوج بابنة شارل النبيل ، و بواسطتها ملك بلاد نبارة

وولد لجوان هذا ، فرديناند الملقب بالكاثوليكى ، فملك أراغون ونبارة معاً ، وتزوج بايزابيلاّ ملكة قشتالة ، فصارت هذه الممالك الثلاث مملكة واحدة ، عادت فى حالة من اجتماع الكلمة ، ووفرة العديد ، وغزارة المادة ، بحيث قضت على الملك الأخير الباقى الذى كان بالاندلس للمسلمين اهـ .

علمنا من هنا أن ملك اراغون الذى كان يخاطبه يوسف بن أبي الوليد اسماعيل ابن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، هو بطره الرابع الذى تولى من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧ ، وقبله كانت المراسلة مع والده الفونش ، وهوالفونش الرابع . وأما سلطان غرناطة الذى صدرت عنه هذه الكتب ، فهو يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل ابن يوسف بن نصر الخزرجي الأنصارى ، ترجمه لسان الدين بن الخطيب فى كتابه « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » بقوله :

بدر الملوك ، وزين الأمراء ، كان أبيض أزهر ايّداً ، مليح القد ، جميل الصفات برّاق الثنايا ، أنجل ، رجل الشعر ، أسوده ، كث اللحية ، وسيما ، عذب الكلام ، عظيم الحلاوة ، يفضل الناس بحسن المرأى ، وجمال الهيئة ، كما يفضلهم مقاما ورتبة ، وافر العقل كثير الهيبة ، إلى ثقوب الذهن ، و بعد الغور ، والتفطن للمعاريض ، والتبريز فى كثير من الصنائع العملية ، مائلا إلى الهدنة ، مزجياً للامور ، كلفاً بالمبانى والأثواب ، جمّاعة للحلى والذخيرة ، مستميلا لمعاصريه من الملوك

تولى الملك بعد أخيه بوادى السقائين من ظاهر الخضراء ، يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى الحجة ، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وسنه إذ ذاك خمسة عشر عاما ، وثمانية أشهر ، واستقل بعد بالملك ، واضطلع بالأعباء ، وتملأ الهدنة ماشاء ، وعظم مرانه لمباشرة الألقاب ، ومطالعة الرسوم ، فجاء نسيج وحده . ثم عانى شدائد العدو ، فكرم يوم الوقيعة العظمى بظاهر طريف موقفه ، وحُمد بعد فى منازلة الطاغية عند الجثوم على البلاد صبرُه ، وأجاز البحر فى شأنها ، فأفلت من مكيدة العدو التى تخطاها أجلُه وأوهن حبلها سعدُه .

ولما نفذ فى الجزيرة القدر ، وأسفت الاندلس ، سدّد الامور ، وامتسك الاسلام على يده ، وراخى مخنّق الشدة بسعيه ، فعرفت الملوك رجاحته ، وأثنت على قصده ، إلى حين وفاته .

كان له من الذكور ثلاثة : محمد ، ولى الأمر من بعده . واسماعيل المتوثب عليه

ومزعجه عن الاندلس ، عند التغلب عليه ، والثورة به ، من ثقاف جواره . وقيس شقيق اسماعيل منهما

تولى وزارته لأول أمره كبير الأ كرة ، ونبيه المشيخة بحضرته ، ابراهيم بن عبدالبر العريض المكسب، الثمين العقار ، لخيلة طمع نشأت لمقيمى دولته ، فيما بيده . إلى ثالث شهر المحرم من العام . وانِفَ الخاصة والنبهاء رئاسته . فطلبوا من السلطان إعاضته . فعدل عنه إلى خاصة دولتهم . الحاجب أبى النعيم . مظنة التسديد . ومحط الأ نَات . فاتصل نظره مستبداً عليه فى تنفيذ الامور. وتقديم الولاة والعمال . وجواب المخاطبات . وتدبير الرعايا . وقود الجيوش .

ثم قبض عليه ليلة السبت الثانى والعشرين لرجب لعام أربعين وسبعمائة ، وتولى الوزارة بعده بن عمة أبيه ، السلطان أبى الوليد ، وهو القائد أبو الحسن على بن مول بن يحيى بن مول الأمى ؛ رجل جهوري حازم ، مؤثر للغلظة لم ينشب أن كف استبداده فالتاثت حاله ولزمته شكاية استنفدته . وأقام رسم الوزارة بكاتبه شيخنا أبى الحسن ابن الجياب ؛ نسيج وحده إلى أخريات شوال من تسعة وأربعين وسبعمائة ، وهلك رحمه الله فأجرى لى الرسم (١) وعصب بى تلك المثابة ؛ مضاعف الجراية ؛ معززا بولاية القيادة ، حسبما وقع استيفاؤه فى كتاب نفاضة الجراب من تأليفنا . اه

وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب من كان على عهد السلطان يوسف بن الاحمر المذكور من الملوك فقال : إنه كان بفاس السلطان المتناهى الجلالة ، أبو الحسن على ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق . وبتلمسان عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . وبتونس الأمير أبو يحيى بن الأمير أبى زكريا ابن الأمير أبى اسحق ابن الأمير أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص .

ومن ملوك النصارى بقشتالة الفونش بن هراندة بن شانجُه بن الفونش بن هرانده وهو الذى هبت له الريح ، وعظمت به فى المسلمين النكاية ، وتملك الخضراء ، بعد

(١) يكون مبدأ وزارة لسان الدين فى زمن السلطان المذكور

أن أوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف . و ببرجلونة السلطان بطرُه ، وقال عن وفاته مايلى : وافاه أمر الله جل جلاله أتم ما كان شباباً ، واعتدالا وحسنا ، وفخامة ، وعزة ، من حيث لا يحتسب ، فهجم عليه يوم عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فى الركعة الأخيرة ، رجل ممرور ، رمى نفسه عليه ، وطعنه بخنجر كان قد اتخذه ، وأغرى بملاجه ، وصاح ، وقُطعت الصلاة ، وسُلت السيوف ، وتقبض على الممرور ، واستفهم ، فتكلم بكلام مختلط ، واحتُمل إلى منزله مرفوعاً فوق رؤوسنا على الفوت ، ولم يُستَقرّ به إلا وقد قضى ، رحمه الله ، وأخرج ذلك الممرور للناس فُمزق ، ثم أحرق فى النار . ودفن السلطان عشية اليوم فى مقبرة قصره ، لصق أبيه ، ووُلى أمره أكبر ولده اه .

وهذا بحث حقه أن يكون فى أثناء الكلام على سلاطين غرناطة ، مما سنصل إليه إن شاء الله ، و إنما قد تعجّلنا منه هذه القطعة لأجل التمريف بالسلطان الذى كانت قد صدرت عنه هذه المراسلات إلى ملوك أراغون وكتلونية . ولعل المراسلات الأخرى التى تعذرت قراءتها بتقادم عهدها ، فيها ماهو صادر عن غيره من ملوك غرناطة إلى غير الفونش و بطرُه من ملوك أراغون

تقسيمات كتلونية الادارية

تنقسم بلاد كتلونية إلى أربع مقاطعات : مقاطعة برشلونة ، ومساحتها ٧٦٩٠ كيلو متراً مربعاً ، وفيها مليون ومائة وخمسون ألفاً من السكان ، وجيرونة ، التى كان يقال لها فى القديم جيرندة ، ومساحتها ٥٨٦٥ كيلو متراً مربعاً ، وعدد سكانها ثلاثمائة وعشرون ألف نسمة ، ومقاطعة لاردة ، ومساحتها ١٢١٥١ كيلو مترا مربعاً وعدد سكانها يقارب مائتين وتسعين ألفاً ، وطرّكونة ومساحتها ٦٤٩٠ كيلو مترا مربعاً ، وعدد سكانها نحو من ٣٤٠ ألفاً .

وأشهر أنهار كتلونية نهر لو بريقات Llobregat وكان يقال له عند الرومان رو بريكاتوس Rubricatus وهو الذى يسقى سهول برشلونة ، ثم نهر شيقر Segre

وكان الأقدمون يسمونه سيكوريس Sicoris وهو ينصب فى نهر ابرُه ، عند مكناسه (١) . وأما ابرُه ، فبعد أن يلتقى بنهر شيقر يخترق الجبال فى جنوبى طرّ كونة ، ويتوجه إلى البحر المتوسط ، فينصبّ فيه ، شرقى طرطوشة

وأشهر قمم جبال كتلونية قمة « مارنجس » وعلوها ٢٩١٤ متراً ، وقمة كارليت ، وعلوها ٢٩٢١ متراً ، وكانيجو ، وعلوها ٢٧٨٥ متراً ، وهى مغطاة بالثلوج . وهناك قمم أقل ارتفاعاً ، مثل مونت شيرات الشهير Montserrat وعلوها ١٢٣٦ ، وهى قمة شهيرة فى تلك البلاد يقال لها الجبل المقدس ، منقطعة من جميع جهاتها ، ذات أسنان كاسنان المشط ، وصخور فى منتهى العظم ، كأنها قلعة عظيمة مشرفة على بسيط كتلونية ، ومونت صانت ، وعلوها ١٠٧١ متراً

وأشهر سهول كتلونية سهل أمبوردان ، وقد تقدم ذكر هذه الناحية ، وسهول جيرندة وفيش وسهول النقيرة Noguera وفونتانا Fontanat

ومن حيث اننا تقدمنا فى ذكر هذه البقاع من جهة أراغون إلى كتلونية ، رأينا أن نبدأ بذكر الجهات الغربية المصاقبة لأراغون فنقول :

إن مدينة لاردة واقعة على وسط المسافة بين سَرَقُسطة وبرشلونة ، وعدد سكانها اليوم ثلاثون ألف نسمة ، وارتفاعها عن سطح البحر ١٩١ متراً ، وهى على الضفة اليمنى من وادى سيغر ، الذى يقول له العرب وادى شيقر . ولاردة مدينة قديمة إيبيرية وكانت معروفة فى زمن الرومان ، وقد استولى عليها العرب فى القرن الثامن للمسيح ، بعد استيلائهم على سرقسطة ، وكانت من مدن الثغر الأعلى . ولما انقسمت الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية ، استولى على لاردة بنو هود الجذاميون ، أصحاب سرقسطة

---

(١) Mequnenza أى بالعربى مكينسه ولكن العرب نظراً لوجود بلدة مكناسة فى بلادهم تلفظوا باسم هذه كتلك فعندهم مكناسة حصن من حصون الاندلس ذكر ياقوت فى معجم البلدان مكناسة المغرب ثم ذكر مكناسة هذه وقال : قال أبو الاصبغ سعيد الخير الاندلسى : مكناسة حصن بالاندلس من عمل لاردة

وعند وفاة المستمين بالله سليمان بن هود ، خرجت فى نصيب ولده يوسف ، ثم استولى عليها أحمد الملقب بالمقتدر .

وقد ذكر لاردة ياقوت الحوى فقال : لاردة بالراء مكسورة ، والدال مهملة : مدينة مشهورة بالأندلس ، شرقى قرطبة ، تتصل أعمالها بأعمال طرّكونه ، منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف ، ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون ، تذكر فى مواضعها وهى بيد الافرنج الآن . ونهرها يقال له سيقر . ينسب إليها جماعة منهم أبو يحيى زكريا ابن يحيى بن سعيد اللاردى ، و يعرف بابن النداف ، وكان إماماً محدثا ، سُمع منه بالأندلس كثير ، ذكره الفرضى ولم يذكر وفاته . اهـ .

و بقيت لاردة فى أيدى العرب من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٩٩ ، إذ استولى عليها لويس الحليم ، ملك فرنسة ، ثم استرجعها المسلمون ، و بقيت فى أيديهم إلى أن سقطت بسقوط سرقسطة ، فى أوائل القرن السادس للهجرة . وكان أول ظهور بنى هود فى لاردة ، فقد غلب عليها سليمان بن محمد بن هود ، وكان من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين وقوع الفتنة الشاملة ، فلما صار الأمر فوضى ، وثب سليمان المذكور على والى لاردة ، أبى المطرف التجيبى ، وقتله واستولى على لاردة ومنتشون ونواحيهما وكان فى سرقسطة أمير من التجيبيين يقال له منذر بن يحيى من قواد الدولة العامرية ، فمات فى أثناء الفتنة ، فورث الامارة ابنه يحيى بن منذر ، وسنه فيما ذكر تسع عشرة سنة . وكانت أمه أخت المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة . فاحتقره بنو عمه ، وتواطأوا على قتله مع كبير منهم اسمه عبد الله بن حكيم ؛ ثم قتلوه وولوا هذا الرجل أمرهم ، ولكنه كان عاهر الفرج ساءت ملكته فيهم فخلعوه ، و بعثوا إلى سليمان بن هود ، وهو بمدينة لاردة ، ليأتى إلى سرقسطة و يلى الأمر ، فجاء ونزل بدار الامارة . وكان استيلاء ابن هود على لاردة سنة إحدى وثلاثين وار بعمائة ، واستيلاؤه على سرقسطة سنة ثمان وثلاثين .

ولما مات سليمان بن هود كان له خمسة أولاد ذكور ، قد قسم عليهم البلاد فى حياته فولى أحمد ، ولده الثانى ، مدينة سرقسطة ، وولى يوسف ولده الأكبر ، مدينة لاردة ، وولى محمداً قلعة أيوب ، وولى ولده لبًّا مدينة وشقة ، وولى المنذر تطيلة .

إلا أن احمد بن سليمان بعد وفاة أبيه صار يحتال على اخوته حتى أخرجهم من ولاياتهم ، ولم يمتنع عليه إلا يوسف أمير لاردة ، وكان هذا يلقب بحسام الدولة ، ولما رأى الاهالى أعمال احمد بن سليمان بن هود باخوته كرهوه ، ومالوا إلى أخيه يوسف وقاموا بدعوته وكان هذا بطلا شهما ، إلا أنه كان سيء البخت ، وكان أخوه أحمد خبيثاً على جانب عظيم من المكر فأرسل إلى الطاغية بن ردمير يستعينه على أخيه ، وكان يوسف قد أرسل إلى بلاد ابن ردمير ميرة كثيرة ، فسرى احمد برجاله من سرقسطة ، وأخذ قوافل أخيه ، وانهزم رجالها ، فأخذهم النصارى أسرى ، ثم جاع أهل تطيلة ، فأرسلوا إلى يوسف يستغيثون به ، فبعث إليهم بارزاق كثيرة ، فخرج احمد وأخذ قوافل أخيه وما فيها من الميرة ، وقتل رجالها ، فلما رأى المسلمون فى الثغر الأعلى ما رأوا من دهاء احمد ابن سليمان بن هود ، ومن سوء بخت أخيه يوسف ، خافوا على أنفسهم من احمد ، فأطاعوه ، ولم يبق فى حوزة يوسف سوى لاردة ، وقد كانت هذه العداوة بين الاخوين هى السبب فى فاجعة بَرْبُشْتَر التى تقدم ذكرها .

وما زالت لاردة تابعة لسَرَقُسْطة إلى أن استولى الاسبانيول على سرقسطة وانطوى بساط الثغر الأعلى .

وممن انتسب إلى لاردة من أهل العلم أبو محمد عبد الله بن هارون الأصبحى ، الفقيه الشاعر ، ترجمه ابن بشكوال وقال : ذكره لى أبو الحسن على بن احمد العائذى وأنشد له أشعاراً أنشده اياها منها :

كم منَ أخٍ قد كنتُ أحسب شهدَهُ حتى بَلَوْتُ المرَّ من أخلاقه
كالملح يُحسبُ سُكّرا فى لونه ومَجَسِّه ، ويحول عند مذاقه

وترجمه أيضاً صاحب بغية الملتمس .

وعبد الملك بن نمير الفارسى ، محدث ، من أهل لاردة ، ذكره أبو سعيد بن يونس . جاء ذكره فى بغية الملتمس . وأبو عبدالعزيز عبدالرؤوف بن عمر بن عبدالعزيز أصله سَرَقُسطى ، توفى بلاردة سنة ٣٠٨ . وعبد العزيز بن عمر بن حبنون ، من أهل مَنْتَشُون ، من عمل لاردة يكنى أبا يونس ، سمع من أبى الوليد الباجى صحيح البخارى بسرقسطة سنة ٤٦٣ ، وولى الأحكام بمنتشون . نقل ذلك ابن الأبار فى التكملة عن أبى داود المقرىء . وأبو محمد عبد الجبار بن مفرّج بن عبد الله الأنصارى من أهل لاردة ، استوطن مرسية ، سمع أبا الأصبغ عبد العزيز بن محمد البلشيدى الأموى ، وكان شيخاً صالحاً ، ولد سنة ٤٨٦ ، وتوفى حول سنة ٥٦٠ ، نقل ذلك ابن الأبار عن ابن عيّاد ، وأبو محمد عبد الجبار بن خلف بن لب اللاردى ، سكن بلنسية ودانية ، وقرأ جميع البخارى فى دانية على الباجى سنة ٤٥٢ ، وسمع من أبى العباس العذرى ، وأبى عمر بن عبد البر ، وغيرهما ، وأجاز له أبو عمر بن الحذّاء ، وسمع منه أبو عبد الله بن خَلَصَة المعافري . وأبو عبد الله محمد بن احمد بن عمّار بن محمد التجيبى ، من أهل لاردة ، قال ابن الأبار إنه رحل إلى بلنسية ، على أثر استرجاعها من الروم ، فى منتصف رجب سنة ٤٩٨ ، فلقى فيها أبا داود المقرىء ، وأخذ عنه القراءات السبع ، ثم انصرف إلى بلده لاردة ، فاقرأ بها القرآن ، وأخذ عنه . ورحل إلى مرسية صدر رجب سنة ٤٩٧ ، وتصدر بجامعها للاقراء ، وأُخذ عنه وسَمِع حينئذ من أبى على الصدفى الحديث ، وانتقل بعد ذلك فى آخر سنة ٥٠٣ إلى أور يوله ، وخطب بجامعها ، وتمادى اقراؤه بها إلى حين وفاته ، فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٥١٩ ، ومولده فى رمضان سنة ٤٧٧ ، فلم يطل عمره . نقل ذلك ابن الأبار من خط زياد بن الصفار ، وهو أحد تلاميذه ، أخذ عنه القراءات والعربية وقرأ عليه كتاب روضة المدارس ، و بهجة المجالس ، من تأليفه . وأبو عبد الله محمد بن يحيي بن سعيد الأنصارى اللاردى ، لقى أبا بكر الجزّار السرقسطى ، وغيره من الأدباء ، قال ابن عيّاد : كان كثير الاختلاف إلى مجلس شيخنا أبى بكر بن نمارة

وكان فكِهَ المجالسة ، ليّن الجانب ، أديباً ظريفاً أنشدنا لأبي بكر الجزار :

عجبتُ لِذِي وجعٍ مؤْلم يَسومُ الطبيبَ ويُكْدِي عَلَيْه
يَضِنُّ عليه بديناره ويَجْعَلُ مُهجته في يَدَيه

وتوفي ببلنسية في جمادى الأولى سنة ٥٥٩ ، وقد نيّف على الثمانين . وأبو الوليد يحيى بن سليمان بن حسين بن يوسف الأنصاري ، قاضي لاردة ، أصله من « شنّية » قرية هناك ، خرج من لاردة سنة ٥٤٥ . وأبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد التجيبي الواعظ ، من أهل لاردة ، لقي أباالقاسم عبد الرحمن بن المشّاط الطليطلي بمالقة سنة ٥٠٠ وكتب من أصله بخطه تأليفه المترجم « بكشف جمل من التعطيل ، فجحج من الأثر والنظر والتنزيل » وهو جواب لرجل ورد من المشرق ، يتكلم في خلق القرآن والنزول إلى السماء الدنيا ، وأمثال ذلك ، ذكره ابن الأبار . ويحيى بن محمد الأموي ، أبو الوليد ، المعروف بابن قبرون من أهل لاردة سكن شاطبة ، وتولى قضاءها ، وانتقل إلى بلنسية ، فشاوره قاضيها . حدث عنه ابن عياد ، وابناه محمد واحمد ، قال ابن الأبار استشهد في وقيمة البُرت سنة ٥٠٨ وأبو عبد الله محمد بن علي اللاردي ، سكن قرطبة كانت له رحلة إلى الشرق حج فيها ، ثم قفل فاقرأ القرآن بمسجد أم هشام بقرطبة . ومحمد بن أسلم اللاردي يروي عن يونس بن عبد الأعلى . وأبو عبد الله مالك بن معروف قيل إنه من ماردة ، وقال الحميدي : الأرجح أنه من لاردة ، يروي عن عبد الملك بن حبيب . مات سنة ٢٦٤ . وغيرهم

وفي لاردة كنائس كثيرة من أشهرها كنيسة سان لورانسو ، بنيت بين سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٣٠٠ ، على انقاض هيكل روماني ، ولما جاء العرب جعلوا من ذلك الهيكل جامعاً ، فلما خرجوا من لاردة ، تحول هذا الجامع إلى كنيسة . ومن لاردة يذهب المسافر إلى بلدة بَلَغِيّ Balaguer والمسافة بينهما ثلاثون كيلومتراً وهي بلدة سكنها العرب ، جاء في معجم البلدان : بلغي بفتح أوله وثانيه ، وعين معجمة ، وياء مشددة ، كذا ذكر أبو بكر بن موسى : بلد بالأندلس من أعمال لاردة ، ذوحصون

عدة ، ينسب اليه جماعة ، منهم أبو محمد عبدالحيد البلغى الأموى،قال أبو طاهرالحافظ (أى السلفى) : قدم البلغى الاسكندرية ، فسألته عن مولده فقال : ولدت سنة ٤٨٧ فى مدينة بَلَغى ، بشرقى الأندلس ثم انتقلت إلى العدوة بعد استيلاء العدو على البلاد فصرت خطيب تلمسان ، وقرأت القرآن ، وسمعت الحديث ، وأعرف بابن بر بطير البلغى . ومحمد بن عيسى بن محمد بن بقاء أبو عبد الله الأنصارى الأندلسى البلغى المقرىء ، أحد حفاظ القرآن المجوّدين ، انتهى باختصار . قلت . أبو عبيد الله محمد بن بقاء هذا رحل حاجاً ، وقدم دمشق ، وأقرأ بها ، وتوفى فيها سنة ٥١٢ ، ذكره ابن عساكر ، مؤرخ دمشق ، الذى ذكر أنه شهد غسله ، وكان فى الصلاةعليه . و ينسب إلى بلغى أبو الحجاج يوسف بن ابراهيم بن عثمان العبدرى ، المعروف بالثغرى ، نزل غرناطة ، وعبد الله بن ابراهيم بن العوام البلغى الاندلسى ، استوطن مصر ، ذكره ابن بشكوال فى الصلة ، وقال ابن الأبار فى كتابه المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى ان والد أبى الحجاج يوسف العبدرى المذكور انتقل من بلغى ، ونزل غرناطة ، ثم انتقل إلى قرطبة ، وان أبا الحجاج ولد بغرناطة ، فى صفر سنة ٥٠٣ ، واستقر أخيراً بقليوشة ، من أعمال مرسية وتوفى هناك سنة ٥٧٩ .

هذا ، ومن حصون لاردة التى كانت معروفة فى زمان العرب ، منت شون ، ذكره معجم البلدان فقال انه بالشين المعجمة ، وآخره نون ، حصن من حصون لاردة بالأندلس قديم ، بينه و بين لاردة عشرة فراسخ وهو حصين جداً تملكه الافرنج سنة ٤٨٢ . انتهى . ومونشون اليوم بلدة صغيرة سكانها أربعة آلاف نسمة ، وفيها كنيسة صان جوان ، وأما الحصن القديم فهو على قمة شاهقه ، وفيها بقايا حصن رومانى على قمة أخرى . وتعريط على مسافة ١٥ كيلو مترا من مونشون .

ومن لاردة تمتد طريق عربات محاذيه لوادى شقر إلى مدينة بَلَغى و إلى بلدة يقال لها ارتيزة Artesa ثم إلى « أولياته » ثم إلى كاستلنو Castellnoi ثم إلى « سولسونة » وعلى مسافة ١٨ كيلو متراً من لاردة ، بالقرب من نهر شيقر ، توجد

صخور عليها تصاوير قديمة ، منها تصاوير حيوانات ، ومنها تصاوير بشرية ، وأما سولسونة فهى قرية معلقة على صخر شاهق مشرف على وادى نيغرو Negro

ومن لاردة طرق إلى جبال البرانس الشرقية ، و إلى وادى اندور [1] حيث

---

(١) فى جمهورية اندور المستقلة البريد والبرق تابعان للبريد والبرق فى فرنسة ، وأما السكة فهى اسبانيولية ، وأما اللغة فهى كتلونية ، ومركز الجمهورية فى قرية جميلة بحذاء جبل . وفيها كنيسة قديمة من القرن الثانى عشر ، وفيها قصر للحكومة يجلس فيه المأمورون ، ويجتمع رجال المجلس وهم أربعة وعشرون عضواً ، ينتخبون لمدة أربع سنوات عن النواحى الست التى تتألف منها الجمهورية ، ولهؤلاء الحق فى الاقامة بالقصر أيام الاجتماع وفى إيواء بغالهم فى اسطبله فهذا القصر دار حكومة ومحكمة وحبس وفندق ومدرسة وخزانة كتب معا وفى القصر خزانة تشتمل على وثائق امتيازات هذه الجمهورية ويقال انه من جملتها وثائق يرجع تاريخها إلى عهد شارلمان ولويس الحليم . وبالقرب من اندور برج عربى قديم اسمه كارول وليس فى أرض اندور طرق عربات لأن الأهالى على جانب عظيم من السذاجة وهم يعتقدون أن الطرق المعبدة تهدد استقلالهم . . . واما جبل مونت سرات أو مونت شرات فمعناه جبل المنشار وقد تقدم ذكره وهو جبل مقدس عند الكتلان وشكله فى منتهى الغرابة لأنه منقطع من جميع الجهات ومشرف على البسائط الواسعة ناتئة منه إلى الامام اسنان كأسنان المشط وعلى شفير الجبل من جهاته الأربع جنادل كبيرة أشبه بالرجال المعممين كان العرب لما ملكوا تلك الاقطار يسمونها بالحرس وقد تمكن الكتلان من بعض جهات الجبل من مد خط حديدى إلى قمته وذلك بعناء شديد ولم يكن ممكنا مدّ هذا الخط إلا من مكان واحد إذ الصعود من الجهات الاخرى غير ممكن إلا بشعاب يسلكها الناس على الاقدام وفى أعلى القمة دير شهير يزوره كل سنة عشرات الالوف من البشر وهذا الدير بنى سنة ٨٨٠ للمسيح وا كثر من يزوره المتزوجون اعتقاداً منهم بأن زيارته تكون سببا للبركة فى الحياة الزوجية . وإلى الشمال الشرقى من جبل المنشار هذا يجرى نهر لوبريقات وله واد عميق فى بطنه قرية يقال لها مونيسترول Monistrol وكل تلك الناحية هى فى غاية الجمال الطبيعى ويوجد على نهر لوبريقات معامل كثيرة تتحرك آلاتها بقوة مياهه المتحدرة

ومما يناسب ذكره هنا المعابر التى بين المنحدرين الجنوبى والشمالى من جبال البرانس

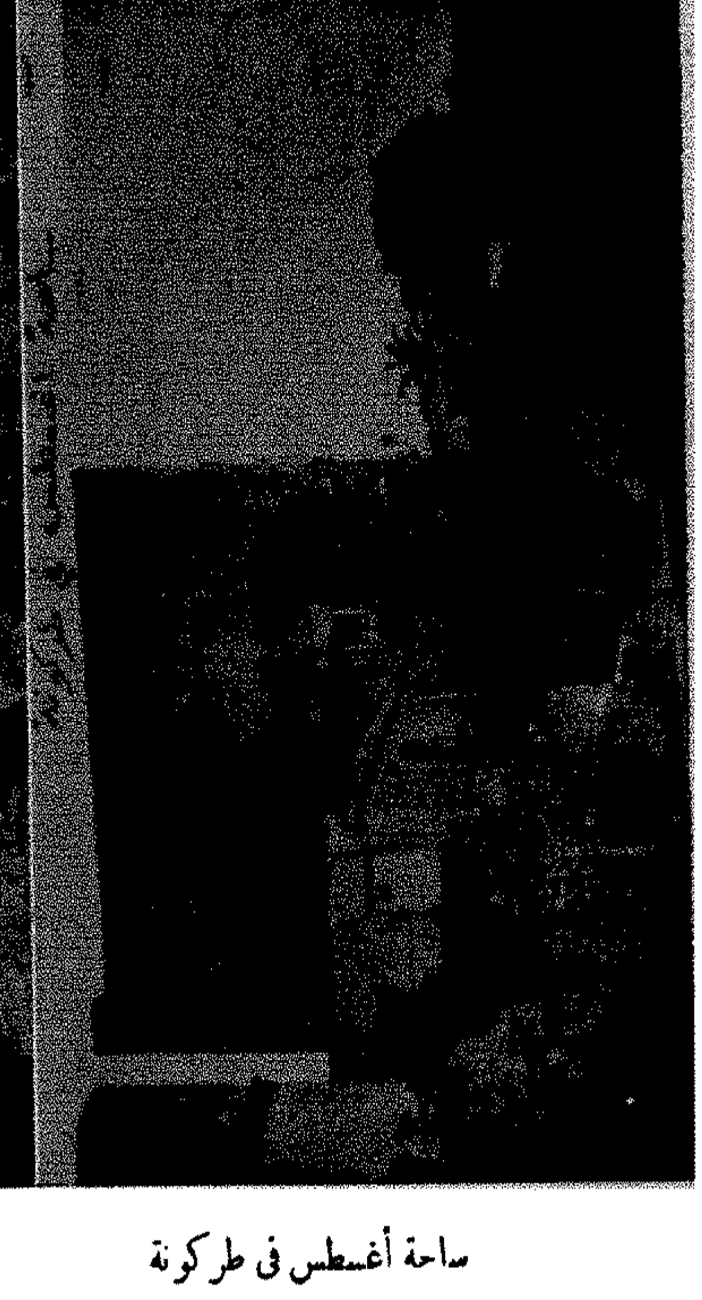
حكومة اندورالمستقلة ، الواقعة بين فرنسةواسبانية ، وهذا الوادى فيهعدة قرى وقاعدة الوادى يقال لها اندورا لافيجا Andorra la Vieja ومساحة هذه البقعة المستقلة ٤٥٢ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ٥٢٥٠ نسمة وحكومتها تقدم كل سنة ٩٦٠ فرنكا لجمهورية فرنسة ، علامة على كونها تحت حماية هذه الدولة ، إلا أنه يشترك مع فرنسة فى حق هذه الحماية مطران أورجل Uergel وهو يأخذ من هذه الجمهورية ٤٦٠ بسيطة اسبانيولية سنويا . وهناك بلدة يقال لها سيو أورجل عدد سكانها ثلاثة آلاف ، فيها مركز أسقفية ، وهى ذات موقع حصين ، وغير بعيد عن أورجل ناحية سردانة Cerdagna ثم بلدة يقال لها بويغسردا Buigcerda

طركونة Tarragona

وأما مدينة طرّكونة فهى مدينة بحرية سكانها لا يزيدون اليوم على ٢٥ الفاً بعد أن كان فيها مليون نسمة فى أيام الرومان وهى مركز اسقفية . ويقال لاسقفها بريماط اسبانية ، كما يقال لأسقف طليطلة . وفى أعلا نقطة من البلدة إلى جهة الشرق ، حيث القلعة القديمة ، مركز الاسقفية وبجانبه الكنيسة الكبرى . والبلدة قسمان : قديم وحديث ، فالقديم هو القسم العالى ، وفيه بقايا كثيرة ، وكتابات من زمن الرومان وأما القسم الحديث ، ذو الشوارع المستقيمة ، فهو الذي يلى البحر .

وأسوار طركونة ماثلة من الجهات الثلاث ، وإنما قد تهدم منها الجانب الغربى ويرجع بناء طركونة إلى زمن الايبيريين ، ويقال إن أول من سكن فيها قبيلة

وهى التى يقال لها البورتات أى الابواب وأشهرها معبر سالدو Saldeu الواقع إلى الشرق والناس تعبره على الخيل مدة خمسة أو ستة أشهر من السنة ، ثم معبر فونتارجنت Fontargente وهو أسهل سلوكا من غيره وبالقرب منه بحيرة لطيفة . ثم معبر سيغوير Siguer وارتفاعه ٢٥٩٥ متر، وهو غير مسلوك مدة ثمانية أشهر من السنة . وإلى الشمال الغربى من البرانس ثلاثة معابر وهى معبر رات Rat وعلوه ألفان وستمائة متر ومعبر أوريسال ومعبر بويه Bouet وارتفاعه ٢٦٦٠ متراً .



ساحة أغسطس فى طركونة

القناة المعلقة فى طركونة

طركونة

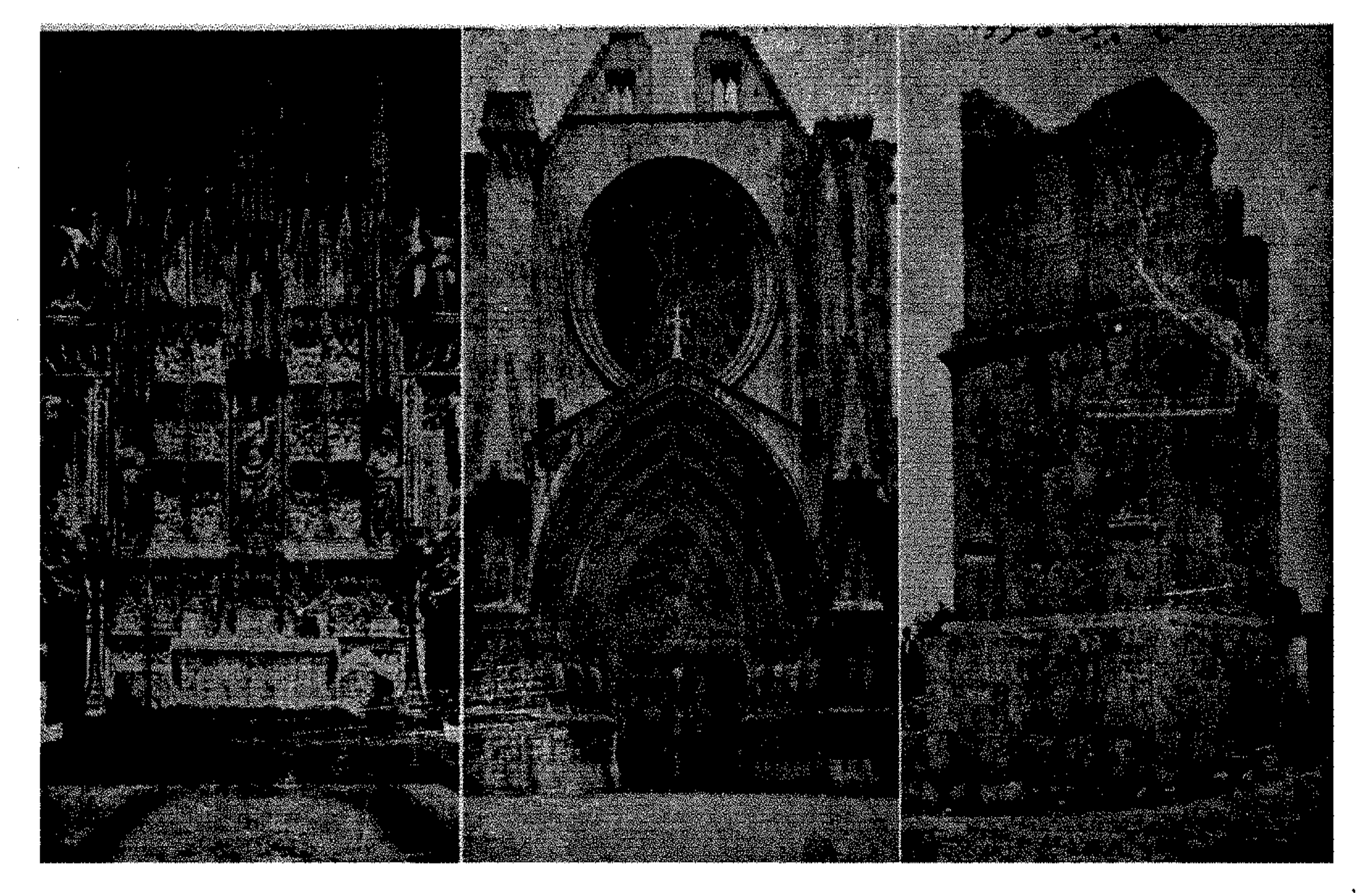
من هؤلاء اسمها السيسيتان Cessétains وقد بقيت لهم مسكوكات ، وهم الذين بنوا أسوار المدينة سنة ٢٦٧ قبل المسيح . ولما وقعت الحرب بين القرطاجنيين جاء القواد الرومانيون سيبيون ورفاقه ، فاستولوا على طركونة ، و بنوا فيها مرسى بحرياً ، وأسواراً منيعة ، وصارت من أعظم مستعمرات الرومان فى أسبانية ، وكان ذلك من بعد سنة ٢١٨ قبل المسيح ، ثم انه فى سنة ٢٦ جاء أغسطس قيصر وسكن بطركونة ، و بنى فيها هيكلا عظيما ، ومبانى فخمة [1] ، وتتابع ولاة الرومان عليها ، وتنافسوا فى الاعتناء بها ، ولا تزال آثارهم تشهد بعظمتها لذلك العهد ، وكان استيلاء القوط عليهاسنة ٤٧٥ للمسيح ، وكان استيلاءالعرب سنة ٧١٣ .ولمااسترجع النصارى هذه البلدة أعادوا إليها مركز الأسقفية ، وذلك سنة ١١١٨ ، إلا أن أهميتها التجارية لم ترجع إليها ، بل تحولت التجارة إلى برشلونة من جهة الشمال ، و إلى بلنسية العربية من جهة الجنوب

وأما مرسى طركونة فى زمن العرب فليس هو مرساها الحالى ، بل كان فى أسفل حارة البحر من طركونة الحديثة . ثم إن الكتلان بنوا ميناء آخر فى أواخر القرن

---

(١) ان جميع مدن أسبانية لم تحفظ من أبنيتها القديمة ما حفظته طركونة والناس يقولون إنه لايقدر على بناء هذه الأبنية المتناهية فى الضخامة سوى الجن فقد يبلغ ثخن الجدار خمسة أو ستة أمتار وإن كثيراً من الحجارة يبلغ من الطول أربعة أمتار فى عرض مترين ففى طركونة يتذكر الانسان قلعة بعلبك وأهرام الجيزة

وقد اعتنى الرومان بتمكين أبنية طركونة إلى هذا الحد ليجعلوها حصنا فى غاية المنعة أمام القرطاجنيين وقد استكمل أغسطس قيصر فى طركونة جميع مايلزم من المبانى والمعاهد اللازمة لعاصمة كبيرة فكان فيها القصور والهياكل والحمامات وملاعب الخيل وملاهى التمثيل والأندية الاجتماعية . وأما فى عهد النصرانية فليس فيها شىء يذكر سوى الكنيسة الجامعة التى فيها قبر جاك الأول الأراغونى الذى فتح بلنسية وهذا القبر قد تقدم كونه نسف فى فتنة ١٨٣٥ كما أنه تهدم أبنية كثيرة فى طركونة عند ما حاصرها الفرنسيس سنة ١٨١١



برج سيبيون فى طركونة

باب كنيسة طركونة

كنيسة طركونة

الخامس عشر ، ، وكان بناؤهم لهذا المرفأ من حجارة الملهى الرومانى . وأشهر شوارع طركونة هما رملة سان جوان ، ورملة سان كارلوس

وأما الكنيسة الكبرى فقد بنيت على أنقاض الهيكل الرومانى ، وأنقاض المسجد الجامع ، الذى كان فى زمان العرب . فما أخرجوا العرب من هناك سنة ١١١٨ حتى حولوا المسجد إلى كنيسة ، وطول هذه البيعة مائة وأربعة أمتار ، ولها برج علوه ٦٥ متراً ، وفيها تصاوير لأشهر المصورين ، وتماثيل لأشهر النحاتين ، وفيها قبر جاك الأول الأراغونى ، الملقب عندهم بالفاتح ، المتوفى سنة ١٢٧٦ وفى طركونة متحف للآثار القديمة ، فيه كثير من النواويس والتماثيل ، وقطع الفسيفساء ، من أيام الرومان وغيرهم وفيه أيضاً أسلحة ، ومسكوكات إيبيرية وفينيقية ورومانية

ومن جملة مبانى طركونة المشهورة القناة الرومانية المعلقة ، أتوا فيها بالماء من وادى غَيَّة Gaya وهذه القناة طبقتان أدناها ذو ١١ قوساً وأعلاها ذو ٢٥ قوساً . وطول الطبقة الأولى ٧٣ متراً ، وطول الطبقة الثانية ٢١٧ متراً ، ومجرُّ المياه من رأس نبعها طوله ٣٥ كيلو متراً

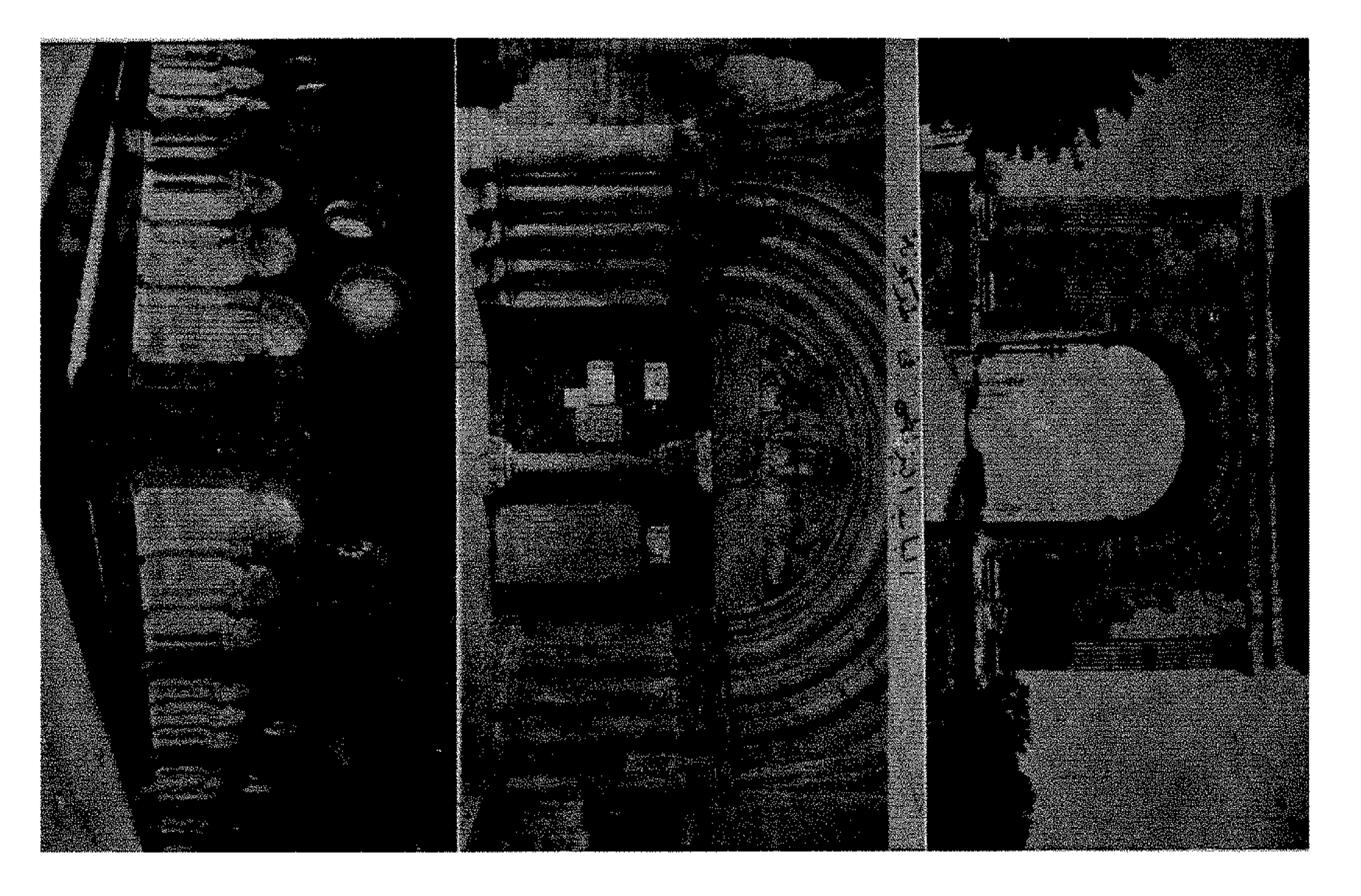
وكان يقال لطركونة فى أيام العرب مدينة اليهود ، لأنهم كانوا كثيرين فيها ، كما كانوا فى غرناطة . وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية أن العرب إنما اجتاحوا طركونة سنة ٧٢٤ ، واستولوا عليها ، و بقيت فى أيديهم إلى آخر الدولة الأموية . فبعد سقوط الخلافة فى قرطبة ، وانقسام العرب إلى ملوك الطوائف ، زحف إليها لويس صاحب أكيطانية ، فاستولى عليها ، فزحف العرب واستردوها منه . ثم أغار عليها رامون بيرانجة Ramon Béranger واستولى عليها ، فجاء العرب واستردوهامنه أيضاً ولم تسقط السقوط النهائى فى أيدى المسيحيين إلا سنة ١١٢٠ . وقدجاء فى الانسيكلو بيدية المذكورة ذكر الكوة الرخامية المكتوب عليها اسم عبد الرحمن الثالث ، وهى التى فى رواق الكنيسة الكبرى ، فانه في هذا الرواق نافذة صغيرة فى حائط عليها تاريخ بالخط الكوفى ، فيه اسم الخليفة الناصر ، والتاريخ هو فى سنة ٣٤٧ . وفى الانسيكلو بيدية الاسلامية يقول انه فى سنة ٣٤٩



مرسى طركونة

وجاء فى معجم البلدان لياقوت : طركونة ، بفتح أوله وثانيه وتشديده ، وضم الكاف ، و بعد الواو الساكنة نون ، بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة ، وهى مدينة قديمة على شاطىء البحر ، منها نهر علّان ، يصب مشرقا إلى نهر ابرُه ، وهو نهر طرطوشة ، وهى بين طرطوشة و برشلونة ، بينها و بين كل واحدة منها خمسة عشر فرسخاً اه .

وحول طركونة سهل أفيح خصيب فيه كروم عنب و زياتين ، وكثير من الجوز واللوز ، يخترقه الخط الحديدى ماراً بقرى وقصاب كثيرة ، من جملتها « رويس » Reus و « سلبه » Selva و « مونت بلانش » Mont - Blanch على وادى « فرنكولى » ، وفيها أسوار وأبراج قديمة ، ومن هناك يذهب الناس لمشاهدة آثار دير يقال له دير « سان بو بله » St. Poblet ، نسبة إلى رجل كان يسمى بو بله ، كان العرب ألقوا إليه مقاليد الناحية المسماة هارديتا Herdeta ، وكان فى ذلك الدير مقبرة لملوك أراغون . وقد تهدم هذا الدير بالفتن التى وقعت بين سنتى ١٨٢٨ و١٨٣٥ وتهدمت القبور أيضاً ، ولكن الآثار لاتزال ماثلة .



قوس بارا فى طركونة

الباب البيزنطى فى طركونة

كنيسة طركونة أيضا

والخط الحديدى الممتد من طركونة إلى لاردة يمشى أولا مع النهر ، ثم يبتعد عنه ، فيخترق شارات برادس ، ولا يزال يصعد من شرقيها إلى أن يبلغ ارتفاعا يزيد على ألف متر ، ثم يعود فينحدر ، فيمر ببلاد منها فينكسا Vinaixa ، وفلورستا Floresta ، و بورجاس Borjas وجُنادة Gineda ، إلى أن يبلغ لاردة ، و بين المدينتين أزيد عن مائة كيلو متر ، وأما الخط الحديدى من طركونة إلى طرطوشة ، فانه يشرف على بسيط طركونة من جهة اليمين ، وعلى البحر من جهة الشمال ، و يشاهد منه رأس سالو Salou . وعند رأس سالو مرفأ يخدم مدينة رو يس ، وهذا المرفأ يبعد عن طركونة ١٣ كيلو متراً ، ثم ان الخط يتقدم صوب طرطوشة ، فى ناحية يكثر فيها الخروب واللوز والنخل ، وعلى مسافة ١٩ كيلو متراً من طركونة بلدة يقال لها كامبر يلس Cambreils ، وعلى مسافة ٣٣ كيلو مترا بلدة هوسبيتالة Hospitalet وكان فيها قديماً منزل للمسافرين . وتلك الناحية كاسية الأرض ، فلا ينبت فيها إلا أشجار نادرة ، وترى الجبال جرداء ، وهى مشرفة على البحر ، وفى بلدة تسمى أميتلّه Ametlle أهلها صيادو سمك ، وعلى ساحل البحر توجد بعض نواعير لسقى الأرض . وعلى مسافة ٧١ كيلو مترا بلدة يقال لها أمبولة Ampolla مشرفة على خليج يقال له خليج سان جورج ، وهذه البلدة ذات موقع بديع ، ومنها ينظر الانسان إلى وادى ابرُه ، وما تفرع منه من الأقنية الكثيرة ، و إلى الشرق من تلك القرية منارة بحرية يقال لها منارة فنغال Fangal و إلى الجنوب الشرقى منارة أخرى على رأس طرطوشة ، تقرب من بلدة صغيرة اسمها امبوسطة Amposta . و إلى الجنوب من امبوسطة توجد قناة إلى مرسى يقال له سان كارلوس الرابطة ، وهناك مصب نهر ابره الكبير ، وهو شطران ، يفصل بينهما جزيرة تسمى بودا Buda وعلى ٨٤ كيلو متراً من طركونة ، على ضفة نهر ابره ، بلدة طرطوشة ، التى سيأتى الكلام عليها .

وأما بين مدينة رو يس و برشلونة ، فالمسافة تزيد على مائة كيلو متر ومدينة روس سكانها ٣٦ ألف نسمة ، وهى بلدة صناعية واقعة فى سفح جبل ، وكان فيها

حصون قديمة تهدمت وصار مكانها الآن حارة جديدة ، وفيها كنيسة سان بدرو ، لها برج ارتفاعه ٦٦ مترا ، وفى هذه البلدة أنشأ بعض تجار الانكليز ، فى أوائل القرن الماضى ، معامل للقطن ، فيها خمسة آلاف نول ، وازدادت الصناعة في هذه المدينة فأحدثت فيها معامل للحرير ، وللجلد ، وللصابون ، وللخمر والمسكرات بأنواعها ، فصارت رويس ثانى مدينة صناعية في كتلونية . وعلى الخط الحديدى بين رويس و برشلونة توجد بلدة صناعية أخرى اسمها فالس Valls سكانها ١٣ ألفاً ، وهى ذات أسوار وأبراج قديمة ، وعلى مقربة من فالس فى وادى غاية Gaya يوجد دير بناه رامون بيرانجه الرابع سنة ١١٥٧ كان يضارع دير بوبلة المتقدم الذكر فى حسن الصنعة الكتلانية ، إلا أن هذا الدير تهدم فى فتنة سنة ١٨٣٥ وفيه قبور ملوك كثيرين منهم بترُه الثالث ، ملك أراغون ، المتوفى سنة ١٢٨٥ ، وجيمس الثانى المتوفى سنة ١٣٢٧ وامرأته الملكة بلانش دانجو Blanche d'Anjou وكذلك هناك قبر روجير لوريا Lauria الذى كان أمير الاسطول لعهد بترُه الثالث . وهو الذى كسر الاسطول الافرنسى فى واقعة نابولى . وقبور رامون وغيلرمو مونكادا Moncada اللذين قتلا فى واقعة استيلاء الاسبانيول على ميورقة سنة ١٢٢٩ عند ما طردوا منها العرب .

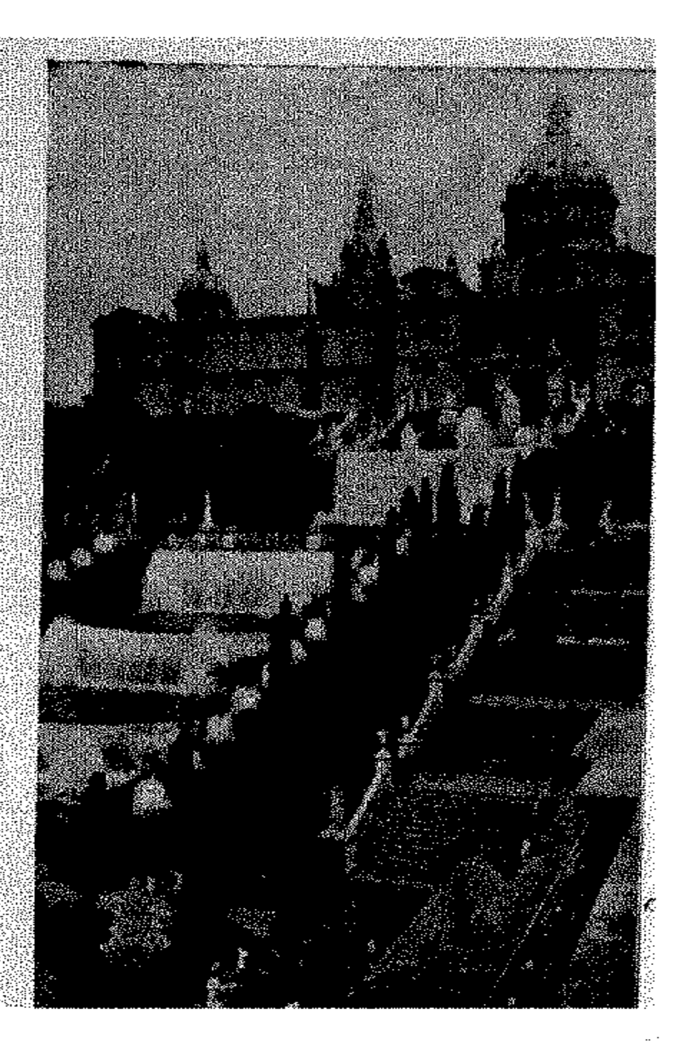
ومن البلاد الواقعة على الخط الحديدى بين رويس و برشلونة : سان فنسنت كالدَرْس Calders . وفيها ملتقى فرعي السكة الحديدية : الذاهب إلى طركونة . والذاهب إلى برشلونة . وهناك باب رومانى عظيم يقال له برطال باره Portal de Bara وقرية يقال لها روضة باره Roda de Bara وكذلك على هذا الخط قصبة اسمها فيلا نوفا كلترى Villa Nieva Geltri وهى بلدة سكانها ١٢ ألفاً ، وفيها تجارة ذات بال ولها متحف يشتمل على آثار قديمة ، مصرية ، ورومانية ، وعلى هذا الخط عند مايحاذى البحر قرية يقال لها سيتخس Sitges وهى قرية لطيفة ، سكانها يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة ، ولها مرفأ على البحر ، وفيها متحف يسمى بمتحف روزينيول ، توجد فيه تحف نفيسة مصنوعة على المعدن .

برشلونة Barcelona

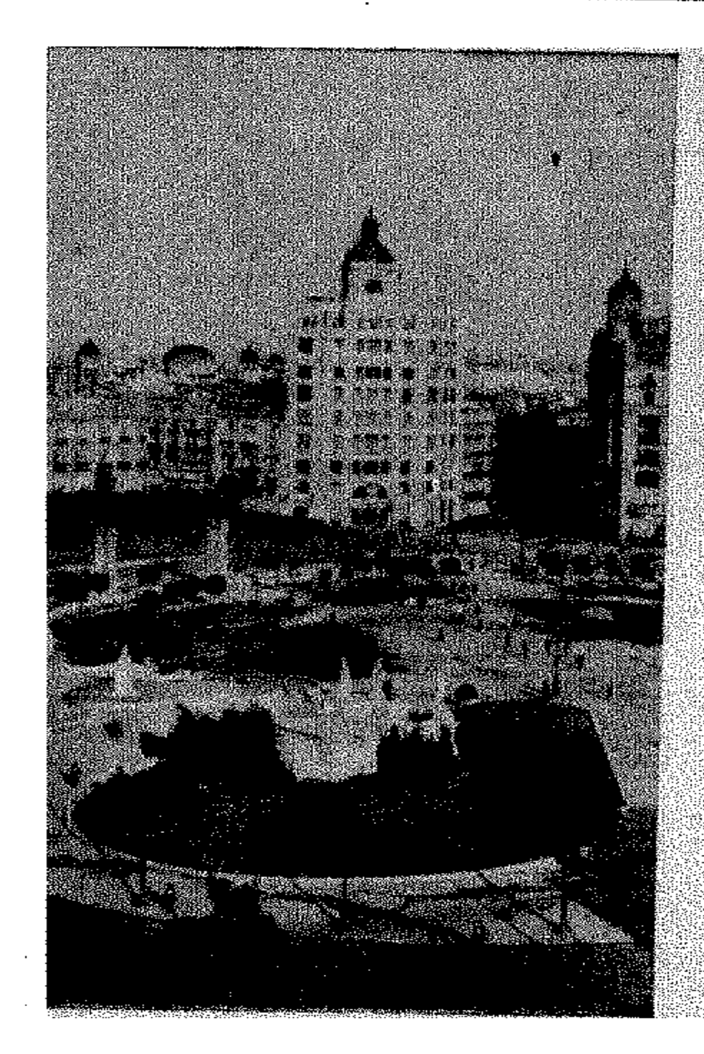
هذه البلدة هى أعظم بلدة تجارية وصناعية فى الجزيرة الأيبيرية ، وعدد سكانها يزيد على سبعمائة ألف نسمة وستين ألفاً . وهى قاعدة بلاد كتلونية ، ولها مقاطعة خاصة بها ، حدودها من الشمال الشرقى مقاطعة جيرندة أو جيرونة ، ومن الغرب مقاطعة لاردة ، ومن الجنوب مقاطعة طركونه ، وفى برشلونة مركز القائد العام والوالى المدنى على جميع كتلونية ، وفيها أيضاً كرسى رئيس أساقفة ، وفيها مدرسة جامعة ، ومن جهة العرض والطول هى فى موقع رومة ، وهى تصعد بتدريج من ساحل البحر إلى مرتفع يقال له تيبيدابو Tibidabo الى الشمال الغربى منها علوه ٥٣٢ متراً ، وهذا المرتفع يتصل بجبال مالاس ، وجبال مونت جويك Montjuich و بين مالاس ومرتفع تيبيدابو وادٍ يقال له بيزوس Besos . و إلى الجنوب من مونتجويك ، يجرى نهر لو بريقات . فيتكون على ضفتيه وادٍ مَريع . كله مزارع ومباقل و بساتين ، تأخذ منه هذه المدينة العظيمة جميع ما يلزم لها من الخضرة والفواكه .

ولبرشلونة أرباض صناعية متعددة ، منها : سَنس Sans ، وغراسية Gracia ، وسان اندرى بالومار Palomar ، وسان مرتين بروفنسال Provensals ، وفى هذه الأرباض معامل القطن الكثيرة ، ومعامل أخرى للآلات الميكانيكية وللكهرباء . والمترفون من أهل برشلونة يختارون السكنى فى ضواحيها . التى أشهرها بونانوفا Bonanova وسان جرفازيو Gervasio .

و إذا نظر الانسان إلى برشلونة يجدها مجموعة من ثلاث مدن : الاولى برشلونة الاصلية وهى التى على سيف البحر . و برشلونة المحدثة فى القرون الوسطى وهى التى تتألف منها المدينة العظمى اليوم . و برشلونة الحديثة . وهى التى أحدثت فى هذا العصر واتصلت بالضواحى والقرى . وقد كان كثير من القرى منفصلا عن المدينة فاتصل بها باشتباك العمارة . وامتداد خطوط العجلات الكهربائية . وقلّ أن يوجد فى أوربة



حديقة مونتجويك ببرشلونة



بناية التليفون ببرشلونة



رملة كتلونية ببرشلونة

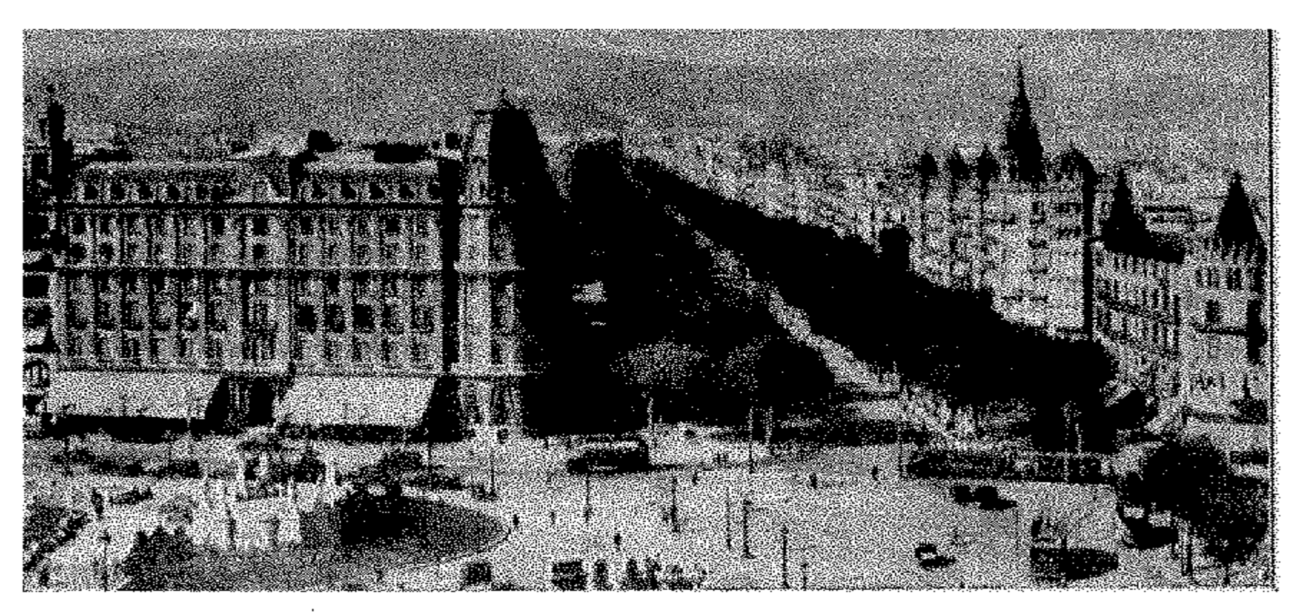
حواضر تفوق برشلونه . فى حسن فنادقها . ونظافة شوارعها . واتقان مبانيها . وقلما انشرح صدرى برؤية ساحة من سوح المدن العظام . كما انشرح عند رؤية الساحة الكبرى . التى يقال لها ساحة كتلونية . تحف بها المقاهى الواسعة التى تموج فيها المئات . وأحياناً الألوف من الخلق . لاسيما فى الليالى . ويبقى الناس فى فصل الصيف جلوساً فى تلك المقاهى إلى ما بعد الساعة الثالثة من الليل . ويقال للشارع فى برشلونة وجميع بلاد كتلونية « رملة » . ويكتبونها هكذا : Rambla وهى لفظة عربية كما ترى .

ورملات برشلونة موصوفة بسعتها وانتظامها ، وكلها تحف بها الظلال ، وتتناسق الأشجار على جانبيها . ولا يوجد شوارع يحلو السير فيها أكثر من شوارع برشلونة . وأينما توجه المسافر يجد مقاعد يستريح عليها تحت ظلال الأشجار الوارفة ، وشمس برشلونة حادة كسائر البلاد الحارة ، فبسبب حدة الشمس يجد السائر من لذة اللياذ بظل الدوح الفينان مالا يجده فى حواضر الأقاليم الباردة . ومما يحلو فى برشلونة للسائح الشرقى ، وللغربى أيضا ، مافيها من شجر النخل ، وأجملها النخيلات التى فى ساحة المرفأ . ويجد المسافر فى برشلونة من أنواع الفواكه مالا يجده فى غيرها ، لأنها تجمع فواكه البلادين الحارة والباردة

ومن أعظم مبانى هذه الحاضرة كنيستها الكبرى ، وقد بنيت مكان المسجد الجامع . وهذا المسجد بنى على آثار هيكل رومانى قديم . وقد بدأ الكتلان ببناء هذه البيعة سنة ١٢٩٨ ، ويقال إن فيها عظام القديسة «أولاليه» مدفونة تحت المذبح الأعظم ، تتقد فوق قبرها الشموع ليلا ونهاراً . وهذه القديسة هى شفيعة برشلونة ، ولها عندهم مزيد الحرمة [١] . وبجانب الكنيسة دير مبنى منذ القرن الخامس عشر .

---

(١) لقد ظهر فى الحرب الاهلية ، التى اشتعلت فى هذه المدة الاخيرة فى اسبانية ، وبدأت فى ١٧ يوليو من هذه السنة . أن برشلونة أكثر مدن اسبانية عداوة للكثلكة فان العامة ثارت على رجال الكنيسة ، وقتلوا كل من وقع فى أيديهم منهم ، وهدموا



شارع غراسيا ببرشلونة

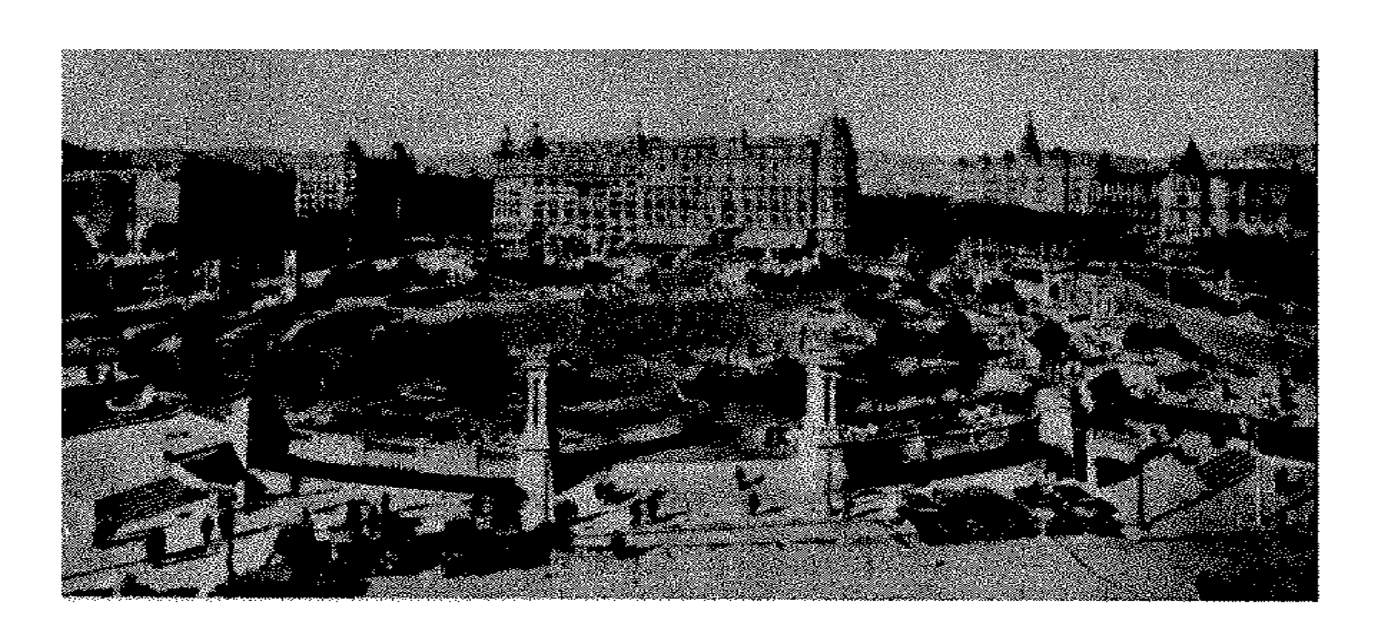


ساحة ماسيا ببرشلونة

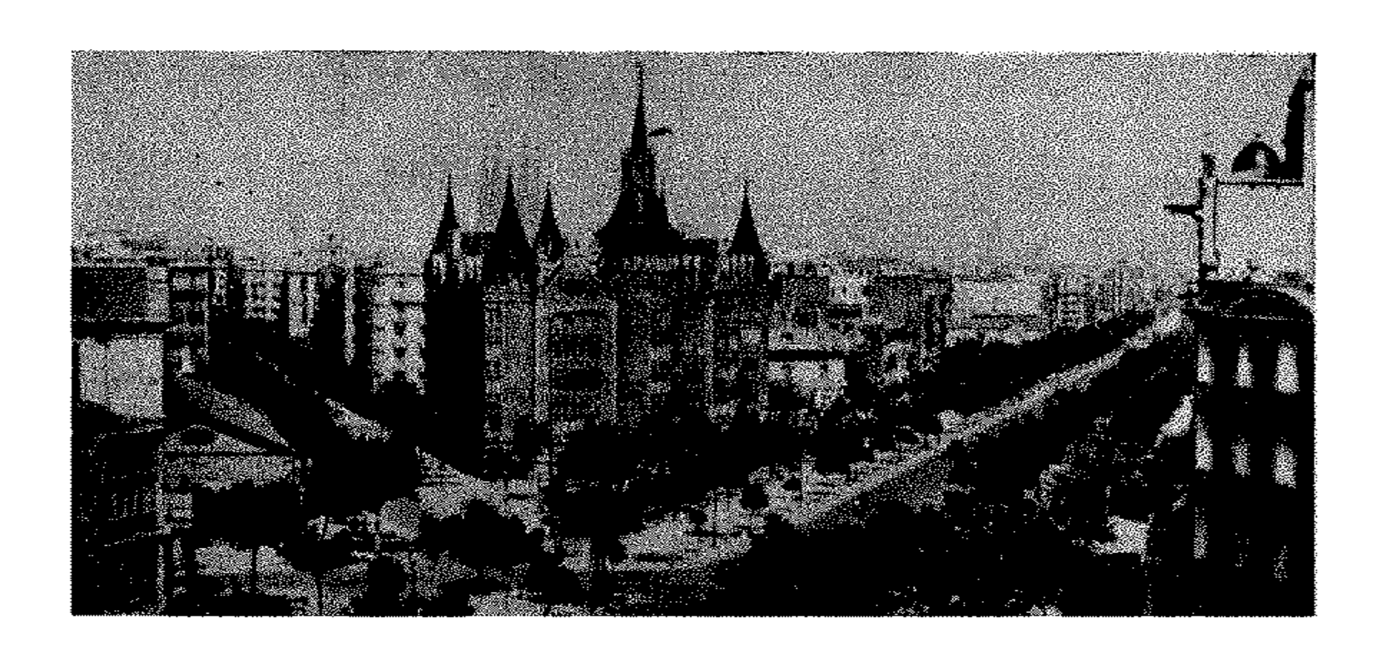
وتحيط بالكنيسة أبنية عمومية ، منها خزانة أوراق مملكة أراغون ، تشمل على أربعة ملايين قطعة من الوثائق التى أنجتها الأقدار من عوادى الحروب والفتن . وفى برشلونة خزانة أخرى لهذه البقايا القديمة ، فى متحف خاص ، جعلوه فى كنيسة سانتا أغيدا Agueda . وفى الساحة المسماة بالساحة الملوكية قصر اقماط برشلونة ، الذين فى الأصل كانوا عمالا للأمبراطور شارلمان وأولاده على برشلونة ، ثم استقلوا عنهم ، ولبثوا أكثر من قرن ونصف قرن أمراء على كتلونية ، لا يخضعون لأحد إلا الخلفاء قرطبة ، بالصورة الظاهرة ، إذا خافوا عاديتهم . وقد تقدم لنا ذكر اتحاد مملكتى كتلونية وأراغون ، بواسطة رامون بيرانجة الرابع الذى تزوج بوارثة ملك أراغون ، وصير المملكتين مملكة واحدة ، فجنَتْ من هذا الاتحاد سيادة عظيمة ، لا سيا فى البحر . وفى برشلونة أبنية كثيرة موصوفة بالزخرف ، مثل كنيسة سانتا ماريه دلبينو Delpeno ، وكنيسة سانتاحنه ، التى هى من القرن الثانى عشر ، وغيرهما . وفيها بناية عظيمة للبورسة أو أو المصفق . وأما المرفأ فأول سد بُنى فيه لمصادمة الأمواج تاريخه سنة ١٤٧٤ ، وهو فى غاية السعة لا تقل مساحتهُ عن ١٢٤ هكتاراً . وعدد البواخر التى تزور هذا المرفأ فى دور السنة يزيد على أربعة آلاف وخمسمائة باخرة ، والوارد من المواد الأولية على برشلونة هو الحنطة ، والشعير ، والذرة ، والأرز ، والحديد ، والقطن ، والقهوة ، والبترول ، وغيرها . وبين برشلونة وسائر مراسى أسبانية حركة تجارية عظيمة ، ولهذا كانت لها منزلة عليا فى درجة الملاحة ، وقد عدّلوا سنة ١٩٢١ محمول سفن التجارة الأسبانية بما يقارب مليونا ومائتى ألف طن

وأهم ما تمتاز به برشلونة من العوامل الاقتصادية هو معامل القطن التى يشتغل

جميع الكنائس والاديار بدون استثناء ، ليس فى برشلونة فحسب ، بل فى جميع مقاطعة كتلونية ، ولم يعفوا إلا عن كنيسة برشلونه الكبرى ، ضناً بنفائس صنعتها ، وبعض كنائس نادرة أخرى . ولقد وقع من هدم الكنائس والاديار فى كل اسبانية مالايقع تحت حصر ، إلا أن كتلونية امتازت بذلك على غيرها .



ساحة كتلونية ببرشلونة



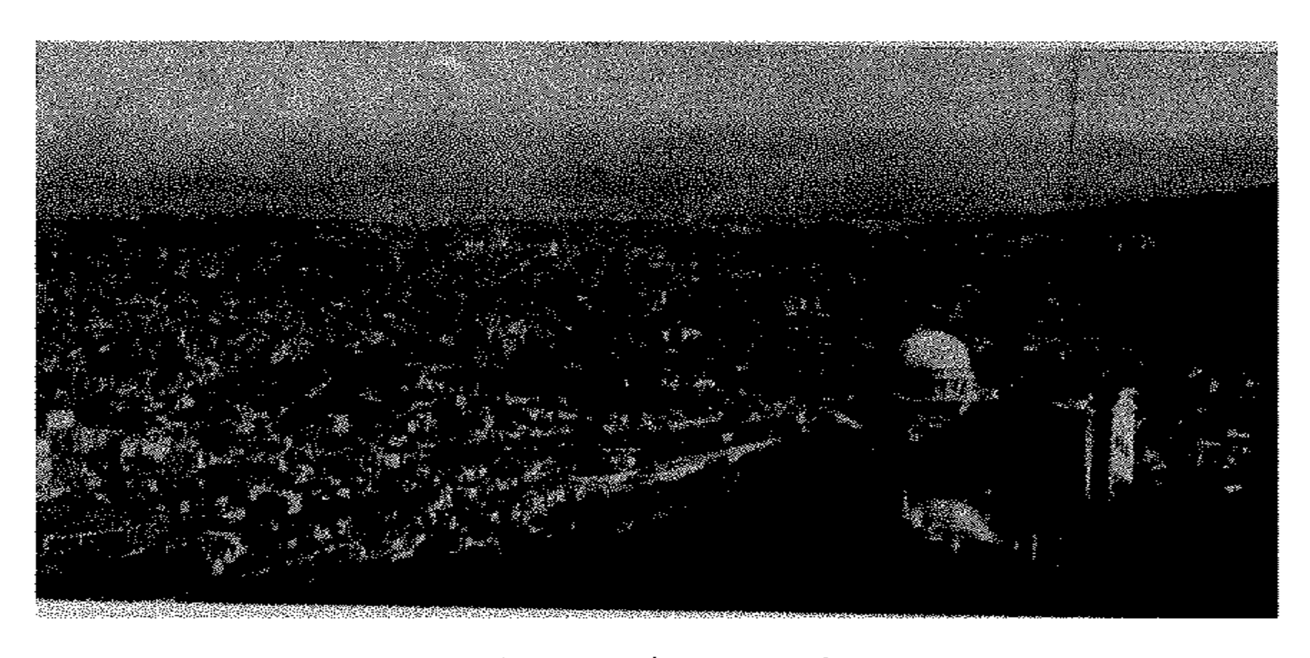
شارع ابريل ببرشلونة

بها مائة ألف عامل ، و يأتى بعد القطن صناعة الصوف ، التى أكثرها فى سابادل Sabadel وتاراسّا Tarrassa · وفى الدرجة الثالثة صناعة الحرير التى حفظت شيئا من ازدهارها الذى كانت قد بلغته فى أيام العرب

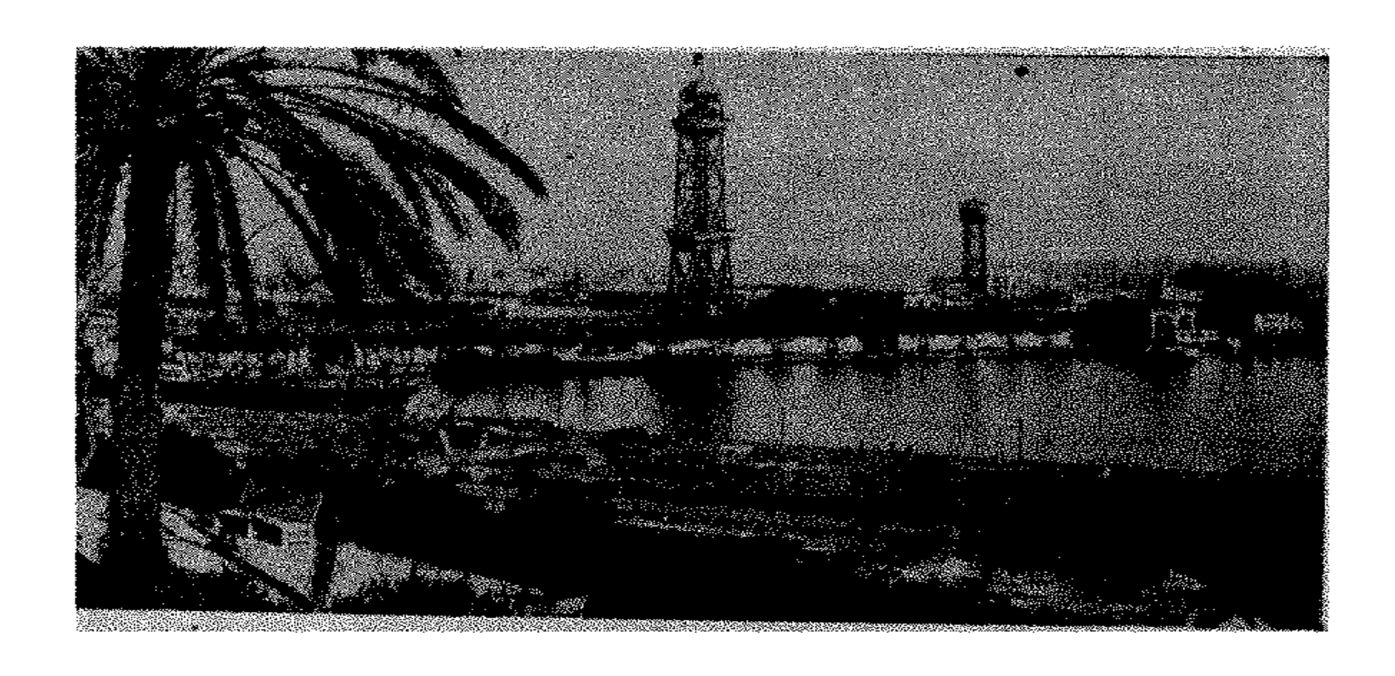
وفى برشلونة حديقة كبيرة من أبهى حدائق أوربا ، تبلغ مساحتها ٣٠ هكتاراً ، و بالقرب منها متحف عظيم فيه نماذج خاصة بالتاريخ الطبيعى ،ومتحف آخر بجانبه ، بناهما تاجر كبير اسمه « مارتوريل بينيه » Mertorell Piena و بازاء المتحف الطبيعى تمثال للشاعر الكتلانى المشهور آريبو Aribau . وهناك شلال صناعى يتصبب فى مغارة محدثة . و بالقرب منها تمثال آخر للكاتب الكتلانى فيلانوفا ، و يوجد متحف للعاديّات القديمة ، فيه خزانة كتب نفيسة ، ووثائق تاريخية ، ومصنوعات من قبل التاريخ ، فضلا عما بعده ، من أنواع الخرف ، والنسيج ، والزجاج ، والسلاح ، والمسكوكات ، وغيرها . وفى برشلونة متحف للصنائع النفيسة والتصاوير . ومن المبانى الفخمة المعدودة قصر العدلية ، إنشاؤه سنة ١٩٠٣ . ومن الكنائس القديمة كنيسة سان بترُه ، فى القسم القديم من البلدة ، تاريخ بنائها سنة ٩٤٥ . ومن التماثيل الشهيرة فى برشلونة تمثال كريستوف كولمبس ، وعلوه ستون متراً ، وقد أنشأوه فى أواخر القرن الماضى ، وهو فى فم شارع الرملة الشهير ، الذى طوله ١١٨٠ متراً

وضواحي برشلونة مثل «مونت جويك» و«ڤال فيدريروه» و « تيبيدادو » هى من أجمل مايوجد للنزهة ، ولا سيما تيبيدادو ، وقمة هذا الجبل علوها ٥٣٢ متراً ، ومنها يشرف الرائى على البلدة كلها ، وعلى جميع ضواحيها ، و يشاهد جبال البرانس ومونت شرّات ، من جهة البر ، وقنن جبال ميورقة ، من جهة البحر . و يقال إن اسم برشلونة أو برسلونة مشتق من اسم « ما ميلكار بارسا » القائد القرطاجنى ، وقيل فى الاسم خلاف ذلك . وقد أعطى أغسطس قيصر هذه البلدة لقب « مستعمرة رومانية» وقيل لها « جوليافافنتيا » Julia Faventia

وفى القرن الثانى قبل المسيح صارت برشلونة تناظر طرّكونة فى العظمة ، وكان



منظر عموى لمدينة برشلونة

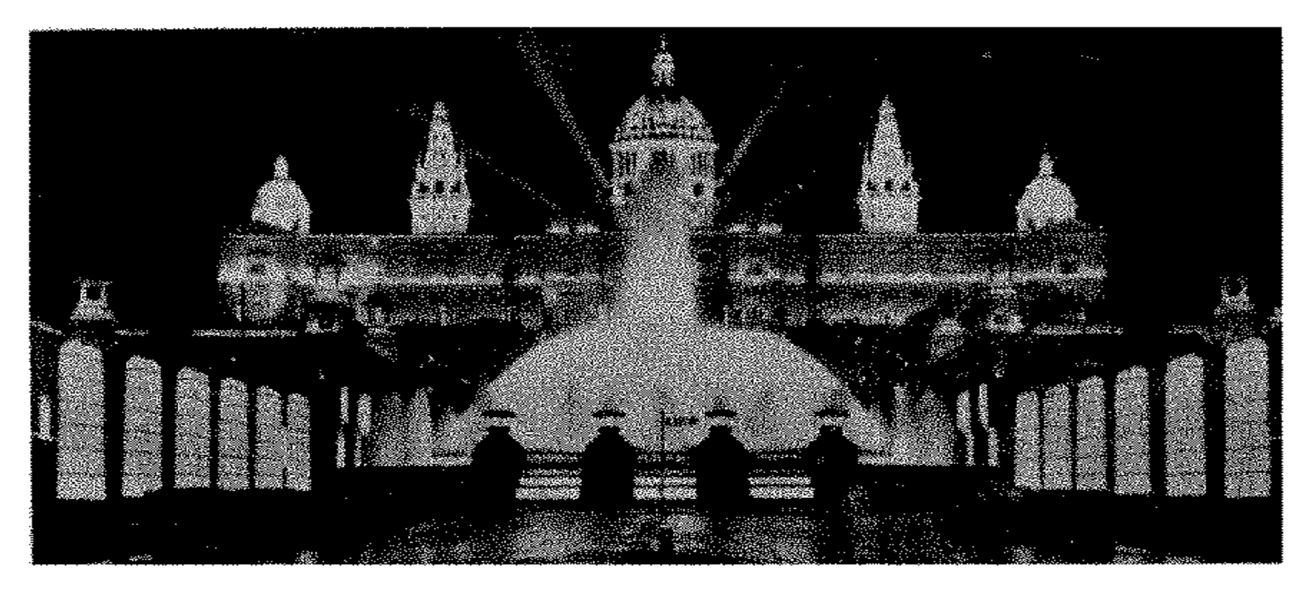


مرسى ميرامار ببرشلونة

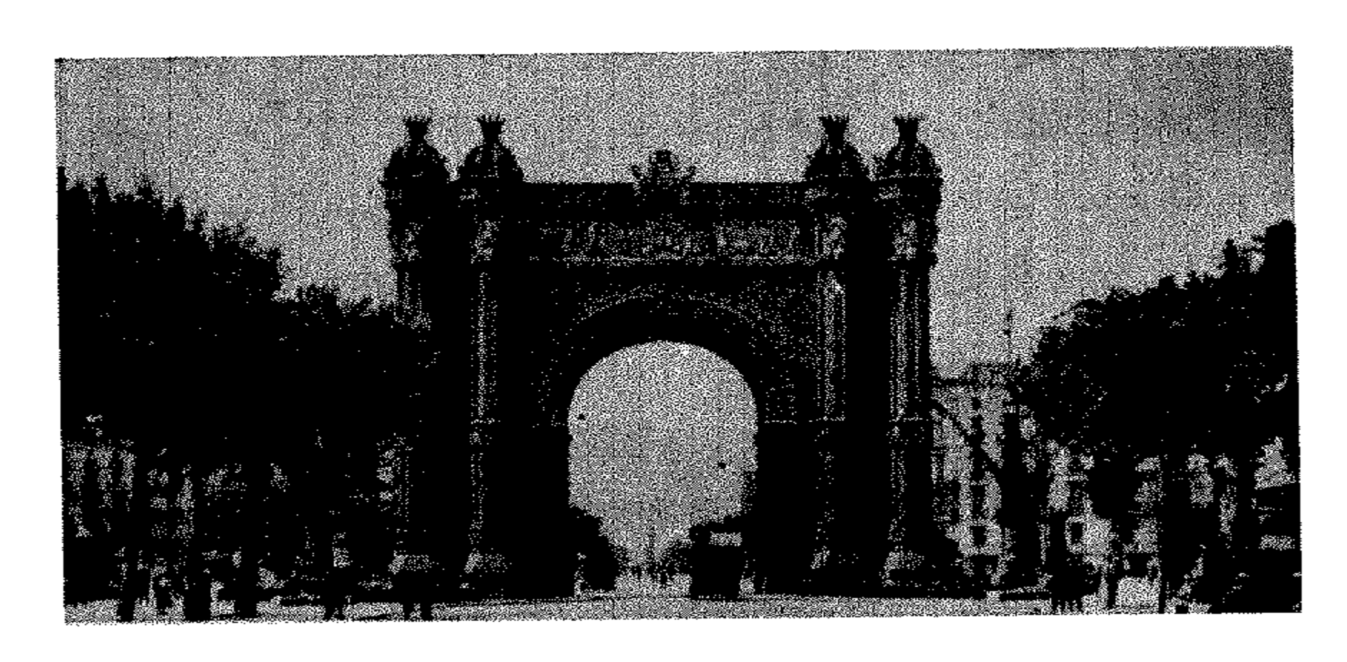
بناء المدينة القديمة على القمة التي فيها اليوم الكنيسة الكبرى . و يوجد من آثار سورها وأبوابها بين الكنيسة المذكورة وساحة « انجل » وساحة « ريغومير » وشارع « آفينو » وكان استيلاء القوط عليها فى أوائل القرن الخامس للمسيح . واستولى عليها العرب سنة ٧١٣ . ثم استرجعها لويس الحليم ملك فرنسة سنة ٨٠١ ومع انها كانت فى زمن العرب مدينة عظيمة فلم أعثر إلى الآن على أسماء علماء ينتسبون إليها . مع اننا عثرنا على أسماء رجال من أهل العلم ينتسبون إلى مدن وقصاب . بل إلى قرى ليست شيئاً بالنسبة إلى برشلونة . أما فى دور الكتلان فقد نبغ فيها مشاهير في كل فن .

جيرونة أو جيرُوندة Gérona

هذه هى مركز إحدى المقاطعات الأربع ، وهى اليوم مدينة صغيرة ، سكانها بضعة عشر ألف نسمة ، ولها تاريخ قديم ، وفيها أبراج قديمة ، عند ما شاهدناها تذكرنا المدن العربية . وكان العرب قد استولوا عليها سنة ٧١٣ ، وكان يقال لها يومئذ جيرُنده ، فسماها العرب بهذا الاسم . وما قيل لها جيرونة إلا فيما بعد . وفى سنة



حديقة مونتجويك ببرشلونة



قوس النصر ببرشلونة



جبل قريب من برشلونة

٧٨٥ ، أي بعد أن بقيت في أيدى العرب اثنتين وثمانين سنة ، جاءت جيوش شارلمان واستولت عليها ، ولكن لم تبق فى يد الافرنج أكثر من عشر سنوات . إذ عاد العرب واستولوا عليها وعمروها ، و إلى الآن يوجد عرب أصلهم من أهل جيرندة · وفي فاس، حاضرة المغرب ، عائلة يقال لها بنو الجيرُندى . وقد رجعت جيرندة إلى السكتلان . بعد أن استولى عليها الفرنسيس . وكان يقال لقمط برشلونة برنس جيرندة ، نظراً لأهميتها ، وطالما ذكرت فى مغازى العرب . واشهر ما اشتهرت به المقاومة الشديدة التى أبدتها فى وجه الفرنسيس سنة ١٨٠٩ ، فان حامية قليلة المدد ، تطوع لمساعدتها بعض الانجليز ، صدّت جيشاً افرنسيا عدده ٣٥ ألفاً ، مدة سبعة أشهر ، ولم يتمكن الفرنسيس منها إلا بنفاد الذخيرة والميرة . وكان قائد الحامية « مريانو كسترو » قد مرض من شدة الاعياء ومات . وقد بلغت خسائر الفرنسيس على جيرُندة خمسة عشر ألف جندي .

وموقع جيرندة بديع ، يمر بها نهر يقال له « أونيار » Onar . وهذا النهر يجرى إلى نهر آخر اسمه « تر » Ter ومن جيرُندة إلى بار بينيان ، التى هى من ضمن فرنسة نحو من ٦٨ كيلو متراً . والحد الفاصل بين فرنسة واسبانية هو على ٤١ كيلو مترا إلى الجنوب من بار بينيان و يقال له عنق بليوشتر Belluistres وأول بلدة تستقبلك من اسبانية إذا جئتها من فرنسة تسمى بورت بو Port - Bou وهى مرسى على البحر . أهلها ثلاثة آلاف نسمة . والخط الحديدى يخترق هنالك عدة انفاق . وكلما أفاض القطار من نفق انفتح أمامه ، بين الجبل من جهة والبحر من جهة أخرى ، مناظر تبقى صورتها فى الخاطر . ثم ان الشرقى يتذكر هنالك أنه صار إلى بلاد الشرق . فانه يرى النواعير الدائرة على الحيوانات ، و يشاهد الأشجار والنباتات التى يعهدها فى بلاد الشرق . ومن « بورت بو » يتقدم الخط الحديدى إلى « لانسة » Llansa ، ثم يمر بحصن « كاراما نسو » Caramanso ثم بعبر « بُرتس » Portus الذى يقال إن أنيبال عبر منه فى زحفه إلى رومة سنة ٢١٨ قبل المسيح . ثم يدخل الخط الحديدى فى سهل « امبوردان »

الخصيب و يقطع وادى البريقات الأصفر . ووادى « موقة » Mugo ووادى « مانول » . ووادى « فلوڤية » . ثم يصل إلى بلدة « فيغراس » Figueras . وهى قاعدة ناحية امبوردان . وفيها حصن يقال له « سان فرنندو » ولهذه البلدة مرسى على البحر يقال له « روزاس » Rosas وهذه الناحية عمرها اليونان في القديم ، وفيها من بقاياهم وآثارهم الشيء الكثير .

ثم من امبوردان إلى جيرندة يمر القطار فى بلدة « فيلامَلاّ » Vilamalla وفيها برج قديم . و بعدها يمر ببلدة كامالّيرا Camallera وهناك يقطع الخط نهر تير . ويمر ببلدة « سارّية » Sarria حتى يصل إلى جيرندة . وفى جيرندة كنائس عظيمة كما فى سائر مدن اسبانية ، والكنيسة الجامعة مبنية فى مكان المسجد الجامع الذى كان فى الأصل كنيسة . فلما أجلوا العرب عن جيرندة سنة ١٠٣٨ أعادوا الجامع كنيسة ولكنهم لبثوا يبنون ، يزيدون و يزينون فيها مدة قرون متطاولة . وعدا هذه الكنيسة يوجد بيعة أخرى قديمة من القرن الرابع عشر يقال لها « سان فليو » Feleu وكنيسة غيرها اسمها « سان بتروه غليكان » Galligans لها دير فيه متحف يشتمل على بقايا فينيقية و يونانية ، و بين سان فليو وسان بتروه يوجد دير للكبوشيين فيه مسجد عربى قديم مثمن الشكل . وعلى مسافة ٥٠ كيلو متراً من جيرندة ، توجد بلدة يقال لها « اولوت » Olot و بلدة أخرى يقال لها « كستلفوليت » Castellfullit وهما مركز ناحية كلها براكين نيرانية منطفئة ، واقعة بين نهرى تر ، وفلوڤية . والذى يرجحه علماء الجيولوجية ان هذه الأطائم [1] قد انطفأت من عهد متوغل في القدم ، غير انه لايزال فى تلك الأرض انبعاث روائح بركانية . وفى القرن الخامس عشر حصلت اضطرابات فى تلك الارض كما انه فى ٦ مايو سنة ١٩٠٢ حصلت رجفة قوية فى بلدة أولوت ، فى الوقت الذى حصل مثلها فى مدينة مُرسية .

(١) جمع أطيمة وهى فى اللغة موقد النار و بعض الناس يظنون أن البركان الذى فى صقلية واسمه « اتنة » Etna هو محرف عن أطيمة أو عن حطمة وهى الشديدة النيران وذلك لأنّ العرب سكنوا صقلية ثلاثة إلى أربعة قرون وتركوا فيها ألفاظاً كثيرة .

و يوجد فوهات يقال لها هناك بوفادورس Bufadors يضطر الأهالى إلى سدها ، لأنه فى فصل الصيف يخرج منها ريح بارد جاف مستكره جداً . ولما جرت زلزلة أولوت سنة ١٩٠٢ وجدت الفوهة التى فى « غار ينادا » بقرب أولوت مفتوحة ، لأن الحركة الداخلية كانت شديدة بحيث انها أسقطت تلك السدود . و يقال انه فى مقاطعة جيرندة مساحة الأراضى البركانية ١٩٦٨٦٠ كيلو مترا مربعاً ، وهناك عدة فوهات بركانية معروفة بأسمائها ، و بعض البراكين ، مثل بركان غار ينادا ، له وحده ثلاث فوّهات ، كما أن بركان «بيزاروكاس» Bisarocas له فوهتان ، و بركان «ادرى» Adri له أربع فوهات

ومما يذكر من آثار هذه البراكين التى فى أرض جيرنده أن رماد بعضها يمتد على مسافة ١٥ كيلو متراً من الفوهة التى قذفت به . وتكثر في تلك الأرض المياه المعدنية ، فتجد حمامات كثيرة ، منها حمام « فارنِس » Farnes ومنها «بانيولاس» Banyolas وماؤه بارد ، وبالقرب منه بحيرة لطيفة ، فتقصد الناس إليه فى أيام الصيف . وهذه البحيرة طولها ألفا متر ، وعرضها ستمائة ، وعمقها قد يبلغ ٥٣ متراً

ومن المدن المعروفة فى تلك المقاطعة مدينة « ڤيك » Vich وهى بلدة قديمة ، فيها متحف أثرى يستحق النظر . ثم مدينة « ريبول » Ripoll وهى بحذاء الجبال فى أعلى وادى « تر » ، كان فيها قديماً مراكز رهبانية عظيمة ، ولذلك تجد فيها آثار الأديار الكثيرة التى أخنت عليها الحروب

وأبدع شىء فى كتلونية هو الساحل ، فانه عليه قرى زاهية ، لها محارث وزرائع متقنة ، و بعضها مساكن لصيادى السمك ، وعلى سيف البحر تكثر الأبراج ، التى كانت فى القديم محارس يتقون بها غارات أهل أفريقية فمن هذه القرى الساحلية « بادالونة » Badalona وهى بلدة رومانية قديمة . و «أوكاتا » Ocata وفيها برجان قديمان، و«مطارو» Mataro وهى بلدة صناعية فيها ميناء معمور ، وكالديتاس Caldetas وفيها حمامات سخنه وآرنيس البحر Arenis ، ولها موقع بديع ، وكانيت البحر Canet

وهى بلدة صغيرة ، ذات صناعة ، وزراعة، وملاحة ، وصيد سمك ، وسان فليو Feleu ولها مرسى ، وتحيط بها بساتين البرتقال ، وفيها كثير من شجر البلوط . وبالاموس Palamos ولها فرضة بحرية لطيفة ، إلا أنها مفتوحة كثيراً للريح الشرقية . وأما روزاس Rosas ، وقد تقدم ذكرها ، فهى مرسى عظيم مستدير ، ترفأ إليه أكبر السفن ، إلاأنه مفتوح للرياح الشرقيةوالجنوبيةوهذه البلدة قد ورثت مرسى أمبورياس الذى كان فى الأعصر الغابرة أعظم مرسى فى شرقى الجزيرة الايبيرية ، ومنه أبحر أنيبال القرطاجنى إلى إيطالية غازيا ، وكذلك أبحر سيبيون الرومانى قاصداً إلى أفريقية وكانت لأمبورياس أسوار هائلة ، تداعت كلها ، ولم يبق هناك إلا قرية حقيرة . ثم «سربيره» Cerbera ، وبنيولس Banyuls، و«بورفندر» Port - Vendres و « كوليارا » ، وكلها محاطة بالزياتين

تابع للوثائق التاريخية

التى تقدم لنا نقلها فى أثناء البحث عن مملكة كتلونية

سبق لنا نشر عدة مراسلات سلطانية من ملوك بنى الأحمر أصحاب غرناطة ، إلى ملوك أراغون وكتلونية ، وقد أخذنا هذه الكتب السلطانية عن مجموعة وثائق تقدمت هدية من بعض الهيئات الرسمية ببرشلونة عام ١٩٢٩ ، إلى الشهم الهمام ، فقيد المغرب الحاج عبد السلام بنونة ، تغمده الله برحمته ، فلما علم أخوه الفاضل الحاج محمد العربى بنونة ، حفظه الله ، اشتغالنا بهذا الكتاب فى أخبار الأندلس ، استنسخ لنا من هذه المجموعة عدة كتب ، وأهدانا إياها ، وكتب إلينا فى هذا الصدد مايلى :

هذه مجموعة محتوية على تسمين ورقة فوتوغرافية سلبية ، بعضها فيه معاهدات وبعضها فيه صور الكتابة التى على ظروفها ، وبعضها فيه رسائل دارت بين ملوك بنى الأحمر وملوك أراغون ، والبعض الآخر بين هؤلاء وبين بنى مرين ملوك المغرب [١]

(١) لا عجب من وجود هذه الكتب الصادرة من سلاطين غرناطة إلى ملوك

وقد أكلت أصلها الأرَضة ، إلى درجة يصعب معها استخراج كل ما فيها من الكتابات ، وأنا لما كنت ألقى عليها نظرة سطحية ، كان يتراءى لى سهولة نسخها ، ولكن عند ما جئت أنفذ الفكرة ، وجدت الأمر غير ما ظننته ، و بالرغم من ذلك فقد أمكننا استنساخ بعضها ، ومازلت أقلبها علىّ أستطيع استخراج غير الصور الواصلة ولاسيا من القسم الخاص بالأندلس ، لما فيه من المعاهدات ، وأسماء السفراء ، وتسوية الحدود ، وغير ذلك مما له فائدة تاريخية .

أما قسم المغرب ، وهو أكثر المجموعة ، فغالبه رسائل ودادية ، لاتخرج عن كونها تنبئنا بأن العلاقات بين ملوك أراغون وملوك بنى مرين كانت حسنة (إلى أن قال) : ولم يقدموا المجموعة للمرحوم أخى كاملة ، لأن أرقامها غير مرتبة . ولست أدرى هل ذلك مقصود منهم ، أم من باب المصادفة ؟ أقول هذا لأنى أذكر أننى رأيت عدة ظهائر موجودة بهذه المجموعة عند المرحوم محمد بن الحسن ساسى ، أحد الغواة بجمع الآثار بمدينة سلا ، وأذكر انها كانت واضحة الكتابة أكثر من هذه ، و بها تعديد مثالب بعض الأمراء الاسبانيين رأيتها سنة ١٣٤٨ ، فى آخر مرة زرت فيها المنطقة السلطانية ، أى قبل صدور الظهير البربرى الذى منع دخولنا إلى تلك المنطقة ثم توفى ساسى إلي رحمة الله ، ولست أدرى ماصنع الله بمجموعته » اه .

* * *

كتاب من الأمير عبد الله محمد بن الأحمر ، إلى سلطان أراغون ، كُند برجلونة:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

ليعلم كل من يقف على هذا الكتاب ، أنا الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين

أراغون أقماط برشلونة ، وذلك فى مجموعة وجدت فى إحدى خزائن الكتب فى برشلونة كما انه لاعجب أيضا من اشتمال هذه المجموعة على كتب صادرة عن سلاطين أراغون الى سلاطين المغرب ، فقد كان بين الفريقين من علاقات الجوار ما يقتضى استمرار المراسلات .

أبى عبد الله بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، وما إليها ، وأمير المسلمين . ننعّم[1] لكم أيها السلطان المعظم ، دون جايّم ، ملك أراغون و بلنسية ، ومرسية ، و كند[2] بُرْجَلُونة ، بأن نكون لكم صاحباً وفياً ، ويكون بيننا و بينكم صلح ثابت ، وصحبة صادقة يكون فيها أصحابكم أصحابنا ، وأعداؤكم ، أهل قشتالة ، أعداءنا ، ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وأرضكم ، من بلادنا وأرضنا ، ولا نجعل سبيلا لأحد من ناسنا ، لا فى البر ولا فى البحر عليكم ، وان اتفق أن صدر لأحد أو لموضع من ناسكم و بلادكم ضرر من أحد ممن يرجع إلى حكمنا ، فنحن ننصف منه بالحق الواجب ، على أن تكونوا أنتم لنا كذلك ، صاحباً وفياً ، كما ذكرتم فى كتابكم ، وتلتزموا لنا صحبة صادقة ، وصلحاً ثابتاً ، وتصاحبوا كل صاحب لنا ، وتعادوا كل عدو لنا من المسلمين أو من أهل قشتالة ، وترفعوا الضرر والفساد عن بلادنا كلها ، وعن ناسنا فى البر والبحر ، و إن اتفق أن يرجع إلى طاعتنا بلد من بلاد العدوة ، أو ناس من أهلها فيكون حكمهم فى ذلك كحكم سائر بلادنا الاندلسية ، ومتى صدر عن أحد من ناسكم أو من أهل بلادكم ، ضرر لأحد من ناسنا أو من أهل بلادنا الاندلسية ، أو التى تكون من بر العدوة ، فعليكم أن تنصفوا منه فى الوقت والحين ، كما ذكرتم فى كتابكم وكذلك ننعّم لكم بأن يصل إلى بلادنا كل من يريد الوصول برسم التجارة من بلادكم ، بما شاءوا من أنواع التجارات ، و يسرّح لهم ما أرادوا من ذلك ، و يكونوا مؤمّنين فى نفسهم وأموالهم ، على أن ينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة ، و ينصفوا من حقوقهم الواجبة لهم فى الدواوين على العادة ، وعلى أن يكون أيضاً كل من يتوجه من بلادنا إلى بلادكم من التجار مؤمّنين فى نفوسهم وأموالهم ، و يسرّح لهم فى بلادكم ما شاءوا من أنواع المتاجر ، و ينصفوا من الحقوق الواجبة على العادة ، من

---

(١) نعم له : قال له : نعم

(٢) فى الكتب التى تواريخها بعد تواريخ هذا يستعمل سلاطين غرناطة لفظة « القمط » لا « الكند » وكلتاهما ترجمة Comte

غير إحداث زيادة ، وينصفوا من حقوقهم الواجبة لهم ، كما ذكرتم فى كتابكم ، وكذلك نتمّم لكم أن نعينكم على أهل قشتالة فى نفاقهم معكم ، وإن اتفق أن يجىء لكم إلى مرسية صاحب قشتالة الآن ، أو مقدرنه (كذا) فنعينكم بما نقدر عليه فى ذلك الوقت ، ولا نعمل معهم صلحاً ولامهادنة ، إلا برأيكم ، وفى منفعتنا ومنفعتكم وعلى أن تلتزموا أنتم بما نلتزمه نحن من النفاق [1] عليهم وشنّ الغارات على أرضهم كلها ، ولا تعملوا معهم صلحاً ولا مهادنة إلا برأينا ، وفى منفعتكم ومنفعتنا ، حتى تكون الحال واحدة فى النفاق والاتفاق ، وعلى أن تعينونا أنتم عليهم ، متى احتجنا إلى إعانتكم بما تقدرون عليه ، كما ذكرتم فى كتابكم ، وكذلك نتمّم لكم انه إن احتجتم إلى إعانتنا فى أرض مرسية بفرسان من عندنا أن نعينكم بهم ، على أن يُضمّوا فى بلادكم (جملة أكلتها الأرضة) يعطوا المأكول والنفقة . من يوم خروجهم من أرضنا إلى يوم رجوعهم إليها ، وتأمروا بأن تغرم لهم الدواب التى تموت لهم فى خدمتكم ، من يوم خروجهم من أرضنا إلى يوم رجوعهم إليها ، وكذلك ننعم لكم أنه إن (جملة أكلتها الأرضة) مرسية أن نرده فى الحين لكم ، وإن كان من غيرها من بلاد قشتالة ، لا اعتراض لكم فيه . وكل موضع يرجع لكم أنتم من رئاسة قشتالة ، فلا اعتراض لنا نحن فيه ، إلا أن يكون من المواضع التى هى لنا وهى طريف (جملة ذهبت بها الأرضة) وقشتال فان اتفق أن ترجع هذه المواضع أو واحد منها اليكم فعليكم أن تردوها لنا فى الحين ، من غير تطويل ولا مطلب ، وإن اتفق أيضاً أن ترجع هذه المواضع أو واحد منها إلى طاعة السلطان دون الفونش وأخيه الافنت [2] دون فراندَة ، أن تقفوا معنا فى تكميل الشروط التى بيننا وبينهما ، بشهادتكم عليهما وضمانكم فى ردها إلينا فى الحين والوقت من غير تطويل ولا مطاب ، وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول بالتجارة إلى اشبيلية وغيرها من بلاد أعدائنا ، فى البر

(١) يستعمل النفاق بمعنى الخلاف

(٢) l'infante وهو عند الاسبان الولد الثانى من أولاد الملوك

والبحر ، و إن دخل أحد منهم إليها يكون حكمه حكم الأعداء الذين يكون معهم ، وأن يكون هذا كله ثابتاً ، وتكونوا أنتم منه على يقين . أمرنا بكتب هذا الكتاب ، وجعلنا عليه خط يدنا ، وطابعنا . فى آخر ر بيع الآخر عام أحد وسبعمائة .

وكتب فى التاريخ اه .

وقد كتب إلينا الأديب الفاضل الحاج العربى بنونة فى ذيل نسخة هذا الكتاب الملاحظات الآتية :

١ — الالفاظ التى نشكلها فى هذه الرسالة هي مشكولة فى الأصل ، فأنا أنقلها لكم من غير تصرف حتى تعلموا كيف كان ينطق بها أهل ذلك العصر .

٢ — سطور هذه الرسالة أفقية تامة الاستواء .

٣ — نوع خطها من الشكل المصطلح على تسميته بالمجوهر ، وهو خط مغربى مراكشى .

٤ — ينقط الكاتب الفاء بواحدة من أسفل ، والقاف بواحدة من فوق ، على القاعدة المغربية الجارية .

٥ — البياض الذى ترونه فى هذه النسخة هوالمحل الذى أتلفته الأرضة أو محاه قدم العهد وأنا أنقل إليكم الصورة من دون زيادة ولا نقص.

٦ — الكتاب من ناحية فن الخط آية فى الابداع مشكول كله ، ونجده فى المواضع التى نستعمل فيها نحن الفاصلة (،) أو علامة الانتهاء (.) يخالف قليلا البعد المناسب ، وعوضاً عن أن ينزل الكاتب إلى السطر الثانى فىابتداء الكلام ، كما هى العادة فى هذا العصر ، يكتفى بكتب الحرف الاول كبيراً يتبعه بجرة فى السطر طويلة جداً تنبيهاً للقارىء .

٧ — السلطان محمد هذا صاحب هذه المعاهدة هو محمد المخلوع بن محمد الفقيه بلا شك ولا ريب .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم وعلى آله وسلم تسليما .

السلطان المعظم الملك المرفع ، الأوفى المكرم المبرور المشكور الأخلص ، ذون[١] جاقى ، ملك أراغون و بَلَنْسِيَةَ وسَرْدَانية، وقُرْسِقَة ، وقُمط بُرجُلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرّم جانبه ، وشاكر مقاصده فى الوفاق ومذاهبه وحافظ عهده عملا بواجبه ، الامير عبد الله اسماعيل بن فرج بن نصر ، أما بعد فانّا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم من هدايته أوضحها ، ومن عنايته المرشدة أسعدها وأنجحها من حمراء غرناطة ، كلأها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مبرور ، وعهدكم بالوفاء محفوظ ، وقصدكم فى الصحبة مشكور ، ومنصبكم فى ملوك النصرانية معلوم مشهور ، وقد وصلنا كتابكم المكرم صحبة رسولكم إلينا ، شِمُنْ دى طُوبينَه ، وصحبة راجلنا أبى على حسن الفرّان ، ووصل العقد الذى عقدتم على نفسكم وأرضكم ، بالصلح الذى يكون فيه الخير لنا ولكم إن شاء الله ، وقفنا على ذلك العقد ، وحضر رسولكم به بين يدينا وأمضينا حكم الصلح ، وكتبنا نظير ذلك العقد ، ووجهناه إليكم ، وألقى إلينا الواصلان المذكوران من قِبلكم ، ما عندكم من الاغتباط بصحبتنا ، والعزم على الوفاء بما عاهدتمونا عليه ، والمقاصد الحسنة التى تليق بمثلكم من الملوك الأوفياء ، فشكرنا ذلك لكم أكمل الشكر ، وإذا اغتبطتم بصحبتنا ، وجريتم على منهاج الوفاء فى حفظ عهدنا ، فعندنا من الاغتباط بصحبتكم والحفظ لعهدكم ، ما يقتضيه حسن قصدكم ، فثقوا منا بذلك أكمل الثقة ، وكونوا منه على يقين ، وسبيل مبين ، والله يقضى الخير

---

(١) الاصل فى الاسبانيولى هو « دون » بالدال المهملة Don وربما وضعوا لها النقطة فراراً من لفظة دون التى هى فى العربى غير جائزة هنا واليوم نجد العرب فى المغرب يكتبونها بالضاد فيقولون « ضون » فراراً من المحذور نفسه .

لنا ولكم ، وهو سبحانه يصل إعزازكم بتقواه ، ويحملكم على ما يحبه ويرضاه ، ويوالى لكم أسباب عنايته ، ويوضح لكم طريق هدايته ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، كتب فى يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الثاني عام أحد وعشرين وسبعمائة ، عرّف الله خيره وبركته بمنه وفضله . اهـ صح هذا

* * *

كتب إلينا الأخ بنونة فى ذيل نسخة هذه الرسالة ما يلى :

١ — هذه الرسالة لم تعتد عليها الأرضة فهى واضحة جداً .

٢ — خطها من النوع المسند الظاهر وكلها مشكولة .

٣ — طريقة كتابتها فنية جميلة تبين لنا أسلوب الاندلسيين فى تدبيج الرسائل فى ذلك العصر ، فترى السطر يبدأ مستوياً طويلا ، ثم ينتهى بالتواء طفيف لأعلى ويبدأ السطر الثانى أقصر من الاول ، والثالث أقصر من الثانى ، وهكذا حتى ينتهى الجميع فى زاوية مربع ، أو مستطيل الورقة السفلى . وكل سطر ينتهى بذلك الالتواء الجميل . فاذا وصل الكاتب إلى أسفل الورقة ، نكّسها وبدأ الكتابة عكسية ، من أسفل لأعلى ، على الصورة نفسها . فيبدو الكتاب آية فى الفن قد احتوى مثلثين متضادين مختلفى الاضلاع ، وبسبب ذلك يأتى إمضاء الملك عقب التاريخ فى آخر الرسالة ، ولكنه فى أعلاه بحسب الوضع ، وهى طريقة أنسب وأدق ذوقاً من جعل الامضاء قبل الرسالة ، كما ترون فى رسائل بعض الملوك .

٤ — رقم هذه الرسالة فى المجموعة الاسبانية ١٣ ، بينما ترى تاريخها مقدماً على تاريخ الرسالة رقم ١١ . وهذا لا شك آت من سوء الترتيب .

٥ — اسم الملك المرسل اليه الكتاب نراه مختلف الصورة ، فنى بعض الرسائل جايم ، وفى بعضها جقمى ، وفى أخرى جاقمى . وأنتم تكتبونه « جقّوم » (يريد اننا كتبناه كذلك فى مختصر تاريخ اسبانية ذيلا على آخر بنى سراج) والمواد بالجميع الملك خايمى Jaime . وكذلك نرى مثل هذا الاختلاف فى لفظ كُندِى Conde

فنجده فى بعض الرسائل قطاً ، وفى بعضها كنداً ، ومثل ذلك بعض الاعلام مما سيمر بكم كبُرجُلونة ، وقُرسغة ، بالقاف والغين وغيرهما ، والكل مشكول ، ظاهر الخط ، مما يجعلنا نتعرف النطق به تماما ، خصوصاً وأن هذه الوثائق التى ننتسخها خطية مكتوبة فى ذلك العصر ، ومشكولة وصادرة عن ديوان هو أحق من يتعرف الأسماء فى عصره .

* * *

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم تسليما .

السلطان الأجل ، المرفع المكرم المعظم ، الأوفى المشكور المبرور ، الشهير الأوَدّ ذون جقمى ، ملك أرغون و بلنسية ، وسردانية ، وقرسغة وقمط برجلونة ، وصاحب هَنْجَليرة (١) ، أعزه الله بطاعته ، و يسّر له أسباب رضاه وكرامته . حافظ عهده ، وشاكر مذهبه فى الوفاء وقصده ، ومكرم جانبه ، ثقة بخلوص ودّه ، الامير عبد الله اسماعيل بن فرج بن نصر ، كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، عن الخير الجزيل ، والصنع الجميل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مرفع مبرور ، وقصدكم فى السلاطين الجِلّة الأوفياء قصد مشكور ، وقد وصلتنا كتبكم المبرورة ، على يدى النصرى الذين وجهتم ، وأنتم تقررون فيها حفظكم لعهدنا ، وثباتكم على صلحنا ، وتوفيتكم لما عقدنا معكم ، وذلك هو الذى يليق بكم ، ونحن لكم على مثل ذلك ، من الوقوف على العهد ، والحفظ للصلح ، فكونوا من ذلك على يقين ، وعرّفتم بما لكم من المطالب عندنا ، فمنها ما طلبتموه منا على وجه الكرامة لجانبكم ، وقضاء حاجتكم فنحن قد وفيناه على حسبما أردتم ، إكراماً لكم ، وتوفية لقصدكم ، على ما يقتضيه اعتقادنا فيكم ، وقصدنا فى قضاء أغراضكم ، وعند وصول كتبكم أمرنا بسراح النصرى ، الذين طلبتموهم على هذا الوجه ، وهم برتلمين مرتين ، الذى كان قديماً فى

(١) كذا ولم نعرف المراد بهذا الاسم حتى الآن .

ملكنا ، وهو يصلكم مع هذا الكتاب ، والصبى الذى أُخذ في الأبركة ، التى أقلعت من اشبيلية ، مع أن أهل اشبيلية قد كانوا طلبوه ، وزعموا أنه أُخذ فى صلحهم فما أسعفنا لهم فيه قصداً ، لأجل الشكايات التى لنا قبلهم ، ولكن لما وصل كتابكم فى شأنه ، أنعمنا بسراحه ، وهو يصلكم مع هذا الكتاب ، وأما جيله التى عرّفتم انها أُخذت بقرية البسيط ، فقد أمرنا أن يبالغ فى البحث عنها وعن ولدها ، فما وُجد لهما خبر ، ولكن البحث عنهما متصل ، وعسى أن يوجدا و يوجّها إليكم ، وكذلك كان ولدكم الافانت ألرمون برنفيل ، قد طلب أن يسرح له نصرانى قديم الأسر عندنا اسمه برنفيل أرنَوه ، فأنعمنا به ، وسرحناه ، وهو يصلكم أيضاً ، ووفينا قصدكم فى ذلك كله لمكان صحبتكم لنا ، وصدق مصادقتكم ، وكذلك مَرْكَهْ من الكرمن ، لما وصل كتابكم فى شأنه أنعمنا به ، وأمرنا أن نحمله ارسالكم لكنه كان بحال مرض اشتد عليه فمات ، وأما المطالب التى طلبتموها منا على غير هذا الوجه فما أُخذ لكم في الصلح فتعلمون أنتم أيها السلطان ان لنا بأرضكم حقوقا كثيرة ، ومطالب عدة ، وقد كتبنا بها إليكم ، ووجهنا مرة بعد مرة ، ووعدتم بخلاصها ، والانصاف منها ، فنحن ننتظر وصول المسلمين ، وخلاص الشكايات ، فاذا وصلوا ، فنحن نسرّح لكم من عندنا فى مقابلتهم ، فما عندنا إلا الحفظ لعهدكم ، وتوكيد الصحبة معكم ، وعرّفتم ان ابن جُندى أخذ ناساً من بلادكم ، و باعهم ببجاية وهذا الشخص ليس من أرضنا ، ولا خدم بالأندلس قط ، فلو انه كان من أهل الأندلس لعملنا الواجب فى أمره ، ولعاقبناه أشد العقاب حفظاً لعهدنا كما هو الواجب والله يصل عزتكم بتقواه و يحملكم على ما فيه رضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى التاسع والعشرين لذى الحجة عام أربعة وعشرين وسبعمائة . صح هذا

ثم كتب في أسفل الورقة العنوان كما يأتى :

السلطان الأجل ، المرّفع الأوفى المشكور المبرور ، المعظم الشهير الأوَدّ الأخلص ملك أرغونْ ، و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط بُرجُلونة ، وصاحب هنجلير ،

ذون جقمي ، أعزّه الله بطاعته ، و يسّر له أسباب رضاه وكرامته ، بمنه

وفى نفس هذا العنوان يظهر أثر الطابع المستدير الذى لم يبق منه إلا علامة الاستدارة

ثم ذكر لنا الأخ بنونه أن نوع الخط فى هذه الرسالة بين المبسوط والجوهر العادى وأن الأسطر غير مستقيمة ، وغير مساوية ، ثم قال : ورد فى الرسالة لفظ الأبركة ، وهى على ما يظهر جمع « بركو » Barco ، بمعنى المركب ، مما يدلنا على أنهم كانوا يستعملون بعض الألفاظ الأسبانية فى لغتهم الكتابية . ومثلها لفظة «الإفانت» بمعنى الأمير . وتدل هذه الرسالة وغيرها على أن مسلمى الأندلس كانوا يقرأون القرآن برواية ورش كالمغاربة ، بل كانوا يكتبون حسب قواعد المصحف كثيراً من الألفاظ ، مثل النصرى فيحذفون الألف من الخط ، و يثبتونها فوق السطر ، وكذلك الآخر والأرض ، و يحذفون منهما الهمزة ، و يشكّلون اللام بالفتحة ، وغير ذلك كثير

رقم الرسالة ٢٣ ، ولكن يوجد رقم آخر داخل الورقة الأصلية ٧٧ ، مما يدل على أنها كانت مدرجة فى مجموعة أولى ثم أتلفت هذه المجموعة فرتبت ثانية ، فنزل العدد إلى ٢٣ ، أو كان رقم ٧٧ راسما لها فى خزانة الملك ذون جقمى . أما ظرف الرسالة فهو منها ، إذ يظهر أثر الطى فى الصورة وفيها كتب العنوان .

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

ليعلم من يقف على هذا الكتاب و يسمعه ، أننا الأمير عبد الله إسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ورندة ، والجزيرة ، وأمير المسلمين لما وصلنا من قبلكم ، أيها السلطان المعظم ، الملك المرفع ، الأوفى المكرم ، المبرور المشكور ، الأخلص ذون جقيمى ، ملك أراغون ، و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقُمط بُرجُلونه ، رسولكم إلينا الفارس المكرم ، شمون دى طُبنية ، بالعقد الذى عليه طابعكم ، المعهود عنكم ، الذى عقدتموه على نفسكم ، بأنكم قد ثبّتم معنا صحبة خالصة ،

ومصادقة صادقة ، جددتم بها ما كان بينكم و بين أسلافنا ، رضى الله عنهم ، وعقدتم معنا صلحاً صحيحاً صريحاً ، مبنياً على الصفاء والوفاء ، أمضيتموه على نفسكم ، وعلى جميع أهل أرضكم ، من نصف شهر مايه ، الموافق للتاريخ إلى انقضاء خمسة أعوام ، وظهر لنا منكم من الاغتباط بصحبتنا ، ما أكد عندنا إجابتكم إلى هذا القصد ، أنعمنا بموافقتكم ومصالحتكم ، وأعطينا كم هذا المكتوب بأننا عقدنا معكم الصلح على نفسنا ، وعلى جميع أهل أرض المسلمين ، ببلاد الأندلس كلها ، لانقضاء خمسة الأعوام المذكورة ، صلحا ثابتا ، محفوظ العهد ، مؤكد العقد ، وأمضينا معكم هذا الصلح إمضاء صحيحاً ، لا يتعقب حكمه ، ولا يتغير رسمه ، تأمن به أرض المسلمين ببلاد الأندلس وأرضكم أماناً تاماً عاماً ، و ينكف عنها الضرر من الجانبين ، بطول مدة الصلح ، براً و بحراً ، سراً وجهراً ، فلا يلحق أرضكم ولا ناسكم ولا أجفانكم ضرر من جهتنا بوجه ، ولا على حال ، كما أنه لا يلحق ناسنا ، ولا جميع أرض المسلمين بالأندلس ، ولا أجفاننا ضرر من جهتكم ، ولا شيء يقدح فى الوفاء ، وعلى شروط تتفسر ، فمنها أن يتردد كل من يريد التجارة من أهل بلادنا إلى بلادكم ، آمنين فى البر والبحر ، فى النفوس والأموال وجميع الأحوال ، وأن يباح لهم بيع ما يريدون بيعه ، وشراء ما يريدون شراءه ، و إخراج ما يشترونه إلى بلادنا ، وذلك على العموم فى جميع الأشياء كلها الا الخيل والسلاح ، لا يستثنى غيرهما ، لا طعام ولا بغال ، ولا سائر الدوام ، ولا غير ذلك ، ولا يزاد على أحد منهم فى سوم شيء يشترونه ، بل يباع منهم بسومه بذلك الموضع ، ولا يزاد عليهم فى مغرم مخزنى على ماجرت به العوائد بينكم و بين أسلافنا ، ومثل ذلك يكون العمل مع من يتردد . . . . إلى بلادنا من أهل بلادكم . وعلينا وعليكم حفظ هؤلاء المترددين وحراستهم حيث حلوا ، ومنها أن تمادوا من يعادينا من أهل بلاد المسلمين . . . أحداً منهم ، ولا تضموه ، ولا تعينوا علينا عدواً كان من كان ، وعلينا أن نمادى من يعاديكم من أهل أرضكم ، ولا نضمه ، ولا نقبله ، ولا نعين عليكم عدواً لكم ، كان من كان؛ ومنها

أن تكون أجفاننا آمنة من أجفانكم ، وناسكم لا . . . . منهم ضرر ، سواء كان فيها أهل بلادنا أو غيرهم ، من المسلمين أو النصارى ، فلا يتعرض لهم من جهتكم بوجه ، وكذلك جميع مراسى بلادنا وسواحلها تكون آمنة من أجفانكم وناسكم سواء كان فى مراسينا وسواحلنا عدو لكم أو صديق ، لا يتعرض من جهتكم لمرسى من مراسينا ، ولا لساحل من سواحلنا ، و إن استوليتم على جفن من غير أجفان أهل بلادنا ، أو استوليتم فى البحر على طائفة من المسلمين ، وكان فيهم أحد من أهل أرضنا ، فتسرحون من أخذتم من أهل أرض المسلمين ببلاد الأندلس بأموالهم في الحين ، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا . ومنها أن لا تمنعوا من أراد الخروج إلى أرض المسلمين من المدجّنين الساكنين بأرضكم بأهلهم وأولادهم ، وأن يباح لهم الوصول إلى أرضنا آمنين ، مرفوعاً عنهم الاعتراض ، من غير شيء يلزمهم ، إلا المغرم المعتاد ، على ما جرت به العادة ، من غير زيادة على ذلك . انتهت الشروط ، وعليها أعطيناكم عهداً صحيحاً ثابتا ، والتزمنا الوفاء به لكم ، ولجميع أهل أرضكم ، فلا يزال محفوظا إلى أقصى أمده ، ماوفيتم لنا بما ذكر عنكم فى هذا المكتوب ، ونجعل الله شاهداً بيننا و بينكم ، والله خير الشاهدين . وقد تقيد نظير هذا بالعجمى فى المكتوب الذى استقر عندنا ، وعليه طابعكم ، ولأن يكون هذا ثابتا ، وتكونوا منه على يقين ، أمرنا بكتبه ، وجعلنا عليه خط يدنا ، وعلقنا عليه طابعنا ، توثيقا لحكمه ، وذلك في السابع عشر لربيع الآخر عام أحد وعشرين وسبعمائة ، و بموافقة السادس عشر من شهر مايُه (صح هذا)

وكتب الأخ بنونه تحت هذا الكتاب الملاحظات التالية :

١ — يستعمل الكاتب لفظة مخزنى نسبة إلى المخزن ، أى الحكومة ، مما يدل على أن هذا الاستعمال كان معروفا بالأندلس ، كما هو اليوم بالمغرب [١]

---

(١) لنا فى مجلة « المغرب الجديد » الصادرة فى تطاون بحث فى أن هذا الاصطلاح كان معروفاً فى الاندلس

٢ — خط المعاهدة من النوع المبسوط الظاهر ، وسطورها أفقية تامة الاستواء.

٣ — تأملوا قوله « المدجنين الساكنين بأرضكم » أليس معناه الأهالى المسلمين؟ ثم مما لاشك فيه أنه مترجم عن لفظة « أندخيناس » التى يطلقها اليوم الأسبانيول على الأهالى المغاربة . وأذكر أن الأخ المكى الناصرى كتب عنها فصلا قيما فى مجلة السلام ، أعطى فيه هذه اللفظة حقها ، ولا نستطيع أن نفسّر اللفظة هنا بالمقيمين من دجن بمعنى أقام بالمكان ، لأن لفظة « الساكنين » تفيد ذلك المعنى ، فلاوجه لتفسيرها بها إلا بتكلف . اهـ

قلنا إن المدجنين هم المسلمون الأندلسيون الذين عند ما غلب النصارى على بلادهم لبثوا تحت حكم هؤلاء ، ولم يختاروا الرحيل إلى بلاد الاسلام ، كما رحل إخوانهم ، وقد سمّوا بالمدجنين من دجن بالمكان بمعنى ألف الاقامة به ، ومنه الحيوان الداجن ، الذى يألف البيوت ، ولا ينفر منها ، كالحيوانات الأخرى الشاردة ، وربما كان الحيوان برّياً ، فاذا أمسكوه وعوّدوه الدجن فى البيت . انتهى بأن يستأنس ويألف . ووجه المناسبة ظاهر ، وهو أنه عند ما كان يتغلب النصارى على بلاد المسلمين من الأندلس كان أكثر أهلها يشردون نافرين ، ويهاجرون منها إلى بلاد الاسلام ، وقد كان يوجد فيهم من لايتمكن من المهاجرة ، أو من يعزّ عليه فراق وطنه ، فيبقى تحت حكم النصارى ، ويألف الخضوع لهم . فسمى هذا النوع من المسلمين مدجنين من باب التشبيه . وهكذا قرّر المؤرخون والعارفون باشتقاق الالفاظ وجه هذه التسمية

وكان هؤلاء المدجنون ، وإن سكنوا فى الأول تحت حكم النصارى يضطرون فى الآخر إلى الرحيل منها ، نظير الذين سبقوهم من إخوانهم ، وذلك بسبب تفاقم الظلم والاضطهاد عليهم . فسلاطين غرناطة كانوا يتوسطون لدى سلاطين الأسبان حتى يسمحوا للمدجنين بالخروج إلى بلاد الاسلام ، وبأخذ أموالهم معهم ، وسبب هذا التوسط هو أن سلاطين النصارى لم يكونوا يسمحون دائما بهجرة المدجنين ، وذلك لأن المدجنين كانوا يعملون فى أراضى النصارى ، وكانوا أهل جد ونشاط ،

وعلم بأصول الزراعة ، وكانوا إذا خرجوا ماتت المزارع من بعدهم ، وحرم النصارى خيراتها الدارّة . فطالما منع ملوك النصارى خروج المدجنين بهذا السبب ، وكانوا إذا أراد بعضهم الخروج لا يسمحون لهم بأخذ أموالهم معهم ، وذلك حتى يبقوا فى أرضهم فيعمروها ، ولكن بعد سقوط غرناطة ، وإكراه النصارى للمدجنين على ترك دينهم صار هؤلاء يثورون فى الأحايين ، وتقع الوقائع ، وكانوا يستصرخون إخوانهم مسلمى المغرب الأقصى والأوسط ، وأتراك الجزائر ، فكانت ترد إليهم نجدات ، ويتسرّب سلاح ، ويقاتلون ويستبسلون . فرأى ملوك النصارى أخيراً أن لا نهاية لثورات هؤلاء وفى الآخر أحسّوا بأن المدجنين صاروا يستصرخون سلاطين آل عثمان ، وكانت الدولة العثمانية حينئذ فى إبّان قوتها فخاف ملوك أسبانية من تعرّض الاسطول العثمانى لسواحل أسبانية ، وإثارة المدجنين ، وإنزال عساكر تقاتل معهم . فأجمعوا طرد جميع المدجنين من جميع أسبانية ، وأنفذوا هذا القرار بالرغم من احتجاج الكثيرين من نبلاء الأسبانيول ، وأصحاب الأملاك فيهم ، ممن كانوا يقولون إن خروج المدجنين من البلاد سيجعلها خراباً

وقد كان المدجنون عند ما استولى النصارى على شمالى الأندلس وشرقيها ينزح منهم الكثيرون إلى مملكة غرناطة ، حتى إن هذه المملكة امتلأت بالسكان ، بسبب توارد المدجنين عليها من مرسية ، وبلنسية وجيّان ، وقرطبه ، واشبيلية ، فضلا عمن كان قد سبق رحيله إلى الجنوب من مسلمى سَرَقُسْطة ، ولاردة ، ووشقة وتطيلة ، وقلعة أيوب ، وطليطلة ، ووادى الحجارة ، ومدينة سالم ومجريط ، وغيرها . فسلطان غرناطة عبدالله إسماعيل بن فرج ، يرجو فى هذا الكتاب من الدون جقيمى ملك أراغون ، ألا يضيّق على المسلمين الذين فى مملكته فى منعهم من الهجرة منها

فهذا ما عندنا فى قضية تاريخ المدجنين واشتقاق اسمهم ، ولا نرى شيئا من التعارض بين قول السلطان « المدجنين » وقوله « الساكنين » لأن اسم المدجنين صار أشبه باسم علم يطلق على المسلمين الذين تحت حكم النصارى ، وصار يجوز وصفهم

بالساكنين ، ولا يحتاج ذلك إلى تأويل ، فهو صفة لاسم ، وسنأتي إنشاء الله في آخر هذا الكتاب على أخبار المدجنين في جزء خاص . وقد كان لهم عند الافرنج اسم آخر وهو « الموريسك » ، كما أن الأسبانيول حرفوا لفظة « مدجّن » إلى « مدجَّر » ولما كان الأسبان يقلبون الجيم خاء صاروا يقولون « مدخَّر » وإلى اليوم يطلقون هذا الاسم على طرز البناء العربي فيقولون طرز قوطي ، وطرز مدخّر ، كما يعلم كل من له ضراوة بتاريخ الاندلس

* * *

كتاب إلى الدون جيمي ملك اراغون من السيد عثمان بن ادريس بن عبد الله ابن عبد الحق رئيس جند غرناطة :

بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الملك المعظم الشهير ، الأرفع المشكور ، الأوفى الخطير الكبير ، الأوَدّ الأخلص ، ذون جيْمي ، صاحب بلنسية ، واراغون ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برشلونة ، أعزه الله بتقواه ، ويسره إلى ما يحبه الرب جل جلاله ويرضاه . شاكر خلوصه وصفائه ، المثني على ثبوت عهده وصدق وفائه ، عثمان بن ادريس بن عبد الله بن عبد الحق ، وبعد حمد الله رب العالمين ، المنزه عن الصاحبة والولد والشريك والمعين ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد سيد الخلق ، وخاتم النبيين ، وعلى جميع أنبياء الله الكرام والمرسلين ، والرضى عن الصحابة الأكرمين ، وعن التابعين لهم باحسان إلى يوم الدين ، فاني كتبته لك أيها الملك المعظم ، من حضرة غرناطة ، حرسها الله ولا جديد بيمن الله إلا ما يجدد إنعامه عز وجل وإحسانه ، والحمد لله ، وجانبك مبجل على الدوام والاتصال ، وواجبك مكمل في كل الأحوال ، والثناء على جميل ولائك ، وصدق وفائك ، مردّد في كل مقام ومقال ، وإلى هذا فان كتابك المرفع وصل اليّ مع رسولك شمون دي طو بينه ، في شأن عقد الصلح بين مولانا السلطان ، أيده الله ونصره ، وبينك ، وقد تخلصت العقود على أكمل وجوه الاختيار ، وحصل

المقصود فى تأمين البلاد والعباد ، وكف الاضرار ، وأنا على شكر وُدّك ، وحفظ عهدك ، حسبما يوجبه الاعتقاد الخالص الاعلان والاسرار ، وقد بلغنى ما وجهت لى من رسولك شمون ، وجددت على ذلك شكر ودادك ، وعلمت صحة خلوصك واعتقادك ، وظنى فيك أيها الملك المعظم ، أن تفعل ذلك ، وغرضى أتحقق أنه ينقضى ما طالت حياتك هنا لك ، فوفاؤك معلوم ، وقصدك فى المودة مفهوم ، وأنت الملك الذى لايساويه أحد من ملوك النصرى شرقاً وغرباً ، ولك الوفاء الذى شهر عند جميع الناس بعداً وقرباً ، وقد قلت لشمون فى ذلك كلاماً يقربه بين يديك ، ويلقيه إن شاء الله إليك ، فصدّق ما يقوله ، فمنده شرح ما عندى وتفصيله ، والله يعزك بتقواه ، وييسرك إلى مايحبه الله ويرضاه ، والسلام يراجع سلامك كثيرا أثيرا ، كتب فى الثامن عشر لشهر ربيع الآخر عام احد وعشرين وسبعمائة . اه

* * *

يقول الحاج محمد العربي بنونه ان هذا الكتاب ، ورقمه فى المجموعة ١٤ ، ظاهر الخط واضحه ، وهو من نوع المسند العادى ، وان امضاء الوزير فى وسط الكتاب ، وانه بقلم غير قلم الكاتب ، وفيه لفظ عثمان بدون الف بعد الميم ، وكذلك لفظ النصارى بدون الف بعد الصاد ، وهو يخاطب ملك اراغون بكاف الخطاب المفردة ، بخلاف سلطان غرناطة فانه يخاطبه بالجمع . انتهى

ونحن نقول ان الذى صدر عنه هذا الكتاب هو رئيس الجند المغربى فى سلطنة غرناطة ، وهو الذى قال عنه لسان الدين بن الخطيب فى اللمحة البدرية : الشيخ البهمة [1] ، لباب قومه ، وكبير بيته ، أبوسعيد عثمان بن أبى العلاء ادريس بن عبدالله ابن يعقوب بن عبد الحق ، كان رئيس الجند فى زمن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل ابن يوسف بن محمد بن احمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الانصارى الخزرجى أمير المسلمين بالاندلس ، المكنى بأبى الوليد

(١) الفارس الذى لايدرى من أين يؤتى له من شدة بأسه

وانظر إلى ما سبق لنا من الكتابة فى شأن المرابطة بالاندلس ، وذلك فى خلاصة تاريخ الاندلس التى علقناها على رواية « آخر بنى سراج » وهو ما يلى :

الفصل الخامس

فى ذكر مشيخة المرابطين والغزاة من الاسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطن الامم المتناظرة ، ومواقف الأقران من حماة الأقوام المتبارزة ، وكماة الشعوب المتحاجزة ، ومقامات صدق المجاهدين ، ومظان النخوة الجائشة بالرءوس ، للذب عن العرض والدين . ومنذ ظهرت دولة الاسلام ، بما شرع فيها من الجهاد ، لم تبرح مرابطة الثغور ، ومحافظة الدروب ، وبعوث الصوائف ، من أركان الملة ، وقواعد الدولة ، وأعمدة سرادق الخلافة ، يتنافس فى الوفاء بها ، والقيام عليها ، الأطول يدا ، والأبعد هماً ، والأشد عزمة ، والأنأى فى المجد غاية ، من خلائف الاسلام وسلاطينه ، وأمراء التوحيد وأساطينه ، ممن رفعوا فى تعزيز الملة ، وإجابة داعى الجنة ، شأن الجهاد ، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد ، فان كان للاسلام لواء خافق فوق رءوس بنيه ، فهو بقية ما عقد بأيدى الغزاة والمجاهدين ، وإن كان تحت أقدامهم مواقع للامتناع ، فهى نتيجة مواقع السيوف من رقاب المناهدين .

ولما كانت الجزيرة الاندلسية بموقعها من الاتصال ببر العدوة الاوربية . والموازاة لبر العدوة المغربية غير منفصلة عنه إلا ببحر الزقاق ، الذى يتراءى الساحل من ورائه تمد ثغر الثغور بين البرين الكبيرين وموطن الرباط ، ومعترك الثقاف من المنصرين العظيمين استمر الجهاد فيها نيفاً وثمانمائة سنة ، بين حماة الحنيفية والنصرانية منازعة الارض بالشبر ، فلما كان الاسلام هناك فى عنجهيته ، والعرب تترامى إلى الاندلس للاعتمار من جميع الاقطار ، قد عصفت ريحهم بأمم الفرنج ، واجفلت هذه بين أيديهم ، وانهزمت من أوجههم ، وانتظمت فى أثناء ذلك دولة بنى أمية فى ذلك الصقع أعظم ما كان العرب نضارة ، وأكمل عزاً ، وأبعد فى العدو مغاراً ، مضت على

الاسلام فى الأندلس ثلاثة قرون ، كفت فيها نفسها مؤونة الجهاد ، وقامت وحدها فى وجه العدو الذى كان قد انضم بعد التخاذل ، واستمسك بعد الاسترسال ، إلى أن انقرض حبل الخلافة المروانية ، وتشعبت الكلمة ، وصار الأمر إلى ملوك الطوائف فاستأسد الفرنج ، واقتحموا ثغور المسلمين ، وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحى فاستصرخ هؤلاء إخوانهم من وراء البحر ، بحسب الانقطاع فى تلك الجزيرة ، فوافاهم مدد المرابطين من بنى لمتونة ، واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب ، فرمى إليه بأفلاذ أكباده من زناتة وصنهاجة وغيرهما ، وأجاز الى الاندلس بجحافله ، فرد عادية النصارى ، واسترجع كثيراً من القواعد ولم يلبث أن تأذن الله بانقراض أمد تلك الدولة ، وقيام دولة الموحدين بنى عبدالمؤمن ، فاقتدوا بسلفهم فى الجهاد ، وأجازوا إلى الأندلس على ظمأ من أهلها لنجدتهم ، فصدموا تقدم العدو ، وفلّوا غربه ، ولم يسعد الاسلام الحظ بطول انتظامهم ، وامتداد التئامهم ، فخامر دولتهم الضعف ، واستولى عليها الانقسام ، وظهر فى عقبها الفشل ، وجاءت وقعة العقاب ، لعهد الناصر من أمرائهم ، الطامة الكبرى على الاسلام . فلم تقم له بعدها قائمة تحمد فيما وراء البحر ، وانجلى أهله أمام العدو المتقدم إلى سيف البحر . وحشروا فى مملكة ابن نصر الذى ضم شملهم فى غرناطة وجوارها . ورأى المسلمون أن الأمر كاد يفلت من أيديهم ، وان منزلهم هنالك أصبح قُلْعة [١] ، وأن زيالهم لتلك الديار أضحى قريب الأجل كما يستدل على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم ، كقول أبى البقاء الرندى :

قواعدُ كنَّ أركانَ البلادِ فما عسى البقاء إذا لم تَبق أركانُ

وكقول غيره من قبله :

حثّوا رواحِلَكم يا أهل أندلس فما المقامُ بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير ، من جملة نصيحته لأولاده:

---

(١) منزل قلعة بضم أوله أى لابد من الرحيل عنه

« ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذى لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه اجمع فى العقار ، فيصبح عرضة للذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه ، إن تغلب العدو على بلده ، فى الافتضاح والاحتقار ، ومعوقاً عن الانتقال أمام النوب الثقال »

ولما ضعفت حامية الاندلس بعد ذهاب بنى عبد المؤمن ، وضاقت مسالك المسلمين فى الجزيرة ، وتسامع بذلك أهل المغرب ، نفروا للجهاد ، وسابق إلى ذلك الأمير أبو زكريا بن أبى حفص ، صاحب افريقية (أى مملكة تونس) فأمدّهم بالمال والرجال ، وأعطوه بيعتهم . ولما قامت دولة بنى مرين ، واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحق ، واستبد بسلطنة المغرب ، وكان عظيم الاستعداد فى نفسه لاحراز تلك المثوبة ، و بلوغ هاتيك الرتبة ، وأهمه شأن ابن أخيه ادريس بن عبد الحق ، لما وقع بينهما من المنافسة ، واستأذنه عامر بن ادريس فى الجهاد ، اغتنم هذه الفرصة ، وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوعة زناتة ، وأجاز معه رحو ابن عمه ابن عبد الله بن عبد الحق . فكان لهم فى الاندلس مقام كريم فى الجهاد . ثم صارت الاجازة والجهاد شأن ذوى القرابة من ملوك المغرب المنافسين فى الملك . والمزاحمين فى الدولة . اغتناماً للأجر والذكر . وتوسلا إلى قطع أسباب المنافسة بالغربة والانقطاع . وهؤلاء مثل أبناء أعمام الملوك من بنى مرين . الملقبين بالأعياص . ومثل عبد الملك يغمراسن ابن زيّان . وعامر بن منديل بن عبد الرحمن . وزيان محمد بن عبد القوى . فامتلأت الاندلس باقيال زناتة . وأعياصهم (إلى أن أقول) :

ولما انتزى أبو الوليد ابن الرئيس أبى سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر على ابن عمه صاحب غرناطة ، كان شيخ زناتة بمالقة عثمان بن أبي العلاء إدريس من آل عبد الحق ، فانتصر به أبو الوليد على ابن عمه ، ولما استتب له الأمر عقد له على الغزاة من زناتة ، وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان ، فلحق بوادى آش مع السلطان أبى الجيوش ، وصار حمو بن عبد الحق بن رحو من جملة عثمان ابن أبي العلاء إدريس ، بعد أن كانت الرئاسة له . و بعد صيت ابن أبى العلاء ،

واستفحل أمره ، وعلت رايته ، وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده ، مالم يتوقعوه ولما مات أبو الوليد سلطان غرناطة ، و بويع ابنه صبيا ، لنظر الوزير ابن المحروق ، استبد عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة ، فوقعت الفتنة بينه و بين الوزير ، ونصب الوزير له كفوءاً من ذوى قرباه ، يحيي بن عمر بن رحوم ، وارتحل عثمان ، و بقى إلى أن استبد بالأمر السلطان محمد بن الأحمر ، ونكب ابن المحروق ، فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين ، ومات لسبع وثلاثين سنة من إمارته عليهم وكان مكتوباً على قبره هكذا : « هذا قبر شيخ الحماة ، وصدر الأبطال والكماة ، واحد الجلالة ، ليث الاقدام والبسالة ، علم الأعلام ، حامى ذمار الاسلام ، صاحب الكتائب المنصورة ، والأفعال المشهورة ، والمغازى المسطورة ، إمام الصفوف ، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف ، سيف الجهاد ، قاصم الاعاد ، وأسد الآساد ، العالى الهمم ، الثابت القدم ، الهمام المجاهد الأرضَى ، البطل الباسل الأمضَى ، المقدس المرحوم ، أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل ، الهمام الكبير الأصيل ، الشهير المقدس المرحوم ، أبى العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق . كان عمره ثمانياً وثمانين سنة ، أنفقه مابين روحة فى سبيل الله وغدوة ، حتى استوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة » . اه

فأنت ترى لماذا يخاطب هذا الرجل ملك أراغون بالكاف بينما يكون سلطان غرناطة نفسه مخاطبا له بالجمع ، فان أباسعيد عثمان بن أبى العلاء إدريس بن عبد الله ابن عبد الحق هو من بنى مرين ، ملوك المغرب ، وهو شيخ الغزاة بالأندلس ، وقد عمّر ثمانياً وثمانين سنة ، وغزا سبعمائة وثلاثين غزوة ، و بهذا كفاية ليخاطب الملوك بكاف المفرد

* * *

كتاب آخر من سلطان غرناطة إلى نائب ملك أراغون بأرْيُولة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الأمير عبدالله اسماعيل بن فرج بن نصر ، أيد الله أمره ، وأعز نصره ، إلى

النائب عن السلطان ملك أراغون بأرْيُولَة ، الأجل المكرم ، المبرور المشكور الاخلص ، بيره جيل قَرَالط ، وصل الله عزه بتقواه ، و يسّره لما يحبه الله و يرضاه ، كتبناه إليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيرا ، والبر بكم وال . . . . والشكر لمقاصدكم ، فى الوفاء ومذاهبكم ، وإلى هذا فانه بلغنا . . . . ضررٌ من جهة المسلمين . . . . أمر لا تعتقدوه فينا بوجه ، فاننا لا نبدأ بنقض ماعاهدنا ، ولا بحل ماعقدنا ، وكونوا من ذلك على يقين ، وما عهد السلطان ذُونْ جَقْمِي عندنا إلاّ أثبت العهود وأحكمها ، وقد عرفتم . . . . . . أننا لم نطلق الغارة على أرض ولد مَنْوَل إلا عن نكايات كثيرة صدرت لنا منها ، و بقينا نطلب منه الانصاف من أزيد من عام ، ووجهنا إليه رسولاً إلى قشْتالة ، فما أنصفنا أحد ، ولا رأينا خلاصاً ، فحينئذ انتصرنا لناسنا ، حسبما هو الواجب علينا . وأما السلطان ذون جقمى فما صدر لنا منه إلا الوفاء ، ولا يصدر له منا إلا ما صدر لنا منه من الوفاء بعهده والحفظ لبلاده ، فلا تشكّوا فى ذلك ، فاعلموه والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و ييسركم لما يحبه و يرضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . وكتب فى يوم الاثنين الرابع عشر لشهر ربيع الآخر من عام أربعة وعشرين وسبعمائة (صح هذا)

* * *

وقد كتب إلينا الأخ بنونة تحت نسخة هذا المكتوب ما يلى :

١ — فى نفس الصحيفة مكتوبة ترجمة هذا الكتاب بالأسبانية بخط جميل جداً والأسطر مستقيمة الأفق أكثر من أسطر الكتاب العربى

٢ — الترجمة الأسبانية مؤرخة فى ١٤ ربيع الثانى عام ٧٢٤ مثل الأصل ولكن فيها زيادة على الأصل هذه الجلة « الموافق من الشهر العجمى وهو ١٢ مارس ١٣٢٤ »

٣ — امضاء الملك فى هذه الرسالة « صح هذا » وهو مكتوب بنفس القلم الذى

كتب به الكاتب الرسالة السلطانية ، بينما الامضاء فى كتب أخرى غيرها مكتوب بقلم آخر غليظ .

٤ — البياض الذى ترونه فى هذه الرسالة هو أثر المحو أو العثّة

٥ — نوع الخط فى هذه الرسالة بين النوع المبسوط والنوع المجوهر ، أما نقط الفاء والقاف فهو دائما على الطريقة المغربية

٦ — الخطوط الأفقية التى ترونها تحت بعض الأعلام قد وضعتها بقصد تنبيهكم إلى أنها فى الأصل مشكولة كذلك . أما اسم نائب ملك أراغون وهو الذى خوطب بهذه الرسالة فلم أستطع قراءته فصورته كما هو فيها

٧ — لفظة دون Don التى معناها السيد كتبت فى الرسالة رقم ٣ بالدال المهملة وهى فى هذه بالذال المعجمة ، ولعلهم جعلوا الذال مكان الدال لأن « الدون » فى العربى معناه الخسيس ، وأما « الذون » فلا يدل فى العربى على شىء . ومثل هذا حصل فى أيامنا فقد تبدلنا الضاد بالدال المهملة فصرنا نكتب فى الرسائل وغيرها « ضون » بدلا عن دون ، تفاديا من جرح العواطف

* * *

كتاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، ذون جَقْمى ، سلطان بلنسية ، وقُمط بُرْجَلُونة ، وصاحب قرسقة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، مكرم مملكته ، وشاكر ما أظهر من مودته ، المحافظ على عهده ، ورعى صحبته ، الأمير عبدالله محمد بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج ابن نصر ، أما بعد ، فانّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه إلاّ الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مبرور ، وقصدكم فى الصحبة معلوم مشكور ، ومحلكم فى ملوك النصرانية المحل المعروف

المشهور ، و إلى هذا فقد وصل كتابكم المكرم ، على يدى رسولكم إلينا ، جوان أنريق ، وقد حضر بين يدينا هو ورفيقه جقمى ، من قلعة أيوب ، وقررا عندنا من محبتكم فى صحبتنا ، وقصدكم الجميل فى حفظ عهد مولانا الوالد ، قدّس الله روحه ، ما شكرناه لكم ، وعلمنا أنه الذى يليق بمثلكم من الملوك الأوفياء ، ووصلنا المكتوب الذى وجهتم بتجديد الصلح الذى كان بين والدنا و بينكم لخمسة أعوام من الآن ، وقد جددناه نحن على حسب ما اقتضاه مكتوبكم ، والعقد بذلك يصلكم صحبة هذا ، ونحن على أوّلنا فى حفظ عهدكم ، والاغتباط بصحبتكم ، والوفاء بما عقدناه معكم ، وقد وجهنا إليكم صحبة رسوليكم أربعة من النصارى من أرضكم ، فقصدنا منكم أيها السلطان أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم فى سلوة [1] ، ثم بيعوا بميورقة ، وتعملوا فى ذلك مايقتضيه وفاؤكم الصادق : ونحن قد أمرنا أن يبحث عما أُخذ من أرضكم من النصارى فى الصلح ، و يعمل فى ذلك ماهو الواجب ، ومما نعرفكم به أنه فى هذه الأشهر السالفة أخذ عمر بطرُه أغرد (كذا) من سكان أر يوله شَبطيا [2] فى المدور ، وأخذ بطرف الغيطة اثنى عشر شخصاً من أهل المرية ، فنريد منكم أيها السلطان أن يعز عليكم هذا الحال ، وتعملوا فيه ما يعمله سلطان مثلكم ، وتوجهوا إلينا هؤلاء المسلمين ، وتأمروا رجالكم بكف الضرر عن أرضنا ،

---

(١) هنا كلمة غير مفهومة

(٢) الشبطى : يرجح أنها تعريب لفظة Sabotar وهو رئيس العصابه ، أو الغازى على رأس جماعة من الشجعان ، كما علمنا ذلك ممن يحسنون اللغة الكتلونية ، وكما هو رأى اللغوى العلامة الأب انسطاس الكرملى ، الذى له من التدقيق الفائق ما يقر له به كل منصف . وهو يظن أن هذه اللفظة مشتقة من فعل Sabo باللهجة البروفنسية ، ومعناها « سبى » ويرجح أنها مأخوذة فى الأصل من العربية . ولا يخفى أن اللغتين البروفنسية والكتلونية متداخلتان جدا ، كما قد رايت فى كلامنا على بلاد الكاتالان فلا مراء فى أن هذه اللفظة أخذها عرب الاندلس عن جيرانهم هؤلاء . والسين فى كلام الإسبان تصير شيناً عند العرب إلا ما ندر

على المعلوم من وفائكم ، وحفظكم للعهد ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، وييسركم لما يرضاه . والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . وكتب فى الحادى عشر لجمادى الآخرة عام ستة وعشرين وسبعمائة (صح هذا)

وكتب هنا ما يأتى :

جواب السلطان — ثم كتب فى الورقة نفسها ما يأتى :

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص ، ذون جقمى سلطان بلنسية ، وقمط برجلونة ، وصاحب قرسفة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه (رقم هذا الكتاب فى المجموعة ٢٦)

كتاب آخر رقمه فى المجموعة ٢٧ :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم وعلى آله وسلم تسليما .

ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه اننا الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ورندة ، والجزيرة الخضراء ووادى آش ، وأمير المسلمين ، لما وصلنا من قبلكم أيها السلطان المعظم ، الملك المبرور . الوفى المشكور ، المرفع الأخلص ، دون جقمى ، ملك اراغون وبلنسية ، وسردانية ، وقرسفة ، وقمط برجلونة ، رسولكم المكرم جوان انريق ، الذى وجهتموه إلينا بكتابكم ، وبالعقد الذى عقدتموه على نفسكم ، وجعلتم عليه طابعكم المعهود عنكم بأنكم قد جددتم معنا الصحبة التى كانت بين والدنا رحمه الله وبينكم ، وعقدتم معنا صلحاً مبنياً على الصفاء والوفاء لخمسة أعوام أولها نصف شهر مايُه . الموافق للتاريخ أدناه . أن جددنا معكم الصلح والصحبة ، على الفصول التى انعقدت بين والدنا وبينكم ، وأمضينا حكمه على نفسنا ، وجميع أهل بلادنا ، امضاء صحيحا لاينقض له حكم ، ولا يغير له رسم ، إلى انقضاء أمده المحدود ، يشمل حكمه البر والبحر على شروط تتفسّر : فمنها أن تتردد أجفاننا إلى سواحلكم ، وأجفانكم

إلى سواحلنا ، وناسنا إلى أرضكم ، وناسكم الى أرضنا ، آمنين براً و بحراً ، فى نفوسهم وأموالهم ، وجميع أحوالهم ، محفوظين محروسين حيثما حلوا ، وأينما ساروا ، لا يلحقهم ضرر بوجه من الوجوه ، فى بر ولا بحر ، فى سر ولا جهر ، و يباح لهم البيع والشراء ، فى جميع الاشياء ، بسوقها المعتاد هنالك ، و إخراج ما يشترونه من إحدى الجهتين إلى أخرى ، من غير شىء يلزمهم فى ذلك ، إلا ما جرت به العادة ، فى الحقوق المخزنية ، على العادة فى الصلح المتقدم ، من غير زيادة . ماعدا الأمور التى جرت العادة أن يمنع خروجها من إحدى الجهتين إلى أخرى . ومنها أن لا تتطرق أجفاننا لاجفانكم ، ولا أجفانكم لأجفاننا ، فى بحر ولا مرسى ، كان فيها من كان من عدو أو صديق ، و إن استوليتم على جفن من أجفان[1] المسلمين أو النصارى من غير أجفاننا ، وكان فى ذلك الجفن أحد من أهل أرضنا ، أو استوليتم على طائفة من المسلمين ، وكان فيهم أحد من أهل أرضنا ، فتسرّحون (كذا) من أخذتم من أهل أرضنا بأموالهم فى الحين ، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا ، ومنها أن لا تتعرضوا لمرسى من مراسينا كان فيها من كان من عدو أو صديق ، ولا تتطرقوا بضرر لما فى مراسينا ، وسواحل بلادنا ، و بحارها من الأجفان ، كانت لمن كانت من المسلمين أو النصارى ، ومن أى جهة كانت لاسبيل لأجفانكم عليها بوجه ، ولا على حال ، مدة هذا الصلح ، إلى انقضائها ، وأن لا تعينوا علينا عدواً من المسلمين ولا النصارى فى بر ولا بحر ، بوجه من وجوه الاعانة ، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا ، ومنها أنه إن هرب من أرضنا أحد خرج عن طاعتنا فلا تضموه ، ولا تسرّحوا له قوتاً ولاشيئاً من الاشياء ولا تعينوا علينا أحداً على خالص الأحوال ، ومثل ذلك يكون العمل معكم من جهتنا ، ومنها أن لا تمنعوا المسلمين المدجنين الساكنين بأرضكم من الخروج بأموالهم وعيالهم وأولادهم ، من غير أن يُتعسّف عليهم فى شىء ولا أن يُطلب منهم مغرم إلا

(١) الجفن غطاء العين ، والجمع أجفان ، ويأتى بمعنى غمد السيف . ولم نجده فى اللغة بمعنى السفينة كما يراد به هنا ، وإنما استعمله العامة بهذا المعنى على تشبيه السفينة بجفن العين فى شكلها ، أو لأن الجفن يتضمن معنى الوعاء والله اعلم

ما جرت به العوائد فى مثله ، من غير زيادة . وعلى هذه الشروط أعطينا كم عهدنا ثابتاً صحيحاً ، والتزمنا الوفاء به إلى أقصى أمده ، ما وفيتم لنا بما اقتضاه هذا المكتوب من الفصول وجعلنا الله شاهداً بيننا و بينكم ، والله خير الشاهدين ، ولأن تكونوامنه على صحة و يقين ، أمرنا بكتب هذا الكتاب ، وجعلنا عليه خط يدنا وطابعنا ، شاهداً علينا ، فى أواسط شهر جمادى الآخرة عام ستة وعشرين وسبعمائة (جملة لم تمكن قراءتها) إلى انقضائها صحح فى تاريخه المؤرخ به . (صح هذا)

***

ثم علّق على هذا الكتاب الأخ بنونة بما يلى :

ان فصول المعاهدة متبادلة بين الملكين إلا الفصل الأخير فانه لا مقابل له ، فهل مملكة الأمير محمد بن الاحمر هذا لم يكن بها أناس من النصارى ؟ أو هل كانوا بها ولكنهم كانوا راضين عن حكم المسلمين لا يطلبون السكنى بأرض ملوك ملتهم ؟ وهل وقع هذا النقص فى المعاهدة عن سهو من الكاتب ، أو عن عمد من الملك ؟ هذه أسئلة ترد ولكنى لم أستطع الجواب عنها فأريد رأيكم ، والله يطيل عمركم . ثم لا يعزب عنكم أن هذه المعاهدة على ما يظهر من صدرها ، ومن الكتاب المرفق بها ، هى ترجمة للعقد الذى أتى به جوان انريق ، فهل جقمى نفسه يتبرع بتسريح المسلمين المدجنين من غير أن يحتفظ للنصارى المدجنين بمثل هذا التصريح من قبل محمد بن اسماعيل ؟ لعل فى الأمر سرا لم أفهمه اه .

ونحن نجيب على هذا السؤال جواباً بغاية البساطة وهو :

ان المسلمين المدجنين فى ممالك النصارى لم يكونوا خرجوا من بلادهم بعد استيلاء النصارى عليها كما خرج اخوانهم إلا بسبب العجز عن السفر ، ولم يلبثوا فى تلك الأرض إلا انتظاراً لأول فرصة يتمكنون فيها من الخروج منها ، إلا أن النصارى كانوا يمنعونهم من الخروج استغلالا لهم ، واستفادة من عملهم ونشاطهم ، فكانوا معهم فى حكم الأرقاء ، فلم يكن من مصلحة النصارى أن يخلوا منهم الديار والأراضى . وكان يوجد

فى اسبانية مثل سائر : حيث لايوجد مدجنون لايوجد غلة . فلا عجب بعد ذلك من أن نرى النصارى مانعين للمسلمين الباقين بين أظهرهم من أن يتركوا مزارعهم ، ويخرجوا إلى بلاد الاسلام . فكان المسلمون المدجنون يئنون من هذا الضغط الواقع عليهم ، ومن حالة الرق التى كانوا فيها ، وكانوا يشتكون من وقت إلى آخر إلى ملوك الاسلام ، طالبين إليهم أن يتوسطوا لدى ملوك النصارى فى تركهم يخرجون إلى بلاد الاسلام ، وما سمح فيليب الثانى ملك اسبانية ، ولا هنرى الرابع ملك فرنسة ، بخروج المدجنين من بلدانهم إلا بعد إنذار السلطان احمد العثمانى ، فلا عجب اذاً فى توسط سلطان غرناطة لدى سلطان أراغون فى قضية الاذن للمدجنين بالخروج إلى بلاد الاسلام بأموالهم متى أرادوا

فتقولون لماذا لم يطلب سلطان أراغون إلى سلطان غرناطة الاذن للنصارى بالخروج من بلاده ؟ فالجواب على ذلك أن النصارى الذين كانوا فى غرناطة وملحقاتها لم يكونوا تحت الضغط ، ولا كانوا متعبدين ، حتى يطلبوا الخروج منها ، بل كانوا يؤثرون بلاد الاسلام على بلاد النصارى ، وبالاجمال اذا استقرى الانسان التاريخ يجد النصارى مؤثرين العيش فى بلاد المسلمين ، لا يحبون تركها ، إلا فيما ندر لأسباب خاصة ، وان المسلمين الذين استولى النصارى على بلادهم كانوا يخرجون منها بأجمعهم ولم يكن يبقى فيها إلا من لا يستطيع إلى الخروج سبيلا . نعم فى هذين القرنين الاخيرين عند ما استولت أوربة على كثير من ممالك الاسلام التى أهلوها يحصون بعشرات الملايين ، لم يكن لهم سبيل إلى الخروج منها ، لانه لايوجد بلدان تسعهم فيرحلوا إليها . ولأنهم لم يقطعوا الأمل من أن يرحل الاجنبى عنها .

* * *

كتاب آخر

من سلطان غرناطة إلى سلطان أراغون

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسول الله المصطفى الكريم وعلى (بياض المحو)

ليعلم من يقف على هذا الكتاب و يسمعه اننا الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما اليها ، وأمير المسلمين ، لما وقفنا على عقد الصلح الذى أمضاه علينا محل والدنا السلطان الاوحد المعظم ، أبو الحسن أمير المسلمين[١] ، ملك الغرب ، أيده الله ، مع السلطان المرفع ، ملك قشتالة ، ذون الهُنشه[٢] ، ومن مضمنه أنكم أيها السلطان المعظم ، المرفع المبرور المشكور ، الأوفى الاخاص ، ذون الهنشُ ، ملك أراغون ، وسلطان بلنسية ، وسردانية ، وقمط برجلونة ، ان أردتم امضاء .... والدخول فيه ، فانه يمضى حكمه معكم ، كما أمضى مع ملك قشتالة ، وأردنا نحن أن نثبت هذا الصلح معكم ، خصوصاً بما عندنا من الاعتقاد فى وفائكم ، والقصد الجيل فى تجديد الصحبة التى كانت بين أسلافنا وأسلافكم ، ودار بيننا و بينكم المكاتبة فى ذلك ، اقتضى نظرنا أن وجهنا رسولنا الحظى لدينا . القائد الأجل الاعز ، الارفع الامجد ، أبا الحسن ابن كماشة . أعزّه الله ، نائباً عنا فى تثبيت ذلك الصلح معكم . وتوكيد حكمه . على حسب شروطه ور بوطه المذكورة . التى انعقد عليها الصلح بحضرة فاس . حرسها الله . فى عقده المؤرخ فى شهر جمادى الآخرة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة . المتضمن امضاء . . . لاربعة أعوام ، أولها شهر مارس القريب لتاريخه ، فوصلنا رسولنا منكم بمكتوب عنكم ، عليه طابعكم المعهود منكم ، مضمنه أنكم قد رضيتم بالدخول فى الصلح المذكور معنا على شروطه المذكورة فى عقده ، لانقضاء أمده وارتبطتم إليه ، والتزمتم حكمه عنكم وعن أولادكم واخوتكم ورعمائكم ، وفرسانكم ورعيتكم ، فى البر والبحر ، بالوفاء الخالص فى السر والجهر ، وأنكم قد جددتم مع رسولينا (كذا) المذكور . . . . . و بما أعطيناهما (كذا) من المقر أمرنا نحن بكتب هذا

---

(١) السلطان أبو الحسن المرينى المجاهد الشهير

(٢) المغاربة والاندلسيون يقولون لالفونس « اذفنش » وأحياناً « الفنش » وأحياناً يجعلون الفاء هاء فيقولون « لالفونسه » « الهنشه » ولفرديناند « هرانده »

المكتوب بأننا قد التزمنا لكم الوفاء بذلك الصلح ، على حسب فصوله ، و إلى آخر أمده ، بنية صادقة ،وصفاء طوية فى السر والجهر ، وأعطيناكم عهد الله وميثاقه ، على الوفاء به ، إلى أقصى أمده براً و بحراً عن نفسنا وعن قوادنا وخدامنا ، وجميع أهل مملكتنا ، لا ننقض له حكما ، ولا نغير له رسما ، ولأن يكون هذا ثابتا ، وتكونوا منه على صحة و يقين ، جعلنا عليه خط يدنا وعلقنا عليه طابعنا ، شاهداً علينا . والله خير الشاهدين ، وكتب فى أواخر شهر ذى القعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة عرّف الله تعالى خيره و بركته،بمنه وجوده ، وطوله فيه (على بشر[1] التى انعقد عليها الصلح بحضرة فاس حرسها الله صحيح منه وفى تاريخه) (صح هذا)

* * *

وقد كتب تحت هذا المكتوب الحاج محمد العربى بنونه مايلى :

الذى وضمناه بين هلالين لم نفهم معناه تماماً ، وهو بالأصل ظاهر مشكول تام الحروف . ثم يقول لنا : هذه الرسالة من روائع ما كتبته يد خطاط . قد بلغت الغاية فى حسن الخط ، ونوع خطها هو المسمى عندنا بالمغرب المبسوط ، وهو يشبه النسخى عندكم بالمشرق . ثم يقول لنا : الفنشه هذا هو الفونس الحادى عشر Alfonso XI ملك قشتالة وليون ، تولى من سنة ١٣١٢ ، وقتل بجبل طارق سنة ١٣٥٠ ، وهو الذى تعاهد مع ملك البرتغال ، وحارب معه جيوش الأندلس والمغرب ، وهزمهم قرب مدينة طريف ، وقد شرحتم ذلك فى كتابكم خلاصة تاريخ الأندلس صفحة ١٤٢ ، وشرحه أيضاً الناصرى فى كتاب الاستقصاء صفحة ٦٦ من الجزء الثانى اه .

قلت : أما الذى كتبته في خلاصة تاريخ الأندلس حسبما قال الفاضل الحاج محمد العربى بنونة فهو هذا : وفى سنة ٧٣١ توفى أبو سعيد المرينى ، وقام بالأمر بعده ولى عهده الامير أبو الحسن ، وكان من أجلّ سلاطين الاسلام ، فاشتغل مدة باطفاء فتن

---

(١) لم نفهم المراد بهذه الكلمة هنا ولعلها تحريف ولكن الحاج محمد بنونة يقول إنها تامة الحروف واضحة الخط

مملكته ، ولما خلص له المغرب وجه عنايته إلى الجهاد ، وسمت نفسه إلى حال جده أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وكان الاسبانيول ، بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال وشجر بين المسلمين ، دون التوافى لنصرة بعضهم بعضاً ، قد تغلبوا على كثير من حصونهم . ونازلوهم فى عقر دارهم غرناطة ، وضربوا الجزية على أبى الوليد ، فأدّاها عن يد الذل ، فاعتزم أبو الحسن الجهاد ، وجهز الأساطيل ، وسرّح بالجيش ابنه الأمير أبا مالك ، فغزا أرض العدو ، وأثخن وغنم ، وجمع له العدو فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصاماً ، فأبى إباؤه ، وأقام بأرضه ، فأدركوا عسكره وهم فى مضاجعهم ، وقُتل أبو مالك قبل أن يستوى على جواده ، وتسلم الاسبانيول أكثر قومه ، وغنموا ما معهم . ووصل النعى أبا الحسن والده ، ففت فى عضده ، وتفجع ، وأعمل فى النفير للجهاد ، والأخذ بالثار ، واستدعى الأساطيل من مراسى العدوة ، وأنجده الموحدون من تونس باسطول بجاية ، عليه زيد بن فرحون . قائد البحر . ووافاه اسطول طرابلس وقابس وجربة . واجتمعت كلها بسبتة . معقوداً عليها لمحمد ابن العزفى . وزحفت إلى أساطيل الافرنج . فتحاجزت وتناجزت . وأهبّ الله ريح النصر من جهة بنى مرين . فخالطوا سفن الافرنج . واستلحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم الملند ، وعادوا بالسفن مجنوبة إلى مرفأ سبتة . وطيف بالرؤس ، وجلس السلطان للتهنئة . وكان يوماً مشهوداً

ثم أخذ يجيز العساكر إلى الأندلس ، وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠ ، وخيّم بساحة طريف ، ووافاه سلطان غرناطة بغزاة زناتة ، وجنود الاندلس وشددوا الحصار على طريف ، وجاء الاسبانيول بأسطول عظيم ، حالوا به بين العدوتين ، وامتنع البلد ففنيت الأقوات ، واختلت أحوال المعسكر ، وتكاثرت جموع الاسبانيول ، وأصرخهم صاحب اشبونة البرتغال ، فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلا على حين غفلة ، وكمنوا فى مكان وفى الغد تزاحف الجمعان فبرز الجيش الكمين من البلد ، وخالفوا إلى معسكر السلطان وعمدوا إلى فسطاطه ، فدافعهم الحراس ، فقتلوهم ، وفتكوا بحظايا السلطان ، عائشة

بنت عمه ، وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب افريقية ، وغيرها وسلبوا الفسطاط وأحرقوا المعسكر فلما رأى المسلمون ما حل وراءهم بالمعسكر اختل مصافهم ، وأخذ ابن السلطان أسيراً لمخالطته العدو فى تقدمه ، وانحاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله فدافع ونجا ووصل الطاغية إلى محلة السلطان ، فأنكر على قومه قتل النساء والاولاد . وانهزم ابن الاحمر إلى حمرائه ، وخلص أبو الحسن الى الجزيرة ، فجبلْ طارق ، ومنها إلى سبتة ، وكانت وقعة مشؤومة على المسلمين ، عظم فيها البلاء ، وفدحت الرزيئة ، وجل الخطب .

وقد بالغ بعض مؤرخى الافرنج فى تقدير خسائر المسلمين ، فزعم بعضهم أنه قتل منهم مائتا ألف . وأن خسائر الاسبانيول كانت نحواً من عشرين قتيلا فقط ، وهذا أشبه بقول بعض مؤرخي الاسلام إن خسائر الافرنج فى وقعة الدون بتره بلغت خمسين ألفاً ، ولم يستشهد من المسلمين إلا ثلاثة عشر فارساً ، وقيل عشرة فقط مما يدل على تأخر فن النقد فى تلك الاعصار ، وقبول الاخبار على علاتها بدون عرضها على العقل ، ولا سبرها بمعيار الحكمة والنظر ، على ان هاتين الوقعتين تتشابهان في قضية أسر نساء الملوك ، ففى الاولى أسرت امرأة الطاغية حسب قول العرب ، وفى الثانية أسرت بعض نساء السلطان أبى الحسن ، عدا من قتل منهن .

و بعد هذه الوقعة اشتدت وطأة الاسبانيول على المسلمين وطمعوا فى التهام بقية الاندلس ، ونازلوا قلعة بنى سعيد ، وأخذوها بعد حصار شديد ، فأعاد أبو الحسن بن مرين الكرّة ، وجهّز الاساطيل ، وسرّب البعوث الى الجزيرة الخضراء ، وتلاقت الاساطيل الاسلامية بالاساطيل النصرانية ، فقضى بهزيمة المسلمين ، وملك اسطول الطاغية بحر الزقاق ، وسما له شوق إلى استخلاص الاندلس ، فبعث بالنفير ، ووافته النجدات وحضرت الأوامر من البابا بوجوب القيام يداً واحدة لطرد مسلمى الأندلس وانضم إلى الفونس ملك قشتالة كثير من الملوك ، ووافاه من أنسباء ملك انكلترة ، الكونت دربى ، والكونت سالسبرى ، وغاسطون ، وكونت دفوا ، وكونت

دو بيارن ، وغيرهم ، وزحف الجميع ، ونازلوا الجزيرة الخضراء . ليلحقوها بطريف ، ويستولوا على فرضة مجاز المسلمين ، وحشروا إليها الفعلة والصناع ، للنقب والحفر ، وأطالوا حصارها ، واتخذوا المعسكر بيوتاً من الخشب ، بقصد المطاولة ، كما اتخذوا لمعسكرهم فى القرن التالى بيوتاً من الحجر ، وهم على غرناطة . وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة ، فنزل بظاهر جبل طارق . وطال الحصر ، وأصاب أهل الجزيرة الجهد ، فسألوا الأمان . فبذلوه لهم . وخرجوا إلى المغرب . وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن المرينى خير نزل اهـ .

استوفينا ذكر هذه الواقعة لانها كانت من مقدمات سقوط الاسلام فى الاندلس فان الاسبانيول من بعدها أحاطوا بالجزيرة الاندلسية من جهة المغرب . وصارت مملكة غرناطة فى حكم المحصور . وآل أمرها إلى التلاشى . بحيث لم تمض مائة وخمسون سنة بعد ذلك . حتى صارت أثراً بعد عين .

ولننظر ما قاله فى شأن هذه الوقائع صاحب كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى . العلامة الشيخ احمد بن خالد الناصرى السلاوى رحمه الله . قال :

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه . وعلت على الأيدى يده . وانفسح نطاق ملكه . دعته همته إلى الجهاد . وكان كلفاً به . فأوعز إلى ابنه الأمير أبى مالك أمير الثغور الاندلسية . سنة ٧٤٠ . بالدخول الى دار الحرب . وجهز اليه العساكر من حضرته . وأنفذ اليه الوزراء . فشخص أبو مالك غازيا وتوغل فى بلاد النصرانية واكتسحها ، وخرج بالسبى والغنائم . فاتصل به الخبر أن النصارى قد جمعوا له . وأنهم أغذّوا السير فى اتباعه . فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم . وعبور الوادى الذى كان تخما بين أرض المسلمين ودار الحرب . وأن يتحيز إلى مدن المسلمين فيمتنع بها . فلجّ فى إبايته . وصمم على التعريس . وكان قرماً ثبتاً . إلا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه . فصبّحتهم عساكر النصرانية فى مضاجعهم . قبل أن يركبوا . وخالطوهم فى بياتهم . وأدركوا الامير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوى على فرسه . فجدّلوه .

واستلحموا الكثير من قومه . واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم . واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن . فتفجع لهلاك ابنه . واسترحم له ، واحتسب عند الله أجره ، ثم انفذ وزراءه إلى سواحل المغرب ، لتجهيز الأساطيل ، وفتح ديوان العطاء ، وعرض الجنود ، وازاح عللهم ، واستنفر أهل المغرب كافة ، ثم ارتحل إلى سبتة ، ليباشر أحوال الجهاد ، وتسامعت به أمم النصرانية ، فاستعدوا للدفاع ، وأخرج الطاغية اسطوله إلى الزقاق ، ليمنع السلطان من الاجازة ، واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسى المغرب ، و بعث إلى أصهاره الحفصيين بتجهيز اسطولهم اليه ، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون ، قائد اسطول بجاية ، ووافى سبتة فى ستة عشر اسطولا من اساطيل افريقية ، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس و بونة و بجاية ، وتوافت اساطيل المغربين بمرسى سبتة ، تناهز المائة ، وعقد السلطان عليها لمحمد بن على العزفى ، الذى كان صاحب سبتة ، يوم فتحها أيام السلطان أبى سعيد ، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق ، وقد تكامل عديدهم وعدتهم فاستلأموا وتظاهروا فى السلاح ، وزحفوا إلى اسطول النصارى ، وتواقفوا ملياً ، ثم قربوا الاساطيل بعضها من بعض ، وقرنوها للمصاف ، فلم يمض إلا كلا ولا ، حتى هبّت ريح النصر ، وأظفر الله المسلمين بعدوهم ، وخالطوهم فى أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، وقتلوا قائدهم الملند ، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة ، فبرز الناس لمشاهدتها ، وطيف بكثير من رؤوسهم فى جوانب البلد ، ونظمت اصفاد الأسرى بدار الانشاء ، وعظم الفتح ، وجلس السلطان للتهنئة ، وأنشد الشعراء بين يديه ، وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة ٧٤٠ ، فكان من أعز أيام الاسلام

ثم شرع السلطان أبوالحسن فى اجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة ، وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة ، من العدوة إلى العدوة ، ولما تكاملت العساكر بالعبور ، وكانت نحو ستين الفاً ، أجاز هو فى اسطوله مع خاصته وحشمه ، آخر سنة ٧٤٠ ،

ونزل بساحة طريف ، وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع فى منازلتها ، ووافاه سلطان الاندلس أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن الأحمر . فى عسكر الاندلس من غزاة بنى مرين . وحامية الثغور . ورجّالة البدو . فعسكروا حذاء معسكره . وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً . وأنزلوا بها أنواع القتال . ونصبوا عليها الآلات ، وجهّز الطاغية اسطولا آخر . اعترض به الزقاق . لقطع المرافق عن المعسكر . وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت ازوادهم . وقلّت العلوفات . فوهن الظهر . واختلت أحوالهم . ثم احتشد الطاغية امم النصرانية . وظاهره البرتقال . صاحب اشبونة . وغرب الاندلس . وزحفوا إلى المسلمين . لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين . سرّب إلى طريف جيشاً من النصارى . أكمنه بها إلى وقت الحاجة . فدخلوها ليلا . على حين غفلة من العسس . الذين أرصدوا لهم ، وأحسوا بهم آخر الليل ، فثاروا بهم من مراصدهم ، وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ، وقد نجا أكثرهم ، فلبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم ، حذراً من سطوته ، ثم زحف الطاغية من الغد فى جموعه إلى المسلمين ، وعبّى السلطان مواكبه صفوفاً ، وتزاحفوا ، ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد ، وهو الذى دخل ليلا . وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم . وعمدوا إلى فسطاط السلطان . فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته . فاستلحموهم لقتلهم . ثم دافعهم النساء عن أنفسهن . فقتلوهن كذلك . وخلصوا إلى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبى بكر بن يعقوب بن عبد الحق . وفاطمة بنت السلطان أبى بكر أبى زكريا الحفصى . وغيرهما من حظاياه . فقتلوهن . واستلبوهن . ومثّلوا بهن . وانتهبوا سائر الفسطاط . وأضرموا المعسكر ناراً . ثم أحس المسلمون بما وراءهم فى معسكرهم . فاختل مصافهم . وارتدوا على أعقابهم . بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبى الحسن صمم فى طائفة من قومه وحاشيته . حتى خالطهم فى صفوفهم . فأحاطوا به وتقبضوا عليه . وعظم المصاب بأسره . وكان الخطب على الاسلام قلّما فجع بمثله

وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة احدى وأربعين وسبعمائة . وولى السلطان أبو الحسن متحيزاً إلى فئة المسلمين . واستشهد كثيرمن الغزاة . وتقدم الطاغية حتى انتهى إلى فسطاط السطان من المحلة ، فأنكر قتل النساء والولدان ، وكان ذلك منتهى أثره . ثم انكفأ راجعاً إلى بلاده . ولحق ابن الأحمر بغرناطة وخلص السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء . ثم منها إلى جبل الفتح . ثم ركب الاسطول إلى سبتة ليلة غده ومحّص الله المسلمين وأجزل ثوابهم

ولما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس ، وطمع فى التهامهم وجمع عساكر النصرانية ، ونازل أولا قلعة بنى سعيد ، ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها ، وجمع الآلات والأيدى على حصارها ، وأخذ بمخنقها ، فأصابهم الجهد من العطش ، فنزلوا على حكمه سنة ٧٤٢ ، وأدال الله الطيب منها بالخبيث ، وانصرف الطاغية إلى بلاده ، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد ، لرجع الكرة ، فأرسل فى المدائن حاشرين ، وأرسل قواده إلى سواحل المغرب ، لتجهيز الأساطيل ، فتكامل له منها عدد معتبر ، ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفة ثغور الأندلس ، وقدم عساكره إليها مع وزيره عسكر ابن تاحضريت ، وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد ابن العباس بن تاحضريت ، من قرابة الوزير ، و بعث إليها مدداً من العسكر مع موسى ابن ابراهيم اليرينانى من المرشحين للوزارة نيابة ، و بلغ الطاغية خبره ، فجهّز اسطوله ، وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته ، وتلاقت الاساطيل ، ومحّص الله المسلمين ، واستشهد منهم أعداد ، وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلمين ، وأقبل الطاغية من اشبيلية فى عساكر النصرانية ، حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء ، مرفأ أساطيل المسلين ، وفرضة المجاز ، ورجا أن ينظمها فى مملكته مع جارتها طريف ، وحشر الفعلة والصناع للآلات ، وجمع الأيدى عليها وطاولها الحصار ، واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة ، وجاء السلطان أبو الحجاج ابن الاحمر بعساكر الاندلس ، فنزل قبالة الطاغية ، بظاهر جبل الفتح ، فى سبيل

المانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرّب إلى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت ، فى أوقات الغفلة من أساطيل العدو ، وتحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين فى ذلك ، ولم يغن عن أهل الجزيرة ذلك المدد شيئاً ، واشتد عليهم الحصار ، وأصابهم الجهد ، وأجاز السلطان أبو الحجاج إلى السلطان أبى الحسن يفاوضه فى شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له فى الاجازة مكرا به ، وأرصد له بعض الاساطيل فى طريقه فصدقهم المسلمون القتال ، وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق . وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان ، فسألوا الطاغية الأمان ، على أن ينزلوا له عن البلد ، فبذله لهم ، وخرجوا فوفى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ٧٤٣ ، فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ، ولقاهم من المبرّة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم ، وخلع عليهم ، وحملهم ، ووصلهم بما تحدث الناس به ، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت ، عقوبة له على تقصيره فى المدافعة ، مع تمكنه منها ، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعاً إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله ، و إنجاز وعده ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . اه

* * *

وهذا كتاب آخر وجد تحت رقم ٢٨ من المجموعة البرشلونية :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما .

السلطان الأجل المرفع ، المكرم المبرور ، الأوفى المشكور ، الأخلص دون الفنشُ ، سلطان أراغون و بلنسية وقرسفة وقمط برجلونة وصاحب سردانية ، وصل الله كرامته بتقواه . وأسعده بطاعته ورضاه . حافظ عهده ، وشاكر مذهبه فى المصادقة وقصده . مكرم مملكته . وشاكر قصده . فى خلوص مودته . الحافظ لعهده وصحبته الامير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر . أيده الله ونصره . أما بعد . فانا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة . حرسها الله . عن الخير الأكمل واليسر الاشمل . والحمد لله كثيرا . وجانبكم مبرور . وقصدكم فى الصحبة مشكور ،

ومحلكم فى سلاطين النصرانية معروف مشهور . و إلى هذا فانه توجه فى هذه الأيام خمسة أشخاص من التجار من أهل بلادنا ثقة بعهدكم . وركوناً إلى صحبتنا معكم . فتعرفنا أن النائب عنكم فى قربليان ثقفهم ، وثقف أموالهم . فخاطبناكم فى شأنهم . وقصدنا منكم تسريحهم وتسريح أموالهم . وأن تنفذوا أمركم بذلك لمن ينوب عنكم تحفظوا بذلك عهدنا ، وتقضوا لنا فى ذلك . . . نشكركم عليها وهذا قصدنا منكم فعسى أن تعملوا فيه ما هو المعلوم منكم ، والمضمون عنكم ، والله يصل كرامتكم بتقواه و يسعدكم بطاعته ورضاه . والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيرا ، كتب فى الموفى ثلاثين لجمادى الأولى من عام ثمانية وعشرين وسبعمائة . (صح هذا) .

هذا الملك المكتوب إليه هنا هو الفونس الرابع الأراغونى ، تولى أراغون وملحقاتها بعد جقمى الثانى من سنة ١٣٢٧ إلى سنة ١٣٣٦ .

وتحت رقم ٣٢ من هذه المجموعة كتاب من أبي النعيم رضوان وزير ابن الاحمر إلى هذا الملك نفسه وهو ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

مولاى السلطان الأجل الأكرم ، الأوفى المعظم ، المشكور الأخلص ، ذون الفنشُ ، ملك أراغون ، و بلنسية ، وسردانية ، وقرسقة ، وقمط برجلونه . وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، خديمه موفى واجب البر بجانبه ، ومكمل الثناء على مقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، رضوان بن عبد الله ، و زير السلطان ، ملك غرناطة ومالقة ، والمرية ، ووادى آش ، وما إلى ذلك . كتبه إليكم من باب مولاه ، أيده الله ونصره ، بحمراء غرناطة حرسها الله ، وليس بفضل الله سبحانه ، ثم بنعمة مولاى أبقى الله إحسانه ، إلا الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وعن العلم بمحلكم فى السلاطين الأوفياء ، والشكر لما لكم فى الوفاء من المقاصد

والانحاء ، و إلى هذا فوجبه اليكم ، هو أن الزعيم المكرم ، جقمى شارقة ، قريبكم ، اجتمع فى محلة جبل الفتح ببعض ناس هذه الدار النصرية ، وعرفهم بما عندكم من القصد الجيل فى الصلح معها ، وانه لو خاطبكم مولاى فى ذلك لعملتم فيه ما يعود بتجديد الصحبة والمدة ، وتوكيد العهد ، وقد كتب اليكم فى ذلك مولاى الكتاب الذى يصلكم ، ووجّهه مع خديمه التاجر المكرم بَشْقَلِين سريجة ، وهو يصلكم بكتابه ، و إن كان لكم غرض فى هذه الحال فعرفونى ، وأعمل فيها ما يكون فيه الخير للفريقين إن شاء الله ، والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيرا أثيرا ، وكتب فى اليوم الثامن عشر لشهر المحرم مفتتح عام اربعة وثلاثين وسبعمائة اه .

وهذا كتاب آخر تحت رقم ٣٣ من المجموعة البرشلونية من الوزير أبى النعيم رضوان نفسه إلى الملك الفونس نفسه .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

مولاى السلطان الأجل ، المعظم المرفع الموقر ، المبرور المشكور الشهير الأوفى ، ذون الهنشة ، ملك أراغون . و بلنسية وسردانية . وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، معظم سلطانه ، وموقر مكانه ، وزير السلطان أيده الله ونصره ، رضوان بن عبد الله . كتبه إليكم من باب مولاه بحمراء غرناطة ، حرسها الله ، ولا زائد بفضل الله ، ثم ببركة أيام مولانا أدام الله إحسانه ، إلا الخير الأكمل واليسر الأشمل ، والحمد لله . وعن التعظيم لسلطانكم ، والتوقير لملكتكم ومكانتكم . و إلى هذا فقد وصلنى كتابكم المعظم صحبة رسول مولانا أيده الله إليكم القائد الأجل . أبى الحسن بن كُماشة . أعزه الله ، تقررون معتقدكم الجيل . وقد شكرت ذلك أبلغ الشكر . وعرفت ما عندكم من القبول والعناية والكرامة . وقابلت ذلك بما يجب من الثناء عليكم . واعلموا أننى لا أزال أؤكد العهد بين مولاى و بينكم وأثبت الود وأعمل فى ذلك ما أوفى به حق خدمته وكرامتكم حسب الواجب على .

وقد ألقى إليّ القائد أبو الحسن أعزه الله فى ذلك ما وافق مقتضى كتابكم ووصل صحبته رسولكم الحظى لديكم . المكرم المبرور المشكور رَمُون بيل . وحضر بين يدى مولاى . أيده الله . وأوصل هديتكم إلى مولاى . ووقف عليها واستحسنها . ووقعت عنده أحسن موقع ، وشكر قصدكم فى ذلك ، وكذلك وصل ما تفضلتم الى معظم مجدكم ، فقابلت سلطانكم بالشكر الجزيل ، والثناء الجميل ، وسرتنى عنايتكم ، وحسن اعتقادكم،وما مُعَظِّمكم الا على مايرضيكم ، من الاعتقاد فيكم ، فكونوا من ذلك على يقين . وقد ألقيت فى ذلك الى رسولكم المذكور ، ما يلقيه اليكم فى هذا المعنى ، والله تعالى يصل عزتكم بتقواه ، ويسعد سلطانكم بطاعته ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً . كتب فى السابع والعشرين لذى قعدة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة عرفنا الله بركة اختتامه بمنه وكرمه . اه

وتحت رقم المجموعة ٣٤ الكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله

مولاى الأفَنْت الكبير ، الأعز المرفع ، المبرور المشكور ، ذُنْ بِذْرُه ، ادام الله لنا أيامكم ، ووصل هدايتكم وإكرامكم ، يسلم عليكم مقبل يديكم وخديمكم ، على بن كماشه ، من باب مولانا ، أيده الله ونصره ، وليس بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة ايام مولانا ، ادامها الله ، الا الخير واليسر ، والحمد لله كثيراً . والذى وجب به تعريفكم انه وصل خديمكم رَمُون بُويل ، وقضى رسالته كما يجب ، وعمل اعمال الفرنسان الجياد، وادخلنى فى محبتكم وخدمتكم ، وانا يامولاى عملت فى خدمتكم مايعرفكم به خديمكم رمون بويل ، وتكلم أيضاً رمون بويل مع مولانا ، نصره الله ، وفى حق ان تلك لدار ، وهذه الدار واحدة ، فترى يصلكم كتاب مولانا السلطان ، وهو كتاب محبة وصحبة ، وترى يصلكم يامولاى قوس افرنجي ، وكذلك يامولاى تقبّل بيد مولاى الإفَنْت أخيكم ، ذن جيميه ، وكذلك يصل له قوس افرنجى ، وذلك يا مولاي فى حقكم . ومعاد السلام عليكم ورحمة الله وهدايته ، وكتب بتاريخ الخامس عشر لشهر ذي حجة من عام خمسة وثلاثين وسبعمائة اه

* * *

وأردف ذلك الحاج محمد بنونه بقوله : ابن كُماشة[١] هذا اظن انى رأيت الكلام عليه فى أحد كتب ابن الخطيب ، إما فى اللمحة البدرية ، و إما فى الاحاطة . اما بِذْرُه (أو بترُه كما ترى اسمه مكتوباً فى رسائل أخرى ستصلكم بعده) فهو الذى توج ملكا على أراغون باسم بترُه الرابع من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧

* * *

كتاب آخر من سلطان غرناطة الى ملك أراغون تحت رقم ٣٣ فى المجموعة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

السلطان الأجل الأكرم ، الأوفى المعظم ، المبرور المشكور ، الأخلص دون الفُنْشُه ، ملك أراغون و بلنسية وسردانية وقرسقة ، وقمط برجلونة ، وصل الله عزته بتقواه ، وأسعده بطاعة الله ورضاه ، شاكر البر بجانبه ، المثنى على مقاصده فى الوفاء ومذاهبه ، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر أما بعد ، فانّا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، عن الخير الأكمل ، واليسر الأشمل ، والحمد لله كثيراً ، وجانبكم مبرور ، وقصدكم فى الصحبة مشكور ، ومنصبكم فى بيت المملكة معلوم مشهور ، و إلى هذا فموجبه إليكم ، هو أنه مازالت الصحبة من دار غرناطة تتجدد بين أسلافنا ، وانّا وقفنا الآن فى العقد الذى كان قد أُخذ فيه مع ملك قَشتلّة على إشارة إلى صلحكم ، فرأينا أن وجهنا كتابنا هذا إليكم ، فى شأن هذه القضية ، فان كان لكم فى الصحبة والمصادقة غرض ، فنحن نغتبط بذلك ، وعندنا من المساعدة لكم عليه كل مايرضيكم ، فعرفونا بما عندكم فى ذلك ، و يصلكم بكتابنا هذا التاجر المكرم بُشْقَلِين شِريجه خديمنا أكرمه الله بتقواه ، وقد ألقينا إليه في توكيد المودة مايلقيه إليكم ، و ينصه عليكم . فاعلموا ذلك

---

(١) نعم ورد فى كتابنا هذا ذكر ابن كماشة وذكر آل كماشة وقد كان وزير السلطان أبى عبد الله بن الأحمر آخر ملوك الاسلام بالاندلس من هذا البيت

والله سبحانه يصل عزتكم بتقواه ، و يسعدكم بطاعته ورضاه ، والسلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً ، وكتب فى يوم الأربعاء الثامن عشر لشهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، عرف الله تعالى خيره و بركته (صح هذا)

* * *

لابأس بأن نترجم هنا سلاطين غرناطة الذين صدرت عنهم هـذه المكاتيب إلى ملوك أراغون ، وقد اخترنا لهذه التراجم لسان الدين بن الخطيب ، أعلم الناس بهم ، وأقربهم إليهم . قال فى اللمحة البدرية :

اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن محمد بن احمد بن محمد بن خميس ، ابن نصر بن قيس الأنصارى الخزرجى ، أمير المسلمين بالأندلس ، يكنى أبا الوليد .

كان رحمه الله كريم الخلق ، حسن الرواء ، رجل جـد ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقد ، ثبتاً فى المواقف ، عفيف الازار ، ناشئاً فى حجر الطهارة ، بعيداً من الصبوة ، بريئاً من المعاقرة ، نشأ مشتغلا بشأنه ، متبنكا بنعمة أبيه ، مختصاً بايثار السلطان ، جده أبى أمه ، وابن عم والده ، منقطعا إلى الصيد ، مصروف اللذة إلى استجادة سلاحه ، وانتقاء مراكبه ، واستفراه جوارحه ، إلى أن قضى إليه الأمر وساعدته الايام ، وخدمه الجد ، وانتقل به إلى بيت الملك ، وثوى فى عقبه الذكر ؛ فبذل العدل فى رعيته ؛ واقتصد فى جبايته ؛ واجتهد فى مدافعة عـدو الله وعدوه ، وسد ثلم ثغره ، وكان غرة في قومه ، ودرة فى بيته ، وحسنة من حسنات دهره .

تخلف من الولد أربعة : أكبرهم محمد ولي عهده ، والأمير من بعـده . وفرج شقيقه التالى له ، المنصرف عن الأندلس بعد مهلك أخيه ، المتقلب أخيراً فى الايالات المتوفى معتقلا بالمرية ، عام أحد وخمسين وسبعمائة ، مظنونا به الاغتيال . ثم أمير المسلمين أخوه أبو الحجاج ، تغمده الله برحمته ، أقعد القوم فى الملك ، وأبعدهم أمداً فى السعادة ثم اسماعيل أصغرهم ، المبتلى زمن شبيبته بالاعتقال المخيف مدة أخيه المستقر بالمغرب .

وزراؤه :

وزيره أول أمره القائد أبو عبد الله محمد بن أبى الفتح ، نُصير بن ابراهيم بن محمد

ابن نصير بن أبى الفتح الفهرى ، و بيت هؤلاء القواد شهير ، ومكانتهم من الملوك النصريين مكينة ، ثم أشرك معه فى الوزارة الوزير أبا الحسن على بن مسعود بن على ابن مسعود المحاربى ، من أعيان الحضرة ، وذوى النباهة ؛ فجاذب رفيقه حبل الخطة ونازعه لباس الحظوة ؛ حتى ذهب باسمها ومسماها ؛ وهلك القائد أبو عبد الله ابن أبى الفتح فخلص إليه شربها .

كتّابه :

كتب عنه لأول أمره بمالقة ، ثم بطريقه إلى غرناطة ، وأياماً يسيرة بها ، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صفوان المالقى . ثم ألقى المقادة إلى كاتب الدولة قبل شيخنا أبي الحسن بن جيّاب فاضل الخطة ، و بارى القوس ، واقتصر عليه إلى آخر أيامه .

قضاته :

استقضى أخا وزيره الشيخ الفقيه أبا بكر يحيى بن مسعود بن على ، رجل الجزالة وفيصل الحكم . فاشتد في إقامة الحق ، وغلظ بالشرع ، واستعان بالجاه ، فخيفت سطوته ، واستمر قاضياً إلى آخر أيامه .

رئيس جنده المغربى :

ومن أول هذه الدولة نبهت هذه الرتبة ، واستحقت أفرادنا إياها .

الشيخ البهمة ، لباب قومه ، وكبير بيته ، أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ادريس ابن عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ، مشاركا له فى النعمة ، ضارباً بسهم في المنحة كثير التجنى والدالة ، إلى أن هلك المخلوع ، وخلا الجو ، فكان منه بعض الاقصار .

الملوك على عهده :

وأولا بالمغرب ثم بفاس : السلطان الشهير ، جواد الملوك ، الرحب الجناب ، الكثير الأمل ، خِدن العافية ، ومحالف الترفيه ، ومتبحبح النعيم ، السعيد على خاصته وعامته أبو سعيد عثمان ابن السلطان الكبير ، المجاهد الصالح ، المرابط أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق . وجرت بينهما المراسلات ، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه

وصدراً من أيام ولده الأمير أبى عبد الله ، حسب ما يمر عند ذكره

و بتلمسان : الأمير أبو حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ثم توفى قتيلا بأمر ولده على عهده سادس عشر جمادى الثانية من عام ثمانية عشر وسبعمائة

وولّى الأمر مغتاله ولده المذكور أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى ، واستمرت أيامه بعد مهلك السلطان المذكور ، واستغرقت أيام ولده الوالى بعده ، إلى أن هلك فى صدر أيام السلطان أبى الحجاج ، وجرت بينه و بين السلطان أبى الوليد مراسلات ومهاداة

و بمدينة تونس : الشيخ الملقب بامرة المؤمنين ، أبو يحيى زكريا ابن أبى العباس ابن أبى حفص ، المدعو باللحيانى ، المتوثب بها على الأمير أبى البقاء خالد بن ابى زكرياء ابن أبى اسحق بن أبى حفص ، وهو كبير آل حفص سناً وقدراً . تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام أحد عشر وسبعمائة وتم له الأمر

واعتقل أبا البقاء بعد خلعه ، ثم اغتاله ، فى شهر شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة . ثم رحل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها ، وتوجه إلى أطرابلس فى وسط عام خمسة عشر وسبعمائة ، واستناب صهره الشيخ أبا عبد الله بن أبى عمران ، ولم يعد إليها بعد ذلك

ثم اضطرب أمر أفريقية ، وتناوبه عدة من الملوك الحفصيين ، منهم الأمير أبو عبد الله ابن أبى عمران المذكور ، وأبو عبد الله اللحيانى ، والسلطان أبو بكر ابن الأمير أبى زكريا بن الأمير أبى اسحق ، لَبِنَة تمامهم ، وآخر رجالهم . واستمرّت أيامه إلى مدة ولده الأمير بالأندلس ، ثم معظم أيام ولديه . رحم الله الجميع .

ومن ملوك الروم أولا بقشتالة : كان كل عهده ، و بالزمن القريب من ولايته وفاة الطاغية هرانده بن شانجه بن الفونش بن هرانده (المجتمع له ملك ليون وقشتالة وهو المتغلب على قرطبة واشبيلية ومرسية وجيان) ابن الهونش (الجارية له وعليه وقعتا الأرك والعُقاب) ابن شانجه (المسمى انبرذور وهو الذى أفرد صهره زوج بنته بملك برتقال) إلى أجداد يخرجنا تقصّى ذكرهم عن الغرض

ومن ملوك رغون بشرق الأندلس : الطاغية جايمش ابن بيطْرُه بن جايمش (الذى تغلب على بلنسية) ابن بيطره بن الهونش ، إلى أجداد عدة كذلك . ثم هلك فى أخريات أيامه ، فولى ملك رغون بعده الهونش بن جايمش إلى آخر أيامه

و ببرتقال : الهونش بن ذونيش بن الهونش بن شانجه بن الهونش بن شانجه بن الهونش ، وتسمى أولا دوقا

بعض الأحداث و بداية أمره :

ولما تصير الأمر إلى السلطان نصر ، مدبّر الوثوب بأخيه ، تنازعت بطانته ، وساءت سيرة ملكه ، فأغرى بالرئيس الكبير صاحب مالقة ، و بيده الجزيرة وسبتة ويعقّب عليه كثير من التصرف فيما بيده ، ثم لما وصل إلى الحضرة مبايعاً ، داخله بعضهم محذرا ومشيراً بالامتناع . فاستعجل الانصراف . وأظهر الاستبداد فى رمضان سابع عشر منه . وأقام رسم الملك بولده السلطان أبى الوليد هذا . وتحرك فنازل الحصون المجاورة لمالقة واستولى عليها

وفى أول شهر محرم من عام اثنى عشر وسبعمائة تحرك فنزل بقرية العطشاء من مرجها . و برز السلطان نصر إليه ، فى جيش اخشن . مستجاد العدة وافر الرَّجْل فكان اللقاء ثالث عشر الشهر . فأظهر الله أقل الطائفتين . وانجرت على الجيش الغرناطى الهزيمة . وكبا بالسلطان نصر فرسه فى مجرى سقى لبعض الفدن . فنجا بعد لأى ودخل البلد مفلولا . وانصرف الجيش المالقى ظاهراً إلى بلده ثم وقعت المهادنة فى ربيع الاول من هذا العام . وعادت الفتنة جذعة [١] فى العام بعده

وكانت فى رمضان منه ثورة الأشياخ بغرناطة ، ودعاؤهم بخلمان السلطان ، ودعوة مخلوعه المعتقل ، طالبين منه اسلام وزيره خِدْن الروم ، المتهم على الاسلام ، محمد بن الحاج . ثم لحق الاشياخ المذكورون فارين بمالقة ، عند اختلال ما أبرموه .

وكانت الحركة الثانية الى غرناطة ، بعد أمور اختصرتها من استبداد السلطان

---

(١) أى تجددت

أبي الوليد بنفسه ، والانحطاط فى القبض على أبيه الى هوى جنده ، والتصميم فى طلب حقه ، فاتصل سيره ، واحتل ببلدنا لوشة سرار شوال فتملكها . ثم قصد غرناطة ، و برز إليه جيشها ، وابلى فى الدفاع ، فكادت تقع به الدبرة ، لولا ثبوت السلطان واسلفهم الحملة ، فولوا منهزمين ، وتبعهم الى سور المدينة . وقد خف اللفيف والغوغاء ، والناعقون بالحلمان ، الشرهون الى تبديل الدعوات ، الى تسنم المآذن والمناره والر بى. و برز أهل ر بض البيازين الهافون الى مثل هذه البوارق ، الى شُرُف بيوتهم كلٌ يشير مستدعياً مستقدماً ، اعلاناً بسوء الجوار ، وملال الايالات ، والانحطاط فى وهد التقلب والتلوّن ، وسآمة العافية : شنشنة معروفة ، وخليقة فى الخليقه مألوفة . و بودر غلق باب البيرة فنقض قفله ، ودُخلت المدينة ، ولجأ السلطان الى معقل الحمراء ، ودخله بأهله وذخيرته وخاصته ، ونزل الدائل بالقصبة القُدمى تجاهها ، ينفذ الصكوك ، و يتألف الشارد ، و يذيع العفو ، وضعفت بصائر المحصور ين وفشلوا ـ على وجود الطعمة ، وتمكن المنعة ، ووفور المال ـ فالتمسوا لأنفسهم ولسلطانهم عهداً و نزلوا منتقلين الى مدينة وادى آش ، فى سبيل العوض بمال معروف ، وذخيرة ، فتم ذلك ، وخرج السلطان نابياً به قرار جده وأبيه ، جانياً على ملكه الاخابثُ الاغمار ، ليلة الثامن والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، الى ان هلك حسب ما تقدم ذكره ، وخلا للسلطان أبي الوليد الجوّ ، وضربت اليه المقادة ، وأطاعه القاصى والدان ، ولم يختلف عليه اثنان

مناقبه :

اشتد على أهل البدع ، وقصر الخوض على ما تضطر اليه الملّة . ولقد تذوكر يوماً بين يديه أصول الدين فقال : أصول الدين عندى : (قل هو الله أحد) (السورة) وهذا (وأشار الى سيفه)

واعتنى بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبذل فى فداء بعض أعلامهم

ما يعز بذله ، ونقل منهم بعضا من حرف خبيثة ، فزعموا انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكر له ذلك

واشتد فى اقامة الحدود ، واراقة المسكرات

وأخذ يهود الذمة بالتزام سِمة تشهرهم ، وشارة تميزهم ، ليوفوا حقهم ، من المعاملة التى أمر بها الشارع فى الطرق والخطاب

جهاده و بعض الاحداث فى مدته :

التاثت أموره لأول مدته ، فجرت عليه الهزيمة الشنيعة بوادى فرتونة . أوقع بجيشه الطاغية بمظاهرة السلطان المخلوع ، ففشا فى الاعلام يومئذ القتل فى صفر من عام ستة عشر وسبعمائة ، وظهر العدو بعدها على حصن قنبل ، وحصن متمانس ، وحصن نجيح وحصن تشكر ، وحصن رُوط ، ثم صرفت المطامع عزمه إلى الحضرة ، فقصد مرجها وكف الله عاديته ، وقمعه ، ونصر الاسلام عليه ، ودالت للدين الهزيمة العظمى بالمرج على بريد منها . واستولى على محلاته النهب ، وعلى فرسانه ورجاله القتل والإسار ، وعظم الفتح ، وبهر الصنع ، وطار الذكر ، وثاب السعد ، واستقامت الأيام . وهلك المخلوع ، فصفا الجو ، واتحدت الكلمة ، وأمكن الجهاد ، فتحرك فى رجب من عام أربعة وعشرين وسبعماية ، وأعمل الحركة إلى بلاد العدو ، ونازل اشكر الشجَى المتعرض فى حلق مدينة بسطة — فأخذ بمخنقها ، ونشر الحروب عليها ورمى بالآلة العظمى ، المتخذة بالنفط ، كرة محماة ، طاقة البرج المنيع من معقله ، فعاثت عياث الصواعق السماوية ، فنزل أهلها قسراً على حكمه للرابع والعشرين من الشهر ، وفى ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكرياء بن هذيل رحمه الله من قصيدة أولها :

بحيث البنود الحمرُ والأسد الوردُ   كتائب سكان السماء لها جندُ

وفى وصف آلة النفط :

وظنوا بأن الرعدَ والصعقَ فى السما   فحاق بهم من دونها الصعقُ والرعدُ
غرائبُ أشكال سَماهُرمِسٌ بها   مُهنْدَمَةٌ تأتى الجبالَ فتنهدُّ

ألا إنها الدنيا تريك عجائباً وما فى القوَى منها فلا بد أن يبدو

وأقام رحمه الله بظاهرها فصيرها دار جهاده ، وعمل فى خندقها بيده ، وفى ذلك يقول شيخنا كاتب سره ، نسيج وحده أبو الحسن بن الجياب ، رحمه الله ، من قصيدة أولها :

أمّا مَداكَ فغايةٌ لم تُسبقِ أعيتْ على غُرّ الجياد السبّقِ
فاشرح بسعدك كلّ معنًى مشكلٍ وافتح بسيفك كلّ باب مغلق

فى وصف عمله فى خندق الحصن :

لله منك مَشاهِدٌ مشكورة عند الاله بمثلها لم تُسبقِ
مثل الحفير بها الذى باشرته فِعلَ الرسولِ وصحبِهِ فى الخندق

وفى العاشر لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة تحرك إلى الغزو ، وأخذ الأهبة ، واستكثر من الآلة ، واحتشاد المطوعة ، وقصد مدينة مرْتُش العظيمة الساحة الطيبة البقعة ، فأضرب بها المحلات ، وكان قصده إجمام الناس إلى الغد ، فصرفت الحشود وجوهها إلى مابها من شجر الكروم الملتفات ، وأدواح الاشجار ، فأمعنوا فى افسادها ، و برز حاميتها ، فناشبت الناس القتال لحميت النفوس ، وأريد منع الناس فأعيا أمرهم ، ومال منهم البحر ، فتعلقوا بالاسوار ، وقيل للسلطان : بادر الركوب ، فقد دُخِل البلد ، فركب ووقف بأزائه ، فدخل الحصن عنوة ، واعتصم أهله بالقصبة فدُخلت أيضا عنوة ، وانطلقت أيدى الغوغاء على من بها من ذكر وأنثى ، صغير أو كبير ، فساءت القتلة ، وقبحت الاحدوثة ، ورفعت من الغد آكام من الجثث ، صعدت ذراها المؤذنون ، وقفل إلى غرناطة بنصر لا كفاء له . وكان دخوله من هذه الغزاة فى الرابع والعشرين لرجب المذكور .

وفاته :

ولما فصل من مَرْتُش ، نقم على أحد الرؤساء من قرابته ، وهو ابن عمه محمد بن اسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة ، أمراً فقرّعه عليه ، و بالغ فى تأنيبه ، وتوعّده بما

أثار حفيظته ، فأقدم عليه بالفتكة الشنعاء ، التى ارتكبها منه بباب قصره ، بين عبيده آمَنَ ما كان سِرْباً ، وأعز نفراً ، وأمكن امتناعاً ، غدوة يوم الاثنين الثالث من يوم دخوله ، بعد أن عاهد فى الأمر جملة من القرابة والخدام ، ووثب به وهو مجتاز بين السماطين من ناسه ، إلى مجلس العقود الخاص ، فاعتنقه ، وسل خنجراً ملصقاً بذراعه فأصابه بجراحات ثلاث : إحداهن بأعلى ترقوته ، فَرَتْ وَدَجَه ، فخرّ صريعاً وصاح فكرّ الوزير ، فعمّمته سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك ، ووقعت الرجة ، وسُلت السيوف ، وتشاغل كلٌّ بمن يليه ، وأستُخلص السلطان من بين يديه ، وحِيلَ بينه و بينه ، فرُفع وظنت نجاته ، فوقع البهت ، و بادر الفرار ، وقد سدّت المذاهب فقتلوا حيث وجدوا .

وأخذت الظِنَّةُ قوماً من أبريائهم ، فاستُحلفوا ونهبت الغوغاء دورهم وعلقت بالجدران أشلاؤهم ، واحتمل السلطان إلى بعض دوره و به رمق ، للزوق العمامة بفوهة وَدَجه المبتور ، ففاض لحينه رحمه الله . ودفن غلس ليلة يوم الثلثاء ثانى يوم وفاته ، بروضة الجنان من قصر إلى جانب جده ، وتنوهىَ فى احتفال قبره نقشاً وتنجيداً واحكاماً وحلياً وتمويهاً ، بما يشذ عن الوصف ، وكتب على قبره نقشاً فى الرخام :

« هذا قبر السلطان الشهيد ، فتّاح الأمصار ، وناصر ملة المصطفى المختار ، ومحيي سبيل آبائه الأنصار ، الامام العادل ، الهمام الباسل ، صاحب الحرب والمحراب ، الطاهر الأنساب والأثواب ، أسعد الملوك دولة ، وأمضاهم فى ذات الله صولة ، سيف الجهاد ، ونور البلاد ، الحسام المسلول فى نصرة الايمان ، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن ، المجاهد فى سبيل الله ، المنصور بفضل الله ، أمير المسلمين أبي الوليد اسماعيل بن الهمام الأعلى ، الطاهر الذات والنجار ، الكريم المآثر والآثار ، كبير الامامة النصرية ، وعماد الدولة الغالبية ، المقدس المرحوم أبى سعيد فرج بن علم الاعلام ، وحامى حمى الاسلام ، صنو الامام الغالب ، وظهيره العلىّ المراتب ، المقدس المرحوم أبى الوليد اسماعيل بن نصر ، قدس الله روحه الطيّب ، وأفاض عليه غيث رحمته الصيّب ،

ونفعه بالجهاد والشهادة ، وحباه بالحسنى والزيادة ، وصنع له فى فتح البلاد ، وقتل كبار ملوك الأعاد ، مايجده مذخوراً يوم التناد ، إلى أن قضى الله بحضور أجله ، فختم عمره بخير عمله ، وقبضه إلى ما أعد له من كرامته وثوابه ، وغبار الجهاد طى أثوابه * استُشهد رحمه الله غدرة أثبتت له فى الشهداء من الملوك قدما ، ورفعت له فى أعلام السعادة علما * ولد رضى الله عنه فى الساعة المباركة بين يدى الصبح من يوم الجمعة ، سابع عشر شهر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة ، و بويع يوم الخميس السابع وعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، واستُشهد فى يوم الاثنين السادس والعشرين لشهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة * فسبحان الملك الحق ، الباقى بعد فناء الخلق » .

و بعده من جهة أخرى :

تخصُّ قبركَ يا خيرَ السلاطين ... تحية كالصَّبا مرَّت بدارين
قبرٌ به من بنى نصرٍ إمامُ هدًى ... عالى المراتب فى الدنيا وفى الدينِ
أبو الوليد ! وما أدراكَ من ملكٍ ! ... مستنصرٍ واثقٍ بالله مأمونِ
سلطانِ عدلٍ و بأسٍ غالبٍ وندًى ... وفضلِ تقوًى وأخلاقٍ ميامينِ
لله ماقد طواهُ الموتُ من شرفٍ ... وسِرُّ مجدٍ بهذا اللَّحدِ مدفونِ
ومن لسانٍ بذكر الله منطلقٍ ... ومن فؤادٍ بحبِّ الله مَشْكون
أمَّا الجهادُ فقد أحيي معالِمَهُ ... وقام منه بمفروضٍ ومَسْنون
فكم فتوحٍ له تُزهَى المنابرُ من ... عُجْبٍ بهنَّ وأوراقُ الدواوين
مجاهدٌ نال من فضلِ الشهادة ما ... يُجْبَى عليه بأجْر غيرِ ممنون
قضى كعثمانَ في الشهرِ الحرامِ ضُحًى ... وفاةَ مستشهدٍ في الدارِ مطعون
فى عارضَيْهِ غبارُ الغزْو تمسحُهُ ... في جنةِ الخلدِ أيدى حُورِها العِين
يُسْقى بها عينَ تَسْنيمٍ وقاتِلُهُ ... مُرَدَّدٌ بينَ زَقّوم وغِسْلين

تبكى البلادُ عليه والعبادُ معاً ... فالخلقُ ما بين إخوانٍ أفانين

لكنه حكمُ ربٍ لامردَّ له ... فأمرُه الجزمُ بينَ الكاف والنون

فرحمة الله ربِ العالمين على ... سلطانِ عدلٍ بهذا القبر مدفون

وعظمت فيه فجيعة المسلمين ، لما ثكلوا من جهاده وعزمه ، و بلَوْه من سعده وعزة نصره . فكثرت فيه المراثى ، وتراهقت فى شجوه القرائح ، و بكاه الغادى والرائح . فمن المراثى التى أنشدت على قبره قول كاتبه شيخنا أبى الحسن ابن الجياب:

أيا عَبرةَ العين امزجى الدمعَ بالدم ... و يا زفرةَ الحزْن احكمى وتحكّمى

و ياقلبُ ذب وجداً وغماً ولَوْعةً ... فان الأسى فرضٌ على كل مسلم

وقول كاتبه الوزير الأديب أبى عبد الله بن اللوشىّ :

بِرّدْ بنار الشوق منك غليلا ... فالمجد أضحى شاكياً وعليلا

منها — وهو غرض حسن — :

قلّدْتُ سيف الوجد فارسَ لوعتى ... أسفاً وأجريتُ الدموع خيولا

و بنيتُ أبيات الرثاءِ وقد رأت ... عينى بيوتَ المَكْرُمات طلولا

وقول كاتبه الفقيه القاضى أبى بكر بن شيرين :

عزّ العزاء فما الذى نبديه ... فى الحزن الا بعض ما نخفيه

يا أيها الغادى يَحُثّ قَلوصه ... إيهٍ عن الخبرَ المرَجّم إيه

أودى أميرُ المسلمين فكيف لا ... نأسى عليه ، وكيف لانبكيه ؟!

قد كان للاسلام عينَ بصيرةٍ ... فأصابت الاسلامَ عينٌ فيه

السلطان

محمد بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجى أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه - يكنى أبا عبد الله

حاله :

كان معدوداً من نبلاء الملوك وأبناء الملوك صرامة ، وعزة ، وشهامة ، وجمالا ، وخَصْلا ، عذب الشمائل ، حلواً ، لبقاً ، لوذعياً هشا ، سخيا . المثل المضروب فى الشجاعة المقتحمة حدّ التهوُّر ، حِلسَ ظهور الخيل ، افرس من جال على صهوة ، لاتقع العين ـ وان غصت الميادين ـ على أدرب بركض الجياد منـه ، مغرماً بالصيد ، عارفاً بسمات الشفار ، وشيات الخيل ، يحب الأدب ، و يرتاح الى الشعر ، و ينبّه على العيون ، ويلمّ بالنادرة الحارة

أخذت له البيعة يوم مهلك أبيه ، يوم الثلثاء السابع والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، وناله الحَجْبُ ، واشتملت عليه الكفالة إلى أن شدا وظهر ، وشب عن الطوق . وفتك بو زيره المتغلب على ملكه وهو غلام ، لم يُبقل خده ، فهيب شباه ، ورهبت سطوته ، و برز لمباشرة الميادين ، وارتياد المطارد ، واجتلاء الوجوه ، فكان ملء العيون والصدور .

ذكاؤه :

حدثنى ابن وزير جده ، القائم أبو القاسم بن محمد بن عيسى قال : تذوكر يوما بحضرته تباين قول المتنبى :

أيا خـدّدَ الله وردَ الخدود　　　وقدّ قدودَ الحسان القدود

وقول امرى القيس :

و إن كنت قد ساءتك منى خليقة　　　فسلّى ثيابى من ثيـابك تنسل

وقول ابراهيم بن سهل :

إنى له عن دمى المسفوك معتذر　　　أقول حمّلتُهُ من سفكه تعبا

فقال رحمه الله بديها ـــ على حداثته ـــ : « بينهم مابين نفس ملك عربى ، وشاعر عربى ، ونفس يهودى تحت الذمة ، و إنما تتنفس النفوس بقدر هممها » ، أو ما معناه هذا .

همته : —

لما نازل مدينة قبره ، ودخلها عنوة ، وهى ماهى عند المسلمين والنصارى من الشهرة والجلالة ، بادرنا نهنئه بما تسنّى له . فزوى عنا وجهه قائلا : « وماذا تهنونى به كأنكم رأيتم تلك الخرقة الكذا — يعنى العلم الكبير — فى منار إشبيلية ! » فعجبنا من بعد همته . ومرمى أمله .

الشجاعة :

أقسم أن يغير على باب مدينة بيانه فى عدة يسيرة من الفرسان . عينتها اليمين فوقع البهت ، وتُوقعت الفاقرة . لقرب الصريخ ومنعة الحوزة . وكثرة الحامية . ووفور الفرسان ، وتنخل أهل الحفاظ ، وهجم عليها فانتهى إلى بابها وحمل على أضعافه من الحامية فألجأهم إلى المدينة ، ورمى يومئذ أحد النصارى بمزراق محلى السنان ، رفيع القيمة فأثبته ، وتحامل الطعين يريد الباب ، فمنع من الاجهاز عليه ، وانتزاع الرمح الذى كان يجره خلفه وقال : « اتركوه يعالج به جرحه ، إن أخطأته المنية » فكان كما قال الشاعر فى مثله — أنشدناه أبو عبد الله بن الكاتب : —

ومن جودِه يرمى العداةَ بأسهمٍ   من الذهب الابريز صيغت نصولُها
يداوى بها المجروحُ منها جراحَه   ويتخذ الأكفانَ منها قتيلُها

جهاده ومناقبه :

نازل حصن قشرة لأول أمره ، وهد سوره ، وكاد يتغلب عليه ، لولا مدد دخله فارتحل وقد دوّخ الصقع

ونازل قبره وافتتحها ، وهزم جيش العدو الذى بيّت محلته بظاهرها . وتخلص جبل الفتح . وهى أعظم مناقبه ، وقد نازله الطاغية ، وأناخ عليه بكلكله . وهدّ بالمجانيق أسواره ، فدارى الطاغية ، واستنزل عزمه ، وتاحفه ، إلى أن صرفه عنه ، ففازت به قداح الاسلام .

بعض الاحداث :

وفى شهر محرم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة نشأت الوحشة بين وزيره المتغلّب على أمره محمد بن احمد المحروق ، و بين شيخ الغزاة عثمان بن أبى العُلى ، فصبّت على المسلمين شؤبوب فتنة ، عظم فيهم أثرها ، فخرج مغاضباً ، وهمّ للانصراف عن الاندلس ، ولحق بساحل المرية ، ثم داخل أهل حصن اندرش ، فدخل فى طاعته ، واستضاف إليه ما يجاوره ، فأعضل الداء ، وغامت سماء المحنة ، واستلحق المذكور عم السلطان من تلمسان محمد بن فرج بن اسماعيل ، فلحق به ، وقام بدعوته فى أخريات صفر من عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، وكانت بينهم و بين جيش الحضرة وقعات تناصفوا فيها الظفر . واغتنم الطاغية فتنة المسلمين ، فخرج غرة شعبان من العام ونازل ثغر و برة ركاب الجهاد ، فتغلب عليه ، واستولى على جملة من الحصون التى تجاوره فاتسع نطاق الضّر ، وأعيا داء الشر ، وصرفت إلى نظر السلطان ملك الغرب فى أخريات العام رُندة ، ومربلّة ، وما إليهما ، وأجلت الحال عن مهادنة عثمان بن أبى العُلى . وصرف المستدعى لدعوته إلى العدوة ، وعبر هذا الأمير رحمه الله البحر بنفسه مستصرخاً ومستدعياً للجهاد ، فى الرابع والعشرين من شهر ذى حجة عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ووفد على ملك السلطان الشهير أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق مستصرخا إياه ، فأعظم وفادته ، وأكرم نزله ، وأصحبه إلى الاندلس ولده ، وحباه بما لم يحب به ملك تقدّمه ، من مقربات الخيل ، وخطير الذخيرة ، ومستجاد العدة ، ونازل على أثره جبل الفتح ، وهيأ الله فتحه ، ثم استنقاذه بلحاق السلطان ، ومحاولة أمره ، فتم ذلك فى يوم الثلاثاء الثانى عشر من شهر ذى حجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة .

وزراء دولته :

وزر له وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود . وأخذ له البيعة . وهو مثخن بما أصابه

من الجراحات يوم الفتك بأبيه . ولم ينشب أن أجهزت عليه عدواها .

وتولى له الوزارة بعده وكيل أبيه محمد بن احمد بن محمد بن المحروق . من أهل غرناطة . يوم الاثنين غرة شهر رمضان عام خمسة وعشرين وسبعمائة . ثم قتل بأمره ثانى يوم من محرم فاتح عام تسعة وعشرين وسبعمائة .

ثم وزر له القائد محمد بن أبى بكر بن يحيى بن مول ، المعروف بالقيجاطى ، من وجوه الدولة ، إلى سابع عشر من شهر رجب من العام . ثم صُرف الى العدوة .

وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة مولى أبيه القائد أبو النعيم رضوان الشهير الديانة والسعادة إلى آخر مدته بعد أن التاث أمره لديه . وزاحمه بأحد المماليك يسمى عصاماً أياماً يسيرة بين يدى وفاته .

كتّابه :

كتب عنه كاتب أبيه وأخيه شيخنا الامام العلامة الصالح أبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله إلى آخر مدته

قضاته :

استمرت الاحكام لقاضى أبيه وأخى وزيره الشيخ الفقيه أبى بكر يحيى ابن مسعود المحاربى . رحمه الله . إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة . فتوجه رسولا إلى ملك المغرب . وأدركته الوفاة بمدينة سلا . فدفن بها بمقبرة شالة .

وتخلّف ولده أبا يحيى مسعوداً . نائباً عنه . فاستمرت له الاحكام ، واستقل بعده إلى أن صُرف عن القضاء يوم عاشوراء من عام أحد وثلاثين وسبعمائة .

وتولى الاحكام الشرعية شيخنا الامام العَلَم الأوحد . خاتمة الفقهاء . وصدر القضاة العلماء . أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الاشعرى المالقى . فاستمر له الحكم إلى تمام مدته . وصدراً من أيام أخيه بعده .

من كان على عهده من الملوك :

وأولاً بالمغرب : السلطان الشهير الكبير الجواد . ولى العافية . وحيلف السعادة

أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق إلى أن توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذى قعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة

ثم صار الأمر إلى ولده السلطان المقتفى سننه فى المجد والفضل وضخامة السلطان مبرًّا عليه بالبأس المرهوب ، والعزم الغالب ، والجد الذى لا يشو به هذل ، والاجتهاد الذى لاتتخلله راحة أبو الحسن ، إلى آخر مدته ، ثم مدة أيام أخيه بعده

و بتلمسان : الأمير عبد الرحمن بن موسى أبو تاشفين ، مشيّد القصور ، ومروّض الفروس ، ومتبنّك الترف ، إلى تمام مدته ، وصدراً من مدة أخيه بعده

و بتونس : الأمير أبو يحيى أبو بكر ابن الأمير أبى زكريا ابن الأمير أبى اسحق ، لبنة تمام القوم ، وصقر جوارح متأخريهم ، إلى تمام مدته ، وصدراً كبيراً من دولة أخيه

ومن ملوك النصارى * وأولا بقشتالة : الفونش بن هرانده بن شانجة ابن الفونش ابن هرانده ، الذى ملك على عهده الجفرتين القنيطيّة والتاكرونية واتصلت أيامه إلى أخريات أيام أخيه

و برغون : الفونش بن جايمش بن الفونش بن بيطره ابن الفونش بن بيطره بن جايمش ، المستولى على بلنسية إلى آخر مدته ، وصدراً من مدة أخيه

وفاته :

وتوغّرت عليه صدور رؤساء جنده المغاربة ، إذ كان شرهاً ، لسانه غير جزوع ولا هيابة ، فربما تكلم بملء فيه من الوعيد الذى لا يخفى عن المعتمد به . وفى ثانى يوم من اقلاع الطاغية عن جبل الفتح بسعيه وحسن محاولته — وهو يوم الأربعاء ثالث عشر من شهر ذى الحجة ، وقد عزم على ركوب البحر من ساحل منزله ، بموقع وادى السقايين — تماروا فى ظاهر الجبل تخفيفا للمؤنة ، واستعجالا للصدر ، وقد أخذت على حركته المراصد . فلما توسط كمين القوم ثاروا إليه وهو راكب بغلا ، أثابه به ملك الروم ، فشرعوا فى عتبه بكلام غليظ ، وتأنيب قبيح ، و بدأوا بوكيله فقتلوه ، وعجل بعضهم فطعنه ، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه زنمة من أخابث

المعلوجاء [١] ، اسمه زيان ، صونع على مباشرة الاجهاز عليه ، فقضى لحينه ، فى سفح الربوة المائلة ، يسرة العابر للوادى ، ممن يقصد الجبل ، وتركوه بالعراء مسلوب الساتر ، سىء المصرع ، قد عدَت عليه نعمه ، وأوبقه سلاحه ، وأسلمه أنصاره وحماته

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان يوسف ، صُرفت الوجوه إلى دار الملك ونقل القتيل إلى مالقة ، فدفن على حاله تلك ، برياض تجاور منية السيد فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى حجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة . وأقيمت عليه بُعيد زمان قبّة ، ونوّه بقبره ، وهو الآن ماثل بها رهن وحدة ، ومستدعى عبرة ، وعليه مكتوب :

هذا قبر السلطان الأجل ، الملك الهمام ، الأمضى الباسل ، الجواد ، ذى المجد الأثيل ، والملك الأصيل ، المقدس المرحوم ، أبى عبد الله ، محمد ابن السلطان الجليل الكبير الرفيع ، الأوحد المجاهد الهمام ، صاحب الفتوح المستورة ، والمغازى المشهورة ، سلالة أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ، أمير المسلمين ، وناصر الدين الشهيد المقدس ، المرحوم أبى الوليد بن فرج بن نصر ، قدس الله روحه ، وبرّد ضريحه . كان مولده فى الثامن لمحرم عام خمسة عشر وسبعمائة ، وبويع فى اليوم الذى استشهد فيه والده ، رضى الله عنه السادس والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، وتوفى فى الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، فسبحان من لا يموت

يا قبرَ سلطانِ الشجاعة والنَّدَى فرع الملوكِ الصيِّدِ أعلام الهُدَى
وسُلالة السَّلَفِ الذى آثارُه وَضّاحةٌ لمن اقتدَى ومَن اهتدَى
سلف الأنصار النبىّ نجارُه قد حلّ منه فى المكارمِ مَحْتِدا
متوسط البيت الذى قد أسستـه سادة الأملاك أوحدَ أوحدا
بيت بنوه محمّدون ثلاثة من آل نصر أورثوه محمّدا

---

(١) العلج بكسر فسكون القوى الضخم من العجم وجمعه علوج وأعلاج وعلجة واسم الجمع معلوجاء .

أودعتَ وجهاً قد تهلّل حسنُه بدراً بآفاق الجلالة قد بدا
وندًى يسحّ على العفاة مواهباً مثنى الأيادي السابغات وموحدا
يبكيك مذعورٌ، بك استعدَى على أعدائه فسقيتهم كأس الرّدى
يبكيك محتاج أتاك مؤملا فغدا وقد شفعت يداك له اليدا
أمّا سماحك فهو أهمى دِيمة أمّا جلالك فهو أسمى مصمدا
جادت ثراك من الاله سحائب لرضاه عنك تجود هذا المعهدا

وتبعت هذا السلطان نفوس أولى الحرية ، ممن له طبع رقيق ، وحس لطيف ووفاء كريم ، فصدر فيه من التأبين أقاويل للشجون مهيجة . فمن ذلك ما نظمه الشيخ القاضي أبو بكر بن شيرين ، وكان على ظرفه وحسن روائه غراب ندبة ، ونائحة مأتم ، يرثيه ، و يعرّض ببعض من حمل عليه من خدّامه :

استقلاّ ودَعاني طائفاً بين المغاني
وانعما بالصبر إنى لا أرى ما ترَيانِ
قُضى الأمر الذى فى شأنه تستفتيان
ومضى حكمُ إلهٍ ما له فى الملك ثان
مات يوم السلم قعصاً مِدْرَهُ الحرب العوان
واستُبيح المَلِكُ ابن الملكِ الحرّ الهجان
يا خليلىّ أعينا نى على شجو عنانى
واذكرا سابغة النعمة فيها تذكران
وإذا صلّيتما يو ماً عليه أذّنان
ما علمنا غير خيرٍ فاقضيا ما تقضيان
لا نبالى ما سمعنا من فلان وفلان
غيرَ ما قالوا اعتقدنا وعلينا شاهدان
وغداً يجمعنا المو قف من قاص ودان

ورِضَى الله هو المطـــلوب فى كل أوان
وأخو الصدق لعَمْرى ذو مقاماتٍ حِسان
وهوى النفس عناء حائل دون المعانى
وعلى البغضاء يُطْوَى وُدّ إخوان الخوان
بأبى والله أشــلا ء على الرمل حَوان
بفتى ما كان بالوا نى ولا بالمتوانى
يمزج الماء نجيعاً وينادى : علّلانى !
ليس بالهيّابة النكـــس ولا الغَمْر الهدان
أبيض الوجه تراه والرَّدَى أحمرُ قان
أىُّ سيف لِضراب أى رمح لطعان
ذو نِجار خزرجىّ الـــمنتمى سامى المكان
ذكره قد شاع فى الأر ض إلى أقصى عُمان
لا تراه الدهرَ إلا حِلف سَرج أو عنان
عن صهيل الخيل لا يُلـــهيه تعزاف القِيان
إن ألمّت هيعةٌ طا رَ إليها غير وان
يصدعُ الليلَ بقلبٍ ليـــس بالقلب الجبان
يا لها من نصبة لو لا نحوس فى القران
وشباب عاجلوه بالردى فى العنفوان
لم يجاوز من سنيه الـــعشرَ إلا بثمان
دوّخ الاقطار غزواً من هضاب ومحان
حكّموا فيه الظُّبى أســرع من لمح العيان
إن يكونوا غادروه فى الثرى ملقى الجران
تشرب الارض دماً منــــه تهاداه الغوانى

وتحيّيه بتسليم ثغور الأقحوان
فالمعالى أودعته بين سَحر ولَبان
وغوادى المزن يرضعن ثراه بلبان
ضاع صرح الثغر لما أغمد السيف اليمانى
وأعير الأسَدُ الورْ دُ القميصَ الأرجوانى
عاطيانى أكؤس الحز ن عليه عاطيانى
حمله دون صلاة للثرى مما شجاني
أوَ ما كانوا له يدْ عُون أعقابَ الأذان
لاتهينوه فما كا ن بأهل للهوان
عجبى والله من إبطان هذا الشنآن
أنا مذ غاب فبالسا لى فؤاداً ما أُرانى
وبحسبى دعوات أنا فيها ذو افتتان
بتّ أهديها اليه بعد ترتيل المثانى
ذاك جُهدى ، إنّ إحسا ن أبيه قد غذانى
فأنا الشيعة حقاً بفؤادى ولسانى
أفأنسى ذلك العهدَ وليس الغدرُ شانى
ويقال الرشح موجو د قديماً فى الاوانى
وعهود الناس شتّى من عجاف وسمان
وهى النعمة حقاً شكرها فى كل آن
اتئد يا فارس الخيل فغيرُ الله فان
والمعالى تطلب الثأ ر وتأتى بالأمانى
وهى الأرحام لا تنسى ولو بعد زمان
أنت من رحمة غفّا ر الخطايا فى ضمان

وهو يوفى الخصم إن شا ء وزاناً بوزان
والذى أفشى قبيحاً حظه عضُّ البنان
سلّم الله على من فيه ذو جهل لحانى
وجزاه بجهاد جاء منه ببيان
ربنا أنت خبير بخفيات الجَنان
ويداك الدهرَ فينا بالندى مبسوطتان
ومَجال العفو رحْبٌ والرضى غضُّ المجانى
فتغمّدنا برحمى وقبول وأمان
واجمع الشمل على أفضل حال فى الجِنان

واقتضت آراء القوم القائلة استرعاء عقد يتضمن ألفاظاً كانت تصدر عن السلطان قادحة فى العقد جاؤا بها إفكا وزورا ، ستُكتب شهادتهم و يُسألون .

ومن المعاني البديعة فى عكس الاغراض قوله :

عينُ بكى لميّت غادروه فى ثراه ملقًى وقد غدروه
دفنوه ولم يصلّ عليه أحد منهم ولا غسلوه
انما مات حين مات شهيدا فأقاموا رسما ولم يقصدوه

وسنترجم إن شاء الله هؤلاء الملوك ووزراءهم بأوسع من هذا عند الوصول إلى الكلام على غرناطة .

﴿ تم الجزء الثانى والحمد لله ﴾

فهرس مواضيع الجزء الثانى
من كتاب
الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

تم فهرس مواضيع الجزء الثانى

فهرس الاعلام

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب

الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية

رتبها الفقير اليه تعالى عثمان خليل

(خ)

(ق)

(ن)

(ابن)

بنو

(أبو)

《 تم فهرس الأعلام 》

فهرس الاماكن والبلاد

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية

رتبها الفقير إليه تعالى عثمان خليل

(ح)

(ش)

(ظ)

. . . . . .

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(ل)

(تم والحمد لله فهرس الأماكن والبلاد)

جدول إصلاح خطأ

الجزء الثانى من الحلل السندسية

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٥	المقرىء	المقرئ : وقد تكرر هذا كثيرا وصوابه وضع الهمزة فوق الألف المقصورة لا بجانبها
٤٨	٩	وهى جنينة	وهى مبنية
٤٨	١٠	عليها حسن	عليها حصن
٥٤	١٧	ثم قلت	قلت
٥٩	١١	Corigia	Corogia
٦٣	٨	وجهزه	جهزه
٦٨	٤	كورد	كاردل Cardel
٧١	٥	إل	الى
٧١	٢١	أبسن	آسِن
٧٩	٢٢	جَلَّة	جِلَّة
٨٠	٦	سيفوانه	سيغونزه
٨٠	١٤	Tarrlb	Torralbo
٨٠	١٤	Alamazun	Almazan
٨١	٣	كالهوة	كالاهرة
٨١	٤	خرسونه	طرسونه
٨١	٨	من من القرن	من القرن
٨٦		أديزه	أريزه
٨٧	٢٢	صدى	صدًا
٨٩	١٥	ووثوبه	وثوبه
٩٠	٨	وابو القلعى	وابن القلعى
٩٣	١	بييدره	بيبره
٩٣	١	خلالا	شلالا
٩٤	٢	يرول	ترول

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩٤	١٧	يعلو على ستة أمطار	يعلو ستة أمتار
١٠٩	٣	Maidits	Maudits
١٠٩	٦	Perdiu	Perdu
١٣٤	٦	واستمرت	استمرت
١٣٦	١٥	العجم	المعجم
١٥٣	١٨	مُقدّمة	مَقْدَمه
١٦٩	٢٣	بالميرته	بالمريه
١٧١	١١	فاجرة	ناجره
١٧٢	٢٣	الكتيب	المكتّب
١٨٠	٩	حيات	حياة
١٢٢	٢٢	ترجمت	ترجمة
١٩٢	٢٣	ملسكوا	ملكوا
١٩٧	١١	عُذملية	عُدْمُلّية
١٩٧	١٤	شرف الاندلس	شرق الأندلس
١٩٧	٢٤	ابو عميره	ابو عمر
١٩٩	٦	الاسبانيول	الاسبانيولى
٢٠٧	١١	سيمونت	بيمونث
٢٠٧	٢١	الذين	اللذين
٢١٧	١٨	ڤيش	ڤيك
٢٢٤	٤	(٢)	(١)
٢٣٦	٩	احواز رقة	احراز رقه
٢٣٦	١٢	بكتف	بكنف
٢٤٩	٢٠	انتقاض	انتفاض
٢٥٥	٦	المرور	الممرور
٢٦٧	٢٢	نافذة صغيرة	كوة صغيرة
٣٠٠	١٨	الهمة	البهمة
٣١٨	١٧	لقتلهم	لقلتهم

تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

ابن خلدون : هو حجة التاريخ العربى ، وإمام فلسفته ، وواضع علم الاجتماع الانسانى والعمران على غير مثال . أطلعته سماء تونس الخضراء سنة ثنتين وثلاثين وسبعمائة كوكباً متألق النور فى العالم العربى كله ، تفرد بعقليته ، وتوحد بعبقريته فطبع التاريخ العربى بطابع ثابت من عقله الحكيم ، وذوقه السليم ، فلم يكن فى شيءمن سنه أو لحقه من المؤرخين فى سرد التاريخ وقائع ، وروايته أعلاما ودولا وسنين ومواقع ؛ بل أرسل عليه من هديه ودقة خبرته وقوة تفكيره وسعة اطلاعه ، أشعة ساطعة تكشف عن دقائقه فى ثنايا المبالغة والابهام ،وتبين عن حقائقه فى أثناء الحوادث الجسام ،وتجرد هذه الحقائق من غواشيها ، ثم تجلوها ناصعة كأنه رآها وسايرها ، بل كأنه دارجها وعاصرها

مزية تلك ، بل مزايا مجتمعة ، بنى عليها ابن خلدون مقدمته ، ثم كتابه « العبر » فجاء مصدراً للتحقيقات العلمية للتاريخ ومرآة صافية تلوح فيها دول الاسلام كل دولة فى زمانها ، وكل أمة بأخيلة أعيانها ، وسياسة كل عصر بفنونها وأفنانها ، وتقلبها ودورانها

وقد كان كتاب « العبر » فى كل زمن حجة المؤرخين و بخاصة من الأوربيين الذين آمنوا بأنهم من المؤلف بازاء عقل جبار دقيق الوزن للحوادث ، دقيق التقدير للأقدار ، مستندا فى إثبات ما يثبت ونفى ما ينفى وتضعيف ما يضعف على أقيسة من التاريخ نفسه . فهم إليه يرجعون فى تحقيق بحوثهم العمرانية والاجتماعية والتاريخية ، وعليه يعولون فى تحقيق جغرافية الممالك والأقاليم ، وصغار المدن وكبارها .

طبعة ابن خلدون الجديدة : وقد كانت طبعته القديمة كما تشهد على نفسها بنفسها فائضة بصنوف من الهنات والهفوات ، مردها إلى عبث النساخ وجهالاتهم . ولكنا لحسن الحظ حصلنا

على صورة مضبوطة من نسخة بخط المؤلف نفسه وقد كان أهداها إلى سلطان المغرب فى عصره موقع الاهداء بإمضائه ، و بقيت منذ ذلك العهد مصونة فى خزانة الكتب القروية بفاس ؛ حتى أذنت لنا وزارة مولاى السلطان سيدى محمد ملك المغرب أعزه الله بالمراجعة عليها لطبعها وتعميم نفعها : ما عدا المجلد الأول فقد أخذنا نسخته عن مخطوطة الشنقيطى المحفوظة بدار الكتب المصرية ، ومما يجدر ذكره أننا عثرنا فيها على زيادة تبلغ نحو ٦٠ صفحة موقعها من الطبعة القديمة صفحة ٢٢ من المجلد الثالث .

فكان من هذا المجهود الشاق صورة كاملة نادرة المثال ، كما راجعناه على الأجزاء الموجودة من نسخة المرحوم أحمد تيمور باشا والمرحوم أحمد زكى باشا بدار الكتب :

ولم نشأ أن نطبع الطبعة الجديدة مكتفين بدقة التصحيح على نسخة المؤلف كما قدمنا ، بل أردنا أن يكون لهذه الطبعة مزايا على الطبعة القديمة أيسرها الدقة والتصحيح ، فوكلنا ذلك إلى لجنة علمية من الأستاذين الكبيرين السيدين محمد علال الفاسى ، وعبدالعزيز بن إدريس بالمغرب ، فعنيا بتصحيح الأصول وضبط الأعلام والتعليق عليها ، وتمييز مواضع البياض الموجودة بالأصل ، والاعتماد على مختلف المراجع العلمية فى التصحيح والتنقيح . و إلى أمير البيان ، وفخر كتاب العربية فى هذا الزمان ، الأمير شكيب أرسلان فعلق عليها أو فى تعليق خرجت به النسخة أصح صحة وأجل جمالا ، وأتم تماما . وبخاصة فى الجزء الشامل لمبدأ تاريخ الدولة العثمانية فقد أتى فى تعليقاته على هذا الجزء بمعلومات دقيقة كانت صدره خزانتها ، وعلمه الواسع جعبتها .

وقد تفضل حضرة الأستاذ الكبير أحمد أمين بك بكتابة مقدمة هذه الطبعة .

وقد امتازت هذه الطبعة بوضع عدة فهارس لها مرتبة على حروف الهجاء ، عنى بترتيبها وتنسيقها الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى افندى الموظف بدار الكتب المصرية

وستخرج هذه المجموعة من الكنوز التاريخية فى أربعة عشر جزءاً تباعاً كل جزء منها يقع فى قرابة ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط والورق المصقول .

<u>الاشتراك قبل الطبع و بعده</u> : وقد جعلنا قيمة الاشتراك فى كل جزء أثناء الطبع ، ولمدة وجيزة ١٥ قرشاً صاغا و ٤ قروش أجرة البريد ـ وأن يدفع المشترك ثمن الجزء التالى أيضا مقدما وكلما انتهى جزء يرسل ثمنه : وهكذا إلى آخر الكتاب يكون تحت يدنا ثمن جزء مقدما يرسل باسمنا بالمطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر تليفون ٥١٥٢٢

وقد باشرنا طبع «تعليقات» الأمير شكيب أرسلان على الجزء الأول فى مجلد مستقل فى نحو ٥٠٠ صفحة ، وكذلك باشرنا طبع الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون و سيصدر ان بعد شهر واحد إن شاء الله وسيكون ثمن كل جزء بعد الطبع عشرين قرشاً صاغاً وقد تم طبع الأول وهو الآن تحت طلب من يبتغيه تحريراً فى أول اكتوبر سنة ١٩٣٦ محمد المهدى الحبابى بوستة الغورية